الدكتور صالح زهر الدين

موســوعة
معــارك العــرب

(منذ الفتح العربي حتى عام 1968)

تقـديـم:

العماد الدكتور مصطفى طلاس
- وزير الدفاع السوري-

اللواء الركن رياض تقي الدين
- رئيس أركان الجيش اللبناني-

دار الندوة الجديدة

بيروت - الطبعة الأولى

2000م - 1420هـ

الـغلاف بـريـشـة

الفنان عجاج عراوي

دار الندوة الجديدة - بيروت
هاتف : ٠٣/٦٩٣١١٤

شكـر وتنـويـه

بكل احترام وتقدير أتوجّه بأسـمى عبارات الشـكر والإمتنـان إلـى معـالي الوزيـر الأسـتاذ وليد جنبلاط، وإلى كلّ من نـائب القـائد العـام للجيـش والقـوات المسلّحـة، نـائب رئيس مجلس الـوزراء، وزيـر الدفـاع فـي الجمهوريـة العربيـة السـوريـة سيادة العمـاد الدكتـور مصطـفى طـلاس، ورئيـس أركـان الجيـش اللبنـاني سيادة اللـواء الركـن رياض تقـي الدين، على الإهتمـام الكبيـر الـذي أبداه كلّ منهم تجاه هذه الموسـوعة اليتيمة في الوطن العربي، كما أنـوّه بالوقت الثمين والجهد الوافـي للإطـلاع عليهـا، وإبداء الرأي فيهـا، والملاحظـات القيّمـة التـي تنـاولتهـا.

تقديـــــــــــم

بقلم: العماد مصطفى طلاس
نائب القائد العام– نائب رئيس
مجلس الوزراء– وزير الدفاع

لا يسعني، بعد قراءة الفهرس وتصفح النماذج التي عرضت عليّ لبعض المعارك العربية من تاريخنا القديم والحديث، الا ان أشيد بهذا الجهد الكبير الذي بذله الأخ الدكتور صالح زهر الدين في انجاز هذا العمل الموسوعي عن معارك العرب بكل ما استلزمه ذلك من شجاعة وصبر وأناة، وما تطلبّه من بحث جاد وتمحيص دؤوب وارادة قوية يغذّيها احساس وطني مرهف ووجدان حيّ ووعي قوميّ عميق.

تشمل هذه الموسوعة، التي استغرق اعدادها عشر سنوات، 149 معركة منذ صدر الاسلام حتى النكبة الفلسطينية سنة 1948.

صحيح أن عددا كبيرا من هذه المعارك ورد ذكره أو تمت دراسته في كتيّبات خاصة أو موسوعات عسكرية أو دراسات تاريخية، الا أن مكتبتنا العربية تفتقر فعلاً الى مثل هذا العمل الذي جمع كل هذه المعارك في مرجع واحد، يمكن للباحثين الاستفادة منه دون اللجوء الى أكداس من الكتب والتنقيب بين آلاف الصفحات. كما تميّز عمل الدكتور صالح زهر الدين بإلقاء الضوء على معارك لم تنل قسطاً وافراً من الدراسة، كمعارك الأرك وأنوال والحرّاش وترهونة والزلاقة وغيرها...

ولعل أكثر ما لفت نظري لدى الكاتب هنا هي هذه الروح الوثّابة التي ترفض الاذعان أمام الإحباط في هذا الزمن العربي الرديء، فنشعر بالتمرّد على كل نزعة تشاؤمية أو انهزامية، ونلمس اعتزازاً قويا بالتراث، وشموخا عربيا أصيلا وعفويا دون أي تصنّع أو تكلّف، يحاول الارتفاع فوق الجراح (وما أكثرها مع الأسف) بالعودة الى تاريخنا المفعم بالنقاط المضيئة والصفحات المشرقة والأمجاد الخالدة.

الا أن هناك معارك كثيرة لم يرد ذكرها في هذه الموسوعة، كما خلت الدراسة في أحيان كثيرة من المخططات العسكرية التوضيحية، ومن الحديث عن طبيعة الأرض، وحجم القوات، والوسائط لدى الأطراف المتحاربة، لأن العمل الموسوعي هو عمل جماعي بالدرجة الأولى، ولا يمكن لفرد واحد، مهما بذل من جهد، أن ينهض بمثل هذه المهمة المعقّدة والخطيرة على الوجه الأمثل.

ولا بدّ من التنويه أخيرا بأن دراسة المعارك لا يمكن أن تتم عن طريق العودة الى التاريخ وحده، بل تتطلب علاوة على ذلك الماماً جيداً بالعلوم العسكرية ومبادئ الحرب والاستراتيجية والتكتيك وفنّ العمليات مع خبرة كافية في فنون القتال وتحليل المعارك واستخلاص الدروس المستفادة.

لكن فضل الدكتور صالح زهر الدين هنا يكمن في أنه تجرأ على التصدي لهذا المشروع الهام، وأقدم على هذه الخطوة الجبّارة، فمهّد السبيل أمام الأجهزة والهيئات والمؤسسات العربية المتخصّصة لكي تسارع الى استثمار هذه المبادرة الطيّبة، فتتبنّى مهمة كتابة التاريخ العسكري العربي التي تتطلبّ أقصى حدّ ممكن من تضافر الجهود وحشد الطاقات ومضاء العزيمة وصدق النيّة.

بمثل هذا العمل الهام والنبيل، نكون قد حافظنا على الماضي وسلّطنا الأضواء على الحاضر، علّنا نساهم في صنع مستقبل أفضل. والله من وراء القصد.

الشآم

ربيع العام 1994

تقديـــــــم

عندما طلب مني الصديق الشاب الدكتور صالح زهر الدين التقديم لكتابه القيّم " موسوعة معارك العرب " حاولت الاعتذار، لأن التقديم مسؤولية تقويم صادق يتوخى الدقة والشمولية بعد درسٍ متأنٍ يأخذ فيه المقدّم وقته ليخرج بحكمه، لأن التقويم بحد ذاته اتخاذ حكم مسؤول امام الكاتب ونصّه من جهة، وامام القارئ من جهة اخرى، وامام التاريخ من جهة ثالثة، واخيرا للمقدّم امام ضميره وفكره وموقعه.

لقد رأيت بأن تلك الفسحة من الوقت لقراءة النص والكتابة حوله تنقصني. فأنا بحكم موقعي كرئيس لأركان الجيش اللبناني أحتاج لكل دقيقة للقيام بواجبي لمساعدة العماد اميل لحود الذى يحمل على كاهله العبء الكبير في اعادة بناء الجيش وقيامه بواجباته الكثيرة، والتي تتسارع استحقاقاتها، وما من بديل للجيش اللبناني في أدائها للإسهام في قيامة لبنان. لقد تحققت المعجزة فعلا وانتفض الجيش اللبناني من رماده كطائر الفينيق، ليكون الطليعة والهيكل الأساسي الذى تبنى حوله الدولة اللبنانية وشرعيتها. ونحن كعسكريين نرعى هذا الانبعاث والتطور تلبية للمهمات الجسام التي تتسارع وتيرتها، نرعاه بشغاف القلب وأهداب العيون.

قلت اني حاولت الاعتذار تحسّساً بالمسؤولية ونصحت الدكتور صالح بأن يطلب من أحد الاقلام العسكرية اللامعة في العالم العربي كالعماد مصطفى طلاس (*) أو الفريق سعد الدين الشاذلي أو العميد الركن ياسين سويد أو الهيثم الايوبي، القيام بمهمة التقديم. ولكن وجدت في ردّه رغبة ولمحت في عينيه تمنّياً، صدرا عن تطلّع صديق لصديق، فقرّرت أن لا أردّه خائباً، عملاً بالمأثورة القائلة " الصديق وقت الضيق "، وان لا أجشمه مشقّات الانتقال والوقت ومختلف التعقيدات التي تتطلبها محاولة الطلب من كاتب عسكري آخر التقديم لهذه الموسوعة.

عرفت الدكتور صالح زهر الدين عصامياً بنى نفسه بنفسه، مثابراً لا يكلّ، عميق التفكير دقيق الملاحظة، صبوراً في البحث في بطون الكتب والمخطوطات، وهو متنوّع

المعارف، جريء في الإقدام على المشاريع الكبيرة، وهو رغم ظروفه وامكاناته المادية المتواضعة غزير الانتاج، قد يقتر على ضرورياته في سبيل الحصول على المعلومات وصوغها في كتاب يقدمه لقرائه.

ان الدكتور صالح زهر الدين في نظري كاتب ومؤرخ وسياسي في آن معا. فهو كاتب اثبت نفسه في اصدار مجموعة كتب قيمة سبقت الموسوعة التي نحن بصددها وهي:

- مخاطر الدور التركي في المنطقة العربية.
- ارمينيا والحصار (من وحي زيارتي لارمينيا).
- الاسلام والاستشراق.
- موسوعة " أسرار من التاريخ ".
- المنطقة العربية في ملف المخابرات الصهيونية .
- من تجارب الشعوب.
- الامير شكيب ارسلان: صفحات مثيرة من حياته وجهاده ضد الاستعمار والصهيونية.
- تاريخ المسلمين الموحدين " الدروز ".
- الأرمن شعب وقضية.
- الأرمن والعرب بين الطورانية والصهيونية إلخ...

ان إلقاء نظرة على عناوين الكتب التي أصدرها من دون الحاجة لقراءتها المفيدة والهامة حتماً، ان إلقاء هذه النظرة يفرض علينا الملاحظة بأن الدكتور صالح قد عالج مواضيع متنوعة انطلاقا من السيرة الفردية الى التأريخ الثقافي كموضوع الاستشراق الى المخابرات فتاريخ الفئات والشعوب، وكل ذلك يتّسم بطابعين: طابع التأريخ الناجح، ولذا قلت انه مؤرخ، وطابع الموقف من القضية، فمواضيعه عامة تدور حول العدالة وإنصاف المغبون أكان ذلك تاريخيا او اجتماعيا او انسانيا. يضاف الى ذلك موقفه المنحاز الى العروبة والاسلام، وهذا ظاهر في غالبية كتاباته حتى في الموسوعة نفسها التي نحن بصدد تقديمها، وهو منحاز كأنّي به يحمل التراث على كاهله، ووزر الزمن العربي الرديء في قلبه، ولا يكلّ في الدفاع عن الاسلام والعروبة، ولهذا السبب صنفته

بالسياسي.

والآن فلننتقل الى الكتابة عن الموسوعة نفسها فلاحظ الامور التالية:

أ - ان الموسوعة تتألف من دراسة نحو مئة وخمسين معركة عسكرية، تمتد منذ بداية التاريخ الاسلامي حتى احداث فلسطين عام 48 ضمناً، ولم تشذّ عن القاعدة الا معركتا " زاما (* *) " التي قادها هنيبعل، " وذي قار " التي قادها هاني بن مسعود ضد الفرس، كونهما خارج الزمن الاسلامي.

ب - ان دراسة المعارك العسكرية في نظري تتم عبر الخطوات التالية:

- درس المقدمات.
- الموقف قبيل نشوب المعركة.
- خطة كل من الخصمين مع حسنات وسيئات كل خطة.
- وصف مراحل المعركة بحد ذاتها.
- الخلاصة وتحديد النتائج العسكرية والسياسية والاقتصادية. الخ...
- المبادىء العسكرية المطبقة والدروس المستقاة.
- ارفاق النص بخطائط ورسوم توضيحية.

في الحقيقة ان الدكتور صالح لم يتبع في معالجته للموضوع هذا النهج ولكنه في المعارك المفصلية الهامة اجاد وافاض متطرقا لهذه الفقرات بشكل او بآخر من خلال اسلوبه التأريخي الممتع فاوفى المطلوب حقه في غالب الاحيان. يبقى انه لم يقارن خطط الخصوم دائما للخروج بالحسنات والسيئات والدروس العسكرية المستقاة، وقد كان من المفضل ان يرفق بكل معركة خطائطها. ان هذا لم يمنع الدكتور صالح من استنتاج المبادئ العسكرية الهامة التي طبقت في كل معركة حتى انه حاول احيانا ان يفكر بألمعية للخروج بمبادئ جديدة غير متداولة في عالم عسكرية هذا العصر. وهذا لم تقتصر معالجته على إجادة الكتابة عن المعارك المشهودة، لكنه نقّب وأظهر اهمية معارك بقيت اسماؤها مغمورة ولم ينصفها التاريخ، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر: معركة الأرك- معركة الزلاقة- معركة قصر العظم- معركة أنوال- معركة جلولاء- معركة الحرّاش- معركة ترهونة- معركة الزلاّج...

جـ – قد يستغرب القارئ كيف ان المؤلف لـم يعـالج جميـع المعـارك التـي تطـرق اليهـا بنفـس الاسـتفاضـة والشـمولية، فتراه يوجز في بعضهـا كمعركـة ابـي نـجيم ومعركـة ابي قير ومعركة غدامس ومعركة الاقحوانة، لكن استغرابه يزول عندما يعلـم بـان الكـاتب قد تألم كثيرا ليجمع المعلومات اللازمة عن هذه المعارك. ولكن الافتقار الى المراجع وقف في وجهه كباب موصد، لم يتمكن من فتحه ففضل تقديم ما توفر لديه على عدم ذكره، وانا اؤيده في ذلك، فقد يلفت بعمله هذا مؤرخا آخر ويكون له الحافز للتنقيب من جديـد فيـؤدي بذلك خدمة جليلة.

د – قد يتبـادر الـى ذهـن القـارئ تسـاؤل حـول عـدم تطـرق الكـاتـب الـى جميع المعـارك العربيـة فـي كـل العصـور والتركـيز علـى معـارك شـمالي افريقيـا وفلسطين، سيما وانه فـي صـدد اصـدار موسـوعة. والجـواب علـى ذلـك هـو فـي الامـور التالية:

- ان موسوعة كهذه لا يمكن ان ينجزها فرد واحـد مهمـا عـلا كعبـه فـي المعارف والعلوم.
- لـقـد جمـع المـؤرخ تـشـكيلـة كـبيـرة مـن المعـارك شملت فسـحة زمنيـة محترمـة، وامتدت علـى رقعـة جغرافيـة واسـعة بـدأت بـالحدود الـفـرنـسيـة الاسـبـانيـة وانـتـهت علـى حـدود الصيـن مـارة بـشـمـالـي افريقيا والمشرق العربي. كما جاءت على ذكر عدّة عينـات مـن المعـارك كبيرها وصغيرهـا وضد جهات عـدة، بمـا فـي ذلـك عيّنـة مـن المعـارك البحريـة كمعركـة ذات الصـواري ومعركـة الاسـكندرية وهـذا امـر قيـّم ومشكور.
- ان بروز أمر التركيز على شمالي افريقيـا وفلسـطين مـردّه فـي نظـري الى زيارة المؤلف لشمالي افريقيا وبالتالي توفر المراجع لديـه، بالاضافـة الـى المستندات الهامـة التـي تؤمنهـا مؤسسـات الدراسـات فـي منظمـة التحرير الفلسطينية عن المعارك في فلسطين.

هـ – يخيل إليّ ان الدكتور صالح قد جاء على ذكر بعض المعارك الصغيرة في فلسطين التي قد لا تحتاج الموسوعة الى التفصيل على مستواها لقضاء الاهالي على كمين مسلح يهودي مؤلف من عشرين رجلا في معركة الماصيون او سحب جيش الانقاذ لمخفر مؤلف من عشرين رجلا من النبي يوشع، بعد تعرضه لهجمات يهودية عدة لا يتعدى مستواها السريّة.

ان التخطيط لكتابة موسوعة عسكرية في نظري يجب ان يبقى على مستويات عالية من المعارك تدخل في المجال الستراتيجي او العملياتي، ولا توغل في التفصيلات الدنيا، والمهم في الموضوع النتائج التي تسفر عنها المعركة ومدى تأثيرها على الوضع الحاضر والمستقبل.

و – لقد عالج الدكتور صالح معركة مقبرة الزلاج بشكل رائع وشمولية عالية وتفصيل مشوق واستقى شخصيا معلوماته من اناس شاركوا بالحدث كما زار الموقع. ولكن هذا الحدث في نظري يجب ان لا يصنف في مراتب المعارك العسكرية بل في نطاق حفظ الامن، رغم انه وقع بين مستعمر غاشم مسلح وشعب مغلوب على أمره، لأنه في ذلك الموقع لم يتواجه جيشان وسلاحان بل تمت المواجهة بين جيش مسلح وشعب اعزل. ان هذه الحادثة تصلح لأن تكون من المقدمات أو الأجواء المناخية المهيئة للمعارك.

ز – ان الموقف الذي تحدثنا عنه سابقا تراه في قسم من مقوّمات المعارك وخواتمها حين يسمو الكاتب من مستوى البرودة والجماد الموضوعي الى مستوى الشفافية الانسانية التي تعتز بالتراث فتأخذ موقف الدفاع المشروع عن النفس، لأن نفس المؤلف تتماهى مع فريق من طرفي المعركة وان فصل بينهما الزمن والجغرافيا. ولا بد لي هنا من المسارعة الى الشهادة بان الدكتور صالح لم يخرج بذلك عن الموضوعية ابداً بل كتب بعاطفة تجلّت بالاعتزاز بالأهل والعشيرة والعروبة والاسلام حيال الانتصار، وامتزجت

بالالم والحسرة ومحاولة معرفة الاسباب التخفيفية امام الهزائم وذلك باصرار كصاحب قضية يرعى قضيته.

لذا فاني اصنف الدكتور صالح زهر الدين سياسياً بالفطرة ملتزما بالعروبة والاسلام، والتزامه ثابت لا يحول ولا يتغير مع الظروف والأهواء، يحكمه عامل العدالة والانحياز الى المغبون والضعيف.

قد يشكل الموقف هذا ثغرة في موقع الدكتور صالح زهر الدين كمؤرخ في نظر البعض، ولكننا في عالمنا العربي ما احوجنا الى امثال الدكتور صالح لنفض الغبار عن تراثنا والتنقيب عن خفاياه ليعود اليه لمعانه وبريقه وتعود الينا الثقة بأنفسنا، لأن الاهمال والنسيان ليسا جريمة بحق العرب انفسهم فحسب بل بحق الانسانية وحضارتها جمعاء.

هذه الافكار التي دارت في خاطري لدى قراءتي للمخطوطة والتي دونتها آنفاً لا تحط من قدر الموسوعة في نظري، بل تأتي تأكيدا للتقريظ الذى يجب تدوينه ازاءها. فرغم غنى التاريخ العربي بالبطولات وبالقيم العسكرية اكان ذلك قبل الاسلام او بعده لم يخرج العرب اية موسوعة عسكرية عربية يمكن ان يلجأ اليها الدارس العسكري العربي ليستقي من ينابيعه ويستمد من تراثه. فالمستقبل امتداد للماضي وثمرة للحاضر، فمن لا يعرف ماضيه لا مستقبل له.

ونحن كعسكريين عرب في هذا الجيل نلمس ان في ثقافتنا العسكرية التي طغى عليها الفكر الغربي ثغرة واسعة تفصلنا عن الجذور والتراث سببها قلة المستندات التراثية او صعوبة الوصول اليها وهي فجوة علينا ردمها اذا اردنا مماشاة العصر.

ان ما تصدى له الدكتور صالح زهر الدين بشجاعة هو عمل دولة او مؤسسة كبرى كالجامعة العربية. لقد لاحظ هذه الثغرة فأقدم غير هيّاب عاملا مدة عشر سنوات ليخرج بهذه الموسوعة التي تفتقر اليها المكتبة العربية ويفتقدها العسكريون العرب خاصة. اضف الى ذلك انه كمؤرخ عمد الى زيارة عدة أماكن من اراضي معاركه باحثا مستطلعا، كما قابل بعض من شهد المعارك وحاوره، وهذا لعمري منتهى الدقة والمنهجية في التقميش والتحضير للكتابة.

اخيرا ان الدكتور صالح زهر الدين لم يخرج عن تواضعه كعادته رغم أهمية السّفرْ الذى خطه قلمه وأهمية الحاجة الماسة اليه فكتب في مقدمته " بأن حسبَه بأنه أضاء شمعة ". انه في الواقع لم يضئ شمعة بل سجّل فتحا مُسْتَصْرِخاً همم الدول والمؤسسات العربية لتلبّي نداء الحاجة فتبحث وتنقب من خلال جهاز متكامل، وتكتب التاريخ العسكري العربي كله بأمانة علمية بعيدة عن العاطفة. وبذلك ندوّن الماضي وندرس عبره لنتأكد انه سيكون لنا مستقبل بحجم الآمال وأيامنا الماضية الزاهرة.

اليرزة في 1993/10/20
العميد الركن رياض تقي الدين
رئيس اركان الجيش اللبناني (***)

(*) تحقّقت الرغبة فعلاً عندما تمّ الاتصال بسيادة العماد مصطفى طلاس، وموافقته على " التقديم " للموسوعة بعد الاطلاع عليها. ويعود الفضل في ذلك إلى معالي الوزير الاستاذ وليد جنبلاط الذى أمّن لنا الموعد واللقاء. (ص.ز.)

(**) آثرت حذف هذه المعركة من الموسوعة بعد استشارة عدد من المؤرخين والباحثين العسكريين، لبعدها عن واقع العرب و هويتهم.

(***) عندما كتب رئيس أركان الجيش اللبناني هذه المقدمة كان برتبة عميد ركن، أما اليوم فإنه أصبح برتبة لواء ركن.

مقــدّمة

" موســـوعة معـارك العــرب

*   *   *

مقـدّمة المـؤلف

*　　*　　*　　*

يقول أحد الكتّاب: إذا طُلِبَ من إنسانٍ أن يعرّف عن نفسه، فإنه يقدّم بطاقة هويتـه الشخصية، أو جواز سفرٍ، أو إخراج قيد، أو ما شابه. وإذا طُلِـب مـن أمّـةٍ أن تعـرّف عـن نفسها، فانها تقدّم علماءهـا ومؤرخيهـا ومهندسيها وأطباءهـا وفنّانيهـا وأبطالهـا وعباقرتهـا ومخترعيها وكتّابها ومثقفيها، بطاقة هوية لها. في هذا الاطار، يأتي هذا العمل الموسـوعي " **موسوعة معارك العرب** " ليدلي بشهادة صادقة في محكمة التاريخ لصالح الأمـة العربيـة من خلال بعض من نمـاذج أصالتهـا وعراقتهـا وحضارتهـا وتاريخهـا وتراثهـا فـي ميدان المعارك التي خاضها أبناؤها القادة والأفراد، الضباط والجنود معاً...

والواقع أن هذه الموسوعة هي " **مشروع عشر سنوات** " كنت قد باشـرت بـإعداده منذ سنة 1982، بعد نقاش مع بعض الأصدقاء الذين هدّتهم الهزائم وزعزعت الكثير مـن قناعـاتهم التـي كـانوا يعتبرونهـا مسلّمات عندهم، واصبحـت نظرتهـم الـى العـرب نظــرة تشـاؤمية، مرتكـزة الـى حالـة التشـرذم والتفكك والتفتّت والقمـع، فضـلاً عـن سلسلة مــن الهزائم، فعلت فعلها في كثير من العقول كما في النفوس.

وبالرغم من حرارة النقاشات معهم، والعودة بهم الـى التـاريخ العربـي والاسـلامي من الجـذور والاصـول، والتطـرّق الـى بعـض المـآثر والانتصـارات، والأسـماء والرمـوز والمواقع، إضافة إلى عيّنات من التراث والحضارة، وتأثيـ هـا فـي الغـرب وفضلهـا عليـه، بقي التشاؤم عندهـم سيّد الموقـف والنظـرة. فراودتنـي منـذ ذاك الوقـت فكـرة إعـداد هـذه الموسوعة، وأصبحت تختمر في رأسي يوماً بعد يوم، إلى الحدّ الذي أصبحت أشعر فيه بــ " قدسيّة الفرض " إزاء هذه القضية، خصوصاً بعد أن فتّشت في كثيرٍ من بطون المكتبـات الكبيرة والصغيرة، فأيقنت بعدها أن المكتبة العربية تفتقر إلى سفرٍ من هذا النوع، ولم أجـد كتاباً يفي بالغرض المطلوب، مع العلم أن كتباً مختلفة حصرت بحثها في معركة واحدة أو في عدة معارك، وفي معظمها كانت المعارك ذاتها، عالجتها بكل تفاصيلها وجزئياتها، في

حين أغفلت معارك كثيرة وهامة، حتى في أية إشارة إليها، كما لم يرد أيّ ذكرٍ لها في " الموسوعة العسكرية " ولا في الكتب المعتمدة كأرصدة أو مراجع في الجامعات العربية في موضوع التاريخ العربي، فوجدت لزاماً عليّ سدّ هذه الثغرة في كتاب واحد جامع وشامل. كما بدأ يساورني الخوف والقلق – أمام ما وصلت اليه حال العرب اليوم – من أن يلجأ أعداؤنا أنفسهم إلى كتابة تاريخنا بالشكل الذي يريدونه، لا كما هو، أو يكلّفوا بذلك بعض " تلاميذهم الأوفياء " من خرّيجي جامعاتهم ومعاهدهم، أولئك الذين تشرّبوا عقلية الغرب وفعل فيهم " الغزو الفكري والثقافي " أو " التطبيع "، فعله، فيأتي تاريخنا المكتوب على أيديهم تاريخاً ممسوخاً مشوّهاً لا مكان فيه إلا لهزائمنا وانكساراتنا وحالات إذلالنا... فيجرّعونه لأجيالنا جرعة جرعة.. وبالمقابل، يصوّر الغرب أن عظماء القادة في التاريخ هم غربيّون فقط، فيُغْرِق مكتباتنا بسيلٍ من كتب المشاهير منهم، ويفرض اعتماد بعضها كمقرّرات في مدارسنا وجامعاتنا ومعاهدنا، فيغدو بعدها طلابنا العرب لا يعرفون من القادة والعظماء إلا أسماء الأجانب فقط، كما يغدو تاريخنا خالياً من البطولة والأبطال، أو على الأصح، نغدو بلا تاريخ...

والحقيقة، أن القائد العظيم لا يقتصر تاريخه على دنياه، ولا على عصره فقط، والبطولة – كما العبقرية – دائماً تتجاوز حدود الزمن والحدود القومية وتتخطّاها، وتنشر ألويتها فوق أرضٍ لم تكن في الحسبان، كما تزرع احترام أصحابها في نفوسٍ لا تعرف العنصرية والتمييز العرقي، انطلاقاً من انسانية الانسان ووحدة الانسانية.

من هذا القبيل، نفهم بطولة خالد بن الوليد وصلاح الدين الايوبي وغيرهما من أفذاذ العرب والمسلمين في ميدان المعارك، كما في باقي الميادين. ان أمثال هؤلاء القادة – الرموز، حاضرون في شعبهم وأمّتهم في كل عصر، ولهم شرف كبير أنهم لم يموتوا برصاصات " **كاتم للصوت** " كما هو في حالنا اليوم، ومهما حاول مفبركو سياسة " كاتم الصوت " أن يكمّوا الأفواه، ويكبّلوا الأيدي، ويغسلوا الأدمغة، فلن يتمكنوا من أن يسلخوا حبّ الوطنيين والعروبيين لقادتهم التاريخيين على اختلافهم، ذلك لأنه كما يقال: قد تستطيع القوة أن ترغم إنساناً على ترك وطنه وسلخه عنه، وأن تقلع مواطناً من بيته وأرضه، لكن هذه القوة تعجز عن أن تسلخ من القلب والعقل حبّ هذا الانسان لبيته وأرضه والوطن...

فلكل عصر رجاله، ولكل عصر سلاحه.. كما لكل أمة رجالها وتاريخها وعباقرتها. وهذا هو حال أمتنا العربية العريقة والأصيلة بتاريخها وحضارتها ورجالها.

وقد يخطئ من يظن أن تاريخنا العربي والاسلامي هو تاريخ الهزائم الدائمة والانكسارات المتتالية، ويخطئ من يظن أن العرب والمسلمين مهزومون تاريخياً على الدوام. فبالعكس، ان تاريخنا هو تاريخ مشرق مليء بالانتصارات والعزّة والكرامة، وحافل بالمآثر أكثر منه بالانكسارات والهزائم... وليس هناك من أمّةٍ في التاريخ كانت منتصرة باستمرار، كما لا يعرف التاريخ أيضاً أمةً بدأ سجلّها بالهزيمة وانتهى بالهزيمة، دون أن تسجّل صفحة بطولة ونصر في صفحاته، ولو واحدة...

ومهما حاول الغرب الاستعماري، ومعه العدو الصهيوني اليوم، أن يشوّه تاريخنا الزاخر بالمآثر، ويطمس تراثنا وحضارتنا، ويجري عملية " غسل دماغ " للكثيرين من أبناء العرب والمسلمين، فانه لم ينجح في محو ذاكرتنا من الوجود، وبالتالي استئصالها وإبادتها، خصوصاً في هذه المرحلة التي ينتشي فيها الغربيّون بحلاوة الانتصار على تفكّك العرب وتمزّقهم.

ومهما حاول هؤلاء تلميع صورة قوادهم وعباقرتهم لتبهر أبصارنا، فستبقى صورة قادتنا وعباقرتنا العرب والمسلمين على طبيعتها دون أيّ رتوش أو ماكياج. كما سنبقى فخورين دائماً بتاريخنا وتراثنا وحضارتنا وقادتنا التاريخيين على اختلافهم في حقل الوطنية والعروبة والاسلام، مهما فرض علينا الأعداء كافة صنوف التعتيم والظلامية. ومهما مجّد الأعداء معاركهم وأبطالهم، ستبقى لنا معاركنا وأبطالنا نحن في هذا المضمار.. واليوم تأخذ معركتنا مع المستعمرين والصهاينة طابعاً ثقافياً وحضارياً أولاً أكثر من أي شيء آخر، واكثر من أية مرحلة سابقة، فضلاً عن الأساليب الأخرى.

فكثيرون من قادتنا يفوقون مئات المرات الكثيرين من قادة الغرب الاستعماري حكمةً وحنكةً ودرايةً وتخطيطاً ونبوغاً وعبقرية، مهما حاول الإعلام الغربي والصهيوني إضفاء طابع الأسطورة على قادتهم، والتقليل من عبقرية وشهرة قادتنا، وذلك عبر حربٍ أخطر بكثير من حرب الجيوش والمدافع والطائرات، وهي " الحرب النفسية ". وكم هو مهم هنا أن نستذكر ما كان يردّده الأمير شكيب أرسلان دوماً بقوله: " إذا أردت أن تقتل إنساناً لا تطلق عليه رصاصة، بل أطلقْ عليه إشاعة "... ومن يمتلك فنّ الدعاية والإعلام

يصبح بمقدوره أن يسيطر على المسرح، ويفبرك من الشائعات ما يحلو له ويخدم مشروعه، والتربة العربية خصبة ولا شك، لتقبّل مثل هذا البذار... والجدير بالذكر أن ما يقوم به الغرب اليوم لا يحمل إلا سمة واحدة ضدّنا والمتمثلة بعملية " **ثأر تاريخي** " تحت شعار الديمقراطية، والدفاع عن حقوق الانسان والشعوب... لكننا نؤكد بالمقابل أن التسلّط الغربي والصهيوني لن يكون أبدياً، كما انه لن يسود، مدى الدهر، حقّ القوة الغربي والصهيوني الطاغي على قوة الحق العربي... وطبيعي أن يمثّل الثأر التاريخي استجابة لحقد تاريخي متأصل في نفوس أولئك الغربيين والصهيونيين.

انها، في الواقع، حقيقة الصورة البغيضة للاستعمار والصهيونية، التي عشنا – ولا نزال نعيش – مآسيها وافرازاتها. لكن هذه الصورة على بشاعتها، لن تقدر على طمس الصورة المجيدة لكفاح شعبنا، وتحدّيه الدائم لكل أساليب المحتلّين وأدواتهم وأهدافهم المتمثلة بخنق حريتنا، واغتصاب أرضنا وكرامتنا، وحرماننا من كل ثرواتنا وخيراتنا، وصولاً لإذلالنا، وبالتالي محونا من خارطة الوجود البشري، ذلك " لأن العربي الجيّد بنظرهم هو العربي الميت ". وإن تغيّر الزمن وتبدّلت الأساليب والوسائل، يبقى الهدف الاستعماري الصهيوني على حاله دون أيّ تغيّر أو تبدّل، مما يستلزم بالمقابل أن يبقى إيماننا بوجودنا وكرامتنا وحقّنا في العيش على أرضنا، والتمتّع بخيراتها وثرواتها، مبدأً ثابتاً نستبسل في الدفاع عنه مهما غلت التضحيات... ولقد علمتنا التجارب الماضية أن عهود المستعمرين قصاصات من الورق ليس لها أيّ ثمن... وما دام الشّك بالمستعمرين وحلفائهم قائماً، فمن حقّنا أن لا نثق بهم، ولا بعهودهم...

أمام ذلك، يصبح من أولى واجباتنا أن نتّعظ من التاريخ ومن دروسه... واذا كان الرئيس الأميركي جورج بوش قد دعا في افتتاح مؤتمر مدريد للسلام عام 1991 " ألاّ يكون التاريخ سيّد الانسان "، فانه يدرك معنى كلامه بالضبط الموجّه إلى العرب، لأن هذا الكلام لا يحمل إلا تفسيراً واحداً، يتمحور حول إبادة التاريخ العربي المشرق، والحضارة العربية، والمستقبل العربي، بموافقة العرب أنفسهم في مؤتمر يحمل اسم " السلام " ذلك لأن تاريخ العرب العسكري تحديداً، هو ألمع صفحة في تاريخهم العام، بل في تاريخ الحروب كلها...

والواقع، ان أحداث التاريخ لا يمكن لها أن تموت، فهي تقبض على الحاضر بيد من حديد، وما حدث في الماضي لمخلّف أثره في أجيال قادمة... في حياة الناس وعقولهم.. ومن جهتنا نؤكد أن " لا تاريخ بلا إنسان، ولا إنسان بلا تاريخ "، وبما أن تاريخنا العربي والاسلامي تاريخ يزخر بالاشراق والبطولة، فليس بامكاننا التخلّي عنه، لقناعتنا أن من يتخلى عن تاريخه، يتخلى عن اصله، ولسنا من الذين يقبلون الاستمرار بحياة ذليلة، بدون تاريخ وبدون أصل. والقفز فوق التاريخ هو بمثابة " عملية خردقة " للذاكرة العربية، إنْ لم تكن الإبادة نفسها لها وللتاريخ والحضارة والتراث والمستقبل.. وهذا ما نرفضه على الاطلاق...

في هذا الإطار، نجد أنفسنا بحاجة الى الإستشهاد بما ذكره القديس الفيلسوف توما الاكويني: " ان استدراك المستقبل يقوم، كالحذر، على الظروف الحاضرة والخبرة الماضية. انه لعمل عقلي محض لأنه لم يعط سوى للعقل وحده امكانية القيام بالمقارنات وتقدير أهميتها.. إن كل نداء الى الماضي هو نداء حار الى المستقبل ". كذلك قال نابوليون: " يا بنيّ، طالع التاريخ، وتأمّل فيه أحياناً، انه الفلسفة الوحيدة الحقّة، واقرأ قصص الحروب وتأمّل فيها. تلك هي الوسيلة الوحيدة لتعلّم الحرب ". وفي موضع آخر قال نابوليون: " ان العرب فتحوا نصف الدنيا في نصف قرن ". أما بوسييه، فانه قال بدوره (وكأنه يرد على بوش نفسه): " عندما يصبح التاريخ غير نافع لبقية الرجال، فيقتضي حينذاك أن ينكبّ الملوك على قراءته ". كذلك أكد جواهر لال نهرو: " أن قصة انتشار العرب في آسيا وأوروبا وافريقيا، والحضارة الراقية والمدنيّة الزاهرة التي قدّموها للعالم هي أعجوبات التاريخ ". ويكاد يكون مستحيلاً أن يفهم الناس كيف تمّ للعرب مثل ذلك.. إنه النبأ الأعجب الذي دوّن في تاريخ الإنسانية – كما يقول الدكتور ماكس مايرهوف مؤلف كتاب " العالم الاسلامي " –. كل هذا يدل على حقيقة واحدة مفادها أن موجة الفتح العربي لم يسبق لها مثيل في التاريخ... وقد فتح العرب بالفعل في ثمانين سنة أكثر مما فتح الرومان في ثمانمائة سنة... ولم يكن ليتم ذلك بالطبع لو لم يتوفر للعرب والمسلمين قيادة حكيمة واعية ومخططة، لم تتحكّم فيها نزعة " الأنا " الفردية، ولا كانت الشهرة هدفاً شخصياً لها، بل كانت تخوض المعارك على أساس مبادئ سامية ومزايا

نبيلة، قلّما توفّرت في قيادة واحدة من جيوش الغرب حتى أيامنا هذه. والفرق كبير حتماً بين العهر السياسي والعسكري وبين الالتزام بسمّو المبادئ وقدسيتها. من هنا تبدو معاركنا التاريخية العربية والاسلامية جديرة بالدراسة، لأن في دراستها عبراً ودروساً تذكرنا بماضينا الأصيل وعظمة أمتنا العربية، وتعلمنا دروساً في التضحية والشجاعة والإقدام والصبر والايمان بالعقيدة، وتأثير المعنويات العالية والقيادة الجيدة في إحراز النصر. كما أن دراستها تعطينا فكرة عن فنّ الحرب الذي برع فيه أجدادنا أساتذة كبارا، كذلك في مبادئ الحرب المعروفة في الوقت الحاضر، والتي جيّرها بعض قادة الغرب لمصلحتهم، واعتبروها من اختراعهم وصناعتهم، للدلالة على نبوغهم وعبقريتهم، مع العلم أنهم اقتبسوها عن قادتنا ويجهدون في طمس الفضل العربي والاسلامي عليهم في ذلك.

إزاء هذا كله، انصبّ اهتمامي، وأصبح نوعاً من الهاجس أو الكابوس الذي يثقل صدري باستمرار، وقلّما كنت أزور دولة عربية أو أجنبية إلا وأكرّس وقتاً لا بأس به للتفتيش عن كتب أو مجلات تتناول إحدى معارك العرب، أو تشير إلى بعضها، فأشتريها. وقد تمكّنت بالفعل من الحصول على عشرات المراجع التي وجدتها في سوريا والأردن وليبيا وتونس والجزائر والمغرب ولبنان وفرنسا واسبانيا وإيطاليا، فضلاً عن الخدمات الكبيرة التي قدّمها لي مسؤولو مكتبة عبد الحميد شومان في الأردن، خاصة د. أسعد عبد الرحمن (المدير العام)، ومكتبة مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي في ليبيا، خاصة د. حبيب وداعة الحسناوي، (وكيل المركز)، ومكتبة الأسد الوطنية في دمشق، من خلال الاستاذ خالد الريّان (مدير المخطوطات والكتب النادرة)، والمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم في جامعة الدول العربية في تونس، من خلال الاستاذ الحكم دروزة، بالاضافة الى مساعدة الأخوة القيّمين على المركز الوطني للمعلومات والدراسات، والمكتبة الوطنية في بعقلين – الشوف، خاصة الرائد فادي الدمشقي (مدير عام المركز) والسيد رضوان زهر الدين (المدير الإداري) وباقي الأخوة الموظفين...

كما أوجه شكراً خالصاً لإذاعة " صوت الجبل " التي قدمت قسماً من هذه المعارك في برنامج " من أيام العرب ". أما على صعيد الأفراد، فانني لا أنسى الخدمة الكبيرة التي أسداها إليّ العم الاستاذ نايف فرحان زهر الدين من خلال قراءته لمعظم المعارك

ومراجعتها لغوياً، فضلاً عن مساعدته في تبييض قسم منها.. فالى هؤلاء جميعاً، والى كل من ساعدني في توفير كتاب أو دورية أو ملاحظة، أرفع أسمى عبارات الشكر والامتنـان، آملاً أن أكون قد ساهمت في وضع مدماك أساسي في البناء الثقافي والحضاري لأمتنا، في وقت نحن بأمسّ الحاجة فيه الى التشبّث بتراثنا، وتعزيز إيماننـا بقضيتنـا ووحدتنـا العربيـة والاسلامية في وجه قوى الأعداء. ولا أدّعي بأنني قدّمـت عمـلاً كـاملاً غير منقوص، إذ ليس هناك من عمل كامل، لأن الكمال للّه وحده عزّ وجلّ.

ولا يسعني أخيراً الا أن أدعو الى إقامة مؤسسة قومية، تـأخذ علـى عاتقهـا مهمـة إنجاز مشروع متكامل حول العقيدة العسكرية العربية – الاسلامية وتطورهـا حتـى اليـوم، توظف في سبيله كل الامكانات والطاقات القادرة علـى بحـث هـذا الموضـوع مـن مختلـف الجوانب والاختصاصات، ويمثل بالتالي اللبنة الأولى والأساسية في إنشاء مؤسسات عربية مشابهة تهتم بنواحي الحياة الأخرى من مجتمعنا عبر تاريخه الحضـاري العريـق.. ومهمـا كانت إنجازات الأفراد كبـيرة ومهمـة، تبقـى انجـازات المؤسسـات وروحهـا التعاونيـة أهـم وأشمل من كل عمل فردي مهما بلغت قيمته.

عسى ان اكون قد وُفِّقت في إنارة شمعة في هـذا الليـل العربـي الأسـود، بـدلاً مـن شتم الظلام ولعنه.. واللّه ولي التوفيق..

حـرف " الألـف "

(أ)

1- أبو قير
2- أبو نجيم
3- اجدابيا
4- أجنادَين
5- أُحُد
6- الأرك
7- الأقحوانة
8- أم درمان
9- الأنبار
10- أنوال

معركــــة أبو قير

لا تُعْرَف معادن الرجال، إلا من خلال صهرهم فـي بوتقـة الكفـاح والنضـال ضـد أعداء الأرض والانسان. ولم يكن القائدُ الوطنيٌّ الثائرُ " أحمد عرابي " سوى أحد هؤلاء الرجال الذين فولذت الأحداثُ إرادتهم وعزيمتهم، وأثبتوا جدارة الرجولة الحقيقية في ميادين الشرف والكرامة الوطنية والقومية، فاستحقوا شرف الانتماء لأمّة عريقة في التاريخ. كما كانت " معركة أبو قير " ضد الانكليز، وساماً على صدر أحمد عرابي ورفاقه، الذين أكدوا للأستعمار، أيّ استعمار، أن الكرامة الوطنية والقومية ليست سلعة تُباع وتُشرى في أسواق المزاد والخيانة.

عزم الانكليز على التدخل في شؤون مصر أيام الخديوي توفيق، وفي نيتهم احتلالها، باعتبارها نقطة استراتيجية على طريق الهند " درّة التاج البريطاني ". لذلك غزوا أرض مصر بأسطولهم البحري في الحادي عشر من تموز سنة 1882، وانحاز الخديوي توفيق إليهم، على حين تصدّى لهم جيش مصر بقيادة وزير الحربية آنذاك أحمد عرابي.

وما إن وصل الاسطول الانكليزي بقيادة الأميرال " سيمور " إلى المياه المصرية قبالة الاسكندرية، حتى باشر مناوراته الممّهدة للاحتلال، فأنذر الجيش المصري بالغاء تحصيناته على الساحل المصري بالاسكندرية وفي الحصون المواجهة لمراكز الأسطول الانكليزي وأهمها: حصن مريوط وفيه 39 مدفعاً منها 5 مدافع هاون، وحصن المكلس وفيه 31 مدفعاً، وحصن رأس التين وفيه 17 مدفعاً، وحصن قايدبيه وفيه 12 مدفعاً، بالاضافة إلى عدة متاريس واستحكامات ممتدة على طول ساحل الاسكندرية ومسلّحة بمدافع من مختلف العيارات.

عندها توضحت لدى عرابي، وكان وزيراً للحربية آنذاك، ولرفاقه من قادة الجيش والثورة، نوايا الانكليز بالاحتلال، فبدأ يستعد لمواجهتهم. ولما انقضت مدة الانذار بدأ الاسطول الانكليزي يمهد لإنزال مشاته على الأرض المصرية بقصف مدفعي كثيف

لمدينة الاسكندرية صباح 11 تموز، ردّت عليه مدفعية القلاع المصرية بقصف مماثل، ثم نزلت الجيوش الانكليزية لتحتل أرض مصر تنفيذاً لخطّتها المعدّة سلفاً.

ويقول احمد عرابي في مذكراته أن عدد الجنود المصريين الذين كانوا في الاسكندرية يوم بدء القتال مع الانكليز كان اثني عشر ألفاً وسبعمايه مقاتل، وكان الجيش المصري مؤلفاً من 8 أفواج مشاة و3 أفواج خيالة وفوجين من مدفعية الميدان و3 أفواج مدفعية ساحلية لحماية الثغور، وفرقة هندسة. وكان عديد هذا الجيش 36 ألفاً، ويمكن أن يرتفع عديده في حالة الانذار القصوى إلى 72 ألفاً عدا العربان والمتطوعين. وكانت أسلحة الجيش بنادق رمينغتون للمشاة، وسيوف وغدّارات للفرسان، ومدافع محلزنة من طراز كروب لوحدات المدفعية.

واتخذ عرابي من " كفر الدوّار " (الواقعة خلف بحيرة مريوط وعلى الطريق الموصلة إلى الاسكندرية من دمنهور) مركزاً لقيادته، وأخذ ينشئ الاستحكامات في تلك المنطقة الممتدة من كفر الدوّار إلى عزبة خورشيد بعد أن حشد فيها قواته من المشاة والمدفعية منتشرة على ثلاثة خطوط دفاعية منظمة في العمق بين الواحد والآخر منها مسافة 4-5 كلم، وأمام كل خط دفاعي خندق عمقه أربعة أمتار ونصف وعرضه أربعة أمتار. وكانت هذه الخطوط الدفاعية ممتدة بين عزبة خورشيد وكفر الدوّار من جهة، وبين ترعة المحمودية وملاحة مريوط من جهة أخرى (خط دفاعي متقدم)، ويلي هذه الخطوط (نحو داخل مصر) مراكز محصّنة بالمدفعية من مختلف العيارات (نحو 50 مدفعاً) على المرتفعات الواقعة خلف خطوط الدفاع هذه والتلال الموجودة بين المحمودية وسدّ أبي قير. وكلف أميرالاي الخيّالة الرابع بقيادة اللواء خورشيد باشا طاهر، مهمة الدفاع عن أبي قير، ومنع تقدم العدو من تلك الجهة. كما أعدّت السدود على النيل لمنع العدو من الانتفاع بمياهه عند الحاجة، وذلك بتحويل تلك المياه الى الأراضي المالحة بين المحمودية وسدّ أبي قير.

وقد وضع خطة الدفاع هذه محمود باشا فهمي، يعاونه الأميرالاي محمد بك شكري، وكان أكفأ ضباط الأركان في الجيش المصري يومذاك.

وفي صباح 26 تموز 1882 وردت إلى مركز قيادة الجيش بكفر الدوّار برقية

من قائد فوج الخيالة الرابع في أبي قير جاء فيها: " ظهر العدو من جهة الرمل بأورطّي مشاة وأورطيّ سواري (خيّالة) ومعه مدفعان يحاول وضعهما على ربوة على بُعد 150 متراً من المستحكم الطبيعي الموجود أمام عساكرنا " (ويقول الكولونيل الانكليزي " سبيتان " أن هذه القوّة كانت بقيادة الجنرال " أليزون " وكان عديدها نحو ألفي مقاتل). فوجهت القيادة للتصدّي له أورطتين من المشاة وأورطتين من الخيّالة بقيادة البكباشي (أي المقدّم) أحمد أفندي البيار، والبكباشي (المقدّم) مصطفى أفندي حسان، ثم أمرت الفوج الرابع لمساندة القوات المتصدّية للعدو، فهبّ لمساندتها وبادر بالهجوم، فنشب بين الفريقين قتال عنيف استمر ثلاث ساعات ونصف الساعة انتهى بهزيمة العدو وتقهقره إلى مراكزه على الساحل.

وفي منصف نهار اليوم التالي (27 تموز) أعاد العدو الكرّة، إذ ظهر قطار محمل بالجنود وقادم من سكة القباري، وما إن وصل إلى مدى رمي المدفعية المصرية (1500 متر) حتى بادره البكباشي (المقدّم) محمد أفندي حشمت بنار مدفعيته من طراز كروب، فأصيب القطار إصابات جسيمة عطلته عن الحركة، عندها أمر قائد الجيش الانكليزي (الجنرال أليزون) جنده بالترجّل والاستعداد للقتال، وكان هذا الجيش مؤلفاً من اربع فرق، على كل فرقة واحد من القادة الأربعة: الجنرال (أليزون) القائد العام للجيش، والأميرالاي (طوسون)، والماجور (ستروغ) والكومندان (أدج).

تقدم الجيش الانكلزي للقتال على شكل هلال بقلب وجناحين، فتقدم الجناح الأيسر من الرمل على جسر ترعة المحمودية، وتقدم الجناح الأيمن بطريق السكة الحديدية من القباري، وتقدم القلب على طريق جسر المحمودية، واستعد الجيش المصري للتصدّي له ومنعه من التقدم، وكان هذا الجيش بقيادة طلبة عصمت باشا قائد فرقة كفر الدوّار، ومؤلفاً من 5 أورطات مشاة (واحدة في المقدمة بقيادة أحمد بك عفت حكمدار، وثانية بقيادة البكباشي محروس أفندي، وثالثة بقيادة الحكمدار محمد أفندي فوده، ورابعة بقيادة سليمان أفندي ثعيلب، وخامسة بقيادة البكباشي رزق أفندي حجازي) وفوج خيالة بقيادة أحمد بك عبد الغفّار.

وانتظر طلبة عصمت باشا تقدم العدو بتشكيله القتالي نحو قواته، وما إن وصل

إلى مسافة 800 متر حتى أمر ببدء القتال محرّكاً نحو العدو مقدمة قواته (أورطة المقدّمة) بقيادة البكباشي محروس أفندي الذي انبرى يقاتل ميسرة العدو، على حين انبرى لقتال القلب والميمنة البكباشي محمد أفندي فوده ومعه أورطة أخرى، واشتد القتال بين الفريقين، فاختلط الجند وتقاتلوا بالسلاح الأبيض وجهاً لوجه، واستمر القتال ست ساعات حتى بدأ ظلام الليل ينتشر، وكان العدو قد مني بخسائر كبيرة فأنهكت قواه، عندها أخذ يتقهقر منهزماً، وظلت قوات الجيش المصري تطارده حتى حال الظلام بين الفريقين. وكانت خسائر المصريين في هذه الوقعة 30 شهيداً بينهم ضابط واحد، وأما الجرحى فكانوا 65 جريحاً بينهم ملازمان وبكباشي واحد (هو البكباشي محروس أفندي الذي ما لبث أن توفي متأثراً بجراحه). أما خسائر الانكليز فكانت جسيمة، بدليل أن كثيراً من جندهم شوهدوا يحملون قتلاهم وجرحاهم، كما شوهدت في اليوم التالي من المعركة آثار الدماء وآثار جرّ الموتى في ساحة القتال، بالاضافة إلى 17 جثّة تركها الانكليز في الساحة دون أن يتمكنوا من حملها معهم، ومنها جثة ضابط يدعى " الملازم ديز ".

ويذكر الكولونيل " بيتان " عن هذه المعركة أن مهمة الجيش الانكليزي فيها كانت مهمة تضليل المصريّين وإيهامهم أن محور الجهد الرئيسي للهجوم هو الاسكندرية – القاهرة، على حين كان محور الهجوم الرئيسي هو محور الأسماعيلية – القاهرة.

والجدير بالذكر، أن تاريخ مصر لا قيمة له إذا لم تكن صفحاته مزدانةً بمآثر هذه المعركة ومثيلاتها، كما بمآثر أحمد عرابي ورفاقه وجيشه الوطني الشريف، إذ أن كلَّ تاريخ حقيقي صحيح هو الذي يكتب بدم أبنائه ومناضليه، وليس بحبر المستعمر وأقلام أدواته المأجورة.

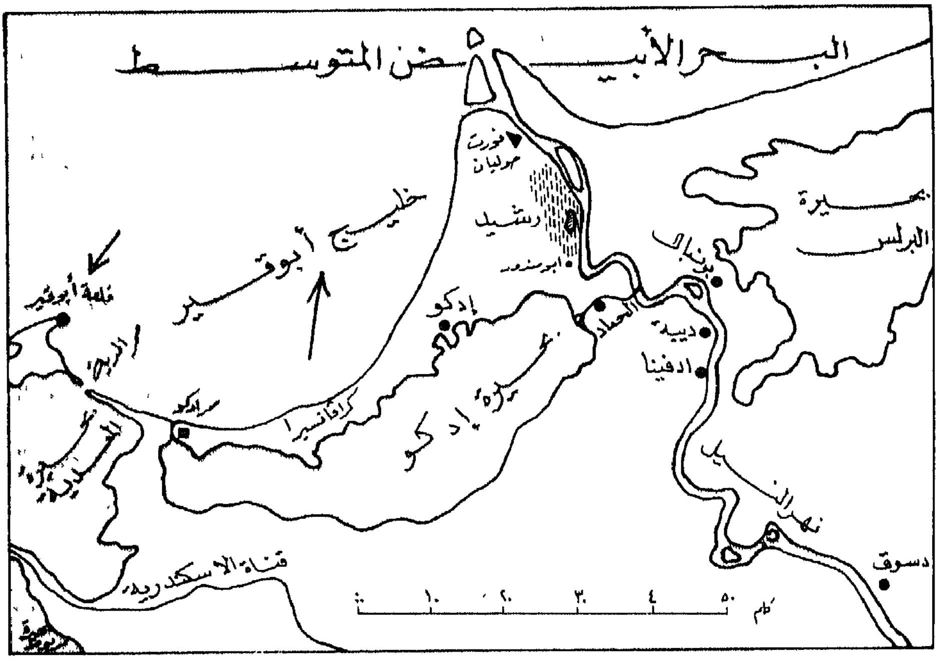
وكما هي النجوم في السماء، هكذا هو التاريخ. وكل نجمة من نجوم السماء هي بمثابة معركة شرف وكرامة، يجب أن تأخذ مكانها في صفحة التاريخ المشرقة، كما تأخذ كل نجمة موقعها في صفحة السماء. ولا غرابة، إذا تجاوز أحمد عرابي موقعه " كنجمة " في التاريخ المصري، ليكون كوكباً مضيئاً في سماء الأمّة وتاريخها الموحّد.

المراجع

1 – الموسوعة العسكرية. الجزء الأول. ص 21 – 23.

2 – مذكرات أحمد عرابي باشا. سلسلة الهلال المصرية. القاهرة.

3 – د. زاهية قدورة " تاريخ العرب الحديث " داز النهضة العربية بيروت **1975**.



موقع معركة أبو قير

معركة أبو نجيم

يقع هذا الموقع شرقي " مصراتة " وقد احتلّ مكاناً هاما في كافة العلمليات الحربية التي جرت في المناطق الشرقية من مصراتة وصحراء " سرت " و " الجفرة ". وقد اتخذ منه الايطاليون قاعدة لعملياتهم نحو الجفرة وفزان، في ليبيا.

شهد هذا الموقع معركة عنيفة حامية ضد قوات " مياني " المنسحبة من فزان يوم 13 ديسمبر/ كانون الأول 1914. وتعرضت القوة الايطالية باعتراف المصادر الايطالية إلى خسائر فادحة، ولم تتمكن من الوصول إلى " مصراتة " آخر مراحل الانسحاب إلا بصعوبة ومشقة.

وشهد هذا الموقع أيضا معركة حربية هامة. انتصر فيها المجاهدون على العدوّ وكبدّوه خسائر فادحة، وكان ذلك في يوم 8 فبراير/ شباط 1915 بعد أن انسحبت الحامية الايطالية من " سوكنة "، إلى هذا المكان، وقد فقدت كل ما لديها من عتاد واضطرت هي والحامية المرابطة قبلها في " أبو نجيم " إلى التحول إلى " بني وليد "، بعد أن قُتل ثلاثة من ضباطها الايطاليين، ضمن من قتل من ضباط الحامية وجنودها.

احتل الايطاليون هذه المنطقة، من جديد، في 6 يناير/ كانون الثاني 1928. بعد أن نشبت بالقرب منه معركة أخرى بين وحدة من المجاهدين والقوات الإيطالية.

المراجع

1 – محمد خليفة التليسي " معجم معارك الجهاد ". وقد أدرجت هذه المعركة ضمن حرف الألف (أبو نجيم). الدار العربية للكتاب 1983. ص 103.

2 – مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الايطالي. طرابلس/ ليبيا. شريط خاص بهذه لمعركة.

معركة إجدابيـا

هي من إحدى معارك الجهـاد الليبـي البطولـي ضـد الغـزو الايطـالي. فلقـد وضـع الايطاليون في تـقديرهـم، وبـرنامجهم الـحربي مـنذ بدايـة سنـة 1914، مـحـاولة احتــلال " إجدابيا " والمناطق المجاورة لها رغبة في توسيع رقعة الاحتلال، خاصة بعد أن تحولـت إلى مركز منشط، تنطلق منــه حركـة المقاومـة للعـدوّ، وتتجمـع عنـده قبـائل المنطقـة، مـن عواقير ومغاربـة، استعـداداً لـمواجهة تحركـات العـدو وعملياتـه. وكـانوا قـد اتـخـذوا مــن " إجدابيا "، و " وزاوية موسى "، قواعد لعمليـاتهم الحربيـة، ضـد مواقـع الايطـاليين. وقـد قامت القيادة الايطالية بتشكيل كتيبتين، عمدت الأولى إلى مهاجمة زاوية " أم شخنب " فـي 25 فبراير/ شباط 1914 حيث اضطرها المجاهدون إلى خوض معركــة عنيفـة، وتمكنـت القوة الثانية من دخـول " سـلوق " فـي 27 فـبراير/ شـباط 1914 وجـرت معركـة عنيفـة تصدى فيها المجاهدون لهذه القوات الزاحفة. وقبل أن يتـمكـن الايـطـاليـون مـن احتـلال " الشليظيميّة " وتدمير زاوية موسى يوم 3 فبراير/ شباط، قرروا الزحف علــى " إجدابيـا " وتقرر تجريد قوة بقيادة الكولونيل " لايتني " تزحـف مـن " قـمـينس " بمحاذاة السـاحل الـى " الزويتينة " ونقل قوة أخرى عن طريق البحر من " بنغازي " إلى مرسى الزويتينة، ولكن ما كادت القوة الأولى البريّـة تصـل إلـى الزويتينـة حتـى واجهـت يـوم 11 فـبراير/ شـباط 1914 هجوماً عنيفاً شنّه عليها المجاهدون، وقد ظلت مرابطـة بمواقعهـا حتـى نزلـت فـي اليوم التالي 18 فبراير/ شباط القوات المنقولة عن طريق البحر والتي قصد من نقلها بهـذه الطريقة توفير الحماية لها والاستفادة مـن تدخلهـا فـي الوقـت المناسـب لدعـم القـوة البريّـة وحمايتها وإنقاذها، وقد اتخذت هذه القوة من الزويتينـة قـاعدة لهـا لـلزحف علـى إجدابيـا، وقامت فعلا بالتحرك نحوها يوم 16 فبراير/ شـباط حيـث أطلقـت عليهـا نـيران المدفعيـة، ودمرتها، ثم عادت من جديد إلى قواعدها في الزويتينة وبنغازي وذلك لعدم اطمئنانها إلــى إمكانية البقاء في إجدابيا نفسها بالنظر إلى الأخطار، ولم تُجدِ هـذه العمليـات التـي قـام بهـا الايطاليون في القضـاء علـى حـركة المقـاومـة في المـنطقـة التي عـادت لـتصبـح مسـرحاً

لنشاط واسع للمجاهدين، مما اضطر الايطاليين في نهاية مارس/ آذار 1914 إلى تجريد قوة كبيرة لاحتلال إجدابيا بصفة نهائية، فزحفت قوة في 11 ابريل/ نيسان، من قمينس، نحو إجدابيا على أن تتحرك لدعمها الحامية المرابطة في الزويتينة، وتمكنت من احتلال إجدابيا يوم 15 ابريل/ نيسان 1914، بعد معركة عنيفة خاضتها قوة من المجاهدين تبلغ حوالي ألفي مجاهد، وقد دارت معركة عنيفة في المنطقة التي يسميها الايطاليون (الهضاب الحديدي) وانتشرت حول البلدة حتى شملت بئر الجديدة وساقية الأحمر.

وقد أنشأ الايطاليون حامية في مدينة إجدابيا، وكانوا ينوون أن يأخذوا منها قاعدة لعملياتهم العسكرية في منطقة الواحات الداخلية ببرقة وخليج سرت، إلا أن اندلاع الثورة في طرابلس الغرب، وما جرته هزيمة الايطاليين في وادي مرسيط والقرضابيّة، وما كان لذلك من نتائج في المنطقة الشرقية من ليبيا أدّت بالايطاليين إلى سحب حامياتهم من دواخل برقة. وكانت من بينها حامية إجدابيا التي خرجت من ذلك الوقت من سلطتهم. ولم يعودوا إليها إلا في سنة 1923 عندما بدئت العمليات العسكرية في برقة، وأعلن الوالي " يونجوفاني " عن حالة الطوارئ تمهيداً لاتخاذها قواعد للعمليات العسكرية التالية في الجبل وجنوبي بنغازي، وهكذا عادت ايطاليا إلى الاستيلاء على بعض مواقع الحاميات القديمة التي اضطرها الوطنيون الى الجلاء عنها سنة 1915. وكان من الضروري ان يتجه العمل الحربي الايطالي إلى إجدابيا، بالنظر الى ما كانت تمثله في ذلك الوقت من معنى سياسي، وبالنظر إلى موقعها الهام بالنسبة لأية عمليات تجري في منطقة الخليج والواحات. وبعد أن خاضت معركة في " بيضاغم " تجمعت القوات في يوم 20 ابريل/ نيسان في الزويتينة وسيدي فرج والسبيكة، وزحفت على شكل قوس تطويقي. وقد تعرّضت لمقاومة عنيفة من قبل المجاهدين. وتقول المصادر الايطالية أنه قد استشهد من الوطنيين في هذه المعركة ما يقرب ثلاثمئة، وقد أدّى الاحتلال الثاني لإجدابيا إلى نشوب عدة معارك أثناء الزحف وعقب السيطرة عليها. ومن أشهرها معركة بئر بلال والبريقة. وهما المعركتان اللتان أصيب فيهما الايطاليون بخسائر فادحة وتعرضت وحدات من قواتهم للإبادة التامة.

المراجع

1 – محمد خليفة التليسي " معجم معارك الجهاد ". الدار العربية للكتاب 1983. ص 105-107.

2 – مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الايطالي. طرابلس/ ليبيا.

معركة أجنادَين

في تاريخ العرب، محطات فاصلة توقّف على نتيجتها مصير دول بكاملها. وليست معركة أجْنادينْ سوى احدى هذه المحطات التي يفخر التاريخ العربي بتسجيلها في صفحاته المشرقة.

وأجنادَين هي موضع معروف بالشام من نواحي فلسطين (كما جاء في معجم البلدان)، أو بلد بين الرملة وبيت جبرين (كما روى الطبري)، كانت في العهد الاسلامي الأول، قاعدة الروم العسكرية في جنوب فلسطين.

والحقيقة، أن هذه البلد المعروفة بـ " أجنادَين " شهدت معركتين كبيرتين بين قوات الروم والقوات العربية.

جرت وقعة أجنادَين الأولى بتاؤيخ 30 تموز/ يوليو سنة 634، باعتراف عدد من المؤرخين العرب كالطبري واليعقوبي، وبعض المؤرخين الأجانب كالمستعرب الهولندي الكبير ميخائيل دي غويي، استاذ اللغة العربية في جامعة ليدن سابقاً.

هذا، وقد اختلف المؤرخون في تقدير عدد الجيش الرومي الذي اشترك في هذه المعركة، كذلك الحال بالنسبة لعدد الجيش العربي فيها. كانت قوات الروم المتمركزة في فلسطين، بقيادة تيودوروس (Theodoros)، بينما كانت جيوش العرب في الشام مجتمعة بقيادة خالد بن الوليد، الملقّب بـ " سيف اللّـه "، والذي برز كشخصية مقاتلة من الطراز النادر منذ حروب شبه الجزيرة العربية، مثبتاً أنه رجل المهمات الصعبة. وعلى هذا الأساس عيّن خالد بن الوليد قائداً عاماً للقوات الاسلامية في عهد الخليفة أبي بكر الصدّيق والتحاقه بالشام.

كانت خطة التحرك نحو الشام قد تمّ تنفيذها أثناء غياب خالد بن الوليد عن " المدينة "، أي في حوالي السنة الثالثة عشرة للهجرة، وهي تقضي بتشكيل عدّة " ألوية " من المقاتلين، تتولّى مهمات محدّدة، قبل أن تلتئم أخيراً تحت قيادة واحدة في ظل خالد. أما " اللواء " الأول، فكان بقيادة خالد بن سعيد بن العاص، وهدفه المرحلي المرابطة

في " تيماء " الواقعة إلى الجنوب الشرقي من " تبوك " في جنوب الشام، وعلى سبع ليالٍ من " المدينة "، دون أن يشتبك في أي قتال قبل إخطار الخلافة بذلك. و " اللواء " الثاني، بقيادة عمرو بن العاص، الذي تحرّك بمحاذاة الساحل الشرقي للبحر الأحمر، على أن يكون المحور المفترض فلسطين... والثالث والرابع بقيادة شرحبيل بن حسنة ويزيد بن أبي سفيان، حيث سار كلاهما معاً عبر البلقاء إلى الأردن، على أن يتخذ الأول معسكره إلى الشرق من النهر، بينما يتابع الثاني مسيرته نحو دمشق. وفي أعقاب هؤلاء، سار أبو عُبيدة بن الجرّاح، على رأس متطوعين جدد وفدوا على " المدينة "، دون أن تكون مهمته عسكرية على الأرجح، بقدر ما كان شاغلاً دور " الارتباط " بين قيادة الشام وبين الخلافة.

وكان على هذه الألوية أن تتحدّى كثيراً من العوائق، وفي مقدّمتها الاصطدام بمقاومة القبائل العربية الحليفة للدولة البيزنطية. ولكن قادتها نجحوا في اختراق العائق الأول والانتهاء إلى جنوب الشام...

وما لبث خالد بن الوليد أن وصل إلى الشام، منجزاً عملية عبور غير عاديّة للصحراء عن طريق " تدمر " قبل أن ينتهي إلى " بصرى "، باكورة المواقع الشامية الهامة التي فتحت على يده. وفي تلك الأثناء، كان الامبراطور البيزنطي " هرقل "، يتابع الموقف العسكري عن كثب، متّخذاً من حمص مقراً له قبل الانتقال الى انطاكية، نتيجة الضغط العربي الاسلامي باتجاه الشمال. ويبدو أنه تجاهل أول الأمر، أهمية الحشود القادمة من الحجاز، يؤكد ذلك غياب المقاومة الجدّية لدى الجانب البيزنطي في هذه المنطقة، أو أنه لم يُعْطِ هذا الأمر ما يستحقّه من الاهتمام، وهو المنتشي حينذاك بخمرة انتصاره الكبير على الفرس واستعادة الصليب المقدّس بعد حرب بينه وبينهم دامت من 610 حتى سنة 630 ميلادي، عندما تسلّم عود الصليب في " منبج " في شمالي الشام وانتقل به إلى بيت المقدس، أي قبل وقت قصير جداً من تحرك ألوية المسلمين نحو الشام.

على أن الامبراطور البيزنطي " هرقل " حين أدرك خطورة الموقف وأبعاده، سارع إلى حشد قواته الضخمة، بقيادة تيودوروس (Theodoros) في معسكر " أجنادين "، الذي كان أحد أقوى الحصون البيزنطية في ذلك الوقت. وليست هناك تقديرات حول كثافة هذه القوة، التي كانت خليطاً من البيزنطيين وحلفائهم، لا سيّما القبائل

الشاميّة. ولكن يبدو أن العدد التقريبي، لا يتجاوز الأربعين أو الخمسين ألفاً، (بينما وردت مائة ألف لدى البلاذري)، أي ما يعادل ضعف القوة العربية الاسلامية التي لم تزد في أحسن الحالات عن خمسة وعشرين ألفاً.

بيد أن القوة الاسلامية، كانت لديها الكفاءة التنظيمية والقيادية العالية، التي تجلّت في توزيع خالد لها، وفقاً للتقليد الحربي القديم، ولكن مع تعديل اكثر مرونة، مما يجعل تحرك الجنود في المعركة، يتم بالسرعة المطلوبة، وذلك في أعقاب اجتماع القادة الكبار في " بصرى "، الذي نوقشت فيه ترتيبات المعركة المنتظرة.

والواقع، تميزت معركة أجنادين بتطبيق العرب مبدأ المباغتة تطبيقاً تاماً ورائعاً، إذ أشار خالد بن الوليد، القائد العام للجيوش العربية المتمركزة في الشام (جيش يزيد بن ابي سفيان، وجيش شرحبيل بن حسنة وجيش أبي عبيدة بن الجرّاح)، أشار خالد على عمرو بن العاص، وكان منعزلاً بجيشه قبالة جيش الروم في فلسطين، أن يستدرج تيودوروس (Theodoros) إليه ويوهمه أنه وحده في ساحة القتال، على حين يتعقّب هو عمرو ويفاجئ تيودوروس بعد أن يكون قد اشتبك مع ابن العاص بالقتال. وهكذا كان.

فقد ارتّد عمرو بن العاص نحو أجنادين ووقف عندها ينتظر جيش تيودوروس الذي كان يتقدم نحوه مطمئناً إلى قوته وضعف عدوّه، على حين عبأ خالد جيشه للقتال، جاعلاً أبا عبيدة بن الجرّاح على المشاة، وخالد بن سعيد بن العاص على الميسرة، وأبا الدرداء على الساقة، وتولّى هو قيادة القلب. وما إن أنشب عمرو بن العاص القتال مع تيودوروس حتى انقضّ خالد بن الوليد بجيشه عليه كما ينقضّ النسر الكاسر على طريدته.

وما لبث الطرفان ان اشتبكا في ملحمة عظيمة، تجلّت فيها الشخصية القتالية المتطورة للعرب المسلمين، على الرغم من الاختلال الواضح بينهما، حيث كان البيزنطيون أكثر كثافة وتفوّقاً في التسلّح، كذلك عراقة في الحرب، بينما كانت القوات الاسلامية، محدودة الامكانات والخبرة بالقياس معها، فضلاً عن العدد. على أن هذه المجابهة، كانت تجربة غير عادية للمقاتل العربي المسلم المتحرّر من رواسبه وعُقَدِه، والمتحفّز للعطاء بسخاء ومن دون تهيّب أو تردّد. فكان من الطبيعي أن تأتي النتيجة مذهلة للامبراطور البيزنطي، وهو يتلقى أنباء تحطيم قواته في " اجنادين "، بعد ان كان

مطمئناً إلى قدرتها على دفع العرب المسلمين، خلف حدودهم في شبه الجزيرة العربية من دون كبير عناء.

تعتبر معركة " أجنادين " أول وقعة قاتلت فيها جيوش المسلمين والعرب المتمركزة في بلاد الشام مجتمعة بقيادة قائد واحد هو خالد بن الوليد.

ولقد انتصر العرب في هذه المعركة انتصاراً ساحقاً، كان له الأثر الكبير في التمهيد لانتصارهم الأكبر في معركة اليرموك. لكن هذا الانتصار على أهميته، لم يحسم الوضع العسكري في بلاد الشام، حيث النفوذ البيزنطي لا زال قوياً في الوسط والشمال منها، باستثناء فلسطين التي كان سقوطها نهائياً، مما جعلها المدخل الذي غيّر مجرى الأحداث في هذه المنطقة، بعد أن أخذت تنطلق منها القوات الاسلامية نحو الأردن ودمشق، محاولة الاستفادة من انتصارها الكبير.

بيد أن ما حملته أنباء " المدينة " عن وفاة الخليفة أبي بكر الصدّيق، بعد أسابيع قليلة من معركة " أجنادين "، ساهم، ليس فقط في تجميد الموقف الحربي على الجبهة الشامية، ولكن في تراجع العرب المسلمين وخسارتهم بعض الحاميات والمواقع الهامة. ذلك أن " المدينة "، التي حسمت مسألة الخليفة الجديد بالسرعة القصوى وكان " عمر بن الخطاب " الذي لقّب بـ " الفاروق "، أجرت في الوقت نفسه، تغييرات في القيادات العسكرية على مختلف المحاور، كان من بينها عزل خالد بن الوليد عن جبهة الشام وتعيين أبي عبيدة بن الجرّاح مكانه، وهو أحد المقرّبين من الخليفة الجديد عمر بن الخطّاب، والركن الثالث في التكتل الذي آلت إليه الخلافة في اجتماع " السقيفة ". وكان لذلك بدون ريب، تأثيره السلبي على تطورات الحرب في الشام، مؤدّياً إلى ذلك الركود فضلاً عن التراجع المحدود الذي أشرنا إليه. على أن الوضع لم يصل الى مرحلة الارتباك، حيث ظل خالد، من الناحية العملية، شاغلاً معظم صلاحيات القائد العام، في الوقت الذي حرص فيه أبو عبيدة على الإفادة ما أمكن من كفاءة وخبرة القائد المعزول خالد بن الوليد.

ومن أجل لقاء الروم في معركة اليرموك الشهيرة، كان العرب قد تركوا أجنادين " لتعود إلى الروم من جديد. لكن العرب المسلمين لم يتخلوا عنها مطلقاً، بعد

أن جبلوا ترابها بدم الأبطال من شهدائهم. وهكذا جرت معركة " أجنادين " الثانية سنة 636 في عهد الخليفة الثاني عمر بن الخطّاب. وكان على رأس القوة العربية الاسلامية عمرو بن العاص، في الوقت الذي كان فيه على رأس قوة جيش الروم، قائد داهية يدعى " الأرطبون ".

فبعد أن لحقت هزيمة قاسية بجيش الروم في اليرموك وفتح العربُ المسلمون دمشق، وجّه القائد الجديد أبو عبيدة بن الجرّاح جيشاً نحو فلسطين لفتحها، وكان على رأسه عمرو بن العاص وشرحبيل بن حسنة.

أحسن ابو عبيدة اختيار عمرو بن العاص لهذه المهمة، وهو الذي جمع بين شدّة الجندية وحنكة السياسة، كما حفل تاريخه (ابن العاص) بالأحداث والمبتكرات والمفاجآت التي تحدث بما كان عليه عمرو بن العاص من بُعْد النظر وحسن التقدير والتدبير، وقد أتى بأعمال غير معهودة وأساليب لم يسبقه إليها أحد، وكانت له في الحرب كفاءة تضعه في صف كبار القادة ليس في وقته فحسب، وانما في جميع العصور، خاصة وأنه قد أدخل في الحرب كثيراً من ضروب الحيل والخدع والمكائد، حتى أن بعض المؤرخين ذهبوا إلى القول فيه، أن دهاءه السياسي كان يفوق براعته الحربية. ولهذا دخل عمرو بن العاص ساحة التاريخ الذي وضعه في صف عباقرة الحرب والسياسة. ولا غرو في ذلك، فقد كان عمرو الجندي الدبلوماسي الأريب الذي وصف بحق بأنه " داهية العرب ". وعندما سار عمرو بن العاص ليلاقي الروم في أجنادين، كان على مقدمته شرحبيل بن حسنة، وعلى مجنبتيه عبد الله بن عمرو، وجنادة بن تميم المالكي. في حين كان قائد الروم، الأرطبون، " أدهى الروم وأبعدها غوراً وأنكاها فعلاً " (كما وصفه الطبري). ولكن دهاء الأرطبون تقزّم أمام دهاء عمرو بن العاص، واضمحل. فحين سار عمرو بن العاص الى أرض المعركة في أجنادين، حيث يرابط الأرطبون، كانت قوة للروم في الرملة، وقوة أخرى في بيت المقدس. وكانت إذا جاءت قوات داعمة إلى بن العاص أرسل بها تارة إلى الرملة، وأخرى الى بيت المقدس، ليشاغلوا الروم في تلك الجهات خوفاً من دعمهم للأرطبون في أجنادين.

وطال تأخر الفتح في أجنادين، وسارت الرسل بين الطرفين، ولم يُشْفِ أحدها

غليل عمرو بن العاص، وجرى الحديث بينهما، استنتج الأرطبون خلالـه أن هـذا الرسـول إنما هو عمرو بن العاص نفسه، أو أنه ذو قيمة وأثر بيـن المسـلمين. وقـال فـي نفسـه: مـا كنت لأصيب القوم بأمر هو أعظم من قتله. فدعا أحد حراسـه وسـرّ إليـه أمـره بـالفتك بـه قائلاً: إذهب فقم بمكان كذا، فاذا مرّ بك فاقتله. ففطن عمرو بن العـاص وقـال للأرطبـون: أيها الأمير إني قد سمعت كلامك وسمعت كلامي، وإني واحد مـن عشـرة بعثنـا عمـر بـن الخطـاب لنكون مع هذا الوالـي لنشـهد أمـوره. وقـد أحببـت أن آتيـك بهـم ليسـمعوا كلامـك ويروا ما رأيت. وفرح الأرطبون في قرارة نفسه للصيد الثمين، وقال لعمرو: نعم! فـاذهب وائتني بهم. ثم دعا حارساً آخر من حراسه وقال له: إذهب إلى فلان فردّه. وقام عمرو بن العاص فرجع إلى جيشه. ثم تحقق الأرطبون أنه عمـرو بـن العـاص نفسـه فقـال: خدعنـي الرجل، هذا والله أدهى العرب. وبلـغ ذلـك الخليفـة عمـر بـن الخطـاب فقـال: " لقـد رمينـا أرطبون الروم بأرطبون العرب ".

والتقى الجيشان فـي أجنـادين، فـاقتتلوا قتـالاً شـديداً كقتـال اليرموك، حتـى كـثرت القتلى بينهم. وكان النصر في هذا القتال للعرب، حيث دخلوا أجنادين واحتلوها من جديد، وانطلقوا بعدها لاحتلال سائر فلسطين.

المراجع

1 – الإمام ابي الحسن البلاذري " فتوح البلدان ". عني بمراجعته والتعليق عليه رضوان محمـد رضوان. بيروت. دار الكتب العلمية 1978. ص 120 –120.

2 – ابراهيم بيضون " تكوّن الاتجاهات السياسية في الاسـلام الأول مـن دولـة عمـر إلـى دولـة عبد الملك ". بيروت. دار اقرأ للنشر والتوزيع والطباعة. الطبعة الأولى 1985.ص 61 – 63.

3 – سهيل زكار وابراهيم بيضون " تـاريخ العـرب السياسـي مـن فجـر الاسـلام حتـى سقـوط بغداد ". دار الفكر. بيروت. الطبعة الأولى 1974. ص 66.

4 – الموسـوعة العسـكرية. الجـزء الأول. باشـراف المقـدم الهيثـم الأيوبـي. المؤسسـة العربيـة للدراسات والنشر. بيروت. الطبعة الأولى 1977. ص 30.

5 – محمود شاكر " التاريخ الاسلامي: الخلفاء الراشدون " الجـزء الثـالث. المكتـب الاسـلامي. بيروت. الطبعة الثانية 1983. ص 162 – 163.

6 – شكري فيصل " حركة الفتح الاسلامي في القرن الأول ". دار العلم للملايين. بيروت. الطبعة الأولى 1952. ص 38و46و48و52.

7 – أسد رستم " الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب " الجزء الأول. دار المكشوف. بيروت 1955. ص 242.

8 – جورج مرعي حداد " فتح العرب للشام: بحث تاريخي انتقادي تحليلي ". المطبعة الأدبية. بيروت 1931. ص 42 – 46.

9 – السيّد فرج " أدهى رجال الحرب في الشرق والغرب ". دار الشعب. القاهرة 1970. ص 85 – 95.

10 – المقدم ياسين سويد " معارك خالد بن الوليد ". المؤسسة العربية للدراسات والنشر. بيروت. الطبعة الثانية 1975. ص 239 – 240.

11 – العقيد محمد أسد الله صفا " الحرب ". دار النفائس. بيروت. الطبعة الثالثة 1987. ص 205 – 208.

معركة أُحُد

مثّلت معركة بدر هزيمة كبرى للقرشيين الذين لم يتمكنوا من أن يناموا على ضيمها، وصمّموا على الثأر والانتقام مهما كلّف الثمن. وعلى هذا الأساس كانت معركة " أُحُد "، في شوّال من السنة الثالثة للهجرة (26 نيسان – 624 ميلادي)، هي الردّ الطبيعي والمباشر على هزيمة بدر.

سمّيت هذه المعركة بهذا الإسم، نسبة إلى " جبل أُحُد " الذي وقعت المعركة بقربه. وهو يقع على مقربة من المدينة في الحجاز، وعلى بعد أربع كيلو مترات شمال المدينة.

نشط المشركون بعد معركة بدر، فجمعوا نحو نصف مليون درهم، افتدوا معظم أسراهم بقسمٍ منها (بمعدل أربعة الآف درهم لكل أسير) ثم وقفوا الباقي على الاستعداد للمعركة المقبلة في أُحُد. ولم يكتفِ المكّيون بتجبيش مواطنيهم بل استنفروا القبائل أيضاً وجاءوا بَغْتَةً، فيما يبدو، بنحو ثلاثة الآف رجل يقودهم أبو سفيان بن حرب، في الوقت الذي كان فيه خالد بن الوليد يقود قسماً من خيل المشركين وفرسانهم. بينما كان المسلمون بقيادة النبي محمد (ﷺ) وعددهم ألف مقاتل، والبعض يقول، سبعمائة مقاتل.

بُوْغِتَ المسلمون بزحف المكّيين ووصولهم إلى جبل أُحُد، كما لوحظ عدم التكافؤ في القوى بين الجانبين. إزاء هذا الموقف، لم يكن أمام الرسول إلا أن يستعيض عن العدد بترتيبٍ مدروسٍ للمعركة، وهكذا كان. والظاهر أن المسلمين لم يستطيعوا أن يتخذوا مراكزهم على جبل أُحُد نفسه، فأقاموا صفوفهم عند سفحه الشرقي وسفحه الشمالي الشرقي، ثم أمر الرسول خمسين رجلاً من الرماة بأن يقفوا على " تل عينين " وجعل معهم نفراً قليلين من الفرسان بقيادة الزُبير بن العوّام، ثم أمر الجميع أن يلزموا أماكنهم هذه وألاّ يغادروها مهما يحدث، ما لم يتلقوا أمراً منه بذلك.

تميّزت هذه الوقعة في الحقيقة، بالتنظيم الدقيق للمقاتلين من كلا الجانبين. إذْ رتّب أبو سفيان جيشه قبالة جيش المسلمين قلباً وميمنة وميسرة ومؤخرة. فوضع الفرسان في الميمنة وعليها خالد بن الوليد. ووضع على الميسرة عكرمة بن أبي جهل. وجعل النسوة

في المؤخرة، وغالبية الجيش في القلب.

أما النبي، فجعل ظهره وعسكره إلى جبل أُحُد، وقسّم جيشه قسمين هما: الرماة، ومهمتهم حماية االمؤخرة والجوانب، وصدّ فرسان العدو، ومنع كل محاولة للالتفاف من قبل العدو، ومساندة المقاتلين، وأمر قائدهم عبد الله بن جبير: : إنضح عنا الخيل بالنبل لا يأتونا من خلفنا، وان كانت لنا أو علينا فاثبتْ مكانك لا نؤتين من قبلك ". أما القسم الثاني: المقاتلون، وهم غالبية الجيش وقد تمركزوا قبالة القلب من جيش أبي سفيان بن حرب، وكانت أوامر النبي أن لا يقاتل أحد حتى يأمره بالقتال.

وبدأت المعركة بهجوم المكّيين، إذ انحدروا على المسلمين (متجهين من الغرب إلى الشرق). غير أن المسلمين الذين كانوا يحتلون مراكز أضعف من مراكز المكّيين – ولكنهم كانوا أعْرَفَ بها منهم – استطاعوا ان يهزموا طلائع المشركين في بضع ساعات. لكن خالد بن الوليد هجم على المسلمين بخيله من الجنوب حتى يخفّف الضغط الذي كان يتعرض له المكّيون، واستطاع رماة المسلمين الذين كانوا متحصّنين في " تل عينين " أن يردّوا جيش خالد بن الوليد في أول الأمر.

في هذه الأثناء، كان معظم الجيش الاسلامي العامل في الميدان قد أخذ يجمع الأسلاب. ورأى الرماة الواقفون على " تل عينين " ذلك، وظنّوا أن المعركة قد انتهت، ثم خافوا على نصيبهم من الأسلاب فتركوا مراكزهم وانحدروا إلى السهل مندفعين نحو معسكر قريش ينهبونه.

في هذا الوقت، جاء عنصر " المباغتة " ليلعب دوره، وخالد بن الوليد من أربابه المحترفين. فانتهز فرصة انشغال الجيش الاسلامي بالغنائم والأسلاب، وباغت المسلمين من الخلف وأخذهم على حَيْنِ غُرَّةٍ، بعد أن فقدوا حماية رماتهم، وأنزل بهم الهزيمة. عندئذ ترك المسلمون جمع الأسلاب وانقلبوا يقاتلون خيل بن الوليد. وأحس المشاة المكّيون أن الضغط عليهم قد خفّ، ولمحوا المسلمين يدافعون جيش خالد عنهم، من الغرب ومن الجنوب، وكانوا أكثر عدداً من المسلمين، فأثخنوا فيهم الجراح.

وفضلاً عن عنصر " المباغتة " برز عنصر آخر في هذه المعركة من جانب المكّيين، هو استعمال العنصر النفسي في القتال وهو، " الذعر ومكافحة الذعر "، خصوصاً

بعد أن أطلق القرشيون في صفوف المسلمين، وربما عن غير قصد منهم، إشاعة أن محمداً قد قتل، فذعر المسلمون، وصار يقتل بعضهم بعضاً من الهلع والعجلة، حتى ان فريقاً من الذين ظنّوا أن محمداً مات، ومن بينهم أبو بكر الصدّيق وعمر بن الخطاب، انتحوا ناحية الجبل، وقعدوا عن القتال، فرآهم " أَنَس بن النضر " فقال: ما يجلسكم؟ قالوا: مات رسول الله. قال: ما تصنعون بالحياة بعده؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه.

وما إن تبيّن المسلمون أن خبر موت النبي لم يكن سوى خدعة، أو خطأ، وما إن صاح أحدهم، وهو " كعب بن مالك " حين رأى النبي " يا معشر المسلمين! أبشروا هذا رسول الله " حتى تحلّقوا حوله يحمونه ويدفعون الأذى عنه.

والجدير بالذكر أيضاً، ان ما تميزت به هذه المعركة " معركة أُحُد " ذلك الدور الهام الذي لعبته نساء قريش فيها. إذ كنّ يمشينَ خلف الصفوف، يَضرِبْن الدفوف، ويَقرعْنَ الطبول، ليشجّعْنِ الرجال على القتال، وينشدْنَ لهم أناشيد الحرب.

إضافة لذلك، فقد برز النبي الكريم وخالد بن الوليد في هذه الوقعة كقائدين عسكريين، فبرزت عسكرية الرسول بتركيز جنده على أرض المعركة، وبالأوامر التي أعطاها للرماة من مقاتليه، وكان عدم تقيّد رماة المسلمين بأوامر النبي هذه سبباً في هزيمتهم.

وبرزت عسكرية خالد بن الوليد ببداهته وجرأته في اغتنام الفرصة والمباغتة، فكانت مباغتته لجيش المسلمين من الخلف، وقد فقد حماية الرماة، عاملاً حاسماً في المعركة لصالح المشركين. هُزم المسلمون في هذه المعركة هزيمة مرّة، فعادوا منها أثلاثاً: " ثلث قتيل، وثلث جريح، وثلث منهزم ". والبعض يقول أن سبعين قتيلاً مسلماً سقطوا في هذه المعركة، فيهم حمزة عَمّ النبي، فبقرت هند زوجة أبي سفيان بطنه، وأخرجت كبده ولاكته بأسنانها. وجُرِح كثيرون فيهم الرسول نفسه، بعد أم شُجَّ في رأسه وكلمت شفته وكسرت رباعيّته. بينما لم يقتل من المكّيين سوى ثلاثة وعشرين رجلاً.

ومثّلت " معركة أُحُد " ضربة " كبيرة " للمسلمين، الذين أخذوا، من جديدٍ بعدها، يستعدّون لمعركة فاصلة مع المشركين – واليهود منهم على الأخص بعد أن برز دورهم العدائي للنبي والاسلام بشكل فاضح وخبيث –، فكانت " معركة الخندق " في آذار عام

626م. فبعد أن انسحب المكّيون من أُحُد، وهم يُضْمِرون في أنفسهم أن يعودوا إلى المدينة بقوى أكثر عدداً وعُدّة. ومضى المكّيون في المدن والبوادي يؤلّبون القبائل على المسلمين. وقد ساعدهم اليهود في هذه المرة أيضاً بأموالهم علانية. ولم يُبَاغت المسلمون هذه المرّة بهجوم المكّيين، ولقد علموا به في أثناء تهيئته.

وأدرك الرسول أن لا قِبَل لأهل المدينة من مقاتلة المشركين هذه المرّة في معركة مكشوفة لأنه علم بأن عددهم سيكون عظيماً جداً. لذلك قرّ الرأي على حفر خندق حول النقاط الضيّقة من المدينة لمقاتلة المشركين من ورائه. والمعروف من معظم المصادر أن سلمان الفارسيّ هو الذي أشار على الرسول بفكرة حفر الخندق. وخطّ الرسول الخندق متعرّجاً، حتى يمر بعدد من التلال ومن الفجوات. ثم جعل طوله نحو عشرة كيلو مترات. وكان الخندق يحمي المدينة من الشمال والشرق. وقد عمل في حفر هذا الخندق ثلاثة آلاف رجلٍ، كان كل عشرة منهم يحفرون في نقطة. وقد بدأ الحفر في النقاط المختلفة في وقت واحد. واستغرق حفر هذا الخندق نحو عشرين يوماً. ولقد أشرف الرسول على حفر الخندق إشرافاً تاماً، وكان أحياناً يساعد في الحفر وفي نقل التراب.

وعسكر المسلمون على جبل " سَلْع "، وهو يُطل على ما وراء الخندق من الجهتين الشمالية والشرقية. أما المكّيون فكانوا بعيدين عن مراكز تموينهم من مكة، فسرعان ما أصبحوا يشكون نقصاً في المؤن. وحاول اليهود أن يموّنوا المشركين من خيبر، فوقعت مقادير من مؤنهم في أيدي المسلمين. وكان أحلاف المكّيين مرتزقة جاءوا لحصار المدينة بعد أن وعدهم المكّيون بمبالغ معيّنة. فلما طال الحصار سئموا المُقام. وفاوض المسلمون نفراً من رؤساء القبائل للانسحاب لقاء مقادير من غلال المدينة. ثم اتفق أن ثارت ريحٌ شديدة، باردةٌ في الأغلب، فقلبت خيام المحاصرين فجمعوا خيامهم وانصرفوا، يجرّون ذيول الخيبة والمرارة. وقد عرفت هذه الغزوة باسم " غزوة الأحزاب " أيضاً لأن جميع الأحزاب في الحجاز ونجدٍ، من الوثنيين واليهود، قد اشتركوا فيها.

كان لارتداد الأحزاب عن المدينة معنىً كبيرٌ، هو أن الاسلام كان في ذلك الحين قد أصبح أقوى من جميع خصومه مجتمعين. ولذلك صار المكّيون يتقرّبون من الرسول

لإحلال السلام بين مكة والمدينة ما أمكن.

وحول نتائج معركة أُحُد والدروس المستفادة منها، يشير الباحث أحمد راتب عرموش في كتابه عن " قيادة الرسول السياسية والعسكرية "، ان هذه المعركة كانت ولا شك، هزيمة " مؤقتة " للمسلمين، ولكننا لا نستطيع ان نعتبرها نصراً حاسماً للمشركين، وبخاصة أنهم لم يستثمروا الفوز الذي حققوه في المعركة، وانسحبوا منها في لحظة غير مناسبة، دون أن يقلبوا النصر الأولي المحقّق إلى نصر حاسم.

واستطاع الرسول ان يخرج من المعركة بخسائر لا تتجاوز العشرة بالمائة من قواته التي خاض بها المعركة. وأخذ جيشه دروساً أفادته فيما بعد، وأفادت " الاستراتيجية الاسلامية " على مدى الأيام. أما على صعيد الدروس المستفادة، فقد تبين ان النصر لا يرتبط بتعداد القوات، فقد انتصر المسلمون في بدر ولم ينتصروا في أُحُد رغم أن نسبة تفوّق المشركين كانت متقاربة في المعركتين... كما ظهرت أهمية تطهير الصفوف من المنافقين وذوي العقيدة المزعزعة. وكان انسحاب عبد الله بن أبي سلول درساً لم ينسه المسلمون أبداً، حتى ان أبا بكر لم يسمح للمرتدين بعد وفاة الرسول (ﷺ) بالمشاركة في جيوش الفتح.

يضاف الى ذلك ان معركة أُحُد علّمت المسلمين أن سنن الحياة لا تتبدّل، فهم عندما يأخذون بأسباب النصر ينتصرون، وعندما يتهاونون فيها ينهزمون. انها سنّة الله في خلقه، ولن تجد لسنّة الله تبديلا... كما علمتهم أيضاً أهمية الانضباط العسكري والتقيّد بتعليمات القائد مهما كانت الظروف والأحوال. فقد تبين لجميع المسلمين ان السبب الأول في الهزيمة يعود إلى تهاون الرماة في تنفيذ الأوامر وتركهم الجبل، مما حرم مؤخرة المسلمين من الحماية، ومكّن خالد بن الوليد من الالتفاف عليهم...

هذا، وكان من نتيجة معركة الخندق، فشل تام لقريش، بقيادة أبي سفيان وحلفائها. ونصر للمسلمين بقيادة الرسول القائد العظيم (كما يشير الباحث احمد راتب عرموش).

ويمكن اختصار أهم أسباب فشل المشركين بما يلي:

1 – عدم وحدة القيادة واختلاف المهاجمين. وقد كانت قريش تهدف إلى القضاء على الدين الاسلامي، وغطفان تأمل بنهب المدينة وفرض اتاوة على

أهلها، يفسر ذلك موافقتهم على الانسحاب من المعركة مقابل ثلث ثمار المدينة، الأمر الذي رفضه الأنصار. ويهود بني قريظة ترددوا كثيراً حتى وافقوا على مخطط أبناء دينهم من اليهود الذين أجلوا عن المدينة إلى خيبر. وقد امتازوا بالتردد وعدم الثقة بحلفائهم من أول الحصار حتى آخره، وكانوا يأملون أن يقضي الأحزاب من قريش وغطفان على المسلمين دون أية تضحيات فعلية منهم في المعركة.

2 – اختيار المسلمين موقفاً دفاعياً في داخل المدينة، بالاضافة إلى موقع المدينة الحصين طبيعياً من ثلاثة اتجاهات، ناهيك عن استكمال ذلك الموقع الحصين بالخندق الذي كان له دوران مهمان:

الأول: حقق مفاجأة للمهاجمين قلب خططهم رأساً على عقب.

الثاني: حرم المهاجمين من خوض معركة غير متكافئة كانوا يحلمون بالنصر فيها لتفوقهم الهائل في العدد والعدّة.

3 – طريقة الدفاع " المرنة " التي اعتمدها الرسول (ﷺ)، فقد كانت قواته جاهزة باستمرار للتحرك باتجاه أيّة ثغرة وسدّها بسرعة. كما ان انتظام الدوريات والمراقبة المستمرة والشاملة حرم المشركين من انتهاز أية فرصة.

4 – ثبات المسلمين، واستماتتهم في الدفاع عن مدينتهم، ظهر ذلك بجلاء عندما رفض سادة الأوس والخزرج دفع اتاوة من ثمار المدينة لزعماء غطفان، مما جعل أولئك الزعماء يدركون خطورة المعركة التي تنتظرهم فيما لو حصلت، وربما حملهم ذلك على تقويم جديد لمواقفهم.

5 – سوء اختيار زمان المعركة للمشركين، فقد كان الشتاء قاسياً، وهم لم يعتادوا البرد الشديد، ولم يتمكنوا من تأمين الامدادات لقواتهم الكبيرة. وكان مقامهم في العراء تحت الخيام يحرمهم الدفء الذي تؤمنه الأبنية، وكثيراً ما اقتلعت الرياح خيامهم وأطفأت نيرانهم حتى ضجوا بموقفهم عندما طال الحصار، دون نتيجة.

وكان قرار الانسحاب في لحظة من تلك اللحظات القاسية التي اشتدت فيها الرياح والأعاصير، حتى ظنّوا الموت آتيهم من غير حرب.

6 – الحرب النفسية المدمرة التي قادها ابن مسعود بحنكة عالية تعجز عنها أرقى

أجهزة المخابرات المعاصرة، فقد استطاع وحده أن يفرق صفوف الأحزاب ويزعزع الثقة في نفوسهم مما جعلهم يحجمون عن الدخول في المعركة وحسم الحصار بالمواجهة.

وكان من نتائج هذه المعركة ان كشفت اهمية تحصين الجبهة الداخلية وضرورة التنّبه للمجموعات المعادية، التي يخرسها الخوف في أثناء السلم، وتحركها الأحقاد عند أول فرصة سانحة لتكون عوناً للأعداء على الحلفاء.

لذلك نجد الرسول (ﷺ) عمد الى تطهير المدينة من بني قريظة عقب فك الحصار مباشرة وقبل إلغاء السلاح. كما نجد أيضاً ان عمرو بن العاص وخالد بن الوليد قد أعلنا اسلامهما في هذه الفترة، بعد الخندق وقبل " صلح الحديبية " بين النبي والمكّيين في ربيع عام 628 م.

المراجع

1 – أبو جعفر محمد بن جرير الطبري " تاريخ الأمم والملوك " الجزء الثالث. ص 9 وما بعدها وص 43.

2 – الموسوعة العسكرية. الجزء الأول. ص 34 – 35.

3 – عمر فروخ " تاريخ صدر الاسلام والدولة الأموية ". ص 64 – 67.

4 – سيّد محمد علي " مختصر تاريخ العرب " ص 19.

5 – سيرة ابن هشام. المجلد الثاني. ص 3 والثالث. ص 229.

6 – طبقات ابن سعد. المجلد الثاني. ص 25 وما بعدها وص 47.

7 – الواقدي. المجلد الأول. ص 197 وص 362.

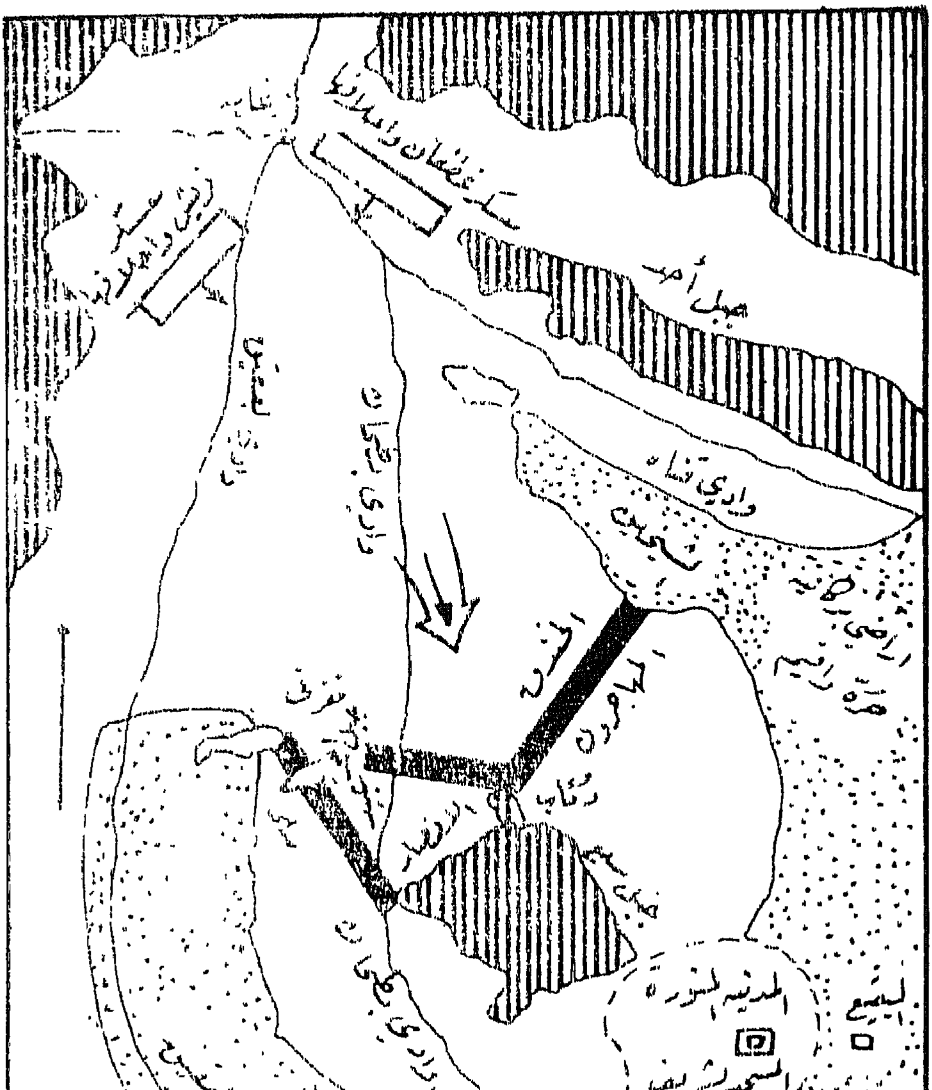
8 – محمد ابو الفضل ابراهيم وعلي محمد البجاوي " أيام العرب في الاسلام ". ص 33–50.

9 – الفريق عفيف البزري " الجهاد في الاسلام ". دار الكرمل. دمشق 1984. ص 98 – 110.

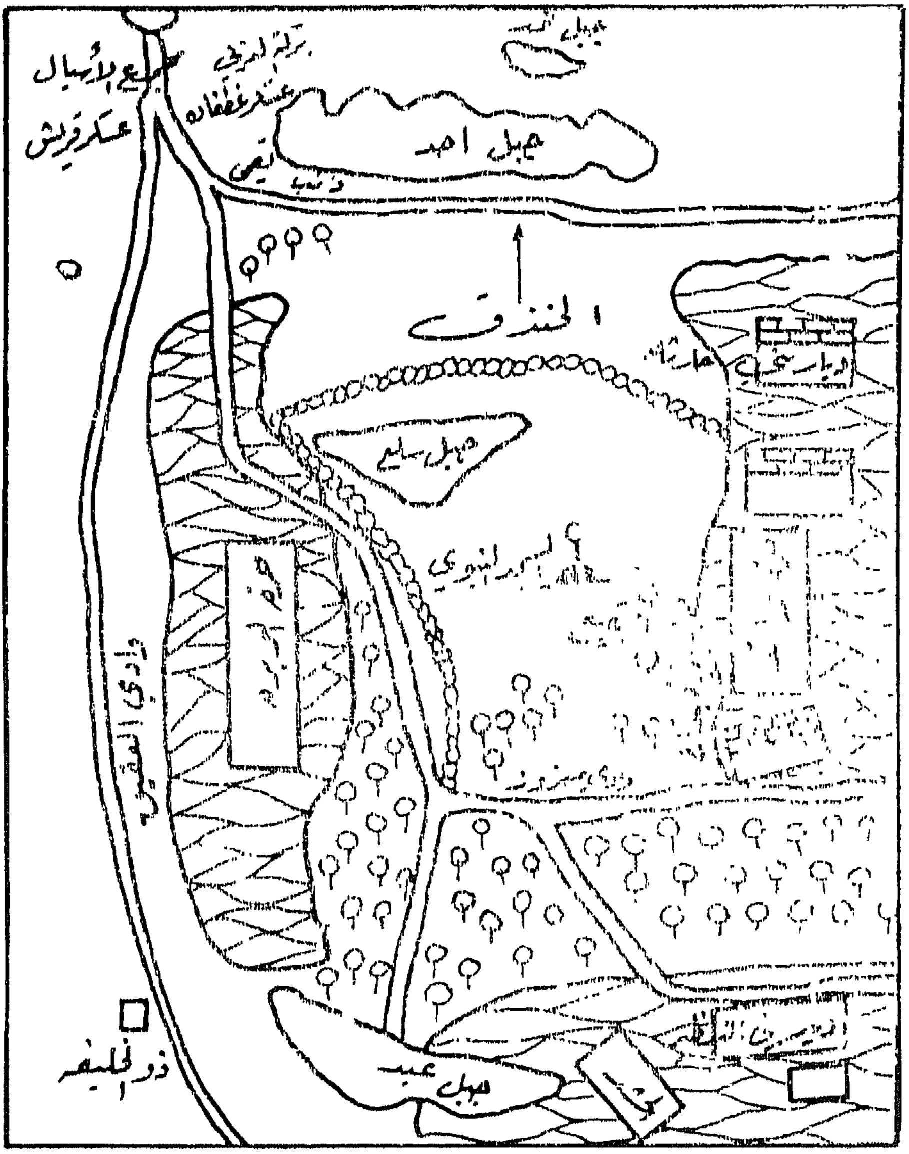
10 – العقيد محمود الدرّة " معارك العرب الكبرى " منشورات الفاخرية– الرياض ودار الكاتب العربي– بيروت. دون تاريخ. ص 102 – 118.

11 – العميد الركن سيف الدين سعيد آل يحي " الحركات العسكرية للرسول الأعظم في كفّتي الميزان " الجزء الأول. الدار العربية للموسوعات. بيروت الطبعة الأولى 1983. ص 205 – 261. والجزء الثاني أيضاً. ص 303 – 332.

12 – احمد راتب عرموش " قيادة الرسول (ﷺ) السياسة والعسكرية ". دار النفائس بيروت. الطبعة الأولى 1989. ص 65 – 67 و 84 – 86.



المرجع: العقيد شاكر الامامي " العرب والحرب ". ص 93



المرجع: العقيد سليم شاكر الامامي " العرب والحرب ". ص 84.

معركة الأرك (Alarcos) (*)

19 تموز 1195/ 591هـ.

هي احدى المعارك الهامة التي جرت في الأندلس بين أبو يوسف يعقوب المنصوري (زعيم دولة الموحدين) وبين ملك قشتالة ألفونس الثامن، وكان النصر فيها للمنصور الموحّدي.

هذا، وقد كانت البابوية من وراء حرب " الاسترداد " التي نشطت في شبه جزيرة ايبرية منذ منتصف القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي. فالبابا إربان الثاني عند دعوته في كليرمونت (1095) للبدء في حملة صليبية لانتزاع بيت المقدس من أيدي المسلمين، أعفى الاسبان من المشاركة فيها، ومنحهم صكوك الغفران من الذنوب والآثام، معتبراً استرداد شبه جزيرة إيبرية من أيدي المسلمين كالاستيلاء على فلسطين. وبمساعدة الصليبيين القادمين من بلدان شمال أوروبا في طريقهم بحراً إلى فلسطين، استولى أول ملوك البرتغال أفونسو هنريقيز (ابن الريق/ ابن الرنق) على مدينة لشبونة الإسلامية عام 1147م.

وجدير بالذكر الدور الكبير الذي قام به فرسان النظُم الدّيرية العسكرية في شبه جزيرة إيبرية في القرن الثاني عشر، وهو دور شبيه بدور فرسان الاسبتار والداوية في المشرق، وعلى غرارهما تأسست في شبه جزيرة ايبرية نظُم ديرية جديدة بالأهداف الصليبية نفسها، أهما سانتياجو Santiago وقلعة رباح Calatrava، والقنطرة Alcantara، وكلها قامت ونشطت في مناطق الحدود المناخية لآراضي المسلمين في الأندلس.

إن البابا سلستين الثالث – وهو إسباني – كان قد ساعد قبل انتخابه لكرسي البابوية (1191م) على تأسيس نظام سانتياجو، وجعل البابوية تولي المزيد من الاهتمام لحرب الاسترداد، وبخاصة بعد انتصار حطين وتحرير بيت المقدس (1187م).

إن جمـوع الصليبيـين الشـماليين انضمت إلـى ملـك البرتغـال شـانجُه الأول (1185- 1211م)، وكان لها دور مهم فـي استيلائه علـى قصـر أبـي دانـس ومدينـة شـلب بـإقليم الغرب.

ولما خلف أبو يوسف يعقوب أباه أبا يعقوب يوسف (580هـ/ 1184م)، بعـد أن استشهد محاصراً لمدينة شنترين، كـان ينـوي مواصلـة الجهـاد الـذي شـرع فيـه والـده فـي غرب الأندلس، لولا وصول أنباء عن قيام بنـي غانيـة- مـن فلـول المرابطيـن بميورقـة- ونزولهم فب بجاية واستيلائهم على الجزء الشرقي من بـلاد المغـرب. ولمـا استفحل أمـر بني غانية- بعد تحالفهم مع قراقوش الغُزّي وبعـض القبـائل العربيـة بأفريقيـة- توجـه أبـو يوسف على رأس حملة كبرى لمحـاربتهم، وبعـد هزيمـة مبدئيـة للموحديـن في عُمْـــرة (1187/6/14)، قبل حطين بأقل من شهر، ألحق أبو يوسف بالثائرين هزيمة كبرى فـي الحامة من أحواز قابس (14 اكتوبر 1187م)، أي بعد إثني عشر يوماً فقط مـن تحريـر المقدس. إلا أن هذه الهزيمة لم تقضِ نهائياً علـى حركـة بنـي غانيـة، الذيـن تولـى قيـادتهم يحي بـن اسـحاق بعـد وفـاة أخيـه علـي (1188م)، وظلـوا شـوكة تقضّ مضـاجع دولـة الموحديـن زهـاء نصـف قـرن. كـان بنـو غانيـة- وولاؤهـم للخلافـة العباسـية فـــي بغـداد كالمرابطين من قبلهم- من أهم الأسباب التي أوهنت دولة الموحدين وحـاولت دون تركـيز سلاطينها على الجهاد في الأندلس، إذ كان بنو غانية يعـودون مـن الصحـراء إلـى افريقيـة والمغرب الأوسط بمجرد انشغال الموحدين في محاربة المماليك المسيحية بإسبانيا، كما أن ملوك النصارى كانوا يغتنمون فرصة انشغال الموحدين بمحاربـة بنـي غانيـة فـي افريقيـة لاستئناف غاراتهم في الأندلس.

وفضلاً عن انشغال الخليفة الموحّدي ببني غانية وأنصارهم فـي أفريقيـة، فـإن أبـا يوسف يعقوب المنصور لقي في بدايـة حكمـه معارضـة مـن بعـض القبـائل كغمـارة وبنـي مرين، ومن عدد من أقاربه الذين- على حد قول عبـد الواحـد المراكشـي- لـم يـرَوْه أهـلاً للإمارة، ومن بينهم أخوه الملقب بالرشـيد والـي مرسـية، الـذي يبـدو أنـه كـان يطمـع فـي الإمارة متواطئاً مع ملك قشتالة، وعمه سليمان بن عبد المؤمن والي تادلا ببلاد صنهاجـة. فلما عاد المنصور ظافراً من حملتة ضد بني غانية، بادر بقتلهمـا، وبعـد ذلـك " هابـه بقيـة

القرابة.. بعد أن كانوا متهاونين بأمره، وأظهر بعد ذلك زهداً وتقشفاً وخشونة ملبس ومأكل ".

بعد أن تم تحرير بيت المقدس (1187/10/2م)، وأخذ الأوروبيون في الإعداد للحملة الصليبية الثالثة " (1189- 1192م)، أتيحت الفرصة لملك البرتغال شانجُه الأول لاجتياح غرب الأندلس جنوبي نهر تاجُه، فاستولى على عدد من المدن والحصون، في مقدمتها ميناء قصر أبي دانس إلى الجنوب من لشبونة. وفي صيف عام 1198م رسا في لشبونة أسطول صليبي كان يضم محاربين من فلاندرز وانجلترا أبرموا اتفاقاً مع ملك البرتغال لمهاجمة مدينة شِلْب في 20 رجب 585هـ/ 3 سبتمبر 1189 م، ونزح سكانها عنها، وتوجه معظمهم إلى إشبيلية واستغاثوا بالمنصور الذي استنفر الناس للجهاد، وجاز بحر الزُقاق (1190/5/1م). وفي حين ترك لحشود الأندلس محاصرة شِلْب، زحف المنصور على رأس جيش الموحدين شمالاً، فحاصر مدينة شنترين، وفيها اعتصم ملك البرتغال، وعاث في أحوازها وأحواز لشبونة، ثم عبر نهر تاجُه وافتتح حصن طرُش (Torres Novas) وهاجم حصن طُمار (Tomar) معقل فرسان الداوية، وعاث أياماً في تلك الجهات. وتذكر رسالة موحّديه بتاريخ 26 جمادى الآخرة/ 31 يوليو 1191م، أن صاحبي قشتالة وليون طلبا المسالمة عند بداية هذه الغزوة فأسعفهما المنصور إلى ذلك " فرأينا أن من { مصلحة المسلمين } تشتيت أعدائهم، وتفرق كلمتهم، واختلاف آرائهم... وتجرَّد العزم لغزو ابن الريق { شانجُه الأول } إذ هو أقرب داراً وأصعب جوراً... واستمر الموحدون على سيرهم إلى أن جازوا وادي تاجو... وقصدوا مزرعة شنترين... فانتسفوا زروعها... ثم نهدوا إلى قلعة للأعداء تسمى طُرّش { فاستأمن أهلها }... فأجبناهم إلى ذلك، لما ظهر فيه من النظر، وليكونوا لقومهم وأهل ملّتهم من المثيلات والعبر... ثم توجهوا إلى مدينة طُمار (Tomar)، وهي من القواعد المنيعة { قاعدة فرسان الداوية }... وملكهُم ابن الريق بشنترين... ملازم لانحجارة... لا يبرز لمقارعة...".

وفي هذه الفترة، ظهر أسطول إنجليزي أمام لشبونة في طريقه إلى فلسطين للانضمام إلى اسطول الملك ريتشارد الأول المُحاصر لعكا، فاستعان به ملك البرتغال

لتعزيز حامية شنترين، فانسحب الموحدون، ولعل انسحابهم عن شنترين كان بسبب انتشار الأوبئة من منطقة وادي تاجُه، كما يذكر المؤرخون البرتغاليون.

وفي شهر أبريل 1191 غادر المنصور إشبيلية على رأس جيشه الرئيسي، وزحف نحو قصر أبي دانس حيث اجتمع به أسطوله فاستولى على هذا الميناء الهام من أيدي فرسان سانتياجو، كما استولى على حصني بلمالة والمعدن ودكّهما (حزيران 1191م).

ثم عرّج المنصور على شِلْب وحاصرها حصاراً شديداً، ورمى أسوارها بالمجانيق، فاستسلمت حاميتها وعادت المدينة إلى أيدي المسلمين (1191/7/20م). وعاد المنصور ظافراً إلى المغرب، بعد أن استردّ كل ما كان قد استولى عليه البرتغاليون جنوبيّ نهلا تاجُه، باستثناء مدينة يابُرة.

في هذه الفترة التي كان فيها المنصور يواصل غاراته وحملاته في غرب الأندلس ضد ملك البرتغال وحلفائه الصليبيين، وصل إلى فاس في أواخر عام 1190م عبد الرحمن بن منقذ رسول صلاح الدين، مستعيناً باسطول الموحدين ضد الصليبيين بثغور بلاد الشام، أو للحيلولة دون وصول نجدات صليبية بحرية عن طريق بحر الزقاق (مضيق جبل طارق). ولما كان المنصور منهمكاً في حروبه بغرب الأندلس، فإن ابن منقذ انتظره في فاس إلى حين عودته. يقول ابن خلدون إن المنصور اعتذر عن الأسطول، ونقم على الأيوبيين " تجافيهم عن خطابه بأمير المؤمنين، ولم يجبه إلى حاجته ".

وحقيقة الأمر، أنه في الفترة التي كان فيها صلاح الدين يحارب الصليبيين المحاصرين لعكا (1189- 1191م)، كان المنصور بالمثل يخوض حرباً ضروساً في غرب الأندلس- براً وبحراً- ضد ملك البرتغال وحلفائه الصليبيين الوافدين من أقطار شمال أوروبا في طريقهم إلى فلسطين. ولا شك في أن اعتذار المنصور عن تقديم المعونة لم يكن بسبب عدم مخاطبته بأمير المؤمنين، بل كان بسبب حاجته الماسّة لكل قطع أسطوله لمجابهة الأخطار المحدقة بالأندلس والمغرب من جانب ملوك إسبانيا والبرتغال، وفرسان النّظُم الدَّيرية، وجموع الصليبيين المتقاطرة من شيمال أوروبا. أضف إلى ذلك،

أن بني غانية– الموالين للعباسيين– كانوا ما يزالون يقضّون مضجع دولة الموحدين في أفريقية والمغرب الأوسط، دون أن يصدر عن الخليفة العباسي أو صلاح الدين ما يستنكر أعمالهم أو ينهاهم عنها.

وقعة الأرك (1195/7/19م) ونتائجها:

لما هادن المنصور ملك البرتغال وعاد إلى مراكش، تناهت إليه الأنباء بعودة يحي ابن اسحاق بن غانية من البّرية إلى أفريقية، فعزم على قصده وإخراجه من أفريقية، كما فعل من قبل عام 583هـ / 1187م. وفي هذه الآونة، انتهت – أو كادت – الهدنة المعقودة عام 1190م مع ملك قشتالة ألفونس الثامن– ومدتها خمس سنوات– وأخذ ملك قشتالة في شن الغارات في نواحي أشبيلية، فعدَل المنصور عن التوجه إلى أفريقية، واستنفر الناس للجهاد في الأندلس، فاستجابت لندائه القبائل كافة بالمغرب – بمن فيها بعض القبائل المنشقّة أو الثائرة كبني مرين وغُمارة– مما جعل المنصور يشعر بارتياح بأن وحدة الدولة الموحدية – بالرغم من قيام بني غانية في أطرافها الشرقية – كانت قوية متماسكة إزاء العدو النصراني.

سار المنصور على رأس جيشه من إشبيلية في اتجاه الشمال الشرقي. وكما فتكت قوة استطلاعية من فرسان المسلمين بمفرزة من فرسان الداوية والاسبتارية في العفّوله قبيل معركة حطين، فإن طلائع جيش الموحدين قضت قبيل معركة الأرك على سريّة من فرسان قشتالة خرجت مستطلعة قرب قلعة رباح شمالي قرطبة.

وكما استشار صلاح الدين أمراء جنده قبيل المعركة، فإن المنصور شاور أمراء جيشه ورؤساء القبائل إقتداء بسنّة رسول الله (ﷺ).

وكذلك كما حرص صلاح الدين على عزل الصليبيين عن حلفاء لهم في حطين، فإن المنصور استغلّ بدوره الخلافات والمنازعات القائمة على الحدود بين ملك قشتالة ألفونس الثامن، وبين كل من ملك ليون وملك نَبارِه، وسار للقاء القشتاليين دون أن يكون لهم حلفاء ينصرونهم.

كان اللقاء قرب حصن الأرك Alarcos، وهو حصن بمديرية قلعة رباح Calatrava يعرف اليوم باسم سانتا ماريا دي الأرك، وكان حصناً شيّده ألفونس الثامن–

على بعد نحو سبعة أميال إلى الجنوب الغربي مـن المدينـة الملكيـة – Cuidad Real فوق جبل ينحدر تدريجياً في اتجاه وادي آنة Guadiana. وفي السهل المتموج في أسفل الحصن جرت وقعة الأرك الشهيرة.

إن معلوماتنا ضئيلة عن تفاصيل وقعة الأرك، ولكن يبدو أن القشتاليين شنوا هجوماً مفاجئاً على طلائع الموحدين، وكان على رأسها وزير المنصور أبو يحي حفيد أبي حفص عمر إنتي، دون إحراز نجاح يُذكر. وقام المنصور بمهاجمة جناح القشتاليين، مما اضطرهم الى اللجوء إلى حصن الأرك، أو إلى الفرار مع ملكهم في اتجاه طليطلة.

وكصلاح الدين في حطين، كان المنصور يمشي بين صفوف جنده ويحثّهم ويوجّهُهم.

إن المعركة التي انتهت بهزيمة منكرة للقشتاليين بدأت في ضحى يوم الأربعاء 9 شعبان 591هـ / 19 يوليو 1195م، وانتهت عند الزوّال. واعتصم معظم فل القشتاليين في حصن الأرك – وكانوا خمسة آلاف – استنزلهم المنصور وفودي بهم عددهم من المسلمين. ويقول ابن أبي زرع الفارسي، إن فِعْلة المنصور بالإفراج عن أسارى الأرك عزّت على المسلمين وحُسبت له سقطة من سقطات الملوك. وكذلك انتُقد صلاح الدين لإفراجه عن الفرنج من أهل المدن والحصون التي استسلمت له بعد حطين، لأن معظمهم لجأ إلى مدينة صور، وعاودوا منها محاربة المسلمين. ويحكى أن المنصور أعرب قبيل وفاته عن ندمه لإطلاق سراح أسارى الأرك وقال: إنه " لا بدّ لهم أن يطلبوا بثأرهم ".

ويذكر الحميري أنه سمع بأن انتصار الأرك إنما كان " إتفاقياً بسبب إحراز الروم بعض رايات المسلمين... وانبعاث حفائظ بعض القبائل لمّا عاينوا راية إخوانهم مقدّمة على العدو، فأوغلوا وهم لا يعلمون الحال. وكيفا كان فهو فتح مبين ونصر مؤزر ".

احتلّ المنصور حصن الأرك وقلعة رباح وغيرهما من الحصون التي كانت تحمي الطريق المؤدية إلى طليطلة.. ولحسن حظ القشتاليين، فإن المنصور لم يبادر إلى محاصرة طليطلة بعد انتصاره مباشرة بل عاد إلى إشبيلية. ولدى عودته إليها اتخذ أبو يوسف يعقوب لنفسه لقب " المنصور بالله ".

وفي العام التالي (592هـ / 1196 م)، غزا المنصور أرض قشتالة

واستولى على عدد من الحصون منها منتجانس Mantanchez وترجالة Trujillo وشنتقروز Santa Cruz ، وعاث في وادي تاجُه وفي أحواز طَلَّبيرة Talavira ، وتقدم إلى نعص طليطلة وضرب مزارعها.وحالف المنصور خصميْ صاحب قشتالة، وهما صاحب نباره شانجُه السابع، وصاحب ليون ألفونس التاسع، وزوّد الأخير بالمال والجند لشن الهجمات على أراضي مملكة قشتالة.

وقد جاء في إحدى الرسائل الموحدية المؤرخة في 9 رمضان 592 هـ / 5 أبريل 1196 م، أنه أثناء غزو المنصور أراضي قشتالة " كان صاحب ليون – وهو ابن عم هذا الكافر المغرور { صاحب قشتالة ألفونس الثامن }– توسّل المسالمة لخدمته، وألقى الله بينهما حرباً { ولما طلب مدداً من المسلمين لغزو قشتالة }... فبُعث إلى أرضه جيش من المسلمين هالته شجاعتهم... { وفي طريق العودة من غزو أرض قشتالة، أخذ الموحدون معاقل من بينها قلعة برطبونة Piedrabuena }... وفيها جملة كبيرة من محاربة الكافرين وشجعانهم الافريريين (Friars)... نِسالة جيش الصليب المغلول ".

وفي العام التالي لوقعة الأرك، أمر البابا سلستين الثالث ملك نباره (شانجُه السابع) بالتخلي عن تحالفه مع الموحدين، كما اتخذ عدة خطوات لإجبار ألفونس التاسع ملك ليون على وقف هجماته– بالتعاون مع الموحدين– على أراضي قشتالة، فأصدر قرار حرمان ضدّه. ولم يلبث أن أدرك ملكا قشتالة وليون عقم صراعهما، وقبلا اقتراحاً بأن يتزوج ملك ليون من ابنة ملك قشتالة، على أن تأخذ مهراً لها الحصون موضع النزاع بينهما، كما أصدر البابا مرسوماً عام 1197م يقضي بالسماح للمحاربين من مقاطعة أكتين بجنوب فرنسا – وكانوا قد نذروا أنفسهم للمضي في حملة صليبية لمحاولة استرداد بيت المقدس– بمحاربة المسلمين في إسبانيا، بدلاً من فلسطين.

وفي عام 593 هـ / 1197م، غزا المصنور، للسنة الثانية على التوالي، أرض قشتالة، وتوغل شمالاً فهاجم حصن مجريط ووادي الحجارة. ولما عاود ملك قشتالة طلب الصلح، وافق المنصور – بعد تردد – على إبرام هدنة معه مدتها خمس سنوات، ولعل موافقة المنصور على الهدنة كانت بسبب وصول أنباء تجدد غارات يحي بن غانية في أفريقية.

إن الـهزيمـة الكبـرى التي لـحقت بملك قشتالة في الأرك كانت رادعاً لملوك شمال إسبانيا، إذ التزموا بشروط الهدنة المعقودة إلى عام 1210 م، بل إن الهزيمة كانت رادعاً كذلك لرجال الثغور من التحرش بالموحدين، مع أن البابوية كانت تعارض إبرام الهدنـات مع المسلمين، وتنفر من توقف حرب " الاسترداد " في شبه الجزيرة.

لقد أحرز الموحدون في الأرك انتصاراً عظيماً (479 هـ / 1086 م)، إلا أنه - كانتصار الزلاقة - كان انتصاراً دفاعياً بحتاً لم يعقبه استيلاء على أرض جديدة.

إن انتصار الأرك أدى إلـى إثارة الذعر فـي قلـوب النصـارى فـي أوروبـا. فبعد حطين بثماني سنوات فقط، إنهارت الجبهة الغربية للنصرانية، وظهر صـلاح الديـن آخر، وعلى مسافة أقرب من عواصم غرب أوروبا. ونقل النصارى الإسبان أخبار الهزيمة إلـى بقية بلدان غرب أوروبا، كما نقل رهبان السسترشـيان الإنجليز إلـى بلادهم حكايـات عن وجود جيش مغربي- قوامه ستماية ألف رجل- قادم لاجتياح أوروبا. ولبعض الوقت، فكر ملكا انجلترا و فرنسا في تجهيز حملة مشتركة ضد الموحدين، ثم تخلّيا عن الفكرة.

إن انتصاريْ حطين والأرك كانا انتصارين عظيمين، حققهما صلاح الدين الأيوبي ويعقوب المنصور الموحدي، مجاهديْن، دفاعـاً عـن أرض العروبـة والاسـلام ضـد الغـزاة الصليبيين في المشرق والمغرب. فبفضل انتصار حطين حررّ صلاح الديـن بيـت المقدس وأرض فلسطين، وقضـى على المملكة اللاتينية المقامة في بيت المقدس منذ عـام 1099م، ثم تصدى للحملة الصليبية " الثالثـة " (1189-1192م) وأحبـط أهدافهـا، فـاحتفظ ببيت المقدس وبمعظـم الآراضـي التـي حـررت بعـد وقعـة حطيـن. وفـي الأرك، حيـث انتصـر يعقوب المنصور على ملك قشتالة- المدعوم من قبل البابويـة- حيـل بيـن صـاحب قشـتالة وبين تحقيق أطماعه في الأندلس إلى حين، ولو أن المنصور لم يقضِ على مملكة قشـتالة، ولم ينجح بعد انتصاره الباهر في أخذ طليطلة قاعدة قشتالة، أو في الإستحواذ علـى أرض جديدة، حتى إذا ما اجتمعت كلمة ملوك قشتالة وليون وأرجون ونباره والبرتغال وقـادوا - بتحريض مستمر من البابا - حملة صليبية مشتركة كبرى للثأر من هزيمة ملك قشتالة فـي وقعـة الأرك، كُتب لهـم الظفـر - بعـد الأرك بسبع عشـرة سنـة - فـي وقعـة العقـاب La Navas de Tolosa (609هـ / 1212 م)، وفـيـها لـحقت بولـد الـمنصور وخليفته -

محمد الناصر – هزيمة كبرى، كانت إيذاناً ببداية نهاية الاسلام في شبه جزيرة ايبرية.

كانت غنائم المسلمين في معركة الأرك أكثر من أن تحصى، حتى قيل بأنه حصل لبيت المال من دروع الإفرنج ستون ألفاً، وعدة الخيام مائة وخمسين ألف خيمة، والخيل ثمانين ألفاً والبغال مائة الف والحمير أربعمئة ألف، جاء بها الكفار لحمل أثقالهم. أما الجواهر والأموال فلا تحصى. وقيل إن عدد قتلى الفرنج قد وصل إلى 146 ألف قتيل وبلغ عدد الأسرى 30 ألفاً (حتى بيع الأسير بدرهم، والسيف بنصف درهم، والفرس بخمس دراهم والحمار بدرهم)، وقسم يعقوب الغنائم بين المسلمين بمقتضى الشرع.

نتائج المعركة

أ – النتائج السياسية:

تبرز معركة الأرك مجموعة من الحقائق الثابتة لعلّ من أولها الاضطراب الواضح في موازين القوى العسكرية الناتجة عن ضعف المواقف السياسية. فقد عمل نصارى الشمال بصورة مستمرة على زيادة قدراتهم القتالية بإقامة التحالفات السياسية، وكانت هذه التحالفات محددة العلاقات بالنسبة للفرنج، إذ كانت تقتصر على تنسيق الجهد العسكري، في حين كانت التحالفات العسكرية عند أمراء المسلمين غير محددة وغير واضحة مما ساعد على إضعاف القدرة الذاتية لمسلمي الأندلس الذين تركوا لمسلمي المغرب واجب الجهاد. فكان من نتيجة ذلك إنقضاض هؤلاء على مسلمي الأندلس وإزالة أنظمتهم وكياناتهم، ونتج عن ذلك نوع من النفور تحول إلى صراعات مريرة في كثير من الأحيان إستنزفت قدرة المسلمين بأكثر مما استنزفتها الحروب الخارجية.

ويظهر هذا الخطأ الكبير الذي وقع فيه المسلمون بين النظر إلى توحيد الأندلس كهدف في حد ذاته، وبين توحيد الأندلس لزيادة قدرتها الدفاعية وتدعيم إمكانياتها القتاليّة. وهكذا فقد حدثت معركة الزلاقة في إطار من التعاون العسكري وأمكن تحقيق النصر الحاسم، ثم جرى خوض معركة الأرك، وكانت سيطرة الموحدين ضعيفة على الأندلس. ولهذا جاءت المعركة في إطار تنسيق الجهد العسكري فكان النصر حليفها، ولكن عندما بسط المرابطون سلطانهم، ووحدوا الأندلس بإزالة كيانها، ضُعف أمر الجهاد وحقق الفرنج انتصارهم، وحدث مثل ذلك في معركة الأرك إذ أفاد الموحدون من انتصارهم فدعموا

مواقفهم، وأقاموا (السادة) لحكم الأقاليم مما أضعفهم، وبالرغم من أن قدرتهم قد زادت في مجال حشد القوى العسكرية (حيث جمعوا في معركة العقاب ستمائة ألف رجل)، إلا أن هذه الجموع الكبيرة كانت ممزقة داخلياً- (قلوبهم شتى) مما جعل هذه القدرة الكبيرة خارج ميزان القوى.

تبرز بعد ذلك أهمية العلاقة (الجدليّة) بين الهدف السياسي وهدف الحرب، فقد نظر قادة المسلمين إلى المعركة كصراع بين القوى المسلحة وأهملوا العامل السياسي، في حين كان الفرنج يتعاملون مع المعركة في إطار الهدف السياسي. ويمكن إيضاح ذلك من خلال المقارنة بين ما حدث بعد " معركة الأرك "، فقد انصرف امراء المسلمين إلى تنظيم إدارتهم بعيداً عن متطلبات الحرب طويلة الأمد، ولم يهتموا كثيراً ببناء جبهتهم الداخلية، كما أنهم لم يحاولوا تدمير قاعدة العدوان " طليطلة "، في حين انصرف الفرنج - " ألفونسو " لتركيز كل الجهود من أجل " الثأر " وبناء القدرة الذاتية. وأمكن له بعد 18 سنة فقط من تكبيد المسلمين أضعاف ما خسره في معركة الأرك، وإذا كانت خسائر الفرنج في الأرك قد وصلت إلى 146 ألف قتيل، فقد تجاوزت خسائر المسلمين في معركة العقاب 500 ألف مقاتل. وقد أفاد ألفونسو من ذلك فانتزع من المسلمين أقاليم كثيرة، فزاد من قوته، وكان كل نصر يدعم النصر الذي يسبقه.

ويلاحظ هنا، وبشكل واضح، وقوع مجموعة المعارك الحاسمة خلال هذه الفترة عند حدود الثلث الجنوبي من الأندلس: فقد وقعت معركة الزلاقة ومعركة الأرك على خط عرض واحد (على نهر آنة)، وجاءت معركة العقاب إلى الجنوب منهما. وهذا يؤكد تصميم الفرنج باستمرار على نقل المعركة إلى بلاد المسلمين وتوسيع دوائر الصراع على حسابهم، وتحميلهم نفقات الحرب ومغارمها.

وهنا يمكن أيضاً العودة إلى خطأ السياسة الاستراتيجية التي طبقت في إقامة التحالفات بين أمراء المسلمين، وانعكاساتها على أفق الصراع المسلح. فقد أدى الخطأ في مفهوم التحالفات السياسية إلى ضعف في التعاون العسكري بين مسلمي الأندلس ومسلمي الغرب، الذين يشكلون الدعم الحقيقي والوحيد للمجاهدين في الأندلس، مما أضعف القدرة القتالية لهؤلاء، في حين كان باستطاعة نصارى الشمال الإفادة من دعم عسكري غير

محدود عبر الحدود المفتوحة مع كل أنحاء أوروبا.

فإذا ما تم وضع هذا العامل في الموقف إلى جانب ضعف البحرية الإسلامية وتمزقها، ظهرت خطورة موقف مسلمي الأندلس الذين أصبحوا في حالة عزلة شبه كاملة عن كل إمكانات الدعم البري والبحري، في حين كانت هذه الإمكانات متوافرة للصليبيين الذين أصبحت لهم السيطرة الكاملة تقريباً على محاور التحرك القارّي والبحري في كل المناطق المحيطة بالعالم الإسلامي والمتاخمة له.

ب - الدروس العسكرية:

لقد حدثت معركة الأرك في الأندلس بعد ثمانية أعوام من معركة حطين في فلسطين. وكانت نتائجها في أفق الصراع المسلح متشابهة ومتماثلة، فقد انتهت المعركتان بتدمير القوات العسكرية للخصم، إلا أن نتائجها السياسية كانت متغايرة تماماً. فقد استطاع صلاح الدين تطوير الصراع المسلح واستثمار الفوز في مسرح العمليات من أجل بلوغ الهدف السياسي وهو تحرير بلاد المسلمين من أعداء المسلمين، في حين اقتصرت نتائج معركة الأرك على الانتصار العسكري، وهي نتائج يمكن معالجتها بسهولة بدلالة نجاح ألفونسو بتدارك النتائج السلبية للصراع المسلح خلال فترة 18 عاماً.

وهكذا يمكن تصنيف معركة حطين بمعركة دفاعية على مستوى السياسة الاستراتيجية، في حين يمكن تصنيف معركة الأرك بمعركة هجومية على مستوى العمليات ودفاعية على مستوى السياسة الاستراتيجية. ويؤكد ذلك مرة أخرى في التاريخ على أن أهمية المعركة هي في نتائجها التي تتجاوز أفق العمليات لتصل إلى التأثر السياسي، وليست في ما تحققه من نتائج على مستوى أفق المعركة ومسرح العمليات.

أما في مجال المعركة، فقد تميزت معركة الأرك بمجموعة من المعطيات أبرزها:

1 - أهمية الاحتفاظ باحتياط استراتيجي، إذ خاض ألفونسو معركته ضد جزء من القوة التي جابهته واحتفظ يعقوب المنصور بالإحتياط الاستراتيجي الذي قذف به في الوقت المناسب، فكان في ذلك حسم الصراع المسلح لمصلحة المسلمين. ويتشابه مخطط العمليات هذا مع مخطط يوسف بن تاشفين في معركة الزلاّقة، حيث زجّ بقواته في اللحظة المناسبة أيضاً، فكان في ذلك النصر الحاسم. ويبرز ذلك بدوره أهمية تنسيق التعاون على

مسرح العمليات بحيث يؤدي هذا التعاون إلى بلوغ الهدف.

2 – وتبرز معركة الأرك أهمية المباغتة على مسرح العمليات والاحتفاظ بالمبادأة، فقد فرض يعقوب المنصور على ألفونسو مخطط العمليات المناسب له، ووضعه أمام الموقف الذي يريده، ثم باغته بزجّ الاحتياط الاستراتيجي، فذهل جند الفرنج لهذه المباغتة ولاذوا بالفرار. وخرج ألفونسو من المعركة بحالة سيئة، حتى أنه لم يتوقف حتى وصل طليطلة، وهناك تفقد (أصحابه) فلم يجد منهم أحداً.

3 – ويظهر في معركة الأرك تأثير العامل المعنوي. فقد كان ميزان القوى لمصلحة ألفونسو، وبالرغم من ذلك فقد انتصر يعقوب المنصور، والأمر معاكس تماماً في معركة العقاب، إذ كان التفوق في القوى والوسائط لمصلحة المسلمين، وبالرغم من ذلك فقد هُزم المسلمون شرّ هزيمة.

4 – وتبرز معركة الأرك الدور الحاسم للقائد، وتصميمه على انتزاع النصر، فقد دخل يعقوب المنصور المعركة وهو على ثقة من حسمها لصالحه، وأعدّ لها ما يجب إعداده، فكان النصر حليفه. وخاض ألفونسو معركة العقاب، وقد أعدّ لها متطلباتها طوال 18 عاماً، وكان مصمماً على انتزاع النصر " حتى أنه حلق شعر رأسه ولحيته، ونكس صليبه، وآلى أن لاينام على فراش ولا يقترب من النساء، ولا يركب فرساً ولا دابة حتى يأخذ بالثأر ". وقد كان هذا التصميم هو أول عدّته للنصر، بدلالة استطاعته نقل هذا التصميم إلى جميع مقاتلي الفرنج الذين لم ترهبهم قوة المسلمين وتفوقهم، فخاضوا معركتهم بعناد حتى تمّ لهم انتزاع النصر، والثأر لهزيمتهم في معركة الأرك.

وبعد، فما من معركة يمكن لها اكتساب أهميتها من خلال النصر أو الهزيمة على مسرح العمليات– لا سيما في حرب طويلة الأمد – حيث تقرر النتائج السياسيّة أهمية تلك المعركة أو عدم أهميتها. وهكذا، فعلى الرغم من الانتصار الضخم الذي حققته قوات المسلمين في الأرك، إلا أن هذه المعركة فشلت سياسياً بسبب توظيف نتائجها في غير أهداف الحرب طويلة الأمد. وبصورة خاصة إضعاف الموقف الداخلي للأندلس وهو الموقف الذي يقرر النصر أو الهزيمة في الحالات كلها بحسب ما برهنت عليه مسيرة الأحداث.

المراجع

(*) ذكرت بعض المراجع ان التاريخ الميلادي لمعركة الأرك هو في عام 1194، بينما ذكرت مراجع أخرى ان تاريخها هو في عام 1195، لكن معظم المراجع تتفق فيما بينها على السنة الهجرية وهي 591. ولكن المرجّح ان تاريخ 1195 هو الأصح. والملفت للنظر، ان الموسوعة العسكرية التي تعتبر من أهم المراجع في هذا الاطار، لم تشر، لا من قريب أو بعيد الى هذه المعركة، وحتى بالاسم.

1 – د. أمين توفيق الطيبي " دراسات في التاريخ الاسلامي ". الدار الأندلسية للطباعة. طرابلس الغرب/ ليبيا. الطبعة الأولى 1992. ص 43 – 55.

2 – بسام العسلي، " الأيام الحاسمة في الحروب الصليبية ". دار النفائس. بيروت. الطبعة الثالثة 1987.ص 143– 163.

3 – محمد الزركشي " تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية " تونس 1966.ص 16.

4 – محمد بن ابي دينار القيرواني " المؤنس في أخبار أفريقية وتونس ". تونس 1967. ص 120.

5 – عبد الواحد المراكشي " المعجب في تلخيص أخبار المغرب ". القاهرة 1949 ص 265 – 266 و 278.

6 – عبد الرحمن ابن خلدون " كتاب العبر ". بيروت 1979. ص 245 – 246.

7 – عبد الرحمن ابن خلدون " المقدمة ". القاهرة (بدون تاريخ). ص 255.

8 – أحمد المقرّي " نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب ". بيروت 1968. ص 445 – 446.

9 – روجيه لوتورنو " حركة الموحدين في المغرب " ترجمة أمين الطيبي. الدار العربية للكتاب. ليبيا – تونس 1982. ص 86.

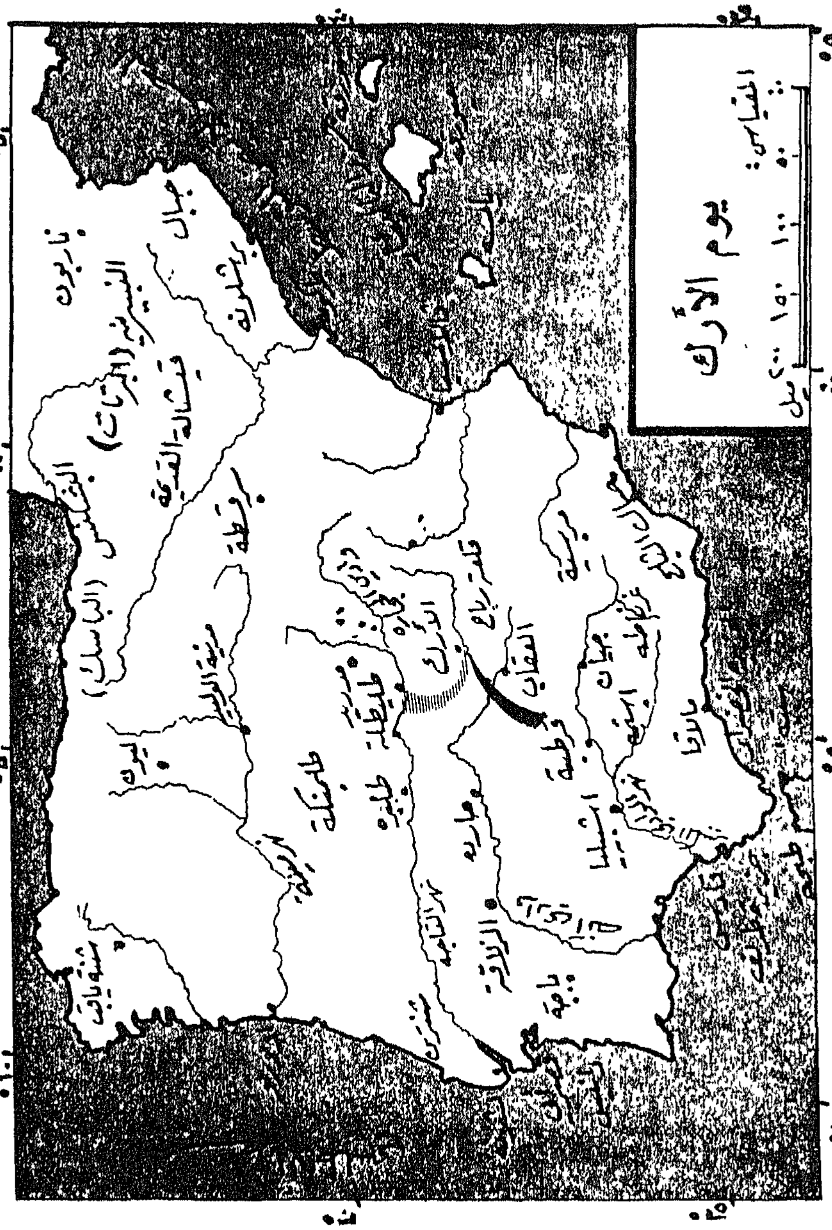
10 – محمد بن عبد المنعم الحميري " الروض المعطار " بيروت 1975. ص 27.

11 – Riley - Smith, J., What were the Grusades? London 1977, P. 24.

12 - Lomax, D.W. , The reconquest of Spain, Longman, U.S A. 1978, P. 119.

13 – د. مراجع عقيلة الغناى " سقوط دولة الموحدين ". منشورات جامعة قار يونس– كلية الآداب / بنغازي– ليبيا الطبعة الأولى 1975. ص 277.

14 – بطرس البستاني " معارك العرب في الأندلس ". دار مارون عبود. بيروت 1987.ص 74-96.



المرجع: بسام العسلي " الأيام الحاسمة في الحروب الصليبية ". ص 156.

معركة الأقحوانة

(12 آذار/ مارس 1029)

هي إحدى المعارك التي خاضها المسلمون الموحّدون (الدروز) ضدّ أعدائهم في فلسطين، خلال حكم علي الظاهر الفاطمي.

فبعد غيبة الحاكم بأمر الله وحمزة بن علي، اعتلى علي الظاهر العرش كخليفه على الفاطميين. وعلى يد عماله، تعرض المسلمون الموحدون (الدروز) لمحنة كبرى، (بعد أن قطع على نفسه عهداً بعدم إيذائهم والتعرض لهم)، هادفين إبادتهم واستئصالهم.

عانى المسلمون الموحدون (الدروز) خلال حكم الظاهر شتّى أنواع الاضطهاد والتنكيل، كما ذهب منهم عدد كبير من الضحايا. بيد أنهم، رغم هذه النكبات، تابعوا سيرهم بايمان عميق دون أن يزعزع عقيدتهم خوف التنكيل والموت. وكانت معركة الأقحوانة في فلسطين في 12 آذار/ مارس 1029، الامتحان الأكثر أهمية في تاريخهم منذ غياب الحاكم وحمزة. ودارت بينهم وبين أعدائهم رحى معركة كبرى أثبت الموحّدون خلالها قوتهم العسكرية تحت أمرة القائد الفاطمي أنو شتكين الدزبري والأمير رافع بن أبي الليل ضد أعدائهم بقيادة صالح بن مرداس، حسان بن مفرّج وسنان بن عليّان. ولقد حقق الموحدون في هذه المعركة انتصاراً ساحقاً بعد أن قُتل ابن مرادس بسيف رافع بن أبي الليل نفسه، مما أدى فيما بعد إلى محنة انطاكية عام 1032 على يدي نصر بن صالح بن مرداس مدعوماً من البيزنطيين ضد الموحدين.

ويبقى لمعركة الأقحوانة المكانة السامية في تاريخ المسلمين الموحدين (الدروز) السياسي والعسكري والديني. ويشير المؤرخ سليم ابو اسماعيل انه " هناك في سهل الأقحوانة وجوار حطين كان بناء الطائفة الدرزية العسكري المتين، وفيها تفيأت راية الأمير أنوشتكين وانتسبت بفخر إليه. وهناك تعاقدت الأيدي، وعلى مقام شعيب القائم في الأقحوانة ما بين طبرية وحطين عقدت المواثيق وتليت الأقسام (جمع قَسَم) وعرّفت

الدرزية بأخوّة السلاح، ومعمودية دماء فرقة عسكرية لا تنوء ولا تلين ".

على هذا الأساس يبني أبو اسماعيل استنتاجه بأن الدروز بعيدون جداً عن نسبتهم إلى نشتكين الدَرَزي، وهم لا ينتسبون إلا " للقائد الفاطمي الأمير أنوجور أبي منصور أنو شتكين الدُرْزي ".

بينما من خلال العودة الى المصادر التاريخية نلاحظ أن القائد الفاطمي الذي كان يقاتل إلى جانب رافع بن أبي الليل كان اسمه أنوشتكين الدُزْبَري قائد الظاهر في بلاد الشام، ضد الحلف المعادي الذي كان يتألف من صالح بن مرداس وسنان بن عليّان وحسّان بن مفرّج بن دغفل بن جرّاح أمير الرملة، وسجّل النصر فيها للموحدين، كما يؤكد ذلك ابن القلانسي، وابن العديم، وابن الأثير، وابن خلدون إلخ...

وليس من العجب مطلقاً أن تتنكر الطائفة لنشتكين الدَرَزي، وان ترفض التسمية باسمه والانتساب إليه. ذلك لأن لهذه الطائفة عاداتها وتقاليدها التي تعتبر جزءاً من أصالتها ووجودها. والكثير من أبناء الطوائف الأخرى الذين يعيشون بين " الدروز " يدركون جيداً مدى أهمية العادات والتقاليد في حياة الطائفة ككل. كما يلاحظ تمسك الطائفة بهذه الأصالة. وعلى هذا الأساس يرفض أبناء عقيدة التوحيد تسميتهم بـ " الدروز "، ولا يقبلون إلا " الموحدين " أو " الأعراف " أو " بني معروف ". وكنيتهم هذه تعود لإمام الدعوة التوحيدية حمزة بن علي الذي بدأ بنشر هذه الدعوة في 408هـ / 1018 م، من القاهرة في ظل الخلافة الفاطمية، فقد كنّاهم بقوله: " كنّيتم بالأعراف ووصفتم بالأشراف ". وأمرهم في إحدى رسائله: " أأمروا بالمعروف وهو التوحيد وانهوا عن المنكر وهو الشرك. إذا بني معروف هم أبناء التوحيد " كما يشير الباحث الشيخ فؤاد أبو زكي.

من هنا تعتبر معركة الأقحوانة ذات مكانة وأهمية بالغة في تاريخ المسلمين الموحدين (الدروز) على مختلف الصعد، فضلاً عن اعتزازهم بها وفخرهم بمعانيها ودلالاتها.

المراجع

1 – راجع كتابنا " تاريخ المسلمين الموحدين (الدروز)". المركز العربي للأبحاث والتوثيق بيروت. الطبعة الأولى. حزيران 1991. ص 32 – 34، استناداً إلى:

2 – سليم ابو اسماعيل " الدروز ". مطابع فضول. بيروت 1955. ص 65.

3 – ابو يعلى حمزة بن القلانسي " ذيل تاريخ دمشق ". نشر الآباء اليسوعيين. بيروت 1908. ص 73.

4 – كمال الدين عمر بن أحمد بن العديم " زبدة الطلب من تاريخ حلب ". دمشق. المعهد الفرنسي للدراسات العربية 1951 – 1968. ص 231.

5 – ابن الأثير " الكامل في التاريخ ". دار صادر. بيروت. 1965 – 1967. الجزء السابع. ص 261.

6 – ابن خلدون " العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ". دار الكتاب اللبناني. بيروت. 1959. الجزء الرابع ص 581 – 582.

– H. lammens, la Syrie, Tome I, page 153. . et Tome 2, page 109 7

8 – فؤاد ابو زكي " ثلاثة أدباء روحانيين من بني معروف ". رسالة ماجستير غير مطبوعة نوقشت في الجامعة اليسوعية في بيروت عام 1980 باشراف الدكتور جبور عبد النور. المقدمة ص 6.

معركة أم درمان

في اليوم الثاني عشر من شهر أيلول (سبتمبر) سنة 1898 وقعت معركة " أم درمان " الحاسمة التي قضي فيها على آخر قوات المهدي في السودان وترسّخ الحكم البريطاني فيها. ذلك الحكم الذي بقي في السودان طيلة 58 عاماً التالية.

كانت قوات محمد علي (باشا) قد احتلت السودان سنتي 1820و 1822، واتخذت مدينة الخرطوم عاصمة للبلاد للمرة الأولى. بدأ محمد علي بتنظيم ادارة السودان، وعيّن نائباً له فيها بعنوان " حكمدار " متحفظاً بسلطة زعماء القبائل. وشهد السودان مرحلة من الاستقرار السياسي. فلما انتقلت السلطة في مصر إلى الخديوي اسماعيل، وبُدئ بحفر قناة السويس، بدأت الأزمات المالية في مصر ورافقها تزايد النفوذ البريطاني وتنازلات اسماعيل لبريطانية، ووصلت تنازلاته الى حد السماح لبريطانية بالإشراف على الإدارة في السودان وعيّنت الحكومة البريطانية الجنرال " غوردون " حكمدار للسودان.

وقد حاول غوردون تثبيت سيطرته في مختلف مناطق السودان، وعلى الرغم من بدء استغلال قناة السويس في سنة 1869 فقد استمرت مشاكل مصر المالية، وضغطت بريطانية وفرنسا على الخديوي اسماعيل وحملته على التنحّي عن السلطة في سنة 1879. وبدأت في مصر حركة سياسية مناهضة لسياسة الخديوي ولطبيعة العلائق القائمة مع بريطانية، وتفجّرت هذه الحركة عن ثورة أحمد عرابي التي تعاطف معها أكثر فئات الشعب المصري.

وتدخلت بريطانية في الوضع في سنة 1882 فقمعت الثورة بالقوة، وعينت اللورد " كرومر " حاكماً عاماً لمصر والسودان.

وكان الشعب السوداني متجاوباً مع المطالب التي عبّرت عنها ثورة عرابي في مصر، وظهرت في السودان معارضة سياسية ودينيّة ما لبثت أن اندلعت في ثورة تعرف بـ " الثورة المهديّة " – نسبة إلى قائدها " محمد أحمد المهدي " فهزّت الوجود

البريطاني، وأنشأت دولة استمرت من سنة 1885 الى سنة. 1898 وقد أعلن المهدي الثورة في سنة 1881 فلقيت تجاوباً في شتّى مناطق السودان، وازدادت قوة " الدراويش " _ وهم الذراع العسكري للثورة - مستمّدين قوتهم الأساسية من طائفة " الأنصار ". ووقعت المجابهة الأولى بين " المهديين " والانكليز في " قلي " وانتهت بانتصار " الدراويش " انتصارا كاملاً. وكذلك انتصر أنصار المهدي على القوّات الانكليزية في معركة " شيكان " شرقي الأبيض.

وبعد هزيمة بريطانية في هذه المعارك، عين الجنرال " غوردون " مندوباً لها في السودان بقصد التوصل إلى حل مع المهديين، إلا أن " الدراويش " تابعوا حملتهم لتحرير السودان، فحاصروا مدينة " الخرطوم " واحتلوها سنة 1885. وقتل " غوردون " في قصره. وتابعت الحركة المهدية انتشارها فشملت القسم الأكبر من السودان، واتخذت " ام درمان " عاصمة للدولة الجديدة.

وبعد ستة اشهر توفي المهدي، واصبح " الخليفة عبد الله - أحد أهم رجال الثورة وأقوى أنصار المهدي شخصية - رئيساً للدولة المستقلة، واصبحت سياسة بريطانية في تلك المرحلة عدم التدخل في السودان ومراقبة ما يجري فيها. واستمّر هذا الوضع سائداً حت سنة 1896، حتى عاد البريطانيون فشنّوا حملة عسكرية على " دنقلا " مستخدمين قوات الجيش المصري، وذلك على الرغم من معارضة الخديوي عباس الثاني الذي كان- على نقيض أبيه معارضاً لسياسة بريطانية - كما أن السلطنة العثمانية احتجّت أكثر من مرة على الاقتتال بين جيش مصر المسلم والمهديين المسلمين، فلم تجد احتجاجاتها أذناً صاغية.

ولكن بريطانية تابعت حملتها على السودان انتقاما لمقتل غوردون باشا والخسائر التي سبق أن منيت بها، مدّعية أنها إنما تدافع عن " مصلحة مصر " في حين أنها كانت عمليّا لإثبات قوّتها في المنطقة أمام زحف القوات الفرنسية- والدول الأوروبية الأخرى - التي بدأت تشق طريقها في افريقية الوسطى نحو النيل. وكانت استعانة بريطانية بالقوات المصرية تفادياً لمجابهة مباشرة مع فرنسة.

وكانت القوة البريطانية المصرية بقيادة " اللورد كتشنر " ودارت المعركة النهائية

في جبال " كرري " على بعد بضعة أميال شمالي العاصمة " أم درمان " وانتهت بانتصار القوات البريطانية على جيش الخليفة " الدراويش " بقيادة الأمير عبد الرحمن النجومي في 2 أيلول (سبتمبر) سنة 1898. وكانت مجزرة كبرى قتل فيها 20 ألفاً من المهديين .

كانت معركة " أم درمان " بداية مرحلة جديدة في تاريخ السودان الحديث، وعلى أثرها تمّ في سنة 1899 توقيع اتفاقية " السيادة المشتركة " التي نصّت على إخضاع السودان – نظرياً – لسلطة انكليزية دامت 58 عاماً، حتى انتهت باستقلال السودان في أول كانون الثاني (يناير) سنة 1956.

المراجع

نجدة فتحي صفوة في:

1 – جريدة " الشرق الأوسط " العدد 3931. السبت 1989/9/2.

2 – ويراجع أيضاً كتاب د. زاهية قدورة " تاريخ العرب الحديث ". دار النهضة العربية. بيروت. الطبعة الثانية. الفصل الخاص بالسودان.

معركـــة الأنبار

عندما يتسلّح الانسانُ بايمان عميق، وإرادةٍ قوية فولاذية، فـي سـبيل هـدفٍ يعتبره من أسمى أهدافه وأرقاها، كثيراً ما يجد نفسه أمام عراقيل أزيلت من طريقه، وأمام سدودٍ وحواجز كان مؤمناً بأن تجاوزها ليس سهلاً على الإطلاق.

واذا كان هذا الحال بالنسـبة لإنسـانٍ فـرد، فكيـف يكـون الحـال إذن أمـام جماعـةٍ نذرت نفسها للموت في سبيل انتصار مبادئها وعقيدتهـا، وفـي صدرهـا إيمـانٌ أصلـبُ مـن الفولاذ، وأفعلُ من كل الأسلحة؟. هكذا كان حال المسلمين الأوائل أمام جبهة مـن الأعـداء لا تحصى ولا تعدّ. ورغم ذلك، استطاعوا أن يحرزوا الانتصار تلو الانتصار، فـي معظـم معاركهم التي تمرّسوا خلالها مختلف أشكال القتال، فزادتهم صلابةٍ علـى صلابـة، وإيمانـا فوق إيمان، وحنكةً إثْرَ حنكة. وليست معركة " الأنبار " المعروفة بمعركة " ذات العيـون " التي جرت ضد الفرس سنة 633 ميلادية، سوى إحدى هذه الوقائع المشرّفة في تاريخهم.

فالأنبار مدينة على نهر الفرات غربي بغداد، وقد جرت الوقعة المسمّاة باسمها بين خالد بن الوليد قائد جيش المسلمين فـي العـراق، وبيـن الفـرس وحلفـائهم العـرب، وعلـى رأسـهم قـائدهم " شِيْرَزاد " صـاحب سـاباط (موضـع بـالمدائن)، وسـمّيت الوقعـة " ذات العيون " لكثرة ما فقأ فيها جنود المسلمين من عيون العدو بسهامهم، وكانت سنة 12 هـ (الموافقة لسنة 633 ميلادية).

بعد أن تمّ لخالد بن الوليـد فتـح الحيرة، واطمـأنّ علـى الثغـور بتعييـن حمـاة لهـا، وضمن الخراج على يد عمّاله، فأصبح من السهل عليه والمغري لـه أن يتـابع تقدمـه نحـو القادسية فبادية الشام. بيد أن الخليفة أبا بكـر الصديّـق، وهـو المطّلـع علـى أحـوال الفـرس والروم في العـراق والشـام، قـدّر أن توغـل خـالد بـن الوليـد باتجـاه الباديـة يجعلـه محاطـاً بعدوّين: الفرس عن يمينه، والروم عن يساره، ثـم ان ظهـره لـم يكـن محمّيـاً، إذ أن سـواد العراق نفسه كان لا يزال حديث العهد بالإسلام، فضلاً عـن أن أنبـاء ترامـت إلـى الخليفـة مفـادها أن جيـوش الـروم بدأت تتحـرك في الشـام تأهباً لصدّ الفاتحين المسلمين، وان فلول

الفرس المنهزمة تجمعت في دومة الجندل قبالة جيش " عيّاض بن غنم ". فأمر الخليفة خالداً أن لا ينطلق وراء الحيرة باتجاه بادية الشام، وأن يتريّث حتى يوافيه زميله عيّاض من أعلى العراق.

ومكث خالد في الحيرة سنة كاملة بانتظار عيّاض، إلى أن أذن له الخليفة بالتقدم لملاقاة عيّاض، فخلّف على الحيرة القعقاع بن عمرو، وخرج وفي مقدمته " الأقرع بن حابس "، حتى انتهى إلى " الأنبار "، وقد تحصّن أهلها فيها، وحفروا حولها خندقاً، وأشرفوا على حصنهم وقد استعدوا للقتال.

وكان على رأس أهل " الأنبار " يومئذ قائدهم " شِيِرْزَاد " (كما قدّمنا). فلما وصل خالد بن الوليد إليهم طاف بالخندق متفحّصاً، ثم أمر جنده ببدء القتال، وقال لرماته: " إني أرى قوماً لا عِلْمَ لهم بالحرب، فارموا عيونهم ولا تَوَخّوا غيرها "، فرموهم فأصابوا ألف عين. وتصايح الأعداء إذ ذهبت عيونهم قائلين: " ذهبت عيون أهل الأنبار "، فلما رأى " شيرزاد " ذلك أرسل يطلب الصلح على شروط وضعها هو، فردّ خالد رسوله خائباً، ثم أتى أضيق موضع من الخندق، وأمر بالإبل الهزيلة فجمعها ونحرها وطمر بها ذلك الموضع، ثم اقتحم وجنده الحصن، جاعلين جثث الإبل جسورهم إليه.

والتحم الفريقان في الخندق، ودار بينهما قتال شديد انتهى بانكفاء أهل الأنبار إلى حصنهم، فتجمّعوا فيه. وعاد شيرزاد يطلب الصلح على ما يُراه خالد هذه المرّة، فقبل خالد بن الوليد. وأستأمنه شيرزاد على نفسه فأمنه، ورضي أن يطلق سراحه ويلحقه بأصحابه من الفرس مع مفرزة من الخيل بلا متاع أو مال. وخرج شيرزاد إلى أصحابه فاستقبله " بَهْمن جاذويه "، فلما سأله عن الخبر أجابه: " إني كنت من قومٍ ليس لهم عقول، وأصلهم من العرب، فسمعتهم، حين قدموا علينا، يقضون على أنفسهم، وقلّما قضى قوم على أنفسهم إلا وجب عليهم، ثم قاتلهم الجند، ففقأ أولئك فيهم ألف عين، فعلمت أن المسألة أسلم ".

ولما استتبّ الأمر لخالد بن الوليد بالأنبار، واطمأنّ أهلها إليه، رآهم يكتبون العربية، فسألهم: " ما أنتم؟ " فقالوا: " قوم من العرب نزلنا إلى قوم من العرب قبلنا، فكانت أوائلهم نزلوها أيام بُخْتَنَصَّر، حين أباح العرب، ثم لم تزل عنها "، فقال لهم:

" ممن تعلمتم الكتابة؟ "، فقالوا: " تعلّمنا الخط من إياد ". وجاء من حول الأنبار من العرب والعجم فصالحهم خالد.

والجدير بالذكر، أن فطنة خالد العسكرية تبرز في هذه الوقيعة بأجلى صورها، بتطبيقه مبدأ من أحدث مبادئ القتال وهو " شلّ مقاومة العدو "، وذلك عندما قرر أن يفقأ بسهام رماته أعين الرماة من الأعداء، فيمنعهم بذلك من متابعة الرمي، مما سمح لجنوده باجتياز الخندق المحيط بالحصن. كما تبرز فطنته العسكرية كذلك بتقريره أن ينحر الإبل العجاف ليطمر الخندق بجثثها، ويجعل من هذه الجثث جسراً يعبره إلى عدوّه المحصّن.

هذا ومن المعروف أن رجالاً عباقرة من أمثال خالد بن الوليد، يتوالدون في كل عصر؛ والأمة العربية هي خير من أنجب الآلاف مثل خالد، وكم لمعت من الأسماء العسكرية والسياسية في تاريخ هذه الأمة، الزاخر بالمآثر والبطولات، وخصوصاً في القرن العشرين؟. لكن إزاء ذلك نتساءل عن الفروقات بين عصر النبي الكريم وخلفائه الراشدين، وبين عصرنا هذا، ونقارن بين قوى أعداء عصرنا، وبين تلك القوى العدوّة في تلك العصور. وسرعان ما ينتصب أمامنا طيفُ الرسول وفي يده الكتاب الكريم، ومن ورائه جمهرة المؤمنين بالله ورسوله وبجميع الأنبياء والرسل، يصرخون في وجوهنا بصوتٍ يهزّ الدنيا ويزلزلها،– علّنا نسمع نحن العرب– ويقول:

عليكم بالإيمان أولاً، وبحقّكم في هذه الأرض ثانياً، وبالوحدة والاتحاد ثالثاً، وبإرادة القتال رابعاً، فستصلون خامساً إلى النصر لا محال. والعبرة لمن اعتبر...

المراجع

1 – أبو جعفر محمد بن جرير الطبري " تاريخ الأمم والملوك " الجزء الرابع. ص 20 –21.

2 – أبو الحسن علي الشيباني (المعروف بابن الأثير)، تاريخ ابن الأثير. الجزء السابع. ص 192. والثاني 394.

3 – تاريخ ابن خلدون. الجزء الثاني. مطبعة بولاق 1248هـ. ص 81.

4 – " الموسوعة العسكرية " الجزء الأول. ص 119– 120.

5 – محمد ابو الفضل ابراهيم وعلي محمد البجّاوي " أيام العرب في الاسلام ". ص 201– 202.

6 – المقدم ياسين سويد " معارك خالد بن الوليد " المؤسسة العربية للدراسات والنشر. بيروت 1975. ص 193– 196.

معركــة أنــوال

أثناء لقاء له في عاصمة الصين الشعبية مع وفد فلسطيني، قال الزعيم الصيني الراحل " ماوتسي تونغ " لأعضاء الوفد: " أيها الأعزاء، جئتم لرؤيتي كي أحدثكم عن حرب التحرير الشعبية، في حين أن في تاريخكم عبد الكريم الخطابي الذي هو أحد المصادر الرئيسية التي تعلمت انطلاقاً منها ما هي حرب التحرير الشعبية ".

وهنا يشير " ماوتسي تونغ " إلى " ثورة الريف المغربي " ضد الاستعمار الفرنسي والإسباني، ومنها معركة " أنوال " التي قادها المجاهد الكبير محمد عبد الكريم الخطابي. إنها من المعارك الخالدة في التاريخ المغربي المعاصر التي واجه بها المغاربة في منطقة الشمال المغربي الزحف الاستعماري الإسباني، وقد وقعت في منطقة تعرف بأنوال في إقليم الناظور، وبإسمها سمّيت المعركة، وكان بطل المعركة المجاهد محمد عبد الكريم الخطابي الذي زعزع أركان الاستعمار في العالم الإسلامي، معركة انهزم فيها الجيش الإسباني بعتاده الحربّي المتطور أمام فئة قليلة من المؤمنين المجاهدين بعتادهم الحربيّ البسيط. كانت معركة فريدة في التاريخ العسكري لدرجة أن المقيم العام الإسباني بالمغرب الجنرال " بيرينكر " وصفها قائلاً: هذه هي أعظم كارثة عسكرية عرفتها إسبانيا في تاريخها. (تصريح أدلى به بمليلة يوم 24 يوليو 1921).

إن المنطقة الشمالية عرفت منذ التدخل العسكري الاستعماري انتفاضات لكل واحدة منها شأنها وتاريخها حيث كانت الحرب الريفيّة الأولى والثانية التي تزعمها الشريف محمد أمزيان من يوم 9 يوليو 1909 إلى يوم 1912/5/15 م ثم كانت الحرب الهبطية الغمارية التي قادها الشريف أحمد الريسوني من يوم 1913/5/3 إلى شهر يناير 1925م ثم كانت الحرب الريفية الثالثة التي ترأسها محمد عبد الكريم الخطابي من فاتح يونيو 1921 إلى 1926/5/27م، وقد حظيت هذه الأخيرة باهتمام المؤرخين المغاربة والأجانب، لأنه لم يسبق لأي مستعمر في أي زمان ومكان أن ذاق هزيمة تماثل هزيمة الجيش الإسباني على يد المغاربة في معركة " أنوال " الخالدة، كما أنه لم يسجل تاريخ أية

مقاومة مسلّحة في أي بلد ولا في أي وقت من الأوقات انتصاراً باهراً يماثل الانتصار الذي أحرزه المجاهدون المغاربة ضد دولة استعمارية هي دولة إسبانيا في معركة أنوال الفاصلة، وهو ما أدهش العالم كله، لأن الانتصار كان على يد جماعة من المغاربة لا يفوق عددهم ألف رجل أمام جيش لم يقّل عدده عن ثلاثين ألف جندي زيادة على الامكانيات المادّية المتوفرة لهذا الجيش، والربائد الإسبانية تزخر بمئات الوثائق السريّة التي تشهد بالأعمال البطولية الخالدة التي قام بها المغاربة في هذه الملحمة العظيمة دفاعا عن دينهم ووطنهم.

- الأمير محمد عبد الكريم الخطابي والجنرال سيلفستري وجهاً لوجه- (مايو 1920- مايو 1921م).

في أوائل سنة 1920 وقع تغيير في القيادة العليا لجيش الاحتلال الإسباني بناحية مليلة عندما استبدل الجنرال " اثبورو " بالجنرال " سيلفستري "، فعيّن هذا الأخير قائداً عاما لمنطقة الكرت المحتلة من طرف الجيش الإسباني منذ عام 1909م.

ولم تمر على وصول الحاكم العام الجديد إلا أيام قلائل حتى قام المقيم العام الجنرال " بيرنكير " بزيارة المنطقة فطاف بها كلها بصحبة الجنرال سيلفستري، وقبل عودته إلى مدينة تطوان أصدر المقيم العام أوامره من أجل متابعة الزحف نحو خليج " الحسيمة " قصد احتلاله.

وفي أوائل شهر مايو شرع الجنرال المذكور في اتخاذ الترتيبات اللازمة والتي مكنته من احتلال مراكز عديدة: كان أهمها مركز دار الدريوش الذي اعتبر في نظره بمثابة تقدم كبير دون أن يكلفه أي ثمن حسب ما جاء في البرقية الموجهة الى وزير الدفاع الاسباني.

وللحقيقة هي أن الاحتلالات التي كان يقوم بها الجنرال سيلفستري في أول الأمر لم تكلّف الجيش الاسباني أية تضحية، لأن الضحايا كانوا دائماً من صفوف المغاربة العاملين تحت لواء إسبانيا، فلم يسقط ولو جندي واحد في الاسبان.

ولكن في أوائل شهر يونيو بدأت تصل إلى الجنرال أخبار مفادها أن قبيلة بني ورغابل (احدى قبائل الريف الأوسط) أصبحت تتحرك لأنها شعرت بالخطر الذي

يهددها من جراء الزحف، ولكن الجنرال لم يعر أي أهتمام للخبر، واستمر في غيّه مندفعا في احتلال مناطق جديدة الى أن اقترب من بني ورغابل الذي ظهر فيها الأمير الخطابي، فالتف حوله جماعة من المجاهدين فوحّد صفوفهم، وفي شهر أكتوبر 1920م قام بتأسيس مركز عام لرباط المجاهدين بالمكان المعروف " بالقامة " بقبيلة تمسمان، وبدأ هناك ينظم المقاومة المسلحة، ومع استمرار التهديد الإسباني دعا الأمير الخطابي جميع قبائل الريف إلى مؤتمر عام انعقد بمدشر " امزورن " بقبيلة بني ورغابل يوم 21 فبراير 1921 فنبّه الجميع إلى مقاصد الاستعمار وشجعهم على محاربته وفي مقدمته اسبانيا التي عزمت على احتلال البلاد، ثم دعا الحاضرين بأن يعاهدوا الله على أن يدافعوا عن وطنهم وشرفهم ووحدة ترابهم، وأن يلتزموا بتنفيذ الأحكام الشرعية في كل من صدرت منه جريمة.

التحدّي: أصبح محمد عبد الكريم الخطابي الشخصية البارزة في المنطقة غير الخاضعة للنفوذ الاسباني، فقام بحفر الخنادق ونصب مدفعين كان قد حصل عليهما، واحد من مركزه بالقامة والآخر على الشاطئ الموالي لجزيرة الحسيمة وأصدر أوامره بعدم القيام بالتجارة مع الجزيرة.

وفي 31 مايو 1921م اتخذ الجنرال سيلفستري الترتيبات اللازمة استعدادا للزحف نحو مركز " ابران " وفي فاتح يونيو عند الساعة الثانية صباحاً خرجت من " أنوال " القوات الاسبانية متوجهة نحو المركز ليكونوا قريبين من مركز المجاهدين بالقامة بينما ظل الجنرال سيلفستري بأنوال.

وتمت عملية الاحتلال دون أن يتعرضوا لأي هجوم من طرف المجاهدين وتم تحصينه ورجع الجيش الاسباني إلى أنوال بعد أن أبقى في المركز المذكور حامية تتكون من ثلاثمائة جندي يترأسهم قبطان، وما أن وصلت القوات الإسبانية إلى منتصف الطريق بين " ابران " و " أنوال " حتى وجدت أمامها الحركة مستعدة للوقوف في وجهها للحيلولة دون السماح لها بالعودة إلى المركز الرئيسي، فجرت معركة لم تسفر عن أي نتيجة، وعندئذ توجه المجاهدون بهجومهم نحو مركز ابران، فاقتحموا وقتلوا جميع من كان به من ضباط وجنود إلاّ عددا قليلاً إستطاع الهروب، واستولى المجاهدون على العتاد الحربي بكامله، وتشهد الوثائق الإسبانية أن الهجوم الذي قام به المجاهدون ضد مركز " أبران "

قام به الأمير الخطابي نفسه، وشعر الجنرال سيلفستري لأول مرة بالهزيمة. لقد كان إسترجاع مركز " أبران " من يد الجيش الإسباني هو الانتصار الأول الذي أحرز عليه الزعيم الخطابي في تحدّيه للجنرال سيلفستري.

الاستعداد للمعركة الفاصلة: كان أول عمل قام به الجنرال سيلفستري بعد سقوط أبران هو تعزيز المراكز الأمامية بوحدات عسكرية إضافية تفوق حاجات كل مركز مما نتج عنه مشاكل كثيرة أهمها مشكلة الايواء، ونظراً لصعوبة تنقل قوافل التموين من مركز إلى مركز، أمرت الحكومة الاسبانية الجنرال سيلفستري بأن يقوم باحتلال أكبر عدد ممكن من المراكز الثانوية حتى يتمكن من القضاء على المشاكل، ولكن بدون جدوى.

يقول كاتب إسباني شاهد عيان " كامبا " أصبحت قوافل تموين المراكز الثانوية من مركز " أنوال" الرئيسي يحتاج إلى خوض معارك دامية للوصول إلى مكانها لدرجة أن كل قطرة ماء كانت تصل إلى بعض المراكز مثلاً كنا نؤدي ثمنها بقطرة دم إسبانية ".

استمرت المناوشات الحربية بين الاسبان والمجاهدين في مناطق مختلفة من الريف كانت أهمها معركة " أغريبا " الفاصلة، والتي انهزم فيها الإسبان وعلى أثره أبرق الجنرال سيلفستري إلى المقيم العام يوم 21 يوليو 1921 ما يلي:

" لقد قمت اليوم بالعملية التي أخبرتكم بها من أجل إغاثة أغريبا ولكن العدو حال دون ذلك رغم انني استعملت في تلك العملية جميع القوات التي توجد تحت تصرفي، وأخيراً أصدرت أوامري بوجوب مغادرة المركز فكانت عملية جلاء دامية،والآن أنا موجود بأنوال والثوار يحاصرونني من كل جهة، فالحالة خطيرة بل جد خطيرة وسوف أحاول الخروج من هذا المأزق وإني غير واثق من التمكن من ذلك لأن العدو استطاع قطع جميع المواصلات والمراكز المجاورة تلح على أن أقوم بمساعدتها مع أنني أحوج إليها إلى المساعدة ".

النصر المبين / كارثة أنوال: 21 يوليو 1921م.

يتضح من البرقية المذكورة ان الجنرال كان على علم تام بالحالة الزاهنة التي كان يوجد عليها وهو محاصر بأنوال فلم يستطع فك الحصار ولا أن يمدّ يد المساعدة إلى

المراكز الأخرى، في الوقت الذي كان يتوفر على جيش لا يقل عدده عن خمسة آلاف رجل. وكان يعتقد أن المجاهدين سوف يقتحمون عليه المركز حسب ما يتضح من البرقية الثانية التي وجّهها إلى نفس المقيم العام ليَلة 21 يوليو 1921 ولكنه لم يكن يعلم أي شيء عن خبرة الأمير الخطابي في تكتيكية الحرب، فقد أمر هذا الأخير رجاله بتشديد الحصار على " أنوال " والمراكز المجاورة له بدلاً من القيام بهجوم يكون الغرض منه إقتحام المركز الرئيسي لعلمه بوجود الجنرال وجميع أركان حربه وأنه لا وجود لمسؤول آخر في المراكز الخلفية يكون في وسعه القيام بمدّ يد المساعدة إلى رئيسه المحاصر، فالقضية قضية وقت والمراكز المحاصرة ساقطة لا محالة دون إلقاء المجاهدين إلى التهلكة. وهكذا وجد الجنرال نفسه في المصيدة التي نصبها له الأمير الخطابي والتي كان يصعب التخلص منها بأي حال من الأحوال، فالمراكز محاصرة وأسلاك الهاتف مقطعة، فما العمل إذاً؟!!.

أقبلت ليلة 21 و 22 يوليو وهجوم الثوار يزداد على المراكز القريبة جداً من المركز الرئيسي، والحالة جد خطيرة، فاستدعى الجنرال أركان حربه لعقد مجلس حرب داخل خيمته لدراسة الوضع، تقرّر بعده الجلاء عن مركز " أنوال ". ولكنه بعد ساعات قرّر تغيير خطته نظراً للهدوء التام الذي كان يحيط بالمركز، وكان المجاهدون قد رفعوا الحصار عليه، وأصبح الجنرال في صراع مع نفسه لا يستقر على رأي، قلقاً مضطرباً لا يدري ماذا عليه أن يفعل، فلم يعد له إلمام بالواقع ولم يكنْ في مستوى الأحداث بسبب انهيار أعصابه.

وفي يوم الخميس 21 يوليو 1921 هجم العدو بجميع ما يملكه من القوة التي وردت عليه من إسبانيا وتطوان ورجال القبائل التي استحضرها المسماة بـ " الحركة " وتقدّر هذه القوة بأربعين ألف جندي وعشرين ألف مقاتل من رجال القبائل (الحركة) فدارت معركة شديدة لم يسبق لها مثيل في جميع المعارك التي خاضتها إسبانيا منذ دخولها للتراب المغربي دون أن يستطيع الجيش الإسباني خروق صفوف المجاهدين رغم الأسلحة الثقيلة والخفيفة وبعض الطائرات التي ظهرت لأول مرة في الميدان الحربي بالريف، غير أنها لم تسقط أية قنبلة منها.

عمّت الفوضى معسكر أنوال، الكل يفكر في طريقة يحافظ فيها على حياته، ولم

يستطع أحد أن يضع حداً لتلك الفوضى. وفي صباح يوم الجمعة خرج الجنرال سيلفستري من أنوال بالجيش الذي كان معه تاركاً جميع معداته الحربية الثقيلة متجها إلى " مليلة " في وضعية تشبه الفرار، ولكن الأمير الخطابي كان قد أمر المجاهدين بالدخول ليلاً ليقطعوا الطريق على العدو إذا ما أراد الإنسحاب، فكان لهم ذلك. لقد دامت المعركة يومين قضى فيها المجاهدون على جميع الجيوش التي كانت بأنوال، مات من مات وأسر من اسر، كما تمّ القضاء على الجيش الذي كان متمركزاً بالقبائل الريفية الأخرى، ورغم كل ما قيل عن الجنرال سيلفستري وعن مصيره فإنه لم يعد له وجود بعد المعركة.

وهكذا استطاع البطل محمد عبد الكريم الخطابي تحرير جميع مناطق الريف من الإحتلال الاسباني في معارك عديدة وهي حسب المؤلف تفوق المائتي معركة أدت إلى سقوط مائة وستة وثمانين مركزاً فيما بين 21 يوليو ويوم 9 أغسطس سنة 1921.

إلاّ أن الخطأ الذي ارتكبه الزعيم الخطابي في نظر الكاتب محمد بن عزوز حكيم الذي كتب عن هذه المعركة، وحتى الأمير الخطابي نفسه اعترف بذلك في مذكراته هو عدم احتلاله لمدينة مليلة.

وخلاصة القول أن الثورة الريفية استطاعت في ظرف لا يتجاوز الأسبوعين القيام باسترجاع جميع المراكز العسكرية التي كانت قد كلّفت الدولة الإسبانية ثلاث عشرة سنة من المجهود الحربيّ المتواصل، وقد أثبتت الإحصائيات الاسبانية الرسمية أن عدد المجاهدين في حرب الريف لم يكن يفوق ألف رجل في الوقت الذي كان الجيش الاسباني يفوق على 25790 مقاتل، كما كلّفت الدولة الإسبانية أكثر من مليون بسيطة في اليوم الواحد.

وصدق الله جلّ جلاله حيث قال: ﴿قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله، كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله، والله مع الصابرين﴾. صدق الله العظيم.

المراجع

1 – محمد عبد عزوز حكيم " قراءات معركة أنوال ". مؤسسة عبد الخالق الطريس للثقافة الفكر. تطوان / المغرب.

2 – مجلة " الدفاع " (السعودية). العدد 79. ص 86–88.

3 – د. صالح زهر الدين " من تجارب الشعوب ". المركز الوطني للمعلومات والدراسات- الدار التقدمية. بيروت– المختارة. الطبعة الأولى 1987. ص 52–56.

4 – خيري منصور في مقال بعنوان: " في الأصالة والمثاقفة ". مجلة " الفكر العربي المعاصر ". العددان 44–45. سنة 1987. ص 100.

5 – الموسوعة العسكرية " الجزء الأول ". ص. 385– 387.

حـرف " الباء "

(ب)

1 - باب أليـون

2 - باب الواد

3 - بئر العافية

4 - بدر

5 - البذّ

6 - بقدورة (راجع: معركة سبو)

7 - البكيرية

8 - بلاط الشهداء

9 - بلّـش

10 - بلعا الثانية

11 - بنينا

12 - بني نعيم

13 - البويب

14 - بيت سوريك

15 - بير السبع

16 - بيسان

17 - بيشار

معركة " باب اليون "

أو " قصر الشمع " 641م.

كثيرون من الباحثين العسكريين أكدوا بأن " الحرب خدعة "، ولكن قبل ان تكون "خدعة "، فهي جرأة وشجاعة وايمان في الوقت نفسه. وقد عرف المسلمون في حروبهم ومعاركهم مع الأعداء كل هذه الصفات مجتمعة. وكانت معركة " باب اليون " أو " قصر الشمع " في مصر سنة 641 ميلادية، من هذا القبيل.

و " باب اليون " إسم قبطي لحصنٍ قيل أن جماعة من اسرى بابل جيء بهم إليه فأقاموا فيه، وكان اسم المدينة " أليونة "، فسمّاها المسلمون فسطاطاً.

والحصن هو روماني، كان يعتبر قبل الفتح الاسلامي مفتاح مصر العليا والسفلى، يحيط به سور تبلغ سماكته 18 قدماً، ويبلغ ارتفاع بعض أماكنه 60 قدماً؛ وهو يقع على الضفة الشرقية لنهر النيل، حيث ترتفع على سوره من الشرق والجنوب أبراج محصّنة، ويتصل من الغرب بالنهر بواسطة باب حديدي ودرج ينتهي الى سطح النهر حيث ترسو السفن. وإلى الغرب من الحصن تقع جزيرة " الروضة " في وسط النيل، وكانت هذه الجزيرة محصّنة أيضاً لكي تزيد من مناعة الحصن الذي يتصل بها بواسطة جسر من السفن.

ويحيط بالحصن خندق عليه قنطرة متحركة لا تفتح إلا من الداخل. وكان الخندق يملأ بالماء عند الحاجة وفي أوقات فيضان النيل. وعلى مقربة من الحصن يقوم حصن آخر يدعى " أم دنين "، ويعتبر مركزاً حربياً مساعداً لحصن " باب اليون ". وتقوم القاهرة الآن في المكان الذي وجد فيه قديماً هذان الحصنان.

احتل عمرو بن العاص مدينة بلبيس بعد حصار دام شهراً، ثم اتجه نحو حصن " باب اليون " بعد أن طلب العون من الخليفة، وكان في الحصن حامية قوية بلغت نحو خمسة وعشرين ألف مقاتل، تمدّهم سفن النيل بالمؤن والذخيرة دون عائق، بينما لم يتجاوز جيش عمرو بن العاص سبعة آلاف مقاتل. ورأى عمرو أنه غير قادر على اقتحام

الحصن، فحاصره بانتظار وصول المدد من الخليفة. وفي هذه الأثناء كانت قوات عمرو تحتل المراكز المحيطة بالحصن، وتعدّ العدّة في الوقت نفسه لاقتحام الحصن مبادرة إلى صنع المجانيق وآلات التسلّق، وبينما كان عمرو يقوم بمفاوضات صعبة طويلة مع " تيودور " الذي تولى الدفاع عن الحصن، وكيروس (أوقيروس) الحاكم الإداري العام في مصر، كان الزبير بن العوّام يصل بمدد قدره ثمانية آلاف مقاتل، فيتصل بالقائد العام ويضع نفسه وجيشه بأمرته، ثم يتخذ مراكز قتال له مقابل الحصن.

وبعد حصار دام سبعة أشهر تخللته هدنة موقتة ومفاوضات عسيرة لم يصل إثرها المتفاوضون إلى نتيجة حاسمة بسبب رفض الامبراطور هرقل لشروط المسلمين وعزله لكيروس، عزم عمرو بن العاص على اقتحام الحصن، وكانت حاميته قد وهنت من جراء الحصار، وكانت فترة فيضان النيل قد انتهت، فخلا الخندق من الماء، فمهّد عمرو للاقتحام بضرب الحصن بالمنجنيق، ثم اختار الزبير أضعف مكان في الخندق فردمه واجتازه ليتسلّق مع كتيبة من كتائبه السور، ووقف على أعلى الحصن صارخاً ومن معه " الله أكبر "، ودارت على السور رحى معركة دامية انتهت باستسلام المحاصرين وتسليم الحصن للمسلمين صلحاً بما فيه من أمتعة وذخائر وغيرها من آلات الحرب والقتال. وكان ذلك سنة 21 هـ الموافق لسنة 641م.

هذا وقد ذكر المؤرخ الشهير أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الحَكم، وكذلك المستشرق " ألفريد بتلر " (Alfred Butler)، أن قوات الروم كانت تعتصم في حصن " باب اليون " (بابليون) بقيادة تيودوروس ورئاسة المقوقس، الذي وكلت إليه بيزنطة منذ استرجعت مصر من الفرس أمر ولاية مصر كلها، وجمعت له السلطة الدينية والمدنية معاً، فكان بطريركاً على الاسكندرية ورئيساً للادارة المدنية.

وقد عسكر المسلمون في هليوبوليس " عين شمس " وتلقّوا هنا إمداد الخليفة بقيادة الزبير بن العوّام، والمقداد بن عمرو، وعبُادة بن الصامت، ومسلَمة بن مخلّد، وتضاعف جيشهم، ولكنهم لم يكن في وسعهم أن يهاجموا الحصن نفسه، لأنه كان منيعاً في الوقت الذي كانت تنقصهم فيه أدوات الحصار، فاكتفوا أن يسدّوا عليه المنافذ ويحكموا الأخذ بخناقه... " غير أن مركز الحصن لم يكن ليساعد العرب على الحركة السريعة، فقد كان

ووسع الروم أن يهبطوا إليهم فيناوشوهم أيّ وقت شاؤوا، ثـم يعـودون إلـى حصنهـم آمنيـن وراء أسواره العظيمة ". ولذلك لقي المسلمون هذه المشقّة التي عبّر عنها ابـن عبـد الحَكَـم بقوله: " فقاتلوه بها قتالاً شديداً وأبطأ عليهم الفتح "... حتـى إذا كـان القتـال ذات مـرّة وقـد استدرج عمرو جيش الروم إلى هذه المسافة التـي تفصـل بيـن الحصـن وبيـن هليوبوليـس، كـانت للمسـلمين الغلبـة، وهـرب القـائد الرومـي تيـودوروس، فـلاذ بالاسـكندرية، واحتمـى المقوقس ثانية بالحصن فرابط العرب حوله سبعة اشهر دارت فيها مفاوضات لم تنتـهِ إلـى عقد، حيث كانت الرسل والوفود تعمل بلا كلل من الجانبين، إلا أنهـا فشـلت فـي الوصـول إلى حلّ بطريق غير القتال. وانتهى الحصار بعـد أن وهـب الزبـير بـن العـوّام نفسـه للـه، فتسوّر الحصن فيمن انتدب معه فاقتحمـه أو أوشـك مـن جـانب، وصـالح أهلـه مـن جـانب آخر، وشمل الصلح الحصن كله، في السادس من نيسان سنة 641، وكتب لهم عمـرو بـن العاص كتاب الصلح، الذي يسمّيه المؤرخون " صلح باب أليون " (بابليون) على الجزيـة للقبط والخيار للروم. فمـن أحـبّ منهم أن يقيم علـى مثـل هـذا أقـام علـى ذلـك لازمـاً لـه ومفترضاً عليه، ومن أراد الخروج منها إلى أرض الروم خرج، وعلى أن للمقوقس الخيار في الروم خاصة حتى يكتب إلى ملك الروم يعلمـه مـا فعـل، فـإن قبـل ذلـك ورضيـه جـاز عليهم، وإلا كانوا جميعاً على ما كانوا عليه ".

هذا وقد مكّن سقوط حصــن " بـاب أليـون " للمسـلمين أن يجترئوا. ذلـك أنـه كـان مفتاح مصر العليا والسـفلى علـى السـواء، وكـان علـى مجمـع النهريـن، وكـانت لـه قيمتـه المعنوية إذ كان قديماً مكان العاصمة الأولى ممفيس... وخلّف عمرو بن العاص حصن " باب أليون " وجعل فيه فرقة من المسلمين. وانطلق على رأس جيشه نحو الاسكندرية التـي شهدت هجرة عريضة واحتماء للكثيرين من الذين فـرّوا ملتجئيـن إليهـا، فتمكّـن منهـا ابـن العاص بعد مقاومة باسلة من الروم بواسطة المجانيق...

ولولا معركة " باب أليون " وانتصار المسلمين فيها، لما تمكن هـؤلاء مـن متابعـة فتوحاتهم الظافرة، ولما تملّك الرعب قلوب أعدائهم الذين أجبروا على إخلاء هـذه المنطقـة والفرار إلى مناطق أكثر أمناً واستقرارا.

المراجع

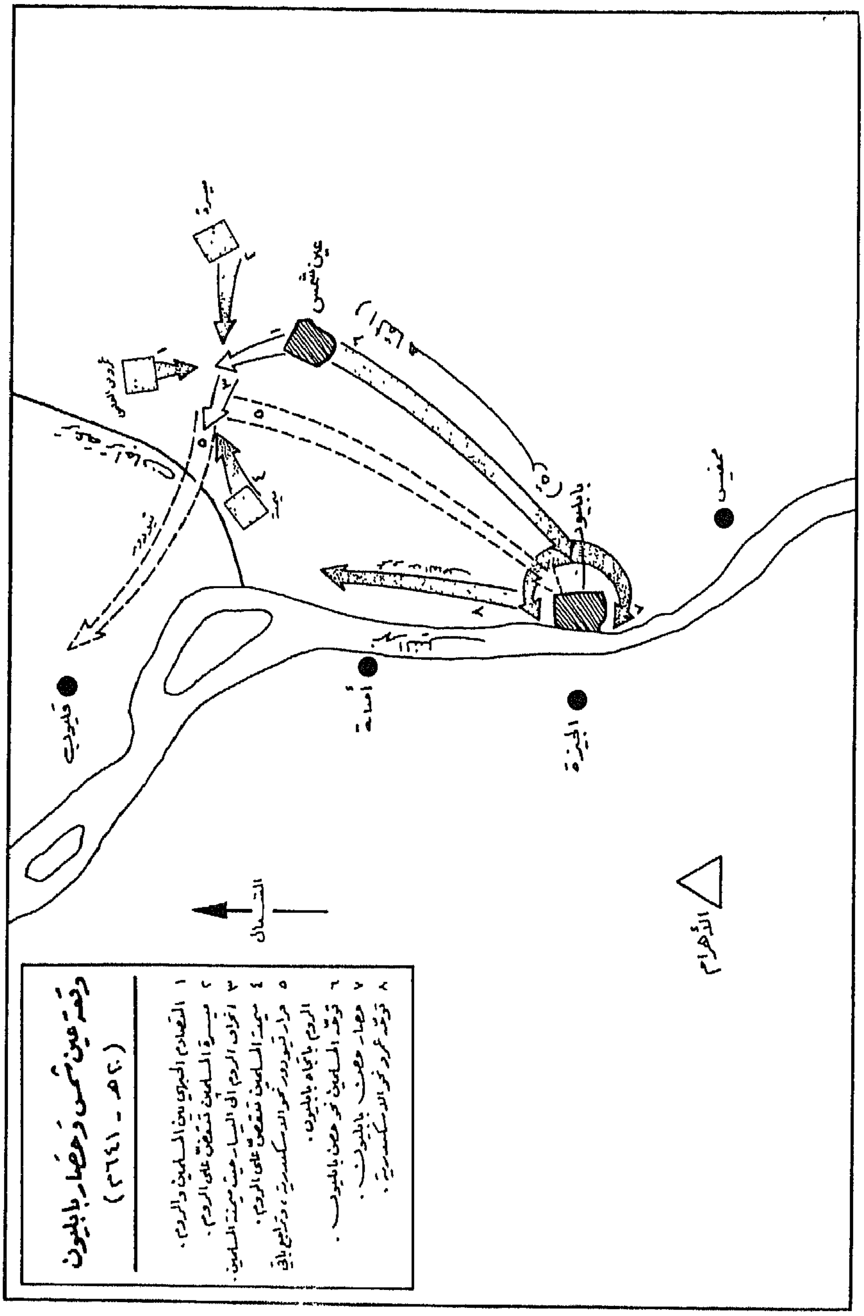
1 – شكري فيصل " حركة الفتح الاسلامي في القرن الأول ". دار العلم للملايين. بيروت، الطبعة الأولى 1952. ص 120 – 121.

2 – الموسوعة العسكرية " الجزء الأول ". ص 152 – 153.

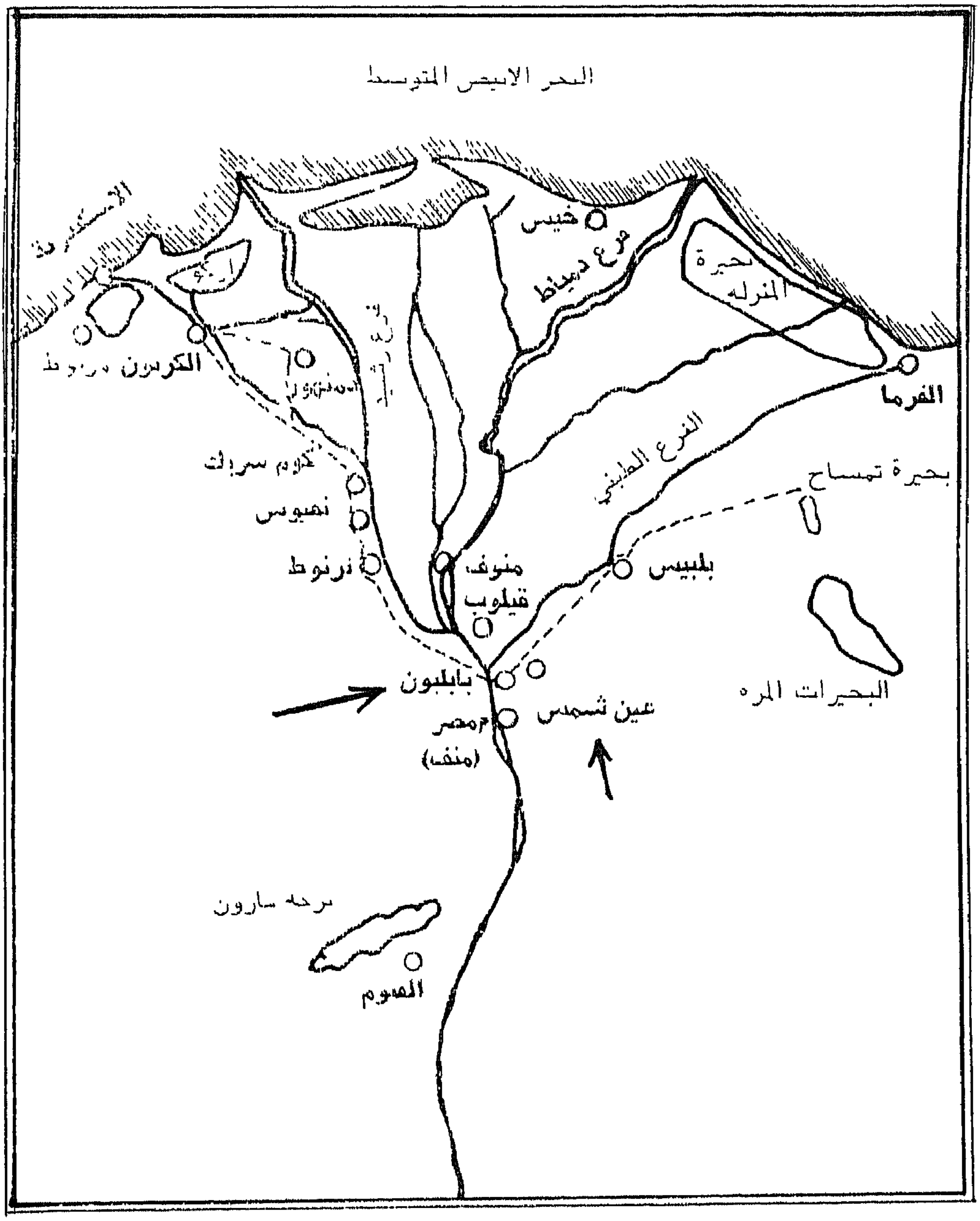
3 – أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الحكم " فتح مصر والمغرب وأخبارها ". القسم الخاص بمصر، نشرة ماسية Masset. مجلس المعارف الفرنسي الخاص بالعاديات الشرقية. 1914.ص 54 – 64.

4 – الدكتور ألفرد بتلر (A. Butler). " فتح العرب لمصر " الترجمة العربية للاستاذ محمد فريد ابو حديد. منشورات لجنة التأليف والترجمة والنشر. القاهرة. مطبعة دار الكتب 1351 هـ. 1933 ميلادية. ص 191 – 192.

5 – العقيد القيّم الدكتور طلال المهتار " التاريخ العسكري 470ق.م.– 1945م ". دار إقرأ. بيروت. دون تاريخ.ص 120 – 122.



العميد سويد. " الفن العسكري الاسلامي ". ص 323.



المرجع: صبحي عبد الحميد " معارك العرب الحاسمة ". ص 89.

معارك باب الواد

باب الواد ممر يربط السهل الساحلي بجبال القدس، وتؤدي إليه وتتشعب منه طرق القدس والرملة وبيت جبرين وغزة ورام الله. ويشتمل الموقع على وادي علي ومدخله، والهضاب المطلة عليه، والقرى القريبة منه، كعمواس واللّطرون وتل الجزر وأبو شوشة وبيت نوبا ويالو.

ولباب الواد أهمية عسكرية عظيمة، فهو مفتاح مدينة القدس، ودارت فوق أرضه معارك كبرى على مرّ القرون. عنده صدّ صلاح الدين الأيوبي غارات ريكاردوس قلب الأسد أواخر القرن الثاني عشر الميلادي. وفي موقعه وقف المقدسيون في وجه جيش ابراهيم باشا سنة 1834م. ودارت فوق أرضه معارك دامية بين الجيش التركي والجيش الانكليزي سنة 1917م.

وقد فطن العرب والصهيونيون إلى أهمية موقع باب الواد، بعد صدور قرار التقسيم عام 1947، وتهيأ الصهيونيّون لغزوه من السهل الساحلي لضمان مرور قوافلهم إلى القدس. وعمل العرب بالمقابل على قطع الطريق عليهم، فتنادوا لشراء السلاح، وتجمع المقاتلون من قرى عمواس ويالو ودير أيوب وبيت نوبا وبيت محسير وساريس وغيرها. وكان عندهم في البداية 300 مقاتل بينهم الشيخ هارون بن جازي أحد شيوخ قبيلة الحويطات في شرق الأردن وقوة من رجاله المتطوعين، وقد انضووا تحت لواء جيش الجهاد المقدس بقيادة عبد القادر الحسيني.

ففي 1948/3/1 هاجم المناضلون العرب قافلة صهيونية، وقتلوا أربعة من رجالها، وجرحوا ثمانية، وأعطبوا إحدى السيارات. وفي اليوم الثالث من آذار دمّروا سيارتين صهيونيتين كبيرتين عند حوض الماء القريب من مقام الشيخ علي، وقتلوا خمسة عشر صهيونياً. وفي اليوم التالي هاجموا قافلة صهيونية وقتلوا أربعة من رجالها، وكادوا يقضون عليها لولا تدخل الجنود البريطانيين.

فجّر العرب الألغام تحت السيارات الصهيونية يومي 12 و 13 آذار، وقتلوا

خمسة من ركابها. وفي 17 آذار اشتبكوا مع الصهيونيين عند بئر الحلو على الطريق المؤدية إلى باب الواد وأعطبوا مصفحة صهيونية. ثم هاجموا في 19 آذار قافلة صهيونية من تسع سيارات قادمة من " عرطوف "، وقتلوا 15 رجلاً، وأعطبوا مصفحة للحراسة في المقدمة، وغنموا كمية من الأسلحة. وفي 22 آذار أعدّ العرب كمينا لقافلة قادمة من تل أبيب، وأشعلوا النار في سيارتي مؤن وقتلوا سائقيهما، كما أعطبوا سيارة ثالثة وجرحوا السائق ومساعده.

ومع اشتداد الهجمات العربية في باب الواد شعر يهود القدس بوطأة الحصار وقلة المؤن، فاستنجدوا بسلطات الانتداب التي وضعت في عرطوف قوة بريطانية من نحو 200 جندي لحماية القوافل الصهيونية. وقد استطاع الصهيونيون منذ 23 آذار أن يسيّروا قوافلهم في ظل هذه الحماية البريطانية، وأنجدوا صهيونيي القدس بحوالي 1500 مقاتل. وظلت عمليات بث العرب الألغام مستمرة ليلاً، وقد قتل بنتيجتها في 24 آذار 12 صهيونياً وجرح 30 آخرون، ودمرت ثلاث سيارات، وأعطبت ثلاث.

حاولت القوات الصهيونية ليلة 31 آذار احتلال التلال المشرفة على باب الواد والتمركز فيها لحماية قافلة قادمة عن طريق وادي الصرار. لكن المناضلين من سكان القرى المجاورة تنادوا للقتال، وانقضوا على القافلة وحماتها قرب مستعمرة خلدة، واشتبكوا مع الصهيونيين في قتال عنيف دام طوال ذلك النهار وانجلى عن عدد كبير من القتلى والجرحى من الطرفين. ورغم خسارة العرب الأكثر في الأرواح استطاعوا دحر الصهيونيين وإعادتهم إلى خلدة، وغنموا بعض سيارات القافلة.

اشتبك الفريقان يوم 1948/4/1 في القطاع الممتدّ بين ساريس وباب الواد، ثم اشتبكا ثانية في اليوم التالي، وقد خسر الصهيونيون في هذين اليومين حوالي 60 رجلاً بين قتيل وجريح. وكانت محاولاتهم السيطرة على باب الواد مستميتة في الأيام الثلاثة ليمنعوا وصول النجدات العربية إلى القسطل من الغرب، وقد نجحوا في ذلك. وسقطت القسطل بأيديهم صباح يوم 3 نيسان. وكان ذلك كله جزءاً من عملية سمّوها " عملية نحشون " تهدف إلى السيطرة على باب الواد واحتلال القرى العربية على جانبي الطريق من باب الواد إلى القدس. وقد احتلوا " دير ياسين " يوم 9 نيسان، وقرية ساريس يوم 16

نيسان. وبذل العرب الكثير من مقاومة القوات الصهيونية المتفوقة تنظيماً وتسليحاً وعدداً.

وفي 16 نيسان قدمت من تل أبيب قافلة مؤن مؤلفة من 250 سيارة تحرسها أعداد كبيرة من الجنود والمصفحات، وقد كمن لها المناضلون العرب من أبناء القرى المجاورة تساعدهم قوة من رجال الجهاد المقدس بقيادة " أحمد زونا "، وقوة من البدو بقيادة الشيخ " هارون بن جازي ". ولما وصلت القافلة إلى دير أيوب على بعد كيلو متر واحد من باب الواد، أطبق عليها المناضلون بعد أن سدّوا في وجهها الطريق بالحجارة وبثُوا فيها الألغام. دامت المعركة من شروق الشمس حتى الساعة الرابعة بعد الظهر. وسقط فيها عدد من القتلى من الجانبين. وانتهت المعركة لصالح العرب، واستطاعوا تدمير وإعطاب زهاء 60 سيارة، واستولوا على 15 سيارة أخرى وكمية من الأسلحة.

لكن الصهيونيين تابعوا دفع القوافل على طريق باب الواد. وقد دمرت قافلة لهم يوم 17 نيسان دون أن يستطيع العرب التعرض لهم بشكل حاسم. وتمكنت قافلة أخرى من المرور إلى القدس يوم 20 نيسان بعد أن كبّدها المناضلون خسائر فادحة. وبعد ذلك نشط المناضلون لسدّ الطريق سدّاً محكماً بالحجارة الضخمة، وحفروا في عرض الطريق ثلاثة خنادق يبعد الواحد عن الأخر 150 متراً وعرض الخندق متران، وعمقه متر. وقد انتهوا من ذلك كله مساء يوم 25 نيسان، ورابطت هناك قوة من رجال الجهاد المقدس والمتطوعين البدو. وبذلك أغلقت طريق باب الواد إغلاقاً تاماً في وجه القوافل الصهيونية.

وفي الوقت نفسه، كانت طريق الخليل – القدس، وطريق رام الله – القدس، وطريق اريحا – القدس، مغلقة في وجه الصهيونيين. لذلك أصبحت مدينة القدس محصورة من جهاتها الأربع، فاستولى اليأس على صهيونيي القدس، وأخذت القيادة الصهيونية تعدّ لضربة قوية تفتح بها طريق باب الواد. وبالمقابل أخذت قيادة الجهاد المقدس تستعد لمجابهة الأعداء وصدّ ضربتهم، فدفعت قوات جديدة إلى الميدان، وانضمت إليها في الخامس من أيار فصائل من جيش الإنقاذ بقيادة المقدم " محمد صالح مهدي العاني " (عراقي)، مسلحة بمدفعين من عيار6 بوصات. وانضمت إلى هذه القوات جموع كثيرة من أبناء قرى المنطقة، وتولى القيادة المقدم العاني.

بدأت المعركة المترقّبة يوم 10 أيار، عندما قذف الصهيونيون إلى أرض المعركة

قوات كبيرة جاءت من القدس والمستعمرات اليهودية في المنطقة، وتمركزت في الأحراج الممتدة بين " ساريس " و " باب الواد "، وحاولت رفع السدود وفتح الطريق. وقد تصدى لها المقاتلون العرب، وقصفتها مدفعية جيش الإنقاذ بشدة. وحتى يخفف الصهيونيون الضغط على قواتهم قاموا بهجوم مخادع على المرتفعات الواقعة بين " بيت سوريك " و " بدّو " و " والنبي صموئيل " في قضاء القدس. ولكنهم رُدوا على أعقابهم.

أخذ الموقف يميل لصالح العرب الذين خاضوا المعارك بمعنويات عالية. وقد أذاعت قيادة جيش الإنقاذ في 13 أيار بياناً جاء فيه أن معركة باب الواد ما زالت مستمرة، وأن الحرب تدور في صالح العرب، وأن مراكز الدفاع الصهيونية قد انهارت، وأن الصهيونيين خسروا حتى ذلك الوقت 300 قتيل بينهم قائد المعركة، وأن العرب غنموا 150 بندقية، وست مصفحات وعددا من الاجهزة اللاسلكية، وأنهم دمّروا وأعطبوا عدداً آخر من المصفحات والسيارات.

إنتهت المعركة في 13 أيار بفشل ذريع مني به الصهيونيون، وتراجعت قواتهم عن باب الواد. وظلّ رجال الجهاد المقدس وجيش الإنقاذ يتمسكون بموقع باب الواد حتى 1948/5/15، حين تسلّم الموقع الجيش الأردني.

المراجع

1 – عارف العارف: " النكبة ". بيروت 1956.
2 – " الموسوعة الفلسطينية ". جزء أول ص 341 – 343 . اشراف د. انيس صايغ.
3 – الموسوعة العسكرية ج1. ص 151 ". المؤسسة العربية للدراسات والنشر. بيروت 1977.

معركة بئر العافية

معركة قارة عافية نموذج لعديد من المعارك التي تحرّك إليها المجاهدون الليبيون من مئات الكيلو مترات وفرضوها على الايطاليين، فكانوا رغم استعداداتهم وآلياتهم في موقف المدافع الضعيف. لقد أجمع رأي المجاهدين المتواجدين بمنطقة " واو الكبير " بعد أن أتمّوا موسم الحصاد على الاستعداد لمهاجمة نقاط تواجد الايطاليين. وتنفيذاً لهذه الرغبة إجتمع حوالي 700 مجاهد واتجهوا شمالا حتى وصلوا إلى " تمسة "، ومن هناك أرسلوا مجموعة منهم إلى الجفرة لتستطلع وضع الايطاليين هناك، وقد أقامت هذه المجموعة المكونة من عشرة أشخاص في واحة " الفقها " أياما، ثم أغارت على " زلّة " حيث فاجأت دورية للايطاليين واصطدمت مع المهاريستا في حطية " تليسم " وكان ذلك يوم 2 أكتوبر 1928م. وقد حدثت قبل ذلك غارات في مناطق مختلفة فمثلاً: يوم 9 أغسطس/ آب 1928م ذهبت دورية من الخيالة " السباهيس " في مهمة استطلاعية من " ابو نجيم " إلى " بئر رشيدية "، وفي " رواوص " ترصّد لها مجموعة من المجاهدين يبلغ عدد رجالها حوالي 100 مسلّح.

وفي ليلة 2 سبتمبر/ ايلول 1928م هاجم المجاهدون جماعة من الفرسان التابعين للايطاليين المتواجدين بـ " بئر بغله ". وفي ليلة 6 أكتوبر/ تشرين الأول قامت مجموعة من المجاهدين بالاغارة على واحة " مدوين "، واستطاعت التزوّد بكميات من الماء والملح.

إن تلك الأحداث المتناثرة أكدت للايطاليين تواجد أعداد من المجاهدين قريبين من مناطق الجفرة، ولهذا السبب تحرك في صبيحة يوم 6 أكتوبر/ تشرين الأول 1928م فيلق الجفرة من " هون " متجهاً إلى " مدوين " عن طريق " بئر شلك "، بقصد التعاون مع قوات " زلّة "، وتعقّب قوات المجاهدين. إلا أن انسحاب المجاهدين السريع بعد الإغارة على واحة " مدوين " لم يمكّن القوات الايطالية من اللحاق بهم. وبناء على ذلك عاد فيلق الجفرة إلى " هون" يوم 22 أكتوبر/ تشرين الأول للراحة والتزوّد بالمؤن.

وما أن وصل إلى علم الايطاليين أن هناك قوة من المجـاهدين مكوّنـة مـن حوالـي 800 رجل مسلّح تزحف صوب الجفرة، حتى اهتموا بمراقبة موارد المياه المتمثلة في بئر شلك، بئر قطيفة، بئر عافية، زاخم فقار.

وفي يوم 25 أكتوبر/ تشرين الأول تعرضت دورية من الهجّانة، كانت في مهمـة استطلاعية في بئر قطيفة لنيران مجموعة من المجاهدين التابعين لعشـائر القذاذفـة، وبنـاء على ذلك تحرك فيلق الجفرة من " هون " يوم 27 اكتوبر/ قاصداً بئر قطيفة، إلا أنه وجد المنطقة خالية، ولم يعثر إلاّ على آثار 30 رجلاً، و 15 جملاً، وعاد الفيلق إلى " هون ".

وفي يوم 29 اكتوبر/ تشـرين الأول افـاد أحـد رجـال الاسـتعلامات بـأن " هـون " مراقبة من قبل المجاهدين ولم يتمكن من العودة إليها فذهب إلى " مزدة "، وفي نفس اليـوم اصطدمت دورية من الهجّانة على مسيرة ساعتين ونصف جنوب شرقي هـون بنحـو مائـة مـن المجـاهديين وتدخلـت فـي المعركـة سـريّة مـن الكتيبـة الليبيـة السادسـة، والفيلـق الصحراوي، وانسحب المجاهدون إلى جبل السوداء.

بعد ظهر يوم 30 اكتوبر/ تشـرين الأول 1928م تحـرك فيلـق الجفـرة فـي اتجـاه المواقع التي انسحب إليها المجاهدون، وكان هذا الفيلق بقيادة الليفتنـانت كولونيـل " لويجـي أماتو ". ويتكون من القوات التالية:

الكتيبـة الليبيـة السادسـة (مرتزقـون) 645 بندقيـة، 6 مـترليوزات. الفرقـة الصحراوية الثانية 213 بندقيـة، 3 مـترليوزات. القسـم الثـالث مـن المدفعيـة التـي تحملهـا الجمال 34 بندقية، مدفعان.– مجندّون غير نظاميين 186 بندقية.

وقد أورد " غراتسياني " قوله: "... ولقد كان الغرض من هذا الزحف تأكيد رغبتنا الصادقة للعدو في مهاجمته، الأمر الذي لـه مغزى أدبـيّ ليـس بقليـل الأهميـة ". إن ورود هذه العبارة يؤكد أن الفيلق أثناء تحركه ما كان يتوقع أن يجد المجاهدين بالقرب من " بـئر العافية "، وإنما بنى تحركه على انسحاب المجاهدين الـذي تـمّ يـوم 29 اكتوبـر نحـو جبـل السوداء، عقب الإشتباك الذي حدث في ذلك اليوم.

عندما وصل المجاهدون، إلى مكان قريب من واحات الجفرة اسمه " المزيرعات " ذهب منهم ستـون رجلاً آخرون يسـوقـون 30 جمـلاً إلـى بئر العافية، قصد إحضار الماء

للمجاهدين، والاستطلاع حول الايطاليين. وكان على بعض الرجال الذاهبين إلى بئر العافية البقاء هناك لمراقبة تحركات الايطاليين، هذا وقد وجد الرجال القادمون إلى بئر عافية اثار حصان كان قد قدم إلى البئر.

علمت المجموعة الموجودة ببئر عافية بوجود الايطاليين في قارة عافية، فأرسلت إلى المجاهدين تعلمهم بذلك، فحضروا إلى بئر عافية وتجمعوا هناك وأخذوا يستعدّون لمواجهة الايطاليين. وكانت دوريات المجاهدين بالمرتفعات الواقعة إلى الشمال من بئر عافية تراقب القوات الايطالية التي بلغت قارة عافية مساء يوم 30 اكتوبر/ تشرين الأول 1928م. وما أن علموا بتواجد المجاهدين هناك حتى تمركزوا بالقارة وأخذوا استعداداتهم للمرحلة التي فرضتها عليهم حركتهم الاستعراضية تلك.

وقارة عافية عبارة عن جبل منفصل وسط السهل الممتد إلى الشمال من المرتفعات التي تقع هي أيضاً إلى الشمال من بئر عافية. وتبعد القارة عن " هون " بمسافة عشرين كلم إلى الجنوب، وعن " سوكنة " حوالي كيلو متران باتجاه الجنوب الشرقي. وهذا الجبل ينحدر انحداراً فجائيا نحو الشمال والغرب لدرجة يصعب معها الصعود عن طريق ذينك الاتجاهين، في حين ينحدر نحو الجنوب ببطء تجاه السهل. أما من الشرق فهناك شعبة تقسم الجبل إلى قسمين، وتمتد تلك الشعبة إلى أعلى قمة الجبل.

وإذا كان يوصف الليل بالسكينة، فيقال في التعبير السائد " خيّم سكون الليل " فإن تلك الليلة في ذلك المكان لم يخيّم سكونها: فهناك الايطاليون متمركزون في قارة عافية، ينتظرون هجوم المجاهدين بين لحظة وأخرى، ودقائق الساعة تمرّ متثاقلة بطيئة، وهنا بين تجمعات المجاهدين تجري مناقشات، ومشاورات حول طريقة الهجوم وزمنه، وقد رأى عبد الجليل سيف النصر أن يؤجل الهجوم إلى الصباح تطيّراً من الهجوم يوم الأربعاء، في حين أصرّ " قذوار السهولي " و " علي بن غيث " وآخرون معهما على الهجوم في تلك الليلة، وأمام ذلك الإصرار وافق عبد الجليل على الهجوم.

إن هذا الموقف يعكس بجلاء الشورى التي كانت تجري بها الأمور أو مرونة القيادة. وفي منتصف الليل تقريباً كان المجاهدون يزحفون نحو قارة عافية في تشكيلتين:

واحدة اتجهت من القارة إلى الجنوب وتكوّنت من " ورفلة " وقبائل أخرى، يقود

تلك المجموعة قذوار السهولي.

أما التشكيلة الأخرى فقد اتجهت إلى القارة عن طريق الشرق وتكونت من مجاهدي قبيلة " اولاد سليمان " والجماعات وبعض القبائل الأخرى يقودها " علي بن غيث "، و " ابراهيم عريش ".

واتفق المجاهدون على بداية الهجوم عند سماعهم " بروجي الحرب " إلا أن إطلاقة من أحد المجاهدين كانت هي البداية الفعلية للهجوم الذي ابتدأ قوياً وعنيفا من طرف المجاهدين، واستمر كذلك رغم نيران الايطاليين المكثفة من بنادقهم ومترليوزاتهم، ومدافعهم، إلى أن اقترب المجاهدون من موقع الايطاليين، واشتبكت معهم السرّية الثانية من القوات الايطالية بناء على أمر قائد الفيلق. ولمّا لم يُجْدِ الهجوم الأول تراجع المجاهدون قليلاً ليعيدوا تنظيم أنفسهم، ويكرّوا ثانية بهجوم من الجهتين الغربية والجنوبية. وقد سبق أن ذكرنا أن الجهة الغربية يصعب الصعود عن طريقها، ولهذا الاعتبار اطمأن الايطاليون إلى تلك الجهة، وكذلك الجهة الشمالية.

ولكن مجيء المجاهدين من هذا الجانب مكّنهم من أن يصلوا إلى قمة القارة وأن يضعوا أرجلهم بقوة هناك، وفي هذا الموقع كانت توجد فصائل الكتيبة الليبية السادسة، والفرقة الثانية الصّحراوية.

وفي الوقت الذي كانت تتجه فيه جهود المجاهدين إلى التقدم على طول القسم الجنوبي من القارة، قام الايطاليون بهجوم مضاد في الساعة الخامسة والنصف زاد من فعاليته انبلاج الفجر الذي يساعد الأسلحة الايطالية المتقدمة على التصويب بدقة نحو أهدافها، مما أدّى إلى انسحاب المجاهدين إلى المرتفعات المشرفة على بئر عافية. ولم يحدّد الايطاليون خسائرهم في تلك المعركة، واكتفوا بالقول أن خسائرهم في الضباط والجنود كانت فادحة.

أما المجاهدون فقد استشهد منهم عدد يقدّر ما بين 70 و 75 شهيداً، وجرح حوالي 100 مجاهد...

وانسحب كذلك الايطاليون إلى " هون " معلّلين عدم ملاحقتهم للمجاهدين بالتعب الشديد الذي أحسّ به الجنود، ووجود وحدات أخرى من المجاهدين فوق المرتفعات

المشرفة على بئر عافية. وإذا كان المبّرر الأول منطقياً، ومقبولا، فان المبرر الثاني لا يمكن القبول به، إذ لا يمكن أن يبقى المجاهدون قرب المعركة دون أن يشاركوا فيها إلاّ لأمور استراتيجية تقتضيها المعركة، واذا وجدوا فانهم بعض الرجال لحماية القافلة وحراستها، ومراقبة بئر عافية.

استعان الايطاليون بوسائلهم الجويّة التي جاءت في اليوم التالي للمعركة، وشاهدت المجاهدين مخيّمين على بئر عافية مشغولين بدفن الشهداء، وعلاج الجرحى، وفي يوم 2 نوفمبر انتقل المجاهدون إلى الجنوب بمسافة تبلغ حوالي عشر كيلو مترات.

وفي يوم 3 وصلوا إلى بئر قطيفة، وفي يوم 4 وصلوا إلى " أم العبيد "، ولم يغب المجاهدون طيلة هذه الأيام عن مراقبة الطائرات الايطالية التي كانت تتعقّبهم وترميهم بقذائفها.

وما ورود تلك العبارة: " وفي يوم 3 وصل المجاهدون إلى بئر قطيفة وبدأوا في الانقسام إلى جماعات صغيرة انتشرت على جبهة واسعة يبلغ طولها عشر كيلو مترات " إلا دليلا على استراتيجية المجاهدين للتقليل من أضرار القنابل التي كانت تلقى عليهم.

وبعد أيام اكتشف الايطاليون في " هون " اتفاقا كان يرمي إلى إثارة أهالي هون ضدهم بعد نجاح معركة قارة عافية، وتّم إعدام (19) تسعة عشر رجلاً، كما نقل أهالي " هون " إلى معتقل في " مصراتة ".

هذا، وقد عبّر الجنرال غراتسياني عن حيثيات هذه المعركة بقوله: " لقد كانت خسائرنا بالضباط والجنود خسائر خطيرة جداً، وكان أشد منها خطراً خسائر العدو ". وعلى أثرها قامت الطائرات الايطالية بملاحقة المجاهدين طوال الأيام التالية، كما قامت القوات الايطالية بعمليات قمع واسعة ونفذت اعدامات في كثير من رجالات المنطقة...

المراجع

1 – المبروك الساعدي في مقال منشور في كتاب " من معارك الجهاد الليبي في المنطقة الوسطى ". منشورات مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الايطالي. الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية 1983. ص 65 – 72.

2 – محمد خليفة التليسي " معجم معارك الجهاد ". وقد أدرجت هذه المعركة ضمن حرف الباء (بئر العافية). ص 162 – 163.

* تجدر الإشارة إلى أن " الموسوعة العسكرية " لم تشر مطلقاً إلى هذه المعركة رغم أهميتها واعتبارها من المعارك الفاصلة في تاريخ الجهاد الليبي.

معركة بَدْر

عندما ظهر الاسلام على أيدي محمد بن عبد اللـه، في شهر رمضان من السنة الثالثة عشرة قبل الهجرة (سنة 610 ميلادي)، فوجئ المجتمع القبلي به، ونزل على قبيلة قريش نزول الصاعقة. ومنذ تلك اللحظة، شعرت بأن المعركة مع الرسول (صلّى الله عليه وسلّم) هي معركة حياة أو موت... وبدأت الاستعدادات للمعركة.

لم يتوقّع المشركون انتشار الدين الاسلامي بهذه السرعة، كما لم يتوقعوا أيضاً أن تزداد قوته ونفوذه بالشكل الذي تمّ فيه ... لقد كان بمثابة " النار في الهشيم "، وهذا ما أقضّ مضاجعهم وأفقدهم صوابهم، وصمّموا على وضع حدّ لذلك حفاظاً على وجودهم الذي اهتز، وكيانهم الذي تزعزع... وكانت " معركة بَدْر " بين المسلمين بقيادة النبي محمد (صلّى الله عليه وسلّم) من جهة وبين المكّيين (المشركين) من جهة أخرى، هي المعركة الحاسمة الأولى في تاريخ الاسلام، وفي شهر رمضان من السنة الثانية للهجرة. سمّيت هذه المعركة (الذي يطلق عليها اسم " غزوة " نظراً لاشتراك النبي فيها) بهذا الاسم (بَدْر)، نسبة إلى المكان الذي وقعت فيه، وهو عبارة عن بئر ماء مشهور يقع على نحو مائة وخمسين كيلو متراً من المدينة جنوباً في غربٍ، وعلى نحو عشرين كيلو متراً من ساحل البحر الأحمر. وكانت بدر على الطريق الممتدة بين الشام واليمن، كما كان من حولها طرق فرعية تربطها بالمدينة وبطريق مكة.

هذا، ولما هاجر المسلمون من مكّة إلى المدينة، أصبح الاسلام ديناً ودولة بعد أن كان ديناً فقط، وأصبح أكثر إرهاباً للمكّيين الذين جعلوا منذ ذلك الحين يعدّون لمقاومته بالقوة. من أجل ذلك جعل الرسول يُعِدُّ المسلمين للجهاد بالتربية الخلقية والنفسية، فقد صلّى بهم عامين كاملين – يركعون بركوعه ويسجدون بسجوده ويقومون بقيامه – قبل أن يخوض بهم معركة بَدْرٍ...

كان المسلمون والقرشيون (المكّيون) في حالة حربٍ منذ الهجرة عام 622 ميلادي، وقد كانت بينهم معارك صغيرة قبل معركة بَدْر. ولذلك كانت هذه المعركة

منتظرة، يُعِدُّ لها الفريقان عدّتهما. وبلغ الرسول (صلّى الله عليه وسلم) أن قافلة للمكّيين، بقيادة أبي سفيان بن حرب زعيم قريش، راجعة من الشام إلى مكّة على طريق الساحل، فعزم على اعتراضها عند بدر. فخرج في ثلاثمائة أو يزيدون قليلاً بعد أن احتاط لكتمان خروجه باتّباع طريق فرعية، وبنزع الجلاجل (الأجراس) من رقاب الإبل، وبإرسال العيون (الجواسيس) لاستطلاع أخبار المكّيين. ولم يكن المكّيون غافلين عن مقاصد الرسول، ولذلك كان عددهم في تلك القافلة نحو ألف رجل، مما يزيد على حاجة القافلة إلى رجال في الأحوال العادية زيادة كبيرة.

فوق كل ذلك، كان أبو سفيان قد استنجد بمكة، فأنجدته بجيش من خيرة شبابها ورجالاتها وعلى رأسهم " أبو جهل ". ولكن القافلة نجت من تعرّض المسلمين الذين اختاروا ماء بدر فنزلوا عليه.

وابى أبو جهل إلا لقاء المسلمين وقتالهم رغم معارضة الكثير من القادة الذين اشتركوا بالحملة، فقصدهم إلى ماء بدر، ونزل بجيشه بالعدوة القصوى من الوادي قرب بدر، في الوقت الذي كان فيه جيش الرسول يضم المهاجرين والأنصار وبرفقته معظم الصحابة أمثال أبي بكر الصدّيق، وعمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب وغيرهم.

وجاء في تاريخ الطبري، في شأن ترتيب معركة بدر، أن الرسول لما وصل الى مكان المعركة نزل أدنى من الماء ونصب خيمته في مقدمة الجيش. فقام إليه " الحُباب بن المنذر بن الجَموح " وقال له: " يا رسول الله، أهذا المنزلُ الذي نزلته شيءٌ أوحى به اللهُ إليك أم هو شيءٌ من عندك ومن رأيك "؟ فقال الرسول: " هو شيءٌ من عندي ". فقال الحُباب عندئذ: " الرأي أن ننزلَ أعلى من الماء فنأخذ منه كفايتنا ثم نغّوره. فاذا جاء المُشركون لم يجدوا ماء، فنشرب ولا يشربون. ثم يحسُنُ أن تؤخِّر خيمتك فتكون في مأمن من العدو ونتعرّض له نحن دونك ". فقال الرسول للحُباب بن المنذر: " لقد اشرتَ بالرأي ". ثم قال لأصحابه: " افعلوا ما قال أخوكم ".

ويبدو أن الرسول قد أدرك أن اللقاء في معركة مكشوفة، مع قلّة عدد المسلمين وكثرة عدد المكّيين، غير محمود العاقبة. فأمر الرسول جماعات من المسلمين بالهجوم على الإبل المحمّلة لكي يهتم كل تاجر بالدفاع عن تجارته فيقع الاضطراب في المكّيين

وتختلّ صفوفهم ويستحيل عليهم حينئذٍ أن ينتظموا في معركة يستطيعون أن يتغلبوا فيها على المسلمين أو أن يدافعوا فيها عن أنفسِهم.

واصطف الفريقان للقتال. فنظم النبي (صلّى الله عليه وسلم) جيشه صفوفاً وساوى بين الصفوف (وكان " سواد بن غزية " ناتئ البطن في صفّه، فطعنه النبي بالقدح في بطنه قائلاً: " إستَوِ يا سواد بن غزية ")، وحضّ المسلمين على القتال قائلاً لهم: " إذا اكتنفتم القوم فانضحوهم بالنبل، ولا تحملوا عليهم حتى تُؤْذَنوا "، ثم قال: " اللهم انك أن تهلك هذه العصابة اليوم- يعني المسلمين- لاتعبد بعد اليوم ".

وبادر المشركون بالهجوم، إذ هجم الأَسْوَدُ المخزوميّ على البئر الذي بناه المسلمون يتحدّاهم أنه " سيشرب منه أو يموتنّ دونه "، فتصدّى له حمزة بن عبد المطّلب فضربه بالسيف ضربةً قطعت ساقه ثم قتله. وبرز ثلاثة من فتيان قريش من بني عبد مناف، جدّ النبي يطلبون القتال، فبرز إليهم ثلاثة من أنسبائهم من جيش النبي هم حمزة ابن عبد المطّلب، وعبيدة بن الحارث، وعلي بن ابي طالب، فقتل كل من المسلمين الثلاثة واحداً من أنسبائه المشركين الثلاثة. ثم انطلق المشركون بعدها في الهجوم على المسلمين، وبقي المسلمون في وضع الدفاع الى أن استنفد جيش المشركين قواه وعزمه، عندها صدر أمر النبي للمسلمين بالتقدم والانقضاض على المكّيين. ونزل النبي بنفسه إلى المعركة يقاتل، وبعد قتال عنيف تصدّع جيش المشركين وقُتل رأسه أبو جهل، وفرّ من بقي منه منهزماً. وقد بلغ عدد قتلى المسلمين في هذه الوقعة أربعة عشر شهيداً، أما قتلى المشركين فبلغوا السبعين، كما أسرى من قريش سبعون رجلاً. وقد يكون عدد القتلى من المسلمين شيءٌ من التقليل، وفي عدد القتلى والأسرى من المكّيين شيء من المبالغة. ولكن هذه المعركة كانت نصراً حاسماً للمسلمين دلّت على أن الإسلام كان قد أصبح قوّة عسكرية عظيمة. ثم ان الرسول وضع قوانين دولية للحرب، فعامل الأسرى معاملة رحيمة، ووعد بإطلاق سراح كل أسير يفتدي نفسه بالمال أو يعلّم عشرة من أطفال المسلمين القراءة والكتابة. فوق كل ذلك، فقد برز النبي (صلّى الله عليه وسلم) في هذه المعركة، قائداً عسكرياً فذّاً، إذ عرف كيف ينظم صفوفه للقتال، كما عرف كيف يختزن القوى في جيشه للحظات الحاسمة في المعركة، فأمر جنده أن يدافعوا ولا يهجموا حتى يأذن لهم. وقد

تجلّت نباهته العسكرية كذلك حين اقتيد إليه غلامان قادمان من جهة معسكر قريش فسألهما: كم عدد جيش قريش؟ فأجاباه: لا ندري فسألهما: كم ينحرون يومياً من الإبل؟ فأجاباه: يوماً تسعة ويوماً عشرة، فقدّر النبي عدد جيش عدوّه ما بين التسعماية والألف مقاتل وكان مصيباً في ذلك بالفعل.

وتعتبر معركة بدر " أو غزْوَة بدر " المعركة الحاسمة الأولى في تاريخ الاسلام، لأنها حطمت جاهلية وعنجهية الوثنية أمام الجماهير العربية بتحطيم جاهلية وعنجهية قريش المتمثّلتين بأصنام الكعبة والزعامات الحمقاء التافهة التي كانت تقوم بأمثال عمرو بن هشام، وأبي لهب وغيرهما ممن كانت قيمته لا تعدو أسباب القوة المادية التي وضعها نظام القهر حينذاك في يده فبغى بها ونشر الفساد. فكانت هزيمة تلك القيادات في بدر على يد فئة قليلة صالحة:

﴿ ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلّة فاتّقوا الله لعلكم تشكرون ﴾

" سورة آل عمران 123 "

وكما جاء في " تفسير الجلالين "، فان كلمة " أذلّة " معناها قلّة ضعافاً، نقول كانت هزيمة تلك النماذج، إنذاراً لكل أمثالها في الجزيرة العربية بأن يومها قد اقترب. وقضت هذه المعركة على رؤوس معارضي الدعوة الاسلامية في مكّة وأزاحتهم من طريقها، وأصبحت قوة يحسب حسابها أعداؤها، وبشرى للمستضعفين في الأرض بالخلاص، وللشرفاء الواعين بعهد جديد مشرق... وكانت بَدْرُ فعلاً بمثابة البدر المنير في سماء العرب والاسلام، في ليل الوثنية الظلماء والصنميّة الجهلاء...

ويؤكد الباحث احمد راتب عرموش ان التعمق في دراسة طريقة قتال جيش المسلمين، والأساليب التي طبّقت في هذه المعركة، باعتبارها أول معركة يخوضها المسلمون، يفسر لنا أسباب النجاح التي يمكن تحديدها بما يلي:

1 – وحدة القيادة، حيث كان الرسول (ﷺ) هو القائد العام في المعركة، وكان مثال القائد الناجح، يستشير أصحابه، ويأخذ بالآراء السليمة، ويتقدم قواته عند الضرورة في القتال... وتولد عند ذلك انضباط رائع في صفوف المسلمين، وتقيّد كامل بالتعليمات، قابله انقسام في الرأي في صفوف جيش المشركين.

2 – الكفاءة الحربية التي تميّز بها المقاتل المسلم في القتال والطاعة والانضباط والروح الجماعية المثلى.

3 – التعبئة الجديدة المتمثلة في التشكيلة القتالية، التي اتبعها الرسول (صلّى الله عليه وسلّم)، والتي تشبه التشكيلات الحربية الحديثة.

4 – المعنويات العالية التي تمتع بها المقاتل المسلم والنابعة من عقيدة راسخة.

5 – وضوح الهدف عند المسلمين والذي تمثّل بالقضاء على رؤوس الكفرة وإزالة العوائق من طريق الدعوة.

6 – سمّو الغاية، حيث كان المسلم يقاتل في سبيل رضوان الله عزّ وجلّ، لتكون كلمة الله هي العليا، وليزيل العوائق المادية من أمام الدين الجديد الذي يحرر الانسان من العبودية والظلم. بينما كان المشرك يقاتل في سبيل أهداف دنيوية رخيصة، أو عقائد فاسدة مزعزعة، أو تعصباً لقبيلة وانتصاراً لعشيرة.

أما بالنسبة للنتائج التي تمخّضت عنها معركة بدر الكبرى، يشير الباحث عرموش إلى انها:

أ – هدّدت طريق أهل مكّة مع بلاد الشام، والتجارة عصب حياتهم.

ب – أضعفت هيبة قريش ومكانتها بين العرب.

ج – عززت مكانة المسلمين ورفعت من شأن " نواة دولتهم " الفتية في المدينة.

د – أفسحت في المجال أمام نشر الاسلام بين القبائل بعد سماعهم بهزيمة قريش.

هـ– زادت التضامن والتماسك بين المهاجرين والأنصار وقوتهما.

و – كانت مناسبة لتشريع خمس الغنائم لبيت مال المسلمين. وقد نزلت الآيات الكريمة بهذا التشريع بعد بدر مباشرة. فكان الخمس تدعيماً لميزانية الدولة المسلمة، وظل أكبر مصدر لبيت المال حتى نهاية الفتوحات الاسلامية في صدر الاسلام.

المراجع

1 – أبو جعفر بن جرير الطبري " تاريخ الأمم والملوك ". الجزء الثاني. دار القلم (سلسلة روائع التراث العربي) بيروت. دون تاريخ. ص 267 – 297.

2 – " الموسوعة العسكرية " باشراف المقدم الهيثم الأيوبي. الجزء الأول. المؤسسة العربية للدراسات والنشر. بيروت. الطبعة الأولى 1977. ص 173.

3 – محمد ابو الفضل ابراهيم وعلي محمد البجاوي " أيام العرب في الاسلام " منشورات المكتبة العصرية. صيدا– بيروت. الطبعة الرابعة 1974.ص 7 – 32.

4 – عمر فروخ " تاريخ صدر الإسلام والدولة الأموية ". دار العلم للملايين. بيروت. الطبعة الثالثة 1976.ص 61 – 63.

5 – سيّد أمير علي " مختصر تاريخ العرب " نقله إلى العربية عفيف البعلبكي. دار العلم للملايين. بيروت. الطبعة الرابعة 1981. ص 18.

6 – الفريق عفيف البزري " الجهاد في الاسلام ". دار الكرمل. دمشق. الطبعة الأولى 1984. ص 87 – 98.

7 – سيرة ابن هشام " المجلد الثاني ". ص 238.

8 – طبقات ابن سعد. " المجلد الثاني ". ص 1.

9 – الواقدي " المجلد الأول ". ص 12.

10 – العقيد محمود الدرّة " معارك العرب الكبرى " منشورات الفاخرية– الرياض ودار الكتاب العربي– بيروت. دون تاريخ. ص 80 – 94.

11 – العميد الركن سيف الدين سعيد آل يحي " الحركات العسكرية للرسول الأعظم في كفّتي الميزان ". الجزء الأول. الدار العربية للموسوعات. بيروت. الطبعة الأولى 1983.ص 139 – 179.

12 – احمد راتب عرموش " قيادة الرسول (صلّى الله عليه وسلّم) السياسية والعسكرية ". دار النفائس. بيروت. الطبعة الأولى 1979.ص 50 – 54.

معـــركة البـــذّ

كثيرة هي الحركات التي عرفتها خلافة بني العباس في بغداد، كما ان معظم هذه الحركات هدّد الخلافة نفسها وزعزع أركانها من الأساس، ولم تكن حركة بابك الخرمي المعروفة بـ " البابكية " سوى إحداها التي عانى منها العباسيون الأمرّين طوال أكثر من عشرين عاماً، قبل أن يُقْضى عليها في معركة البذّ الشهيرة.

سمّيت معركة البذّ " بهذا الاسم نسبة إلى الوقعة التي جرت فيها بين قوات الخليفة المعتصم بقيادة حيدر بن كاوس (الملقب بالأفشين)، وبين بابك زعيم الطائفة الخرمية سنة 222 هـ، الموافقة لسنة 836م.

وكان بابك الخرمي قد ظهر سنة 201 هـ (618م) على رأس طائفة من المجوس المزدكيين تدعى " الخرمية "، فاحتل أذربيجان وأرمينية، وخرج عن طاعة الدولة العباسية.

واختلف الباحثون والمؤرخون في نظرتهم إلى الحركة البابكية، فمنهم من قال انها ثورة المجوس لقلب الخلافة وإزالة سلطان الاسلام، في حين ذهب البعض الى القول بأنها حركة اجتماعية عاملت الأسرى من الرجال والنساء معاملة حسنة، كما أشار الطبري وأبو منصور البغدادي والدينوري، ومنهم من أضفى طابعاً اشتراكياً على تعاليمها كبندلي صليبا الجوزي مثلاً، وغيره.

شكّل بابك الخرمي وحركته خطراً حقيقياً على الدولة العباسية، واتهمه البعض بأنه قطع الطريق وقتل وسلب، حتى أن بطرس البستاني قال فيه بأنه " قطع السابلة، فكان يقتل ويسلب، ويغير على البلاد الآمنة فيعبث فيها فساداً، وينشر مذهبه... ".

هذا، وقد أثار بابك حرب عصابات حقيقية في جبال أذربيجان، وخاصة بين البذّ وأرديبل، فكان ينصب الكمائن للجيوش فيباغتها، وينقض عليها حتى استفحل خطبه كثيراً.

وقد نشط بابك في عهد الخليفة المأمون الذي لم تسمح له ظروفه الداخلية بالتفرغ له ومحاربته، حتى اذا جاء المعتصم إلى الحكم سنة 218 هـ (832م) واستقر الأمر له،

أوفد حيدر بن كاوس (المسمّى بالأفشين) الى جبال أذربيجان وأرمينية للقضاء على بابك الخرمي. وكان ايفاده سنة 220 هـ (834م). وقد دامت الحرب سجالاً بين الأفشين وبابك حتى العام 222 هـ (836م)، وهو العام الذي تمّ فيه فتح " البذّ " مدينة بابك، والقضاء عليه نهائياً، فانتهت بانتهاء بابك " الحركة البابكية الخرمية " التي شغلت الدولة العباسية أكثر من عشرين سنة. وكان حيدر بن كاوس المعروف بالأفشين قد أظهر الاسلام، ودخل في خدمة المأمون، ثم صار قائد جيوش المعتصم، حيث وجّهه إلى بابك الخرمي لقمع ثورته والقبض عليه، فنجح. غير انه لم يكن صادق الخدمة مع الخليفة، بل كان يتاجر بثورة الخرمية ويستغلها، فماطل ما استطاع في محاربتهم، وتقاضى أموالاً طائلة مقابل قيامه بهذه المهمة. لذلك قال المؤرخ ابن الأثير: " جعل المعتصم للأفشين على كل يوم يركب فيه الحرب الخرمية عشرة آلاف درهم، وكل يوم لا يركب فيه خمسة آلاف درهم، سوى الأنزال والمؤونة ".

وعندما عزم الأفشين على التوجه إلى " البذّ " لفتحها، وكان بابك محاصراً فيها وفي الجبال المحيطة بها، ارتحل من كلان روز (أي النهر الكبير) وأخذ يتقدم بحذر وبطء، خشية أن تباغته كمائن بابك، وكتب اليه المعتصم أن يظل على تعبئة، وان يجعل معسكره كراديس بعضها معسكر والآخر واقف على ظهور الخيل خوفاً من البيات والمباغتة. وكان الأفشين قد انحدر إلى " روذ الروذ " وأشرف على مواقع بابك، فأقام هناك، وأمر بحفر الخنادق حول معسكره، فحفرت في عشرة أيام، وكان على جيشه ثلاثة من كبار القواد وهم: أبو سعيد محمد بن يوسف الثغري الطائي، والهيثم الغنوي، وعَلَوية الأعور، بالاضافة إلى جعفر الخياط، وأحمد بن الخليل، وقائد آخر يدعى " بخارا خذاه ". فوق كل ذلك، استطاع الأفشين أن يستفيد من جواسيس الخرمية فيجعلهم عيوناً له على سيّدهم، لأنه كان إذا وقع في يده واحد منهم عفّ عنه وأجزل له العطاء ليصير جاسوساً له. كما استفاد أيضاً بشكل كبير من " الكوهبانية "، أي رجال الاستطلاع، الذين كانوا ينقلون إليه الأخبار والمعلومات الدقيقة لتجييرها في خدمة المعركة مع بابك، لأن من يمتلك الأكثر من المعلومات هو الذي يضمن الانتصار.

احتل قادة الأفشين موقعهم، وكل منهم على رأس كردوس. وكان بين الأفشين

وبابك واد فوقه عقبة، فكان يأمر قادة الكراديس الثلاثة الأول ان يعبروا كل يوم صباحاً الوادي نحو معسكر بابك ويقفوا مقابل باب البذّ، دون أن يحاربوا، ثم يعودون في المساء، وكان يأمر قائداً من قادته وهو " بخارا خذاه " ان يرابط مع ألف فارس وستمائة راجل على رأس العقبة قبل عبور الكراديس ويظل حتى عودتهما وذلك كي يؤمن عدم مباغتتها.

وكان بابك يعتصم في عاصمته " البذّ "، إلا انه كان يأمر قائداً من قادته يدعى " آذين " أن يتحرك فيحتل تلاً خارج البذ بإزاء الكراديس الثلاثة، ويراقب كي لا يتقدم أحد من جند الأفشين نحو باب البذّ، والأفشين جالس على تل مشرف على باب قصر بابك يراقب، فلاحظ أن بابك كان يفرّق كل جنده إلى كمائن كلما تحركت كراديس الأفشين من خنادقها لتعبر الوادي نحو مدينته، ولا يبقى مع بابك إلا شرذمة ضئيلة، الا أنه لم يتمكن من اكتشاف موضع الكمائن، فكان يرسل مشاته " الكوهبانية "، وهم رجال الاستطلاع، للتفتيش عن موضع هذه الكمائن. وبقي الحال على هذا المنوال مدة من الزمن حتى ضاق جند الأفشين وقادته ذرعاً بذلك، وكذلك ضجرت الخرمية. وفي أحد الأيام وبينما أخذت الكراديس بالانصراف عبر الوادي أولاً بأول، عبر أبو سعيد ثم ابن الخليل وبعض أصحاب جعفر الخياط، وفتح الخرمية باب خندقهم وانطلق بعض فرسانهم يحملون على من تبقىّ من جند جعفر في ذلك الموضع؛ وارتد جعفر نحو جنده المباغتين ليعينهم، فاستطاع أن يرد جند بابك الى باب البذّ، إلا أن الضجة عمّت الجميع فرجع الأفشين وباقي الكراديس يقاتلون، وخرج بابك وبعض جنده يقاتلون كذلك. وعبر المتطوعة من جند الأفشين، وكانوا بقيادة " أبي دلف "، الوادي نحو البذّ لكي يقاتلوا، وتحركت الخرمية من مكانها فاستطاع الأفشين أن يميز تلك المكامن، وكاد جند جعفر ان يدخلوا البذ، وطلب جعفر من الأفشين أن يمده بخمسمائة من الناشبة (الرماة) ليدخلها، فأبى الأفشين عليه ذلك، ولم يمده خوفاً من ان تطبق الكمائن عليه وهو في داخل المدينة، وانتهى القتال ذلك اليوم وعاد كل الى موضعه، إلا أن جند الأفشين لم يعودوا يحتملون القعود عن فتح مدينة بابك، وقد تمكنوا من الوصول إليها وكادوا يفتحونها.

وسرت إشاعة بين جند الأفشين ان قائدهم لا يرد فتح مدينة بابك، وانه يماطل ويريد التطويل، فجمع قادته وجنده وخيّرهم أيّ يوم يريدون القتال، وأمرهم بالاستعداد

للهجوم والتأهب للحرب... و " أمر الجند والفرسان والرجالة وجميع الناس بالأهبة... وحمل الماء والزاد والمال، ولم يبق في المعسكر بغل إلا وضع عليه محمل للجرحى، وأخرج معه المتطببين، وحمل الكعك والسويق وغير ذلك، وجميع ما يحتاج إليه " – كما يقول الطبري –. ووزع المهمات على قادته وجنده كما يلي: أرسل " بخارا خذاه " مع فرسانه ومشاته الى رأس العقبة للمهمة نفسها التي كان يوكلها إليه في السابق. وخيّر " أبا دلف " ومتطوعته من أية جهة يريدون أن يحاربوا، وقصرهم عليها. وجعل جعفراً قائداً على العسكر جميعاً، وأوكل إليه أمر الناشبة (الرماة) والنفاطين (رماة النفط) وخيّره من أي موضع يريد أن يهاجم، فاختار الموضع الذي كان عليه في آخر هجوم، فأوكله إليه. وترك بين يديه أبا سعيد مع جنده واحمد بن الخليل مع جنده، احتياطاً لمساعدة جعفر عند اللزوم.

وبدأ الهجوم بالمتطوعة مع " أبي دلف "، فانحدروا إلى الوادي وتسلقوا حائط البذّ من الموضع نفسه الذي سبق وتسلقوه في المرة السابقة، وحمل جعفر على باب البذّ بكل قوته فتلقّاه جند بابك عنده، ودارت بين الفريقين معركة عنيفة كان خلالها الأفشين يرسل الى المقاتلين من جند جعفر الزاد والماء والمكافآت (الدنانير). واشتد القتال واستعر، وفتح الخرمية باب البذّ وخرجوا منه ليشدوا على جند جعفر فيردّونهم عنه ثم يشدّون على المتطوّعة كذلك فيطرحونهم عن السور. وكان الأفشين قد حمل معه عرادات، فجعل واحدة مما يلي جعفراً على الباب، وأخرى على طرف الوادي من ناحية المتطوعة، فحاول جند بابك الاستيلاء على العرادة التي عند جعفر، الا ان جعفراً ردّهم عنها وحملها إلى المعسكر، وانتهى القتال ذلك اليوم دون الوصول إلى أية نتيجة حاسمة، فعاد جعفر وجنده والمتطوعة وباقي جند الأفشين إلى معسكرهم.

وبعد اسبوعين، قرر الأفشين العودة الى الهجوم، فأعدّ، في الليل، ألف رجل من المشاة الناشبة (الرماة) وزودهم بالمؤونة وبأعلام سوداء، وأرسلهم عند مغيب الشمس، إلى جبل عال خلف التل، الذي تمركز عليه آذين (قائد بابك) وأمرهم أن يتخفّوا فلا يعلم أحد بوجودهم، حتى إذا رأوا أعلامه (الأفشين) ورأوا المعركة ركبوا الأعلام في الرماح وضربوا الطبول وانحدروا من فوق الجبل ورموا بالنشّاب والصخور جند بابك، وأمر

بشيراً التركي ومن معه من قادة الفراغنة أن يكمنوا في الوادي تحت الجبل الذي يتمركز آذين عليه، وذلك لعلمه أن بابك يوجه كمائنه باستمرار إلى ذلك الموضع، ثم أمر باقي القادة أن يستعدوا للقتال ويتأهبوا له عند السحر. وفي الصباح، أمر " بخارا خذاه " أن يسير في المقدمة مع أبي سعيد وجعفر الخياط وأحمد بن الخليل، ثم أمرهم أن يقتربوا من التل الذي عليه " آذين " فيحيطوا به (وكان ينهاهم عن ذلك قبل اليوم كي لا يكشف للعدو خطته) فأحاط القادة الأربعة بالتل كما يلي: كان جعفر الخياط عند باب البذّ ومما يليه، وكان أبو سعيد مما يلي جعفر، وبخارا خذاه مما يلي أبا سعيد، وأحمد بن الخليل مما يلي بخارا خذاه، وهكذا حوصر آذين على التل حصاراً محكماً، وأحاط به جند الأفشين من كل جانب. وتحرك الكمين الخرمي الذي كان تحت التل في الوادي فاصطدم ببشير التركي وجنده واشتبك معه بقتال عنيف. وعندما سمع الناشبة المتمركزون خلف تل البذّ جلبة القتال، نشروا أعلامهم السوداء كما أمرهم الأفشين، وانحدروا نحو آذين يرمونه وجنده بالنشّاب وبالصخور، ثم حمل جعفر وأصحابه على آذين. وصعد إليه على التل، فتقهقر آذين إلى الوادي، حيث تلقاه أبو سعيد بجنده من أسفل وحملوا عليه وعلى جنده، ثم خرج اليه جند الأفشين من كل مكان من سفح التل، وحملوا عليه حملة رجل واحد فلم يعد يعرف له مخرجاً. ولما رأى بابك ما حل بجنده خرج من باب البذّ يطلب الأفشين لعلّه يرضى بالصلح، ولكن أعلام الفراغنة من جند الأفشين كانت قد اخترقت أبواب البذّ وارتفعت على قصور بابك الأربعة وانهزم من فيها من جنده وكانوا ستمائة. ثم باشر جند الأفشين دك هذه القصور وحرقها، ودارت بين الفريقين أمام القصور وفي شوارع المدينة حرب شوارع عنيفة ودامية، فقاتل الخرمية قتالاً شديداً وأحضر الأفشين النفاطين، فأخذ يصب النفط على المنازل والقصور ويحرقها حتى قتل أهل البذّ عن آخرهم، وهدمت بيوتهم كلها، ونجا بابك وأهل بيته ففروا إلى أرمينية، ولجأ بابك الى سهل بن سنباط الذي وشى به الى الأفشين، فقبض الأفشين عليه وعلى أخيه عبد الله، وكان قد لجأ إلى ابن اصطفانوس، واقتادهما إلى سامراء حيث قضى المعتصم عليهما بالموت ذبحاً. فقطعت يد بابك ورجلاه، ثم ذبح وشق بطنه، وأرسل رأسه إلى خرسان، وصلب بدنه بسامراء، ليكون عبرة لسواه. فمات شر ميتة بعد أن أزعج الخلافة قرابة عقدين من السنين وملأ

جبال القفقاس رعباً حقيقياً، " فتبددت بموته آمال دولة المجوس " – كما يقول بطرس البستاني–. ومهما يكن من أمر، فان حركة بهذه الأهمية من التنظيم، اضافة الى الثبات أمام جيوش خلفاء بغداد العباسيين أكثر من عشرين سنة، لهي جديرة بالبحث والتدقيق، للوقوف على دقائقها وتفاصيلها، وفي الدقائق والتفاصيل تكمن العبر والدروس. ولعل درساً من دروسها، أو عبرة صغيرة من عبرها، كفيلة باستخلاص أغنى التجارب وأجداها في مواجهاتنا نحن أبناء الأمة العربية مع أعدائنا... والمعرفة خير معين للانتصار.

المراجع

1 – الموسوعة العسكرية. باشراف المقدم الهيثم الايوبي. الجزء الأول. المؤسسة العربية للدراسات والنشر. بيروت. الطبعة الأولى 1977. ص 174 – 175.

2 – الموسوعة العسكرية (المرجع نفسه) الجزء الثاني. الطبعة الأولى 1979. ص 71 – 72.

3 – تاريخ الطبري. الجزء العاشر (طبعة القاهرة) ص 179 و 338 و 204 و 295.

4 – ابو منصور البغدادي " الفرق بين الفرق والفرقة الناجية منها ". ص 266 و 331 و 334.

5 – الدينوري " كتاب الأخبار الطوال " طبعة بطرسبرج. ص 360.

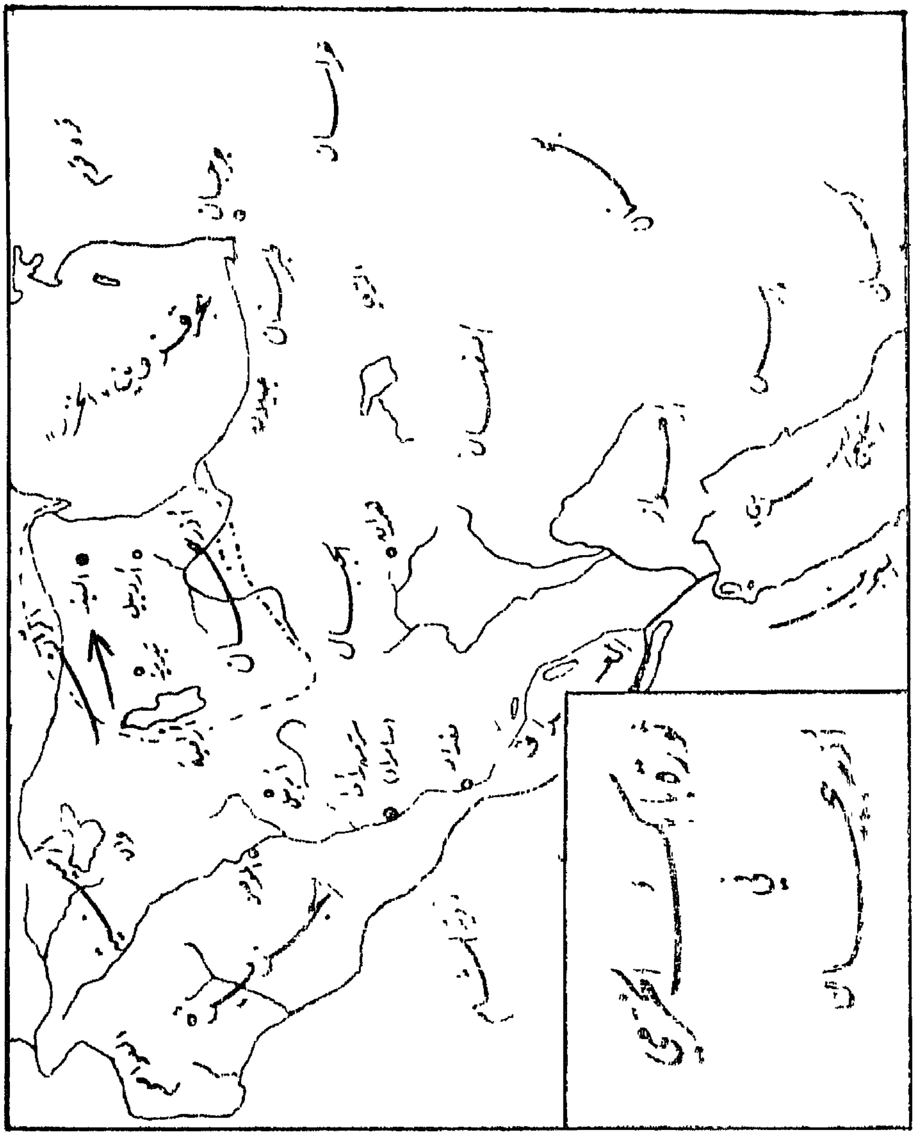
6 – ابن الأثير " تاريخ ابن الأثير ".

7 – المسعودي " مروج الذهب " الجزء الثاني. طبعة 1346هـ. ص 352.

8 – اليعقوبي " تاريخ اليعقوبي " الجزء الثاني. طبعة ليدن. ص 565 و 568.

9 – بطرس البستاني " معارك العرب في الشرق والغرب ". دار مارون عبود. بيروت 1979. ص 98– 114.

10 – بندلي صليبا جوزي " من تاريخ الحركات الفكرية في الاسلام ". منشورات الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين. بيروت. الطبعة الثانية 1981. ص 78 – 116.



موقع البذّ (مشار إليه بسهم)

المرجع: شوقي أبو خليل " عموّريّة ". دار الفكر المعاصر. بيروت. دار الفكر.

وقعة البكيريّــة (1322 هـ)

كانت وقعة البكيرية قد نشبت بين ابن سعود من جهة والترك وابن رشيد من جهة أخرى، وكانت هي الوقعة الحاسمة في تاريخ حروب عبد العزيز بن سعود وفتوحاته، فلقد غيرت تلك الوقعة مجرى التاريخ في الجزيرة العربية بنتائجها الحاسمة في تقويض ملك ابن رشيد من ناحية، وفي قضائها على نفوذ الترك من ناحية أخرى.

يقول الشاعر بولس سلامة في تلك المعركة:

" وتلاقى عند البكيرية الجيشان — بحراً عزريل خوّاض مائه
يقذف الموت في أواذيه الحمر — وجيش السعود في حصدائه
لجة دائم الهدير فلا جزر — يقيل النفوس من حمرائه
فترد الرياض بالسمر أرماحا — دقاقاً تحدّ من غلأوائه
من هنا دولة وشمر، تحدوها — وبند السلطان في خيلائه
من هنا أنسر العروبة يحدوهم — أمير بلّ الثرى من دمائه

وما أن رأتــه القصيم حتى:

هلّلت درّة القصيم لمرآه — وزانت أبصارها باجتلائه
وتعالت أبراجها واشرأبّت — تباهت أسوارها باحتوائه
لم يشاهد جو القصيم كذاك — اليوم بهج العشيّ في أمسائه
بذلت قلبها عنيزة مالاً — ورجالاً تجري على إيمائه

وبعد الهجمة الأولى يفرّ ابن رشيد، ويسير خلفه عبد العزيز فيلتقيان عند موقع البكيرية:

خيّم العسكران في جبهة الوادي — وبثّ الرشيد من أعبائه
ناصباً في آكامه طنب الحرب — تشدّ القلوب من جنبائه
شمخت فوقها المدافع تلاً — من حديد والنار في شجرائه

ظــنّ وادي جــهــنــم وعــزيــف للشياطين مدّ في ضوضائه

وإذا بـالأمـيـر يـرسـل صـوتـاً يرجف المدفعيّ من أصدائه

زأرة الليث شام أشبله صرعى فأجّ الوقيد في أعضائه

صدم الجيش صدمة الأسد الضار ي فما الموت كافياً لانثنائه

ريع قلب الحديد، وانهزم التر ك، وهام الرشيد في بيدائه

خانه السيف عندما هجم الليث ومادت " شنانة " لانتخائه

وأراد الأمير أن يلحق الباغي فيردي الأخير من قرنائه

فثناهم عن الإغارة مال أتعب الحاسبين في إحصائه

زاد نصر الأمير في طيبة طيباً وفي عزّه وفي إثرائه

شرد الترك في القفار معيزاً أعمل السبع نابه بجدائه

بعضهم عاد كاسف الوجه نضواً يستجير الأمير في إيوائه ".

إن يوم البكيرية ليس له ندّ إلا يوم العرب في ذي قار.

يقول الشاعر خالد فرج عن ذلك اليوم:

" في البكيرية التقى الجمعان

وتلاقى الترك بالعربان

وغطّى الجو قسطل الفرسان

من غبار في ظلمة في دخان

وشنّحته " الأطواب " بالنيران

هو يوم وما له من ثان غير يوم الأعراب في ذي قار.

ويوضح خالد الفرج كيف تمّ هذا النصر في الوقت الذي يحاصر فيه ابن رشيد " الخبراء "، حينما أغار عبد العزيز على البكيرية حتى التحم مع سلطان– قائد من قبل ابن رشيد – وهزمه شر هزيمة.

يقول الشاعر:

جاء عبد العزيز والعربان
ليوافوا أعداءهم حيث كانوا
فأتاهم في جمعه سلطان
فتلقاه عندها الفرسان
أول الفجر فاستمر الطعان
فتولىّ بجيشه، والمكان   تمّ إخضاعه بذاك النهار ".

وطالت الأيام، وكثرت المناوشات بين الطرفين في " الشنانة " و " وادي الرمة " حتى لحقت الهزيمة بجند الترك وابن رشيد، وتفرقوا تاركين خلفهم غنائم يصعب جمعها.

يقول خالد الفرج:

" ناوشوه القتال في الانسحاب
و " بوادي الرمة " على قيد قاب
قددنا حينذاك وقت الحساب
حيث أضحت جنوده في اضطراب
لم تفده الأتراك بالأطواب
إذ تولّوا فوراً على الأعقاب   ثم لاذ ابن متعب بالفرار

إلى أن يقول:

واكتفى ابن السعود بالانتصار ".

ويقول الشاعر فكتور البستاني عن يوم البكيرية:

ولدى " البكيرية " اشتدّ القتال   وبأشلاء العدى اكتظّ المجال
ثم باتت الحرب سجال

إلى ان يقول:

جرح العاهل، ولكن الأملْ لم تنل منه جراح وعللْ

ووراء الحدّ كالبدر أفَلْ

إنما عاد مشعاً مشرقا وعلى الأتراك قاد الفرقا

فأجلّ البؤس فيهم والشقا

ومعدات المنايا غنما منهم، واحتل ما كان فقدْ

المراجع

1 - اسماعيل حسن أبو زعنوعة " صقر الصحراء في رياض الشعر والشعراء ". دار المعمّر للطباعة والنشر والتوزيع. السعودية / الرياض. 1993 ص 107 - 113.

2 - بولس سلامة " عيد الرياض " (ملحمة شعرية). ص 248 - 259.

3 - خالد الفرج " سيرة عبد العزيز ". ص 32 و 42 و 44.

4 - فكتور ملحم البستاني " بطل الجزيرة " (ملحمة شعرية).

معركة بلاط الشهداء
أو معركة " بواتييه "

في شهر تشرين الأول من سنة 732 ميلادية، وقعت معركة حاسمة في تاريخ العرب من جهة، والأوربيين من جهة ثانية، وقد عرفها المؤرخون العرب باسم " معركة البلاط " أو معركة " بلاط الشهداء " لكثرة ما استشهد فيها من رجالات المسلمين وأكابرهم. بينما تُعرف هذه الوقعة عند مؤرخي الغرب والمصادر الأوروبية باسم معركة " تور " أو " بواتييه ".

جرت هذه المعركة بين جيش من المسلمين يقوده عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي، وجيش من الفرنجة يقوده شارل مارتل (Charles Martel) (أي المطرقة)، وحليفه أودو (Odo). هذا في الوقت الذي كان فيه ملكاً على الفرنجة يومئذ تيودوريك الرابع. لكن شارل مارتل وزير القصر كان صاحب السلطة الحقيقية، يسيطر بها على الملك المتوّج، واليه يرجع في معضلات الأمور.

اختلف المؤرخون الغربيون والمؤرخون المسلمون في وصف هذه المعركة وتحليلها، فبينما نرى المؤرخين الغربيين يسهبون في الحديث عن انتصار شارل مارتل وهزيمة المسلمين فيها، نرى معظم المؤرخين المسلمين يمرّون على ذكرها مروراً عابراً، ما عدا بعض المتأخرين من مؤرخي حقبة الحكم العربي في الأندلس. كما اختلفوا في تقدير عدد الجيوش التي حشدت في هذه الوقعة. إذ أن المؤرخين الغربيين يقدّرون عدد جيش المسلمين بنحو أربعمائة ألف مقاتل، نرى بأن المؤرخين المسلمين يقدّرون عدد هذا الجيش بمائة ألف فقط. وربما يكون سبب هذا الاختلاف العدد الكبير الذي اصطحبه معهم المسلمون في زحفهم من النساء والأولاد بقصد الاستيطان. ولكن المؤرخين – الغربيين والمسلمين – اتفقوا على ان عدد جيش الفرنجة كان يفوق جيش المسلمين عدداً.

والمتفق عليه أيضاً هو أن هذه الوقعة كانت حاسمة ومصيرية بالنسبة الى الفتح الاسلامي (والعربي) من جهة، وبالنسبة إلى الصراع بين العقيدتين الاسلامية والمسيحية

من جهة أخرى، إذ وضعت هزيمة المسلمين فيها حداً لفتوحاتهم في أوروبا، وكانت بداية لتراجعهم وانحسار امبراطوريتهم.

وانطلاقاً من شجاعة القائد عبد الرحمن الغافقي وحزمه، وانتصاراته في كثير من المواقع، فقد أكبر فيه الجند هذه المزايا واختاروه لولاية الأندلس. ثم جاءه تثبيت من الخليفة، فقام بها خير قيام. إلا أنه لم يسلم من الحسّاد، فراحوا يرمونه بالاسراف ويشكونه إلى والي أفريقية حتى عزله وولىّ مكانه " عنبسة بن سُحيم الكلبي " (من قبيلة بني كلب)، فاستقامت به الأندلس وضبط أمرها، ثم غزا بنفسه أرض الفرنجة، فأغار على شاطئ الرون حتى بلغ ليون. وفيما هو يجتاز النهر راجعاً، اصابه سهم فقضى على حياته.

وتتابع بعده الأمراء حتى عادت الولاية إلى عبد الرحمن الغافقي، فاستبشر به أهل الأندلس ورحبوا بقدومه، فنشط في بدء أمره الى تدبير البلاد وتعهد شؤونها بالرعاية والعدل. فجبى الضرائب على أساس المساواة. وأصلح الجيش منظماً فرقه وقواده. وحصّن المواقع والثغور الشمالية. ثم أخذ يدعو إلى قتال الفرنجة، ويحشد لهم الجيوش.

وكان عثمان بن أبي نسعة أحد زعماء البربر عاملاً على الولايات الشمالية من قبل الأمير عبد الرحمن الغافقي، فحدّثته نفسه بأن يستقل بولايته، وينبذ طاعة أميره، لما بين العرب والبربر من الخلاف والتنافس في ذلك الحين، إضافة الى اعتداد البربر بأنفسهم...

ومن أجل تحقيق غايته، سعى عثمان بن أبي نسعة إلى محالفة الدوق (أودو- Odo) وهادنه ليستعين به على أمير الأندلس. فأزوجه الدوق ابنته " لمباجيا " ليأمن به خطر الجنوب اذا هاجمه المسلمون، ويستنجده على خطر الشمال إذا عاود الكرّة عليه عدوّه شارل مارتل، فهاجمه ليزيل سلطانه.

لكن عبد الرحمن الغافقي لم ينم على هذا التحالف الجهنمي، ولا ارتضى بمهادنة الدوق، فبعث جيشاً من قبله يحتل الولايات الشمالية، فقاومه عثمان أمام عاصمته الباب على البيرينه - (Pyrrenée)، فلم يستطع الثبات دونه فولىّ هارباً، فطارده الجيش حتى أدركه عند عين ماء في الجبال، فدافع ابن أبي نسعة عن نفسه مستبسلاً، ثم رأى

زوجته" لمباجيا " تساق سبية ذليلة، فاستولى عليه اليأس، فألقى بنفسه في هوّة عميقة أودت بحياته.

وذعر الكونت " أودو– Odo " حين بلغه ما نزل بصهره وحليفه، فنادى بالنفير ليغزو الولايات الشمالية، فبادر عبد الرحمن بجيش كبير، يبلغ الثمانين ألفاً أو يزيد، فاجتاز البيرينه، وزحف إلى أوش وبازاس، فتبعه " أودو " يحاول ردّه، فهزمه عبد الرحمن وطارده إلى عاصمته بوردو، فتحصّن فيها، إلا أنها لم تُغْنِ عنه شيئاً فسقطت في يد لغافقي، وهرب الكونت يستجير بعدوّه شارل مارتل.

وتابع الجيش الاسلامي زحفه حتى بلغ " بواتييه "، فهاجمها واستولى عليها ونهب ما فيها. ثم اقتحم قلب فرنسا مغيراً على ضفاف اللوار، فاعترضتهم " تور " فألقى عليها الحصار، وما لبثت ان استكانت له، فأصابها ما أصاب أختها " بواتييه ". وأحدق الخطر بأورليان (Orléans) مهدداً باريس. وشارل مارتل يسير بجيشه متباطئاً ليدع الجيش الاسلامي يوغل في البلاد، فيبتعد عن قواعده.

ولما سقطت تور، كان جيش الفرنجة قد بلغ اللوار، وجيش المسلمين يتهيأ للعبور، فتراجع عبد الرحمن الغافقي الى السهل المنبسط بين تور وبواتييه ليتسع عليه المجال، عبر شارل النهر غربي تور، فالتقى الجيشان في تلك البقعة الفسيحة التي قدّر لها أن قرّر مصير أوروبا، وتضع حداً للفتوح العربية، وتنقذ الغرب.

كان هذان الجيشان قد تعوّدا خوض المعارك، وتعادلا في كثرة العدد وحسن القيادة، إذ أن شارل مارتل لم يكن، في الواقع، دون عبد الرحمن خبرة في الحروب، ودهاء في وضع الخطط، وتسيير حركاتها. إلا أن الجيش العربي كان أوفى تدريباً من جيش الفرنجة. على أن وجود البربر فيه أضعف معنويّاته وأخلّ بروابط اتحاده وتضامنه. فاضافة إلى كرههم للعرب، فقد ملّوا الحرب بعد ان امتلأت ايديهم بالغنائم الثمينة إثر اقتحاهم لجنوبي فرنسا، فتعلّقوا بغنائمهم، وآثر كثير منهم العودة عن القتال الى ديارهم في الأندلس، خاصة وأنهم لا سابقة لهم في الاسلام وليس لهم ما للعرب من مثل أعلى يدفعهم إلى الجهاد لرفع الراية العربية وإظهار الدين الجديد، فضلاً عن أن نشوة الفتح وعزّ الاسلام كانا يجددان الحمية في نفوسهم لمتابعة المسيرة الجهادية...

رغم كل ذلك صمد الجيش العربي الاسلامي في وجه جيش الفرنجة الذي يفوقه عدداً وعدّة. وأخذ عبد الرحمن يتأهب للمعركة الفاصلة. ونشبت بين الجيشين معركة استمرت حتى الليل دون أن يتوصل الفريقان الى حسم القتال، فافترقا على تكافؤ لا غالب ولا مغلوب. وفي اليوم التالي عادوا الى التلاحم، وقد تمكن جيش الفرنجة، من رجال الدوق أودو، من فتح ثغرة في صفوف المسلمين، نفذ منها إلى معسكر الغنائم. وهذه غنائم بلادهم فيها نساؤهم وأبناؤهم وبناتهم، ونفائسهم. فاخترقوا خطوط دفاعهم، وأوقعوا الذعر فيها، وانطلقت صيحة من صفوف المسلمين أن غنائمهم في خطر. وتسارعت فرسان البربر للدفاع عن أسلابها منفصلة عن الجيش المقاتل، وتلاحقت بها فرسان من العرب، فانثغرت الصفوف الاسلامية. وعبثاً حاول القائد عبد الرحمن الغافقي أن يعيد الى الصفوف نظامها، فلم يفلح.

عندها تقدّم هو نفسه للقتال مع نخبة من الشجعان من جنده، فسقط شهيداً من على جواده، وقد خرقته الحراب، فارتبكت العساكر الاسلامية بعد مقتل قائدها، وعمّ الذعر فيها، وقويت بالمقابل عزيمة الفرنج إذ رأوا جند المسلمين مذعورين، فأعملوا فيهم سيوفهم، وفقد العرب في هذه المعركة خيرة أبطالهم وساداتهم، وفجع الجيش العربي الاسلامي بالعدد الأكبر من رجاله. وعندما هبط الليل انسحب المسلمون تاركين للفرنجة ما كان بأيديهم من غنائمهم، إضافة إلى الجرحى التي تئن على الأرض بين قتلاهم.

وفي الوقت الذي تقدمت فيه طلائع جيش الفرنجة، في فجر اليوم التالي، لتستكشف مواقع المسلمين، فاذا بخيامهم خاوية فارغة، فتقدم شارل مارتل ليستولي على الغنائم والأسلاب التي تركها المسلمون في معسكرهم، والتي من أجلها هزموا وهزم طموح العقيدة التي حملوها من أقاصي الأرض.

هكذا أنقذت معركة " بواتييه " أوروبا بأجمعها. وعلّق عليها المؤرخون الغربيون أهمية كبيرة، ويعتبرونها من المواقع العالية الحاسمة في التاريخ. ويقولون لو أن العرب انتصروا في هذه المعركة لحدث في أوروبا مثل ما حدث في إسبانيا، ولصار القرآن يتلى ويدّرس في جامعات باريس وكمبردج وأكسفورد... إلخ، ولهذا نجدهم يشيدون بشارل

مارتل ويعتبرونه المنقذ والمخلّص لأوروبا من العرب " المتأخرين ".

وقد سخر من هذا القول أديب فرنسي منصف من كتّاب القرن الماضي وهو " غوستاف لوبّون " في كتابه حضارة العرب ، إذ قال أنه ينبغي أن ننظر إلى العرب في ذلك الوقت نظرة تختلف عن نظرتنا لهم في الوقت الحاضر كشعب متخلّف نسبياً عن الشعوب الأوروبية. لأن الوضع في العصور الوسطى كان على العكس تماماً، العرب هم المتحضّرون، والأوربيون هم المتخلفون المتأخرون. ولا أدلّ على ذلك من اننا نسمي تاريخ أوروبا في ذلك الوقت بالعصور المظلمة. ثم يضيف " غوستاف لوبّون " قائلاً بأنه كان يتمنى لو أن العرب استولوا على فرنسا، إذن لصارت باريس مثل قرطبة في اسبانيا مركزاً للحضارة والعلم، حيث كان رجل الشارع فيها يكتب ويقرأ، بل ويقرض الشعر أحياناً، في الوقت الذي كان فيه ملوك أوروبا لا يعرفون كتابة أسمائهم ويبصمون بأختامهم.

هذا، وقد أشار المؤرخ الكبير الدكتور عمر فرّوخ الى نتائج معركة " بلاط الشهداء " قائلاً بأن هذه المعركة كانت فاصلة في تاريخ الحرب وفي تاريخ الحضارة:

أ – ان العرب لم يغادروا جميع الأراضي التي كانت تحت أيديهم في غالية (فرنسة). ولكن غزوة عبد الرحمن الغافقي كانت آخر محاولة جدّية قام بها العرب لغزو بلاد الفرنجة.

ب – أصبح قائد الفرنجة شارل مارتل بطلاً أوروبياً، واتخذ في ذلك اليوم لقب " مارتل " (المطرقة)، فأصبح يعرف في التاريخ الأوروبي باسم " شارل مارتل ".

ج – يعدّ الأوروبيون معركة بلاط الشهداء رمزاً للانتصار الديني والسياسي. فقد ظلت فرنسا منذ ذلك الحين المركز الذي خرجت منه معظم الحركات والجيوش لقتال العرب والمسلمين. (والحروب الصليبية أكبر دليل على ذلك).

د – ان هذه المعركة قد دلّت على أن القوة العسكرية في الأندلس كانت قد وصلت إلى منتهاها، فلم يبق في وسع المسلمين في المغرب كله أن يجيشوا من الجيوش ما يمكن أن يتغلبوا به على أوروبا التي كانت تستخدم جموع البرابرة المتدفقين على أوروبا من شرقها وشمالها لقتال العرب.

هـ – ان انتصار الفرنجة قد أخّر نفوذ الحضارة إلى أوروبا، وتركها في عصورها المظلمة حتى عادت واحتكت بالعرب في ميادين الحروب الصليبية بعدثلاثمائة وخمسين سنة.

نصل من خلال ذلك، إلى أن معركة " بلاط الشهداء "، رغم أنها كانت كارثة على العرب والمسلمين، إلا أنها كانت كارثة في الوقت نفسه على القارة الأوروبية والحضارة بشكل عام. وما انتصار شارل مارتل إلا انتصار لعصر الجهالة المظلم. وقد التقى حول هذه النتيجة كثير من مثقفي الغرب والشرق على السواء، وهذه حقيقة يصعب إنكارها والتهرّب منها.

ومن يفضّل استمراريّة العيش في دهاليزّ العصور المظلمة، كمن يرفض الاعتراف بوجود النور والشمس والحضارة. ولن تتوقّف مسيرة الانسانية على أمثال هؤلاء.

المراجع

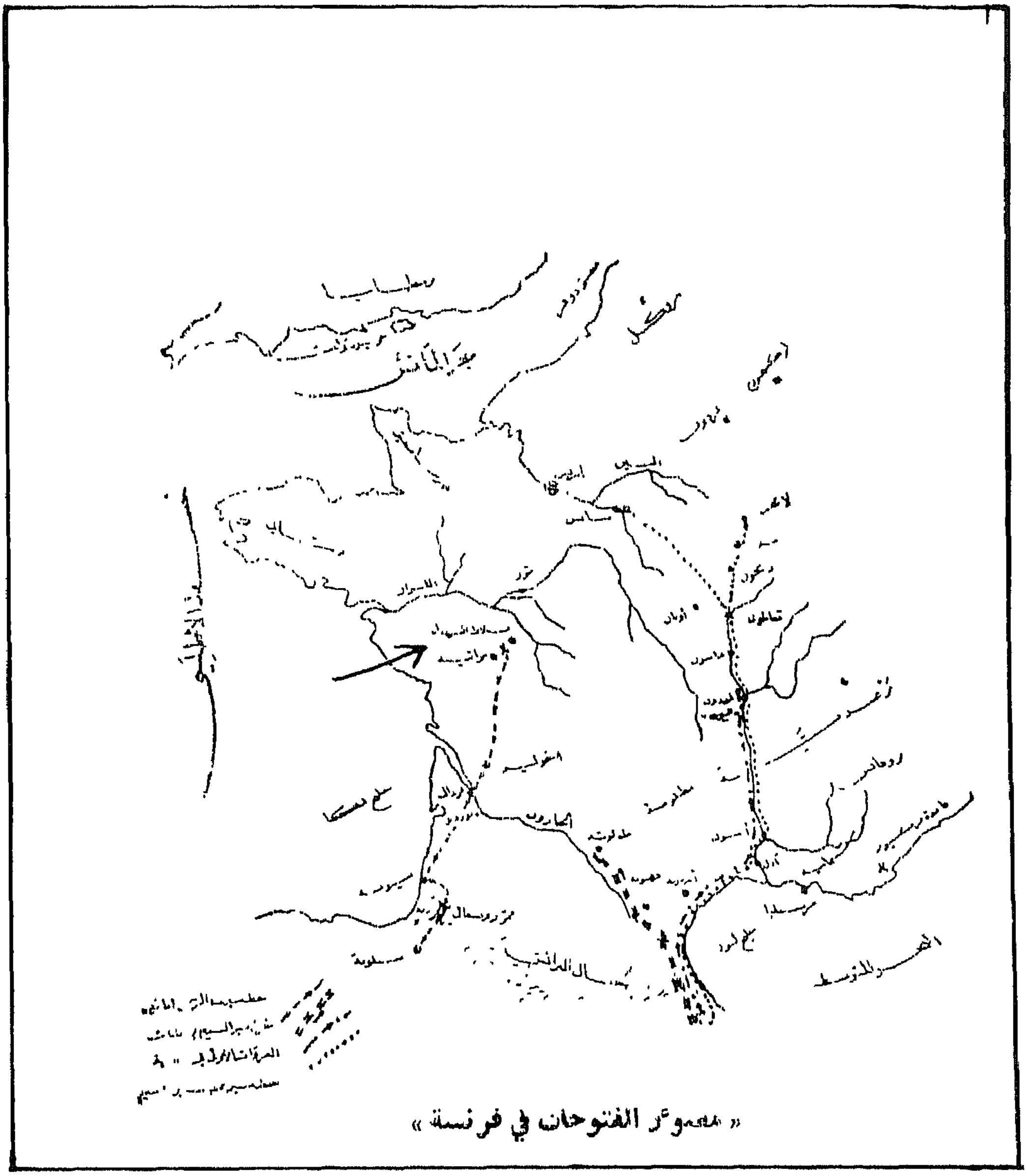
1 – بطرس البستاني " معارك العرب في الشرق والغرب ". بيروت. دار مارون عبود 1979. ص 71 – 81.

2 – احمد مختار العبّادي " في تاريخ المغرب والأندلس ". الاسكندرية. مؤسسة الثقافة الجامعية. دون تاريخ. ص 87 – 90.

3 – الموسوعة العسكرية. الجزء الأول. باشراف المقدم الهيثم الأيوبي. المؤسسة العربية للدراسات والنشر. الطبعة الأولى. بيروت 1977. ص 195.

4 – ابراهيم بيضون " الدولة العربية في اسبانيا من الفتح حتى سقوط الخلافة 711 – 1031 ". بيروت دار النهضة العربية. 1978. ص 90 – 96.

5 – عمر فرّوخ " تاريخ صدر الاسلام والدولة الأموية ". بيروت. دار العلم للملايين. الطبعة الثالثة 1976. ص 180 – 183.



« مصور الفتوحات في فرنسة »

" مصور الفتوحات في فرنسة "

موقعة بلاط الشهداء (مشار إليها بسهم)

المرجع: شوقي أبو خليل " بلاط الشهداء ". دار الفكر. دمشق 1986. ص 77.

معركـــة بلَّش - 888 هـ -

هي إحدى المعارك الهامة في تاريخ الصراع بيـن العـرب المسـلمين فـي الأندلـس وزعماء النصارى وأمرائهم, قد جرت أحداث هذه المعركة في شهر صفر عـام 888 هـ. بعد أن اجتمع من زعماء النصارى وأقنادهم (جمع قند أو كنت، أو أوكوند) جمعٌ عظيـم، ولم يكن معهم ملكهم، وقصدوا " بلَّش "[1]، وشرقية مالقة [2]، يريدون أخذ أهلها، وفسادها. فلما وصلوا تصايح أهل تلك الجهات، واجتمعوا رجـالاً دون فرسـان، وصـاروا يعرضـون للنصارى في المضايق والأوعار، والمخانق، ويقاتلونهم، ويقتلـون منهـم خلقـاً كثيـراً. فلمـا رأى النصارى ذلك جعل الله في قلوبهم الرعب، ووقع بينهم الخـذلان، فـانهزموا فـي تلـك القرى والمخانق والأوعـار، وصـاروا يتهـافتون فيهـا تهـافت الذبـاب والفـراش فـي النـار، والمسلمون في إثرهم يقتلونهم ويأسرونهم، ولم تغنِ عنهم كثرتهم ولا عدّتهم شيئاً.

وكان في وقت هذه الكائنة الأمير محمد بن سعد بمدينة مالقة، فلقي النصــارى مـن ناحيتة، فقتل واسر منهم خلقاً كثيراً، وولّوا الأدبار، وأسر منهم ما ينيف علـى ألفـي أسـير، فيهم جماعة من قوادهم وأقنادهم، وهرب باقيهم وتركوا خيلهم ودوابهم ورحالهم وامتعتهـم فاحتوى على ذلك كله المسلمون، وحملوه إلى مدينة مالقـة، فجمعـوه بهـا علـى أن يقسـموه على كل من حضر الوقيعة المذكورة، فحصل كلـه بـأيدي الظلمـة، ولـم يظهـر وافيـه حقـاً لأحد ممن حضر الوقيعة المذكورة فلم ينتج منــه شـيء، وكـان ذلـك عليهـم وبـالاً، والعيـاذ بالله.

وكانت هذه الكائنة في الحادي عشر من صفر عام ثمانمائة وثمان وثمانين هـ.

[1] - بلش هي اليوم " Velz " وتقع في غرب مالقة على بعد 24 كلم منها، وأصل الكلمة اللاتينية ومعناها الوادي.

[2] - الشرقية أو (شرقية مالقة) منطقة مسماة بهذا الاسم، لوقوعها شرقي مالقة.

المراجع

كتاب " آخر أيام غرناطة " لمؤلف أندلسي (من رجال القرن التاسع الهجري معاصر لسقوط غرناطة). حققه وقدم له د. محمد رضوان الداية. دار حسّان للطباعة والنشر. دمشق. الطبعة الأولى 1984. ص 62 - 65.

معركـــة بلعا الثانية

(3 أيلول/ سبتمبر 1936)

تعتبر معركة بلعا الثانية من أعظم المعارك التي دارت بين الثوار العرب والجيش البريطاني في هذه المرحلة. فرأى فوزي القاوقجي أن يغيّر الثوار تكتيكهم القتالي الذي كان يعتمد الضرب ثم الانسحاب السريع. وكان معظم هجمات الثوار تشنّ ليلاً بأعداد صغيرة، لكن القاوقجي راح يهاجم في النهار بقوات كبيرة لا تنسحب من ميدان القتال إلا بعد هبوط الظلام.

وعلى هذا الأساس حشد القاوقجي قواته لمعركة بلعا الثانية فاتخذ من جبال بلعا مقراً للقيادة يشرف على طريق طولكرم – نابلس الرئيسية. فركز قواته على جانبي الطريق، وليس على جانب واحد كما كانت العادة، وكانت مجموعة الشيخ محمد الأشمر أقرب مجموعة إلى الطريق العام من الناحية الشمالية (يسار الطريق)، وتمركز القائد عبد الرحيم الحاج محمد ورجاله على يمين الطريق، وتمركزت قوة ثالثة في الجبال القريبة من بلعا نفسها. وكان الجميع بانتظار قافلة عسكرية بريطانية ترافق سيارات ركاب يهودية تتحرك يومياً من تل أبيب إلى طبريا وحيفا، مارة بطولكرم. وفي ساعة مبكرة من صباح 3 أيلول/ سبتمبر خرجت قوة عسكرية بريطانية من طولكرم تحملها عشرات السيارات والمصفحات والدبابات ومزودة بالمدفعية، وما كادت تصل إلى شرق سجن نور شمس حتى تفجرت الألغام تحت السيارات، فتوقفت القافلة وترجّل الجنود وتمركزوا على أطراف الجبال انتظاراً لمرور قافلة السيارات اليهودية. ولما وصلت القافلة مع القوات البريطانية التي تحرسها، فتح الثوار النار من جانبي الطريق. وتحركت نجدات بريطانية من نابلس وطولكرم فبلغ عدد القوات البريطانية خمسة آلاف جندي تساندهم 15 طائرة وأعداد من المدافع الجبلية. واستمرت المعركة حامية الوطيس حتى غروب الشمس. وامتدّ خط القتال أكثر من خمسة كيلو مترات. وشاركت المرأة العربية في هذه المعركة بإمداد المقاتلين بالماء والطعام ونقل الجرحى طيلة النهار. وكانت خسائر الإنكليز كبيرة،

واعترفت قيادة الجيش بسقوط 4 طائرات ومقتل ضابط طيران (هنتر) وطيار (لنكولن) وانباشي (ولكس) وجرح ضابطين وجنديين جروحاً خطيرة.

وأصدرت قيادة الثوار البلاغ رقم 3/ 36 يصف المعركة وأعلن استشهاد البطل الدرزي المعروف محمود أبو يحي واستشهاد عراقيين ودرزي آخر واثنين من دمشق وثلاثة من شرق الأردن، فضلاً عن الشهداء الفلسطينيين من دون أن يشير إلى عددهم الذي جاوز الأربعين شهيداً عدا الجرحى.

المراجع

1 – مذكرات المناضل بهجت أبو غربية 1916 – 1949. " في خضم النضال العربي الفلسطيني ". مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت. الطبعة الأولى. كانون الثاني 1993. ص 86.

معركـــة بنينا

(منطقة بنغازي).

هي من إحدى معارك الجهاد الليبي البطولي ضد الغزو الايطـالي. فبعد المعركـة الكبرى التي تعرف باسم (معركة سواني عبد الغني أو معركة النخلتين) التي جـرت فـي ضواحي مدينة بنغازي، ظل الوضـع متجمداً، حتـى بعد معـاهدة (اوشـي لـوزان)، ولـم تستطع القـوات الايطاليـة، أن تحقـق أي توسـع. واسـتمر الوضـع بالنسـبة إليهـا محفوفـاً بالغموض، كما ظلت تتعرض لمناوشات ومضايقات مستمرة، وهجمات متوالية، يقـوم بهـا المجاهدون، من حين إلى آخر، وكانوا يرابطون في المواقـع المحيطـة بمدينـة " بنغـازي " وبصورة خاصة في منطقة " بنينا "، بقيادة عزيز بك المصري، ولم يسترح الايطاليون إلى وجود هذه القوة، في هذه المواقع بعد توقيع معاهدة لوزان، كمـا لـم يطمئنـوا إلـى مواقعهم المحاصرة المهدّدة. وهم يعترفون في وثائقهم الرئيسية، بأن هجمات المجاهدين قد تلاحقت في تلك الفترة، وبلغت درجة بعيدة من الجرأة والاقتحام لمواقع التحصينات الايطالية. وقـد شنّ المجاهدون هجوماً ليليّا ليلة 13 ابريل / نيسان 1913 علـى المواقـع الايطاليـة بشـكل أثار الرعب في نفوس القوة الايطالية، فوضعت كافة القوات في حالة استعداد، كما أسـندت قيادتها المباشرة إلى الجنرال " دي السندروا " الذي خرج في صباح اليوم التالي، فـي قـوة كبيرة تتألف مـن 5600 مسلح بالبنـادق و 300 بـالحراب و 20 قطعـة مدفعيّـة لمهاجمـة القوّة الوطنية التي لم تكن تزيد في واقع الأمـر علـى حفنـة محـدودة مـن المجـاهدين، وقـد قسمت القوة الايطالية إلى ثلاث تشكيلات رئيسية، وأخرى احتياطية متخلفة في زحفها عن التشكيلات الأولى لضمان الحماية للجناح الأيمـن المتجـه بهجومـه مـن " بنغـازي " نحـو " بنينا "، وما كادت هذه القوة تخرج من قواعدها، حتى واجهت مقاومـة عنيفـة – بـاعتراف الوثائق الرسمية – تركزت بصفة خاصة على الجناح الأيمن للجيش الايطالي، وقـد بلغت المعركة أقصى درجات العنف في المنطقة الواقعة عند " الجخ " وسيدي مفتاح حيث توجـد طلائع المجاهدين المتصدّين للزحف الايطالي. وكانت تلك هي المـرحلـة الأولى للمعـركة.

أما المرحلة الثانية فقد جرت عندما حاولت القوة الايطالية أن تجمع تشكيلاتها، للهجوم المباشر على الموقع الرئيسي للمجاهدين الذين أخذوا يجمعون كافة قواتهم، كما هرعت إلى أرض المعركة نجدات أخرى. وكان على القوة الايطالية أن تخوض معركة مريرة أخرى " سيدي مفتاح " قبل أن تتمكن من التلاحم وتركيز الهجوم. ولم تتمكّن القوة الايطالية من التغلّب إلا عند الساعة الثالثة والنصف بعد الظهر، بعد أن استمرت المعركة حامية الوطيس طوال خمس ساعات.

وكانت مواقع المعركة في " سيدي مفتاح " وسيرة " الحميرة " أي المنطقة الواقعة بين " الجخ وبنينا " (الحميرة وغوط الخماسين). وقد قام العدو بتدمير القرية، وإشعال النيران فيها، انتقاماً وحقداً على ما تردّد من قول، بأن المجاهدين سيجعلون من " بنينا " (بنغازي جديدة). وتقول المصادر الايطالية أن خسائرهم في هذه المعركة كانت 8 قتلى و 44 جرحى بينهم ضابطان كبيران، واستشهد من الجانب الوطني 50 وجرح 200. وكان يقود الجانب الوطني " عزيز بك المصري ".

وقد كان لهذا الموقع أهمية خاصة بالنسبة للايطاليين، إذ يعتبر مفتاح الطريق إلى الأبيار، والمناطق المجاورة لها التي تريد أن تتخذ منها نقطة انطلاق إلى الجبل الأخضر.

المراجع

1 – محمد خليفة التليسي. " معجم معارك الجهاد ". ص 132 – 133.

2 – موسوعة السياسة. الجزء الأول. باشراف د. عبد الوهاب كيالي. المؤسسة العربية للدراسات والنشر. بيروت. الطبعة الثانية 1985. ص 567.

معركة بني نعيم

جرت هذه المعركة بين الثوار العرب والانكليز، وفي هذا الإيطار يذكر المناضل بهجت أبو غربية في مذكراته، أنه في آب / أغسطس 1938 وصلت رسالة من دمشق من أخيه صبحي يذكر له فيها أنه وعدداً من الثوار سيتوجهون إلى فلسطين قريباً بقيادة عبد القادر الحسيني، ليستأنفوا قتالهم ضد الإنكليز. فأرسلت له برسالة مطوّلة وطلبت منه أن يطلع عبد القادر عليها، خلاصتها أن هناك متغيرات ومصاعب كثيرة قامت في وجه الثورة، أهمها: أن العدو البريطاني أفلح في شق الصف الوطني، وأن (فصائل السلام) وهي قوات سلّحها الانكليز لمقاومة الثورة تحاول منع الثوار من الدخول إلى بعض القرى، بما في ذلك بعض قرى منطقة القدس ومنطقة الخليل. وأن الجيش البريطاني يستعد لخوض معارك فاصلة لإنهاء الثورة، خاصة بعد تأزم الوضع الدولي، واحتمال نشوب حرب عالمية بين ألمانيا وحلفائها من جهة وبريطانيا وحلفائها من جهة أخرى... ويضيف المناضل بهجت أبو غربية قائلاً:

وبعد فترة قصيرة، وصل عبد القادر الحسيني ومعه أخي صبحي وعدد من الثوار، وانضم إليه عدد من الثوار المقيمين. واجتمعت بعبد القادر وأبو الوليد وأخي صبحي وغيرهم في قرية المالحة، في بيت الشيخ سعيد درويش، وكان معروفاً بوطنيته وليس كأخيه الشيخ عبد الفتاح درويش رئيس فصائل السلام في المنطقة. وتعتبر قرية المالحة وقرية الولجة مركز فصائل السلام في منطقة القدس. ومع ذلك، تمركز فيها الثوار واتخذ منها عبد القادر قاعدة لشنّ هجمات على مواصلات الجيش وعلى المستعمرات اليهودية المجاورة تحت سمع الجيش وبصره. وكان عبد القادر – رحمه الله – كعادته يلتهب حماسة وثقة بالنفس ولا يتوقف عن شنّ الهجمات المتلاحقة، ولا يستريح هو ورجاله، وابتسامته الحلوة لا تفارق ثغره.

لم يصبر الجيش البريطاني على ذلك طويلاً، واغتنم فرصة حلول العيد، وانصراف عدد كبير من رجال عبد القادر إلى قراهم ومنازلهم، فقام بعملية تطويق

واسعة النطاق تستهدف القضاء على عبد القادر ورفاقه، إشترك فيها عدة آلاف من الجيش معززين بالطائرات، وشمل التطويق قرى المالحة والولجة وبتير وعين كارم والجورة وغيرها... ودخلت قوات الجيش إلى جميع هذه القرى وفتشتها. ولا أبالغ إذا قلت أنها اعتقلت جميع الذكور فيها فوق الرابعة عشرة وساقتهم إلى القدس، على أمل أن يكون بينهم عدد من الثوار وبخاصة عبد القادر الحسيني، ثم وزعتهم على المعتقلات. ولا شك أن عبد القادر والعدد القليل من الثوار الذين بقوا معه تعرضوا، خلال هذه الحملة، إلى خطر الوقوع في يد الجيش البريطاني، وكان بينهم أخي صبحي الذي أخبرني أنهم اختفوا في أحد أديرة عين كارم. وفتش الجيش ذلك الدير بالذات، ولو أنه وصل إلى مخبئهم لانتهت حياتهم جميعاً. لأنهم تعاهدوا على الموت مفضلين ذلك على الأسر الذي سيتلوه الإعدام.

وبعد هذه الحملة بفترة قصيرة، عاد عبد القادر إلى حشد قواته من جديد، واستأنف نشاطه العسكري. إلا أن القدر كان ينتظره في مكان آخر، في قرية بني نعيم الواقعة على بعد ثمانية كيلو متر ات إلى الشرق من مدينة الخليل، على حافة سلسلة الجبال التي تنحدر شرقاً إلى البحر الميت. ومع أن هذه القرية قائمة على أنقاض قلعة رومانية وموقعها حصين، إلا أن المنحدرات إلى الشرق منها قاحلة وخالية من الأشجار.

وفي يوم 4 تشرين الأول / اكتوبر 1938، كان عبد القادر ورجاله على موعد للقاء عبد الحليم الجيلاني ورجاله في قرية بني نعيم التي كانت في تلك الفترة قرية يطا وعدة قرى مجاورة تحت سيطرة فصائل السلام. وهذا لا يعني ان جميع سكان هذه القرى يؤيدون موقف فصائل السلام. وفي اليوم نفسه وجّه مختار قرية يطا المجاورة دعوة إلى القائد العام للجيش البريطاني لتناول طعام الغداء عنده بصحبة فخري النشاشيبي، متحدّين مشاعر الأهلين، ومحاولين التأثير في معنويات الثوار وفضّ الناس من حولهم. ولما كان الجيش البريطاني يعرف خطورة الوصول إلى يطا، حيث سبق أن وقع في عدة كمائن من الثوار في طريق الخليل- يطا، خسر فيها خسائر كبيرة، لذلك ولحراسة الضيوف المميزين وصلت صباح ذلك اليوم قوة كبيرة من الجيش البريطاني تقدر بثلاثة آلاف جندي إلى يطا، مارّة بمدينة الخليل معززة بالطائرات.

إكتشف الجيش البريطاني، بعد الظهر، وجود الثوار المحتشدين في بني نعيم. وهناك أقوال أن أحد أهالي بني نعيم أبلغ إلى الجيش وجود الثوار، والأرجح أن الطيران البريطاني هو الذي اكتشفهم. وفي أية حال، فقد بدأت المعركة بعد الظهر بهجوم جوي وبرّي، استخدم فيه الجيش 27 طائرة حربية قاذفة مقاتلة من طراز ولنغتن تعتبر من أحدث الطائرات في ذلك الوقت، وتختلف كثيراً عن طراز غلادييتر الذي كان الجيش يستعمله عادة قبل هذه المعركة، والذي اعتاد الثوار مقاومته وإسقاط عدد منه برصاص البنادق وخاصة الرشاشات. أما طراز ولنغتون فضلاً عن أنها تحمل عدداً كبيراً من القنابل شديدة الانفجار، كانت لا تؤثر فيها نيران البنادق والرشاشات.

هاجمت الطائرات القرية بإسقاط عدد كبير من القنابل، وفي الوقت نفسه كانت آليات ومشاة الجيش البريطاني وصلت إلى أطراف القرية من جهة الغرب. وأمر عبد القادر بمغادرة القرية حرصاً عليها من الدمار، وانتشر رجاله إلى الشمال والشرق من القرية، يقاتلون وينسحبون. وانسحب عبد الحليم ورجاله من الجنوب. ودارت معركة مشوشة وغير متكافئة في أرض عراء خالية من الأشجار لعب فيها عنصر المفاجأة وسلاح الجو دوراً رئيسياً، حيث ظل يطارد الثوار إلى آخر النهار. وسقط العديد من الشهداء والجرحى، وأصيب القائد عبد القادر الحسيني برصاصة في خاصرته كادت تخرق رئته. وكان إلى جانبه ابن عمه المهندس علي الحسيني وصبحي أبو غربية، فساعداه على المشي والابتعاد عن الخطر، وطلب منهما أن يتركاه في أرض المعركة وأن ينسحبا إلى مكان آمن شعوراً منه أنه ميت لا محالة، فرفضا ذلك، واستمرا في مساعدته على السير حيناً والتوقف للرد على الرصاص الصادر من مشاة الجيش الذين يلاحقونهم حيناً آخر. ولم يلبث علي الحسيني أن أصيب برصاصة قاتلة خرّ في أثرها شهيداً. وبعد فترة قصيرة اكتسحت الطائرات برشاشاتها عبد القادر وصبحي، في الوقت نفسه ألقت عليهما قنبلة لفّهما دخانها وشظاياها فأصيب صبحي أبو غربية في ذراعه وكتفه بالرصاص وبعدة شظايا في رأسه، وسقط أرضاً كما سقط عبد القادر وغاب عن الوعي، واعتقد صبحي أن عبد القادر استشهد.

وبعد أن توقفت المعركة، قام بعض الثوار بنقل القتلى والجرحى. وعند الصباح

وجدوا عبد القادر جريحاً فنقلوه إلى مستشفى في مدينة الخليل، وسألوه عن صبحي فقال: قتل. وانتشرت أخبار المعركة المفجعة وجاءنا إلى القدس من يقول أن عبد القادر استشهد وكذلك صبحي وعدد من الثوار المعروفين كالمهندس علي الحسيني وعيسى أبو قدوم وابراهيم خليف وعبد الله أبو ريّا ويوسف سمرين وغيرهم، وأن عدد الإصابات بين الثوار أربعون أصابة بين قتيل وجريح، فضلاً عن عدد من أهالي القرية.

وسافرت الى الخليل مع عدد من أفراد عائلتنا لحضور جنازة أخي صبحي. ولما وصلنا قيل لنا إن موت صبحي مشكوك فيه لأن بين الشهداء من يشبهه تماماً، في حين أن عبد القادر الذي وجد حيّاً يقول أن صبحي قتل. لذلك توجهت صباح اليوم التالي إلى قرية بني نعيم مع اثنين من خيرة رجال العائلة هما شاكر عبد الحميد أبو غربية ورشيد أبو غربية. ولم نكد نصل إلى القرية حتى وصل عدد كبير من رجال الجيش البريطاني وطوقوا القرية، وقاموا بعملية تفتيش واسعة. وقدّم لنا أهل القرية كل مساعدة لكي لا نقع في أيدي الجيش، وتبين أن معظم أهالي القرية يؤيدون الثوار ولا يؤيدون ما يسمى بفصائل السلام من أبناء قريتهم. وبعد الظهر اضطررنا إلى فتح القبر الجماعي الذي دفن فيه عدد من الشهداء لكي أتأكد من استشهاد صبحي. ودخلت القبر وكان رومانيا كبيراً، منحوتاً في الصخر على شكل مغارة لها باب صغير تحت مستوى الأرض، ومكثت أكثر من نصف ساعة ومعي مصباح خافت الضوء وشاهدت جثث 14 شهيداً دُفنوا بألبسة الميدان عرفت بعضهم مثل علي الحسيني وعيسى أبو قدوم، وكان بينهم فتى يشبه أخي صبحي تماماً وإلى حد كبير، وفي مثل سنه (18 سنة). ولما خرجت من القبر كانت ملامحي تدل على ألم وحزن شديدين، وظن من معي أنني وجدت صبحي بين الشهداء. وبعد فترة سألني شاكر، فقلت: " صبحي ليس بينهم " فقال: " ولم أنت حزين بهذا الشكل "؟ فقلت: " صبحي واحد وهؤلاء أربعة عشر ".

وظل صبحي في عداد المفقودين أسبوعين تقريباً. وأخيراً علمنا أنه تحامل على جراحه وسار حتى وصل بعد منتصف الليل إلى مضارب جماعة من البدو قاموا بإسعافه وكيّ جراحه بالسمن المغلي ثم ساعدوه على السفر إلى دمشق، حيث أدخل

المستشفى. وكان عبد القادر أيضاً وصل إلى دمشق وأدخل المستشفى.

أما خسائر الانكليز فلم تعرف، وقيل إنها كبيرة.

المراجع

1 - مذكرات المناضل بهجت أبو غربية 1916 - 1949. " في خضم النضال العربي الفلسطيني ". مؤسسة الدراسات الفلسطينية. بيروت. الطبعة الأولى. كانون الثاني 1993. ص 122 - 125.

معركـــة البُـوَيْـب

تميّز العرب عبر تاريخهم بحبّهم " للثأر "، واعتباره شيمة من شيمهم المقدّسة، كما اعتبروا " النوم على الضيم "، عاراً لا يمكن أن يُمْحى. هكذا كان حال العرب مع هزيمتهم في " معركة الجسر " واستشهاد قائدهم في تلك الوقعة " أبي عبيد الثقفي "، مما جعلهم يبذلون قصارى جهودهم في سبيل غسل هذه الإهانة التي لحقتهم إثر فرارهم من أرض المعركة التي عرفت بوقعة " قُسّ الناطف " أو " الجسر " ومقتل الآلاف منهم. لذلك كانت " معركة البُوَيْب " هي الرّد المباشر على تلك الهزيمة.

عرفت معركة " البوَيب " بهذا الاسم، نسبة إلى نهر البُوَيب في العراق على نهر الفرات. كما تسمى بـ " يوم مهران " وكذلك " يوم الأعشار " لأن مائة رجل من العرب قتل كلٌ واحدٍ منهم عشرة من الفرس.

جرت معركة " البُوَيب " بين المسلمين بقيادة " المثنّى بن حارثة الشيباني " وبين الفرس بقيادة " مِهْرَان الهَمَذاني ". إذ كان الفرس، بعد انتصارهم في معركة " الجسر " يطمحون في إخراج المسلمين من كل العراق، في الوقت الذي رغب المسلمون في الثأر للشهداء الذين قضوا فيها وهم نخبة جيشهم، وكانت في رمضان سنة 13 هجرية، الموافقة لسنة 634 ميلادية، بعد وفاة الخليفة أبي بكر الصديّق بأشهر قليلة، وفي بدء خلافة عمر. وقد استنجد المثنّى بن حارثة، قبل المعركة، بقبائل العرب في العراق، فلبّى نداءه كثيرون من قبائل نمر وتَغْلَبْ، أمثال " أَنَسْ بن هلال النمري، و " ابن مردي الفهر التغلبي "، وكانوا من النصارى، وقالوا للمثنّى عندما دعاهم لنجدته: " إنّا نقاتل مع قومنا وأبناء عمومتنا "، أي مع العرب، لهذا تعتبر معركة البُويْب أول معركة في تاريخ الفتوح تأخذ الطابع القومي العربي– كما جاء في " الموسوعة العسكرية "–. إذ يحارب المسلم العربي إلى جانب المسيحي العربي قوماً من غير جنسهم (الفرس) بصرف النظر عن دينهم.

فبد أن بلغت الهزيمة بالمسلمين مبلغها يوم وقعة الجسر، ندب عمر بن الخطاب الناس الى المثنّى بن حارثة الشيباني، وكان فيمن ندب جرير بن عبد الله في قومه من

قبيلة " بَجِيْلة "، مع سبعمائة من خيرة رجال هذه القبيلة. وكذلك عِصْمَة بن الحارث فيمن تبعه من قوم " ضَبَّةْ ". كما أمدّه عمر بن الخطاب بجماعات متفرقة من قبائل الأزد وكنانة وجشم وحنظلة وحنيفة وغيرهم. كما كتب إلى أهل الرِّدَّة يستنفرهم، ولم يُوافِه احدٌ، إلا ورمى به المثنّى، فتوافى إليه جمع عظيم، فبلغ جيشه، بعد هذا الإمداد، نحو عشرة آلاف مقاتل. أما جيش الفرس فقد زاد عن ذلك بكثير.

فعندما بلغ رستم والفَيْرُزان (وهما من قادة الفرس) ما عليه المثنّى، وما ينتظر من المَدَد، فجمعا جنداً عظيماً جعلا عليه القائد " مِهْران الهَمَذاني " وأَمَراه أن يُسْرِع السير للقاء هؤلاء المسلمين. وعرف المثنّى مسيرة هذا الجيش، فأرسل إلى جرير بن عبد الله، وعِصْمة بن الحارث، وكلٍّ من أتاه مُمِداً له يعلمهم بالخبر، ويواعدهم " بالبُوَيب " على الضفة الغربية لنهر الفرات، لاتخاذه موقعاً عسكرياً يتحصنون فيه، على حين اختار " مِهْران " الضفة الشرقية للنهر. وحين تمركز الجيشان في أماكنهما، أرسل " مِهْران " إلى المثنّى يسأله: " إمّا أن تعبروا إلينا، وإما أن نعبر إليكم "؟ وكان المثنّى قد تعلّم من تجربة أبي عبيد الثقفي قائد معركة الجسر الذي عبر النهر إلى الفرس وكان ذلك سبباً لهزيمته، كما كان عليه أن ينفّذ أمر الخليفة أن لا يعبر نهراً أو جسراً إلا بعد ظفر، فأجاب المثنّى مهران: " اعبروا أنتم "، فعبر مهران ونزل مع جنده على شاطئ الفرات.

وكان المثنّى قد عبّأ جيشه، فجعل مركزه القلب (وكان فيه بنو نمر وبنو تغلب)، وأمر على المجنبتين والمجردة والطلائع خيرة قادته. وكان الشهر رمضان، فقام خطيباً وقال: " إنّكم صُوَّام، والصوم مَرَقَّةٌ ومَضْعَفَةْ، وإني أرى من الرأي أن تُفْطِرُوا، فتَقْوَوا بالطعام على عدوّكم. فقالوا: نعم، وافطروا.

وأقبل مهران بجيشه من الفرس نحو جيش المسلمين في صفوفٍ ثلاثة، وأمام كل صف فيل، والمشاة أمام الفيلة في طليعة الصفوف يحمون الفيلة ويتعاونون معها كتعاون المشاة والدبابات في الحرب الحديثة، وكانوا جميعهم يضجّون وينشدون.

أما المثنّى بن حارثة، فأخذ يطوف في صفوفه ويعهد اليهم بعهده، وهو على فرسه الذي يدعى " الشّموس " وكان لا يمتطيه إلا للقتال، ووقف على الرايات رايةً رايةً، يحضّضهم ويأمرهم بأمره، ويهزّهم بأحسن ما فيهْم، تحضيضاً لهم. كما أمرهم بالصمت

والإئتمار همساً، وأوصاهم أن لا يتحركوا إلا باشارة منه، ويشجعهم على القتال والصمود. ثم قال لهم: إني مكبّرٌ ثلاثا، فتهيأوا، ثم احمِلوا مع الرابعة.

فلمّا كبّر التكبيرة الأولى، عاجل الفرسُ المسلمين بالقتال، ومضى المثنّى يقود المعركة في شجاعة ودراية، مولياً أمر النظام عناية فائقة.

وعند أول هجومٍ للفرس بعد التكبيرة الأولى، اختلّت بعض صفوف المسلمين، فأرسل اليهم المثنّى من يقول لهم: إن الأمير يقرأ عليكم السلام، ويقول: لا تفضحوا المسلمين اليوم، فقالوا: نعم، واعتدلوا. ودارت بين الفريقين رحى معركة دامية، وطال القتال واشتدّ، عندها عمد المثنّى إلى أَنَس بن هلال النمري، وقال له: " يا أَنَس، إنك إمرؤ عربي، وان لم تكن على ديننا، فإذا رأيتني حملتُ على مِهْران فاحملْ معي "، وقال لابن مردي الفهر مثل ذلك، ثم حمل المثنّى بقلب جيشه على قلب جيش العدو فدخل فيه وأزاحه عن موضعه، ثم مال الى ميمنة العدو فدخل فيها، في الوقت الذي استطاعت فيه ميسرة جيشه أن تضغط على الفرس، مما أدّى إلى خلخلة صفوفهم وإضعاف مقاومتهم.

في معمعان هذه المعركة، أصيب مسعود بن حارثة الشيباني، أخُ المثنّى، فتضعضع من معه، فقال لهم: يا معشر بني بكر، إرفعوا رايتكم رفعكم الله، ولا يهولنّكم مصرعي. وكان المثنّى قد قال لهم: إذا رأيتمونا أُصِبْنا فلا تَدَعُوا ما أنتم فيه، إلزموا مصافّكم، وأغنوا عمَّن يَلِيكم.

في هذا الوقت، إنْسَلَ غلام تغلبي نصراني إلى " مهْران الهَمَذاني " وقتله، واستولى على فرسه منشداً:

" أنا الغلام التغلبي، أنا قتلت المرزبان ".

وأخذت المجنّبات يقتل بعضها بعضاً، والمسلمون في القلب يدعون لهم بالنصر، والمثنّى يقول: انصرُوا الله يَنْصرُكُمْ، حتى انهزم الفرس وتلاشت قوتهم - خصوصاً بعد مقتل قائدهم - وفرّوا يجتازون النهر، فأسرع المثنّى بفصيلة من رجاله وسبقهم إلى الجسر الذي كانوا يعبرون عليه، وأعمل المسلمون سيوفهم بفلول الفرس المنهزمة حتى قدّر عدد قتلاهم بعشرات الآلاف (حسب الروايات الواردة في كتب التاريخ العربية)، واذا كان الرقم مبالغاً فيه، إلا أنه يدل على فداحة الخسارة التي مني بها الفرس في هذه الوقعة.

وفي هذا الصدد، قال الطبري، ان قتلى الفرس في وقعة البويب " أفعموا جنبتي البويب عظاما " حتى استوى، وما عفى عليها إلا التراب أزمان الفتنة، وما يثار هنالك شيء إلا وقعوا منها على شيء. هذا وقد جلس المثنّى للناس من بعد الفراغ، يحدثهم ويحدّثونه، وكلما جاء رجل فتحدّث قال له: أخبرني عنك: فقال له قُرْط بن جمّاح: قتلت رجلاً فوجدْتُ منه رائحة المسك، فقلت: " مِهْران "، ورجوت أن يكون إياه، فاذا هو صاحب الخيل " شهرزار "، فوالله ما رأيته – إذ لم يكن مِهْران – شيئاً.

وقال المثنّى بن حارثة الشيباني: " قد قاتلتُ العربَ والعجمَ في الجاهلية والإسلام، والله لمائة من العجم في الجاهلية كانوا أشدَّ عليّ من ألفٍ من العرب، ولمائة اليومَ من العرب أشدُّ عليّ من ألفٍ من العجم، إن الله قد أذهب قوتهم وأوهن كيدهم، فلا يروعَنَّكم عدد كبير ترونه... ولا نبال طوال، فانهم إذا أُعْجِلُوا عنها أو فقدوها كانت كالبهائم، أينما وجهتموها اتَّجَهَتْ ". وهكذا استطاع المثنّى، في هذه الوقعة، أن يمحو العار الذي لحق بالمسلمين في وقعة الجسر، وكانت وقعة البُوَيب هذه مقدّمة لانتصار العرب الحاسم على الفرس في معركة الكرامة الكبرى في " القادسية "، احدى اكبر المعارك الفاصلة في التاريخ.

واطمأن المسلمون إلى هذا النصر، ووجدوا فيه تعويضاً لا يقدّر عن يوم الجسر، وتسلّوا به عن مصيبتهم السابقة، وثأروا فيه لقتلاهم حتى لقد سمّي البويب " يوم الأعشار "، أُحْصِيَ فيه مائة رجل، قتل كل رجل منهم عشرة من الفرس في المعركة يومئذ، عدا من قتل التسعة أو ما دون التسعة.

وتبدو قيمة البويب، لا في استصلاح الأثر النفسي الذي كان بعد هزيمة الجسر، بل في أن المسلمين أضحوا قادرين على السواد كله... كانوا يحاربون من قبل لا يجتازون الفرات، ثم حاربوا فيما بين الفرات ودجلة، أما بعد البُوَيب فقد استمكنوا من كل هذه المنطقة التي تمتد بين الفرات ودجلة " فمخروها لا يخافون كيداً ولا يَلْقَون فيها مانعاً " – كما يقول الطبري –.

هكذا تشكل " معركة البويب " منعطفاً هاماً في تاريخ العرب، وصفحة مشرقة ومشرّفة في الوقت ذاته، باعتبارها من أكبر الانتصارات القومية وأوّلها على أعداء

العرب قاطبة. وتعتبر ولا شك مفخرة كبرى لكل من يجري الدم العربي في عروقه، بعيداً عن المنطق القبلي والعشائري والطائفي، الذي يفرّق ولا يوحّد، ويضعف القوة ويقوّي الضعف.

ولا شيء في النهاية، اروع من الانتصار بفضل " الوحدة " التي نفتقدها اليوم في مواجهة العدو الصهيوني، رغم كل القناعات والمبادئ التي تؤكد استحالة الانتصار على الأعداء، في ظل حالة التشرذم والتمزّق المدمّرة.

ومَثَلُ المثنّى بن حارثة الشيباني في معركة " البُوَيب "، وصلاح الدين الأيوبي في " معركة حطين "، اكبر دليل على أهمية " الوحدة " وضرورتها في زمن الهزائم والانكسارات.

المراجع

1 – محمد أبو الفضل ابراهيم وعلي محمد البجّاوي " أيام العرب في الاسلام " منشورات المكتبة العصرية– صيدا– بيروت. الطبعة الرابعة 1974. ص 234 – 237.

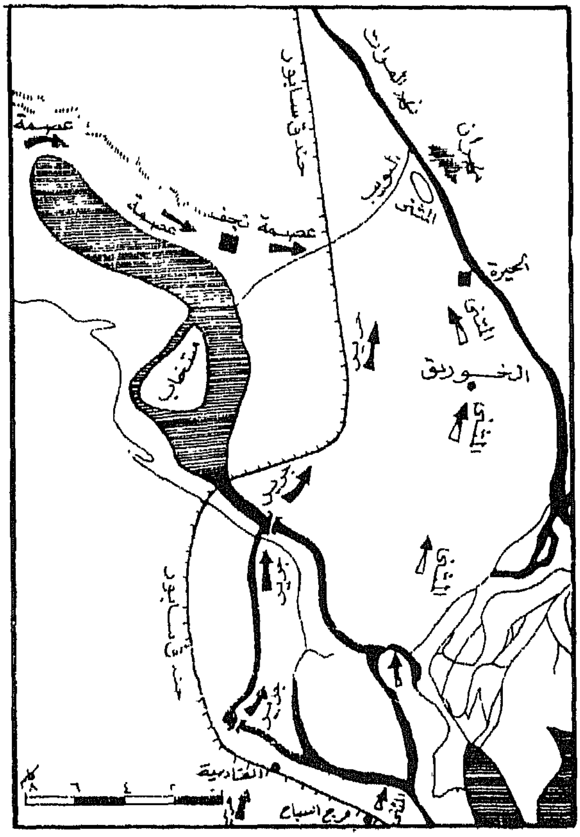
2 – الموسوعة العسكرية. الجزء الأول. المؤسسة العربية للدراسات والنشر. الطبعة الثانية 1981. بيروت. ص 222 – 223.

3 – شكري فيصل " حركة الفتح العربي الاسلامي في القرن الأول ". دار العلم للملايين. بيروت. الطبعة الأولى 1953. ص 74 – 77.

4 – الطبري، ابو جعفر محمد بن جرير " تاريخ الأمم والملوك ". الجزء الأول.

5 – ابراهيم بيضون وسهيل زكّار " تاريخ صدر الاسلام والدولة الأموية " منشورات دار الفكر. بيروت. الطبعة الأولى 1974. ص 61 – 62.

6 – ابراهيم بيضون " تكوّن الاتجاهات السياسية في الاسلام الأول من دولة عمر إلى دولة عبد الملك ". دار اقرأ. بيروت. الطبعة الأولى 1985. ص 50 – 51.



معركة البويب

المرجع: الموسوعة العسكرية. الجزء الأول.

(مادة البويب).

معركـــة بيت سوريك

بيت سوريك قرية عربية تقع إلى الشمال الغربي من مدينة القدس، وتشرف على طريق المواصلات الرئيسي بين السهل الساحلي ومدينة القدس، وتبعد عن هذا الطريق حوالي كيلو مترين ونصف الكيلو متر.

خطط مجاهدو منطقة القدس لقطع طريق المواصلات بين الساحل والقدس، خاصة وأن في القدس حوالي مائة ألف من السكان اليهود. وقد بثّ قائد قوات الجهاد المقدّس " عبد القادر الحسيني " العيون لجمع المعلومات عن أنشطة الصهيونيين العسكرية وحركة قوافلهم، فتلقى نبأ يفيد أن الصهيونيين سيرسلون إلى مدينة القدس في 1948/1/19 قافلة كبيرة من السيارات بينها عدد كبير من سيارات النقل حاملة مواد تموين، وستكون محروسة بقوات صهيونية وبريطانية.

فور ورود هذا النبأ عقد عبد القادر الحسيني اجتماعا حضره نائبه كامل عريقات وابراهيم أبو ديّة، وقادة قطاعات " ساريس " و " القسطل "و " قالونيا " و " صوبا "، وتمّ وضع خطة لتدمير القافلة والقوات التي تتولى حراستها، وجرى توزيع الواجبات على المجتمعين، فقرر الحسيني أن يتولى بنفسه قيادة الهجوم، وكلف نائبه كامل عريقات باتخاذ التدبيرات لحشد القوات والاجراءات اللازمة، يساعده في ذلك إبراهيم ابو ديّة. واجتمع إلى جانب قوات جيش الجهاد المقدس عدد من أهالي " بيت سوريك " والقرى المجاورة، ونجدة قدمت من مدينة جنين، بقيادة المجاهد فوزي جرار.

كانت الخطة تقضي بتوزيع القوات على جانبي الطريق، وأن تقوم مجموعة التدمير بقيادة " فوزي القطب " بزرع الألغام ليلاً في أماكن معينة من الطريق. ومع فجر يوم 1948/1/19 أقام الحسيني ونائبه مقر القيادة في قرية " بيت عنان " القريبة من بيت سوريك. وبعد أن تمّ نصب الكمين حسب الخطة المرسومة، علم الحسيني وصحبه أن القافلة الصهيونية تجتاز ممر باب الواد باتجاه القدس، فانتقل الجميع إلى بيت سوريك، وطلب القائد من نائبه كامل عريقات أن يتوجه إلى مركز الكمين المنصوب للقافلة، وكان

فيه إبراهيم أبو ديّة وعدد من المسلّحين وفوزي القطب وأفراد مجموعة التدمير.

شعر الصهيونيون في مستعمرة الدليب قرب " أبو غوش "، ومستعمرة الخمس، والقوة البريطانية في معسكر الرادار بوجود المجاهدين في المنطقة، فأخذوا يطلقون النار عليهم. وعندما وصل كامل عريقات إلى المرتفعات القريبة من الطريق، وجد عبد القادر الحسيني قد سبقه إلى هناك والتفّ حوله المجاهدون. وعند الظهر وصلت القافلة إلى مكان الكمين فأصدر الحسيني الأمر بالهجوم. وانقضّ ومعه كامل عريقات ومجموعة من المجاهدين على القافلة من الجهة الشمالية للطريق، بينما انقضّ إبراهيم أبو ديّة ورجاله من الناحية الجنوبية، وانطلقت مجموعة التدمير تفجّر الألغام، ووقعت معركة ضارية لمدة ساعة، وأخذ الصهيونيون يتركون السيارات ويفرون باتجاه مستعمرة الخمس. وانتهت المعركة بتدمير القافلة وقتل عدد غير قليل من الصهيونيين والجنود الانكليز الذين كانوا يتولون حراستها وفرار من بقي منهم على قيد الحياة.

تعقّب المجاهدون فلول العدو باتجاه مستعمرة الخمس، فتصدّت لهم قوة كبيرة من الإنكليز جاءت لنجدة القافلة، وعندئذ رأى الحسيني تجنّب الصدام مع القوة البريطانية، مكتفياً بالنصر الذي حققه حسب الخطة المرسومة وهي تدمير القافلة. فأصدر الأمر لقوات المجاهدين بالعودة إلى قرية بيت سوريك ثم رجع ومن معه من القادة في مساء اليوم نفسه إلى مقر القيادة العامة في " بير زيت ".

خسر الجانب العربي في هذه المعركة سبعة شهداء، وغنم المجاهدون كميات كبيرة من الذخيرة و 12 بندقية وأربعة رشاشات جديدة بالإضافة إلى حمولة القافلة.

كانت معركة سوريك نموذجاً لشجاعة المجاهدين وبطولاتهم، ولنجدة أبناء القرى واندفاعهم، وللتنظيم في القتال وتنفيذ الأوامر. وقد برزت مواهب القائد عبد القادر الحسيني وأركانه في التخطيط والقيادة بشكل واضح، مما أدى إلى تحقيق النصر في المعركة وتحقيق الهدف الذي سعى المجاهدون إلى بلوغه.

المراجع

1 – أمين أبو الشعرة: مجاهد من أبو ديس، عمان 1975.

2 - الموسوعة الفلسطينية. جزء أول ص: 451- 452. اشراف د. انيس صايغ. الطبعة الأولى 1984. دمشق.

معركـــة بير السبع: (1948)

عندما أعلن الإنكليز عزمهم على الانسحاب من فلسطين في منتصف أيـار 1948 تشكلت في بير السبع حامية للدفاع عنها مؤلفة من أفراد الشرطة المحلية والهجّانـة (نحـو 60 رجلاً) وعدد من المناضلين والشباب المتطوعين من أبناء المدينة مـن البدو. وتولـى قيادة هؤلاء جميعا عبد الله ابو ستة. وكـان فـي حوزة هـذه الحامية 200 بندقيـة وأربعة أجهزة لاسـلكية و 14 هاتفاً ميدانيـاً، وبعـض الأسلحة الأوتوماتيكيـة الخفيفـة، وعـدد مـن الألغام، وبضع مئات من القنابل اليدوية, وقد استطاع مناضلو المدينة في حـدود إمكانـاتهم أن يقوموا بنشاط قتالي جيـد، فكـانوا يعترضـون قوافـل السيارات الصهيونية المحروسـة، ويتصدون لجماعات الصهيونيين المسلحين، بل إنهم بعد مهاجمـة قافلـة صهيونيـة متجهـة إلى " بيت إيشل " قاموا بمحاصرة المستعمرة نفسها.

لجـأ الصهيونيـون فـور انسـحاب القـوات البريطانيـة مـن منطقـة بـير السـبع فـي 1948/5/14 إلى بسط سيطرتهم على المنـاطق والطـرق الهامـة مـن الناحيـة العسـكرية. وقام العرب بالمقابل بدعم حامية المدينة بعدد من المتطوعين المصرييـن والليبييـن (50-80 متطوعا، بينهم 12 ضابطا). وفي 1948/5/18 دخلت قطاع بير السبع كتيبـة مشـاة مصرية بقيادة المقدم أحمد بن عبد العزيز. لكن لم يجرِ أي تنسيق أو تعاون بين هذه القـوة وحامية المدينة. ولم تلبث القيادة العامة المصرية أن سحبت معظم القوة المصريـة وبعـض الأسلحة، معتذرة بأن الوضع العسكري العام يتطلب ذلك. وقـد أصبـح الدفـاع عـن المدينـة بهذا هزيلاً جداً، إذ لم يبق فيها سوى مدفعين من عيار 6 أرطال، ومدفع واحد من عيـار 3 بوصات، وبعض المدافع من عيار بوصتين. إلى جانب ذلك أخطأ المدافعون حيـن حفـروا الخنادق قريبا من الأبنية، وتركوا المناطق الخالية المترامية الأطراف التي تحيط بالمدينة.

بـدأت معـارك النقـب فـي 1948/10/14، واحتـل الجيـش الإسـرائيلي " أسـدود " " والمجـدل " و " عـراق سـويدان " و " بربـرة "، وتوقـف علـى أبـواب غــزة. وفــي 1948/10/18 شن هجومه على بير السبع، فطلب قائد حاميتها النجدة السريعة من القيادة

المصرية فلم تنجده، بل طلبت منه أن يرسل إليها بعض الأسلحة التي ما زالت تحت تصرفه لحاجتها إليها. وفي الوقت الذي لم يزد عدد أفراد حامية بير السبع عن 216 مقاتلاً من مناضلي المدينة أو المتطوعين، وممّن تبقى من القوة المصرية بأسلحتهم القليلة وذخيرتهم المحدودة، كان الجيش الإسرائيلي يملك الطائرات ويهاجم بخمسة آلاف مقاتل مزوّدين بالعربات المصفحة والمدافع الثقيلة والأسلحة المتنوعة.

بدأت معركة المدينة بقصف جوي دام من 10/18 إلى ليلة 10/21 دون أن يكون لدى المدافعين عن المدينة مدافع مضادة للطائرات. وقد نجم عن ذلك تدمير عشرة منازل وقتل سبعة أشخاص، وإحداث ذعر في المدينة.

في الساعة الثامنة من مساء يوم 1948/10/20 مهدت المدفعية للهجوم البرّي، ثم انطلقت طلائع القوات الإسرائيلية المهاجمة، وتبعتها القوات المحمولة لتطبق على المدينة من الشمال، والشمال الغربي، وتندفع إلى داخلها في الساعة الواحدة والنصف من اليوم التالي (1948/10/21). وأخذت هذه القوات المهاجمة تحتل أحياء المدينة وتتنقل من شارع إلى آخر إلى أن اصطدمت صباح 10/21 بمن تبقى من أفراد الحامية العربية في مركز الشرطة, وقد استبسل هؤلاء المدافعون الذين لم يتجاوز عددهم 53 مقاتلاً مصرياً وسودانياً وفلسطينياً، ورفضوا الاستسلام على الرغم من موقفهم العسكري الضعيف. وقد دار قتال ضار بينهم وبين القوات الإسرائيلية المهاجمة، وأصيب خزان الماء في المركز بقذيفة مباشرة فانهار وتدفقت مياهه على المدافعين، فانتقلوا إلى أسفل البناء يقاتلون إلى أن انتهت مقاومتهم، فاحتل الإسرائيليون المركز في الساعة التاسعة إلا ربعاً من صباح 1948/10/21، وبذلك تمّ احتلال مدينة بير السبع بكاملها.

المراجع

1 – عارف العارف: النكبة. بيروت 1956.

2 – حسين أبو النمل: قطاع غزة 1948 – 1967. تطورات اقتصادية وسياسية واجتماعية وعسكرية. بيروت 1979.

3 – عبد الله التل: كارثة فلسطين. القاهرة 1959.

4 – محمد فيصل عبد المنعم: فلسطين والغزو الصهيوني. القاهرة 1970.
5 – الموسوعة الفلسطينية. جزء أول. ص 477 – 478. اشراف د. أنيس صايغ. طبعة أولى . دمشق 1984.

معركــة بيسان: (1948)

تنفيذاً للخطة " دال " التي وضعتها قيادة الهاغاناه، وتبنّتها الوكالــة اليهوديـة، بـدأت القوات الصهيونية منذ أوائل شـهر نيسـان 1948، تنفيذ عمليات هجومية بهدف احتـلال أكبر عدد ممكن من القرى والمدن العربيـة قبل جلاء القـوات البريطانيـة عن فلسـطين، وذلك لتحسين مواقعها، ولبسط سيطرتها على أكبر مساحة ممكنة مـن فلسـطين، بالإضافة إلى متابعة الضغط على العرب لإجبارهم على النزوح عـن فلسطين. وضمـن إطـار هـذه الخطة شنّت قوات الهاغاناه هجوما قوياً على بيسان فجر يوم 1948/5/1.

بدأت العمليـة بـأن تسـللت قـوة مـن 300 مقـاتل مـن رجـال الهاغانـاه تحـت جنـح الظلام، وانقضّت فجأة على تل الحصن القريب من بيسان واحتلته في الساعة الواحدة من بعد منتصف الليل. ومن هناك أخذت تقصف بيسان بالقنـابل تمهيداً للهجـوم الـذي بـدأ مـع فجر 1948/5/12.

وكانـت حـاميـة بيسـان العـربية مؤلفة من 75 أردنياً وحوالي مئة فلسطيني بقيـادة " توفيق التهتموني ". ولم يكن بأيديهم من السلاح سوى البنادق العادية وعدد غير كثير من الذخيرة. وما ان بدأ القصف على البلدة حتى هـبّ المنـاضلون للدفـاع عنهـا وتمكنـوا مـن التصدي للموجة الأولى من الهجوم بنجاح. ولكن الصهيونيين كرروا الهجوم من اتجاهـات مختلفة وبكثافة كبيرة، بالإضافة إلى كونهـم مسـلحين بالبنـادق الآليـة والرشاشـات تدعمهـم مدافع الهاون. واستمرت المعركة ثلاث ساعات كاملة نفذت بعدها ذخيرة المناضلين فدخـل الصهيونيـون البلـدة، وسـقطت بيسـان بـأيديهم، فقـاموا فـوراً يجمعـون أسـلحة المنـاضلين ويحكمون سيطرتهم على البلدة.

وقد أبلغ قائد الهجوم سكان بيسان أن بإمكانهم البقاء في منازلهم وبلدتهم علـى ألاّ يبدوا أية مقاومة. فبقي سكانها جميعاً متمسكين بأرضهم. وبعد شهر واحد طُلب من الجميع مغادرة البلدة خلال فترة قصيرة من الزمن، فنزح بعض السكان عنها فوراً، في حين أصرّ عـدد كـبيـر مـن السكـان على البقاء فوضعتهم السلطات الصهيونية في عربات نقل بقوة

السلاح إلى الحدود السورية.

المراجع

1 – عارف العارف. النكبة. جزء أول. بيروت 1956.

2 – الموسوعة الفلسطينية. جزء أول. ص 490. اشـراف د. أنيس الصـايغ. الطبعـة الأولـى. دمشق 1984.

معركـــة بيشار

هي احدى المعارك الهامة بين الثوار الجزائريين وقوات الاستعمار الفرنسي في الجزائر. هذا وقد اخترقت المصطلحات والكلمات الجديدة كل بيت، وأصبح الحديث عن الثورة وجبهة التحرير الوطني الجزائرية والاستقلال الوطني حديثاً تردده الشفاه وتهتز له القلوب، بما في ذلك قلوب المقيمين في المعسكر الفرنسي. وقد بذلت جهود كبيرة للوصول إلى قلوب أولئك الذين زجّوا القتال مواطنيهم – طواعية منهم أو مرغمين على ذلك – واشربوا من قبل الفرنسيين بالأحكام المسبقة والادانات السلفيّة التي أصدرها الأعداء ضد وطنهم الجزائري.

أمام هذا الموقف، عملت المنظمات الوطنية الثورية منذ بداية 1957، على بذل أقصى الجهود من أجل الإتصال بالعناصر العسكرية الجزائرية التي كانت في الخدمة العسكرية ضمن الوحدات التي حملت اسم (وحدات الصحراء) في الجيش الفرنسي. وذلك لإقناع تلك العناصر بالانضمام إلى قوات الثورة الوطنية. ولم تتأخر هذه الجهود من إعطاء ثمارها، فبدأت عمليات الفرار من الوحدات الفرنسية بصورة إفرادية، بادئ ذي بدء، ثم تطورت العملية فأخذت عملية الفرار تحدث بالجماعات وأخيراً بالفصائل. وأخذ العسكريون الجزائريون بالفرار ومعهم أسلحتهم وذخائرهم. غير أن العملية التي أثارت الفرنسيين هي الاتصالات التي تمت مع قوة فصيلتين جزائريّتين لم تلبثا بعد ذلك أن عملتا على تحييد قادتهما الفرنسيين أو القضاء عليهم، ثم الإنضمام إلى قوات الثورة في شهر أيار / مايو / 1957 ومعهما كميات كبيرة من الأسلحة والذخائر. وزاد من هياج السلطة الفرنسية ما تبع ذلك من هجمات عديدة على مراكز الجيش والقيام بزرع الألغام في مهابط الطائرات، وحدوث معركة الخط الحديدي، واختراق السياج الشائك. ولم يتمكن الفرنسيون من تجنب هذه المجابهة – أو ابتلاعها او الصمت عنها، فقاموا بعملية واسعة بالقوات المحمولة جواً لمطاردة الهاربين من الجيش الفرنسي. غير أن الفشل الكامل كان من نصيب هذه العملية. إذ كان هؤلاء قد وصلوا إلى قواعد مأمونة تقع بعيداً عن

مناطق عمل الفرنسيين.

قررت القيادة الفرنسية على إثر ذلك القيام بعملية واسعة النطاق لا يقتصر هدفها على إلقاء القبض على الهاربين من الجيش الفرنسي – من الجزائريين – وإنما تتجاوزهم إلى تدمير القيادة الجزائرية الاقليمية التي قام عناصرها بإجراء الاتصالات وتنظيم عمليات الفرار من الجيش والرجوع إلى الثورة. وقد نظمت العملية للقيام بجهد تشترك فيه القوات الفرنسية المتمركزة في (بيشار) و (وعين صفرة) و (والجزائر العاصمة) بالإضافة الى القوات الفرنسية التي كانت متمركزة خلال تلك الفترة في المغرب.

قامت طائرتان فرنسيتان من طائرات الاستطلاع نموذج (ت 6) بالتحليق فوق قواعد المجاهدين في الإقليم قبل يومين من بداية تنفيذ هذه العملية. وفي الوقت ذاته أفادت منظمات استخبارات جيش التحرير الوطني بإرسال إعلام إلى " الإقليم " أنذرت فيه بظهور حركة كبيرة وهياج عنيف في صفوف قوات العدو، وفي قواعده. وكان هذا (الهياج) مؤشراً كافياً فضح الإستعداد للعملية، وأخذ المجاهدون بالاستعداد، بما توافر لهم من الإمكانات والوسائط.

قامت القيادة الفرنسية بنقل أكثر من ألفي جندي مستخدمة في ذلك قطارين: الأول قادم من (بيشار) والآخر من (عين صفرة)، ليلتقيا عند المكان المعروف باسم (جحيفا)، حيث يتم نقلهم بعد ذلك إلى مسرح العلمليات بواسطة الطائرات العامودية، وبواسطة خمسين عربة نقل من كل الأنواع للقادمين من المغرب ومن الأماكن الأخرى. هذا بالإضافة إلى سرب من الطائرات المختلفة (وعددها عشرون طائرة) النفاثة وطائرات (الجونكر) والهليكوبتر... وكانت هذه الآلة الحربية التي ألقت بثقلها ضد المجاهدين مدعمة بقوات حلف شمال الأطلسي وتجهيزاته. ومقابل ذلك، لم يكن باستطاعة جيش التحرير الوطني مقاومة هذا الحشد بأكثرمن فصيلتين كبيرتين (عدا الملتحقين بهم من الأنصار) يتكون العدد الأكبر من أفرادهما من قبيلتين كبيرتين تستوطنان الإقليم، وهما (قبيلة ولد جرير) و (قبيلة دوي منيع)، يضاف إليهما بعض العناصر من قبيلة (شامباس) و (ولد سيدي الشيخ) وهي القبيلة التي تستحق فضائلها الحربية كل تقدير واحترام: إذ كان أفرادها من المحاربين الأشداء، وأكثرهم من مهرة الرماة.

غير أن تسلحهم جميعاً لم يكن يـزيد عـلى البواريـد الحربية، موسكوتون وماس 36 وماس 49، مما سبق الإستيلاء عليه من قـوات العدو، ومسدسات ألمانيـة (مـوزر) مـع رشيش 24 و 29 للجميع وهو من الأسلحة التي غنمها المجاهدون من العدو. وكـان لـدى المجاهدين بعض قرب الماء التي تمّ نقلها من (حاسي أبـو العقل) بالإضافة إلـى 250 غراماً من التمر يحملها المجاهد معه، وشريحة من الخبز أو قرص مـن الكعك مما يتم خبزه أو (إنضاجه) فوق رمل الصحراء الملتهب.

كانت أكبر المشاكل التي تقع على عـاتق المقـاتلين فـي جيش التحرير الوطني، حماية مركز القيادة الإقليمي الذي أصبح الهـدف الأول مـن أهـداف العدو. بالإضافة إلـى الخدمات الملحقة بالقوات، الشؤون الإدارية والصحية. حيث كان هناك ملجأ يضم أكثر من سبعين مريضـاً وجريحـاً لا سـلاح لديهم للدفـاع عـن أنفسـهم. هـذا بالإضافـة إلى تـأمين الحراسة على بعض الخونة والمشبوهين الذين تمّ اعتقالهم بانتظار تقديمهم إلى (المحكمـة العسكرية)، ومن بينهم (مدني ولـد غدايفـة) و (والحبيـب شـطري) وهمـا مـن الخونـة الـذين ثبتـت خيـانتهم وصـدر عليهـم الحكـم بعد ذلـك وتـمّ إعدامهما. بالإضافة إلى الشاب (هـ . م) الذي لم يكن عمره يتجاوز السابعة عشرة والذي جنّده الفرنسيون لخدمتهم، فتمّ اكتشاف أمره. غير أن المحكمة عاملته بالرأفة نظراً لصغر سنّـه.

المعركـة: قـام المجـاهدون فـي ليـل الإشـتباك بـإخلاء المغـاور والأوديـة واحتلـوا مواقعهم عند الأماكن ذات الأهميـة الاسـتراتيجية فـي الجبـال. وقـام كـل فـرد بحفـر ملجـأ وحفرة فردية له. وأعدّ مكانه بهدوء استعداداً لمجابهة كافة الإحتمالات. وقضى المحاربون ليلتهم في الخنادق التي حدّدت لهم.

أرسلت مراكز المراقبة شارات الإنذار، منذ الصبـاح المبكـر، عـن اقتراب أرتـال المركبات التي كانت تتجه من (بو عرفة) عبر الممر الضيـق فـي (غـروز – لامـيز). وكانت هـذه الأرتـال تنقـل الوحـدات الفرنسـية المسـلحة التـي كـانت متمركـزة فـوق أرض المغرب. وأعطيت شارة الإستنفار للقوات التي كان أفرادها قد فرغوا من صلاتهم وابتهلوا إلى الله أن يفرغ عليهم الصبر ويثّبت أقدامهم.

لا زال الوقت مبكراً، ولا زالت أنظار المجاهدين مركزة لمتابعة تحركات القافلة.

ولكن ها هي ضجة تصم الآذان قد أثارها هدير محركات الطائرات النفاثة، مما أرغم المجاهدين على النظر إلى السماء ليتابعوا طيران ثلاث قاذفات ضخمة (نموذج ب 26) قامت بالتحليق فوق الإقليم بسرعة، وألقت بحمولتها من القنابل ونيران الرشاشات. معتقدة بذلك أنها دمرت برماياتها المنسّقة كل الأودية والمنخفضات تمهيداً لإنزال القوات المحمولة جوّاً المكلفة بالقضاء على المجاهدين الذين لا زالت السلطات الاستعمارية تطلق عليهم اسم (الفلاقة) أو (العصاة).

استمرت عملية القصف الكثيف مدة ساعة من الزمن، وأصبحت عقارب الساعة تشير إلى السابعة، عندما ارتفع من جديد صوت هدير محركات سرب من الطائرات ذات الأنواع المتباينة وهي تحلق في السماء قبل أن تستدير لتمرّ من فوق مواقع المجاهدين، وارتفع صوت يصمّ الآذان بصورة مباغتة، حيث ظهرت موجة من الطائرات القادمة من الشرق والتي توقّف لها شعر المجاهدين. وكانت هذه الموجة مكونة من سرب من الطائرات العمودية (هليكوبتر). جاءت تنقل القوات الفرنسية المرافقة في تحركها لخط مسير القطار القادم من (بيشار) إلى (عين صفرة). وهي قوات وضعت كلها تحت قيادة الجنرال (فانوكس) و (كريفكور)، وكان عليها القيام بالاتصال مع القوة القادمة من المغرب لتطويق قوات المجاهدين بنطاق محكم.

قررت قيادة قوات المجاهدين مجابهة هذا الموقف الجديد بإجراء جديد، وذلك بتقسيم القوة إلى زمر صغيرة يعمل قسم منها تحت قيادة مقاتل عنيد اكتسب خبرة أثناء اشتراكه في (الحرب الهند الصينية) وهو الأخ (غاوطي)، ويقوم باحتلال أفضل النقاط الاستراتيجية المقابلة للقوة الفرنسية القادمة من المغرب. في حين ترك القسم الآخر يعمل تحت قيادة (عبد الحميد شيران)، ومهمته التمركز في مواجهة القوات الفرنسية القادمة من الشرق (أي في الاتجاه المضاد للقسم الأول بحيث يكون ظهر المجاهدين في القسم الأول مستديراً لظهر المجاهدين في القسم الثاني). وتمّ تكليف الحاج (دوغما) و (محمد بن زيان) بمهمة تأمين الارتباط وتنظيم تنسيق التعاون بين قسمي القوة. وبما أن طبيعة الحرب التي كان يخوضها المجاهدون قد فرضت عليهم استنزاف قوة العدو وتجنب المجابهة معه في معركة جبهية أو معركة مكشوفة، فقد أعطيت التعليمات إلى الرجال

بعدم فتح النار على قوات العدو قبل الظهر، وأن يتمّ ذلك بصورة مفاجئة. بحيث تكون قوات العدو اقتربت كثيراً من مواقع المجاهدين، حتّى يتم تكبيد الفرنسيين أكبر قدر من الخسائر. مما يسمح للمجاهدين الاحتفاظ بمواقعهم حتى الليل، وليضمن لهم فرصة الانسحاب تحت جنح الظلام. ولكن في هذه الأثناء، وحوالي الساعة العاشرة تقريبا، حدث طارئ غير متوقع قلب مخطط المجاهدين رأساً على عقب. فبينما كانت طائرتان من نموذج (ب 26) تقصفان بدون هوادة الأودية والمنخفضات مستخدمين الغازات الخانقة، ظهرت طائرتان من نموذج (الجونكر) وأخذتا في التحليق فوق رؤوس المجاهدين إستعداداً لإنزال ما تحملانه من قوة المظليين. ونفذ صبر مهرة الرماة فوجهوا نيرانهم إلى احدى الطائرتين، وأصابوا فيها مستودع الوقود. فأخذت تشتعل وهي في السماء، وسقطت على بعد لا يتجاوز مائة وخمسين متراً من موقع زمرة أو (قسم) – عبد الحميد شيران – وقتل مَنْ في الطائرة التي سحقت جميع ركابها من المظليين، ولم ينج من الطائرة أحد بما في ذلك قائد الطائرة وملاّحيها. وهنا أيضاً أعيد التأكيد على تنفيذ الأمر بعدم فتح النار حتى يصل جنود العدو إلى منطقة القتال على المدى القريب للأسلحة. ولكن ظهرت بغتة طائرة عمودية تحمل مجموعة من الضباط الذين هبطوا عند الطائرة المحترقة. ويظهر أن مهمتهم كانت لإجراء البحث عن الأسباب التي أدت إلى (كارثتهم). ولم تكن المسافة التي تفصلهم عن موقع المجاهدين تزيد على مائة وخمسين متراً. وأخذ قائد القوة (عبد الحميد شيران) بمراقبة الضباط الفرنسيين من خلال عدسات منظاره المكبّر. وأمكن له تمييز رتبهم وشاراتهم، وهنا لم يتمكن حتى قائد القوة من مقاومة إغراء هذا الصيد الثمين. فأخذ بتحريض جنوده الذين أصابهم الجزع، بقراءة الآية الكريمة: ﴿يا أيها النبي حرّض المؤمنين على القتال، إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين، وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون ﴾ [1]. ثم قال لهم: " هذا هو اليوم الذي تركتم من أجله كل ما هو عزيز عليكم لتنالوا إحدى الحسنيين، الموت أو النصر. فلا يخيفكم كثرة العدو بعدده وعدّته، إصبروا وصابروا " ثم وقف وصاح بجنده (الله أكبر) ولنا النصر، وفتحت النيران كلها دفعة واحدة. وبغمضة عين أبيدت زمرة

[1] – القرآن الكريم – الجزء العاشر – سورة الأنفال – الآية 64.

الضباط إبادة تامة. وتبع ذلك اشتباك عنيف بالنيران لم يتوقف حتى الساعة الخامسة مساء (الساعة 17).

مضت ساعات القتال قاسية جداً، اختلطت فيها هدير محركات طائرات (ت 6) بهدير محركات الطائرات العمودية، مع أصوات زمجرة طائرات (الجونكر) و (ب 26)، بالإضافة إلى انفجارات القنابل والصواريخ علاوة على القصف المدفعي التي رافق الهجمات المتتالية للقوات الفرنسية والتي أوقفتها في كل مرة النيران المباغتة للمجاهدين والتي تميزت بدقتها وكثافتها. وكان نطاق الحصار أثناء ذلك كله يضيق على المجاهدين. فقد ارادت قوة العدو الفرنسي الإطباق بحركة (كماشة)، بهدف إرغامهم على مغادرة مواقعهم، أو الإشتباك بقتال جسم لجسم فيه التفوق العددي الساحق لمصلحة العدو، أو حتى دفعهم لمحاولة اختراق حصار لا يمكن اختراقه. غير أن المجاهدين رفضوا الإنقياد لمخططات العدو، فأخذوا بالانسحاب وفق الاسلوب المعروف بالتناوب ما بين النار والحركة. وشرع العدو بمطاردتهم حيث أفادوا – مرة أخرى – من حركة تراجعهم المباغتة ليكبدوا العدو خسائر فادحة. غير أنه حدث هنا طارئ مفجع، إذ قامت إحدى الطائرات بتحديد مكان (سلاح الرشيش ف . م) الذي كان يستخدمه (بو عمامة) فوجهت إليه أحد صواريخها، فمزقت الرامي (الشهيد بو عمامة) وأصابت الملقّم والمدخّر بجراح مختلفة. ونظراً لقصر المسافة التي باتت تفصل بين المجاهدين وأعدائهم، فقد تركز اهتمام قائد القوة (عبد الحميد شيران) على أخذ الرشيش للأستفادة من نيرانه، وحتى لا يستولي عليه جند العدو. كان نطاق الحصار محكما فأعطى عبد الحميد أمره إلى قائدي الفصيلتين (أتاج وجلالي) بالانتقال إلى نقطة ازدلاق ثانية، وبدأت من جديد حركة الانسحاب بالتناوب ما بين الحركة والنار. وانصرف قائد المجموعة لمجابهة العدو، فرفع خزان الرشيش ووضع خزانا جديداً، واستدار نحو زمرة الجرحى في محاولة لوضع أفرادها في ملجأ من الخطر، فتوجه بهم نحو مدخل الوادي، محاولا إنقاذهم واحداً بعد الآخر تحت غطاء نيرانه. وهنا حدثت معجزة غير متوقعة، إذ كان القسم الآخر من القوة بقيادة (الغوتي) والذي كان يواجه القوة الفرنسية القادمة من المغرب، قد تعرّض لما تعرض له القسم الأول. ووجد نفسه مرغماً على الانسحاب بقوته، متبعاً ذات الأسلوب

الذي طبّقه القسم الأول. وبما أن حركتي التراجع قد تمتا في وقت واحد، فقد ظن الفرنسيون أن هناك محاولة لتطويق القوات المهاجمة الفرنسية. فصدر الأمر إلى هذا القسم من القوات بالتراجع إلى الخلف. وساعد على ذلك إعتقاد الفرنسيين أنهم يواجهون قوة كبيرة تنتشر في كل مكان. وانفتحت بذلك ثغرة غير متوقعة، واستطاع (الغلاقة) على حد تعبير الفرنسيين الإفادة من ذلك للانتقال بجرحاهم وبأعتدتهم الثقيلة – عبر الثغرة – إلى الطرف الآخر من الوادي، حيث تمّ احتلال مواقع قتالية من جديد.

إعتقد الفرنسيون أنهم يستطيعون بحركتهم المزدوجة والمتقابلة (الكماشة) أسر المجاهدين وهم أحياء. وعندما وصلوا إلى مواقع هؤلاء المجاهدين، أصيبوا بخيبة أمل مريرة. وعرفوا عندها فقط أن المجاهدين قد أصبحوا خارج مدى أسلحتهم الآلية – الأوتوماتيكية –، وأنهم وصلوا – على الأقل – إلى المرتفعات المقابلة. ولم يعد باستطاعة الجنود الفرنسيين الوصول إلى مبتغاهم، ولم يبق لهم إلا توجيه الإهانات والشتائم، واللجوء إلى الطيران الذي أسرع إلى إلقاء قذائفه المحرقة وقنابل النابالم. غير أن أحداً من المجاهدين – والحمد لله – لم يصب بأذى. وكان لا بد أن تستمر المعركة الضارية حتى هبوط الظلام، غير أن معجزة أخرى حصلت، فقد انفجرت عواصف رعدية في السماء (على غير ما هو معتاد في مثل هذه الأيام من السنة) وأرغمت الأعداء الأوغاد على الانسحاب. وتمكن المجاهدون من الانسحاب بدون عناء. وعندما هبط الظلام، ترك رجال من الأنصار (الماكي) في مراكز المراقبة، وتوجهت قوة السريّتين إلى مضارب قبيلة (مراينات) لأخذ قسط من الراحة. فوجد المجاهدون أفراد القبيلة وهم في عيد واستقبلوهم استقبال الأبطال (بالهتاف والزغاريد وقرعات الطبول)، هذا بالإضافة إلى المآدب التي أقيمت، والتي عبّرت عن كرم هذه القبائل وفضائلهم المعروفة.

إستراح المجاهدون قليلاً، ثم انصرفوا للعناية بجرحاهم ومرضاهم، والعناية بأسلحتهم وإعادة تنظيم أمورهم، إستعداداً للمعركة المقبلة التالية.

كانت خسائر العدو كبيرة جداً وتزيد على عشرات القتلى والجرحى بدلالة استخدام أعداد كبيرة من الطائرات العمودية التي قامت بنقل المصابين. أما خسائر المجاهدين فلم تتجاوز الشهيدين (أحدهما رامي الرشيش) بالإضافة إلى عشرة

جرحى كانت جراحهم خفيفة.

المراجع

1 – العماد مصطفى طلاس والمقدم بسام العسلي: " الثورة الجزائرية " دار الشورى. بيروت. الطبعة الأولى 1982. ص: 439 – 446.

حرفا " التاء " و " الثاء "

(ت) و (ث)

1 – تاقـرفـت
2 – تربــــة
3 – ترهــونــة
4 – تل الفخـــار
5 – التل الكـبير
6 – تل النيــرب
7 – التوافيـق
8 – معارك ثورة 1936

معركـــة تاقرفت

يمكننا أن نقول أن عمليات إعادة الاحتلال الايطالي قد توقفت في المدة الواقعة بين 1924 و 1927 في المنطقة الغربيـة من ليبيـا، بعد أن أحكم الايطـاليون سيطرتهم على المنـاطق الواقعة بين المنطقـة الساحلية المحصـورة بين سرت والحدود الغربيـة، والممتدّة جنوبا حتى غدامس، درج، مزدة، بني وليد.

وفي المنطقة الشرقية شهدت هذه السنوات عمليات عسكرية استهدفت توسيع دائرة الاحتلال تشمل " اجدابيا " والمنطقة الواقعة جنوب الجبل الأخضر وكذلك احتـلال منـاطق الحدود الشرقية المحصـورة بين الســاحل والجغبـوب كمحاولـة لإحكـام الطـوق علـى المجاهدين وحصر الثورة في الجبل الأخضر.

نشـأ عن هذا الوضع أن بقيت المنطقة الساحلية الممتدة بين " اجدابيا " فـي الشـرق و " سرت " في الغرب غير محتلة. وإذا علمنا أن القبـائل التـي تسكن هـذه المنطقـة قبـائل قوية الشكيمة صعبة المراس، أكسبتها حياة البداوة قدرة قتاليـة، وإذا علمنـا أيضـاً أن هـذه الأماكن أصبحت مناطق جـذب للعنـاصر الرافضـة للوجـود الإيطـالي سـواء مـن المنـاطق الغربية من ليبيا أو فـي المنـاطق الواقعـة بين " بنغـازي " والجبـل الأخضـر و " أجدابيـا " أدركنا التهديد الذي يتربّص بقوات الايطاليين في المناطق التي أعيد احتلالهـا. وقد أدرك الايطـاليون ضرورة العمل على ضرب تجمعات المجاهدين في هذه المنطقة، وأعدو للأمـر عدّته وجهزوا عدداً هائلاً من القوات المزوّدة بـأحدث الآليـات المستعملة فـي ذلـك الوقـت تساعدها الطائرات.

وكانت العمليـات الحربيـة الواسـعة التـي أطلـق عليهـا الايطـاليون اسـم: عمليـات المنطقة الواقعة شمال خط عرض 29 " شمالا " وكانت أوسـع عمليـات عسـكرية تشـهدها الأراضي الليبية منذ بداية الاحتلال الايطالي لليبيا.

كان الهدف من هذه العمليات:

1 – ضـرب تـجمعـات المـجـاهـدين فـي الـمنطقـة الساحـليـة الـممتدة بين

" اجدابيا " و " سرت ".

2 – وصل المنطقة المحتلة الشرقية بالمنطقة المحتلة الغربية تمهيدا لوضع البلاد تحت قيادة إدارية واحدة.

3 – الاتجاه بعد ذلك جنوباً، وتوسيع دائرة الاحتلال لتشمل مناطق " فزّان " وتتم ملاحقة المجاهدين.

وقد اتبع الايطاليون خطة التحرك العسكري من مراكز متعدّدة ومن اتجاهات مختلفة نحو هدف واحد، فمثلاً: إذا كان الايطاليون في المرحلة الأولى من العمليات وقد انطلقوا من " اجدابيا " نحو الغرب ومن " تمد حسان " في اتجاه الشرق لمباغته القبائل الموجودة بالمنطقة الساحلية وحمل بعضهم على التسليم والقبول بالايطاليين، واجبار الآخرين على الانسحاب جنوبا، فاننا نجدهم في المرحلة الثانية يتحركون من نقاطهم على الساحل في اتجاه الجنوب في دوائر واسعة ثم العودة شمالاً لمحاصرة المجاهدين المنسحبين أمام زحف الايطاليين في المرحلة الأولى.

أمام هذه التحركات العسكرية التي يقودها ضباط من الفاشيست وهي تتحرك في أرتال عسكرية كبيرة وفي اتجاهات مختلفة، لم تضعف معنويات المجاهدين ولم يزدهم إصرار الفاشيست على ضرب المقاومة إلا إصراراً على مواصلة النضال والتصدي للزحف، وقد شهدت روابي تلك المناطق، وبطون أوديتها وجبالها ضروباً من المقاومة الصادقة الشريفة التي ستكون درساً للأجيال يتعلمون منها التضحية في سبيل الوطن وبذل الروح رخيصة من أجل عزّته.

وقد اخترت من هذه الملاحم معركة " تاقرفت " التي جرت أثناء قيام الايطاليين بالمرحلة الثانية من عمليات " خط عرض 29 شمالا ". فقد انطلقت قوات الايطاليين من قصر " أبي هادئ " يوم 28 يناير 1928م في اتجاه " الزيدن " ثم " أبو نجيم " لتلحق بالقوات الايطالية المتواجدة هناك. ومن " أبو نجيم " اتجهت القوات الايطالية المتواجدة هناك. ومن " ابو نجيم " اتجهت القوات الايطالية إلى واحات " الجفرة " لملاحقة عناصر المقاومة المتمركزة في تلك المناطق.

ومن " ودان " تحركت القوات الايطالية جنوب " زله " فبلغتها يوم 22 فبراير

/ شباط 1928 م فحاصرتها واحتلتها.

معركـة " تافرقت " – 25 فبراير / شباط 1928:

بعد احتلال " زلة " كان " غراتسَياني " ينوي التوجه إلى النوفلية، وفي ذات الوقت صدرت الأوامر من الحكومة الايطالية في طرابلس بأن يتحرك العقيد " ماريوتي " من النوفلية في اتجاه الجنوب متزامناً مع حركة " غراتسياني " نحو الشمال، إذ أن القصد من هذا التحرك الاطباق على قوات المجاهدين التي توقّع الايطاليون وجودها بين " زلة " و " جيفة " والحيلولة دون التحام قوات المجاهدين.

تحرك " ماريوتي " بقواته المكوّنة من: الكتيبة 4 الليبية، سريّتان من الكتيبة 26 الأرتيرية، وحدة مدفعية ليبية، والفرقة 4 سواري، بمؤن تكفي لمدة أربعة أيام، وابتدأ التحرك من النوفلية يوم 23 فبراير / شباط، وبلغ " جيه " يوم 25 منه وتابع سيره نحو الجنوب يوم 26 فبراير، للضغط على تجمعات المغاربة الرعيطات.

وتحركت القوات الايطالية من " زله " متجهة إلى " مدين " الساعة الثانية عشرة من يوم 23 فبراير / شباط 1928. وكانت القوات مكوّنة على النحو التالي:

مجموعة (بيادة) مشاة بقيادة العقيد " جاللينا ".

الكتيبة 6 الليبية، الكتيبة 25 الأرتيرية.

مجموعة آلية بقيادة دوق " بوللي "، الفرقتان 3 و 4 الصحراويتان.

50 سبيوسا تحت تصرف القيادة.

مجموعة غير نظامية من الجفرة، وقسم من المدفعية الصحراوية.

قافلة تكفي لحمل مؤونة ستة أيام، وماء لستة أيام أيضاً للبشر والحيوانات والخدمات.

ومن " مدوين " استأنف الايطاليون سيرهم مع بداية يوم 24 فبراير / شباط ليبيتوا ليلتهم على مقربة من حطية " تاقرفت "، وفي الطريق بين " مدوين " و " تاقرفت " داهمت القوات الايطالية قطيعاً من الأغنام واحتجزته بعد أن فرّ رعاته. وهؤلاء هم الذين أنذروا المجاهدين بتواجد الايطاليين قريبا منهم، فبدأ المجاهدون استعداداتهم.

وفي فجر يوم 25 فبراير إستأنفت القوات الايطالية سيرها نحو الشمال

باحتياطات أمنيّة، ويفصلنا في فجر ذلك اليوم 25 فبراير 1928 حوالي أربع ساعات فقط عن بدء معركة " تاقرفت ". وحريّ بنا الآن أن ننقل وصفاً للحطيه (ساحة المعركة) واستعدادات المجاهدين منذ علمهم بخط سير القوات الايطالية واتجاهها نحو " تاقرفت ".

تقع حطية تاقرفت شمال غربي " زلـه " بحوالي 75 ك.م، وهي عبارة عن منخفض تحيط به المرتفعات من جميع جهاته، عدا الجهة الشرقية. وتوجد بالحطية مجموعة من القور منها: القور الصهب في الجانب الغربي، ومنقار الملح في الجهة الشمالية منها وهناك من الجنوب يطل على الحطية (منقار) أطلق عليه " منقار غراتسياني " وهو الذي قال عنه أنه اتخذ منه مكاناً لمراقبة سير المعركة.

ويتمثل غطاء الحطية النباتي من أشجار الاثل، والضمران والغرس والقطف، والفردق، وتقطع الحطية كثبان رملية بسيطة وسبخات، وتوجد آبار تاقرفت في الجهة الشمالية، كما توجد مجموعة من موارد المياه الأخرى هي: عين الاعيكب، وعين أبو لعج، وبئركم الرعاوية.

كان المجاهدون منذ بدء عمليات خط عرض 29 قد انسحبوا جنوباً، ونظراً لأهمية آبار تاقرفت في تلك المنطقة اتخذوا من المناطق المحيطة بتاقرفت أماكن يستقرون فيها بعض الوقت. وما أن علم المجاهدون باحتلال " زلة " حتى أصبحوا يتوقعون الاصطدام بالقوات الايطالية في وقت من الأوقات. وهكذا كانت الإستعدادات للقاء الايطاليين تتمّ ببطء إلى أن داهمت القوات الايطالية قطيعا من الأغنام بين " مدوين " و " تاقرفت "، وفرّ رعاته لينذروا المجاهدين بقرب القوات الايطالية.

وهكذا تنادى رجال القبائل القاطنون قريبا من تاقرفت، وتجمعّوا بالحطية. ونظراً لعلمهم بأن الايطاليين سيدخلونها من الجهة الجنوبية، فقد تمركزوا في مكان مناسب يمكّنهم من الدفاع عن الآبار (آبار تاقرفت).

وتجمّع 335 مجاهداً من مختلف القبائل، كان توزيعهم على النحو التالي:

- من الغرب وبمنطقة القور الصهب كانت نجوع الطبول.
- وفي الوسط القذاذفة، والجماعات، وبعض القبائل الأخرى.
- وفي الشرق أولاد سليمان.

كانت القوات الايطالية بعد نزولها إلى الحطية تسير بالوضعية التالية: القوات الصحراوية، والخيّالة من الأمام وعلى الجانبين، ثم فصيل من الكتيبة الليبيّة السادسة كطليعة استطلاع، تتبعهم الكتيبة الارتيرية 25، والكتيبة الليبيّة السادسة، وخلفهم قيادة المجموعة تتبعها المدفعية ثم القافلة المكوّنة من 3000 جمل يحرسها بالاضافة إلى سائقيها المسلحين السباهيس (50 فارساً) وجماعات الجفرة غير النظاميين البالغ عددهم 300.

وقد أورد " انجلوا بتشولي " في كتابه: " إيطاليا الجديدة فيما وراء البحار " قوله: " كانت المعركة ألف رجل في مواجهة ألف رجل إلى جانب أن القافلة التي تتكوّن من 3000 رأس من الإبل كانت تشكل عبئاً ثقيلاً يجب حمايته والدفاع عنه ". وهذا يعني أن المعركة كانت متكافئة من حيث العدد، بل إن ظروف المجاهدين كانت أحسن حالاً.

وبالنظر إلى تشكيلة القوات الايطالية يمكننا أن نقول: إن عددها يقارب الأربعة آلاف، هذا من حيث العدد، أما عن العدّة فكان الفارق كبيرا بين الطرفين. أما عن القافلة فقد كان سائقوها البالغ عددهم 1000 على أقل تقدير مسلحين في مستوى سلاح المجاهدين (بنادق).

استمر سير القوات الايطالية في الطرف الجنوبي من الحطية، بينما كان المجاهدون متمركزين خلف استحكاماتهم البسيطة التي استغلّوا فيها طبيعة الأرض، فمنهم من اتخذها من الحجارة ومنهم من احتمى خلف كثيب من الرمل، ومنهم من استغلّ الأحراش في ذلك.

وحينما اقتربت مجموعات الاستطلاع من المجاهدين، ابتدأ إطلاق النار، وبسرعة البرق نشبت المعركة واشتد أوارها. ويشير " غراتسياني " إلى أن المعركة قد نشبت في الساعة السابعة وخمس وخمسين دقيقة.

استمّر القتال طيلة اليوم وتمثلت المعركة في ثلاث مراحل على النحو التالي:

- المرحلة الأولى من الساعة السابعة وخمس وخمسين دقيقة إلى الساعة الحادية عشرة.

بداية الاشتباك:

(أ) و " غرتسياني " يتخذ من الموضع الذي أطلق عليه فيما بعد " منقار غراتسياني "

(ب) مكانا يراقب منه المعركة كما اتخّذ لحمايته فرقة رشاشات، وسرية من الكتيبة الليبية السادسة والقافلة تلتصق إلى المصطبة التي اتخذها موضعاً له. (جـ) وكان في حماية القافلة مجموعة الجفرة غير النظاميين، بالاضافة الى رجال القافلة الذين كانوا أيضاً مسلّحين.

عملية الهجوم المشار إليها بحرفي (دوهـ) قام بها مجموعة الطبول، وقد سببّوا ضغطاً قوياً على ميسرة الجيش الايطالي، ومما زاد من قوة هجوم المجاهدين توافق هذا الهجوم مع وصول نجدة مكوّنة من 15 رجلاً من قبيلة المناصير. وقد هدّد هذا الهجوم القافلة ومقرّ القيادة.

قام الايطاليون بهجوم مضاد عند الساعة التاسعة بسريّتي الكتيبة الليبية السادسة ومساندة السباهيس (و) وكذلك بواسطة الطابور الصحراوي (ز). واستمر القتال محتدماً إلى الساعة الحادية عشرة.

المرحلة الثانية: من الساعة 11 إلى الساعة 11,30.

الكتيبة الارتيرية 25 تتقدم الموضع (ح) وتتراجع بناء على أوامر القيادة لتكون في خط الكتيبة السادسة الليبية (ط). وهنا لابد أن نشير أن هذا التراجع لم يكن تكتيكاً عسكرياً مقصودا، وإنما كان تقهقراً ناجماً عن كثافة نيران المجاهدين، وصمودهم، وتميزت هذه المرحلة بإعادة تنظيم القوات الايطالية، وإعدادها لمرحلة قادمة.

المرحلة الثالثة:

وفي هذه المرحلة تركّز ضغط المجاهدين على الجانب الأيمن للقوات الايطالية حيث تمركز مجاهدو " اولاد سليمان " فنقلت إلى تلك الجهة أربع رشاشات حيث كانت الكتيبة 25 الارتيرية.

الساعة 12,30 قامت كل المجموعات، وهرولت بما في ذلك حيوانات القافلة. فتمّ اختراق السبخة. وفي الساعة الرابعة وصلت القوات الايطالية الآبار بعد حوالي تسع

ساعات من القتال المستمر.

بعد احتلال الآبار انسحب المجاهدون نحو الشمال، ثم اتجهوا نحو الجنوب قاصدين الهروج، وصعدت القوات الايطالية (ي) إلى الحدّ الشمالي للحطية، في حين قامت القوات الراكبة بحركة التفاف (ك , ل) وقضّى الايطاليون تلك الليلة، بمكان يسمّى " منقار الملح " (م).

ويؤكد المجاهدون أن الايطاليين عندما فشلوا في دحرهم عن طريق المواجهة لجأوا إلى حيلة استطاعوا بها أن يحقّقوا تقدماً، وتمثلت هذه الحيلة في أن تتقدم جميع القوات الايطالية خلف القافلة الضخمة التي استخدموها كستر بينهم وبين المجاهدين، مما أدّى إلى انسحاب المجاهدين عندما لم يتمكنوا من توجيه ضرباتهم نحو الأعداء. والحقيقة أن هذه الحيلة كانت من الممكن أن تسبب هزيمة الايطاليين وإفنائهم لو قدّر للمجاهدين تحقيق أي تقدم في اللحظات الأخيرة من المعركة، والاقدام على مثل هذه المغامرة من قبل الايطاليين والإلقاء بآخر ورقة لديهم يدل دلالة قاطعة على شدة هول المعركة ويأسهم من تحقيق أي تقدم، فكانت حركتهم تلك رمية من غير رامٍ.

إختلفت المصادر الايطالية حول تقدير الخسائر التي لحقت بالطرفين، فقد ذكر " غراتسياني " مقتل 5 ضباط و 78 من صف الضباط من القوات العسكرية والعساكر الأرتيريين والليبيّين. وذكر " انجلو بتشولي " في كتابه " ايطاليا الجديدة فيما وراء البحار " أن الايطاليين فقدوا 98 قتيلاً. أما العدو (يعني المجاهدين) فقد خسروا 500 رجل بين قتيل وجريح ومفقود.

ويذكر " بولاتي " مقتل خمسة ضباط و 87 غيرهم عدا العديد من المصابين بجروح متفاوتة، أما العدوّ (المجاهدون) فقد مني بخسائر فادحة زادت في الأيام التالية، خلال المسير إلى النوفلية.

ويذكر (رالز) أن المجاهدين خسروا 247، وجُرح الكثيرون، ونقلوا على ظهور الجمال، أما الايطاليون فكانت خسائرهم كما يلي:

5 ضباط ماتوا وستة جرحوا، 54 عسكري أرتيري ماتوا، 156 جرحوا، عدد الحيوانات الميتة 13 والمجروحة والضائعة 32.

وقد اتفقت أغلب روايات المجاهدين على أن عدد الشهداء كان 75 شهيداً والجرحى 82 جريحاً. واختلفت رواياتهم أيضاً حول تقدير خسائر الايطاليين.

من تاقرفت إتجه الايطاليون إلى النوفلية، وفي الطريق كانوا يقتلون من يصادفهم من الرجال، وينهبون القوافل، وقد اعتبر غراتسياني ذلك عمليات تطهير، فيقول أنه أثناء تلك العمليات وقع في أيدينا 50 رجلاً من الوطنيين، كما تمّ الاستيلاء على قافلة مكوّنة من 500 جمل محمّلة، وتمّ أيضاً أسر كثير من النساء والأطفال.

وقد وصلت القوات الايطالية إلى النوفلية يوم 3 مارس / آذار الساعة الثالثة, وإذا كان قد نتج عن معركة تاقرفت إبعاد المجاهدين عن منطقة " سرت " الشرقية، وبالتالي تخفيف الضغط على خط الاحتلال الايطالي الممتدّ بين " زله " و " الجفرة "، فان لمعركة تاقرفت وأمثالها من المعارك التي حدثت في الصحراء بعيدا عن مناطق العمران معنى عميق في حركة الجهاد. إذ أن ذلك يعطي دليلا عمليا على أن الدافع الحقيقي للجهاد لم يكن مادياً، بل دفاعا عن الشرف والعقيدة والمثل العليا. ولو لم يكن كذلك لما حدثت معركة تاقرفت، فبإمكان المجاهدين التحرك قليلاً، والبعد عن خط سير الايطاليين. (*)

المراجع

1 – المبروك الساعدي في مقال له منشور في كتاب " من معارك الجهاد الليبي في المنطقة الوسطى ". منشورات مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الايطالي. الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية. 1983. ص 54 – 64.

2 – محمد خليفة التليسي " معجم معارك الجهاد ". وقد أدرجت هذه المعركة ضمن حرف " الباء " (بئر تاقرفت). ص 145 – 149.

* الجدير بالذكر أن " الموسوعة العسكرية " لم تشر إلى هذه المعركة لا من قريب ولا من بعيد، مع أنها من أهم المعارك الكبرى في تاريخ الجهاد الليبي ضد الغزو الاستعماري الايطالي.

معركـــة تربـة (1337 هـ .)

هي إحدى المعارك التي جرت بين قوات الشريف حسين بن علي وقوات الملك عبد العزيز آل سعود.

تربة والحزمة بلدتان تقعان بين الحجاز ونجد، وكان الحسين يرى القريتين من قرى الحجاز التابع له، والملك عبد العزيز يراهما من نجد، لذلك أرسل الشريف حسين جيشاً جباراً إلى القريتين بحجة تأديب العصاة، ضارباً بخطابات الملك عبد العزيز عرض الحائط، فاحتل قائد الشريف حسين " تربة " وفتك بأهلها، في الوقت الذي احتاط فيه الملك عبد العزيز فأرسل سريّة من الإخوان سرعان ما تحركت لمباغتة جيش الشريف. وعندما علموا باستيلائه على " تربة " وبينما قائد الشريف يمني نفسه بأحلام الانتصارات والمجد، إذ بجيش الإخوان يغير عليه وعلى جيشه فيمزقه، ويستولي على الأسلحة والذخائر. وسرعان ما فرّ هذا القائد إلى الشريف حسين.

وما أن علم الملك عبد العزيز بأمر المعركة وعرف أحداثها، ورأى جثث القتلى يغصّ بهم المكان حتى بكى وأمر بدفنهم جميعاً.

يتحدث الشاعر بولس سلامة عن موقف أهل القريتين من الملك عبد العزيز:

" كان في " تربة " و " الخرمة " أشرف — على غير منهج ومراسم
لابن عبد الوهاب ودهم وأزاحوا — من حسين عبئاً على الصدر جاثم ".

ويحتل جيش الشريف " تربة " فيقوم بأبشع الأعمال وأفظعها، ولكن سرعان ما أتى جيش الملك عبد العزيز ليذيق نفس الكأس لمعطيها:

" بينما كانت الأماني رحاباً — وعلى غمرها يلفّ الرجاء

كان جيش الإخوان يخترق   الظلماء حتى تفرق الظلماء
سلكوا درب " تربة " مستتيرين   فهذي سيوفهم أضواء
لم يكن همهم هزيمة خصم   آية النصر عندهم إفناء
طوّقوا كل ثلمة ينفذ الهارب   منها، أو يستمدّ النجاء
بوغتت فرقة الحجاز فبادت   قبل أن يعتلي لها ضوضاء
وتلتها سريّة فسرايا   خمدت كاللظى عراه انطفاء
قاتلت عن أميرها فنجا حراً   يقيه الظلام والأشلاء
حول نجل الحسين كم باد جسم   واستطابت كأس الردى حوباء
سلب الموت منهم كل حيّ   فعدّ يد الاصابع الأحياء
ذاب جيش الحسين ذوب جليد   واهنٍ أشرقت عليه ذكاء ".

ويصل الملك عبد العزيز ساحة المعركة فيرى الجثث:

" راعه من رأى " بتربة " من هوْ   لِ فسحّت مدامع وطفاء
الذي ما بكى لمصرع " سعد "   وهو منه الضلوع والأحشاء
ساءه أن يقال إن " أبا تركي "   أفاضت شئونه البلواء
ذلك الليث هاله عدد القتلى   فألوى وفي الجفون بكاء ".

ولكن لماذا بكى ؟:

" كان عبد العزيز قيدوم حرب   لاعتيّاً هانت عليه الدماء
كان فوق الفتوح والنصر إنسا   ناً وفيه الى النجوم انتماء
فيه من همّة الأسود ومما   في الحنايا تكنّه الشعراء
من شعور ورحمة وصفاح   حجبتها المطامح الفيحاء
كشفت هذه المشاعر أرزاء   قضي من جرائها الأبرياء

فبكى سيّد الأسود " أبو تركي "　　　وأنّت لشجوه العلياء ".

ويقول الشاعر خالد الفرج عن تلك المعركة وهجوم جيش عبد العزيز على الأعداء:

" أجمعوا أمرهم أوان الأصيل
بهجوم فيه شفاء الغليل
وتنادوا كالرعد بالتهليل
حيث لاقوا كثيره بالقليل
ومجاري الدماء مثل السيول
يا لها ليلة لعزرائيل　　　ذاق بها الأمير طعم الصَّغار ".

وما أن علم عبد العزيز بأخبار المعركة، ويرى جثث القتلى، حيث يبكى على هؤلاء البائسين:

تمّ ذا والإمام بالجيش آتِ
فأتى للمكان بعد الفوات
حيث هالته كثرة الأموات
فبكاهم بذارف العبرات
واكتفى من عقاب تلك البغاة
وهو لو شاء أخذهم في غداة　　　لاقتفاهم بجيشه الجّرار ".

ويحدثنا الشاعر محمد بن بلهيد عن ذلك اليوم، فيقول:

" لعمري لنعم الحي في كل معرك　　　إذا اشتبكت بيض الظبا والعواليا
بيوم قد استظمى به السيف والقنا　　　فآبا وكل منهما كان راويا

ففازوا بدار للعدو عشية — فأضحت وواديها من الدم جاريا
هم هزموا من رام في نجد أنه — يهدّ من التوحيد ما كان ساميا
فتلك فتوح عزّ دين محمد — بها ومنار الشرك أصبح واهيا ".

ويقول في قصيدة أخرى حينما أسلم الشريف حسين جنده للهلاك:

" فأسلم للحيْن حين تورطوا — فصاروا نعالاً للكرام الأطايب
فأرووا حدود المرهفات من الدما — لدى وقعة جاء بشيب الذوائب
فمن نازلوا أهل الشريعة والتقى — إذا التقى الجمعان ليس بآيب ".

ويقول الشاعر محمد بن عثيمين عن قائد جيش الشريف في تلك المعركة:

" تركته وحده يمشي وفي يده — يعد المهند عكاز ومحجان
أمطرته عزمات لو قذفت بها — صَمّ الشوامخ أضحت وهي كثبان ".

ويخاطب الملك عبد العزيز ناصر الإسلام بنصر ذلك اليوم:

" ومشهد لك في الإسلام سوف ترى — يوفي به لك يوم الحشرْ ميزان
نحرْتَ هَدْيَكَ فيه المشركين ضحىً — فافخرْ ففخر سواك المعزوالضان".

المراجع

1 – اسماعيل حسين أبو زعنونة " صقر الصحراء في رياض الشعر والشعراء ". دار المعمر للطباعة والنشر والتوزيع. الرياض / السعودية 1993. ص 154 – 160.
2 – بولس سلامة " عيد الرياض " (ملحمة شعرية). ص 389 – 411.
3 – خالد الفرج " سيرة الملك عبد العزيز ". ص 96 – 98.

4 – محمد بن بلهيد " ابتسامات الأيام في انتصارات الإمام ". تحقيق د. محمد بن سعد حسين / السعودية. ص 36 – 42.

5 – محمد بن عثيمين " العقد الثمين من شعر محمد بن عثيمين " تحقيق: سعد بن عبد العزيز بن رويشد. ص 74 – 76.

معركــــة ترهونـــة

لقد كُتب على الشعب الليبي الأبيّ أن يخوض معارك الجهاد المقدس، وكانت عديدة وعنيفة، وسطّر المجاهدون الليبيّون أروع ملاحم البطولة والتضحية دفاعا عن أرضهم وحريتهم وكرامتهم. ومعركة " ترهونة " هي إحدى المعارك الحاسمة التي خاضها المجاهدون ضد الغزو الايطالي لبلادهم.

احتل الايطاليون " ترهونة " عقب معاهدة (أوشي لوزان) ودخلوها يوم 18 ديسمبر / كانون الأول 1912. وظلت حامياتهم تقيم بها إلى أن اندلعت الثورة في سنة 1915 في مناطق القبلة والجنوب ومنطقة " سرت "، فأدت إلى انهيار الاحتلال الايطالي في كافة المواقع الداخلية، نتيجة للهزيمة المنكرة التي أصيب بها الايطاليون في معركة " وادي مرسيط " ومعركة " ألقرضابية " (قصر أبو هادي). وقد ترتّب على ذلك محاصرة الحامية الايطالية في " ترهونة " مما دفع حكومة الولاية إلى محاولة إنقاذها، وفكّ الحصار عنها، وسحبها إلى الساحل. وعمدت القيادة إلى إعداد قوة كبيرة بقيادة الكولونيل " روستي "، في محاولة منها لدعم الحامية المذكورة، وتزويدها بالامدادات والتموين، بعد أن انقطع عليها سبيل الاتصال بالقواعد الرئيسية في الساحل. وقد خرجت هذه القوة الكبيرة من " العزيزية " يوم 12 مايو / أيار 1915، متجهة نحو " ترهونة ". ولكنها أوقفت في اليوم التالي (13 مايو 1915) عند وادي ملغا، واضطرها المجاهدون إلى الانسحاب، بعد أن كبدوها خسائر فادحة. وقد هبت لنجدتها قوة أخرى من " العزيزية " بقيادة الكولونيل " بيليا " الذي استطاع الوصول إلى ترهونة يوم 16 مايو 1915، إلا أن قافلة الامدادات لم تتمكن من اللحاق مباشرة بالقوة السابقة، وخرجت من العزيزية في يوم 17 مايو متجهة نحو " ترهونة ". غير أن المجاهدين أحاطوا بها في (سوق الأحد) وهاجموها فأبادوها وشتتوها وغنموا ما كان معها من الامدادات والمؤن. واضطر الايطاليون إلى تجريد قوة أخرى كبيرة، بقيادة الكولونيل " مونتي " لحراسة قافلة أخرى من الامدادات. ولكنها هوجمت هي الأخرى من قبل

المجاهدين الذين كانوا يترصدونها في منطقة (سيدي الوليد)، واضطرت إلى الانسحاب إلى العزيزية خوفا من المصير الذي واجه القوة السابقة.

وبعد أن فشلت كل المحاولات، للاتصال بترهونة عن هذا الطريق (طريق العزيزية) اتجه الايطاليون إلى محاولة توجيه قوة أخرى عن طريق القصبات، فوضعت كتيبة تحت قيادة الكولونيل (كاسينس)، ولكن هذه القوة أيضاً لم تستطع أن تبلغ أهدافها، بالنظر إلى المقاومة العنيفة التي لقيتها في المنطقة. وأبلغت القوة الايطالية في القصبات على شغل المجاهدين، وجرّهم إلى منطقة " الداوون "، أثناء المحاولة الجديدة التي ستقوم بها حامية ترهونة، للخروج من الحصار، متجهة إلى " عين زارة " عن طريق " سوق الأحد "، على أن تقوم القوة الايطالية في العزيزية وعين زارة بعمليات مماثلة للعملية المطلوبة من القوة الايطالية في القصبات.

وفي يوم 18 مايو / أيار 1915، تحركت الحامية المذكورة، بعد أن وفرت لها كل الضمانات. ولكنها ما كادت تبدأ الحركة حتى واجهت هجمات متتالية من المجاهدين الذين ألحقوا بها – حسب المصادر الايطالية وباعترافها – خسائر فادحة وفتكوا بجميع أفرادها. وقد ماتت في هذه المعركة (ماريا بريجنتي) التي أقام لها الايطاليون نصبا تذكاريا في قلب مدينة " ترهونة ". ولم تتمكن القوة العاملة تحت قيادة الكولونيل (كاسينس) من نجدة هذه الحامية خوفا من التعرض لنفس المصير، وقد ظلت تجوب المنطقة، ولم تتمكن من الرجوع إلى قواعدها في القصبات إلا يوم 20 مايو / أيار 1915.

ومنذ ذلك الحين لم يعد هناك وجود للايطاليين في " ترهونة "، شأنها في ذلك شأن مدن الدواخل، حتى أقيم بها في سنة 1919 مركز اتصال يمثله ضابط إيطالي. وذلك بعد الاتفاق الذي تمّ بين الوطنيين والايطاليين في تلك الفترة، ولكن لم يلبث أن سحب هذا الضابط في سنة 1921، بعد الموقف السياسي الجديد الذي اقتضى فيما بعد استئناف العمل الحربي بين الطرفين، ومحاولة ايطاليا في عهد " فولبي " استرداد المناطق الداخلية. وهنا تبدأ قصة أخرى وتاريخ آخر من الكفاح والنضال حول هذه المنطقة.

فبعد أن فرغ الايطاليون من احتلال الجبل في نطاق تلك الحملة المعروفة

اتجهت نيّتهم إلى احتلال " ترهونة "، واستعادة السيطرة عليها. وكانت ترهونة في هذه المرحلة مركز قيادة النضال الوطني. وأخذت القيادة الايطالية تعدّ لهذه الحملة منذ أواخر سنة 1922، وبدأت بالتمهيد لها بالمعركة التي جرت في " بئر أبازة " يوم 19 ديسمبر / كانون الأول 1922، حيث قام المجاهدون بمهاجمة الموقع باعتباره من المواقع الأمامية الايطالية التي قصد من إقامتها التمهيد للهجوم على " ترهونة ". وقد تمّ تشكيل قوة تتألف من ثلاث كتائب كبيرة تتحرك من طرابلس والعزيزية وغريان في حركة التفاف وتطويق طبقا للاستراتيجية الايطالية المتكررة في مثل هذه الحالات:

1 – قوات " بتساري " 3100 بندقية 300 فارساً 4 قطع مدفعية، قاعدة الانطلاق " تاجوراء "، ومسرح العمليات المنطقة الساحلية الشرقية حتى الخمس ثم القصبات.

2 – قوات " غراتسياني " 3700 بندقية 350 فارساً 4 قطع مدفعية، ونقطة الانطلاق " غريان " ومسرح العمليات المناطق الجنوبية من " ترهونة ".

3 – قوات " بيللي " 1400 بندقية 220 فارساً 4 قطع مدفعية. وقاعدة الانطلاق العزيزية، ومسرح العمليات المنطقة الواقعة بين العزيزية وترهونة.

وفي نطاق الدفاع عن " ترهونة " والمناطق المجاورة. وقعت المعارك التالية التي شلّت المناطق الساحلية والقصبات والعزيزية وجنوبي غريان:

1 – معركة سيدي أبو عرقوب	2 – 2 – 1923
2 – معركة سيدي الوليد	2 – 2 – 1923
3 – معركة ملغا	6 – 2 – 1923
4 – معركة سيدي الجيلاني	2 – 2 – 1923
5 – معركة المسفين	2 – 2 – 1923
6 – معركة مقلب الماء	3 – 2 – 1923
7 – معركة قصر الحجرة	4 – 2 – 1923
8 – معركة وادي الرمل	29 – 1 – 1923
9 – معركة قصر القربوللي	30 – 1 – 1923

10 – معركة فندق العلوص 1 – 2 – 1923

11 – معركة فندق النقازة 1 – 2 – 1923

12 – معركة سيدي الخمري 4 – 2 – 1923

13 – معركة القصبات 6 – 2 – 1923

14 – معركة جبل مسد وقصر الداوون 6 – 2 – 1923

هذا عدا الاشتباكات والمناوشات والمعارك الجانبية الصغيرة التي أغفلها التاريخ.

وقد استولى الايطاليّون على " ترهونة " عند الساعة السادسة من يوم 6 فبراير / شباط 1923.

وبسقوط " ترهونة " أصيبت حركة الجهاد في المناطق الغربية من ليبيا بضربة عنيفة قاسية.

المراجع

1 – محمد خليفة التليسي " معجم معارك الجهاد ". ص 189 – 193.

2 – مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الايطالي. طرابلس / ليبيا. شريط خاص بهذه المعركة.

معركــة تـل الفخــار

تعمّد المستعمرون على اختلاف أجناسهم ولغاتهم وأديانهم، طمس تاريخنا العربي، وبذلوا قصارى جهودهم لتحقيق هذه الغاية. كما أغفل ذلـك كثـيرون مـن أسـاتذتنا ومثقفينـا العرب – بقصد أو عن غير قصد – فنما أطفالنا بلا وعي قومي، جاهلين تاريخهم وتراثهم الحقيقي. وكم من آلاف الصفحات في التـاريخ تراكمـت لتحشـو دمـاغ ناشئتنا، بمـا دبّجتـه أقلام الغربيين عن تاريخنا وحضارتنا. بينما الكثير من قرانا ومدننا ومآثرنا ما وقف يومـاً على عتبة التاريخ، بل دخله وشهد عليه شهادة حـق وإيمـان وعـزّة. وليسـت معركـة " تـل الفخار " التي خاضها صلاح الدين الأيوبي مع الفرنجة الصليبيين، بعد عامين مـن معركـة حطين، وبالتحديد في الرابع من شهر تشرين الأول 1189، (والمعروفة بمعركـة تشـرين)، سوى صفحة مشـرقة مـن سـجل التـاريخ العربـي الزاخـر بالانتصـارات، كمـا بـالهزائم والنكسات.

فبعد معركـة حطيـن بأسـبوع، دخـل السلطان النـاصر صـلاح الديـن بـن يوسـف الأيوبي عكا – في 13 تموز 1187 – مخترقاً الجليل، مروراً بشفا عمرو ليقفل السـواحل حذو غزو جديد. لكن السلطان لم يكمل خطته، فتوجه إلى القدس، متخلّيا عـن صـور التـي أمست قاعدة، انطلق منها الغزاة الفرنجة لحصار عكا (27 آب 1189)... وبدأت عندئذ الحملة الصليبية الثالثة بقيادة الملك الانجليزي ريتشارد الأول (ريكاردوس قلب الأسد)، والملك الفرنسي فيليب هنري.

ربض السـلطان فـي شـفا عمـرو خـلال حصـار دام سنتين، فـأصبحت تلـك البلـدة المغمورة عاصمة الدنيا، ومحط أنظار العالم. تـرك السلطان دمشـق، لا يتخلـى عـن عكـا لينبّه الحلفاء إلى خطر الحصار، وعواقب سقوط عكا. أراد اقتـلاع نـواة المحـاصرين قبـل استفحال أمرها، لكن حلفاءه لم يؤمنوا بالجهاد، كما آمن به من قبل نور الدين زنكي، قاهر الافرنج في الرّها، وصـلاح الديـن محـرّر القـدس والبـلاد، فتقاعسـوا وتخـاذلوا، ورضيـوا بمناوشات ومعارك لم تستأصل المحاصرين. لقد خاف الحلفـاء بعضهـم، أكـثر ممـا خـافوا

عدوّهم، وعصيوا الأوامر، كما يشهد أمين سرّ السلطان، القاضي بهاء الدين بن شدّاد، (صاحب سيرة صلاح الدين الأيوبي: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية)، وكذلك دائرة المعارف الإسلامية التي سجّلت ذلك، فخسروا السلطة والبلاد. ولم يُسعد السلطان كون صحته في تدهور مستمر.

أراد صلاح الدين حرباً سريعة وصريحة، خوفاً من حصار لا يطيقه حلفاؤه. أما الافرنج فاختاروا المماطلة والمراوغة، حتى تصل طلائع المدد من الغرب... اختاروا حفر الخنادق، واستعمال الآلات لهدم الأسوار... وهكذا سعوا إلى تجنّب معارك حاسمة مع السلطان. فسقطت عكا بعد سنتين، لكن صلاح الدين استطاع ردّ ريكاردوس قلب الأسد عن القدس، وتم صلح الرملة في 12 أيلول 1192.

أقام السلطان على تلال جبل " الخرّوبية أو الخرّوبة " المنيعة والمشرفة على عكا، سهلاً وبحراً. كما امتد معسكره من الخرّوبة مروراً بمنطقة نهر النعامين وسهل عكا إلى تل كيسان. وقد كان " تل العيّاضيّة " أيضاً محور التجمّع خلال الحصار، وعليه أقام السلطان مدة، مشرفاً بذلك على النعامين جنوباً، والبحر شمالاً غرباً، وتل الفخّار أمامه، حيث يسمى أيضاً " تل المُصلّين " و " تل عكا " وسماه الافرنج " تورون Turon " وعليه أقام الملك " غي دو لوزينيان " الذي أسره صلاح الدين في معركة حطين ثم أطلق سراحه في سنة 1188، شرط أن يتخلى عن الحرب. ويبعد تل الفخار عن سور عكا كيلو متراً وربع الكيلو متر، وعلوه (30) ثلاثون متراً.

حين اقام " غي دو لوزينيان " على تل الفخار لم يكن الحصار كاملاً، لكن عندما تكاثروا وأحكموا قبضتهم حول السور، من البحر إلى النهر، قرّر الملك " غي " مواجهة صلاح الدين، فكانت معركة 4 تشرين الأول سنة 1189، وهي المعركة الوحيدة الكبيرة خلال سنتين من المواجهة بعد معركة حطين.

تجمّع الصليبيون حول تل الفخار، في قوس طوله ميلان، قوامه أربع مجموعات مشاة وخلفهم الخيّالة. وكان على رأسهم الملك " غي " ومعه الفرنسيين في الميمنة. وكونراد مونتفرات " Montufrat " ومعه الطليان، ثم الالمان، والعبّاد برئاسة جيرارد رايدفورذ. بينما بقي في المخيّم على التل، جفري (أخ الملك) يحرس المخيم ويرقب

السور من الشرق فقط.

الحشد الصليبي يتطلع شمالاً شرقاً إلى قلب معسكر صلاح الدين في العيّاضيّة حيث خيمته مرئية. كونراد مونتْفْرات يواجه قلب تجمّع السلطان على بعد ميلين.

ردّ صلاح الدين بقوس أكبر طوله ثلاثة أميال، فرتّب العسكر كما يلي:

تقي الدين (الملك المظفر ابن أخ السلطان وصاحب ثقته): شمالاً في ميمنة السلطان يواجه العبّاد، ويتحكم في البحر.

صلاح الدين: في القلب مع ابنه عند العيّاضيّة، ومعه ديار بكر.

جيش مصر والأكراد: في الميسرة عند كيسان وإلى نهر النعامين ومستنقعاته.

تجمّع الصليبيون وواجههم صلاح الدين. حين نزل الصليبيون من تل الفخار وانتشروا في السهل ليواجهوا خط صلاح الدين، اضطرت مجموعاتهم الأربع الى الابتعاد عن بعضها، فانفصل قلب معسكرهم عن جناحيهم، مما جعلهم فريسة استفردها السلطان صلاح الدين بما عرف عنه من سرعة الحركة. حظّهم الوحيد في الثبوت حفظهم سداً منيعاً، لكنهم خسروه.

بدأ العبّاد في الميسرة بالهجوم على ميمنة صلاح الدين، حيث المحنّك والشجاع الملك المظفر تقي الدين، الذي اعتمد دائماً التراجع ليستدرج العدو. جزع صلاح الدين وظنّه تقهقراً، فأنجده، وهو الذي يحب تقي الدين حباً عظيماً.

إسراع صلاح الدين لنجدة تقي الدين أضعف القلب. فاستغل ذلك كونراد وتوغلّ الى رأس تل العيّاضيّة ودخل خيمة السلطان. لكنه لم يجد إلا حراساً ثلاثة فقتلهم، ثم أعمل جنده نهباً وسلباً، بدلاً من الاسراع لمهاجمة ميمنة صلاح الدين، الذي كان بعيداً عن ميمنته، لانهماكه بتقي الدين.

وبينما كان جند كونراد يتهافتون على السلب والنهب، كان العبّاد ورئيسهم جيرارد يتراجعون أمام تقي الدين وصلاح الدين، ولجأوا إلى تل قريب يتجمعون. خلال تجمّع العبّاد، خرجت حامية عكا القوية بخمسة آلاف جندي من البوابة الشمالية لعكا، وأحاطت بهم، فكانت ضربة قاضية، أهلكت الرئيس جيرارد وخمسين من الفرسان. ولقد استطاعت الحامية الخروج لأن المجموعات الصليبية ركزّت هجومها إلى الشرق وأهملت ما بين تل

الفخار والبحر – مسافة ثلاثة كيلو مترات تقريبا _

حين اطمأن السلطان إلى ميمنته، أسرع الى العيّاضيّة، فرأى كونراد وجماعته ينسحبون من التل متقلين بما سرقوه، ويتراجعون شراذم، غافلين عن حفظ " خط الرجعة ". أرادت جماعة صلاح الدين مواجهتهم، فاستمهلهم متربّصاً عند السفح الغربي من التل، ثمّ انقضّ عليهم، وكاد يأسر كونراد، لولا أن أسرعت مجموعة الملك " غي " وأنقذته، وفرّوا جميعاً نحو المخيم، الذي خرج منه أخ الملك – جفري – لإغاثة فلول الهاربين. توقف صلاح الدين عند حدود تل الفخّار ولم يكمل هجومه. وفي هذا الاطار، يقول الخبير العسكري " شارلز أومان " : " ... وانتزع صلاح الدين نصراً من بين فكيّ الهزيمة... ". وقدّر الخبير أن القتلى من جيش صلاح الدين ألف وخمسمائة، بينما بلغت ضحايا الإفرنج سبعة آلاف.

لقد اجتمعت، ما بين التلال وأسوار عكا، ملوك الشرق والغرب والأعيان، وجيوشهم. الافرنج تأتي من البحر مثل أمواجه العارمة، والعرب يردّون برجال، رآها الغرب مثل رمال الصحارى وإعصارها. وهكذا بدأ في صيف 1189 صراع بطيء، فيه حرب من كل ضرب. الافرنج يهجمون بآلات تدك الأسوار، وصلاح الدين يقذفهم بالنِّفّات (النار اليونانية) التي أجاد العرب استعمالها. وهي آلات تشبه المدفع البدائي. لم تكن حرباً كما أرادها السلطان، وما كان المعسكر تجّمعاً حربياً خالصاً.

أصبح المعسكران مدينتين أو مملكتين من الخيم الفخمة للأمراء والأعيان، وثكنات من قماش للجند والشعب. الرايات ألوان، وأعلاها الراية الصفراء، راية السلطان. المدينتان تعجّان بالرجال والنساء والأطفال والحيوان، فيهما المعابد والمجالس لطلاب العلم والأدب... العالم كله محصور بين عكا وشفاعمرو، وغيرهما نسياً منسيّاً. لم تدمّر الحرب وأحقاد البشر ما في الانسان من عواطف، إذ كان الأعداء ينقلبون أصدقاء بعد المعركة، وسمّاراً يتبادلون الهدايا، بعد أن كانت الحراب تحكم بينهم. ولقد سمح السلطان للفرنجة، بارتياد أسواق شفاعمرو، يشترون ما يريدون.

أحبّ الافرنج خصومهم، فقال راوية ريتشارد: " ... لو كان العرب من الدين الصحيح لما كان في العالم كُله خير منهم... ولما فاقهم أُحد... ولا بد من الإطناب

والاعجاب بشجاعتهم، وشهامتهم... كانوا حقاً شرفاً لأمّتهم... ".

ويبدو أن صلاح الدين أعجب بالملك ريتشارد – قلب الأسد – كما يظهر من ردّ السلطان على كتاب جاءه من ريتشارد، يقول هذا فيه: " ... انها هدنة لثلاث سنوات... سأعود بعدها لاسترجاع القدس... "، فردّ عليه السلطان " ... إذا قدّر للقدس أن تسقط... فليكن ذلك على يديك... ".

ولعل رواية شاهد العيان، القاضي بهاء الدين المعروف بابن شداد، وصاحب السّر عند السلطان صلاح الدين، تعتبر من أصدق الروايات في وصف وقعة تل الفخار، فيقول:

" خلال صيف 1189، كان صلاح الدين في مرجعيون (لبنان) يراقب صور وقلعة الشقيف (بوفور Beaufort) اللتين أعجزتاه. لما علم صلاح الدين بخروج الافرنج من صور على عكا (27 آب) أدرك السلطان خطر خروجهم فرحل سريعاً، سائراً ليلاً نهاراً من خلال الطريق الداخلي (بدلاً من الساحل) مروراً بالحولة وطبرية وكفر كنا وصفورية وشفاعمرو. بعد ثلاثة أيام كان السلطان على جبل الخرّوبة، يشرف على عكا في 29 آب 1189، لكن " غي دو لوزينيان " ملك القدس الذي أطلق سراحه صلاح الدين في حطين، كان على تل الفخّار أو المُصلّين (Turon) قبل ذلك بيومين. وفي أول أيلول جاءت سفينة تحمل للغزاة مؤونة ورجالاً وعتاداً.

يقول القاضي بهاء الدين بن شداد: " بَلَغَنَا ان الافرنج بصور مع الملك " غي " قد ساروا يريدون جهة عكا... ولما بلغ السلطان... عظم عليه ولم ير المسارعة خوفاً من أن يكون قصدهم (الفرنجة) ترحيله من الشقيف... فأقام مستكشفاً... وصل قاصد أن الافرنج نزلوا عين بّصة ووصل أوائلهم إلى الزيب... ". كان صلاح الدين أسر الملك " غي دو لوزينيان " في حطين، إنما أطلق سراحه سنة 1188 شرط أن يتخلى عن الحرب. نكث بوعده فجمع 700 فارس و 9000 مشاة. أدرك السلطان خطر الزحف، فسيّر الرسل إلى الحلفاء والخليفة في بغداد يحرضهم على القتال، ثم رحل بسرعة مذهلة، كما يروي القاضي: " وتقدم السلطان إلى الثقل (العتاد) أن سار بالليل، ,اصبح هو صبيحة الثالث عشر سائراً الى عكا عن طريق طبرية... أتينا الحولة منتصف النهار،

فنزل فيها ساعة، ثم رحل وسار طول الليل... (والتقى بعسكره الآخر، الذي سار قبله، في مرج صفورية)... ولم يزل، حتى شارف العدو من الخرّوبة في خامس عشر الشهر...

وسار منها حتى أتى تل كيسان، في أوائل مرج عكا... وأمر الناس أن ينزلوا به... وكان آخر المسيرة على طرف النهر الحلو (النعامين)... وخيمة ملكهم على تل المصلّين (الفخّار Mount Turon)، قريباً من باب البلد ".

اختار السلطان طريقاً داخلياً بالرغم من طوله وقطعه في يومين (وهذا تقليد لخطة خالد بن الوليد في طريقه من العراق إلى الشام قبل معركة اليرموك)، ليتجنّب الطرق الساحلية. وصل السلطان في 29 آب سنة 1189، فقرّر الحرب رأساً، لأن العدو أقفل عكا...

" ... لما تكاثروا واستفحل أمرهم، استداروا بعكا بحيث منعوا الدخول والخروج منها... ولما رأى السلطان ذلك عظم لديه... فأحضر أمراءه... وشاورهم في مضايقة القوم... مضايقة شديدة، بحيث ينفصل أمرهم بالكلية، ويفتح الباب والطريق إلى عكا... فباكرهم، وأنفذ السلطان طائفة... إلى البحر من شمالي عكا ولم يكن هناك خيم للعدو... وهجم المسلمون... وانفتح الطريق إلى عكا من باب القلعة المسمّاة بقلعة الملك... ودخل السلطان عكا... ثم رأى السلطان السلطان توسيع الدائرة عليهم، فنقل الثقل إلى تل العيّاضيّة... قبالة تل المصلّين... ".

واستطاع صلاح الدين الاتصال بحاميته، وكان تقي الدين على رأس العسكر الذي اخترق الحصار، وفتح الطريق من شمالي عكا. دخل مع السلطان وتسلّقا الأسوار " وشاهدوا ما لم يكن يعجبهما... لذلك ارتأى صلاح الدين توسيع الدائرة عليهم... ". لكن حلفاء السلطان أصروا على استخفافهم بالعدو، فلم يطاوعوه بهجوم مباشر، وترسخت نواة المحاصرين، وقامت صداقات بين الأعداء، كما يقول القاضي.

ويروي بهاء الدين بن شداد قائلاً" موقعة تشرين (4 تشرين الأول 1189) هي المعركة الوحيدة ذات الشأن في الحصار. لكن الحلفاء لم يطاوعوا السلطان الذي أرادَ اتباع المعركة بثانية ليحسم الأمر، فلم يَخِفْ خطر الحصار، ولا ضعفت شوكة

المحاصرين... وتقسمت قوى الفريقين استعداداً للمعركة التي بدأها الافرنج بالهجوم على الميمنة، بعد الشروق بأربع ساعات.

" ... ولم يزل القوم يتقدمون، والمسلمون يتقدمون، حتى علا النهار ومضى فيه مقدار أربع ساعات، وعند ذلك تحركت ميسرة العدو على ميمنة المسلمين... وتكاثروا على الملك المظفر (تقي الدين)، فتراجع عنهم شيئاً، إطماعاً لهم لعلّهم يبتعدون عن أصحابهم... ".

" فلما رأى السلطان ذلك ظن به ضعفاً، وأمدّه حتى قوي جانبه، وتراجعت ميسرة العدو واجتمعت على تل مشرف على البحر ".

" ولما رأى الذين في مقابلة القلب ضعف القلب ومن خرج منه، داخلهم الطمع، وحملوا حملة الرجل الواحد على الديار البكرية، وانكسرت جماعة صلاح الدين في القلب كسرة عظيمة... واتّبع العدو المنهزمين إلى تل العيّاضيّة. استداروا حول التل، وصعدت طائفة من العدو إلى خيمة السلطان، لكن العدو لم يجد إلا ثلاثة اشخاص فقتلهم.

ولما رأى كونراد أن ميسرة صلاح الدين ما زالت سليمة وثابتة، أسرع نزولاً من التل. الانهيار المادي والمعنوي لمعسكر صلاح الدين في القلب سبّب فزعاً شديداً، جعل الجند يهربون... لكن السلطان استطاع بشخصه وايمانه، ان يقلب الهزيمة إلى نصر عظيم، " ان ينتزع النصر انتزاعاً من بين فكيّ الهزيمة "، عندما " أخذ يطوف ويحث جماعته على الجهاد... ولم يبق معه إلا خمسة أنفس... يخرق الصفوف ويأوي الى تحت التل. يجمع الناس ليعودوا إلى الحملة على العدو. فلما رأوا الافرنج نازلين من التل أرادوا لقاءهم، فأمرهم بالصبر إلى أن ولّوا ظهورهم... فصاح في الناس، وتحركت الميسرة... وعاد الملك المظفر بجمعه من الميمنة، وتجمعت الرجال، فهجم المسلمون عليهم في الخيام (داخل معسكر الافرنج)... رجع الناس عنهم بعد صلاة العصر إلى خيامهم فرحين مسرورين... ".

وبعد تجميع ما تيسّر من العسكر، أراد صلاح الدين متابعة المعركة، ولا سيّما ان العدو قد تضعضع. خطب في الحلفاء قائلاً: " لاحت لوائح النصر على العدو... وقد بقي في هذا الجمع اليسير، ولا بد من الاهتمام بقلعه، والله قد أوجب علينا ذلك... وليس

وراءنا نجدة سوى الملك العادل، وهو واصل... وهذا العدو إن بقي وطال أمره إلى أن ينفتح البحر، جاء مدد عظيم، والرأي كل الرأي عند مناجزتهم " (أي محاربتهم).ومن المؤسف ان الحلفاء لم يوافقوا السلطان على تقويمه لخطر الافرنج فاختلقوا الأعذار، مما فوّت عليهم فرصة النصر النهائي على هؤلاء الغزاة واقتلاعهم من الجذور. فكان ذلك سبباً في إحياء وجودهم في أرضنا لمدة مئة سنة أخرى ونيّف.

من هنا نستطيع القول، انه إذا كانت معركة حطين " ملكة " في تاريخ معارك العرب والمسلمين، فان معركة " تشرين " أو " تل الفخّار " هي " تاج " هذه الملكة. ولكن الحكام العرب والمسلمين والملوك والأمراء والأعيان، عجزوا عن الحفاظ والاحتفاظ بالملكة والتاج، ففرّطوا بهما، تماماً كما يفرّط الجهلة بنعمة لا يستحقونها... فانقلبت النعمة إلى نقمة... وما أشبه الليلة بالبارحة...

المراجع

1 – القاضي بهاء الدين بن شداد: " سيرة صلاح الدين الأيوبي – النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ".

2 – الدكتور ابراهيم فريد الدر " شفاعمرو / فسطاط السلطان صلاح الدين الأيوبي ". مؤسسة الأبحاث العربية. بيروت الطبعة الأولى 1988. ص 135 – 157.

3 – سعيد أحمد برجاوي " الحروب الصليبية في المشرق " دار الآفاق الجديدة. بيروت الطبعة الأولى 1984. ص 414 – 418.

معركـــة التل الكبير
في مصر سنة 1882

إذا كان قياسنا حكيماً على الرجال العظام، فان من أولى واجباتنا أن لا نظلم أحداً من رجالات أمتنا العربية، بل نضع كلّ واحدٍ منهم في موضعه الحقيقي.

على هذا الاساس، تنتصب قامة أحد الرجال من رجالاتنا، وهو " أحمد عرابي " في مصر، الذي يعتبر جندياً عربياً ثائراً بحق في سبيل العدالة والوطن والأمة، معتمداً مع السلاح قوة الفكر، متّخذا من الأئمّة والمفكرين أعمدة لحركته، مقاتلاً التسلّط والسلطة المستبدّة، ومقاتلاً الاستعمار البريطاني. وفوق كل ذلك، فقد كان القائد الذي يتقدم جنوده بايمان المخلصين وجرأة المؤمنين... ولم تكن معركة " التل الكبير " سنة 1882 سوى إحدى النجوم المتلألئة في سماء مصر العروبة رغم الخسارة التي مني بها الجيش المصري وأبناء مصر الميامين فيها.

يقع " التل الكبير " على الضفة اليسرى لترعة الاسماعيلية بمصر، بين الصالحية والقصاصين، ويرتفع ثلاثين متراً عن خط السكة الحديدية عند المحطة المسمّاة باسمه " محطة التلّ الكبير "، وعليه جرت الوقعة الحاسمة بين جيش الاحتلال الانكليزي بقيادة الجنرال " ولسلي " (Welsely) وبين الجيش المصري وحلفائه من رجال الثورة العرابية بقيادة الزعيم أحمد عرابي، وذلك في 13 أيلول / سبتمبر / سنة 1882، في عهد "خديوي توفيق.

كانت هزيمة الجيش المصري في وقعة القصاصين الثانية في 9 أيلول 1882 ضربة قاصمة للمصريين ولرجال الثورة العرابية، إذ ارتدّ هذا الجيش بعدها الى آخر مواقعه الدفاعية الرئيسية في " التل الكبير "، واتضح أن هذه المواقع أصبحت هدفاً رئيساً لهجوم انكليزي كبير، وان سقوطها في يد الانكليز يعني سقوط مصر كلها بأيديهم.

كان الجيش المصري المتمركز في التل الكبير – حسب تقدير الجنرال ولسلي – مؤلفاً من 24 طابوراً (سرايا) من المشاة و3 آلايات (أفواج) من الفرسان، وستة

آلاف من البدو، مع عدد من المدافع من مختلف العيارات يتراوح بين 60 و 70 مدفعاً، بالاضافة إلى أورطتين (كتيبتين) من الألاي (الفوج) المرابط بمريوط، وصلتا إلى الموقع قبل بدء القتال بيوم واحد (في 12 أيلول) برفقة علي باشا الروبي قائد موقع مريوط، الذي استدعاه عرابي ليسلّمه – على وجه السرعة – أمر الدفاع عن التلّ الكبير، بعد اصابة القائد العام للجيش الفريق " راشد باشا حسي " في وقعة القصاصين الثانية. وقدّر المستر " بلنت " (Blent) – وهو زعيم انكليزي كان صديقاً لأحمد عرابي – عدد الجيش النظامي المصري في موقع التل الكبير بما يراوح بين 10 و 12 ألف مقاتل. واشترك مع هذا الجيش في الدفاع عن الموقع عدد كبير من الجنود الأغرار الذين لم يسبق لهم ان استعملوا السلاح أو حملوا البنادق.

أما الجيش الانكليزي المهاجم، بقيادة الجنرال ولسلي، فقدّر بـ 11 ألف مقاتل من المشاة، وألفين من الفرسان، مع ستين مدفعاً من مختلف العيارات.

كانت المسافة بين القصاصين، حيث جرت آخر معركة مع الجيش المصري، وبين التل الكبير، خمسة عشر كيلو متراً، كان على الجنرال الانكليزي ولسلي أن يقطعها بسرّية تامة كي يفاجئ المصريين في مواقعهم، فعمد إلى قطع هذه المسافة بليلة 12 – 13 أيلول / سبتمبر /. وما كاد فجر13. أيلول ينبلج، حتى كانت قوات ولسلي تشرف عل مواقع الجيش المصري في التل الكبير. وكان من حسن حظ الجيش الانكليزي أنه لم يصادف في أثناء تقدمه أية طليعة من طلائع الجيش المصري كي تقوم على الأقل بمهمة إنذار القوى المتمركزة في خطوط الدفاع، باستثناء احدى الطلائع، وهي من الخيّالة، ظلت تتقهقر أمام القوات المهاجمة بدلاً من أن تصمد في وجهها فتقاتلها لتعرقل تقدمها ريثما تستعد المواقع الصديقة للدفاع. وهكذا تمكنت القوات الانكليزية من الوصول الى مسافة قريبة جداً من المواقع المصرية، دون ان يتمكن المصريون من أخذ وضع التأهب للدفاع. وقبل أن تبلغ الساعة الخامسة صباحاً كان الجيش الانكليزي ينقضّ على المواقع المصرية وقد اتخذ تشكيلاً نصف دائري بحيث أحاط بمواقع المصريين كافة فاحتضنها وأخذ يهاجمها مخترقاً الاستحكامات الأمامية. وكانت المفاجأة تامة وشديدة، بحيث لم يتمكن خط الدفاع الأول حتى استعمال السلاح تقريباً، فقتل منه في الهجمة

الأولى نحو مائتين من المدافعين، واحتل الانكليز خط الدفاع الأول بسرعة ثم انقضوا على خط الدفاع الثاني، وكان المدافعون عنه لم يستفيقوا بعد من هول المفاجأة، فسقط الخط الثاني كذلك في أيدي المهاجمين الذين لم يتورعوا عن القضاء على كل ما صادفوه في خنادق الدفاع من المصريين، بينما قامت خيالتهم بقيادة الجنرال " دروري لو " بمهاجمة محطة التل الكبير (على ميسرة الجيش المصري) فاحتلتها.

واستبسل، رغم ذلك، عدد كبير من المصريين في القتال، فاستبسل الأميرالاي محمد بك عبيد الذي كان يقود ألايين (فوجين) من السودانيين فقاتل حتى استشهد هو ومعظم رجاله، واستبسل كذلك أحمد بك فرح وعبد القادر بك عبد الصمد، وكان كل منهما يقود ألايا (فوجاً) من المشاة. واستبسل اليوزباشي حسن أفندي رضوان، وكان قائداً للمدفعية، إذ أنه، رغم ما أصيبت به وحدات الجيش من ذعر وتضعضع في أثناء القتال بسبب المفاجأة، لم تكف مدفعيته عن قصف العدو قصفاً مباشراً وكثيفاً أنزل به خسائر فادحة. وكان هذا القائد يجول بين المدافع يعطي أوامره بإطلاق النار بجرأة وبأس شديدين، وظل كذلك حتى سقط في المعركة جريحاً، مما جعل القائد الانكليزي المنتصر ولسلي، يعجب ببسالته وشجاعته فيترك له سيفه احتراماً وتقديراً.

ويروي أحمد عرابي في مذكراته ان معظم المقاتلين المصريين قد ركنوا إلى الفرار في بدء القتال دون أن يقاتلوا ودون أن يتمكن من ردّهم إلى ساحة المعركة، إذ ألقوا بأنفسهم في الترعة وسبحوا إلى البر الغربي. ويؤكد عبد الرحمن الرافعي ذلك في كتابه (الزعيم أحمد عرابي) بقوله: " ان من بقي في ساحة القتال من المصريين لم يزد عن ثلاثة آلاف مقاتل أما الباقون فقد تولاّهم الذعر فألقوا بأسلحتهم ولاذوا بالفرار ".

وقد قدّرت خسائر المصريين في هذه المعركة بما يراوح بين 1500 و 2000 قتيل. أما خسائر الانكليز فكانت 57 قتيلاً بينهم 9 ضباط، و 402 جرحى بينهم 27 ضابطاً. وقد غنم الانكليز جميع مدافع الجيش المصري وذخائره ومؤنه وعتاده.

وبالرغم من هذه الخسارة الفادحة في معركة " التل الكبير "، فاننا نؤمن ان انتصار القضية ليست مسألة هزيمة جيش أو انتصاره في معركة أو معارك، بل هي عملية استمرار المبادئ التي تعتنقها الأمة وتدين بها... ومبادئ الثائر أحمد عرابي لا

تزال حيّة في النفوس، تفعل فعلها بكل قوة وحيوية، وهي ذاتها التي انتصرت في شخصية ثوار 23 يوليو / تموز سنة 1952، وكذلك في حرب أكتوبر سنة 1973.

وكذلك، يبقى الزعيم أحمد عرابي صورة حيّة عن الرجال الذين يخرجون من أعماق التربة العربية... من الريف والصعيد والقرى النائية يحملون بكل أمانة مطالب أمتهم ويحاولون تحقيقها، وقد ينجحون وقد يتحكم الفشل في حركتهم... ولكن حوافزهم تبقى في الحكم...

أخيراً، نستطيع القول، أن أحمد عرابي مات بالجسد فقط، لكن روحه الشعلة الخالدة تحولت إلى شعلٍ صغيرة توزعت على نفوس العرب في كل زمان وفي كل مكان من أرضهم الملتهبة. لذلك سيبقى عرابي حيّاً بأرثه الموزّع في نفوس الأجيال التي لحقت به من ابناء الأمة العربية، حيث أن الثلج مهما تراكم على فوهة البركان الغافي، لا بدّ أن ينسفه البركان حينما يستيقظ ويقذف حممه منفثاً كل ناره وثورته...

المراجع

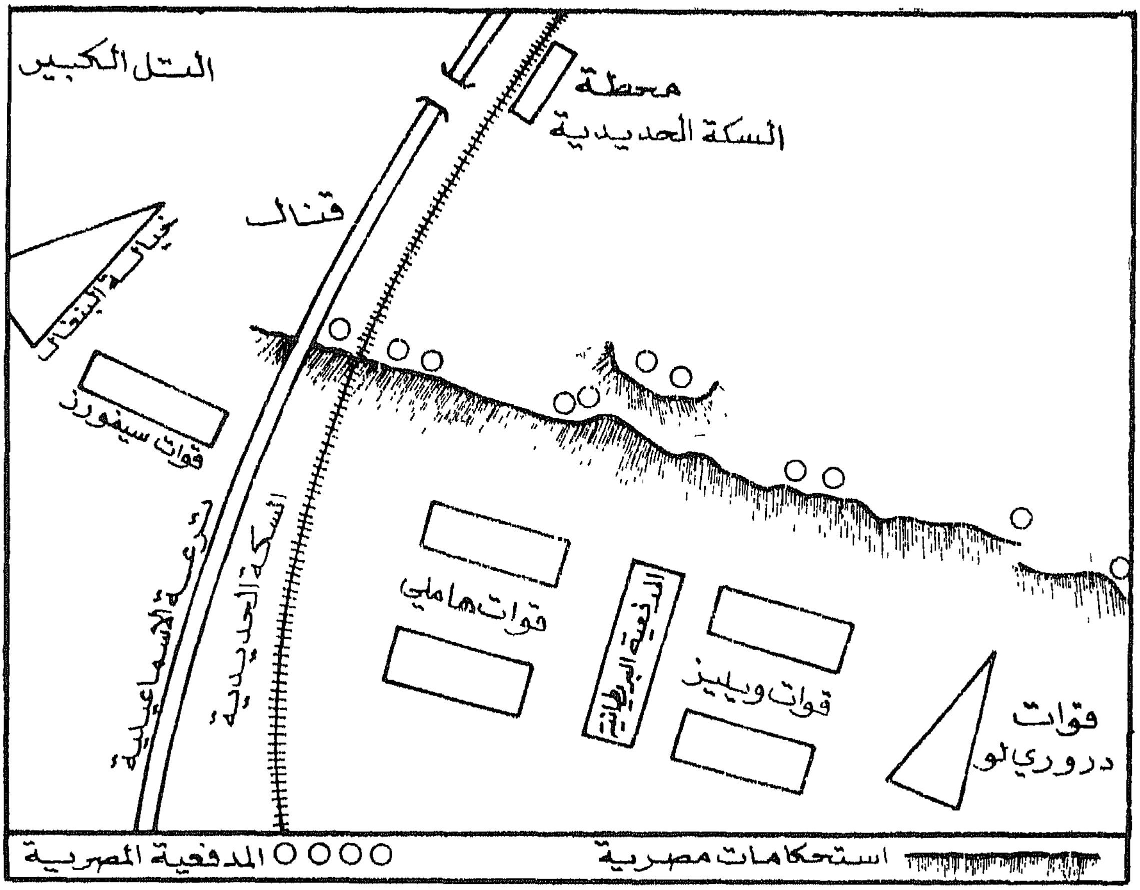
1 - احمد عرابي - سلسلة أبطال العرب رقم 15 - دار العودة. بيروت. الطبعة الأولى 1976. (تأليف مجموعة من الباحثين).

2 - الموسوعة العسكرية. الجزء الأول. باشراف المقدم الهيثم الأيوبي. المؤسسة العربية للدراسات والنشر. بيروت. الطبعة الأولى 1977. ص 304 - 305.

3 - مذكرات أحمد عرابي باشا.

4 - عبد الرحمن الرافعي " الزعيم أحمد عرابي " القاهرة. دون تاريخ.

5 - أحمد عرابي باشا. سلسلة كتاب الهلال. مصر. د . ت.



معركة التل الكبير 1882

المرجع: الموسوعة العسكرية. الجزء الأول. ص 304.

معركـــة تل النيرب

(آذار 1962)

هي إحدى أهم معارك المواجهة المحدودة التي جرت بين القوات العربية السورية والقوات الإسرائيلية ليلة 16 – 17 آذار 1962. كما تعتبر أيضاً استمراراً للاشتباكات المتتالية التي كانت تقع على الحدود، والتي كان الصهاينة يهدفون من ورائها الى الاستيلاء على المناطق المجردة الفاصلة بين الطرفين بموجب اتفاقية الهدنة عام 1949، وضمان استمرار الأعمال الخاصة بتحويل مياه الأردن بعد تحطيم قدرة الردع العربية.

بدأت القوات الإسرائيلية التمهيد لمعركة تل النيرب منذ الأيام الأولى من شهر آذار 1962... وقد بدأت الزوارق العسكرية الاسرائيلية المسلحة في بحيرة طبرية تقترب من الشواطئ السورية الى الشرق، وكانت الأوامر الدائمة لدى المخافر السورية ان تطلق النار على كل زورق اسرئيلي يقترب من الشاطئ السوري مسافة مائتي متر، وكان لا يمضي يوم أو يومان الا وتطلق القوات السورية النار على زورق اسرائيلي يتجاوز الخط الذي ينبغي أن يتقدم بعده. ولقد وعت القيادة العسكرية السورية ان الصهاينة يدبرون اعتداء على الحدود، وان هذا الاعتداء سينفذ بقوات كبيرة، لأهداف عسكرية وسياسية واقتصادية. ولقد أفاد الرصد السوري المستمر ان هناك نشاطاً غير عادي لآليات العدو في الأرض المحتلة، وأكد شكوك السوريين ازدياد نشاط الاستطلاع الاسرائيلي باطلاق التصريحات والتهديدات، والتلويح باستعمال القوة، بالإضافة الى إخلاء سكان المستعمرات القريبة من الساحل الجنوبي الشرقي، والجنوبي الغربي لبحيرة طبرية. وكان من الواضح للقيادة العسكرية السورية، ان القطاع الذي سيقع عليه الهجوم هو منطقة البطيحة (وتشمل مخافر الحاصل العسكري) والمسعدية، والدوكا، والكرسي، والنقيب السورية)، بالإضافة الى تل الأعور الذي كانت فيه قيادة كتيبة الحرس الوطني الأولى. وقد قدر ان قوات العدو التي ستقوم بالهجوم لن تقل عن كتيبتي مشاة (كل كتيبة مشاة تعد 600 فرداً حسب ملاكات الجيش الاسرائيلي) معززة بعناصر من المغاوير وبقوات من سلاح

المهندسين ومدعمة بالآليات المدرعة والدبابات والمدفعية، وان الزوارق المسلحة ستشترك بالعملية، إما بالانزال أو باطلاق النار على المخافر السورية لمشاغلتها وابعاد انتباهها عن الاتجاه الحقيقي للهجوم. وقد اعتبرت القيادة العسكرية السورية ان هدف الهجوم تدمير المخافر التي تسببت في اعطاب عدد من الزوارق المسلحة خلال الأيام التي سبقت الإعداد للهجوم، واحتلال منطقة البطيحة والتمركز فيها لفرض شروط حرية العمل في مشروع تحويل نهر الأردن، وتوجيه ضربة قاصمة لوحدات الجيش السوري في الجبهة...

هذا، وعندما كانت قيادة الجبهة قد تحسست الوضع المريب في الجهة المقابلة لها، لجأت هذه القيادة إلى اتخاذ اجراءات كان لها أكبر الفضل في إحباط ما يدبره العدو. فلقد وزعت وحدات المدفعية والهاون الثقيلة على القطاعات، خاصة القطاع الجنوبي. ودعمت كتائب الحرس الوطني بأعداد اضافية، ودعمت منطقة البطيحة بسرية دبابات وسرية مشاة. ودعمت منطقة فيق بسرية دبابات. وحركت كتائب دبابات القطاعين الأوسط والجنوبي من أماكن التجمع الى خطوط الانتشار، وأعطتها مهمة الاستعداد للقيام بدورها في الهجمات المعاكسة المقررة فيما لو تمّ خرق للجبهة. ووضعت وحدة من الأنوار الكاشفة في البطيحة. واستحدثت نقطة دفاع جديدة على مرتفع " تل النيرب " مقابل قرية النقيب العربية ووضعت في هذه النقطة مجموعة مختلطة من الحيش والحرس الوطني بقيادة الملازم أول محمود دبّاس.

وكان مجموع تعداد هذه القوة حوالي 55 مقاتلاً. ووزعت بصورة سرية حقل ألغام مضادة للدبابات أمام قرية النقيب العربية وعلى حدود المنطقة المجردة بينها وبين مستعمرة عين غيف، وكان لهذا الحقل، دور عظيم في إحباط هجوم العدو وتكبيده خسائر كبيرة في الأرواح والعتاد. وعزّزت قرية النقيب السورية بطاقم رشاش متوسط اضافة للفصيلة المختلطة من الجيش والحرس الوطني والمقاومة الشعبية المتواجدة فيها. وزودت القطاعين الأوسط والجنوبي بأجهزة اضافية للاتصال اللاسلكي، وأصدرت الأوامر لكافة مقاتلي الجبهة، وخاصة في الكتائب الأمامية بالبقاء في الخنادق وتحسينها وتحسين مواضع الرمي. ووضعت الذخائر الاضافية تحت تصرف الأسلحة المختلفة، ووزعت على الجنود أطعمة الطوارئ. وبالاجمال يمكن القول ان القسم الأكبر من خطة عمليات الجبهة وخطط

عمليات الألوية والكتائب قد نفذ، وأصبحت الجبهة بكاملها جاهزة للقتال، بالاضافة إلى بعض التركيز في الاستعدادات على المناطق الأكثر احتمالاً للتعرض لخطر الاعتداء.

وترجع شمولية الاستعدادات لمواجهة العدو الى اعتقاد قيادة الجبهة بأن الهجوم المرتقب على منطقة البطيحة قد يكون مقدمة لهجوم شامل يستهدف احتلال المنطقة بكاملها، أو على الأقل الأراضي والمرتفعات المطلة على نهر الأردن وبحيرة طبريا، وهي الخط: تل الأحمر – تل العزيزات – البرجيات – البحريات – الدرباشية – تل هلال – الدردارة – جليبينة – الجمرك السوري – تل المشنوق – تل الشعير – البطيحة بكاملها – سكوفيا – مزرعة عز الدين – كفر حارب – العقبات – منطقة الحمة. وبذلك تتمكن اسرائيل من الوصول الى الحدود السورية – الفلسطينية (في زمن الانتداب)، وتحتل قسماً من الأرض السورية، وتضمن لنفسها كل المياه المهددة من قبل سوريا، وتضمن تراجع القوات السورية، خاصة المدفعية، الى خطوط، لا تعود قادرة منها على ضرب أية محاولة اسرائيلية للعمل الحر في المرحلة الأولى من مشروع تحويل نهر الأردن، والتي كان العدو قد أجل تنفيذها انتظاراً للفرصة المناسبة.

وبعد ظهر يوم 16 / 3 / 1962، تقدم زورقان اسرائيليان مسلحان باتجاه مخفر الكرسي، وكانا يتقدمان بحماية بعضهما، ففتحت القوات السورية عليهما النار، وحدث اشتباك خاطف أسفر عن اصابة الزورقين إصابات مباشرة مما أدى الى غرق أحدهما وانسحاب الآخر والدخان يتصاعد منه. وتوتر الجو على الخطوط الأمامية، وأصبح الهجوم الاسرائيلي متوقعاً في أية لحظة. وفي الساعة العاشرة ليلاً من يوم 16، تلقى العقيد جميل فياض قائد القطاع الجنوبي، مخابرة الملازم الأول محمود دباس تفيد بأن كمائنه المتقدمة تصطدم مع العدو، وان قوات العدو تهاجم موقعه (تل النيرب) بسريّتي مشاة تدعمهما المدفعية الخفيفة ورشاشات الزوارق. كان قائد موقع (تل النيرب) الملازم أول محمود دباس قد دفع ثلاثة كمائن متقدمة عن موقعه حوالي (1 كلم) باتجاه مستعمرة عين غيف. وكان دور هذه الكمائن الاشتباك الفوري مستفيدة من عنصر المفاجأة، وإعطاء انذار للقوات الخلفية، والانسحاب الى الموقع. وقد قامت بدورها خير قيام، اذ فاجأت القوات العدوة المهاجمة من الجنوب بهدف الالتفاف شرقاً حول (تل النيرب) والمقدرة

بسريّة مغاوير (كوماندوس).

وبعد الصدام مع المخافر الأمامية، تابعت السريّتان الاسرائيليتان تقدمهما في محاولة لاحتلال موقع تل النيرب، ولكن الدفاع القوي أجبر المهاجمين على التوقف، ثم لم تلبث ان حضرت قوات عدوة جديدة لنفس الهدف، وقدرت هذه القوات بحوالي كتيبة كوماندوس. واستطاعت هذه القوة دخول قرية النقيب العربية، وطردت أهلها مع مواشيهم باتجاه تل النيرب، ثم تقدمت خلف السكان المذعورين، ولكن القوة المدافعة في تل النيرب فطنت لهذه الحيلة، فتركت السكان يمرّون، واشتبكت مع القوات العدوّة في قتال ضارٍ. وكان التفوق في هذا القتال لصالح القوات العدوّة المهاجمة، ومع هذا فقد صمد تل النيرب وتابع اتصاله مع قيادته. وفي الساعة 12.30 من بعد منتصف ليلة 16 – 17 انقطع الاتصال مع الموقع، وعلى الأثر قامت مدفعية القطاع الجنوبي بفتح نيرانها على العدو المهاجم وطرق سيره، والمستعمرات القريبة، وكان الردّ حازماً وكثيفاً.

وبعد احتلال تل النيرب تقدم المهاجمون باتجاه البطيحة، وكان قوام القوة المهاجمة، كتيبتان من المشاة المحمولة بعربات نصف مجنزرة، يتقدمهما بلدوزر لردم الخنادق المضادة للآليات، وتحميها سرية دبابات، وتدعمها رمايات مختلفة من المدفعية والهاونات بالاضافة الى رمايات الرشاشات الثقيلة المحمولة على الزوارق الاسرائيلية المسلحة الموجودة في البحيرة. ولقد وقعت القوة المهاجمة في حقل الألغام الذي زرع قبل اربع وعشرين ساعة فقط، مما أدى الى تعطيل الآليات الأولى التي سدّت الطريق. واضطرت الآليات التالية الى التوقف على أرض مكشوفة، مما جعلها هدفاً ممتازاً للمدفعية السورية، فركزت مدفعية القطاع الجنوبي النار عليها. وفي هذه الفترة، كانت سرية الكوماندوس الاسرائيلية المتقدمة باتجاه مخفر الكرسي للعمل كمقدمة أمام القوة الآلية، تنسحب الى موقع تل النيرب، بعد عزوف القيادة العدوّة عن متابعة الخطة، نظراً للخسائر التي منيت بها آلياتها بفعل الألغام والمدفعية السورية المضادة. ومع انبلاج فجر 17 / 3، بدأت القوة المعادية تنسحب باتجاه الأرض المحتلة مع قتلاها وجرحاها وبعض آلياتها المعطلة.

وقد شاركت المدفعية الاسرائيلية في المعركة، فقصفت المواقع السورية، ومنطقة

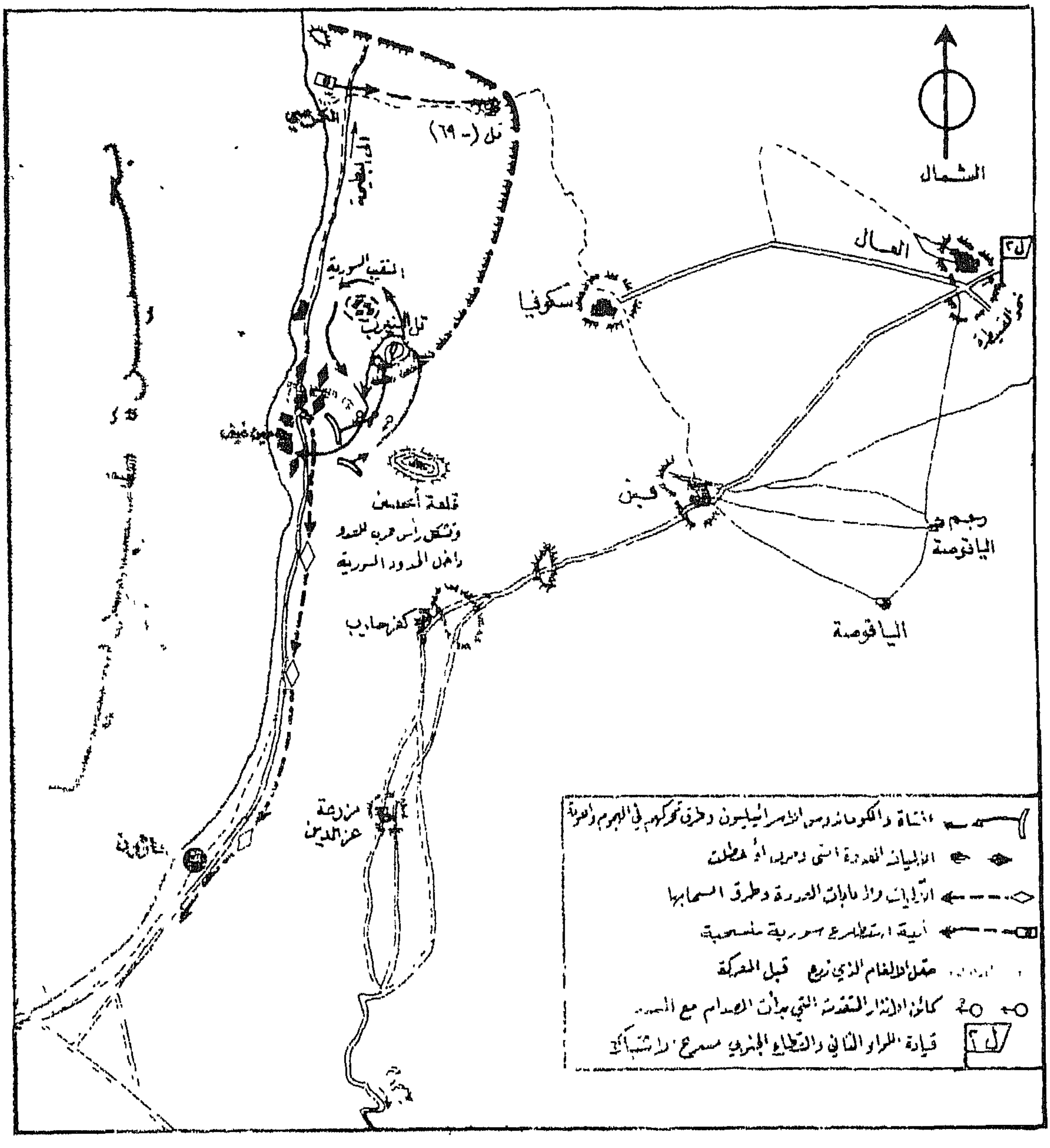
الحمّة. كما قامت طائرتان في الصباح بقصف قيادة القطاع الجنوبي، ومنطقة الحمّة أيضاً.

وكانت خسائر القوات السورية: 26 شهيدا، بينهم قائد موقع تل النيرب، و 20 جريحاً، وأسير واحد. بالإضافة الى تدمير موقع تل النيرب، واصابة المخافر الأمامية ببعض الأضرار المادية.

أما خسائر الاسرائيليين فقد قدّرت بمائة اصابة من الرجال (تمّ اخلاؤها باستثناء جثة ضابط)، وتدمير عدد من الآليات والدبابات التي قام العدو بإخلاء بعضها قبل انسحابه، بالاضافة الى تدمير ثلاث بطاريات مدفعية، واصابة مستعمرات عين غيف، وهارون، وبيت كاتسير، وسمخ، بأضرار مادية، ولقد استولت القوات السورية على بلدوزر، ودبابتين و 4 آليات نصف مجنزرة، تركها العدو على أرض المعركة كدليل على ان المهاجمين الاسرائيليين الذين حققوا بعض النجاحات الجزئية، لم يستطيعوا استثمار هذه النجاحات، واضطروا إلى تجديد عمليتهم، والانسحاب تحت النار تاركين بعض معداتهم الحربية المعطلة دون أن يسمح لهم ردّ الفعل العنيف بإخلائها، وهذه المعدات معروضة اليوم في المتحف الحربي السوري حيث تدل على عنف الردّ من جهة، وبسالة الجندي السوري في المعركة التي خيّبت الكثير من ظنون قادة العدو.

المرجع

- الموسوعة العسكرية. الجزء الأول. مرجع مسبق ذكره.ص 304 – 305.



معركـة تل النيرب 1962.

المرجع: الموسوعة العسكرية. الجزء الأول. ص 305.

معركــــة التوافيق

(31 كانون الثاني 1960)

هي احدى المعارك الهامة التي خاضتها القوات العربية السورية ضدّ القوات الاسرائيلية ليلة 31 كانون الثاني / يناير سنة 1960، في قرية التوافيق السفلى السورية الواقعة في القطاع الجنوبي من الجبهة السورية قبالة النصف الجنوبي من بحيرة طبرية، وعلى بعد 1300 م من كيبوتز " بيت كاتسير " تل القصر. (أقامها الصهاينة عام 1950 في المنطقة المجردة من السلاح).

وتعتبر معركة التوافيق استمراراً للاشتباكات المتقطعة خلال النصف الثاني من الخمسينات، حيث كانت الحدود العربية – الاسرائيلية هي اكثر الجدود توتراً، نظراً لأن الاسرائيليين كانوا يحاولون خلال هذه الحقبة الاستيلاء على المناطق المجردة (من السلاح) التي حددتها اتفاقية الهدنة (1949) والواقعة بين الأراضي السورية والأراضي الفلسطينية المحتلة من قبل الصهيونيين، فتشتبك معهم المخافر الأمامية السورية، ويتسع بعد ذلك نطاق الاشتباكات حتى تشمل قطاعاً كاملاً من الجبهة أو تشمل الجبهة بأسرها. وكانت القوات الاسرائيلية تكتفي في بعض الاشتباكات بالرد الناري، وتقوم بعد الاشتباكات الأخرى بعمليات انتقامية تنفذها قوات تتوغل ضمن الأراضي السورية لنصب الكمائن أو شنّ الإغارات. وكانت الاستراتيجية السائدة على الجانب السوري، استراتيجية دفاعية بحتة، بينما كانت قوات العدو الصهيوني تنفذ دفاعاً ذا طابع تعرضي...

هذا، وفي أيلول 1957، وقع اشتباك بين أهالي قرية التوافيق وجماعة اسرائيلية مسلحة تقوم بمسح الأراضي في المنطقة المجردة لحفر قناة للري عبر التوافيق السفلى، ونجم عن ذلك قتل وجرح عدد من الاسرائيلين، وقد أدى ذلك الاشتباك إلى تخليّ الاسرائيلين عن خططهم في حفر القناة عبر البلدة، لكنهم سرعان ما بدأوا العمل بجدّ لحفر قناة بديلة الى الغرب من القرية مخترقة الأراضي العربية التابعة للقرية، وتدخلت القوات التابعة للأمم المتحدة، التي أوفدت فريقاً مساّحاً أفاد في تقرير عرض فيما بعد على الجانب

السوري " ... أن القناة لن تلحق ضرراً بالأراضي العربية... " . ولكن الاسرائيليين بدأوا يعتبرون القناة حدوداً جديدة ويضيقون على الفلاحين العرب الذين دأبوا على عبور القناة لحراثة وزراعة أرضهم غربها، وكان طبيعياً أن يصطحب أولئك الفلاحون بنادقهم للدفاع عن أنفسهم تجاه عمليات الإرهاب المتواصلة من قبل العدو الصهيوني.

ولم يقتصر الأمر على هذا الاشتباك فقط، بل حصلت اشتباكات عديدة في عام 1958 أيضاً، حيث كانت خسائر الاسرائيلين، في كل مرة، اكثر من خسائر السوريين، ويرجع ذلك لسببين:

أولاً: الأرض التي تسمح للأسلحة السورية المتمركزة على سفح هضبة الجولان الغربية بالتحكّم بقوات العدو التي تحتشد في أرض منبسطة.

ثانياً: وجود القوات الاسرائيلية في أراضٍ ومناطق مكشوفة، وكثافة المستوطنات الواقعة في مدى نيران الأسلحة السورية.

ومع أواخر عام 1959 بدأت حالة التوتر تزداد نتيجة للاستفزازات الاسرائيلية، فقد حاول هؤلاء حفر قناة ثانية، ولكن القوات السورية حالت بينهم وبين حفر القناة في كانون الأول / ديسمبر 1959. وفي 24 / 12 / 1959، أطلق سكان قرية التوافيق نيرانهم على قوات بوليس الحدود الاسرائيلي. واستمر الاشتباك مدّة أربع ساعات بالأسلحة الفردية أدى الى مقتل شرطي يهودي، وجرح قروي عربي. وبدأت الاشتباكات تأخذ طابع التصعيد، واستنفرت الجبهة، وأخليت القرية من المدنيين استعداداً لمعركة متوقعة. وفي 29 – 30 كانون الثاني سنة 1960 كانت التحشدات في تزايد مستمر، حتى كانت ليلة 31 كانون الثاني / يناير 1960، حين شعرت الكمائن السورية بحركة تقدم اسرائيلية باتجاه قرية التوافيق، وقد فتحت القوات السورية النيران عليها. وكانت القوات الاسرائيلية المتقدمة تحت ستار كثيف من المدفعية الاسرائيلية نحو قرية التوافيق عبارة عن كتيبة مشاة ميكانيكية من لواء غولاني.

واتسع هذا الاشتباك بسرعة، ليشمل خط المواجهة في الجبهة الجنوبية كاملاً. وقد استطاعت القوات السورية أن تجبر القوات الاسرائيلية المغيرة على قرية التوافيق الى التراجع الى مواقع انطلاقها داخل الأراضي المحتلة. ونتيجة للضغط الذي واجهته القوات

الاسرائيلية فقد حاولت التخفيف بتوجيه مدفعيتها للقرى العربية، فشمل القصف كلا من سكوفيا وفيق وكفر حارب ومزرعة عز الدين. وقد ردّت القوات السورية على ذلك بتركيز نيران مدفعيتها على المستعمرات الاسرائيلية في الجهة المقابلة، وقد انتهت المعركة بحلول الفجر. وفي صبيحة اليوم التالي حاولت أربع طائرات (ميستير) معادية اختراق المجال الجوي العربي، فتصدّت لها أربع طائرات ميغ 17 واشتركت في معركة مع طائرات العدو استطاعت بها إسقاط طائرة معادية، دون أية خسائر عربية مقابلة.

والواقع ان القوات الصهيونية هدفت من وراء عمليتها هذه إلى توسيع رقعة حدودها بالاستيلاء على الأراضي الزراعية في التوافيق، واحتلال تلال التوافيق المتحكّمة بمستعمرة (بيت كاتسير) تل القصر، أو تحييدها على الأقل، وذلك بمنع الحياة فيها، إذ أقدم الصهاينة على نسف معظم منازل البلدة السفلى فقط، حيث لم يستطيعوا الوصول إلى القسم العلوي من البلدة نتيجة ردع الدفاع لهم. ومهما يكن من أمر، فإن هذه المعركة لم تستطع تحقيق أهداف العدو، إذ سرعان ما عادت الحياة الى قرية التوافيق رغم كل المحاولات الارهابية الاسرائيلية، كذلك بقيت القوات السورية ومرابض المدفعية متحكّمة من مواقعها في سفوح التلال الغربية، بكافة المستعمرات المواجهة، الى ان كان عدوان الخامس من حزيران 1967، حيث سقطت هذه المنطقة كغيرها من مناطق الجولان بيد القوات الاسرائيلية.

المراجع

1 – الموسوعة العسكرية. الجزء الأول. باشراف المقدم الهيثم الأيوبي. المؤسسة العربية للدراسات والنشر. بيروت. طبعة 1981 منقحة. ص 325 – 326.

معارك ثورة 1936 في فلسطين

مثّل الشيخ المجاهد عزّ الدين القسام ظاهرةً كفاحيةً رائدة، في عملية الصراع مع الاستعمار البريطاني والحركة الصهيونية على أرض العرب في فلسطين. وكان نموذجاً طليعياً في الكفاح المسلّح ضد أعداء الأمة العربية، فانبرى إليهم القسّام – والمؤمنون بنهجه ومبادئه – ليعلمونهم درساً في الوطنية والجهاد، لا تُمْحى كلماتُه المحفورةُ في الذاكرة والوجدان قبل أن تُحفَر على الورق بالدم. وبالرغم من استشهاد المجاهد الشيخ عز الدين القسام في سنة 1935، إلا أنه بقي الملهم والمرشد لرفاقه المناضلين الذين تابعوا طريقه الكفاحي، ممثلاً شرارة ثورتهم سنة 1936، التي أحدثت زلزالاً نفسياً وسياسياً وعسكرياً للانكليز والصهاينة، ولحلفائهم من العرب المرتبطين بالاستعمار والصهيونية. وكانت معارك: نور شمس، والجاعونة، وبلعة، في خضم ثورة العام 1936، من أهم الصفحات المشرقة في التاريخ الفلسطيني والعربي، والتي تعيد إلى الذاكرة تلك الملاحم البطولية التي سطرها كثيرون من أفذاذ العرب ضد الصليبيين – القدامى والجدد –.

وقعت " معركة نور شمس " في الحادي والعشرين من حزيران سنة 1936. وسميّت بهذا الاسم نسبة لموقعها في قرية " نور شمس " شرقي طولكرم على بُعْد ثلاثة كيلو مترات منها، وتشرف على طريق حيفا – تل أبيب التي كانت القوافل الصهيونية تسلكها محروسة بالقوات البريطانية.

وحينما وقعت هذه المعركة، كانت القوات البريطانية في فلسطين تتألف من (6) ستّ كتائب من المشاة والمدرعات والمدفعية، وسرب من الطائرات القاذفة، وبعض قطع الاسطول في البحر المتوسط.

قاد المعركة " عبد الرحيم الحاج محمد "، بعد أن قام باستطلاع دقيق لساحتها، إثر معلومات وصلت إليه، تفيد بقرب مرور قافلة صهيونية محروسة بقوّة مسلّحة بريطانية.

بدأت المعركة في الساعة العاشرة من صباح الحادي والعشرين من حزيران

(1936)، واشترك فيها خمسون مناضلاً عدا الذين تطوعوا عند الاشتباك من القرى المجاورة. وقد تراوح تسليح القوة بين البنادق الحربية القديمة وبعض القنابل اليدوية. أما القوة المعادية فكانت تتألف من ست سيارات ركاب يحرسها فصيل مشاة بريطاني محمول ومعزّز بمصفحتين. وقدر عدد الصهيونيين والجنود البريطانيين بنحو (170) فرداً عزّزوا عند الاشتباك بثلاث طائرات حربية استخدمت للمرة الأولى في مواجهة مباشرة ضدّ الثوار. وقدمت نجدة من القوات البريطانية المتمركزة في مدينة نابلس قدّرت بفصيلين محمولين. وقد تمكن الثوار من إشغال هذه النجدة ومنعها من الوصول إلى أرض المعركة بكمين نصب لها قرب " دير شرف " القريبة من طولكرم.

تلخّصت خطة القائد عبد الرحيم الحاج محمد بتقسيم قواته إلى ثلاث مفارز، مهمة المفرزة الأولى تغطية مقدمة القافلة وحصرها بالنيران من الأمام، ومهمة المفرزة الثانية ضرب قلب القافلة بعد وقوعها في الفخّ، أما المفرزة الثالثة فقد كان واجبها ضرب مؤخرة القافلة. واختار القائد عبد الرحيم مكانه في قلب المفرزة الثانية. وقد تمركز ثائران في نقطتين مخفيّتين ومموّهتين جيداً في مقدمة الكمين على يمين الطريق، وتمركز ثائر ثالث على يسار الطريق للمراقبة وإعطاء الانذار بقدوم العدو وإطلاق النار عند دخول آخر سيارة للقافلة ضمن منطقة الكمين، وفور اصطدام السيارة الأولى بمانع من الحجارة تمت تهيئته مسبقاً على الطريق.

استمرت معركة " نور شمس " نحو سبع ساعات، لم يعترف البريطانيون بعدها بوقوع خسائر في قواتهم أو في قوات الصهيونيين الذين كانوا يرافقونهم، بل أعلنوا عن استشهاد ما بين 21 – 25 ثائراً. أما المصادر العربية فقد أعلنت عن استشهاد ثلاثة من الثوار ومقتل ما يقارب خمسين جندياً من القوات البريطانية وتدمير ثلاث سيارات واسقاط طائرة حربية.

ويبدو واضحاً من سير المعركة أن القائد عبد الرحيم الحاج محمد قادها بنفسه ونفّذها بجرأة ومرونة فائقة، إذ اختار وقت تنفيذها نهاراً مع علمه بأن خسائر قواته قد تكون أكثر وفرص النصر قد تكون أقل، لأن القوافل الصهيونية كانت تتوقف ليلاً وتحيط نفسها بالحراسة البريطانية المشدّدة.

ان صمود الثوار بأسلحتهم القديمة سبع ساعات متواصلة في وجه القوة البريطانية الكبيرة دليل قاطع على مدى الاستعداد للتضحية والتصميم على خوض النضال المسلّح. ويبدو واضحاً أن العملية قد اعدّ لها إعداداً جيداً من حيث التخطيط وحشد القوة وتوزيعها، وتحديد مكان الكمين في منطقة وعرة تساعد على إبقاء زمام المبادرة في أيدي قوة الثوار وتكسبهم المرونة أثناء خوض المعركة وتمكّنه من إيقاع أكبر الخسائر في صفوف العدو.

أما معركة " الجاعونة " فقد كانت بقيادة عبد الله الأصبح من الجاعونة، وعبد الله الشاعر من صفد. وتعرف بلدة الجاعونة عند الصهيونيين باسم " روشبينا " وتقع على الطريق بين صفد وطبرية إلى الشرق من مدينة صفد، وكانت تسكنها أكثرية يهودية. ولما بدأت فصائل الثورة 1936 تعمل في منطقة صفد، تعرّضت طريق صفد – طبرية لعدّة هجمات من المجاهدين ابتداء من شهر حزيران، فكانوا ينصبون الكمائن لسيارات الركاب الصهيونية التي تسير على هذه الطريق بحراسة بريطانية من المصفحات، فوقعت معركة " جب يوسف " ليلة 21 / 22 حزيران قبل الجاعونة بكيلو مترين. وقد قاد عبد الله الأصبح وعبد الله الشاعر مجموعة من المجاهدين في كمين نصبوه " لباص " صهيوني قادم من طبرية إلى صفد يوم 12 آب 1936، أيضاً، قرب بلدة الجاعونة. وقد سدّ المجاهدون الطريق وكمنوا بين الصخور. ولما وصلت السيارة الصهيونية تحت الحراسة البريطانية، إنهال المجاهدون عليها بالرصاص، واستمر الاشتباك نحو ساعتين، وأخذت قوة الحراسة تطلب النجدات.

أسفرت هذه المعركة عن مقتل ثمانية من الركاب الصهيونيين، وقتل وجرح عدد من الحرس البريطاني. وتمكن المجاهدون من الانسحاب قبيل وصول النجدات البريطانية دون خسائر في صفوفهم. وقد اتسمت هذه العملية بالمفاجأة والجرأة. وهذا ما شجّع الثوار على مواصلة تصدّيهم للاستعماريين الانكليز والصهاينة في فلسطين، حيث كانت معركة " بلعة " في الثالث من شهر أيلول 1936، تتويجاً لتلك المعارك السابقة.

وتعتبر معركة " بلعة " من أكبر معارك ثورة 1936. تبعد قرية " بلعة " نحو سبعة كيلو مترات عن مدينة طولكرم، ونحو 1,5 كلم عن طريق نابلس – طولكرم. بلغ عدد الثوار الذين اشتركوا في هذه المعركة خمسين رجلاً، مسلّحين بالبنادق المتنوعة

والرشاشات الخفيفة وبعض الألغام. وكانوا متطوّعين قدموا من أنحاء فلسطين وسورية ولبنان والعراق. وقد اختاروا موقع " بلعة " لارتفاعه واشرافه على طريق نابلس – طولكرم، حيث تمر قوافل الصهيونية بحماية القوات البريطانية. وقد نظّم القائد فوزي القاوقجي خط الدفاع الرئيس فوق المرتفعات المشرفة على الطريق العام على شكل أربع مفارز تتقاطع نيرانها فيما بينها، فلا يستطيع العدو الدخول بين المفارز دون أن تناله النيران، وأعدّ أيضاً مفرزتين لتبثّا الألغام على الطريق وتكمنا على مقربة منه وتناوشا العدو، ثم لتنسحب كل منهما باتجاه محدد بغية شطر قوّة العدو إلى قسمين واستدراجه إلى حيث يقع تحت النار المجدية لخط الدفاع الرئيس. وتم أيضاً تركيز عدد من المفارز الصغيرة من الرماة المهرة في أماكن ملائمة للدفاع الجوّي لصدّ الطائرات إذا ما اشتركت في القتال.

وصلت قوّة المجاهدين بصورة سرّية الى نقطة التجمّع في قرية بلعة ليلة 2 / 9 / 1936. وتمّ إبلاغ قادة المفارز التعليمات، وعرف كل منهم مهمته. وفي صباح 3 / 9 / 1936 تمركز المجاهدون في مواقعهم المحدّدة.

ظهرت القافلة المعادية قادمة من اتجاه طولكرم، وكانت مؤلفة من 20 سيارة. وحينما وصلت إلى النقطة المعينة في الساعة الثامنة وأبعين دقيقة، صباحاً، انفجرت الألغام، وأطلق الكمينان النار على القافلة، وردّت القوة البريطانية بنيران الدبابات والرشاشات والمدافع الخفيفة. ولما ترك الكمينان موقعيهما حسب الخطة المرسومة تبعهما الجنود البريطانيون منشطرين إلى قسمين، وسرعان ما وقعا تحت رحمة نيران خط الدفاع الرئيس، فوجدت القوة البريطانية نفسها محاصرة لا تستطيع التقدم ولا الانسحاب، فاستنجدت بالقيادة. ولم يمض وقت طويل حتى ظهرت الطائرات وأخذت تنقضّ على مواقع المجاهدين الذين استطاعوا أن يسقطوا ثلاثاً منها بأسلحتهم العادية. وتبع ظهور الطائرات تدفّق نجدات المدافع والدبابات والرشاشات على ساحة المعركة. وحاولت القوة البريطانية الالتفاف على مواقع المجاهدين، ولكنها ردّت على أعقابها.

وحوالي الساعة 14,00 بلغت المعركة أقصى حدّتها، إذ كثّف الانكليز القصف بالمدرعات والمدافع الثقيلة والطائرات. واضطرت القيادة العربية إلى الأمر بالانسحاب

إلى خط الدفاع الثاني على مرتفعات تساعد أكثر على الدفاع والمقاومة. وفي هذه الأثناء أخذ العدو ينسحب من المعركة أيضاً تحت حماية نيران كثيفة وغزيرة أطلقتها طائراته وأسلحته المختلفة. وقد ظلّت قوات العدو مرابطة حول ساحة المعركة حتى تمّ لها إخلاء الجرحى والقتلى، ثم انحسبت بعد غروب الشمس. وهكذا استمرت المعركة حتى الساعة 15,30 على جبهة طولها 12 كلم قاتل فيها الثوار قتالاً عنيفاً وعنيداً. وقد نفذت ذخيرتهم في المرحلة الأخيرة من المعركة.

اعترفت القيادة البريطانية بمقتل ضابطين أحدهما طيار، وبجرح ثلاثة أحدهم اصابته خطيرة، ومقتل عريف وجرح اثنين آخرين، واعترفت بسقوط طائرة واصابة ثلاث أخرى بنيران البنادق، وأدعت استشهاد " 14 من رجال العصابات ". أما الثوار فقد أعلنوا مقتل ثمانين جندياً بريطانياً بينهم عدّة ضباط، عدا الجرحى، واصابة ثلاث طائرات وتعطيل رابعة، والاستيلاء على رشاش طائرة من طراز " برن " (Brenn).

كان من بين الشهداء محمود أبو يحي من جبل العرب في سورية، وإليه يعود الفضل في صمود خط الدفاع الرئيس (كما قال القاوقجي). وكان الشيخ سليمان الصاتوري، وهو فلسطيني، من أكثر المقاتلين شجاعة وحكمة. وقد استشهد فيما بعد في معركة كفر عبوش.

ويبدو واضحاً من دراسة هذه المعركة مدى الدقّة والتنظيم في خطّة القتال وحسن تدريب المجاهدين. فقد تم تحديد أماكن تمركز المفارز بدقة متناهية، لضمان إيقاع اكبر الخسائر في صفوف العدو والمحافظة على النفس. وأنجز الكمين الذي أوكلت إليه مهمة استدراج العدو إلى المواقع الأساسية مهمته طبقاً للخطة الموضوعة بمهارة وجرأة.

ونجحت المفارز المخصصة للدفاع في تخفيف الضغط عن الثوار، وحرمت العدو من الغطاء الجوي بعد إصابة عدد من طائراته، مما أثّر في سير المعركة لصالح الثوار في البداية.

وقد تلقّى الشعب الفلسطيني أخبار هذه المعركة الظافرة بارتياح كبير، وقويت الروح المعنوية لديه. في حين قررت الحكومة البريطانية بعد هذه المعركة اتخاذ اجراءات اكثر صرامة وشدّة في التعامل مع " رجال العصابات " من أجل النظام، ومنها اعلان حالة

الطوارئ. هذا وقد تمّ تعيين الجنرال " جون ديل " بدلاً من " بيرز " قائداً عاماً للقوات البريطانية في فلسطين وشرق الأردن يوم 15 أيلول 1936، وأرسلت إلى فلسطين تعزيزات كثيرة من الجنود والمعدات.

ومما يجدر ذكره في هذا الإطار أنه، لما بلغت الثورة أشدّها في عام 1936، إزداد توافد المجاهدين من الأقطار العربية، وخصوصاً من سوريا ولبنان للمشاركة فيها. وقد صرّح المجاهد جميل عبد الصمد (من عماطور / الشوف) في مقابلة شخصية معه في 23 تشرين الأول / أكتوبر عام 1986، أنه التحق بثورة 1936 مع (19) رجلاً من الشوف، و (70) رجلاً من سوريا.

يضاف إلى ذلك، أنه وصلت في 28 آب / أغسطس حملة فوزي القاوقجي وفيها فريق من المجاهدين الدروز (من لبنان). وقسّم القاوقجي حملته إلى خمس سرايا بينها سرّية بقيادة حمد صعب سمّيت " السرّية الدرزية "، وكانت مؤلفة من مجاهدي دروز لبنان وسوريا في الثورة السورية الكبرى. وقد استشهد من الدروز مجاهدون عديدون منهم ملحم سلّوم وسليم الريّس وحسين البنّا ومحمود أبو يحي الذي وصفه القاوقجي " ببطل بني معروف الذي كان له الفضل الأول في الصمود والمحافظة على خط دفاعنا المركزي ".

والواقع، أن المستعمرين الفرنسيين والبريطانيين، كانوا يتحيّنون الفرص لاضطهاد أهالي المجاهدين وعائلاتهم عندما يعرفون أية معلومات عن أي مجاهد يشترك في قتالهم، كما هو الحال بالنسبة للمجاهد الشهيد ملحم سلّوم من بلدة بعقلين / الشوف، حيث خشي أهله إصرار السلطة المنتدبة على معرفة سبب موته ومكانه (وهو المستشهد بفلسطين)، وتحاشى مختار بلدة بعقلين مراراً إعلامها بالحقيقة، تجنّباً لانتقامها من أهل هذا المجاهد. ومثله الكثير.

ولكن يبقى أمثال هؤلاء شموعاً ومنارات هَدْيٍ لكل الأجيال اللاحقة في سبيل الدفاع عن الحق وقضاياه العادلة، مهما كانت التضحيات.

المراجع

1 – محمد عزّة دروزة " القضية الفلسطينية في مختلف مراحلها ". المكتبة العصرية صيدا – بيروت. 1959.

2 – محمد حافظ يعقوب " نظرة جديدة إلى تاريخ القضية الفلسطينية " (1918 – 1948). بيروت 1973.

3 – " القضية الفلسطينية والخطر الصهيوني " منشورات مؤسسة الدراسات الفلسطينية ووزارة الدفاع اللبنانية. بيروت 1973.

4 – عبد القادر ياسين " كفاح الشعب الفلسطيني قبل العام 1948 ". مركز الأبحاث. بيروت 1975.

5 – عبد الوهاب كيالي " تاريخ فلسطين الحديث ". المؤسسة العربية للدراسات والنشر. بيروت 1973.

6 – عيسى السفري " فلسطين العربية بين الانتداب والصهيونية ". يافا 1937.

7 – إحسان النمر " تاريخ جبل نابلس والبلقاء ". نابلس 1972.

8 – من أوراق أكرم زعيتر " وثائق الحركة الوطنية الفلسطينية " (1918 – 1939). اعداد بيان نويهض الحوت. مؤسسة الدراسات الفلسطينية. بيروت 1979.

9 – صبحي ياسين " الثورة العربية الكبرى في فلسطين " (1936 – 1939). القاهرة 1967.

10 – صبحي ياسين " حرب العصابات في فلسطين " القاهرة 1967.

11 – محمد الشاعر " الحرب الفدائية في فلسطين ". القاهرة 1967.

12 – أكرم زعيتر " يوميات الحركة الوطنية الفلسطينية 1935 – 1939 ". بيروت 1980.

13 – خيرية قاسمية " فلسطين في مذكرات القاوقجي " (1936 – 1948). بيروت 1975. (الجزء الثاني) ص 10 ، 17 ، 23 ، 26 ، 55.

14 – صالح مسعود بو يصير " جهاد شعب فلسطين خلال نصف قرن ". دار الفتح. بيروت 1968.

15 – محمود العابدي " صفد في التاريخ ". عمّان 1977.

16 – الموسوعة الفلسطينية. الجزء الأول. باشراف د. أنيس صايغ. دمشق 1984 ص 638 – 640.

17 – د. حسن البعيني " دروز سوريا ولبنان في عهد الانتداب الفرنسي ". المركز العربي للأبحاث والتوثيق. بيروت 1993. ص 237.

حرف " الجيم "

(ج)

1 – الجاعونة (راجع معارك ثورة 1936 في فلسطين)
2 – جبل بو زيد
3 – جبل الخضر
4 – جبل الخيفة
5 – جبل الرادار
6 – جبل المكبّر
7 – جبل المنوّر
8 – جراب
9 – الجرف
10 – الجزائر
11 – الجسر
12 – الجغبوب
13 – جلولاء
14 – الجمل
15 – الجهراء
16 – الجامعة العبرية (راجع معركة قافلة هداسا)

معركـــة جبل بو زيد

هي احدى المعارك التي خاضها الثوار الجزائريون ضد الاستعمار الفرنسي. وقد حدثت هذه المعركة في 12 / 12 / 1959.

صحا المجاهدون مع الفجر عندما أسرع إليهم المواطنون لينقلوا إليهم الأخبار عن تحرك قوات استعمارية ضخمة قادمة للقيام بعملية واسعة في الجبل. فاتّجه المجاهدون إلى المواقع الحصينة الخفيّة عن الأنظار، ورابطوا هناك وهم على استعداد كامل لمجابهة قوات العدو إذا ما اقتربت من مواقعهم. غير أن القوات الفرنسية لم توغل في تقدمها. ومكث المجاهدون في مواقعهم حتى مضى القسم الأكبر من النهار. وعندما اقترب المساء إستفاد المجاهدون من ذلك، فعملوا على تقسيم قوتهم إلى مجموعات قتالية (أفواج فدائية) واجبها نصب عدد من الكمائن على محاور تحرك العدو.

وسار الفوج الأول عبر المسالك الوعرة المؤدية إلى الطريق العام، والتي تصل إلى أماكن العدو من منطقة غير متوقعة. وبذلك أمكن مباغتة دورية فرنسية كانت على جانب الطريق حيث ظهر المجاهدون عند مؤخرة الدورية ولم يكن أحد حراس الدورية يشعر بوجود المجاهدين حتى كان هؤلاء قد فتحوا نيرانهم الغزيرة وقذفوا بقنابلهم اليدوية. في حين كانت الرشاشات الخفيفة تطارد برصاصها الهاربين. ثم دار اشتباك آخر في ناحية مليئة بالصخور المنيعة. فاحتمى بها المجاهدون ووجهوا نيران أسلحتهم على العدو الذي كان ينتشر في منطقة مكشوفة. وتكبد العدو خسائر فادحة لا تقل عن خمسين مقاتلاً بين قتيل وجريح. وخسر المجاهدون شهيداً كما جرح ثلاثة آخرون جراحاً خفيفة. وعند عودة المجاهدين من هذا الاشتباك، زرعوا لغماً مضاداً للدبابات على الطريق العام، ثم اتجهوا إلى مواقعهم المأمونة. وفي صباح الغد، جاءت قافلة كبيرة من سيارات النقل العسكرية الفرنسية وهي تتجه إلى موقع المعركة. فانفجر اللغم تحت سيارة عسكرية كبيرة (ج. م . س) تحمل نحوا من عشرين من المقاتلين الفرنسيين، فدمرّت السيارة تدميراً كاملاً وتطايرت أجزاؤها مع أشلاء الجنود الاستعماريين التي تناثرت على عشرات

الأمتار بعيداً عن الطريق. وتوقفت القافلة بكاملها لمدة ثلاث ساعات، في حين كان المجاهدون وأنصارهم يتابعون ما يفعله الفرنسيون من بعيد.

المراجع

1 – العماد مصطفى طلاس والمقدم بسام العسلي " الثورة الجزائرية ". دار الشورى. بيروت الطبعة الأولى 1982. ص 621 – 622.

معركــــة جبل الخضر
(6 تشرين الأول / اكتوبر 1936)

هي احدى المعارك البطولية التي خاضها المجاهد العربي محمد سعيد العاص ضد المستعمرين الانكليز في فلسطين سنة 1936، وقد سقط فيها العاص شهيداً مع نفر من رفاقه المجاهدين الذين يقدّر عددهم بخمس وعشرين بين شهيد وجريح.

والجدير بالذكر، ان المناطق الجبلية في منطقة الخليل كانت معقل الثوار من " قوات الجهاد المقدس " الذين خاضوا معارك ناجحة ضد المحتلين الانكليز، خاصة معركة " الحلمون " بين القدس والخليل في أواخر شهر أيلول / سبتمبر / 1936. وكانت هذه المنطقة التي يعتصم فيها ثوار " قوات الجهاد المقدس " محدودة الرقعة، إذ لم يكن الثوار قد تمكنوا بعد نشر عمليات الثورة على كامل التراب الفلسطيني. لذلك عمد الانكليز (الذين كانوا يفكرون في الكيفية التي يمكن بها القضاء سريعاً على الثائر محمد سعيد العاص) إلى سدّ المنافذ المؤدية إلى هذه الجبال، فأخضعوها للتطويق، وأدخلوها في نطاق حصار مكثّف واسع. وكان القائد العاص ونائبه عبد القادر الحسيني قد تحصّنا مع مائة وخمسين من الثوار في جبل الخضر على مشارف بيت المقدس، وفي السادس من تشرين الأول / اكتوبر عام 1936 ، أي بعد أيام من معركة الحلمون، دفع المستعمرون الانكليز بقوة ضخمة بلغت ثلاثة آلاف جندي وضابط مدعمين بالطائرات وفرضوا المعركة على الثوار في نقطة تحصّنهم: جبل الخضر.

وأدرك القائد محمد سعيد العاص سلفاً نتائج المعركة المفروضة، فطلب بحزم من الثوار أن ينسحبوا كيفياً عبر طوق الحصار الانكليزي فيما هو يناوش المهاجمين مع خمسة وعشرين مقاتلاً أصرّوا على البقاء معه.

وخاض هؤلاء المقاتلون وقائدهم العاص ونائبه الحسيني، معركة دامية، استمرت سبع ساعات متواصلة قبل أن يسقط شهيداً ويسقط معه غالبية أولئك الأبطال الخمسة والعشرين شهداء، بينما كان نصيب نائبه الحسيني أن يصاب بجرح بالغ ويقع في الأسر.

وهكذا انتهت حياة المجاهد العاص (*) على ابواب بيت المقدس. وبعد انتهاء المعركة حمل جثمان البطل ودفن في مقبرة الخضر بتكريم رائع. انه ما يزال هناك بانتظار القيامة: قيامة فلسطين من الموت الصهيوني، وما يزال هناك شاهداً على ما يجري: من بطولات، ومن خيانات على حد سواء!

المراجع

1 – أحمد يوسف داود "المجاهد محمد سعيد العاص ". دار المستقبل دمشق. حزيران / يونيو 1990 . ص 87 – 88.

2 – الموسوعة الفلسطينية. الجزء الثاني. اشراف د. انيس صايغ. دمشق الطبعة الأولى 1984. ص 123.

(*) – " العاص " هو اللقب الذي غلب على المجاهد محمد سعيد، بينما هو من عائلة " شهاب " في مدينة حمص السورية. وقليلون جداً هم الذين يعرفون النسب الحقيقي له.

معركــة جبل (الخيفة)

كـانت معركـة رهيبـة خاضهـا المجـاهدون الجزائريـون ضـد القـوات الاسـتعمارية الفرنسية. وقد منيت فيها قوات الاحتلال بخسائر فادحة في الأرواح والعتاد، تقدّر بالمئات. وحدثت هذه المعركة في 10 آذار / مارس 1958.

عقد المسؤولون العسكريون في المنطقة السادسة مؤتمراً لهم يوم 9 آذار / مـارس 1958 ، برئـاسـة (سـي مـجذوب) وذلـك فـي (دوار الأميار) الواقـع بين (بيلـول) و (غنيفل) إلى شمال (سعدا) بمسافة ستين كيلو متراً. وكان هدف الإجتماع التـأكيد علـى وجود حالة الإسترخاء بين فترات القتال. وقد تمّ في هذا الإجتماع مناقشة الموقـف الجديد الـذي ظهـر بنتيجـة وصـول (العقيـد بيجـار) إلـى ا لإقليـم، مـن أجـل اتخـاذ الإجــراءات الضرورية المتعلقة بالتوجيـه السياسـي العسـكري فـي الإقليم، وامتـد الإجتمـاع إلـى وقـت متأخر من الليل، مما اضطر بعض المسـؤولين إلـى مغـادرة الإجتمـاع والإلتحـاق بمراكـز عملهم القتالية. أما البقية فقد كان عليهم الانتظار إلى الغد من أجل استئناف هذا الإجتماع.

كـانت السـاعة الثانيـة صباحـاً، عندمـا استيقظ النـازلون (بـدوار الأميـار) علــى أصوات هدير محركات المركبات. وأسرعت زمرة من ستة مجاهدين للسير فـي اتجاهـات ثلاثة من أجل استجلاء حقيقة الموقف. وعاد بعضهم ليخـبر عـن تحـرك قافلـة كبـيرة مـن مركبات النقل العسكرية والدبابات وهي مطفأة الأنوار، لتنزل الجنود على أطـراف الطريق الرئيسي، والذي كان يبعد مسافة ثلاثة كلـم عـن مركـز إقامـة المجـاهدين (فـي الـدوار). وبقي المجاهدون الآخرون في الأماكن التي وصلوا إليها لـمتابعة حركـة العـدو. وفـي هـذه الفترة جاءت أصـوات الضجيـج مـرة ثانيـة. ولكـن مصـدر الصـوت كـان قادمـاً مـن اتجـاه الغرب، أي على الطريق القادم من (بيلول) إلى (سعدا). وعرف المجاهدون أن العـدو كان على معرفة بوجود قادة المجاهدين واجتماعهم في هذا المكان، وأنه تحـرك علـى هـذا الأساس للقيام بعملية تمشيط واسعة النطاق. وتلقّت سريّة المجاهدين المتمركـزة علـى بعـد كيلو مترات قليلة فقط أمراً بالانسحاب إلى الهضاب الغربية التي ستشهد المعركة التاريخية

المعروفة باسم (معركة جبل الخيفة).

كان مجموع المقاتلين لا يزيد على (146) مجاهداً، بالإضافة إلى عشرة من الأنصار (المسبلين). وقام هؤلاء باحتلال مواقعهم على المرتفعات.

وما ان أقبل ضوء اليوم الجديد حتى رأى المجاهدون من مواقعهم قوات العدو المتحركة على مسافات متفاوتة وهي تتقدم من جميع الاتجاهات. وكانت إحدى مفارز العدو وقد اقتربت أكثر من كل ما عداها من مواقع المجاهدين، وأخذت في تسلق الجبل من ناحية (ولد الخيفة) بعد أن اختارت طريقاً يجب له أن يمر من تحت هضبة تتوافر فيها أراض متقطعة جداً هي أفضل ما تكون لنصب كمين فيها. واندفعت فئة من المجاهدين لتكون على مسافة قريبة جداً من هذه الطريق للقيام بهجوم مباغت. وتمركز أفراد هذه الفئة في تشكيل مثلث يسمح لأفرادها جميعاً سماع شارة بدء الهجوم التي يجب أن يطلقها (سي مجذوب). وكان باستطاعة أفراد الكمين متابعة تحركات العدو في مواقعهم. وانتظر المجاهدون حتى وصلت قوة العدو المتقدمة بكاملها إلى مدى نيران الكمين، وأصبح بالامكان تمييز الضباط عن جنودهم. وكان هناك نقيب (كابتن) يسير على رأس القوة وإلى جانبه شعبي يرتدي عباءة وعمامة وقد أرغم على حمل الجهاز اللاسلكي. أما جنود القوة المتقدمة فكانوا جميعاً يضعون المناديل الحمراء حول عنقهم (فولار) مع حمل شارة المغاوير (كوماندو الموت). وكانت هذه الوحدة من اللفيف الأجنبي تابعة للكتيبة الثامنة الفرنسية المتمركزة في (سعدا). وكانت أعصاب أفراد الكمين تزداد توتراً كلما اقتربت القوة الفرنسية من مواقعهم. وهنا وصل الأمر الذي كان يتمّ بالتناقل ما بين الأفراد: (إنتباه – استعدوا للهجوم).

وانطلقت رصاصة بصورة مباغتة من بارودة قائد الكمين، فتمزقت لها كل صفوف العدو. وانهالت الرصاصات المتقاطعة – كالسيل – وكانت المباغتة كاملة. فسيطر الذعر على (قوات المغاوير). وفي هذا الوقت ذاته استدار (سي مجذوب) وصرخ (الله أكبر) وكانت هذه الصرخة شارة الانقضاض. واجتاحت المجاهدين حمّى الغضب والحماسة وهم يرددون صيحة الحرب (الله أكبر)، وانقضوا على خصومهم فمزقوهم، مستفيدين في ذلك من ذهول المباغتة. ودارت رحى معركة طاحنة، كان الرصاص يصفر

في كل اتجاه. وكان قتال الإلتحام (جسماً لجسم) محتدماً على أشده فيما كان القتلى والجرحى يتساقطون. غير أن المجاهدين تمكنوا من السيطرة على الموقف بسرعة. وبدأت حدة النيران تتناقص، باستثناء عش للمقاومة نظمته مجموعة من الجنود الفرنسيين الذين نجحوا في احتلال موقع مناسب لهم، وأخذوا في إطلاق قذائف الهاون على المجاهدين. وكان هذا الموقع يشكل ملجأ استراتيجياً لأفراد زمرة المقاومة. ولهذا تعرض الفصيل الذي توجه للقضاء عليهم للكثير من المصاعب قبل أن يتمكن من القضاء عليهم واحتلال موقعهم. وفي الحقيقة، فقد كان المجاهدون يصطدمون بنيران محكمة في كل مرة حاولوا التقدم فيها من عش المقاومة. فسقط عدد كبير من المجاهدين قبل أن يتمكن رئيس الزمرة (سي حمزة) من الإقتراب وإلقاء قنبلة يدوية وقعت على مقربة من زمرة المقاومة. غير أن رصاصة أصابته على الفور فسقط على الأرض. وأفاد المجاهدون من انفجار القنبلة، فاقتربوا قدر المستطاع، وطلبوا إلى أفراد الزمرة الخروج بأنفسهم والاستسلام. وكان الهدف هو الحصول على الأسلحة، وعلى مدفع الهاون بصورة خاصة. غير أن أفراد عش المقاومة أجابوا طلب المجاهدين برشّة من نيران أسلحتهم. وكان لا بد من إنهاء هذا الموقف بسرعة نظراً لأهمية عامل الوقت بالنسبة للمجاهدين. فاندفع أحد المساعدين وأشعل النار في الأخشاب المستخدمة في سقوف الأكواخ. ومضت لحظات قصيرة انتشرت خلالها النيران وارتفع الدخان ودوى انفجار هائل تبعه انفجار قوي آخر. وفي اللحظة ذاتها ظهرت في السماء طائرة (ت – 6) كان المجاهدون قد اعتادوا على تسميتها باسم (موشارد – أو الجاسوس). وأخذت هذه الطائرة في التحليق على إرتفاع منخفض، فوجه إليها رامي الرشاش نيرانه. وشوهدت الطائرة وهي تعود وَتحلّق في السماء. غير أنها تركت وراءها خيطاً من الدخان الذي لم يلبث طويلاً حتى تحوّل إلى لهيب، وسقطت الطائرة على بعد كيلو مترات قليلة.

انتهت المعركة الآن، وقد استمر الصراع ساعة من الزمن، وأصبح لزاماً على هذه المجموعة من المجاهدين ترك مواقعها. إذ بات باستطاعة قوات العدو الأخرى التي سمعت أصوات النيران وضجيج الاشتباك أن تتوجه إلى هذا المكان. وكان من الصعب تحديد نتيجة هذا الاشتباك. غير أنه ليس من الصعب تقدير ما نزل بالعدو من خسائر. فقد

أصبحت أرض المعركة مغطاة بجثث قتلى العدو وجرحاه. كما أن الغنائم التي حصل عليها المجاهدون من الأسلحة الفردية ضمّت بواريد (ماس 49) و (غرانت الأميركية) و 12 مسدساً وجهاز لاسلكي، علاوة على الذخائر والقنابل اليدوية والتجهيزات العسكرية. كما حصل المجاهدون على عدد من الأسرى. ومقابل ذلك تكبّد المجاهدون بعض الخسائر. وكان من بين الشهداء (قادري الطيب) و (بو عمه) و (سي حمزة). كما أصيب قائد المنطقة (أحمد حالوز) بجراح ووقع في أسر العدو.

أعطيت الشارة بالإنسحاب، والابتعاد عن ميدان المعركة، والسير في اتجاه الشمال. وأثناء ذلك كانت مدفعية العدو قد أخذت في إلقاء القنابل الثقيلة التي تفجرت غير بعيد عن مواقع القتال. وكانت الطائرات قد حددت المواقع السابقة للمجاهدين. غير أن القصف الكثيف للمدفعية قد خدم المجاهدين حتى أقصى الحدود. إذ أوقف كل تقدم لقوات العدو في اتجاههم مما سمح لهم بإعادة تنظيم قوتهم، واختيار أفضل الدروب والمسالك لتحركهم من أجل اختراق خط العدو والخروج من قبضة الحصار. وكانت عملية جمع الأسلحة والذخائر قد دعمت من قدرة المجاهدين وزادت من كفاءتهم. كما كان وجود عناصر قيادية مسؤولة، أولهم (سي مجذوب) قد دعم الروح المعنوية للمقاتلين. وكانت العقبة الوحيدة أمام التحرك هي نقل المصابين ممن كانت جراحهم خطرة. وأمكن هنا استخدام الأسرى الذين تمّ أسرهم من جند (اللفيف الأجنبي) لعملية النقل، كما استخدمت أغصان الأشجار والجلاّبيات (الدشداشة – أو الثياب العربية) لصنع ناقلات الجرحى.

توقفت مدفعية العدو في الساعة الحادية عشرة تقريباً عن ضرب مواقع المجاهدين، واستأنف جند الفرنسيين التقدم. وفي هذا الوقت كان المجاهدون قد وصلوا إلى الهضاب الشمالية. وكانت الأرض شديدة التضاريس مغطاة بالشجيرات الكثيفة وتنتشر فوقها الصخور الضخمة. واختار المجاهدون مواقعهم فكان هناك انحدار شديد من خلفهم. أما الطرف المقابل من المنحدر فكانت تنتظم فيه بطاريات المدفعية المعادية والدبابات. غير أن المنحدر كان شديداً وعميقاً بحيث كان من الصعب جداً على القوات الفرنسية تسلقه للوصول إلى مواقع المجاهدين. أما أطراف الهضبة فكانت مغطاة بحشود كبيرة من جنود الفرنسيين الذين أحكموا طوق المنطقة. وقد دفعت كثافة هذا الحشد أحد المقاتلين

للقول: (بأن القوات الفرنسية كلها قد احتشدت في هذا الإقليم). وقد أمكن بعد المعركة جمع المعلومات فتبيّن بأن (بيجارد) قد زجّ أكثر من 20 ألف مقاتل استقدمهم من كل أنحاء الإقليم.

لم تكن القيادة الفرنسية تعرف أماكن تمركز المقاتلين الجزائريين. وكل ما كانت تعرفه أنهم موجودون في الإقليم، غير أنها عجزت عن تحديد مواقعهم بدقة. ولهذا فقد كانت مرغمة على استخدام مدفعيتها وطيرانها. أما بالنسبة للمجاهدين فقد كان عليهم اختراق خطوط الأعداء وتدمير طوق الحصار المضروب حولهم. فتمّ إرسال مجموعة صغرى بمهمة إطلاق نيران رشاشات غزيرة في كل الاتجاهات بهدف تضليل العدو، وحمله على الاعتقاد بأن مواقع المهاجمين تمتد إلى مسافات أبعد. وفي هذه الفترة قسّمت سرية المواجهة الرئيسية إلى مجموعتين: الأولى وواجبها الانتقال إلى مسافة أبعد باتجاه الشمال لمجابهة المجنبة اليسرى للعدو وتمزيقها لإرغامها على إعادة تجمعها في منطقة تكون فيها معرضة لهجوم المجموعة الثانية. وتم إعداد الهجوم والاتصال والانسحاب بدقة كاملة، وتمّ إجراء التحرك والانتقال بسريّة تامة. واحتل كل مقاتل موقعه خلف الصخرة التي وقع عليها اختياره. وأمكن لهؤلاء المقاتلين مراقبة جند العدو على خط الهجوم وأثناء تحركهم، وقد كان بعضهم يعلّق سلاحه على وركه، وبعضهم يمسكه بيده أو يضعه على كتفه. ولم يكونوا يضعون حول أعناقهم أربطة حمراء، كما كما كان يفعل (مغاوير الموت) في الصباح. وكان لا بد من حدوث الصدمة عندما يصل هؤلاء إلى خط القتل الذي تمّ تحديده بخط تبدل انحدار قريب من أماكن تمركز المجاهدين. وكما هي العادة انطلقت رصاصة لتعلن شارة الهجوم، وتبعها سيل من النار المركزة والدقيقة بكثافة عالية. ومضت ثوان قليلة، تبعها تدخل المجموعة الثانية في القتال، وردّدت الجبال صيحات المجاهدين (الله أكبر). وردّد (سي مجذوب) بصوت مرتفع يصل إلى الأعداء: (الكتيبة الأولى، الكتيبة الثانية إلى الأمام. الكتيبة الثالثة انحراف إلى اليمين قليلاً). وكانت هذه الكلمات الخداعية المعروفة كافية لاثارة الذعر ومزيد من الفزع في صفوف العدو. وقد انطلق المجاهدون مع سماع كلمات قائدهم، وتقدموا بحزم من أعدائهم فزادوا من ذعرهم. وحلقت طائرتان عموديتان على ارتفاع منخفض، فأطلقت عليهما رشّات من

نيران الرشيشات وأرغمتا على الارتفاع، غير أنهما حدّدتا للمدفعية مواقع المجاهدين. وفي اللحظة ذاتها، سمعت أصوات صفير تنفر لسماعه الأذان، وأخذت القنابل تنفجر في كل مكان. حيث كان الانفجار بقذف شظايا الصخور الممزقة فيزيد من أخطار الانفجار. واختلط المجاهدون بجنود الأعداء في قتال جسم لجسم. وكثيراً ما كانوا يتبادلون إطلاق النار بعضهم ضد بعض من مسافة لا تزيد على المترين.

فكانت الرصاصات تصفر في كل اتجاه، وتثير الشرر لدى اصطدامها بالصخور. واشترك الفرنسيون مع المجاهدين في التعرض للإصابات الناجمة عن رمايات المدفعية وشظايا الصخور الممزقة. بل إن رمايات المدفعية أصبحت أشد خطراً على الجنود الفرنسيين منها على المجاهدين نظراً لوقوع القنابل في أماكنهم، ونظراً لكثرة أعدادهم مما جعل نسبة الإصابات بينهم أكبر من معدلها في صفوف المجاهدين. مما حمل جنود الفرنسيين على ترك مواقعهم والفرار بعيداً عن مكان المعركة. ولم تكن صيحة ضباطهم ذات تأثير على جنودهم وهم يطلبون إليهم المحافظة على أماكنهم. وأصيب عدد كبير منهم، وحدثت ثغرة في التشكيل القتالي للأعداء، فتمّ توجيه جرحى المجاهدين إلى نقاط الازدلاق المحددة. ونجحت المجموعة الثانية بتنفيذ مناورتها، بأكثر مما أحرزته المجموعة الأولى من النجاح. وذلك نظراً لما تعرضت له هذه المجموعة من نيران المدفعية. ولهذا فإن المجموعة الثانية لم تفد من الخلل لإجراء الإختراق فحسب، بل إنها باغتت مجموعة من جند العدو بتسلط نيرانها عليها من الخلف، مما أرغمها على ترك مواقعها. وبذلك استطاعت مساعدة المجموعة الأولى على اختراق الثغرة. وتحقق الاتصال بين المجموعتين، وأصبح ميدان المعركة ممتداً على عدة مئات من الأمتار. وهنا أيضاً أصبحت أرض الميدان مغطاة بجثث القتلى والجرحى وبالدماء الغزيرة. وتوقفت رمايات المدفعية. وظهر بوضوح أن العدو وقد أدرك الخطأ الذي ارتكبه أثناء قصف المواقع، فأوقف نيران مدفعيته من أجل السماح لقواته البرّية (المشاة) بالتقدم إلى مواقع المجاهدين.

أعطيت التعليمات للمجاهدين بفك الاشتباك، بصورة سرّية. والانتقال إلى قاعدة كانت تبعد مسافة كيلو مترين تقريباً. ورافق حركة الانتقال شيء من الاضطراب الذي

نشب بسبب تباعد المسافات بين المقاتلين. المهم في الأمر هو أن زمر المجاهدين قد نجحت في الوصول إلى المكان المحدد الذي تميّز بتوافر الملاجئ فيه تغطية الشجيرات الشائكة على منحدريه. غير أن وصول المجاهدين إلى هذا المكان لم يبعد عنهم الخطر، إذ لا زال العدو يتابع أثرهم ويتقصّى تحركاتهم. وقامت طائرات الهليكوبتر بإنزال مجموعات من المقاتلين على بعد كيلو متر واحد من المواقع الجديدة.

ولم يعرف المجاهدون في ما إذا حدد العدو أماكنهم، غير أنه ما من حاجة لمثل هذه المعرفة. إذ أن هذا الحشد الضخم لم ينظم إلا من أجل مطاردتهم. واصبح من المحال عليهم الانتقال أو التحرك، فكان لا بد لهم من الاستعداد لمعركة جديدة. وأعطى القائد (المجذوب) أوامره باحتلال المواقع المناسبة، واستثار المجاهدين وحرضهم على القتال حتى آخر نقطة من دمائهم. ومزقت الفضاء بغتة صفرات القنابل وهي تشق طريقها نحو مواقع المجاهدين، ولتنفجر غير بعيد عنهم. وفي الوقت ذاته ظهرت ست طائرات وأخذت في إنزال حمولتها من القنابل في المكان ذاته. ويظهر أن معجزة هي على وشك الظهور. إذ كان حدوث معركة جديدة لا يعني للمجاهدين سوى كارثة مدمّرة، بعد أن أوشكت ذخائرهم على النفاذ، وبعد أن سقط منهم (23) جريحاً بينهم ثمانية جرحى كانت جراحهم خطيرة. وقد جاء قصف المدفعية والطيران ليوقف تقدم العدو بقواته البرية التي ستضطر عند هبوط الظلام للانسحاب والعودة إلى معسكراتها.

وأفاد المجاهدون من ظلمة الليل لنقل جرحاهم والابتعاد عن الإقليم. وسار المجاهدون لأكثر من عشرين كيلو متراً حتى وصلوا إلى مواقع مأمونة. واستغرقت مرحلة المسير مدة طويلة بدأت في الساعة (20) مساء، وانتهت في الساعة (5) صباحاً حيث وصل المجاهدون إلى (دوار تيرسين) الواقع إلى شمال (الحسنة). وكانت وجوههم تحمل كل معالم الجهد والإثارة، وهي مغطاة بالسواد والعرق والغبار. وكان الجوع والعطش قد استنزف ما بقي من قدرتهم. وزاد من بؤسهم ما جثم على صدرهم من الضيق والهموم بفقد عدد كبير من إخوانهم، إذ أصبح عددهم (71) مجاهداً بعد أن كانوا بالأمس (146).

كانت قد مضت على المجاهدين في هذه المنطقة مدة تزيد على الثلاثة أعوام منذ

أن حملوا السلاح ضد القوات الاستعمارية، وقد خاضوا خلالها معارك كثيرة وقاسية. غير أن معركة الأمس كانت من أصعب ما تعرضوا له وجابهوه. ولكن، على الرغم مما احتملوه وما تعرضوا له من خسائر، فقد بقيت متاعب الفرنسيين أكبر وخسائرهم أكثر. وقد توافرت المعلومات بعد ذلك التي تفيد بأن خسائر العدو قد تجاوزت المئات ما بين قتلى وجرحى، بينهم عدد كبير من الضباط. وقد أرغمت هذه الخسائر قيادة العدو على إرسال طائراتها العمودية للعمل طوال يومين كاملين، ومنذ شروق الشمس حتى غروبها لنقل القتلى والجرحى وإخلاء ميدان المعركة.

إستخدم المجاهدون الخيام كمركز لإسعاف الجرحى الذين وضعوا الواحد منهم إلى جانب الآخر. وكانت ابتسامة الرضى لا تفارقهم على الرغم مما كانوا يعانونه من آلام مبرحة. وكان الممرض (سي عدة) يعالج الجرحى وهو يحمل جراحه في ساقه ويضمد الجرحى بكثير من الصبر والشجاعة. وبات من الطبيعي أن يراه الجرحى وهو يستخرج الشظايا والرصاص بواسطة سكينه التي يستخدمها الجنود عادة في القتال.

وكان كل مجاهد مضطراً أن يتحول أحياناً إلى طبيب وجرّاح. إذ ما كان يمضي يوم بعد ذلك إلا ويسقط فيه عدد من القتلى والجرحى، سواء في صفوف المجاهدين أو في وسط المدنيين بنتيجة قصف الطيران والمدفعية، أو بنتيجة هجوم الفرنسيين على القرى وقيامهم بأعمال الإبادة الجماعية، وارتكاب المذابح الوحشية، وقد تزايدت حدة هذه العمليات بعد معركة (جبل الخيفة). فقد تعرض جنود (بيجارد) للخسائر الفادحة، الأمر الذي دفعهم للإنتقام من المدنيين في (دوار ولد الخيفة). حيث ذبح الفرنسيون أكثر من تسعين بريئاً معظمهم من الأطفال والنساء والشيوخ ممن لم يستطيعوا الهرب إلى الغابات. ودمّر (الدوار) تدميراً تاماً بحيث لم يبق منه إلا بقايا الجدران وأثار الأكواخ وأطلالها.

تلك كانت معركة يوم (10 آذار / مارس) 1958.

لقد كانت هذه المعركة أول معركة قادها الكولونيل (بيجارد) منذ وصوله إلى الإقليم. وقد سبقت وصوله حملة نفسيّة رهيبة لخلق حالة مرعبة تضعف من إرادة القتال لدى المجاهدين. غير أن هؤلاء برهنوا أنهم الأقوى وهم الأكثر تصميماً، مهما حشد العدو من القوى والوسائط، ومهما توافر لقادة العدو من الكفاءة القيادية. وبذلك أسقط المجاهدون

الهالة التي نسجت حول شخصية الكولونيل (بيجارد). هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فقد برهن المجاهدون أنهم أكثر قدرة على الإفادة من ظروف القتال, في حين برهنت القيادة الفرنسية عن قصورها عندما وجهت نيران مدفعيتها ضد قواتها، فنالت منها بأكثر مما نالت من المجاهدين. وبرهنت الأساليب التعبوية (التكتيكية) التي طبقها المجاهدون على فاعليتها وأهميتها في إحباط أساليب القوات النظامية.

المراجع

1 - العماد مصطفى طلاس والمقدم بسام العسلي: (الثورة الجزائرية) دار الشورى. بيروت. الطبعة الأولى 1982. ص: 464 - 472.

2 - Ref. (Recit de feu) Send S 12 El moudjahed 1977 p. 153 - 159

كاتب البحث هو (سيد بن عبد الله) وقد اشترك في معركة (جبل الخيفة) التي كتب قصتها. وأصبح في سنة 1976 معاوناً - نائباً - لوزير العدل الجزائري.

معـارك جبل الرادار

يقع جبل الرادار بين قرية بدّو العربية ومستعمرة " معالاها ميشاه " الصهيونية في منطقة القدس – تل أبيب. وقد سمّي بالرادار لأن الجيش البريطاني كان قد أقام عليه محطة للرادار مع معسكر صغير لإقامة الجنود العاملين في هذه المحطة. وكان بإمكان من يحتل هذا التل السيطرة التامة على طريق القدس – تل أبيب الرئيسة لكونه مشرفاً عليها وعلى المناطق المحيطة بها.

وكان الصهيونيون قد انتقلوا منذ مطلع شهر نيسان 1948 إلى مرحلة جديدة من خططهم تتمثل بشن الهجمات المحدودة الهادفة إلى احتلال نقاطه الهامة لتؤمن حماية مستعمراتهم وضمان حرية تحركهم على الطريق بين هذه المستعمرات والمدن الرئيسة. وضمن إطار هذه الخطة شنّت قوة صهيونية كثيرة العدد ليلة 28 / 4 / 1948 هجوماً واسعاً على المرتفعات القائمة شمالي مدينة القدس وفيها جبل الرادار. وقد تمكنت القوة بكثرتها واستغلالها عنصر المفاجأة من احتلال هذا الجبل بالإضافة إلى قرية " بيت إكسا " و " بيت سوريك " ووصلت إلى مشارق قرية " بدّو " وكادت تنجح في السيطرة على مقام النبي صموئيل. ولم تمّ لها ذلك لأحكم الصهيونيون سيطرتهم التامة على طريق رام الله – القدس ولعرقلوا كل تحرك عربي عليها.

وما إن وصلت القوات الصهيونية المهاجمة إلى مشارف بدّو حتى هبّ المناضلون فيها وفي سائر القرى العربية القريبة منها يتصدون لها بعنف، ودامت المعركة طوال الليل. وعند فجر يوم 28 نيسان إشترك في المعركة فوج اليرموك التابع لجيش الإنقاذ بقيادة " عبد الحميد الراوي "، وكان قد وصل إلى المنطقة قبل ذلك بثلاثة أيام، وشنّ هجوما معاكساً قوياً على المواقع التي احتلها الصهيونيون، وأجبرهم على التراجع بعد تكبيدهم خسائر كبيرة قدرت بحوالي 185 قتيلاً وعدد كبير من الجرحى وتدمير ثلاث عربات مدرّعة. واستولى فوج اليرموك على كمية من أسلحة العدو وذخيرته، واستردّ العرب سيطرتهم على الطريق الرئيسة ومنعوا التحركات الصهيونية عليها. وفي شهر أيار

1948 عاود الصهيونيون هجومهم عدة مرات وبقوات أكبر، واشتركت الطائرات في قصف المواقع العربية. ولكن مختلف الهجمات أخفقت. وفي مطلع شهر حزيران أخذ الجيش الأردني على عاتقه مهمة الدفاع عن الموقع.

المراجع

1 - عارف العارف. النكبة، جزء أول. بيروت 1956.

2 - عبد الله التل: كارثة فلسطين. القاهرة 1959.

3 - الموسوعة الفلسطينية. الجزء الثاني. ص 445. اشراف د. انيس الصايغ دمشق. الطبعة الأولى 1984.

معركة جبل المكبّر

يقع جبل المكبّر في الطرف الجنوبي لمدينة القدس ويشرف على معظم أحيائها. وقف عليه عمر بن الخطاب يوم فتح القدس وذكر الله وكبّر، وقد اتخذه الإنكليز في عهد احتلالهم لفلسطين مقراً لحكامهم وبنوا فوقه دار المندوب السامي التي صارت تعرف بدار الحكومة. ولهذا الجبل ميزة تعبوية نظراً لسيطرته على قسم كبير من المدينة المقدسة.

مع نهاية الإنتداب البريطاني في أوائل أيار 1948 وضع المندوب السامي لحكومة فلسطين السير " ألن كاننغهام " دار الحكومة ومبنى الكلية العربية والمدرسة الزراعية اليهودية تحت تصرف منظمة الصليب الأحمر الدولية. وقبل العرب في هذا الترتيب يوم 9 / 5 / 1948، وتأخر قبول الصهيونيين حتى يوم 19 ايار، لأنهم كانوا يأملون في احتلال المدينة كلها. وتسلّم الصليب الأحمر مباني جبل المكبّر بحضور مندوبي الصليب الأحمر والهيئة العربية العليا والوكالة اليهودية. وقد اشترط في ذلك الوقت أن لا يقيم في المنطقة المسلّمة إلى الصليب الأحمر أي شخص في سن الجندية. ولم ينفّذ الطرفان الاتفاق بحذافيره، ولكن لم يقع أي اشتباك في منطقة جبل المكبر حتى أواسط آب 1948، حين انتهك الإسرائيليون الاتفاق وقاموا في ساعة مبكرة من صباح يوم 17 / 8 / 1948 بالتسلل إلى جبل المكبر من ناحية المدرسة الزراعية، فتصدى لهم المناضلون العرب الذين كانوا يراقبون الموقف على مقربة من جبل المكبّر وتدافعوا إلى ردّ العدو. وساندتهم مدفعية الجيش الأردني من ناحية سلوان ومدفعية الجيش المصري من ناحية بيت ساحور وقصفا مواقع العدو فتراجع الإسرائيليون إلى مبنى المدرسة الزراعية. وفي الساعة السابعة من مساء اليوم نفسه أعاد الصهيونيون الكرّة واحتلت قوة من حوالي خمسين جندياً مبنى الكلية العربية ونقلوا جميع موظفيها. ومع فجر 18 آب تجمع عدد من أبناء السواحرة وصور باهر وبيت المقدس يقودهم محمد طارق الإفريقي، وانضم إليهم عدد من متطوعي الإخوان المسلمين المصريين التابعين للعقيد أحمد عبد العزيز الذي ركزّ قيادته في صور باهر، كما انضمت إليهم سرية من الجيش الأردني يقودها عبد الله

التل. وقامت هذه القوات بهجوم مضاد عنيف فتغلبت على الإسرائيليين الذين اندحروا واحتموا بدار الحكومة فطوقها المجاهدون العرب وهددوا بتدميرها. وكانت يومذاك مقر هيئة الرقابة الدولية على الهدنة وبعض رجال هيئة الأمم المتحدة. وقد قام مراقبو الهدنة بترتيب وقف إطلاق النار. ثم حاول الإسرائيليون يوم 19 آب استرجاع المواقع التي احتلها المجاهدون ولكنهم فشلوا. وقد قدّرت خسائر الطرفين بحوالي مئتين بين قتيل وجريح.

وأخيراً تدخل الجنرال " رايلي " كبير المراقبين الدوليين وعقد اجتماعاً يوم 22 / 8 / 1948 حضره كل من المقدم عبد الله التل عن الجيش الأردني، والعقيد أحمد عبد العزيز عن المتطوعين المصريين، والقائد الإفريقي عن الفلسطينيين، وموشى دايان عن الجيش الإسرائيلي. وقد تمّ الاتفاق على إضافة منطقة جديدة من جبل المكبّر إلى المنطقة التي كان المندوب السامي قد وضعها تحت إشراف الصليب الأحمر الدولي. وتسلمت تلك المنطقة المنظمة الدولية وصارت تعرف بـ " منطقة دار الحكومة وجبل المكبّر ". وسحب الفريقان الأشخاص العسكريين وأزالوا المنشآت التي أقيمت فيها، وتسلم الصليب الأحمر الدولي المنطقة في أيلول 1948. وأقرّ الفريقان الترتيب السابق نفسه بموجب اتفاق آخر عقد في 20 / 11 / 1948 لوقف إطلاق النار في مدينة القدس كلها، وجعلت بين الخطين مناطق حرام كانت فيها يومئذ منطقة جبل المكبّر والمباني القائمة عليه، وهي دار الحكومة والكلية العربية والمدرسة الزراعية اليهودية، وما بين هذه المباني وما حولها من أراض.

المراجع

1 - عارف العارف : النكبة. ج 4. 1959.

2 - الموسوعة الفلسطينية: الجزء الرابع ص: 280. إشراف د. أنيس صايغ، الطبعة الأولى، دمشق 1984.

معركة جبل المنور

من أبرز المعارك التي خاضها المجاهدون الجزائريون ضد القوات الاستعمارية الفرنسية. وقد حدثت في الخامس من شهر أيلول / سبتمبر / 1957.

كان المستوطنون الفرنسيون قد هجروا مزارعهم، وحولوها إلى مراكز عسكرية تنفيذاً للسياسة التي وضعها الإرهابي (لاكوست)، المقيم العام في الجزائر، والتي قسم فيها البلاد إلى (مربعات) لحصر نيران الثورة الملتهبة. وأمام هذا الموقف قررت القيادتان في المنطقتين المتجاورتين (معسكر والمحمديّة)، أي المنطقتين السادسة والرابعة في الولاية الخامسة تنسيق التعاون في عملياتهما العسكرية للقيام بمهمات عامة في مدن المنطقتين وقراهما في يوم واحد – هو يوم الأحد – وذلك بهدف تهديد أمن المستعمرين في عقر ملاجئهم، وحرمانهم من الاستمتاع بمناطق منتجعاتهم، مثل: دور السينما والمسارح والمسابح ونوادي الضباط. وقام الملازم (سي محمود) قائد الكتيبة الثالثة في المنطقة السادسة بالهجوم على (معسكر) وضواحيها التي شملت قرى: (تبغنيف وسونيس والبرج والحشم وكاشرو). وقامت السريّة الثانية في المنطقة المذكورة بالهجوم على (بو حنيفة وصيدا وشاربير وفرانشبتي). أما في المنطقة الرابعة فقد قام الملازم الأول (سي رضوان) بالهجوم على المدن التالية: (سيق والمحمدية وغيليزان) بالإضافة إلى قرى الإقليم. وقد استمر الإعداد للمعركة وتنسيق التعاون مدة أسبوع كامل تقرر بعدها موعد التنفيذ، في يوم 26 آب / أغسطس / 1957.

وقامت قيادة جيش التحرير الوطني بالإشراف على العملية بكاملها. وقام المنفذون في الموعد المحدّد بالهجوم، حيث جابه الثوار في معركة قتال الشوارع دبابات الفرقة المدرّعة الفرنسية الخامسة. ودارت الإشتباكات في (معسكر) بعنف، واشترك فيها المغاوير من أبناء المدينة. فيما كانت النسوة يستثرن حماسة المقاتلين بالزغاريد (يو...يو) من فوق سطوح المنازل تطلقها الأمهات والأخوات وهن يشهدن الأبناء يخوضون معركتهم القاسية. وتعرّضت القوات العسكرية الفرنسية ورجال الشرطة

للخسائر الفادحة. وقد جاءت هذه المعركة لتؤكد للإستعماريين – مرة أخرى – أنهم لن يتمكنوا أبداً من قهر إرادة الشعب الجزائريّ، أو القضاء على جيشه الفتيّ. ولكن في الوقت ذاته، فقد جاءت العملية لتدفع الضباط الفرنسيين لاتخاذ قرار بشنّ هجوم واسع النطاق هدفه تدمير الإرادة الجريئة والصلبة في قوات جيش التحرير الوطني.

قامت القوات الفرنسية بأول عملية تمشيط في (بني شقران) حيث كانت قيادتا كتيبتي جيش التحرير، وعدد أفرادهما 220 رجلاً، قد اتفقتا على الإجتماع في (دوار حبوشة) بجوار جبل المنور عند (سي عبد القادر ولد سي الحاج) والذي مات ميتة بطولية عندما أحرقه الفرنسيون حيّاً وهو في ملجئه على الرغم مما كانت تنصحه به مكبرات الصوت التي طلبت إليه الاستسلام للاستعماريين.

دارت المعركة الثانية – عملية التمشيط – والتي قام بها الفرنسيون بالقرب من (جبل المنور)، وفي ذات المكان الذي حدّد لاجتماع الكتيبتين. حيث تعرضت قوات جيش التحرير الوطني للحصار من قبل القوات الإستعمارية. وكانت هذه القوات بقيادة الضابطين الجريئين الملازم الأول (سي محمد. والملازم الأول سي رضوان). حدث ذلك يوم 5 أيلول / سبتمبر / 1957. وعندها قرر قائد الكتيبتين الخروج من الحصار وإعطاء القوات الاستعمارية درساً في التصميم والعناد.

لم تكن طبيعة أرض العملية مناسبة أو جيدة لمقاتلي جيش التحرير الوطني. وكانت تقع بين سهول (حبوشة وغريس وغيليزان). ولم يكن هناك أمام المقاتلين سوى خيار واحد وهو الوصول إلى (جبل المنور) بأي ثمن، والتمركز فيه. وقد أعطيت مهمة قيادة الكتيبتين معاً إلى (سي رضوان) وهو ضابط سابق، تخرج من الحربية الفرنسية، واشترك في الحرب الهندية الصينية مرتين متتاليتين. وله خبرة قتالية جيدة. فأعطى أمره إلى كافة المجاهدين بالانقضاض على ذرى (جبل المنور) للسيطرة على الموقف، ولاحتلال موقع يمكن منه الهيمنة على تحركات الوحدات الفرنسية.

تردد صوت الحرس المراقب للذرى المحيطة، في الصباح المبكر، وهو يقول: (انتباه ! قافلة كبيرة من المدرعات تصل من الغرب من معسكر). وتبع ذلك صوت مراقب آخر وهو يصيح: (انتباه قافلة أخرى قادمة من شرق – غيليزان). وانقضت

دقائق قليلة عندما ظهرت طائرات (ت 6) وبدأت بتسليط نيران رشاشاتها على الجبل لتدمير المقاومة فيه، من أجل السماح لطائرات الهليكوبتر من طراز (بنانا) بإنزال المظليين واحتلال النقاط الاستراتيجية الهامة. وأدرك الأخ الملازم الأول (سي رضوان) هدف مناورة القادة الفرنسيين، وأعطى أوامره بالانقضاض وأمسك الجنود سلاحهم، وركبوا الحراب على بنادقهم، وأخذوا في تسلق مجنبة الجبل. وتدخل الطيران الفرنسي بسرعة لإعاقة المجاهدين من الوصول إلى الجبل. وكان الإشتباك قاسيا، غير أن المجاهدين وصلوا إلى الذرى بعد أن استشهد من قوتهم 17 مجاهداً.

مضت ساعتان على بدء القتال البطولي، عندما أشارت عقارب الساعة إلى الثامنة صباحاً... واستطاع المجاهدون في النهاية السيطرة على الأرض بالرغم من تدخل الطيران وكثافة نيران المدفعية التي كانت تطلقها المدفعية الفرنسية، وأصدر (سي رضوان) أمره إلى المجاهدين جميعاً بحفر حفر فرديّة، وبالاقتصاد في إطلاق النيران. وطلب عدم فتح النار قبل السماح للجند الفرنسيين بالاقتراب من المواقع لأقل من مسافة مائة متر.

كانت القيادة الفرنسية قد حددت مواقع المجاهدين طوال ساعتين. ثم انطلق جند المشاة بهجومهم، وتسلقوا مجنبات الجبل متسلّلين عبر المناطق المستورة أو المغطاة، ليشتبكوا بعدها في قتال جسم لجسم مع المجاهدين. واستمر هذا الصراع لمدة ساعة من الزمن. وقاوم المجاهدون بحزم هذا الهجوم. ولم تتمكن ولا فصيلة واحدة فرنسية من الصمود لهجمات المجاهدين المضادة. وأخذوا في التراجع، فكانوا أثناء تراجعهم هدفاً جيداً لنيران مهرة الرماة. وتساقط جنود الفرنسيين صرعى على المجنبات الحادة للجبل.

أصاب الذعر القيادة الفرنسية التي أصدرت أوامرها إلى المدفعية باستئناف القصف. وطلبت في الوقت ذاته تدخل الطيران من القاعدتين الجوّيتين في (السانية – وهران) و (تيير سيفيل – معسكر). وتعرضت مواقع المجاهدين للقصف العنيف حتى ظن الضباط الفرنسيون بأن المجاهدين قد استشهدوا جميعاً. فأصدروا أوامرهم إلى جند المشاة بالهجوم للمرة الثانية. وتجددت المقاومة العنيفة بضراوة من قبل المجاهدين الشجعان الذين احتفظوا بمواقعهم، وثبتوا في حفرهم عند ذرى الجبل. وأخذ الجنود

الفرنسيون بالتدحرج أو بالإسراع إلى ملجأ يخفيهم. وكان المجاهدون يستمعون إلى أصوات الضباط الفرنسيين وهم يصدرون أوامرهم بأصوات مذعورة، (السرية السادسة، اتجهوا إلى اليمين قليلاً) وسمع المجاهدون أيضاً أصوات الجنود الفرنسيين وهم يدمدمون: (نعم – اتجهوا إلى اليمين. أما أنتم فلتبقوا في أمكنتكم مختبئين في الخلف). وفهم المجاهدون ما أصبحت عليه الروح المعنوية لهؤلاء الفرنسيين من التدهور والانحطاط. على الرغم مما يمتلكوه من وسائط القتال الحديثة والإمكانات المتفوقة. وأخذت قوات العدو بالانسحاب لتجد لها ملاذاً في الهضاب المجاورة.

زجّت القيادة الفرنسية سرباً من الطائرات التي راحت تلقي على المجاهدين بقنابل النابالم. وأدرك الأخ (سي رضوان) أن العدو يرفض القتال الجبهي على الرغم مما هو عليه من التفوق العدديّ والتفوق بوسائل النقل. وأنه يعتمد على طائراته لإخراج المجاهدين وزحزحتهم من مواقعهم. فطلب (سي رضوان) من المجاهدين استعمال أسلحتهم ضد الطائرات، وكان هؤلاء ينبطحون أرضاً في مواقعهم. كانت الحرارة والغبار يثقلان التنفس، ولم يبق معهم نقطة ماء، كما كان هناك قتيلان وأربعة جرحى، إضافة إلى شهداء الصباح السبعة. غير أن الروح المعنوية للمجاهدين لا زالت جيدة. وأعطى الأخ (سي رضوان) أوامره إلى أفراد الكتيبة بتشكيل سدّ ناري ضد الطائرات العسكرية.

ارتفعت درجة حمّى القتال من جديد في الساعة (16)، وأسقطت طائرات عديدة. وقاوم المجاهدون رمايات الطائرات مقاومة بطولية، واحتفظوا برباطة جأشهم وعنادهم على الرغم من تعرضهم لعدد من الإصابات. كان الموجه السياسي للكتيبة (الشهيد سي بلقاسم) لا يخفي فرحته في كل مرة تتمكن فيها أسلحة الكتيبة من إسقاط طائرة للعدو، فتراه يخرج من حفرته ويركع على ركبتيه، ويرفع رأسه إلى السماء ويصيح، (الله أكبر)، تحيا جزائر الثورة وليسقط الإستعمار.

نجحت الكتيبتان في آخر النهار الطويل والشاق بالخروج من حزام التطويق. وحمل المجاهدون جرحاهم على أكتافهم (وعلى ظهورهم). وكان البطل (سي رضوان) بين هؤلاء الجرحى الذين أحرقتهم نار النابالم. واتجه رجال الكتيبة الرابعة إلى (جبل تيميكسي – شرق معسكر)، وتابع العدو عملية التمشيط للانتقام، والذعر يتملكه

ويسيطر عليه. وتولى الملازم (سي محمود) قائد كتيبة المنطقة السادسة برفع تقرير للقيادة عن الموقف، وكان لا بد من فك الإشتباك. كانت خسائر المجاهدين كبيرة، غير أن خسائر القوات الفرنسية كانت أكبر بكثير. ولعل أخطر خسارة خسرها العدو هي تدهور هيبته وانهيار روحه المعنوية. وقد حاول التعويض عن هذه الخسارة فشنّ هجوماً جديداً إلى الشرق من الجبل في جنوب (غيليزان) بهدف الوصول إلى الكتيبة وإلقاء القبض على الأسرى. وهكذا لم يمضِ أكثر من يومين على معركة هذا (اليوم المجيد) حتى نجح العدو باكتشاف مستوصف كان يقع في السهل (في دوار أنطره) مجمع (سيدي محمد بن عوده).

وكان في داخل المستشفى بعض الجرحى من بينهم الملازم الأول (سي رضوان) الذي كان يعاني من جراح النابالم. وأرسلت (قيادة عمليات العدو) إعلاماً بما حققته من (نصر). فأسرع الضباط إلى المكان للتعرف على هذا الملازم الشهير (سي رضوان) الذي طالما أحبط لهم مخططاتهم في هذا القطاع من مسرح العمليات، ومنها اشتباك المحمدية (باريغو سابقاً) في سنة 1956، وفي معركة (دوار براهما)، وفي كمين (تيهرت)، وفي (وانشريس). ونجح سي رضوان في زجّ جنوده داخل مدينته (باريغو)، عندما ألبسهم ثياب دورية عسكرية فرنسية، حيث قام المجاهدون أفراد الدورية بتوجيه نيران مسدساتهم الرشاشة إلى الفرنسيين في المقاهي ودور السينما، مما أثار الذعر في كافة الأوساط – وبصورة خاصة في أوساط المستعمرين –.

ونتيجة لذلك فقد أسرع ضباط القيادة الفرنسية إلى المستوصف، وكان من بينهم العقيد (غاسك) قائد كتيبة المغاوير المظليين العشرين ومعه ملازمه، قاتل المدنيين (باسيلي) المكلف بعمل ضابط الاستخبارات (المكتب الثاني)، والذي أطلق على نفسه اسم (بل عزيز) لخداع المسلمين. وكان هذا الضابط هو الذي انطلق كالمسعور عندما واجه أهالي قرية (تيمازنيا) فقتل بخسّة ودناءة 52 مدنياً. وفي معسكره (مراكز الرمي والنقل) في مزرعة (شايو) سابقا، أقدم على قتل أكثر من ألف جزائري. وكان يأمر الأسرى بالركض أمامه، ثم يطلق عليهم رشة من ناره في الظهر ليزعم أنه قتلهم أثناء محاولتهم الفرار. بدأ ضباط الاستخبارات باستجواب الأسرى (الجرحى في

المستوصف)، وشعر (سي رضوان) بالحاجة للماء أثناء التحقيق. فطلب إلى جندي كان هناك إعطاءه ما يروي ظمأه. غير أن العقيد غاسل تدخل، فوجه حديثه بصوت مرتفع وبلهجة قاسية: " لا، إنك لن تنال ولو قطرة واحدة ". وهنا أدار الملازم (سي رضوان) رأسه المحترق، ونظر ملياً إلى هذا الضابط الكبير في رتبته، وقال له: إبتعد من هنا أيها الوغد القذر، إنك محروم من الحياء والخجل، إنك لست رجلاً جديراً بهذا الاسم وبحمل رتبة ضابط. فبالأمس، وأثناء الإشتباك، كنت مختبئاً بين نسائك، والآن تجد في نفسك الجرأة للتحدث إلى جريح حرب، ولتعطيه الأوامر. وكان لزاماً عليك وقبل كل شيء أن تظهر جرأتك أمام رجالك المقاتلين. وسمع الحاضرون همساً يتردد على شفاه الفرنسيين.

لم يعمّر الأخ (سي رضوان) طويلاً بعد ذلك. فقد توفي بعد أسبوع واحد ودفن في (غيليزان)، إلى جانب قبر الرائد (زغلول). ولكن وفاته واستشهاده لم يمحه من الذاكرة. فقد بقي بالنسبة لمن عرفوه من مجاهدي المنطقتين الرابعة والسادسة، سواء عرفوه عن قرب أو عن بعد، بقي رمزاً للقضية الجزائرية (قضية الصراع لتحرير الوطن). والمجد للشهداء والخلود لرسالتهم.

المراجع

1 – العماد مصطفى طلاس والمقدم بسام العسلي: (الثورة الجزائرية) دار الشورى – بيروت. الطبعة الأولى 1982. ص: 446 – 452.

2 – Ref. recits de feu. Sned S.N EL - Moudjahed - Alger 1977. p:93 -98.

كاتب البحث هنا هو النقيب عبد القادر النهاري، وكان ضابطاً في الولاية الخامسة واشترك في هذه المعركة. وقد أصبح في العام 1976 مديراً لمستشفى معسكر.

وقعـــة جراب (1333هـ)

ما إن اشتعلت نار الحرب العالمية الأولى حتى لفحت بنارها معظم بلدان المنطقة، في الوقت الذي وقف فيه الملك عبد العزيز على الحياد حفاظاً على كيانه الفتيّ الناشئ من التدخلات الأجنبية، وأيضاً في الوقت الذي زحف فيه ابن رشيد – بإيعاز وحضّ من العثمانيين – لمحاولة ضرب ابن سعود، فخرج له الملك عبد العزيز في ربيع الأول 1333 هجرية ومعه خيالة من العجمان ومطير، فالتقى مع ابن رشيد على ماء " جراب " وكان معه حضر حائل وبادية شمر. ولما احتدم القتال أغارت مطير على جيش ابن رشيد وخيامه، فأوقعت به الهزيمة، في الوقت الذي فرّ العجمان خيانة ونكاية بعبد العزيز، فاختلّ نظام المعركة وتفرق الجمعان لا غالب ولا مغلوب، ولم يفز إلا الأعراب بالغنائم والأسلاب.

يقول الشاعر بولس سلامة:

" قد أعدّ الرشيد أهبة حرب ... وأعدّ الأمير حرب ارتجال
حضر " العارض " الأشداء طعناً ... وخيول " العجمان " جمر القتال
وشتيتاً من البوادي يبيعو ... ن الموالي وعهدهم بعقال
ومشى للقتال نحو " جراب " ... مشية الصـّيْدِ أو ذُعاب الخالي

وتبدأ المعركة:

وتلاقت على سهول " جراب " ... أجبل " شمرية " بجبال
أفرغت ما بلبها ملقيات ... ألف غلّ من السنين الخوالي
فأسالت من البنادق نهراً ... من ضرام مفجّر هطال
وتشاكت من الطعان رماح ... كَلَفيف الآثال فوق التلال
بيرق النصر للسعود فلم تفلح ... نيوب الذئاب بالأشبال

دحروا جبهة العدوّ ورُيعَتْ   من رصاص "العوجا" ذوات الحجال
مادت الأرض للصريخ وألقت   ما يكنُّ البركان من أثقال
قذفت باللظى جناح سعود   وبأطراف ذُبَّلٍ ونصال
ثبت " العارض " الأبيّ وأرسى   قدم الموت في فم الزلزال
لم تصدع صفوفه حدّة الطعن   وحد المدمر السيّال

إلى أن يقول:

كان يوم " الجراب " يوماً حفيلاً   للخصيمين بالبلايا السجال
فكلا الجانبين أرهقه العبء   فأهدى من وطأة وكلال
ظفر البدو ينهبوه ويمضون   خفاف الحلوم والترحال ".

ويقول الشاعر خالد الفرج:

نفذ ابن الرشيد فيما يليه
ما تقول الأتراك أو تمليه
حاصراً همه بثأر أبيه
فأتى للقصيم لا يثنيه
أحدٌ، تقدح الضغية فيه
في " جراب " التقى بمن يبتغيه   فتلاقى البتّار بالبتّار

ويضيف واصفا المعركة:

في " جراب " تكافأ الخصمان
جند هذا بقدر جند الثاني
فاستمروا في جولة وطعان
فاز عبد العزيز بالرجحان
فدَهَتْه خيانة العجمان

فغدا الغُنْم قسمة البدوان والأميران أصبحا في انكسار ".

المراجع

1 – اسماعيل حسين أبو زعنونة " صقر الصحراء في رياض الشعر والشعراء ". دار المعمّر للطباعة والنشر والتوزيع. الرياض / السعودية 1993. ص 147 – 150.

2 – بولس سلامة " عيد الرياض " (ملحمة شعرية). ص 221 – 236.

3 – خالد الفرج " سيرة الملك عبد العزيز ". ص 74 – 76.

معركـــة الجرف
(نيسان / ابريل 1956)

هي احدى أهم المعارك البطولية التي خاضها جيش التحرير الوطني الجزائري ضد المستعمرين الفرنسيين في شهر نيسان / ابريل سنة 1956. وقد سجل المجاهدون الجزائريون انتصاراً باهراً على العدو الفرنسي في هذا الموقع الذي حملت المعركة اسمه وهو " الجرف ".

والواقع، أنه في شهر أيلول / سبتمبر 1955، هزمت الجيوش المرتزقة للفرنسيين في ذلك المكان الموجود في جبال (النمنشة) أشنع هزيمة، حيث استطاع مجاهدو جيش التحرير الوطني قتل أربع مئة جندي، واسقاط ثماني طائرات واصابة ثلاث مصفحات، وقتل ثمانية عشر بغلاً، وغنم مدفعين من نوع (بازوكا) وأربعين بندقية، وجهازاً لاسلكياً (مرسل لاقط).

وفي السادس من شهر أبريل / نيسان / 1956، وقعت في المكان ذاته (الجرف) معركة أخرى أحرز فيها جيش التحرير انتصاراً رائعاً على فيالق ضخمة من القوات الاستعمارية، مدعمة بسرب من الطائرات المقاتلة وبعض الطائرات العمودية (الهليكوبتر) وعدد وافر من رجال المظلات. وقد روى بعض أبطال هذه الأيام المجيدة تفاصيل الْمعركة بقولهم:

" تصوّروا ناحية كلها جبال شاهقة وصخورعالية ومغاور عميقة وشعاب ملتوية، يشقّها وادٍ بعيد الغور، وبها مكامن يتعذر الوصول إليها. ولقد وردتنا معلومات أكيدة بأن فرقة كبيرة من جيوش الأعداء تضم الجنود الشبّان الذين قدموا حديثاً من مدينة (نانت) الفرنسية قد كلفّت باقامة مراكز للمراقبة في تلك الناحية (المشكوك فيها). وكانت تلك المعلومات الواردة من مصلحة (استعلاماتنا) دقيقة جداً، إذ مكنتنا من معرفة المسالك التي ستمر بها الفرقة المذكورة، وكذلك أوقات تحركها، ومواعيد توقفها في كلِّ مرحلة من المراحل، وحتى عدد جنودها ونوع أسلحتها وأسماء ضباطها. ولم يَبْقَ

علينا إلا التهيؤ لاستقبالها والاستعداد للقضاء عليها.

وعلى هذا، فما انبثق فجر 6 نيسان / ابريل، حتى كان جميع رجالنا على علم بتفاصيل العملية التي سيتم تنفيذها، إذ ان من مبادئ جيشنا الفتيّ أن يعرف المجاهدون دائماً هدفهم، والى أين هم قاصدون، وماذا يريد قادتهم منهم، وكثيراً ما تدرس مخططات العملية، ويتم الإعداد لها بحضورهم ومشاركتهم الفعلية.

قام الضباط والموجهون السياسيون بتزويد المجاهدين بتعليماتهم الأخيرة. والتحق كل رجل بمركزه المحدد له، ونصبت الرشاشات الثقيلة منها والخفيفة في المراكز المناسبة، وانتشرت البنادق الرشاشة والمدافع الصغيرة في أماكنها، كما أختار (مهرة الرماة) أفضل المواقع المناسبة لهم بأعلى الجبال وبين الصخور. وكمن الجميع بانتظار العدو الذي بات من المتوقع ظهوره بين فترة وأخرى. ولم يطل الانتظار، فما هي إلا فترة وجيزة حتى بدأت جنبات الوادي العميق والعاري من كل نبات، في تردد أصداء هدير المحركات، وأيقن المجاهدون، وهم ينتظرون بصمت وخشوع، أن عدوهم بات قريباً منهم، ففيم كانوا يفكرون في تلك اللحظة؟... هل كانوا يفكرون في وطنهم المكبل بالقيود منذ مئة وخمس وعشرين سنة؟ أم كانوا يفكرون في ما لحق بهم من ضروب الذل والهوان في وطنهم؟ أم كانوا يفكرون في آبائهم ونسائهم وأطفالهم الذين خلفوهم وراءهم في المدن والقرى؟؟

لقد اعترف الكثيرون من أولئك الأبطال الذين خاضوا المعركة، فيما بعد، بأنهم ما فكروا إلا في إخوانهم المجاهدين الذين تصدوا في القرن الماضي للهجمات الافرنسية، خصوصاً وأن أحد المندوبين كان قد حدثهم في الليلة السابقة عن أولئك (المسبلين) الأماجد الذين كبلوا أنفسهم في القيود تأكيداً على تصميمهم على الثبات أمام الجيوش الافرنسية، ومنعها من احتلال قريتهم أو الموت دونها. هذا بينما كان آخرون يفكرون في أصدقائهم ورفاقهم الذين سبقوهم إلى الشهادة في المعارك السابقة.

على كل حال، وبينما المجاهدون في صمتهم وترقبهم، تناهى إلى سمعهم صوت أيقظ انتباههم، ووجّه أبصارهم نحو العدو وقد بدت طلائعه. لقد سمعوا آذاناً وتكبيراً

صادراً عن أعلى الربوة، وأخذوا في انتظار سماع صوت المؤذن وهو يرسل تكبيراته من التل المقابل ليطلقوا نيرانهم. وما هي إلا لحظة حتى ترددت صيحة (اللـه أكبر). ودوت في الجبال طلقات الرماة الأحرار. وانهمر الرصاص على الأعداء، فتوقفت سياراتهم وشبّت فيها النيران من كل جانب، وانتشرت الفوضى، وهيمن الاضطراب على قوات العدو، وما هي إلا ربع ساعة حتى تكدست الجثث، لم يَنْجُ من الموت إلا بعض الجرحى، فخرج إذ ذاك المجاهدون من مكانهم، واستولوا على كميات مذهلة من الأسلحة والذخائر.

لم يثمل المجاهدون بما أحرزوه من نصر، فقد كانوا على ثقة بأن العدو سيرسل نجدات عاجلة لإنقاذ قواته ودعمها، فكان لزاماً عليهم التربّص لهذه القوات. وفي الحقيقة، فإنه لم تمضِ فترة طويلة حتى ظهرت قوات جديدة وهي تقترب من مسالك الجبال، بالإضافة إلى تلك القوات من المظليين التي أخذت في الهبوط من الطائرات العمودية، وكانت الامدادات تتدفق من كل مكان. ولاحظ المجاهدون أن هناك بعض مفارز المظليين (ذوي القبعات الحمراء) قد جاؤوا من (تبسة) ذاتها. واستمر تقاطر القوات طوال فترة المساء، واستؤنف في اليوم التالي. عرف المجاهدون أن بانتظارهم موقعة ستكون من أقسى المعارك التي دارت رحاها بين المجاهدين وبين قوات الاستعمار الفرنسي، منذ أن اندلعت نيران الثورة.

كان الرماة المجاهدون، وهم في مكامنهم العالية المنيعة، يطلقون النيران الكثيفة من رشاشاتهم على الطائرات المقاتلة والطائرات العمودية حتى يمنعوها من الهبوط. وكانت الطائرات المقاتلة مختلفة في أنواعها، منها قاذفات القنابل ومنها المطاردة – الاعتراضية... إستمرت الاشتباكات العنيفة طوال الليل، على ضوء الشهب المنيرة التي كانت تطلقها الطائرات الافرنسية فتحيل ليل المعركة نهاراً. وتجددت الاشتباكات بوتيرة متصاعدة في الساعة الخامسة والنصف من صباح الغد. وأظهر المجاهدون من الإقدام والثبات بقدر ما أظهروه في معركة اليوم السابق، وما وَهنَ لهم عزم، ولا ضعفت منهم إرادة، ولم يفتر تصميمهم في وقت من الأوقات عن طلب النصر أو الشهادة. ولهذا لم يكن يهمهم الاسراع لملاقاة عدو يتفوق عليهم بكثرة عدده ووفرة عتاده وتفوّق أسلحته.

وجدير بالذكر أن المجاهدين أفادوا في معركتهم من الأسلحة والذخائر التي غنموها في معركتهم الأولى، فكبدوا العدو خسائر فادحة، وكانت رمايات المجاهدين مميزة بدقتها وإحكامها، بحيث أنه قلما انطلقت رصاصة إلا وأصابت معتقلاً من جند العدو. وأثناء ذلك كان سيل قوات العدو مستمراً في تدفقه، وقد تمكنت هذه القوات من تشكيل سياج وحاصرت المجاهدين قوة ضمت آلاف الجنود الافرنسيين المدعومين بست طائرات مطاردة، واثنتي عشرة طائرة عمودية (هليكوبتر) وثلاث طائرات استطلاع (بيبر كاب)، وعدد من جنود المغاوير البحرية (ذوي القبعات الخضراء – المظليين أيضاً) والذي استمر إنزالهم خلف قوات المجاهدين طوال ساعات عديدة، وقد أحاطوا بميدان المعركة على مساحة قدرها خمسون كيلو متراً مربعاً. وظهرت للمجاهدين خطة العدو واضحة تماماً: إنه يريد تدميرهم وإبادتهم. غير أن ذلك لم ينل من روحهم المعنوية، فرفعوا أصواتهم بالنشيد الوطني (وعقدنا العزم أن تحيا الجزائر) ذلك النشيد الذي بات لحناً حلواً على لسان الجزائريين، رجالهم ونسائهم وأطفالهم، والذي باتت تردد أصداءه الجبال والوديان وجدران السجون والمعتقلات والمحتشدات.

قرر المجاهدون الخروج من دائرة الحصار، ووضعوا خطتهم، وأعادوا تنظيم قوتهم، واختاروا النقطة التي سيفتحون فيها ثغرتهم، وقاموا بالانقضاض مستخدمين كل قوة نيرانهم، وأمكن لهم شق طريقهم، وخلفوا العدو وراءهم. غير أنهم لم ينسوا في مأزقهم، وبالرغم من سرعة انسحابهم، ان يحملوا معهم ما غنموه من السلاح، بقدر ما تسمح لهم قدرتهم على الحمل، فكان في غنائمهم: " 25 رشاشة ، و 7 بندقيات رشاشة، ومدفعان من عيار 60، و 7 بندقيات من نوع ماس 49، و 4 بنادق من نوع ماس 36، علاوة على كمية وفيرة من المسدسات والعتاد وأربعة أجهزة لاسلكية (مرسلة آخذة) راديوفون ".

لقد تناقضت البلاغات الافرنسية التي صدرت بصدد هذه المعركة، وحاولت الصحافة الافرنسية والأجهزة الاعلامية التابعة لها، التخفيف من حجم الخسائر. غير أن أحد كبار الضباط الفرنسيين ذكر بأن (معركة الجرف) قد أسفرت عن مصرع (374) رجلاً بينهم عدد من الضباط، هذا بالاضافة الى مئات الجرحى. وخسر المجاهدون مقابل

ذلك ثمانية قتلى و (21) جريحا.

وتمكن المجاهدون، من اسقاط (6) طائرات عمودية (نموذج سكورسكي)، وطائرة مطاردة (نموذج تندر بلت)، واصابة طائرة (بيبر كاب)، مع احراق (7) سيارات كبيرة من سيارات نقل الجند، علاوة على تدمير كميات من اعتدة العدو وتجهيزاته القتالية.

المراجع

1 – بسّام العسلي " جيش التحرير الوطني الجزائري ". دار النفائس. بيروت. الطبعة الأولى 1984. ص 118 – 123.

2 – مجلة " المجاهد " (الجزائرية). العدد 9. بتاريخ 20 آب 1957.

3 – وثائق المحافظة السياسية والمتحف الوطني للمجاهد.

معركة مدينة الجزائر

كانت البوادر الأولى لغليان ثوري (في الجزائر) تلك التي سجلتها مصادر الاستخبارات الفرنسة في مطلع عام 1954. فقد كان الوطنيون (الجزائريون) يجندون القادرين على حمل السلاح ويستجمعون الأسلحة وينشطون في التدريب والتخطيط في سبيل انتفاضة تهدف إلى نيل الاستقلال عن فرنسا. ولم تكن القيادة الفرنسية الأولى، ولن تكون الأخيرة في التاريخ، بين القيادات المتغطرسة التي لم تعرْ التحذيرات إهتماماً.

في 31 تشرين الأول (اكتوبر) 1954، كان عالم فرنسي متخصص بعلم أجناس البشر قد تلقى في أثناء قيامه بتسجيل أغان في قرية جبلية (جزائرية) تحذيراً من صديق له يدعوه إلى الفرار لأن " الموعد (موعد قيام الانتفاضة أو الثورة) سيكون غداً ". وتناهى التحذير نفسه إلى أوروبيّين آخرين كانوا منهمكين بأبحاث في مجتمعات محلية نائية. واستطاع الجميع اللجوء إلى أقرب بلدة كبيرة ما عدا زوجين كانا يجولان في الأرياف. وفي الموعد المضروب، الساعة الثالثة من صباح يوم الأحد الموافق الأول من تشرين الثاني (نوفمبر)، كان يوم عيد جميع القدّيسين، تأهبت 70 مجموعة من رجال الغوار الجزائريين (بضع مئات من المسلحين بأسلحة قديمة وقنابل محلية الصنع) لمهاجمة مراكز القوات الفرنسية من شرطة وجيش ومرافق عامة على امتداد الساحل الجزائري المطلّ على البحر الأبيض المتوسط. وكانت مهمة إشعال الانتفاضة من نصيب الثوار المنتشرين في منطقة جبل الاوراس التي وضعها قادة الانتفاضة بـ " معقل الثورة ". وكان الجزائريون " المعتدلون " هدفاً رئيساً أيضاً. أما المدنيون الأوروبيون فكان المقرر تركهم وشأنهم.

وتحرك بعض الذين نفذ صبرهم أو الذين لم يبلّغوا في وقت مبكر جداً. فبدأت الحوادث قبل منتصف الليل في مكان قريب من شمال مدينة الجزائر، حيث نسفت جسور وهوجمت مستودعات أسلحة وذخائر وفجّرت بعض قنابل داخل العاصمة.

وإلى الغرب، في ثاني أكبر المدن الجزائرية " وهران "، فوجئ الثوار الذين كانوا متوجهين إلى مواقع الهجوم بمدني فرنسي تمكن من تنبيه الشرطة بعد إصابته إصابة مميتة. وفي " بسكرا " حتى تفتح أراضي الأوراس الجبلية الطريق نحو القيافي الصحراوية التي تغطي أربعة أخماس الجزائر، دهم الثوار مركز الشرطة المحلّي قبل نصف ساعة من الموعد المحدّد. وباتصال هاتفي بعامل ولاية " بطنة " أشعلت الأنوار ودقت النواقيس انذاراً بالخطر فغادر المهاجمون مواقعهم باكراً. وفي أثناء توجههم إلى موقع آمن في الجبال أطلقت مجموعة منهم النار على جنديين (فرنسيين) كانا يحرسان مدخل معسكرهما، وقتل الجنديان فكانا أول عسكريين فرنسيين يسقطان في الحرب (الجزائرية) التي كانت آخر حروب التاريخ الاستعمارية والتي استمرت دامية مدة 88 شهراً ونصف الشهر.

قام فريق من الثوار بدحرجة صخور ضخمة على طريق بطنة - بسكرا الممتد في وادي تيغانيمين ذي المناظر الأخاذة. وكان مسؤول جزائري محليّ موالٍ للفرنسيين يتوقع في أثناء وجوده في حافلة ركاب الوصول إلى موقع الكمين في الساعة السابعة صباحاً تقريبا. وصودف أن كان الزوجان المفقودان يستقلاّن الحافلة نفسها، وعقب توقف الحافلة ذات اللونين الأخضر والأصفر بدقائق، تردّدت أصداء طلقات رشيش من طراز " ستن " من جنبات الممر الصخرية. وأُرسل المسؤول الجزائري وهو يشارف على الموت في الحافلة ليكون عبرة لمن تسول له نفسه التعاون مع الفرنسيين.

في اليوم نفسه، أعلنت إذاعة القاهرة تشكيل جبهة التحرير الوطني الجزائرية التي حدّدت هدفها بـ " الاستقلال الوطني ". لكن إذا كان قادة الجبهة المسؤولون عن هجمات الأول من تشرين الثاني (نوفمبر) قد أملوا بقيام انتفاضة شعبية، فقد كانت النتائج مخيبة، وبفشلهم، عموماً، في تحقيق أهدافهم، توارى الثوار في جبال الأوراس والقبايل الوعرة الموحشة.

أرسل الجنرال (الفرنسي) " بول شيريه " P. Cherrier " القائد الأعلى للجيش الفرنسي في الجزائر وكان لقبه " بابار " بسبب ضخامته، جنوداً في أثر الثوار. وعقب ذلك الكثير من عمليات الاعتقال العشوائي التي دفعت عدداً كبيراً من " المشبوهين " إلى

الالتحاق بصفوف الجبهة. ووصف الحاكم الفرنسي العام في الجزائر الانتفاضة القصيرة بأنها " مزعجة لكنها غير دراماتيكية ". وأوجز فرنسوا ميتران، وزير الداخلية الفرنسية آنذاك ورئيس الجمهورية الفرنسية لاحقاً، مشاعر مواطنيه بقوله: " الجزائر هي فرنسا ".

وفيما استعاد " الجزائريون " الأوروبيّون حياتهم الطبيعية في وقت قصير، وصلت فرقة المظليين 25 من فرنسا للمساعدة في وأد جبهة التحرير الوليد. وجرت ملاحقة ثلاثة من قادة الجبهة التسعة فقتل أحدهم على يد القوة المظلية واعتقل الآخران. وفي البحث عن سبب خارجي لمشكلة داخلية، اتهم الفرنسيون الرئيس المصري جمال عبد الناصر بتزويد الجبهة ملاذاً ودعماً محدودا.

وجاء الجمود النسبي الذي عقب حوادث الأول من تشرين الثاني (نوفمبر) تعبيرا خاطئا عن استياء الجزائريين الدفين. فقبل قرن وربع قرن ضرب الداي الجزائري الحاكم القنصل الفرنسي على وجهه ونعته بـ " السافل المشعوذ الكافر " وتذرّع ملك فرنسا " شارل العاشر " بتلك الإهانة حجة للتدخل، فاستولت فرنسا على الجزائر في 5 تموز (يوليو) 1830 وضمت البلد كله واعتبرته مستعمرة فرنسية بعد ذلك بأربع سنوات.

وبخلاف إرادة الجزائريين، رست سفن مكتظة بالمستوطنين الأوروبيين (كانت نسبة الفرنسيين بينهم 20٪ فقط) في موانئ جزائرية ونزل المستوطنون لينهضوا باقتصاد البلاد ويمتلكوا ناصية الحكم، وعام 1848 أعلن مرسوم اعتبرت الجزائر بمقتضاه جزءاً من فرنسا وحُدّد هدف مؤداه أن الفرنسيين سيحققون مضمون المرسوم من طريق سياسة الاستيعاب.

وحوّل تصادم المصالح الفرنسية بالمصالح الجزائرية، ولا سيما عقب رسوخ الهيمنة الأوروبية، إلى بركان بدا في منقلب القرن بركانا خامدا ليس إلا.

وقد حمل ألوف الجزائريين الذين خدموا في الجيش الفرنسي خلال حربين عالميتين ومئات الألوف الذين عملوا في مصانع فرنسية الخبرات المكتسبة إلى بلدهم، فحركوا مكامن التغيير الجذري في الجزائر الحديثة. وفي يوم انتصار الحلفاء في 8 أيار (مايو) 1945، انفجر البركان في صطيف وامتدت حممه إلى مجتمعات أخرى.

وفي قتال دام خمسة أيام مات نحو 100 أوروبي، وقدّر عدد الجزائريين الذين قتلوا على يد عناصر عسكرية ومدنيّة بـ 1300 – 4500 شخص. وبات الجنرال " ريمون دوفال " في وضع يتيح له التأكيد بعد تمام الفرز بين فرنسيين وجزائريين بأنه " استعاد السلام عشر سنوات ".

لقد كانت هناك عناصر بشرية مختلفة كفيلة بتأجيج الصراع، أولا، كان هناك التسعة ملايين جزائري الذين ارتقت رغباتهم في المساواة ضمن الإطار القائم إلى الاستقلال التام. والأشد راديكالية بينهم توحّدوا تحت لواء جبهة التحرير الوطني، واستقر ثلاثة من قادتهم التسعة في القاهرة. وفي ضوء الدروس المستقاة من العمل السّري الذي شهدته الحرب العالمية الثانية وحروب الهند الصينية، قسمت جبهة التحرير الجزائر – وهي سادس أكبر البلدان في العالم – إلى ست مناطق حربية مستقلة سميت " ولايات ". وشكل جيش التحرير الوطني ذراعاً عسكرية للجبهة. والمتطرفون بين القادة، شأنهم في ذلك شأن جميع الثوار الذين ينطلقون في كفاحهم بامكانات ضعيفة، كانوا ينظرون إلى المصلحين وأصحاب الحلول الوسط بعين الاحتقار. ويجهدون في المقابل في دفع مالكي زمام القوة نحو مزيد من التشدد.

ثانيا، كان هناك المليون مستوطن أوروبي الذين كانوا يعرفون بـ " ذوي الأقدام السوداء " Pieds Noirs (إشارة إلى عملهم منظفين للأرض في بداية استيطانهم) والذين كانوا مجمعين عملياً على إدامة " سياسة " الأمر الراهن. وثالثاً، هناك الحكومة الفرنسية التي كانت لا تزال تعاني مرارة تصفية الامبراطورية (الفرنسية) في الهند الصينية، وكانت في الوقت عينه منبهرة باكتشاف حقول النفط الزاخرة في صحراء أفريقيا الشمالية.

وأخيراً، كان هناك الجيش الفرنسي الذي كان قادته يعتبرون الوطنية والشيوعية وجهين لعملة واحدة، وكانوا عازمين على عدم تكرار هزيمة جنوبي شرقي آسيا مهما كلف الأمر.

على الرغم من شراسة أعمال المطاردة التي واجهتها عناصر جيش التحرير الوطني (حيث انخفض عدد مقاتلي إحدى الولايات الرئيسية إلى 200 رجل،

وانخفض عدد قطع اسلحتها إلى 170 قطعة)، فقد استمرت عمليات التخريب وتكتيكات " اضرب واهرب ". وكان الرد دوماً عقوبات جماعية شديدة تتحمل أوزارها القرى الجزائرية.

وفي 20 آب (أغسطس) 1955، أعلن قادة الولاية، في المنطقة الشمالية الشرقية حرباً على الأوروبيين " لا هوادة فيها ولا شفقة " واندفعت الجموع الثائرة فجأة في شوارع مدينة سكيكدة (التي كانت تعرف بـ " فيليبفيل " آنذاك). وراحت القنابل اليدوية تدوي في مؤسسات تجارية، وبين المارة من راكبين وراجلين. وطفق الجزائريون، رجالاً ونساء وأطفالا، يهاجمون الأوروبيين بعنف شديد. وردّت الوحدات العسكرية الفرنسية بعنف أشد، بمؤازرة من " ذوي الأقدام السوداء ". وطاول العنف 26 تجمعا سكنياً، وأسفر – حسب إحصاءات غير موثوقة – عن مقتل 71 أوروبيا و 52 جزائرياً من المتعاونين مع الفرنسيين وما راوح بين 1273 و 12 ألف جزائري.

وقد استطاع الجيش الفرنسي الذي اهتزت معنوياته في بداية حرب المناوشات بفعل اتساع نطاق هذه الحرب من جهة وفرار العناصر الجزائرية من صفوفه من جهة أخرى استطاع أن يحافظ على مكانته العسكرية. وقد ازداد عددا حتى بلغ حوالي نصف مليون جندي، واستخدم الحّوامات في عملياته، والثوار من جانبهم تعلموا كيف يحسنون من تنظيمهم وتسليحهم، وقد ارتفع عددهم، على الرغم من الخلافات الداخلية، إلى نحو 20 ألف عضو مع بداية عام 1956. وبعد سقوط حكومتين فرنسيتين (بفعل الأحداث في الجزائر)، عقدت جبهة التحرير الوطني / جيش التحرير الوطني اجتماعاً سرّياً في منطقة القبايل الجبلية. ومن النقاط التي ناقشها الاجتماع نقطة شن حملة " ارهابية " في الجزائر العاصمة التي اقتطعت من الولاية وجُعلت منطقة حربية منفصلة. والغرض من ذلك الرد على الهزائم العسكرية ولفت المجتمع الدولي إلى الصراع الدائر في الجزائر.

كانت الجزائر العاصمة، بأبنيتها البيضاء المنثورة على تلال مخضوضرة والمطلة على خليج لازوردي، كناية عن حيّ قديم إسلامي الطابع ذي أروقة متعرجة ومدينة جديدة مترامية ذات معالم حديثة على الطريقة الباريسية يجاورها الحيّ الإسلامي ويقع في جانبها الشمالي حي (باب العويد) خاص " بذوي الأقدام السوداء " وفي جانبها

الجنوبي الشرقي حيّ بلكورت الفقير.

اشتعل العنف العشوائي بين سكان المدينة (وكان عددهم 900 ألف نسمة) عقب قيام الفرنسيين بقطع رأسي جزائريَّيْن في سجن بربروس مستخدمين في ذلك المقصلة لأول مرة، وأعلن جيش التحرير الوطني أن مئة فرنسي سيقتلون مقابل إعدام أي واحد من الثوار. وأمر سعدي ياسف، رئيس عمليات التحرير في مدينة الجزائر بـ " قتل كل ذكر أوروبي تراوح سنّه بين 18 و 54 عاماً ".

ومن سخريات الأمور، أن ياسف تحول بعد اعتقاله مرة، إلى عميل مزدوج يزوّد كلا من الفرنسيين وجبهة التحرير بمعلومات، وبصرف النظر عن ولائه الظاهر، خف رجاله إلى العمل الانتقامي يوم الخميس الموافق 21 حزيران (يونيو) 1956. وبحلول يوم الأحد، كانوا قد صرعوا 49 أوروبياً. وردت مجموعة إرهابية تابعة " لذوي الأقدام السوداء " بزرع عبوة ناسفة أدى انفجارها إلى مقتل 70 مواطناً وتهديم أربعة منازل في المدينة القديمة.

وفي حيّ القصبة العابق برائحة زيته وتوابله الزكية، عزم بن مهيدي ونحو 1500 من رجاله النشيطين على العمل داخل المدينة. وكان بن مهيدي واحداً من مؤسسي جبهة التحرير الوطني. وقد طلب إلى " ياسف " البدء بتنظيم حملة تفجيرات. ولم يلبث ياسف أن شكل فريقاً لهذا الغرض راوح عدد أفراده بين 50 و 150 رجلاً وامرأة.

وفي يوم الأحد الواقع فيه 30 أيلول (سبتمبر) صبغت ثلاث شابات جزائريات شعرهن الأسود ولبسن ثياباً أوروبية ملونة بدلا من اللباس النسائي الجزائري التقليدي، وحين خرجن من حي القصبة كانت كل واحدة منهن تحمل قنبلة يدوية صنعت محليّاً على يد طالب كيمياء، وقد أوقفت إحداهن، وكانت طالبة في كلية الحقوق في الثانية والعشرين من العمر، عند نقطة تفتيش عسكرية. وفات العسكري الفرنسي الذي دقق في هويتها أن يفتش الحقيبة التي كانت في يدها. فتابعت سيرها إلى ساحة ديجو التي كانت تتصدر شارعاً جديداً أنيقاً غير بعيد عن مؤسسات رسمية رئيسة. ثم دخلت مقهى " ميلك بار " الذي كان يرتاده أفراد من " ذوي الأقدام السوداء "، ووضعت الحقيبة تحت إحدى الطاولات ثم غادرت المكان.

على بعد نصف ميل أو أكثر، حيث شارع كان يدعى ميشليت، وضعت ساعية الأخضري، وكانت طالبة حقوق أيضاً، حقيبتها الملغومة في " كافيتريا ". أما الفتاة الثالثة، وهي جميلة بوحيرد، فتوجهت إلى غرفة انتظار شركة " اير فرانس " في مطار المدينة وتركت الحقيبة في موضع مناسب، وفي الساعة السادسة والنصف مساء انفجرت قنبلتا المقهى والكافيتريا وأوقعتا أضراراً مادية وخسائر في أرواح الأوروبيين قدرت بثلاثة قتلى و 50 جريحاً. أما قنبلة المطار فلم تنفجر. وبانفجار المزيد من القنابل – قنبلتان انفجرتا في حافلتي ركاب في 5 تشرين الأول (أكتوبر). وقنابل أخرى في مخازن ومقاه وأماكن عامة في تشرين الثاني (نوفمبر) – ساد الخوف المدينة كلها.

بيد أن أحداثاً خارجية عدة وقعت، وكان لها دور في ما جرى، فالمحميتان الفرنسيتان المغرب وتونس نالتا الاستقلال. وما لبثتا أن مدتا يد المساعدة إلى جبهة التحرير الوطني الجزائرية. عندها، نفّذت فرنسا عملية اختطاف طائرة ركاب مدنية كانت تقلّ أحمد بن بللا وثلاثة آخرين من مؤسسي جبهة التحرير من المغرب إلى تونس. وكان ذلك العمل انتصارا تكتيكياً ولكن هزيمة استراتيجية. فالمحادثات السرية التي كانت تجري بين فرنسا والجبهة حينذاك قد تعثرت، والمغرب – مالكة الطائرة المخطوفة – وتونس توقفتا عن الحضّ على مفاوضات سلمية وزادتا من دعمهما للجبهة في مجهودها الحربيّ. واعتقال القادة الجزائريين الأربعة أنهى الخلافات بين سائر القادة.

وكان آخر العناصر، وإن لم يكن الأخير، اشتراك فرنسا مع بريطانيا وإسرائيل في غزو مصر. فالجيش الفرنسي الذي تعرض لغضب الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي عقب إبعاده بصورة موقتة عن أهدافه في الجزائر عاد يجرّ أذيال الهزيمة ليلقي باللائمة على " السياسيين ".

في كانون الأول (ديسمبر) 1956 صعّد بن مهيدي وياسف وتيرة العمل في الجزائر وكانت أداتهما في هذا السبيل فنان من حيّ القصبة يدعى علي عمارة (لقب Ali la pointe) وكان شعار علي فلسفة مدوّنة باختصار على صدره " تقدمّ أو مُت ". وفي 28 / 12، نصب علي، الذي شارك عام 1966 في فيلم سينمائي بعنوان " معركة الجزائر " مكمنا لرئيس بلدية بوفريك ورئيس اتحاد بلديات الجزائر المحافظ

الفرنسي، Amedée Froger تمّ اغتياله في شارع ميشليت. وفي اليوم التالي، وخلال تشييع المسؤول الفرنسي انفجرت قنبلة، فردّ عناصر من " ذوي الأقدام السوداء " بمهاجمة أحياء عربية مجاورة. وتوالت أعمال اغتيال والاغتيال المضاد حتى اضطر الوزير الفرنسي المقيم (المندوب السامي الفرنسي) بائساً إلى استدعاء ضابطين كبيرين في 17 / 1 / 1957. كان أحد الضابطين الجنرال " راوول سالان " قائد الجيش الفرنسي في الجزائر والآخر هو الجنرال جاك ماسو الذي كان قد مضى على وجوده في الجزائر سنة واحدة قائداً لفرقة المظليين 10 التي شاركت في حملة السويس البائسة.

ونقل الوزير المقيم إلى ماسو أن رجال شرطة الجزائر الـ 1500 عاجزون عن مواجهة أعمال العنف، وأن على الفرقة 10 مؤازرتهم، والأهم من ذلك هو أن قيام الوزير المقيم بمنح ماسو " المسؤولية الكاملة من أجل الحفاظ على النظام في المدينة "، أفضى إلى انتقال السلطة المدنية إلى المؤسسة العسكرية.

في الأسبوع التالي زحف 4600 جندي مظلي من أفواج ذوي القبعات الحمر الأربع إلى العاصمة في تظاهرة عسكرية واضحة. وفي الأسبوع نفسه، حاول إرهابيون من " ذوي الأقدام السوداء " قتل الجنرال سالان ظنا منهم بأن الجنرال سوف يبيع " بلدهم " كما باع الهند الصينية يوم كان قائدا للجيش الفرنسي هناك، وعندما التقى سالان الوزير المقيم عقب محاولة الاغتيال أيقن أن معركة الجزائر سوف تكون أي شيء بالنسبة إلى جيشه ما عدا شيئا واحداً هو أنها حرب تقليدية.

قام " ماسو " من خلال العقيد " ايف غودار " الذي أصبح مسؤول الأمن في الجزائر، بتقسيم العاصمة إلى أربع مناطق وجعل لكل فوج منطقة، وكانت المنطقة الرئيسة، منطقة القصبة من نصيب الفوج المظليّ الاستعماري (RPC) الثالث تحت قيادة العقيد " مارسيل بيجير " الذي سبق له أن خدم في الهند الصينية وأُسِر إبان معركة " ديان بيان فو ". وكان يعرف عن هذا الفوج الذي لقب عناصره بـ " السّحالي " بأنه من أفضل الوحدات في الجيش الفرنسي.

أحاط المظليون حي القصبة بالأسلاك الشائكة وفرضوا حظراً للتجوال. وأقاموا نقاط تفتيش، ونفذوا عمليات دهم في البيوت. وطلبت كتيبة المظليين 11 (كتيبة

الصدمه)، التي كانت تحت إشراف الاستخبارات المركزية الفرنسية، من الشرطة ملفات " مشبوهي " جبهة التحرير / جيش التحرير الوطني. وبعد 24 ساعة وزعت على أفواج ماسو قوائم إسميّه بأولئك " المشبوهين " وبدأت عمليات اعتقال جماعية. وقد ذكر أن كتيبة المظليين 11 كانت أحد العناصر المنضوية تحت منظمة " الكف الأحمر " التي اتبعت أساليب الاغتيال والتعذيب والتخريب للقضاء على عمليات تهريب الأسلحة من أوروبا إلى جيش التحرير الوطني بين عامي 1956 و 1958.

وقام بن مهيدي بخطوته الثانية التي حدد زمانها في سبيل " منح مندوبينا في الأمم المتحدة سلطة لانزاع فيها " بالدعوة إلى إضراب عام في 28 كانون الثاني (يناير) وكان الرد الفرنسي كما جاء على لسان الوزير المقيم: أحبطوا الإضراب بأي ثمن. وراحت مكبرات للصوت ركبّت على سيارات جيب عسكرية ومنشورات ألقيت من حوّامات تدعو السكان إلى العودة إلى أعمالهم. ولا من مجيب. عندئذ أرسل " ماسو " سيارات وشاحنات مصفحة إلى الجزائر العاصمة لنقل المضربين إلى أماكن عملهم بالقوة عقب تحطيم أبواب المحلات والمؤسسات. وجرى الأمر نفسه في مدن أخرى، وهو ما قلّص مدة الإضراب من ثمانية أيام إلى يومين.

في هذه الأثناء، أشعل ياسف موجة جديدة من أعمال النسف، فانتدب نساء لنقل قنابل أصغر حجماً وأشد فاعلية إلى أماكن اللهو والمطاعم والملاعب الرياضية. وسقط من الأوروبيين من جراء ذلك 15 قتيلاً و 105 جرحى.

ورأى الفرنسيون أن الاجراءات الوقائية الموقتة ليست بدلا من المعلومات الدقيقة الكفيلة باختراق قلب جبهة التحرير الوطني في عقر دارها: حي القصبة. ولذلك، نهج القادة العسكريون الفرنسيون في الجزائر طريقة سبق لعناصر الغستابو الألمان أن استخدموها ضد رجال الكفاح السّري إبّان الحرب العالمية الثانية. علما بأن فرنسا كانت قد ألغت استخدامها عام 1789، وما الطريقة المقصودة سوى التعذيب.

أنشئت " أجهزة حماية المناطق المدنية " (D P 4) كجزء من شبكة استخبارات متعددة الوكالة تحت قيادة العقيد " روجر ترانكييه ". وقامت هذه الأجهزة بتقسيم الجزائر إلى مناطق صغيرة متناهية الصغر، حتى بلغ الأمر حد اعتبار المبنى الواحد منطقة أمنية.

إذ طُلب إلى هذا تحمل مسؤولية أعمال اسرته وطُلب إلى ذاك تحمل مسؤولية البناية التي يقطن فيها وعُيّن ثالث مسؤولا عن مجموعة أبنية... وهكذا. وتمّ تجنيد مخبرين وعملاء مزدوجي الولاء. وأحيل " المشبوهون " إلى " مفارز عمليات الحماية " التي كانت، حسب قول ماسو، مجموعات متخصصة باستجواب المشبوهين الذين يرفضون الإدلاء بأي شيء.

وأتاحت الاستجوابات واللقاءات التي رتبت بين المعتقلين والمتهمين المقنّعين وأعمال التعذيب الحصول على معلومات قيّمة. ومن أبرز وسائل التعذيب التي استخدمت في أثناء التحقيقات الصدمات الكهربائية والوسائل التي استخدم فيها الماء. وقد قدّر صحافي أن 30 – 40٪ من شبان القصبة ورجالها قد اعتقلوا على فترات خلال معركة الجزائر. كما قدّر أن أكثر من 300 شخص " اختطفوا " في أثناء جلسات التحقيق.

وعلى الرغم مما أثارته أعمال التعذيب من جدل، فقد بدا أن تقنيات الجيش الفرنسي فاعلة. فقد قبض على الإرهابيين، كان منهم أوروبيون يساريّون، وجرى البحث عن أماكن المخابئ ومصانع القنابل. واستخدمت " سحالي " العقيد بيجير الحوّامات في إغارات دهم خاطفة من فوق سطوح بيوت حي القصبة. وتمّ الاستيلاء على متفجرات وأجهزة تفجير. وفي شباط (فبراير) اعتقل بن مهيدي في أثناء وجوده في منزل في شارع كان يعرف بـ " كلود ديبوسي " وبعد وقت قصير وجد ميتاً. وبرّر مكتب الوزير المقيم ذلك بأن بن مهيدي شنق نفسه في زنزانته مستعينا بخرق قدّها من قميصه. غير أن بيجير اعترف بعد 27 سنة بأن " بن مهيدي قد عذّب ثم قُتل على يد الأجهزة الخاصة ". لم يبق من القادة الثوار التسعة طليقا سوى واحد.

بحلول آذار (مارس) 1957، ارتفع خطر المتفجرات عن شوارع الجزائر العاصمة. وانصرف جنود بيجير إلى المناوشات في الريف. غير أن سعدي ياسف وعلي عمران عزما على انتهاز فترة الهدوء لإعادة تنظيم مجموعاتهما واستئناف عملية الإنتقام.

في 3 حزيران (يونيو) قام عدد من الرجال المتنكرين بثياب شركة طاقة حكومية بزرع قنابل تحت عدد من عمد النور، وكان الوقت ظهراً، وبعد ساعات، انفجرت القنابل فسقط مئة شخص بين قتيل وجريح. معركة الجزائر لم تكن قد انتهت بعد.

بعد ذلك بستة أيام، قام شاب يعمل في ملهى ليليّ أوروبي بزرع قنبلة شديدة الانفجار تحت منصة الفرقة الموسيقية. وعند المساء، وفيما كان الملهى يعجّ برواده من " ذوي الأقدام السوداء " انفجرت القنبلة وأوقعت 8 قتلى على الأقل وعشرات الجرحى، فعمد أفراد من " ذوي الأقدام السوداء " إلى مهاجمة محلات الجزائريين وبيوتهم وقتلوا 5 جزائريين وجرحوا 50 آخرين ونهبوا مئات المحلات وأحرقوا 20 سيارة.

واستدعى المقيم العام مظليي بيجير والفرقة الأجنبية على عجل، وسُرّب جزائريون متعاونون مع الفرنسيين إلى حي القصبة، وطافت دوريات في أزقة الحي المتشعبة، وكثفت عمليات تفتيش البيوت واستؤنفت إجراءات التحقيق.

وبرزت النتائج الأولية لكل ذلك في 20 آب (أغسطس) عندما حوصر مكان وجود اثنين من رجال ياسف. وقد قتل عدد من رجال كتيبة الزواق 9 قبل أن يصل جنود من الفوج المظلي الاستعماري بواسطة الحوّامات. وكانت الأوامر تقضي بالقبض على المحاصرين أحياء. ولجأ الجنود إلى مكبر للصوت كي يقنعوا المحاصَرَيْن لتسلم نفسيهما لقاء ضمان سلامتهما. وجاء الردّ: " حسنا. ليكن الوعد خطيا... وسترسل شروطنا في سلة ". وبعد وقت قصير، تدلّت سلة من نافذة. وما أن توجه إليها اثنان من المظليين حتى انفجرت وطرحت الجنديين أرضاً في مكان بعيد. وفجأة، انفتح باب المنزل المحاصر وخرج منه رجلان. فقتل أحدهما على الفور في حين قُتل الثاني في أثناء محاولته إلقاء قنبلة يدوية.

واستمرت الانفجارات واستمر استخدام المقصلة في إعدام الثوار. وقادت التحقيقات المتلاحقة مظليي الفرقة الأجنبية الذين كانوا مرابطين غرب الجزائر إلى شارع كان يعرف بـ " 3 كانون ". وكان ذلك آخر مخبأ لسعدي ياسف الذي تمكن من مغادرته وهو متنكر بلباس امرأة. وسدّ المظليون منافذ الشارع نهار 24 أيلول (سبتمبر) واقتحموا منزلا كان يحمل الرقم 3 وهم متأهبون لاطلاق النار. لكنهم لم يجدوا ياسف. وكانت جدران المنزل متقوبة. وتمّ اكتشاف ثغرة بين بيت السلّم والحمام، فاستخدمت الفؤوس لخرق الجدار. ثم صاح العقيد، قائد المظليين: " أخرج وسلّم نفسك يا ياسف، لقد

انتهيت! " فإذا بقنبلة دخانية تخرج من الثقب وتسبب في جرح العقيد وثلاثة من جنوده في أثناء محاولتهم الابتعاد. عندها، بدأ ياسف وفتاة كانت معه تدعى زهرة ضريف بحرق أوراقٍ مهمة. وتناهى إليهما صوت العقيد غودار الذي وصل لتوّه للأشراف على الإجراءات بنفسه وهو يدعوهما للاستسلام قبل تفجير المكان الذي كانا مختبئين فيه. واضطر الدخان ياسف وزهرة إلى الخروج. وقد عاش ياسف ليكتب مذكراته فيما بعد، وليصبح رئيساً لشركة إنتاج سينمائي ويشارك في فيلم معركة الجزائر. أما علي عمارة الذي حوصر مخبأه، في 8 تشرين الأول (اكتوبر) 1957، فقد قضى مع كثير من الجزائريين بعدما رفض الاستسلام. وقد استخدم الفرنسيون كميات كبيرة من المتفجرات لتهديم المخبأ، وهو ما ألحق أضراراً جسيمة في الأرواح والممتلكات المجاورة.

انتهت معركة الجزائر العاصمة وبدأ الجيش الفرنسي التركيز على حرب العصابات التي كانت لا تزال مستعرة في الأرياف. وفي أيلول (سبتمبر) أنجز " خط موريس " المكهرب (5000 فولت) الذي امتد مسافة 200 ميل بين الجزائر وتونس وعُزّز بألغام للحيلولة دون وصول الأسلحة ولإمدادات إلى جيش التحرير الوطني الجزائري. وانتقل معظم القتال إلى المنطقة الحدودية تلك عقب إجراءات إعادة توطين 1,25 مليون قروي جزائري في مواقع أخرى بهدف تسهيل الإجراءات الدفاعية وحرمان الثوار من الدعم. لقد كانت فرنسا تقطف ثمار انتصارها العسكري حينذاك، لكنها كانت أيضا تواجه هزيمة سياسية خارج الجزائر.

عقب معركة الجزائر، تأججت في فرنسا المشاعر المناهضة للحرب وتنامت الاحتجاجات الدولية على أعمال القتل والتعذيب. واستطاع ممثلا جبهة التحرير الوطني في مدينة نيويورك كسب العطف والدعم حتى أن نائب ماسا تشوستس، " جاك كينيدي " تحدث عن " شخصية الجزائر المستقلة " ولم يمض وقت حتى باركت 15 دولة حكومية جبهة التحرير في المنفى.

في أيار (مايو)، أدت خشية " ذوي الأقدام السوداء " وأوساط الجيش الفرنسي في الجزائر من صفقة سياسية إلى تمرد عسكري. ولم يبق من أمل يرتجى للحيلولة دون وقوع حرب أهلية و " إنقاذ شرف فرنسا " سوى شخصية واحدة تتمتع بكاريزما وتأثير

إيجابي: الجنرال شارل ديغول. فما أن انتخب رئيساً للجمهورية الفرنسية الخامسة في 21 كانون الأول (ديسمبر) 1958 حتى حصّن نفسه بدستور جديد ومراكز قوية ثابتة. وبعد ذلك بأشهر، ومع تصاعد أعمال العنف في الجزائر، بلْ في فرنسا نفسها، بدأت الحكومة الفرنسية محادثات سرّية مع جبهة التحرير الوطني الجزائرية في الوقت الذي كان جيش التحرير الوطني الجزائري يتلقى الضربات العسكرية المتتالية.

وجاء رد " ذوي الأقدام السوداء " والقادة العسكريين عنيفا ضد الجيش الفرنسي نفسه، وبدأ الفرنسيون يقتلون فرنسيين لأول مرة. ونشطت مجموعة من " ذوي الأقدام السوداء " عرفت بـ " منظمة الجيش السّري " (O A S) في حملات تفجير واغتيال.

وازداد الوضع تفاقما حتى قيام عدد من كبار الجنرالات الفرنسيين العاملين في الجزائر (منهم الجنرال سالان والجنرال شالي) بالانضمام إلى صفوف " ذوي الأقدام السوداء) للاستيلاء على السلطة وإطاحة ديغول. وسرت مخاوف مبالغ فيها في أن باريس سيتم الاستيلاء عليها بهجوم بري جوي، لكنها سرعان ما تبددت عقب اعتقال بعض الضباط الذين كانوا قادة ثلاثة أرتال من المظليين والدبابات كانت منتشرة في غابات خارج العاصمة الفرنسية. وخاطب " ديغول القوات الفرنسية الموجودة في الجزائر ودعاهم إلى عدم إطاعة أوامر قادتهم المتمردين. وبعد مرور أربعة أيام، انهارت محاولة " الانقلاب " وتمّ اعتقال خمسة جنرالات و 200 ضابط آخرين، في حين توارى عدد آخر من الضباط.

وفي 18 آذار (مارس) 1962، وقّعت فرنسا وجبهة التحرير الوطني الجزائرية اتفاقات تنهي نزاعاً دام سبع سنوات. وفي 13 تموز (يوليو) اعترفت فرنسا باستقلال الجزائر مسدلة الستار بذلك على حكم فرنسي دام 132 سنة وعلى حقبة استعمارية مديدة.

لقد كلفت حرب الجزائر الجيش الفرنسي 17456 قتيلا و 64985 جريحاً و 1000 مفقود. وقُتل من " ذوي الأقدام السوداء " 2788 وجرح 6700 وفقد 500 تقريباً. أما خسائر الجزائريين فغير دقيقة. ففرنسا أعلنت أنها قتلت 141000 وجرحت 7000 وأن جبهة التحرير الوطني / جيش التحرير الوطني كانا مسؤولين عن مقتل 78000 جزائري. والأرقام هذه لا تشمل الـ 4300 جزائري الذين اغتيلوا في فرنسا.

هدا في حين اشارت الجزائر إلى ان عدد ضحايا الحرب الجزائريين بلغ مليونا كاملا، وإن كانت مصادر جبهة التحرير الوطني قدرت عدد الضحايا عام 1962 بـ 300 ألف مقاتل.

المراجع

1 - مجلة " استراتيجيا ". العدد 96. شباط / فبراير 1990. ص 69 - 72 نقلاً عن:

2 - Moderne Warfare, November 1989 -

3 - محمد حربي " جبهة التحرير الوطني: الأسطورة والواقع ". ترجمة كميل قيصر داغر. دار الكلمة. بيروت. ومؤسسة الأبحاث العربية. بيروت. الطبعة العربية الأولى 1983. ص 166 - 168.

4 - Colonel Godard, les paras dans la ville, Fayard 1972. -

5 - Massu, la vaie bataille d'arger, Blon 1971 -

6 - ياسف سعدي، Souvenir de la bataille d'alger, - جوليار 1962.

7 - Serge et Bromberger, les rebelles algeriens, Blon 1958 . -

8 - Vidal Naquet, la torture dans la republique, Ed Minuit. S.D. -

معركـــة الجسر

في تاريخ العرب مواقفُ وبطولات، مليئة بالعزّة والشموخ والافتخار. كما أن بعض الصفحات من هذا التاريخ، لا تخلو من الهزائم والانكسارات وليست معركة الجسر المعروفة بمعركة " قُس الناطف "، ومن بعدها معركت " البُوَيب "، إلا علامات فاصلة على هذا الصعيد. وكلا هاتين المنطقتين هما من أرض العراق على نهر الفرات، كما أن المعارك العسكرية بدأت أولاً على الجبهة العراقية هذه، في الأيام الأولى للاسلام.

لقد كانت منطقة العراق – تلك الأيام – خاضعة للامبراطورية الساسانية الفارسية، وكانت هذه الامبراطورية قد ساعدت في عصور سابقة على قيام إمارة عربية في منطقة الحيرة، لكن عند قيام الفتوحات العربية الاسلامية كانت امارة الحيرة ليست موجودة فعلاً، كما أن الامبراطورية الساسانية كانت في القرن السابع تعاني من مشاكل داخلية سياسية واجتماعية واقتصادية خطيرة. وكانت منطقة وادي الرافدين مرتعاً للقبائل العربية منذ فترات طويلة سبقت القرن السابع. كما ان سكان العراق، وخاصة سواد الشعب في الأرياف والمدن كانوا من أصل ممتزج بالعرب، وكانوا يكرهون الفرس، وعلى استعداد للتعاون مع أيّة قوّة تنقذهم منه. ولقد كانت القبائل العربية في صراع دائم مع جيوش الامبراطورية الفارسية. وعندما كان النبيّ محمد (صلى الله عليه وسلم) يبشّر بالاسلام، حّققت هذه القبائل نصراً كبيراً على الفرس في معركة " ذي قار ". وكانت قبائل " بكر بن وائل " أعظم قبائل العرب المعادية للفرس. وفي الوقت الذي عمّ فيه الاسلام شبه الجزيرة تأثرت هذه القبائل بالاسلام، وتبنّاه عدد كبير من أفرادها.

ومع قيام خلافة أبي بكر كان أحد زعماء قبيلة شيبان من " بكر بن وائل " وهو " المثنّى بن حارثة " قد أخذ لنفسه زمام مبادرة العمل العسكري ضد الفرس. وعندما قُضي على " حركة الردّة عن الاسلام " أمر أبو بكر الصدّيق، خالد بن الوليد بالتوجّه نحو العراق والتعاون مع المثنّى، وكان هذا سنة 12 هجرية / 633 ميلادية، وسبق للمثنّى قبل وصول خالد إليه أن زار المدينة واجتمع إلى أبي بكر، فكتب له الأخير عهداً فوّض

له بموجبه العمل لصالح المسلمين ضدّ الأراضي الفارسية. وفي خلال أقلّ من عام واحد استطاع خالد بن الوليد بمعاونة المثنّى بن حارثة تحقيق عدد من الانتصارات على حاميات الحدود الفارسية مع القوات التي جاءت لنجدتها، وتتوّج عملهما بحصار مدينة الحيرة حاضرة المناذرة والاستيلاء عليها صلحاً. وقام أبو بكر بإمداد خالد بقوات جديدة وجعله قائداً أعلى لجميع القوات العربية في جبهة العراق. ولكن مكوث خالد لم يطل في العراق حيث جاءته أوامر الخليفة بالتحوّل إلى بلاد الشام حيث سيقوم بجليل أعماله التي ستعطيه شهرته التاريخية الواسعة بعد معركة اليرموك.

وبعد ان تحوّل خالد الى الشام حلّ المثنّى محله في قيادة قوات الجبهة العراقية، وبقي المثنّى في منصبه حتى توفي أبو بكر، وأثناء ولايته استطاع صدّ جميع المحاولات الفارسية التي ابتغت استعادة العراق وطرد العرب إلى جزيرتهم. وبعد وفاة أبي بكر في سنة 13 هـ استُخْلِفَ عمر بن الخطاب (رضي الله عنه). وكان أول عمل عسكري قام به هو عزل كل من المثنّى عن قيادة الجبهة العراقية، وخالد بن الوليد عن قيادة جبهة الشام.

وانتدب عمر لقيادة الجبهة العراقية " ابا عبيدة الثقفي "، حيث كانت أول أعماله انتكاسة كبيرة للعرب كادت تخسرهم جميع ما حصلوا عليه في العراق من انتصارات، وذلك في معركة " الجسر " في منطقة " قُسّ الناطف " على الفرات (كما تعرف هذه المعركة أيضاً بـ " وقعة المروحة "). وقتل في هذه المعركة جمع كبير من القوات العربية كان من بينهم " أبو عبيد الثقفي " نفسه. ولقد استطاع المثنّى بفضل حنكته وإقدامه تخليص العرب من الفناء والانسحاب بهم، وقد جرح المثنّى في هذه المعركة جراحاً بليغة.

تحصّن الفرس بقيادة " بَهْمَنْ جاذَوَيْه " في منطقة " قُسّ الناطف " وهو موضع قريب من الكوفة على شاطئ نهر الفرات الشرقي. وكان " بَهْمَنْ " يلقّب بذي الحاجب، لأنه كان يعصب حاجبيه ليرفعهما عن عينيه كبرا. وأقبل أبو عبيد الثقفي، فنزل منطقة " المروحة "، وعسكر بها، وجعل الفرات بينه وبين العدوّ. فبعث إليه " بَهْمَنْ " يخيّره بين أن يعبر أحدهما أو الآخر. ونهى المسلمون أبا عبيد وأشار إليه أن يَدْعُوَهم إلى

العبور، ولجّوا في ذلك، كما لجّ هو بدوره، فقالوا: لا تعبر يا أبا عبيد، ننهاك عن العبور. فأقسم لَيَقْطَعَنَّ الفرات إليهم.

فناشده " سُلَيْطُ بن قيس " ووجوه الناس، وقالوا: إن العرب لم تَلْقَ مثل جنود فارس مذ كانوا، وانهم قد احتشدوا لنا واستقبلونا من العدد والعدّة بما لم يَلْقَنَا به أحد منهم، وقد نزلت منزلاً لنا فيه مجال وملجأ فرجع، من فرّة إلى كرّة.

فقال أبو عبيد: لا أَفْعَل، جَبُنْتَ والله يا سُلَيْط! فقال سُلَيْط: أنا والله أجرأ منك، وقد أشرنا عليك بالرأي فستعلم. فلجّ أبو عبيد وترك الرأي، وقال: لا يكونون أجرأ على الموت منّا بل نعبر إليهم، فعبروا إليهم واقتتلوا... وهكذا كان أبو عبيد فعلاً، قائداً لا يريد أن يعرف غير النصر، لكن النصر خذله هذه المرّة.

تميّز الفرس في هذه المعركة – معركة الجسر – باستخدامهم للفِيَلة. ورغم ذلك كان قد صمّم أبو عبيد الثقفي على مقاتلتهم مهما كانت النتيجة. إذ أن زوجته كانت قد رأت رؤيا (أي حُلْماً) تقول: ان رجلاً نزل من السماء بإناء فيه شراب، فشرب منه أبو عبيد في أناس من أهله، وأخبرت بذلك أبا عبيد، فقال: هذه هي الشهادة. وأوصى بمن يَخْلُفُهُ في الجيش إذا مات.

وأمر أبو عبيد جنوده بالعبور، فعبروا من " المروحة " حيث تحصنّوا – الى " قسّ الناطف " – حيث أقام الفرس. وعبر سُلَيْط بن قيس في مقدّمة العابرين.

وكان جند المسلمين دون عشرة آلاف، ومع ذلك ضاق بهم المكان الذي تركه لهم الفرس وراء الجسر، فلم يكن لهم فيه مرجع من فرّة إلى كرّة، ولم يُمْهِلْهُمْ " بَهْمَنْ " حين تمّ عبورهم أن أمر جنوده فحملوا عليهم، وفي مقدّمتهم الفِيَلَة عليها الجلاجل، ونظرت خيول المسلمين إلى هذه الفِيَلَة، وسمعت رنين جلاجلها، لكن سرعة السيوف كانت قد فعلت فعلها في أهل فارس وأصيب منهم ستة آلاف في المعركة... وإلى هنا لم يَبْقَ أو لم يُنْتَظَر – على حدّ تعبير الطبريّ – إلا الهزيمة، رغم ما لقي المسلمون من شدّة الفِيَلَة وهيبة الخيل لها، حيث فرّت من وجهها بعدئذ، ولم يثبت منها إلا القليل. ولم يجد الفرس أمام ذلك الا أن يرشقوا المسلمين بالنبال، فقتلوا منهم خلقاً كثيراً.

عندها، اشتدّ الأمر بالمسلمين، فترجّل أبو عبيد والناس، ومشوا إلى الفرس

وصافحوهم بالسيوف، فجعلت الفِيَلَة لا تحمل على جماعة إلا دفعتهم. فنادى أبو عبيد في رجاله: " اهجموا على الفِيَلَة، واقطعوا أحزمتها، واقلبوا عنها أهلها ". وفعل القوم ذلك، فما تركوا فيلاً إلا حطوا رحْله، وقتلوا أصحابه. ووثب أبو عبيد نفسه على الفيل الأبيض، فقطع بطَانه، فوقع الذين عليه، وضرب خرطومه بالسيف، ولكن الفيل تقدم لأبي عبيد وضربه برجله، فألقاه على الأرض، ثم وقف فوقه حتى أزهق روحه.

وسقط القائد أبو عبيد شهيداً في ساحة المعركة، وللقائد في مثل هذه الجيوش دائماً سحره وأثره، وقد كان جرحه أو أصابته أو قتله تعني تدهور الجيش أو تفككه أو انسحابه. هكذا كان الأمر هنا مع أبي عبيد الثقفي.

إذ أن الناس لما أبصروه تحت الفيل خشعت أنفس بعضهم. فهجم أخوه الحكم وأخذ اللواء، لكنه قتل، فأخذه ابنه جبر، فقتل أيضاً، وتتابع سبعة من ثقيف، كلهم يأخذ اللواء، ويقاتل حتى يموت، ثم أخذ اللواء المثنّى بن حارثة وهرب عنه الناس، بعد أن تمكن المسلمون من قتل الفيل الذي أزهق روح أبي عبيد.

في هذه الأثناء، بادر رجل من ثقيف هو عبد الله بن مرثَدْ الثقفي، وبشيء من الحماس لا يعي النتائج، بعدما رأى ما لقى أبو عبيد وخلفاؤه، وما يصنع الناس، فقطع " الجسر "، وقال: يا أيها الناس، موتوا على ما مات عليه أمراؤكم أو تظفروا. لكن قوات الفرس كانت تلاحق المسلمين وتمعن فيهم قتلاً، حتى تواثب بعضهم في الفرات، وغرقوا.

وخشي المثنّى بن حارثة أن تعمّ الفوضى، فوقف واللواء بيده ينادي: يا أيها الناس، إنّا دونكم، فاعبروا الجسر على مهل، لا تُدْهَشوا، فإنّا لن نُزَايلَ حتى نراكم من ذلك الجانب، ولا تُغْرِقُوا أنفسكم.

فعبروا الجسر، وعبد الله بن مرثد قائم عليه يمنع الناس من العبور، فأخذوه وأتوا به المثنّى فضربه، وقال: ما حملك على الذي صنعت؟ قال: ليقاتلوا.

وقاتل " عُرْوَة بن زيد الخيل " يومئذ قتالاً شديداً، وأبو محجن الثقفي، وقاتل أبو زبيد الطائي الشاعر حَمِيَّةً للعربية – وكان نصرانياً قدم الحيرة لبعض أموره –. كما أن سُليط بن قيس قتل أيضاً عند الجسر. ونادى المثنّى بن حارثة: من عبر نجا. ثم أصلح الجسر، فعبر الناس، ثم عبر بمن معه إلى " المروحة " وهو جريح. لقد كان من قسوة

معركة الجسر هذه أن هرب من الناس بشر كثير على وجوههم، ولحق بعضهم بالمدينة، وسار البعض في البوادي استحياءً من الهزيمة.

وبعث المثنّى بخبر الهزيمة الى الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه)، مع عبد الله بن زيد، فلما انتهى إليه قال: ما عندك يا عبد الله؟ فأخبره خبر الناس، فقالت عائشة – وقد سمعته يحدّث عمر –: ما سمعتُ برجل حضر أمراً فحدَّثَ عنه كان أثبت خبراً منه.

ولما قدم المنهزمون من الناس، ورأى عمر جزع المسلمين من المهاجرين والأنصار من الفرار قال: لا تجزعوا يا معشر المسلمين، أنا فِئَتُكم، إنما انْحَزْتُمْ إليّ.

وعلى هذا الأساس، استعاد الجُنْدُ العربيُّ معنوياته من جديد، لخوض معركة الثأر بهزيمة الجسر، في " معركة البويب " المنتصرة، التي شهدها المثنّى بن حارثة قبل أن يموت متأثراً بجراحه التي أصابته في وقعة الجسر... ويعتبر المثنّى بن حارثة من أبرز أبطال الفتوحات العربية، وهو بحقّ مؤسس العراق العربي وموجده.

المراجع

1 – الإمام أبو الحسن البلاذري " فتوح البلدان ". دار الكتب العلمية. بيروت. 1978. ص 252 – 253.

2 – محمد أبو الفضل ابراهيم وعلي محمد البجّاوي. " أيام العرب في الإسلام ". منشورات المكتبة العصرية صيدا – بيروت. الطبعة الرابعة 1974. ص 230 – 233.

3 – د. ابراهيم بيضون و د. سهيل ذكار " تاريخ العرب السياسي من فجر الاسلام حتى سقوط بغداد ". دار الفكر. بيروت. الطبعة الأولى 1974. ص 59 – 61.

4 – شكري فيصل " حركة الفتح الاسلامي في القرن الأول ". بيروت. دار العلم للملايين 1952. الطبعة الأولى. ص 72 – 74.

5 – محمود شاكر " التاريخ الاسلامي – الخلفاء الراشدون " (3) بيروت. المكتب الاسلامي. الطبعة الثانية 1983. ص 171.

6 – د. ابراهيم بيضون " تكوّن الاتجاهات السياسية في الاسلام الأول من دولة عمر الى دولة عبد الملك ". دار اقرأ. بيروت. الطبعة الأولى 1985. ص 50.

7 – د. عمر فروخ " تـاريخ صـدر الاسـلام والدولـة الأمويـة ". دار العلـم للملاييـن. بـيروت. الطبعة الثالثة 1976. ص 101.

معركــة الجغبوب

لم يتورّع الايطاليون عن استعمال القوة لاحتلال ليبيا، تنفيذا لمخططهم الاستعماري، ولئن استطاعوا تحقيق أهدافهم، فان ذلك لم يتمّ إلا بعد أن حشدوا جميع قواتهم العسكرية، وبعد أن تكبدوا الخسائر الفادحة في الأرواح والمعدات، نتيجة صمود المجاهدين الليبيين الأبطال الذين باعوا نفوسهم رخيصة في سبيل الدفاع عن الأرض. وكانت لهم مواقف بطولية شهد لهم بها الأعداء قبل الأصدقاء.

ومعركة " الجغبوب " هي احدى المعارك البطولية التي تجلّى فيها كفاح المجاهدين الوطنيين بأسمى معانيه، وكان لشهدائهم شرف الاستشهاد في سبيل الحرية والكرامة.

لقد وضعت ايطاليا منذ بداية الغزو في مخططها الحربي والسياسي، ضرورة السيطرة على مناطق الحدود الغربية والشرقية من ليبيا، ويتبيّن ذلك بشكل واضح في حرصها على النزول بطبرق، وساحل زوارة، منذ المراحل الأولى للحملة على ليبيا، وذلك للأسباب والاعتبارات التالية:

1 – تأكيد مبدأ السيادة على هذه المناطق، والمبادرة الى الاستيلاء عليها، قبل قيام أي نزاع أو تنافس دوليّ حولها.

2 – التحكّم في هذه المنافذ، لمنع تسرّب الاسلحة والامدادات إلى المجاهدين.

3 – ما يمكن أن توفره السيطرة على الحدود، من امكانيات التطويق العسكري، وعزل حركة المقاومة.

وقد وجهت ايطاليا اهتمامها إلى " الجغبوب "، منذ البداية، لكن الاشكالات الدولية لم تسمح لها باحتلالها الا بعد سنة 1925. ومنذ ذلك الحين أخذت تمهد لعملية الاحتلال، بانشاء المطارات التي تساعدها في عملياتها العسكرية، وتمكنها أن تفرض – قبل الاحتلال – رقابة على الحركة القائمة عبر الحدود. وترى المصادر العسكرية الايطالية الرسمية، أن أبرز عملية عسكرية نفّذت في سنة 1926، هي عملية احتلال " الجغبوب "

التي استغرق الاعداد لها وقتا طويلا. وقد وضعت القيادة العسكرية الايطالية في تقديرها احتمال مواجهة قوية وعنيفة، واحتمال تحوّل " عمر المختار " ببعض قواته من الجبل، للدفاع عن هذه المدينة، ولذا وضعت خطة الحملة، بحيث ترافقها في المرحلتين، الأولى والثانية، عمليات عسكرية شاملة في الجبل الأخضر، لشغل " عمر المختار " وقواته، عما يجري في الحدود الشرقية ومنطقة الجغبوب.

وحشدت في نهاية يناير / كانون الثاني 1926 قوة تحت قيادة الكولونيل "رونكتي " Ronchetti تتألف من 2467 مسلحاً بين ضباط وجنود و 36 سيارة مصفحة و 305 سيارات نقل و 115 دابة و 4 قطع مدفعية جبال و 60 رشاشة.

وانطلقت هذه القوة من قواعدها في " مساعد " في أول فبراير / شباط 1926، بعد أن قامت الطائرات بعمليات استطلاع واسعة في المنطقة. وحلّقت يوم 5 فوق المدينة والقت بعض المنشورات، بدعوة الأهالي إلى الاستسلام. وبرغم تأكيد الطيران عدم وجود مظاهر المقاومة، ظل عامل الخوف والحذر مسيطراً على الحملة التي أخذت تقطع الطريق على مراحل، وفي احتياط تام.

ودخلت القوات الايطالية " الجغبوب " عند الساعة الثانية عشرة من يوم 7 فبراير 1926 وبدأت على الفور في تنظيم الأعمال الدفاعية بها، كما قامت بردم بئري (طرفاوي وأبي سلامة) خشية استغلالهما من قبل المقاومة. وباحتلال " الجغبوب " استحكمت السيطرة الايطالية على الحدود الشرقية، وبدأت العمليات الواسعة لعزل حركة الجهاد عن الاتصال بمصر. وحين ضاق الجنرال " غراتسياني " ذرعاً بأمر المقاومة في برقة، ركز جهده الجهنمي الاستعماري، على تهجير الأهالي من الجبل الأخضر، وترحيلهم إلى المعتقلات في العقيلة وسرت، وإقامة حاجز من الأسلاك الشائكة (المعروف عند العامّة باسم " الشبردق ") انطلاقا من البردية حتى الجغبوب، بمسافة تبلغ 270 كلم. ويبلغ عرض هذا الحاجز عشرة أمتار، وارتفاعه 1,60 متراً. وتخلّله ثلاث قواعد رئيسية، في مساعد والشفة والجغبوب، وست قواعد فرعية وثلاثة قطارات صغيرة، وقاعدة جويّة في الجغبوب، بالإضافة الى المحطات الهاتفيّة. وهو جهد حربيّ، يعبّر وحده عن الأثر البالغ الذي أحدثته المقاومة في الكيان العسكري الايطالي، وضيقهم

بـهـا، وعـجـزهـم عـن إخـمـادها، وخوفهم من تفاقم امرها، بما يؤدي في النهاية إلى تهديد الاحتلال وتقويضه.

ويرتبط ذكر هذه الأسلاك الشائكة، بصورة بطولية رائعة في الجهاد لم تجد حتى الآن، القلم الذي يصوّرها ويبرزها للناس.

المراجع

1 – محمد خليفة التليسي " معجم معارك الجهاد " ص 202 – 204.

2 – مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الايطالي. طرابلس / ليبيا.

معركة جلولاء

كثيرة جداً هي المعارك التي خاضها المسلمون منذ ظهور الدعوة الاسلامية، ضد أعدائهم الكثر، في شبه الجزيرة العربيية وخارجها. وكأنّ هؤلاء الأعداء كانوا يمتحنون المسلمين سياسياً وعسكرياً وعقائدياً في خضمّ هذا الصراع، الذي أخذ طابع الحياة أو الموت فيما بعد، بينما المسلمون يعتبرون أن أيَّ انتصار لهم في أيّة معركة سياسية أو عسكرية، هو بمثابة وسام على صدورهم العامرة بالايمان والتوحّد. ولم تكن " معركة جلولاء " عام 636م سوى إحدى هذه الأوسمة التي زيّنت صدر هؤلاء المؤمنين، ضدّ أعدائهم الفرس.

وجلولاء هي بلدة عراقية على طريق خراسان قرب حلوان في نحو أربعين ميلاً شمالي المدائن، جرت فيها الوقعة المسمّاة باسمها سنة 16هـ بين المسلمين وعليهم " سعد بن أبي وقّاص "، والفرس وعليهم " مهران "، وقد سمّيت كذلك لكثرة قتلى الفرس في هذه الوقعة (قيل مائة ألف) حتى " جللت القتلى المجال وما بين يديه وما خلفه، فسمّيت جلولاء... فهي جلولاء الوقيعة ". وأهمية هذه الوقعة أنها أنهت حكم الفرس في العراق ودفعت بهم إلى ما وراء جبال زغاروس، وهي الحدّ الفاصل بين العراق وفارس.

فبعد أن فتح سعد بن أبي وقّاص المدائن، هرب الجنود الفرس منها نحو أرض فارس، ووصلوا إلى جلولاء، على أبواب فارس، فرأوا أنهم " إنْ افترقوا لن يجتمعوا أبداً " فاستقر رأيهم على أن يجتمعوا لقتال المسلمن بجلولاء " فإنْ كانت لنا فهو الذي نريد، وإنْ كانت الأخرى كنا قضينا الذي علينا، وأبلينا عذراً ". ووافقهم " يزد جرد " على ذلك وأمّر عليهم " مهران الرازي " ثم انتقل إلى حلوان. أما مهران فعسكر بجيشه في جلولاء، وأقام حوله خندقاً أحاطه بالحسك الشائك من الخشب، وقعد ينتظر المسلمين.

وكتب سعد بن أبي وقّاص إلى الخليفة عمر بن الخطاب ينبئه بأمر الفرس، فكتب إليه الخليفة يأمره أن يُعدّ جيشاً من اثني عشر ألف مقاتل، يؤمر عليه هاشم بن عتبة، ويجعل على مقدّمته القعقاع بن عمرو (وهو الذي قال فيه: إن جيشنا فيه مثل القعقاع

لا ينهزم أبداً)، وعلى ميمنته سعد بن مالك، وعلى ميسرته عمرو بن مالك بن عتبة، وعلى الساقة عمرو بن مرّة الجهني، ثم يسيّره لمنازلة الفرس في جلولاء. وكانت أوامر الخليفة بصدد مهمة هذا الجيش ما يلي:

" قدّم القعقاع حتى يكون بين السواد – سواد العراق – والجبل – جبل فارس – على حدّ سوادكم،... فان فتح الله عليكم جلولاء فسرِّح القعقاع بن عمرو في آثار القوم حتى ينزل بحلوان، فيكون ردءاً للمسلمين ويحرز الله لكم سوادكم ". بمعنى آخر، كانت مهمة هذا الجيش أن يطرد الفرس نهائياً من أرض العراق ويقف على ثغرها حلوان فيرابط فيها مانعاً الفرس من العودة إلى العراق.

وسار هاشم بن عتبة على رأس جيشه إلى جلولاء، وفي الجيش وجوه المهاجرين والأنصار وأعلام العرب، فوصل إليها بعد أربعة أيام، وضرب، فور وصوله، حصاراً حول معسكر الفرس، فطاوله هؤلاء، " وزاحفهم المسلمين بجلولاء ثمانين زحفاً " وهم في كل مرّة ينالون من الفرس، دون أن يكون بين الفريقين قتال حاسم. ودمّر المسلمون حسك الخشب المحيط بمعسكر الفرس، فاستبدله هؤلاء بحسك الحديد تاركين فيه مسالك لمرورهم.

ورأى الفرس أن لا مناص من منازلة المسلمين في معركة حاسمة. وانهم إنْ لم يخرجوا لقتالهم سيبقون على حصارهم، خاصة وان مدداً للمسلمين كان يصل تباعاً، إذ أمدّهم سعد بن أبي وقّاص " بمائتي فارس، ثم مائتين، ثم مائتين، "، كما أن يزد جرد كان قد أمّد مهران بمدد من أهل الجبال، فتقوّوا به.

وخرج الفرس على المسلمين يبغون قتالهم، فاقتتل الفريقان قتالاً شديداً " لم يقتتلوا مثله إلا ليلة الهرير "، إلا أنه كان قد أسرع وأعجل، حتى نفذ النبل، ونفذ النشاب، وقصفت الرماح، ودار القتال بالسيوف والطبرزينات (أي الفؤوس)، وضغطت خيل المسلمين وعليها " طلحة " من بني عبد الدار على خيل الفرس وعليها " خرزاد بن خرهرمز " حتى تهافت فرسان العجم في الخندق، فاضطر هؤلاء لأن يجعلوا فيه فرضاً تصعد منها خيولهم، فأفسدوا بذلك الخندق المحيط بمعسكرهم، واصبح سهلاً على المسلمين اقتحامه.

وفي هذا الوقت بالذات إنطلق المسلمون بهجومهم على معسكر الفرس، فخرج الفرس إليهم، ورموا حول خندقهم حسك الحديد كي يمنعوا المسلمين من ولوجه، ولكن القعقاع بن عمرو استخدم الممرات الضيقة الخالية من الحسك، والفُرُض التي سبق وأقيمت في الخندق، كي يقتحم بواسطتها الخندق ومعسكر العدو. ولما انتهى القعقاع إلى باب خندق الفرس نادى قومه: " يا معشر المسلمين هذا أميركم قد دخل خندق القوم وأخذ به فاقبلوا عليه " وظنّ المسلمون أن أميرهم هاشم بن عتبة بن أبي وقّاص قد اقتحم الخندق فاقتحموه، ليجدوا بداخل المعسكر القعقاع يقاتل، فانضموا إليه.

انها حرب المعنويات والجرأة النادرة، ودبّ الحماس في النفوس لجأ إليها القعقاع في هذه المعركة ليضمن النصر، وقد نجح في ذلك بالفعل. وبدأ الفرس ينهزمون، فوقعت خيولهم في الخندق وهم هاربون، فولوّا مشاة وقتل منهم عدد كبير.

وبعد انتهاء القتال في جلولاء، أمر هاشم القعقاع بمطاردة فلول الجيش المنهزم، تنفيذاً لأوامر الخليفة. فطارد القعقاع فلول الفرس حتى بلغ خانقين، حيث أدرك " مهران الرازي " فقتله، وتابع تقدمه حتى وصل حلوان، وكان يزد جرد قد غادرها نحو الجبل هارباً، فأقام القعقاع في حلوان وظل فيها حتى عاد الجيش من المدائن إلى الكوفة فعاد معه.

وهكذا سجّلت معركة جلولاء نصراً كاسحاً للمسلمين، وهزيمة شنيعة للفرس، وأنهت حكمهم في العراق بعد مدّة من الزمن ظنّوا أنفسهم في البدء أنهم سيُخلّدون في هذه الأرض وتتأبّد سيطرتهم عليها، وسرعان ما أدركوا أنهم مخطئون في علم الحساب، وفي كل علم.

المراجع

1 – أبو جعفر محمد بن جرير الطبري " تاريخ الأمم والملوك ". المجلد الرابع. ص 179.
2 – ياقوت الحموي " معجم البلدان " المجلد الثالث. ص 129.
3 – الموسوعة العسكرية. الجزء الأول. ص 450 – 451.
4 – محمد أبو الفضل ابراهيم وعلي محمد البجّاوي " أيام العرب في الاسلام " المكتبة

العصرية صيدا / بيروت. الطبعة الرابعة، 1974. ص 298 - 299.

5 - سيد أمير علي " مختصر تاريخ العرب " نقله إلى العربية عفيف البعلبكي. دار العلم للملايين. الطبعة الرابعة. بيروت. 1981. ص 37 - 38.

6 - العقيد محمد الدرة " معارك العرب الكبرى " منشورات الفاخرية / الرياض ودار الكاتب العربي / بيروت. دون تاريخ. ص 389 - 400.

معركة الجمل
(656)

وقعت هذه المعركة بين الخليفة الراشدي الرابع علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه) وبين عائشة أم المؤمنين (رضي الله عنها)، سنة 36 هـ الموافقة لسنة 656 م. وتعتبر هذه المعركة من الأهمية بمكان لأنها أول معركة في الاسلام قادها الخليفة بنفسه ضد اخوان له في العقيدة. وقد أطلق عليها هذا الاسم نسبة إلى الجمل الذي كانت تمتطيه عائشة أم المؤمنين.

فبعد مصرع الخليفة الراشدي الثالث عثمان بن عفّان، خلا منصب الخلافة من صاحبه، وظل خالياً لعدة أيام إلى أن عُيّن الامام علي بن أبي طالب خليفة جديداً بسبب شخصيته ومركزه في الاسلام وسابقته فيه مع قرابته مع النبي (صلى الله عليه وسلم) وعلاقته به. وكان علي مرشحاً لخلافة رسول الله منذ لحظة وفاته، لكن ظروفاً كثيرة وأحوالاً كبيرة حالت بينه وبين تسلّم مسؤولية الحكم وقيادة الأمة؛ ولكن بعد مصرع عثمان بن عفّان لم يكن هناك من هو أجدر منه بالخلافة...

والجدير بالذكر انه عندما قتل عثمان وتولى الإمام علي الخلافة كانت أكبر قوى الدولة الاسلامية متمركزة في ثلاثة معسكرات هي: الكوفة . البصرة . الشام (الجابية)، وكان جند الكوفة من أبرز الثوار على عثمان وهم الذين جاؤوا بعلي كخليفة جديد؛ ويبدو أن كل واحد من هذه المعسكرات كان يريد الاستبداد بسلطة الدولة، لذا تحتّم الاقتتال بينها، وجلب رجال البصرة إلى معسكرهم كل من طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام وابنه عبد الله وعائشة أم المؤمنين بمؤازرة معاوية بن ابي سفيان في الشام، الذي رفع قميص عثمان الملطخ بالدم على منبر المسجد مطالباً بالثأر للخليفة المقتول ظلماً. وأخذ جند الكوفة علياً معهم إلى معسكرهم، يؤازره محمد بن ابي بكر أخو عائشة، والقعقاع بن عمرو، والأشتر بن مالك بن الحارث، وعدي بن حاتم، وهند ين عمرو، والهيثم بن شهاب وغيرهم. وكثرت الاتهامات بين جماعة البصرة والكوفة، وجرت محاولات جادة

لإيجاد تسوية، لكن ذلك كله ذهب أدراج الرياح. والتقى المعسكران في سنة 36 هـ / 656 م في موقع يقال له (الخريب) بالقرب من البصرة، لكن المعركة دعيت بمعركة " الجمل " نسبة إلى جمل كانت تمتطيه عائشة.

نشب القتال بين الفريقين أياماً قتل خلالها من المسلمين عدد كبير، كأنما العرب المسلمون عادوا إلى عصبيّتهم الجاهلية. وكانت عائشة قد حملت في هودج على جمل كأنه لجيشها راية، فكانت تحضّ الناس على القتال من هودجها، وتستحثّهم وهم يثبتون حول الجمل ويستقتلون، وما ان رأى عليّ ذلِك المشهد حتى قال: أعقروا حماته وابتعدوا عنه، لكن طلحة بن عبيد الله ظل يقاتل معه حتى قتل، وقتل الزبير كذلك، كما قتل كثير من أهل الكوفة والبصرة. وقد اختلف الرواة في قدر عدد القتلى، فمنهم من بلغ بهم عشرين ألفاً، ومنهم من لم يتجاوز العشرة آلاف، (وقد جاء في الأخبار الطوال للدينوري أن الحسن (رضي الله عنه) أحصى قتلى المسلمين في هذه الوقعة فبلغوا تسعة آلاف وستمائة وخمسين رجلاً. والمتفق عليه هو أنه قتل في هذه الوقعة خيرة رجال المسلمين من أصحاب النبي (صلى الله عليه وسلم) ومن فقهاء المسلمين وقرائهم. أما عائشة فقد أسرت في هذه المعركة، لكن الإمام علي أعادها سالمة إلى منزلها في المدينة فاستقرت فيه إلى ان وافتها المنيّة.

وبالفعل كانت معركة الجمل من المعارك المهمة في تاريخ الاسلام، ذلك أن الخليفة قادها بنفسه ضد اخوان له في العقيدة، ولم يكن ذلك بالأمر السهل على الإمام علي الشديد الإيمان والتمسك بالاسلام، بل كان من أصعب القرارات، مما استدعى فيه إيجاد تشريع خاص عرف فيما بعد بتشريع قتال أهل القبلة وذلك حين أمر جنده بقوله: " لا تتبعوا مولياً، ولا تجهزوا على جريح، ولا تنتهبوا مالاً، ومن ألقى سلاحه فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن... ليس على الموحدين سبي. ولا يغنم من أموالهم إلا ما قاتلوا به عليهم ".

ولقد أنهت معركة الجمل قوة البصرة والقرشيين الذين وضعوا على رأسها، وأصبحت الكوفة عاصمة الخلافة الاسلامية، ولقد اعترفت معظم الأمصار في العالم الاسلامي بهذه الخلافة ودانت لها اللهم إلا بلاد الشام... وبعد خروج معسكر البصرة من

حلبة الصـراع، فقد بـات أمر اللقاء على أرض المعركـة بيـن معسـكري الكوفـة والشـام أمراً محتّماً، وتشاء الظروف أن يكون على رأس معسكر الكوفة علي بن أبي طالب، وهو آنذاك رأس بني هاشم، وعلـى رأس معسكر الشـام معاويـة بـن أبـي سـفيان، وقديمـاً كـان النزاع قبل الاسلام على النفوذ والسيطرة على مكة بين بني هاشم وبني أمية، واستمر هـذا النزاع بظـهور الاسلام، وكانت معركة صفّين بين علي ومعاوية إحـدى المعـارك الفاصلـة في التاريخ الاسلامي نظراً لما حملته من تطـورات مسـتقبلية وانعكاسـات خطـيرة بالنسـبة للاسلام والمسلمين...

المراجع

1 – ابـو حنيفـة أحمـد بـن داود الدينـوري " الأخبـار الطـوال " القـاهرة. 1960. ص 144 – 145.

2 – الطبري " تاريخ الرسل والملوك ". القاهرة 1358 هـ. الجزء الرابع ص 427 – 435.

3 – اليعقوبي " تاريخ اليعقوبي " الجزء الثاني بيروت. 1960 ص 178 – 184.

4 – الموسـوعة العسـكرية. باشـراف المقدم الهيثـم الأيوبـي. الجـزء الأول. المؤسسـة العربيـة للدراسات والنشر. بيروت. الطبعة الأولى 1977. ص 451 – 452.

5 – د. ابراهيم بيضــون و د. سـهيل زكـار " تـاريخ العـرب السياسـي ". دار الفكـر. بـيروت. الطبعة الأولى 1974. ص 76 – 78.

6 – عمر فروخ " تاريخ صدر الاسلام والدولة الأموية ". دار العلم للملايين. بيروت. 1976. ص 121.

معركـة الجهراء
(1920)

هي احدى معارك الصراع بين السلطان عبد العزيز بن سعود والشيخ سالم بن الصَّباح، بمعنى، الصراع بين الكويت ونجد على مسألة الحدود. والجدير بالذكر أن بريطانيا لم تكن بعيدة أبداً عن تأجيج نار الخلاف بين ابن سعود وابن الصباح، بغية إبقاء زمام الأمور في يدها، مظهرة دورها كحَكَم بينهما.

هذا وقد اختلفت الآراء حول مسؤولية السلطان عبد العزيز عن هذه المعركة. فالروايات الكويتية تذكر أن ابن سعود أصدر أمراً صريحاً إلى فيصل الدويش بمهاجمة الجهرة، وهو أمر لا تشير إليه الروايات السعودية التي اكتفت بالقول ان ابن سعود أصدر أمراً للدويش بانقاذ اخوانه في القرية، ذلك دون ان توضح إن كان الدويش قد تحرك بمبادرة شخصية منه أو بأمر من ابن سعود، وقد سبقت الاشارة إلى الوكيل السياسي البريطاني في البحرين سنة 1920 م وهي مبنية على رسالة كان قد بعثها له الدويش تظهر تحركاته وكأنها بمبادرة شخصية منه، بعد أن لاحظ أن قوة الإغارة الكويتية قد توغّلت داخل حدود نجد إلى مسافة لا تتعدّى أكثر من مسيرة يوم ونصف يوم عن الرياض نفسها، ثم عادت إلى الجهرة ومعها الغنائم التي حصلت عليها، مما جعل الدويش والقبائل التي أضيرت من هذه الغارات تزحف خلف قوة الاغارة الكويتية لاسترجاع هذه الغنائم. وعموماً فقد شنّ الاخوان هجومهم على الجهرة، مما اضطر الشيخ سالم بن الصباح، إلى سحب قواته والتحصّن في القصر الأحمر. وقبل الشيخ سالم شروط الاخوان فانسحب فيصل الدويش إلى الصبيحة، وعاد ابن الصباح الى الكويت وطلب من بريطانيا حماية بلاده. وبالفعل سيطرت السلطات البريطانية على الموقف، وطالبت قوات السلطان عبد العزيز بالانسحاب الفوري، واعتبار الصبيحة غير محتلة من أيّ من الطرفين، ومطالبة الشيخ سالم بعدم إرسال أية تعزيزات إلى الجهرة. ثمّ تفرّغت السلطات البريطانية إلى الجهود السياسية الأساسية في محاولة لتسوية النزاع (!!!). وقد سعى شيخ

المحمرة – خزعل – للتوسط في عقد صلح للطرفين، وقد وافق السير بيرسي كوكس البريطاني على ذلك، وكانت بريطانيا مشغولة بتصفية آثار الثورة الدامية في العراق والإعداد لقيام النظام الملكي هناك. واشترطت بريطانيا على الشيخ خزعل عدم تضمّن الصلح لموضوع الحدود بين نجد والكويت، حيث سيترك ذلك لوجهة النظر البريطانية. ويظهر هذا الشرط حرص السياسة البريطانية على عدم إنجاز أي أمر من وراء ظهرها، وذلك بهدف تحقيق مصالحها الحالية والمتوقعة. وقد ترأس الوفد الكويتي ولي العهد أحمد الجابر الصباح (*). وذكر السلطان عبد العزيز انه يكنّ الصداقة لشعب الكويت وآل الصباح، غير أنه أبدى عدم ارتياحه تجاه الشيخ سالم الذي تسبّب في تصعيد الموقف وتأزّمه بين البلدين. غير أن وفاة الشيخ سالم في 27 كانون الثاني / يناير سنة 1921 قد فتح المجال أمام علاقات ودّية متناهية بين الجانبين. غير أن السير بيرسي كوكس لم يكن متحمسا لإيجاد حل جذري لمشكلات الحدود بين البلدين خلال النصف الأول من عام 1921، لأن الأوضاع هادئة ولاتبرّر حلاً فوريا، فضلا عن أن السياسة البريطانية لا تسعى لإيجاد الحلول وفضّ النزاعات والخلافات، بل ينصبّ اهتمامها على تعميق الهوّة وتأجيج الصراعات للوصول إلى ما يخدم مصالحها ونفوذها. لكن تطورات الأحداث في النصف الثاني من العام نفسه قد دفعت بمشكلة الحدود بين الكويت ونجد الى وضع حدّ لها، فكانت معاهدة المحمرة التي وضعت في 5 أيار / مايو سنة 1922.

المراجع

1 – د. فتحية النبراوي و د. محمد نصر مهنا. " الخليج العربي: دراسة في تاريخ العلاقات الدولية والاقليمية ". منشأة المعارف بالاسكندرية. دون تاريخ. ص 341 – 343.

2 – حسن خلف الشيخ خزعل " تاريخ الكويت السياسي ". الجزء الرابع والخامس. بدون مكان إصدار 1965. ص 251.

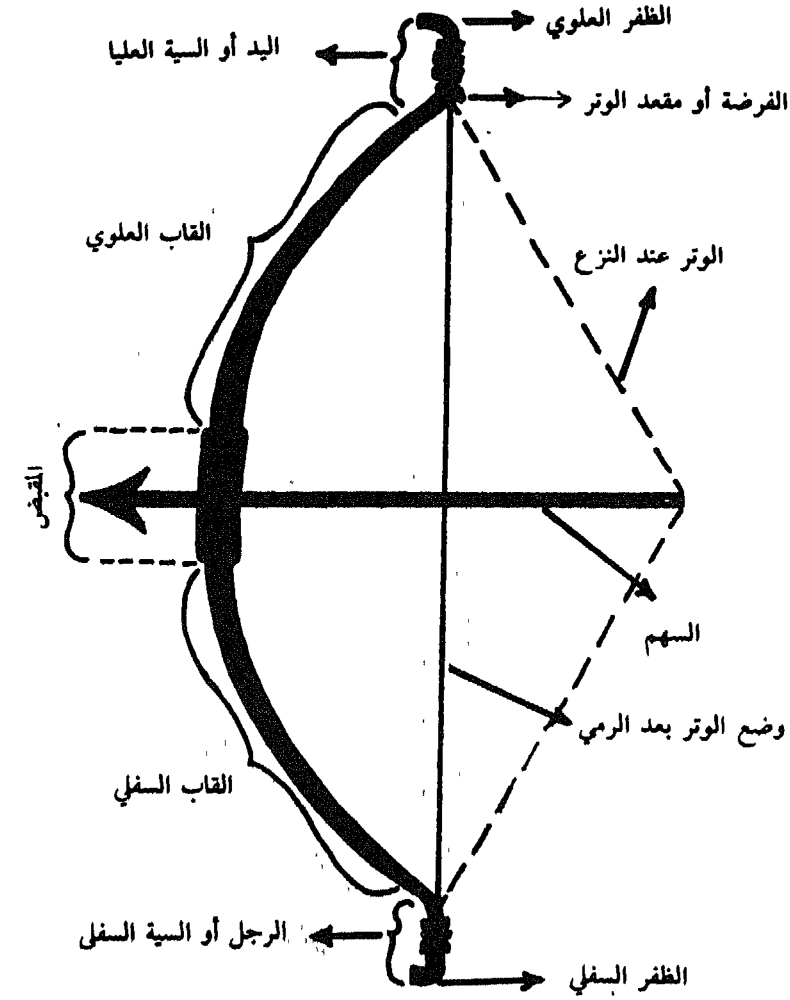
3 – خالد السعدون " العلاقات بين نجد والكويت 1319 – 1341 هـ / 1902 – 1922 ". الرياض 1983. ص 248.

(*) – تولى الشيخ أحمد الجابر الصباح الحكم من سنة 1921 حتى 1950، وهو عاشر شيوخ الكويـت. (د. زاهيـة قدورة " تـاريخ العـرب الحديـث ". دار النهضـة العربيـة. بـيروت. 1975. ص 123).

ملحق خاص

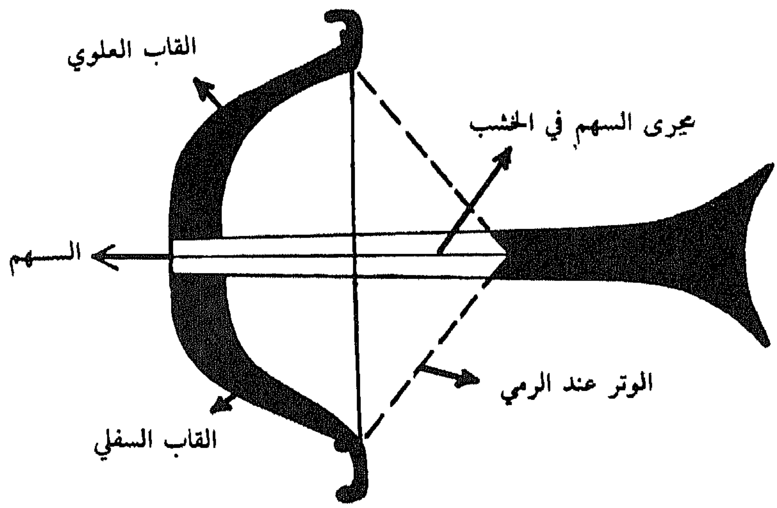
برسومات الأسلحة القديمة
التي استخدمت في المعارك
البرّيـــة و البحــرية

القــوس



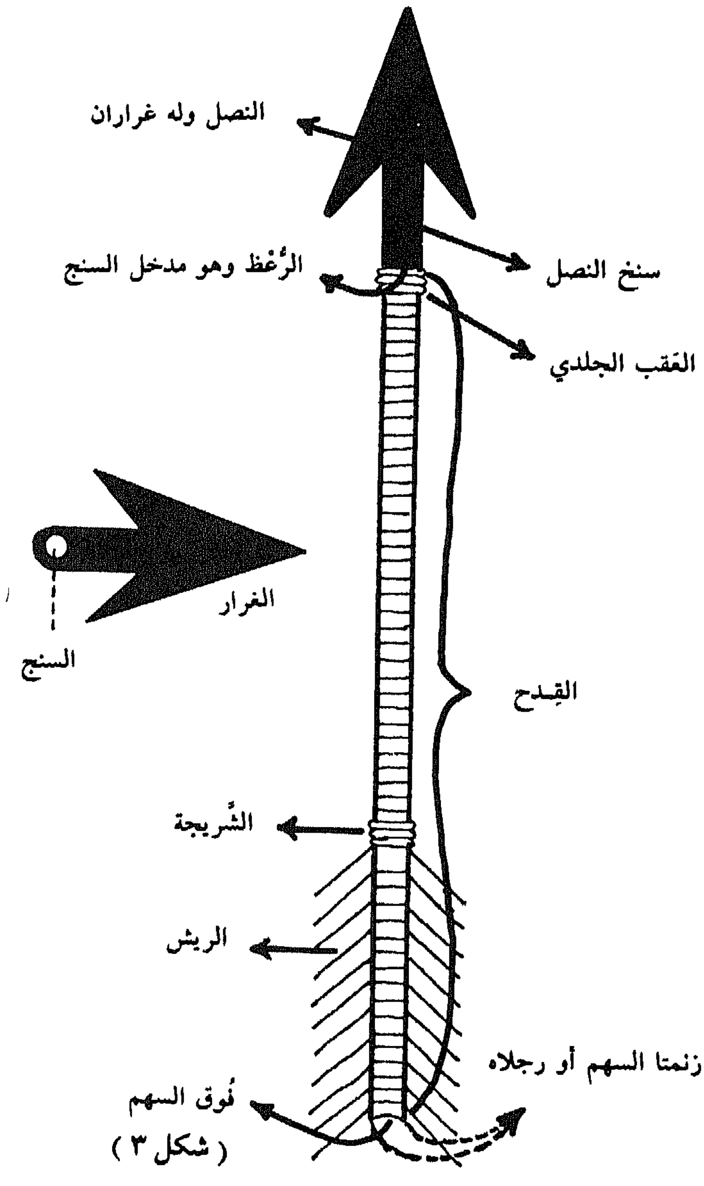
(شكل ١)

السَّـــــهم

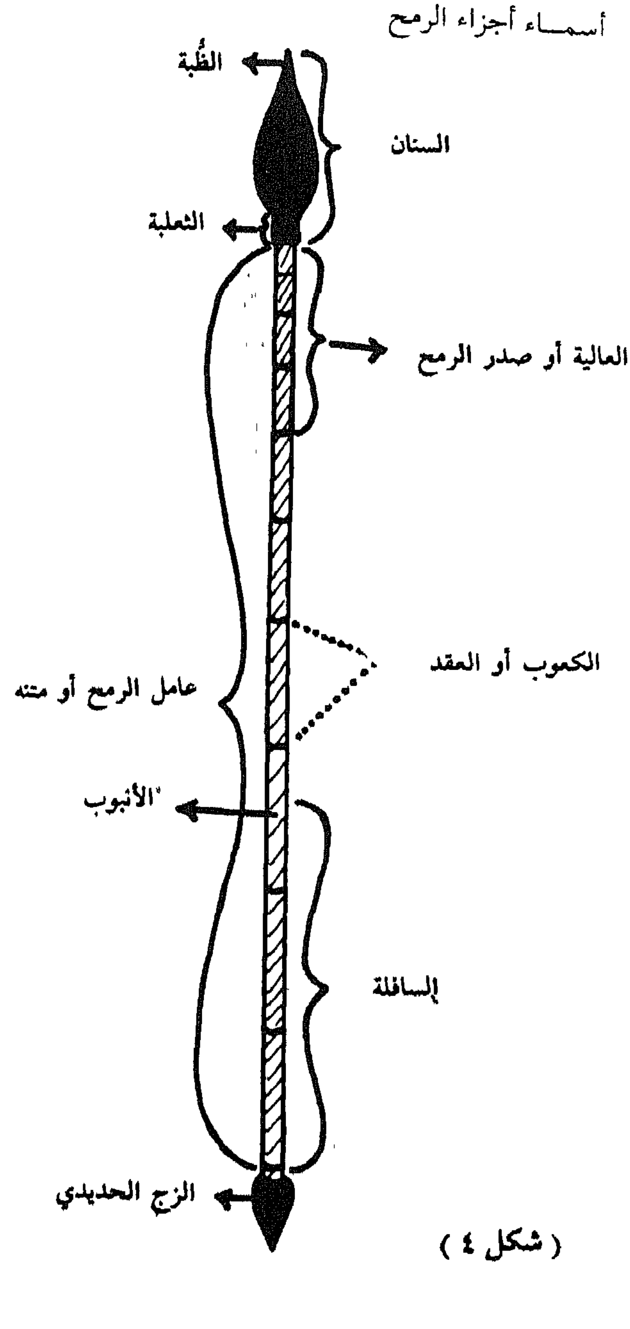


(شكل ٢)

مجمل أجزاء السهم

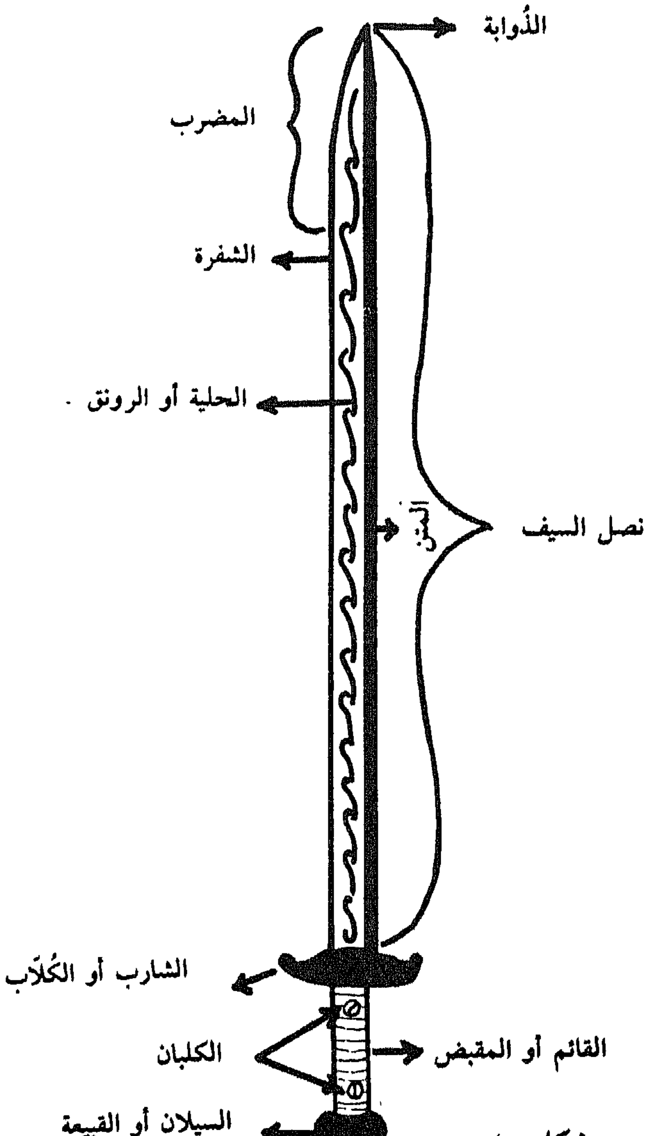


(شكل ٣)


أسمــاء أجزاء الرمح
الظُّبة
السنان
الثعلبة
العالية أو صدر الرمح
الكعوب أو العقد
عامل الرمح أو متنه
الأنبوب
السافلة
الزج الحديدي

(شكل ٤)

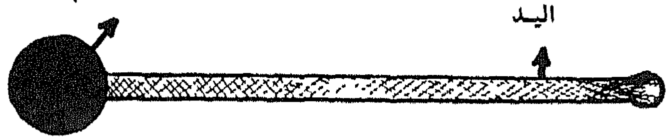
السيف



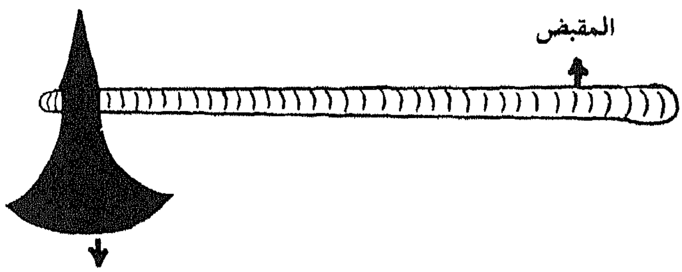
الذُوابة
المضرب
الشفرة
الحلية أو الرونق
المتن
نصل السيف
الشارب أو الكُلاّب
الكلبان
القائم أو المقبض
السيلان أو القبيعة

(شكل ٥)

الدبّـــــوس



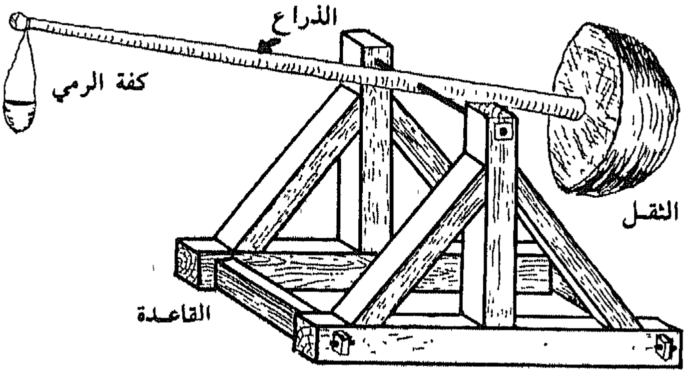
(شكل ٦)



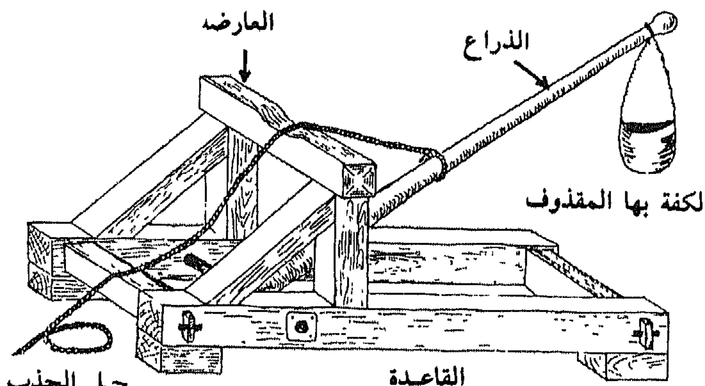
الفـأس أو البلطـــة

(شكل ٧)

المنجنيق

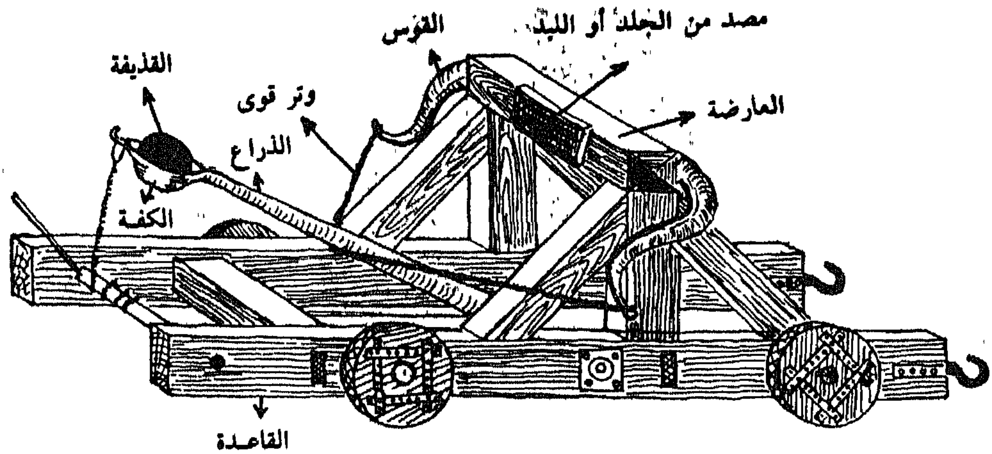


(شكل ٨)



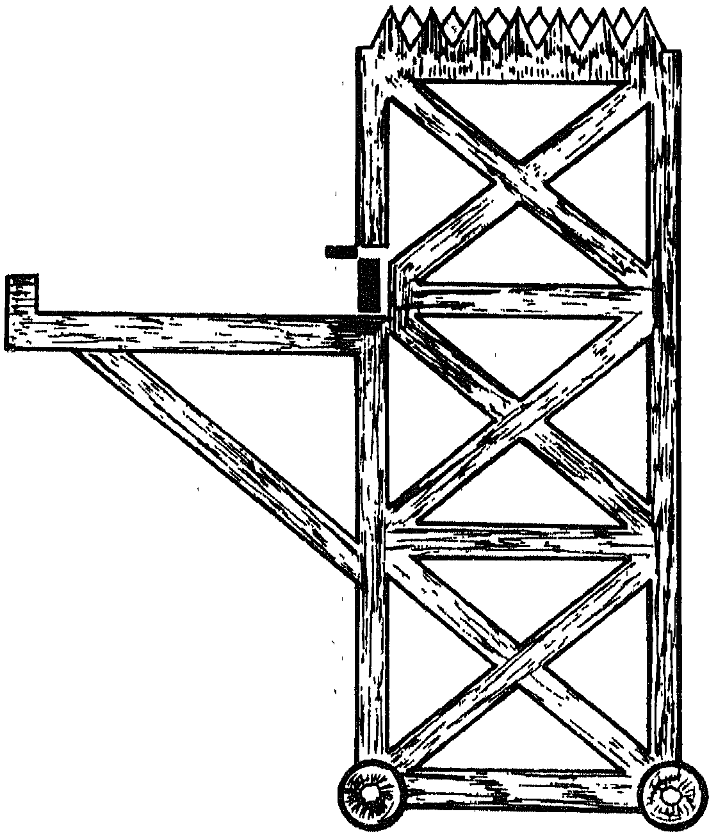
(شكل ٩)

العَــــرَّادة



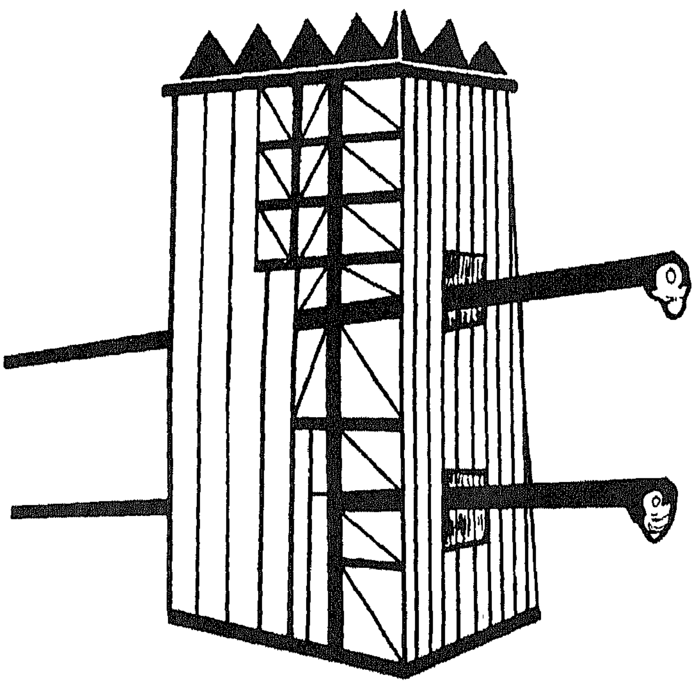
(شكل ١٠)

الدبابـــة



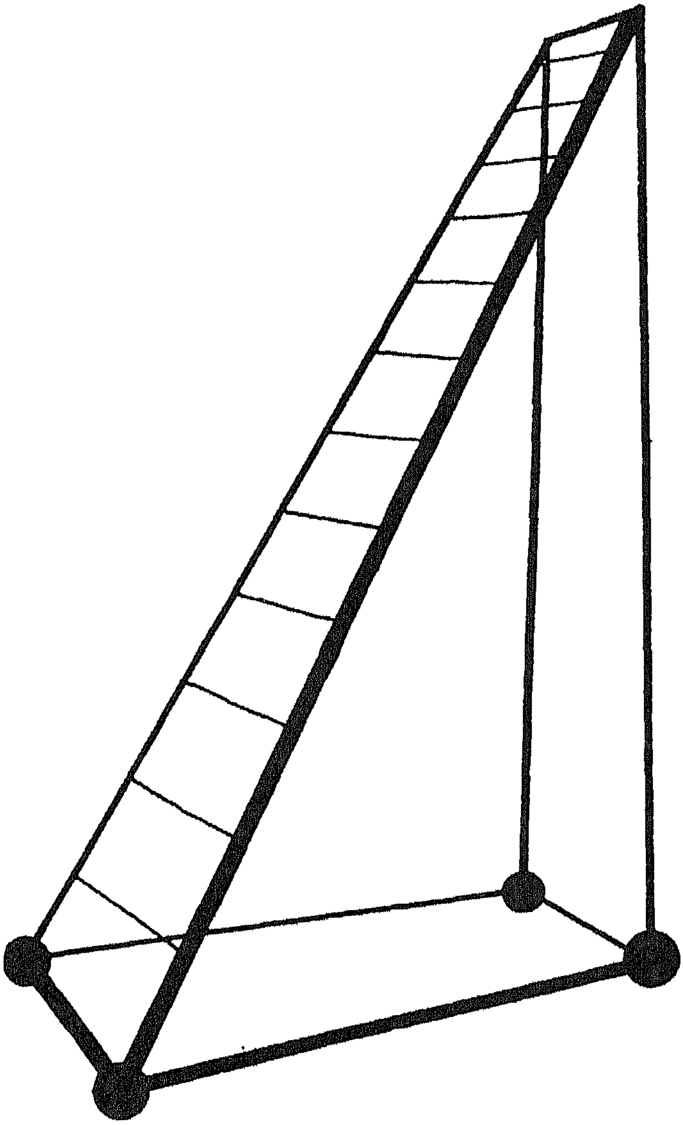
(شكل ١١)

رأس الكَبْش وسُـــلّم الحصـــار

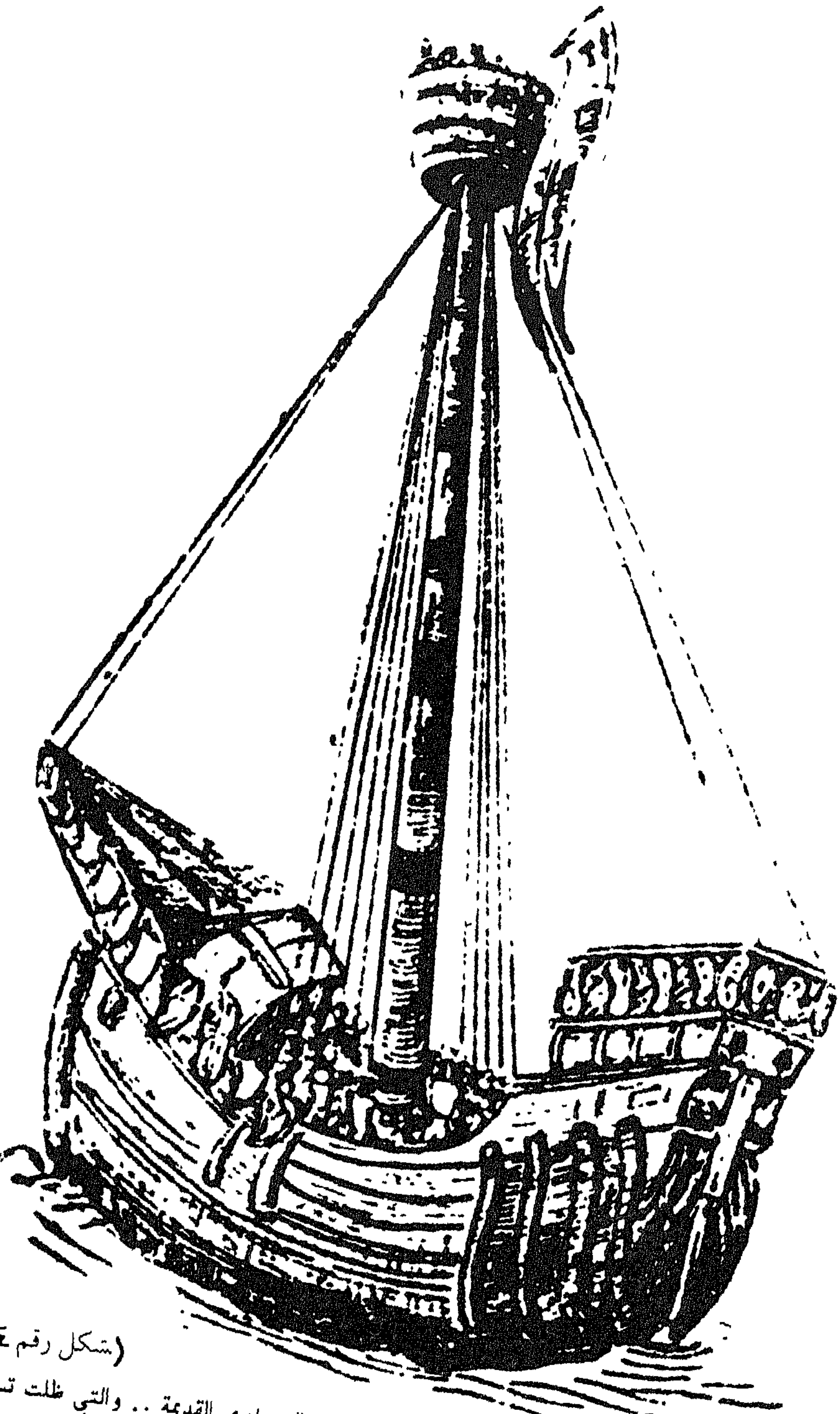


(شكل ١٢)

وبمرور الزمن صارت السلالم تصنع من الأخشاب والحديد



(شكل ١٣)



(شكل رقم ١٤)

الحراقة .. احدى السفن التي اشتركت في موقعة ذات الصواري القديمة .. والتي ظلت تستخدم في صد غزوات الصليبيين

المراجع الخاصة

برسومات الأسلحة القديمة

1 – عبد الرؤوف عون " الفن الحربي في صدر الاسلام " (130 – 142). القاهرة 1961.

2 – اللــواء الـركـن مـحـمـود شيت خطاب " العسكرية العربية الاسلامية ". (كتاب الأمة رقـم 3). قطر. طبعة أولى 1403 هـ.

3 – د. محمـد عمـارة " معـارك العـرب ضـد الغـزاة ". الؤسسـة العربيـة للدراســات والنشــر. بيروت. طبعة ثالثة 1988.

حرف " الحاء "

(ح)

1 – حديقة الموت (راجع: معركة عقرباء)

2 – الحرّاش

3 – حصن كريون

4 – حطين

5 – حُنين

6 – الحوض

معركـــة الحراش (*)

أو الهجوم الإسباني على الجزائر

عام 1775م - 1189هـ

يعتبر الهجوم الإسباني على مدينة الجزائر عام (1189 هـ/ 1775م) من المعارك المهمة والوقائع الحاسمة في التاريخ الجزائري الحديث، وذلك للأحداث التي تميّز بها والنتائج التي أسفر عنها. فقد كان هذا الهجوم الإسباني إحدى حلقات المخطط الصليبي الذي حاولت الدول الأوروبية وعلى رأسها إسبانيا تنفيذه لصالح المسيحية على حساب سيادة أقطار المغرب العربي، وقد أصبحت السيطرة على الحوض الغربي للبحر المتوسط تقتضي تنفيذ هذا المخطط الذي ارتسمت ملامحه إثر تصفية الوجود الإسلامي بالأندلس والتحاق إيالات المغرب (الجزائر وتونس وطرابلس) بالدولة العثمانية.

وقد حاول الإسبان أثناء القرن السادس عشر، في هذا النطاق، القيام بحملات متتالية إستهدفت أغلبها السواحل الجزائرية إلا أنها لم تكن لها أية نتيجة وذلك بسبب القوة البحرية الجزائرية وسيطرتها على مياه المتوسط. وبعد أن أصبحت موازين القوى الدولية منذ نهاية القرن السابع عشر تميل لصالح الدول الأوروبية، قرر شارل الثالث ملك إسبانيا القيام بحملة كبرى ضد الجزائر التي أصبحت القلعة المنيعة والحارس الأمين للدفاع عن السيادة الاسلامية في الضفة الجنوبية للمتوسط. وقد استعان في حملته هذه بنفوذ الكنيسة وبتأييد بعض الدول الأوروبية المسيحية التي أمدّته بقوات عسّكرية وعلى رأسها دول المدن الايطالية مثل جنوة و نابولي و مالطة و ليفون، وذلك بحجة حماية السواحل الإسبانية من غارات البحارة الجزائريين، ومن أجل إطلاق الأسرى النصارى، الذين كانوا يقدرّون آنذاك بالآلاف، فهم حسب رواية نقيب الأشراف، كانوا بمدينة الجزائر وحدها، لا يقلّون عن ثمانية عشر ألفاً من الأسرى، منهم حوالي عشرة آلاف من الإسبان.

وقد جنّد الملك الإسباني لهذا الغرض جيشاً بقيادة الأميرال الايرلندي الأصل الكونت أوريلي (Oreilly) قوامه ثلاثة وعشرون ألف رجل، منهم ألف فارس وجمع

من السفن أسطولاً يتكون حسب الروايات الجزائرية بما لا يقلّ عن خمسمائة مركب، بينما المصادر الأوروبية تقدر عدد قطعه بعشرين بارجة وعشرين مدمّرة وسبعة مراكب من نوع شبالَ وثلاثمائة وأربع وأربعين باخرة شحن مزودة بمائة مدفع.

هذا وقد علم الجزائريون الذين استطاعوا قبل سنوات التصدي لهجوم الدانوبيين (الدانمارك) عامي: 1770 و 1772م مبكراً بالاستعدادات الإسبانية، فاستنفر الداي محمد عثمان باشا ومعاونوه القوات الموجودة في الجزائر وضواحيها. واستقدموا الفرق العسكرية من البايليكبات، ونادوا في الناس بالجهاد للدفاع عن العقيدة وحرمة الوطن، وقد وصف محمد بن الجيلالي بن رقيه الذي عاش الأحداث في مصنّفه " الزهرة النائرة فيما جرى في الجزائر حين أغارت عليها جنود الكفرة " تجنيد القوات للمشاركة في صدّ الهجوم بقوله: " إن الداي محمد عثمان باشا بعث إلى صالح باي صاحب ناحية الشرق لأنه كان ينبهه أن لا يفارق ناحية حمزة، بحيث يقدر أن يأتي إلى الجزائر في يومين أو ثلاثة إذا أمره بالقدوم إلى الجزائر. وكذلك باي ناحية التيطري، وكذلك بعث إلى خليفة ناحية الغرب، لأن الباي كان منشغلاً بحفظ مستغانم وأيضاً كان معترضاً بجهة وهران. إذ شاع بأن اللعين أراد أن يبعث بجماعة من العسكر من وهران إلى الجزائر في البر، وربما يتمكن من الإغارة على ناحية تلمسان أو ناحية معسكر أو مستغانم إن لم يكن الباي هناك.

أما القوة العسكرية الموجودة بالجزائر وضواحيها، والتي كان عددها يقدر حسب وثائق الأرشيف الجزائري عام 1745م بـ 11897 مجنداً. منهم 9322 قادراً على المشاركة الفعلية في المعركة. فقد كانت مقسمة إلى 424 فوجاً (اورطة أو وجاقات) مقيمين بثماني ثكنات (قشلات) داخل أسوار مدينة الجزائر. وقد وُزّعوا للمشاركة في صد الهجوم على ثلاث مجموعات إحداها بقيادة حسن الخزناجي والأخرى بقيادة علي آغا العرب، ولكل مجموعة منهما أربعون خباء وكل خباء به ثلاثون جندياً، بينما المجموعة الثانية وأغلبها من جنود المدفعية والبحارة فقد أبقيت لحراسة الحصون والقلاع الواقعة بالقرب من مدينة الجزائر أو داخل القصبة والمرسي، وتولّى الإشراف على الموجود منها بتحصينات المرسي وكيل الحرج، الذي أوكلت إليه مهمة إبعاد قوة بحرية تحاول الإقتراب

من مدينة الجزائر، وذلك باستعمال المدفعية الموجودة بتحصينات الميناء والتي تتوزع على برج البحرية أو برج الفنار المجهز بمائة وثمانين مدفعاً، وبرج السردين الذي وضعت به بطاريتان من المدافع بهما اثنان وثلاثون مدفعاً، والبرج الجديد المعروف ببرج الزوبية الذي جدّد بناءه محمد عثمان باشا عامي 1773 / 1774، وزوّده بالعديد من المدافع. هذا وقد بدأت الاستعدادات الحثيثة مع ظهور الأسطول الإسباني بخليج الجزائر في اليوم الأول من شهر جمادى الأول من عام 1189 هـ، بعد أن أخبر صاحب الناظور المكلف بمركز المراقبة ببوزريعة الداي محمد عثمان ومعاونيه بأن " البحر كله تغطى بقلاع السفائن بحيث لم تُر بتلك الناحية فوق البحر إلا القلاع ". وفي اليوم التالي أخذت القوات الجزائرية مواقعها، عندما رست طلائع الأسطول الإسباني بقيادة (الدون بيدرو كاستيخو) بساحل الحراش مع وقت صلاة الجمعة، وفي اليوم الثالث بدأ التعرف على قوة العدو مع بداية نزول الجيش الإسباني على رمال الشاطئ الشرقي للجزائر، بين " وادي خنيس " (العناصر) والحراش، هذا وقد استمرت عمليات النزول حتى تمّ حشد حوالي عشرين ألف جندي على الشاطئ مع عدتهم الحربية. وقد وصف القائد الإسباني المكلف بالإشراف على عملية النزول إلى البر، الأميرال " مازاريدو " ظروف تمركز الجيش الإسباني بالساحل المقابل لمدينة الجزائر بقوله: " بعد أن تجمعت الحملة في خليج الجزائر يوم غرّة جويلية / تموز طلب مني الكونت أوريلي باعتباري قائداً للأسطول أن أنزل إلى البر مباشرة مع الأفواج الأولى من الجيش اثنتي عشرة قطعة مدفعية من عيار أربعة وأن يتبع على الفور إنزال اثني عشر مدفعاً من عيار ثمانية بالإضافة إلى ثمانية مدافع من عيار اثني عشر، وقد هبت الريح قوية يوم ثلاثة جويلية / تموز مما أعاق النزول الذي كان مقرراً أن يكون في اليوم الرابع من تموز / جويلية، ولهذا كلفت بأن أضع الخطة النهائية لنقل الجنود وتعيين السفن التي ستقوم بحمل الجنود إلى الشاطئ على أن تنزل للبرّ قوة قوامها سبعة آلاف وسبعمائة رجل وتلحق بهم بعد وقت قليل قوة أخرى مكونة من سبعة آلاف رجل.

وأثناء ذلك أخذت القوات الجزائرية مواقعها مستعدة للالتحام مع القوة المهاجمة، فرابطت في الناحية الغربية والمؤدية إلى مدينة الجزائر بين وادي خنيس وعين الربط

" الحامة ساحة أول ماي حالياً " أسفل مرتفعات عين الأزرق القوة التي يقودها حسن الخزناجي وبالقرب منها عسكر علي آغا العرب بالقرب من وادي خنيس، وإلى الشرق من ساحل الحراش نحو الجنوب استقرت قوات صالح باي بين وادي الحميز والحراش المكونة من حوالي عشرين ألف رجل والتي كانت تضم العديد من راكبي الخيل والجمال، ومن الناحية الجنوبية الغربية تحصّنت القوات التي كان يقودها مصطفى خوجة الخيل وقائد فرق الصبائحية بناحية باب الوادي تنتظر التدخل في حالة أي تغيير قد يطرأ على خطة العدو بتحوّله إلى الجهات الغربية من مدينة الجزائر. وبالقرب من هذه القوات الاحتياطية رابطت فرق زواوة برأس كاكسين لحماية الجهات الغربية من فحص مدينة الجزائر، وإلى الجنوب نحو الغرب من موقع نزول المهاجمين كانت قوة خليفة باي الغرب تنتظر أوامر الداي للمشاركة في المعركة بينما توزعت قوات باي النظري بسهل متيجة ومنه إلى رأس تمانتفوست، " البرج البحري " المقابل لوادي الحراش لتأمين مؤخرة المدافعين وإمدادهم بالمؤن والمساعدة عندما يتطلب الأمر ذلك.

وقد كان لهذه الاستعدادات المبكرة والتحصينات المتوفرة والمشاركة الفعالة لمختلف فرق الجيش وجموع المتطوعين، دور كبير في تطويق القوات الإسبانية والتضييق عليها وإحباط مخططاتها الرامية إلى إلحاق الهزيمة بالجيش الجزائري ومحاصرة مدينة الجزائر والاستيلاء عليها، ومما ساعد الجزائريين على تطويق القوة المهاجمة بطء عملية النزول الإسباني على الساحل التي استغرقت أسبوعاً كاملاً نظراً للقصف الذي تعرضوا له من الجزائريين، مما مكن السلطات الجزائرية من استقدام التعزيزات وتجنيد المتطوعين، وقد ذكر ذلك صاحب " الزهرة النائرة " بقوله: " إن مكث العدو خيراً علينا لأن قبائل العرب كانوا يجيئون من كل ناحية إلينا ". كما ساعد على نجاح الخطة الجزائرية تجمع الجيش الإسباني في مساحة ضيقة من الأرض محصورة بين مرتفعات الساحل بناحية حسين داي وشاطئ البحر، ومطوقة من جميع الجهات بقوات مزودة بالمدافع ومدعمة بالفرسان، وذلك رغم تحصينات الإسبان الذين بادروا منذ نزولهم بإقامة المتاريس والحواجز ومحاولتهم المبكرة فك الحصار بالتقدم إلى البساتين الواقعة بمنحدرات الساحل بين الحراش وخنيس، واستخدامهم الأسطول في قصف تجمعات

الجزائريين وإسكات مدافعهم. إلا أن المعركة بدأت بعد اليوم الأول تميل لصالح الجزائريين، وذلك بفعل مساهمة قوة المدفعية بحصن مرتفع خنيس، وبفضل تدخل فرسان صالح باي، واشتراك مجموعة كبيرة من راكبي الجمال في مهاجمة العدو واحداث الهلع والخوف في صفوفه. هذا وقد استطاعت طبانة (مدفعية) وادي خنيس المزودة بعدة فوهات من المدافع المشرفة على تجمعات العدو والمقابلة لسفنهم الصمود أمام القصف السريع والمتواصل للسفن الاسبانية أثناء اليوم الثامن الذي تعرضت فيه لحوالي 1500 قذيفة مدفعية. وقد حاولت أثناء تعرضها للسيل المتواصل من القذائف أن ترد على العدو، وقد أحدثت خسائر جسيمة بالفعل في سفن وتجمعات الإسبان وإحداث ثغرة في حائط الحصن المقابل لهم مما مكنهم من تسديد قذائفهم مباشرة إلى سفن الإسبان وتجمعاتهم، وقد بلغ عدد القذائف الجزائرية في تلك الليلة خمسمائة طلقة في اتجاه المواقع الإسبانية تسبّبت في تشتيت جموعهم وإغراق بعض سفنهم مثل السفينة المهاجمة التي أغرقتها مدفعية أحمد خوجة باشدفتر.

أما تدخل فرسان صالح باي فقد حال دون اختراق الإسبان للقوات الجزائرية عبر مرتفعات الساحل بعد أن جنّدوا لهذا الغرض قوة عسكرية مؤلفة من ثمانية آلاف جندي، وذلك بشنّه هجوماً خاطفاً في اليوم الأول للمعركة مستخدماً جميع قواته البالغة عشرين ألف فارس على القوات الإسبانية المتقدمة مستعملاً في ذلك أعداداً كبيرة من الجمال والخيل، وقد التحقت به، بعد ذلك، بقية القوات التي قدرت حسب بعض المصادر الجزائرية بـ 150 ألف رجل منهم ستة آلاف تركي وثلاثة آلاف كرغلي وهذا مما أرغم الإسبان على التراجع والالتحاق بالسفن دون محاولة تنظيم صفوفهم وجمع عتادهم تاركين أعداداً كبيرة من القتلى والجرحى وكميات ضخمة من العتاد والسلاح في ميدان المعركة التي دامت عشرة أيام من 1 إلى 11 جويلية / تموز 1775.

هذا وقد استكمل الإسبان انسحابهم غير المنظم والسريع في ظرف عدة أيام، فغادرت آخر سفنهم خليج الجزائر في اليوم السابع من جمادى الأول عام 1184 هـ. وقد تعرضت لهم السفن الجزائرية أثناء انسحابهم فأسرت منهم العديد واستولت على مغانم كثيرة، بيعت في المزاد العلني بباب البستان حسب رواية نقيب الأشراف.

ومما يلاحظ أن الاميرال الاسباني (مازا ريدو)، والمسؤول عن عمليات الإنزال إلى الشاطئ، حاول في تقريره السرّي، التقليل من وقع هذه الهزيمة عندما برّر عملية الإنسحاب بقوله: " وما تركنا وراءنا على الساحل إلا أربعة مدافع مشاة، وبعض قطع مدفعية عيار ثمانية عشر بالإضافة إلى تسعة عشر رطلاً من رصاص البنادق، ورامي قذائف وبعض الأدوات. وهذه الخسائر لا تعتبر شيئاً مذكوراً بالنسبة لعدد الرجال الذين كان من الممكن أن نتركهم قتلى لو انتظرنا الصباح ".

لكن هذا القول تكذبه الأحداث وتنفيه نتائج المعركة، فقوة الهجوم الجزائري وفعالية المدفعية وتدخل كل القوات المتواجدة في مواجهة العدو، ومهارة القادة الجزائريين أمثال صالح باي ومصطفى خوجة الخيل ومحمد بن عثمان خليفة باي الغرب، وحنكة الداي محمد عثمان باشا المجاهد، كل هذا أرغم الإسبان على ترك عتادهم والتخلي عن أسلحتهم على أمل الوصول إلى السفن الراسية بالقرب من الساحل، تاركين في ميدان المعركة نحو مائة مدفع وجميع الآلات الحربية الأخرى مع حوالي 2800 قتيل و 2080 جريحاً حسب أغلب الروايات، وإن كانت هناك روايات أخرى تقدر عدد الجرحى بثلاثة آلاف وعدد القتلى النهائي ثمانية آلاف، وهذا عكس ما ذهب إليه الإسبان من أن عدد قتلاهم لم يتجاوز 191 ضابطاً و 2088 جندياً لليوم الأول من المعركة. ولعل أقرب رقم إلى الواقع هو أربعة آلاف كما أوردته بعض الروايات. ومما يؤكد هذا ما ذكره صاحب " الزهرة النائرة " من أنه رأى: " في مكتوب جاء من قرطخانة بعد وصول الإسبان إلى بلادهم، أنهم أخرجوا إلى مستشفى قرطخانة ألفين وثلاثماية من المجاريح والمرضى، فضاقت عليهم المستشفيات فوضعوهم في كنائسهم، والحال أن أقل من نصف العمارة توجهت إلى قرطخانة، وأما الأكثر فقد التحق بأليكانت ".

أما خسائر الجزائريين فقد كانت ضئيلة، لم تتجاوز عند بعض المؤرخين المائتين. أما عند البعض الآخر مثل أبي رأس الناصري والمزاري فقد بلغت أربعمائة شهيد، جمعوا وجعلت لهم مقبرة بالرميلة إزاء عين الربط عرفت لدى العامة بحصن المجاهدين.

بعد هذا الإنكسار لم يجد الإسبان بدّاً من محاولة التوصل إلى صلح مع حكام الجزائر يحفظ لهم مصالحهم ويخفف من أثر هذا الإندحار أمام مدينة الجزائر، وعندما

أصرّ الداي محمد عثمان باشا على ضرورة تخليهم عن وهران كشرط مسبق للتوصل معهم إلى أي اتفاق حاولوا التوسط مع الباب العالي، لكن النوايا الإسبانية التوسّعية ومحاولة الملك الإسباني شارل الثالث إعادة الكرّة مهاجمة الجزائر من جديد، بالاستعانة بالدويلات الإيطالية، تحت رعاية الكنيسة وبزعامة البابا بيوس السادس أدت إلى فشل محاولات الصلح، وبذلك استمرت حالة العداء بين إسبانيا والجزائر، إذ حاولت إسبانيا الهجوم مرة أخرى في شهر آب 1783 وفي شهر جويلية / تموز 1784، وظلت الجزائر حصنا منيعاً وقلعة صامدة في الذّود عن العروبة والإسلام والدفاع عن مقوّماتها، وقد عبر عن هذا الموقف البطولي للجزائر في العهد العثماني محمد بن عبد الرحمن الجيلالي التلمساني في مصنفه الزهرة النائرة بقوله: " وليعرفوا قدر الجزائر، إذ تراب نواحيها ممزوج بدماء الكفار، اللهم أدمها دار جهاد، ومحلّ عزم واجتهاد إلى يوم التّناد ".

المراجع

* – ليس لهذه المعركة أي ذكر أو أية إشارة في الموسوعة العسكرية، ولا في كتبنا العربية المعروفة في الوطن العربي، خصوصاً تلك المعتمدة كمراجع في الجامعات العربية في تاريخ العرب الحديث، مع أنها كانت من أبرز الصفحات المشرقة في تاريخ الجزائر المقاوم والمناهض للاستعمار.

1 – انظر: د. ناصر الدين سعيدوني " معركة الحراش " مجلة " المؤرخ العربي " (تصدر عن الأمانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب – بغداد). العدد 43. السنة السادسة عشرة. 1410 هـ – 1990 م. ص 75 – 78.

2 – أحمد توفيق المدني " حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر واسبانيا 1492 – 1792 " الجزائر 1968. الفصل 27. ص 485 – 505.

3 – د. محمد بن عبد الكريم " حمدان بن عثمان خوجة الجزائري ومذكراته ". دار الثقافة بيروت. دون تاريخ. ص 15.

4 – أحمد الشريف الزهّار " مذكرات نقيب أشراف الجزائر، الحاج احمد الشريف الزهّار ". (1754 – 1830). تحقيق احمد توفيق المدني. الجزائر 1974. ص 26 – 27 و 196.

5 – عبد الرحمن بن محمد الجيلالي " تاريخ الجزائر العام " الجزء الثالث. دار الثقافة. بيروت. 1980. ص 240 – 248.

6 – محمد بن محمد بن عبد الرحمن بـن الجيلالـي بن رقيـة التلمسـاني " الزهـرة النـائرة فيمـا جرى في الجزائر حين أغارت عليها جنود الكفرة ". تحقيق وشرح سـليم بابـا عمـر. نشـر بمجلـة تـاريخ وحضـارة المغرب. عدد 3 سنة 1967. ص 25 – 32.

7 – أبو راس الناصري " عجائب الأسفار ولطائف الأخبار ". مخطوطة بالمكتبة الوطنية. ص 111 – 142.

8 - Berbrugger A., Expédition D'oreilly contre Alger 1775. In Revue Africaine Tome 8 - 9 et 11.

9 – Berbrugger A., Traduction de documents sur l'expedition D'oreilly, in Revue Africaine Tome 8

10 – Bresnier, Traduction du recit inedique de l'expédition D'oreilly, in revue Africiane. Tome 8.

11 – Feraud (ch), Attaques des expagnols contre Alger au xvIII siecle

12 – Julien (ch.A), Histoire de l'Afrique du Nord. Paris payot 1964 Tome 11 . P. 297.

13 – Gaid Mouloud, l'Algérie sous les Turcs, tunis 1975. P 163 - 164.

14 – Léon péchot, histoire de l'Afrique du Nord avant 1830. Imprimerie Alger 1914 Volume 3. Page 108

15 – Faure - Biguet, Histoire de l'Afrique septentrionale, Paris, imprimerie Militaire P 407

معركة حصن كريون

عرفت الفتوحات الاسلامية في بداية انطلاقة الدعوة، عدداً من الشخصيات العسكرية الفذّة في هذا الميدان، وتألّق نجمها فيما بعد، متجاوزاً حدود شبه الجزيرة العربية إلى القارة الأفريقية والقارة الأوروبية. وكان الداهية " عمرو بن العاص " أحد هذه الشخصيات وأكثرها شهرة، كما أنه يُعدّ رائد الفتوحات العربية الاسلامية في مصر وأفريقيا.

بالاضافة الى السجلّ العسكري الحافل لهذا القائد العربي الاسلامي الذي فتح مصر وأصبح حاكماً لها، فقد اعترف أعداؤه البيزنطيون على وجه الخصوص بدهائه وعبقريته ونباهته وحكمته من خلال معاركهم الكثيرة التي خاضوها ضدّه في مصر وغيرها، ولم تكن معركة الاسكندرية وحصن كريون سوى احدى هذه المعارك الهامة.

يبعد حصن كريون عن الاسكندرية 36 كيلو متراً، وقد رمّمه الروم ليجعلوا منه خط الدفاع الأول عن هذه المدينة. وقد تقدّم المسلمون لاحتلاله بعد أن سقط حصن " باب اليون " (أو قصر الشمع) بأيديهم. فترك " عمرو بن العاص (قائد الحملة) في " باب اليون " حامية بقيادة " خارجة بن حذافة السهمي " وتوجه مع باقي الجيش، وكان عدده قد أصبح خمسة عشر ألف مقاتل (وقيل عشرين ألفاً) وذلك بعد أن أمدّه الخليفة عمر بن الخطّاب بالزبير بن العوّام ومعه ثمانية آلاف مقاتل، نحو الاسكندرية، حيث كان لزاماً عليه أن يقاتل، قبل الوصول إليها حامية " حصن كريون " بقيادة ثيودور " (Théodor) قائد الروم الكبير، وقد بلغ عدد جيشه المتمركز في كل من الاسكندرية والحصن نحو خمسين ألف مقاتل.

وإذا علمنا أن " الكريون " كانت في ذلك الحين مدينة تجارية كبيرة تشرف على الترعة التي تزوّد الاسكندرية بالمؤن، وتتصل بهذه المدينة بسلسلة من الحصون، أدركنا كم كان لهذا الحصن من أهمية لدى الروم. لذا كان دفاعهم عنه دفاع المستميت، فزجّوا في هذه المعركة أفضل قواتهم واكثرها بأساً، ولقي المسلمون في حربهم حول هذا

الحصن مقاومة شديدة من المدافعين، إذ كان الروم يعرفون ولا شك ان انهيار دفاعهم عن حصن كريون يعني وصول المسلمين إلى الاسكندرية واستيلاءهم عليها، وبالتالي خروج الروم من مصر ومن أفريقيا بعدها.

ومن هنا أيضاً كان استبسال جند المسلمين في القتال، فهم يطمحون إلى إخراج الروم من كل أرض أفريقيا، ومفتاح انتصارهم هو مفتاح هذا الحصن، وكانت الغلبة لأكثر الفريقين صبراً، فهزم الروم وتركوا الحصن منسحبين نحو الاسكندرية.

إلا أن عمراً لم يترك لهم مجال التحصّن فيها من جديد، فجدّ في أثرهم نحوها مطبقاً مبدأ المطاردة واستثمار الفوز، حتى بلغ أسوار الاسكندرية، فضرب الحصار حولها، وكانت مدينة محصّنة من جهة البرّ ومفتوحة للاسطول البيزنطي من جهة البحر، ولهذا صعب على المسلمين فتحها، بل كان أمر اقتحامها أشقّ على المسلمين من اقتحام أيّ حصن آخر، بالاضافة إلى أن الروم استعملوا في الدفاع عنها معدّات القتال الثقيلة كالمنجنيق. وقد دام حصار المسلمين للاسكندرية أربعة أشهر (وقيل سنة) وانتهى بخضوعها لهم، فدخلوها فاتحين، وكان ذلك في سنة 21 هـ الموافق لسنة 641 ميلادية.

وقد اختلف المؤرخون في أمر فتح الاسكندرية وهل تمّ صلحاً أم قتالاً، ولكن المرجّح ان دخول العرب إليها تمّ صلحاً، وذلك بعد مفاوضات طويلة وشاقة بين عمرو بن العاص والبطريرك كيروس (أو قيروس) الذي كلفه الامبراطور " هركلوناس " (Herclunass) امبراطور بيزنطية باجراء المفاوضات مع العرب، وعقد الصلح معهم. وابرز شروط هذا الصلح الجزية على من بقي بالمدينة ، والأمن لمن رحل عنها، والهدنة أحد عشر شهراً ليتسنّى للجيش الرومي ولغيره من المدنيين الرحيل.

إلا ان ذلك لم يكن آخر عهد الروم بالاسكندرية، إذ أنهم عادوا إليها في عام 645م بأسطول كبير عدده ثلاثمائة سفينة حربية بقيادة البطريرك مانويل، وتمكنت هذه الحملة من احتلال الاسكندرية بمعاونة من بقي فيها من سكانها الروم. إلا أن هذا الاحتلال لم يدم طويلاً، إذ سرعان ما عاد عمرو بن العاص إليها فحاصرها وآلى " ليهدمنّ أسوارها إن مكّنه الله منها فلا يتركنّ للروم إليها سبيلاً ". وقد مكّنه الله بها بالفعل وفي أمد قصير، فدخلها حرباً. وأعمل المسلمون عند دخولهم إليها بجند الروم تقتيلاً حتى إذا ما بلغوا وسط

المدينة أمرهم عمرو بن العاص بالكفّ، عن ذلك، وبنى في ذلك المكان مسجدا أسماه " مسجد الرحمة " تذكاراً للحادث.

وقد قتل في هذه المعركة قائد حملة الروم مانويل، ولجأ من تبقّى من جند الروم إلى السفن وولّوا هاربين، واستقر المسلمون بالاسكندرية بعدها نهائياً، وكان ذلك في سنة 646م.

المراجع

1 – الموسوعة العسكرية " الجزء الأول " ص 83.

2 – الموسوعة العسكرية " الجزء الثالث " ص 793.

3 – د. زاهية قدورة " تاريخ العرب الحديث " دار النهضة العربية. بيروت. 1975 (مصر).

4 – ستيفن رنسيمان " الحضارة البيزنطية " ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد ومراجعة زكي علي. مكتبة النهضة المصرية / القاهرة. مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر 1961. سلسلة الألف كتاب (379). ص 38 – 39.

5 – د. عبد القادر أحمد اليوسف " الامبراطوية البيزنطية ". المكتبة العصرية. صيدا / بيروت. 1966 . ص 93 – 96.

6 – كتاب " تونس المسيرة الشاملة ". منشورات كتابة الدولة للإعلام. تونس 1973. ص 33.

معركـــة حطين

عندمـا تتفرّق الكلمـة، تضعـف المواقـف، وتتهــار القـوى، وتـتزعزع الارادات، وتضيع الأوطان، وتُهان الهوية. وإذا توحّدت، يحصـل النقيض، وتحتفـظ أيّـةُ أمّـة بكيانهـا وهيبتها وهويتها. ولقد عرفت بلادنا العربية وأمتنا هذين النقيضين في القرن الحادي عشـر للميلاد، لما كان كل حاكم عربي يغني على ليـلاه، ولا يفكـر إلا بشـخصـه وملكـه ونفـوذه، بعيداً عن مصلحة الجماعة، في الوقت الذي توحـدت فيـه قـوى الغـرب لشـنّ حربهـا علـى الشرق بغية " انتزاع الأماكن المقدسة من أيدي المسلمين ".

لقد خيّم على بلادنا، في ظل أولئك الحكام، جوّ من التفرقة والتمزّق، بينما كان جوّ الوحدة يخيّم على الغرب، رغم كثير من الخلافات والعداوات بيـن ملوكـه وأمرائـه، الذيـن أوجدوا قاسماً مشتركاً فيما بينهم ضد المسلمين والشرق.

تذرّع الفرنجة – الذين أطلق عليهـم اسـم الصليبييـن – بحجـج وذرائـع شـتّى فـي سبيل الاستيلاء على بيت المقدس وانتزاعه من أيدي المسلمين. ولمــا كـان للعـامل الدينـي أثره الأول والأساس في ذلك العصر، فقد كان لكلمة البابا أوربـانوس الثـاني ودعوتـه إلـى تجنيد الجيوش لهذا الغرض، اضافة الى دور الرهبان والقساوسة ورجال الدين المسيحيين، فقد كان لكل ذلك تأثيره المهم على سير الحملات التي عرفت بـ " الصليبية " بدءاً من سـنة 1096 ميلادي. مع أن العوامل الأخرى – غير الدينية – كانت لهـا أهميتهـا الأولـى غـير الظاهرة. فوق كل ذلك، ورغم هذا الخطر الـذي كـان يهدد الأقطـار العربيـة والاسـلامية، كانت هذه الأقطار موزعة بين خلافتين: الخلافة الفاطمية في مصر، والخلافة العباسية في بغداد... وكانت جميعاً تعاني من الوهن وسوء الحكم وشـيوع الفرقـة مـا يغـري بالاغـارة عليها واستباحة حماها.

وجاءت الغزوة الصليبية الأولى سنة 1096، ونجحت في تكوين مملكة لاتينية في القدس بقــيادة " غـودفـروا دي بـويـّون " ابن كونت بولونيا. كما نجحوا فيما بعد بتأسيس عدد من الإمارات كانطاكية والرها وطرابلس.

انتشى الصليبيون بنشوة النصر، وتتالت غزواتهم. وما إن كانت الحملة الثالثة التي قادها ريتشارد الأول ملك انكلترا، والملقب " بقلب الأسد "، والى جانبه ملك فرنسا فيليب، حتى كانت الأمة العربية والاسلامية تعيش أحسن أيامها في ظل قائد شجاع، تمكن من ادراك مكامن الضعف والقوة، فوحّدها وانتشلها من الحضيض، وأعاد لها هيبتها الزاهية، ذلك هو صلاح الدين الأيوبي، الذي وجّه للصليبيين ضربة قاضية في معركة من أكبر معارك التاريخ الفاصلة وهي معركة حطين في 4 تموز 1187.

ولد صلاح الدين يوسف بن نجم الدين أيوب في تكريت التي كان والده حاكماً عليها، وانتقل مع والده الى الموصل على أثر خلاف بين الوالد وحاكم بغداد " بهروز " ،ودخل وأخوه شيركوه في خدمة عماد الدين زنكي. ولما شبّ صلاح الدين انخرط أيضاً في خدمة هذا الحاكم العظيم.

كان صلاح الدين من القادة العباقرة العظام، ذا شخصية فذّة نفاذة. وارادة قوية لا تقهر، ومعرفة في فنون الحرب والسياسة لا تجارى، وكان ذا خلق متين، يتميز بانسانية ونبل، قلّ أن وجدت في الفترة التي عاش فيها، وقد نال اعجاب خصومه وأعدائه وتقديرهم قبل أصدقائه. وان أفضل حكم ما نطقت به الأعداء قبل الأصدقاء – كما يقولون –.

كان صلاح الدين الأيوبي يصحب عمّه في غزواته، ويتولى قيادة قسم من الجيش، ويبلي البلاء الحسن. وكانت له وقائع مشهورة في تلك السن المبكرة، وخاصة بما وفّق فيه من دفع الصليبيين عن الاسكندرية في احدى غاراتهم البحرية.

ولم تكن ناحية القيادة وحدها هي التي لفتت الأنظار إلى صلاح الدين، بل ان شجاعته واقدامه وآدابه وحسن معاملته للأهالي، قد جعلت له منزلة محمودة، وقال في ذلك أحد المؤرخين:

" والذي أدهش المسيحيين من أمر صلاح الدين هو مروءته وشهامته وكرامته وكرمه وحلمه ومحافظته على العهود ". في هذه الفترة، كانت مصر تتخبّط في حالة من الفوضى والاضطراب لا توصف. فدفع إليها نور الدين زنكي جيشاً لانقاذها بقيادة أسد الدين شيركوه، وكان صلاح الدين في عداده. وقد اشتبك هذا الجيش عدة اشتباكات مع

الصليبيين في غزوتين، أما في الغزوة الثالثة فقد استولى شيركوه على مصر بدون دماء، وخلع عليه الخليفة الفاطمي الوزارة، فعهد لابن أخيه صلاح الدين بمباشرة مهام الأمور.

وعلى أثر موت شيركوه، لم يعد للوزارة غير صلاح الدين، فصدر إليه أمر الخليفة الفاطمي في 23 آذار / مارس / سنة 1169، وقد جاء فيه: " هذا عهد أمير المؤمنين إليك، وحجّة عند الله لديك، فاوفِ بعهدك وخذ كتاب أمير المؤمنين بيدك ". وكان اللقب الذي عرف به صلاح الدين: " الملك الناصر أبو المظفر صلاح الدنيا والدين يوسف بن أيوب ".

ولم يكن صلاح الدين حين قلّد الوزارة أربى على الثانية والعشرين من عمره، ولكنه عمر مليء بجلائل الأعمال، حافل بخبرة الحروب والقيادة والحكم، وقد استطاع بحنكته وحكمته أن يظفر بحب المصريين، وألا يفقد ثقة نور الدين زنكي.

ولعب القَدَرُ دوره إلى جانب صلاح الدين، عندما توفي نور الدين زنكي والخليفة الفاطمي العاضد وآموري ملك القدس، فخلا له الجو وأصبح السيد المطلق في مصر ،والقائد الأوحد لجميع المسلمين. فراح يجمع الصفوف ويحشد القوى ويستعد للذود عن حياض العروبة والاسلام. وكان أمله الكبير توحيد مصر وسوريا وفلسطين. وبذلك وحده يمكن انقاذ الوطن العربي ودفع الخطر الصليبي.

بلغت قوة صلاح الدين ذروتها، مما دفع الصليبيين إلى أن يعقدوا معه هدنة مدتها أربع سنوات بدءاً من عام 1185. إلا أن سياسة " أرناط " صاحب حصن الكرك وانقضاضه على قافلة للمسلمين أثناء سيرها من القاهرة الى دمشق، كانت سبباً مباشراً في خرق الهدنة واعلان الحرب. وكانت " معركة حطين " هي الفاصل الرئيسي بين استمرارية حياة الذل تحت الحكم الصليبي، وبين حياة العزّة والكرامة المتوّجة بالنصر والفخار... وكان لا بد منها بالطبع.

والحقيقة ان صلاح الدين كان قد فرغ من إحياء الجبهة الاسلامية المتحدة بعد أن دانت له الموصل بالطاعة، واستطاع توحيد مصر والشام والعراق والجزيرة، الأمر الذي جعل الفرنجة في فلسطين مطوّقين من الشمال والجنوب. وزاد من سوء وضع مملكة الفرنجة في بيت المقدس، اضطراب أوضاعها الداخلية نتيجة لوفاة ملكها المريض

" بغدوين الرابع "، وقيام ملك قاصر هو " بغدوين الخامس " الذي لم يلبث أن توفي هو الآخر، مما أدى الى سلسلة من المؤامرات الداخلية بين الفرنجة انتهت بتنصيب " غي لوسينيان " على عرش المملكة الصليبية سنة 1186م. وكان غي هذا رجلاً ضعيفاً لم يستطع أن يحظى باحترام أمراء دولته، وعلى رأسهم " أرناط " صاحب حصن الكرك، الذي لم يشأ أن يترك الفرنجة في فلسطين ينعمون بفرصة الهدنة لتصفية خلافاتهم الداخلية، واختار أن ينقضّ على قافلة للمسلمين أثناء سيرها من القاهرة إلى دمشق، سنة 1187، فعجّل بالمعركة الحتمية بين صلاح الدين والفرنجة برفضه اطلاق سراح أسرى رجال هذه القافلة. ولما اتضح لصلاح الدين عجز الملك " غي لو سينيان " عن ردع " أرناط " واجباره على ردّ الأسرى لم يعد أمامه إلا القتال. وكان ان قام بحركة تعبئة شاملة لقواته التي أخذت تتوافد عليه من مصر وحلب والجزيرة وديار بكر. ولما اكتملت قواته خرج على رأسها من دمشق في آذار 1187 ليهاجم حصني الكرك والشوبك. واصطدم بالفرنجة عند صفورية في موقعة سقط فيها معظم جيشهم بين قتلى وأسرى، في حين عدّ المسلمون هذا النصر " باكورة البركات ".

أما الصليبيون فقد ثابوا إلى رشدهم بعد هذه الهزيمة التي حلّت بهم، فوحدوا صفوفهم، وحاولوا أن يتناسوا خلافاتهم، وحشدوا قواتهم عند صفورية. وهنا ظهرت براعة صلاح الدين العسكرية، مستفيداً من دروس أسلافه القادة العرب، فقرر أن لا يتقدم نحو الصليبيين لمنازلتهم، واختار ان يستدرجهم ليسيروا نحوه فيصلوا إليه منهكين من طول الطريق وحرارة الجو وقلّة الماء. ولذلك بادر صلاح الدين بمهاجمة مدينة طبرية وإحراقها – وكانت في أيدي الفرنجة – الأمر الذي استثارهم فزحفوا لتخليصها في ظروف قاسية. وكان صلاح الدين ورجاله ينتظرونهم قرب طبرية ناعمين بالماء الوفير والظل المديد، مدّخرين قواهم لساعة الصفر. وعندما سمع صلاح الدين بأن الصليبيين شرعوا في الزحف إليه، تقدم على رأس رجاله نحواً من خمسة أميال ليرابط غربي طبرية عند قرية حطين، وهي قرية من منطقة غنية المرعى وفيرة الماء، بها قبر النبي شعيب. وكان ذلك في تموز 1187، في يوم راكد الهواء، شديد الحرارة، بلغ فيه الفرنجة " سطح جبل طبرية " المشرف على سهل حطين، وهي منطقة على شكل هضبة ترتفع عن سطح

البحر اكثر من 300 متراً، ولها قمتان أشبه بالقرنين، مما جعل العرب يطلقون عليها اسم " قرون حطين ". وقد حرص صلاح الدين على أن يقف رجاله بحيث يحولون بين الفرنجة والوصول إلى ماء بحيرة طبرية في وقت " اشتدّ بهم العطش ". ثم أمر صلاح الدين باشعال النار والأعشاب والأشواك التي تكسو الهضبة، " وكانت الريح على الفرنجة، فحملت حرّ النار والدخان إليهم، فاجتمع عليهم العطش، وحرّ الزمان، وحرّ النار، والدخان وحرّ القتال " على حدّ قول ابن الأثير.

وعندما أشرقت شمس يوم السبت، الرابع من تموز 1187، اكتشف الفرنجة أن صلاح الدين استغل ستار الليل ليضرب نطاقاً حولهم حتى أحاطت بهم قواته " إحاطة الدائرة بقطرها ". وبذلك بدأ الهجوم الشامل على الفرنجة وهم في أسوأ الظروف " فأخذتهم سهام المسلمين، وكثر فيهم الجراح، وقوي الحر وسلبهم العطش الفرار " حسب قول المؤرخ ابن واصل.

وقاتل الجيش الفرنجي ببسالة لا نظير لها متحملاً عطشه ونار خصمه، لكن هجمات المسلمين ظلت تتكرر دون أن تترك للعدو مجالاً لالتقاط أنفاسه، فانهزم مشاته، أما فرسانه فقد لاذ قسم منهم بالفرار مخترقاً صفوف المسلمين بقيادة " ريموند " أمير طرابلس، وارتد قسم آخر نحو تل حطين حيث نصبت خيمة الملك " غي " والتف حولها نحو ماية وخمسين فارساً يدفعون المسلمين عنها. وأدرك صلاح الدين أن هزيمة الصليبيين تتم ساعة تدك خيمة مليكهم، فأرسل إلى تلك الخيمة وحاميتها موجة من الجند المهاجم إثر موجة، حتى رآها تدك، ويقع الملك " غي " وسائر الأمراء والفرسان الصليبيين، وفي مقدمتهم " رينو دي شاتيّون " المعروف عند العرب بـ " أرناط " (صاحب حصن الكرك)، وقعوا أسرى بين أيدي الجنود المسلمين. وقد سيقوا مع غيرهم من أكابر الفرنجة (خاصة جيرار مقدم الداوية) الى صلاح الدين في مخيّمه، فأحسن استقبالهم وأمر لهم بالماء المثلج ليرووا ظمأهم، لكنه قطع رأس " أرناط " بسيفه تنفيذاً لوعد قطعه على نفسه إذا وقع هذا الأمير في قبضته، وذلك لخيانته الميثاق الذي كان قد سبق وارتبط به معه، ولجرائمه السابقة في قتل الأسرى. وكان صلاح الدين قد ذكّر أرناط بجرائمه وقرعه بذنوبه وعدّد عليه غدراته.

ويختلف المؤرخون في قدر عدد قتلَى الصليبيين وأسـراهم فـي هـذه الوقعـه حيـث ذكر بعضهم " ان عـدد قتـلاهـم كان اثنين وعشرين ألفاً. وذكر آخـرون انـه كـان خمسـين ألفاً ". كما ذكر أن المسلمين قتلوا ثلاثين ألفاً وأسروا مثلها. لكن أدق وصـفٍ يمكن اعتمـاده في هذا المجال هو قول المؤرخ ابن الأثير: " وكـثر القتـل والأسـر فيهم، فكـان مـن يـرى القتلى لا يظن أنهم أسروا واحداً، ومن يرى الأسرى لا يظن أنهم قتلـوا واحـداً "، وكذلـك قال المؤرخ " أبو شامة " في كتابه " أزهار الروضتين في أخبار الدولتين ".

والحق أن معركة حطين بالنسبة الى الفرنجة كانت أضخم من كارثة حربية، لأنـه لم ينتج عنها أسر ملكهم وضياع هيبة مملكتهم وسلطتها الفعلية في فلسطين وحسب، وانمـا نتج عنها نقص واضح فـي الفرسـان المحـاربين، بعـد أن سـقط زهـرة فرسـانهم بيـن قتيـل وأسير. وهكذا غدت فلسطين عقب معركة حطين في متناول قبضـة صـلاح الديـن، فشـرع يفتح البلاد والمدن والثغور الصليبية واحداً بعد آخر, حتى توّج جهاده بتحرير بيت المقدس في سنة 1187.

هذا، ولا بد من الإشارة إلى أهمية بيت المقدس فـي نظـر صـلاح الديـن الأيوبـي، والمسلمين قاطبة، عندما ردّ على الملك الانكليزي، ريتشارد قلب الأسـد أثنـاء المفاوضـات بينهما قائلاً له بشكل قاطع: " أما القدس فهو لنا كما هو لكم، وهو عندنا أعظم مما عندكـم، ففيه مسرى نبيّنا ومجمع الملائكة... فلا تتصور أننـا نـنزل عنـه! أمـا البـلاد فهـي لنـا فـي الأصل، واستيلاؤكم عليها كان طارئاً لضعف من كان فيها من المسلمين في ذلك الحين ".

فهذه هي رسـالة صـلاح الديـن الأيوبـي، قبـل ثمانمائـة عـام تقريبـاً. وهـي رسـالة صـالحة لأيامنا هذه رغم مرور هذه المدة من الزمن... ونقول: ما أشـبه الليلـة بالبارحـة... بمعنـى: أن بـلاد العـرب للعـرب وحدهـم. وان وجـود الصـهيونيين ظـاهرة شـاذة كوجـود الصليبيين بالأمس.

وهدف الرسالة هو توحيد الصفوف وجمع كلمة العرب، لكي نفوّت الفرصـة علـى الصهيونية ومن ورائها الاستعمار، ويُقّضى كل نفوذ أجنبي القضـاء النهائي.

من هذا المنطلق، ليس صدفة أبداً أن تعمـد القيـادات الإسـرائيلية وبمناسـبة مـرور 800 عـام علـى معـركة حطين، إلى إعداد احتفال أقامته أكاديمية العلوم التاريخية في تل

أبيب، دعت إليه عددا كبيرا من المؤرخين والأساتذة والباحثين من شتى أنحاء العالم. وهذا نموذج يدل على مدى الوعي الصهيوني بأهمية استخدام التاريخ ضمن أسلحة الصراع ضد العرب. كذلك كان طبيعياً أن يطرح الصهاينة سؤالهم عن الأسباب التي دفعت الصليبيين إلى الاجلاء عن بيت المقدس بعد حوالي قرنين من الزمن، كي يتلافوا هم، نفس المصير الذي لاقاه الصليبيون في نفس البلاد التي اغتصبوها باسمهم ضمن عملية الثأر التاريخي.

أَلَمْ يقل الجنرال غورو أمام قبر صلاح الدين الأيوبي في دمشق: " ها نحن عدنا يا صلاح الدين ". وكذلك فعل الجنرال اللّنبي...

ويبقى أخيراً سؤالنا الكبير: متى يستفيق العرب، ومتى يتعلمون الدرس والعبرة من معركة حطين، وصلاح الدين الأيوبي، ويجسّدوها عملياً على الجغرافيا نفسها لتخدم التاريخ نفسه؟

المراجع

1 – ابن الأثير " الكامل في التاريخ ". القاهرة 1303 هـ.

2 – أبو شامة " أزهار الروضتين في أخبار الدولتين ". القاهرة 1287 هـ.

3 – الموسوعة العسكرية. الجزء الأول. المؤسسة العربية للدراسات والنشر. بيروت. الطبعة الأولى 1977. الطبعة الثانية 1981. ص 821 – 822.

4 – الموسوعة الفلسطينية / انيس صايغ / دمشق 1984. ص 249 – 250.

5 – صبحي عبد الحميد " معارك العرب الحاسمة ". مؤسسة الأبحاث العربية. بيروت. طبعة ثانية 1980. ص 112 – 130.

6 – السيد فرج " أدهى رجال الحرب في الشرق والغرب ". مطبوعات دار الشعب. القاهرة. 1970. ص 119 – 131.

7 – خالد الفيشاوي " 800 عام على حطين. صلاح الدين الأيوبي والعمل العربي الموحد " مجلة " الفكر الاستراتيجي العربي ". العددان 21 – 22. تموز – تشرين الأول 1987. ص 295 – 304.

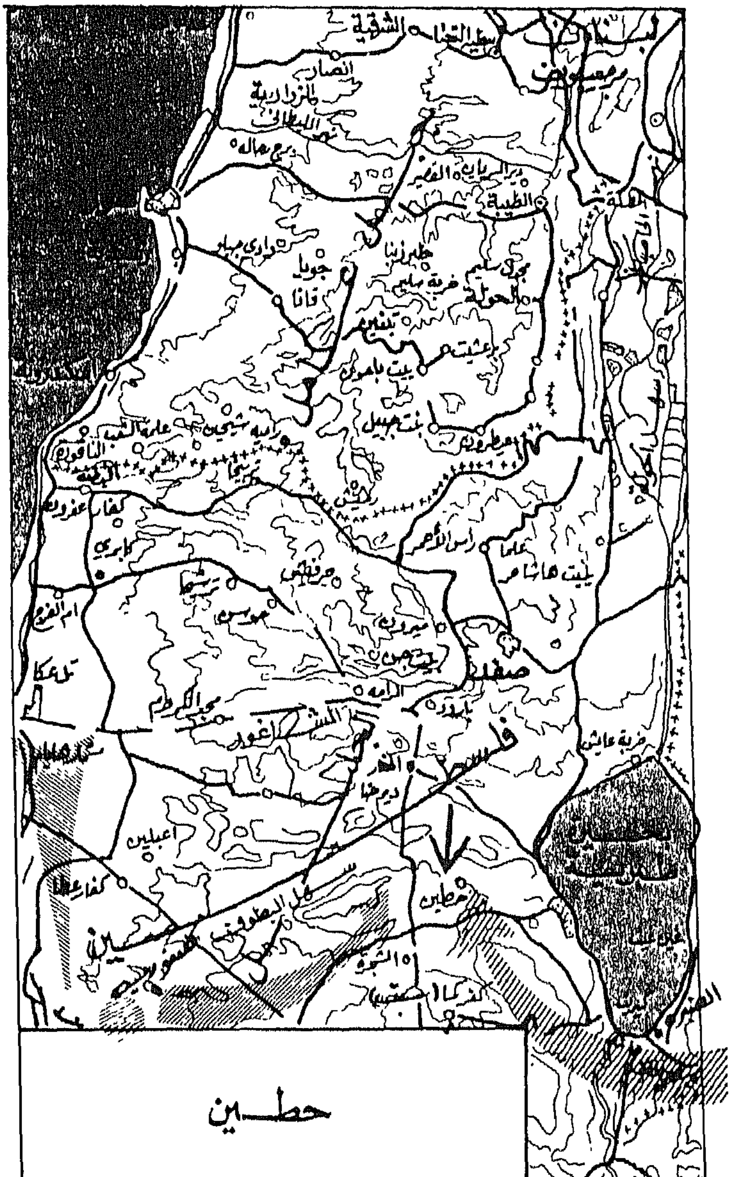
8 – مجلة " المنابر " البيروتية.

9 - مجلة " الجيل " (قبرص). العدد 9. ايلول 1987. ص 90 - 97.

10 - قدري قلعجي " صلاح الدين الأيوبي ". دار الكاتب العربي. بيروت. 1966.

11 - السير هاملتون جب " صلاح الدين الأيوبي، دراسات في التاريخ الاسلامي ". حررها يوسف ايبش. المؤسسة العربية للدراسات والنشر. بيروت. 1973.

12 - ارنست باركر " الحروب الصليبية " تعريب الدكتور السيّد الباز العريني. بيروت. دار النهضة العربية 1967. ص 180 - 182.



المرجع: بسام العسلي " الأيام الحاسمة في الحملات الصليبية ".

معركــة حُنَـيـن

كثيرةٌ هي اللحظات الحاسمة في تاريخ البشرية، وكثيرةٌ أيضـاً هـي المعـارك التـي غيّرت وجـه التـاريخ. وكـانت معركـة " حُنَيـن " إحـدى هـذه المعـارك المفاجئـة السـريعة والقصيرة الأمد، والتي كادت تغيّر وجه التاريخ وتقضي على ما شيّده النبي محمـد (ﷺ) في عشرين عاماً، وفي ساعة من ساعات فجر الحادي عشر مـن شـوّال سـنة 8 هــ، لـولا ثبات محمد وإيمانه بالله... ليتمّ دينه، ولو كره المشركون. وعلى أساس ذلك، كـانت الآيـة الكريمة التي وصفت حُنَين وصفاً بليغاً بالقول" ﴿لقد نصركم الله في مواطـن كثيرة ويـوم حُنَيـن إذ أعجبتكـم كـثرتُكم فلـم تُغْـنِ عنكـم شـيئاً وضـاقت الأرض بمـا رحبـت ثـم ولّيتـم مدبرين. ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزلت جنوداً لم تروها وعـذّب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين ﴾.

(سورة التوبة" الآيتان 25 – 26).

لقد أثار انتصار المسلمين على قريش وفتحهم مكّة بذلك الجيش العظيم الـذي أتـى به محمد (صلى الله عليه وسلم) ودخول قريش في الاسلام موقف القبـائل القاطنـة حـول مكّة من الشرق، ورأت الخطر يقترب حثيثاً من ديارها، ويهدّد معتقداتها وتقاليدها، فلم تَـرَ بدّاً من الاتفاق على تحشيد جميع قواتها لا للدفاع عن بلادها فحسـب، وإنمـا للهجـوم علـى المسلمين ومباغتة مكة قبل أن تنساب إليهم جيوش الرسول الكريم.

وكانت قبيلة " هوازن " في شمال شرقي مكة، وقبيلة " ثقيف " في جنوب شـرقيها، أعظم القبائل قوّة في تلك الأنحـاء، فـاتفقت هاتـان القبيلتـان علـى توليـة " مـالك بـن عـوف النَصْـري " قيادتهـا، وهـو مـا يـزال شـاباً فـي الثلاثيـن مـن عمـره، قـويّ الإرادة، مـاضي العزيمة، فأمر أن تحتشد القبائل بأموالها ونسائها فـي سـهل أَوطَـاس (وهـو وادٍ فـي ديـار هَوَازن) فتجتمع هوازن وثقيف ونصر وجشم وناس من بني هلال فيه.

وكـان فـي قبيلـة جشـم، " دُرَيـد بن الصِّمَّةَ " المعروف ببطولته في حروب عرب الجـاهليـة، لـكنـه كـان شـيخاً طـاعناً في السن، وليس فيه شيء إلا التيمّن برأيه ومعرفته

بالحرب، ولما علم بما اعتزم عليه " مالك بن عوف " في استصحاب الأموال والعيال في الحرب ليشجّع بها المقاتلين، قال له: وهل يردُّ المنهزمَ شيءٌ ؟ إنها إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه، وإن كانت عليك فُضِحْتَ من أهلك ومالك. ما فَعَلت كعْب و كِلاب (وهما قبيلتان في هَوازِن)؟ قال: لم يشهد منهم أحدٌ. قال دريد: غاب الحدّ والجدّ (أي البأس والحظّ)، ولو كان يوم عَلاءٍ ورفعةٍ لم تغب كعب ولا كلاب.

رغم ذلك لم يقنع مالك بن عوف برأي دريد بن الصَّمَّة، وأمر فسار بالقبائل المتحالفة حتى وصل جبل حُنَين على طريق مكة – الطائف. ولما علم بخروج المسلمين من مكة، تحصّن في قمم الجبل ووزّع رجاله المقاتلين على طرفي الوادي ينتظر قدوم المسلمين إليه.

ولما سمع محمد بحشود قبائل هوازن وثقيف ومن انضم إليهم من القبائل الأخرى المُشركة، أرسل إليهم " عَبْدَ الله بن أبي حَدْرد " يتجسّس أخبارهم ويستطلع موقفهم. ثم خرج محمد في الخامس من شوّال سنة 8 للهجرة من مكة – بعد أن رجع " بن أبي حَدْرَد " من مهمته التجسسية – بجيش بلغ اثني عشر ألف مقاتل، منهم عشرة آلاف هم الذين قدموا معه من المدينة وفتحوا مكة، وألفان ممن أسلموا من قَريش. وساروا متجهين نحو الطائف، تتقدمهم المقدمة، وهي مؤلفة من مائة خيال من بني سليم بقيادة خالد بن الوليد، وكانوا من الكثرة والاعتزاز بقوتهم أن قال بعضهم: لن نُغْلَبَ اليوم لكثرتنا.

عسكر المسلمون في مساء ليلة العاشر من شوّال عند مدخل مضيق حُنَين، وفي فجر اليوم الثاني استأنفوا المسير، حتى اذا توغّلت المقدمة في الوادي ودخل الكوكب (القسم الأكبر) المضيق أيضاً، أمر مالك بن عوف رجاله برشق جيش المسلمين بالنبال، والهجوم على جوانب الرتل مرة واحدة، فبُغِتَ المسلمون ، اغتة لم يكونوا ليتوقعوها، ولم يسعفهم الوقت لصدّ هذا الهجوم، ولم يستطيعوا الثبات في أماكنهم، فتمزّق الرتل شرّ تمزّق، وانهزمت المقدمة بعد أن أبيدت منها كتيبتان وجرح قائدها خالد بن الوليد، وفرّ الرجال من الكوكب على غير نظام لا يلوون على شيء. وجابه محمد الموقف – وكان يسير في مؤخرة الكوكب – وجهاً لوجه.

ويصف شاهد عيان هذا الموقف بقوله: لما استقبلنا وادي حُنَين انحدرنا في وادٍ

من أودية تهامة أجوف ذي خطوط انما ننحدر فيه انحداراً. وكان في عماية الصبح، وكان القوم قد سبقونا إلى الوادي فكمنوا لنا في شعابه وأنحائه ومضائقه وقد اجتمعوا وتهيّؤوا وأعدّوا، فوالله ماراعنا – ونحن منحطون – إلا الكتائب قد شدّوا علينا شدّة رجل واحد، واستمر الناس راجعين لا يلوي أحد على أحد، وانحاز رسول الله ذات اليمين... ".

وكان زعماء قريش المستجدّون في الاسلام مغتبطين لهذا المصير، فيقول أبو سفيان بن حرب وعلى شفتيه ابتسامة التشفّي: لا تنتهي هزيمتهم دون البحر!... وقال شيبة بن عثمان بن طلحة: اليوم أدرك ثأري من محمد، وكان أبوه قد قُتل في معركة أحد. وقال كلَدة بن الحنبل: ألا بَطَلَ السحر اليوم... إنه موقف حرج ولا شك. وليس في حياة قادة الجيوش مواقف عصيبة وخطرة كموقفهم من هزيمة جيوشهم في ميدان المعركة. وقلائل في التاريخ هم الذين استطاعوا بفضل شخصياتهم وعزائمهم وقف تيّار الهزيمة في جنودهم والحيلولة دون وقوع الكارثة والخسران. والنادر فيهم من حوّل الهزيمة إلى نصر. أما محمد القائد، الذي أثبت كفاءته في معركة أُحُد محوّلاً تيار المعركة من هزيمة منكره إلى انسحاب ناجح، نراه في هذا الموقف في أوج عظمته ومجده العسكري الخالد، ولا نغالي إذا قلنا انه بزّ من كان قبله في هذا المضمار ولم يشاركه في مجده هذا أحد قبله، حيث لم يستسلم للأمر الواقع، ولم تخذله نفسه كما خذلت اثني عشر ألفاً من جنده نفوسُهم، بل عمل أول ما عمل أن صعد منحدر الوادي قليلاً، وحوله النخبة الممتازة من صفوة رجاله: أبو بكر الصدّيق، وعمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب، وعمه العباس وابنه الفضل، وأبو سفيان الحرث بن عبد المطلب وابنه جعفر، وربيعة بن الحارث، واسامة بن زيد، وأيمن بن أم أيمن. واخذ الرسول يصيح في المنهزمين من جنده: اين أيها الناس، هلُمّوا إليّ أنا رسول الله، أنا محمد بن عبد الله. لكن الناس قد شغلوا بأنفسهم فاستولت عليهم روح الهزيمة، وحملت الإبل بعضها على بعض، ورأوا بأم أعينهم وقد لاح وجه الصباح مقاتِلة هوازن وثقيف تنحدر عليهم من أعالي السفوح، وفي مقدمتهم رجل على جمل له أحمر، بيده راية سوداء في رأس رمح طويل.

ولما رأى محمد الناس لا يلوون على شيء، ذكر بيعة الأنصار في العقبة، وبيعة المهاجرين تحت الشجرة، وطلب إلى عمّه العباس ذي الصوت الجهوري أن يناديهم،

فنادى: " يا معشر الأنصار الذين آووا ونصروا!... يا معشر المهاجرين الذين بايعوه تحت الشجرة! يا لكتيبة الإيمان! أين هم الذين أجابوا ربّهم يوم العريض وبيعه الرضوان؟...

ان محمداً حيّ فهلمّوا، وكرر العباس النداء حتى تجاوبت في كل جنبات الوادي أصداؤه. وفعلت الصيحة فعلها في النفوس وذكروا العهد والشرف والوفاء، وذكروا أكثر من ذلك محمداً نبيَّهم وزعيمَهم الذي يحبونه أكثر من حب أنفسهم، فتصايحوا: لبيّك... لبيّك، فيذهب الرجل ليثني بعيره فلا يقدر على ذلك، فيأخذ درعه فيقذفها في عنقه ويأخذ سيفه وترسه، ويقتحم على بعيره ويخلي سبيله، فيؤم الصوت، حتى ينتهي إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم). لقد اجتمع الى محمد مائة من المؤمنين. فأسرع وعبّأهم بوجه المهاجمين يصدّون سيلهم الجارف ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا. وتقدم علي بن أبي طالب ورجل من الأنصار نحو حامل راية العدو الذي فعل العجب، فأتاه عليّ من الخلف وضرب عرقوبي الجمل فوقع على عَجُزه، ووثب الانصاريّ عليه فضربه ضربةً قطع قدمه بنصف ساقه، فانقلب عن رَحْله.

ثم تضاعف عدد المسلمين حول محمد (ﷺ) ووقفوا وجهاً لوجه أمام هوازن التي انحدرت من سفوح الوادي، وقد انبلج النهار واستقر الموقف بعض الاستقرار، وتقدم الرسول يشجّع جنوده وهو يقول: " الآن حمي الوطيس. إن الله لا يخلف رسوله وعده ". ثم يلقي حفنة من الحصى في وجوه الأعداء ويقول: شاهدت الوجوه! بدأ وجه المعركة يتغير تدريجياً في صالح المسلمين. وقام بنو سليم بدور رئيسي في القتال، بينما كانت فصائل منهم تدافع أمام الرسول حتى النَفَس الأخير. فردّوا هوازن على أعقابهم، ولما انهزم هؤلاء خطا المسلمون خطوة أخرى بتوجيه هجومهم على بني مالك من ثقيف، فقتل منهم سبعون رجلاً تحت رايتهم فقط، واستمر القتل في بني رؤاب حتى قال أحدهم إلى محمد: يا رسول الله هلكت بنو رئاب، فزعموا أن رسول الله أجاب: اللهم أجبر مصيبتهم.

عندئذ رأى مالك بن عوف النَصْريّ ان الاستمرار في القتال معناه الفناء لقبائله، فأمر بالانسحاب الذي تمّ بثلاثة اتجاهات:

1 – القسم الكلي وقد انسحب نحو الطائف، وقام بستر انسحابه قائدهم مالك بن عوف نفسه مع فصيل من رجاله الشجعان أمرهم أن يقاتلوا مهما كلف الأمر حتى يتم

الانسحاب، فقاتلوا كتيبة الزبير بن العوّام واستطاع أن يوقفها زمناً أنقذ فيه بعض ما أنقذ. ولما وصل القسم الكلي عند " نخلة "، افترقت ثقيف عن هوازن واتجهت نحو الطائف فاحتمت بحصونها.

2 – قبيلة هوازن وبني غيرة من ثقيف وقد انسحبوا نحو أوطاس، وتبعتهم خيّالة المسلمين من بني سليم بقيادة عامر الأشعري فأدرك مؤخرتهم وقاتلها فقتل، فأخذ القيادة أبو موسى الأشعري فقاتلهم حتى هزمهم واستولى على نسائهم وأموالهم.

3 – انسحبت نحو " نخلة " فلول من القبائل معظمهم من بني غيرة، فتعقّبتهم خيالة من المسلمين وغنمت ما كان معهم.

وهكذا كان انتصار المسلمين رائعاً، مما عزّز مكانتهم، وقوّى إيمانهم بعد أن غنموا في هذه المعركة أموالاً طائلة لم يغنموا مثلها في أي حرب من حروب النبي...

المراجع

1 – سيرة ابن هشام (مطبعة حجازي سنة 1973). الجزء الرابع. ص 65 – 74.

2 – السيرة الحلبية. الجزء الثالث. المطبعة الأزهرية 1932. ص 121.

3 – سيرة دحلان (على هامش السيرة الحلبية) المطبعة الأزهرية 1932. الجزء الثاني ص 313.

4 – ابو جعفر محمد بن جرير الطبري " تاريخ الأمم والملوك " الجزء الثالث. ص 125.

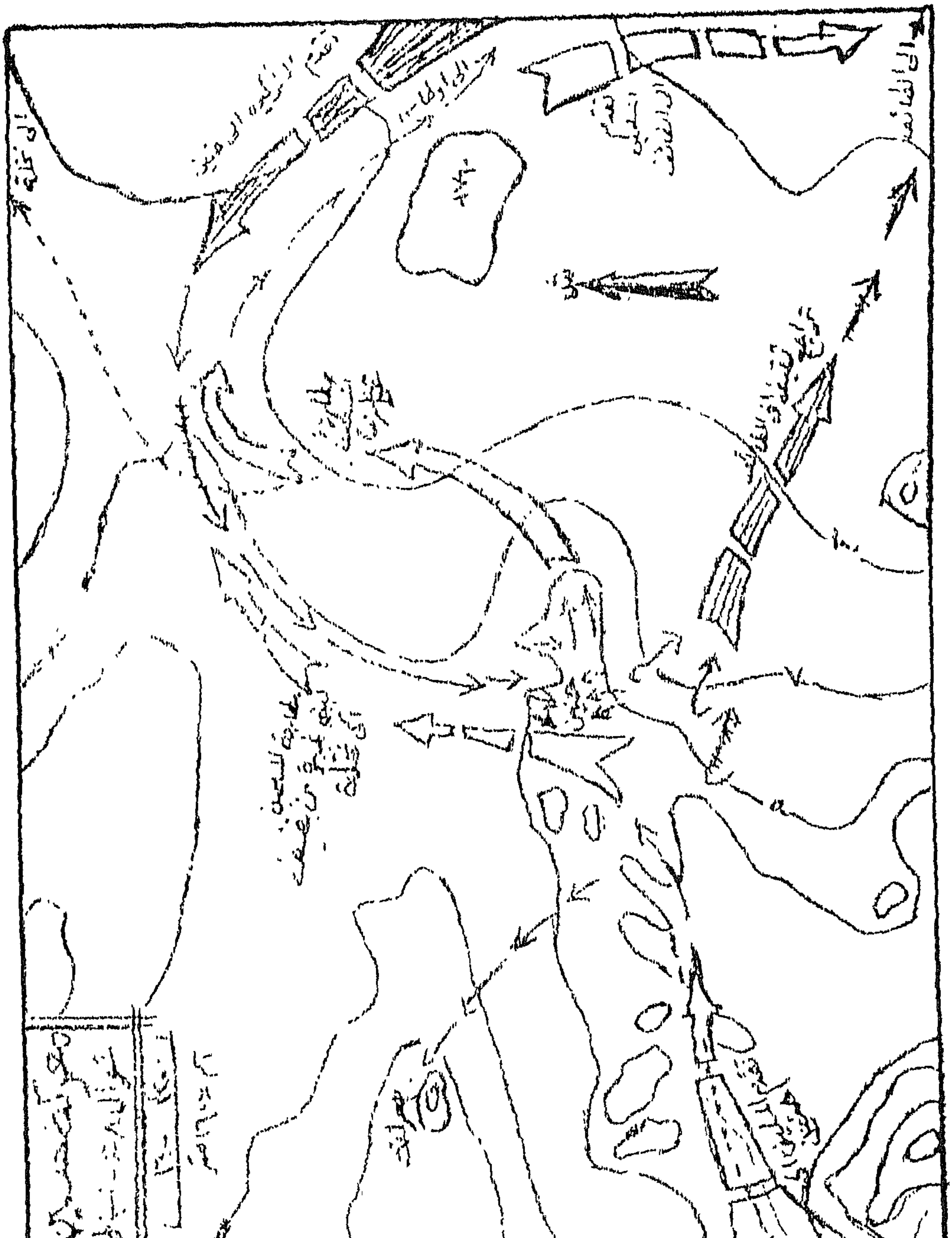
5 – الواقدي " المغازي والفتوح " ص 417.

6 – ابن سعد " الطبقات الكبرى " الجزء الثاني ص 1 – 108.

7 – محمد أبو الفضل ابراهيم وعلي محمد البجّاوي " أيام العرب في الاسلام " المكتبة العصرية – صيدا / بيروت. الطبعة الرابعة 1974. ص 109 – 117.

8 – العقيد محمود الدرّة " معارك العرب الكبرى ". منشورات الفاخرية – الرياض – ودار الكاتب العربي. بيروت. دون تاريخ. ص 194 – 200.

9 – العميد الركن سيف الدين سعيد آل يحي " الحركات العسكرية للرسول الأعظم في كفّتي الميزان ". الجزء الثاني. الدار العربية للموسوعات. بيروت. الطبعة الأولى 1983. ص 453 – 489.



معركـة حنين

المرجع: العقيد سليم شاكر الامامي " العرب والحرب ". ص 120.

معركـة الحوض

تعتبر هذه المعركة إحدى أهم المعارك التي خاضها المجاهدون الجزائريون ضد الاستعمار الفرنسي والتي أظهروا فيها من البسالة ودقة التخطيط، رغم القصف المدفعي العنيف ومشاركة الطيران الحربي الفرنسي، مما كبّد العدو خسائر جسيمة في المعدات والأرواح، وخرج المجاهدون منها غانمين منتصرين.

كان المجاهدون يضربون في الأرض وهم يتوجهون إلى (جبل الحوض) وظلمة الليل تحيط بهم والأمطار تغرقهم. وعندما اقترب الفجر وصلوا إلى مكان كثيف الأشجار في الجبل، بعد أن استنزف السير الشاق قدرتهم. وبعد أن أرهقتهم ثيابهم الغارقة والمثقلة بالمياه. ونظّمت قوات المجاهدين على الفور الحرس، وانتشر بقية المجاهدين لأخذ قسط من الراحة. وما كاد بعضهم يستسلم للنوم حتى ارتفع صوت الحرس ينذر أحدهم بالتوقف، ويستدعي رئيس الحرس للتعرف على هذا القادم الذي لم يكن إلا مجاهداً قديماً جاء ومعه ابنه الصغير الذي يحمل للمجاهدين إبريقاً من القهوة الساخنة، وسلّة صغيرة (قفّة) مما يصنعه الواطنون الجزائريون لحمل الطعام. وعرف بعض المجاهدين هذا الزائر، فوثبوا إليه يعانقونه ويتحدثون إليه وهم يقودونه وابنه إلى حيث يستريح إخوانه المجاهدون. وطلع النهار، فجلس الجميع تحت شجرة وارفة الظلال، وأخذ المجاهدون في تناول القهوة. وسأله أحد المجاهدين: (كيف حال الإخوان هنا؟ وأجابه هذا، إننا والله لفي أحسن حال) وسكت قليلاً ثم أردف وهو يقول: (لقد لمحتكم وأنتم تجتازون السهل الذي بجانبنا فعرفتكم، وأظن أن حراسة المراكز المجاورة لدوارنا – ناحيتنا – من الجهة الشرقية قد عرفت أمر تحرككم هي أيضاً لأنها أسرعت إلى التحوّل عن مركزها، واتجهت نحو مركز (يوكس الحمامات). ولهذا أسرعت أنا بدوري بالقدوم إليكم لأحيطكم علماً بذلك ولتكونوا على استعداد للطوارئ. وشكره المجاهدون على يقظته وحزمه، وطلبوا إليه أن ينقل إلى أهل الدوار تحيات المجاهدين واستعدادهم لمجابهة الاستعماريين حيثما اتجهوا وأين نزلوا. وعلى الفور أمر القائد دورية مكونة من ثلاثة جنود وجندي أول بالتوجه إلى

الناحية المشرفة على مركز (يوكس الحمامات). وأرسل دوريّة ثانية إلى (ناحية مسكيانة) ثم أمر بتشديد الحراسة في عدد من المواقع الأخرى. وكان المجاهد وابنه يتابعان بإعجاب وفخر إسراع المجاهدين لتنفيذ الأوامر بدون أن يظهر عليهم أدنى تردد على الرغم مما كان يرتسم عليهم من التعب الظاهر. والتفت الأب إلى ابنه وهو يرى الفرحة ترتسم على ملامح ابنه، وقال له: (أرأيت يا بنيّ! ما رأيك أن تصبح أنت أيضاً جندياً في جيش التحرير الوطني لتدافع عن وطنك مع أبطاله؟ لا بأس، عندما ستكبر ستكون جندياً لتدافع عن حرية الجزائر!. وهنا اقترب أحد المجاهدين وطلب إلى المجاهد القديم أن يصحب ابنه مبتعداً عن الغابة نظراً لما يحتمل حدوثه من أخطار. وبعد انصراف هذا المجاهد بقليل عادت الدورية الأولى لتعلم عن " تحرك رتل يثير ضجيجاً كبيراً على طريق (يوكس الحمامات) وهو يتجه إلى حيث مواقع القوة، وإن أضواء عربات هذا الرتل (القافلة) قد أخذت في الظهور عبر الضباب الكثيف. وأسرع قائد القوة فأصدر أوامره إلى رجاله باحتلال المواقع على خط الذرى المشرفة على الطريق. وكان عدد أفراد هذه القوة لا يزيدون على سبعين مجاهداً. واحتل المجاهدون مواقعهم في تنظيم قتالي: الرشيش الفرنسي الخفيف (24 – 29) في الجناح الأيمن يدعمه مسدّسان رشاشان وخمس بنادق. وفي الجانب الأيسر احتل جنود الفصيلة الثالثة مواقعهم على ذات الترتيب السابق. وفي الوسط تمركز الرشاش الثقيل (الهوتشكيز) وعلى أطرافه بقية القوة. وكانت القوات الفرنسية أثناء ذلك تتابع تقدمها تحت بصر المجاهدين الذين كمنوا في حفرهم بدون أدنى حركة. فيما كان الضباط يتابعون تنقلهم بين الوحدات لإعطاء المجاهدين أوامرهم وتعليماتهم. مؤكدين لهم ضرورة الالتزام بعدم التحرك أو مغادرة مواقعهم أو إطلاق النار إلا عند صدور أمر بذلك.

وبزغت الشمس ترسل خيوطها من وراء ضباب خفيف. وفي الوقت ذاته حلّقت ثلاث طائرات استطلاع فوق رؤوس المجاهدين، وأخذت في القيام بجولاتها وهي ترتفع صعوداً وتنحدر انقضاضاً. بينما كانت القوات البرية تتوغل في تقدمها متجهة نحو الاشارات الدخانية التي أطلقتها الطائرات فوق مواقع المجاهدين بعد أن اكتشفت تلك الطائرات آثار بعض المقاتلين الذين التصقوا بالأرض، وأخذوا ينتظرون بصمت

أمر (إطلاق النار). وكانت القوات الفرنسية تتقدم نحو مواقع المجاهدين بخطوات متيقظة حذرة، حتى إذا أصبحت المسافة الفاصلة بين الطرفين لا تزيد على عشرات الأمتار، صدر الأمر المنتظر. وفتح المجاهدون نيرانهم دفعة واحدة من كل جانب وبوغت العدو بكثافة النيران الموجهة إليه، ولم يجد بدّاً من التراجع والتقهقر قليلاً إلى الوراء تاركاً وراءه عدداً غير قليل من الجرحى والقتلى.

كان المجاهدون يتوقعون أن تقوم القوات الفرنسية بهجوم جديد بعد أن تعيد تنظيم أنساقها (صفوفها)، غير أن هذه القوات أوغلت بعيداً في انسحابها. وعرف المجاهدون عندئذ أن هذا التراجع لم يحدث إلا من أجل إفساح المجال أمام الطيران والمدفعية لقذف مواقع المجاهدين، وحتى لا تتعرض القوات البرية - المشاة - للمزيد من الخسائر، أسرع المجاهدون إلى تغيير مواقعهم فوراً. ولم تمضِ أكثر من بضعة دقائق حتى شرعت المدفعية الفرنسية بقذف المواقع التي كان يحتلها المجاهدون. وعادت بعد ذلك القوات الفرنسية لاستئناف هجومها من جديد حتى كادت تقتحم على المجاهدين مواقعهم، وهنا أصدر قائد القوة أوامره إلى الجناح الأيسر (فصيلة) للتحرك إلى الناحية الغربية. كما أمر جناحه الأيمن (فصيلة أيضاً) للالتحاق بالناحية الشرقية. وأصدر أوامره إلى الفصيلة الوسطى أن تتقدم قليلاً إلى الأمام. وبذلك أصبحت قوات العدو محاطة بدائرة مفتوحة من جانب قوات المجاهدين. وعند اقتراب جنود الطرفين بعضهم من بعض، توقفت المدفعية عن الرمي. وفي هذه اللحظة بالضبط، بوغتت قوات العدو بإطلاق النار من الجناح الأيمن فتقهقرت بعض الشيء نحو الجناح الأيسر الذي استقبلها بنيران دقيقة ومحكمة، فحاولت التقدم إلى الأمام. غير أن فصيلة قلب الدفاع - ومعها رشاش ثقيل - استقبلت القوات المعادية بنيرانها الكثيفة. واستمر إطلاق النار من الجناحين والقلب في وقت واحد، وأظهر المجاهدون كفاءة عالية باستخدام أسلحتهم وبالقيام بالتحرك للالتفاف حول قوات العدو وتطويقها.

وسيطرت الفوضى والاضطراب على تحرك القوات الفرنسية، غير أن نجدات أخرى للعدو أخذت في الظهور والتحرك من اتجاهات عديدة (وخاصة من مسكيانة والعاتر وتبسة) حتى أصبحت قوة المجاهدين محاصرة من كل اتجاه. وأمام هذا الموقف،

اضطر قائد قوة المجاهدين إلى تقسيم قوته على مجموعتين: مجموعة أولى وواجبها مجابهة قوات الدعم المتقدمة وإعاقة زحفها نحو مواقع المجاهدين. ومجموعة ثانية وواجبها متابعة الاشتباك مع قوات العدو التي أمكن محاصرتها، واتّسعت بذلك رقعة القتال، كما تطورت واستمرت حتى غروب الشمس تقريباً. وعندها بدأ سحب القوات المكلفة بالهجوم من أجل تعزيز مجموعة المجاهدين الثانية المكلفة بالدفاع. وعندما حلّ الظلام اتجهت المجموعتان لتحقيق واجب واحد هو فك الحصار المضروب على بعض المجاهدين، والجلاء عن أرض المعركة. وتنفيذاً لهذا الواجب تقدمت الرشاشات والرشيشان وسار المجاهدون تحت حمايتها بتشكيل مفتوح. ثم قاموا جميعا بالانقضاض على قوات العدو التي كانت تحاول تضييق دائرة الحصار. وكان الصدام بين القوتين على درجة كبيرة من العنف والقساوة. غير أن المجاهدين استطاعوا بعد جهود ساعة كاملة من تمزيق دائرة الحصار، وفتح ثغرة للمرور منها. وتكبدت القوات الفرنسية خسائر كبيرة، كان من الصعب تحديد حجمها بدقة، على الرغم من تأكد المجاهدين من وفرة عدد الذين قضوا عليهم من جنود العدو.

وتوجّه المجاهدون نحو (جبل خضرة) مبتعدين عن ميدان المعركة. وقد استمرت مسيرتهم طوال الليل. بحيث لم يصلوا إلى هدفهم (جبل خضرة) إلا مع شروق شمس اليوم التالي. وما كادت الشمس ترتفع في وقت الضحى، حتى قدِم الأنصار (المدنيون) وهم يحملون إلى المجاهدين الطعام والشراب، ويشاركوا في تضميد جراح المصابين الذين جرحوا أثناء فك الحصار. وكان لدى المجاهدين أسلحة إضافية مما غنموه من المعركة. فأخذ الأنصار (المدنيون) في الإلحاح وهم يطلبون تجنيدهم وتسليحهم. وكانوا يعتبرون أن من تمّ قبوله هو مواطن ساعده الحظ لحمل السلاح والوقوف مع المجاهدين. وكانت هذه الظاهرة هي النصر الحقيقي.

المراجع

1 – العماد مصطفى طلاس والمقدم بسام العسلي. " الثورة الجزائرية ". دار الشورى – بيروت. الطبعة الأولى 1982. ص 622 – 625.

حرف " الخاء "

(خ)

1 – خربة اللحم

2 – الخرطوم

3 – الخمس

4 – الخندق (626 م) (راجع: معركة أُحُد).

5 – الخندق (938 م)

6 – خور مكسر

7 – خيبر

معركة خربة اللحم

خربة اللحم من أراضي قرية قطنة وهي واقعة بين قريتي " بيت عنان " و " قطنة " من أعمال القدس.

كانت سريّة من كتيبة المشاة الأولى من الجيش الأردني قد احتلت معسكر الرادار المواجه لمستعمرة الخمس صباح يوم 26 / 5 / 1948 وتمركزت فيه. وأصبح على يمينها قرية قطنة وبيت عنان، وكان باقي الكتيبة يتمركز في قرى " بيت سوريك " والنبي صموئيل وبدّو والقبيبة من أعمال القدس لمنع أي تقدم للقوات الإسرائيلية من هذا الإتجاه لتهديد الطريق الرئيس بين رام الله واللطرون، والطريق الرئيس بين رام الله والقدس، وهما حيويان وهامان لقوات الجيش الأردني العاملة في كل من باب الواد والقدس.

في أوائل الهدنة الأولى استلمت كتيبة المشاة الخامسة من الجيش الأردني المواقع الآنفة الذكر من كتيبة المشاة الأولى. وبعد استئناف القتال يوم 9 / 7 / 1948 عاد الإسرائيليون إلى تركيز هجماتهم على مواقع الجيش الأردني في منطقة اللطرون وباب الواد لفتح طريق القدس. وشمل ذلك محاولات التقدم لاحتلال التلال المرتفعة باتجاه خربة اللحم والقبيبة بقوات على مستوى السريّة أحياناً لتهديد مواقع باب الواد من الخلف وتهديد معسكر الرادار وبالتالي النفوذ إلى طريق رام الله – اللطرون.

وفي ساعة مبكرة من صباح يوم 17 / 7 / 1948 تقدمت سرية إسرائيلية مؤلفة من 69 شخصاً من ناحية مستعمرة الخمس فتصدى لها نحو عشرين من مناضلي قرية بيت عنان فتغلبت عليهم وقتلت منهم اثنين. ولما وصلت إلى قرية خربة اللحم تصدّى لها ثلاثون مناضلاً من قرية قطنة والقبيبة وبيت دقو بقيادة " فخري اسماعيل "، واشتبك الفريقان. وأرسل المناضلون أول إنذار لإبلاغ الكتيبة الخامسة بأمر العدو بواسطة أحد الأشخاص، إذ لم يكن هناك اتصال مرتب مع المناضلين، فأرسلت الكتيبة الخامسة فرقة مشاة لمساندة المناضلين من تل القبيبة بنيران رشاشاتها ومدفع الهاون عيار 2 بوصة.

وأطبق المناضلون على القوة الإسرائيلية في خربة اللحم وأخذوا يقتحمون

مواقعها، وتمكنوا خلال ساعات قليلة من إبادة معظمها وفرّ الباقون. واستشهد مناضل واحد وجرح ثلاثة. ولقد كان مع القوة المعادية خمسة رشاشات مقابل رشاش واحد مع المناضلين، كما كانت أسلحتها الفرديّة أفضل من تلك التي يحملها المناضلون. وقد اتّسمت عملية التصدي هذه بالجرأة وروح التضحية من جانب أبناء قرى تلك المنطقة، مما جعل الإسرائيليون يتوقفون عن أية محاولة للتعرض لتلك المنطقة.

المراجع

1 - عارف العارف: النكبة. ج 3. بيروت. 1956.

2 - الموسوعة الفلسطينية. جزء ثانٍ. ص: 337 - 338. اشراف د. انيس صايغ. الطبعة الأولى دمشق 1984.

معركة الخرطوم

معركة " الخرطوم " وقعت في مدينة " الخرطوم." نفسها، عاصمة السودان، في 26 كانون الثاني عام 1885، إبّان الحكم المصري الخديوي للسودان والاستعمار البريطاني لمصر، بين قوات الزعيم السوداني الكبير " محمد أحمد المهدي " مؤسس حركة المهدية الدينية الوطنية السودانية، والحاكم البريطاني العام للسودان الجنرال " تشارلز جورج غوردون " (Ch. George Gordon) وكان من نتيجتها سقوط الخرطوم بيد " المهدي " وقتل الحاكم البريطاني.

ففي العام 1880 تكوّنت لدى المهدي قناعة بأن الطبقة الحاكمة تخلّت عن الدين الاسلامي، وان الخديوي لعبة في أيدي " الكفار ". وفي أوائل العام 1881 بدأ " المهدي " ثورته الدينية الوطنية للقضاء على التخلف السياسي والاجتماعي والنفوذ الأجنبي في السودان، وإعادة اللحمة إلى صفوف الشعب العربي السوداني. وكان السودان في تلك الأثناء تابعاً لمصر، التي كانت بدورها إقليماً من أقاليم الامبراطورية العثمانية. وتمكن " المهدي " خلال فترة تقلّ عن ثلاث سنوات من السيطرة على معظم الأراضي التي كانت خاضعة للنفوذ المصري، والقضاء التام على ثلاثة جيوش مصرية أرسلت لمواجهته، كان آخرها جيش قوامه ثمانية آلاف مقاتل بقيادة الجنرال البريطاني " ويليام هيكس " (Willian Hicks).

وما إن حلّت نهاية العام 1883، حتى كانت مدينتا " العبيد " (عاصمة إقليم كردفان)، و " بارا " احدى المدن الرئيسة في الاقليم المذكور، قد سقطتا بيده بعد حصاره لهما. وبدأ في وضع نواة دولة اسلامية تطبق أحكام الشريعة الاسلامية.

وفي العام 1884، قامت الحكومة البريطانية بتعيين " غوردون " (Gordon) حاكماً عاماً للسودان، وكلفته بالعمل على إنقاذ القوات المصرية التي كانت تحت خطر " المهدي " الذي يهددها بالفناء، وإجلائها عن مدينة الخرطوم.

ولم يكن " غوردون " جديداً على السودان، فقد سبق للخديوي " اسماعيل باشا "

والي مصر والسودان في تلك الفترة – وكان شغوفاً بتوظيف الأوروبيين وتكليفهم القيام بمهام إدارية وعسكرية – أن قام بتعيين " غوردون " حاكماً للاقليم الاستوائي السوداني في العام 1873، واستمر " غوردون " في منصبه حتى نهاية العام 1876، وبعد فترة قصيرة قضاها في بريطانيا، عاد إلى خدمة " الخديوي " الذي عيّنه حاكماً عاماً للسودان. وفي العام 1880 اضطر " غوردون " إلى تقديم استقالته والعودة إلى موطنه بسبب اعتلال صحته. وفي شباط 1884، وصل " غوردون " إلى الخرطوم بعد تعيينه مجدداً من قبل الحكومة البريطانية. وفي آذار من العام نفسه، قامت قوات " المهدي " بمحاصرة الخرطوم. وفي 26 كانون الثاني 1885 تمكنت في اقتحامها بعد قتال مرير خاضه " غوردون " الذي قتل إلى جانب غيره من المدافعين في الهجوم الأخير على المدينة، على الرغم من الأوامر الصريحة التي أصدرها " المهدي " بالحفاظ على حياته. ودخل المهدي مدينة الخرطوم دخول الفاتحين وأمّ المصلّين في جامعها الكبير. أما المجاهد الذي قتل " غوردون " فهو محمد نوباوي، قائد الفصيلة الثورية.

ولقد قامت الحكومة البريطانية، التي كان يرأسها آنذاك " بيلايت غلادستون " (P. Gladstone)، بتجريد حملة بريطانية لِنجدة " غوردون " وفك الحصار المضروب حول الخرطوم. إلا أن غوردون قُتل قبل وصول القوة بيومين. واضطرت هذه القوة، نتيجة لذلك، للانسحاب إلى المراكز التي جاءت منها، تاركة المجال أمام " المهدي " للتفرغ لتركيز دعائم نظامه.

وتمثل معركة الخرطوم قمّة انتصارات عهد " المهدي "، التي جعلته مثالاً سودانياً عصرياً جديراً بالاحترام، وحركة ثوريةً رائدة استطاعت جمع شمل الشعب السوداني حول كلمة واحدة، واضعاف مركز الخديوي المصري، وتغيير مجرى التاريخ الأفريقي. وعلى العكس من ذلك، فقد انعكست معركة الخرطوم بآثار سلبية على الحكومة البريطانية. وقام الشعب البريطاني بإعلان " غوردون " قدّيساً مقاتلاً شهيداً، وتحميل " غلادستون " شخصياً مسؤوليته الفشل في نجدته وفكّ الحصار عنه، الأمر الذي أضعف مركزه السياسي في بريطانيا، وكان من جملة الضغوط التي حملته على الاستقالة في حزيران 1885، وذلك إثر فشله في المطالبة بزيادة ميزانية الحكومة.

ويذكر عدد من المؤرخين البريطانيين، وعلى راسهم " انتوني ناتنغ " (A. Nutting)، أن " غوردون " خالف الأوامر الصادرة إليه، وامتنع من تلقاء نفسه عن إخلاء الخرطوم، في حين كانت الفرصة متاحة أمامه للانسحاب حتى في المراحل الأخيرة من الحصار، الأمر الذي يدل على شدّة المقاومة التي أبدتها القوات البريطانية في معركة الخرطوم، ويدل بالتالي على أهمية تحرير المدينة وتخليصها من يد قوات مصمّمة على القتال الدفاعي دون فكرة التراجع.

ومهما يكن من أمر، يبقى " محمد أحمد المهدي " في الواقع، رمزاً من رموز النضال الوطني والقومي، وشخصيّة فذّة في القرن التاسع عشر، ناصبت الاستعمار البريطاني القبيح، كلّ عداء وكراهية، ولم تكن مقاومة المهدي المسلّحة لهذه القوة الاستعمارية الكبرى إلا من هذا القبيل، باعتباره كان مؤمناً ايماناً يقيناً أن " الاستعمار لا يرحل عن أيّة بقعة من بقاع العالم إلا بالعنف المسلّح "، وهكذا كان... وسطّر المهدي أروع صفحات البطولة والفداء في سجلّ التاريخ العربي الحافل بالمآثر التي لا تُنْسى...

المراجع

1 – الموسوعة العسكرية. الجزء الثاني. المؤسسة العربية للدراسات والنشر. بيروت. الطبعة الأولى 1979. ص 180 – 182.

2 – المصدر نفسه. ص 63 – 64.

3 – محمد ابو الفضل ابراهيم وعلي محمد البجاوي " أيام العرب في الاسلام ". المكتبة العصرية صيدا – بيروت. الطبعة الرابعة 1974. ص 62 – 71.

4 – نجدة فتحي صفوة " جريدة الشرق الأوسط ". العدد 3931. السبت في 2 / 9 / 1989.

5 – أحمد يوسف داود " المجاهد سعيد العاص ". دار المستقبل. دمشق. حزيران / يونيو 1990. ص 9 – 10 (مقدمة نصر شمالي).

معركة الخندق

(327هـ / 938م)

هي احدى المعارك الكبيرة التي جرت بين المؤسس الثاني للدولة الأموية في الأندلس وباني عظمتها، عبد الرحمن الثالث (*) (الناصر لدين الله)، وبين ملك ليون، راميرو الثاني (ابن اردونيو)، سنة 938م، عند مدينة شنت مانكش (Simancas)، في مرحلة الصراع العربي – الاسباني. والجدير بالذكر، أن الحظّ خان الخليفة الأموي (الناصر)، لأول مرة في حياته، وهزم أمام عدوّه القوي والقائد المحنّك (راميرو الثاني) في المعركة الشهيرة المعروفة (بالخندق) عند مدينة شنت مانكش. ولقد أسهبت الروايات التاريخية في وصف الكارثة التي أصابت جيش الناصر في هذه المعركة، بحيث أن قلّة قليلة نجحت في الإفلات من سيوف الاسبان من بينها الخليفة الأموي نفسه. وكان وقع الهزيمة قاسياً عليه إلى حدّ أنه استنكف منذ ذلك الحين عن قيادة الحملات بنفسه تاركاً هذه المهمة لقواده.

غير ان الهزيمة التي أفاض المؤرخون في الحديث عنها، لم تكن نتائجها في ذات الحجم المعطى لها، بدليل أن أية تغييرات ملحوظة لم تشهدها جبهة الحدود الشمالية؛ خاصة وان استئناف الحملات التقليدية من جانب الخلافة في أعقاب هزيمة الخندق، كان كافياً لردع أيّة محاولة توسعية يلجأ إليها الملك الليوني تتويجاً لانتصاره. كذلك فان ما يجعل من هذه الهزيمة حدثاً عادياً، ذلك الهدوء الذي ساد العلاقات العربية الإسبانية، والتودّد الظاهر من ملكي (نافار) و (ليون) نحو الخليفة الناصر الذي أصبح أقوى شخصيات المرحلة.

وليس من السهولة ان ندرك أسباب هذه الهزيمة، وذلك لاختلاف الروايات

(*) – حكم عبد الرحمن الثالث (الناصر لدين الله) من سنة 300 – 350 هـ / 912 – 961 م. وهو الذي قال فيه نفح الطيب (1 / 366): "... ولم تبق أمة سمعت به من ملوك الروم والافرنجة والمجوس وسائر الأمم، إلا وفدت عليه خاضعة راغبة، واتصرفت عنه راضية ".

التاريخية التي اهتمّت بها. فموازين القوى كانت متناسبة لدى الطرفين. ومعنى ذلك ان الجيش الأموي لم يكن ضحيّة التفوق العددي في الجيش الآخر، بقدر ما كان ضحيّة الانسجام النوعي المفقود بين عناصره المختلفة، ورغبة العرب في أن يبقى الصقالبة وحدهم في المعركة. فالمؤرخ ابن الخطيب يلقي مسؤولية الفشل على فئة من قواد الناصر وجنوده، كان يعوزها الانضباط والاخلاص في الولاء، غير أنه لم يذكر اسماء المتّهمين هؤلاء، الذين أعدموا في الساحة العامة في قرطبة، وكان عددهم نحو ثلاثماية من الفرسان. ويستخلص من ذلك ان جيش الناصر كانت تتجاذبه تيارات متناقضة، هي في الواقع نتيجة مباشرة لاختلاف عناصره المقاتلة بين أقلية عربية واكثرية من مماليك الصقالبة، إلى جانب فئات أخرى اتسع لها هذا الجيش، مما كان له تأثير سلبي على وحدته وتلاحم عناصره في جبهة واحدة منسجمة. ولعل باعث هذا الصراع الخفي له علاقة بالتفوق الصقلّبي على حساب الفئات الأخرى من العرب والبربر، التي أخذت تتذمّر من تراجع نفوذها وانحسار أهميتها في جيش الخليفة. خاصة وان الرجل الثاني في معركة الخندق بعد الناصر، كان أحد هؤلاء الصقالبة، وهو (نجده الصقلّبي) الذي لقي حتفه في هذه المعركة.

ومهما كان الأمر، فان هذه الهزيمة لم تحدث أي تغيير على الشريط الحدودي مع الاسبان، وظلت العلاقة معهم تتأرجح بين السلم والحرب في السنوات المتبقية من عهد الناصر. ولكن السخونة التي عرفتها هذه الجبهة مع مجيء (راميرو الثاني) فترت إلى حدّ كبير، لا سيّما وان الأوضاع الداخلية في مملكة ليون، حاملة شعار القضاء على العرب المسلمين في اسبانيا، مرّت بعد وفاة ملكها المتطرف (339 / 950) بأزمة عاصفة نتيجة التنافس الشديد الذي وقع بين ولديه (أردونيو) و (شنجه) على وراثته. ومن المثير حقاً أن يكون للناصر دور في تحقيق الوفاق بين الأخوين وتنازل أحدهما للآخر. فكان أن حسمت المسألة لمصلحة (شنجه) الذي حظي بدعم الخليفة الأموي. وشعر الملك الجديد بأنه مدين بعرشه لهذا الأخير، ففتح معه صفحة من العلاقات الوديّة أفادت الطرفين.

ومجمل القول أن عوامل عديدة ساهمت في هذه الهزيمة، ومنها:

1 – ان جيش الخليفة كان مؤلفا في معظمه من المتطوعين والقوات غير النظامية.

2 – كان الخليفة ينكر على خصمه قوته ويبالغ في تقدير قوة جيشه.

3 – كان الخليفة قد قرّب إليه الكثير من الصقالبة، وبوّأهم مراكز سامية ومناصب كبيرة في القصر والجيش، مما أدى الى سخط الزعماء العرب، وجعلهم أقل حماسة واندفاعاً في المعارك والغزوات.

وهكذا كانت معركة " الخندق " ضربة قاصمة للعرب والمسلمين في الأندلس، وافقدتهم الكثير من قوتهم وهيبتهم في تلك البلاد التي لعبت دوراً رائداً في النهضة الأوروبية، باعتراف معظم الباحثين والمؤرخين والمستشرقين الأوروبيين أنفسهم. وقد تجلّى فضل العرب والمسلمين على أوروبا في مختلف المجالات، حيث لم تَبْقَ ناحية من نواحي الحياة إلا وكان لهم فيها قسط ونصيب.

المراجع

1 – يعتبر كتاب د. ابراهيم بيضون (الدولة العربية في اسبانيا من الفتح حتى سقوط الخلافة) المرجع الأساسي في هذا الموضوع. منشورات دار النهضة العربية. بيروت 1978. ص 301 – 303.

2 – ابن الخطيب (أعمال الاعلام، فيما بويع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام) تحقيق ليفي بروفنسال. بيروت 1956. ص 36 – 37.

3 – مؤلف مجهول (أخبار مجموعة، في فتح الأندلس وذكر أمرائها والحروب الواقعة بينهم). مدريد 1867. ص 155 – 156.

4 – المقري التلمساني (نفح الطيب في غصن الاندلس الرطيب). تحقيق د. احسان عباس. بيروت 1968. الجزء الأول، ص 363 – 366.

5 – ابن خلدون (كتاب العبر، وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر). الجزء الرابع. القاهرة 1867. ص 138.

6 – احمد مختار العبادي (في تاريخ المغرب والاندلس). مؤسسة الثقافة الجامعية. الاسكندرية. دون تاريخ. ص 179 و 210 و 214.

معركة الخمس

ما فتئ المجاهدون الليبيون الأحرار، في مواقع الصمود، يشنوّن الحملات ويخوضون المعارك ضد اعدائهم الايطاليين، رغم استعدادات هؤلاء وقوتهم العسكرية. لقد محا المجاهدون من قاموسهم كلمة الموت، فرووْا تراب أرضهم بدمائهم الزكية، وسجلوا في التاريخ أنصع صفحات العزة والكرامة، قل نظيرهما، بينما سقط المستعمرون في مزبلة التاريخ، نظراً لغطرستهم وشهوتهم لتوسيع احتلالالتهم، شأن كل مستعمر غاصب.

ومعركة الخمس هي من معارك البطولة المشرّفة للمجاهدين الليبيين. كانت الخمس من المواقع الهامة على الساحل الليبي التي بادر الايطاليون إلى احتلالها منذ المراحل الأولى للغزو. ففي يوم 17 اكتوبر / تشرين الأول 1911، كانت السفن الحربية، تواجه شاطئ مدينة " الخمس " وتطلب استسلام الحامية التركية بها. وقد تمّ إمهال الحامية حتى الساعة الواحدة، في ذلك اليوم، ثم أخذت السفينة الحربية " فاريسي " في قصف المدينة الصغيرة بمبانيها، وثكناتها المحدودة، والمناطق الشرقية والغربية منها، بقصد تفريق وتشتيت تجمعات المجاهدين، الوافدين من المنطقة المجاورة لدعم الجبهة الوطنية. ولم تستطع القوة الايطالية أن تنزل في ذلك اليوم إلى البرّ بسبب رداءة الأحوال الجوية، وظلت تتقاذفها الأمواج والرياح، في عرض البحر، طوال الأيام 17 – 18 – 19 – 20، ولم تتمكن من النزول إلا عند الساعة الأولى من صباح 21 اكتوبر / تشرين الأول 1911. وبعد أن استمرت طوال تلك الأيام في قصف الساحل، على فترات متقطعة، وخرجت الحامية التركية من المدينة، واتخذت مواقعها الدفاعية في مرتفع (المرقب).

وشهدت منطقة الخمس عدة معارك عنيفة وهامّة، كانت من أهمها المعركة الأولى التي جرت حول (المرقب) يوم 23 اكتوبر 1911، ويتفق هذا التاريخ مع تاريخ المعركة الكبرى التي جرت في مدينة طرابلس والتي تعرف باسم معركة (الهاني – شارع الشط).

وتتابعت بعد ذلك المعارك الملحميّة، حول المرقب، مما دفع القيادة الايطالية إلى طلب النجدة والدعم، فأبلغها الجنرال " كانيفا " القائد العام للحملة، بتعذّر إرسال أي دعم، بالنظر للظروف الحرجة التي تواجه القوة العاملة في مدينة طرابلس، وخوّلها تقرير الانسحاب في حالة الخطر واستحالة الدفاع عن المواقع المحتلة.

واضطرت القيادة الايطالية، فيما بعد، إلى رفع مستوى القيادة في تلك المنطقة العسكرية الهامّة، فأسندت قيادة الجبهة إلى ضابط برتبة جنرال بدلا من الماجور (ماجوتو) الذي قاد حملة النزول. كما توالى بعد ذلك وصول الدعم، خاصة بعد الهجوم الشامل الذي شنّه المجاهدون على كافة قطاعات الجبهة الايطالية يوم 28 اكتوبر / تشرين الأول 1911. وشهدت المنطقة عدة معارك هامة أبرزها تلك التي دارت حول (المرقب) في 27 فبراير / شباط و 5 مارس / آذار 1912. ومعركة هضاب لبدة يوم 2 مايو / أيار 1912, وقد كانت للقيادة الممتازة التي أدار بها خليل بك المعارك أثرها الواضح في هذه العمليات الحربية الهامّة.

وقد استمرّ الوجود الايطالي متواصلاً بالخمس دون انقطاع، حيث كانت المدينة الثانية بعد طرابلس الذي ظلت بأيدي الايطاليين، عقب اندلاع الثورة الشاملة في الدواخل، خلال عامي 1914 – 1915، وانسحاب الحاميات الايطالية منها. وقد عُزلت حامية الخمس وحاصرها المجاهدون الذين استولوا على الموقع الهام المعروف (برأس الحمّام). وظلت حامية الخمس معزولة عن طريق البرّ حتى يناير / كانون الثاني 1923، حين تحركت قوات الجنرال " بتساري " عبر الساحل الشرقي، لإعادة احتلال المواقع الساحلية الشرقية، زحفاً من طرابلس نحو الخمس والقصبات، وقد اتصلت القوة الزاحفة بقوات الحامية التي خرجت لملاقاتها واشتبكت مع المجاهدين في معركة عنيفة (بسيدي الخمري). ولم يتمكّن الايطاليون من احتلال " رأس الحمّام " إلا عند زحفهم على " زليطن " في 21 فبراير / شباط 1923.

<u>المراجع</u>

1 – محمد خليفة التليسي " معجم معارك الجهاد ". ص 223 – 225.

2 – مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الايطالي. طرابلس / ليبيا.

معركـــة خور مكسر

(1858)

وقعت هذه المعركة بين قوات الاستعمار البريطاني الموجودة في عدن وقوات سلطان لحج، وأدّت إلى مدّ السيطرة البريطانية إلى لحج بعد هزيمة السلطان.

فبعد احتلال الانكليز لعدن في 19 كانون الثاني / يناير 1839، حاول السلطان محسن فضل العبدلي عدّة مرات إجلاء هذه القوات عن عدن، إلا أنه فشل في ذلك... وعندما توفي في 30 تشرين الثاني / نوفمبر سنة 1847 خلفه ابنه السلطان أحمد الذي كان له دور كبير في مقاومة الانكليز قبل وبعد احتلالهم لعدن. إلا ان ميزان القوى أجبره على تبديل سياسته واتباع سياسة المهادنة واللين والمودّة تجاه البريطانيين، وكان يعمل في الوقت نفسه على إثارة القبائل المجاورة ضدهم. وقد وقع السلطان علي محسن مع البريطانيين معاهدة في 7 أيار / مايو 1849، وكان الهدف منها إظهار النوايا الحسنة من كلا الجانبين. وتعهد السلطان بحماية ممتلكات البريطانيين في لحج، كما التزم بتسليم الخارجين عن القانون إلى سلطات عدن لمحاكمتهم.

الا أن الأحوال لم تستقر بين العرب والبريطانيين في جنوبي اليمن، فلقد استمرت المصادمات بين الطرفين، وتعدّدت الحوادث الفردية التي كانت تشكل كثيراً من المتاعب للبريطانيين. وفي هذا الوقت استدعي المقيم السياسي البريطاني " هينز " إلى الهند لمحاكمته بسبب الاختلاسات والعجز في ميزانية المرفأ، وحلّ مكانه العميد " كلارك " الذي عيّن مقيماً سياسياً بالوكالة، تم تسلّم " أوترام " السلطة من " كلارك " في حزيران / يونيو 1854. والتزم " أوترام " باتباع سياسة " هينز ". إلا أن تدهوراً في صحته أجبره على العودة إلى بومباي، وحلّ مكانه العقيد " وليم كوجلان " الذي اتبع سياسة الود مع السلطان علي محسن فضل العبدلي، بغية الاعتماد عليه، بعد أن ساءت علاقة الانكليز مع قبائل الفضلي والعقربي، وأخذت هذه القبائل تثير الاضطراب شرقي عدن بشكل عرقل وصول المؤن الى عدن من داخل البلاد، وتابع السلطان علي محسن العبدلي سياسته في

مهادنة البريطانيين، مع محاولة نسف جسورهم مع القبائل المجاورة، بهدف إبعاد هذه القبائل عنهم، والانفراد بالاتصال بهم، والإفادة من واقع الهدنة بتعزيز مواقعه استعداداً لمجابتهم.

وفي إطار سياسة التحالف والصراع، وضع السلطان تعرفة جمركية على مياه " الشيخ عثمان " التي تتموّن منها عدن، مما دفع متعهدي نقل المياه الى عدن للتوقف عن تزويد المدينة بالماء، كما قام بحماية المطلوبين للسلطات البريطانية وإيوائهم عنده، مما دفع العقيد " كوجلان " للاحتجاج على تصرفات السلطان. ولقد اقترح كوجلان على حكومة بومباي " فكرة الاستيلاء على بلدة " الشيخ عثمان " (مقر السلطان العبدلي)، لإجباره على الاستجابة للمطالب البريطانية، ودفع تعويض مادي لما سبّبه من أضرار، وتسليم اللاجئين إليه أو طردهم من لحج. واعتبر البريطانيون ان احتلالهم للبلدة سيفتح لهم الطريق المؤدية إلى عدن والمناطق اليمنية الداخلية، وتنشيط التجارة مع القبائل اليمنية. وما إن شعر سلطان لحج بخطورة الموقف ونوايا البريطانيين، حتى أرسل قوة من خمسمائة رجل إلى بلدة " الشيخ عثمان " وقطع الاتصال بين عدن والمناطق الداخلية، وردّ المقيم السياسي على ذلك بارسال قوة بريطانية تقدر بـ 657 جندياً من المدفعية والمشاة البحرية والمهندسين باتجاه بلدة " الشيخ عثمان ". وفي 17 آذار / 1858، التقت الحملة البريطانية مع قوات سلطان لحج عند بلدة " خور مكسر ". المسيطرة على الطريق المتجهة من لحج إلى عدن، والتي تبعد عن بلدة " الشيخ عثمان " حوالي 4 كيلو مترات. وأبدى مقاتلو السلطان شجاعة فائقة، واستبسلوا في الدفاع عن مواقعهم. الا أن كثافة نيران المدفعية البريطانية أضعفت دفاعاتهم، وبذلك تمكنت القوات البريطانية من السيطرة على البلدة وتابعت تقدمها حتى احتلت بلدة " الشيخ عثمان "، واستولت على قلعتها المسلحة بمدفع واحد ودمرتها. وسقط في هذه المعركة أربعون شهيداً من رجال السلطان. وبفضل هذا الانتصار حقق العقيد " كوجلان " فتح الطرق التجارية بين عدن والمناطق المجاورة في جنوبي اليمن، وأمّن وصول المياه والمؤن، كما تمكن من إخضاع السلطان وإجباره على الإنصياع لكل متطلبات السياسة البريطانية في جنوبي اليمن. وظلت الأحوال هادئة بين البريطانيين والعبادلة في جنوبي اليمن بعد هذه المعركة، واستمر الهدوء حتى بعد وفاة

السلطان علي محسن العبدلي في العام 1862.

المراجع

1 - الموسوعة العسكرية. الجزء الثاني. باشراف المقدم الهيثم الأيوبي. المؤسسة العربية للدراسات والنشر. بيروت. الطبعة الأولى 1979.ص 191.

معركـة خَيْبَر

مثّل ظهور الدعوة الاسلامية إنقلاباً هائلا في جميع نواحي الحياة في شبه الجزيرة العربية أولاً، ومن بعدها في سائر بقاع الأرض. أما بالنسبة لليهود، فكانت بمثابة الزلـزال المخيف والمدمّر، حيث أرادوا الوقوف في وجهه وتحـدّيـه، مهما كانت الصعوبات. وكـان " يـهـود خيبر " في طليعة هؤلاء الذيـن قـرّروا المجابهـة، وعلـى أساسـها كـانت " معركـة خيبر " بينهم وبين الرسول العربي (صلى الله عليه وسلم)، مـن أهـم المعـارك فـي شبه الجزيرة العربية آنذاك والتي حدثت سنة 628 ميلادية.

تقـع خيـبر فـي الحجـاز قـرب المدينـة المنـوّرة، كـان جميـع سـكانها مـن اليهـود المعروفين باسمها (يهود خيبر). كما كانت بها حصونهم (ولفظ خيبر بلسان اليهـود فـي ذلك الحين كان يعني (الحصن). وقد قام النبي (صلـى اللـه عليـه وسلم) بغزوَتـه هـذه لفتح هذه الحصون في محرّم سنة 7 هجرية (الموافقة لسنة 628 م). كانت خيبر مكوّنـة من ثلاث مناطق هـي: النطـاة، والشـق ، والكتيبـة (أو الكثيبـة). وتتضمـن كـل مـن هـذه المناطق عدداً من الحصون والقلاع الحربيّة المنيعة. وأهم هذه الحصون ثمانية هي:

– فـي مـنـطقة النطـاة: حصن ناعم، وعليه واحد من أبرز زعمـاء خـيـبـر اسـمـه (مرحب) وهو فارس خيبر وبطلها، وأخوته الأربعة (الحارث وياسر وأسـير وعـامر). وحصن الصعب بن معاذ. وحصن قلعة الزبير.

– فـي منـطقـة الشـق: حـصـن أُبـي – وحصن النزار (ويسـميهم بعضـهـم حصـن البزاة).

1 – في منطقة الكتيبة: حصن القموص (لبني الحقيق مـن يهـود بنـي النضـير). حصن الوطيخ، وحصن السلالم.

وكان في هذه الحصـون جميعها نحـو عشـرة آلاف مقـاتل مـن يهـود خيـبر. جهّـز النبـي (صـلى الله عليه وسلم) لهذه الغزوة جيشاً من ألف وأربعماية مقاتل، سار هو على رأسـه بعد أن وزعه الى أربع فرق. واحدة بقيادة أبي بكر الصدّيق، والثانية بقيادة عمر بن

الخطاب، والثالثة بقيادة سعد بن عبادة، والرابعة بقيادة الحبّاب بن المنذر. وامّر على الجيش علي بن ابي طالب. وكان حصن ناعم أول حصن هاجمه المسلمون، لأنه كان خط الدفاع الأول لخيبر، وكان محصّناً تحصيناً منيعاً. فدار أمام هذا الحصن قتال عنيف دون أن يتمكن من النيل منه، إذ لاقوا من المدافعين عنه مقاومة ضارية. فخرج من المسلمين خمسون واستشهد واحد. ثم أن اليهود كانوا يفتحون باب الحصن فيغيرون على المسلمين ويقاتلونهم خارجه ثم يعودون فيغلقون بابه عليهم.

واستمر القتال طوال النهار وأثناء الليل. وفي اليوم التالي خرج قائد الحصن (مرحب) ودعا المسلمين للمبارزة، فبرر إليه محمد بن مسلمة وبارزه حتى قتله (وقيل تركه يموت فأجهز عليه علي بن أبي طالب). ثم قتل عليٌ بن أبي طالب الحارث، وقتل الزبير بن العوّام ياسراً. ثم بارز عليّ عامراً فقتله، وبارز محمد بن مسلمة الأنصاري أسيراً فقتله. وبعد مصرع القادة الخمسة حماة حصن ناعم، ضعفت معنويات المدافعين عنه، واستبدّ بهم اليأس والخوف، وألقى عمر بن الخطاب، وكان يقوم بدوريّة ليلية حول الحصن، القبض على يهودي من الحصن يدعى " سماك " فأخذه إلى النبي، فاستَأْمنَه النبي وأفشى"سماك" للرسول بكل أسرار الحصن وما فيه من عتاد ومعدّات حربيّةٍ ورجال.

وبعد معارك عنيفة استمرت خمسة عشر يوماً، تمكن المسلمون بقيادة علي بن ابي طالب (رضي الله عنه) من الاستيلاء على الحصن بما فيه، وفرّ من كان من اليهود إلى " حصن الصعب " الذي كان يعتبر الثاني بعد " ناعم " من حيث المناعة والتحصين والقوة، وكان يحميه خمسمائة مقاتل، بالاضافة إلى من التحأ إليه من " حصن ناعم ". وسلّم النبيّ (صلى الله عليه وسلم) القيادة لحبّاب بن المنذر وأوكل إليه مهمة فتح هذا الحصن.

وقد دارت حول " حصن الصعب " معارك لا تقل عنفاً وضراوة عن تلك التي دارت حول " حصنَ ناعم "، وذلك لأنه كان يحتوي على مخزون خيبر من المعدّات الحربية والأسلحة والمجانيق والسيوف والدروع. وخرج اثنان من قادة الحامية للمبارزة، أولهم كبير قادة اليهود ويدعى (يوشع) فخرج إليه الحبّاب فصرعه، ثم خرج قائد بعده يدعى (الديال) فخرج إليه عمارة بن عقبة الغفاري فصرعه كذلك. ودارت بعد مصرع القائدين اليهوديين رحى معركة ضارية بالسهام بين الفريقين. وقام اليهود بهجمات عنيفة

على المسلمين حيث كانوا يفتحون أبواب الحصن فيهجمون ثم يعودون إليه ويقفلون عليهم بابه، كما كانوا يفعلون أثناء " حصن ناعم ". ولم يكن من سبيل لوصول المسلمين إلى الحصن، لكن قائد المسلمين الحبّاب بن المنذر رسم خطة لاقتحامه ونفّذها في الوقت الذي كانت معنويات حماته تنهار بعد مقتل قائديهم وفشل هجماتهم المتكررة على المسلمين، فاستطاع اقتحام أبوابه والدخول إليه، فهرب من بقي من المدافعين عنه إلى حصن قلعة الزبير، واستولى الحبّاب على ما في الحصن من أسلحة وعتاد. وبسقوط هذين الحصنين، ظهر أن كفّة المسلمين في القتال قد رجحت، فانتقلوا إلى الهجوم على الحصن الثالث من منطقة النطاة وهو حصن قلعة الزبير، الذي كان منيعاً كسابقيه، خصوصاً وقد شحن اليهود أبراج القلعة بالمقاتلين، ووضعوا رماة النبل على الأبراج وفي مواضع تشرف على المسلمين. وكانت المسالك الى هذا الحصن وعرة ومكشوفة لسهام العدو، لذا باءت كل محاولات المسلمين لاحتلاله بالفشل. إلا أن يهودياً يدعى " غزال " تسلّل ليلة من الحصن وطلب مقابلة النبي فأذن له بذلك، فأفشى له أن المدافعين عن الحصن يتزوّدون بالماء من ينابيع خارجه، وانه اذا احتل المسلمون هذه الينابيع فانهم سيجبرون المدافعين إلى الخروج والقتال خارج الحصن، فاحتل المسلمون الينابيع وقطعوا الماء عن المحاصرين، فاندفع هؤلاء يقاتلون خارج الحصن، فهزمهم المسلمون واقتحموا الحصن يحتلّونه، بينما فرّ من كان فيه من اليهود إلى " حصن أُبي " في منطقة الشقّ، فاحتله المسلمون كذلك بعد قتال عنيف، وبعد أن قُتِلَ إثنان من قادته بالمبارزة. ويقال ان النبي (ﷺ) نصب المجانيق مقابل هذا الحصن قبل احتلاله، فخشي اليهود ضربهم بها فاستسلموا (وهناك خلاف فيما إذا كان الرسول استعمل هذه المجانيق أم لا). ثم احتل المسلمون حصن النزار، ويؤكد معظم المؤرخين – باستثناء ابن اسحق – أنه آخر حصن فتحه المسلمون قتالاً، إذ تمّ فتح باقي الحصون صلحاً.

وكان من بنود معاهدة الصلح أن يجلوا اليهود عن خيبر إلى الشام، ويسلموا قلاعهم وحصونهم إلى المسلمين بما فيها من سلاح وعتاد حربي. وعندما أراد النبي (ﷺ) تنفيذ هذا البند من المعاهدة وإجلاءَهم، طلبوا إليه أن يسمح لهم بالبقاء في حمى المسلمين على أن يكونوا أُجَرَاءَ في أرضها مقابل جزء من محصولها فقبل النبيُّ بذلك.

هذا وقد بلغت خسائر المسلمين في هذه المعركة ستّة عشر شهيداً. أما قتلى اليهود فكانوا ثلاثة وتسعين قتيلاً. وقد دام حصار كل حصون خيبر حتى فتحها مدّة شهر تقريباً.

وجدير بالذكر، أن عشرين من نساء المسلمين قد شاركْنَ في هذه الغزوة لمساعدة المحاربين وإغاثة الجرحى في أثناء القتال، وكان من بينهنّ صفيّة عمّة رسول الله (ﷺ).

وكم نحن، عرب اليوم، بحاجةٍ إلى ذلك الإيمان وتلك العزيمة، التي كان يتمتع بها النبيّ الكريم ورجاله في مقارعتهم لأعداء الانسانية في كل زمان ومكان. خصوصاً وأن اليهود في اسرائيل هم ذاتهم " يهود خيبر " بكل ما يحملونه من إرثٍ تاريخي حقود على العرب والاسلام، ومن طبيعة اليهودي – والصهيونيّ على الأخص – الخبث والغدر والجشع والأنانية، وهو الذي يتسلّح بعقيدة عنصرية عدوانية قوامها وجوهرها " شعب الله المختار "، وكأن غيره من بني البشر لاحقّ له بالحياة وليس جديراً بها... وإنما الدنيا هي ملك له فقط، وما عداه يجب محوه من الوجود.

فاتّعظوا يا عرب القرن العشرين من عرب القرن السابع الميلادي ومسلميه، لعلّكم تفلحون بهزيمة " خيبر اسرائيل " كما هزم " خيبر الجزيرة العربية " من قبل. وفي عبرةٍ من هذا النوع، يكمن النصر بالتأكيد.

المراجع

1 – " الموسوعة العسكرية " باشراف المقدّم الهيثم الأيوبي. الجزء الثاني. بيروت. المؤسسة العربية للدراسات والنشر. الطبعة الأولى 1979. ص 201 – 202.

2 – العميد المتقاعد عبد الرزاق محمد أسود " الموسوعة الفلسطينية ". نشر وتوزيع الدار العربية للموسوعات. بيروت. الطبعة الأولى 1979. الجزء الأول ص 25.

3 – سيّد أمير علي " مختصر تاريخ العرب ". تعريب عفيف البعلبكي. دار العلم للملايين. الطبعة الرابعة. بيروت. 1981. ص 21 – 22.

4 – الفريق عفيف البزري " الجهاد في الاسلام ". دار الكرمل. دمشق. الطبعة الأولى 1984. ص 131 – 136.

5 – الإمام أبو الحسن البلاذري " فتوح البلدان " راجعه وعلّق عليه رضـوان محمـد رضـوان. دار الكتب العلمية. بيروت 1978. ص 36 – 42.
6 – العقيد محمود الدرّة " معارك العرب الكبرى " منشورات الفاخرية – الرياض ودار الكاتب العربي. بيروت. دون تاريخ. ص 160 – 170 .
7 – العـميـد الـركـن سيـف الـديـن آل يحي " الحركات العسـكرية للرسول الأعظـم فـي كفّتـي الميزان " الجزء الثاني. الدار العربية للموسوعات. بيروت. الطبعة الأولى 1983. ص 380 – 388.

حرفا " الدال " و " الذال "

(د) و (ذ)

1 – درنة

2 – دمشق

3 – الدهيشة

4 – الدير وعلّين

5 – ذات الصواري

6 – ذات السلاسل (راجع: معركة كاظمة)

7 – ذات العيون (راجع: معركة الأنبار)

8 – ذي قار

معركـة درنة

لقد دأب الايطاليون، منذ بدء الغزو الايطالي للأراضي الليبية، على قصـف المدن الآمنة وترويع السكان، وتهجيرهم، وسوقهم إلى المعتقلات، ظنّاً منهم أنهم بذلـك يضعفون المقاومة الوطنية. ولكن هذا الأمر لم يزدْ المجـاهدين إلاّ عزمـاً وصموداً، فمـا لانـت لهم قناة، ولا فترت همّة، بل ظلوا يشنون غاراتهم على الأعداء ويكبدونهم خسـائر فادحـة فـي الأرواح والعتاد، بالاضافة إلى أنهم كانوا بهذا يعيقون سير تقدم القوات الايطالية، ويشلّون تحركاتهم العسكرية.

ومعركة " درنة " كانت من أشرس المعارك التي واجهها الايطـاليون فـي غزوهم لليبيا، ومن أنصع الصفحات البطولية للمجاهدين الليبيين.

كانت درنة من المراكز الساحلية الهامة التي استهدفها الغزو الايطالي في المرحلة الأولى من نزول القوات الايطالية بالشـواطئ الليبيـة، وكـانوا يعلّقـون أهميـة خاصـة علـى احتلالها في الفترة الأولى، باعتبار أهميتهـا الاسـتراتيجية وموقعهـا البحـري. وقـد ظهـرت قطع الأسطول الايطالي أمام شواطئ " درنة " يوم 30 سبتمبر وأخذت تهدد المدينة وتدعو الحامية الموجودة فيها إلى الاستسلام. وقد قام هذا الأسطول بضرب المدينـة فـي يوم 16 أكتوبـر / تشـرين الأول 1911، ثـم نزلـت بعـض وحـدات مـن البحريـة وقـامت بـاحتلال المدينة، ثم وصلت بقية القـوات يـوم 4 نوفمـبر / تشـرين الثـاني 1911. وكـانت الحاميـة التركية والمجاهدون قد خرجـوا مـن المدينـة وتحصّنـوا بالمرتفعـات الجبليـة التـي تشـرف عليهـا. وقـد بـدأت عمليـات الهجـوم تتصـاعد اعتبـارا مـن يـوم 13 نوفمـبر 1911 حيـث تعرضت المواقع الايطالية الأمامية إلى هجوم عنيف شنّه المجاهدون. وتعـترف المصـادر الايطالية الرسمية بأن الموقع المسيطر على درنة الذي كان بيد المجاهدين، وتعـذّر وجـود مسالك إلى الجبل، قد ساعدا مساعدة كبيرة في العمليات الحربية التي قام بهـا المجـاهدون، وجعلا وضع القوة الايطالية محفوفاً بـالخطر.وشـهدت المنطقـة معركـة يـوم 17 نوفمـبر / تشرين الثاني ثم يوم 24 منه. وشعر الايطاليون بالخطر على مواقعهم فعمدوا إلـى طلـب

المزيد من الدعم. وقد رفعت القوة خلال تلك الفترة الى قوة كبيرة، دون أن يحول ذلك عن قيام المجاهدين بهجمات جديدة متتالية، ومعارك وقعت في الأيـام 1 - 16 - 27 ديسـمبر / كـانون أول 1911 و 17 ينـاير / كـانون الثـاني 1912 و 11 - 12 فـبراير ومــارس 1912. مما اضطر الايطاليين إلى القيام بعملية تسوير شـامل للمواقـع التـي يحتلونهـا مـن المدينة. ومع ذلك كله كانت قوة المجاهدين تشكل تهديداً مستمراً للقـوات الايطاليـة وكـانت تقدّر هذه القوة بحوالي (10 آلاف إلى 12 ألف).

وحاولت القوة الايطالية أن تفك الحصار المضروب عليهـا، ولكنهـا مـا كـادت تسـعى إلــى ذلك حتى اضطرها المجاهدون الى خوض معركتين عنيفتين: الأولى عند " سيدي عبد الله " يوم 14 سبتمبر 1912، والثانية في قصر " رأس الليـن " يـوم 17 سـبتمبر. ولـم تتمكـن القوات الايطالية من احتلال هذه المواقع، إلا في المعركة التاليـة التـي جـرت فـي " سـيدي عبد الله " و " حلق الجرابة " يوم 8 أكتوبر، وأخذت القوة الايطاليـة تسـتعد فعـلا لاحتـلال الجبل. إلا أن ظهور أنور بك على المسرح واتفاقه مع السيد أحمد الشريـف علـى اسـتمرار القتال قد بدّد هذا الحلم. وأعاد المخاوف الايطالية من نتائج هذا التجمع للمجـاهدين ولكنهـا منيت بهزيمة نكراء في معركة " سيدي كريم القرباع " يوم 16 مايو / أيار مما اضطرهـا الى الانسحاب. وقد عـادت بعـد شـهر مـن ذلك إلـى الهجـوم علـى مواقـع المجـاهدين فـي الطنجـي. حيـث نشـبت هنـاك يـوم 18 يونيـو / حزيـران 1913 معركـة عنيفـة قـام بهـا الايطاليون انتقاماً لهزيمتهم الأولى، في سيدي قرباع، فدمروا الموقع تدميرا، وتمكنـوا مـن توسيع الرقعة المحتلة، حول المدينة، وتقرر في عهد الجـنرال (اميليـو) اعتبارهـا منطقـة غيرّ مأمونة الجانب، مما استتبع المحافظة علـى الوضـع الدفـاعي المسـتمر. وقـد شـاهدت المنطقة عمليات مقاومة متّجدّدة، خلال الفترة بين أبريل ومايو 1914 ولم تستقر الأوضـاع في هـذه المدينـة، والمنـاطق المجـاورة لهـا، إلا بعـد الاتفاقيـات التـي وقّعـت مـع الحكومـة الايطالية.

المراجع

1 - محمد خليفة التليسي " معجم معارك الجهاد ". ص 229 - 231.

2 - مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الايطالي. طرابلس / ليبيا.

معركة دمشق

(543 هـ / 1148 م)

تعتبر معركة دمشق من أهم المعارك الفاصلة في تاريخ الصراع الاسلامي – الصليبي على المشرق العربي، وقد أبلى فيها نور الدين محمود (زنكي) وأخوه سيف الدين غازي، والدمشقيون، بلاء حسناً أجبروا الصليبيين خلاله، من قادة الفرنجة المعروفين " بالسادة "، على الانسحاب من دمشق، والعودة إلى فلسطين مهزومين.

فبعد أن تكامل مجيء الجيوش التي تشكل الحملة الصليبية الثانية في البر والبحر إلى الأراضي المقدسة، وبعد الاستراحة وجمع الصفوف، دعت الملكة ميليسند وابنها الملك بلدوين الثالث إلى عقد اجتماع عام في عكا يوم 24 حزيران / يونيو / من سنة 1148 م حضره الملوك وكبار رجال الحملة ومعاونيهم، وكبار البارونات في المملكة اللاتينية المشرقية، وفولشير بطريرك القدس، ورهبانيات الداوية والاسبتارية (فرسان الهيكل، وفرسان القديس يوحنا) – وكان رئيسها العام جلبرت اسابلي –، وغيرهم من تلك الطوائف الدينية التي كانت تشكل الجيش المقيم والدائم الوجود المتعاون مع الأسر الحاكمة، والملتزم بالدفاع عن الأماكن التي بيد الصليبيين في بلادنا، مثلاً: كان للداوية انطرطوس وكل الشطر الشمالي من كونتية طرابلس، وإقطاعات حول بغراس، كما كان لهم تواجد في غزة وصفد. وكان للاسبتارية حصن الأكراد وحصن كوكب المتحكم في مخاضة الأردن وإقطاعات واسعة جنوبي انطاكية.

كانت نتيجة اجتماع عكا الذي أسدل عليه ستار كثيف من الكتمان أول الأمر، التهيئة لعمل عسكري كبير ضد هدف إسلامي كبير... تحفظوا بالإعلان عنه لأسباب عسكرية. وبعدها تهيأت الرجال للحرب ووزعت عليهم الأموال، فكان مقدار ما وزع بين الجند سبعمائة ألف دينار... ثم انتقل الجميع إلى القدس وصلّوا في كنائسها صلاة الموت، ثم انتظموا في جيش كبير قدّره أبو الفداء بسبعين ألفاً، وقدّره ابن اسباط المؤرخ بستين ألفاً من الرجّالة وستة آلاف خيّال. ومشى على رأس هذا الجيش الكبير ثلاثة من كبار الملوك،

اتجهوا أولاً إلى طبريا، وكانت نقطة تجمع القوى، ومنها انتقلوا إلى بانياس وكانت استجماع القوة للوثوب على الهدف، ولم يكن هدفهم هذه المرّة سوى دمشق.

ماذا عن دمشق؟

أصحّ ما يمكن أن توصف دمشق أنها (والدة هذا الشرق)، فمنذ الأزل وهي رأس البلاد وأهميتها تتجدد مع كل زمان. في قديمها تجذّرت الكنعانية والأمورية والآرامية وحضارات لا عدّ لها ولا حصر، فكانت دمشق الوريثة الطبيعية لحضارات أيبلا ولارسّا وماري والألاخ وأوغاريت وكازاللو وتدمر وكلكيس... وحضارات كثيرة سادت في قديم مجهول في اكثره، ولا أقول بادت لأن مقوماتها لا تزال حيّة وفاعلة تعيش في كل جديد معلوم بمعنى أبعد من منال الحسّ وإدراك البصر. فيوم كانت دمشق حاضرة العالم الآرامي الشاسع الواسع تصدّت لغزاة جنوبي سوريا من العبرانيين، كما تصدّت بذات الوقت للأشوريين القادمين من الشرق. فمن مخطوطة لملكهم شلما نصر تقول: (للمرة الثالثة عشرة عبرت الفرات – وأن الملك حزائيل الآرامي (والمقصود ملك دمشق) – الواثق من قوته المتحصّن عند جبل سيرو حصنه (القوي)، والمؤكد قوله إن دمشق اليوم تقوم على أنقاض دمشق الآرامية وإن صحيح اسمها هو (مشق) ودخول الدال على أول الاسم هو للنسبة طبقا لقواعد آرامية على ما يعتقد – ومن قول آخر اسم دمشق – هندي – مثله اسم تدمر. وأهميتها الجغرافية في موقعها بين الصحراء السورية والبحر المتوسط، وكل ما في هذا المدى بمتناول يدها، القسطنطينية فقط لها مثل هذه الأهمية، ولكنها تحسب من الناحية التاريخية حفيدة صغرى لدمشق. ونظراً للأهمية التي كانت لها أيام الدولة الفارسية جعلها الإسكندر بعد احتلاله الشرق عاصمة البلاد السورية كلها. والمقول أن الاسكندر المكدوني هو أول من جعل سوريا الطبيعية ولاية واحدة وجعل عاصمتها دمشق، وأطلت دمشق على العالم الهيليني والمُتَهَلِّينْ تجمع بين قديم المجد وجديده. وبعد موت الاسكندر ألحق جنوبي سوريا بدولة البطالسة تبعاً لمقررات مؤتمر بابل الذي عقده قادة جيش الاسكندر وورثة ملكه. ثم أصبحت إنطاكية عاصمة الدولة السلوقية بدلاً من سلوقيا، وفقدت دمشق شيئاً من أهميتها، ولكن ما لبثت أن استعادت مجدها أيام الرومان، واستمرت وقتاً طويلاً تنعم بأهمية لا مزيد عليها بين مدن الشرق،

يدلنا على ذلك أن جميع الطرق الرئيسة المكشفة آثارها في بلادنا والتي كانت صالحة لسير المركبات التي تجرها الحيوانات جميعها تتجه نحو دمشق. وفي زمن الرومان أيضاً أخذت العربية تزهو وتوضح معالمها في سورية عامة وفي دمشق خاصة على يد قضاعة وفروعها الكثيرة منها سليح المتملكة في حوران، ثم غسان وتنوخ كما (راحت موسيقى الشعر العربي تصدح) في جلّق – وهذا اسم تراثي آخر لدمشق – في بلاط آل جفنة من بني غسان.

وفي العام 18 الهجري افتتح المسلمون العرب دمشق، نصفها صلحاً ونصفها الآخر حرباً، لكن الخليفة عمر ابن الخطاب – رضي الله عنه – جعلها كلها صلحاً، فكان بهذا التدبير الإنساني الذي حفظ للمدينة كيانها أول لقاء بين دمشق وعدالة الإسلام...

ولم يكن اختيار الأمويين لدمشق عاصمة لملكهم صدفة، كانت هناك معرفة سابقة بين المدينة وبين ولاتها من الفرع السفياني لبني أمية، يومها سكن الأمويون بيوتاً معمورة بالإضافة لما بنوا، وجاوروا أقارب وأصحاباً. وفي عصرهم الذهبي امتدّ سلطان دمشق من سهوب البنجاب والتركستان في الشرق، إلى أبعد من جبال البيرينيه وأطراف شبه جزيرة ايبيريا في الغرب. واختيار الملوك الصليبيين دمشق هدفاً لهم هذه المرة يتناسب مع ما كانوا يؤملونه ويرجونه من – الحملة الصليبية الثانية – أقوى حملاتهم على الشرق العربي، قالوا عنها: " لم يكن بين رجالها لصوص ولا مجرمون، بل كانوا مجاهدين وأبطالاً ". كانت هذه هي المرة الثانية خلال عشرين سنة من محاولة الصليبيين احتلال دمشق. المرة الأولى كانت سنة 523 هـ / 1130 م بقيادة وليم دي بور الذي هزم هزيمة نكراء وتبدّد جيشه يومها بين سهول حوران وفلسطين. أما الآن فيختلف الوضع عن السابق من حيث نوعية العدو وطبيعته: ثلاثة من كبار ملوك الصليبيين على رأس تجريدة عظيمة تتقصد الدمشقيين، ولثقتهم المطلقة باحتلال المدينة تبايعوا في ما بينهم ضياعها وحماماتها وقيسرياتها بواسطة البرجاسيين (التجار).

لم يكن مجير الدين أرتق ومدبّر دولته النشط معين الدين أتسز بغافلين عما يجري ويحاك ضدهم في الخفاء، وكانا يدركان أن مقاليد السياسة في الدولة اللاتينية في هذه المرحلة لم تعد بيد الملكة ميليسند وابنها وبارونات المملكة أصدقائهم على العموم، بل

أمسكت بها أيدٍ عدوّة من خارج المنطقة، طموحها أكبر وعداؤها اشد.

وفي حدود إمكاناتهم، أعد الأتابكة للأمراء عدّته: بدأوا أعمال الترميم والتحصين والتذخير، وأعلنوا الجهاد بين الناس، فجمع لديهم جيش كثير العدد وافر العدّة، وطلبوا إلى المحافظات إمدادهم بالمقاتلين، وهيأوا عصابات (من أبطال البطانية سكان قرى دمشق المجاورة)، فكان هذا التدبير من أنجح أعمالهم التكتية على الإطلاق، لأنه كان فتحاً جديداً في تاريخ الحروب الصغيرة – الغرية – وأول نواة للمقاومة الشعبية في تاريخ الحروب التحريرية... وعلى الصعيد الآخر أرسلوا يطلبون النجدة من نور الدين محمود زنكي في حلب، ومن شقيقه سيف الدين غازي في الموصل، والأقرب دائماً هو الألزم...

كان لملك دمشق ووصيّه أتسز مواقف عدائية سابقة نحو نور الدين وسيف الدين، ولكن الملكين الأخوين تخطّيا الإساءة وترفّعا عن الأحقاد، ومن مجريات الأحداث يتضح أن اتصالاً تمّ في حينه بين الملكين الأخوين، اتفقا فيه على مواجهة الموقف وأمور أخرى منها: تحديد عدد رجال كل منهما في تجريدة النجدة، وتعيين حمص مكان التقائهما... فعبر سيف الدين الفرات بعشرين ألف مقاتل، وجاء نور الدين بعشرة آلاف. كان نور الدين يقتصد دائماً بالقوى، وكان اقتصاده هذه المرة لدواعٍ عسكرية هامة:

أولاً: الاحتراز من اتفاقيات سرية كان يعتقد بوجودها بين الروم وصليبيّي الشمال، فكان يحترز منهم ومن الروم الأقوياء.

ثانياً: كان يعدّ لضربة عسكرية شاغلة في الشمال لمنع هؤلاء من نجدة إخوانهم في الجنوب ومساندتهم لهم في حربهم ضد دمشق، وهذا ما وضحت آثاره في تسلسل الأحداث. ومن هنا كان القسم الأكبر في تجريدة النجدة من جند الموصل...

وفي حمص انتظمت القوى في جيش واحد سار باتجاه دمشق لنجدتها في مواجهتها لرجال الحملة الصليبية الثانية على رأسه سيف الدين غازي، ونور الدين محمود زنكي.

وتنفيذاً لمقررات مؤتمر عكا التي لم تعد سرّية... تحرك الصليبيون من طبريا باتجاه بانياس بجيش قدّر عدده بسبعين ألف مقاتل، فوصلوها في 15 يوليو / تموز 1148 م. وبعد اكتمال توارد العساكر والاستراحة، تحرك هذا الجيش الكبير باتجاه دمشق

وعلى رأسه كونراد الثالث ملك ألمانيا، ولويس السابع ملك فرنسا، وبلدوين الثالث ملك القدس اللاتيني، مع مطارنتهم وأمراء حربهم وكبار مساعديهم ورؤساء الرهبانية المقاتلة وغيرهم... ويشير ابن الجوزي وغيره إلى أن دليل الصليبيين في رحلتهم هذه كان كاهناً ضخم الجثة يجيد العربية، يسير أمام الجموع وهو ممتطٍ حماره... وبمحاولة منا لترتيب يوميات هذه المعركة التاريخية والهامة معاً استناداً لبعض مصادر تأريخها الموثوقة والمعوّل عليها، نقول:

– يوم الجمعة 23 تموز / يوليو سنة 1148 م / 6 ربيع الأول سنة 543 هـ: في هذا اليوم أطل الصليبيون على مدينة دمشق من جهة الجنوب، فلاحت لهم أسوار المدينة وأبراجها البيضاء العالية من خلال الأشجار الكثيفة، فنزلوا على داريّا وأقاموا معسكرهم فيها – حسب أقوال وليم الصوري –. وقال المؤرخون المسلمون إن الصليبيين نزلوا هناك في محلة تدعى منازل العسكر – تبعد أربعة أميال عن دمشق – قدرت بفلوة بريد –، والواضح أنه في هذا اليوم لم يحدث قتال بين القوتين المتقابلتين. لم تطل إقامة الصليبيين في هذا المكان إن لعدم توفر المياه في هذا المكان حسب أقوال المؤرخين المسلمين، أو لغرض اقترابهم أكثر من الهدف حسب المقتضيات العسكرية. لذلك قرروا الانتقال باتجاه المزّة.

– يوم السبت 24 تموز سنة 1148 م / 7 ربيع الأول سنة 543 هـ: أثناء تحرك الصليبيين نحو المزة، تصدى لهم الدماشقة وقاتلوهم ببسالة سجلها لهم التاريخ بأحرف من نور. وبعد معارك ضارية اضطر الصليبيون الدماشقة للانكفاء نحو المدينة آخر النهار. كانت حصيلة معارك هذا اليوم مائتي شهيد من الدماشقة، منهم الفقيه حجة الدين شيخ المالكية وهو الحجاج يوسف بن درناس الفندلاوي، والشيخ عبد الرحمن الجلجولي، استشهدا قريباً من الصليبيين... أحد المقاتلين العرب صاح بهما قائلاً: يا شيخ صرتما قرب الصليبيين، هاكهم، ودلّهم على مكان وجودهم. فقال الشيخان ما معناه: إياهم نقصد، ورفع أحدهم عصاه التي كان يتوكأ عليها وهجم نحوهم، فكان أن استشهدا – رحمهما الله –، وقيل إنهما قالا للرجل: نحن بعنا وهو اشترى، بمعنى أن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم. أما قتلى الصليبيين في هذا اليوم فلم يعرف عددهم، ومع حلول

الظلام احتشد الحراس والمقاتلون على أسوار دمشق وأبراجها تحسباً واستعداداً ليوم جديد.

- يوم الأحد 25 تموز / يوليو 1148 م / 8 ربيع الأول 543 هـ: في هذا اليوم حاول الصليبيون الاقتراب من الأسوار، والانتشار حولها فتصدى لهم الدماشقة بقوة، ودارت بين القوتين معارك ضارية، وفي هذه الأثناء نشط رجال العصابات العرب (بقضم أطراف الجيش الصليبي) مكبدينه خسائر فادحة، وبرعوا باستعمال الأرض... مستفيدين من الدروب الضيقة والأقنية وجدران البساتين والتواءات الأراضي، فردّ الصليبيون عليهم بعملين: أولهما سلبي، إذ راحوا يقتطعون الأشجار من الحدائق والبساتين ويتدرأون خلفها من سهام الرماة المهرة والجروخ (أقواس ضخمة تطلق سهاماً خارقة ورهيبة، وهذه الأقواس يصليها القواس بيديه ورجليه وهو مستلقٍ على قفاه لقوتها). وثانيهما إيجابي بأن كلفوا جيش القدس اللاتيني مطاردة رجال العصابات وتنظيف البساتين منهم، فتمكن هذا الجيش بعد الظهر من تنفيذ مهمته. عندها شقّ الألمان طريقهم نحو الربوة الواقعة تحت أسوار المدينة على نهر بردى، وأقام كونراد الثالث خيامه الكبيرة والمميزة في الميدان الأخضر.

سبّب اقتراب الألمان من الأسوار جواً من الخوف والقلق سيطر على الناس في داخل المدينة، وتحسباً منهم لما قد يحدث راحوا يقيمون العوائق في الأزقة والطرق ويقيمون المتاريس ويستعدون (لحرب الشوارع)... على حد قول الصليبيين. ويجمع المؤرخون على أن الضائقة كانت شديدة في هذا اليوم على المسلمين داخل المدينة، فاجتمعّ الناس في الأموي وأخرجوا مصحف عثمان إلى صحن الجامع وراحوا يبتهلون إلى الله داعين زوال الغمّة وجلاء الكربة، كما راحوا يبعثون بالصدقات إلى مستحقيها كل حسب إمكانياته، وفرشوا أرض المدينة بالرماد، في تقليد لم نفهم معناه، ولكننا ندرك خطورته ومغزاه... وفي المحن يعود الناس إلى ربهم...، أما في الخارج فلم تكن الحالة سيئة إلى هذا الحد بين الدماشقة.

- يوم الاثنين 26 تموز / يوليو 1148 م / 9 ربيع الأول 543 هـ: مع ساعات الصباح الأولى، ودرءاً للخطر الذي أطل برأسه مساء اليوم السابق، قام الدماشقة بهجوم مضاد وجريء للغاية ضد الألمان، فأزاحوهم عن مواقعهم وأزالوا خطرهم القريب

والمباشر عن أسوار المدينة. وفي هذا اليوم اشتد نشاط رجال العصابات وأنزلوا بالصليبيين الخسائرالجسيمة وأربكوهم تماماً، فاضطر لويس السابع وكونراد الثالث إلى عقد اجتماع بينهما قرّرا فيه إخلاء منطقة البساتين والانتقال لجهة الشرق، وإقامة معسكرهما في أرض مكشوفة يسهل الدفاع فيها وعنها. وفي هذا اليوم ابتدأت تصل إلى دمشق النجدات التي طلبها أتسز من المحافظات، وتدخل المدينة من الباب الشمالي. والمقول إنه في هذا اليوم وضحت خلافات بالرأي بين ملوك الصليبيين فسّرها البعض أنها بسبب من سيمتلك منهم دمشق بعد سقوطها... ويقول الأستاذ محمد كردعلي: " إنه كان لمعين الدين أتسز يدٌ بإذكاء هذه المنازعات بين ملوك الصليبيين، وإن الاتصال ظل مستمراً ولم ينقطع بينه وبين بارونات المملكة اللاتينية، وإنه رشاهم بنقد زائف..."

والمؤكد قوله: إن بارونات المملكة اللاتينية في القدس، الحريصون على امتيازاتهم ومكاسبهم المشرقية المهددة... كانوا في هذه الأثناء في موقع ثانوي، وتأثيرهم على الأحداث كان أقل بكثير مما اعتقده المؤرخون العرب المندهشون بكفاءة أتسز. كانت الكلمة لصاحب اليد التي تمسك بالسيف الثقيل، ولم تكن بيدهم على أية حال... أما استمرار اتصالهم بصديقهم أتسز، واستمرار اتصاله بهم فأمر ثابت أكدته الأحداث في أول الأمر وآخره.

– يوم الثلاثاء في 27 تموز / يوليو 1148 م / 10 ربيع الأول 435 هـ: مع طلوع ضوء هذا اليوم، وتنفيذاً لقرارات اليوم السابق انتقل الألمان والفرنسيون إلى الجهة الشرقية من المدينة – وصف مؤرخو الفرنجة هذا القرار بالقرارَ الأحمق – وسخروا منه للأسباب التكتية التالية:

– واجهوا المدينة من أمتن وأقوى قطاع في حصونها.

– عدم وجود مياه في المكان الجديد.

– توفر للدماشقة حرية (الحشد والمناورة) بوصول النجدات وتضاعف عدد رجال العصابات العرب العاملين على إرهاق الصليبيين. وسيطرة الدماشقة على اتجاهات جديدة ومدى أوسع. وبالتالي تراخت أيدي المحاصرين وقلّ فقد الحصار زخمة، ومع تحول المهاجم إلى مدافع تحول المحاصِر إلى محصور بنسبة مقبولة. والأهم من هذا كله

أنه في هذه الأثناء وصلت الأخبار باقتراب نور الدين من دمشق لنجدتها، فألهب الخبر حماس المسلمين، وارتفعت المعنويات وأدرك كل من في دمشق أن النصر على قاب قوسين...

أما جبهة الصليبيين فقد انعكس الوضع عليها سلباً، وأشيع أن خلافاً ذرّ قرنه بين (البوليـنز) – الصليبيين الجدد – وبين (النصف مسلمين)... صليبيّي الحملة الأولى، كما كانوا يدعونهم اخوانهم الجدد. والمؤكد قوله إن الاختلاف بالرأي بين القدامى منهم والجدد – رجال الحملة الثانية – حصل مع وصول نور الدين وليس قبل وصوله.
يقول المؤرخ كاهن (Cahen)، " إنه في هذه الأثناء، وبينما الجيوش الصليبية تحاصر دمشق كان جيش لنور الدين يغير على ما بيد الصليبيين من بلاد في شمالي سوريا "...

– يوم الأربعاء 28 تموز / يوليو 1148 م / 11 ربيع الأول 543 هـ: وبينما المعركة على أشدها والقتال وقعقعة السلاح في حلبة صاخبة من صراخ الرجال وصهيل الخيول، أطل نور الدين على دمشق لنجدتها ضد الغزو الصليبي الأوروبي إطلالة الإعصار الكاسح، ومعه شقيقه البطل سيف الدين غازي ملك الموصل، فهلل المسلمون وكبّروا... بدأت خيالة المسلمين هجومها على ميمنة الصليبيين فأزاحوهم عن مواقعهم، واضطربت صفوفهم، وتراجعوا نحو ناحية معسكرهم. وراحت خيالة دمشق والموصل وحلب تضغط عليهم وتلاحقهم خبباً حتى خيامهم، ولكن الظلام حال بين المقاتلين، فتراجع إلى معسكره بانتظار يوم جديد. ويقول ابن الجوزي: " إنه قتل في هذا اليوم عشرة آلاف صليبي، وإن خيالتهم تضررت بفعل سلاح النفط الذي واجههم بهِ المسلمون في يوم لم يُرَ مثله لا في الجاهلية ولا في الإسلام ". وعند طلوع ضوء يوم الخميس 29 تموز تبين للمسلمين أن الصليبيين قد أزالوا معسكرانهم وارتحلوا باتجاه البلاد الفلسطينية.

إنهزم الصليبيون باتجاه فلسطين، وراحت كتائب الخيالة من العرب والتركمان تلاحقهم طيلة ذلك اليوم ولأيام متتالية، وهم يضغطون على أجنابهم وساقتهم ويمطرونهم بوابل من السهام. وتناثرت جثث الرجال والخيول على جانبي الطريق، وأفسدت رائحتها الهواء في السهول لشهور عدة. ومع أول آب / أغسطس عادت بقايا الجيوش الصليبية إلى منطلقها في فلسطين، وتبددت نهائياً أسطورة رجال الغرب الذين لا يقهرون... تلك

الأسطورة التي نمت وترعرعت أثناء مغامرة رجال الحملة الصليبية الأولى، بينما انتعشت آمال العالم الإسلامي، – هذا ما يقوله وليم الصوري –.

أقوال وحقائق حول معركة دمشق...

يقول الدويهي: لما وصلت النجدة – نور الدين ومن معه – إشتد المسلمون للقتال، أما الفرنجة فقد اختلفت آراؤهم مع بعضهم وذلت قلوبهم لكثرة الجيوش فانهزموا عن دمشق بعد أن قتل منهم ألوف كثيرة، وقتل أيضاً كثير من المسلمين. وبعد هذه المعركة ذلّ الفرنجة وطمع فيهم المسلمون.

ويقول أبو الفداء، ما معناه: إستغاث أرتق بنور الدين وبأخيه سيف الدين فقصداه سريعاً في نحو من سبعين ألف مقاتل، فلما سمع الفرنجة بقدوم الجيش تحولوا عن البلد، فلحقهم الجيش وقتل منهم مقتلة عظيمة.

أما صاحب خطط الشام، فيركز بقوله على ما اعتبره خدعة سياسية ماهرة لعبها معين الدين أتسز الذي أرسل إلى الفرنجة الصليبيين الذين يحاصرون دمشق يقول لهم: هذا ملك الشرق نازل على حمص، وليس لكم به طاقة، فإن رحلتم وإلا سلّمت إليه البلد " يعني دمشق " وهو يبيدكم، وأنا أعطيكم بانياس؟؟... ويكمل صاحب الخطط قوله: إن الفرنجة رحلوا عن دمشق.

أما عن نجدة المدينة الواقعة تحت الحصار فيقول: لم يرض سيف الدين ولا نور الدين أن يناقشا مجير الدين أو معين الدين الحساب عما قالاه وقدماه، بل مرّا بالأحقاد مرور الكرام. معنى هذا أنه كان لهذين الأخيرين مواقف سابقة سيئة ضد نور الدين وأخيه، وأن المرور بالأحقاد مر الكرام في مثل تلك الساعات الصعبة عمل عظيم من الوجهتين الوطنية والأخلاقية، وبالتالي أبعد نور الدين عن مهاوي الانتقام، فميّز عصره وعهده في تلك العصور المظلمة بميزة الحضارة العالية.

بقي القول إن بانياس لم تكن بيد أتسز ليعطيها للصليبيين، لأنهم كانوا قد أعطوها في وقت سابق، واستعادها منهم نور الدين في وقت لاحق. ولكن من الممكن أن يكون قد وعدهم بحاضرة أخرى من حواضر المسلمين التي بيده، ومن إشارة لا بد منها حول تأريخ الصحيح من الأحداث، نرى أن الخطأ الذي تكرر ترديده في أقوال المؤرخين

اكتسب كلاسيكية ثابتة، فأحل إذ ذاك حلقات زائفة محل الحلقات الصحيحة والضائعة، بذات الوقت، في سلسلة التاريخ الطويلة، على نحو لا يستطيع كشف هذا الزيف إلا الضالعون في العلم.

من هنا كانت النتائج المحصلة من ساحات التطبيق والواقع أصدق موجّه للباحث المدلج في متاهات التاريخ ومعميات السنين، لأن مصداقيتها تتعدى أهمية أي قول وشهرة أي قائل، لأنها نتائج. والنتائج هي على الدوام حصيلة الجهود والحظوظ معاً، في هذا المكان يقف نور الدين!!.

معركة دمشق المنتصرة ضد الصليبيين الغزاة هذه المرة بالذات... محطة تاريخية هامة من تاريخ العرب والمسلمين، فيها تحطمت أمواج الحملة الصليبية الثانية – حملة السادة – على أسوار دمشق العظيمة، ابتدأت بعدها بالانحسار سريعاً نحو الغرب البعيد... حاملة معها مزق الأحلام فوق حطام الشواني والسفن.

وما يواجه الباحث في تاريخنا أن الأخطار المهمولة والأحداث الجسام التي كانت ولا تزال تهب نحونا مهددة وطننا بالزوال، وشعبنا بالانقراض، منذ القديم – هذا القديم الذي لا تزال الأمة تعيشه مع كل جديد – تسوقها دائماً قوى طاغية من خارج المنطقة. بالأمس واجه نور الدين هذه الأخطار بالأمة الموحّدة وانتصر.

قال أحد كبار المؤرخين: إن نور الدين صنع أمة موحدة من مسلمين مشتتين، والأمة الموحدة هرم ثابت رأسه قيادة حكيمة بكل ما تعوزه الكلمة ويتطلبه الظرف. والقيادة الحكيمة هي التي تهيء للنصر أسبابه، ومن عودة إلى الترديد الأعمى الذي يحل الخطأ الحاضر محل الثواب الغائب، إذا جاز القول ذلك...

فابن القلانسي، وابو الفداء، وأسامة بن منقذ، وصاحب خطط الشام، وغيرهم ممن أخذ عنهم من المؤرخين، كالوا المديح لأتسز ونعتوه بأجلّ النعوت وأجمل الصفات، ولكن الوقائع العملية للتاريخ لم تغطّ هذه النفقه... حتى ولم تكفلها، وأشارت إلى هذا الخوارزمي البائس أنه تعامل مع أعداء الأمة، وساوى بين الفرنجة الأعداء وصهره الملك العادل نور الدين، في محاولة توازن غير شريف بين فعل المرض وجهود الطبيب، فدفع الجزية للصليبيين وأعطاهم أمنع القلاع وأعز الحصون، في الوقت الذي كان فيه نور الدين

يحاول إصلاح أمر آل طغتيكن وخادمهم اتسز بيد، وباليد الأخرى يقاتل لتخليص البلاد من خطر الصليبيين الاستيطاني. ويلاحظ هنا أن الصليبيين قالوا انهزمنا عن دمشق، وأبو الفداء قال، إن الفرنجة تحولوا عن دمشق... وصاحب خطط الشام قال: إن الفرنجة رحلوا عن دمشق. وما هذا التحويل والترحيل إلا دوبلاج خادع يطل منه وجه أتسز. والصحيح في كل هذا أن الفرنجة هزموا هزيمة نكراء عن دمشق، بفعل جهود الأمة التي قاد جهادها نور الدين، وترددت كثيراً كلمة اختلف أمر الفرنجة على من سيمتلك دمشق منهم بعد احتلالها... فمنذ اليوم الأول للمعركة وخيال نور الدين يلوح في الأفق العاصف، فالفرنجة يستعجلون الأمر قبل أن يصل ملك الشرق، والدماشقة يستمهلون الأمر ليصل، فكان أن أطلّ نور الدين... أطلّ والسيف في يمينه، والقرآن في يساره، والإيمان في قلبه، والنصر في ركابه (وما معنى الكتابة إن لم تمجّد الأبطال)... ومن ملاحظات يحسنِ إيرادها حول هذه المعركة المنتصرة:

أولاً: لأن الحملة الصليبية الثانية على الديار المشرقية باءت بالفشل الذريع، راح كل فصيل من فصائلها يلقي تبعة الهزيمة على غيره، فالصليبيون اتهموا البيزنطيين بخداعهم وتضليلهم، حتى أن الملك روجر الثالث – ملك صقلية – اقترح إرسال حملة جديدة للانتقام من البيزنطيين، وهؤلاء اتهموا الصليبيين أنهم يعملون لإقامة دولة صليبية مكان دولتهم. ورجال الحملة الصليبية الثانية اتهموا سابقيهم من صليبيّي الحملة الأولى أنهم أصبحوا نصف مسلمين، جاؤوا ليمتلكوا الشرق فامتلكهم. كما اتهموا بارونات بيت المقدس بالرشوة أثناء عملية حصار دمشق، وصليبيو الحملة الأولى دعوا رجال الحملة الثانية أنهم فراخ دجاج (Poussins) لا يصلحون لحرب تستهلك في معتركها الملتهب كهول الأسود... والقديس برناردوس عرّاب الحملة وأبوها الروحي اتهم الجميع بأن فشلهم كان بسبب غضب الرب عليهم، لتفشي عادة الزنا بينهم. فلو نجحت الحملة لكانوا جميعاً بلا أخطاء.

ثانياً: كانت معركة دمشق تلك (فالمي) عربية سبقت فالمي الثورة الفرنسية بزمن طويل، فيها استجمعت الأمة قواها من دمشق والموصل، من حلب وحماه، والجزيرة وحوران ولبنان، من كل مكان، ووجهت إلى أعدائها ضربة عسكرية محكمة وقاضية

وهزمتهم. أجل! هزموا لم يتحولوا ولم يرحلوا، لأن التحول والرحيل معنى الطوعية والاختيار، والانسحاب الطوعي بالمعنى التكتي كان يتم بين القوى المتقاتلة في تلك الأيام على النحو التالي:

– أفضل أوقات الانسحاب عادة تحت جنح الظلام. في هذه الحالة توقد النار الليلية في أنحاء المعسكر كالمعتاد، لإيهام الجهة الثانية أن كل شيء على حاله ولا جديد... وحوالي منتصف الليل تنسحب القوى بسرعة إلى الخلف متجهة نحو بلادها، المشاة أولاً ثم تلحق بهم الخيالة، وتبقى عادة في المعسكر كوكبة من الخيالة الخفيفة أو أكثر – إذا لزم الأمر – تتولى إذكاء النار الخادعة وإحداث ضوضاء في مختلف أنحاء المعسكر، ثم تنسحب مع ساعات الصباح الأولى. وعندما تعرف الجهة الثانية أن العدو انسحب – عند طلوع الضوء واتضاح الرؤيا – تاركا معسكره، يكونون ساعتئذ قد ابتعدوا المسافة الكافية – 25 كلم على الأقل – التي يتيح لهم فرصة الأمان، وهذا ما حدث تقريباً في حملة وليم دي بور السابقة سنة 523 هـ / 1120 م. أما هذه المرة فالنتيجة تختلف.

استشهد لنور الدين إثنان من كبار القادة هما: شاهنشاه بن أيوب وابنه تقي الدين عمر، ويقول " ول ديورانت ": إن فشل الحملة الصليبية الثانية على الشرق ترك أثراً سيئاً في نفوس أهل أوروبا، فانتقدوا القديس برنادوس. وأثار ' أبيلار ' شكوكا فلسفية بمعنى: كيف يرضى الله أن ينهزم المدافعون عن دينه. وبالتالي خبَتْ جذوة الحماس لهذه الحرب في أوروبا.

المراجع

1 – اعتمدنا في هذه المعركة بشكل أساسي على كتاب يحي حسين عمار " تاريخ الملك العادل نور الدين محمود ". الطبعة الأولى. ينطا 1991. ص 96 – 110.

2 – أبو الفداء " البداية والنهاية ". الجزء 12. ص 224.

3 – ابن الجوزي " مرآة الزمان ". الجزء الثاني. ص 198 – 199.

4 – ستيفن رنسيمان " تاريخ الحروب الصليبية ". تعريب الباز العريني. الجزء الثاني. ص 452 – 455.

5 – البطريرك اسطفان الدويهي " تاريخ الأزمنة ". ص 142 – 143.

6 – محمد كرد علي " خطط الشام ". الجزء الثاني. ص 20 – 21.

7 – د. نجلا أبو عز الدين " الدروز في التاريخ ". دار العلم للملايين. ص 181.

8 – ابن الأثير " الكامل في التاريخ ". الجزء الحادي عشر. ص 53.

9 – المؤرخ كاهن.Cahen, la Syrie de Nord, P. 382 -

10 –شاكر احمد أبو بدر ' الحروب الصليبية والأسرة الزنكية '. بيروت 1972. ص 240–243.

معركـــة الدهيشة

(27 / 3 / 1948)

في الصباح الباكر من يـوم 27 / 3 / 1948، والنـاس نيـام، انطلقـت مـن القـدس قافلة يهودية كبيرة مسلّحة تتألف من 58 سيارة مصفحة، سواء منها المصفحات المقاتلة أو الباصات أو الشاحنات، متجهة إلى مستعمرة " كفار عتسيون " لتعزيـز وضعهـا العسـكري والتمويني، وتمكنت من الوصول إليها من دون أن يعترضها أحـد. ولاحـظ العـرب مـرور القافلة المفاجئ وقدّروا أنها ستعود من الطريق نفسه، فهرعوا إلـى موقـع الدهيشـة القريـب من بيت لحم ونصبوا لها كمينا وأغلقوا الطريـق بـالحواجز والألغـام. ولـم تلبـث القافلـة أن عادت بسرعة عند شروق الشمس، فهاجمها العرب واشتبكوا معها، فتوقفت عنـد الحواجـز لا تستطيع اجتيازها. وتكاثر العرب المهـاجمون وحـاصروا القافلـة مـن كـل جـانب، ولجـأ اليهود إلى بناء قديم مهجـور مجـاور للطريـق وأحـاطوه بسـياراتهم المصـفحـة. واسـتمرت المعركـة طـوال النهـار مـن دون أن يتمكـن اليهـود مـن اختـراق الحصـار. وكـثرت فيهـم الإصابات، واستمر الحصار طوال الليل ولـم تتمكـن أيّـة نجـدة مـن الوصـول إليهـم. وفـي صباح 28 آذار / مارس حلقت في سماء المعركة طائرة يهودية ثم تبعتها ثلاث طـائرات ألقت لليهود المؤن والعتاد فوقع معظمه في أيدي العرب. ثم أسقطت إحدى الطائرات وقتل من فيها، فانحطت معنويات اليهود المحاصرين.

ولما يئس اليهود من الخلاص، استنجدت الوكالة اليهودية بالإنكليز، فتقـدم الجيـش البريطاني لنجدتهم وطلب من العرب إيقاف القتال وفك الحصـار. وجرت مفاوضـات اتفـق فـي نهايتهـا علـى وقـف القتـال وإنقـاذ اليهـود الأحيـاء بشـرط أن يسـلموا جميـع أسـلحتهم وسياراتهم للعرب. وتوقف القتــال بعد 36 سـاعة، وسلّم اليهـود أسـلحتهم بعـد أن عطلـوا معظمها، ونقلهم الجيش البريطاني إلى القدس، وأشـرف علـى عمليـة الاستسـلام المرحـوم كامل عريقات نيابة عن قيادة جيش الجهاد المقدس. وغنـم العـرب ثـلاث مصفحـات قتاليـة وثمـانيـة بـاصـات كبيرة مصفحة تصلح للقتال، وثلاثين شاحنة جميعها جيدة، كما غنمـوا

نحو 170 قطعة سلاح وكميات من المتفجرات والعتاد. وبكل أسف، لم تتمكن القيادة من حيازة هذه المغانم لأن المقاتلين المدنيين تقاسموها. وقد قتل من اليهود في هذه المعركة عدد كبير وجرح الكثيرون، وأنقذ الجيش البريطاني 159 شخصاً بينهم الجرحى و 86 امرأة، وخسر العرب اثني عشر شهيداً وعدداً من الجرحى.

المرجع

1 - مذكرات المناضل بهجت أبو غربية 1916 - 1949. " في خضم النضال العربي - الفلسطيني ". مؤسسة الدراسات الفلسطينية. بيروت. الطبعة الأولى، كانون الثاني 1993. ص: 200 - 201.

معركـة الدير وعلّين

من أهم المعارك التي دارت بين الثوار العرب والصهاينة؛ ففي ليلة ليـلاء، يرجّح أنها ليلة 24 – 25 كانون الأول / ديسمبر 1948، تصادف أننا لم نقم بأعمال الدورية في تلك الليلة، فتقربت قوات يهودية من مواقعنا، واحتشدت على بعد نحو كيلو متر واحد، دون أن نشعر بذلك. وقدّرت مجموعها بكتيبة أو أكثر معزّزة بالمصفحات. وتهيأت لمهاجمة مواقعنا عند أول ضوء. ويظهر أن اليهود يئسوا من محاولات إجلائنا عن مواقعنا بالهجمات الليلية المحدودة، وقرروا استخدام قوة كبيرة لا يستطيعون استخدامها والسيطرة على قيادتها ليلاً. وكان هدف الهجوم تدمير قواتنا والاستيلاء على قرية صوريف نفسها إن لم يكن أكبر من ذلك.

بدأ الهجوم نحو الساعة الخامسة صباحاً بقصف مواقعنا في خربتي علّين والدير قصفاً ثقيلاً بمدافع المورتر من عيار 3 إنش إشتركت فيه نحو عشرة مدافع، واستمر القصف مدة طويلة، إلا أن مواقعنا لم تصب بأية إصابة مباشرة.

وفيما بعد، بدأ العدو يتقدم على شكل ثلاثة أرتال، تقدم الأول (القلب) على الطريق الترابي المعبد المؤدي إلى قرية صوريف مباشرة، والتي تقع على جانبه خربتا علّين والدير، وتطلان عليه من مواقع مرتفعة مسيطرة. وكان من شأن هذا الرتل إذا نجح في التقدم، أن يشطر قواتنا إلى شطرين. وكانت القوة التي تتقدم على هذا المحور معززة بثماني مصفحات كبيرة، وكان عليها أن تجتاز سدوداً من الحجارة تمتد على مسافة كيلو متر واحد تقريباً، فضلاً عن الحفر والألغام التي تعترض طريقها. كما كان عليها أن تتعرض لنيران رشاشين ثقيلين ضد الدروع ومدفع مورتر من عيار 81 ملم في خربة الدير.

تقدم الرتل الثاني (الميسرة) المؤلف من المشاة على يمين خربة علّين في أرض مرجان منبسطة يسيطر عليها مرتفع علين، وجعل يهاجم الخربة من الشمال.

أما الرتل الثالث (الميمنة) وكان مؤلفاً من عدد كبير من سيارات الجيب

المصفحة التي استخدمت كما تستخدم قوات الخيالة، فتقدم من يسار خربة الدير، وتسلق مرتفعاً يوازي مرتفع خربة الدير لا يفصله عنه سوى وادٍ ضيق، وجعل يهاجم الخربة من الجنوب. وتمركز فصيل في منطقة الحرام في خربة الشيخ مذكور المرتفعة إلى الغرب من الطريق الترابي المعبد المؤدي من بيت نتيف إلى قرية ترقومية وموقع وادي القف حيث توجد قوات من الجيش العربي والمناضلين على بعد 15 كلم من مواقعنا، وزرع هذا الفصيل ألغاماً كبيرة ضد الآليات لكي يغلق الطريق على أية نجدة محتملة.

وتبين لنا فيما بعد أن العدو أقام مركز إسعاف ميدانياً في موقع مستور خلف قواته، واحتفظ بقربه بقوة احتياطية.

طبيعة المعركة:

لا أنكر أن عنصر المفاجأة وكثافة نيران المورتر وشعورنا بقرب العدو من مواقعنا كان له أثر كبير في معنوياتنا في البداية. إلا أننا اجتزنا ذلك بسرعة وقررنا الثبات، وخوض معركة مواجهة. وكان الوضع في خربة علّين على غير ما أحب. وقال رجال أبو ديّة هناك ذخيرتهم تكاد تنفذ. فأرسلت مفرزة من خربة الدير لتعزيز رجالي في علّين وتزويد رجال أبو دية بكمية كبيرة من الذخيرة.

إتضح لي بعد فترة قصيرة أن تكتيك العدو في إدارة المعركة يقوم على مشاغلة خربة علّين من الشمال، ومشاغلة خربة الدير من الجنوب لتخفيف المواجهة على الطريق الرئيسي الذي تحاول المدرعات أن تجتازه. وإذا تمكنت المدرعات من اجتياز العوائق والوصول إلى ما بعد خربتي علين والدير شرقاً يلتقي معها الرتلان الجنوبي والشمالي في عملية تطويق واسعة للخربتين معاً، ولكل منهما على حدة، وتدمير قواتنا والتقدم بعد ذلك بسهولة إلى قرية صوريف. وكان من الواضح أن المعركة ستطول. وعلى ضوء تقدير الموقف هذا أصدرت الأوامر التالية:

1 - الاقتصاد الشديد في الذخيرة.

2 - تركيز القوة على مواجهة المحور الرئيسي (القلب) الذي تتقدمه المصفحات.

3- الثبات والمقاومة الشرسة.

4 -العمل على استقدام نجدات.

وبهذه المناسبة لا بد لي أن أشير إلى أن قواتي طوال حرب 1947 - 1948 لم تَشْكُ من نقص الذخيرة أو نفاذها لا في القدس ولا في صوريف، خلافاً لما جرى مع غيرها من السرايا لشدة حرصي وإشرافي اليومي المباشر على تنفيذ تعليمات صارمة بعدم تبديد الذخيرة أو سوء التصرف بها. ولذلك كان لديّ في خربة الدير احتياطي كبير من الذخيرة، بالإضافة إلى ما يحمله المناضلون أنفسهم بمعدل 100 طلقة لكل بندقية و 500 لكل رشاش و 100 قذيفة لمدفع المورتر.

سير المعركة:

طوال خمس ساعات من الخامسة صباحاً حتى العاشرة استمات الرتل الذي يتقدم على الطريق الرئيسي (القلب) في اجتياز عوائق الحجارة معتمداً على كثافة النيران وقنابل الدخان. وتمكن بالفعل من اجتياز معظمها والتقدم، حتى لم يبقَ أمامه سوى حاجز واحد يتألف من أربعة جدران. وكان بذلك قد تجاوز كل مواقعنا الأمامية المحاذية لتقدمه وتوقف إلى جانب آخر موقع. وكان قد فقد ثلاث مصفحات أصابتها مدفعيتنا المقاومة للدروع، قبل أن تتعطل هذه المدافع نفسها. واستمرت محاولة اجتياز الحاجز الأخير نحو الساعة، وكنا لا نطلق النار إلا عندما ينزل العدو من المصفحات لإزالة الحواجز فيضطر إلى العودة إلى المصفحات.

أما رتل الميسرة الذي يتقدم بالمشاة شمال خربة علّين فكان مكشوفاً لنيران علّين، كما تعرض لقصف المورتر من الفصيل السوداني المتمركز خلفنا في خربة الساقعة. ولذلك تجمدت حركته وأصبح في موقف المدافع والمنتظر لتقدم المصفحات.

وكذلك جرى لرتل الميمنة الذي يتقدم بسيارات الجيب المصفحة جنوبي خربة الدير، فقد تجمد تقدمه أيضاً بسبب وعورة المرتفع الذي تسلقه، والنيران التي واجهته خصوصاً من مدفع المورتر 81 ملم لنا من الجيش المصري، وعدم نجاح محور القلب ومصفحاته في التقدم.

وكان لصمودنا ساعات طويلة آثار متعددة. فقد وصلت أخبار المعركة إلى القرى المجاورة وإلى مدينتي الخليل وبيت لحم. وابتداء من الساعة العاشرة صباحاً بدأت تصلنا

النجدات. فوصلتنا سيارتا باص من الخليل، ثم توالت النجدات. ولم تصلنا أية نجدة من قيادة جيش الجهاد المقدس، ولا من قيادة الجيش المصري في بيت لحم. ووصلنا جاويش من الجيش الأردني المرابط خلفنا في قرية أمرفارا من وحدته ليقاتل معنا، وأخبرنا أن جنود وحدته العرب وضباطها الذين كانوا يراقبون سير المعركة بوضوح من موقعهم المشرف، ضغطوا على قادتهم الانكليز لكي يتقدموا لنجدتنا، فرفض الانكليز بشدة وقالوا ان قوات المناضلين موجودة في مواقع تخص اليهود. ثم أمروا مجموعة بالتقدم إلى منتصف الطريق بين بيت أمر وصوريف، وهناك لغمت الطريق لنسفها وعرقلة تقدم القوات اليهودية إذا تغلبت علينا واحتلت صوريف وتقدمت إلى بيت أمر. وكانت أهم قوة تقدمت لنجدتنا تلك التي جاءت من قرية خاراس، وهي أقرب قرية إلى مواقعنا من ناحية الجنوب. وكانت لي بأهالي خاراس علاقات متينة نشأت قبل حضوري إلى خرب صوريف وازدادت أثناء ذلك. وكان من أهالي خاراس الأخَوَان ابراهيم عبد ربه وخليل عبد ربه اللذان كانا عامليْن في الكلية الابراهيمية وقاتلا معي في القدس.

تحركت النجدة من قرية خاراس من الجنوب مستفيدة من خبراتها في الأرض، سالكة طريقاً غير مكشوف للنيران: شلال (أي مجرى سيل المطر)، والتفّت على القوات اليهودية من الغرب ووصلت إلى خربة جبين نقّار المرتفعة خلف الفصيل المرابط في خربة الشيخ مذكور، وبذلك انكشف العدو للنيران من الخلف، واضطر الفصيل المذكور إلى الهرب تاركا الألغام التي زرعها في الطريق. ونحو الساعة الثانية عشرة بدأ العدو الانسحاب وسحب مصفحاته الثلاث المعطلة. وتشاورت مع الضابط السوداني أحمد الذي كان وصلنا مع بعض رجاله بشأن القيام بهجوم معاكس، وتعقب العدو أثناء الانسحاب. فلم يوافق، وقال: " الهجوم المعاكس في النهار بتّال ". ومع ذلك إخترت عدداً قليلاً من خيرة رجالي يقودهم سلامة عودة وطلبت منهم ملاحقة العدو. وعلى الرغم من قلة عددهم، فقد أربكوا العدو إلى حد كبير وطاردوه مسافة طويلة، وعادوا وهم يحملون بعض الأسلحة والذخيرة التي غنموها. وفي الساعة الثانية بعد الظهر كانت المعركة قد توقفت تماماً.

التعليق على المعركة:

ومن خلال ذلك، نستطيع أن نستخلص الدروس التالية:

1 – إن العدو كان يعتمد في خططه على عدم صمود العرب طويلا أمام الهجوم.

2 – ان العدو يتجنب المخاطرة. فلو أن اليهود تقدموا نحونا في علّين والدير بهجوم أرضي مباشر بواسطة المشاة لاستطاعوا أن يغيروا وجه المعركة.

3 – ثبتت لي صحة القاعدة القائلة " أنت تكسب المعركة بما تعدّه قبل المعركة ".

فتَوَفّر الذخيرة، ومتانة التحصينات والعوائق، وإخلاص الرجال وانضباطهم ساعدنا على الصمود وشجّع الناس على نجدتنا. وهنا أشير إلى أن بعض استحكاماتنا (الدشم) تهدمت جزئياً من ثلاث جهات، أي أنها كانت تتعرض للنيران من الشمال والجنوب والغرب، ومع ذلك ظلت قائمة، وظل رجالها الشجعان صامدين.

4 –على الرغم من عنف المعركة وطول مدتها لم تفقد شهيداً واحداً، ولكن وقعت بعض الإصابات.

5 – غنمنا عدداً من البنادق والرشاشات والذخيرة ومركز إسعاف ميدانياً بكل معداته، وستة ألغام أرضية ضد الآليات من صنع اليهود. ودلّت مواقع الدم على وقوع عدد من الاصابات بين أفراد العدو.

6 – بعد انتهاء المعركة، زارتنا وفود من قيادة الجيش المصري، وقيادة جيش الجهاد المقدس، ومن القرى المجاورة، وتفقدوا ميدان المعركة وآثارها، وأبدوا إعجابهم وتقديرهم للقادة وللأفراد، وقدموا بعض الخراف طعاماً للمقاتلين. وقد استنسبت ترفيع بعض القادة وفي مقدمتهم الملازم عبد المهدي المحتسب والجاويش عبد القادر أبو عريش.

7 – لا يفوتني أن أنوّه بشجاعة رجال فرقة التدمير الذين كانوا معنا في خربة الدير وخاضوا المعركة بكل بسالة.

المرجع

1 – مذكرات المناضل بهجت أبو غربية 1916 – 1949. " في خضم النضال العربي الفلسطيني ". مؤسسة الدراسات الفلسطينية. بيروت. الطبعة الأولى. كانون الثاني 1993. ص: 376 – 381.

معركة ذات الصواري

(31 هـ / 29 آب 655 م)

تعتبر هذه المعركة أول معركة بحرية عربية خاضها المسلمون، وهم حديثو عهد بحروب البحر، حيث كانت بقيادة عبد الله بن سعد بن أبي سرح. والجدير بالذكر، ان البحر الأبيض المتوسط خضع لسطوة اسطول الروم في البحار مدة طويلة من الزمن، حتى أصبح يعرف بـ " البحر الرومي "، نظراً لضخامة عدد سفن هذا الاسطول وخبرته وفنونه البحرية. لكن معركة " ذات الصواري " كانت فاتحة الحروب البحرية العربية التي حوّلت هذا البحر الى بحر عربي، تسيطر عليه السفن العربية الاسلامية، المصنوعة بأيدٍ وطنية عربية اسلامية.

فلما ولي معاوية بن ابي سفيان الشام، ألح عليه " الفاروق " عمر بن الخطاب في غزو البحر، وذلك لقرب الروم من السواحل العربية، ومما كتبه معاوية للخليفة عمر " إز قرية من قرى حمص ليسمع بنباح كلابهم وصياح دجاجاتهم ". ومعاوية يعني جزيرة أرواد، القريبة من الساحل. واحتار عمر، وشغُل قلبه، أيسمح للناس بركوب البحر وما ركبوه من قبل، مجاهدين فيه؟!؟.

أمام هذه الحيرة، كتب عمر إلى عمرو بن العاص واليه على مصر: " صف لي البحر وراكبه، فإن نفسي تنازعني عليه ". فكتب عمرو إلى عمر مجيباً: " إني رأيت خلقاً كبيراً يركبه خلق صغير، ليس إلا السماء والماء، إن ركد خرق القلوب، وإن تحرك أزاغ العقول، يزداد فيه اليقين – بالنجاة – قلة، والشك كثرة، هم فيه كدود على عود، إن مال غرق وإن نجا برق ".

قرأ عمر " الفاروق " كتاب عمرو بن العاص، وأرسل قراره الذي اتخذه إلى واليه على الشام معاوية قائلاً: " والذي بعث محمداً (ﷺ) بالحق لا أحمل فيه مسلماً أبداً... وبالله لمسلم واحد أحب إلي مما حوت الروم ".

ونتساءل: لماذا يقف عمر هذا الموقف؟ وهل يُعقل أن تبنى دولة عالمية، دون

أسطول بحري؟ عمر... العبقرية المتميزة في كل شيء، بحنكتها وسعة أفقها، وروعة اجتهادها، وعظمة قلبه رضي الله عنه، هل يعقل أنه وقف موقفه هذا، لمجرد وصول رسالة من عمرو من مصر؟؟.

وقف عمر رضي الله موقفه لأسباب:

1 – خوفه على أرواح المسلمين، حيث أنهم ما عهدوا ركوب البحر مقاتلين فيه، وأسطولهم فنيّ حديث، ودولة الروم عريقة في علوم البحار وفنونه، تسيطر بأسطولها القوي " متكئة على خبرة طويلة، ورصيد كبير من التجارب " على البحر المتوسط، فهو منعهم من الغزو في البحر شفقة عليهم.

2 – غزا العلاء بن الحضرمي، الذي كان على البحرين من قبل عمر، في البحر، وقد نهاه عن ذلك فأصيب المسلمون على ساحل فارس المقابل للبحرين واستطاع القائد الفارسي " الهربذ " أن يوقع خسارة كبيرة بجند العلاء، فصار عمر لا يأذن لأحد في ركوب البحر غازياً مجاهداً.

3 – أرسل عمر بن الخطاب علقمة بن مجزز المدلجي في البحر الأحمر في نفر من المسلمين ليرد غزوة حبشية جاءت من شواطئ البحر الأحمر الغربي فأصيب القوم، فجعل عمر على نفسه وعداً، ألا يحمل في البحر أحداً للغزو.

4 – أراد عمر أن يرى أحوال البحر المتوسط وأنواءه فكتب إلى عمرو أن يصف له هذا البحر الذي أراد معاوية أن يغزو فيه، فجاءه والرد غير مشجع.

5 – لم يُبْنَ بعد أسطول الدولة العربية الاسلامية ولم يغز النبي (ﷺ) في البحر، ولم يغز خليفته الصدّيق رضي الله عنه، فغزو البحر يحتاج إلى استعدادات لتأمين أسطول قوي متين، خصوصاً وقد شاهد المسلمون سفن الروم تجوب البحار، وتصل سواحلهم وتهددهم في عقر دارهم.

هذه الأسباب مجتمعة كانت غير مشجعة، ولكن عمر ما عارض في بناء أسطول حربي، عمر لم تكن لتفوته شاردة أو واردة من شؤون الأمصار، فهو يعلم أن أسطولاً يبنى في سواحل بلاد الشام – في عكا خصوصاً – وآخر يبنى في مصر... فهو لم يعارض هذا العمل...

مما سبق نستطيع القول: إن عمر لما رأى إمكانات المسلمين البحرية الفتية، اتخذ موقفه هذا ريثما يتم تحقيق مضمون الآية الكريمة: ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ... ﴾ فالاستعدادات أولاً... ثم الغزو... إنه رضي الله عنه أراد ركوب البحر بعد اكتمال بناء أسطول المسلمين الحربي...

أما قول الخليفة عمر: " وبالله لمسلم واحد أحب إليّ مما حوت الورم "، فإنه لا يدل على عدم السماح بالغزو في البحر مستقبلاً بعد إتمام الاستعدادات، فموقف عمر هذا اتخذه أيضاً مع قوات المسلمين في البر في الجبهة الفارسية الشرقية، لقد قال عمر: إن جندياً واحداً أحب إليه من ألف ألف دينار، ورفض استعمال البراء بن مالك رضي الله عنه، وقال: " لا تستعملوا البراء على جيش من جيوش المسلمين، فإنه مهلكة من المهالك...". عمر يحب الرجل المكيث المتزن الهادئ، كالنعمان بن مقرن المزني...

إذن عمر أحب التريّث، أحب استعمال الحكمة والأسباب، كما في البر تماماً، ليتحقق النصر بأقل خسارة ممكنة، فلا يُعقل أن يرضى عمر، أن تبنى دولة الاسلام دون أسطول بحري، وعشرات الآيات في القرآن تذكر السفن والمنشآت الجاريات في البحر... لقد وردت كلمة بحر ومشتقاتها أكثر من أربعين مرة في القرآن الكريم، مثل:

﴿ وسخّر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره... ﴾ (سورة ابراهيم، الآية الكريمة 32).

هذه الآية وغيرها، ما ذكرها الله عز وجل للتسلية، إنها منهج ولفت نظر، وتنبيه لأهمية البحر: ﴿ سخر لكم الفلك، حملناهم في البر والبحر، والفلك تجري في البحر بأمره، لتبتغوا من فضله ﴾ (أين؟ في البحر)...

فعمر رضي الله عنه أوسع أفقاً، وأعمق فهماً لآيات الله... وليس المهم أن يغزو، إنما المهم كسب وتأمين أسباب النصر... وسيحين موعد انطلاق المسلمين في البحر... فلكل أجل كتاب!!

ولما ولي عثمان رضي الله عنه الخلافة، كتب إليه معاوية يستأذنه في غزو البحر، وبعد أن لجّ معاوية لاستكمال الاستعدادات، وافق عثمان على طلبه، ولكنه اشترط عليه شروطاً، فكتب إليه: " لا تنتخب الناس ولا تقرع بينهم، خيّرهم، فمن اختار الغزو

طائعاً فاحمله وأعنه ".

وهذا الموقف يذكرنا بموقف عمر أيضاً، فما زال متحفظاً لحداثة تجربة المسلمين في البحر، لذلك: " فمن اختار الغزو فاحمله وأعنه ".

وبالفعل سار معاوية على شرط عثمان وانتهجه. لقد بنى أسطولاً بأيد وطنية عربية إسلامية، فكانت مراكبه نواة الاسطول الاسلامي الذي جعل البحر المتوسط – فيما بعد – بحيرة عربية إسلامية.

إستعمل معاوية على البحر عبد الله بن قيس الجاسي... فاستطاع فتح قبرص، وكان في هذا الجند: أبو ذر، عبادة بن الصامت وزوجته أم حرام وأبو الدرداء...

ولما فتحت قبرص، وتم الصلح، بكى أبو الدرداء فسأله جبير بن نفير: ما يبكيك في يوم أعز الله فيه الاسلام وأهله؟! قال جبير: فضرب منكبي بيده وقال: ما أهون الخلق على الله إذا تركوا أمره، بينما هي أمة ظاهرة قاهرة للناس لهم الملك، إذ تركوا أمر الله فصاروا إلى ما ترى.

وفي هذه الغزوة، ماتت أم حرام بنت ملحان زوج عبادة بن الصامت الأنصارية، ألقتها بغلتها فاندقت عنقها فماتت. وتحققت نبوءة رسول الله (ﷺ) حيث أخبرها أنها أول من يغزو في البحر من أمة الاسلام (كان اسمها الرميصاء والقميصاء).

استعدادات الطرفين:

إنطلق المسلمون أيام عمر الفاروق إلى شمال أفريقية، ففتحت برقة صلحاً سنة 21 هـ، ثم طرابلس الغرب عنوة سنة 22 هـ.

وسار نافع بن عبد القيس الفهري إلى بلاد النوبة. أما في عهد عثمان، بعد أن عزل عمرو بن العاص عن مصر، وولى عبد الله بن سعد بن أبي سرح سنة 27 هـ فكر عبد الله في غزو أفريقية جنوب ليبيا، فأذن له عثمان، بعد أن أرسل جيشاً من المدينة المنورة فيه أعيان الصحابة.

إنقطعت أخبار هذا الجيش عن عاصمة الخلافة، فأرسل عثمان، عبد الله بن الزبير إلى مواقع الجيش في جنوب صحراء ليبيا، فلم ترق له الخطة التي كان عليها ابن أبي سرح، فاستلم القيادة... وشرع تنفيذ خطة جديدة أنهت المعركة في يوم واحد فقط.

وعاد إلى المدينة المنورة يحمل أنباء النصر.

ثم غزا أبي سرح " النوبة " حتى وصل مدينة " دُنْقُلَة " وذلك عام 31 هـ فصالح أهلها ووقع معهم معاهدة. هذا... بالإضافة إلى أن معاوية سيطر على الشواطئ في بلاد الشام وآسيا الصغرى حتى جزيرة " رودس ".

مما سبق نرى أن الروم قد أصيبوا بضربة حاسمة في أفريقية، وأصيبوا في سواحلهم بعد سيطرة الأسطول الاسلامي على سواحل المتوسط من رودس حتى برقة، فجمع قسطنطين بن هرقل أسطولاً بناه الروم من قبل، فخرج بألف سفينة، لضرب المسلمين ضربة يثأر بها لخسارته المتوالية في البر، فأذن عثمان رضي الله عنه للمسلمين بالغزو في البحر. فأرسل معاوية مراكب الشام بقيادة بسْر بن أرطأة الفهري، واجتمع مع عبد الله بن سعد بن أبي سرح في مراكب مصر، وكانت كلها تحت إمرْته، ومجموعها: مائتا سفينة فقط.

سار هذا الركب، وفيه أشجع المجاهدين المسلمين ممن أبلوا في الحروب السابقة. لقد انتصر هؤلاء على الروم من قبل في معارك عديدة، فشوكة عدوهم في أنفسهم محطّمة، لا يخشونه ولا يهابونه، على الرغم من قلة عدد سفنهم إذا ما قيست بعدد سفن العدو. خرج المسلمون إلى البحر وفي أذهانهم: أننا سنجعل الروم اليوم يحسبون للقوة البحرية الاسلامية الفتيّة ألف حساب.

ويمكننا أن نلخص أسباب اللقاء البحري بما يلي:

1 – الضربات القوية التي وجهها المسلمون إلى الروم في أفريقية.

2 – أصيب الروم في سواحلهم الشرقية والجنوبية بعد أن سيطر المسلمون بأسطولهم عليها.

3 – خشية الروم من أن يقوى أسطول المسلمين فيفكروا في غزو القسطنطينية.

4 – أراد قسطنطين بن هرقل استرداد هيبة ملكه بعد الخسائر المتتالية براً وعلى شواطئه في بلاد الشام ومصر وساحل برقة.

5 – كما أراد الروم خوض معركة ظنوا أنها مضمونة النتائج، كي تبقى لهم السيطرة في المتوسط فيحافظوا على جزره، فينطلقوا منها للإغارة على شواطئ بلاد

العرب.

6 - محاولة استرجاع الإسكندرية بسبب مكانتها عند الروم، وقد ثبت تاريخياً مكاتبة سكانها لقسطنطين بن هرقل ملك الروم.

ما سبق كان سبب معركة " ذات الصواري ".

والسؤال الذي لم يجد المؤرخون له جواباً موحداً هو:

أين وقعت المعركة البحرية الشهيرة، التي كانت عام 31 هـ / 29 آب 655 م؟.

- المراجع العربية لم تحدد مكانها، باستثناء مرجع واحد على ما نعلم صرح بالمكان بدقة، وآخر قال: إتجه الروم إليه.

- في " فتح مصر وأخبارها "، ذكر الكتاب خطبة عبد الله بن سعد بن أبي سرح وقال: قد بلغني هرقل قد أقبل إليكم في ألف مركب... ولم يحدد مكان المعركة.

- " الطبري " في أخبار سنة 31 هـ، ربط حدوث ذات الصواري بما أصاب المسلمون من الروم في أفريقية، وقال: فخرجوا في جمع لم يجتمع للروم مثله قط...

- ولم يذكر " الكامل في التاريخ "، مكان الموقعة أيضاً. ولكنه ربط سبب وقوعها بما أحرزه المسلمون من نصر في أفريقية بالذات.

- وفي " البداية والنهاية ": " فلما أصاب عبد الله بن سعد بن أبي سرح مَنْ أصاب من الفرنج والبربر ببلاد أفريقية والأندلس، حميت الروم واجتمعت على قسطنطين بن هرقل، وساروا إلى المسلمين في جمع لهم لم ير مثله منذ كان الاسلام، خرجوا في خمسمائة مركب وقصدوا عبد الله بن سعد في أصحابه من المسلمين الذين ببلاد المغرب ".

- " تاريخ الأمم الاسلامية " لم يذكر مكان الموقعة أيضاً...

ويربط من يقول أن المعركة وقعت على سواحل آسية الصغرى قرب رودس، بين فتح قبرص وبين ذات الصواري، ويذكر: أن ذات الصواري وقعت على شاطئ تركيا الجنوبية حالياً، بعد فتح قبرص مباشرة.

وهذا الكلام مرفوض قطعاً... فلا علاقة تاريخية بين فتح قبرص الذي كان على التوالي عام 27 و 28 و 29 للهجرة... بينما ذات الصواري كانت عام 31 هـ في رواية،

وفي رواية أخرى عام 34 هـ.

إذن... لا دليل لمن يقول إن المعركة حدثت على شواطئ آسية الصغرى الجنوبية... ونحن نرجح أن المعركة كانت على شواطئ الاسكندرية وذلك للأسباب التالية:

1 – كتاب " النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة " يذكر صراحة: " غزوة ذات الصواري في البحر من ناحية الاسكندرية ".

2 – تاريخ ابن خلدون يذكر: " ثم بعث – ابن أبي سرح – السرايا ودوّخ البلاد فأطاعوا وعاد إلى مصر، ولما أصاب ابن أبي سرح أفريقية ما أصاب، ورجع إلى مصر خرج قسطنطين بن هرقل غازياً إلى الاسكندرية في ستمائة مركب ".

3 – ربطت المراجع العربية التي لم تحدد موقع المعركة، بين حدوث المعركة وبين ما خسره الروم في شمال افريقية بالذات.

4 – الأسطول الرومي صاحب ماضٍ عريق، فهو سيّد المتوسط قبل ذات الصواري، فهو أجرأ على مهاجمة السواحل الاسلامية العربية. علماً... أن إغارة الأسطول الرومي على سواحلنا لمّحت له وذكرته صراحة مراجعنا العربية. لذلك نرجح مجيء الأسطول الرومي إلى شواطئ الاسكندرية لاستعادتها بسبب مكانتها عند الروم ومكاتبة أهلها لملكهم السابق. وهو بذلك يقضي أيضاً على الأسطول الفتيّ في مهده، الذي شرع العرب في بنائه بمصر. فتبقى للروم السيطرة والسطوة في مياه المتوسط وجزره.

5 – من يذكر أن ذات الصواري في آسية الصغرى، يربط ذلك بفتح قبرص، فهو بذلك يخلط بين حادثتين بينهما على الأقل ثلاث سنوات.

6 – المراجع الأجنبية تعرف ذات الصواري بموقعه " فونيكة "، وفونيكة هو ثغر يقع غرب مدينة الاسكندرية، بالقرب من مدينة مرسي مطروح، فهي تحدد الموقع تماماً.

أحداث المعركة:

قال مالك بن أوس بن الحدثان: " كنت معهم – في ذات الصواري – فالتقينا في البحر، فنظرنا إلى مراكب ما رأينا مثلها قط، وكانت الريح علينا – أي لصالح مراكب الروم – فأرسينا ساعة، وأرسوا قريباً منا. وسكنت الريح عنا قلنا – الروم – الامن بيننا وبينكم – قالوا: ذلك لكم، ولنا منكم ".

كما طلب المسلمون من الروم: إن أحببتم ننزل إلى الساحل فنقتتل، حتى يُكتب لأحدنا النصر، وإن شئتم فالبحر.

قال مالك بن أوس: فنخروا نخرة واحدة، وقالوا: الماء... الماء... الماء. وهذا يظهر لنا ثقة الروم بخبرتهم البحرية، وأملهم بالنصر لممارستهم أحواله وفنونه... مرنوا عليه فأحكموا الدراية بثقافته وأنوائه، فطمعوا بالنصر فيه، خصوصاً وأنهم يعلمون حداثة عهد المسلمين به. بات الفريقان تلك الليلة في عرض البحر، وموقف المسلمين حرج، فقال القائد المسلم لصحبه: " أشيروا عليّ "؟!؟.

فقالوا: انتظر الليلة بنا، لنرتب أمرنا، ونختبر عدوّنا، فبات المسلمون يصلون ويدعون الله عز وجل ويذكرونه، ويتهجدون، فكان لهم دويّ كدويّ النحل، على نغمات تلاطم الأمواج بالمراكب، أما الروم فباتوا يضربون النواقيس في سفنهم.

لقد بات كل منهما يهيء نفسه روحياً، فجميع الشعوب قديماً وحديثاً تركز على الاعداد الروحي قبل المعركة، وأفضلها أثراً في النفوس، سيكون لأصحابها النصر...

أصبح القوم، وأراد قسطنطين أن يسرع في القتال، ولكن عبد الله بن سعد، لما فرغ من صلاته إماماً بالمسلمين للصبح، استشار رجال الرأي والمشورة عنده، فاتفق معهم على خطة رائعة:

– يمكننا أن نجعل المعركة برية على الرغم من أننا في عرض البحر، فكيف تم للمسلمين ذلك؟ أمر عبد الله جنده أن يقتربوا من سفن أعدائهم فاقتربوا حتى لامست سفنهم سفن عدوهم، فنزل الفدائيون، أو " رجال الضفادع البشرية في عرفنا الحالي " إلى الماء، وربطوا السفن العربية بالسفن الرومية، ربطوها بحبال متينة، فصار 1200 سفينة في عرض البحر، كل عشرة أو عشرون منها متصلة مع بعضها، فكأنها قطعة أرض ستجري عليها المعركة.

وصفّ عبد الله المسلمين على نواحي السفن يعظهم ويأمرهم بتلاوة القرآن الكريم، خصوصاً سورة الأنفال لما فيها من معاني الوحدة والثبات والصبر...

﴿ وأطيعوا الله ورسوله، ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم، واصبروا إن الله مع الصابرين ﴾... (سورة الأنفال، الآية 46). إن معاني هذه السورة الكريمة لهي من

المعاني المناسبة للموقف المناسب.

بدأ الروم القتال، فهم في رأيهم قد ضمنوا النصر عندما قالوا: بل الماء... الماء... الماء... وانقضوا على سفن المسلمين بدافع الأمل بالنصر، مستهدفين ضربة أولى حاسمة يحطمون بها شوكة الأسطول الاسلامي، فنقض الروم صفوف المسلمين المحاذية لسفنهم، وصار القتال كيفما اتفق وكان قاسياً على الطرفين، وسالت الدماء غزيرة، فاصطبغت بها صفحة الماء. فصار أحمر. وترامت الجثث في الماء وتساقطت فيه، وضربت الأمواج السفن حتى ألجأتها إلى الساحل، وقتل من المسلمين الكثير وقتل من الروم ما لا يحصى. حتى وصف المؤرخ البيزنطي " تيوفانس " هذه المعركة بأنها كانت " يرموكا " ثانياً على الروم. ووصفها " الطبري " بقوله: إن الدم كان غالباً على الماء في هذه المعركة.

حاول الروم أن يغرقوا سفينة القائد المسلم عبد الله، كي يبقى جند العرب المسلمين دون قائد، فتقدمت من سفينته سفينه رومية ألقت إلى سفينة عبد الله السلاسل لتسحبها، وتنفرد بها، ولكن علقمة بن يزيد الغطيفي أنقذ السفينة والقائد، بأن ألقى نفسه على السلاسل وقطعها بسيفه.

وصمد المسلمون رغم كل شيء، وصبروا كعادتهم في معاركهم، فكتب الله عز وجل لهم النصر بما صبروا، واندحر ما تبقى من الأسطول الرومي وكاد الإمبراطور قسطنطين أن يقع أسيراً في يد المسلمين، كما ذكر ابن عبد الحكم، لكنه تمكن من الفرار لما رأى قواه تنهار، وجثث جنده على سطح الماء تلقي بها الأمواج إلى الساحل.

لقد رأى أسطوله الذي تأمل منه خيراً ونصراً وإعادة كرامة، يغرق قطعة بعد أخرى، ففرّ مدبراً والجراحات في جسمه، والحسرة تأكل فؤاده، يجر خيبة وفشلاً... فوصل جزيرة صقلية... ألقت به الريح هناك... فسأله أهلها عن أمره، فأخبرهم، فقالوا: " شمت النصرانيّة، وأفنيت رجالها، لو دخل العرب لم نجد من يردّهم " فقتلوه، وخلوا من كان معه في المركب...

نتائج ذات الصواري:

1 – كانت ذات الصواري أول معركة حاسمة في البحر خاضها المسلمون، أظهر فيها الأسطول الفتيّ الصبر والإيمان، والجلد والفكر السليم، بما تفتق عنه الذهن الاسلامي.

خطة جعلت المعركة صعبة على أعدائهم، فاستحال عليهم اختراق صفوف المسلمين بسهولة، كما استخدم المسلمون خطاطيف طويلة يجرون بها صواري وشرع سفن الأعداء، الأمر الذي انتهى بكارثة بالنسبة للروم.

2 – كانت ذات الصواري حداً فاصلاً في سياسة الروم إزاء العرب المسلمين، فأدركوا فشل خططهم في استرداد هيبتهم، أو استرجاع مصر أو الشام. وانطلق المسلمون في عرض هذا البحر، الذي كان بحيرة رومية، وانتهى اسم " بحر الروم " إلى الأبد واستطاع العرب المسلمون فتح قبرص وكريت وكورسيكا وسردينيا وصقلية وجزر الباليار، ووصلوا إلى جنوة ومرسيليا.

3 – قتل قسطنطين، فتولى ابنه قسطنطين الرابع من بعده، وكان حدثاً صغير السن، مما جعل الظروف مؤاتيه لقيام حملة بحرية وبرية إسلامية تستهدف عاصمة الروم " القسطنطينية " وهذا ما تمّ بالفعل عام 669 للميلاد.

4 – كان في جند المسلمين بعض الذين غررت بهم أفكار وسموم عبد الله بن سبأ اليهودي، ومع كونهم إثنين فقط، شكلوا " طابوراً خامساً " تنبه له المسلمون، خصوصاً عندما حاولوا بذر سمومهم فقالوا: كيف يولي عثمان عبد الله بن سعد بن أبي سرح، وفي الجند من هو أفضل منه؟ و... و... فعثمان غير محق في ذلك، فقال عبد الله بن سعد: لا يركبوا معنا، وبالفعل ركبوا بسفينة وحدهم، ولما لقوا الأعداء كانوا أقل المسلمين نكاية وقتالاً.

وهناك كلمة:

إن عثمان في تولية عبد الله بن سعد بن أبي سرح محقّ ولا شائبة على عمله هذا. صحيح أن عبد الله قد ارتد قبل الفتح، ولكن كتب التاريخ تذكر أنه " أسلم يوم الفتح فحسن إسلامه، ولم يظهر منه بعد ذلك ما يُنكر عليه، وهو أحد العقلاء والكرماء من قريش ".

ثم إنه لم يولّ بعد إسلامه بيوم أو بعام أو بعامين، إنه أسلم عام 8 هـ، فخبر الجميع ندمه، وحسن إسلامه وصلاحه، فتولى أمر مصر عام 25 هـ، أي بعد خُبْرة وتجربة 17 عاماً.

أما مقومات القيادة فيه: فهو فارس بني عامر بن لؤي، وكان على ميمنة عمرو بن العاص عندما فتح مصر، وفي حروبه كلها. ودليل توبته الصادقة، وندمه وأسفه، ودليل صلاحه: دعاؤه في آخر حياته: " اللهم اجعل خاتمة عملي الصلاة "، فصلىّ الصبح ثم توفي.

وهو لا يطمع بخلافة، ولا يرى لنفسه حقاً بها لما شاب حياته يوماً... وتحققت فراسة عثمان به، لقد أحرز نصراً، وقاد الجند بحكمة.

ولا يعيب على عثمان توليته قريباً له ما دامت أهليته للقيادة متوفرة فيه، فلا تمنع القرابة حق القيادة لمن هو أهل لها... خصوصاً إن أثبتت الأحداث أهليته لها.

5 – الإعداد الروحي قبل المعركة، أو ما يسمى بالتوجيه المعنوي في أيامنا هذه، له قيمته في تحقيق النصر، حيث تتجه الروح إلى الله بصدق، فهذا المؤمن الذي بات ليله في تهجّد وتذكرّ، يستمد العون من الله، من عظمته وعزته... بعد أن هيأ الأسباب... يلقى الأعداء بروح عالية لا يهاب الموت، فالله أكبر من كل شيء.

هذه المعارك التي نصف أحداثها التاريخية، هي وصفة طبية نعرضها للتطبيق والنهج، فإذا قلنا في الأجداد بطولة، وأمجاد وعظمة، وعلم وتخطيط وإيمان ومحبة، وتحرير وإنسانية... واكتفينا بالوصف، فكأننا نقول:

هذه شمعة جميلة حلوة، غالية الثمن، مفيدة، تشع نوراً عند إيقادها... ولكن سمعنا الوصف ولم نوقدها لنستمتع بإنارتها، لنستفيد من ضيائها، خصوصاً والظلام محيط بنا... وحياة الصحابة ما هي إلا للقدوة، وسيرة للاتباع... وإلا فما فائدة العرض التاريخي هذا؟!؟.

الصحابة حققوا بتربية رسول الله (ﷺ) ما حققوا، وما أحوجنا اليوم إلى تلك الروح التي بثّها الرسول الكريم.

وهكذا في معركة ذات الصواري فقد:

1 – بني الأسطول العربي بأيدٍ عربية وطنية اسلامية.

2 – لم يأذن عمر للمسلمين بالغزو بالبحر شفقة عليهم وخشية على أرواحهم قبل استكمال بناء الأسطول.

3 – سبب المعركة انكسارات الروم المتتالية في البر، فأرادوا تحطيم الأسطول

الاسلامي الفتيّ في مهده.

4 – هرب قسطنطين من المعركة، تاركاً جنده للأقدار. هل هناك قائد عربي مسلم يترك جنده ليفرّ ناجياً بنفسه؟.

أين موقف قسطنطين هذا من موقف الأمير الفارس النعمان بن مقرن المزني؟ أما تمنى أن يكون أول شهيد في المعركة؟

أين هذا الموقف من موقف خالد بن الوليد في اليرموك عندما كان يرى الموقف الحرج فيدفع نفسه إليه ليدرأ هذا الخطر عن جنده.

هذه الانهزامية التي أظهرها قسطنطين ما عرفها تاريخ الاسلام، وقد عرفها التاريخ الأوروبي الحديث من نابليون عندما ترك جنده للطاعون، وللسفن الانكليزية تلعب بهم، وهرب إلى فرنسا بعد أن تحطمت آماله على أسوار عكا. هذه النفسية ما عرفها قادة الاسلام في فتوحاتهم بفضل التربية النضالية التي ربّى عليها رسول الله (ﷺ) صحبه.

5 – أصبح البحر المتوسط بحيرة عربية إسلامية، وصار الأسطول الاسلامي سيد مياه البحر المتوسط، وهذه السطوة ليست للتسلط والقرصنة بل للتحرير ليس غير، فأينما حلوا حلّ العلم والخير والرفاهية والعدالة الانسانية. وستشهد بذلك الأندلس وصقلية وجنوب فرنسا...

6 – عكف المسلمون على دراسة علوم البحرية، وصناعة السفن، وكيفية تسليحها، وأسلوب القتال من فوقها، وعلوم الفلك المتصلة بتسييرها في البحار ومعرفة موٌاقعهم على المصورات البحرية المختلفة، فعرفوا الاصطرلاب " البوصلة الفلكية "، وطوروها إلى المدى الذي استفاد منه بعد ذلك البحارة الغربيون أمثال: كريستوفر كولومبس، وأمريكو فيسبوشي في اكتشافاتهم.

وهكذا، انهت معركة " ذات الصواري " عصر السيادة البيزنطية في شرق البحر الأبيض المتوسط، فاطمأن المسلمون الى ان هجمات البيزنطيين المفاجئة على شواطئهم أصبحت بعيدة الاحتمال، فتمتعوا بالأمان والهدوء على طول الساحل الاسلامي، بعد أن أصبح الطريق نحو القسطنطينية ممهداً أمام القوات الاسلامية لتواصل زحفها نحو عاصمة الدولة البيزنطية.

المراجع

1- شوقي أبو خليل " ذات الصواري ". دار الفكر. دمشق 1986. ص 51 - 76 (يعتبر مرجعاً مهماً في هذا الموضوع).

2 - ابن عبد الحكم " فتوح مصر وأخبارها " طبعة ليدن. 1920. ص 190. (وقد أعادت تصويره مطبعة المثنّى في بغداد).

3 - أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي " النجوم الزاهرة "... الجزء الأول. مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة. الطبعة الأولى 1929. ص 80.

4 - ابن الأثير " الكامل في التاريخ ". الجزء الثاني. ص 249 - 252. الجزء الثالث. مطبعة البابي الحلبي. القاهرة. ص 45 - 46 و 58.

5 - ابن خلدون " تاريخ ابن خلدون " المجلد الثاني. الجزء الأول. ص 130.

6 - الموسوعة العسكرية باشراف المقدم الهيثم الأيوبي. الجزء الثاني. المؤسسة العربية للدراسات والنشر. بيروت. الطبعة الأولى 1979. ص 746.

7 - الموسوعة الفلسطينية باشراف د. انيس صايغ. الجزء الرابع. دمشق. الطبعة الأولى 1984. ص 238.

8 - صابر دياب " دراسات في التاريخ الاسلامي ". القاهرة 1977. ص 30.

9 - أنيس الأبيض في مقال له بجريدة " الحياة ". العدد 10853. تاريخ 17 تشرين أول / اكتوبر 1992 (حول معركة ذات الصواري).

معركة ذي قار

" النصر " كلمة صغيرة في موسوعة القتال والحروب، لكن حلاوتها في الحقيقة أكبر من كل الموسوعات والقواميس. وليس " النصر " الذي أحرزه العرب من قبيلة بني بكر ضد الفرس وحلفائهم في معركة " ذي قار "، إلا من هذا القبيل.

جرت معركة " ذي قار " قبل الفتح الاسلامي في المكان الذي سمّيت هذه المعركة باسمه، وهو عبارة عن ماء لبكر قريب من " الكوفة ". وكانت الحيرة في النصف الثاني من القرن السابع الميلادي تتمتع بنوعٍ من الحكم الذاتي أو " الاستقلال الذاتي "، حيث كان يحكمها ملك عربي خاضع لملك الفرس. وعند وفاة المنذر ملك الحيرة سنة 592 تولى الحكم ابنه النعمان. وكان عُدَيٌّ بن زيد، من أعيان الحيرة، مقرّباً لدى كسرى ومسموعاً منه، فأوقع به النعمان وقتله.

وكان لعُدَيّ ولد اسمه زيد، فلما شبّ احتل مقام والده عُدَيّ في إيوان كسرى وكان لا يزال يضمر للنعمان، قاتل والده، ضغينة. وكان عند ملوك الأعاجم عادة أنهم يطلبون المرأة وفق صفات مكتوبة عندهم، فيبحثون عنها في ملكهم حتى إذا وجدها عمالهم أرسلوها إليهم فتدخل في عداد جواريهم، ولم يكونوا يطلبون هذه المرأة عند العرب، فأغرى زيد بن عُدَيّ كسرى ان المرأة التي يريدها وتوافق ما يرغب من صفات موجودة في بلاط النعمان، وأوفد كسرى زيداً مع رسول آخر من عنده الى النعمان يطلبها، فردّ النعمان الرسولين خائبين.

وضغن كسرى على النعمان فطلبه إليه، وما إن وصل الى باب قصره حتى اعتقله وزجّه في السجن إلى أن مات، وكان النعمان قد أحسّ بنوايا كسرى نحوه فأمّن هاني بن مسعود من بني بكر على أهله وولده وأملاكه وأمواله، ورحل الى كسرى بعد أن أخذ من هاني عهداً ان لا يفرط بالأمانة. ولما قتل كسرى النعمان استعمل على الحيرة " أياس بن قبيصة الطائي "، وأمره أن يجمع كل ما خلفه النعمان ويرسله إليه. وأرسل أياس الى هاني يطلب منه تركة النعمان من عيال ومتاع، فأبى هاني تسليمها وفاء بالأمانة والعهد، بل أنكر

وجودها عنده، وقال لأياس: " أما أنا رجل استودع أمانـة فهـو حقيـق أن يردّهـا علـى مـن أودعه إياها، ولن يسلّم الحرُّ أمانة. وأما أنـا رجـل مكـذوب عليـه، فليـس ينبغـي أن تـأخذه بقول عدو أو حاسد ".

وغضب كسرى لردّ هاني، وتهيأ لقتاله، وأمر حلفاءه من العرب بالتهيؤ لذلـك، ثـم عقد النعمان بن زرعة التغلبي على قبيلتي تغلب والنمـر بـن قاسـط، وعقـد لخـالد بـن زيـد البهراني على قبيلتي قضاعـة وايـاد، وعقـد لأيـاس بـن قبيصـة الطـائي ملـك الحيرة علـى أشتات العرب بالإضافة إلى كتيبتي الشهباء والدوسر (وهما كتيبتان حربيّتان جرت العـادة ان يضعهما ملك فارس بتصرف ملك الحيرة، وكان رجـال الشـهباء مـن الفرس، ورجـال دوسر من عـرب تنوخ)، وعقد للهامرز (وهو أحد قادة كسرى) على ألف من الأسـاورة (أي الفرسان)، وعقد لخنابزين (وهـو قـائد آخـر مـن قـواده) علـى ألـف. وبعـث معهـم باللطيمة، وهي القافلة التجارية الكبرى التي كـانت تخـرج مـن العـراق فيهـا الـبز والعطـر والألطاف فتخفرها القبائل العربية وتجيرها حتى تبلغ اليمن، وأمر على اللطيمة عمرو بـن عدي العبادي.

وبلغ الجيش الذي أعدّه كسرى لقتال بني بكر خمسة آلاف مقاتل: ثلاثـة آلاف مـن العرب، وألفان من الفرس. وعهد كسرى إلى قـادة هـذه الجيـوش، اذا شـارفوا منـازل بنـي بكر، أن يبعثوا إليها النعمان بن زرعة يخيّرها بين ثلاث: اما الاستسلام علـى حكـم الملـك بما يشاء، واما النزوح عن الديار الـى الصحـارى القاحلـة، وامـا الحـرب الطاحنـة. وكـان كسرى قبل زمن قد أوقع ببني تميم يوم الصفقـة فقتـل منهـم خلقـاً كثيراً بحيلـة لا بمنـابذة، فالعرب لذلك بين حاقد واتر، أو خائف وجل.

ولما شارفت جيوش كسرى منازل بين بكـر وهـم ينزلون علـى مـائهم بـذي قـار، جاءهم النعمان بن زرعة يخيّرهم بين الخصال الثلاث التي أملاها كسرى. فنزل عنـد ابـن اخته مُرَّة بن عمرو، واجتمع اليه رهط من عقلائهم فخطبهم قـائلاً: " إنكـم أخوالـي وأحـد طرفي، وان الرائد لا يكذب أهلـه، وقـد أتـاكم مـا لا قبـل بـه مـن أحـرار فـارس وفرسـان العرب، والكتيبتان: الشهباء والدوسر، وان فـي الشـر خيـاراً، ولأن يفتـدي بعضكـم بعضـاً خير من أن تصطلموا (أي تبادوا جميعاً). انظروا هذه الحلقة (أي السلاح الـذي أودعـه

عند هاني بن مسعود) فادفعوها، وادفعوا رهناً من ابنائكم بما أحدث سفهاؤكم ". فأجابوه: أمهلنا ننظر في أمرنا.

وتنادى سادات قبائل بكر بن وائل، فعقدوا مؤتمراً في بطحاء " ذي قار "، فلما حضر حنظلة بن ثعلبة بن سيار العجلي، قالوا له: " يا أبا معدان قد طال انتظارنا إياك وكرهنا أن نقطع أمراً دونك. وهذا ابن اختك قد جاءنا محذراً، والرائد لا يكذب أهله، وهو يخيّرنا احدى ثلاث خصال، وذكرها له. فقال حنظلة: " قبح إن هذا رأياً!!! لا تجر أحرار فارس أرجلها ببطحاء ذي قار وأنا أسمع هذا الصوت، لا أرى غير القتال. فانا ان ركبنا الفلاة متنا عطشاً، وان اعطينا بايدينا تقتل مقاتلتنا وتسبى ذرارينا ". والتفت إلى هاني بن مسعود فقال له: " يا أبا أمامة ان ذمتكم ذمتنا عامة، وانه لن يوصل إليك حتى تفنى أرواحنا، فاخرج هذه الحلقة (أي وديعة النعمان من السلاح) ففرّقها بين قومك. فان تظفر ترد عليك، وان تهلك فأهون مفقود ". والتفت إلى النعمان بن زرعة (رسول كسرى) فقال له: لولا أنك رسول لما أبت إلى قومك سالماً. فرجع النعمان إلى أصحابه بما سمع ورأى. وبات الفريقان يتأهبان للقتال.

وهكذا تقابل الجيشان. فكان بنو عجل، وعليهم حنظلة بن ثعلبة، في الميمنة بازاء كتيبة خنابزين، وكان بنو شيبان، وعليهم بكر بن يزيد بن مسهر، في الميسرة بازاء كتيبة الهامرز، وكانت بقية جموع بكر في القلب، وعليهم هاني بن مسعود.

وعمد حنظلة بن ثعلبة إلى وضين (أي حزام) راحلة امرأته فقطعه، وتتبع الظعن يقطع وضن رواحلهن، فأنزلت الهوادج إلى الأرض وفيها حرائر النساء. فقال حنظلة لقومه: " والآن، ليقاتل كل منكم عن حليلته ". وضرب قبّة على نفسه وآلى ان لا يفرّ حتى تفر القبّة. وعمد سبعمائة فارس من بني شيبان الى اكمام أقبيتهم فقطعوها من المناكب لتخف أيديهم لضرب السيوف.

وتتابع الخطباء من رؤساء القبائل يحضّون الرجال بِجُمَلٍ ناريّة مقتضبة، على الإقدام والصبر في لقاء العدو. فقال هاني بن مسعود: " يا قوم، مهلك مقدور خير من نجاء معرور، وان الحذر لا يدفع القدر، وان الصبر من أسباب الظفر. والمنيّة ولا الدنيّة، واستقبال الموت خير من استدباره، والطعن في الصدور أكرم من الطعن في الظهور. يا

قـوم! جدّوا فمـا مـن الموت بدّ، فتح لو كان له رجال. يـا آل بكـر!!! شـدّوا واستعدوا، والا تشدّوا تردّوا ".

وقال شريك بن عمرو بن شراحيل: " يا قوم: انما تهابونهم انكم ترونهم عند الحفاظ أكثر منكم، وكذلك أنتم في أعينهم. فعليكم بالصبر، فان الأسنّة تردي الأعنّة. يا آل بكر قدماً قدماً "...

وبدأت المعركة كالمعتاد بالمبارزة. وخرج فارس من الأعاجم، في أذنيه درّتان، من كتيبة الهامرز، يتحدّى العرب للبراز، حتى إذا دنا من بني بكر، برز اليه يزيد بن حارثة، فشدّ عليه بالرمح وطعنه فدقّ صلبه، وأخذ حليته وسلاحه.

وخرج الهامرز، وهو القائد الأعلى للكتيبة الأعجمية، وقد جنّ جنونه لمقتل فارسه، فتلقاه الحارث بن شريك، البطل العربي المعروف بلقب " الحوفزان "، فجالا وتصادما أشد ما يكون التصادم والقراع، ثم انكشف النقع عن الهامرز يخبط بدمائه، و " الحوفزان " يعود بحليته وسلاحه.

وأغارت جيوش الأعاجم بقضّها وقضيضها لتثأر لقائدها من قاتليهم من العرب، فتلقتهم جموع بني بكر، بطعن يدق الصدور، وضرب يفلق الهامات. وأبلى كل من الفريقين أشد بلاء. غير أن الرماة من الأعاجم، المتحصنين بظهور الفيلة، كانوا ينالون بسهامهم من العرب، ولا تطالهم سيوف العرب ولا الرماح.

وكانت نساء العرب من وراء الفرسان، يحرّضنهم فيزدن من حماسهم والعربي لا يستثيره شيء كالحفاظ على عرضه وذمته. وافترق الجيشان مساء ذلك اليوم، والعرب فخورون بجراحهم، حانقون على رماة العجم، والفرس مقهورون على قتلاهم وخصوصاً أبرز قادتهم وفرسانهم، آملون كسب المعركة بكثرة العدّة والعدد، وبامتناع الرماة من سيوف العرب ورماحها.

ولما خلا كلٌّ من جماعات الجيشين إلى نفسه وأهله، وعشيرته يتحادثون بما لقوا في يومهم ذلك من الأهوال، تحركت الحميّة العربية في قلوب بعض الأحرار من قادة العرب في جيوش الأعاجم، وتهامس تحت ستار الظلام فرسان إياد يتباهون بشجاعة أبناء عمهم فرسان بكر بن وائل ويتبادلون إحساس الخوف من أن تبيدهم الأعاجم بكثرتها

ومددها وخرق رماتها بالسهام وحصانة أفيالها المدرّبة على القتال. وائتمر هؤلاء الأحرار فيما بينهم فقرّ رأيهم على مراسلة اخوانهم من بكر يعرضون عليهم المعونة، وقال رسولهم: " يا آل بكر أيّما أحب إليكم: ان نطير تحت ليلتنا فنذهب؟ أم أن نقيم حتى تلاقوا الأعاجم غداً فنفرّ؟. فأجاب أهل الرأي من سادات بكر: " بل تقيمون، حتى اذا ما التقى الناس وحمي الوطيس، انهزمتم بهم ". واجتمع القادة العرب من سادات بكر لوضع الخطة للمعركة الفاصلة، وتدارسوا وجوه الأمر. وبعد عرض مختلف الآراء، قرّ أمرهم على إنفاذ خطة عرضها يزيد بن حماد السكوني، حليف بني شيبان، وملخصها: أن يجعلوا كميناً بقيادة يزيد نفسه في مكان يسمىّ " الخبيء "، حتى اذا ما التقى الجيشان وانهزمت جموع إياد عن جيش الأعاجم، يخرج زيد من " الخبيء " بكمينه، ويركّزون هجومهم على قلب الجيش الأعجمي من الخلف، فيعتبرهم العدو مدداً عربياً جديداً فتتخلع أفئدة فرسانه ويولون الأدبار طالبين النجاة.

ولما أصبح الجيشان متقابلين، لم يبدأ الفرس بالمبارزة خوفاً على أفيالهم من شجاعة الفارس العربي وتفوّقه في القتال الفردي بل أطبقوا بهجوم شامل، وحملت ميسرة بكر برئاسة حنظلة بن ثعلبة على ميمنة العجم، وحملت ميمنة بكر بقيادة يزيد بن مسهر على ميسرة الأعداء. وهجمت الجموع العربية في القلب بقيادة هاني بن مسعود على قلب الجيش الفارسي. وتعالت الأصوات العربية تنادي بالصبر. وما هي إلا جولة إثر جولة حتى نفذت اياد في جيش الفرس ما وعدت به اخوانها العرب، فولّت منهزمة، فتضعضعت صفوف الأعاجم، وخرج الكمين العربي من الخبيء بقيادة بن حماد السكوني، وأعملوا سيوفهم في قلب الجيش الفارسي من ورائه، فطاشت أحلام العجم، ووجدوا أنفسهم بين فكّي الأسد، فتسابقوا في الهزيمة كل يطلب النجاة، وتبعتهم بكر وأحلافها من العرب تقتل فيهم طيلة النهار والليل الذي يليه، فلما أصبح العرب كانوا قد دخلوا وراء العجم في السواد، والفرس فلول مبعثرة تتخطفها العقبان العربية من كل فجّ وصوب.

وطبيعي ان يكون وقع النبأ على كسرى مؤثراً. خاصة وهو الذي اعتاد ان لا يأتيه أحد بنبأ هزيمة جيشه إلا نزع كتفيه. وكان أول من وصل إليه في المدائن أياساً بن قبيصة الطائي. فلما سأله الخبر أجابه: أبشر أيها الملك فقد هزمنا بكراً وجئناك بنسائهم من

نساء النعمان سبايا. فسرّ كسرى وأمر له بخلعة سنّية. ثم ما لبث أن استأذنه أياس زاعماً أن أخاه قيساً بن قبيصة مريض بعين التمر، وانه يبغي عيادته. وأذن له كسرى فركب فرسه ونجا بنفسه. ثم جاء الى كسرى رجل من أهل الحيرة وسأل: هل دخل على الملك أحد؟ فقيل له نعم، دخل أياس، فقال في نفسه: ثكلت أياساً أمه ونجوت دونه. ودخل على كسرى يفصّل له نبأ الهزيمة ومقتل الأعاجم. فاسودت الدنيا في وجه العاهل الفارسي وأمر به فنزعت كتفاه.

وتلقى العرب في مختلف أقطارهم وقبائلهم نبأ النصر في " ذي قار " بفرح شامل وسرور عميق. ورفعوا رؤوسهم فخراً واعتزازا. وذاقوا لأول مرة ثمرة التعاون وتمتعوا بنعمة العزّة في وحدة الصفوف، وتأكدوا من قوتهم التي لا تغلب في توحيد اتجاهاتهم واجتماع كلمتهم وتناسي أحقادهم.

وتناقل رواة العرب ومؤرخوهم ذكر هذا النصر يعطّرون به المجالس وينقله السلف منهم إلى الخلف، حتى إذا جمع الله كلمة العرب تحت راية الاسلام، والتقت جيوشهم في القادسيّة بجيوش الفرس، كان لهم النصر النهائي أيضاً بقيادة سعد بن أبي وقّاص.

وكان انتصار العرب في معركة " ذي قار " مفخرة لهم على مرّ التاريخ. وقال فيه محمد عليه السلام " هذا اليوم انتصفت فيه العرب من العجم وبي نصروا ". ذلك ان النبي العربي بعث في عام ذي قار.

كما قال المؤرخ " سايكس " مؤلف تاريخ فارس في صدد هذه المعركة: " مما لا ريب فيه ان اندحار الفرس في هذه المعركة سهّل سبل الفتح على المجاهدين في الاسلام ".

والواقع ان الشعراء خلدوا بدورهم معركة " ذي قار " وأكثروا من نظم القصائد العصماء فيها والتفنّن في ذكر البطولات فيها أيضاً. وليس أدلّ على ذلك من قصيدة الأعشى التي نجتزئ بعض أبياتها التي تمجّد هذه المعركة بقوله:

وجُنْدُ كسرى غداة الحِنْوِ صبحهم ... منا غطاريف ترجو الموت وانصرفوا

لما أمالوا إلى النشّاب أيديهم ... ملْنا ببيضٍ فظل الهام يقتطف

لما رأونا كشفنا عن جماجمنا ليعلموا أننا بَكْرٌ فينصرفوا
قالوا: البقية!!، والهندي يحصدهم ولا بقية إلا السيف فانكشفوا.

المراجع

1 – عبد الرحمن خير " معركة ذي قار " مقال في " المجلة العسكرية " (قومية ثقافية كانت تصدر شهرياً عن قيادة الجيش الأول في سوريا). العدد الخامس. السنة الحادية عشرة. شهر كانون الأول 1960.

2 – العقيد محمود الدرّة " معارك العرب الكبرى ". منشورات الفاخرية – الرياض، ودار الكاتب العربي – بيروت. د.ت. ص 40، 51، 290، 294، 305...

3 – الموسوعة العسكرية " الجزء الثاني " باشراف المقدم الهيثم الأيوبي. المؤسسة العربية للدراسات والنشر. بيروت. الطبعة الأولى 1979. ص 748 – 749.

4 – تاريخ الطبري. الجزء الثاني. ص 148.

5 – تاريخ ابن الأثير. الجزء الأول. ص 289.

6 – ابو الفرج الأصفهاني " الأغاني " الجزء العشرون. طبعة دار الكتب بمصر. ص 132.

7 – ياقوت الحموي " معجم البلدان ". الجزء الثالث. ص 352.

8 – محمد احمد جاد المولى بك وعلي محمد البجّاوي ومحمد أبو الفضل ابراهيم " أيام العرب في الجاهلية ". المكتبة العصرية – صيدا – بيروت 1961. ص 6 – 39.

حرفا " الراء " و " الزين "

(ر) و (ز)

1 – رأس العين

2 – رامات هاكو فيتش

3 – الرحيبة

4 – رشيد

5 – الزاب

6 – زامورا

7 – زاوية المحجوب والعوكلي

8 – الزرّاعة

9 – زرعين

10 – الزلّاج

11 – الزلاّقة

معركـة رأس العين

تبعد رأس العين عن مدينـة القدس 37 ميـلاً إلـى الشمال الغربـي وماؤهـا عـذب غزير، تشرب منه الأحياء اليهودية في غربي مدينة القدس.

وفي 8 / 3 / 1948 تمركز في قطـاع رأس العيـن حوالـي خمسمائة مقـاتل مـن جيش الإنقاذ، معظمهم عراقيون وسيطروا على مياه رأس العيـن. ولـم يقطعـوا المـاء عـن القدس في بادئ الأمر كي لا يتضرر العرب القـاطنون فـي الأحيـاء الغربيـة اليهوديـة. إلا أنهم طردوا جميع الموظفين الصهيونيين من مؤسسة المياه واستبدلوا بهم موظفين عربا.

عندما سقطت " دير ياسين " و " القسطل " بيد الصهيونيين فـي أوائـل نيسـان سـنة 1948 قرّر المناضلون نسف الأنابيب التي توصل مياه رأس العين إلـى الأحيـاء اليهوديـة الكائنة غربي مدينة القدس. وقد قام المناضلون من جيش الجهاد المقدس ومتطوعي البادية في 10 نيسان بتدميرهـا عنـد بـاب الـواد. وتضـررت الأحيـاء اليهوديـة ودوائـر الحكومـة وقوات الجيش البريطاني في مدينة القدس، وراحت الهيئات الصـهيونيـة تـوزع المـاء علـى السكان اليهود من الآبار والصهاريج التي تتجمع فيها مياه الأمطار.

وبعد سقوط مدينة يافا في 17 / 5 / 1948، دمّر العرب أنابيب مياه رأس العيـن في أربعة مواضع خشية أن يصل اليهود إلى ذلك القطـاع وليستولوا على رأس النبـع. ولـم يؤثر انقطاع مياه رأس العين على الأحياء العربية في القدس لأنها كـانت تـتزود مـن ميـاه عين قارة.

واستمرت محـاولات الصـهيونيين للاسـتيلاء علـى رأس العيـن مذ وضـع العـرب أيديهم عليها. وقامت بين الفريقين معارك عنيفة حـول النبـع كـان أشـدها التـي وقعـت فـي الأيام الثلاثة الأخيرة من شهر أيار. وتمكن الصـهيونيـون يـوم 30 أيـار مـن التغلـب علـى حامية رأس العين وأستولوا عليها.

وما أن أطل فجر يوم 31 / 5 / 1948 حتى كان المناضلون من ابناء قرى ديـر طيـف وبيـت نـبالا والـقرى المـجاورة يهرعـون مـن كـل صـوب وينجـدون قـائد القطـاع

الأوسط الشيخ حسن سلامة. وتجمعت منهم قوة كبيرة تقدّمها الشيخ وشنّ هجوما مضاداً كاسحاً على مراكز العدو الصهيوني في رأس العين. وقد أصابت شظيّة القائد حسن سلامة في رئته اليسرى فنقل إلى المستشفى. واستمر رجاله يقاتلون الأعداء بحماسة بالغة فطردوا الصهيونيين، وكان النصر حليفهم عند ضحى 31 أيار، ولم يكن قد مضى على احتلال الصهيونيين لرأس العين سوى ساعات قليلة.

إستاء الصهيونيون كثيراً لخسارة رأس العين التي استماتوا لاحتلالها، فأعادوا تنظيم قواتهم وقاموا بهجوم مضاد سريع عليها. وصمد المناضلون وهم يقاتلون بكل عناد وتصميم، وفشل هجوم الصهيونيين وارتدوا مدحورين.

في يوم 1 / 6 / 1948 وصلت سرية عراقية من الفوج الأول - اللواء الأول فارتد الصهيونيون إلى الوراء دون أن يشتبكوا مع العراقيين الذين تسلموا رأس العين وقطاعها وراحوا يعملون على تحصين ذلك القطاع وتمركزوا فيه.

ظلت رأس العين بيد القوات العراقية من 1 حزيران حتى سقطت مدينتا اللد والرملة فانسحبت هذه القوات على الأثر من مواقعها.

المراجع

1 - عارف العارف: النكبة، ج1 و ج3، بيروت. 1956.

2 - الموسوعة العسكرية: الجزء الثاني. ص 772. المؤسسة العربية للدراسات والنشر. بيروت.

3 - الموسوعة الفلسطينية: الجزء الثاني ص 446 - 447. اشراف د. انيس صايغ. دمشق. الطبعة الأولى 1984.

معركة رامات هاكو فيتش

هي آخر معركة خاضها الجيش العراقي قبل انسحابه من فلسطين. وقد خاضها العراقيون وفلسطينيو قلقيلية والطيرة جنباً إلى جنب.

كان " رتل عوف " العراقي المكون من الفوج الأول الميكانيكي وفصيلة مدفعية وفصيلة مهندسين عسكريين وبعض المتطوعين من أهالي قلقيليـة والطيرة والقرى المجاورة مسؤولا عن الدفاع عن هذه المنطقة الممتدة مسافة 10 كلم من الطيرة إلى جنوبي جلجولية.

وفي الساعة 23,00 من 12 / 1 / 1949 قام اللواء الإسرائيلي " جفعاتي " بالهجوم على قرية الطيرة من الشمال فتصدى له مناضلو القرية ولم يكن عددهم يزيد على 30 مناضلاً. وكان الإسرائيليون من الكثرة بحيث تغلبوا عليهم رغم الدعم المدفعي الذي قدمه " جفعاتي " من احتلال التلال الثلاثة الواقعة إلى الشرق من " رامات هاكو فيتش ".

وعندما بزغ الفجر شنت القوات العراقية هجوماً معاكساً وتمكنت من استرداد بعض المواقع، إلا أن وصول النجدات المعادية أوقف هذا الهجوم المعاكس الذي تحول إلى مناوشات استمرت على طول الجبهة ليلة 3 / 4 كانون الثاني. وحاول العدو في اليومين التاليين إحتلال " كفر سابا " العربية ولكن حاميتها تمكنت من أحباط محاولاته. وأثناء ذلك أتمت القيادة العراقية تخطيطها للهجوم المعاكس على أن يتمّ على مرحلتين: الأولى تقضي بإغارة ليلية صامتة بينما تقضي الثانية بالهجوم المعاكس العام نهاراً.

وفي الساعة الثالثة من صباح 7 كانون الثاني استطاعت الكتيبة العراقية بعد أن عززت بالمدفعية والمدرعات على أن تباغت المواقع الإسرائيلية الجنوبية وتطرد منها قوات " يفتاح ". وفي الساعة 16,30 من اليوم نفسه بدأت المرحلة الثانية بقصف مدفعي مركز على مواقع العدو الشمالية. وكذلك على مستعمرتي " كلمانية " و " رامات هاكو فيتش ". وفي الساعة 17,00 تحول القصف إلى ستار دخاني تقدم العراقيون وراءه واستعادوا جميع المواقع التي احتلها العدو.

وعندما حاول قائد اللواء " جفعاتي " استرداد هذه المواقع ليلاً أنزلت القوات العراقية بقواته خسائر كبيرة أجبرته على الإنسحاب.

وقد بقيت القوات العراقية والمناضلون الفلسطينيون في مواقعهم حتى انسحابهم بعد توقيع إتفاقية الهدنة الدائمة بين الأردن وإسرائيل في نيسان 1949.

المراجع

1 - عارف العارف: النكبة، ج4. بيروت 1956.

2 - حسن البدري: الحرب في أرض السلام، القاهرة 1976. مطابع دار الشعب.

3 - الموسوعة الفلسطينية: الجزء الثاني ص 457. اشراف د. انيس صايغ. دمشق. الطبعة الأولى 1984.

معركـة الرحيبة

هـي احـدى صفحـات الجهـاد الليبـي المضيئـة ضـد الاحتـلال الايطـالي وجحافلـه الغازية. فبعد المعارك والاشتباكات التي خاضهـا المجـاهدون فـي الجبـل الأخضـر، بقيـادة عمر المختار في يناير / كانون الثاني من عـام 1927، تحـوّل المجـاهدون إلـى المنـاطق الواقعة في جبل العبيد، بالنظر لما توفره من امكانيات للتجمع، وإعـادة التنظيـم والاسـتفادة من المراعي الرائعة، في هذه المنطقة الخصبة. وضـرب العدو لهـذا التجمـع ألـف حسـاب، وتخوّف من الاحتمالات التي يمثلها وجود تلك القوة الصغيرة من المجاهدين التـي لا تزيـد على ثلاثمائة وخمسين، وفقا لتقدير المخابرات الايطالية نفسها، وكان يخشى بصفة خاصـة من المتاعب التي قد يثيرها، بين صفوف القبائل الواقعة في المنـاطق المحتلّـة، ممـا يشـكل في الواقع خطراً كبيرا على هذا الاحتلال. وما كادت تنتهي إلى القيادة العسكرية بالمنطقـة معلومات عن وجود هذا التجمع، بقيادة عمر المختار، حتى بادرت إلى طلب الموافقة علـى القيام بهجوم فجائي، على هذا الدور. وخـرج فعـلا قـائد المنطقـة المـاجور " باسـي " بقـوة مكونة من 12 ضابطاً و 744 جندياً. وتحركت هذه القوة عند السـاعة التاسـعة مـن مسـاء يـوم 27 مـارس / آذار 1927، فـي اتجـاه " جـردس العبيـد " التـي وصلتهـا عنـد السـاعة السادسة من صباح اليوم التالي، ثم واصلت زحفها عبر الغابات الكثيفة المنتشـرة فـي هـذه المنطقة، ولكنها ما كادت تقترب من " أم الجوابي " حتى بدأت تواجه مقاومـة، أخـذت فـي التزايد، على طول الطريق التـي كـانت تسـلكها القـوات الايطاليـة، حتـى بلغـت منخفـض " الرحيبة " وجرّها المجاهدون إلى معركة من أعنف وأنجح المعـارك التـي جـرت فـي هـذه المرحلـة مـن الجهـاد (28 مـارس 1927). واسـتطـاع العـدو أن يحتـل بعـض المواقـع المرتفعة، الا أن المجاهدين عادوا بعد ذلك إلى شنّ الهجوم المضاد، في اتجاه أمـامي، مـع حركة التفاف، شعر بعدها القائد الايطالي باستحالة بلوغ أهدافه، فأصدر الأمر بالانسحاب. ولكن المجاهدين لم يمهلوه حتى يحقق هذا الانسحاب، واستغلّوا فرصة التفكك الذي بدأ في قوات العدوّ، ومعرفتهم الكاملة بالموقع التي ساعدتهم على تحقيق حركة التفاف عن طريق

الغابة بحيث تمكنوا من الاحاطة بقوات العدو وعزل بعضها عن البعض الآخر. وتعترف المصادر الايطالية بالاضطراب الذي شاع في صفوف قواتها، والهزيمة النكراء التي تعرضت لها قواتهم، في هذه الموقعة الهامة. وقد عزا الايطاليون هزيمتهم إلى التقدير الخاص لقوة المجاهدين، والمبالغة في تقدير قوة المجنّدين العاملين في القوّة الايطالية، والى التردّد وعدم وضوح الهدف، ثم الخطأ في اتخاذ قرار الانسحاب أثناء المعركة، (بينما تثبت التجارب ألف مرة، خاصة في الحروب الاستعمارية استحالة التراجع، والتملص من المعركة، وأن أحسن النصائح التي تُسدى للقوة التي تجد نفسها معرضة للهجوم بقوة أكبر منها، هو التحوّل إلى الدفاع حتى الليل، مستفيدة في ذلك من تفوق وسائلها النارية التي لا تخضع للتشكيك).

ويعترف الجنرال (تروتسي) – والي برقة حينذاك – بالهزيمة المنكرة والخسائر الكبيرة التي بلغت ستة ضباط وثلاثمائة وأربعين جندياً قتيلا، ويقال ان الصراع كان ملحميّاً وقد جرى جسداً لجسد. وحاولت وزارة المستعمرات الايطالية أن تخفف من أثر هذه الهزيمة، باحتسابها ضمن المفاجآت المحتملة الوقوع، في إطار الوضع غير الواضح وغير الهادئ.

وقد أدّت هذه الهزيمة، إلى هزّ مركز الاحتلال وهيبته ودفعت الوالي (تروتسي) إلى المبادرة باتخاذ جملة اجراءات عسكرية وسياسية في محاولة لضرب حركة المقاومة.

المراجع

1 – محمد خليفة التليسي " معجم معارك الجهاد ". ص 245 – 247.
2 – مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الايطالي. طرابلس / ليبيا.

معركـــة رشيد

الصراع قديم ومزمن بين حضارة الشرق وأطماع الغرب الاستعماري، حتى انتهى الى الحركة الصهيونية العنصرية، التي حاولت وما زالت إعادة الروح إلى الكيان الصليبي العنصري، في قلب الوطن العربي " فلسطين ".

وقد تناسى الاستعماريون أن غزوهم واستعمارهم لبلادنا ، لممّا يشحذ الهمم وينفض الغبار عن عناصر الاصالة في هذه الأمة، التي خاض أبناؤها المجاهدون أعنف المعارك وصمدوا في وجه الغزاة الاستعماريين: في ليبيا والجزائر ومصر... وغيرها من البلدان العربية. وقد أظهروا جرأة وصموداً قل نظيرهما، بحيث اعترف الأعداء لهم بهذه البطولة النادرة والشجاعة الفائقة.

ومعركة " رشيد " التي نحن بصددها الآن، والتي جرت حوادثها ، بين القوات الانكليزية من جهة والشعب المصري من جهة ثانية، وذلك في 20 آذار / مارس سنة 1807 م. كانت هذه المعركة درساً من الدروس التاريخية الكبرى التي لقّنها الشعب المصري للغزاة والفاتحين عبر التاريخ.

ففي مطلع القرن الماضي، وبعد أن كسب الشعب العربي في مصر جولته ضد نابوليون، خيّل للانكليز أن حظهم سيكون أسعد من حظ الفرنسيين... وقد عمدوا الى خطة ترمي إلى احتلال المراكز المؤثرة في حياة البلاد، وفي الوقت ذاته بعيدة عن " الكثافة السّكانية ". ولكنهم أخطأوا في حساباتهم ولم يحسنوا التقدير الحقيقي لدور العنصر الوطني المصري في تحطيم كل موجات الاستعمار الغازية التي جاء بها الأعداء إلى البلاد. فبعد أن استسلم الأتراك، بعد وصول الحملة الانكليزية إلى الاسكندرية، وخيانة المماليك الواضحة والمعلنة، حيث انضموا إلى صفوف الغزاة، ولكن خوف هؤلاء من المرور بقواتهم في الصعيد حتى الاسكندرية، جعلهم يطلبون من قوات الاحتلال، احتلال مدينة " رشيد "، حتى يطمئن قلبهم. وقد فتحت خيانة المماليك هذه ثغرة كبيرة في جدار الصمود الشعبي، على الرغم من جهود " محمد علي " والمشايخ في جعلهم يتخلّون عن ولائهم

للانكليز، والتي ذهبت أدراج الرياح. وهكذا بدأت المعركة الأولى في مدينة " رشيد ".

ففي يوم الثلاثاء 31 مارس سنة 1807 م / محرّم سنة 1222 هـ بدأ الانكليز هجومهم على المدينة، بعد أن قسموا قواتهم، (التي يبلغ تعدادها 1400 جندي بقيادة الجنرال " ووكوب " ويساعده البريجادير " ميد "...) الى ثلاثة طوابير تهاجمها من ثلاث جهات من ناحية الحدائق والبساتين على شاطئ النيل... ومن الوسط... ومن الميسرة... لكن الطابور الأول فوجئ بأن النيران قد أخذت تنهال عليه، لامن القوات المتحصنة بالمدينة فقط، وإنما من " الأهالي " الذين اجتمعوا على الشاطئ الآخر لنهر النيل، ولقد انتهت هذه المفاجأة بإبادة ثلثي قوات هذا الطابور؟!... وعندما تمكن الجنرال " ووكوب " الذي قاد الطابور الثاني من دخول المدينة من إحدى ثغرات الدفاع، تولى قيادة الطابور الثالث أيضا بعد جرح قائده البريجادير " ميد "... وخيل للانكليز أن النجاح حالفهم، في حين أن شعب المدينة كان يعتقد أن المعركة لم تبدأ بعد... وفي ساعة من الزمن انضم الجنود النظاميون إلى قوات الشعب المسلّحة داخل المنازل والبيوت، والتحموا بهم في صف واحد لينهال الرصاص على الانكليز من كل مكان... وفي لحظات تحول الجيش الذي كان يعدّ للاحتفال بالانتصار، إلى جثث من القتلى والجرحى، وبقايا تجاهد للفرار، والشعب في أثرهم يضيّق عليهم سبل النجاة. وأحصى الانكليز خسائرهم في هذا اليوم فبلغت اكثر من خمسمائة بين قتيل وجريح وأسير، من بينهم قائد المعركة الجنرال " ووكوب " الذي قتل برصاصة قناص مصري، أشعل الغزاة النار في المنزل الذي تحصن فيه... ولقد تمّ هذا النصر بفضل " أهل البلدة ومن معهم من العساكر " الذين كانوا متنبهين ومستعدين بالأزقّة والعطف وطبقات البيوت "... كما يقول الجبرتي أصدق مؤرخي ذلك العصر.

وحاول " فريزر " في تقريره الذي كتبه لوزير حربيته عن هذه المعركة في 6 أبريل / نيسان أن يقلّل من شأن ما حدث، وأن يرجع هزيمتهم إلى عدم استكشافهم لمواقع المدينة قبل دخولها، أشار إلى حقيقة هامة عندما تحدّث عن أسباب صمود المقاومة ضدّهم، وكيف أن سبب هذا الصمود كان في تجنب اللقاء المكشوف، واللجوء إلى أساليب أخرى في القتال تفيد المقاومة وتشلّ فعالية تفوّق الانكليز، فتحدث كيف تطور الأمر الى

أن أصبح الجنود الانكليز " تحت تسلط العدو وسيطرته، وهو عدو لا يخشى بأسه عند الالتحام معه في مكان مكشوف، ولكنه يصبح مبعث أخطار جسيمة للغاية إذا هوجم في موضع يفيد منه يقيناً، ويتلاءم مع أساليب قتاله، كذلك الوضع الذي وجد فيه... ".

ولقد حسم هذا الانتصار الشعبي الموقف لصالح المقاومة ضد كل عوامل التهادن والقوى التي اتخذت موقف الترقب أو اللامبالاة... كما نشطت في القاهرة ومدن الأقاليم والقرى حركة التطوع والاستعداد للمعركة الفاصلة التي أخذ العدو يعدّ لها بتجهيز حملته الثانية على " رشيد ".

فالسيد حسن كريت، نقيب أشراف رشيد، تحول إلى صفوف المقاومة، وألقى بثقله ونفوذه في الاستعداد للمعركة... وبعث الى السيد عمر مكرم في القاهرة رسالة يطلب النجدة والمساعدة في مقاومة الحصار المفروض على المدينة.

وفي 5 أبريل / نيسان، بعد أن وصل الأسرى الانكليز ورؤوس قتلاهم إلى القاهرة بدأ عمر مكرم في الدعوة إلى القتال وتجهيز المتطوعين بالمال والسلاح، فنبّه على الناس وأمرهم بحمل السّلاح " والتأهب للجهاد ضد الانكليز، حتى مجاوري الأزهر، وأمرهم بترك حضور الدروس، وكذلك أمر المشايخ المدرسين بترك إلقاء الدروس ".

وبمبادرة من الشعب بزعمائه وعلمائه قامت في القاهرة جبهة وطنية لتحصين المدينة، وتجهيز الدفاع عنها والإشراف على التطوع والسفر لمساعدة " رشيد ". وكما يقول الجبرتي: أنه " حصلت جمعية ببيت القاضي، وحضر حسن باشا، وعمر بيك، والدفتردار، وكتخد ابيك، والسيد عمر النقيب، والشيخ الشرقاوي، والشيخ الأمير، وباقي المشايخ... فتكلموا في شأن حادثة الانكليز، والاستعداد لحربهم وقتالهم وطردهم... ويجب أن يكون الناس والعسكر على حال الإلفة والشفقة والإتحاد، وأن تمتنع العساكر للتعرض للناس بالاذى – كما هو شأنهم – وأن يساعدوا بعضهم بعضا على دفع العدو، ثم تشاوروا في تحصين المدينة وحفر خنادق ". ولقد تحولت هذه القيادة إلى جبهة وطنية شعبية حقيقية تقود أعمال المقاومة والاستعداد للاحتمالات... وفي غياب محمد علي الذي كان لا يزال في الصعيد، وفي ظل قصور جهاز دولته والمساهمات الكلامية والكلية لرجالات دولته، بدأت القيادة الشعبية عمليات التنفيذ لما اتفق عليه في " جمعية بيت القاضي ". ففي 7

أبريل " شرعوا في حفر الخندق... ووزعوا حفره على مياسير الناس وأهل الوكائل والخانات والتجار وأرباب الحرف والروزنامجي، وجعلوا على البعض أجرة مائة رجل من الفعلة، وعلى البعض أجرة خمسين، وعشرين، وكذلك أهل بولاق، ونصارى ديوان المكس، والنصارى الأروام، والشوام، والأقباط. واشتروا المقاطف والغلقان والفؤوس والقزم وآلات الحفر... وشرعوا في بناء حائط مستدير أسفل قلعة السبتية ". وفي اللجوء إلى التمويل الشعبي لأعمال المقاومة هذه، وأيضاً في تحمل الطوائف المسيحية المختلفة نصيبها على قدم المساواة مع المسلمين في أعمال المقاومة دلالات هامة على طبيعة ومضمون هذا العمل الشعبي الكبير.

وأخذت طوائف المتطوعين لمساعدة " رشيد " في القتال تغادر القاهرة والأقاليم إلى المدينة التي أحكم الانكليز ثانية من حولها الحصار... متطوعون يقول عنهم الجبرتي انهم من مختلف الطوائف مصريين وعرباً " من المغاربة، وأتراك خان الخليلي، وكثير من العدوية، والاسيوطية، وأولاد البلد "... حتى اجتمع في رشيد منهم " الجمّ الكثير من أهالي بلاد البحيرة، وغيرها، وأهالي رشيد، ومن معهم من المتطوعة، والعساكر، وأهل دمنهور ".

أما رجالات حكم محمد علي الذين انهاروا عندما احتل الانكليز الاسكندرية، وفرّوا، من أمثال حاكم دمنهور، فلقد حاولوا جني ثمار النصر الأول؟!، فذهب رجال (كاشف) دمنهور من " السعاة إلى مصر بالبشارة، فضربوا مدافع وعملوا شنكا، وخلع كتخدابيك على السعاة الواصلين، وأسرع المبشرون أتباع العثمانيين، وهم القوّاسة الأتراك، بالسعي إلى بيوت الأعيان يبشرونهم ويأخذون منهم البقاشيش والخلع " بمناسبة النصر الذي لم يحرزوه؟!.

وبعد خمسة أيام من انعقاد " جمعية بيت القاضي " وصل محمد علي إلى القاهرة، ووجد القيادة الوطنية الشعبية تنهض بعبء الاستعداد للمقاومة والقتال... فتوجّس خيفة من هذا التحرك الشعبي الكبير، وحاول عزل العنصر الشعبي عن المعركة وقصر أعمالها على الجند النظاميين، فعقد اجتماعاً في داره، وطلب كتخدابيك وحسن باشا الخروج للحرب، وظهر اتجاهان في هذا الاجتماع، اتجاه ممثلي الشعب الذين " قالوا له: إنا نخرج

جميعا للجهاد مع الرعية والعسكر "، واتجاه محمد علي الذي قال لهم: " ليس على رعية البلد خروج وإنما عليهم المساعدة بالمال لعلائف العسكر؟! ". لكن الشعب كان قد أخذ بيده زمام المبادرة بالفعل، وقرارات " جمعية بيت القاضي " كانت قد عرفت طريقها إلى التنفيذ والتطبيق، وفي الوقت الذي تحولت فيه " رشيد " إلى معسكر شعبي يجسّد وحدة الأمة واصرارها على القتال، كانت " المصادفة " – حسب تعبير الجبرتي – هي التي قادت بعض رجال محمد علي إلى هذه الناحية، كي يشهدوا المعركة، ويساهموا فيها، ويقطفوا وحدهم ثمار الانتصار.

" رشيد " في المعركة الفاصلة:

وفي 3 أبريل تحركت الحملة الانكليزية الثانية إلى " رشيد "، بعد أن جاءتهم النجدات والامدادات التي طلبها " فريزر " من " صقلية "، وبلغ تعداد قواتها هذه المرة 2500 جندي تعززهم قوة بحرية هامة، أي نحواً من ضعف عدد قواتهم في الحملة الأولى... كما حاولوا الاستفادة من دروس الحملة الأولى، فضربوا الحصار من حول المدينة متخذين من " إدكو " قاعدة خلفية لهم، ثم زحفوا إلى " الحماد " ومرتفعات " أبو منضور " ونصبوا مدافعهم فوق التلال المحيطة برشيد... وكانت خطتهم أن يضربوا المدينة بالمدافع ضرباً مركزاً، وأن يجبروها على الاستسلام دون أن يدخلوا بجنودهم وسط السكان...

غير أن هذا التفوق الانكليزي في العدد والاستعدادات، وذلك الحذر والتخطيط الجديد لم يغيّر شيئا من تصميم الشعب على المقاومة والقتال... فكانت الخطة الشعبية هي الاستمرار على نفس الطريق الذي حقق الانتصار في المعركة الأولى، طريق الانتصار على العدو بواسطة إلغاء فعاليات التفوق والمّيزات التي تمتاز بها قواته وأسلحته ومحاربوه.

وبدأت المناوشات بين الفريقين... المحاصِرون يصبّون نيران مدافعهم على المدينة، والمقاومة ترد عليهم بالنيران، واضطر الانكليز إلى توسيع دائرة الحصار كي يكونوا بعيداً عن نيران المقاتلين المواطنين. فقام بعض أهل المدينة بصنع أنواع من الأسلحة البعيدة المرمى، حتى قيل إنها كانت أبعد مرمى من أسلحة الانكليز؟!.

ولما لم يُجد هذا الحصار، لجأ الانكليز إلى سلاح جديد، فأرسلوا رسلاً إلى داخل المدينة لتقسيم الصفوف وتفريق الكلمة، وأخذوا يعدون التجار والأثرياء بالحماية والمحافظة على مصالحهم، ويهددون الناس بأن المماليك في طريقهم لفك حصونهم واستباحة مدينتهم... ولكن هذا السلاح فشل هو الآخر...

وبعد أسبوع من بدء الحصار أخذ المواطنون زمام المبادرة في الهجوم، فأخذت سرايا من فرسان المدينة تخرج للهجوم على صفوف الحصار لاختبار نقاط الضعف فيه، واكتشفوا أنها في منطقة " الحماد ". كما أخذوا في جمع المعلومات عن العدو وقواته واستعداداته بواسطة الفلاحين والفلاحات الذين كانوا يخالطون جنوده في شكل عمليات للبيع والشراء في سوق ريفيّ يبيعون فيه البيض والسمن والدجاج.

وفي يوم 21 أبريل / نيسان سنة 1807 شن الوطنيون هجوما رئيسياً على مواقع العدو عند " الحماد " حيث كان الكولونيل " ماكليود " يتولّى القيادة، ودارت معركة باسلة وحافلة بالمعاني والدلالات استمرت ثلاث ساعات، وقع فيها الغزاة بين القوات المهاجمة من " رشيد " وبين الفلاحين من قرية " الحماد "، وكانت المعركة الفاصلة، في ذلك اليوم الذي هُزم فيه الانكليز للمرة الثانية، حيث خسروا ما بين 1300 و 1400 من جنودهم ما بين قتيل وجريح وأسير، وهربت فلولهم إلى غير رجعة نحو الاسكندرية، في انتظار الرحيل النهائي عن البلاد...

ويصف الجبرتي هذه المعركة، وأساليب الشعب القتالية المستحدثة التي أبطلت فعالية التفوق الذي امتاز به الأعداء، ودور الشعب القيادي في كل ذلك، فيقول: " ... كثر المتطوعون، ونصبوا لهم بيارق وأعلاما، وجمعوا من بعضهم دراهم، وصرفوا على من انضم إليهم من الفقراء، وخرجوا في مواكب وطبول وزمور، فلما وصلوا إلى متاريس الانكليز، دهموهم من كل ناحية، على غير قوانين حروبهم وترتيبهم، وصدقوا في الحملة عليهم، وألقوا بأنفسهم بالنيران، ولم يبالوا برميهم، وهجموا عليهم واختلطوا بهم، وأدهشوهم بالتكبير والصياح... حتى أبطلوا رميهم ونيرانهم، وألقوا سلاحهم، وطلبوا الأمان فلم يلتفتوا إلى ذلك، وقبضوا عليهم وذبحوا الكثير منهم، وحضروا بالأسرى والرؤوس، وفرّ الباقون إلى الاسكندرية ".

وصورة أخرى من هذه المعركة يقدمها لنا الجبرتي تجسد معنى التضامن العربي عندما يتحول إلى حقيقة مادية تعيشها الجماهير. فلقد كان في صفوف المقاتلين " من جملة المتطوعين رجلان من أهل " مكة " التجار المقيمين بمصر (السيد أحمد النجاري) وأخوه (السيد سلامه) كانا في " الواقعة "، بنحو مائة من المغاربة وغيرهم، ينفقان عليهم ويحرضانهم على القتال ويعينان المقاتلين من الأهالي بما في أيديهم، ويقاتلان بأنفسهما، وبذلا جهدهما في ذلك، وأنهما بعد هزم الانكليز وسليهم، فرّقا ما غنمناه وما بقي معهما من الأشياء على من خرج خلف الإنكليز ".

فهي إذن المبادرة الشعبية التي تجسّدت في القيادة الوطنية للمعركة... والروح القتالية التي ظهرت في جموع الشعب التي تطوعت ودخلت " رشيد " أو احتضنتها من خلف حصار الأعداء... والأساليب القتالية الجديدة التي ابتكرها الشعب ليواجه بها تفوق العدو، ويكسر بها حدة هذا التفوق... والتضامن العربي الذي تواجد في أرض المعركة بالدم والمال... هي إذاً الذي حققت للشعب انتصاره على الانكليز في " رشيد " في معركتي 31 مارس و 21 أبريل سنة 1807 م، فكسب بهذا النصر جولة ضد أعدائه الذين اضطروا لتوقيع شروط الانسحاب والجلاء عن الاسكندرية في 19 أيلول / سبتمبر في نفس العام... بعد أن جاءوا ومن خلفهم أحلام التوسع والسيطرة التي راودت كل الغزاة لهذه البلاد، ورحلوا ومن ورائهم كلمة قنصلهم " مست " التي كتبها في 22 أبريل، قائلاً:

" سوف يدهش العالم أجمع عند سماعه أن جيشاً أوروبياً قد عجز عن أخذ بلدة مثل " رشيد "؟!... لأنهم كانوا لا يزالون عاجزين عن الفهم والتقدير السليمين لروح الصمود والتحدي التي تميز بها هذا الشعب على مر التاريخ!.

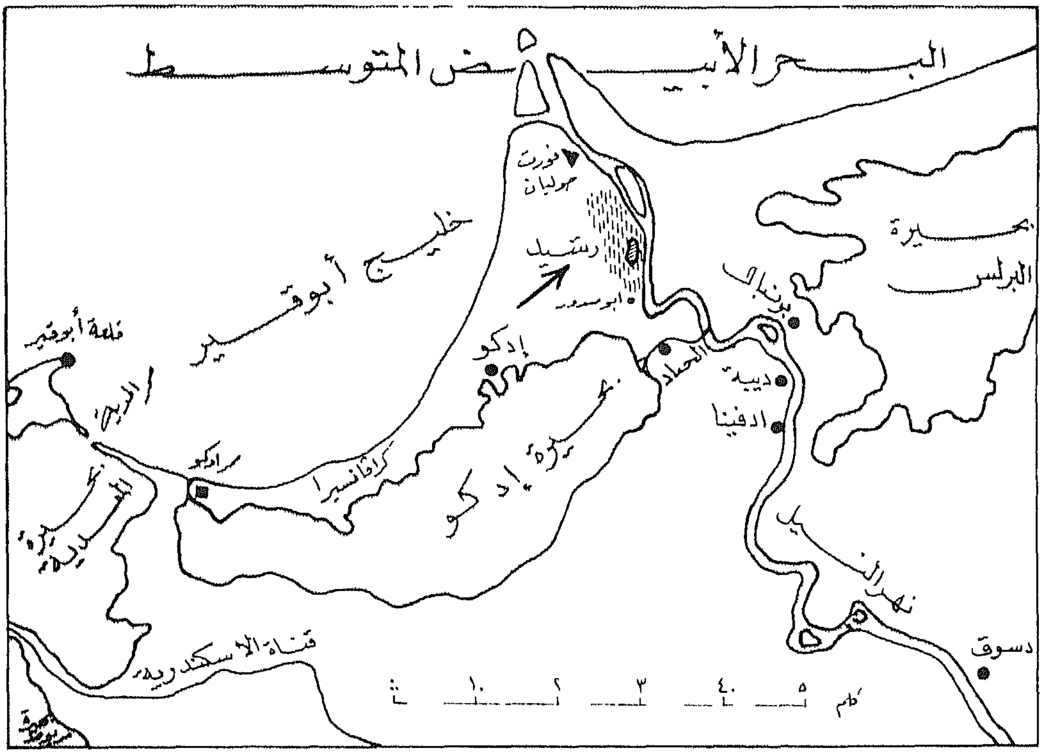
المراجع

1 – محمد عمارة " معارك العرب ضد الغزاة ". المؤسسة العربية للدراسات والنشر. بيروت. الطبعة الثالثة 1988. ص 161 – 181.

2 – كتاب " عجائب الآثار " الجزء الرابع (للجبرتي). ص 47 – 55.

3 – د. محمد فؤاد شكري " مصر في القرن التاسع عشر 1801 – 1817 ". الجزء الثاني. طبعة القاهرة سنة 1958. ص 648 و 712.

4 – " الموسوعة العسكرية " باشراف المقدم الهيثم الأيوبي. الجزء الثالث. المؤسسة العربية للدراسات والنشر. الطبعة الثانية سنة 1985. ص 25 – 31.



مسرح العمليات الذي دارت عليه معركة رشيد (1807)

معركـة الزاب (750 م)

تعتبر معركة الزاب من أهم المعارك وأشهرها في التاريخ الاسـلامي. وقد جـرت سنة 750 م (132 هـ) على نهر الزاب في العراق، فحملت اسمه، ونشبت بين مـروان بن محمـد آخر خلفاء بنـي أميـة، وبين بنـي العبـاس، وكـانت علـى الـزاب الأعلـى، بين الموصل واربل؛ إذ أن ملكاً من ملوك الفرس حفر عدة أنهر بالعراق فسميّت باسمه، وكـان هناك زابان: الزاب الأعلى (وهو بين الموصـل واربـل) والـزاب الأسفل ومخرجـه مـن جبال السلق. وتأتي أهمية " معركة الزاب " من كونها ان انتصـار بنـي العبـاس فيهـا علـى الخليفة الأموي وضع حداً للصراع الدامي الذي استمر زمناً طويلاً بين هذين الحزبين فـي الاسلام، وأنهى، بصورة قاطعة، الخلافة الأموية في المشرق العربي.

هذا وان سبب هذه المعركة هو أن الثورة قد عمّت خراسان ضد الخليفـة الأمـوي. وأستفحل أمر بني العباس فيها حتى أصبحوا يهدّدون مُلْك الأمويين كله. فتوجه مروان بـن محمد لمقاتلتهم في خراسان بجيش قدّره ابن خلدون بماية وعشـرين ألـف مقـاتل مـن أهـل الشام، وزحف به الى الموصل، فنزل على دجلة وحفر خندقاً، فسار إليه العباسيون بجيـش قدّره ابن خلدون أيضاً بعشرين ألــف مقـاتل، وعلـى رأسـه أبـو عـون الأزدي قـائداً عامـاً، ونزل على الزاب الأعلى، ثم تنحّى أبـو عـون عـن قيـادة الجيش إلـى عبد اللـه بـن علـي العباسي (عم الخليفة العباسي أبو العباس السفاح الذي بايعه الخراسانيون فـي الكوفـة قبـل ذلك بقليل). وسأل القائد الجديد عبد الله بن علي عن مخاضة يعبر النهر منهـا فـدّل علـى واحدة، فأمر عيينة بن موسى بأن يعبر في خمسة آلاف الى الضفـة المقابلـة حيث يعسـكر مروان، وعبر عيينة بعسكره فقاتل مروان طيلة النهار ثم ارتدّ عابراً المخاضـة الـى حيث كان.

وفي صباح اليوم التالي أنشأ مروان على النهر جسراً وأمر ابنه عبد الله ان يعبر عليه الى الضفة المقابلة ويحفر خندقاً في أسفل معسـكر عبد اللـه بـن علـي، ففعـل، ولكـن القائد العباسي أرسل إليه أحـد قادتـه، " المخـارق بـن غفّـار "، مـع أربعـة آلاف مـن جنده

وعسكر على خمسة أميال من جند عبد الله بن مروان الذي واجه المخارق بحملة قادها الوليد ابن معاوية (صهر مروان أي زوج ابنته) ودار بين الفريقين قتال شديد انتهى بهزيمة المخارق ومقتل معظم جنده. عندها زحف عبد الله بن علي العباسي بجيشه وعلى ميمنته أبو عون الأزدي، وزحف مروان بجيشه وعلى ميسرته الوليد بن معاوية مع ثلاثة آلاف من الجند، وكانت الشمس قد آذنت بالمغيب، وطلب مروان الموادعة فأباها عليه عبد الله بن علي، وأمر مروان جنده ان لا يكونوا هم البادئين بالقتال، وفي نفسه أن يؤخر الهجوم ما أمكن، حتى تغيب الشمس قبل ان يبدأ القتال، فيستفيد من الليل لتنظيم صفوفه، خاصة وانه عرف بخبرته العسكرية في تنظيم الجيوش على أسس جديدة لم يعرفها الأمويون قبله.

لكن صهره الوليد بن معاوية كان على عجلة من أمره، فلم يذعن لأوامر الخليفة (وعمّه)، وحمل بجيشه على الجيش العباسي، وكان الأزدي قبالته، فأمر عبد الله بن علي قائد الجيش العباسي فرسانه أن يترجّلوا، ويشرعوا الرماح، ويجثوا على الركب، ويقاتلوا.

وتقاتل الفريقان جاثين على الركب مشرعي الرماح، واشتد القتال واستمر تسعة أيام بكاملها، فإذا بجند الشام يتقهقرون، وبجيش عبد الله بن علي يتقدم، وظل مروان يحض جنده على القتال، ولكن ذلك كان دون جدوى، إذ انهار الجيش الأموي بكامله، فانهزم، وانهزم مروان، وقطع العباسيون الجسر، فكان من غرق يومئذ من جند الشام اكثر ممن قتل، وكان بين الغرقى ابراهيم ابن الوليد بن عبد الملك (الخليفة المخلوع).

وفرّ مروان مخلّفاً معسكره، وكان فيه سلاح كثير وأموال، فأمر القائد العباسي ان ينصب الجسر وأن تنتشل جثث الغرقى، انتشل ثلاثمائة جثة ومن بينها جثة ابراهيم بن الوليد بن عبد الملك، فكتب عبد الله بن علي الى الخليفة ابي العباس يبشره بالنصر والفتح.

بعد هذه المعركة التي قضت على الخلافة الأموية في المشرق العربي، تعقّب العباسيون بني أمية إلى حرّان ودمشق، وخضعت جميع المدن الشامية للخليفة العباسي، أمـا مروان بن محمد فقد قتل بعد ذلك بقليل في آخر معركة بين العباسيين والأمويين، هي

معركة أبوصير، في مصر السفلى، سنة 750.

والحقيقة، فان مروان بن محمد قائد من أعظم القواد، ولي الخلافة في شعب لم يدرك نفسيته حق الادراك، فكان في ذلك القضاء عليه وعلى الأسرة الأموية في المشرق... وهكذا انتهت بحياة هذا الخليفة دولة تعد من أعظم دول ذلك العصر، وهي الدولة الأموية.

أما بصدد الهزيمة التي تعرض لها القائد مروان بن محمد، فتعود بالطبع الى أسباب عديدة، نذكر منها على سبيل المثال أنه من خلال نظرة أولى إلى جند مروان، والى جند عبد الله بن علي، يتوضح لنا مدى دور جنود الخليفة الأموي بالهزيمة.

فقد كان جند عبد الله بن علي يقاتلون بعقيدة واحدة، يجمعهم شعار: يا لثارات ابراهيم... وهو شعار يوقد فيهم جذوة الحماس... وهو رمز جمع الحاقدين على بني أمية وصهرهم في بوتقة واحدة. أما جند مروان فكانوا من أهل الجزيرة، ومن أهل الشام، ومعه بنو أمية... ولئن كان من المعقول أن يكون ولاء أهل الجزيرة لمروان، فليس من المعقول ان يكون أهل الشام على مثل ذلك الولاء له... فنحن نعرف من سيرته كيف ان حكمه لم يستتب في الشام الا بقوة السلاح، ومعاركه كان معظمها في بلاد الشام، ولا بد ان يكون في تلك المعارك قد قتل عدد كبير من الناس بقي لهم في قلوب أهليهم ثأر مدفون ينتظر الفرصة... ولئن كان أخرج هؤلاء طمعهم بالمال، فان المال وحده لا يمكن أن يجمع إلا قطاع الطريق فترة وجيزة من الزمن، سرعان ما يفرّقهم عندما يستشعرون الخطر على حياتهم، أما في ساحة الحرب فلا بد من مبدأ سامٍ يلف قلوب الجنود بحزام واحد... وهذا ما كان يفتقده جيش مروان... كان على مروان، وهو القائد المحنّك الذي لم ينهزم في معركة خاضها قبل الزاب، أن يلحظ هذه الناحية في جنده.

كان من الواجب على مروان أن يلحظ هذا، وان يختار جنده من أهل الجزيرة، ولو أن العدد سيكون أقل، إلا أن النصر سيتحقق بصورة أضمن... ولقد نجم عن هذا الخليط في جيشه ان ظهرت حركة تمرّد فيه في لحظة حرجة... فعندما استعد الفريقان للهجوم الكبير أمر مروان قبيلة قضاعة ان تبدأ القتال فأبت، وأمر بني سليم ان تفعل فأبت. وكانت كل قبيلة تأبى إطاعة أمره، وتحيله إلى قبيلة أخرى... حتى أن صهره نفسه رفض

تنفيذ أوامره وبدأ بالهجوم في الوقت الذي كان يريد فيه مروان تنظيم صفوف جنده.

وحينما التحم الجيشان أراد مروان ان يشجع جنده، ويحمّسهم فأخرج ما معه من أموال ليوزعها بينهم، فنهبتها طائفة، فغاظ ذلك بقية الجند، فأرسل مروان ابنه عبد الله إلى مؤخرة الجيش ليحرس المال، فظنّ من رأى عبد الله وجيشه، وهو يتراجع الى الخطوط الخلفية، حيث كان المال، ان الهزيمة قد لحقت بالجيش، فقال الناس: الهزيمة... فانهزموا.

هنا تظهر الروح المعنوية في جيش مروان... خرج قسم منهم للمال، فعندما لاح المال هجموا عليه معانقين، وأداروا للعدو ظهرهم، وهذا القسم من الجند أدى إلى زعزعة الروح المعنوية في باقي الجند... وهذا المأخذ يرجع، فيما نرى، الى المأخذ السابق على مروان بن محمد بأنه لم يحسن القيادة عند تعبئة جنده.

اضافة لذلك، هناك مأخذ هام آخر، وهو أن مروان بعد ان لحظ اقتحام جند بني العباس في اول معركة جانبية لمعسكره مستفيدين من مخاضة في النهر، كان عليه أن يغيّر خطته التي اعتمدها. فلا يكفي ان يأمر ابنه عبد الله بحفر خندق في أسفل معسكر عبد الله بن علي... وانما عليه ان يلجأ الى نفس الطريقة التي اتبعها في معركة عين الجرّ، وهي الالتفاف حول العدو، وإشغال مؤخرته ومقدمته بالقتال في وقت واحد، فيدب الذعر فيه، وتنتهي المعركة لصالحه... والذي يؤيد نجاح هذه الخطة ان امكانية مروان العامة في معركة الزاب أفضل مما كانت عليه في عين الجرّ في كل شيء... فعدد جنده اكثر، وسلاحه وماله اكثر، وقوة خصمه في الزاب دون قوة خصمه في عين الجرّ بكثير. كما ان قائد جيش عدوه في الزاب عبد الله بن علي هو دون سليمان بن هشام الذي له معارك موفقة في أرمينيا وبلاد الروم... ولو لجأ مروان لهذه الخطة لجنّب ظهور أثر ضعف الروح المعنوية لدى جنده، لأن ارسال فرقة من الجيش خلف صفوف العدو تقلل من كثافة الجند، وتنهي المعركة بسرعة أكبر، إذا قامت بعملها بنجاح...

كل ما في الأمر، إذن، ان سبب الهزيمة في الزاب يرجع إلى انعدام الروح المعنوية بين جنوده، كما يرجع إلى أخطائه نفسه بالقيادة، وعدم المرونة في مجابهة كل موقف بخطة تلائمه...

ومهما يكن أخيراً، فان مروان بن محمد قائد عبقري لم يهزم إلا في هذه المعركة،

وتلك مزيّة لم تجتمع لدى أي قائد آخر... فنابليون مثلاً هـزم فـي عـدة معـارك، فقـد سـقط اعتباره أمام أسوار عكـا، كمـا فقـد جيشـه فـي سـهول روسـيا وانتهـى بهزيمـة نكـراء فـي واترلو... رغم كل ذلك لم يفقد قيمتـه كقـائد عبقـري نـاجح... فهـل يجـوز ان نـنزع صفـة القيادة والعبقرية عن الخليفة الأمـوي مـروان الـذي لـم ينهـزم الا فـي هـذه المعركـة فقـط: معركة الزاب؟.

المراجع

1 – الموسوعة العسكرية. الجزء الثالث. باشراف المقدم الهيثم الأيوبي. المؤسسة العربيـة للدراسات والنشر. بيروت. الطبعة الثانية 1985. ص 425.

2 – القاضي سعدي ابو حبيب " مروان بن محمد وأسباب سقوط الدولـة الأمويـة ". دار لسـان العرب. بيروت. د. ت. ص 113 – 118 و 160 (ويعتبر هذا الكتاب مرجعاً مهماً في هذا الإطار).

3 – الطبري. " تاريخ الأمم والملوك ". المجلد السادس. مطبعة الاستقامة. القاهرة 1939 (وهي نسخة مقابلة على النسخة المطبوعة بمطبعة برايل بمدينة ليدن سنة 1879). ص 69 – 93.

4 – ابن الأثير " الكامل في التاريخ ". المجلد الرابع. ص 327 – 328.

5 – ابن خلدون " كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والبربر " دار الكتاب اللبناني. بيروت. 1957 (المجلد الثالث). ص 81.

6 – د. شاكر مصطفى " في التاريخ العباسي ". الجزء الأول. مطبعة الجامعة السورية 1957. ص 93 وما بعدها.

معركة زامورا (939)

دارت هذه المعركة بين مسلمي الأندلس وجيش دولة ليون " Leon " في العام 939، وأسفرت عن فشل محاولة المسلمين في الاستيلاء على مدينة زامورا (Zamora).

ففي العام 711 م، فتح العرب اسبانيا ونجحوا في بسط سيطرتهم على جميع الأراضي الاسبانية ما عدا الجزء الشمالي الغربي منها، اذ واجهوا هناك مقاومة عنيفة بقيادة الزعيم القوطي " بيلايو " (Pelayo)، اضطرتهم الى التوقف عند وادي نهر " دورو " (Deuro) حيث تقع مدينة زامورا.

وظلت مدينة " زامورا " الواقعة على بعد 209 كلم شمال غربي مدريد وذات الأهمية الاستراتيجية على الحد الفاصل بين العرب المسلمين ومناطق المسيحيين الاسبان لفترة طويلة من الزمن. وفي العام 939 أرسل خليفة المسلمين في الأندلس " عبد الرحمن الثالث " (الملقب بعبد الرحمن الناصر) جيشاً للاستيلاء على " زامورا ". وما إن وصل هذا الجيش الى ضواحي المدينة وفرض حولها حصاراً، حتى سارع ملك دولة ليون راميرو الثاني (الذي يطلق عليه العرب اسم ردميرة) الى التوجه نحو المدينة على رأس جيش كان قد هزم الخليفة في معركة " الخندق " 938. ودارت قرب زامورا معركة حامية أسفرت عن فك الحصار وانسحاب جيش المسلمين. وكان للخنادق المحيطة بالمدينة وعدم قيام الخليفة الناصر بقيادة جيشه، دور بارز في فشل المسلمين. وقد أرغمت الهزيمتان المتتاليتان الخليفة الناصر على تفضيل اسلوب المفاوضات والهدنة بدلاً عن القتال. وهذا ما دفعه في العام 944 الى عقد صلح مع راميرو الثاني دام خمس سنوات.

المراجع

1 – الموسوعة العسكرية. الجزء الثالث. باشراف المقدم الهيثم الأيوبي. ص 432.

معارك " زاوية المحجوب " و " العوكلي "

هي احدى المعارك الهامة في تاريخ الجهاد الليبي ضد الطليان. إذ عندما انتصرت قوات الغزو الايطالي على المجاهدين الليبيين في معركة " سواني المشرّك " في الرابع من أيار / مايو سنة 1923، ظنّ الايطاليون أنهم قضوا قضاء تاماً على المقاومة الليبية، وتوهّموا أن جذوة الكفاح والنضال قد قضي عليها في نفوس أبناء الشعب العربي الليبي بعد هذه المعركة، خاصة أنهم تمكنوا من استقطاب مجموعات ليبية للتعاون معهم والقتال إلى جانبهم، كما هو الحال في أي غزو ضد أيّ شعب، دون الأخذ بعين الاعتبار، أن الشعب إنْ أمهل فانه لا يُهْمِلْ، ولن يكون مصير هؤلاء من ضعفاء النفوس سوى الاحتقار، وبعد ذلك الاعدام.

وقد عرفت معارك زاوية المحجوب والعوكلي في ليبيا هذا الوضع بكل تفاصيله، وقد تمكن الثوار المجاهدون من انزال ضربة قوية بجحافل الغزاة، وأعوانهم من الليبيين الذين باعوا ضمائرهم ونفوسهم للأجنبي ضد أبناء وطنهم، كما لاقى هؤلاء العملاء الصغار نصيبهم الذي يستحقه كل خائن لوطنه وأبناء شعبه وأمته.

هذا وقد أطلق على هذه المعركة بالاضافة الى " سواني العوكلي " أسماء عديدة، منها معركة رأس حداد (أو حديد)، ومعركة خشيم الكلب، وجميعها أسماء لمناطق تقع جنوب مدينة مصراتة قرب الكلّية الجوّية حالياً، وتسمى المنطقة جملة بـ " غيران " وهي عبارة عن سهول رملية تغطيها بعض الحشائش وأشجار النخيل، كما يتوفر فيها عدد لا بأس به من آبار المياه.

وقد اتخذ الايطاليون بعد معركة المشرك نقاط حراسة أو معسكرات لهم في سانية العوكلي، ومنزل " حميدة الأطرش " الذي عسكرت به قوة غير نظامية تابعة للايطاليين على رأسها " علي القريتلي " وقرابة الثمانين من المجنّدين العرب.

وعلى أثر استشهاد المجاهد الكبير سعدون السويحلي في معركة " المشرك " وتنصيب ابراهيم رمضان السويحلي خلفاً له، قرر المجاهدون في " السدادة " استئناف

الأعمال الحربية ضد الغزاة الايطاليين في مناطق مصراتة وترهونة وزليطن وغيرها، واختار ابراهيم السويحلي و " عون سوف " ومجموعة من المجاهدين الهجوم على نقاط العوكلي وزاوية المحجوب التي تتولى حماية مواصلات وإمدادات العدو من مصراتة وطرابلس، وتقدمت قوة المجاهدين إلى " غزّيل " قرب مصراتة، وهناك تقرر ان يقوم القسم الأكبر من المجاهدين والذي يتألف من أربع مجموعات على رأسها الضباط: عبد السلام التركي، وابراهيم شنينة، وسعيد جهور، والهادي القماطي، بالاضافة الى قوة من الفرسان والمشاة المجاهدين بقيادة " عون سوف "، ويبلغ اجمالي هذه القوة (1500) مسلحاً تقريباً، وتقوم بالهجوم على العوكلي حيث يقود هذه القوة المجاهد محمد الفقيه.

والجدير بالذكر، ان " زاوية المحجوب " تقع الى الغرب من المواطين قرب مصراتة، وتنسب إلى ابراهيم المحجوب الذي أسس زاوية لتعليم وحفظ القرآن الكريم، فسميت المنطقة نسبة الى هذه الزاوية.

أما بالنسبة للقوة الثانية التي شكلها المجاهدون فكانت أقل عدداً من الأولى ويقودها " على أبو جبيل " و " وشتيوى الكريك "، ويبلغ عدد أفرادها حوالي مئة مسلح، وأوكلت إليها مهمة محاصرة البيت الذي يحتمي به العميل " علي القريتلي " وفرقته، والذي يعتبر بمثابة حصن أقيمت حوله المتاريس والأسلاك الشائكة للحيلولة دون اقتحامه.

انطلقت القوتان الى أهدافهما في آن واحد، واتخذت القوة الأولى من سواني العوكلي مقراً لعملياتها الحربية لأهمّيته الاستراتيجية المتمثلة في توفر مصادر المياه وأشجار النخيل ووفرة محصول البلح، بالاضافة الى موقع وطبيعة المنطقة التي تساعد على التخفي والتستّر، واقامة المتاريس والخنادق خلال تمركزها، هذا بالاضافة الى قطع خط الرجعة على الأعداء وقطع طرق التموين والامداد. ووضعت خطة بارعة للانقضاض على العدو، وذلك بدمج العساكر النظامية والمجاهدين تحت قيادة واحدة بقيادة محمد الفقيه، ونصب المدافع والرشاشات في مناطق مرتفعة على خط العدو، ومرابطة المسلحين في خنادقهم وعدم إطلاق النار إلا عند الإذن لهم بذلك من القيادة، واختير موعد الهجوم وقت تناول الافطار لإرباك العدو، كما تمّ إجلاء السكان القريبين من المنطقة.

وفي فجر السابع من أيلول / سبتمبر سنة 1923، فوجئ الأعداء بالهجوم، وأبلى

فيهم المجاهدون بلاء حسناً، وقد توغلوا بين صفوف الطليان والأحباش وأربكوهم، وسقطت أعداد هائلة من الأحباش والطليان قتلى، الأمر الذي دفعهم إلى طلب النجدة من مصراتة وزليطن. ووصلت امدادات هائلة من قصر أحمد للأعداء، وكادت المعركة أن تتحول لصالح الايطاليين، وأصبحت الذخيرة على وشك النفاذ من المجاهدين، الأمر الذي دفع المجاهد ابراهيم السويحلي إلى استصدار أمر بالانسحاب، إلا أن القادة والضباط المساعدين قرروا، بعد التشاور، الصمود ومواصلة الكفاح حتى الليل، معلّلين قرارهم بأنهم اذا فعلوا ذلك يسهل على الأعداء تتبّعهم والقضاء عليهم في أرض منبسطة تنعدم فيها وسائل التخفي ولا ملاذ ولا ماء فيها. واقتنع ابراهيم السويحلي بالفكرة.

هكذا استمر المجاهدون في صمودهم حتى الليل وحققوا نصراً هائلاً على الأعداء الذين انسحبوا الى " المواطين " تاركين خلفهم قتلاهم وكميات كبيرة من الذخائر والأسلحة والتموين والخيام. وكانت هذه الغنائم بالنسبة للمجاهدين خير معونة لهم على الاستمرار ومواصلة الكفاح ضد الغزاة في معارك أخرى.

وقد بلغ عدد قتلى الايطاليين في هذه المعركة اكثر من ثلاثمائة قتيل ومائتي جريح، كما سقط عدد من الشهداء والجرحى من المجاهدين بينهم الشهيد " مفتاح سليمان عوانين " الذي قال فيه الشعراء الليبيون قصائد وأناشيد عديدة نظراً لشجاعته وبطولته.

بعد انتهاء المعركة انتقل المجاهدون إلى مساندة القوة المحاصرة لمنزل " حميدة الأطرش " حيث رفض " علي القريتلي " ورفاقه التسليم، مما دفع ابراهيم السويحلي في اليوم التالي إلى إصدار أمر بقذف المنزل بالمدافع، وقد تمّ ذلك بالفعل وانهار أحد جدران المنزل مما اضطر " علي القريتلي " ومن معه الى التسليم، وتمّ أسرهم والاستيلاء على ما بحوزتهم من أسلحة وذخيرة وتموين وخيول. وأرسل " علي القريتلي " إلى السدّادة بـ " نفد " حيث جرت محاكمته بمقر الحكومة الوطنية، وأصدرت المحكمة برئاسة عمر الميساوي أحكامها بالإعدام شنقاً لعلي القريتلي، وانتقل المجاهدون بعدها إلى الغريفة حيث تمّ تنفيذ حكم الاعدام بحق بعض القادة والمساعدين من رفاق علي القريتلي، كما تمّ اطلاق سراح بعضهم الآخر.

وهكذا استطاع المجاهدون تحطيم أكبر حصنين من حصون الأعداء في مصراتة،

والقضاء على أحد كبار عملاء الطليان الذي ما انفك يرهب المواطنين الأحرار، ويستولي على أرزاقهم، بل يعتدي حتى على النساء أحياناً، فانكمش بذلك الطليان في " المواطنين " في " مصراتة المركز " وتمّ قطع امداداتهم الآتية من قصر أحمد شرقاً، كما حوصروا من الغرب بعد الاستيلاء على زاوية المحجوب، وظلوا هكذا محاصرين قرابة الشهرين.

وقد أسهمت هذه الانتصارات في رفع الروح المعنوية للمجاهدين، وتقوية عزيمتهم واستعدادهم للسير قدماً في سبيل تحرير أرضهم ووطنهم والقضاء على المحتل الايطالي الغاصب.

والجدير بالذكر، أن عدداً من الشعراء الليبيين الشعبيين، تناولوا هذه المعركة في قصائد وأشعار خلّدت مأثرتها، وما زال الليبيون يرددونها حتى اليوم، ويفخرون بشهدائها وجرحاها، بينما يلعنون ويشتمون عملاء الايطاليين من أبناء البلاد الذين خانوها وغدروا بشعبها في سبيل مصالحهم الشخصية الرخيصة، فكان نصيبهم الاعدام.

المراجع

1 – محمد خليفة التليسي " معجم معارك الجهاد في ليبيا " دار الثقافة. بيروت. الطبعة الثانية 1973. والدار العربية للكتاب 1983. ص 261 – 262.

2 – محمد خليفة التليسي " بعد القرضابية، دراسات في تاريخ الاستعمار الايطالي في ليبيا – طرابلس الغرب 1922 – 1930 " طرابلس – تونس. الدار العربية للكتاب 1978.

3 – محمد مسعود فشيكة " رمضان السويحلي... " مكتبة الفرجاني. طرابلس. الطبعة الأولى 1974.

4 – مذكرات محمد الفقيه عبد الملك – دار المحفوظات التاريخية. ملف الجهاد الوطني.

5 – الظاهر الزاوي " جهاد الأبطال في طرابلس الغرب " دار التراث العربي. ليبيا. الطبعة الثانية 1973.

6 – الطاهر الزاوي " معجم البلدان الليبية " طرابلس – مكتبة النور. الطبعة الأولى 1968.

7 – " من معارك الجهاد الليبي في المنطقة الوسطى 1923 – 1928 ". منشورات جامعة الفاتح – مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الايطالي –. ليبيا 1983.

8 – أشرطة المكتبة الصوتية لمركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الايطالي الخاصة بمعركة " زاوية محجوب " و " العوكلي ".

معركــة الزرّاعـة

" في غور الأردن عام 1948 "

أثبتت وقائع التاريخ في كل زمان ومكان، أن إرادة أيّ شعب مـن الشـعوب، مهمـا كان صغيراً وقليلاً في عدده، تصمّم على القتال والكفاح ضد الأعداء، لا بد أنهـا ستنتصر في النهاية، وليس بغير التصميم، والارادة الفولاذية، يُزَاحُ كابوس الـذلّ ونـير الاضطهـاد، لتعلو راية الحرية خفّاقَة؛ إذ كما يقول الزعيم الفيتنامي الكبير " هوشـي مينـه ": " لا شـيء في الدنيا أغلى من الحرية، ولا أثمن من الاستقلال ". وليست معركة " الزرّاعـة " إلا مـن هذا القبيل.

ومعركة " الزرّاعة " هي أول معركة حصلت في غور الأردن، بين قوّة من جيش الإنقاذ بقيادة المقدم محمد صفا من جهة، والعدو الصـهيـونـي الموجـود فـي مـسـتـعـمـرة " الزرّاعة " من جهة ثانية، وذلك في ليلة 16 – 17 شباط سنة 1948.

تقـع مستـعـمـرة " الـزرّاعـة " فـي الجهة الغربية من غور الأردن جنوبي مدينـة " بيسان " وأراضيها غورية خصبة طينية، وتحيط بالمستعمرة والمستعمرات المجاورة لهـا برك المياه التي أقامها الصهاينة لتربية الأسماك واستعمالها للدفاع عن المستعمرات وقـت الحاجة.

وفي شـباط / فـبراير 1948، وخـلال العمليـات الحربيـة التـي جـرت قبـل دخـول الجيوش العربية إلى فلسطين، أصـدر فـوزي القـاوقجي قـائد جيـش الانقـاذ المتواجـد علـى أرض فلسطين أمراً للمقدّم محمد صفا قائد أحد أفواج هذا الجيش، بمهاجمـة المسـتعمرات اليهودية في قطاع غور الأردن، فانتهز المقدم صفا تحسّن الجو في ليلـة 16 – 17 شـباط 1948، وهاجم مستعمرة " الزرّاعة " رغم صعوبـة الحركـات فـي هـذه المنطقـة فـي هـذا التـاريخ. ولقـد كلفـت بـالهجوم سـريّة واحـدة مـع فصيـل إسـناد، كمـا كلفـت سـريّة أخـرى بالتظـاهر بالهجوم أمام مستعمرتين مجـاورتين لتحـول دون وصـول قـوات نجـدة إلـى هـذه المستعمرة. وترك بقية قوات الفوج في الاحتياط.

بدأ الهجوم في الساعة 23،45 من يوم 16 / 2 ، وحقق المهاجمون المفاجأة، ووصلت الوحدات، رغم هطول المطر وصعوبة الحركة في أرض طينية لزجة، الى الأسلاك الشائكة المحيطة بالمستعمرة حينما بدأ الصهاينة باطلاق النار من مخافرهم الأمامية، ولكن المجاهدين تمكنوا من قطع الأسلاك، وأجبروا الصهاينة على التخلي عن مخافرهم، واندفعوا الى داخل المستعمرة حيث دارت بين الفريقين معركة شوارع عنيفة استمرت حتى الصباح، وأبدى فيها جنود جيش الانقاذ بسالة كبيرة. وكانت إشارات الاستغاثة المنطلقة من المستعمرة لا تنقطع طوال المعركة، بينما كانت السريّة التي أوكلت إليها مهمة التظاهر بالهجوم على المستعمرتين المجاورتين تقوم بدورها فتحول دون خروج نجدات منهما. لذا دفع الصهاينة بالنجدات من مستعمرات أخرى. وعند وصول هذه النجدات اشتبكت مع جنود المقدم صفا بقتال عنيف خارج مستعمرة " الزرّاعة "، فأصيبت بخسائر فادحة واضطرت الى التراجع. وغدا واضحاً أن مصير حامية المستعمرة ميؤوس منه، وان استسلام الباقين في " الزرّاعة " وشيك الوقوع. ولكن الأمور تبدلت مع طلوع الصباح ووصول قوة بريطانية لانقاذ المستعمرة. وهنا أصدر المقدم محمد صفا أمره إلى الجنود بفك الاشتباك والانسحاب إلى القواعد الجبلية، ونجت بقايا حامية المستعمرة من التدمير أو الأسر.

والواقع، أنه لا بد من الاشارة إلى أهمية جيش الانقاذ وأفواجه العديدة، وخصوصاً فوج اليرموك الثاني منه، الذي كان بقيادة المقدم محمد صفا (وهو سوري)، كما كان معظم رجاله من المتطوعين السوريين وفيهم فلسطينيون تدرّبوا في معسكر " قَطَنَا " بسوريا وبعض المصريين والحجازيين. وكان الفوج يتألف من ثلاث سرايا يقود الأولى الملازم الأول غسان جديد، والثانية الملازم الأول فتحي الأتاسي، والثالثة الملازم الأول حسن مهنا، والضباط الثلاثة سوريون.

وبلغ عدد رجال الفوج 630 شخصاً مزوّدين بـ 614 بندقية و 18 رشاشاً خفيفاً وأربعة مدافع هاون عيار 60 ملم. وقد زوّد كل مقاتل بمئتي طلقة وقنبلتين يدويتين. وخصص لكل رشاش أربعمائة طلقة.

وقد طلب فوزي القاوقجي قائد جيش الانقاذ من المقدم محمد صفا أن يقوم بهجوم على احدى المستعمرات في المنطقة الوسطى لاستطلاع قوة العدو ومعرفة المزيد

عنه وتغطية عمليات عبور قوات أخرى من جيش الانقاذ تحمل سلاحاً ثقيلاً، كان نقله إلى الجهات المقصودة المحددة أمراً صعباً، بعد أن فكّ الجيش البريطاني جسر دامية القائم فوق نهر الأردن على طريق السلط – نابلس الرئيسة. وهكذا اختار قائد الفوج هدفاً للهجوم مستعمرة " الزرّاعة " في غور الاردن الى الجنوب الشرقي من مدينة بيسان، ويسمّيها الصهيونيون " طيرة تسفي ". وهي مستعمرة هامة، في الحقيقة، لأن فيها محطة لتوليد الكهرباء، وآلة ضاخّة لاستخراج الماء، وبرك واسعة لتربية الأسماك. وقد حصّنت تحصيناً جيداً شأنها شأن باقي المستعمرات، وأحيطت بالخنادق والأبراج والاسلاك الشائكة. وكانت ميزة البرك أنها معدّة فوق ذلك لتساعد في الدفاع عن المستعمرة عند الاقتضاء. وهي تطلق مياهها في خنادق مجهزة لتغمر اتجاهات يحتمل أن يتم منها الاقتراب من المستعمرة. وفي الوقت المحدد، ورغم تحسن الجو، حيث لم تكن الأمطار قد انقطعت منذ شهر تقريباً، أصبح غور بيسان أشبه بمستنقع يجعل الحركات الحربية غير ممكنة في الأراضي المحيطة بالمستعمرة.

ورغم ذلك، أعدّ قائد الفوج ترتيباته للهجوم، الذي فاجأ الصهيونيين. وبعد بدء الهجوم بقليل، عاد المطر يتساقط بشدة، فقطع المجاهدون الاسلاك وتراجع الصهيونيون عن مراكزهم الأمامية.

وفي الساعة الرابعة من صباح 17 شباط تقدم أربعة من مغاوير السريّة يحملن أربعة صناديق مليئة بالألغام باتجاه برج المراقبة. وقد جابهتهم نيران الصهيونيين الغزيرة، كما اعترضهم خندق طافح بالماء فاجتازوه. وتمكن أحد المغاوير من الوصول إلى البرج الرئيس، ووضع اللغم وأشعل الفتيل ولكنه انطفأ بسبب المطر. وكان مصير الفتيل الثاني مثل سابقه. ولما لم ينجح عاد إلى الخندق.

وفي الساعة الخامسة صباحاً، تقدم المشاة بقيادة قائد السريّة الأولى (الملازم الأول غسان جديد) تحت حماية نيران مدافع الهاون ونيران السريّة الثالثة ((الملازم الأول حسن مهنا) من ناحية التل المجاور. وقد تمّ تدمير عدد من بيوت المستعمرة والبرج الكشاف. ولكن المشاة لم يستطيعوا التقدم بعيداً لأنهم وجدوا أنفسهم وسط منطقة مغمورة بالمياه التي نتجت عن المطر الغزير المتواصل وتدفّق مياه البرك التي أطلقها

المدافعون عن المستعمرة.

وغاص المشاة المتقدمون في الماء والطين حتى مستوى الركبة، واشتبكوا بالرغم من ذلك في قتال عنيف مع مواقع العدو. وكان لبطء التقدم أثره في زيادة الاصابات، يضاف إلى ذلك، وصول نجدات صهيونية من المستعمرات المجاورة وقوة بريطانية لمساعدة صهيونيّي " الزرّاعة ". ولهذا أصدر القائد محمد صفا، قائد الفوج، الأمر بالانسحاب، وتولى هذا الانسحاب فصيل من السريّة الثانية، حيث انتهى في الساعة الثامنة والنصف من صباح 17 شباط.

كانت خسائر جيش الانقاذ في هذا الهجوم 37 شهيداً وعدداً اكبر من الجرحى، أما خسائر الصهاينة فكانت كما قال الكولونيل الانكليزي " نلسون " (Nelson)، 112 قتيلاً وعدداً من الجرحى. مع العلم ان السكان العرب كانوا قد طردوا من قريتهم في " الزرّاعة " في عهد الانتداب البريطاني بعد أن باع المالكون الكبار الغائبون، أراضيهم التابعة للقرية الى الصهيونيين الذي أقاموا على أنقاضها مستعمرة " طيرة تسفي " في عام 1937. وكان يعيش في المستعمرة عام 1950 نحو 367 صهيونياً. وقد نقل الانكليز قتلى الصهيونيين في معركة الزرّاعة بسياراتهم إلى بيسان، ولم يُعْرف عدد الجرحى منهم. وأثبتت هذه المعركة، التي كانت عبارة عن إغارة ليلية، أن الصهاينة كانوا في تلك الفترة يقاتلون دفاعياً داخل التحصينات التي يحرصون على عدم مغادرتها، خاصة وأن أسلحة جيش الانقاذ وأسلحة المجاهدين (وهي القوات التي كانت تجابههم آنذاك) كانت خفيفة قليلة التأثير في التحصينات، ولا تصلح لعمليات خرق المواقع المنيعة.

ولم تحقق معركة " الزرّاعة " الأهداف المحدّدة لها للأسباب التالية:

1 – الجهل التام بطبيعة الأرض وطبيعة دفاعات العدو وقوته وأسلحته.

2 – الطقس والتوقيت السيئان اللذان اختيرا لتنفيذ العملية.

3 – عدم توافر نيران مدفعية كافية لستر العملية ودعمها. وقد كان لهذا الفشل في أول معركة يخوضها هذا الفوج أثر كبير في معنويات أفراده. وأثبتت للقيادة العليا واللجنة العسكرية في دمشق الحاجة الى المزيد من التدريب والسلاح.

ومهما يكن من أمر، يبقى لجيش الانقاذ، قادة وكوادر وأفراد، دور مهم ومميّز

في مقارعة العدو الصهيوني ومقاتلته باعتباره من ألدّ الأعداء، مغتصبي الأرض ومشرّدي الشعب من دياره وبيوته. ولو خسر بعض المعارك ضدّ الصهيونيين، إلا أنه سجل صفحات مشرّفة ولا شك في تاريخ الصراع العربي – الصهيوني، في حين سجلت بعض الأنظمة العربية صفحات سوداء في هذا التاريخ، بعد أن سلّحت جيشها بأسلحة فاسدة، فضلاً عن التآمر المفضوح للبعض الآخر. وهذه حقيقة لا يمكن للتاريخ أن يتجاهلها، ولو عاشت في بعض الأحيان قسراً في طيّ الكتمان.

المراجع

1 – مصطفى مراد الدبّاغ " بلادنا فلسطين ". الجزء السادس. القسم الثاني. بيروت 1974.

2 – عارف العارف " النكبة ". الجزء الأول. بيروت 1956.

3 – مذكرات فوزي القاوقجي عن فلسطين. اعداد خيرية قاسمية. منشورات دار القدس. بيروت 1975. ص 150 – 151.

4 – الموسوعة العسكرية. الجزء الثالث. باشراف المقدم الهيثم الأيوبي. المؤسسة العربية للدراسات والنشر. بيروت. الطبعة الثانية 1985. ص 453 – 454.

5 – الموسوعة الفلسطينية. الجزء الثاني. اشراف أنيس صايغ. دمشق. الطبعة الأولى 1984. ص 510 – 512.

معركــة زرْعِيْـنْ

تعتبر معركة " زرعين " لؤلؤة في عقد الانتصارات التي أحرزها جيش الانقاذ في فلسطين ضد القوات الصهيونية سنة 1948. وقد انتصر فيها على العدو الصهيوني قبل انسحاب الجيش البريطاني ودخول الجيوش العربية النظامية الأراضي الفلسطينية وبدء الحرب العربية – الإسرائيلية الأولى.

تقع قرية " زرعين " الفلسطينية على مسافة 11 كلم شمالي مدينة " جنين "، وشرقي سهل " مرج ابن عامر "، وقد قامت في هذا السهل على بقعة " يزرعيل الكنعانية "، ولا تزال البقايا الأثرية القديمة موجودة بين خرائب زرعين. ومن معالمها الأثرية بقايا بناء معقود وكنيسة من القرون الوسطى، وأسس، وصهاريج، ومعاصر خمور ومغاور. وتعتبر زرعين بالاضافة الى أهمية قيمتها الاقتصادية، ذات قيمة استراتيجية كبيرة. إذ أنها تحتل موقعاً متوسطاً بين مستعمرة " العفولة " الصهيونية ومنطقتي " جنين " و " المثلث العربي " العربيتين في ذلك الوقت. وهي تتحكم بالمدخل الشمالي لمنطقة " المثلث العربي "، كما تسيطر على الطريق العام " بيسان – العفولة " الذي يصل بين المستعمرات اليهودية في منطقتي " الغور " و " المرج ".

وفي السادس من آذار 1948 دخلت قوات جيش الانقاذ الأراضي الفلسطينية (حوالي 2500 مقاتل)، وتمركزت في العاشر منه (أي بعد أيام أربعة) في المنطقة المحددة بين " غور بيسان " شرقاً، وبلدتي " قاقون " و " والطيرة " غرباً حتى قلقيلية. وكانت " زرعين "، حد المنطقة الشمالي، ولقد تمركزت وحدات جيش الانقاذ فيها وجعلتها قاعدة أساسية لها، ونشرت الحاميات الصغيرة في قريتين قريبتين منها هما: " نوريس " التي تبعد حوالي 4,5 كلم جنوبي شرقي " زرعين "، و " صندلة " التي تبعد حوالي 3,5 كلم جنوبي " زرعين "، وانطلاقاً من قاعدة " زرعين "، بدأ جيش الانقاذ أعمال الاستطلاع للمنطقة المحيطة به، وكان توجهه العام تجنّب الصدام مع القوات الصهيونية المتمركزة دفاعياً في المستوطنات، وإجبارها على القتال خارج مواقعها

المحصّنة. ورغم وجود القوات البريطانية التي لم تكن قد انسحبت بعد، فقد لجأت حامية " زرعين " إلى قطع طريق " بيسان – العفولة " بصورة تامة، ففصلت بذلك بين المستوطنات الصهيونية في " الغور " و " المرج ". وقام الصهاينة إثر ذلك بأكثر من محاولة لفتح الطريق أو تدمير قاعدة زرعين. ووقعت من جراء ذلك عدة صدامات على جبهة " نورس – زرعين " شمالاً، وجبهة " طولكرم – بيادر العدس – الطيرة – قاقون " غرباً. ولكن المحاولات الصهيونية باءت كلها بالفشل.

ولجأت القيادة البريطانية الى اتخاذ التدابير الرامية الى التخفيف عن الصهاينة والضغط على جيش الانقاذ للانسحاب من " زرعين " وحرمانه من السيطرة على الطريق الحيوي في هذه المنطقة التي كانت محط أطماع الغزاة للتحكم بمسالك الطرق والدروب عبر فتحة سهل مرج ابن عامر من جهة، وللحصول على مصادر المياه والخيرات من جهة ثانية. هذا بالاضافة الى ان بقعة " عين جالوت " التي شهدت انتصار المسلمين على المغول في " معركة عين جالوت " الحاسمة، تقع في منتصف الطريق بين قريتي نورس وزرعين.

افتعلت القيادة البريطانية سلسلة من الحوادث الاستفزازية في منطقتي " طولكرم " و " نابلس "، بالاضافة إلى اعلانها عن اجراء مناورات عسكرية بالقرب من زرعين. وكان من بين الحوادث الاستفزازية تسيير قافلة من الدبابات البريطانية على الطريق العام " بيسان – العفولة ".

واجهت قيادة جيش الانقاذ هذه الضغوطات والتهديدات المباشرة بصلابة، وقام جيش الانقاذ بتدمير جسرين على طريق بيسان – العفولة مقابل زرعين اثناء مرور القافلة البريطانية. وقد ظهر من جراء هذه الحادثة ان الصهاينة كانوا يستخدمون بعض سياراتهم للمرور مع قافلة الجيش البريطاني. وعندما انسحبت القوات البريطانية من المنطقة، تجمعت لدى قيادة جيش الانقاذ معلومات عن حشودات صهيونية كبيرة في مستعمرة العفولة طوال يومي 17 و 18 آذار. وكانت القوات الصهيونية تأتي من مستعمرات " المرج " و " بيسان ". فقامت القيادة العربية بانذار جميع قواتها في المنطقة، حيث توقعت أن يشن العدو هجومه على زرعين نظراً لأهميتها كنقطة مسيطرة على خطوط

المواصـلات. ثـم أتبعت ذلك بعدد من الاجراءات العملية بعد تعزيز حـاميتي " نوريــس " و " زرعـين " وزيـادة عـدد الدوريـات الليلية فـي المنطقـة، بالاضافـة الــى تكويـن قـوة احتياطيـة فـي قريـة " المـزار " (التـي تبعـد كيلـو مـتراً واحـداً عـن نوريـس) يكـون فــي استطاعتها الدخول فــي المعركـة فـوراً. وفـي السـاعة 22,00 مـن يـوم 19 آذار 1948، وبينما كانت احدى دوريات جيش الانقاذ متجهة نحو " نوريس "، اصطدمت بقوات عدوّة جنوبي القرية، وتبادلت معها اطلاق النيران. وقد أدى الصدام مع قوات الصهاينة في ذلـك المكان الى انكشاف خطتهم الرامية إلى الفصل بين " جنين " مـن جهـة و " زرعيـن " مـن جهة أخرى، كمقدمـة للقضـاء علـى حاميـات جيش الانقـاذ فـي تلـك المنطقـة (زرعيـن ، صندلة ، نوريس).

اثر هذا الاشتباك بدأ العدو الرماية على " زرعين " من الشمال، كمـا سلّط نيرانـه على " نوريس " من الشرق، وعلى " صندلة " من الغرب. وكانت كثافة رمايات الرشاشات والهاون تدل بوضوح على ان القوات الصهيونية المهاجمة كبيرة العدد ووافرة المعدات.

وامتدت المعركة إلى كافة المراكز، كما استمر تبادل النيران طوال الليـل. وكـانت القوات الصهيونية تقترب من مراكز جيش الانقـاذ الـذي لـم يستطع زج القـوة الاحتياطيـة للقيام بهجوم مضاد ليلي نظراً لغموض الموقف.

ومـع فجـر 20 آذار 1948، وصلـت القـوات الصـهيونيـة خـط المخـافر الأماميــة لحامية " زرعين ". مما أجبر هذه المخافر على الانسحاب حتى خط الدفـاع الرئيسـي عـن القرية. وكانت القوات الصهيونية قد تمكنـت مـن دخـول قريـة " صندلـة "، واشـتبكت مـع القوات المنتشرة في مساكنها، في حين كانت قرية " نوريس " تتعرض لضغط قوي.

في مواجهة هذا الموقـف الصعـب، أصـدرت قيـادة جيـش الانقـاذ أمـراً إلـى القـوة الاحتياطية المتمركزة في قرية " المزار " بشن هجوم مضاد في اتجاه " نوريس "، ودفعـت سريّة أخرى لدعم الحامية المدافعة عن " صندلة ". وانطلقت هذه القوات الى أهدافها تحـت حماية نيران المدفعية والهاون. وفي الساعة 7,30 تمكنت السريّة المتجهة نحو " صندلة " من الوصول إلى القرية، وباغتت القوات الصهيونية هناك. وقـد أدى هـذا الهجـوم المضـاد المفاجئ الى انسحاب الصهاينة من القرية في حالة من الفوضى والذعر، تـاركين وراءهـم

الكثير من الأسلحة الخفيفة والثقيلة. فطاردتهم مفارز جيش الانقاذ في اتجاه " زرعين – العفولة ".

وفي الوقت نفسه، وصلت القوة المتوجهة نحو " نوريس " الى هذه القرية، ووقع المهاجمون الصهاينة بين القوة المذكورة وحامية " نوريس "، فاضطروا للانسحاب بعد أن تكبدوا خسائر كبيرة، وطاردت وحدات جيش الانقاذ فلولهم المتراجعة نحو الطريق العام " بيسان – العفولة ".

وكانت حامية زرعين لا تزال صامدة في مواقعها، ومستمرة في الاشتباك مع القوات الصهيونية من مسافة قريبة، ولقد أدى انسحاب الصهاينة من " صندلة و " نوريس " الى تدهور وضع القوات الصهيونية المهاجمة لبلدة " زرعين " وعزلها وتهديدها بالتطويق. لهذا طلب الصهاينة من البريطانيين دعماً يساعدهم على التملص.

وفي الساعة العاشرة ظهر على طريق " بيسان – العفولة " رتل من المصفحات والدبابات البريطانية. وأصدر قائد الرتل أوامره الى الطرفين بالتوقف عن القتال وإلا اضطر الى التدخل في المعركة.

ونظراً لضعف قوة جيش الانقاذ وعدم امتلاكه الوسائط المضادة للدبابات اللازمة لمواجهة رتل مدرّع، فقد اضطر إلى قطع الاشتباك وايقاف المعركة مكتفياً بما حققه من نصر. فقام الصهاينة بسحب قتلاهم وجرحاهم تحت حماية القوات البريطانية.

ورغم انه كان من الصعب معرفة حجم خسائر العدو، فقد تبين أن عدد القتلى الذين لم يتمكن الصهاينة من نقلهم يزيد على مئة وعشرين قتيلاً (120 قتيلاً). بالاضافة الى كمية من الأسلحة والذخائر المتنوعة. في حين كانت خسائر جيش الانقاذ قليلة جداً. وقد وصف المراسلون الأجانب الذين زاروا مسرح المعركة وشاهدوا آثارها، بأنها من المعارك الهامة التي حقق فيها جيش الانقاذ انتصاراً كبيراً لا يتناسب مع حجمه الحقيقي، أو مع ميزان القوى الذي كان سائداً طوال القتال.

والجدير بالذكر، ان معظم بيوت بلدة " زرعين " كانت مبنيّة باللِّبْنْ. وهي مندمجة تقريباً، مع وجود بعض الشوارع فيها. وقد اشتملت في وسطها على سوق صغيرة ومسجد ومدرسة تعود إلى أيام الحكم العثماني. وتتوافر مياه الينابيع (عيون الماء)

والآبار في القرية وحولها وتستغل في الشرب والريّ، وأهم عيونها " عين الميتة ". وفي فترة الانتداب البريطاني توسعت زرعين من الناحية العمرانية وأخذت بيوتها تتحسن وتزداد اتساعاً وعدداً حتى أصبح 350 بيتاً فوق رقعة تصل الى واحد وثمانين دونماً.

بلغت مساحة الأراضي التابعة لزرعين 23,920 دونماً منها 1,711 دونماً لليهود و 175 دونماً للطرق والأودية. وتعد أراضي زرعين من أخصب أراضي فلسطين الزراعية واكثرها إنتاجاً. ويُعزى ذلك إلى خصب التربة وتوافر مياه الأمطار والينابيع ونشاط السكان. وكانت أهم محاصيلها الزراعية الحبوب والخضار والأشجار المثمرة والنباتات العلفية.

بلغ عدد سكان زرعين في عام 1945 نحو 1,420 نسمة، ويعود معظم سكانها بأنسابهم إلى مصر. وكانت الزراعة هي الحرفة الرئيسة للسكان. وقد طردت سلطات الاحتلال الصهيوني سكان زرعين العرب من ديارهم عام 1948 ودمّرت قريتهم وأقامت على أراضيها مستعمرة " يزراعيل ".

وفي النهاية، تبقى معركة زرعين سنة 1948 بين جيش الانقاذ والقوات الصهيونية، نقطة مضيئة في سجلّ هذا الجيش (بقيادته وكوادره وأفراده) وصفحة مشرّفة في صفحات تاريخه المجيد. ويكفيه فخراً أنه قام بواجبه على أكمل وجه في الدفاع عن قضية العرب المركزية: فلسطين، انطلاقاً من ايمانه العميق ان العدوان البريطاني والصهيوني على الأمة العربية عامة وعلى فلسطين خاصة، لا يمكن مقارعته سلمياً وبأسلوب المهادنات والمفاوضات وانما بالسلاح والكفاح المسلّح.

ولن يرحل الاستعمار والاحتلال عن أية بقعة من بقاع العالم الا بالكفاح الثوري المسلّح. وهذا ما انتهجه جيش الانقاذ ونجح في تطبيقه معظم الأحيان...

وكما قال المجاهد العربي الكبير فوزي القاوقجي، قائد جيش الانقاذ: " بقيت زرعين شوكة دامية في جسم المستعمرات اليهودية في هذه المنطقة الى أن " اقتلعتها " الجيوش العربية النظامية... ".

المراجع

1 – الموسوعة العسكرية. الجزء الثالث. باشراف المقدم الهيثم الأيوبي. المؤسسة العربية للدراسات والنشر. بيروت. الطبعة الثانية سنة 1985. ص 454 – 455.

2 – الموسوعة الفلسطينية. الجزء الثاني. اشراف أنيس صايغ. دمشق. الطبعة الأولى 1984. ص 512 – 513.

3 – مصطفى مراد الدباغ " بلادنا فلسطين ". الجزء الثالث. القسم الثاني. بيروت 1971.

4 – انيس صايغ " بلدانية فلسطين المحتلة " (1948 – 1967). مركز الأبحاث الفلسطيني. بيروت 1968. ص 171 و 345.

5 – " فلسطين في مذكرات فوزي القاوقجي " الجزء الثاني. إعداد خيرية قاسمية. دار القدس. بيروت. الطبعة الأولى 1975. ص 159 – 160.

معركـة الـزلاّج

مما لاشك فيه أن اغتصـاب الأرض وتدنيسـها مـن قبـل أيـة قـوة اسـتعمارية، هـو جريمة كبرى في قاموس الشعب الذي اغتصبت أرضه وأهينت كرامته. ولن يكفّر الشـعب عن هذه الجريمة إلا بمقاومته لهذا الاستعمار وطرده عن بلاده.

وبالفعل، كان للشعب العربي التونسي نصيبه من هـذه المـرارة الاسـتعمارية، كمـا الحلاوة في مقاومته وكفاحه ضد الاستعمار الفرنسي وحلفائه الطليان، بعد أن شكلّت حادثة " مقبرة الزلاّج " ومعركتها روح المقاومة وشرارة هذا الكفـاح، يـوم السـابع مـن نوفمـبر / تشرين الثاني 1911، باعتبارها من أعظم الاصطدامات التي حدثت بين الشعب التونسـي، والمستعمرين، فمثّلت الانطلاقـة العملاقـة للروح الوطنيـة الصحيحـة، التـي انتهـت بطـرد المستعمر من البلاد.

ومعركة من هذا القبيل، تسـتحق التسـجيل، وأن تعطـى حقهـا فـي سـجلّ المعـارك العربية المرصّع بالدم والبطولات. فما هي هذه المعركة؟ وما هي أسبابها ونتائجها؟؟

أسباب المعركة: تنسب الصحف الاستعمارية أسباب معركة الزلاّج إلـى التعصـب الدينيّ الدفين في القلوب، والذي حركته في زعمهم الحرب الايطالية الطرابلسـية والدعاية الدينية التي بثها الاتراك إذ ذاك في العالم الاسلامي.

ونحن لا ننكر أن الحرب الطرابلسية التـي اندلعـت نتيجـة هجـوم الايطـاليين علـى مدينة طرابلس الغرب فـي 20 سـبتمبر / أيلـول 1911 كـان لهـا الصـدى البعيـد والتـأثير العميق في نفوس التونسيين، ولكننا ننكر أن تكون هـذه الحـرب هـي السـبب الرئيسـي فـي حصول معركة الزلاّج.

فمعركة الزلاّج – في الواقع – حلقة مـن حلقـات المقاومـة الشـعبية المتعـددة التـي كان يعبّر فيها الشعب التونسي – فـي مختلـف الفـرص – عـن غضبـه وعـدم رضـاه عـن الحماية الفرنسية، ويحاول بشـتى الوسـائل أن يتخلّـص من كلكـل الاسـتعمار الجـاثم علـى صدره. وقد ظهرت هذه الانتفاضات في مقاومة المدن والقرى وعند البدو الرحّـل لجيـوش

الاحتلال من أول يوم رغم النداءات التي كان يوجهها الباي إلى الشعب قصد تهدئته والحدّ من غضبته مليئة بالوعود والتطمينات.

وربما اغتنم الفرنسيون الكلمة التي كان الشعب يطلقها على المستعمرين في ذلك الزمن وهي كلمة (النصارى)، فاتخذوا منها ذريعة ليشوّهوا الانتفاضات الشعبية ويصفوها بأنها تعصب ديني، مع أن الواقع الصريح يكذّب هذا الزعم؛ إذ لو كان التعصب الديني دخل في هذه القضية لكانت بوادره ظهرت قبل الاحتلال. فتونس كانت موئلاً لعشرات الآلاف من الايطاليين والفرنسيين والمالطيين وغيرهم من مختلف الأجناس. وكانوا يعيشون في راحة واطمئنان جنباً لجنب مع التونسيين، بل كانوا لا يلاقون إلا التبجيل والاحترام من مختلف الطبقات وينعمون بحماية المواطنين حتى في أيام ضعف الحكومة وعجزها عن بسط الأمن في البلاد. فقد تعرّض التونسي ابن البلاد إلى الإعتداء من طرف قطاع الطرق والثائرين على الحكومة. بينما كان الأجنبي لا يتعرض إلى شيء من هذا كله.

إذن فالمسألة ليست مسألة تعصب ديني ولكنها انتفاضات سياسية يحاول بها الشعب أن يتخلص من الاستعمار، ويسترجع حريته وكرامته. وإذا تعرّض بعض الايطاليين بالخصوص للقتل في معركة الزلاّج فما ذلك إلا ردّ فعل ودفاع عن النفس، ذلك لأن الايطاليين أظهروا ما تكنّه أنفسهم من حقد على هذا الشعب المضياف الذي آواهم وحماهم ومكّنهم من سبل العيش الشريف، فاغتنموا فرصة الواقعة وبدأوا مع الشعب الأعزل بالشر فغدروا وقتلوا وساندوا المستعمرين بأسلحتهم وطعنوا جماهير المتظاهرين من خلف.

قلنا أن السبب الرئيسي في معركة الزلاّج هو غضب الشعب على الاحتلال الأجنبي، وانتفاضة سياسية للتخلص من الاستعمار. بيد أن ظهور هذا الغضب وحصول هذه الانتفاضة كانت له أسباب متعددة تجمعت كلها لتنفجر في ذلك اليوم المعين، ونحن نذكر بعضها في ما يلي:

1 – الحربَ الطرابلسية:

في 20 سبتمبر / أيلول / 1911، أي قبل واقعة الزلاّج بأقل من شهرين، هاجم

الأسطول الايطالي مدينة طرابلس الهادئة المطمئنة على حين غفلة من أهلها وأنزل جيوشه واحتلّ المدينة بنيّة احتلال كامل هذه المقاطعة العثمانية إذ ذاك وسلخها عن الخلافة العثمانية، واتخاذها متسعا لعيش الايطاليين. فقام الشعب التونسي عن بكرة أبيه ضد هذا الغدر الاستعماري وشرع في إعانة المجاهدين بما في المستطاع، وتألّفت اللجان والجمعيات لجمع التبرعات والأسلحة تمدّ بها الأشقاء الطرابلسيين المكافحين، وتقاطرت القوافل المحملة بالمؤن والذخائر تشقّ الحدود الجنوبية في طريقها إلى طرابلس بالرغم من الحراسة المشددة من طرف الفرنسيين الذين كانوا يحاولون منع الأعانات عن المجاهدين الطرابلسيين مساعدة منهم لايطاليا على احتلال البلاد.

وقد شارك في هذا الكفاح جماعة من المتطوعين التونسيين الذين قضى كثير منهم على أرض طرابلس الشقيقة. وكانت الدعاية لفائدة الجهاد الطرابلسي تغمر السهل والجبل والمدن والقرى، بحيث لا يوجد حديث بين التونسيين إلا عن الجهاد بطرابلس وبطولة المجاهدين. وقد سرت هذه الدعاية حتى في أوساط حراس الحدود من التونسيين، فكانوا يغضوّن الطرف أحيانا عن القوافل التي تمر أمامهم لإعالة إخوانهم.

حدثنا المرحوم (محمد بن عبد العظيم المرزوقي) شاويش الصبابحية بالحدود الجنوبية قال: جاءنا أمر بوجوب العثور على قِافلة تتركب من عدة جمال محملة بالاسلحة في طريقها إلى المجاهدين الطرابلسيين يقودها السيد (عبد الله القابسي) وحجزها والقبض على رجالها. فركبت مع اثنين من الصبابحية سالكين المظان التي يمكن أن تمر منها القافلة. وفعلاً لحقنا بها قرب الحدود، وحالما رآنا أصحاب القافلة شهروا أسلحتهم واستعدوا للمقاومة. ولاحظت على رفيقيّ الخوف والرعب، فتركتهما واقفيْن وطلبت منهما انتظاري وقصدت القافلة راجلاً وحدي وسلاحي في يدي. وحين صرت على بعد خطوات منهم صاح بي السيد (عبد الله القابسي) أن: (قف، وإلا قتلت) فأجبته: إنني لم آتِ لحرب وتهديدي بالموت لا يرجعني عن قصدي، فلم يتردد أن أمر باطلاق النار، ولكن أحداً لم يستجب له ولاحظت أن بعضهم دخل معه في مناقشة. ثم أمرني بالتقدم، وانكشف السر حين وصلت وحيّيته إذ تقدم لتحيتي عدة أفراد من أبناء بلدي (المرازيق) وتبيّن انهم عرفوني من صوتي فلم ينفذوا أوامر رئيسهم وأفهموه من أنا، وأنه لا خوف مني إذا

عرف كيف يحرك حماستي ويوقظ ضميري.

قال لي السيد (عبد الله) ماذا تريد منا؟ إننا مسلمون ذاهبون لنجدة إخوانك المسلمين المجاهدين بطرابلس ونحن على خطوات من الحدود، وليس معكم فرنسي من حسن الحظ، فبحقّ الاسلام اتركنا نذهب في سبيلنا وإذا أبيت فاننا سندافع إلى الموت.

فقلت: انتظر حتى استشير صاحبيّ وانطلقت إلى صاحبيّ الواقفين وأفهمتهما أن أصحاب القافلة لا يريدون الاستسلام وأنهم على استعداد للمقاومة، فان رأيتما تنفيذ الأوامر فلنحارب ومآلنا الموت لا محالة، وإن رأيتما ترك سبيلها والادعاء بأننا لم نرها ولم نستطع اللحاق بها فذلك إليكما. فقالا – والرعب ماثل في أعينهما – بل نترك سبيلها ولا نعرّض أنفسنا للموت في سبيل النصارى.

فرجعت إلى السيد (عبد الله) وبشّرته، فضرب بيده إلى جراب جلدي في جنبه وأخرج كمشة من " اللويز " – نقود ذهبية – وطلب مني قبولها على وجه الهدية. فرفضت وصارحته بأنني لا أقبل رشوة عن واجب مقدّس، ولو كان عندي مال لدفعته إلى المجاهدين.

وعقّب المرحوم على حديثه هذا بأنه بعد إحالته على المعاش رأى السيد (عبد الله) بقابس وأكرمه إكراما لا مزيد عليه.

هذه حادثة من عشرات الحوادث التي تدل على عدم إخلاص حراس الحدود لمأموريتهم ومشاركتهم في اجازة قوافل التموين والسلاح للمجاهدين الطرابلسيين.

وكان لتشدّد فرنسا في منع الاعانات عن طرابلس المجاهدة أثر كبير في نفوس التونسيين جعلهم يدركون تآمرها مع الايطاليين على طرابلس فيتحوّل ذلك إلى غضب عارم لا يترك فرصة للظهور إلا اغتنمها.

2 – احتلال مدينة فاس:

وقد سبق حرب طرابلس، واقعة أخرى كان لها التأثير الفعّال في إضرام نار الحقد على الفرنسيين، هي: إحتلال مدينة فاس بعد وجدة ومدن أخرى من طرف القوات الفرنسية الغاصبة في 21 مايو / أيار 1911، متذرّعة حسب عادتها بحماية الجالية الفرنسية. بينما الواقع أن ذلك الاحتلال كان تمهيدا لجبر سلطان المغرب على قبول

الحماية التي وقّعها مرغماً في العام الموالي 1912. وكانت هذه العمليات الاستعمارية محل اتفاق بين الدول الكبرى التي اقتسمت مناطق النفوذ في العالم الاسلامي سرت كل واحدة على ساعد الجدّ لاحتلال المنطقة المعينة لها.

3 - أسباب أخرى:

أضف إلى ما سبق ما كان يجري في البلاد التونسية من استفزازات ومظالم، فمن ضرائب أثقلت كاهل الشعب، إلى احتلال المناصب الهامة في الإدارات الرسمية من طرف الفرنسيين، ومن انتهاك الأراضي الخصبة واعطائها للمعمرين الأجانب وحرمان أهلها منها، إلى تمييز يثير الحفائظ في المرتبات والأجور الخ... مع سكوت السلطة التونسية المتمثلة في الباي وأعوانه عن هذه المظالم وهذا الاغتصاب لجميع سلطات البلاد ومقدراتها. مما جعل الغضب يغلي في النفوس، والنار تضطرم تحت الرماد، في انتظار فرصة يعبّر فيها الشعب عن غضبه ويعلن فيها عن ثورته.

وكان من أعظم هذه المظالم وأشدها وقعاً على الشعب هي مظلمة الضرائب التي كانت تتراكم وتتوسع عاماً بعد عام حتى أثقلت كاهل الشعب الفقير الضعيف، فكانت الأموال تسلب من الشعب لتموّل بها السلطة الاستعمارية مشاريع الاستعمار. وكان الشعب قريب عهد بثورة عارمة على الضرائب التي أحدثها الصادق باي قبل الاحتلال، تلك الثورة التي عُرفت بثورة (علي بن غذاهم) وجاءت فرنسا فلم تكتفِ بالضرائب القديمة التي ثار من أجلها الشعب بل أضافت لها ضرائب جديدة متنوعة لايعرف لها أول ولا آخر، حتى أصبح التونسي لا يكاد يدفع ضريبة حتى يحلّ عليه دفع أخرى وهو لا يكاد يفرق بينها.

ولم يستطع الشعب إعلان الثورة المسلحة ضد الضرائب كما فعل من قبل، فقام بالاحتجاجات والعرائض والمقالات في الصحف. ومن هذه الاحتجاجات رسالة ألّفها المرحوم محمد الشاذلي درغوث أحد رجال الحركة الوطنية في ذلك الوقت وطبعها ووزعها وأرسل نسخاً منها للسلطات المحلية في شهر سبتمبر / أيلول 1910 وكان عنوان هذه الرسالة: (رسالة الشكوى الأهلية من كثرة الضرائب والصانتيمات الإضافية) وتقع في ثمانية فصول وخاتمة و 55 صفحة.

وجاء في خاتمة الرسالة ما يلي: " إن التونسيين أجمعين يطلبون من الدولة إسقاط هذه الضرائب التي لم يبق ريب في فداحتها والعمل في قيس المزارع بالذر لا بالمساحة كما كانت الحالة من قبل. ويؤملون منها التخفيف من غيرها إذا كان لها قصد في عمران المملكة وسعادة أهلها، وقد تبيّن بالمحسوس أن الجباية التونسية كثيرة، وفوق مقدرة أهلها، فالرفق فيها مما يعين على انتشار عمرانها. فإذا قيل لنا أن الدولة محتاجة إلى المال لكثرة مشاريع الاصلاح عندها نجيب القائل بأن الاصلاح أمر حسن ومراعاة الثروة الأهلية وحفظها من التلاشي أحسن منه.

وقد كان في الامكان التأني في إنجاز المشروعات العامة والسير بها على مقتضى ثروة المملكة وبهذا الصنيع يتم الاصلاح بدون أن تمس مكاسب السكان بسوء وهذه حقيقة لا جدال في لياقتها وحسنها.

على قدر الكساء أمدّ رجلي فإن طال الكساء أمدّ أخرى

ويطلب التونسيون أيضاً من الدولة باسم الإنسانية التسوية في الضرائب مع الأوروبيين لأن إعفاء هؤلاء من بعضها لا يليق صدوره من دولة شعارها العدل والمساواة فالتسوية فيها فوائد كثيرة، منها حصول الخفة في التوزيع كما قال الشاعر:

إذا الحمل الثقيل توزعته أكف القوم خفّ على الرقاب

ومنها امتلاك القلوب لأن العدل هو الوسيلة الوحيدة في جلبها والاستحواذ عليها. فاذا كان الأوروباوي يمتنع من الضرائب ويأنف منها على ما هو عليه من الغنى والعلم والمقدرة على كسب العيش فكيف بالأهلي الفقير الجاهل العاجز؟.

ونلاحظ هنا أن الشكايات التي قام بها الأهالي لم يكن القصد منها معارضة الدولة أو التنكيل بأحد ما وإنما القصد منها دفع ضرر تصوره التونسي بوجه قطعيّ؛ ويؤيد هذا طباعه التي عرف بها وهي لين الجانب والانقياد، وقد برهن مراراً عديدة على اعتباره للدولة وانقياده لرجالها، ولكن لكل شيء حداً يقف عنده فقد بلغ السيل الزبى وطفح الكأس وعيل صبر التونسي من الأداءات المتراكمة التي قصر باعه وعجز كيسه عن الوفاء بها. فشكوى الأهالي من الضرائب الجديدة معقولة وحجتهم على فسادها واضحة لا غبار عليها، وهي من باب من كلف مأموره فوق طاقته مهّد له عذرا في مخالفته، ومن أراد أن

يطاع فليأمر بما يستطاع. ولنمسك عنان القلم وأختم الرسالة وإن كان موضوعنا قابلا للزيادة في البسط والإطناب، لأن خير الكلام ما قل ودلّ، وأقدّمها إلى رجال الدولتين الحامية والمحمية راجين منهم النظر بما يعود على الرعيّة بالصلاح ويسوقهم إلى طريق النجاح حتى يرجع إلى المملكة عمرانها الذي كان لها في قدم أزمانها بالأشجار الباسقة والثمرات المتناسقة، وذلك ليس بغريب الحصول عليه إذا سُلكت الطرق الموصلة إليه، فأحسن شيء لدى النفوس الكريمة ومحبي الخير للبشر تمام العمران المنتشر ".

4 – مقبرة الزلاّج:

وجاءت هذه الفرصة متمثلة في محاولة بلدية تونس تسجيل مقبرة الزلاّج، وقبل أن نتحدث عن هذا التسجيل وأسباب معارضة الشعب له يجب أن نذكر شيئاً عن هذه المقبرة وأصل تسميتها وتحبيسها على أموات المسلمين.

عنّ للسيد محمد الزلاّج القيرواني أن يشتري داراً بتونس العاصمة. وكان رجلاً تقيّاً صالحاً، فسلّم نصيبا من المال لأحد غلمانه وأرسله للعاصمة لهذا الغرض. وحضر هذا الغلام التقي الصالح كسيده إلى تونس، ودخل الجامع الأعظم للصلاة، فشاهد صفوفاً من جنائز الموتى جاء بها أهلها للصلاة عليها بالجامع، ودفعته عاطفته الدينيّة للخروج وراء الجنائز مع المشيّعين وشاهد ضيق المقابر الموجودة بالعاصمة مع كثرة الأموات الناتجة عن أنتشار الأمراض وقلة العناية بالصحة العامة. وسمع تشكيات التونسيين من عدم وجود مقبرة فسيحة الرقعة لتقبّل أموات المسلمين، ففكر الغلام في الأمر – وكان يعرف أن سيده ليس في حاجة إلى دار للسكن – وأن قصده في شرائها إنما هو استثمار مال زائد عن حاجته وكان يعلم ما عليه صاحبه من صلاح وحب لأعمال البّر والخير، فاندفعت إلى عقله فكرة قام بتنفيذها في الحال.

سأل عن أرض تقع بضواحي العاصمة تصلح مقبرة للمسلمين فدلّوه على " هنشير " معروض للبيع على ملك أحد اليهود، وكان هذا الهنشير يمتد من خارج " باب علاوة " إلى مقربة من جبل الجلود جنوباً ومن ساحل بحيرة تونس إلى قرب " باب القلة " غرباً ويشمل كامل مساحة " جبل التوبة " المعروف " بجبل سيدي أبي الحسن " الآن، فبادر الغلام بشرائه من اليهودي وأوقفه باسم سيده " محمد الزلاّج " على أموات المسلمين.

ورجع إلى صاحبه الذي سأله: هل أشتريت الدار، فأجابه: إني اشتريت لك داراً في الآخرة. وحدّثه عما فعل فصادق على ما فعل وشكره على تصرفه.

وهكذا أصبح " هنشير " اليهودي القديم مقبرة للمسلمين نُسب إلى واقفها (محمد الزلاّج) وتلقّت عدداً عظيماً من العلماء والصلحاء والأمراء والأعيان، بحيث تعتبر أقدس مقبرة لدى سكان العاصمة وخير مزارٍ يتبركون بقبوره ويتلقون العظة والعبرة من سكان روضاته وقبابه.

ومما زاد في هذه المقبرة اعتبارا لدى السكان وأُسبغ عليها قدسية خاصة اشتمالها على (مغارة أبي الحسن الشاذلي) الصوفيّ المشهور المنتشرة طريقته بين السكان منذ فجر القرن الثامن للهجرة. وهذه المغارة كانت موضع عبادة الشاذلي واعتكافه أيام وجوده بتونس ولا يزال أصحاب طريقته يزورونها أسبوعياً ويعقدون فيها حلقات الذكر والاوراد الشاذلية، كما تضم المقبرة قبور كثير من العلماء الأعلام الذين طارت شهرتهم في الآفاق أمثال ابن عرفة الفقيه المشهور.

ولما كانت هذه المقبرة وقفاً من أوقاف المسلمين، فهي راجعة – قانونياً – إلى نظر (جمعية الأوقاف). بيد أن هذه الجمعية أعلمت البلدية التي تهمها مسألة الأموات بأنها – أي الجمعية – لا تستطيع الاشراف على هذه المقبرة التي لا تتمتع بأي وقف يضمن لها دخلاً يقوم بشؤونها فتولت البلدية أمر المقبرة والقيام بشؤونها بصفة رسمية.

كان بعض الناس قد عمد إلى فتح محاجر في جبل التوبة الداخل في أرض الوقف يقتطعون منها الأشجار المعدّة للبناء، فاتخذت البلدية ذلك ذريعة لتسجيل أرض المقبرة وقدمت في ذلك طلبا إلى المحكمة العقارية المختلطة بتاريخ 20 سبتمبر / أيلول 1911 ممضي من كاهية رئيس البلدية – حينذاك – ومن المعروف أن رؤساء البلدية في ذلك الوقت ليسوا إلا آلات تقتصر مهمتهم على إمضاء ما يقدّم إليهم من المهمات؛ إذ أن النفوذ الحقيقي في البلدية وتصريف شؤونها كان بيد كاهية البلدية المفوض الفرنسي يعتمد على أغلبية من الأعضاء الفرنسيين في المجلس الذي توجد فيه أقلية من التونسيين المعيّنين تعييناً من طرف الفرنسيين.

ونُشر مطلب التسجيل في الرائد الرسمي التونسي في شهر اكتوبر / تشرين الأول

1911 وفقاً للاجراءات القانونية الجاري بها العمل، وعيّن يوم 7 نوفمبر / تشرين الثاني 1911 لعملية التسجيل ووجهت الدعوة إلى سكان العاصمة بوصفهم أصحاب المقبرة لحضور عملية التسجيل بالمقبرة في اليوم المذكور.

ويظهر أن السيد الصادق غيلب – شيخ المدينة ورئيس البلدية – كان معارضاً للتسجيل وراغباً – في دخيلة نفسه – في تعطيلها (فقام بحملة إشهارية واسعة النطاق لحثّ سكان العاصمة على الحضور واستعمل لأول مرة في التاريخ اللافتات الإشهارية ووزعها على كافة الأحياء والدور وأمر بتعليقها في المحلات العمومية والشوارع، وفعلت هذه الدعاية مفعولها في النفوس. فما أن انتشر الخبر حتى تشوش الفكر العام وعم التأثير والإستياء وتحرك ساكن الغضب، وتتابعت الاحتجاجات من كافة الطبقات وطبعت صور الإعتراضات وكان الممضون فيها يعدون بالآلاف) "[1]. يدفعهم لذلك الاعتقاد الشعبي الذي يرى أن العقار المسجّل يتلبّس بالجنسية الفرنسية لأنه يصبح من أنظار المحاكم الفرنسية – قانونيا – والمحكمة العقارية المختلطة، أو – المجلس المختلط – كما كان يسمّى لا ينظر له التونسيون إلا كمحكمة فرنسية لأن رئيسها فرنسي وأعضاءها فرنسيون وتونسيون من رجال الشريعة الذي يعتبرهم الشعب آلات مسيّرة في يد الفرنسيين جيء بهم لتلك المحكمة للدعاية وذرّ الرماد في العيون، هكذا يعتقد الشعب. وقد راجت إشاعة – وما اكثر الاشاعات في مثل ذلك الظرف – مفادها أن القصد من تسجيل أرض هذه المقبرة إنما هو أخذ جانب منها لتشقه السكة الحديدية للتّرام، وقد كان الشعب يبغض شركة الترام لأنها لا تستخدم إلا الأجانب وعلى الأخص الايطاليين، وتسدّ الباب في وجه التونسيين. وسلخ جانب آخر لاضافته إلى الطريق رقم " 1 " الرابط بين العاصمة وجنوب البلاد.

وأمام الاحتجاجات المتهاطلة والجوّ المكهرب في المدينة والإشاعات المتتالية التي تزيد في إضرام نار الغضب والتهجمات على أعضاء البلدية التونسيين، وكان معقل الاحتجاجات والاعتراضات ووقود نار الغضب الرهيب، المساجد والجوامع وعلى الأخص جامع الزيتونة المليء بالشباب المتحمس لاسلاميته وعربيته، وأمام هذا الخطر الداهم

---

[1] – مجلّة الإذاعة التونسية عدد 40 السنة الثانية.

الذي ظهرت بوادره، تقدم المرحوم السيد عبد الجليل الزاوش – النائب البلدي التونسي – يطلب إلى المجلس في اجتماعه يوم 2 نوفمبر / تشرين الثاني 1911 في التراجع عن عملية التسجيل محذّراً المجلس من حصول حوادث خطيرة قد تسيل فيها الدماء. فقررّ المجلس سحب مطلب التسجيل وتقدم بذلك رسمياً إلى المحكمة العقارية المختلطة.

وفي يوم 6 نوفمبر / تشرين الثاني، أعلم شيخ المدينة السكان بعدول البلدية عن مطلب التسجيل في اجتماع بجامع الزيتونة. بيد أن هذا الإعلام لم يصدقه الشعب واعتبره حيلة لابعاده عن المقبرة حتى تتم عملية التسجيل. ولذلك تسرّبت الجماهير يوم 7 نوفمبر منذ الصباح الباكر إلى المقبرة وزاد شكّهم رسوخاً حين وجدوا أبواب المقبرة مغلقة في وجوههم بأمر من السلطة. فتخطّوا الأسوار ودخل منهم جمهور إلى المقبرة بينما ربضت جماهير غفيرة أمام المقبرة في " باب علاوة " والشوارع المؤدية له قدّرت باكثر من عشرة آلاف.

كان يوماً عابساً ينذر بالشر. السماء مظلمة ملبدة بالغيوم، والسحب الكثيفة، والرياح الباردة تزمجر وتصفع الوجوه بلمسات زمهريرها النافذ إلى العظام، والمدينة مغلقة الأبواب، والأسواق خاوية على عروشها. كل شيء غاضب، الطبيعة والبشر، لا ينتظر هذا الغضب إلا حركة من الحركات لتنفجر براكينه ويضطرم جحيمه.

وحوالي الساعة السابعة صباحاً، حضر شيخ المدينة ورئيس البلدية " السيد الصادق غيلب " بصحبة مندوب الكاتب العام للحكومة التونسية – الفرنسي – ووصل " الم شرلي " مندوب المجلس المختلط مصحوباً بمترجمه، كما حضر مهندسو إدارة القيْس وأعوانهم وكانت جماعة من أعوان الأمن برؤسائهم رابضة في المكان.

وأفهم السيد الصادق غيلب الجماهير أنه لا داعي للتجمهر والتشويش ما دام العدول عن عملية التسجيل وقع فعلاً. وتحوّل إلى " الم شرلي " يعلمه بقرار البلدية فرجع " الم شرلي " من حيث أتى. ولكن رغم ذلك فالجماهير لم تصدّق، وقد ازدادت شكوكها وتراقصت في الرؤوس أسئلة كثيرة واستفهامات عديدة.

– إذا كانت عملية التسجيل قد وقع العدول عنها حقاً فلماذا حضر مندوب المجلس المختلط؟ ألم تدّع البلدية أنها أبلغت المجلس سحب مطلبها؟

- ولماذا يحضر أعوان إدارة القيّس؟ أيجهلون أيضاً سحب المطلب؟.
- ولّماذا تتكدس قوات الأمن بالمكان؟.
- ولماذا تغلق أبواب المقبرة ويمنع الناس من دخولها؟
- ولماذا؟ ولماذا؟.

أسئلة لم تجد الجماهير لها سوى جواب واحد: هو أن السلطة كانت عازمة على إتمام عملية التسجيل وأن سحب المطلب وإبلاغ شيخ المدينة نبأ السحب للناس إنما هو حيلة لإبعادهم عن المكان حتى تتفرغ السلطة لاتمام ما جاءت من أجله.

المعركــة:

وخشي شيخ المدينة وقوع الكارثة وهو يرى الشر في عيون الجماهير فحاول إفهامهم وصرفهم باللين فصارحه بعض المتجمهرين بشكوك الناس وطلبوا منه – كعربون على صدقه – أن يتفرق أعوان الأمن ومندوبو السلطة ويأذن بفتح أبواب المقبرة.

ويظهر أن أعوان الأمن كانوا راغبين في إحداث مجزرة فلم تفتح الأبواب ولم يتفرق الأعوان، بل شاهدت الجماهير تقاطر أفواج جديدة منهم على المكان فغلى مرجل الغضب، وصاحت الجماهير في وجه شيخ المدينة وتناثرت كلمات التوبيخ والسباب والمناداة بخيانة شيخ المدينة من أفواه بعض الشبان، فخفّ البوليس حالاً للقبض على عدد منهم أرسلوا مخفورين إلى السجن. وإذ ذاك انهار السدّ وهجم الجمهور على شيخ المدينة وأحاطوا به من كل مكان وأفهموه أنه لن يفلت منهم حتى يطلق سراح إخوانهم، فاضطروا كوميسار البوليس " اسبيو " إلى الوعد باطلاق سراحهم حالاً وتظاهر بالذهاب إلى مأموريته، وهناك تمكن الأعوان من الوصول إلى شيخ المدينة وإبعاده عن الجماهير الغاضبة، ثم أطلق البوليس النار فجأة على الجماهير فتساقط عدد من الجرحى والقتلى. وتدّعي الصحف الاستعمارية أن النار لم تطلق إلا بعد أن تعرّض الكوميسار لضربة عصا على رأسه ولطمة حجر على خده وهو في طريقه إلى السجن لإطلاق المقبوض عليهم " [2] ". ودارت رحى المعركة بين شعب أعزل يقابل جلاّديه المسلحين بالأسلحة النارية بضرب العصي ورمي الأحجار.

---

[2] - الدبيش تونيزيان عدد 7742 في 8 نوفمبر 1911.

ولم تكد تنشب المعركة ويستعمل البوليس أسلحته النارية فيتساقط الشباب كالذباب، وترى الجماهير الدماء البريئة تغطي الساحات والشوارع فتزيد في إضرام جذوة الحماس الشعبي وتتقدم الجماهير هاتفة: " الجهاد في سبيل الله ". وترتمي على الأعوان بعصيّها وأحجارها وخناجرها معرّضة صدورها للرصاص. وأحسّ البوليس بعجزه أمام التيار الجارف، ولم يكد يقع هذا حتى دوت صيحة في الجماهير: – الويل للغادرين.

واستفهم الناس عن الأمر فوصلت الأنباء من كل مكان بهجوم الايطاليين على الجماهير العزلاء بالسلاح.

غدر ونذالة:

ويظهر أن عطف التونسيين على إخوانهم الطرابلسيين في مقاومتهم للاستعمار الايطالي دفع الجالية الايطالية إلى الحقد على التونسيين وكره العرب المسلمين، وكانت هذه النزعة الصليبية الاستعمارية تغذيها في نفوسهم جريدة (لونيوني) الايطالية الصادرة بتونس متعاونة في ذلك مع الجريدة الفرنسية (لا تونيزي فرانسيز) " La Tunisie Française ". فتناسى الايطاليون كرم التونسيين وعطفهم عليهم ومساكنتهم لهم منذ أجيال كأنهم أبناء البلاد. وتناسوا كل ذلك واغتنموا فرصة هذه الحادثة ليشفوا غليلهم من التونسيين بالقتل والضرب والوشاية.

وكانت أغلب الجالية الايطالية تسكن في أحياء " باب علاوة " و " باب الفلة "، و " نهج سيدي البشير " و " بطحاء " و " بقيرة "، فاستغلّوا نشوب المعركة في أحيائهم وغدروا بالتونسيين من الخلف فقتلوا جماعة بالرصاص من النوافذ والسطوح وطعنوا آخرين بالخناجر حين التجأوا إلى جهاتهم مطمئنين.

واستمر حماس الجماهير واندفعت تطارد الايطاليين وتردّ غدرهم بالمثل. لا تفرّق بين المحارب والمسالم، فكلهم أجانب وكلهم غادرون معتدون، والكفر ملّة واحدة، كما يقول المثل المعروف في ذلك العصر.

قالت جريدة " الدبيش تونيزيان " الصادرة صباح 8 نوفمبر / تشرين الثاني، واصفة احتدام المعركة إثر إطلاق الرصاص على المتظاهرين:

" كانت الضربات تتهاطل كالمطر، والأحجار تتساقط على الشرطة، وانطلقت

عيارات نارية من المسدّسات (أي مسدسات الشرطة) لم نتمكن من معرفة نتائجها، ولكن أعوان الشرطة كانوا يضعفون أمام هجمات الجماهير ويسقطون واحدا بعد واحد. وعلى أثر تخليص شيخ المدينة (من الجماهير) ووضعه في مكان مأمون، كان جبين المفتش (سولي) مشجوجا وساعده الأيمن قد اخترقته رصاصة، وكان شعر المفتش (دوران) قد طار عن جانب كبير من رأسه، وجرح الأعوان (بينفي – وفواتي – ورابيار) جروحاً بالغة، ومات البريقادي (فرانكي)، ونقل الجرحى والموتى إلى المستشفى المدني " [3] ".

وقدمت في تلك اللحظة إلى المكان عربة الترام رقم " 73 " وكان سائقها ايطالياً فهاجمها الجمهور وأصابوا السائق بضربات عصيّهم ولكنه تمكن من الفرار وحطموا العربة تحطيماً.

ورميت قطارات " حمام الأنف " و " بنزرت " بالحجارة عند مرورها وجرح بعض المسافرين بشظايا الزجاج المحطّم.

وكان " الم بيش لاتور " مراقب مصالح الشرطة وسط المعمعة وكان منفردا عن فرقة أعوان الأمن فأوشك أن يقع في خطر لو لم يعرفه أحد الأهالي الذي غطاه ببرنسه قائلاً لأصحابه: دعوا هذا الضابط الفرنسي يمر. فأفسحوا له الطريق فوراً " [4] " وبذلك تمكن من التخلص من الموت، وبعد وصول (الم لاتور) إلى الباب امتطى سيارة وقصد مركز قيادتة طالبا نجدة الجيوش.

ولما بلغت الحوادث إلى علم المسيو " ليال " مدير الشرطة السريّة، طلب تسخير فرقة من " الزواق " وأخرى من " الشاسور دافريك " (Chassreur d’Afrique).

[3] – وقع نقل الفرنسيين والأجانب إلى المستشفى بسرعة، أما موتى المواطنين وجرحاهم فلم ينقلوا الا بعد انتهاء المعركة. هكذا روى لنا أحد شهود العيان.

[4] – ليست هذه العملية الوحيدة التي يقوم بها التونسيون بحماية المستعمرين، أما هؤلاء فطالما غدروا باللاجئين إليهم وقتلوهم ومثّلوا بهم.

تداخل الجيش

وحالا وصلت فرقة " الزواق " وكان عددهم ستين تحت قيادة الملازم " بينلي " فانتشروا ببطحاء " باب علاوة "، لتخليص باب المقبرة وباب المدينة، وعندما رأتهم الجماهير ازداد الغضب والغليان خصوصاً عندما أمرهم الجنود باخلاء المكان، فامتدت أيديهم إلى الأحجار وقذفوا الجنود بوابل منها، وأصابت واحدة قبعة الملازم " بينلي " وأصابت أخرى وجهه وجرح أيضاً بعض الجنود فتأهبوا لاستعمال بنادقهم وصوّبوها نحو الجماهير متهيئين لاحداث مجزرة كبيرة. (وهنا حاول محرر الجريدة أن يبرئ ساحة الجنود من الجريمة فذكر أن قائدهم الجريح منعهم من إطلاق النار إلا في الفضاء، مع أنهم أحدثوا مجزرة سقط فيها عشرات من الجرحى والقتلى، على أن المحرّر لم يستطع الإنكار إلى النهاية فأقرّ بجزء من الواقع فقال):

" ولم تخطئ إلا رصاصة واحدة أصابت أحد الموجودين في الصفوف الأولى بجروح قاتلة. وتقدّم الجنود رويداً رويداً تحت وابل من الحجارة حتى وقع احتلال " باب علاوة " احتلالاً عسكرياً ".

بنهج سيدي البشير

بعد تخليص الأماكن القريبة من المقبرة بقي " نهج سيدي البشير " وكان ذلك النهج الطويل الرابط بين باب الجزيرة وباب علاوة يكتسي أهمية كبيرة من ناحية مواصلات أحواز العاصمة مع قلب المدينة، كان ذلك النهج محتلاً من أسفله إلى أعلاه من طرف جمهور صاخب يصعب تخليصه منه.

وكان الأهالي جمعوا بالسطوح أكداساً من الاحجار يرمون بها أعوان الأمن بيد أنه تجدر الملاحظة بأن ضرباتهم كانت تصيب الايطاليين بالخصوص، وكان عدد كبير من الفرنسيين يمرون بتلك الجماهير المهدّدة بدون أن يمسّهم سوء " [5] " وكان " الم. ريفردان " وكيل الجمهورية و " موسار " كاهية وكيل الجمهورية و " دالوز " حاكم التحقيق و " ليال " مدير الشرطة السرّية و " بيش لاتور " مراقب الشرطة و " كورتلان " كاهية رئيس البلدية، وغيرهم من محافظي الشرطة وأعوان الأمن محتشدين تحت " باب

[5] - هذه شهادة صريحة بأن الفرنسيين كانوا يقومون بردّ فعل مشروع وأن ضربهم استهدف الايطاليين الذين غدروا بهم وساعدوا الجيش على تقتيلهم بينما تحاموا المدنيين الفرنسيين الذين لم يمسّوهم.

علاوة ". وأذن " الم. ليال " باتخاذ التدابير لتخليص نهج " سيدي البشير ". وكان ثلاثون من أعوان الأمن تحت قيادة محافظي الشرطة " مرزاك " و " البيرتيني " و " فاجو "، يردّون شيئاً فشيئاً الأهالي المحتشدين في فرق متراصة.

وكانت فرقة جنود " الزواق " من ورائهم على تمام الاستعداد لتمدّ يد المساعدة لهم فوقع تخليص نهج سيدي البشير حتى نهج " بقيرة " واحتل الجنود أيضاً الأنهج المجاورة وخط السكة الحديدية لشركة " عنابة – قالة ".

وكانت الأنباء تصل من دقيقة إلى أخرى بأن الجانب الذي ما زال يحتلّه الأهالي العرب مسرح معارك طاحنة ضد الايطاليين.

وكانت تمر أمامنا عربات محملة بالقتلى والجرحى تخترق صفوف الجماهير الغاضبة، يسوقها حوذيون بأيديهم مسدّسات. وكان بعض السكان الايطاليين بذلك النهج يحاولون الدفاع عن أنفسهم (؟) فكان رصاص المسدّسات المنطلق من منازلهم يجندل العرب فيزيد في غضب المتظاهرين " " [6] ".

واستطرد محرر " الدبيش " بعد ذلك إلى ذكر ما أصاب بني عمه من الايطاليين من طرف الجماهير الغاضبة فسال قلمه يوصف جرائم العرب (التونسيين) وفظائعهم وتعرّض إلى قتل سائقي حمالات الصليب الأخضر، وعربة التموين التابعة لأخوات الفقراء، وأحد عُمَلة شركة السكك الحديدية من الايطاليين... الخ.

وحوالي الساعة العاشرة وصل جند " الشاسير دافريك " على خيولهم ودخلوا حالا المعركة وهجموا على الجماهير بخيولهم يسبقهم الرصاص إلى صدور المتظاهرين، وحملوا على الذين صمدوا، بخيولهم مستعملين السلاح الأبيض على عادتهم. وقاومتهم الجماهير مقاومة بائسة فكانوا يضربون الخيول بالعصي والحجارة، واشتبك بعضهم مع الفرسان وطرحوهم أرضاً بيد أن السيوف كانت تشقّ رؤوسهم بدون شفقة ولا رحمة.

ورغم القوة المادية للجيش، فقد كانت الجماهير في كرّ وفرّ معهم. وكانت تستطيع ردّهم على أعقابهم أحيانا.

[6] – وهذه شهادة أخرى صريحة من محرر " الدبيش " في إدانة الايطاليين.

وفي الساعة الحادية عشرة تقريباً إستطاع هجوم ساحق من طرف الجماهير أن يزحزح الجنود عن أماكنهم ويصل المتظاهرون إلى المكان الذي يرابط به وكيل الجمهورية (ريفردان) ورفاقه من العدليين والبوليس، وكادوا يحيطون بهم لولا أن خفّت فرقة من جند (الزواق) لحمايتهم وانقاذهم من مخالب الموت بواسطة الرصاص بعد أن أصيب " الم. ليال " بحجر ضخم على صدره.

شهود عيان:

حدثنا العم (خميس الطيح) القهوجي بنهج باب القلعة، وهو أحد شهود الحادثة، قال: " تجمعت خلائق يا لها من خلائق في الجبّانة، ووصّينا بعضنا أن يحرس كل واحد منا قبراً لا يبرحه حتى الموت. وفي الصباح الباكر قدم أعوان التسجيل فأحاط بهم الناس وقالوا لهم: لن نسلّم مقبرتنا، وليكن ما يكون. وحضر شيخ المدينة " الصادق غيلب " فاستقبله الناس بصيحة واحدة: لن نخرج من مقبرتنا، وهكذا ابتدأت المعركة، واستطعت أن أخرج من الزلاّج إلى نهج سيدي البشير.

كان عمري إذ ذاك 12 سنة وكانت في يدي عصا غليظة حين ضرب أحد الايطاليين (رابح دقلة) بمسدس وهرب الى الوكالة الكائنة بنهج سيدي البشير حيث كان يسكن فطاردناه، وخرج القاتل من وراء الوكالة على " زنقة الشقيمي " فتلقاه الناس هناك فقتلوه وكنت أنا آخر من ضربه بالعصا وهو منطرح على الأرض، وصارت السلطة تجمع الناس من الشوارع جمعاً فأخذت (قتة بصل) – ضمّة من البصل – من عربة يد وجدتها أمامي وسلكت الشارع فقبض عليّ، فادعيت أنني كنت أبيع البصل ولكنهم أخذوني إلى السجن مع بصلي حيث مكثت اكثر من خمسة عشر يوماً ثم أحالوني على محكمة " الدريبي " فاطلقني حاكم التحقيق.

وتحدث العم خميس عن صاحبه " الجيلاني بن فتح الله شهر المعّاز " أحد المحكومين بالاعدام وأبدل الحكم بالأشغال الشاقة وأبعد إلى (كايان) فقال: لقد رجع من كايان، وأتذكر أنه قصد يوم رجوعه (قهوة التومي) فلم يعرفه أحد. وتجرأ أحد اللصوص فسرق حقيبته، فلما تفطّن لذلك تذمر وأعلن للناس أنه من ضحايا الزلاّج، ولما عرفوه وسمع السارق بذلك ارجع إليه حقيبته كاملة. معتذرا عن فعلته، وتسوغ الجيلاني

إثر رجوعه الفندق الكائن بنهج " باب الفلة " وكان فيه عربات يد للكراء، وكان يجلس هنا في (قهوتي) ويحدثني عن حياته في " كايان " وذكر لي أنه تزوّج هناك وترك ولدين ولكنّ حنينه إلى وطنه ألجأه إلى مفارقة ولديه، وقد منّ الله عليه فحجّ مرتين وتوفي منذ أكثر من عام رحمه الله رحمة واسعة.

وسألنا (العم محمد عدالة) وهو شيخ نيف على السبعين، ويعمل بالسوق المركزية للحضر، عن ذكرياته عن معركة الزلاّج، وعرضنا عليه صور زملائه ضحايا المعركة فنظر إليها مبهوتا وقال: " إنكم تنقلونني بهذه الصور إلى أيام شبابي، يا حسرتاه، هذا فلان وهذا فلان " وكان يشير باصبعه الى الصور وينطق بأسماء أصحابها، نعم حضرت الواقعة، وإني لأتمثل ذلك اليوم الرهيب أمام عينيّ. لقد نبّه علينا محرّك الحومة المرحوم " محمود الفخار " بأن نذهب إلى مقبرة الزلاّج صبيحة 7 نوفمبر لنعترض على عملية التسجيل. وامتلأت المقبرة بآلاف من الخلائق انتشرت من باب المقبرة، إلى زاوية " سيدي أبي الحسن الشاذلي " وامتدت الخلائق على كامل الجبل حتى الباب الثاني الذي يفتح على منطقة " باب الفلة "، وكنا نشتمّ رائحة المعركة وعازمون على منع أعوان التسجيل بالقوة.

وابتدأت المعركة كما هو معروف، وكان البادي هم أعوان الأمن، فسقطت بجانبي امرأة مسلمة كان بيدها سيف وهي تصيح (الجهاد في سبيل الله) فماتت شهيدة رحمها الله. وكنا نحن الرجال نقذف الأحجار فكنت ترى أحجارنا تمرّ في الجو فوق أقواس باب علاوة كالسحاب، وكان النساء والصبيان يجمعون الأحجار ويفرقون أكداساً على المجاهدين، وكانت النساء يزغردن خلفنا ويصرخن: (الجهاد في سبيل الله – تقدموا يا رجال – دافعوا عن دينكم).

وكدنا نتغلّب على أعوان الأمن الذين أخرجناهم من المقبرة وألجأناهم إلى " نهج سيدي البشير " وإلى ذلك الحين لم تكن لنا فكرة في مقاتلة الايطاليين، حتى بدأونا بالشر وغدروا بنا فأطلقوا علينا النار من نوافذهم وسطوحهم وهكذا انقلبت الآية فاتجهنا إلى الايطاليين أيضاً، حتى تداخل جيش (الشاسور) وهو الذي فرقنا. لقد كان أول من أطلق النار من الايطاليين، إيطالي بنهج سيدي البشير خرج من منزله وقتل تونسياً يسمى

(رابح) بمسدس وهرب. وحاول أعوان الحكومة حمايته فحالوا بيننا وبين مسكنه، ولكن المجاهدين تسلّلوا له من وراء مسكنه حين خرج هو من الخلف فقتلوه.

" أنا لا أدري كم كان عدد الموتى منا ومنهم ولكني أتذكر أني مررت بنحو اثنتي عشرة جثة من الايطاليين ".

وحدثنا العم (محمد بن محمد بن محمود بن سليمان) الساكن بنهج " الرابطة " رقم 33 بتونس، وهو شيخ يبلغ عمره نحو 85 عاما، عن الواقعة بما لا يختلف عن الآخرين. إلا أنه زاد " إن الجند كاد يفتك بالتونسيين قتلا وجرحا لولا وصول المرحوم " عبد الجليل الزاوش " الذي رفع عصاه وسط الجماهير وفوقها منديل أبيض، فأوقف الجند الضرب وطلب منهم أن يكفّوا حتى يستطيع تهدئة الناس ". ويظهر أن بعض الناس أخطأوا فهم تلك الحركة فظنوا أنه يأمرهم بالضرب، وأن ذلك المنديل هو راية الجهاد، ومن هؤلاء العم " عدالة ".

وحدثنا أحد الشيوخ أن الناس تجمهروا في ذلك اليوم أمام دار السيد " عبد الجليل الزاوش " وصاروا يصيحون: (أعطنا السلاح يا سي عبد الجليل لنخرج الفرنسيين والطليان من بلادنا).

واستمر العم ابن سليمان يحدثنا عن مقتل أحمد (أحمد بن محمود بن سليمان)، فقال: " كان أخي مصطفى يبيع اللبن بدكان بسوق البلاط فأرسل يوم 3 ديسمبر 1911 أخي أحمد إلى مورد اللبن، وبينما كان يمشي في نهج كتاب الوزير – قرب سوق البلاط – طعنه إيطالي بسكين طعنتين فمات، وهرب الجاني. وألقت السلطة القبض على نحو عشرة ايطاليين، وبعد أيام من الايقاف في المحكمة أقروا على الجاني وهو حلاّق بنفس النهج. وعند البحث عنه تبين أنه فرّ إلى إيطاليا وترك زوجته وأولاده هنا. وكل ما صنعته السلطة أنها اعتذرت بأنها لا سلطة لها عليه ما دام في ايطاليا. فإذا خرج إلى فرنسا أو إلى محمياتها أو مستعمراتها قبضت عليه واقتصّت منه. وهكذا ذهب دم أخي هدرا ".

وحدثنا شيخ محترم من شهود الواقعة، أن أعوان الأمن والجند الفرنسي كانوا يلقون القبض على التونسيين بدون ميْز ويدفعونهم إلى عربات السجن، بينما كان الايطاليون والأجانب وسلاحهم في أيديهم لا يلقوْن منهم إلا العناية والحماية. بل كانوا

يأمرونهم بإخفاء أسلحتهم.

وهكذا عاد الأمن إلى نصابه بعد الزوال، ولم تقع بعد ذلك إلا بعض حوادث متفرقة انتهت بانتهاء اليوم الموالي 8 نوفمبر على أثر صدور قوانين إستثنائية جعلت العاصمة بمقتضاها تحت سيطرة الحكم العسكري. واستهدف السكان تحت سوط الحكم العسكري إلى عمليات إلقاء القبض الجماعية، وتفتيش الأشخاص والمحلات والضرب والصفع والاهانات مما ترك في القلوب آثاراً لا تمحى.

وأعجب من هذا كله أن السلطة الفرنسية لم تكتفِ بتغطية تعديات الايطاليين على التونسيين ومشاركتهم للبوليس والجيش في تقتيل الشعب، فأوحت إليهم أن يتظاهروا أمام الاقامة العامة الفرنسية محتجين على ما نالهم من عدوان التونسيين...؟؟؟ يا للمهزلة!!.

الخاتمة:

وهكذا كانت نتيجة معركة الزلاّج سقوط عدد من القتلى والجرحى التونسيين. وكذلك من الايطاليين والفرنسيين، وأصدرت المحاكم الفرنسية قرارات حكم بالإعدام والأشغال الشاقّة المؤبدة على عدد من المناضلين التونسيين، إضافة إلى قوانين إستثنائية للتضييق على أهل البلاد، كما تعطلت الصحف العربية (الحاضرة – التونسي – الاتحاد الاسلامي – الصواب – المنبر – المشير – المضحك – جحا)، وأطلق عنان الصحف الاستعمارية لبثّ الحقد والكراهية للعرب والتونسيين خاصة ووصفهم بأبشع الصفات. من ناحية أخرى، كانت معركة الزلاّج أروع حادثة في تاريخ المقاومة الشعبية التونسية لهيمنة الاستعمار، وصفحة ناصعة من تاريخ الكفاح الوطني التونسي ضد الأعداء، مؤكّدة أن قضية الحق لا يمكن أن تهزم مهما كانت ترسانات الأعداء قوية في وجه الشعب الأعزل المتسلّح بالإرادة والإيمان والحق. وإلى هذه المعركة يعود الفضل في بثّ روح المقاومة والكفاح ضد الاستعمار (*).

المراجع

1 – الجيلاني بن الحاج يحي ومحمد المرزوقي " معركة الزلاّج " مكتبة المنار – تونس –. الطبعة الأولى 1961 (يعتبر من أهم المراجع في هذا الموضوع).

2 – جريدة " الحاضرة " التونسية 1911.
3 – جريدة " الزهرة " التونسية 1911 – 1912.
4 – جريدة " المنار " التونسية 1912.
5 – جريدة " الأسبوع " التونسية 1950.
6 – الشاذلي درغوث " رسالة الشكوى الأهلية من كثرة الضرائب " المطبعة التونسية 1910.
7 – محمد الفاضل بن عاشور " الحركة الأدبية والفكرية في تونس " جامعة الدول العربية 1956.
8 – الدكتور الحبيب تامر " هذه تونس " مطبعة الرسالة بمصر، 1948.
9 – La Depeche Tunisienne. 1911 - 1912 –
10 – La Tunisie illustrée. 1912.
11 – " تونس والمسيرة الشاملة " نشر كتابة الدولة للاعلام، تونس، 1973 – ص 44.

(*) الجدير بالذكر أن " الموسوعة العسكرية " الصادرة عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر في بيروت، لم تتطرق لا من قريب ولا من بعيد الى هذه المعركة التي تعتبر من أهم صفحات الكفاح الوطني التونسي ضد الاستعمار. وكذلك الحال بالنسبة لكتاب د. زاهية قدورة " تاريخ العرب الحديث " وغيره من الكتب في هذا المجال، وعلى الأخص، تلك المعتمدة كأرصدة ومراجع في الجامعات العربية. وهذا ما يؤسف فعلاً.

معركــة الزلاّقة

إذا كــانــت مـعــركـة " حـطـين " ومـعـركـة " عين جالوت " ومعركة " اليرموك " و " القادسية "، بمثابة اللآلئ في عقد الانتصارات العربية في بـلاد المشـرق العربـي، فـان معركة " الزلاّقة " هي أيضاً بمثابة اللؤلؤة الأكثر لمعاناً في عقد الانتصـارات العربيـة فـي المغرب العربي. فقد جرت معركة " الزلاّقة " في الأندلس سنة 1086 (479 هــ)، بيـن ملك قشتالة " الفونسو السادس " وزعيم المرابطين " يوسـف بـن تاشـفين "، ودارت رحاهـا في سهل " ساكراخاس " (Sacrajas) الواقع شمالي " بطليوس " على مقربة من الحـدود الاسبانية – البرتغالية الحالية، والذي أطلق عليه العرب اسم سهل الزلاّقة.

لقـد أحدقـت الأخطـار الصليبيـة ببـلاد الأندلـس مـن مختلـف الجهــات التــي كــان للأوروبيين وصـول إليهــا، خاصـة بعـد أن توحـدّت جهـود ألفونسـو السـادس ملـك قشـتالة، وسانشو الأول ملك أراغون ونافارا، والكونت برنجار ريموند حاكم برشلونة، واتفقوا على سحق دولة الاسلام في الاندلس، وبدا كل شيء عندهـم ممكنـاً، خصوصـاً بعـد أن سـقطت طليطلة في أيديهم.

سار الجمــع متّحديـن بجيش ضخـم، واحتلـوا مدينـة " قوريـة " مـن بنـي الأفطـس ووصلوا ضـواحي أشبيلية، وسارت فرقة من الفرسان إلى " شذونة "، ثـم اخترقت جزيـرة طريف، قاصية اسبـانـيـة قـرب مـضيق جبـل طـارق. وقـد قـال المـؤرخ الالمـاني يوسـف إشباخ (Y. Ichbakh): " وأثخن النصارى في ولاية سرقسطة كلها بالنار والسيف، ولـم يكن يردّهم في الحرب أي اعتبار إنساني، ما دام الأمر متعلقاً بأعداء الدين (!!) ".

وشـدّد هـؤلاء الملوك الغربيـون الضغـط علـى " سرقسـطة " يومـاً بعـد يـوم، لأن سـقوطها بـأيديهم يجعـل الشـواطئ الاسبانية ممـا يلـي البحـر المتوسـط عرضـة لغـاراتهم، وخشي المسلمون سقوط هذا المعقل المنيـع بعـد أن أصبحـت قواتهـم وامداداتهـم فـي حـال يُرثى لها، فهي دون قوى الصليبييــن المتحـدة، فتطلعـوا الـى عـون مـن الخـارج، فـاتجهت أبصارهم إلى قوة المرابطين الناهضة في أفريقيا.

هذا، ولقد كان من أهم نتائج سقوط طليطلة في يد ملك قشتالة، أن أحس ملوك الطوائف في الأندلس بالخطر الداهم فقرروا توحيد كلمتهم لرد هذا الخطر والاستعانة باخوانهم المسلمين في المغرب، ما وراء البحر، خاصة وان المغرب توحّد كله تحت سلطة مركزية بزعامة أبي يعقوب يوسف بن تاشفين، وتمتعّ بوحدة سياسية ودينية في ظل دولة المرابطين، في الوقت الذي كان فيه الأندلس يعاني من التفكك السياسي والاجتماعي تحت حكم ملوك الطوائف.

والجدير بالذكر، أنه خلال مدة حكمه كنائب (لابن عمه الأمير أبي بكر بن عمر) أو كسلطان، قام يوسف بن تاشفين بسلسلة من الأعمال الداخلية والخارجية لتدعيم دولته الناشئة، وتنظيم شؤونها، واخراجها إلى حد كبير من طور البداوة الذي كانت تعيش فيه. ومن أمثلة ذلك:

أولاً: عمل على إتمام فتح بلاد المغرب الأقصى، وبنى أسطولاً بحرياً ساعده في احتلال الثغور الشمالية المطلة على مضيق جبل طارق مثل سبتة وطنجة ومليلة. كما عمل على ضم المغرب الأوسط وتوحيده مع المغرب الأقصى، فاستولت جيوشه على تلمسان ووهران وتنس والجزائر حتى بلغت حدود أقربائه الصنهاجيين من بني حمّاد والزيريّين في أفريقيا. وهكذا أصبح يوسف بن تاشفين سيداً على المغربين الأوسط والأقصى والصحراء.

ثانياً: أتمّ بناء العاصمة مراكش وأسس بها داراً للسكة ضرب فيها دراهم فضّية ودنانير ذهبية. كما أنشأ الدواوين والادارات المختلفة وبدأت الدولة تقيم نوعاً من العلاقات الدبلوماسية مع جيرانها من أمراء المغرب والمشرق. كذلك اتخذ البنود والأعلام البيضاء المدبجّة بالآيات القرآنية، وأحاط نفسه بطبقة من الحشم والأتباع وهم بمثابة الحرس الخاص بالأمير، ويدخل في عدادهم العبيد السود الذين اشتراهم من السودان والمماليك الصقالبة الذين اشتراهم من اسبانيا وعرفوا باسم الأعلاج أو الروم. كذلك نظم مقابلاته واستقبالاته عن طريق الحجّاب. وصفوة القول ان يوسف بن تاشفين أعطى لأول مرة دولته طابع الملك، ولم يلبث هو نفسه ان اتخذ ألقاب السلطنة مثل أمير المسلمين وناصر الدين، وأعلم رعيّته بذلك بمقتضى منشور دوري قرئ على المنابر...

بعد أن رأى الملوك الأوروبيين، قوة المسلمين في المغرب، توجّسوا خيفة من ذلك، وقرروا توجيه ضربة قاضية للاسلام هناك قبل ان يستحيل ذلك. وهكذا كتب ألفونسو السادس إلى كل من المعتمد بن عبّاد صاحب أشبيلية والمتوكل ابن الأفطس صاحب بطليوس، يطلب إليهما تسليم بعض القلاع والحصون والأعمال، وإلا فسوف يزحف بجيوشه الجرارة لقتالهما. فبعث أمراء الطوائف إلى عاهل المرابطين يطلبون معونته لردّ هذا الخطر، فلبّى يوسف بن تاشفين هذا النداء دون تردد.

وفي سبيل ذلك، حرص بن تاشفين على امتلاك بعض الثغور الأندلسية كي يسيطر على مضيق جبل طارق ويضمن الاتصال بوطنه في أي وقت يشاء سواء في حالة النصر أو الهزيمة والانسحاب. ولهذا بعث إلى المعتمد بن عبّاد يطلب منه تسليمه ثغر " الجزيرة الخضراء " مفتاح اسبانيا من الجنوب، قائلاً له: " لا يمكننا الجواز إلا أن تسلم لنا الجزيرة الخضراء لكي يكون جوازنا اليك على أيدينا ومتى شئنا ". واضطر المعتمد بن عبّاد إلى تنفيذ طلبه، فأمر ابنه الراضي بإخلائها.

وفي منتصف ربيع الأول سنة 479 هـ (1086 م)، عبر يوسف بن تاشفين بجيوشه من مدينة سبتة مضيق جبل طارق ونزل الجزيرة الخضراء. واقتداء بما فعله طارق بن زياد من قبل، قام يوسف بن تاشفين بتحصين الجزيرة الخضراء وما يتبعها من قواعد عسكرية أخرى على المضيق مثل جبل طارق وطريف لتكون رأس جسر لهجومه وخط رجعة لانسحابه. وهناك وافاه أكثر رؤساء الأندلس أمثال المعتمد بن عبّاد والمتوكل بن الأفطس بمن معهم من جنود وكل من رغب في الجهاد.

ثم زحفت جيوش المسلمين نحو أشبيلية ثم بطليوس (Badajos.) في غرب الأندلس بغية لقاء العدو. وحينما علم الملك ألفونسو السادس بأخبار هذا الغزو، رفع الحصار عن سرقسطة، وأسرع بجيوشه نحو تجمعات المغاربة والأندلسيين من المسلمين، فالتقى بهم في الشمال من بطليوس عند فحص الزلاّقة الذي تسمّيه المصادر الاسبانية (Sacralias) " ساكرالياس " ويعرف اليوم باسم ساكراجاس (Sacrajas). وهناك دارت معركة فاصلة بين الفريقين في 12 رجب سنة 479 هـ الموافق 23 تشرين الأول / اكتوبر سنة 1086 م.

قسّم يوسف بن تاشفين جيشه على الشكل التالي:

– الفرسان في طليعة المرابطين، وعددهم عشرة آلاف، يقودهم أبرع القادة أبو سليمان داوود بن عائشة.

– تليهم قوات الأندلس، ويقودها المعتمد بن عبّاد أمير أشبيلية، (وكان المتوكل بن الأفطس قائد الميمنة)، وهي تؤلف وحدها جيشاً خاصاً منفصلاً عن جيش المرابطين.

– وسار بعدهم بيوم واحد جيش المرابطين، يقوده يوسف بن تاشفين نفسه، وكان ينزل في المساء في المحلّة التي يغادرها أمير أشبيلية في الصباح، الى أن وصلت الجيوش قرب بطليوس.

وقد بلغ عدد جيوش المسلمين حوالي ثمانية وأربعون ألف مقاتل.

أما جيش ملك قشتالة فقد عسكر على بعد ثلاثة أميال من معسكر المسلمين، وقد فصل بين الجيشين فرع نهر يمر بوادي " يانة " الذي يمتد شمالاً نحو نهر " التاجة ". وكان على مقدمة الجيش قائده " ألبرهانيس "، وقدّر عدد هذا الجيش بخمسين ألفاً (وقيل ثمانين ألفاً وأكثر).

وظل الجيشان متقابلين في معسكريهما مدة ثلاثة أيام لا يفصل بينهما سوى النهر وواديه، يتبادل قائداهما الرسل يحملون الوعيد والتهديد، الى أن أعلن ألفونسو السادس عن اليوم الذي حدّده لقتال المسلمين، فكتب الى المعتمد يقول، وكان ذلك يوم خميس: " إن غداً يوم الجمعة، وهو عيدكم، وبعده السبت، وهو عيد اليهود وهم كثر عندنا، وبعده الأحد وهو عيدنا، فليكن اللقاء بيننا يوم الاثنين ". وأدرك يوسف بن تاشفين والمعتمد بن عبّاد خدعة العدو، فاستعدا لنزاله منذ تلك اللحظة، متوقعين أن هجومه عليهما لن يكون إلا يوم الجمعة.

وصحّ ما توقّعه القائدان المسلمان. فما إن أطلّ فجر يوم الجمعة في 27 تشرين الأول 1086، حتى كان الفونسو يزحف بجيشه على المسلمين. واشتبك الجيشان في قتال عنيف. فهجمت مقدمة جيش الفونسو (بقيادة ألبرهانيس) على مقدمة جيش المسلمين (بقيادة ابن عبّاد)، فاختلّت مقدمة المسلمين وتزعزعت وتراجعت نحو بطليوس، ولم يثبت في وجه المهاجمين سوى المعتمد وفرسان أشبيلية الذين قاتلوا

القشتاليين ببسالة وضراوة. وأثخن المعتمد بالجراح، وقد قتل من جند المسلمين عدد كبير، وكادت قوات المسلمين تنهار وتنهزم، في الوقت الذي كان فيه ألفونسو يهاجم بنفسه مقدمة المرابطين (بقيادة داوود بن عائشة) ويوقع في صفوفهم الخسائر الجسيمة. واصبح ألفونسو وقائده " ألبرهانيس "، بعد هذا الوضع، قاب قوسين أو أدنى من النصر، وباتت هزيمة المسلمين متوقعة.

في هذا الوقت بالذات، تحرك القائد العام يوسف بن تاشفين باحتياطه، فدفع بقوات من البربر بقيادة " سير بن أبي بكر اللمتوني "، وهو من أبرع قادته، لنجدة الاندلسيين والمرابطين معاً. واخترق " سير " صفوف جيش ألفونسو حتى وصل إلى قلب هذا الجيش، فاسترد الأندلسيون والمرابطون جأشهم وعادوا للقتال بحمية كبيرة. ولكن ألفونسو كان قد صار أمام خيام المرابطين واقتحم الخندق الذي يحمي تلك الخيام. عندها حدثت مفاجأة رائعة كان ابن تاشفين قد خطط لها باحتياطه، إذ دار حول صفوف جيش العدو حتى وصل الى معسكره فأحرقه، وضرب مؤخرة جيش القشتاليين بينما كانت طبول المرابطين تضرب بقوة فتحدث في جو المعركة دوياً هائلاً. والتفت ألفونسو إلى الخلف ليرى معسكره يحترق وجنده في المؤخرة يقتتلون مع جند ابن تاشفين، ويفرّون منهزمين، وعاد لينجدهم، فما كان أوفر حظاً منهم. ودارت بين القائدين معركة ضخمة كان يديرها يوسف بن تاشفين بحنكة وبسالة وجرأة. وضغطت مقدمة المرابطين بقيادة " سير بن أبي بكر " من جديد على مقدمة العدو، واستعادت قوات الأندلسيين مواقعها التي كانت قد خسرتها، وبدأت صفوف العدو تتزعزع وتنهار.

وضرب يوسف بن تاشفين ضربته القاضية بأن جرّد على القشتاليين حرسه الأسود البالغ أربعة آلاف مقاتل أشداء، فنزلوا في جحيم المعركة ببأس وضراوة شديدين، واخترقوا صفوف القشتاليين ووصلوا إلى ألفونسو نفسه حيث طعنه أحدهم طعنة أدمته في فخذه، فصاح الملك مذعوراً: " طعنني أحد العبيد بمنجل!! "، بينما كان هذا " المنجل " الذي ادّعاه ألفونسو، خنجراً مقوّساً استعمله المرابطون كسلاح جديد لم يعرفه الاسبان... وعندما رأى ألفونسو أن هزيمته أصبحت مؤكدة، وأن لا مفرّ له من النجاة، تراجع مع عدد من فرسانه ولجأ إلى تل قريب، ولم يمكث طويلاً، بل نجا بنفسه تحت جنح الظلام،

ومعه نحو خمسمائة من الفرسان (وقيل مئة فقط) مثخنين بالجراح.

ولا شك أن جِمال المرابطين وأصوات طبولهم الهائلة، قد أحدثت اضطراباً في صفوف خيالة العدو التي صارت تجمح براكبيها في المعركة. ويبدو أن عادة استخدام الطبول الضخمة أخذها المرابطون من زنوج أفريقيا، إذ لا يزال الطبل الكبير يعرف في المغرب حتى اليوم باسم " طبل جناوة " نسبة إلى غينيا (Guinee)، اضافة الى استخدام سلاح الخناجر المقوّسة... وذاع خبر هذه الموقعة الكبرى في جميع الأقطار، وأمر ابن تاشفين فكُتِب عنها بلاغ الى أفريقيا ليُقرأ في المساجد في جميع مدن المرابطين، فأقيمت صلوات الشكر على جانبي مضيق جبل طارق، ابتهاجاً بانقاذ الاسلام في اسبانيا.

وكتب المعتمد بن عبّاد إلى ابنه " الرشيد " في اشبيليه يبشّره بانتصار المسلمين، وبما أصاب ألفونسو وجنده من هزيمة ساحقة. وقد حملت البُشْرى السارة حمامة زاجلة كان قد حملها معه لتقوم بهذه المخابرة السريعة، فطارت من بطليوس الى اشبيلية في بضع دقائق، وأمر " الرشيد " فقرئت البشرى على الناس في المسجد الجامع، وعقدت صلوات الشكر، وأقيمت حفلات الابتهاج، واقترنت بإضاءة المدينة وفقاً لتقاليد النصر. وهكذا احتفل بالنصر في اشبيلية وهي على مسيرة أيام من الزلاّقة في ليلة النصر، قبل أن يغادر جيش المرابطين والاندلسيين ساحة القتال.

وهكذا كانت " الزلاّقة " انتصاراً كبيراً حققه المرابطون بجدارة، وسجّل في تاريخ الاسلام فخراً لا يقدّر بثمن، لقد انجلت الزلاّقة عن يوم مشهود من أيام الاسلام الخالدة، لأنها تعني اكثر من هزيمة لملك قشتالة ألفونسو، وأكثر من ظفر للمرابطين... كما أنها قضت على الفُرقة، والتمزّق بين ملوك الطوائف، ولكن إلى حين، ورفعت الروح المعنوية للمجاهدين في سبيل الله، وأعادت الثقة إلى المسلمين جميعاً.

ولا شك ان انتصار المرابطين في معركة " الزلاّقة " أنقذ الحكم الاسلامي في الاندلس من سقوط محقق، كما أنه في الوقت نفسه ثبّت أقدام المرابطين فيها، وبذلك أصبح هذان القطران (المغرب والأندلس) يكوّنان دولة واحدة قوية عاصمتها مراكش.

ويكفي أخيراً أن يوسف بن تاشفين أمدّ بقاء العرب المسلمين، وبالتالي بقاء الاشراق الاسلامي العلمي المزدهر، أربعة قرون أخرى في الأندلس، وذلك من سنة

1086، من انتصار الزلاّقة العظيم، الى سنة 1492 حيث مصرع غرناطة.

وستبقى " الزلاّقة " انتصـاراً حققه المرابطون بقيادة أميرهم يوسف بن تاشفين بجدارة، كما ستبقى لؤلؤة الانتصارات العربية في المغرب والأندلس، وهو فخر، في الواقع، لا يقدّر بثمن.

المراجع

1 - كتاب الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية لمؤلف مجهول (القرن الثامن الهجري / سنة 1381 م). مطبوعات معهد الدراسات العليا المغربية. الرباط 1936.

2 - شوقي أبو خليل " الزلاّقة ": بقيادة امير المرابطين يوسف بن تاشفين ". دار الفكر. دمشق. 1986.

3 - " الموسوعة العسكرية ". الجزء الثالث. المؤسسة العربية للدراسات والنشر. بيروت. الطبعة الثانية 1985. ص 464 - 465.

4 - احمد مختار العبّادي " في تاريخ المغرب والأندلس " مؤسسة الثقافة الجامعية - الاسكندرية. مصر. دون تاريخ. ص 327 - 334.

5 - مجلة رسالة الجهاد " العدد 68 - مالطا. تموز / يوليو 1988. ص 72 - 83.

6 - الأمير شكيب أرسلان " خلاصة تاريخ الأندلس " مكتبة الحياة. بيروت. 1983. ص 41 - 45.

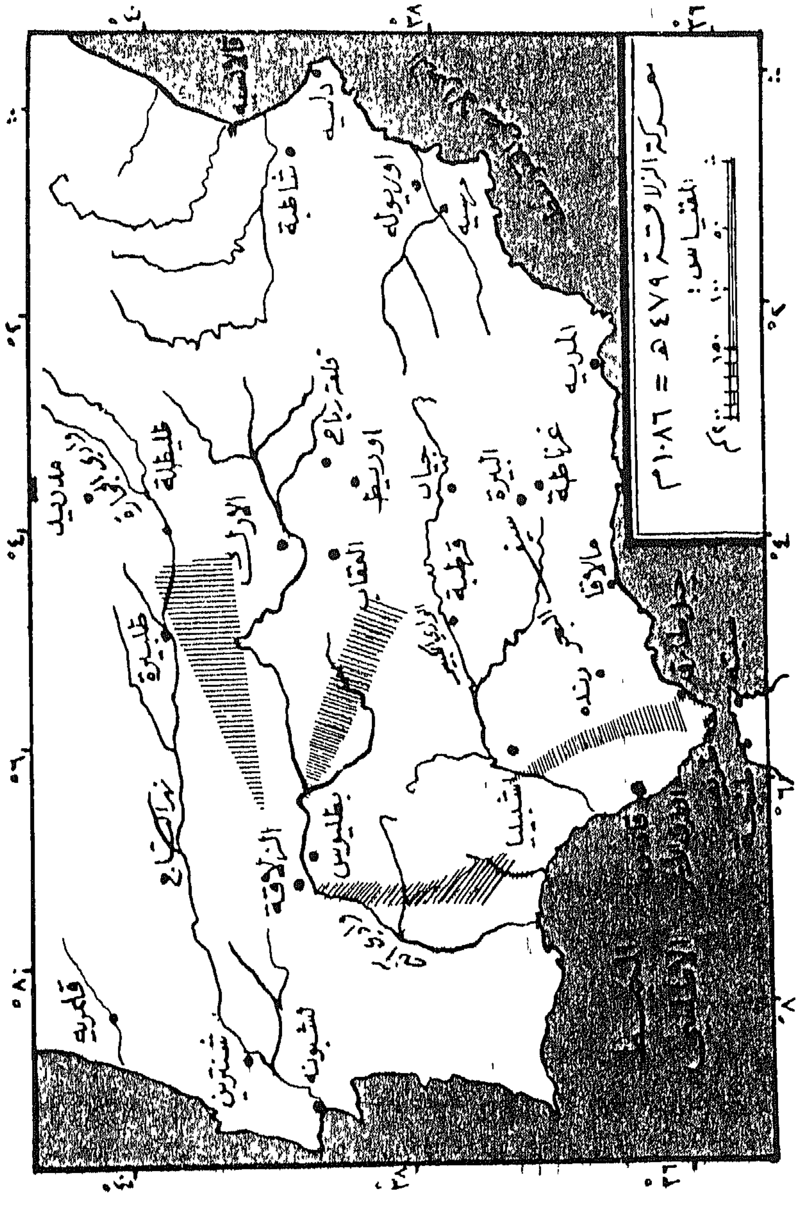
7 - سيد محمد علي " مختصر تاريخ العرب " نقله الى العربية عفيف البعلبكي. دار العلم للملايين. بيروت. الطبعة الرابعة 1981. ص 436.

8 - بسام العسلي " المعتمد وابن تاشفين " (سلسلة مشاهير قادة الاسلام) دار النفائس. بيروت. د. ت.

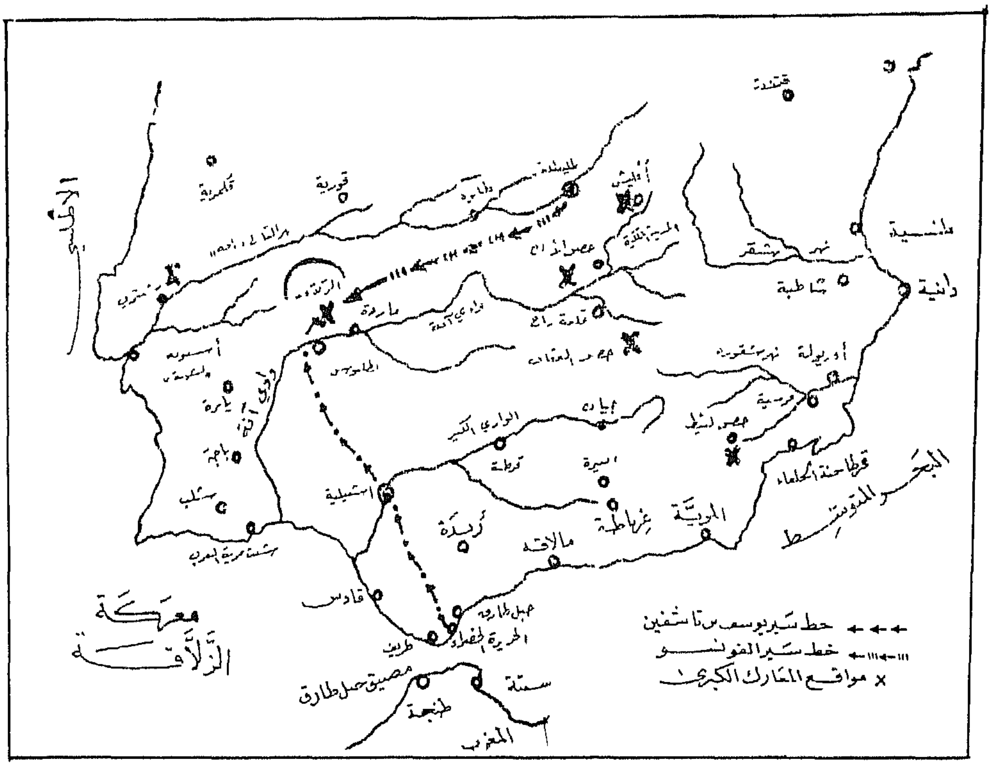
9 - فالح فلّوح " معركة الزلاّقة " دار الآداب. بيروت. د.ت.

10 - أويثي ميراندا (بالفرنسية)

– Huiici Miranda “ la bataille de Zallaka “, .Hesperis 1953



المرجع: بسام العسلي " الأيام الحاسمة في الحروب الصليبية ".
(ص 56)



المرجع: شوقي أبو خليل " معركة الزلاّقة ". دار الفكر. دمشق 1986. ص 90

حرفا " السين " و " الشين "

(س) و (ش)

1 – سبو

2 – سبيطلة

3 – سلَمة

4 – السمّوع

5 – سواني بني آدم

6 – سواني عبد الغني

7 – سواني المشرّك

8 – سيدي ابراهيم

9 – سيدي سعيد

10 – سيدي عبد الجليل

11 – الشجرة

12 – الشيخ جرّاح

معركة سبو (أو بقدورة)

دارت هذه المعركة عند قرية " بقدورة " الواقعة على نهر " سِبو " في المغرب، بين جيش عربي أموي، وجيش من البربر الخوارج الصفريّين الثائرين على حكم الأمويين، وأسفرت عن هزيمة الجيش الأموي.

وقد ظهر مذهب الخوارج الصفريين في المغرب منذ العام 735 (117 هـ). فأقبل البربر على اعتناقه، واتخذوه ذريعة للثورة على الولاة الأمويين في ولاية أفريقيا، بغية التخلص من الحكم الأموي ذي الطابع العربي. ولقد ثار البربر من الخوارج الصفريين في بلاد المغرب بقيادة " ميسرة المطغري " في أرباض " طنجة "، منذ ولاية " عمر بن عبد الله المرادي " على المدينة في العام 732، واستولوا على طنجة في العام 740، وهزموا جيشاً أموياً في معركة غزوة الأشراف (741)، مما دفع الخليفة " هشام بن عبد الملك " إلى عزل " عبيد الله بن الحبحاب " عن ولاية المغرب، وتولية " كلثوم بن عيّاذ القشيري " عليها.

وقد توجه كلثوم إلى المغرب لاستلام مركزه على رأس جيش كبير قدّرت قوته بثلاثين ألف رجل، غالبيتهم من المقاتلين الشاميين، مما يدل على اهتمام السلطة المركزية في دمشق بالأحداث الجارية في شمالي أفريقيا وولايتها. ونظراً لتخوّف الخليفة من المفاجآت التي قد تواجه واليه الجديد المسنّ، فقد عيّن ابن اخيه " بلج بن بشر القشيري " نائباً له، وسرعان ما أصبح " بلج " القائد الفعلي للجيش.

وعمل كلثوم على كسب الوقت، فتجاوز عاصمته " القيروان " دون المرور فيها، واكتفى بتعيين نائب له عليها هو " عبد الرحمن بن عقبة الغفاري ". وتابع سيره باتجاه " طنجة " لانتزاعها من البربر. وكانت قد انضمّت إلى جيشه، خلال مسيرته، وحدات من الخيالة والمشاة من حاميات مصر وطرابلس والمدن الأفريقية الأخرى، حتى بلغ عدد جيشه حوالي 60 – 70 ألف رجل. وجعل كلثوم على مقدمة جيشه قائد خيالته " بلج بن

بشر القشيري ". وجعل على مشاته " ثعلبة بن ثوابة الجذامي ". وأوصى بأن يخلفه " بلج " في القيادة اذا ما أصابه مكروه، واذا قتل " بلج " خلفه " ثعلبه ".

ولقد أدى احتكار القادة الشاميين لمعظم المناصب الهامة في جيش كلثوم، الى احتدام النزاعات مع قادة الجنود الأفارقة الذين انضموا الى الجيش، وكانوا يشعرون بأنهم سادة البلاد في شمالي أفريقيا. وبرز النفور بين الفئتين بشكل خاص، بعد خلاف حصل بين " بلج بن بشر " و " حبيب بن أبي عبيدة "، زعيم الأفارقة.

وسار الجيش العربي بجناحيه المتنافرين (الشامي والأفريقي) نحو " طنجة ". وكان التفكك وسوء التنظيم يسودانه. والتقى الجيشان، الأموي والبربري، عند قرية " بقدورة " الواقعة على نهر سبو قرب تاهرت. فوجد " هرون القرني " و " مغيث الرومي " (مستشارا كلثوم)، ان التفوق العددي لصالح البربر، ونصحا كلثوماً بأن يضرب حول معسكره خندقاً. ولكن " بلج " عارض الفكرة، لاعتقاده بأنه قادر على المناورة بالخيالة وتشتيت البربر.

وما ان بدأ القتال، حتى حاول " بلج " تنفيذ فكرته في المناورة، ولكن البربر كانوا متمرسين بالحرب، ذوي جَلَدٍ وخبرة في المناورة أيضاً، كما انهم استخدموا قِرَباً من الجلد ملأوها بالحجارة، وأخذوا يقذفونها على رؤوس الخيل، فنفرت واضطربت وتشتّتت تشكيلات خيالة " بلج ". وأمر كلثوم الفرسان بالترجّل، وكان هذا جلّ ما يبغيه البربر. فانقضّوا على الفرسان الراجلين، وأعملوا فيهم السيوف. وعندما أحس كلثوم ببوادر الهزيمة، عرض القيادة على زعيم العرب الأفارقة " حبيب بن أبي عبيدة "، الذي رفض هذا المنصب، حتى لا يتحمل نتائج الخسارة التي باتت شبه مؤكدة. واشتد القتال، وأحاط البربر بالجنود الأمويين من كل جانب، وحمل " بلج " على البربر مع تشكيل من فرسانه، واخترق صفوفهم حتى وصل الى مؤخرتهم. الا أنهم عادوا وتكاثروا عليه، فاضطر الى الانسحاب مع جنده باتجاه " سبتة "، بينما أحاط البربر ببقية الجنود الأمويين، وأعملوا فيهم القتل. وكان من بين القتلى " كلثوم " و " هرون " و " مغيث " و " حبيب بن ابي عبيدة ". وانتهت المعركة بهزيمة كبرى للجيش الأموي. إذ يؤكد المؤرخون ان ثلث عدد هذا الجيش قد قتل، في حين وقع ثلثه الآخر في الأسر، أما الباقون فقد تشتتوا طالبين النجاة.

والواقع أن التجزئة والتشرذم والتمزق العربي كان سبباً رئيساً في هذه الهزيمة، ولو كانت " الوحدة " بديلاً لذلك الواقع التشرذمي، لكان الانتصار الحتمي هو حليف العرب ولا شك. وحتى اليوم، لم يتعظ العرب بعد، مع العلم أن " دولة الاحتلال الصهيوني " تجثم بكل ثقلها على صدورهم، وتمنعهم من التنفس بشكل طبيعي. وهذا ما يقودنا إلى الاستشهاد بجواب موشي دايان (وزير دفاع العدو الصهيوني يومذاك) عندما سئل: كيف استطعتم هزيمة عدّة دول عربية تفوقكم عدّة وعدداً؟ أجاب: فلو كانت هذه الدول العزبية دولة واحدة لما استطعنا هزيمتها.

هكذا، تنتصب الحقيقة الثابتة التي تؤكد أهمية " الوحدة " ضد العدو، هذا اذا كان الانتصار هو الهدف الأسمى أمام عرب القرن العشرين. والعبرة لمن اعتبر.

المراجع

1 – الموسوعة العسكرية باشراف المقدم الهيثم الأيوبي. الجزء الثالث. المؤسسة العربية للدراسات والنشر. بيروت. الطبعة الثانية 1985. ص 782 – 783 و 793.

2 – عبد القادر أحمد يوسف " الامبراطورية البيزنطية ". المكتبة العصرية للطباعة والنشر. صيدا – بيروت 1966. ص 96.

معركـة سبيطلة

تعتبر " معركة سبيطلة " حلاوة الانتصار العربـي علـى البيزنطيين سـنة 648 م، باعتبارها احدى المعارك الهامة في فتح المغرب العربي.

دارت معركة سبيطلة بين قوات عربية بقيادة " عبد الله بن سعد بن أبـي سـرح "، وقـوات بيزنطيـة بقيـادة " غريغوريـوس " (جرجـير)، وأسـفرت عـن هزيمـة منكـرة للبيزنطيين، ومقتل قائدهم جرجير، وتشتت جيشه.

فبعد مقتل " عمر بن الخطاب " وتولّي " عثمان بن عفّان " الخلافة في العـام 644 م / 23 هـ، قام الخليفة الراشدي الجديد بعزل " عمرو بـن العـاص " حـاكم مصـر، ورائد الفتوحات العربية في مصر وأفريقيا، وتعيين قريبه " عبـد اللـه بـن سـعد بـن أبـي سـرح " مكانه. وما إن تسلّم عبـد اللـه بـن ابـي سـرح " الولايـة فـي الفسـطاط " بمصـر، حتـى بـدأ الإعداد للقيام بعمل عسكري بارز في الغرب الأفريقي، استكمالاً للفتوحات التي كان سلفه قد باشر بها، ولإضفاء الهالة المعنوية اللازمة على الخلافة، بعد الفراغ الـذي تركـه مقتـل الخليفة عمر بن الخطاب. وكتب عبد الله بن سعد الى الخليفة عثمان يستأذنه بغزو شـمالي أفريقيا، واستشار عثمان قادة الرأي عنده، فكان الرأي السائد هو الإقدام على هذا العمل.

وبعد أن تمـت الاستعدادات للحملـة الأفريقيـة، غـادرت طلائعهـا المدينـة المنـوّرة وعلى رأسها " الحارث بن الحكم "، ومعه عدد كبير من زعماء المدينة، ومنهم: " عبد اللـه بـن العبـاس "، و " عـبـد اللـه بن عمر بن الخطاب "، و " عبد الرحمن بن أبـي بكـر "، و " عـبد اللـه بـن عمرو بن العاص "، و " عبد الله بن الزبير "، و " عبد اللـه بـن جعفـر "، و " الحسن " و " الحسن "، و " مروان بن الحكم ". وقد أطلـق علـى هـذا الجيـش اسـم " جيش العبادلة " لكثرة من كانوا يحملون اسم عبد الله بين قادته.

ولـدى وصـول الـجيـش العـربـي الى مصر، انضمت إليه قوات جديدة من حاميـة " الفسطاط "، حتى وصول تعداده إلى 20 ألفـاً مـن الخيالـة والمشـاة. وفـي العـام 647 م، انـطـلـق " عـبد الله بن سعد بن أبي سرح " على رأس هذه الحملة، التي ضمت عدداً كبيراً

من شباب العرب البارزين، مما أضفى عليها قوة معنوية وقتالية كبيرة.

ولدى وصول الحملة إلى " برقة "، انضم إليها " عقبة بن نافع "، قائد حامية " برقة " آنذاك، مع مجموعة من قواته، وتابعت الحملة سيرها باتجاه المغرب الأدنى، سالكة الطريق الساحلية التي أصبحت الطريق التقليدية للحملات العربية. ولدى وصولها الى طرابلس الغرب، هاجمت حاميتها البيزنطية، فقضت على مقاومتها واستولت على أسلحتها ومعداتها. ثم تقدم " عبد الله " بجيشه على محاذاة الساحل، مستبعداً التوغل في الصحراء حيث كانت تعيش قبائل البربر " البتر " المحاربة والمعادية آنذاك للفتح العربي.

في هذا الوقت، كانت أصداء الزحف العربي تصل إلى حاكم أفريقيا " غريغوريوس " (أو جرجير كما يسميه العرب)، الذي كان نفوذه يمتد ما بين طرابلس الغرب وطنجة، ويتخذ قرطاجة (في تونس اليوم) عاصمة له، وكان " هرقل " ملك الروم قد ولاّه على أفريقيا، على أن يحمل إليه خراجها سنوياً. واستنفر " جرجير " كافة قواه، حتى بلغ عدد جنوده 120 ألفاً (حسب المصادر التاريخية القديمة)، وحاول جاهداً تحريك سكان " طرابلس " للعصيان والثورة على حاكمها العربي، بغية استنزاف قوة الجيش العربي قبل وصوله إلى مسرح المعركة الحاسمة؛ إلا أن حنكة القادة العرب فوّتت عليه الفرصة وتمّ رفع الحصار عن طرابلس، وسمح لأهلها بممارسة حريتهم.

وقرر القائد العربي التركيز على قلب منطقة السيطرة البيزنطية. فتابع سيره غرباً حتى وصول الى مكان يدعى " عقوبة "، الذي يبعد سبيطلة مسافة يوم وليلة. ونشبت بين الجيشين في " عقوبة " معركة لم تسفر عن نتيجة حاسمة، وأرسل " عبد الله بن سعد " إلى جرجير يدعوه إلى الاسلام أو دفع الجزية، فامتنع عن الأمرين، واستؤنف القتال، واستمرت الحرب سجالاً، حتى وصل إلى العرب مدد بقيادة " عبد الله بن الزبير " الذي كان قد تخلّف لفترة عن الحملة لتأمين مؤخرتها وتنظيم استمرارية تموينها.

والجدير بالذكر ان " الحيلة " و " الذكاء " كان لهما الدور البارز في هذه المعركة، خصوصاً من جانب " عبد الله بن الزبير "، الذي قام بدراسة العمليات العسكرية بالمراقبة اليومية لها، فلاحظ أن قتال المسلمين يبدأ في الصباح ويستمر حتى أذان الظهر، حيث يعود كل فريق إلى خيامه، كما لاحظ في أحد الأيام تخلّف " عبد الله بن سعد " عن

المعركة، فلما سأل عنه قيل له: " انه سمع منادي جرجير يقول: من قتل عبد الله بن سعد فله مائة ألف دينار وأزوّجه ابنتي ". فأوعز " بن الزبير " لمنادي المسلمين ليعلن الى الروم: " من أتاني برأس جرجير نفلته مائة ألف وزوجته ابنته، واستعملته على بلاده "، فأثار هذا النداء الاضطراب في صفوف الروم، مما اضطر " جرجير " إلى تعزيز حراسته والاعتكاف عن المعركة ما أمكن.

وعرض " عبد الله بن الزبير " خطته على " عبد الله بن سعد " فقال: " ان أمرنا يطول مع هؤلاء، وهم في إمداد متصلة، وبلاد هي لهم، ونحن منقطعين عن المسلمين وبلادهم، وقد رأيت أن نترك غداً جماعة صالحة من أبطال المسلمين في خيامهم متأهبين، ونقابل نحن الروم في باقي العسكر إلى أن يضجروا ويملّوا، فاذا رجعوا الى خيامهم ورجع المسلمون، ركب من كان في الخيام من المسلمين ولم يشهدوا القتال وهم مستريحون، ونقصدهم على حين غرّة، فلعلّ الله ينصرنا عليهم ". وعرض " عبد الله بن سعد " الرأي على كبار قادته، فوافقوه على خطة " بن الزبير ".

وفي اليوم الثاني، أشرف " عبد الله بن سعد " على تنفيذ الخطة، فأبقى مجموعة من فرسان المسلمين الشجعان في خيامهم، وخيولهم بالقرب منهم مسرجة جاهزة، وقاد " عبد الله بن الزبير " المعركة، وكان القتال عنيفاً، ولما أذّن الظهر، همّ الروم بالانصراف للراحة على عادتهم من المسلمين، فلم يمكنهم " ابن الزبير " من ذلك، وألّح عليهم بالقتال حتى انهكهم، ثم عاد مع جيشه وألقى كل من الطرفين سلاحه طلباً للراحة. وأخذ " ابن الزبير " من كان مستريحاً من شجعان المسلمين، وانقض على الروم على حين غرّة، فلم يشعروا إلا والسيوف فوق رقابهم. فقتل " جرجير " على يد " عبد الله بن الزبير "، وقتل الكثير من الروم وتشتت جيشهم، وأخذت ابنة جرجير سبيّة، وفتح " عبد الله بن سعد " سبيطلة بعد انتهاء مقاومة جيش الروم. وكانت هزيمة جيش الروم في سبيطلة من الصدمات العسكرية القوية التي وجهت إليهم، والتي أدت فيما بعد إلى انحسارهم عن شمال أفريقيا. وبسبب تخوّف " عبد الله بن سعد " من ارتداد سكان " طرابلس " أو البربر على مؤخرة جيشه، فقد انسحب عائداً مع قواته الى " الفسطاط "، ولم يترك في المغرب أية حامية أو موقع عسكري ثابت للحفاظ على المكتسبات.

المراجع

1 – الموسوعة العسكرية باشراف المقدم الهيثم الأيوبي. الجزء الثالث. المؤسسة العربية للدراسات والنشر. بيروت. الطبعة الثانية. 1985. ص 782 – 783 و 793.

2 – د. عبد القادر أحمد يوسف. " الامبراطورية البيزنطية ". المكتبة العصرية للطباعة والنشر. صيدا – بيروت 1966. ص 96.

معــارك سَلَمَة

اكتسبت قرية سَلَمَة أهميتها من وقوعها على طريق يافا – اللد الرئيسة التي كـانت تسلكها القوات البريطانية للوصول إلى معسكر لها على تل " ليتفنسكي ". وكـانت القريـة محاطة بالمستعمرات الصهيونية من كل جانب.

بدأ تحرش الصهيونيين بسكان القرية منذ 2 / 12 / 1947، عندما اعتدى بعض سكان مستعمرة " هاتيكفا " القريبة على مزارع عربي يعمل في إحدى البيـارات، فمـا كـان من شباب سلمة إلا الردّ بقتل صهيونيين اثنين في نفس المكان واليوم.

تنادى سكان القرية بعد هذا الحادث، فعقدوا اجتماعا في النادي الرياضي وانتخبـوا لجنو مؤلفة من سبعة أعضاء بدأت تنظيم شؤون الدفـاع، ورتبت أمـور الحراسـة الدائمـة على تخوم القرية تحسباً لأي طارئ.

كان في هذه القرية زهاء ثلاثين بندقية، فتوزع أعضاء لجنة الدفـاع علـى البلـدات المجاورة سعيا للحصول على السلاح بأي ثمن كان. وسرعان ما بلغ عـدد الأسلحة ستين بندقية وثلاثة رشاشات وكمية لا بأس بها من الذخيرة.

لم يحاول سكان المستعمرات اليهودية المجاورة مهاجمة سلمة بعد أن ترامت إليهم أنباء استعداد سكانها وتسلحهم، ولكنهم بدأوا يصلّونها يومياً بنيران غزيـرة آمـلاً فـي دفـع سكانها للتخلّي عن منازلهم. ولكن هؤلاء صمدوا بشجاعة وردّوا علـى النـار بـالمثل وأبـوا مغادرتها.

خشي أهالي سلمة، مع تزايد الاعتداءات أن يصيبهم ما أصاب إخوانهـم فـي قريـة يـازور التـي مرّ بهـا يـوم 18 / 12 / 1947 عـدد مـن الصهيونييـن بـالزيّ العسـكري البريطاني وألقوا على مقهاها عدداً من القنابل فقتلوا ستة من زبائنه العرب. ولذلـك قدمـت لجنة الدفاع عن القرية طلباً إلى اللواء ترجو تدخلـه لمنـع وحدات الجيش البريطـاني مـن المرور عبر قريتهم. وامتنع حاكم اللواء بوجهة نظر اللجنة ولكن ادّعى من عدم تمكنه من فـرض إرادتـه علـى الجيـش. وهـكـذا مـرت بـعـد يـومين سيارة نقل بريطانية فهاجمها

المناضلون وأحرقوها وجرحوا سائقها واستولوا على سلاحه. الأمر الذي أثار غضب القائد العسكري للمنطقة فأسرع إلى القرية على رأس قوة مؤلفة من ثلاثين دبابة وعشر عربات نقل محملة بالجنود وطلب من السكان إعادة بندقية السائق ودفع تعويض عن السيارة وجرح السائق قدرّه بخمسة آلاف جنيه. ولما لم يستجب أحد لإنذاره اعتقل بعض الأهالي وعلى رأسهم لجنة الدفاع. وبعد مفاوضات طويلة تم إطلاق سراح المعتقلين ووافقت السلطات العسكرية على قطع طريق يافا وعمدت إلى زرع أعمدة إسمنتية لسدّ الطريق إدعاء منها أن ذلك أجدى لمنع مرور الآليات. ولكنها في الواقع عزلت قرية سلَمَة ومنعت وصول نجدات سريعة إليها من القرى المجاورة.

وما إن أنهت القوات البريطانية عملها في قطع الطرق وغادرت المكان حتى شن الصهيونيون هجوماً قوياً على القرية من مستعمرة " هاتيكفا " فتصدى الأهالي لهم وكبدوهم خسائر كبيرة وأجبروهم على التراجع. ولكن سرعان ما اتضح أن هذا الهجوم لم يكن سوى عملية خداع وأن الهجوم الرئيس انطلق من مستعمرة " رامات غان " الواقعة إلى الشمال من قرية سلمة. وقد اشترك فيه رجال " الارغون " بالتعاون مع قوة حرس المستعمرات.

اصطدمت قوة الهجوم بعدد من المناضلين العرب على تخوم القرية التي أسرع رجالها إلى الإتجاه الجديد وأحبطوا الهجوم. وبعد أن أجبروا المعتمدين على التراجع شنوا في الليلة نفسها هجوما معاكساً على مستعمرة " هاتيكفا " وأشعلوا النار في بعض منازلها فأسرع سكانها بإخلائها تاركين وراءهم 26 طفلاً، سلّمهم المجاهدون للسلطات البريطانية فيما بعد.

وبطلب من رئيس بلدية تل أبيب تدخلت السلطات البريطانية وأجبرت المناضلين على العودة إلى قراهم وأحاطت بقرية سلمة من كل جانب بداعي الفصل بينها وبين المستعمرات المجاورة. وتحول الموقف إلى تراشق بالنيران عن بعد رغم وجود القوات البريطانية.

إستغلّ الصهيونيون وجود القوات البريطانية فأخذوا يحصنون مستعمراتهم بالإسمنت المسلح وحفروا الخنادق وجهزوا الملاجئ المنيعة. وعندما أنهوا أعمالهم

انسحبت القوات البريطانية.

حاولت لجنة الدفاع الحصول على بعض الأسلحة دون جدوى. ولم تحصل إلا على بعض البنادق وثلاثة مدافع مضادة للدبابات وثلاثة رشاشات وبعض الذخائر بعد أن باعت النساء حليها لدفع ثمن السلاح. وتمكن السكان بهذه الأسلحة من الصمود حتى أواسط شهر نيسان 1948 حين هاجم الصهيونيون القرية بعد أن مهّدوا لهجومهم بقصف شديد بقنابل الهاون. ولكن المناضلين صمدوا وتصدوا للهجوم وردوا على القصف بقصف مماثل على مستعمرة " هاتيكفا ".

ظل أهالي قرية سلمة يقاومون حتى نضبت ذخائرهم. وتوالى ردود الأنباء عن انهيار المقاومة العربية في القرى المجاورة. وعندما وصولهم خبر سقوط مدينة يافا يوم 28 / 4 / 1948، بدأ يغادرون قريتهم لمتابعة النضال في أماكن أخرى. ولم يجرؤ الصهيونيون على دخول القرية الا بعد مرور بضعة أيام من هجرة أهاليها، وبعد أن تأكدوا من خلوّها تماما. وهكذا خسر العرب قرية سَلَمَة بالإضافة إلى القرى المجاورة رغم صلابة الدفاع وعظم التضحيات.

المراجع

1 - عارف العارف: النكبة، ج1، بيروت 1956.

2 - الموسوعة الفلسطينية: الجزء الثاني ص: 578 - 579. اشراف د. انيس صايغ. دمشق. الطبعة الأولى 1984.

معركــة السَّـمُّوع

تعرّضت بلدة السمّوع يوم 13 / 11 / 1966 لعدوان اسرائيلي واسع النطاق أدى إلى قتل وجرح الكثير من المدنيين والعسكريين العرب ونسف القسم الأكبر من منازلها وتدميره وتدمير المدرسة والعيادة الطبية.

وقد اتخذت (اسرائيل) ذريعة مباشرة لعدوانها إنفجار لغمين أولهما يوم 27 / 10 / 1966 على مقربة من قرية " بتير " وأدى إلى خروج قطار إسرائيلي للشحن عن الخط. وقد حمّلت إسرائيل منظمة " فتح " مسؤوليته. وانفجر الثاني تحت سيارة عسكرية يوم 2 / 11 / 1966 جنوبي الخليل وأدّى إلى مقتل ثلاثة جنود إسرائيليين وإصابة ستة آخرين بجراح. وذكر المتحدث الإسرائيلي أن آثار رجلين وجدت قرب مكان الحادث وأن اقتفاءها قد أدّى إلى خطوط الهدنة مع الأردن.

وقد لاحظت المواقع العسكرية الأردنية نشاطاً عسكرياً معادياً في اليوم ذاته تجلّى في تحركات وحدات مدرعة بدت كأنها تتحشد لشن عدوان قريب. وبالفعل بدأ هذا العدوان في الساعة السادسة والنصف من صباح يوم 13 تشرين الثاني بقوات مؤلفة من لواء دبابات ولواء مشاة محمولة تعززها المدفعية والسلاح الجوي الإسرائيلي. وقد تقدما سبع دبابات إسرائيلية باتجاه موقع رجم المدفع الأردني وتمكنت من تدميره بنيران مدافعها في حين ركزت مدفعية العدو نيرانها على مواقع خربة المركز وخربة الطوافي وقرية رافات. وفي الوقت نفسه تقدمت الأرتال المدرعة، الدبابات أولاً ثم المشاة المحمولة على عربات مدرعة، نحو بلدة السمّوع وخربة الأصيفر، فتصدت لها القوات الأردنية على كلا المحورين وتمكنت من دحر الرتل المتقدم نحو الأصيفر وأجبرته على العودة إلى ما وراء خط الهدنة. وأما الرتل الرئيس المتقدم نحو بلدة السمّوع عبر رافات فقد نجح في التغلب على المقاومة الأردنية في قرية رافات وتابع تقدمه نحو السمّوع. وقبل بلوغها توزع إلى ثلاثة أقسام، قام قسمان منها بتطويق البلدة لقطع الطريق عن أية نجدة قد تصل إليها، بينما

دخل القسم الثالث السمّوع وبدأ ينسف منازلها الواحدة تلو الآخر رغم المقاومة العنيفة التي أبداها سكان البلدة والقوة الأردنية الصغيرة الموجودة فيها.

وكانت القيادة العامة للقوات الأردنية قد دفعت بقوات إضافية لنجدة حامية السمّوع بعد أن تأكدت من تحديد اتجاه العدوان، ولكن هذه القوة تعرضت خلال تحركها لقصف جوي معاد، كما اصطدمت بكمائن بثها العدو على محاور تقدمها مما أخرها ومنعها من التدخل في الوقت المناسب.

وقد أسهم السلاح الجوي الإسرائيلي إسهاماً فعالا في تسهيل تقدم القوات البرية إذ هاجم بشكل مستمر كلا من " رافات " و " الأصيفر " و " السمّوع " وسواها من المواقع في الضفة الغربية, وعلى الرغم من تفوق العدو الجوي فوق ساحة المعركة فقد تصدى الطيران الأردني للطائرات المغيرة واشتبك معها في عدة معارك جوية وتمكن الطيارون الأردنيون من إسقاط ثلاث طائرات إسرائيلية من نوع ميراج.

إن استبسال القوات الأردنية المدافعة وخسائر المهاجمين الكبيرة أرغمت القوات العدوة على الإنسحاب قبيل ظهر اليوم نفسه. وقد أعلن ناطق عسكري أردني أن العدو تكبد خسائر بلغت أكثر من خمسين إصابة بين قتيل وجريح، وتمّ تدمير ثلاث دبابات في المنطقة الأردنية وما لا يقلّ عن سبع أخرى واثنتي عشرة سيارة وناقلة جنود مدرعة بالقرب من خط الهدنة في المنطقة المحتلة. وقد تمّ طرد العدو نهائياً في الساعة العاشرة والدقيقة العاشرة من قبل ظهر يوم العدوان.

أما الخسائر الأردنية فكانت تدمير بعض المنازل في قريتي السموع ورافات نتيجة للقصف الجوي، وفقدان طائرة مقاتلة واستشهاد 6 عسكريين وجرح 11 آخرين.

إعتبرت القيادة الإسرائيلية العدوان على السمّوع عملية ناجحة حققت أغراضها، والحقيقة أنها لم تكن كذلك لأن اشتراك قوات ضخمة لتحقيق هدف محدد يدل بوضوح على خشية (إسرائيل) من التعرض لمقاومة عنيفة من السكان والقوات الأردنية. ولم يكن هناك توازن قط بين الخسائر التي حلّت بالقوات الإسرائيلية والأسباب التي حدت (بإسرائيل) للقيام بعدوانها. كما جاءت النتائج معاكسة أيضا لرغبات المعتدي فزادت منظمات المقاومة إيماناً برسالتها، كما زادها دعم الجماهير لها تصميما على تحقيقها.

وأظهرت نتائج المعركة (إسرائيل) أمام الرأي العام العالمي بمظهر العاجز عن ضبط أمنه داخل الأراضي التي يحتلها، فأراد أن يظهر قوته عبر عمليات وحشية كنسف منازل السكان المدنيين العزّل من السلاح. وقد انتقد " شمعون بيريز " العملية وقال إنها " كانت خطيئة سياسية كبرى، وكان من الضروري قبل القيام بها أن تقدر نتائجها وتحسب عواقبها بحكمة وتقدير صحيحين ".

أثار العدوان على السمّوع ردود فعل عربية متعددة على مختلف الصعد. وقد دلّت المواقف العربية من العدوان على الحاجة الماسة لتسليح سكان القرى الأمامية ليتمكنوا من الدفاع عن أنفسهم ومساندة القوات المسلحة العربية في التصدي لأي عدوان مقبل.

المراجع

1 الكتاب السنوي للقضية الفلسطينية، لعام 1966، بيروت.

2 – نشرة مكتب جامعة الدول العربية في القدس تاريخ 14 / 11 / 1966، رقم م. ق 8 / 2 / 1ج 1714.

3 – تقرير الأمين العام للأمم المتحدة إلى مجلس الأمن برقم س/ 7593 تاريخ 18 / 11 / 1966.

4 – الموسوعة الفلسطينية. الجزء الثاني ص: 590 – 592. اشراف د. انيس صايغ. دمشق. الطبعة الأولى 1984.

معركة سواني بني آدم

هي إحدى صفحات الجهاد الليبي الناصعة ضد الغزو الايطالي، وكانت كغيرها من المعارك العديدة التي خاضها المجاهدون الوطنيون ضد القوات الايطالية، مفعمة بالبطولة مليئة بالعزم والإقدام، تجلّت فيها روح الجرأة وصدق العزيمة على دحر العدوّ وكسْر معنويات جيوشه المجهزة بأحدث الاسلحة والمعدات.

يقع موقع سواني بني آدم في ضواحي مدينة طرابلس، ويرتبط ذكره بكثير من الوقائع والأحداث الحربية والسياسية التي اتصلت بحركة الجهاد، فقد كان مركزا من مراكز تجمّع المجاهدين، في الدفاع عن مدينة طرابلس، إبّان الغزو الأول. كما كان قاعدة لكثير من العمليات العسكرية التي جرت خلال هذه الفترة. وقد عُقدت به عدة اجتماعات ومؤتمرات وطنية، وتمّ فيه أيضا الاتفاق المعروف بصلح بني آدم. وجرت حوله عدة معارك واشتباكات حربية، سواء في الفترة الأولى من الجهاد، أو الفترة الثانية المعروفة عند الايطاليين بحرب الاسترداد.

ولعل أشهر هذه المعارك تلك التي وقعت يوم 20 سبتمبر / أيلول 1917 في إحدى المناطق الواقعة بين سواني بني آدم وفندق " بنِ غشير ".

كانت القوات الايطالية، قد تحركت في إطار خطة عسكرية شاملة، ترمي إلى استعادة السيطرة على المناطق الساحلية الغربية. وانطلقت فعلا من " زوارة " عبر المناطق الساحلية الغربية، حتى انتهت إلى مدينة طرابلس، بعد أن واجهت عدة معارك عنيفة، على طول الطريق التي سلكتها، خاصة معارك " سيدي أبي عجيلة، والطويبيّة، وقرقوزة، والمشاشطة ". ولم تستطع هذه الحملة أن تحقق شيئا مما أرادت، وظلت القوات الايطالية تشعر بالخطر الذي يتهددها، من وجود مجموعة كبيرة من المجاهدين في منطقتي سواني بني آدم وفندق بن غشير. خرجت هذه القوة من قواعدها، زحفا على فندق بن غشير، ولم تكد تمضي نصف الساعة، على هذا الزحف، حتى اصطدمت بالمجموعات الأولى من المجاهدين الذين أخذوا يركزون هجومهم على الجناح الأيمن، ويعطلون زحفها، كما

أخذوا يواجهونها عند المرتفعات المعروفة باسم (المجمر) (الواقعة على مسافة أربعة كيلو مترات جنوبي شرقي سواني بني آدم) وتعترف المصادر الايطالية، بأن كل فيالقهم قد (تسمّرت في المواقع) ولم تعد تستطيع الحراك. وحاولت عبثاً توجيه فصائل من قواتها، نحو بن غشير، مركز تجمع المجاهدين، ولكنها سرعان ما عدلت عن ذلك، ودعيت هذه الفصائل للعودة إلى أماكنها، بالنظر إلى انهيار الوضع في الجبهة الايطالية وضرورة الاحتفاظ بكافة القوى، لمواجهة ضغط المجاهدين المتزايد. وقد استفاد المجاهدون في تعطيلهم لزحف القوات الايطالية، مما ساعدهم على تجميع كافة قواهم في المنطقة، وإنزالها في حركة هجوم شامل، من كافة الجهات. وتعترف المصادر الايطالية بأن هذه الحركة كانت تتسّم بالجرأة والصلابة والصمود. وانتهت هذه المعركة عند الساعة 13,30 أي بعد خمس ساعات من القتال العنيف المتواصل.

وتعترف المصادر الايطالية الرسمية بأن المجاهدين نجحوا في تحقيق غايتهم في تعطيل زحف القوات الايطالية على " بن غشير " مما أدّى إلى فشل الخطة الايطالية، وإحباط الخطة التي خرج من أجلها الجيش الايطالي.

المراجع

1 – محمد خليفة التليسي " معجم معارك الجهاد ". ص 282 – 284.

2 – مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الايطالي. طرابلس / ليبيا.

معركة سواني عبد الغني

تعرف هذه المعركة الهامة بعدة أسماء، فهي مسجّلة في الوثائق الايطالية الرسمية باسم " معركة النخلتين " Due Palme "، ومعركة " سواني عبد الغني ". وتعرف لدى المصادر الوطنية باسم " معركة الهواري وشتوان "، إذ رابط المجاهدون الليبيّون في هذين الموقعين، واتخذوا منهما جبهة لمواجهة مواقع العدو ومهاجمتها في بنغازي.

وتدخل هذه المعركة الكبيرة الهامّة، في نطاق المعارك الكبرى التي خاضها المجاهدون ضد الاحتلال الايطالي، عقب عمليات الغزو الأولى، ونزول القوات الايطالية ببنغازي. وكان المجاهدون قد تحولوا بعد المعارك الأولى التي جرت في بنغازي وضواحيها إلى منطقة " بنينا "، حيث أقاموا خطوطهم الدفاعية، ولم تستطع القوات الايطالية أن تحقق أي تقدم خلال الأشهر الأخيرة من سنة 1911، والأشهر الأولى من سنة 1912، وظلت حبيسة الدائرة الضيقة التي احتلتها من بنغازي وضواحيها القريبة. واستمر المجاهدون في مضايقة القوات المعادية، طوال تلك الفترة بما كانوا يوجهونه إليها من هجمات وغارات متوالية، خاصة خلال الفترة الواقعة بين نوفمبر و ديسمبر 1911، وأخذوا بعد ذلك يعدّون للقيام بهجوم شامل، في محاولة لاسترداد المدينة، وإجلاء الايطاليين عنها. وشعر الايطاليون بخطر هذا التجمع على مواقعهم، وخططهم القادمة، بعدما ترامت إليهم الأنباء بوجود قوة تبلغ حوالي خمسة آلاف مجاهد ترابط على طول جبهة الهواري – شتوان. وقد باشرت فعلاً، عند الساعة السادسة صباحاً يوم 12 / مارس / آذار 1912، في مواجهة المواقع الأمامية الايطالية، في " الفويهات". واكتفت القوات الايطالية بعد هذا الهجوم بالمدفعية في المرحلة الأولى، ولكنها اضطرت تحت ضغط الهجوم إلى تحريك قوات كبيرة، تحت قيادة الجنرال " اميليو " وتتكون من سبع كتائب وبطاريتي ميدان وثلاث بطاريات جبال وثلاث فصائل سواري للقيام بهجوم مضاد على مواقع المجاهدين، خاصة عند الموقع المعروف باسم (سواني عبد الغني) في محاولة لتطويق الموقع من الشمال والجنوب. وبلغت المعركة أقصى مراحل التصاعد والعنف، حول المواقع الجنوبية من

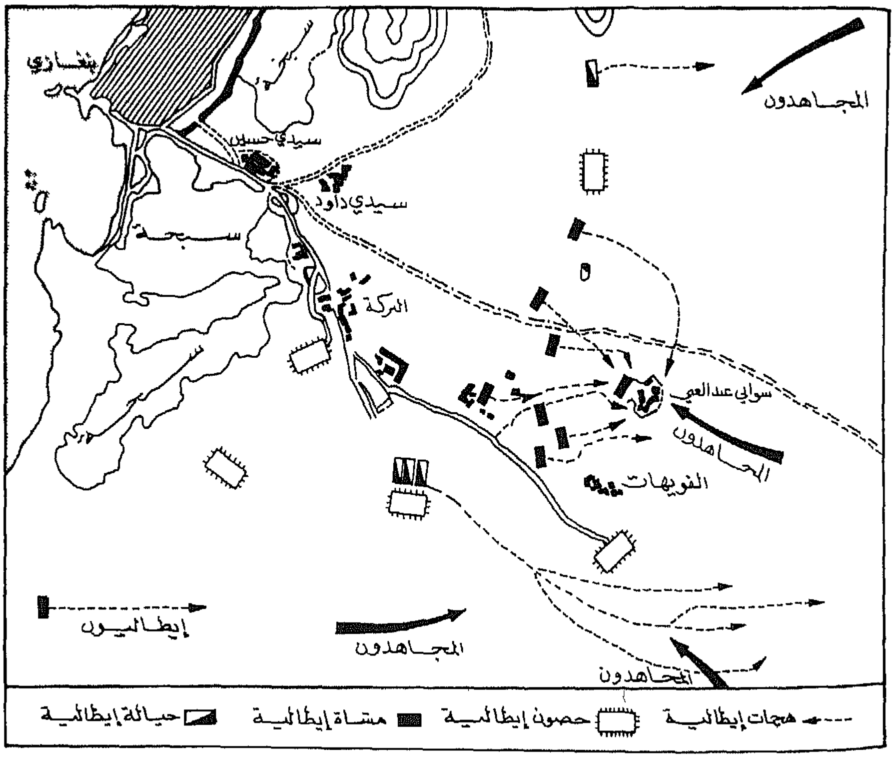
" شتوان " و " سواني عبد الغني "، حين جرت المعركة وجها لوجه وجسدا لجسد، وذلك عند الساعة الواحدة، في الوقت الذي استمرت فيه المدفعية الايطالية في قصف المواقع الغربية للقرية حيث حشد المجاهدون قوة كبيرة لمواجهة القوة الايطالية الوسطى، وتعترف المصادر الايطالية، بأن الزحف كان بطيئاً، والمقاومة كانت عنيفة. وقد انتهت هذه المعركة عند الساعة الثانية والربع، بآخر هجوم شنّه المجاهدون على الايطاليين عند " سيدي مفتاح ". وسقط في هذه المعركة عدد كبير من الضباط الايطاليين، على رأسهم الكولونيل " دي برناديس " بعد أن أصيب إصابة خطيرة في صدره، أردته قتيلا، وتقدر المصادر الايطالية خسائر المجاهدين في هذه المعركة بحوالي ألف بين قتيل وجريح؛ – وهو رقم لا يمكن الاطمئنان إلى صحته –. وتعترف المصادر ذاتها، بأنه على الرغم من الهزة العنيفة التي تعرّض لها المجاهدون، إلا أن نتائج هذه المعركة لم تكن حاسمة لصالح الايطاليين، لعدم إلقاء المجاهدين، بكل قوتهم في المعركة، ولعدم تمكّن الايطاليين من تحقيق انتصارات ترابيّة.

المراجع

1 – محمد خليفة التليسي " معجم معارك الجهاد ". ص 284 – 286.

2 – مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الايطالي.

3 – الموسوعة العسكرية. الجزء الرابع. (مادة سواني عبد الغني). ص 428 – 430.



معركة سواني عبد الغني 12 آذار / مارس / 1912.

معركــة سواني المشرّك

هي احدى صفحات الجهاد الليبي المشــرقة ضـد الغزو الايطـالي، إذ منـذ اللحظـة الأولـى التـي نزلـت فيهـا قـوات الغـزو الايطاليـة إلـى ليبيـا سـنة 1911، للسيطرة عليهــا واحتلالها، عرفت هذه القوات الغازية مرارة المقاومة مـن قبـل المجـاهدين الليبييـن، الذيـن آمنوا بأن الموت بكرامةٍ وشرفٍ في ميدان القتال ضد الأعداء الطليـان، هـو أفضـل بكثيـر من العيش بإذلال وعبودية في ظل القيود والسلاسل الاستعمارية. وليس هناك أشــرف مـن الجهاد في سبيل الأرض والإنسان، ضد أعداء الإنسانية أينمـا كـانوا. علـى هـذا الأسـاس، كانت معركة " سواني المشرّك " بتاريخ الرابع من أيار / مايو سنة 1923.

تقع " سواني المشرّك " إلى الجنوب من مدينة مصراتة بنحو 55 كلم، وهي عبارة عـن أرض سـهلة منبسـطة مكشـوفة الوسـط والجوانـب، خاليـة مـن أيـة مواقـع طبيعيـة أو انشائية يمكن الاعتماد عليها في القتال. وتعرف هذه المعركة في المصادر الوطنية العربية الليبية باسم " معركة سواني المشرّك أو نهار المشرّك ". أما في المصــادر الايطـاليـة فانهـا تعرف باسم " معركة بئر تاجموت "، في حين أن المسافة بين الموقعين تقدّر بثمانيـة كيلـو مترات.

هذا، وعقب سقوط مصراتة فـي أيـدي القـوات الايطـاليـة فـي 26 شـباط / فـبراير 1923، رابط قائد المجاهدين الليبيين " سعدون السويحلي " بقواتـه فـي " أمهـات العرفـج " التي تقع إلى الجنوب الغربي من " تاروغاء "، حيث يشكل هـذا الموقـع أهميـة اسـتراتيجية خاصة وذلك للأسباب التالية:

1 - يـوفـّر حـمـايـة لـتـجـمـعـات الـمـواطـنـيـن فـي كـل من " نفد " و " الســدادة " و " ميمون " و " وسوف الجين "، وغيرها.

2 - يوفّر تأمين مصدر المياه عن طريق الآبار المنتشرة في تلك المنطقة مثل بئر باللعيزار، ومعطن ميمون، وبئر تـاجموت، وبـئر غزّيـل، وثمـاد العرفـج، وبـئر الشـريفية، وبئري جيمي والقديرية.

3 – يوفر تأمين مصدر الغذاء عن طريق تلك التجمعات، وأيضاً عن طريق منطقة تاورغاء التي تشتهر بإنتاج التمور وبعض المنتوجات الزراعية الأخرى. علاوة على أنها توفر الحماية للمجاهدين من الناحية الشرقية.

4 – يوفر جميع أخبار العدو، ورصد تحركاته، وتهديد مواقعه في كل من مصراتة، وزليطن، والخمس.

5 – يوفر تأمين حركة التنقل بين قيادات المجاهدين في هذه المنطقة وبين تجمعات وادي نفد، والسدادة، ووادي ميمون، ووادي سوف الجين، والتي تضم العديد من المجاهدين وعائلاتهم من مختلف المناطق الشمالية والغربية، نزحوا إلى هذه المواقع نتيجة احتلال الساحل والجفارة والجبل الغربي من قبل قوات الغزو الطلياني.

ومما تجدر الاشارة إليه ان سقوط مدينة مصراتة في أيدي الأعداء، كان ضربة قوية وعنيفة منيت بها حركة الجهاد الوطني الليبية. وفي هذا الخصوص يقول القائد العسكري الايطالي رودولفو غراتسياني، قول القائد الشامت: " هكذا سقطت مصراتة اكبر مركز من مراكز نشاط الثوار ودعايتهم السياسية، ومقر أركان حرب الزعيم " رمضان اشتيوى " المخادع، والمقر الرسمي للجمهورية ". اضافة الى ذلك يؤكد خليفة محمد التليسي، أن مصراتة تمثل الميناء الاستراتيجي الذي تأتي عن طريقه الامدادات للمجاهدين، وحلقة وصل بين شطري البلاد، بالاضافة إلى الأهمية المعنوية والسياسية والاقتصادية والعسكرية لحركة المقاومة المسلحة لكافة المناطق.

هذا الى جانب الظروف السياسية التي تمر بها هيئة الاصلاح المركزي بعد " مؤتمر سرت " في كانون الثاني / يناير سنة 1922، والتي أدت الى تفجير الموقف مع السلطات الايطالية، وعدم تطبيق قرارات هذا المؤتمر من جانب " ادريس " في " برقة " القاضية بتوحيد جبهة المقاومة. علاوة على نجاح العدو في بثّ الفرقة بين الوطنيين (سياسة فرّق تسد) وتركيز ادارة الاحتلال لكل قواها من أجل تطويق ومحاصرة المجاهدين في كل مكان، ناهيك عن نقص المؤن والعتاد لدى المجاهدين.

بالرغم من هذا كله، فان قائد المجاهدين الليبيين " سعدون السويحلي " ورفاقه تجاوزوا هذه الفترة العصيبة بعد احتلال مصراتة في 26 شباط / فبراير 1923

وانسحابه الى منطقة " عبد الرؤوف "، وعقد القائد سعدون العزم على مواصلة الجهاد إلى آخر قطرة من دمه. وكان سعدون قد تصرّف بعقلية الرجل المقدّر للمواقف، المتحمّل للمسؤولية، وذلك بأن ترك حرية الاختيار لجنده من نظاميين ومجاهدين، بين الذهاب معه لمشاركته الحرب واختيار طريق الشهادة والتضحية، وبين الرجوع. ونبّه من يرغب في العودة أن يترك سلاحه، لأن الحاجة والظروف تدعونا الى أن لا نفرّط في أية بندقية ولا أية طلقة. فردّ الجميع: القتال، القتال.

هكذا كان استعداد المجاهدين الليبيين واندفاعهم المعنوي قويين، خاصة بعد انضمام العديد من المجاهدين لقيادة سعدون من مختلف المناطق، بالرغم من قلّة المؤن والعتاد.

وأصبحت هذه القوات المرابطة على " سواني المشرّك " و " بئر تاجموت " وما حولهما، تشكل تهديداً مستمراً للقوات الايطالية المتواجدة في مصراتة وزليطن والخمس مما أزعج راحة الايطاليين وأقلق وجودهم.

لذلك عمدوا إلى تشديد المراقبة واستطلاع مناطق تجمعات المجاهدين أحياناً بطائرات الاستكشاف والاستطلاع. وتؤكد المصادر الايطالية على ان الطائرات الايطالية قد قامت بعمليات استطلاع وكشف لتحركات المجاهدين وأماكنهم وأعدادهم، كما كان العدو يستعين بالجواسيس، والمخبرين لجمع المعلومات عن المجاهدين، الى جانب اعادة بناء قواته وجمع صفوفه خلال شهري آذار / مارس، ونيسان / ابريل 1923، تحسباً وتوقعاً لخروج المجاهدين عليهم في أية لحظة من اللحظات. وتعترف المصادر الايطالية بأن الاستعدادات التي كانت عليها قواتهم لم تكن عادية ولم تكن عبثاً في نفس الوقت: " اذ أنه على الرغم – تقول المصادر الايطالية – من الهزائم الخطيرة التي مني بها الخصم (يعني المجاهدين) فلم يتخلّ عن نواياه في الثأر، واستعادة النصر... ".

وكان القائد سعدون على دراية كاملة بنوايا العدو وما يبيته من خديعة ومكر لأنه خبر مواطن ضعفهم وسوء فعلهم، فاستفاد منها وذلك بأن شدّد هو الآخر على أخذ الحيطة والحذر، وكانت الدوريات من " الشوّافة " تجوب أطراف تلك المناطق في عمليات متابعة ورصد لتحركات العدو، وهي عبارة عن مجموعة من الفرسان من عشرة إلى أربعة عشر

فارساً، وكانت قوات المجاهدين بقيادة سعدون تتكوّن من ألف مجاهد من المشاة وثلاثمائة من الفرسان مسلحين ببنادق المسكوف، والبومشط، مع مدفع جبلي وأربعة مدافع صغيرة، وأربعة (طقاطيق) أي رشاشات متراليوزات، ذات الشريط الذي يحتوي على 250 طلقة. وترابط هذه القوات (أي قوات المجاهدين) في عدّة مواقع منها " قرارة مريم "، وثماد العرفج، وبئر تاجموت، والمشرّك، وميمون، وبئر القديرية. ومن الملاحظ ان " قرارة مريم " هي أرض حراثية خصبة وهي مكان حصين للدفاع، في حين ان القوات التي على رأسها " سعدون " ترابط في تاجموت والمشرك. ومن ثم تنطلق دوريات الفرسان والمجاهدين لمراقبة وكشف مواقع الايطاليين في منطقتي العوجة وبئر الكراريم.

بعد ذلك، ركز الطليان هجومهم أولاً ناحية " تاورغاء " باعتبارها تشكل موقع حماية للمجاهدين من الناحية الشرقية وقربها من تحصينات المجاهدين. فصدرت التعليمات الى قائد منطقة مصراتة " الكولونيل روجيري "، بالتوجه نحو الموقع على رأس قوة تقدر بـ 1300 بندقية ومئتي فارس تسانده الكتيبة السابعة عشرة الإريترية، وفرقتان من السواري، وقطعتان من المدفعية بالاضافة الى بعض المجندين من الليبيين، وقدّر مجموع هذه القوات بنحو خمسة آلاف بندقية، واتجهت في أول أيار / مايو 1923 صوب " تاورغاء " في مجموعتين: الأولى ناحية (فندق الجمل) والثانية إلى (بئر جيمي – القديرية) وذلك لقطع الاتصال بين تجمعات المجاهدين، ومحاولة تضييق الخناق عليهم. وسجلت تصادمات عنيفة وقوية ببعض جماعات صغيرة من الفرسان الذين كانوا يقومون بعمليات الاستطلاع والحماية لمعسكرات المجاهدين، ورغم ذلك، فقد تمكنت قوات " الكولونيل روجيري " من الوصول إلى تاورغاء، فتعرض لها أهالي المنطقة وفلاحوها، واشتبكوا مع قوات تفوقهم عدداً وعدّة، أحياناً بالسلاح الأبيض وحيناً آخر بالسلاح الناري، وسقط من بين هؤلاء المجاهد " خالد سعد مدالي " مع أربعة آخرين من رفاقه وتمّ للقوات الايطالية احتلال تاورغاء في نفس اليوم المذكور.

في هذه الآونة كانت قوات المجاهدين تتأهب للقتال وملاقاة العدو، وتجري الاتصالات المكثفة مع قيادة حكومة مصراتة " بوادي نفد " برئاسة " أحمد اشتيوى السويحلي "، لغرض استنفار من هم حوله من المجاهدين ودعوتهم للجهاد.

وفي مساء يوم 3 أيار / مايو 1923، عقد القائد سعدون اجتماعاً في خيمته مع قادة مشايخ القبائل ورؤساء المجاهدين، وذكرهم بالاجتماع الذي عقده منذ فترة في منطقة " عبد الروؤف " على أثر انسحابه بعد معركة " وادي كعام " التي انتهت بسقوط زليطن في 23 شباط / فبراير 1923، وأوضح لهم الظروف الصعبة التي تواجهها حركة الجهاد من قلّة العتاد والذخيرة ونقص في الإمداد. ورغم ذلك فمقاتلة الأعداء لا مفرّ منها، وان غداً سيكون يوم إفطار، قائلاً لهم " واللي يربح يفطر " لأننا في حالة حرب. واتفق الحاضرون على القتال والتصدي للقوات الايطالية، على أن يشكل الخط الحربي لمسافة ألف متر يشمل سواني المشرّك من ناحيتي الجنوب والغرب لتأمين وحماية مصدر المياه وتجمعات المواطنين من الخلف، وتكون قوات الفرسان والمجاهدين على الأطراف، الميمنة وعلى رأسها المجاهد " عون سوف " والميسرة على رأسها المجاهد " محمد عمر الفقيه " (وهو ضابط كومندان)، وقوات القائد سعدون في الوسط وتتكون من خمسة سرايا، على أن ترسل مجموعة من الفرسان والمجاهدين في محاولة لاستدراج الأحباش في اتجاه المجاهدين للالتفاف حولهم والقضاء عليهم.

وكان المجاهدان " عون سوف " و " ابراهيم رمضان السويحلي " على رأس فرق الاستطلاع التي تراقب تحركات القوات الايطالية. وفي صباح يوم الجمعة الموافق 4 أيار / مايو 1923 خرجت طلائع من القوات الايطالية على " سواني المشرّك "، فاصطدمت في بادئ الأمر بفرق استطلاع المجاهدين حسب الخطة المتفق عليها، ودارت معركة غير متكافئة من حيث العدد والعدّة، ورغم ذلك، فقد أبلى المجاهدون البلاء الحسن، وألقوا بكل ثقلهم على جحافل قوات الحملة، إلى أن وصلتهم قوات المجاهدين بقيادة " سعدون " واستطاعوا أن ينفذوا إلى قوات " الكولونيل روجيري " التي كانت قد خرجت من بئر تاجموت إلى سواني المشرّك. وتعترف المصادر الايطالية الرسمية بسيطرة قوات المجاهدين على الموقف في بداية المعركة، وان القوات الايطالية وجدت نفسها في المرحلة الأولى في وضع مرهق وعسير. وبالرغم من الهجوم الذي قامت فرقة الماجور " يوزوني " والذي كان على رأس الكتيبة السابعة عشرة الإريترية في المقدمة على المجاهدين، وركزت فرقة السواري التي كانت تشكل الجانب الرئيس من قوات

" روجيري " في اطلاق النار على جناحي المجاهدين الشمالي والجنوبي، لكن هذا الهجوم لم يفلح في سيطرة القوات الايطالية المجتمعة على الموقف إلا بعد ان استشهد قائد المجاهدين " سعدون السويحلي " بعد الظهيرة.

وتؤكد الروايات أن استشهاد سعدون هو الذي خلق نوعاً من الارباك والتشتت في صفوف المجاهدين، وتأزم الموقف لغير صالحهم، وانتهت المعركة وقد انسحب الطرفان وكل منهما يعتقد بأنه المغلوب، إذ أن الايطاليين عادوا إلى تاورغاء، والمجاهدين رجعوا إلى السدادة ووادي نفد. وقد أشادت المصادر الايطالية بشجاعة البطل الشهيد سعدون، حيث قالت عنه " انه قد هاجم قواتنا بعنف يفوق المعتاد، وإقدام كان بحق لا نظير له، وانها كانت لحظة من أخطر اللحظات ".

وبالفعل ان لا غرابة في ذلك، حيث عرفته المعارك وخبر الايطاليون من بلائه وشجاعته ما دفعهم الى الاعتراف له بالشجاعة الفائقة طبقاً لما يقضي به شرف العمل الحربي من تقدير للخصم واحلاله منزلته الحقيقية الجديرة به خاصة بعد سقوطه في المعركة.

هذا، وقد قدّر عدد الشهداء الذين سقطوا في معركة المشرّك ما يقرب من (150) شهيداً من بينهم ضابطي المتراليوز " سالم الشرفي " و " عبد الرحمن التريكي ". وبلغ عدد الجرحى حوالي (180) جريحاً، في حين ان الايطاليين يكتفون بذكر رقم بسيط لعدد قتلاهم وجرحاهم وهو (21 قتيلاً) و (115 جريحاً) رفعاً لمعنويات جنودهم، في الوقت الذي تؤكد فيه الروايات على أن عدد القتلى من الجانب الايطالي يفوق الثلاثمائة وخاصة من الاحباش.

في النهاية، ومن خلال عرضنا لأحداث هذه المعركة وظروفها يتأكد لنا مدى قدرة المجاهدين على القتال رغم كل الظروف بطرق منظمة مبنيّة على أهداف استراتيجية وتخطيط مدروس ومحاولة التكيّف مع ظروف البيئة ومتطلباتها. كما نرى أن هذه المعركة قد جرت على أرض مكشوفة خالية من أية موانع طبيعية، الى جانب انها حدثت في شهر رمضان في فصل الحر، وبالرغم من هذا كله فان المجاهدين استطاعوا أن يصمدوا بشجاعة في وجه قوات تفوقهم عدة وعدداً، وذلك بفضل إيمانهم القوي بالدفاع عن الأرض

والكرامة واعلاء كلمة الحق اقتداء بقوله تعالى في الآية الكريمة: ﴿ انمـا المؤمنـون الذيـن آمنـوا بأللـه ورسـوله لـم يرتـابوا وجـاهدوا بـأموالهم وأنفسـهم فـي سـبيل اللــه أولئـك هـم الصـادقون... ﴾ صدق الله العظيم.

ولقد ترتبت على هذه المعركة عدة نتائج منها:

1 – ان حركة المقاومة لم تخمد ولم تفـتر كمـا ظـن الايطـاليون، بـل تجـدّدت فـي روح الشاب الجـريء " ابراهيـم رمضـان السـويحلي " وغـيره مـن كبـار المجـاهدين. وقـد استطاع ابراهيم السويحلي ان يجمع الصفوف وان يعيد بناء قواته، ويواجه الايطـاليين فـي عدد من المعارك الهامة.

2 – أدت هذه المعركة الى استمرار الجهاد في كل منــاطق الوسـط الليبـي والقبلـة حتى نهاية عام 1929.

3 – كانت هذه المعركة من المعارك القوية والحاسـمة فـي تـاريخ حركـة الجهـاد، واكثرها خسارة على المجاهدين والايطاليين معاً.

4 – يضـاف الـى ذلـك انهـا جسّدت وحـدة المقاومـة الوطنيـة وذلـك بتوحيد كــل تجمعات المجاهدين الرافضين للاحتلال الايطالي تحت قيادة واحدة.

5 – لم يحقق الايطاليون أي تقدم وعادوا إلى مصراتة المركز وظلـوا بهـا تمهيـداً لزحف الايطاليين على منطقة " ورفلة ".

ومهما نَعِمَ المستعمرون بنشوة الانتصــار، فمـن الطبيعـي والحتمـي أن اسـتعمارهم واحتلالهم لن يكون مؤبداً، وسينهزمون عاجلاً أم آجلاً.

<u>المراجع</u>

1 – علـي المصراتـي " سـعدون البطـل الشـهيد " بـيروت 1964. الناشـر دار مكتبـة الفكـر. طرابلس.

2 – خليفـة محمـد التليسـي " معجـم معـارك الجهـاد فـي ليبيـا 1911 – 1931 ". دار الثقافـة. بيروت 1973. والدار العربية للكتاب 1983. ص 287 – 289.

3 – محمد مسعود فشيكة " رمضان السويحلي البطل الليبي الشهير بكفاحه للطليان " دار الفرجاني. طرابلس 1974.

4 – خليفة محمد التليسي " نحو القرضابية " الدار العربية للكتاب. تونس 1978.

5 – رودولفو غراتسياني " نحو فزّان " ترجمة طه فوزي. مكتبة الفرجاني. طرابلس 1970، ومكتبة صايغ. القاهرة 1976.

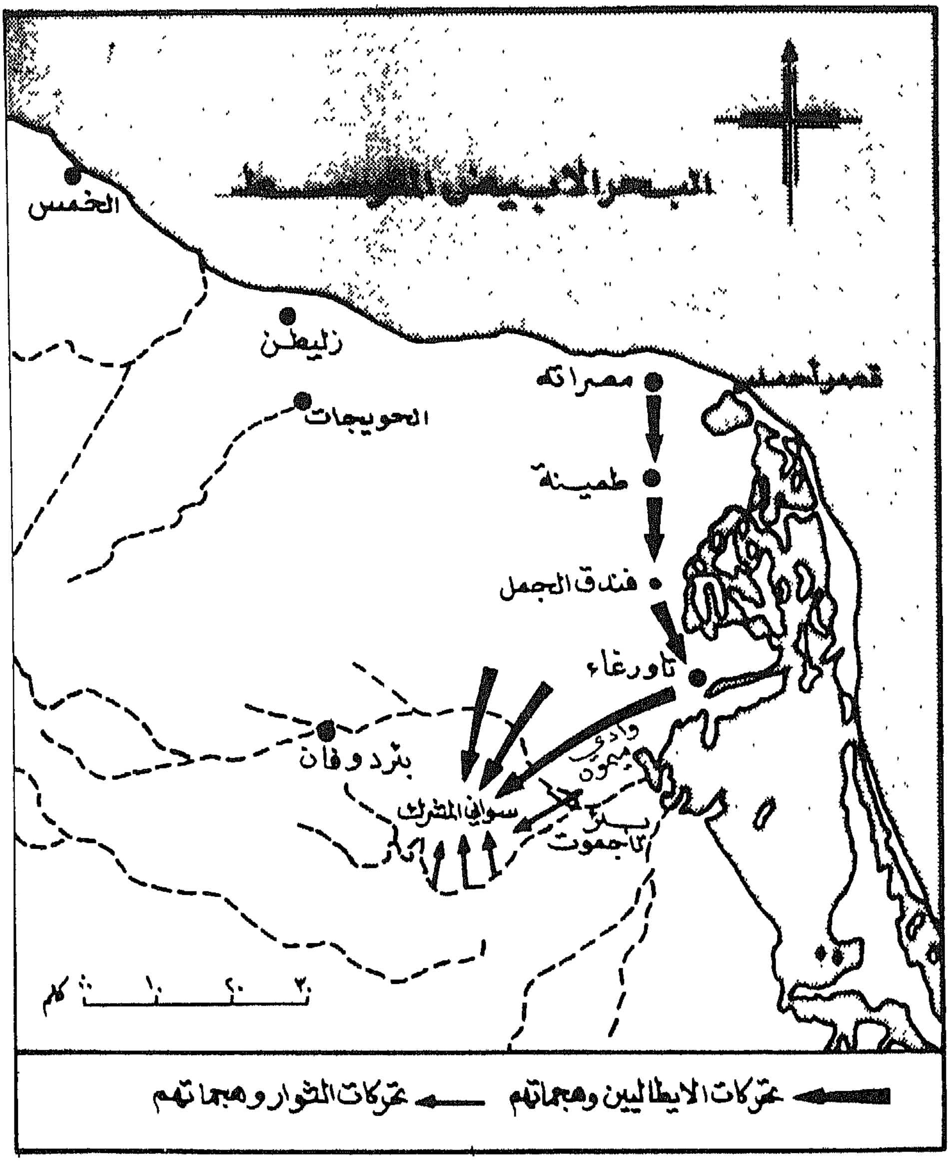
6 – الطاهر أحمد الزاوي " جهاد الأبطال في طرابلس الغرب " دار الفتح للطباعة والنشر. بيروت، ودار التراث طرابلس. ط3 – 1973.

7 – مذكرات محمد الفقيه عبد الملك " خوارق العادة – حرب طرابلس "، نزول الايطاليين في طرابلس الغرب في عام 1911. دار المحفوظات التاريخية. طرابلس.

8 – " من معارك الجهاد الليبي في المنطقة الوسطى 1923 – 1928 " تأليف مجموعة من الباحثين. منشورات جامعة الفاتح – مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الايطالي. الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية 1983. ص 16 – 26.

9 – أشرطة المكتبة الصوتية لمركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الايطالي الخاصة بمعركة سواني المشرك.

10 – الموسوعة العسكرية. الجزء الرابع. (مادة سواني المشرك).



معركة سواني المشرّك (1923)

معركة سيدي ابراهيم

عندما يضع المستعمرون هدفاً مركزياً نصب أعينهم وعلى لوائحهم السوداء، يعمدون إلى تحقيقه بشتّى الطرق والوسائل، ويجهدون لخلق التبريرات والحجج الواهية، بغية إضفاء " الشرعية " على أعمالهم العدوانية وممارساتهم المنافية للقيم والمبادئ الانسانية. وليس هذا بغريبٍ على هذه القوى الاستعمارية، لأن القيم والمبادئ لا وجود لها في قاموسها، وليست بحاجة إليها في التعامل مع بني البشر.

هكذا كان حالُ الجزائريين العرب مع الاستعمار الفرنسي في النصف الأول من القرن التاسع عشر، معتقداً أن إخضاع الجزائر والسيطرة عليها هي بمثابة " نزهة " يحقق من خلالها هدفه الاستراتيجي. لكن حساب الحقل لم يطابق حساب البيدر، وتحولّت " النزهة الفرنسية " في الجزائر إلى حمام من الدم كلّفت الفرنسيين آلاف الضحايا والخسائر، كما دفع العرب الجزائريون اكثر من مليون شهيد ثمناً للحرية والكرامة والاستقلال.

وكانت معركة " سيدي ابراهيم " التي وقعت سنة 1845 بقيادة الأمير عبد القادر الجزائري ضد الجيش الفرنسي، من أهم هذه المعارك وأشرسها. كان عبد القادر الجزائري، الذي تسلّم قيادة الثورة الجزائرية في العام 1832، قد اضطر منذ العام 1844 إلى اتخاذ منطقة الحدود المغربية – الجزائرية (غير الموسومة) منطلقاً لعملياته ضد قوات الاحتلال الفرنسي. وكان يشن الإغارات ضد المواقع الفرنسية في عمق الأراضي الجزائرية بمجموعات معظمها من الخيّالة، ثم يعود إلى قواعده الآمنة في المغرب. وقد أقلقت هذه الإغارات القيادة الفرنسية، ودفعت المارشال " توماس بوجو "، الحاكم العسكري الفرنسي العام في الجزائر، إلى توقيع معاهدة مع سلطان المغرب " سيدي عبد الرحمن "، سرى مفعولُها في الفترة (18 / 3 – 23 / 8 / 1845)، وكانت تنص في أحد بنودها على حرمان الثوار الجزائريين من المأوى في الأراضي المغربية، مقابل عدم تعرّض الفرنسيين للمناطق المغربية. إلا أن هذه المعاهدة لم تعش على الصعيد العملي، فقد واصل الشعب المغربي مساعدته للثوار، وتابع امدادهم بالفرسان المقاتلين وبكافة أشكال

الدعم المادي والعسكري. وأنشأ الأمير عبد القادر مركزاً جديداً في الصحراء المغربية بعد تعرّض مركزه السابق لهجوم فرنسي. وكان مركزه الجديد أشبه بمدينة صحراوية متنقلة تضم المقاتلين وأهلهم وأنعامهم ومؤنهم ومستودعات ذخائرهم. ولفرض مراقبة على نشاطات الأمير عبد القادر العسكرية، ركزّ الفرنسيون عدّة نقاط بالقرب من الحدود المغربية – الجزائرية، أهمها مركز مدينة " الغزوات " (مرفأ " النمور " حالياً)، وكان بأمرة المقدّم " مونتانياك " (Montagniac) ومركز " لالا مغنيّة " ويقع على بُعْد 30 كلم تقريباً إلى الجنوب من " الغزوات عند منتصف الطريق بين " الغزوات " ومدينة " وجدة " المغربية، وكان بأمرة المقدّم " بارال " (Barall).

وفي ليلة 21 – 22 أيلول 1845، تحرّك المقدّم " مونتانياك " من " الغزوات "، على رأس رتلٍ يضم الكتيبة الثامنة لقناصة " أورليان " (Orléans) والسرية الثانية الخيّالة، أي ما مجموعه 423 ضابطاً وجندياً، ولم يترك في " الغزوات " سوى بعض الموظفين المدنيين والجنود بأمرة النقيب " كوفين ". وسار الرتل باتجاه الجنوب الغربي للقيام باستطلاع المنطقة – منطقة نشاط الثوار. وفي يوم 22 أيلول عرّج " مونتانياك " بقواته إلى الغرب وعسكر عند الظهر بالقرب من " سي بو رحّال "، بينما كانت خيّالة الثوار تتابع تحركاته عن كثب دون إجراء التماس معها. وفي ليلة 22 – 23 أيلول، تابع المقدم " مونتانياك " ورتله السير جنوباً في خط متعرّج فرضته طبيعة الأرض الجبلية، حتى وصل إلى مكان بالقرب من جبل " كركور " حيث أقام معسكره.

ومع فجر 23 أيلول 1845، اكتشفَ المقدم " مونتانياك " أن قوات عبد القادر باتت تطوّق معسكره في " كركور " وتسيطر على الذرى المحيطة به، فشكّل مجموعة قتالية تضم 3 سرايا من القناصة والخيّالة، للقيام بهجوم يستهدف تشتيت الثوار وكسر حلقة الطوق الذي ضربوه. وقاد " مونتانياك " الهجوم بنفسه، بعد أن ترك بعضاً من الجنود في المعسكر. ولكنه لم يلبث أن سقط جريحاً وتوفي بعد ساعات قليلة. ونجح الفرسان العرب في صدّ الهجوم وقتل معظم عناصر القوة المهاجمة، بينما حاصرت مجموعة أخرى من الخيّالة العربية معسكر " كركور " وبدأت التعامل معه بالنيران.

وأمام خطورة الحصار، وبفعل الهجمات المتكررة على المعسكر، حاول " حملة البنادق " (المشاة) المتحصنون في معسكر " كركور " (80 رجلاً) الانسحاب

باتجاه الشمال، فاتجهوا نحو مزار " سيدي ابراهيم " الذي يبعد عن المعسكر بضعة مئات من الأمتار. واعتقد قائد قوة المعسكر النقيب " دو جيرو " (De Gero) أن بإمكانه تحويل المزار إلى موقع دفاعي. ولم يكد يوزع رجاله خلف سور المزار، حتى بدأ الخيّالة العرب إغاراتهم عليه من عدّة جهات.

وأراد الأمير عبد القادر الجزائري تجنّب حدوث مذبحة غير مبرّرة، فأرسل إلى الفرنسيين رسولاً يعرض عليهم الاستسلام ويضمن لهم حياتهم. ولكنهم رفضوا عرضه. وتكررت الإغارات بعد ذلك، وكان الأمير يرسل بعد كل هجمة قوية على المزار رسلاً بينهم أسرى من الضباط والجنود الفرنسيين. إلا أن الفرنسيين فضلوا عدم الاستسلام، على أمل التملّص أو وصول نجدات. واضطر الأمير عبد القادر إلى ترك الحصار للانتقال إلى مواقع قتالية أخرى، بعد أن كلّف أهالي المنطقة وبعض جنوده بتصفية القوة الفرنسية.

وفي 24 أيلول 1845، تمكن النقيب " دو جيرو " من إرسال طلب للنجدة إلى المقدم " بارال " (Barall) الموجود بالقرب من " لالا مغنيّة "، ولكن " بارال " لم يتحرك من موقعه خوفاً من الوقوع في كمين. وتابع الثوار العرب هجماتهم بشكل متقطع، ووجد الفرنسيون أنفسهم مضطرين للخروج من الموقع بعد تناقص المؤن والذخيرة. وكانوا يريدون الاتجاه شمالاً نحو " الغزوات ".

وفي الساعة السادسة من صبيحة يوم 26 أيلول، غادرت القوة الفرنسية المزار متخذة تشكيل المربع واتجهت نحو الشمال، فأحاط بها الثوار من الخيالة والمشاة وتابعوا مناوشتها. وقُتل " دو جيرو " وعدد من رجاله إبّان الانسحاب. ولدى اقتراب الناجين القلائل من " الغزوات "، أطلق أحد البّواقين النفير طالباً النجدة. وسمعت عناصر حامية " الغزوات " نفير الاستغاثة فقامت بإطلاق نيران المدفعية على الثوار، الذين وجدوا أن مهمتهم وقد تحققت بإبادة رتل " مونتانياك "، فانسحبوا باتجاه الصحراء. وبذلك نجا حوالي (15) رجلاً من أصل القوة الأساسية (423 رجلاً)، ودخلوا معسكر " الغزوات "، ثم مات عدد منهم بعد أيام متأثراً بجراحه.

وهكذا مثّلت معركة " سيدي ابراهيم " صفعة قوية للاستعمار الفرنسي الذي خسر عدداً من خيرة قواده وجنوده، وارتفعت معنويات الثوار العرب استعداداً لمعارك أخرى.

يعتبر الأمير عبد القادر الجزائري الجدّ الروحي لثورة المليون شهيد، والأب الروحي أيضاً لكل ثورة تحريرية هبّت بعده، وما ثورة الجزائر الثانية إلا بنت ثورته الأولى، حيث " أن الجزائر كانت بمثابة أمّه الأولى "، وكان شعاره " الله أكبر " بمثابة الغذاء الروحي عنده.

كان الأمير عبد القادر الجزائري عظيماً في انتصاراته وانكساراته، عظيماً في وطنه محارباً، وعظيماً في منفاه مسالماً، وعظيماً في حربه وسلمه، وقيادته وعلمه...

ويكفي انه يقول: " إني على يقين بأن أحفادنا الشجعان حين يسمعون قصة ثورتنا اللاهبة، سيهبّون كرّة ثانية إلى الكفاح في ثورةٍ اكثر لهيباً، تحرق الأرض تحت أقدام المحتلين الغاصبين ".

وشخصيةٌ فذّة من هذا النوع، كم نحن بحاجة إلى مثيلها في هذا العصر ضدّ أعدائنا الذين يتناسلون كل يوم بسبب تشرذمنا وتفرّقنا نحن أبناء هذه الأمة التي أنجبت عبد القادر الجزائري...

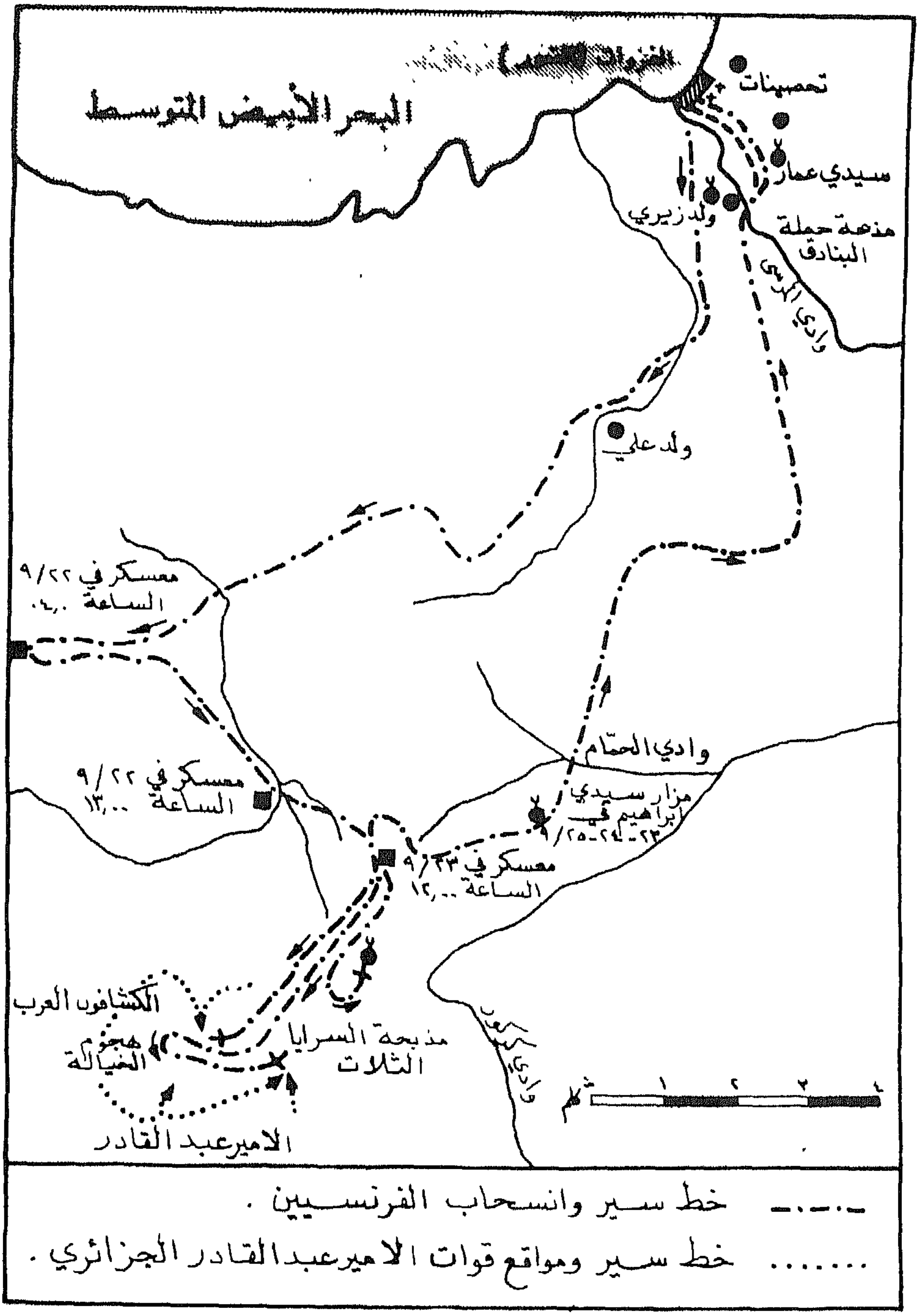
المراجع

1 – الأمير عبد القادر الجزائري. سلسلة " أبطال العرب " (رقم 13). دار العودة. بيروت 1975.

2 – الموسوعة العسكرية. الجزء الرابع. باشراف المقدم الهيثم الأيوبي. المؤسسة العربية للدراسات والنشر. بيروت. الطبعة الأولى 1985. ص 605 – 606.

3 – د. زاهية قدورة " تاريخ العرب الحديث ". دار النهضة العربية بيروت 1975. (الفصل الخاص بالجزائر).

4 – د. نور سلمان " الأدب الجزائري في رحاب الرفض والتحرير ". دار العلم للملايين. بيروت. الطبعة الأولى 1981.



معركة سيدي إبراهيم (1845)

معركة سيدي سعيد

تعتبر هذه المعركة من أهم المعارك التي خاضها المجاهدون الليبيون ضد جحافل الغزو الايطالي لبلادهم، خصوصاً في منطقة زواره.

فبعد أن قامت القوات الايطالية بالنزول في " فروة " ثم في " أبي كمّاش "، أخذت تعد العدة للزحف على زوارة، واحتلال المواقع التي يسيطر عليها المجاهدون الذين أعدّوا دفاعهم عن زوارة، والمنطقة الغربية في أسرها، في الجبهة الممتدة من (سيدي سعيد)، حتى الحدود التونسية، وكانوا يهددون الوجود الايطالي الذي اقتصر على فروة وأبي كمّاش، حيث أخذ يقيم التحصينات حول الحصن التركي القديم، استعدادا لتجاوز هذه المنطقة المحدودة، وتوسيع الرقعة المحتلة. وكانوا يتوقعون إمكانية التوسع الفوري، إلا أن سيطرة المجاهدين على المنطقة عطّلتهم عن ذلك، وأفاد هذا التعطيل في تجمع المزيد من المجاهدين الذين أخذوا يتدفقون من مختلف أنحاء المنطقة الغربية والجبلية، للمشاركة في الدفاع عن هذه الجبهة الرئيسية الهامة، والتصدي للقوات الغازية. وأظهر المجاهدون على الفور مقاومتهم لأية محاولة في التقدم والتوسع، واضطرهم جهلهم بالاتجاه الذي ستسلكه القوات الايطالية إلى الانتشار على جبهة واسعة، بلغت ثلاثين كيلو متراً، خارج منطقة الرمي الايطالي وتقع ميمنة المجاهدين إلى (سيدي سعيد)، وميسرتهم إلى الحدود التونسية، وقد أخذ المجاهدون يدعمون أوضاعهم العسكرية ويتحصنون ويقيمون الخنادق خاصة غربي أبي كمّاش.

أما الخطة الايطالية فقد قامت على:

1 – ضرورة التحرك من المواقع المحتلة في (فروة) و (أبي كمّاش) نحو (سيدي سعيد).

2 – توقع انهيار كافة المواقع الدفاعية بعد احتلال سيدي سعيد مما سيفتح الطريق نحو " زوارة "، وهي الهدف الرئيسي لهذه الحملة.

وكان المجاهدون قد تحصنوا حول هذا الموقع، وسيطروا سيطرة تامة

على مرتفعاته، كما أقاموا مواقع أمامية، على هضاب رأس الماء. وأنشأوا جبهتين سواء الى الغرب نحو أبي كمّاش، أو إلى الشمال لرصد حركة الزحف من جزيرة فروة والنزول منها إلى الشاطئ.

وقد ذكر الجنرال (غاريوتي) في تقريره عن المعركة، أنه كان يقدّر أن الوصول الى هذه المواقع والسيطرة عليها، لا يمكن أن يتم إلا بعد معركة مريرة، مما اضطره إلى الاحتياط وتقسيم الزحف الى مراحل. كما أن نتائج المعركة سيكون لها وزن وتأثير حاسمين على الهدف النهائي للحملة بأسرها.

واستمر القتال حول هذا الموقع ثلاثة أيام (26 – 27 – 28 يونيو / حزيران سنة 1912). بدأت المرحلة الأولى من يوم 26، حين أخذ الجنود الايطاليون يتحركون داخل الجزيرة، نحو المواقع الأمامية منها، الواصلة بينها وبين الشاطئ، منسّقين حركتهم مع حركة القوة المرابطة فعلا في أبي كمّاش، الزاحفة هي الأخرى نحو الشرق، لتغطية عملية النزول.

وكان المجاهدون يسيطرون على المواقع المرتفعة، وقد تجمعوا ظهر ذلك اليوم، عند سيدي سعيد ورأس الماء، ثم شنّوا هجومهم على القوة الايطالية، إلا أن المدفعية الايطالية ومدفعية السفن الحربية كان لها الأثر الكبير في تحكم الايطاليين في الوضع.

وتمكنوا من تحقيق هدفهم الرامي إلى إنشاء مواقع هجومية أمامية تساعد في مواجهة المجاهدين وتغطي عملية نزول باقي الأفواج الكبيرة المقرر لها الزحف على (زوارة).

أما المرحلة الثانية من المعركة، فقد بدأت فجر 27 يونيو، وتركزت هذه المرحلة، في دفاع المجاهدين عن المرتفعات، ورغبة الايطاليين في احتلالها، بمساندة المدفعية الثقيلة من فروة وأبي كمّاش، والسفن الحربية الراسية عند الشاطئ. وواجه الايطاليون صعوبة كبيرة في تنفيذ هذه المرحلة، عبّر عنها الجنرال " غاريوتي " في تقريره عن معركة سيدي سعيد بقوله: (إن تنفيذ هذه المرحلة الماثلة أمامنا لم يكن خاليا من المصاعب. إذ أن الأمر يتعلق بالزحف في ميدان رحب مكشوف معرّض لرصاص خنادق العدو المشهورة، ولذا فقد كان الاحتمال وارداً بنشوب صدام مرير شامل، وقيام

معركة مع جميع قوات العدو والمستعدة دوما لأن تطير استجابة لنداء وضجيج أي معركة، – وسيكون لنتائج هذه المعركة بالتأكيد، وزن كبير على النتائج النهائية للحملة التي بُدئت فعلاً، ولذا فلقد رأيت من واجبي أن أدقّق في اتخاذ كافة الاجراءات المناسبة، حتى تشترك جميع القوات المتوفرة لديّ في العمل الحربي، وتجهيز كافة الخدمات للعمل على مواجهة يوم من المعارك الحاسمة التي تجري في ميدان مكشوف).

واستعدادا لهذا اليوم العصيب، قام الايطاليون بانزال بعض كتائبهم وبطارياتهم خلال الليلة السابقة، أي يوم 26 يونيو، عند أبي كمّاش، وخرجت قوتهم في صباح 27 (الساعة الخامسة والنصف صباحا). ولكن المعركة لم تلبث أن تصاعدت في اللحظات الأولى منها، ردّاً على محاولة الايطاليين (الجناح الأيسر) احتلال المرتفع، ويقول تقرير الجنرال (غاريوتي) أن المعركة قد اتخذت في بعض المواقع طابع ومرارة المواجهة، (جسداً لجسد)، كما ألقى المجاهدون بكل قوتهم على الجناح الأيمن الايطالي أيضا، (فصائل من الخيول والمشاة متجهة إلى ميدان المعركة). واستمرت هذه المعركة خمس ساعات، ورغم سيطرة المدفعية الايطالية والرمي المركز من السفينتين الحربيتين (ايزيدي) و (كارلو البرتو)، ظل المجاهدون محتفظين بمواقعهم في سيدي سعيد.

أما المرحلة الثالثة من المعركة، فقد جرت يوم 28 يونيو، واعتمدت بالطبع على النتائج التي احرزت في اليوم السابق، حيث تمكن العدو من احتلال بعض المرتفعات المواجهة لسيدي سعيد، واتخذ منها قاعدة لتسهيل الهجوم. وكان الايطاليون ينظرون إلى هذه المعركة بشيء من الاشفاق، واعتبارها مرحلة حاسمة في تحديد النصر أو الهزيمة، وقد أقبلوا على خوضها تحت عوامل الخوف مما يؤدي اليه التأخير، من احتمال زيادة قوة المجاهدين، وورود النجدات عليهم.

وقد بدأت هذه المرحلة عند الساعة الخامسة والنصف صباحا، بقصف قوي كثيف على موقع المجاهدين، في سيدي سعيد، قامت بتوجيهه البطاريات الايطالية والسفن الحربية التي كان لها الأثر الحاسم، في ترجيح كفّة القوات المعادية، ومع ذلك فلم يكن زحف الإيطاليين نحو الولي، ليتمّ بسهولة، بل إن تقرير " غاريوتي " نفسه يشهد، بأن هذا الزحف قد تعرّض لمضايقات خطيرة، عند الساعة السابعة والربع، حتى بلغت القوة

الايطالية منتصف السّبخ، فأصلاها المجاهدون ناراً حامية. وقد تمّ لهم احتلال مرتفع سيدي سعيد، عند الساعة الثامنة والنصف. وتقدر المصادر الايطالية خسائر المجاهدين بسبعمائة شهيد، بينهم بعض الضباط الأتراك الذين كانوا يقودون المعركة.

وتعتبر هذه المعركة من أعظم المعارك التي جرت في المرحلة الأولى من الجهاد، في منطقة زوارة. واعتبر الايطاليون هذا الانتصار من انتصاراتهم الكبيرة، بالنظر إلى عنف المعركة وطولها، وأهمية الموقع الذي دارت حوله. وكانت الاستراتيجية الايطالية قد وضعت في حسابها، ضرورة السيطرة على الحدود الغربية، لمنع وصول الدعم الحربي للمجاهدين، من الحدود التونسية.

وتلا " جيلوتي "، رئيس وزراء ايطاليا آنذاك، على أعضاء مجلس الشيوخ البرقية التي وردته من الجنرال (غاريوتي) قائد الحملة، وهذا نصها: (اليوم عند الساعة الثامنة والنصف ارتفعت رايتنا المجيدة عند سيدي سعيد التي انتزعناها من عدو كبير العدد، كان قد تحصّن بها، وذلك بعد معركة لامعة، ساهمت فيها كل القوات العاملة تحت إمرتي).

وكان يقود المجاهدين في معارك المنطقة الغربية القائد العثماني " موسى اليمني ".

المراجع

1 - خليفة محمد التليسي " معجم معارك الجهاد ". ص 304 - 308.

2 - مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الايطالي.

معركـة سيدي عبد الجليل

تاريخ الجهاد الليبي حافل بالبطولات، ولا غرو فالدفاع عن أرض الوطن فريضـة لازمـة وجهـاد مقدّس. ومـا قصّـر المجـاهدون الليبيـون، يومـاً، عـن تأديـة تلـك الفريضـة والاندفاع بحماس إلى هذا الجهاد، بإيمان ثابت وعزيمة صادقة وجرأة نـادرة. فكـانت لهـم صولات وجولات في هذا المضمار، ضد الغزو الايطالي لبلادهم.

ظلت القوات الايطالية، بعد نزولها بمدينة طرابلس، واصطدامها بالمقاومة الوطنية في سلسلة المعـارك التـي جـرت بضواحيهـا آنـذاك، (الهـاني – –سـيدي المصـري – أبـي مليانة – شارع الشط – عين زارة)، ترابـط داخـل تلـك الدائـرة الضيقـة، ولـم تسـتطع أن توسع احتلالها، ولم يكن العدو قد وضع في تقديره أن يواجه بمثل ما ووجه به من مقاومـة عنيفة، أشعرته باستحالة تنفيذ مشروعاته التوسعية بالسرعة التـي كـان يتوقعهـا عنـد بدايـة الحملة. وقد اضطرته هذه المقاومة إلى أن يعطل كثيرا من العمليات التي كان ينوي القيـام بها، على السواحل الليبية، مثل النزول بزوارة وغيرها من الأماكن.

واحتاج الأمر إلى مضيّ أكثر من تسعة أشهر على النزول، حتـى تحـاول القـوات الايطالية الخروج من ذلك النطاق الضيّق، أو تسـتعد لعمليـات حربيـة، تهـدف إلـى توسـيع دائرة الأرض المحتلة، والسيطرة مبدئياً على الشـريط السـاحلي الغربـي، مـن زوارة حتـى طرابلس. بدأت في تنفيذ هذه الخطة، باحتلال فروة وأبي كمّاش، في محاولة للزحف علـى زوارة، ومنها إلى بقية البلدان المجاورة الغربية. وفي نطاق هذه الخطة أعدت قوات كبيرة للهجوم على المواقع الوطنية بـ " جنزور "، بحيث يتم الزحف، علـى القـوى المرابطـة فـي المنطقة الغربية، من الجهتين، وبحيث تواجه حرباً على جبهتين يكـون شـأنها أن تسـتنزف قواها وتشتت مجهودها، وتمكن العدو منها في سهولة ويسر. وليس من الصـدف المحضـة أن تجري معارك (سيدي سعيد وسيدي علي) بـزوارة، ومعركـة (سيدي عبـد الجليـل) بجنزور في فترة متقاربة، وذلك تحقيقا لهذه الخطة الرامية إلى احتلال المناطق الغربية في وقت واحد، والسيطرة على ذلك الشريط الساحلي الهام.

وقد أخذت القوات الايطالية تعدّ للحملة على " جنزور " منذ بداية يونيو 1912، وقد كانت ترى الوقت قد حان، لضرب القوى الوطنية، المتجمّعة في المنطقة والتي كان يشكل وجودها وانتشارها حول المدينة، خطرا متزايدا، على المواقع الايطالية، خاصة بعدما تردد نبأ الإصرار على استردادها من الايطاليين. وما كان ليهنأ للايطاليين بال، وهم يرون هذه المحلات تطوق المدينة، ولا تسمح لهم بحرية التحرك، وقد رابطت هذه المحلات طبقا لتقارير المخابرات الايطالية على النحو التالي:

جنزور (من 2000 إلى 3000 مسلّح)

سواني بني آدم (من 4000 إلى 5000 مسلّح)

فندق بن غشير وبئر طبراز (من 4000 إلى 5000 مسلّح)

سواني أبي غمجة (3000 مسلّح)

الجفارة (وادي الرملة) (600 مسلّح).

والمرابطة بهذه الطريقة، تتمشى مع التكتيك الحربي الذي التزمه المجاهدون في حروبهم، وهو يقوم على استخدام قوات قليلة في المواجهة، والعمل ببقية القوات الكبيرة، ضد المؤخرة والاجنحة.

وكانت الخنادق التي أقيمت في " جنزور " للمواجهة الأمامية، محصنة تحصينا تاماً. وتقول التقارير الرسمية الايطالية (أن هجوما أماميا، ضد هذه الخنادق القوية من شأنه أن يكلف – بوضوح – خسائر فادحة جداً). أما القوات المرابطة في سواني بني آدم، فقد أسندت إليها مهمة التدخل، لضرب الجناح الأيسر الايطالي، كما تتولى المؤخرة، بقية القوات المرابطة في فندق بني غشير، وسواني أبي غمجة.

واستعد العدو بدوره لمواجهة هذه الاحتمالات. وكان يخشى احتمالات الهجوم على مدينة طرابلس، أثناء انشغال القوة الايطالية بالعمل الحربي في جبهة جنزور. فوضع قوات احتياطية في " قرقارش "، لدعم المؤخرة ومواجهة تدخل المجاهدين المرابطين في سواني بني آدم، وقوة أخرى في " أبي مليانة " لمواجهة القوة المرابطة في فندق بن غشير وبئر طبراز، مع مظاهرة القوة الأولى عند اللزوم.

وكان الهدف الرئيسي للهجوم الايطالي الاستيلاء على المواقع التي كانت

بيد المجاهدين، واحتلال مرتفع (سيدي عبد الجليل) الذي يسيطر على بلدة جنزور، وتقرر أن يتمّ الهجوم بفرقتين كبيرتين، واحدة تسير بمحاذاة الشاطئ، وتساندها السفن والمدفعية البحرية وتتحصر مهمتها في احتلال مرتفع سيدي عبد الجليل. أما الثانية فتتوغل أكثر إلى الداخل، وفي خط مواز للأولى، مع شيء من التأخر لحماية الجناح الأيسر.

وقد بدأ الاستعداد لهذه المعركة منذ يوم 6 – 7 بتحريك القوات وإعدادها، وتهيئة الخدمات الضرورية، وحشد كافة الامكانيات في منطقة " قرقارش "، وربط خط حديدي بينها وبين مدينة طرابلس، لنقل الجرحى، كما أعد أسطول من المراكب لنقل المؤن إلى مرسى جنزور، حال سقوطها في أيدي الايطاليين. وأسندت مهمة الهجوم المباشر إلى الفرقة الأولى بقيادة الجنرال (كاميرانا). ووضعت تحت تصرفه بالاضافة إلى القوات الاحتياطية، السفن الحربية التالية: (مدينة سيراكوزة) (كارل البريت) (أرديا) التي كان عليها أن تدعم بمدفعيتها زحف هذه القوات، نحو سيدي عبد الجليل.

وفي الساعة الرابعة من يوم 8 يونيو / حزيران 1912 بدأت القوات الايطالية في الزحف، وفي الساعة 4,40 فتح المجاهدون النار على القوى الزاحفة، وبدأت المعركة التي استمرت عنيفة حامية الوطيس، تتخللها فترات من الانقطاع البسيط، حتى الساعة الرابعة مساء. وتركزت المرحلة الأولى من المعركة حول منطقة (سيدي عبد الجليل) وأبدى المقاومون المجاهدون مقاومة شديدة في سبيل الاحتفاظ بها، وعدم سقوطها في يد الأعداء. إلا أن تدخل السفن الحربية وقصفها العنيف لمواقع المجاهدين، وتغطيتها لزحف القوة المعادية، مكنها في النهاية من السيطرة على هذا الموقع، واحتلال مرتفع سيدي عبد الجليل، واستمر الدفاع قويا عنيفا في المواقع الأخرى غربي وجنوبي الموقع المحتل، وتمكن المجاهدون من عزل بعض الوحدات الايطالية والفتك بها.

أما المرحلة الثانية من المعركة، فقد جرت قرب " قرقارش " ضد القوات الاحتياطية، ونشبت هذه المعركة التي تعتبر جزءاً مكملا للمعركة الأولى، حين تحركت قوات المجاهدين عند الساعة الخامسة والنصف من فندق الطوغار، نحو أرض المعركة مسلطة هجومها على ميسرة القوة الاحتياطية الايطالية، في محاولة للتطويق وضرب

المؤخرة الايطالية. ولم يستطع الجيش الايطالي الاستفادة من تغطية المدفعية المنصوبة في قرقارش. وقد سيطر المجاهدون على المواقع المرتفعة الممتازة في أرض المعركة، مما دفع القائد العام الايطالي إلى إصدار أوامره إلى هذه القوة بالانسحاب والتراجع إلى " قرقارش ".

يقول الجنرال (فروجوني) في تقريره عن هذه المعركة: " يبدو أن كل القوات المرابطة في سواني بني آدم قد شاركت في هذا الهجوم، أي حوالي خمسة آلاف رجل، وأن العنف الذي كانوا قد اندفعوا به إلى الهجوم، والضراوة التي اشتهروا بها في العمل الحربي، رغم حصد البنادق والرشاشات، ونيران العشرين مدفعاً من مختلف الاحجام والذخيرة التي استنفدت في ذلك اليوم، تظهر كلها الأمل الذي كان يعقده العدو في التمكن من هدّ جبهتنا في تلك المنطقة ".

وفي المرحلة الثالثة اضطرت القوة الايطالية إلى تحويل قواتها في " أبي مليانة " لمهاجمة الجناح الأيمن للمجاهدين، المشتبكة مع الايطاليين في قرقارش. وقد اندفع المجاهدون إلى ملاحقتها حتى مواقع رمي المدفعية الايطالية. ولم تسلم ميسرة القوة الايطالية المتحركة من " أبي مليانة " من التعرض للهجوم المستمر، إلا أن ضعف القوة الموجودة في هذه المنطقة حال دون النجاح في عمليات الالتفاف والتطويق.

وهكذا نرى ضخامة هذه المعركة التي امتدت فشملت المنطقة المحيطة بمدينة طرابلس. وكان مجموع القوة الايطالية 13500 بندقية و 12 رشاشاً و 50 مدفعاً. وتقدر المصادر الايطالية عدد المجاهدين الذين اشتركوا في هذه المعركة الكبرى بأربعة عشر ألف مسلّح، وسقط في هذه المعركة عدد كبير من الشهداء، كما تعرض العدو لخسائر فادحة.

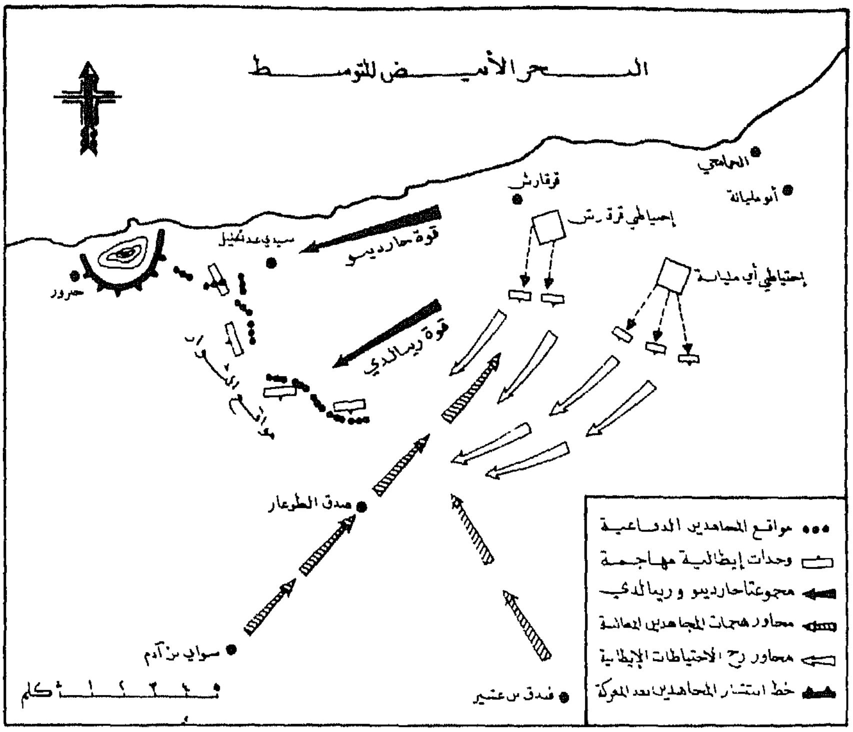
وتعتبر هذه المعركة من المعارك الكبرى التي جرت في المرحلة الأولى من الجهاد الوطني. وقد أطلق عليها الايطاليون اسم (بتاليا Battaglia) ولا يطلق هذا الاسم في التعريف العسكري إلا على المعارك الكبرى.

المراجع

1 – خليفة محمد التليسي " معجم معارك الجهاد ". ص 310 – 316.

2 – مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الايطالي.

3 – الموسوعة العسكرية. الجزء الرابع. (مادة سيدي عبد الجليل).



معركة سيدي عبد الجليل (1912)

معــارك الشجرة

تميزت فترة الهدنـة الأولـى من 11 / 6 حتـى 9 / 7 / 1948 بتعـاظم القـدرة العسكرية الصهيونية، وبوصول الامدادات الضخمة، حتى بلغ عدد أفراد العدو الصهيوني 60 ألف مقاتل عامل واحتياطي. وأمكن بذلك تنظيم ألوية جديدة مدعمة بمختلف صنوف الأسلحة. وقد تمّ زج جيش الإنقاذ بقيادة " فوزي القاوقجي " في قطاع الجبهـة اللبنانيـة في هذه الفترة التي أطلقت عليها قوات العدوان الصهيوني اسم " هجـوم الأيـام العشرة ". وقـد قام اللواء الاسرائيلي " غولاني " خلالها بتنفيذ عدد كبير من العمليات التي كانت تستهدف تجميد أكبر عدد من القوات العربية. وكانت عملية الشجرة مـن أصعب هذه العمليـات، إذ كانت هذه القرية عقدة مواصلات حيوية للجانبين العربـي والصهيوني كليهمـا. وقد بـدأت قوات العدو عملياتها بالإغارة على قريتي " لوبيا " و " مجد الكروم " لاحتلال اكبر مساحة من القرى والأراضي العربية. وتطـور الهجـوم فـي ليـل 9 / 6 / 1948 ليشـمل المجـدل والناصرة ولوبيا ومسكنة، إلا أن قوات جيش الإنقاذ نجحت في إحبـاط هذه الهجمات مما اضطـر القـوات الصهيونيـة إلـى الهجـوم ثانيـة، فانسحبت أمامهـا القـوة العربيــة، واحتـل الصهيونيون المواقع الحساسة على طرق الناصرة المؤدية كلها إلى الغرب . وقامت قوات أخرى بقطع الطريـق المـؤدي إلـى الشـرق عنـد قريـة الشـجرة، فـأصبحت النـاصرة بذلـك معزولـة. فقـررت قيـادة جيش الإنقـاذ إرسـال مـا تملكـه مـن الدعـم (فصيلتيـن إلـى لوبيـا وفصيلتين إلى مجد الكروم). واستطاعت هذه القوات دعم المجاهدين الفلسطينيين، وتدمير قسم من القوات الصهيونيـة والحصـول علـى بعـض الغنـائم مـن مصفحـات وأسـلحة. كمـا أرسلت قوة صغيرة من جيش الإنقاذ إلى " فرّاضية " على طريق صفـد – الرامـة، فـأمكن تـأمين محـاور العمليـات. وقـام قـائد جيـش الإنقـاذ بتجهـيز فـوج حطيـن وسـريتين وأربــع مصفحـات وبطاريـة مدفعيـة، واندفـع بهـذه القـوة صبـاح 9 حزيـران فــي اتجـاه لوبيــا – النـاصرة، قـاصداً القضـاء علـى القـوات الصهيونيـة فـي منطقـة الشـجرة، وتطـهير التــلال المشـرفـة علـى النـاصرة. وفي ليل 10 حزيران، اتخذت هذه القوات مواقعـها للـهجـوم

على القوات المعادية المتمركزة شمالي الشجرة. وقد صدرت الأوامر بالهجوم على الشجرة في الساعة الخامسة من صباح 10 حزيران. فاندفع المشاة تساندهم المدفعية، وتحميهم المصفحات، نحو التلال التي تفصلهم عنها أراضٍ منبسطة مكشوفة معرّضة لنيران القوات الصهيونية، وكانت نتيجة ذلك أن تكبدت القوات العربية خسائر كبيرة. وقد رافقت هذا الهجوم، عملية هجوم أخرى انطلقت من قرية لوبيا، إشترك فيها عدد كبير من المجاهدين الفلسطينيين. كما جذب صوت القصف المدفعي المجاهدين من منطقة الناصرة نحو تلال الشجرة من الغرب. وتميز الهجوم بعنفه وسرعته، في حين كانت المدفعية تزداد شدة في إطلاق نيرانها، مبدلة أهدافها بسرعة تتفق وحركات الهجوم السريع.

بدأت القوات الصهيونية في الساعة السابعة تنسحب على طول خط النار باتجاه قرية الشجرة، وقامت القوات العربية بمطاردتها. وتحولت نيران المدفعية لتقصف مستعمرة الشجرة ذاتها. ووصل المقاتلون العرب إلى جدران المستعمرة التي اندلعت منها النيران في الساعة الثامنة، ودخلت سرية من المجاهدين الناصرة. وفي هذه الأثناء توقف إطلاق النار تنفيذاً لاتفاقية الهدنة الأولى. وأصبحت قوات جيش الإنقاذ تنتشر على خط لا يبعد عن " العفولة " أكثر من سبعة كيلو مترات. وعن عكا تسعة كيلو مترات.

ولم تلتزم القوات الصهيونية، كعادتها، بالهدنة، فحاولت الإفادة منها لتحسين وضعها على حساب جيش الإنقاذ، الذي لم تعد قوته تتجاوز ثلاثة آلاف مقاتل. فقامت بالاعتداء على العرب في قرية الشجرة، ومهاجمة قريتي شفا عمرو والبروة، ولكن قوات جيش الإنقاذ أحبطت الأعمال العدوانية الصهيونية في يوم 11 / 6 / 1948، ثم قام الإسرائيليون بالهجوم على قرية " خربة رأس علي " القريبة من شفا عمرو، فاحتلوها يوم 20 حزيران. فردّت عليهم قوات جيش الإنقاذ بهجوم مضاد، ونجحت فيه بطردهم من القرية.

أكملت القوات الصهيونية استعدادها مع انتهاء الهدنة، فانطلقت بهجوم قوي في الساعة الثانية من صباح 8 / 7 / 1948، واحتدمت المعركة في الشجرة، وامتدت ساحة العمليات إلى بقية أنحاء الجبهة، وظهرت لأول مرة منذ قيام الحرب في فلسطين طائرات حربية إسرائيلية عملت على قصف " ترشيحا " قصفاً شديداً. كما ظهرت للمرة الأولى

أيضاً المدفعية الثقيلة في جبهة الشجرة. وقامت قوات العدوان الصهيوني بهجوم آخر يوم 10 تموز على تل كيسان، تدعمه دبابات ثقيلة من نوع تشرشل وتشيرمان ظهرت للمرة الأولى أيضاً. وعلى الرغم من ذلك إستطاعت قوات جيش الإنقاذ، بالتعاون مع المجاهدين العرب، صدّ الهجمات في قطاع الشجرة، واستعادة ما خسره العرب من المواقع.

استمرت المعركة بدون انقطاع، وبدأت الذخائر تتناقص بسرعة بين أيدي القوات العربية، في حين أخذت قوات العدو تصعّد شدة القتال على جبهة الشجرة، وتبذل جهوداً مستميتة لطرد القوات العربية المشرفة على الشجرة، وترسل النجدات وقوات الدعم بدون توقف. إرتفع عدد القتلى والجرحى مما دعا قيادة جيش الإنقاذ إلى إعادة تنظيم قواتها باستمرار. وقد أدى نفاد الذخائر إلى سحب المصفحات. وظهر احتمال سحب القوات العربية من الشجرة، إلا أن ذلك كان سيؤدي إلى سقوط الناصرة. ولهذا تم الإقدام على تنفيذ عملية يائسة، وذلك بتنظيم هجوم على قاعدة الشجرة ذاتها للافادة مما يتوافر فيها من المؤن والذخائر. وزجّ في هذا الهجوم بكل ما في القطاعات الأخرى من أسلحة، وفيها أربع مصفحات وعدد من المدافع. وبدأ هذا الهجوم في ليل 13 تموز، وأظهرت القوات العربية المشتركة في العملية شجاعة نادرة، بالرغم من أنها كانت مستنزفة القوى بعد صراعها المستمر طوال ستة أيام بلياليها. وأمكن ردّ قوات العدوان الصهيوني وتشتيتها، والتقدم حتى الشجرة وسط كثافة نارية غزيرة من المدفعية والرشاشات والبنادق المعادية. وفي يوم 13 / 7 / 1948، تمّ النصر للعرب واستولوا على الشجرة، لكن قوات فوج حطين من جيش الإنقاذ تكبدت خسائر كبيرة، من بينها إصابة قائد الفوج بجراح بالغة واستشهاد أحد معاونيه وجرح الثاني، بالإضافة إلى إصابة اكثر قادة السرايا بجراح بالغة.

ما لبثت قوات العدو الصهيوني أن أعادت تنظيمها، فقامت في الساعة 19,40 من يوم 13 / 7 / 1948 بحشد كبير في كفر سبت بالقرب من مستعمرة الشجرة، وأخذت مدافعها الثقيلة تقصف مواقع جيش الإنقاذ بكثافة عالية، فتزايدت أعداد القتلى والجرحى العرب. وبالرغم من ذلك أيضاً بذلت القوات العربية كل جهودها لخوض معركة شديدة، استرجعت بنتيجتها تل التين في الساعة 17,00 من يوم 15 / 7 / 1948، وأصبح

طريق لوبيا – الناصرة أمينا. وكبدت قوات العدو خسائر فادحة.

لكن مدفعية العدو تابعت قصف مواقع الشجرة، وفي الوقت ذاته قامت بتطوير هجومها على بقية القطاعات فاستولت على شفا عمرو. وفي الساعة 7,00 من يوم 16 تموز قام رتل من الدبابات الصهيونية بتطويق " صفورية "، واستولى عليها في الساعة 9,25 من اليوم ذاته، وانتقل الصراع إلى أبواب الناصرة. وبدأت عملية هجرة كبيرة من الناصرة وصفورية وبقية المواقع التي سقطت في قبضة الإسرائيليين، ولم تلبث الناصرة أن سقطت في قبضة القوات الصهيونية، وأصبحت قوات جيش الإنقاذ في الشجرة مهددة بالتطويق والإبادة. وفي الوقت ذاته بدأت القوات الصهيونية بالتحرك من الناصرة في اتجاه الشجرة، ومن طبرية نحو لوبيا والشجرة، فتمّ وضع سرية بدوية في وجه القوة الإسرائيلية الآتية من الناصرة، والسرية اليمنيّة في وجه القوات الآتية من طبرية، وأخذت بقية القوات تنسحب من الشجرة بمفارز صغيرة، ثم أخذت السريتان البدوية واليمنية تنسحبان إلى أن تمت العملية في ليل 18 تموز. وتمركزت قوات جيش الإنقاذ على خط دفاعي جديد لا يبعد عن الشجرة أكثر من أربعة كيلو مترات، وقامت القوات الصهيونية بهجوم كثيف على هذا الخط، قبل أن تستقر القوات العربية في مواقعها، فحدثت معركة عنيفة استمرت يومي 18 و 19 تموز. ونجحت قوات جيش الإنقاذ في إحباط الهجمات كلها، إلى أن توقف إطلاق النار في الساعة 17,30 من يوم 19 / 7 / 1948 في الهدنة الثانية، التي تحولت فيما بعد إلى هدنة دائمة.

المراجع

1 – خيرية قاسمية (إعداد): مذكرات فوزي القاوقجي، بيروت 1975. مركز الأبحاث.

2 – صبحي الجابي (ترجمة): الحروب العربية الإسرائيلية، دمشق 1975.

3 – الموسوعة الفلسطينية: الجزء الثاني. ص: 621 – 622. اشراف د. انيس صايغ. دمشق الطبعة الأولى 1984.

معارك الشيخ جراح

الشيخ جراح حيّ عربي من أحياء القدس، تميز بموقعه الجيو - استراتيجي الذي يهيمن على كل التحركات من الساحل إلى الداخل. وكانت القوات الصهيونية تعتمد على الطريق المار بالشيخ جراح لنقل الإمدادات ووسائط القتال إلى يهود القدس (في المدينة الجديدة والحي القديم)، والى المستعمرات الصهيونية الواقعة شمالي القدس، على طريق رام الله، وهي " عطاروت " و " النبي يعقوب "، وتعتمد على هذه الطريق أيضاً للاتصال بمستشفى " هداساه " والجامعة العبرية على جبل المكبر. وقد شهد حيّ الشيخ جراح بسبب هذا الموقع الهام، صراعاً مريراً ومعارك مستمرة بين العرب والقوات الصهيونية.

أخذت القوات الصهيونية تعدّ العدة لإقامة الكيان الصهيوني، فتزودت بأسلحة جاءتها سراً عن طريق البحر والجو من تشيكوسلوفاكيا في مطلع نيسان 1948. ونظمت القوات قيادتها، فتولى " يعقوب دوري " رئاسة أركان الهاغاناه، وتولى " ييغال يادين " رئاسة العمليات، في حين غدا " دافيد شالتيل " آمر منطقة القدس، كما تسلم " يوسف تانيكين " قيادة لواء " هاريل " الذي كلف بعمليات القدس، وكان هذا اللواء مؤلفاً من ثلاث كتائب تضم 1500 مقاتل.

وقد استطاعت القوات الصهيونية بعد ذلك كله تطوير أعمالها القتالية في منطقة القدس، فاستولت على القسطل وساريس وبدو وبيت سوريك، بالإضافة إلى معسكر بريطاني سابق في وادي سارة، وأمنت الحماية للقوافل المتجهة للقدس، فأرسلت إلى يهود القدس خلال خمسة أيام (12 - 17 نيسان) ثلاث قوافل إمداد تضم نحو 250 - 300 سيارة نقل.

وقد ظل الصهيونيون يتمسكون بمواقعهم في جبل المكبر. وكانت الطريق إلى هذا المكان تمر بحي الشيخ جراح، لذلك كانت القوافل التي تمر عبر هذا الطريق تتعرض للهجوم مراراً، فأنشأ البريطانيون في أول نيسان موقعاً يسيطر على الشيخ جراح، لمساعدة القوافل الصهيونية على المرور عبر الطريق، دون أن يكون هناك من يعترضها.

وفي 13 / 4/ 1948 أخذت قافلة صهيونية من تسع سيارات كبيرة، منها اثنتان مصفحتان، تخترق حيّ الشيخ جراح بحراسة قوات الهاغاناه، للوصول إلى الجامعة العبرية ومستشفى هاداساه في جبل المكبر. وعند وصول القافلة إلى وسط الحي فجر المجاهدون من جيش الجهاد المقدس ألغاماً تحت سيارات القافلة، فدمرّوا سيارتين، وقتلوا 38 من الصهيونيين، وانقضّوا ينتقمون لمقتل قائدهم عبد القادر الحسيني، الذي كان قد استشهد قبل نحو أسبوع في معركة القسطل. ولم تكن قوة أفراد الكمين العربي تزيد على 24 مقاتلاً، مسلحين بالرشاشات والبنادق. وبدأت المعركة مع حرس القافلة الذين أطلقوا إشارات الإستغاثة، فأسرعت القوات البريطانية القريبة من ميدان المعركة لمساعدتهم، ووجهت نيرانها ضد المجاهدين من ثلاث جهات. وما أن انتشرت أخبار المعركة في مدينة القدس حتى هرع المجاهدون من أنحاء المدينة المقدسة كلها، ووصل منهم إلى حي الشيخ جراح حوالي مائتي مجاهد، قذفوا بأنفسهم في خضم المعركة المحتدمة ضد البريطانيين والصهيونيين معاً. وشعر الصهيونيون بقوة الكمين وصلابته فطلبوا الهدنة. وعرضوا الإستسلام وإلقاء السلاح، فوافق المجاهدون على طلبهم وأرسلوا مندوباً عنهم لإبلاغ الصهيونيين بشروط التسليم. لكن هؤلاء قتلوا المندوب العربي، فتجدد الاشتباك بعنف أكبر، واستمرت المعركة حتى الساعة السادسة مساء، حيث بلغ عدد قتلى الصهيونيين 120 قتيلاً، وخسر البريطانيون ستة جنود بين قتيل وجريح. ولم ينج من القافلة إلا ثمانية أفراد قام البريطانيون بحمايتهم، في حين خسر المجاهدون 12 شهيداً.

لقد اعتبرت هذه العملية من وجهة نظر البريطانيين رداً على مذبحة دير ياسين التي ارتكبت يوم 9 / 4 / 1948. لكن القضية لم تكن مجرد انتقام فحسب، وإنما كانت دفاعاً عن الوجود العربي، ولهذا تجدد القتال وتكرر مع اقتراب موعد جلاء القوات البريطانية. وقد استولى المجاهدون في 18 نيسان على مستشفى " اوغستا فيكتوريا " في جبل المكبر، كما استولوا على قرية العيسوية قرب الجامعة العبرية والمدينة القديمة. فطلب قائد المنطقة الصهيوني الدعم، فأمرت قيادة الهاغاناه بتحريك لواء " هاريل ". فانطلقت قافلة مكونة من 350 سيارة إلى القدس بقيادة قائد اللواء ودافيد بن غوريون، الرئيس التنفيذي للوكالة اليهودية. وعند الأطراف الغربية للقدس وقعت القافلة في كمين

عربي كبير، أدى إلى إغلاق الطريق بالسيارات المعطلة. ولم يتمكن المجاهدون من الوصول إلى القافلة بسبب النيران الكثيفة. وقامت القوات الصهيونية بمهاجمة الكمين فلم تنجح في تشتيته، واستمرت المعركة حتى المساء، حيث استطاعت القافلة متابعة طريقها، بعد استقدام نجدات جديدة، وتكبدها خسائر كبيرة.

ثم قام الصهيونيون في 24 نيسان بمهاجمة حي الشيخ جراح، واستمرت المعركة طوال الليل، اضطرت القوات المعادية بعدها إلى التراجع، وظل الصراع بعد ذلك محتدماً إلى أن انسحب البريطانيون يوم 13 / 5 / 1948، ودخلت الجيوش العربية يوم 15 أيار، وانتهت مهمة جيش الإنقاذ، وأصبحت مدينة القدس في منطقة عمل القوات الأردنية. وقد حاولت القوات الإسرائيلية فرض سيطرتها على المناطق التي جلا عنها البريطانيون، فتجدد القتال. بينما كانت قوات جيش الإنقاذ تنسحب من منطقة القدس، تلقّت قيادتها في الساعة 3,15 من يوم 18 / 5 / 1948 برقية من قائد القوات الأردنية في القدس يقول فيها: " القدس في ضيق شديد، على وشك الإنهيار، هل باستطاعتكم نجدتها بأقرب وقت وبأقرب طريق ". وبعد نحو 40 دقيقة، تلقت القيادة ذاتها برقية جاء فيها: " الحالة خطرة، العدو يقوم بهجمات على قطاعات المدينة. المدفعية تقصف بشدة من كل ناحية. يجب أن تصلنا النجدات وإلا فمصيرنا الفناء، الفناء أؤكد لكم، وسقوط المدينة. القنابل تسقط في الحرم. آمر حامية القدس ". وفي الساعة 5,20 وصلت برقية ثالثة جاء فيها: " ازدادت الحالة سوءاً. المدفعية تقصف الحرم. وا أسفاه على المدينة المقدسة. ازحفوا لإنقاذ الموقف. الأرواح تنتظر نجدتكم السريعة. آمر حامية القدس ".

أصدر قائد جيش الإنقاذ أوامره إلى المدفعية المنسحبة إلى رام الله بالعودة إلى القدس، ومعها سرية مشاة وجميع المسلحين من الفلسطينيين والأردنيين. وفي صباح 19 / 5 / 1948 وصلت قوات جيش الإنقاذ فيما كانت المعركة على أشدها. وتمّ تنظيم الهجوم وقامت المدفعية بقصف مصادر النيران المعادية بكثافة عالية وتميزت الرمايات العربية بالدقة والإحكام. ثم قامت سرية المشاة ومعها المجاهدون الأردنيون والفلسطينيون بالتقدم نحو الشيخ جراح بحماية مدفعية جيش الإنقاذ، فواجهتها نيران كثيفة من العدو، ردت عليها المدفعية العربية بقصف الحي اليهودي. واحتدمت المعركة في الشيخ جراح احتداماً

شديداً، ثم أخذت تهدأ تدريجياً حتى انتهت عند الظهر بانقاذ مدينة القدس من السقوط. وتحولت منطقة الشيخ جراح مرة أخرى إلى قاعدة لانطلاق الهجمات العربية، حيث ركز الجيش الأردني مدفعيته في هذا الحي، وانطلقت قواته لاحتلال المنطقة، وقطع المواصلات بين جبل المكبر ومدينة القدس الجديدة. وقد حاولت القوات الإسرائيلية بعد ذلك عبثا الإستيلاء على الشيخ جراح. وكان إخفاقها المتكرر عاملاً دفع القيادة الإسرائيلية إلى تجنب المرور في هذا الحي، فتمّ إنشاء طريق بعيد عن المناطق العربية.

وتجدر الإشارة إلى أن معركة حيّ الشيخ جراح أبرزت نقاطاً أساسية في الصراع العربي – الصهيوني خلال تلك المرحلة، منها الروح المعنوية العالية التي كان يتحلى بها المجاهدون، ومنها فشل العدو الصهيوني في تحقيق النصر على الرغم من القوات الضخمة التي زجّ بها في المعركة، وما كان لهذا العدو أن يحقق نصراً لولا تدخل عوامل سياسية كانت تتحكم بتحرك القوات العربية.

المراجع

1 – صالح مسعود بو يصير: جهاد شعب فلسطين خلال نصف قرن. بيروت 1968.

2 – خيرية قاسمية (إعداد): مذكرات فوزي القاوقجي. بيروت 1975.

3 – صبحي الجابي (ترجمة): الحروب العربية – الإسرائيلية. دمشق 1975.

4 – الموسوعة الفلسطينية: الجزء الثاني. ص: 648 – 650. اشراف د. انيس صايغ. دمشق. الطبعة الأولى 1984.

أحرف " الصاد " و " الطاء " و " الظاء "

(ص) و (ط) و (ظ)

1 – الصبيح

2 – صفد

3 – صفّين

4 – صور باهر

5 – صوريف

6 – طبرية

7 – طلس

8 – ظهر الحجة

معركـة الصبيح

الصبيح عشيرة عربية تقيم في مركز وسط الشجرة وكفر كنّا والناصرة. وقد حدث أن تصدى في فجر يوم 3 / 1 / 1948 عشرون صهيونياً مسلحاً لثمانية رجال من أبناء العشيرة على تل قرب الشجرة، فدافع هؤلاء عن أنفسهم، واشتبكوا مع العدو في صراع سقط بنتيجته سبعة قتلى من الصهيونيين، ولاذ الباقون بالفرار. وطلبوا النجدة من الهاغاناه، فأصدرت هذه أوامرها إلى رجال المستعمرات المجاورة، ولا سيما الشجرة للاستعداد لمعركة مقبلة ينتقمون فيها من العرب، ويسحبون قتلاهم.

توقع رجال الصبيح المعركة الإنتقامية، وأخذوا يعدّون للأمر عدته، فطلبوا الدعم من قرية الشجرة العربية وكفر كنّا والناصرة. وأتت النجدات حتى وصل عدد المجاهدين إلى تسعين مجاهداً، معهم مدفع رشاش واحد من طراز " برن ". ونظمت القوات العربية مواقعها عند مدخل مستعمرة الشجرة وحولها على شكل هلال، فسيطرت بذلك على السهل والوادي القريب منه.

بدأ الصهيونيون المعركة في اليوم نفسه بإطلاق نيران مدافع الهاون والمدافع الرشاشة لمدة ساعتين. ثم انطلقوا من المستعمرة يهاجمون على رتلين: أولهما مؤلف من تسعين مقاتلاً، اتجه نحو الوادي قاصداً عبوره. وثانيهما اتجه صوب التل الذي دارت عنده معركة الفجر. وكان المطر غزيراً، والأرض موحلة كثيرة المخاضات، فاستخدم الصهيونيون الجرارات لنقلهم وقطر السيارات المصفحة التي باتت عاجزة عن الحركة في هذه الأرض الوعرة الموحلة.

كان المجاهدون العرب في كمائنهم المّموهة يراقبون تحرك القوات الصهيونية، دون أن تحس هذه القوات بوجودهم. ولما اقترب الصهيونيون من مواقع العرب، وغدوا تحت مدى نيران أسلحتهم، فتح المجاهدون النيران من أسلحتهم كلها دفعة واحدة، فأخذ الصهيونيون يتساقطون وقد أذهلتهم النيران الكثيفة المباغتة، وحاولوا أن يثبتوا ويقاوموا، لكنهم عجزوا عن المقاومة، فبدأوا يفرون نحو مستعمرتهم، وأخذت جراراتهم تنقل

قتلاهم وجرحاهم.

طارد المجاهدون الفلسطينيون القوات المعادية المتراجعة إلى أن وصلوا إلى حدود المستعمرة. لكنهم لم يتمكنوا من اقتحامها لضعف تسليحهم وقلة ذخائرهم، إذ لم يبق مع المجاهدين إلا بضع طلقات. وكانت خسارة العدو في هذه المعركة عشرين قتيلاً وعشرين جريحا تمّ نقلهم بوساطة الصليب الأحمر، أما العرب فلم يتكبدوا في معركتي الصبيح المسائية والصباحية أي خسارة في الأرواح.

المراجع

1 – عارف العارف: النكبة ج1، بيروت 1956.

2 – صالح مسعود بو يصير: جهاد شعب فلسطين خلال نصف قرن، بيروت 1968.

3 – الموسوعة الفلسطينية: ج3. ص: 6 – 7. باشراف د. أنيس صايغ. دمشق 1984. الطبعة الأولى.

معركة صفد (1948)

كانت مدينة صفد تسيطر على محاور الطرق الواصلة بين الساحل والجليل الشمالي والجليل الشرقي، لذلك اتصلت فيها المعارك الدامية مع قوات العدو الصهيوني. ثم نظمت القيادة الصهيونية عملية عسكرية واسعة لاحتلال صفد أطلقت عليها اسما رمزياً " يفتاح ".

كانت القوات البريطانية أثناء انسحابها من فلسطين تعمل على تسليم المواقع الحساسة والمناطق الاستراتيجية الهامة إلى الصهيونيين في 22 / 4 / 1948، وأصبح باستطاعة القوات الصهيونية تنظيم نفسها وتوجيه ضرباتها إلى المواقع المحصنة الهامة الأخرى كصفد. وكان القتال في صفد مستمراً منذ كانون الأول 1947 وحتى أوائل شهر نيسان 1948. إلا أن هذا الصراع لم يتعدّ شكل الإشتباكات الخفيفة، وأعمال القنص والكمائن ضد السيارات والقوافل. وكان مجموع السلاح المتوافر في أيدي المجاهدين الفلسطينيين في صفد منذ بدء القتال حتى نهايته، بما في ذلك ما أرسلته لجنة دمشق وما تمكن أهل صفد من شرائه، لا يزيد على ثلاثمائة بندقية، بعضها فرنسي والبعض الآخر إنكليزي وثلاثة مدافع هاون وكمية قليلة من الذخائر، وكان المقدم في الجيش السوري أديب الشيشكلي، قائد فوج اليرموك الأول التابع لجيش الإنقاذ، هو قائد القطاع الذي يضم صفد.

إنسحبت القوات البريطانية من صفد في 16 / 4 / 1948، ودخل العرب المدينة واحتلوا قسماً كبيراً منها، بالإضافة إلى تمركزهم في النقاط الحيوية كالقلعة ومركز الشرطة وبيت شلفا. وكان عدد أفراد القوة العربية حوالي 600 مقاتل، منهم 470 من الفلسطينيين و 130 من جيش الإنقاذ. وقد عملت القوات العربية على دعم مواقعها باحتلال مركز الشرطة في وادي الحولة ومركز الشرطة في النبي يوشع.

وفي مساء 14 نيسان تسللت فصيلة من " البالماخ " إلى صفد من مواقعها في جبل كنعان. وتولى قائد هذه الفصيلة مهمة السيطرة على الحي اليهودي في المدينة وتنظيم

المقاومة فيه (كان هذا الحي يبعد 50 متراً عن قمة الجبل حيث يقوم القطاع العربي). وعلى أثر ذلك حاولت قوة من لواء " غولاني " الصهيوني الاستيلاء على النبي يوشع، لكن القوات العربية أحبطت هذه المحاولة. ثم حاولت وحدة من " البالماخ "، بعد بضعة أيام، القيام بهجوم ليلي على الموقع نفسه، لكن التقدم إلى نقطة الإنطلاق استغرق وقتاً أطول مما خطط له، فاضطرت هذه الوحدة أن تهاجم قبل أن تتمكن من إعادة تجميع عناصرها، فحلّت في صفوفها خسائر كبيرة، وألغي الهجوم بعد أن سقط 28 مقاتلاً من هذه الوحدة.

وبناء على نتائج الموقف العام في الجليل الأعلى عزمت القيادة الصهيونية على تنفيذ عملية " يفتاح "، وحددت لها الأهداف التالية: " الإستيلاء على المواقع العربية الهامة، وتحقيق السيطرة على المحاور الرئيسة، وتنظيم الجليل للدفاع ضد هجوم الجيوش العربية المتوقع ".

تولى ييغال آلون، قائد البالماخ، قيادة العملية، وتمّ تدعيمه بقوة من قوات الهاغاناه، كما تمّ تحديد موعد بدء العمليات بعد انسحاب القوات البريطانية من الجليل الشرقي كله. وأخذت الهاغاناه بتصعيد عملياتها الهجومية، ونجحت في الاستيلاء على مركز الشرطة في روشبينا. ثم انتقلت إلى بيريا وعين الزيتون، فتمكنت من الاستيلاء عليهما في اليوم الأول من أيار، وباحتلال هاتين القريتين العربيتين أصبح باستطاعة قوات العدو الصهيوني عزل صفد عن بقية القرى العربية، كما أصبح باستطاعة هذه القوات فتح ممّر إلى الحي اليهودي في صفد. وفي الثالث من أيار وصلت كتيبة بالماخ ثانية إلى صفد، كما استمر تدفّق الإمدادات والنجدات العسكرية بحيث وصلت إلى صفد يومي 5 و 6 أيار 172 سيارة عسكرية محملة بالقوات ووسائط الدعم.

في هذه الفترة بقي القتال مستمراً حول صفد، وبدأت الذخائر في التناقص بين ايدي المجاهدين العرب، فأخذ أديب الشيشكلي يلّح في طلب الدعم من قائد جيش الإنقاذ، الذي كان يفتقر هو نفسه إلى الدعم. وأرسل أهل صفد وفداً إلى دمشق لكن جهودهم لم تفلح في تأمين دعم يذكر. وتوجه أديب الشيشكلي ذاته إلى دمشق لطلب الدعم، وأثناء ذلك كانت مدافعه تدك مواقع القوات الصهيونية، مما أثار حماسة المجاهدين، ودفعهم إلى

الإقدام على المعركة. واشترك عدد من العراقيين بمدافعهم، فأسهموا بتدمير قسم كبير من مقاومة البالماخ في الحي اليهودي.

وتقدمت القوات الصهيونية في 6 أيار إلى صفد ذاتها، وهاجمتها، تدعمها مدافع الهاون. لكنها لم تحرز سوى تقدم قليل، لأن القتال كان عنيفاً، وتكررت العملية يوم 8 أيار، إذ هاجمت قوات العدو مواقع في صفد على ثلاثة أنساق، ونجحت المقاومة العربية في إحباط الهجوم. واستأنف العرب قصف مواقع العدو يومي 9 و 10 أيار، وكانت الرمايات هذه المرة أشد فتكاً واكثر إحكاماً، وكانت القذائف تزرع الموت والدمار حيث تتساقط. وظهر أن العرب سينجحون في المحافظة على المدينة، مما دعا ييغال آلون إلى أن يتولى بنفسه قيادة القوات الصهيونية التي بلغ عددها خمسة آلاف مقاتل. وكانت هذه القوات مسلحة بأسلحة كثيرة، بينها عدد غير قليل من مدافع " الفيات ". وعند غسق العاشر من أيار هاجم الصهيونيون مرة ثانية، والتحم الفريقان في كل مكان، ولا سيما في عمارة البوليس. واستمر القتال ليلا في جوّ ماطر من دار إلى دار، ومن غرفة إلى غرفة. وقد استعمل الطرفان السلاح الأبيض عندما سكت صوت المدفع ونفذت ذخائر العرب. وهكذا سقطت عمارة البوليس في صباح 11 أيار، ولم تلبث أن سقطت المواقع القوية الثلاثة في المدينة بيد قوات العدو الصهيوني.

وفي 12 / 5 / 1948، أخلى العرب مركز الشرطة الواقع على الطريق إلى جبل كنعان. وسقط من العرب أثناء معركة صفد مائة شهيد، في حين بلغت خسائر قوات العدو الصهيوني أكثر من ثمانمائة وخمسين قتيلاً.

المراجع

1 – عارف العارف: النكبة، ج1، بيروت 1956.

2 – صبحي الجابي (ترجمة): الحروب العربية الإسرائيلية، دمشق 1975.

3 – صالح مسعود بو يصير: جهاد شعب فلسطين خلال نصف قرن. بيروت 1968.

4 – الموسوعة الفلسطينية: الجزء الثالث. ص: 37 – 38. إشراف د. أنيس صايغ. الطبعة الأولى، دمشق 1984.

معركـة صفّين (657)

وقعت هذه المعركة بين الإمام علي بن أبي طـالب ومعاويـة بـن أبـي سفيان سـنة 657.

إذ بعد الفراغ من أمـور معركـة الجمـل، قـام علـي بمراسـلة معاويـة، ودعـاه إلـى الطاعة والجماعة، وسيّر إليـه سفارة برئاسـة جريـر بـن عبد اللـه البجلـي، وأخفقت هـذه السفارة كما فشلت جميع الجهود التي بذلت لجلـب معاويـة للطاعـة ومـن ثـم الحيلولـة دون الاقتتال بين الشام والعراق، واحتج معاوية بأنه كـان ولـي عثمـان المقتـول، وان لـه الحـق بالمطالبة بدمه والاقتصاص من قتلته، وحين تذرّع معاوية بهذه الحجة كان يعرف سلفاً ان علي لن يسلّمه قتلة عثمان لأمرين رئيسيين: أولهما ان قتلة عثمان كانوا من زعماء جيـش علي ومن أنصـاره ولـيس بـمقدرة علي تسليمهم أو الاقتصاص منهـم. وثانيهمـا، أن عليـاً قال لمعاوية: " أنا الخليفة وإليّ يرجع المتخاصمون وأنا أحكـم فـي الدمـاء وغيرهـا وأقـوم بتنفيذ الأحكام، فتعال وتقاضَ أمامي مع من تزعم أنهم قتلوا عثمان ظلماً ".

والواقع ان معاوية لـم يمهـل الإمـام علياً طويـلاً بعـد معركـة الجمـل، فبـدأ بخلـق المشاكل له في مصر ثم استولى عليها، وكذلك استبدّ بالشام. ولم يخْـفَ على الإمام علي ان الحرب واقعة بينه وبين معاوية لا محالة. ولكنـه تعجّـل تلك الحـرب ونقـل عاصمتـه من المدينة المنوّرة – مدينة الرسول – في الحجاز الى الكوفة فـي العـراق ليكـون أقـرب إلـى الشام اذا نشبت الحرب.

وسار علي نحو الشام على رأس قوات ضخمة، والتقاه معاويـة بقواتـه فـي صفين قرب الرقّة على الفرات في حزيران 657، وكان معاوية قبل تحركه قد استطاع ان يضم الى صفه عدداً من الزعماء المحنّكين مثل عمرو بن العاص وقد ساعده عمرو في النجـاح في صراعه مع علي. والتقت قوات الطرفين، وقامت بينهما معارك شديدة للغاية كادت ان تأتي عليهما معاً، ولقد مـالت الكفّـة نحـو العراقييـن، كمـا تذكـر أكثـر المصـادر أن جيـش معـاويـة كــاد يهزم، بعد ان اسـتـخـدم الطـرفـان كل وسائل الحرب النفسية، حيث استغل

جماعة علي مصرع عمار بن ياسر الذي كان الرسول قد أنبأه بأنه سيقتل على يد الفئة الباغية، وأحسن جماعة معاوية استغلال التناقضات الموجودة بين صفوف قوات علي، وحاول معاوية شراء بعض قادة علي وتثبيطهم عنه، فأشار عمرو بن العاص (أحد دهاة العرب) على معاوية بأن يرفع المصاحف على رؤوس الرماح (قيل كما فعلت عائشة من قبل في معركة الجمل) ويدعو إلى تحكيم كتاب الله في ما شجر بين المسلمين من الخلاف.

أدرك الإمام علي بن ابي طالب أن تلك خدعة، لكن جنده، الذين كانوا قد سئموا الحرب بعد قتال دام ثلاثة أشهر، اضطروه الى أن يقبل بوقف القتال وبالتحكيم، فوقف القتال. وأراد كل فريق أن يختار حَكَماً: فاختار معاوية عمرو بن العاص، أما الامام علي فانه أراد أن يختار عبد الله بن عباس لأنه كفؤ لعمرو بن العاص، لكن أصحابه أبوا ذلك لأنهم كانوا يريدون رجلاً ألين من ابن عباس ليشتري لهم السلم بكل ثمن ممكن. ولذلك وقع اختيارهم على عبد الله بن قيس المعروف بأبي موسى الأشعري، وهو رجل طيب القلب، يصفه ابن الطقطقي بأنه " كان شيخاً مغفّلاً ".

اتفق أبو موسى الأشعري وعمرو بن العاص على أن يحكّما القرآن في الخلاف الناشب بين المسلمين وكتبا بذلك " صحيفة ". وفي شباط / فبراير 658 اجتمعا في أذْرُح في شرق الشام (سورية) ونظرا في أمر الخلاف واتفقا فيما بينهما على أن يخلعا عليّاً ومعاوية من الخلافة ويتركا الأمر شورى بين المسلمين يُولّون على أنفسهم من يشاؤون. فقال حينئذ أبو موسى لعمرو بن العاص: تقدّم فقلْ ذلك للناس. فقال له عمرو: بل تقدّم أنت. فصعد أبو موسى المنبر وقال: " لقد بحثنا فلم نجد للمّ شعث هذه الأمة من أن نخلع عليّاً ومعاوية ونجعل الأمر شورى بين المسلمين. واني قد خلعتهما، فاستقبلوا أمركم وولّوا من شئتم ".

عندها صعد عمرو بن العاص المنبر وقال: " ان أبا موسى قد خلع صاحبه وأنا أخلع من حلع وأثبت صاحبي – معاوية – فانه ولي عثمان بن عفان والمطالب بدمه أحق الناس بمقامه ". فأنكر أبو موسى على عمرو ذلك وعدّه خدعة ثم انصرف أتباع الإمام علي ناقمين على أبي موسى الأشعري، وانصرف أهل الشام فرحين، وكان أول ما فعله

معاوية بعد ذلك أن نادى بنفسه خليفة. وهكذا انقسم العالم الاسلامي بين خليفتين: الإمام علي في الشرق، في جزيرة العرب والعراق وفارس، ثم معاوية في الغرب، في الشام (سورية) ومصر.

وبعد تفاقم الخلافات، وتعمق الانقسام، اغتيل الامام علي في سنة 40 هـ / 661 م من قبل أحد الخوارج واسمه عبد الرحمن بن ملجم المرادي وذلك في مسجد الكوفة وقت صلاة الفجر، وقد أزاح هذا الاغتيال كل العقبات من أمام معاوية.

المراجع

1 – الطبري " تاريخ الرسل والملوك ". الجزء الرابع. ص 552 –576.

2 – الدينوري " الأخبار الطوال ". ص 152 – 201.

3 – اليعقوبي " تاريخ اليعقوبي ". الجزء الثاني. ص 184 – 193.

4 – د. ابراهيم بيضون ود. سهيل زكار " تاريخ العرب السياسي ". ص 79 – 81.

5 – عمر فروخ " تاريخ صدر الاسلام والدولة الأموية ". ص 121 – 124.

معركة صور باهر

" صور باهر " قرية عربية تقع جنوبي القدس، بل تعدّ حيّاً من أحيائها، وكان فيها عام 1948 قرابة 2450 نسمة من السكان العرب، ومساحة أراضيها 9471 دونماً، ليس لليهود فيها سوى 540 دونماً. وهي محاطة من جهات ثلاث بمستعمرات صهيونية هي " تل بيوت " في الشمال، و " رامات راحيل " في الجنوب و " ميكور حاييم " في الغرب.

أخذت الإشتباكات تتكرر كل يوم بين العرب واليهود في مدينة القدس، وكان العرب يواجهون الحي اليهودي داخل البلدة القديمة، والأحياء اليهودية خارج أسوار المدينة. وفي يوم 26 / 1 / 1948، تمكن المجاهدون العرب من محاصرة الحي اليهودي في البلدة القديمة ودمّروا ثلاثة منازل، وراحوا يطلقون النار على ذلك الحي، وعلى الجنود البريطانيين الذين كانوا يقومون بحراسته. وضيّقوا الخناق على الأحياء اليهودية خارج السور، حتى تمكنوا من منع وصول المواد التموينية إليها.

بلغ حصار العرب للحي اليهودي في المدينة القديمة أشدّه يوم 4 / 2 / 1948، وكانت المؤن تنقل إلى ذلك الحي بحراسة الجند، ولم يكن ذلك كافياً، فأشرف الصهيونيون على الهلاك، ونصحتهم حركة الإنتداب أن يخلوا هذا الحي، والحيّ التجاري في الشمّاعة، لكن رجال الهاغاناه رفضوا ذلك. وقد وجه الصهيونيون نداء إلى العرب رجوهم فيه رفع الحصار وإعلان القدس القديمة مدينة مفتوحة. لكن العرب اشترطوا أن يسلّم الصهيونيون أنفسهم بلا قيد ولا شرط.

وفي يوم 17 / 2 / 1948 نشب قتال عنيف في الحي اليهودي عند مدخل المدينة بالبلدة القديمة، فاستشهد عربي وجرح آخر، كما جرح عدد من الصهيونيين وأربعة من البريطانيين تدخلوا لصالح الصهيونيين، وتوقفوا في وجه المناضلين العرب، فتمكن الصهيونيون من نسف منزل آل نمر، وراحوا يطلقون النار على ساحة الحرم، فأرعبوا المصلّين، وكان الصهيونيون، في هذه الأثناء يشنون هجوماً على قرية صور باهر منطلقين من المستعمرات الثلاث المحيطة بالقرية العربية. واتضح للعرب أن عملية

الصهيونيين داخل البلدة القديمة هي تغطية لهجومهم على قرية صور باهر؛ فأخذوا يردون على النار بشدة، في البلدة القديمة، في حين تصدى مجاهدو قرية صور باهر لقوات العدو المهاجمة، التي كانت تتفوّق عليهم عدداً وعدة. وقد تمكنوا بصمودهم أن يمنعوهم من تحقيق أهدافهم. وكانت حصيلة المعركة حرق مطحنة " فيضي إخوان " من قبل الصهيونيين، وقتل حارسها ونسف منزل في أطراف القرية.

اعتنى العرب بعد ذلك بقرية صور باهر اعتناء كبيرا، وأخذوا يحصنونها، وأرسلوا إليها عدداً من المناضلين من رجال جيش الجهاد المقدس، وانضم إليهم فيما بعد؛ وخلال شهر نيسان 1948، جماعات من المتطوعين العرب من مصر.

المراجع

1 – عارف العارف: النكبة. ج1. بيروت 1956.

2 – عبد الله التل: كارثة فلسطين. القاهرة 1959.

3 – محمد فايز القصري: حرب فلسطين. دمشق 1962.

4 – الموسوعة الفلسطينية: الجزء الثالث. ص: 67 – 68. إشراف د. أنيس صايغ. الطبعة الأولى. دمشق 1984.

معركة صوريف

هي احدى المعارك التي جرت بين الثوار العرب واليهود في فلسطين عام 1948.

فبعد فشل الهجوم على مستعمرة " كفار عتسيون "، إلا أن اليهود شعروا بضرورة تعزيز دفاع المستعمرة ورفع معنويات المحاصرين فيها. ولما كان من الخطر بمكان إرسال النجدات عن الطريق الرئيسي (القدس – الخليل) عمدوا إلى إرسال نجدة يوم 17 كانون الثاني / يناير 1948، انطلقت ليلاً من مستعمرة عرطوف بالسيارات حتى وصلت وادي الصنع قرب قرية بيت نتيف، ثم حاولت مواصلة تقدمها على الأقدام ومعها عدد من البغال واللاسلكي، وكان عليها أن تسير في وادٍ بين قريتي صوريف والجبعة لتصل إلى مجموعة مستعمرات كفار عتسيون. لكنها ضلت الطريق، واكتشفها بعض أهالي صوريف في الصباح الباكر، فهب القائد ابراهيم أبو ديّة ورجاله وحاصروا القافلة واشتبكوا معها عند موقع ظهر الحجة بين صوريف وبين نتيف. واستمر القتال طيلة النهار. ومع أن القوة اليهودية كانت مدجّجة بالسلاح الاوتوماتيكي وبكميات كبيرة من الذخيرة، إلا أن المقاتلين العرب تغلبوا عليها وأبادوها عن بكرة أبيها. وكان أفرادها 40 مقاتلاً من خيرة رجال الهاغاناه المشهورين. واعترف اليهود بمقتل 35 رجلاً نشروا أسماءهم في الصحف ورثوهم في الصحافة والإذاعة (إذاعة الهاغاناه)، واستشهد في هذه المعركة أربعة من العرب. وبعد هذه المعركة ارتفعت شهرة القائد ابراهيم أبو ديّة، الذي أدار المعركة بكل بكفاءة، مستفيداً من خبرته التامة بأرض المعركة ومسالكها التي هي أرض قرية صوريف.

وفي اليوم التالي، جاءت قوة عسكرية يهودية من الطريق نفسه لنقل جثث القتلى، فدارت معركة ثانية في بيت نتيف دامت 7 ساعات، قتل فيها من اليهود 13 قتيلاً وثلاثة من العرب، ثم تدخل الجيش البريطاني وتولى نقل الجثث. وبعد هذه المعركة نادى بعض اليهود بإخلاء المستعمرات اليهودية في جبل الخليل، وعارض البعض الآخر مفضلين

تحمل أية خسائر في سبيل عزل الخليل والحيلولة دون اشتراك أهلها في القتال.

المرجع

1 _ مذكرات المناضل بهجت أبو غربية 1916 – 1949: " في خضم النضال العربي الفلسطيني ". مؤسسة الدراسات الفلسطينية. بيروت. الطبعة الأولى. كانون الثاني 1993. (ص: 175 – 176).

معركة طبرية (1948)

كان أكثر سكان طبرية سنة 1947 من اليهود. وكان عددهم نحو 6000 يهودي، بينهم عدد كبير من المحاربين المدرّبين. أما العرب فقد بلغ عددهم، حسب إحصاء عام 1945، نحو 5000 نسمة فقط، ولم يكن بين أيديهم، يوم صدور قرار التقسيم، شيء من السلاح. ولما نشب القتال بين العرب واليهود، راح عرب طبرية يبحثون عن السلاح في كل مكان. وقد أرسلت إليهم اللجنة العسكرية من دمشق 25 بندقية في مطلع كانون الأول 1947، ثم أتبعتها في الشهر نفسه بست وثلاثين بندقية أخرى مع قليل من العتاد.

بلغ عدد المقاتلين في الأسبوع الأول من شهر نيسان 1948 زهاء 50 عربياً مسلحين بالبنادق العادية وحدها، في مواجهة أعداد كبيرة من الصهيونيين من مختلف المنظمات الإرهابية. ثم أخذ عدد المقاتلين العرب يزداد حتى بلغوا مئة مقاتل. وتألفت في العاشر من نيسان لجنة قومية حملت المسؤولية، وقامت بتدبير شؤون الدفاع عن الأحياء العربية. وانتدبت اللجنة " كامل الطبري " ليكون قائداً للمناضلين. وقد قوّى ذلك كله الروح المعنوية عند الأهلين، وزادها قوة وصول عدد من المجاهدين من دمشق، ليقودهم مناضل من أصل طبراني هو " صبحي شاهين " ويحملون معهم بعض الرشاشات الخفيفة، ومدفع هاون واحداً، لكن الذخيرة كانت قليلة.

كان القتال قد نشب عنيفاً بين العرب والصهيونيين، واستمر من 11 إلى 14 / 3 / 1948، ثم تهادن الفريقان شهراً. وأخذ الصهيونيون، خلال هذه الهدنة، يستعدون. وبدأ الموقف يتأزم في الأسبوع الثاني من نيسان، فاستنجدت حامية طبرية العربية بمناضلي الناصرة، فأنجدهم هؤلاء بمجموعة مختارة يقودها " محمد العورتاني " من ضباط الجيش الأردني، وبمجموعة أخرى يقودها " دياب الفاهوم "، وتبعتها قوة ثالثة عدتها 45 مناضلاً بقيادة المناضل " أبو الرُّب "، وصلت إلى طبرية يوم 15 نيسان.

قدّر عدد المقاتلين الصهيونيين في طبرية بألف مقاتل من يهود طبرية والمستعمرات المجاورة. وكانوا مسلحين بالأسلحة الآلية الحديثة، ولديهم كمية كبيرة من

الذخائر.

بدأت المناوشات في الأسبوع الثاني من نيسان. وحاول الصهيونيون القيام بهجمات محددة، صدّها المناضلون العرب ببسالة. ووقفوا سدّاً منيعاً في وجه الأعداء المهاجمين، وردّوهم على أعقابهم، وظلوا يسيطرون على الموقف في الأحياء العربية.

ثم قام الصهيونيون في ليلة 15 – 16 / 4 / 1948 بهجوم كبير قوامه 400 مقاتل، وقد قابلهم 200 من المناضلين العرب. واستمر القتال حتى صباح 16 نيسان حين تدخل الإنكليز، فمنعوا التجول في المدينة، وأمروا بهدنة مدتها ثلاثة أيام. وطلبوا من رجال الهاغاناه مغادرة مواقعهم القريبة من المراكز العربية، لكن هذا الطلب ألغي بأمر حاكم المنطقة البريطاني " ايفانس ".

شنّ الصهيونيون في اليوم الثالث للهدنة، وقبل أن تنقضي، هجوماً مركزاً على المواقع العربية، جنّدوا له قوات كبيرة جيدة التسليح. وقد اشتد القتال، إلى أن تغلّب الصهيونيون على العرب المدافعين، واحتلوا فندق " كروسمان " الكبير المعروف، ومعظم البنايات الضخمة، ومنها بناية بنك باركليس. وسيطروا على جزء كبير من الأحياء العربية، وقتلوا عدداً من العرب. لكن مقاومة المناضلين العرب لم تتوقف، على الرغم من نقص الذخيرة، وتفوق العدو الكاسح عليهم عدداً وعدة. واستؤنف القتال صباح يوم التاسع عشر من شهر نيسان، ولم يدم طويلاً حتى تمكن الصهيونيون من دخول الحي العربي والإستيلاء عليه.

وقد دبّ الذعر في قلوب أبناء المدينة، وكانت قد وصلتهم في العاشر من نيسان أنباء المذبحة التي نفذها الصهيونيون في قرية ناصر الدين، حين أحرقوا منازلها، وقتلوا الكثير من نسائها ورجالها وأطفالها. لذلك راح سكان طبرية يرحلون عن المدينة، يدفعهم إلى ذلك العدو الصهيوني، ويسهّل لهم الأمر رجال الجيش البريطاني كما جرت العادة، ووفق ما رسم الطرفان من خطة لتهجير العرب وتفريغ المنطقة من سكانها. أما من تبقى من المقاتلين، فقد انسحبوا إلى قرى المغار ولوبية وحطين في قضاء طبرية.

المراجع

1 – عارف العارف: النكبة، بيروت 1956.

2 – الموسوعة الفلسطينية: الجزء الثالث ص: 106 – 107. إشراف د. أنيس صايغ. الطبعة الأولى. دمشق 1984.

معركـة طلس (751 م)

هي المعركـة الأولـى والأخيرة التـي جـرت بيـن العـرب والصينييـن سـنة 751 ميلادي، وكانت لمدّة يوم واحد، انتصر فيها العرب انتصاراً كبيراً، دون أن يتابعوا تقدمهم من ناحية، ودون أن يعيد الصينيون حشد قواهم العسكرية للأخذ بالثـأر مـن ناحيـة ثانيـة. وبالرغم من أن هذه المعركة لم تأخذ حقها من التـأريخ ومـن الأهميـة، لكنهـا تركـت آثـاراً حضـارية، قلّما تركتها أية معركة أخرى على هذا الصعيد. وفي هـذا الاطـار يكمـن سـرّها الهام.

فكيف حصلت هذه المعركة؟ وبِمَ تجلّت آثارها الحضارية؟

بعد وفاة الرسول – صلى الله عليه وسلم – انساحت الجيـوش العربية تفتـح بـلاد الشام وما إليها غرباً، وأرض الرافدين وما جاورها شرقاً، وبعد ثلاثة عقود كانت الجيـوش المتجهة شرقاً قد أتمت فتح العراق وإيران، لكن الحروب الأهلية التي لفحت دولة الخلافـة بنيرانها أوقفت الفتح من جهة، وسمحت لبعض أولي الأمر في إيران أن يتفلّتوا من القبضة الجديدة.

أعـاد الحَجّـاج هيبـة الحكم فـي العـراق، وعـاقب الثـائرين فـي خراسـان (الجـزء الشمالي من إيران) على يد نائبه المهلّب بن أبي صفرة (78 هـ – 697 م)، ثـم اتجـه نحو ما وراء النـــهـر (وهـي الرقعة من الأرضْ التي يحيط بها منْ الشمال نهر سيحون (سيرادرايا)، ونهر جيحون (أموْداريا) من الجنوب، فاجتـاز نهـر جيحـون، ويبـدو أنـه وصل طشقند، فـي بعـض غزواتـه، ولمـا توفـي المهلّـب (82 هـ – 701 م) خلفـه فـي الإدارة ابنه، ثم أخـو هـذا، وأخـيـراً انـتدب الحـجـاج قتيبة بن مسلم للعمل فـي خراسـانَ، (86 هـ – 704 م).

وقد نجح قتيبة، خلال سنة واحدة، في إعادة هيبة العرب إلـى مكانتهـا، ثـم استعاد إقليم طخارستان (وعاصمته بَلْخ)، ثم اجتاز نهر جيحون ثانيـة لفتـح مـا وراء النهـر مـن جـديـد. وكـان الـولـيد بن عبد الملك قد تولى شؤون الخلافة (86 – 96 هـ / 705 –

715 م)، وكان محباً للتوسع فشدّ أزر قتيبة في مخططه وحروبه، فانتشر هذا في ما وراء النهر واحتل الصفد وهاجم فرغانة. وقد قال البلاذري عن قتيبة إنه هو الذي غرس العرب في ما وراء النهر، واتخذ له في الشاش (طشقند) مركزاً للإدارة والحرب.

الطريق إلى الصين:

ومع ذلك فإن وفاة قتيبة (96 هـ / 715 م)، وتوقف اليد الجديدة عن الإمساك بالأمور، أعاد إلى ما وراء النهر بعض ما كان فيها من اضطراب، لكن الأمر لم يفلت بالمرة. إلا أن الحجاج قد توفي قبل ذلك بسنة (95 هـ / 714 م)، وهذا ترك الأمور في تلك الأنحاء النائية على شيء من الهوان.

كانت الصين قد أخذت في التوسع نحو حوض " تاريم " أيام دولة " تانغ " (618 – 906 م)، وخاصة في أوائل القرن الثامن للميلاد. وقد توغل الصينيون فيما بعد حتى بحيرة إسك – كول، حيث تغلبوا على فئات من الأتراك، وبذلك وطدوا سلطانهم في المنطقة، وقد تمّ هذا بشكل خاص أيام الأمبراطور هسوان – تسونغ (713 – 756 م)، ومن ثم فقد كانت مواقعهم قريبة من مواطن العرب فيما وراء النهر...

وكان أن ظهرت في تلك المنطقة جماعات من قبائل تركية اسمها ثور غوش، فاغتنمت تشتت العرب، وتصدّت لهم بعض الشيء. وكان أهل الصفد قد استجاروا بهؤلاء الأتراك لينقذوهم من العرب، ففعلوا، ومن هنا أراد مسلم بن سعيد – وكان على جند ما وراء النهر – أن يوقفهم عند حدّهم، فقاد حملة إلى فرغانة، ولكن الترك تغلبوا عليه في معركة العطش سنة 106 هـ – 724 م، وقد سميت هذه المعركة بهذا الاسم بسبب ما أصاب الجنود العرب من انقطاع الماء عنهم، إذ حال الترك بينهم وبين النهر.

وقد سوّلت لخاقان الثورغوش واسمه " سو – لو " نفسه، – وقد استقر الأمر له في فرغانة – أن يجتاح نهر جيحون لقتال العرب في معاقلهم، إلا أن " أسد القرى " الذي كان قد عيّن على خراسان لفترة ثانية، تصدى له وأوقع به هزيمة منكرة سنة (116 هـ أو 117 هـ) 734 م (أو 735 م). وحدث بعد ذلك أن اغتيل الخاقان، فتفرق الثورغوش أيدي سبأ، ولم يعد في مقدورهم أن يؤذوا العرب.

مواجهة لا مفر منها:

وقد أصبح توسع الصين، الذي ألمحنا إليه قبلاً، عبئا ثقيلا على مركز السلطة الصينية، بحيث أصبح من البيّن أن الحفاظ على هذه الدولة الممتدة فوق الحاجة لم يعد أمراً ممكناً. وزاد في صعوبة الموقف أن العرب أصبحوا في شبه مواجهة للصين، وكان الصدام بين الفريقين محتمل الوقوع في أي وقت.

وقد وقع الصدام فعلاً في طلس (أو طرس)، فقد اقتتل الفريقان. (العرب والصينيون) على نهر طلس الذي كان يومها رافداً من روافد نهر سيحون (سيرادريا)، وهناك في مجرى نهر طلس الأعلى آثار مدينة عرفت باسم طلس (أو طرس) (أو طرز) تقع على مقربة من مدينة " أولاي – آتا " الحالية، وقد كانت يومها على الطريق الذي كان يصل بين أسفيجاب (على نحو 130 كلم إلى الغرب) ومركي أو بركي (على نحو 160 كلم إلى الشرق)، وطلس نفسها كانت في القرن الرابع عشر مركزاً عسكرياً وتجارياً مهمّاً.

ومعركة طلس كانت معركة يوم واحد تمّت سنة 134 هـ / 751 م (أي في مطلع العهد العباسي) انتصر فيها العرب على الصين في المعركة الوحيدة التي وقعت بين الفريقين، ولم يرافق القتال شيء من الحماسة والعنف اللذين عرفا عن عشرات من المعارك العربية.

والعرب لم يتابعوا نصرهم، ولا حاول الصينيون أن ينتقموا لانكسارهم، فقد ظلت مركي (أو بركي) الموقع المتقدم للعرب في تلك الربوع لمدة طويلة.

وحتى معركة بلاط الشهداء (تور أو بواتييه) التي وقعت بين العرب والفرنجة سنة 114 هـ / 732 م، كانت أعنف وأشد، ومع ذلك فثمة وجه للشبه بين المعركتين: في بلاط الشهداء كانت موجة الفتوح التي بدأت باليرموك وسارت عبر مصر وشمال أفريقيا وإسبانيا قد بلغت غايتها واستنفدت قوتها، فكانت خاتمة مطاف. صحيح أن معارك كثيرة تلت في تلك الجهات، لكنها لم تكن تتمة الموجة، كانت أموراً محلّية.

ومعركة طلس بالنسبة للعرب كانت نقطة بلغت الفتوح المشرقية عندها غايتها فلم تحدث زوابع ولا عواصف.وأدرك الصينيون – فيما يبدو – أنهم يجب أن يكفّوا عن العمل

الحربي، فلبّوا نداء الواقع وتوقفوا عن الإدعاء بأنه يجب أن يضموا ما وراء النهر إلى إمبراطوريتهم الواسعة، بل إن الأمر تعدى ذلك، إن مواقع الدفاع الأربعة وهي (خوطان وكَشْقَر وكوتشي وقراشَهْر) عن الصين في تلك المنطقة قد انهارت. وبعد مدة خسرت الأمبراطورية الصينية ما يسمى داخل آسيا، ولعل تقَوّقع الصين وتجنبها العالم الخارجي (إلى أيام المغول تقريباً) يعود إلى انكسار جيشها مع العرب في معركة طلس سنة 751 م.

أما بالنسبة للعرب، فقد جاءت هذه المعركة بُعَيْد زوال الدولة الأموية وقيام الخلافة العباسية، فكأنها كانت أمراً ذكر أصحاب الحلّ والعقد والقول والرأي، بأن التغيير الذي حدث هو شيء حريّ بالتأمل الداخلي. وكانت طلس بعيدة عن عاصمة العباسيين ومشاغلهم، وقد اكتفى الحكام بأن ضمت ما وراء النهر إلى عالم الإسلام.

ولما قامت الدول المختلفة في ظلال الخلافة العباسية في المشرق الإسلامي، توزعت مراكز العلم على عواصمها، فكانت " بخارى " عاصمة السامانيين (204 – 395 / 819 – 1005) واحداً من أكبر هذه المراكز، وقد وضعت اللبنة الأولى لذلك حين ضم العرب ما وراء النهر نهائياً إلى دولة الخلافة.

المعركة وأثرها الحضاري:

على أن معركة طلس كان لها أثر كبير وحضاري في تطور البشرية. كان الكاغد (الورق) المصنوع من القماش والخيوط وورق التوت معروفاً في الصين، فهو من مخترعاتها، وقد كان أهل سمرقند يستعملونه للكتابة، ولو أن ورق البردي (البابيروس) والرّق (الجلد الرقيق جداً) كانا الأساس في مواد الكتابة، في العالم وحتى في سمرقند بالذات.

وقد أسر العرب عدداً من الصينيين في معركة طلس، ومن المهم أن نذكر أن حاجة الدولة الصينية إلى العدد الكبير من الجنود كان يحتم عليها أحياناً أن تجنّد الناس لا أن تترك لهم أمر التطوع للجندية، ومن ثم فقد كان بين الأسرى عدد من مهرة الصنّاع، وبينهم عدد من صناع الكاغد، وقد علّم هؤلاء هذه الصناعة لأهل سمرقند، ولما أتقنت هناك نقلت غرباً.

ولنتصور الفائدة التي جناها العلماء والعرب أولاً، وغيرهم فيما بعد، في مشارق الأرض ومغاربها، لما أصبح في إمكانهم الحصول على مواد الكتابة التي يرغبون فيها. ولنتصور ماذا كان يمكن أن يحدث لو أن ما أصاب العالم العربي فقط من اهتمام بالعلم والتدوين كان يجب أن يقتصر فيه على أوراق البردي، القليل من جهة، والثقيل الحمل من جهة أخرى.

وهكذا ظهرت آثار المعركة الهادئة في صناعة هادئة لكنها بالغة الأهمية.

المرجع

1 - الدكتور نقولا زيادة في مقال له بمجلة " العربي " (الكويتية). العدد 399. فبراير / شباط 1992. ص 78 - 81.

معركة ظهر الحجة

ظهر الحجة جبل يقع على بعد أربعة كيلو مترات شمال قرية " صوريف " من أعمال مدينة الخليل.

كان الموقف في مدينة الخليل جيداً بالنسبة إلى العرب منذ بداية ثورة 1947، إذ لم يتجاوز عدد المستعمرات الصهيونية في تلك المنطقة ثلاث مستعمرات هي: " كفار عصيون " و " دير الشعّار " و " بيت سكاريا ". وكانت مستعمرة كفار عصيون تقع على مرتفع يشرف على طريق بيت لحم – الخليل، وأصبحت هذه المستعمرة مركز تهديد المسافرين بين المدينتين العربيتين.

في 13 / 1 / 1948 أخلت حكومة الانتداب البريطاني جميع مراكز البوليس في جبل الخليل من الجنود البريطانيين. وفي نفس اليوم أطلقت النار من مستعمرة كفار عصيون على سيارة القنصل العراقي وهو في طريقه إلى الخليل، فتنادى ابناؤها وقراها للانتقام من سكان هذه المستعمرة، وزحفت جموعهم، التي قدرت بحوالي ألفي شخص، ومعهم بعض أبناء القدس، وقراها وأفراد من بدو بير السبع، وأطبقوا على المستعمرة، ولم يكن بأيديهم سوى عدد قليل من البنادق العادية، وكان ينقصهم التنظيم. وحاول الذين كانوا يتقدمون الصفوف، إيجاد تنظيم لهذه الجموع، ومهاجمة المستعمرة بموجب خطة قتالية محددة. ولكن عبثاً، إذ اقتحمت هذه الجموع، بدافع الحماسة، أطراف المستعمرة التي كانت قوية التحصين والتسليح، ولذلك لم يتمكنوا منها، وفشل الهجوم. وقد استشهد من المهاجمين أربعة عشر وجرح أربعة وعشرون.

وفي 16 / 1 / 1948 قدمت قوة صهيونية من ناحية عرطوف، في طريقها إلى كفار عصيون لنجدتها وتقوية حاميتها. ولما اقترب هؤلاء من قرية صوريف أحس بهم سكان تلك القرية، فتصدّوا لهم بما في أيديهم من سلاح، وأخذوا يطاردونهم إلى أن أرغموهم على الاعتصام بجبل ظهر الحجة، فطوّق المناضلون هذا الجبل، وأخذوا يقتحمون مواقع قوة العدو بالاشتباك القريب حتى أبادوها عن بكرة أبيها. وكانت قوة

العدو تحمل أسلحة آلية جيدة، ومعها جهاز لاسلكي. واستشهد في هذه المعركة خمسة من المناضلين.

وذكر الصهيونيون أن قتلاهم في هذه المعركة خمسة وثلاثون معظمهم من الشباب، وبعضهم من طلاب الجامعة العبرية وبينهم فتاة، ونشرت جريدة " جيروزاليم بوست " الصهيونية أسماءهم في العدد 7,466.

وفي يوم 8 / 1 / 1948 جاءت قافلة صهيونية عن طريق " بيت نتيف " لنقل جثث القتلى، فتصدى لها المناضلون واشتبكوا معها سبع ساعات، وارتدّت القافلة على أعقابها، واستشهد في هذا الإشتباك ثلاثة من المناضلين العرب، وقتل من الصهيونيين ثلاثة عشر. وأخيراً تدخلت حكومة الإنتداب، ونقلت جثث قتلى الصهيونيين في معركة ظهر الحجة.

إنقسمت الصحف الصهيونية على نفسها بعد هذا الحادث، فراحت جريدة هآرتس تطالب بإخلاء المستعمرات الصهيونية الكائنة في جبل الخليل نظراً لبعدها، بينما أصرّت جريدة دافار على إبقائها، لأن عليها واجب إشغال المسلحين العرب الذين يعملون في جبل الخليل لئلا يهبطوا إلى السهول. وفعلاً بقيت هذه المستعمرات شوكة في تلك المنطقة حتى تمّ القضاء عليها بقوة من حرس القوافل تابعة للجيش الأردني. وقد تمّ ذلك بين 10 و 13 / 5 / 1948 قبل دخول الجيوش العربية فلسطين بيومين فقط، وشارك في العمليات أبناء منطقة الخليل. وقد دُمّرت المستعمرات الثلاث تدميراً كاملاً، واقتيد الأسرى من الرجال المقاتلين إلى معسكر اعتقال الأسرى.

المراجع

1 – عارف العارف: النكبة ج1 و ج6، بيروت 1956.

2 – الموسوعة الفلسطينية: الجزء الثالث ص: 141 – 142. إشراف د. أنيس صايغ. الطبعة الأولى، دمشق 1984.

حرفا " العين " و " الغين "

(ع) و (غ)

1 – عبد الرحمن خنيج

2 – عرمان

3 – عطاروت

4 – العقاب

5 – عقرباء

6 – عكا

7 – علّين (راجع: معركة الدير وعلّين)

8 – عنّابة

9 – عنجر

10 – العوكلي (راجع: معركة زاوية المحجوب والعوكلي)

11 – عين جالوت

12 – عين دارة

13 – عين الزانة

14 – غدامس

معركة عبد الرحمن خنيج

هي من أبرز المعارك التي خاضها المجاهدون الجزائريون ضد الاستعمار الفرنسي. وقد حدثت هذه المعركة في 7 شباط / فبراير / 1957.

تقع قرية (عبد الرحمن خنيج) إلى الجنوب من " أفلو " عند الحدود الغربية لجبال " عمور ". وكانت منطقة العملية تضم في العام 1957، مائة وعشرة مجاهدين، يشكلون كتيبة الولاية السادسة التي يمتد مسرح عملياتها ما بين (جبل دراج) بالقرب من قصر البخاري. وقد كلف الملازم حسن بتنظيم عملية هدفها نقل الأسلحة والذخائر المخصصة للولاية السادسة. وخصّصت لهذه العملية كتيبة المجاهدين التي كان يقودها الملازم (مصطفى بن عمار). وقامت الكتيبة بإحراق (36) مزرعة في (الرسو) كما اضطرت لخوض مجموعة من الاشتباكات. وهكذا لم تصل الكتيبة إلى الولاية الخامسة بسهولة. غير أن أفراد هذه الكتيبة سرعان ما نسوا متاعبهم عندما استقبلهم مقاتلو الولاية الرابعة استقبالاً حاراً عبّر عن أخوتهم الحقيقية، وأبرز ما كانوا يتميزون به من الفضائل. غير أن أفراد الكتيبة ما زالوا عاجزين عن المسير، وذلك على الرغم من التوقف لأيام عديدة في (العقدة) وهو المكان المخصص للاستراحة. واتجهت الكتيبة إلى (خنيج) حيث كانت الأسلحة المخبأة بانتظار من يحملها. غير أن عامل الإثارة دفع المجاهدين للتحرك بحماسة من أجل الوصول إلى الحلم الذي طالما تمنوه، وهو الإمساك بأسلحة قتالية حديثة تساعد المقاتلين على فرض إرادتهم.

كانت هناك أربع سرايا قد سبقت الكتيبة وانتشرت على مرتفعات (خنيج)، فجاءت الكتيبة واحتلت مواقع لها في مواجهة الجنوب، وانتشرت على شكل حلقة دائرية تساعدها على الإمساك بالجبل والسيطرة عليه. واستلم أفراد الكتيبة (كل واحد منهم) بارودة نموذج (303) انكليزية الصنع و (150) طلقة جديدة تلتمع بوهج جميل. وحصلت كل سرية على ثلاثة رشيشات بمعدل رشيش لكل فصيلة. وبلغ مجموع القوة مع سرايا الولاية الخامسة (535) مقاتلاً. ومضى شهر، وهؤلاء يحتلون مواقعهم القتالية،

بحيث ينتهي الأفراد في كل يوم من احتلال امكنتهم المحددة لهم، في الساعة الرابعة صباحاً، وكلهم متحفز للمعركة الجديدة، وإصبعه على الزناد.

وجاء فجر يوم 7 شباط / فبراير / 1957 بارداً جليدياً، كما هي عادته في مثل هذا الفصل الشتوي. وكان نسيم الصباح جارحاً كما لو كان قضيباً معدنياً يصفع الوجوه السمراء. وظهرت طائرة أخذت في التحليق فوق رؤوس المجاهدين المرابطين، وكان استطلاعها أكبر دقة وأطول مدة مما هو معتاد. فكثرت جولات بحث الطائرة عن أهدافها، فكانت تتسلق صعداً ثم تقوم باستدارة واسعة فتنقض بسرعة مذهلة لتطير على ارتفاع منخفض جداً يكاد يلامس سطح الأرض. وأخذت هذه الجولات غير الاعتيادية باستنفار أعصاب المجاهدين، في الوقت الذي لم تكن فيه عقارب الساعة قد جاوزت السادسة. وها هي طائرة جديدة تظهر في الأفق من نوع طائرات الاستطلاع ذاته. في حين ظهرت طائرات أخرى وأخذت في التحليق على الارتفاعات العالية. وأصدرت القيادة أوامرها بالاستنفار. وكان على رأس القوات (العقيد لطفي) الذي وصل منذ ستة أيام للقيام بجولة تفقدية في الإقليم الرابع. وكان المجاهدون قد استعدوا بصورة غريزية لمجابهة الموقف. وكان صف الضباط في مراكزهم القتالية وكل واحد يستعد بحماسة واندفاع للمعركة المتوقعة، فيما كان الضباط في القيادة وهيئة الأركان يتابعون التنظيم التعبوي (التكتيكي) للمواقع.

لم تعد المعركة مجرد احتمال أو مجرد توقع، بل أصبحت حقيقة مؤكدة. فالطائرات لم تعد تبرح سماء المعركة. وها هو صوت المراقب ينفجر بغتة بصراخ حاد (انتبهوا! قافلة للعدو). وكانت أصداء الضجيج الصاخب ترتفع من جهة الشرق، لتتزايد بصورة تدريجية، ولتنجلي بعد ذلك عن تقدم قافلة من مركبات العدو المتنوعة والتي اختيرت لتتوافق مع طبيعة الإقليم. وقامت طائرتان خفيفتان للعدو من نوع (بيبركاب) بإلقاء قنابل دخانية من أجل مساعدة الطائرات المقاتلة على تحديد مواقع المجاهدين. وكانت مجموعة من الطائرات المقاتلة تضم (12) طائرة نموذج ت.6. و 8 طائرات عامودية، و (4) طائرات (ب 52)، وست طائرات نفاثة سريعة كان من الصعب رؤيتها أو متابعتها.

بالإضافة إلى طائرتين خفيفتين من نوع (بيبركاب أيضاً) جاءت لمساعدة تلك التي كانت تقوم بالطيران، وضمت قوة العدو الدبابات والعربات المدرعة وجند المشاة من قوات مختلطة - اللفيف الأجنبي - وقوات الحركيين - من الجزائريين العاملين في الجيش الفرنسي - والفرنسيين المتطوعين من المستوطنين. وقد جاء جميع هؤلاء لتطويق المجاهدين وحصارهم، تدعمهم في مهمتهم (6) بطاريات مدفعية لم تلبث طويلاً حتى أخذت في إرسال قنابلها من عيار (105) لتصم بانفجارها الآذان. وقامت مراكز المراقبة باحصاء أكثر من (750) مركبة قتالية علاوة على تلك التي كانت تتقدم على دروب وطرق متنوعة تلتقي كلها عند (خنيج).

كانت الساعة العاشرة. ولا زال جنود العدو يتقدمون ببطء وتمهل بتشكيل القتال نحو مواقع المجاهدين. وكانت الجرارات وقاطرات المدافع تتزايد التصاقاً بالمدرعات ودبابات القتال، في حين استمرت الطائرات العمودية - الهليكوبتر - بإنزال المقاتلين عند كل نقطة مشبوهة. وحاول العدو احتلال خط الذرى.

مكث المجاهدون في خنادقهم وحفرهم المموهة وهم يتابعون بيقظة وتحفظ تحرك قوات العدو وانتشارها. وأصبح مناخ المعركة يضغط بصورة متزايدة على صدور المقاتلين الذين فرغ صبرهم بانتظار صدور الأمر بفتح النيران. وكانت القيادة ترسل تعليماتها كل خمس دقائق: (أتركوهم يتقدمون - لا تفتحوا النيران). ثم تناقص الفاصل الزمني بين الأمر والأمر الذي يليه. وأصبحت التعليمات تصدر متلاحقة " إضبطوا أعصابكم. دعوهم يقتربون وانتظروا صدور الطلقة الأولى ". وأثناء ذلك كان جند العدو يتقدمون بتشكيلات بديعة. وبدون أن يطلقوا نيرانهم ظهرت أبعاد اللعبة. إنها عملية تطويق كاملة ونموذجية. ومع ازدياد اقتراب العدو يتزايد الإصغاء لسماع كلمة (نار) وهي الكلمة التي (احتبست) على ما يظهر. وشعر المجاهدون أن الزمن قد توقف فيما كان شبح الموت يحوم فوق المنطقة ويدعو المجاهدين إلى الخلود، وفي هذه اللحظة قام ضباط جيش التحرير بجولة سريعة ونهائية لتفقد مواقع المجاهدين. وأعطيت التعليمات بمقاومة هجمات العدو حتى آخر لحظة وبعدم تغيير المواقع حتى هبوط الظلام. ولم تهمل أية مسألة يمكن لها الإسهام في زج إمكانات المقاتلين جميعها في القتال.

لم يبق من المجاهدين إلا آذان صياغة يتردد فيها الطنين، وعيون مفتوحة تشع بنظرات حادة ومثقلة وكثير منهم جثا على ركبتيه وسدّد على فريسة له، ووضع إصبعه على الزناد. لم تعد هناك ثمة حركة، وحتى الأنفاس تكاد تتوقف، أو هي تتردد بجهد. لقد كانت الرغبة الجامحة لبدء الإشتباك تمسك على المقاتلين أنفاسهم وتثقل على صدورهم، ولكن، وعلى الرغم من انتظار المجاهدين للطلقة الأولى، فقد جاءت انطلاقتها كما لو كانت تياراً كهربائياً عنيفا هزّ الجميع بقوة.

لقد جاءت هذه الطلقة من فصيل المساعد (نائلي) الذي كان يتمركز على يمين الموقع. وانتهت فترة الانتظار الصعبة، وأعطيت شارة طوفان النار، وانفتحت أبواب جهنم (كما قيل). غابت الأرض تحت سيل النيران والدخان والحديد المتناثر والأشجار التي اقتلعت بصورة مباغتة لتصعد متطايرة إلى السماء. وتمزقت الصخور وهي ترسل صراخها الحاد. واهتزت الأرض تحت هدير الطائرات وانفجار القنابل والقذائف. واختلطت صيحات الحرب وصيحات الجرحى والمصابين بعضها ببعض. كان أصحاب الوجوه القذرة لا زالوا يتقدمون من مواقع المجاهدين، وهم يصرخون صرخاتهم المبهمة. غير أن سيل النار المتدفق يرغمهم على التراجع أو الاختفاء، سوى من أصيب بإصابات قاتلة. وكان يضطجع على ظهره ناظراً إلى السماء ليلفظ أنفاسه الأخيرة وهو يقول: (يا أماه).

إستمر القتال على أشده حتى ظهر كل شيء متوتراً وغارقاً في موج اللهب والدخان، وانفجار القنابل والقذائف، وسيل رصاص المدافع الرشاشة للطائرات، وسقوط الرجال كالشهب المتعطشة للدماء وهم يثيرون الذعر والموت. وسال الدم غزيراً من الطرفين المتصارعين.

أظهر المجاهدون الشجعان صبراً على كره القتال، وأرغموا أنفسهم على النهوض للارتفاع فوق هذا الجو المضطرب، للاحتفاظ بإصالتهم المعهودة. وها هم يتابعون عملهم بهدوء، ويوجهون نيرانهم نحو العدو وبدقة مذهلة جاءت تعبيراً عن سيطرتهم على أنفسهم. وفي هذا النطاق المحكم الذي ضرب على المجاهدين بصورة مرعبة، تابعت الطائرات العمودية – الهليكوبتر – رحلاتها جيئة وذهاباً لتعمل على إخلاء المصابين.

ولكن حدث بغتة أن توقفت النيران للحظة قصيرة، تاركة ميدان المعركة يغرق في صمت نسبي. ولكن هذا الصمت لم يكن أكثر من خدعة تعبوية (تكتيكية) هدفها إتاحة الفرصة أمام كل طرف من الطرفين المتصارعين لإعادة قدرة تقويم خصمه.

وتكررت بعد ذلك فترات الصمت بمعدل توقف في كل ربع ساعة تقريباً. غير أن المتحاربين من جند الطرفين كانوا يستثمرون توقف تبادل النيران لإتاحة الفرصة أمام تبادل الإهانات والشتائم والسباب. فها هو جندي فرنسي يقول: " أيها الغلاقة – العصاة – إستسلموا، وإلا فسنلتقطكم كما يلتقط الحلزون – وديدان الأرض – إلخ... " ويجيبه رجل من المجاهدين: " إقتربوا أكثر لتلتقطوا حلزوناً من الرصاص – إذهبوا قليلاً وودّعوا أمهاتكم ". ويعود القتال بعد ذلك ليحتدم بحماسة أكثر، بحيث يصبح من المحال التمييز بين ضجيج الأصوات المختلفة. فالانفجارات التي تحدثها القنابل تصمّ الآذان، وتمتص هدير الطائرات المزمجر. لقد انفتحت الأرض كما لو ضربتها فأس جبارة.

ضاق نطاق الحصار وأصبح محكماً على المجاهدين من كل الجهات. غير أن اليأس لم يدخل قلوبهم، فاستمروا في البحث عن اللحظة المناسبة لتدمير طوق هذا الحصار. وكان هبوط الظلام هو العامل الحاسم لمثل هذه المحاولة. كان الالتحام في قتال جسم لجسم بالسلاح الأبيض يثير الهلع في صفوف قوات العدو، هذا العدو الذي أفاد من تفوقه التقني، فلم يتعبه التقدم المستمر. ولم يبقَ أمام المجاهدين إلا أن يقدفوا بأجسادهم الثائرة وبنيرانهم لإثارة الاضطراب في صفوف الأعداء، كلما توافرت لهم الفرصة المناسبة. وأثناء ذلك لم يضعف المجاهدون ولم يهنوا واستطاعوا في كل مرة دفع الأعداء أو قتلهم. ولم تتزحزح أي فصيلة عن موقعها. وكانت كلمات التشجيع وأوامر القتال تتكرر ما بين فترة وأخرى: " تسير الأمور على ما يرام. اثبتوا واصبروا. إنهم لا يستطيعون إحراز النصر إذا ما صمّمنا على المقاومة... إلخ... "

كانت طائرات العدو تتابع القصف بشدة، فيما كانت الدبابات تندفع بحماسة في محاولة لإخراج المجاهدين من مواقعهم. غير أن الجهود كلها باءت بالفشل. وكان المجاهدون يقومون بالرمي عند كل حركة، أو عند كل محاولة يقوم بها جند العدو للفرار من المعركة. واستخدم المجاهدون في هذه المعركة (المدفع الأميركي 30) للرمي ضد

الطائرات وأصيبت طائرتان من بينها رسمتا خلفيهما خطين من الدخان وغادرتا السماء إلى الأبد. أخذت الطائرات الأخرى في الانقضاض بحماسة للقضاء على هذا السلاح الذي أمكن الحصول عليه خلال كمين أقامه المجاهدون قبل خمسة عشر يوماً من المعركة، غير بعيد عن هذا المكان الذي وقع فيه القتال. وكانت هذه الأسلحة التي يتم الحصول عليها بين فترة وأخرى هي الأداة للحصول على غنائم جديدة. وهكذا كانت تنتقل الأسلحة إلى أيدي الثوار في حين كان هؤلاء يفضلون الموت وهم يمسكون بأسلحتهم ويحرصون كل الحرص على عدم تركها لتقع في قبضة العدو.

وصل لهيب المعركة في بعض اللحظات إلى درجة لا تطاق ولا تحتمل. وفي تلك اللحظات كان يرتفع صوت مجاهد من المجاهدين بصيحة الحرب (اللـه أكبر). فيرددها المجاهدون. وتعود للنفوس الصابرة حماستها وقوتها من جديد، ويندفع المجاهدون إلى المعركة بإرادة لا تقهر.

أوشك النهار على المغيب، وتوقفت الرماية لدقيقة واحدة. واستؤنفت بعدها النيران بكثافة عالية كما لو كانت المعركة ستبدأ من جديد. غير أن الرمايات كانت تصب على غير ما هدى. واشترك الطيران بنصيبه، فيما كانت مجموعة من اللفيف الأجنبي (الليجيون ايترانجيه) تنبح من الذعر خوفاً من قيام الطائرات الصديقة (الفرنسية) بتوجيه نيرانها ضدها. فقام أفرادها بالتلويح بغطاء الرأس من أجل حمل هذه الطائرات على التعرف عليهم وتحديد موقعهم تجنباً لكل خطأ محتمل.

ظهرت، بعد ذلك، بواكير عملية فك الإشتباك. وهنا أعلن عن تعرض فصيلة (زكريا) للابادة التامة، بالإضافة إلى إصابة ضابط في رأسه إصابة قاتلة، وأخذ المجاهدون بالانقضاض على الدبابات التي كانت تقذفهم بقنابلها المدمرة، ناشرة عليهم رداء الموت والعذاب. وقتل (72) مجاهداً، وهبوا حياتهم لوطنهم الجزائر.

هبط الليل أخيراً، وظهر للمجاهدين بغتة أن العدو قد أعلن الهدنة – دونما إعلان رسمي لها – فأخذت حدة رمايات المدفعية بالتناقص إلى أن تلاشت. وأخذت أعداد الطائرات بالتناقص والانسحاب من سماء المعركة، إلى أن أصبحت السماء خالية منها. وعندما ساد الظلام، توقف القتال تماما. واكتفى مجاهدو (خنيج) بما احتملوه من كره

القتال. وعاد الهدوء ليخيم على المنطقة، غير أنه كان هدوءاً ثقيلاً ذلك الذي شمل (جبل عمور)، إذ كان لا بد من التفكير بأمر القتلى والجرحى.

أخذ المجاهدون في الظهور من مواقعهم، رويداً رويداً، وهم يتحركون فوق ميدان (خنيج) الذي ارتدى ثوب الحداد، حزناً على تلك المذبحة الرهيبة التي سقط فيها المئات، والتي كانت جثث قتلى العدو تختلط أحياناً بأجساد الشهداء في حالة من الفوضى المرعبة. وكلهم قد دفنوا تحت الرماد الذي لا زال ساخناً من تحلّل التربة العضوية المتفحمة (*) .

المراجع

1 – العماد مصطفى طلاس والمقدم بسام العسلي " الثورة الجزائرية ". دار الشورى – بيروت. الطبعة الأولى 1982. ص: 432 – 438.

Ref (récits de feu - sned. S N El - moudjahed) Alger - 1977. P: 141 – 2 - 143

(*) – كاتب البحث هو الأزهري بن الشهرة، إنضم إلى جيش التحرير في سنة 1956، واشترك في هذه المعركة. وقد وقع في قبضة الأسر سنة 1959 إلى أن تم تحريره سنة 1962، وأصبح في سنة 1976 مديراً إقليمياً لإحدى المؤسسات في (جلفا).

معركة عرمان (1897)

تعتبر هذه المعركة من المعارك الهامة في التاريخ العربي السوري ضدّ الجيش العثماني عام 1897، وبالتحديد بين سكان جبل العرب وجيش السلطنة في هذه القرية، حيث اقترن اسمها في أذهان سكان الجبل بهذه المعركة الشهيرة التي جرت في المنطقة الجنوبية منه.

ويعود سبب هذه المعركة الشهيرة، والتي دامت عدة أيام، إلى استمرار الحكم الإرهابي الذي فرضه ممدوح باشا في جبل العرب لإرهاب مواطنيه، وتدمير قواهم البشرية والاقتصادية، ومنعهم بالتالي من تنظيم أية مقاومة للحكم العثماني الجائر للجبل، بعد أن كبّد مواطنو الجبل الجيش العثماني أفدح الخسائر في المعارك الشهيرة التي جرت منذ العام 1888 إبان الانتفاضة الفلاحية الشهيرة المجيدة. فكان ممدوح باشا ينظم الحملة ويرسلها إلى قرى الجبل، فتضايق الأهالي من فرض الأتاوات وتقديم الأطعمة، وتلف المزروعات، وكانت هذه الحملات تثير الرعب في النفوس، لا سيّما أن ممدوح باشا كان يعتبر نفسه قاهر السكان وفارض الأمن عليهم بقوة سيفه وجبروته، فكان يرافق عدداً من حملاته هذه محيطاً نفسه بمظاهر العظمة والفخار، وقد ضجّ الأهلون من ابتزازاته وسياسته الضريبية، وراحوا يفكرون بالثورة عليه حيث لم يعتادوا من قبل السكوت على الضيم، والخنوع للظالم مهما تكبّر وتجبّر.

أما في كتابه حول " جبل العرب "، يشير د. حسن البعيني إلى أن معركة عرمان الشهيرة هذه، كان سببها حماية هذه البلدة لأرملة محمد الأطرش (ميثا) التي رفضت الزواج من ممدوح باشا، قائد حوران العام (وفي روايات البعض، من عبدو أفندي (الجبولي) أحد ضباطه). وقد التجأت هذه الأرملة إلى عرمان واحتمت بأهلها فقوبلت بالنخوات، وحظيت بالحماية. ولما عرف ممدوح باشا ذلك، حرّض البدو أن يعتدوا على أملاك عرمان، فضربهم أهلها وطردوهم. عندها وجّه الضابط عبدو أفندي لتأديب القرية. فاستفزّ جنوده السكان، وقتلوا محمود أبو خير (أحد وجهاء البلدة) الذي كان يقدم الطعام

لبعضهم... وقد كان مقتل محمود أبو خير الشرارة التي أشعلت نيران معارك عديدة، ومن أهمها معركة عرمان هذه.

في تلك الأثناء، وصل إلى الجبل بعض المشايخ الفارين من المنفى، وراحوا يحرّضون على استمرار الثورة ضد العثمانيين. فأخذت الاجتماعات السرّية تعقد في أماكن مختلفة من الجبل، وسرت من جديد روح الثورة بين الأهلين، فنمي إلى ممدوح باشا بعض أخبار هذه الاجتماعات وأهدافها، وان بعض هذه الاجتماعات عقد في القرى الجنوبية من الجبل، ومنها قرية عرمان، حيث عقد اجتماع في منزل الشيخ محمود أبي خير أحد وُجهاء القرية. فجهز قوة مكونة من ثلاثين جندياً قادها عبدو الجبولي (أفندي) وأمرها بالتوجه الى عرمان والقبض على محمود أبي خير مع الذين اجتمعوا في منزله. وما إن وصلت هذه القوى إلى عرمان حتى قوبلت برفض مشيئة قائدها وعدم القبول بالذهاب معه إلى السويداء، فكانت حماقة قائد المفرزة لقتل محمود أبي خير الدافع الذي دفع أهالي عرمان لقتل جميع الجنود مع قائدهم إثر هجومهم على مضافة ابراهيم الجرمقاني التي استقر بها جنود المفرزة، وذلك بعد أن ثغروا سقفها، وفقدوا صبرهم، وجعلهم يهاجمون عدوّهم في إحدى مضافاتهم، بسبب تصرفات العثمانيين، وفسق بعضهم، وتكاثر طلباتهم غير المقبولة، ومحاولات النيل من الشرف الذي يحرصون عليه (أهالي جبل العرب)، كما يحرصون على حياتهم وأكثر.

وهذا ما دفع الشاعر شبلي الأطرش ان يصف هذه الموقعة بالأبيات التالية:

عبدو أفندي شارب الخمر سكران　　جاهم يهادر مثل فحل الجمالي
يطلب من سباع البّر بناً ودخان　　ويريدهم مثل الغجر للحوالي
جوّه النشاما وبعد الصبح ما بان　　هدّوا عليه قصور شمخ عَوالي

وحين علم ممدوح باشا بإبادة الفرقة العثمانية في عرمان، جنّ جنونه وأصرّ على الانتقام مهما كان الثمن. فأرسل أربعة طوابير (كتائب) بقيادة غالب بك ورضا بك (بينما يذكر المؤرخ فندي أبو فخر أن هذه الحملة كانت بقيادة محمد آغا الجيرودي، وقوامها أربعمائة جندي من المشاة والفرسان) وأمرها أن تسير عبر طريق ظهر الجبل البعيدة عن القرى المسكونة وتباغت أهل عرمان بشكل مفاجئ، وتنزل بهم ضربة قاضية

قبل ان يستنجدوا ببقية السكان في الجبل. بيد أن الأمر لم يَجْرِ بحسب رغبات ممدوح باشا، حيث احتاط أهالي عرمان، وأخبروا أهالي القرى المجاورة، واستعدوا معهم لمباغتة الحملة قبل وصولها إلى القرية، وفاجأوها عند خربة تدعى " عيون "، وهناك جرت معركة رهيبة بين قوتين غير متكافئتين، فكان سلاح السكان فيها السيوف والفؤوس والبنادق القديمة، مقابل جنود وفرسان تسلحوا واستعدوا أحسن استعداد، وتجهزوا بكل ما يساعدهم على قمع أعدائهم والقضاء عليهم. وكادت الهزيمة أن تحلّ، ويحقق ممدوح باشا هدفه، غير أن صمود السكان واستبسالهم في القتال، وزغردة النساء، والتمسك بالهدف النبيل المتمثل بالدفاع عن الحرية والكرامة ورفض الظلم، دفع بهم الى الصمود حتى وصول نجدات من أهالي " مَلَح " و " امتان " و " صلخد " فاشتدت عزيمتهم، وقوي بأسهم وواصلوا القتال حتى انتصروا. وقد لعبت النساء دوراً تحريضياً كبيراً في هذه المعركة، واشتهرت من بينهنَ " سعدى ملاعب " التي كانت تشارك في القتال وهي تحدو وتزغرد وتشجّع المقاتلين الثوار، فوصفها شبلي الأطرش قائلاً:

يوم الخراب شابوا الأطفال المراضيع سعدى تنخّي بالعيال المفازيع

ومما يذكر أن المقاتلين عندما استماتوا في استبسالهم بعد " نخوات " سعدى ملاعب، عادوا وهم يهتفون بصوت عالٍ قائلين:

على شانك سعدى ملاعب نفني كل الكتايب
وما بيرجع لقرابو السيف حتى يسوّي العجايب

وجاء النصر بعد ساعات عديدة من القتال الدامي، وغنمَ المقاتلون به بعد مقتل معظم أفراد الحملة الكثير من السلاح والعتاد، وبعد أن فقدوا عدداً كبيراً من القتلى؛ غير أن كثرة القتلى لم تَثْنِ الأهلين عن الاستعداد الدائم للقتال، ولم تحقق ما أراده ممدوح باشا من إرهابهم، بل على العكس من ذلك، فقد أثارت هذه المعركة النفوس، واشتعلت فيها روح التضحية والفداء من جديد لمواصلة التحدي ورفض الاستسلام والهوان. وعندما علم ممدوح باشا بنبأ الهزيمة المذلّة لسياسته، قرّر أن يقود المعركة بنفسه مستعيناً بضابط آخر لمحو عار الهزيمة والانتقام من الأهلين، وبطابورين مرابطين في السويداء بقيادة محمد علي بك وأيوب بك، كما أمر الكتائب المرابطة في الأنحاء المجاورة بالانضمام إليه.

وتوجّه الجيش الجرّار باتجاه عرمان، ليواجه الأهلين المصريّين على الذود عن حريتهم وكرامتهم ولقمة عيشهم وحياة أسرهم، حيث وضعت خطة مكّنتهم من محاصرة الجيش قبل وصوله القرية. ودارت رحى حرب ضروس استمرت سبعة أيام وانتهت بهزيمة الجيش العثماني.

لقد أفقدت هذه الهزيمة صواب قادة الترك، وكسرت جبروتهم، وأذاقتهم طعم الهزيمة من جديد، مثلما ذاقوها من قبل، فسجّل الشاعر الشعبي طرودي أبو حسون وصفه لهذه المعركة بقوله:

كون جرى وسط عيون	أجوهن من هون وهون
والنشاما شالوهن	تسمع سوق الحدادين
خروف يصيح يا ممدوح	وين متهرب وين متروح
القائد والعسكر مذبوح	والضباط ملقّحين

كما أثارت نتائج هذه المعركة العزائم لمواصلة القتال والزحف إلى السويداء، حيث تمكن الثوار من حصار قلعة السويداء مدّة 28 يوماً. ولقد أفقدت هذه الهزيمة ونتائجها صواب القادة العثمانيين، وكسرت جبروتهم...

وفي ظل الضربة القاصمة، والهزيمة الماحقة، جهزت الدولة العثمانية حملة مكوّنة من ثلاثين ألف جندي، ووضعت على رأسها طاهر باشا، بعد أن حشدت لها جنودها المرابطين في حلب وحيفا. مما جعل السكان يرون أنها حرب إبادة ودمار، فأسرعوا لملاقاة الحملة في مكان يسّمى " تل الحديد " غرب السويداء، فارتكبوا بذلك خطأ فادحاً، حيث واجهوها في أرض سهلية مكشوفة، وبعددهم القليل، فمنيوا بالهزيمة، وتمكنت الحملة من دخول السويداء وفكّ الحصار عن الجنود المحاصرين في القلعة. إلا أن هذه النتيجة لم تأتِ على نهاية الثورة المستمرة، ولم تحقق النتائج المرجوّة التي وضعها الأتراك نصب أعينهم، وبالرغم من وسائل البطش التي اتبعت، وسياسة النفي والتشريد التي نُفّذت، فنفت حوالي سبعمائة عائلة من سكان الجبل الى الأناضول. كما اتبع ممدوح باشا سياسة ابراهيم باشا ابن محمد علي باشا في محاصرة الثوار الذين اعتصموا باللجاه عام 1937 – 1938 وتطويقهم وقطع طرق إمداداتهم، وحرمانهم من الماء. لكن الثوار أيضاً اتبعوا

سياسة إخوانهم المعروفة من قبل، فكانوا يغيرون على قوافل تموين الجيش، ويستولوا عليها ليحصلوا على قوتهم أثناء الحصار، ثم تمكنوا من تأخير ومنع وصول الإمدادات إلى الجيش المرابط في السويداء، بعد أن خاضوا معارك عديدة كان آخرها معركة شهبا.

وفي تلك الأثناء، رأت الدولة العثمانية عدم جدوى استمرارها إشغال جيشها في حروب الجبل، في الوقت الذي كانت مشغولة فيه بحروب أخرى كحروبها في اليونان لقمع الثورة التي نشبت فيها عام 1896، فمالت إلى سياسة اللين والمصالحة، وأرسلت الأمير أمين أرسلان مع وفد من الثوار في قرية قنوات، وعرض عليه مطالب الدولة العثمانية بإنهاء الثورة ودفع الضرائب والسماح بإتمام بناء القلاع في الجبل، غير أن الثوار رفضوا هذه المطاليب ووضعوا بدلاً منها شروطهم التالية:

1 - إعادة جميع المنفيّين الى الجبل، واطلاق سراح السجناء ومنهم يحي الأطرش.

2 - إلغاء التجنيد الإجباري.

3 - عدم المطالبة بنزع السلاح إلا بعد تنفيذ مطالب السكان.

4 - وقف المفاوضات حتى يطلق سراح يحي الأطرش ليرأس وفد الجبل المفاوض.

وبعد مهلة ثمانية أيام عاد الوفد العثماني ومعه يحي الأطرش ليوافق على شروط الثوار، وبدأت الدولة بالإفراج عن السجناء والمنفيّين. وهكذا عرف الجبل بعد ذلك فترة هدوء حتى مطلع القرن العشرين، حيث تأججت نار المعارك من جديد.

المراجع

1 - حسن أمين البعيني " جبل العرب: صفحات من تاريخ الموحدين الدروز " (1685 - 1927). دار النهار للنشر ومنشورات عويدات. الطبعة الأولى 1985. ص 220 - 222.

2 - شبلي الأطرش " ديوان في الشروقي والزجل ". مطبعة الاتحاد الشرقي. دمشق 1950. ص 73 و 95.

3 – فندي بو فخر في مقال له نشر في مجلة " الضحى " (اللبنانية). العدد الخامس والعشرون. آذار / مارس 1994. ص 80 – 81. (بعنوان: معركة عرمان 1897).

معركة عطاروت

عطاروت مستعمرة صهيونية صغيرة على مقربة من الطريق العام الذي يصل مدينة رام الله بالقدس، بين مطار القدس وقرية قلندية، وهي أقرب إلى رام الله، وتحيط بها القرى العربية. وكان سكانها يعيشون على تربية الأبقار والطيور الداجنة والأعمال الزراعية.

ترك سكان مستعمرة عطاروت الأعمال الزراعية خارج المستعمرة، منذ نشب القتال بين العرب والصهيونيين، بعد صدور قرار تقسيم فلسطين. ولكن لم تقع بينهم وبين العرب اشتباكات تذكر حتى أوائل آذار 1948، عندما علمت قيادة قوات جيش الجهاد المقدس أنهم يريدون قطع طريق رام الله – القدس، وأن بعض المسلحين الصهيونيين تحصّنوا في المحاجر الواقعة شرقي المستعمرة وأخذوا يطلقون النار على السيارات والمارة في هذه الطريق، فتوجهت إلى المستعمرة قوة من قرابة 45 رجلاً من قوات الجهاد المقدس بقيادة كامل عريقات، والتحقت بها نجدة من جنين من حوالي 50 مجاهداً بقيادة " فوزي جرّار "، وقوة أخرى من السوريين بقيادة " مصطفى السباعي ".

تقدمت هذه القوات إلى قرية الرام المشرفة على المستعمرة من الشرق. وبدأ المجاهدون في 15 / 3 / 1948 قصف منطقة المحاجر بمدفع قديم عيار 3 بوصات للرمي المباشر. وبعد حلول الظلام استمر الإشتباك بنيران الرشاشات والبنادق لبضع ساعات، ثم تقدم المجاهدون إلى المحاجر وطردوا العدو منها عند منتصف الليل، ثم وجّهوا نيرانهم إلى المستعمرة نفسها. وظل إطلاق النار قائما حتى الصباح، حين رجع المجاهدون إلى قواعدهم، وقد أصيب منهم شخص واحد بجروح، ولم تعرف الإصابات التي وقعت بين سكان المستعمرة.

قطع العرب أي اتصال لسكان المستعمرة بالقدس بين منتصف آذار ومنتصف أيار 1948 فتكدّست محاصيلهم ومنتوجاتهم، ونضب الدقيق الذي كان لديهم، لكنهم تمكنوا من الحصول على الخبز بوساطة الجنود البريطانيين الذين كانوا يرابطون في المطار، لقاء

مبلغ كبير من المال. وراح سكان المستعمرة يتوقعون سقوطها بين يوم وآخر، لا سيما عندما انقطع عنهم تيار الكهرباء، وقلّ الماء، واقترب منتصف أيار.

في أوائل أيار نقلت السلطات البريطانية النساء والأطفال من المستعمرة إلى القدس بناء على طلب سكانها وتكرار نداءاتهم. ولما انسحب الجيش البريطاني من تلك المنطقة، وأخلى مطار قلندية صباح يوم 14 / 5 / 1948، احتلّه سكان المستعمرة، وأخبروا بذلك قيادة الهاغاناه باللاسلكي، ولكن هذه أمرتهم بترك المستعمرة فوراً، والإلتحاق بسكان مستعمرة النبي يعقوب التي تقع على مسافة كيلو مترين جنوب شرق عطاروت.

وأثناء الليل غادر الصهيونيون مستعمرة عطاروت متسللين إلى مستعمرة النبي يعقوب، تاركين وراءهم دوابّهم ومواشيهم وأثاثهم، بعد أن زرعوا بعض الألغام في مفارق الطرق وحظائر المواشي وأقنان الدجاج.

المراجع

1 – عارف العارف: النكبة، بيروت 1956.

2 – الموسوعة الفلسطينية: الجزء الثالث ص: 283 – 284. إشراف د. أنيس صايغ. الطبعة الأولى، دمشق 1984.

معركـة العقاب

عام 1212م / 609 هـ

حدثت هذه المعركة بين محمد الناصر (ابن السلطان ابو يوسف يعقوب المنصـور الموحّدي) وبين الصليبيين بقيادة ملك قشتالة ألفونسو الثامن، بعـد سبع عشـرة سـنة علـى معركـة الأرك. ويذكـر المـؤرخ الكبير، المقـرّي، فـي كتابـه " نفـح الطيـب " أن السـلطان يعقوب المنصور " الطائر الصيت، كـانت لـه فـي النصـارى بـالأندلس نكايـة كبيرة، ومـن أعظمها وقعـة ' الأرك " التـي تضـاهي وقعـة " الزلاّقـة " أو تزيـد... ونجـا الفونسـو ملـك النصارى الى طليطلة في أسوء حال، فحلق رأسه ولحيته، ونكس صليبه، وآلى على نفسـه أن لا ينام على فراش ولا يقترب من النساء ولا يركب فرساً ولا دابة حُتى يـأخذ بالثـأر ". ولقد حقق الفونسو، بـالفعل، هدفـه مـن خـلال الانتصـار الكبيـر الـذي أحـرزه فـي معركـة العقاب، حيث كانت إيذاناً ببداية نهاية الاسلام في شبه جزيرة ايبريه.

إذ كان من نتيجة انتصار السلطان يعقوب المنصور داخلياً، أن شـدّد قبضتـه علـى الأندلس. ولما استفحل أمـر الموحدين اسـتعملوا القرابـة لحكـم الأقـاليم الأندلسـية، وكـانوا يسمّونهم " السادة "، واقتسموا ولاياتهم بينهم، وعندما توفي يعقوب المنصور سنة 595 هـ / 1198 م، ترك لخليفته محمد الناصر دولة قوية، إلا أن هذا لم يكن على مستوى الكفـاءة المطلوبة لمجابهة إدارة الحكم في مثل تلك الفترة، وأعداء المسلمين محيطين بهـم مـن كـل جانب. وكان مـن أكبـر الأخطـاء التـي ارتكبهـا محمـد النـاصر استخفافه برجـال الأندلـس العارفين بقتال الإفرنج، وإقدامه على شنق بعضهم، ففسدت النيّات...

وكان الفونسو الثامن يعيد تنظيم قواته وحشد كل ما باسـتطاعته حشـده مـن القـوى والوسائط، حتى اذا كانت سنة 609 هـ / 1212 م قاد ألفونسو قواته بدعم ومشـاركة مـن ملوك ليون وأرغون ونباره والبرتغال – بتحريض مستمر من البابـا – فـي حملـة صليبيـة مشتركة كبرى للثأر من هزيمة ملك قشتالة في معركة الأرك. وعلم محمد الناصر بـالأمر فقـام بالعبـور الـى الأنـدلس، واجتمع معه من أهل الأندلس والمغرب ستمائة ألف مقاتل،

وعجب الناصر بما تجمّع له وداخله الغرور، وقاد جيوشه إلى موقع العقاب (جنوب الأرك) حيث وقعت المعركة الحاسمة التي انتصر فيها ألفونسو انتصاراً حاسماً، وأباد جيش المسلمين إبادة تامة (حتى قيل انه لم ينج من الستمائة ألف مقاتل غير عدد يسير جداً لم يبلغ الألف). وكانت هذه المعركة حاسمة في تاريخ الأندلس والمغرب على السواء. فقد فرغ المغرب من مقاتليه، وأضعف حكم الموحدين مما مهّد لإزالة حكمهم وقيام دولة بني مرين.

وفي الأندلس، ازدادت جرأة العدو، فعمل على تطوير الصراع وتوسيع دوائره للحصول على مزيد من أقاليم المسلمين. واستقل " السادة " بنواحي الأندلس كلٌّ في عمله، وضعف ملكهم، فصاروا إلى الاستجاشة بالطاغية بعضهم على بعض وتسليم حصون المسلمين. ولما عجز هؤلاء " السادة " من الموحدين عن أداء دورهم في الدفاع عن المسلمين نهض لمقاومتهم رجالات الأندلس وأعقاب العرب منذ الدولة الأموية، واجتمعوا على إخراجهم فثاروا ضدّهم في وقت واحد وأخرجوهم من الأندلس، وتولى قيادة هذه العملية محمد بن يوسف بن هود الجذامي الثائر في الأندلس، وابن مردنيش وثوار آخرون. وعاد هؤلاء لمجابهة الفرنج المتفوّقين والذين أصبحوا يمتلكون أكثر من ثلثي الأندلس. وكانت " معركة العقاب " هي النقطة الحاسمة في معظم هذه التحولات.

هذ، ومن أفضل ما قيل في معركة العقاب قول أبي اسحاق ابراهيم بن الدباغ الاشبيلي في هزيمة المسلمين:

وقائلة أراك تطيل فكراً كأنك قد وقفت لدى الحساب

فقلت لها أفكر في عقاب غدا سبباً لمعركة العقاب

فما في أرض أندلس مقام وقد دخل البلا من كل باب

من ناحية أخرى، يتطرق بعض الباحثين الى هذه المعركة بشيء من التفصيل فيقول:

أنه بين معركة الأرك ومعركة العقاب سبع عشرة من السنين ساقطت ورقات يومياتها عن أحداث وشؤون كانت بطبيعتها معلولاً للأولى وعلة للأخرى.

فإن انتصار أمير الموحدين على قشتالة، وما تلاه من خضوع ألفونس الثامن

لسيفه، والتماسه الهدنة منه، وإسراع ملكي لاون والنافار إلى محالفته وخطب ودّه، مكّن سلطانه في الأندلس، وحُرمته في النفوس، وأتاح له أن يتفرغ إلى إصلاح فتوق مملكته، وتأديب العصاة والثائرين دون أن يصرف النظر عن أمراء إسبانية، وما في صدورهم من ضغائن يحفظها بعضهم لبعض.

فقد كان المنصور، على علوّ همته، وافر الذكاء، بعيد النظر، لا يسقط عنه أن يستغلّ خلافهم لمنفعتة وخير أمته، وهو يعلم أنه ما دام الشر معصوماً بينهم، لا يرتفع لهم صوت جهير، ولا يفيّئ عليهم ظل ممدود، في بقاع يعمرها الاسلام. أفما يجدر به أن يحرك فيهم، من وراء حجاب، لاعج العدوان، فتنام الأندلس على أمن وسكينة، وتشرق اسبانية المسيحية بدمها إلى أن يوهنها النزف، فترتمي متلاشية على أقدام المسلمين؟.

فلاون والنافار متعطشان للانتقام من قشتالة وإذلالها لما تفرض عليهما من السيطرة، فطبيعي أن تستهينا جانبها جزاء كسرتها، فتستنزلاها إلى محاربتهما بعد أن تخللتا تخومها عاديتين بتحريض الموحدين، ووعدهم بالمساعدة.

وذهب المنصور إلى أبعد في توسيع الخرق بين الأمراء المسيحيين، فحاول أن يجعل حليفه ملك النافار تابعاً له، على أن يزوجه إحدى بناته.

وتقول الرواية الإسبانية أن شانجه السابع اغترّ بهذه المواعيد، فقصد إلى مراكش بغية تحقيقها، تواكبه كتيبة من الفرسان. بيد أن الرواية العربية لا تذكر شيئاً من خبر الزواج، بل تقول إن ملك النافار جاء إشبيلية سنة 607 هجرية (1210 م)، ليزور الخليفة الناصر بن منصور. ومهما يكن من أمر الزيارة وزمانها ومكانها، فإن المصاهرة لم تربط أواصرها بين الأميرين، فرجع شانجه إلى مملكته فارغ الفؤاد، وقد علم أن الزواج من أميرة موحدية يدعوه إلى الإسلام، وإسلامه لا يطمئن له عرش النافار.

على أن هذه الجهود التي بذلها المنصور لتمكين سلطانه، وإضعاف ملوك إسبانية، لم تلبث أن تراخت عزائمها بموته سنة 1199 م (595 هـ)، وقيام ولده محمد بن أبي عبد الله الناصر. فإن هذا الأمير مع شجاعته، لم تكن له مواهب أبيه، وصلابة عوده، فأسلم إرادته إلى حاجبه أبي سعيد بن جامع، فورّطه في مزالق لا تنبئ عن أمانة الوزير وإخلاصه.

وكان همّ الخليفة الجديد أن يترسم أباه في ضبط الولايات الأندلسية، وإرهاق ملوك إسبانية مستثمراً شقاقهم، غير أنه لم يتمكن من الالتفات إلى عدوة أرونة إلا بعد أن دفع خطر المرابطين عن أفريقية، وأزال بقية دولتهم في الجزائر الشرقية (Baleares)، (1208 م).

كان البابا اينوسان الثالث قد استطاع، في تلك الأثناء، بسلطانه الديني، أن يصلح بين الأمراء الإسبانيين إلى حين، ويؤلف قلوبهم على محاربة المسلمين.

فنشط ألفونس الثامن ملك قشتالة إلى غزو الأندلس (1209 م) فأوغل فيها باطشاً فاتكاً. ثم أغار عليها ثانية (1210 م) فانتسف كورة جيان (Jaen) وبياسة (Baezo) واندوجار (Andujar)، وعاد في المرتين بجلائل السبايا والغنائم.

فعندئذ نادى الخليفة الناصر بالجهاد، وقد راعه تغلب العدو على كثير من الحصون الأندلسية، فجمع الجموع وحشد العساكر، حتى بلغت تعبئته ستمائة ألف فارس وراجل، فعبر المضيق إلى إشبيلية (1211 م – 607 هـ) يستعد للقتال. فنصح له حاجبه ابن جامع ألا يتقدم في بلاد ألفونس قبل أن يفتح قلعة شلبطرة (Salvaterra)، فساورها ثمانية أشهر، وهي ممتنعة عليه لحصانتها، فهلك دونها ألوف، وابن جامع يمنع الناصر أن يرفع الحصار عنها، ويتجاوزها إلى طليطلة، حتى أضرّ به الجوع المرير فأعطت قيادها مكرهة، بعد أن أنقذت إسبانية المسيحية بصبرها الطويل كما يقول " جوزف أشباخ ".

ذلك بأنها أتاحت لألفونس الثامن أن يستصرخ دول إسبانية خصوصاً، وأوروبة عموما، لتجهيز حملة صليبية غربية تذكر المسلمين بحملات الصليبيين في الشرق. فقد أزعجه ما انتهى إليه من أنباء قوات الموحدين، وزحفها الجرّار، ولاح له الخطر المخوف ينقض على قشتالة، بل على الإمارات الإسبانية مجموعة، وهيهات لا يرجى دفعه عنها، إلا إذا تظاهرت عليه وتناست أحقادها، وخير لها أن تستنجد أبناء ملتها في الغرب.

فبعث جرهارد مطران سقوبية (Segavia) إلى روما يلتمس من الحبر الأعظم أن يدعو الأمم المسيحية إلى نصرة الصليب. وبعث المؤرخ ردريق – مطران طليطلة – وسواه من المطارنة إلى فرنسا وما يليها من الدول الأوروبية ليستثيروا الشعور الديني،

مبيّنين الخطر الذي يهدد النصرانية، ودعا الأمراء الإسبانيين إلى الاجتماع والمفاوضة، ووضع الخطط التي ينبغي اتباعها.

تكللت هذه المساعي بالنجاح المأمول، ولبّت أوروبة دعوة الكرسي الرسولي، ونداء الأساقفة المتحمس، واقتنع ملوك إسبانية بالاتحاد. فما طال الأمد حتى بدأت الوفود تتلاحق إلى طليطلة من مختلف الأمصار الأوروبية ولا سيما فرنسا، حاملين شارة الصليب دليل الذياد عن الدين، يتقدمهم كبار الأحبار يستحثّونهم، ويوقدون الحميّة في صدورهم.

يقول جوزف أشباخ، إن جيش الوافدين بلغ في أوائل حزيران (1212 م) أكثر من عشرة آلاف فارس، ومائة ألف راجل، فيه من القوامس ما يقدر بألفين، أضف إليه ما أرسلت فرنسا وإيطاليا من المال والمؤن والسلاح.

وأما الجيوش الإسبانية، فأول من قدم منها جيش أرغون يقوده عاهله بدرو الثاني، وفيه طبقة مختارة من الكماة كجماعة الداوية (فرسان الهيكل). وتتابعت بعده الفيالق من لاون وجيليقية والبرتغال، حتى فاضت طليطلة وأرباضها بالعساكر المنتشرة، والخيام المنتصبة، والخيل والعتاد. ثم زحفت هذه القوى العظيمة طالبة قلعة رباح، وفرسان هذه القلعة يلتهبون حماسة لاسترجاعها.

وكان فيها حامية من الموحدين على رأسها القائد يوسف بن قادس، فهاجمتها الجيوش المسيحية دفعة واحدة، فاستولت على المدينة دون القلعة. فخشي ابن قادس مغبّة الحصار إذا اقتحمت القلعة عنوة، وهي لا محالة ساقطة في أيدي العدو، فمن العبث أن تحاول قلّتها مقاومة الكثرة. فآثر أن ينقذ حاميتها من الهلاك بالاستسلام، إذ لا ينفع الدفاع فتيلاً. فبعث إلى ملك قشتالة رسولا يفاوضه من قبله، مشترطاً أن تخرج الحامية بسلاحها مأمونة.

فرفض الارغونيون ووفود المحاربين هذا الشرط، وطلبوا متابعة الحصار، فاضطر ابن قادس أن يرضى بتجريد الحامية، فغادرت القلعة بعد أن أخذت الأمان على نفوسها، وتولى الفرسان الاسبانيون حراستها مخافة أن يفتك بها جند الوافدين لأنهم كانوا يريدون قتالها، وقد أغضبهم تأمينها. فسار بها ابن قادس إلى الخليفة الناصر، فأطلعه على

ما قام به من التدابير لحقن دماء المسلمين حيث لا يفيد بذلها.

ولكن ابن جامع أبى إلا أن ينزل القصاص بالقائد الحكيم، فأغرى الناصر به متهماً إياه بالتقصير والخيانة، فقتل المسكين وطابت نفس ابن جامع الحاجب الماكر. استاء الناس لهذا الحادث ولا سيما الأندلسيون، وكانوا يكرهون ابن جامع لتكرار مكايده. فأبدوا نفورهم من عمل الناصر، وهم إنما جاؤوا إلى الحرب متثاقلين، ساخطين على الموحدين كما سخطوا من قبل على المرابطين.

كيف لا وما زالوا يشعرون بضياع حقوقهم شعورهم بالأمس. أفتراهم يحسنون القتال، ويثبتون للضرب والطعان، وفي الصدور حزازات وشهوات لا يسكّنها إلا انخذال الموحدين، لعل الاستقلال إليهم يعود؟ ومثل هذه الحالة النفسية، في جيش يتأهب للكفاح، ينذر، ولا بد، بخطب جليل.

وكذلك العساكر المسيحية لم تسلم من التصدع على أثر استنزال الحامية من قلعة رباح مأمونة، فإن وفود الفرنجة ما لبثوا أن جاهروا بامتعاضهم مُن الاسبانيين، فقفلوا راجعين إلى أوطانهم متهمين ملك قشتالة بأنه استأثر بنفائس القلعة وأموالها. وقيل إن عدد الذين رجعوا يبلغ خمسين ألفاً من مائة ألف. إلا أن انفصالهم عن الجيش، قبل المعركة، كان أخفّ ضرراً مما لو انفصلوا في أثنائها، وأوقعوا خللاً فجائياً، يصعب تلافيه، في ترتيب الصفوف، وتنظيم أجزائها.

فقد استطاع الاسبانيون بعد رجوع هؤلاء المحاربين أن يجمعوا أنفسهم، ويدلفوا بقدم ثابتة إلى حصن الأرك، ولهم فيه أوجع الذكريات، فيفتتحوه بيسر مستبشرين. وفيما هم يتقدمون إلى لقاء الناصر، وافاهم شانجه ملك النافار بجيشه، فرأب الخلل الذي أحدثه إياب الفرنجة المتطوعين.

روى المستشرق جوزف أشباخ، أن الناصر بقي يتحامى اصطلاء المعركة على ضخامة جيشه، خوفاً من المحاربين الصليبيين، لأن شجاعة فرسان الفرنجة طارت شهرتها من الشرق إلى الغرب، فلما بلغه انفصالهم عن الاسبانيين، ورجوعهم إلى بلادهم، زالت وساوسه ووطّن النية على طلب القتال، والسير إلى العدو.

وكان الاسبانيون قد نفدوا إلى جبل الشارات (Sierra Morena) في 12

حزيران، وامتلكوا، على بعض قممه، قلعة للموحدين، فبادر الناصر، وعبر الوادي الكبير إلى الموضع المعروف بالعقاب [1] (Das Navas de Tolasa) وسدّ بجيشه منافذ جبل الشارات، فتأزم موقف المسيحيين في شعافه، إذ أصبحوا متعذراً عليهم هبوط السهل لملاقاة الموحدين، فهم مضطرون الى أحد أمرين: اما البقاء والتعرض للجوع والعطش، وإما الرحيل حيث يتحدث الناس بالهزيمة بعد أن حشدوا قوات الممالك الاسبانية.

وفصّل المستشرق أشباخ هذه المعركة تفصيلاً دقيقاً رأينا أن نستند إليه في وصفها وذكر أحوالها. فإن ملوك الاسبان بعدما وقفوا حائرين بين اللبث والقفول، وألفونس الثامن أشدهم عناداً وكرهاً للتقهقر والرجوع، تمكنوا من الانحدار إلى السهل بطريق خفيّ أرشدهم إليه أحد الرعاة، فسار أمامهم دليلاً حتى بلغ بهم مسلكا صالحاً يُنزل منه إلى سهل إبدة (Ubeda). فاعتبر المسيحيون أن هذا الراعي رسول من لدن الله. وانتقلت جيوشهم من الجبل إلى السهل دون أن ينتبه المسلحون لحركتهم، ذلك بأن الملوك الثلاثة ظلوا في القلعة لا يغادرونها حتى انتقال العساكر.

فلما خلا منهم جبل الشارات ظنّ الموحدون أنهم أحمدوا الفرار وضجروا من البقاء. ولكن ما عتموا أن أبصروا معسكرهم في السهل المقابل، فعلموا أنهم خدعوا، ولم يفطنوا لانتقال العدو، فتركوه يحتل مكاناً أفضل من مكانهم، يشرف عليهم من الربى العالية. بيد أن الناصر كان معتدّاً بعظمة جيشه، فلم يبال هذا التبدل في الموقف، واعتقد أن النصارى لا يصبرون طويلاً على حربه، وسيحتاجون إلى الذخائر والمؤن بانقطاعهم عن قشتالة.

فبأيدي عساكره الحصون الجبلية جميعاً، ومنها القلعة التي احتلها الاسبانيون في البدء على جبل الشارات. فما تلكأ أن باشر الدعوة للقتال، فأبوْها في اليوم الأول لما هم عليه من التعب، ثم أبوها في اليوم التالي لأنه يوم أحد، فكرهوا أن يحاربوا فيه. فلما كان صباح الاثنين في 16 تموز 1212 م (15 صفر 609 هـ)، أقام الأساقفة الصلاة ومنحوا الجنود البركة الرسولية، والغفران الكامل.

---

[1] – قد تكون العقاب جمعاً يعني عقاب الجبل مفردها عقبة، وقد تكون مفرداً بمعنى الطائر المعروف الذي يحتل القمم العالية، يعزز ذلك أن روض القرطاس يسمي المكان بحصن العقبان.

ثم جعل الملوك والقواد ينظمون جيوشهم، فوقف ألفونس الثامن، ملك قشتالة في القلب يدير حركاته، ويشرف منه على سائر الأقسام. ويتألف القلب من أربع فرق، إحداها فرقة الجبليّين القشتاليين يتقدمها القائد ذو هارو. والثانية فرقة فرسان قلعة رباح، وشنت ياقب [2] (Santiago) والداوية، والاسبيتارية [3] (des Hospitaliers) يتقدمها الكونت ذولارا. والثالثة فرقة فرسان قشتالة القديمة، واشتوريش (Asturies)، وبسكونية (Biscay)، يتقدمها الكونت ردريق دياز. والرابعة الفرقة الإحتياطية من طليطلة ولاون يقودها الملك الفونس بنفسه.

وأما الجناح الأيمن فكان على رأسه شانجه السابع، ملك النافار، وفيه جنوده وفرسانه، والكماة الفرنسيون الذين آثروا البقاء، وفيه جنود جليقية والبرتغال يتقدمهم الأمير بدرو البرتغالي.

وينقسم الجناح الأيسر على أربع فرق تضم العساكر الأرغونية وبعض رجّالة قشتالة، يتقدمه بدرو الثاني ملك الأرغون.

واصطفت عساكر المسلمين في سهل العقاب مقابل أبدة، مقسومة على خمس فرق يتألف منها الخميس العرموم. ففي المقدمة فرقة المطّوعة، وتجعلها الرواية العربية ستين ألفاً ومائة ألف. وفي الميمنة الجنود الأندلسية. وفي الميسرة البرابرة. وفي القلب جيش الموحدين. وفي المؤخرة الفرقة الاحتياطية من المغاربة والجيش النظامي. وبين القلب والمؤخرة نصبت للخليفة القبة التقليدية الحمراء التي ورثها المسلمون عن عرب الجاهلية، وأمامها جواده مسرجاً، يحيط به حرسه الخاص من الفرسان والمشاة، بأيديهم الرماح الممدودة، ودون الوصول إليهم دائرة شدت من سلاسل الحديد.

وما انتهى تنظيم الجيوش حتى تجاوبت أصوات الطبول ولأبواق من الجانبين، فارتجت لها الربى والسهول، وإذا الخليفة الناصر يخرج من قبته وعليه عباءة سوداء.

---

(2) – أنشئت جماعة فرسان شنت ياقب في جليقية سنة 1161، واقفة حياتها على الذود عن الدين، وكان شعارها سيف القديس يعقوب دامياً في صورة الصليب.

(3) – نشأت جماعة الاسبتارية (فرسان المستشفى) في القدس على أثر نشوء الداوية، وساهمت في الحروب الصليبية وحماية القبر المقدس، وقام لها في اسبانية فرع كما قام للداوية.

فرفع المصحف بيد والسيف بالأخرى، إشارة الهجوم، فحملت المطّوعة خفيفة عنيفة تلطم القلب، فالتقاها الجبليون وجماعات الفرسان بحملة معاكسة ألانت من حدتها.

ثم لم يلبثوا أن استطالوا عليها وأكثروا من الفتك بها فاضطروها إلى الفرار، فانهزمت أمامهم وهم يطاردونها بالحراب في أقفائها. فلما اقتربوا من القلب يبغونه، صدمتهم قوى الموحدين النظامية، فرأوا أمامهم جنوداً باسلة، مجربة في الحروب، مدربة أحسن تدريب. وما طال الأمر حتى تمزقت جموعهم، فتشتتوا عنها منهزمين.

فرجحت كفة المسلمين ولاح لهم وامض النصر، فهللوا مستبشرين. ولم يكن ملك قشتالة يتوقع هذا الفشل من القلب وفيه صُيّانة الفروسية الاسبانية، فطار رشده، واشتهت نفسه الموت، فمشى إلى المعركة يريد أن يخوضها بفرقته الاحتياطية، فمنعه المطران ردريق والقوامس أن يغرّر بحياته، والتمسوا منه أن يكتفي بإنعاش القلب المتدهور، فأمدّه بنجدة مختارة، فاستثاروا بها حماسة الفرسان المنهزمين، فعاد إليهم نشاطهم، وأتاح لهم هذا المدد أن يلموا شعثهم المنتشر، ويكروا ثانية على جيش الموحدين ينقرون حبة قلبه، ويرمقون دائرة السلاسل حيث الخليفة الناصر، والقبة الحمراء.

ومن دون الدائرة أهوال تُختطف عليها الأعمار، فليس صدع القلب بالسهل الهين، وفيه نخبة الجيش النظامي. ووراء السلاسل عدد من الحراس الأشاوس يحرسون القبة بغابة من عوامل الرماح. ولكن قد تجري الأقدار بما لا يتوقع الإنسان، فبينما فوارس قشتالة يصكون القلب، والقلب ثابت لا يتحلحل، إذا الجناح الأيمن يلتوي فجأة وينهزم الأندلسيون تاركين رفاقهم، وكانوا، كما علمنا، ناقمين على الموحدين يضمرون لهم الشر، فلم يقاتلوا قتالهم المعهود في المعارك التي يصطلونها متحمسين. وهم كعادتهم متهورون في أعمالهم لا يفكرون تفكيراً صحيحاً في نتيجة ما يصنعون.

وما كادت الميمنة تتعطل حتى مشت الميسرة على أثرها فتقصّف جناح البربر، وبقي القلب عارياً من الجانبين يدافع الاسبانيين ويصابرهم، وهؤلاء قد ازدادوا حمية وإقداماً بعد تحطيم الجناحين، فصدعوا القلب الجريء وأوغلوا في أوساطه يقرعون دائرة السلاسل، فجرت أمامها أنهار من الدماء، وتكدست حولها الجثث من القتلى تلالاً. الموحدون في القلب مخرّقة صفوفهم، يستميتون مقاومة ودفاعاً.

والمغاربة في المؤخرة يقدمون لسد الثلمات غصاباً، والأحراس البيض والسود يطاعنون الخيل عن حرم القبة وحرم الخلافة: مشهد رائع تجلت فيه البطولة الاسلامية بأجمل معانيها، تغالب اليأس، واليأس غالبها، وترتجي الظفر وقد أشاح بوجهه عنها. أقبل الحظ على الاسبانيين، وما كانوا دون أعدائهم جراءة وعناداً، فشدوا عليهم ملحّين، يستعجلون النصر قبل هزيمة النهار، لا يبالون في كسبه خسارة الأرواح، فهم يشقون الصفوف ويتقدمون، وهم يحيطون بدائرة السلاسل فيقتحمها الكونت ذو لارا واثبا بجماعات الفرسان، ويقتحمها شانجه ملك النافار، وبدرو ملك الأرغون من اليمين والشمال، فانهارت قوى الدفاع من كل جانب، واستمات الحراس دون جدوى، وفي القبة الحمراء سيد الموحدين، قاعد على درقته، يتلقى الأنباء شيئاً فشيئاً، متجلداً مكفهراً، حتى جاء النبأ الأسوأ: قتل ابنه واعتصم الجيش بالفرار!! فوقف الناصر عندئذ وقال: " صدق الرحمن وكذب الشيطان! ". ثم ركب حصانه المسرج ونجا بجماعة من أصحابه.

وكأن المسيحيين، وقد أخذتهم نشوة القلب، أبو إلا أن يعيدوا الطعن في أثر الهاربين، فتعقبوهم تشفّياً، وانتقاماً، فقتلوا منهم أثناء الهزيمة أكثر مما قتلوا في أثناء المعركة.

وتقول الرواية العربية إن خسارة المسلمين كانت جسيمة جداً، إذ لم ينجُ منهم سوى مائة ألف من ستمائة ألف مقاتل، في حين أن الرواية الاسبانية أكثر اعتدالاً في حسابها. فلا ترفع خسارة العدو إلى أعظم من مائتي ألف، ولكنها تجمع في الوقت نفسه على أن خسارة المسيحيين ليست بذي شأن.

وهذا صعب التصديق، لأن الحرب في مرحلتها الأولى كانت دائرة على الاسبانيين؛ ثم إن اقتحام السلاسل ما تمّ لهم إلا بعد تضحيات جليلة وبلاء كبير، فغير معقول أن تكون خسائرهم لا تستحق الذكر كما يزعم الرواة الاسبانيون.

بيد أنها تبدو ضئيلة إذا قيست بخسائر أعدائهم، لأن فشل العساكر الإسلامية لم يقع على صورة عادية مألوفة، فقد تراجعت صفوفهم وتمزقت أشتاتاً قبل أن تمنى بالانكسار، فنالها من التقتيل في ذعرها وتبددها شيء عظيم؛ وقعت عليها الهزيمة مع أن قواتها تبلغ ضعفي قوات المسيحيين، وجيش الموحدين النظامي لا يفوقه جيش في بسالته وتدريبه.

على أن انكسار المسلمين، وإن بدا غريباً في ظاهره، لا يلبث أن يصبح طبيعياً إذا نظرنا إلى العوامل التي أحاطت به. وأهمها تخاذل الجيش الأندلسي وانكفاؤه في أوائل المعركة حيث تصدعت الميمنة، ثم تأثرتها الميسرة بفشل البرابرة وقلة ثباتهم أمام شانجه السابع وأجناد فرنسا والبرتغال والنافار، فاختلّ بذلك قلب الموحدين واشتد عليه الضغط من الأمام والجانبين.

ويروي ابن خلدون حادثاً آخر له أثر فعال في هزيمة الموحدين، وهو أن صاحب لاون، ويسميه مرة " ليهوج "، ومرة " البيوج " قد مكر بالخليفة الناصر، فقدم عليه فداخله، وأظهر النصح، فبذل له الخليفة أموالاً، فلما كانت وقعة العقاب غدر الاسباني به، وكرّ عليه يقاتله برجاله، بدلاً من أن يناصره كما وعد.

غير أننا لا ندري من أراد ابن خلدون بصاحب لاون، لأن الإسمين اللذين ذكرهما بعيدان في لفظهما عن اسم ألفونس (ملك لاون) واسم أخيه شانجه الذي كان يحارب في صفوف المسيحيين يوم العقاب. أما الرواية الاسبانية فلم تشر إلى هذا الحادث، وإنما قالت إن ألفونس الثامن ملك لاون لم يحضر بنفسه الحرب لخلاف بينه وبين ملك قشتالة على بعض الحدود، فاكتفى بأن يبعث أخاه شانجه مكانه.

فإذا صحت رواية ابن خلدون، فإن الناصر لا يُعْذر في اتكاله على مواعيد الأمير الاسباني دون أن يحتاط لأضرارها، متوقعاً الخداع والكذب فيها. وكذلك كان قصير الرأي في استسلامه لنصائح ابن جامع، إذ حبس جيوشه ثمانية أشهر على حصار شلبطرة بدلاً من أن يقودها إلى طليطلة فيسحق مملكة قشتالة قبل أن يتمكن الفونس الثامن من جمع كلمة المسيحيين وامرائهم على مساعدته، والاستفادة من نشاط الأحبار ودعوتهم إلى الإئتلاف تحت راية الصليب.

إن زوال إمارة قشتالة، وهي أعظم دولة في إسبانيا، يفضي، لا جرم، إلى انهيار سائر الامارات الاسبانية، الواحدة تلو الأخرى. فإن القوات التي حشدها صاحب مراكش لمحاربة الاسبانيين جعل منها أضخم جيش عرفته القرون الوسطى. ولو أحسن الحيلة والتدبير لكان من الممكن ألا يقف في فتوحه عند الولايات الأندلسية التي غنمها المسيحيون وضموها إلى ممالكهم، بل يتخطاها إلى الأراضي الاسبانية فيبسط عليها

سلطانه.

ويلام، وهو القائد الأعلى، لغفلته عن حركة العدو وانتقاله خفية من جبل الشارات، حتى استطاع أن ينفذ إلى أبدة، ويحتل في رباها مواقع أفضل من مواقع المسلمين. ورأينا الناصر يدعوه إلى الحرب، فيأباها في اليوم الأول والثاني من وصوله طلباً للراحة، ولا يجرؤ الناصر على مهاجمته، ومع علمه بتعبه، لمناعة روابيه.

ويؤخذ على الموحدين ما يؤخذ على المرابطين في سياسة الاستئثار بالحكم والنفوذ في الأندلس، فأساؤوا إلى أبنائها، وحركوا الضغينة في نفوسهم، فقدموا معهم إلى الحرب وهم مرصدون لمكرهم. فكان الجيش الإسلامي، دون الجيش المسيحي نشاطاً وائتلافاً وحماسة للدين، فدارت عليه معركة العقاب بشؤم الطالع، فمحقت قواه الجبارة، وأضعفت سلطان الموحدين فمالت بملكهم إلى الغروب، وكانت للمسلمين نذيراً بزوال كلمتهم عن الأندلس، وللمسيحيين بشيراً بانقشاع خطر الاسلام عن إسبانيا جمعاء.

المراجع

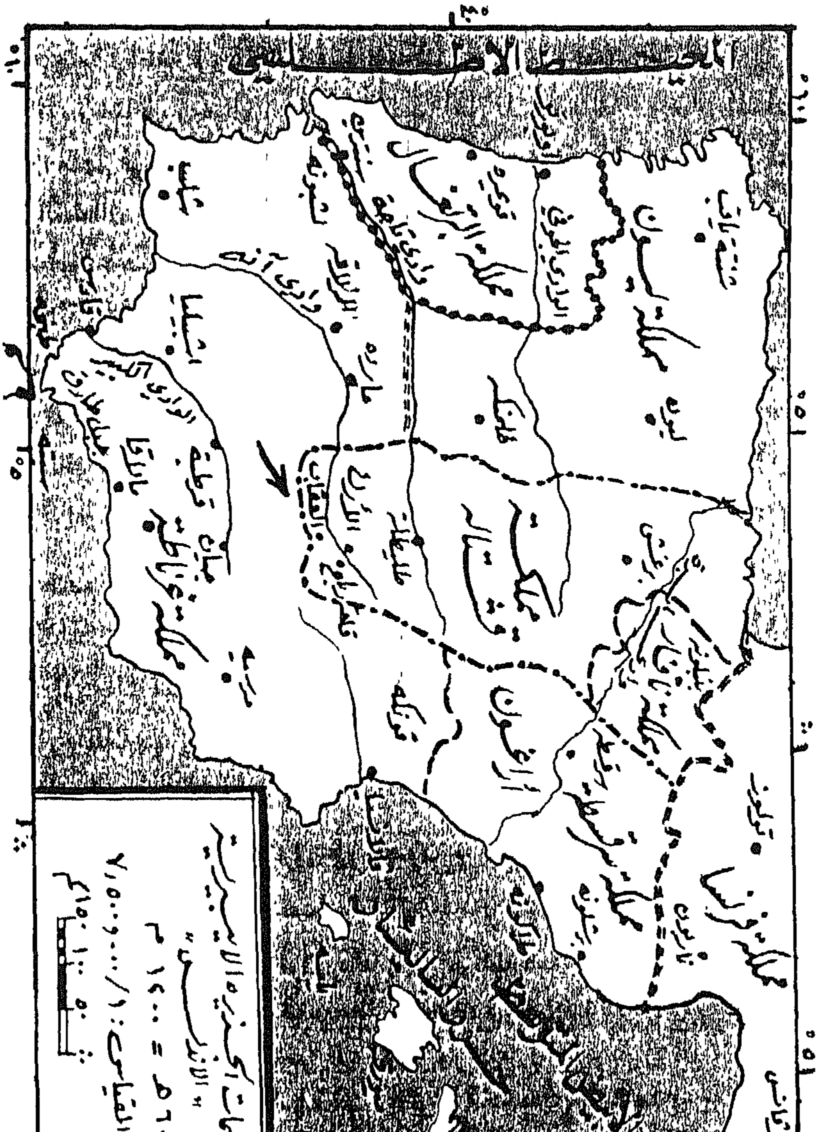
1 – احمد المقرّي " نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ". بيروت. 1968. الجزء الأول. ص 443.

2 – بسام العسلي " الأيام الحاسمة في الحروب الصليبية ". دار النفائس. بيروت. الطبعة الثالثة 1987. ص 157 – 158.

3 – د. أمين توفيق الطيبي " دراسات في التاريخ الاسلامي ". الدار الأندلسية. طرابلس الغرب / ليبيا. الطبعة الأولى 1992. ص 51.

4 – د. مراجع عقيلة الغناى " سقوط دولة الموحدين ". منشورات جامعة قاريونس – كلية الآداب / بنغازي – ليبيا. الطبعة الأولى 1975. ص 226.

5 – بطرس البستاني " معارك العرب في الأندلس ". دار مارون عبود. بيروت 1987. ص 97 – 115.



المرجع: بسام العسلي " الأيام الحاسمة في الحروب الصليبية ". ص 218.

(العقاب مشار إليه بسهم).

معركـة " عقْرَباء "
أو حديقـة الموت

" معركـة عقْرَباء " أو " حديقة الموت " هي المعركة التي انتهت بها حروب الردّة ضد الإسلام في نجد، وأسلمت بموجبها جميع القبائل المرتدّة في أواسـط الجزيـرة العربيـة معلنة ولاءها للدولة الجديدة.

على هذا الأساس، يقول المشير " طـه الهاشـمي " فـي معركـة عقْرَبـاء: " يقينـاً ان معركة عقرباء مـن المعـارك الفاصلـة التـي ختمـت دوراً وفتحت دوراً آخـر، فالمسـلمون جمعوا أقصى قوتهم بقيادة أمهـر قوادهـم، والمرتـدّون حشـدوا أعظـم قـوة فـي استطاعتهم جمعها فـي أوعـر منطقـة... فلـو انكسـر المسـلمون لبقـي العـرب منزوين فـي جزيرتهم، واحتفظ الأكاسرة بملكهم في العراق. ولم يَبْكِ هرقل ضياع سورية... ولما انتهت المعركـة بانتصار المسلمين انكسرت مقاومة المرتدّين فـي الأقطـار الأخـرى... فخضعـت البحريـن ودانت عُمَان ومهرة بدين الاسلام، وجدّدت حضرموت اسلامها، وعادت اليمن الى حظيرة الاسلام... وكان من أثر ذلك أن اجتمعت كلمة العرب فشعروا بقوّتهم فبادروا إلـى الفتـوح بقيـادة رؤسـائهم فـاندفعوا كالسـيل الجـارف يثلـون العـروش ويقضـون علـى امبراطوريـة الأكاسرة (أي الفرس) ودولة القياصرة، فلـم تَمْضِ بضـع سنوات علـى ذلـك حتـى كـان العرب يجولون ويصولون بخيولهم في بلاد خراسان شرقاً، وفي بلاد المغرب غرباً ".

وعقْرَباء موقع في منطقة اليمامة في نجد، تتخذ منهـا قبيلـة " بنـي حنيفـة " مسـكناً لها. وهـذه القبيلة هي بطنٌ من بطون قبائل بكر بن وائل، وكان على رأس بنـي حنيفـة " مسيلمة بن تمامة بن كبير بن حبيبْ الحارث " الملقّب بـ " الكذّاب " حيث ادّعى النبوّة في حياة النبي محمد عليه السلام، ثم ما لبث ان ادعى بعد وفاة محمـد أن محمـداً قـد رأى فيـه سيماء النبوّة.

هكذا شهدت بطاح اليمامة، ومعقل المرتدّين، حشوداً عسكرية من جانبي المسـلمين بقيادة خالد بن الوليد، والمرتدّين بقيادة " مسيلمة الكذّاب ". وقد قدّر خالد بن الوليد حراجة

الموقف في قتاله جيش مسيلمة القوي المتحد حول زعيمه، المسلّح بأوفر الأسلحة في بلاد حنيفة الوعرة، والقرى المنيعة المحصنّة. لذلك لم يقدم على الحركة قبل أن تصله النجدة الموفدة من المدينة، بقيادة عكرمة بن أبي جهل، وشرحبيل بن حسنة. وأراد خالد أن يمهّد سبيل الظفر بالتدابير السياسية التالية:

1 – استمالة قبائل تميم القاطنة في اليمامة إلى جانبه كما فعل مع بني أسد وبني عامر.

2 – تفريق القوات الملتفّة حول مدّعية النبوة " سجاح " عن مسيلمة.

3 – استخدام " الطابور الخامس " من المسلمين من بني حنيفة للمشاغبة على مسيلمة واثباط عزائم مقاتلته، فقام هؤلاء بدور مؤثر وناجح.

وتمكنت مفرزة من الفرسان المسلمين أرسلها خالد إلى منطقة تجمع قوات سجاح ففرّق رجال القبائل الثلاث التي كانت تقف إلى جانبها وهي: هذيل وزيادة وعقّة واضطرهم الى العودة الى بني تغلب في شمال الحجاز.

أما خطة خالد العسكرية فكانت ترمي الى الزحف إلى اليمامة على أقصر طريق والهجوم على جيش مسيلمة أينما لقيه. (ولقد كان ذلك في كانون الأول سنة 633 م ، 12 هـ). وفي الوقت الذي أراد فيه عكرمة بن أبي جهل الاستئثار بالنصر، هاجم مسيلمة قبل وصول شرحبيل بن حسنة إلى ميدان القتال، فهزمه مسيلمة، ثم فعل شرحبيل فعل عكرمة، فلاقى نفس النتيجة أيضاً، فلامه خالد على تسرّعه.

رتّب خالد بن الوليد جيشه، فقسّمه إلى فرق أناط قيادة كل منها الى أحد القادة، كما أرسل في الوقت نفسه اثنين من الرجال الذين يعتمد عليهم في التجسس ليستطلعا له أخبار العدو، وهما " مكتف بن زيد الخيل " وأخوه.

واستطاعت مقدمة جيش بن الوليد، مباغتة مفرزة أمامية من بني حنيفة مؤلفة من ستّين مقاتلاً بقيادة " مجاعة بن مرارة " في موقع يقال له " عقبة الحيسيّة "، فأمر خالد بقتل رجال المفرزة لتأكده من كفرهم، واستبقى " مجاعة " ليحصل منه على معلومات عسكرية عن جيش المرتدّين، يوظفها لصالحه في المعركة معهم. وهكذا حصل منه على خطة مسيلمة الدفاعية في "عقرباء " فقرر المبادأة بالهجوم.

اتخذ مسيلمة من سهل " عقرباء " المحصور بين جبل صلوخ ووادي حنيفة موضعاً لدفاعات جيشه، وقد رتّبه وفقاً للأسلوب الشائع حينذاك في القتال: ميمنة وميسرة وقلب. وأناط قيادة الميمنة إلى محكم بن طفيل – وهو من أجلّ رؤساء بني حنيفة شأناً – وأناط قيادة الميسرة إلى الرحال. وكان يقود القوات المركزية شرحبيل بن مسيلمة. واتخذ مسيلمة مقره وراء القلب يراقب مجرى القتال.

قضى جيش المسلمين ليلته في " عقبة الحيسية "، ثم قضى الليلة التي سبقت يوم المعركة على موضع مرتفع قبالة سهل عقرباء يشرف على وادي حنيفة ويتسلّط عليه. ولم تختلف تعبئة خالد لجيشه عن تعبئة جيش أعدائه.

نشبت المعركة في الصباح واستمرت حتى العصر، وبذل الفريقان قصارى جهودهما ليغلب أحدهما الآخر، وكان القتال عنيفاً وقاسياً، حتى قال فيه الطبري: " كانت حرباً لم يَلْقَ المسلمون مثلها قط ".

بدأ القتال بالخطب الحماسية واستثارة المقاتلين، وأعقبه براز بين الأبطال الصناديد على عادة العرب فقتل عدد كبير من أبطال جيش مسيلمة، مما أثار ثائرة حفائظ الجيش فبادرت ميمنته بالهجوم على ميسرة جيش المسلمين المؤلفة من خليط من القبائل ومعها خيّالة المقدمة التي انحازت في القتال إليها.

وكانت ضربة ميمنة جيش مسيلمة وزخم هجومها على ميسرة جيش المسلمين قوية فزحزحتها من مواقعها وتراجعت مع الخيالة منكسرة لا تلوي على شيء.

وقد أثر ذلك في موقف القلب، فرجع متقهقراً والعدو يطارده الى أن وصل إلى قلب المعسكر وطردوا المسلمين منه ووقفوا عند مقر قيادته لينهوا أمر المعركة ويقرروا مصير جيش المسلمين الضارب.

وفي تلك اللحظة الحرجة، برز خالد بن الوليد شاهراً سيفه وحوله النخبة من صحابة محمد وهو ينادي بشعار: يا محمداه!.

ويكاد المؤرخون جميعاً يتفقون على أن خالداً بفراسته وبطولته أنقذ الموقف واستطاع بثلّةٍ من رجاله الأبطال الثبات في مواقعهم، وسرى شعار: يا محمداه، بين الجند المتراجعين، كما النار في الهشيم، فسارع كل قائد الى دعوة فرقته بكلامٍ مؤثر كان فعله

فعل السحر في الجيش المنكسر... وبإبداع ذاتيٍ سريع عمد خالد بن الوليد إلى سدّ ثغرة التلاوم الذي وجّهه أهل المدن والقرى الى رجال القبائل، ووجّهه هؤلاء إلى أولئك، كل فريق يدّعي أنه سبّب الهزيمة...

وكان التدبير الذي توصل إليه خالد لينقذ الموقف ويتغلب على عدوه منحصراً في أمرين:

الأول: إعادة تنظيم القوات بفصل جند القرى عن جند البادية.

والثاني: طلب من كل جانب أن تكون لديه شارة تميّزه عن الفريق الثاني، فترفع كل فرقة رايتها الخاصة ليتبين له من أين يأتي الخلل... لكي تتسابق كل فرقة في التضحية والاستبسال.

وتولى خالد بن الوليد قيادة أهل القرى من المهاجرين والأنصار بنفسه، يتقدم صفوفهم وهو شاهر سيفه ولا يقابله عدو إلا وقتله، ويزأر بشعاره الساحر: وامحمداه!.

وسار خالد مع ثلّة من جنده الى قلب العدو قاصداً مسيلمة يريد قتله لينهي المعركة، وحامل الراية زيد بن الخطّاب الذي قتل، فأخذ الراية أبو حذيفة فقتل أيضاً، كما قتل من بعده قائد فرقة الأنصار ثابت بن قيس... وتساقط الكثيرون في هذه المعركة والراية تتنقل من قائد الى آخر... عندها طلب خالد من حُماته أن يصونوا ظهره لئلا يُؤتى من خلفه، وحمل بمن معه على المرتدّين وقاتلهم قتالاً شديداً حتى ردّهم إلى أبعد ما كانوا فيه. ولما رأى المحكم ان الدائرة دارت على بني حنيفة صاح في جنده: الحديقة... الحديقة! يريد بذلك أن يتحصن أتباعه فيها ويقاوموا المسلمين المهاجمين ويوقفوهم عندها. ولم يتمكن هو من الوصول إليها لأن عبد الرحمن بن أبي بكر الصدّيق رماه بسهم فقتله، وهرب مسيلمة منهزماً أمام خالد ووراءه جنده يعدون. وتبعهم خالد وجنده الى ان لجأوا إلى " حديقة الموت " فدخلوها وأغلقوا عليهم بابها... وفي هذه الحديقة تقرر المصير المحتوم للمرتدّين.

تريّث جند المسلمين حول جدران الحديقة فترة وهم متردّدون فيما يجب عليهم فعله. غير أن " البراء بن مالك " صاح في الجند قائلاً: احملوني على الجدار حتى تطرحوني عليه، فساعدوه على التسلّق واقتحم الحديقة فقاتل المرتدين على بابها حتى

تمكن من فتحه لجنوده، ولا يخامرنا شك بأن رجالاً آخرين تسلقوا معه الجدار، وكان بعضهم على باب الحديقة، وما إن فتحت حتى تدفّق جند المسلمين منها فأوقعوا بالحنفيين المذعورين إيقاعاً ذريعاً... وكانت مذبحة لم يشهد المسلمون مثلها، وقد سمّوها " حديقة الموت "، حتى أن الطبري يقول بأن " المسلمين أبادوا الحنفيين "، وقد قتل مسيلمة بيد " وحشي " (وهو قاتل حمزة عم النبي في معركة أحد، وقد أسلم بعدها) الذي رماه بحربة أصابته في جنبه فخرجت من جنبه الآخر، فأجهز عليه " سماك بن خرشة " بسيفه.

هذا ويقول المؤرخون ان التاريخ لم يشهد لهذه المعركة مثيلاً من حيث تصارع القوى وان قائداً في التاريخ لم يشهد بين رجاله تسابقاً على الموت كالذي شهده خالد بن الوليد بين رجاله في تلك المعركة.

ووضع مقتل مسيلمة لذلك القتال الشديد حداً، إذ تزعزعت قوى العدو، وانهارت بعد مقتل زعيمها، واشتدت قوى المسلمين وتأججت الحمية في صدورهم، ففتكوا بجند مسيلمة فتكاً ذريعاً، مما أدى إلى طلب الصلح من قبل " مجاعة بن مرارة "، فقبل خالد بن الوليد، فصالح " مجاعة " على الذهب والفضة والسلاح ونصف السبي.

هكذا مثّلت معركة " عقرباء " أو " حديقة الموت " إحدى المعارك الحاسمة في تاريخ العرب والاسلام، وكانت، بحق، رائعة من روائع خالد بن الوليد، وصفحة مشرقة من صفحات عبقريته العسكرية الخلاّقة، حسب تعبير العميد الدكتور ياسين سويد. وقد كان من نتيجة هذه المعركة انه بلغ عدد خسائر بني حنيفة ما بين عشرة آلاف وواحد وعشرين ألف قتيل. بينما بلغت خسائر المسلمين ربع قوة الجيش المقاتل أي حوالي 1500 قتيل، بينهم رجال من جلّة الصحابة الأوّلين وعشرات غيرهم من حفظة القرآن الكريم وخيرة الرجال.

المراجع

1 – ابن الأثير " الكامل في التاريخ " الجزء الثاني. دار صادر. بيروت 1965. ص 360 – 366.

2 – الطبري " تاريخ الأمم والملوك " الجزء الثالث. المطبعة الحسينية – القاهرة 1326 هـ. ص 243 – 254.

3 – ابن خلدون " تاريخ ابن خلدون " الجزء الثاني. دار الكتاب اللبناني. بيروت 1956. ص 876 – 881.

4 – ياقوت الحموي " معجم البلدان " الجزء السادس. مطبعة السعادة. القاهرة. الطبعة الأولى 1906. ص 193 – 194.

5 – ابن هشام " السيرة النبوية " الجزء الرابع. مطبعة حجازي 1937. ص 244 و 272.

6 – ابن كثير " تاريخ ابن كثير " الجزء السادس (البداية والنهاية). مطبعة السعادة. القاهرة 1932. ص 323.

7 – محمد ابو الفضل ابراهيم وعلي محمد البجاوي " أيام العرب في الاسلام ". ص 167 – 175.

8 – طه الهاشمي " خالد بن الوليد " ص 133.

9 – العقيد محمود الدرّة " معارك العرب الكبرى ". ص 273 – 284.

10 – المقدم ياسين سويد " معارك خالد بن الوليد ". المؤسسة العربية للدراسات والنشر. بيروت. الطبعة الأولى 1975. ص 156 – 166.

معركة عكا

سقطت مدينة عكا العربية بأيدي الصهيونيين في 16 / 5 / 1948، بعد معركة قصيرة بين من تبقى من سكانها وبين قوات صهيونية كبيرة هُيّئت وجُهزت لهذه العملية منذ أمد بعيد.

في بادئ الأمر ارتأت اللجنة القومية التي شكلت لتنظيم الدفاع عن المدينة ألا تتعرض للصهيونيين، لأن الكثيرين من رجالها يذهبون إلى حيفا للعمل فيها. وكان هذا الوضع ملائماً للصهيونيين أيضاً، إذ كان عليهم أيضا سلوك الطريق بين عكا وحيفا للوصول إلى مستعمرة نهاريا الواقعة شمال عكا.

ولكن هذا الوضع لم يرض الهيئة العربية العليا، ولا جيش الإنقاذ الذي أرسل قوة للدفاع عن المدينة. وكانت هذه القوة من ملاك فوج اليرموك الثاني بقيادة المقدم أديب الشيشكلي الذي كلف الدفاع عن منطقة عكا – صفد، وما حول المدينتين من قرى. وبدأت اللجنة القومية في عكا شكّها بقدرة هذه القوة على الصمود أمام الصهيونيين، في حين أنها ستكون سببا لاعتداء هؤلاء على المدينة. ولكن اللجنة سرعان ما عدلت عن رأيها عندما كمن الصهيونيون يوم 17 / 3 / 1948 لقافلة عربية تحمل سلاحاً آتية من لبنان. وما أن وصلت هذه القافلة بالقرب من مستعمرة " موتسكين " حتى أطلق الصهيونيون عليها النار وقتلوا 14 رجلاً منها، كان بينهم قائد منطقة حيفا الشهيد محمد أحمد الحنيطي. عندئذ أدرك سكان عكا أنهم على خطأ فيما اعتقدوا من مسالمة الصهيونيين، وقرروا تبديل موقفهم وخطتهم والتأهب للقتال الجدّي، وكمن عدد منهم في صباح اليوم التالي 18 آذار، لسيارة كان فيها أربعة صهيونيين فقتلوهم. وبعد بضعة أيام أوقف المناضلون العرب سيارة نقل صهيونية مصفحة على طريق ترشيحا وأحرقوها. وبقيت الحال كذلك حتى سقوط مدينة حيفا يوم 21 / 4 / 1948، إذ بدأ الصهيونيون بعد أن استتبّ لهم الأمر، ينفذون خطتهم المسماة " بن عامي " لاحتلال عكا بتطويق المدينة، وقطع الطريق المتجه منها إلى الشمال، واحتلوا تل الفخار (تل نابوليون) الواقع شرق عكا، ولم يكن يدافع عن

التل سوى سبعة من المناضلين. ثم هاجم الصهيونيون المدينة بعد قصفها بالمدافع يوم 25 نيسان، وتمكن عدد منهم من احتلال المقبرة الإسلامية الواقعة جنوب شرقي المدينة.

أخذ سكان عكا ينزحون عنها بسرعة عبر الطريق البرية وطريق البحر، حتى لم يبق منهم ومن لاجئي حيفا سوى سبعة آلاف.

وزاد الصهيونيون ضغطهم على المدينة بتلويث المياه لنبع " الكابري " بجراثيم التيفوئيد. ووقع على عاتق اللجنة القومية مهمة إضافية، هي محاولة تأمين العلاج بالإضافة إلى الطعام والمياه التي بدأت تنضب، وأخذت وفود المدينة تطرق مختلف الأبواب محاولة الحصول على السلاح دون جدوى، لذلك قرر سكان المدينة الدفاع عنها بإمكاناتهم.

وفي ساعة مبكرة من صباح 15 / 5 / 1948 شن مجاهدو عكا هجوما على الصهيونيين الذين تسرّبوا إلى أنحاء المدينة ومنها محطة السكة الحديدية وأحد المباني الرسمية شرقها. وقد زاد أمل المناضلين بدخول القوات العربية النظامية. ولكن المدفعية الصهيونية أجبرتهم على الانسحاب بعد أن خسروا عدداً من الشهداء وكبدوا العدو خسائر كبيرة بلغت 60 قتيلاً.

وفي 16 أيار لم يبق في المدينة سوى 17 مناضلاً، إذ انسحبت وحدة جيش الإنقاذ للمساهمة في القتال مع فوجها في المالكية وضواحيها، ولم تصل إلى المدينة أية نجدة رغم دخول الجيوش العربية النظامية إلى فلسطين. وأثر في المدافعين قلة الذخيرة والتعب والجوع والعطش والمرض، فقرروا الاستسلام.

وحينما دخل الصهيونيون المدينة ارتكبوا مذبحة راح ضحيتها واحد وتسعون عربياً، بينهم عدد غير قليل من الشيوخ والنساء والأطفال.

أصدر الصهيونيون فور دخولهم المدينة أمراً بمنع التجول، وطلبوا من الباقين من سكانها التوجه فرادى إلى مركز الشرطة، حيث تمّ جمعهم وتفتيشهم. وقتلوا بعض الشبان، واعتقلوا من بقي منهم، وأقام الصهيونيون نصباً تذكارياً لقتلاهم كتبوا عليه " تخليداً لذكرى الـ 750 من المناضلين الذين سقطوا أمام أسوار عكا ".

المراجع

1 – عارف العارف: النكبة. بيروت 1956.

2 – عبد الله التل: كارثة فلسطين. القاهرة 1959.

3 – محمد فايز القصري: حرب فلسطين. دمشق 1962.

4 – هاني الهندي: جيش الإنقاذ. بيروت 1974.

5 – صالح مسعود بو بصير: جهاد شعب فلسطين خلال نصف قرن. بيروت 1968.

6 – الموسوعة الفلسطينية: الجزء الثالث ص: 300 – 301. إشراف د. أنيس صايغ. دمشق، – 1984 –. الطبعة الأولى.

معركة عنابة (1958)

هي من أبرز المعارك التي خاضها المجاهدون الجزائريون ضد القوات الاستعمارية الفرنسية، حيث " كان المجاهدون رجالاً لهم فضائلهم الفريدة: ايمان بالله، وحب للوطن واستعداد للتضحية وشجاعة لا نظير لها واستخفاف بالخطر ". وكانت المعارك التي خاضوها أكبر برهان على ذلك، لما أظهروه من بطولة قتالية، وحب الإستشهاد في سبيل تحرير أرضهم من المستعمرين الفرنسيين.

ما أن ظهرت التفاصيل الأولى عن معركة (عنابة) حتى تناقلتها وكالات الأنباء العالمية. واطلع عليها العالم أجمع في ذهول وإعجاب. ولم تتمكن القيادة الفرنسية هذه المرة أن تكتم نبأ هذه المعركة، لأنها جرت في ضاحية من ضواحي (عنابة). ولأن المدنيين – من جزائريين وفرنسيين – كانوا يشاهدون بأنظارهم ويتابعون نيران اللهب للمعركة المحتدمة، والطائرات المتساقطة، وصراخ الجنود الفرنسيين. كما كانوا يسمعون هدير المعركة وضجيجها طوال اثنتي عشرة ساعة. وكان من بين الذين شاهدوا المعركة من ميناء عنابة، ضابط بحري بريطاني. ولما شاهد عنف المعركة وكثرة الجنود الفرنسيين والاستعدادات الضخمة سأل شخصاً كان بجانبه: " كم عدد الثوار الذين تحاربونهم الآن؟ ". فأجابه الآخر بأن عددهم حوالي السبعين ثائراً. فابتسم الضابط البحري ابتسامة ساخرة وقال: " باستطاعة حلف شمال الأطلسي الاعتماد على الجيش الفرنسي ضد الإتحاد السوفياتي ". وها هي بعض تفاصيل المعركة، كما حفظتها وثائق المجاهدين.

كانت قوة من المغاوير (الكوماندوس) تابعة لجيش التحرير الوطني تتكون من ستين مجاهداً. وكانت تتجه لتنفيذ عملية قتالية كلفت بها من قبل قيادة جيش التحرير. غير أن العدو – الفرنسي – اكتشف تحرك هذه القوة قبل أن تصل إلى هدفها. وكانت الساعة آنذاك السابعة والربع صباحاً. وبمجرّد أن اكتشف الفرنسيون هذه القوة راحوا يضربون حولها حصاراً محكماً. فاستقدموا لهذا الغرض فرق (القوم – والحركة) وفرق (اللفيف الأجنبي) وفرق (المغاوير البحرية والمغاوير المظليّن) أصحاب القبعات

الخضـراء والحمـراء، والفرقـة الرابعـة عشـرة للمصفحـات، ووحـدات أخـرى مختلفـة مـن البوليس – الشرطة – الاستخبارات (س. ر. س). وقد استقدمت هذه الفرق مـن (قالمـة وسوق السـبت وقسـنطينة وسـطيف وسـكيكدة وواد العنـف). بـل إن معظمهـا اسـتقدم مـن جنوب (ولاية وهران) بواسطة الطائرات. واستمر الفرنسـيون كـامل الليـل يهيـؤون هـذا العدد الضخم من قواتهم التي بلغ مجموع عدد أفرادها ثلاثة وعشـرين ألـف جنـدي تقريبـاً لتنظيم الحصار.

لم تتوقف قوة المغاوير الجزائريين (الكوماندوس) عـن الحركـة والنشـاط طـوال الليل. فواصلت سيرها داخل دائرة الحصار، متوجهة إلى مدينة عنابة، لتقوم بتنفيذ واجبهـا مهما كان الثمن. ولم تقبل بالرجوع إلى الـوراء – أو الانسـحاب – لأنـه كـان باسـتطاعتها الإفادة من ظلمة الليل لاختراق نطاق الحصار والعودة إلى قواعدها. وعندما أزفت الساعة السابعة والربع من صبيحة اليوم التالي، كانت القوة قد وصلت إلى ضاحية (سيدي سالم) من ضواحي مدينة (عنابة). وأشرقت الشمس قبل أن تدخل قلب المدينة. لذلـك تمركـزت في مزرعة مشجرة محصّنة، من ورائها وادي (سيبوس). ثم نظمـت مواقعهـا الدفاعيـة، ووضعت مخطـط خروجهـا مـن الميـدان. وحفـرت الخنـادق لأنهـا كـانت تعـرف جيداً مـا يواجهها من عتاد حربي متنوع: (طيران، مدفعية ثقيلة ومدرعات، الخ...) واستعدّت قوة المغاوير استعداداً كاملاً...

إنصرف العدو منذ شروق الشمس لمتابعـة البحـث عـن آثـار القـوة، ولـم يطـل بـه البحث. فقد أمكن له تحديد مواقعها حوالي السـاعة السادسـة تقريبـاً، فوجّـه نحوهـا قواتـه. وبدأت المعركة عندما فتح المغاوير نيرانهم المباغتة. فأسقطوا الفوج الأول من الفرنسـيين صرعى، واضطرت بقية القوة الفرنسية للتراجع. وعندما تأكدت القيادة الفرنسية من مواقع المغاوير، راحت تقصفها بمدفعيتها الثقيلة على اختلاف أنواعها. واسـتمر القصـف الكثيـف من الثامنة صباحاً حتى العاشرة، وبعد ذلك توقف القصف. وشرعت القيـادة الفرنسـية فـي توجيه الهجوم ضد مواقع المغاوير الجزائريين. وكانت القوات الفرنسـية المهاجمـة تتكـون من أنساق متتالية (صفوف)، ويتكون الصـف الأول مـن قـوات (القـوم والحركـة)، أمـا الثاني فكان يضم (اللفيف الأجنبي). وفي النسق الثالث جنود المظلات. وبعدهم تأتي بقية

الأنساق.

كانت قوة المغاوير الجزائريين تحمل معها من الأسلحة ما يساعدها على الإشتباك مع العدو بكفاءة. فقد كانت مسلّحة بأربع وعشرين رشاشة، ومدفع هاون ومدفع مضاد للدبابات (بازوكا)، وأربعة مدافع رشاشة، والباقي بنادق حربية. وكانت القيادة الفرنسية تعرف أن جنودها لن يجرؤوا على مواجهة نيران جيش التحرير، فراحت تضرب مؤخرتهم بقنابل المدفعية الثقيلة، حتى ترغمهم على التقدم والهجوم، وحتى لا يجدوا أي منفذ للفرار. وكان كلما تقدم نسق (صف) من أنساق القوة الفرنسية حصدته نيران المجاهدين حصداً. فكنت ترى الجثث متناثرة هنا وهناك. حتى أن الجنود القلائل الذين نجوا من الموت لم يجرؤوا على التقدم، وتظاهروا بالموت. لأنه لم يكن باستطاعتهم الرجوع إلى الوراء لأن قنابل المدفعية الفرنسية تمنعهم من ذلك. واستمرت موجات الهجوم ساعتين كاملتين. وآنذاك، تأكد الفرنسيون من عدم جدوى مواصلة الهجوم. فاستعدوا لقصف قوة المغاوير بالطائرات. ولكن قبل أن يتدخل الطيران أجبروا المدنيين الجزائريين على سحب الجرحى والقتلى الفرنسيين حتى لا تضر بهم النيران الجزائرية. وبعد ذلك تدخل الطيران الفرنسي، ومع ذلك فقد تمكن أفراد قوة المغاوير من إسقاط ثلاث طائرات. واحدة من نوع (ب 26) والثانية من نوع (ت 6) والثالثة طائرة استطلاع. وقد شاهد الجميع – جزائريين وفرنسيين – من المدنيين الطائرات الفرنسية وهي تسقط طعمة للنيران. وبعد هذه الموجة من الهجوم الجوي، عادت القيادة الفرنسية إلى تنظيم هجوم برّي آخر. لكن جنود (اللفيف الأجنبي) رفضوا القتال، وألقوا بأسلحتهم إلى الأرض. فقتل منهم أربعة لإرغامهم على القتال. وبالرغم من ذلك فقد أصرّوا على الرفض. ولما تأكدت القيادة الفرنسية أن (روح الهزيمة) قد سيطرت على جنودها، عاودت القصف الجوي. إلا أنها استعملت الغازات الخانقة هذه المرة، فبلغ عدد من استشهد من جنود المجاهدين ثلاثة وثلاثين مجاهداً. أما الباقون فقد تمكنوا من الإنسحاب. ولم يكن بالمستطاع إحصاء خسائر العدو بدقة. إلا أن المدنيين من الجزائريين قد أكدوا أن هذه الخسائر تبلغ مئات القتلى والجرحى ممن أرغم هؤلاء المدنيين على نقلهم. هذا بالإضافة إلى الطائرات الثلاث التي أسقطت، ودبابة تحطمت بالبازوكا في بداية الهجوم.

ومما يؤكد ضخامة الخسائر الفرنسية أن سيارات الإسعاف التي خصّصت لنقل الجرحى كانت أربعة عشرة: عشرة منها عسكرية وأربعة مدنية. كما خصّصت ثلاث طائرات عمودية (هليكوبتر) لنقل الجرحى، وست حافلات كبيرة (ج.م.س) لنقل القتلى.

كانت هذه المعركة البطولية الرائعة مناسبة جديدة، أظهر فيها جيش التحرير الوطني تفوّقه في ميدان الحرب، ومقدرته على مواجهة العتاد الفرنسي والأساليب العسكرية، ونظامه المحكم الذي يحبط جميع أساليب ومخططات القيادة الفرنسية. وتأكد المدنيون الفرنسيون الذين شاهدوا معركة (عنابة) من أن جيش التحرير هو سيد الموقف. وأن المستقبل للثورة الجزائرية التي ستحقق النصر الأكيد. ولعل ما زاد أهمية هذه المعركة هو أنها وقعت في فترة كانت فرنسا تزعم فيها أنها على وشك (تهدئة الجزائر الثائرة)، وأن كل المشاريع الفرنسية التي طرحها (دي غول) في بداية حكمه (الإقتصادية والعسكرية) لن تنتهي إلا إلى الفشل.

المراجع

1 – العماد مصطفى طلاس والمقدم بسام العسلي (الثورة الجزائرية). دار الشورى. بيروت. الطبعة الأولى 1982. ص: 477 – 480.

2 – مجلة (المجاهد) الجزائرية – العدد 46. تاريخ 13 / 7 / 1959.

معركة عنجر
(أول تشرين الثاني 1623)

هي أشهر معارك الأمير فخر الدين الثاني المعني، جرت بينه وبين مصطفى باشا والي الشام وأنصاره الحرفوشيين والسيفيين وسواهم، وانتهت بهزيمة الوالي وأسره على يد المعني. وقد جرت يوم الأربعاء 8 محرم 1033 هـ (الموافق للأول من تشرين الثاني 1623 م).

– أسبابها: في العام 1623 خُلع السلطان مصطفى الأول عن عرش السلطنة وتولى مكانه ابن أخيه السلطان مراد الرابع الذي منح الأمير علي بن فخر الدين سنجقية صفد وأرسل إليه الأحكام بهذا الصدد، وكان الأمير فخر الدين في ذلك الحين معسكراً عند بركة الملاّحة قرب بحيرة الحولة بفلسطين. فلما أبلغه ابنه علي بالنبأ قصد صفد وجمع أعيانها وأهاليها وقرأ عليهم الفرمان السلطاني بتقرير سنجقية بلدهم لابنه الأمير علي، ثم كتب إلى مصطفى باشا والي الشام ينبئه بذلك وأرفق كتابه بصورة عن الفرمان السلطاني. ولكن مصطفى باشا إعتبر أن الفرمان مزوّر من الأمير، خاصة وأنه – حسب ادعائه – لم يكن تبلّغ بعد نبأ عزل السلطان مصطفى وتولية السلطان مراد، ولم يعبأ فخر الدين برفض الوالي وبدأ ابنه علي بممارسة حكمه على بلاد صفد، مما أثار حنق الوالي وحلفائه فأخذوا يستعدون لقتال الأمير.

– التعبئة: (أ) الوالي: أعلن الوالي النفير فحشد عسكر الشام وأرسل إلى حلفائه يطلب إليهم موافاته، فلبّاه الحرفوشيّون حكام البقاع والسيفيّون حكام طرابلس، وتركمان بلاد بعلبك وحمص وعربهما وعرب آل موسى. إذ احتشد " الأمير يونس ابن الحرفوش وابنه الأمير حسين وجميع أقاربه ورجال بلاده وسكمانيته، والأمير عمر بن سيفا بجميع رجاله وسكمانيته، والأمير عباس وعربه، وتركمان بلاد بعلبك وحمص، وعرب آل موسى جاؤوا من مدينة بعلبك " ونزل الجميع عند جسر " دير زنون " بالبقاع متأهبين للاتجاه إلى دمشق والالتحاق بالوالي وعسكره.

(ب) فخر الدين: وأعلن فخر الدين من جهته النفير، وعيّن " قب الياس " بالبقاع مكان التئام لجيشه. ثم أرسل إلى حلفائه يطلب منهم موافاته إليها، فجاء ابنه الأمير علي من بيروت ومعه ألف رجل، وجاء أخوه الأمير يونس ومعه ألف رجل كذلك. والتقى الأميران يونس وعلي بقب الياس مع رجالهما. أما الأمير فخر الدين فانتقل بمن معه من الملاّحة، وبصحبته الأمير علي الشهابي مع ألف رجل، ونزلا معاً عند " جسر القرعون " بالبقاع، وعلم الأمير بأن الحرفوشيين والسيفيين قد عسكروا عند جسر دير زنوّن في طريقهم إلى الشام، فرغب بأن يكمن لهم عند وادي مجدل عنجر. إلا أن الحرفوشيين والسيفيين قاموا من دير زنون ليلاً وساروا على أضواء المشاعل حتى أصبحوا في " الديماس " بعيداً عن متناول يد الأمير.

قام الأمير فخر الدين بمن معه من جسر القرعون باتجاه قب الياس، وفي طريقه إليها، عبر البقاع، أمر جماعة من جنده بالإغارة على " كرك نوح " و " سرعين " من بلاد آل حرفوش. وكان مع الأمير نحو ألفي فارس " غير السيّاس والبغّالة "، فأغارت على القريتين وأحرقتهما وقتلت ما بين ثلاثين وأربعين من المدافعين عنهما، وغنمت ما فيهما من أرزاق وأموال. وكانت سرعين والكرك " من أحسن البلاد، بهما مياه جارية وفواكه، وبساتين وأعناب وتين، وجميع بساتين سرعين للأمير يونس ابن الحرفوش وأولاده وقرايبه ". ثم أحرق الأمير ما مرّ به من قرى لآل حرفوش في بلاد بعلبك، حتى وصل إلى " نبع عنجر " ومنه إلى قب الياس، مكان التئام الجيش.

– الاستعداد للقتال: (أ) الوالي: إجتمع لدى الوالي في الشام نحو اثني عشر ألف مقاتل من انكشارية الشام، مشاة وفرساناً (بقيادة ومعاونة كورد حمزة قائد الإنكشارية)، ومن جند الأمراء الحرفوشيين والسيفيين وغيرهم ممن سبق ذكرهم. فانتقل الوالي بجيشه المحتشد هذا إلى " خان ميسلون " حيث عسكر هناك فترة من الزمن لاستكمال الحشد. ثم انتقل إلى " سهل الجديدة " حيث أصبحت طلائع جيشه مقابل المخافر الأمامية لجيش المعنيّ والمتمركزة عند بلدة " حلوة " على بعد عشرين كيلو متراً جنوبي شرقي عنجر.

(ب) فخر الدين: كان الأمير فخر الدين قد أمر الأمير محمد ابن الأمير علي الشهابي وعمه الأمير أحمد الشهابي بالتمركز مع رجالهما، وكانوا ألف رجل، عند

بلدة " حلوة " حيث يشكلون مخافر أمامية مهمتها مراقبة تحركات العدو والإفادة، وما أن وصلت طلائع جيش الوالي إلى سهل الجديدة حتى أفادته مخافره الأمامية بتحركات هذا الجيش، فأمرها بالانسحاب إلى " نبع عنجر " والتمركز هناك. أما هو، فقد رتب قواته المحتشدة والمقدّرة بخمسة آلاف مقاتل، أربعة آلايات، أو ألوية، على الشكل التالي:

الألاي (اللواء) الأول: فرقة السكمانية الجديدة وفرقة سيف بلوكباشي التي أرسلها الأمير مدلج الحياري، ورجال بلاد الغرب والمتن، بقيادة فخر الدين شخصياً، وعديده ألف رجل من الخيالة.

الألاي الثاني: فرقة السكمانية القديمة، ورجال الجرد، بقيادة ابنه الأمير علي، ألف رجل معظمهم من الخيالة.

الألاي الثالث: رجال الشوف، بقيادة أخيه الأمير يونس، وعديده ألف رجل معظمهم من المشاة.

الألاي الرابع: رجال جبل عامل، بقيادة مصطفى مدبّر الأمير فخر الدين، وعديده ألف رجل معظمهم من المشاة. هذا بالإضافة إلى رجال الشهابيين الذين كانوا مع الأمير بن محمد بن علي الشهابي وأحمد الشهابي، وكانوا ألفاً كما ذكرنا، ووزع الأمير على جنده الذخيرة، لكل مقاتل " أوقيتان " من البارود.

القوات المتجابهة، وفكرة المناورة:

– الوالي: إثنا عشر ألف مقاتل من جند الشام والحرفوشيين والسيفيين وجند حمص وبعلبك من عرب وتركمان وسكمان، أما فكرة المناورة عند الوالي فتتلخص بما يلي:

– احتلال نبع مياه عنجر لقطع الماء عن قوات الأمير.

– احتلال عنجر (البلدة والتل والبرج).

– مهاجمة قوات الأمير قبل أن تتمكن من اتخاذ مراكز دفاعية لها.

– فخر الدين: – خمسة آلاف مقاتل من جند الأمير (السكمان) ومن رجال الشوف والجرد والمتن وجبل عامل والشهابيين ووادي التيم وعرب مدلج الحياري، أما فكرة المناورة فتتلخص بما يلي:

(أ) إختيار الأرض الملائمة للمعركة، إذ اختار سهل عنجر للأسباب التالية:

– سهولة المناورة لجيش الأمير، وصعوبتها لجيش الوالي، وذلك في حال سيطرة الأمير على تل عنجر ونبعها وبرجها.

– يتمتع الأمير، خلف ساحة القتال، بعمق واسع يسمح لجيشه القليل العدد بالتحرك، بينما ينحصر الوالي بجيشه الكبير العدد، بين تلال عنجر من جهة، ومضيق وادي الحرير من جهة أخرى، مما لا يسمح له بالتحرك الحر والسريع، إذ يصبح محصوراً بين مضيق وادي الحرير من جهة، وبين قوات الأمير المتمركزة على تل عنجر، وفي جواره، من جهة أخرى.

(ب) اعتماد عنصر المفاجأة والمباغتة، إذ اختار لذلك الأسلوب التالي:

– لم يظهر في ساحة القتال منذ بدئه، بل ترك للشهابيين وحدهم التعامل مع العدو في بدء القتال، كما تركهم يشنون عليه، لوحدهم، هجوماً ردّياً ناجحاً.

– حاول أن يظهر عند دخوله ساحة القتال بمظهر الذي اختار الدفاع دون الهجوم وذلك عندما دفع مائة من رجاله ليشنوا هجوماً على مراكز العدو كي يوهمه أنه سيظل في وضع الدفاع، بينما كان يعدّ لهجوم عام صاعق وناجح.

– أرض المعركة:

أما أرض المعركة فكانت " عنجر " المكونة من : تل يقوم عليه برج قديم يسمى " برج الخراب " ويقع جنوبي غربي البلدة.

– نبع ماء اكتسب أهمية كبرى بسبب وجوده في ساحة المعركة، ويقع شمالي شرقي البلدة مقابل البرج. بالإضافة إلى القرية نفسها.

– سهل عنجر المنبسط خلف القرية إلى الشمال، وهو الذي سهّل مناورة لجيش الأمير. وأخيراً وادي المجدل المتجه من الشمال الغربي الى الجنوب الشرقي، ومضيق وادي الحرير الى الجنوب الشرقي من عنجر والذي يقيّد حركة المناورة لجيش الوالي إذا ما اجتازه نحو سهل البقاع.

القتال: المرحلة الأولى، الهجوم العثماني (الأربعاء 8 محرّم – اول تشرين الثاني): تقدمت قوات الوالي من " سهل الجديدة " من المدخل الجنوبي الشرقي لوادي

عنجر، فاحتلت " نبع عنجر " قبل أن تصل إليه مخافر الأمير الأمامية المنسحبة من " حلوة " فاضطرت هذه المخافر إلى التمركز في " عنجر " القرية والتّل، وبرج الخراب " الموجود على هذا التل المواجه لنبع عنجر، وأفادت الأمير عن تقدم العدو، فتحرك الأمير بجيشه، مع الفجر، من قب الياس إلى ساحة القتال، حسب الترتيب الذي ذكرناه آنفاً، وسالكاً محور: قب الياس – بر الياس – عنجر.

بعد أن استولت قوات الوالي على نبع عنجر، شنت هجوماً على " عنجر " القرية والتل. وقد قام بهذا الهجوم رجال ابن الحرفوش وابن سيفا وسكمانهما، مشاة وخيالة " بطبولهم " وزمورهم وبيارقهم "، فتمكنوا من دحر الشهابيين المتمركزين في القرية وعلى التل، واحتلت القوات المهاجمة القرية وقسماً كبيراً من التل، وحُشر الشهابيون في البرج وحوله فاعتصموا به يدافعون بضراوة.

المرحلة الثانية: الهجوم الردّي المعني:

وصلت طلائع قوات الأمير إلى عنجر، فاشتدت عزائم الشهابيين، وشنوا هجوماً ردّياً، بالسلاح الأبيض، تمكنوا بواسطته من دحر قوات ابن سيفا وابن الحرفوش عن التلّ والقرية فاستعادوهما واستقر الوضع العسكري في نهاية هذه المرحلة كالاتي:

– قوات الوالي: عند نبع عنجر، وقد اتخذت مراكزها جنوبي النبع، أمامها وبيارقها وأعلامها، وخلفها خيامها، وقد قررت الدفاع عنها وعن النبع.

– قوات الشهابيين: في القرية وعلى التل، قبالة عسكر الوالي.

المرحلة الثالثة: دخول قوات الأمير ساحة القتال:

دخلت قوات الأمير ساحة القتال وفقا للترتيب التالي:

– في الميسرة: الألاي الأول (فخر الدين) وقد دخل ساحة القتال من الثغرة التي تنفذ على نبع عنجر، من جهة الشمال (من جهة المرج شمالي وادي الحرير).

– في القلب: الألاي الثاني (علي) وقد نزل جنوبي مرج المجدل الواقع على التل، مجتازاً (جبل العريض) باتجاه نبع عنجر من جهة الغرب.

– في الميمنة: الألاي الثالث (يونس) وقد التف حول ساحة القتال سالكاً وادي الفوج باتجاه " حلوة "، وظهر بقواته تحت قرية المجدل من جهة الجنوب خلف مشاة

الوالي، محاولاً قطع الطريق على تراجع قوات الوالي نحو مدخل وادي الحرير.

المرحلة الرابعة: الهجوم المعني العام:

بدأ الأمير هجومه بأن أرسل نحواً منماية خيال (وقيل مائتين)، انقضّوا على مراكز قوات الوالي وعلى لواء الوالي بالذات فضغضغوه وأوقعوا في صفوفه الارتباك، نظراً لعامل المفاجأة الذي أحسن الأمير استخدامه.

وقبل أن يفيق العدو من المفاجأة، أطلق الأمير هجومه من المحاور الثلاثة التي سلكها إلى ساحة القتال: الشمال والغرب والجنوب، وكان هجوماً عاماً ومفاجئاً أزاح جيش الوالي عن مواقعه، فهزم، وتبعه جيش الأمير إلى طاحون عنجر، فقتل من جيش الوالي عدداً اختُلف في تقديره فقيل مايتين (الشهابي)، وقيل أربعماية (الشدياق)، وأسر نحو مائة رجل وأكثر، وغنم نحو ألفي خيمة مع عدد كبير من الجمال والبغال والأثقال.

ومن عداد قتلى جيش الوالي آغا انكشارية الشام، وأربعة بلوكباشيّة من الجيش. ومن عداد الأسرى أربعة بلوكباشيين وثلاثون إنكشارياً وأسر الوالي مصطفى نفسه، إذ أنه لم يستطع أن ينهزم مع المنهزمين، فألقى القبض عليه وسيق إلى الأمير فخر الدين الذي ما إن رآه وابنه الأمير علي حتى ترجّلا عن فرسيهما " وقبّلا ذيله " وأرسلاه بصحبة أحد القادة ليوصله إلى قب الياس، ولم يكن مع الوالي من جماعته سوى عشرة رجال، وأما باقي أمراء الجيش كالأمير يونس الحرفوش والأمير عمر سيفا وكورد حمزة بلوكباشي والأمير عباس فقد انهزموا جميعاً إلى بعلبك، حيث باتوا ليلتهم ثم تفرقوا بعدها. وقد قتل من جند الأمير إثنان وثلاثون رجلاً.

المرحلة الخامسة: المطاردة:

أما فلول الجيش المنهزم من عسكر الوالي فقد انسحبت معظمها نحو دمشق مروراً بوادي عنجر، وطلع السكمان إلى التل المطل على نبع عنجر فلحقهم عسكر الأمير وقاتلهم. حتى قتل منهم عدداً كبيراً وغنم بيارقهم وأمتعتهم، وفر الباقون باتجاه دمشق.

نتائج المعركة:

- على الصعيد العسكري، هزيمة ساحقة للوالي وحلفائه جميعاً.
- على الصعيد السياسي، إعتذر الباشا للأمير مؤكداً أن سبب الحرب التي شنها

عليه، هو كورد حمزة بلوكباشي، ثم أرسل إلى دمشق يطلب من متسلّمه فيها ويأمره بأن يقبض على كل أعوان حمزة ويقتلهم جميعاً. وأعطى الأمير فخر الدين مقاطعة غزة وتوابعها، كما أعطاه أحكام التحاويل بسنجق صفد، وأعطى الأمير علي بن فخر الدين البقاع، والأمير حسين بن فخر الدين سنجق عجلون، والأمير منصور بن فخر الدين سنجق اللجون، ومصطفى مدير فخر الدين سنجق نابلس.

وفي العام 1624، وبعد انتصاراته على آل سيفا ثم على باشا دمشق، كرّست السلطنة الأمير فخر الدين أميراً على " عربستان " وسلطاناً على برّ الشام " من حدّ حلب إلى حدّ القدس ".

المراجع

1 – العميد الركن د. ياسين سويد " التاريخ العسكري للمقاطعات اللبنانية في عهد الامارتين " الجزء الأول. (الامارة المعنية 1516 – 1697). المؤسسة العربية للدراسات والنشر. بيروت. الطبعة الأولى 1980. ص 320 – 325.

2 – احمد بن محمد الخالدي الصفدي " لبنان في عهد الأمير فخر الدين المعني الثاني ". تحقيق أسد رستم وفؤاد البستاني. بيروت. منشورات الجامعة اللبنانية 1969. ص 146 – 155.

3 – طنوس الشدياق " أخبار الأعيان في جبل لبنان " الجزء الأول. تحقيق رستم والبستاني. منشورات الجامعة اللبنانية. بيروت. 1970. ص 274 – 275.

4 – حيد أحمد الشهابي. (تاريخ الأمير حيدر احمد الشهابي). الجزء الأول. ص 692 – 693 (وهو كتاب الغرر الحسان في تاريخ حوادث الزمان. مطبعة السلام. مصر 1900).

معركـة عين جالوت

تعتبر معركة " عين جالوت " من أهم المعارك الفاصلة في التاريخ، وقد جرت بين جيش المغول من جهة، وجيش المماليك وجنود المصريين من جهة ثانية.

هذا، وكان المغول عشائر متفرقة ومتباغضة تسكن منطقة " كوبي " (منغوليا الحالية) التي تمتد من شمال الصين حتى تصل حدود سيبيريا وهي تدين بالوثنية. وفي سنة 1206م، إستطاع تيموجين أحد زعماء هذه القبائل السيطرة عليها وتوحيدها تحت زعامته واعترفت به جميعها امبراطوراً على كل المغول باسم " جنكيز خان "، وكان عمره يومئذ 51 سنة. (إحدى وخمسين سنةً).

وكانت هذه القبائل قوية الشكيمة، شديدة المراس، خشنة الطباع، دموية. تعيش حياة البداوة وتسكن الخيام وتأكل ما تجود به الصحراء " كوبي " من الأكل البسيط، بارعة بركوب الخيل.

ولقد أخذ جنكيزخان يعد جيشاً قوياً عماده الخيالة ليسيطر بواسطته على الممالك الغنية المجاورة للدولة التي أسسها في منغوليا. وبعد أن تمّ إعداد هذا الجيش اخذ يزحف به لتأسيس الأمبراطورية المغولية التي دوخت العالم زهاء الخمسين سنة التالية. ولقد دك في البداية عرش الصين العظيم وفتح عاصمتها " بكين " سنة 1215. ثم أخذ يحتك بالدولة الاسلامية في خوارزم حتى اعتنق بعض اتباعه الدين الاسلامي.

وقد عقد معاهدة تجارية مع السلطان الخوارزمي علاء الدين، وبعث وفداً مغولياً من 450 شخصاً من مسلمي المغول إلى خوارزم لتنسيق التبادل التجاري. عندما وصل الوفد إلى مدينة " أوترار " تصدى لهم الخوارزميون وقتلوهم جميعاً. ولما علم جنكيزخان بذلك قرر شن حرب دموية مميتة على الدولة الإسلامية الخوارزمية. ولقد جهز أربعة جيوش لهذا الغرض:

الأول بقيادة إثنين من ابنائه وتعداده (70) ألف جندي توجه لفتح مدينة أوترار التي قتل بها التجار.

الثاني بقيادة ابنـه الأكبـر " جـوشـي " الـذي اجتاح ساحل نهر سميون وفتـح مدينة " جند ".

الثالث توجه إلى منافذ جيحون.

الرابع بقيادته وهو الجيش الأكبر توجه إلى بخارى وسمرقند.

وقد تمكنت هذه الجيوش مـن احتـلال أهدافهـا وتدمير جميـع المـدن وقتـل أهاليها وسبي نسائها ونهب ممتلكاتها.

ثم استمر زحفه فاحتل مدن " بلخ " و " هـداة " و " ألْدي ". وكـان السلطان عـلاء الدين ينسحب بسرعة أمام هذا الإعصار حتى وصل بحر قزوين وتنازل هناك عن العرش لابنه جلال الدين، وبعد فترة وجيزة مات غمّاَ.

ثم سقطت مدينة خوارزم نفسها بعد حصار استمر اربعة أشهر ولقـد دمـرت حتـى أزيلت نهائياً من الوجود.

وبـعد إكمـال إحـتلال إقليم خـوارزم اتجـه المغـول نحـو إقليم خراسـان فدمـروا مدن " مرو " و " نسا " و " نيسابور " و " غزنة ". ثم اتجه إلى ولايـة البنجـاب الإسـلامية في الهند. وفـي سـنة 1227 م. مـات جنكيزخـان وخلفـه علـى العـرش والقيـادة ابنـه " أوكتاي ".

ولقد دارت معارك كبيرة بين جيوش أوكتاي وجيوش السلطان الخوارزمي جـلال الدين إنتهت بموت الأخير ووصول المغول إلى حدود العراق الشمالية.

ولقد توقف الزحف المغولي على البلاد الاسلامية لفترة وتوجه إلى روسيا وأحـرق موسكو ثم فتح بولندا ووصل المغول إلى مدينة برلين ثـم فيينـا ووصـل الـى سـاحل البحـر الأدرياتيكي.

وقبل وصول المغول إلى (روما) مات الامـبراطور المغولـي " أوكتـاي " وتولـى العرش بعده إبنه " مُنكو " الذي كلف أخاه هولاكو إستئناف الزحـف فـي بـلاد فـارس نحـو بغداد. كان الخليفة المستعصم بالله ضعيفاً " وعاجزاً " ولقد فرح بسقوط الدولة الخوارزمية التي كانت خارجة عن سلطتة ولم يقدم إليها أية مساعدة بالرغم من استنجاد سلطانها جلال الـديـن بـه. كـمـا أن الخليفة لم يستعد لحرب المغول عند وصولهم حدود العراق ولم يمهد

الجيوش اللازمة لصدهم، لذلك تقدم هولاكو بيسر نحو بغداد وحاصرها واستسلمت له يوم الأحد 10 شباط / العاشر من شباط / 1258 م. فأعمل فيها قتلاً وتدميراً وسبياً حتى بلغ عدد القتلى داخل المدينة مليون شخص. ولقد غادر هولاكو بغداد على عجل حتى لا يصاب بالأوبئة الناتجة عن مذبحتها.

وبعد سقوط بغداد بعام واحد (1259 م)، سقطت مدن الشام الواحدة بعد الأخرى. فسقطت ماردين ونصيبين وحلب واستسلمت دمشق.

ولقد تحالف الأرمن وبقايا الصليبيين مع المغول ضد العرب والمسلمين. وعندما كان هولاكو يستعد لغزو مصر وردته الأنباء عن وفاة أخيه الأمبراطور مُنكو فاضطر إلى العودة إلى منغوليا وعيّن محله القائد " كيتو بو قانويان ".

عندما احتل المغول الصين وبدأوا بالاستعداد لغزو العالم الإسلامي كانت الخلافة العباسية في بغداد تحتضر ولم يملك الخليفة العباسي من الامبراطورية العظمى التي أسسها المسلمون الأوائل سوى بغداد وحدها، أما بقية البلاد، فقسم منها قد انسلخ عن الخلافة والقسم الآخر تقسم إلى دويلات يحكمها المماليك وملوك الطوائف. وكانت هذه الدويلات نفسها ينازع بعضها بعضاً.

ففي الشرق كانت الدولة الخوارزمية تضم إيران وافغانستان وتركستان، وكانت هذه الدول في نزاع مستمر مع جيرانها المسلمين فأضعفتهم وضعفت هي الأخرى من كثرة الحروب واضطرابات.

وفي بغداد كان الخليفة العباسي الناصر لدين الله ومن بعده المستعصم بالله أضعف من أن يعيدوا إلى الخلافة هيبتها ويوحدوا الأمة التي باتت تنطق بالعربية من المحيط الأطلسي إلى حدود الصين.

وكانت سورية تحكمها بقايا أسرة صلاح الدين الأيوبي بينما الفرع الآخر من الأسرة يحتضر في مصر نتيجة سيطرة المماليك على الحكم فيها.

واما شمال أفريقيا والأندلس فقد تفتّت هي الأخرى إلى دويلات وامارات ضعيفة، وكذلك الحال في جنوب الجزيرة العربية.

بعد وفاة الملك الصالح ومقتل ولده الملك المعظم على أيدي المماليك البحرية وهب

هؤلاء عرش مصر إلى شجرة الدر أرملة الملك الصالح. فتزوجت هذه الأميرة عز الدين أيبك زعيم المماليك البحرية ونصبته ملكاً باسم الملك المعز. لبث هذا على العرش سبع سنين إستطاع خلالها أن يؤمن نوعاً من الاستقرار. ولما دب الخلاف بينه وبين شجرة الدر على أثر عزمه على الزواج من أخرى دبرت له شجرة الدر مؤامرة أدت إلى اغتياله في حمام بيتها، إلا أن أعوانه تصدوا لها وقتلوها شرّ قتلة ونصبوا إبنه الملك المنصور محله، وكان عمره 15 سنة / خمس عشرة / ، وأصبح الحاكم الفعلي للبلاد الأمير سيف الدين قطز زعيم المماليك البحرية. وفي هذا الوقت وصل كمال الدين عمر بن العديم رسولاً من الملك الناصر صلاح الدين بن يوسف ملك حلب والشام يطلب نجدة مصر لتخليص الأرض السورية من العدو المغولي المحتل.

وقد درس قطز الموقف بدقة فوجد أن المغول لا بد لهم من ان يتقدموا إلى مصر لاحتلالها. وللدفاع عن مصر عليه أن يقبل المعركة خارج أراضيها، لذلك عزم على ان يتقدم إلى أرض الشام لمنازلة المغول فيها وفي ذلك يوفر غرضين:

الأول: إبعاد المعركة عن أرض مصر.

الثاني: إنقاذ البلاد السورية من الاحتلال المغولي.

وكان لا بدّ له من أن يهيئ الشعب المصري نفسياً واقتصادياً وعسكرياً لهذا القتال، لأن المعركة ستكون فاصلة، فأما أن يدمر آخر المعاقل الإسلامية أو يطرد المغول من الأراضي العربية.

وكان أول قرار اتخذه قطز هو عزل الملك الطفل عن العرش وتولي عرش مصر بنفسه، لذلك جمع الأمراء والمشايخ والأعيان ووقف فيهم خطيباً وشرح لهم الموقف وطلب موافقتهم على عزل الملك والمناداة به ملكاً فوافقوا جميعاً. لذلك أمر بالقبض على الملك وامه وأفراد حاشيته وبعض الأمراء المعارضين له وزجّهم في السجن. وأخذ يستعد للحرب بهمة وجد. وفي هذا الوقت وصلته أنباء هروب الملك الناصر صلاح الدين من دمشق واستسلامها للمغول، كما وصلته رسالة من هولاكو جاء فيها: " من ملك الملوك شرقاً و غرباً القان الأعظم. باسمك اللهم باسط الأرض ورافع السماء، يعلم الملك المظفر قطز وسائر أمراء دولته وأهل مملكته بالديار المصرية وما حولها من الأعمال، أنّا نحن

جند اللـه في أرضه خلقنا من سخطه، وسلّطنا على من حلّ به غضبه، فلكم بجميع البلاد معتبر ومن عزمنا مزدجر، فاتعظوا بغيركم، وأسلموا إلينا امركم، قبل ان ينكشف الغطاء فتندموا، ويعود عليكم الخطأ، فنحن لا نرحم من بكى، ولا نرق لمن شكا، ولقد سمعتم، أننا فتحنا البلاد، وطهرنا الأرض من الفساد، وقتلنا معظم العباد، فعليكم بالهدي، وعلينا الطلب، فأي أرضٍ تأويكم، وأي طريق تنجيكم، وأي بلاد تحميكم، فما لكم من سيوفنا خلاص، ولا من مهابتنا مناص، فخيولنا سوابق وسهامنا خوارق، وسيوفنا صواعق، وقلوبنا كالجبال، وعددنا كالرمال، فإنكم أكملتم الحرام، وخنتم العهود والإيمان، وفشا بكم العقوق والعصيان، فابشروا بالمذلة والهوان، فمن طلب حربنا ندم، ومن قصد أمامنا سلم. فلا تضلوا الخطاب، واسرعوا برد الجواب، قبل أن تضرم الحرب نارها، وترمي نحوكم شرارها، وتدهوا منا بأعظم داهية، وتصبح بلادكم منكم خالية. فقد انصفناكم إذ راسلناكم، وايقظناكم إذ حذرناكم، فمابقي لنا مقصد سواكم، والسلام علينا وعليكم، وعلى من أطاع الهدى، وخشي عواقب الرَّدى، وأطاع الملك الأعلى ".

وما أن تسلم السلطان قطز هذه الرسالة حتى أمر بقتل الرسل الأربعة وعلق رؤوسهم على باب " زويلة " ومضى في استعداداته للحرب.

وفي هذا الوقت وصلت أنباء إلى هولاكو بموت أخيه الملك فاسرع عائدا إلى منغوليا وعهد بقيادة جيشه إلى القائد " كيتو بوقانويان " وأمره بالتقدم إلى مصر. فتقدم هذا بجيشه حتى وصلت طلائعه إلى غزة واحتل جنوب فلسطين. أما قطز فإنه بعد أن أكمل إستعداداته وحشد قواته ترك القاهرة في آب سنة 1260 م، متجهاً نحو الصالحية. وارسل طلائع جيشه بقيادة الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري لاستطلاع أخبار المغول.

كان المغول يتبنوّن فكرة الحرب السريعة الخاطفة. لذلك كان جيشهم مؤلفاً من الخيّالة فقط، ولم يهتموا بتنظيم المشاة أو يعتمدوا عليهم في حروبهم خاصة بعد أن أخذت غزواتهم وفتوحاتهم هذا البعد الشاسع بالنسبة لذلك العصر. فقد تقدموا من منغوليا حتى وصلوا فيينا في أوروبا وفلسطين في آسيا. وكانت أسلحتهم بسيطة تعتمد على الرمح والسيف والقوس ولم يهتموا بالتدريع أو اللبس الثقيل الذي يعيق حركتهم.

كانت فرق الخيالة مؤلفة من نوعين:

الأول: فرق حاملي السهام، وتقوم بواجب المدفعية.

الثاني: فرق حاملي الرماح والسيوف وواجبهم الهجوم الخاطف والسريع.

بلغ عدد الجيش المصري الذي حشده قطز زهاء (400) اربعمئة ألف مقاتل وكان مؤلفاً من الخيالة والمشاة. وكانت نسبة المشاة هي الغالبة (2 إلى 1).

الخيالة، وجلهم من المماليك وكانوا يرتدون الدروع التي نقلوها عن الصليبيين، وكانوا مسلحين بالسيوف والرماح.

المشاة، وكان معظمهم من المصريين المسلحين بالسيوف والرماح والبلطات والهراوات المسنّنة.

البدو، وكان عددهم بضعة آلاف يركبون الإبل، وكانوا يشكلون جيشاً غير نظامي. استخدمهم قطز بالإغارة على خطوط العدو الخلفية ومراكز تموينه، خاصة وإنهم كانوا بارعين في معرفة مسالك الصحراء، ومعتادين على طبيعتها المناخية والمعيشية.

كان الأمير قطز من أصل تركماني وهو ابن أخت السلطان جلال الدين الخوارزمي واسمه الأصلي محمود بن ممدود، ولما حلت النكبة بدولة خوارزم وأمعن المغول في قتل ملوكها وأسرهم، نجا محمود وكان آنذاك طفلاً صغيراً فوقع بيد أحد تجار الرقيق الذي سماه سيف الدين قطز وصحبه مع غيره من الرقيق إلى البلاد الشامية وباعه إلى شخص يدعى " إبن الزعيم " لذلك تربى على كره المغول وكان يتوق إلى محاربتهم والإنتقام لعائلته وأبناء أمته ودينه الاسلامي. ولقد شب قطز وتعلم الفروسية وفنون القتال والتحق بخدمة الملك المعز أيبك التركماني.

ولقد امتاز قطز بالذكاء والشجاعة والحكمة. وكان مقداماً وحازماً حسن التدبير، متديناً، قوي الإرادة، واسع الإطلاع في أمور الحرب، بعيد النظر. ولقد تجمعت فيه صفات القيادة الجيدة كلها.

بعدما أكمل قطز إستعدادات الجيش المصري قرّر أخذ زمام المبادرة والتقدم فوراً إلى فلسطين لمنازلة المغول في أرضها.

وقد ترك القاهرة في 15 آب 1260 م، وقد دفع أمامه مقدمة من الخيالة بقيادة ركن الدين بيبرس لستر التقدم والإستطلاع وطرد المفارز الأمامية التي ارسلها القائد

المغولي إلى قرب غزة.

لقد قطع الخيالة صحراء سيناء بسرعة خاطفة وباغتوا مفارز الجيش المغولي في غزة التي كانت بقيادة " بيدرا ". وبعد معركة حامية انسحب بيدرا من غزة ثم من جنوب فلسطين ودخلها بيبرس منقذاً ومحرراً. ولقد كان هذا أول نصر ضد المغول. فقويت عزائم العرب وارتفعت معنوياتهم بعد أن كان الإعتقاد السائد أن الجيش المغولي جيش لا يغلب.

واصل بيبرس تقدمه فاحتل يافا وقيصرية ووصل إلى جبل الكرمل، جنوب حيفا ثم انحدر نحو نهر جالوت والتقى بالجيش المغولي قرب قرية عين جالوت الواقعة بين بيسان والعفّولة، وقد نجح بيبرس في تثبيت قوات المغول المحتشدة فيها لحين وصول القسم الأكبر بقيادة قطز. ولقد وصل القسم الأكبر وأكمل انتشاره في سهل " دزرائيلون " قرب عكا الذي كان وما يزال تحت سيطرة الصليبيين، ولقد وافق هؤلاء على معاونة المسلمين خوفاً من جيشهم الجرار وتخلّصاً من الفظائع التي زرعها المغول في كل مكان. إلا أنهم بالرغم من سماحهم للجيش الإسلامي بالعسكرة أصروا على الحياد أثناء القتال.

ولقد بلغ تعداد الجيش المصري المحتشد (400) اربعمئة ألف مقاتل.

تعتمد خطة المغول التي برعوا فيها في جميع حروبهم على تجنب الاشتباك الواسع مع الخصم في البداية. فيقومون بهجمات بسيطة في أماكن مختلفة حتى يكتشفوا نقاط الضعف في صفوف الخصم ليحشدوا قواهم الرئيسة أمام نقطة الضعف ويشنّوا هجومهم الكثيف عليها.

يبدأ الهجوم بقصف كثيف من قبل حاملي السهام فيختل توازن الخصم ومن ثم يبدأ الهجوم. وفي معركة عين جالوت قرر القائد المغولي بعد دراسته الموقف وقيامه بالهجمات المحدودة لكشف نقاط الضعف، القيام بهجوم جبهوي وتحطيم مراكز المسلمين وقسمها إلى قسمين والنفاذ من الوسط والإلتفاف على مؤخرة القسمين المنشطرين.

ولقد وضع خطة بديلة تقضي بالتظاهر بالإنسحاب عند فشل هجوم المركز لاستدراج الجيش المصري واخراجه من مواضعه الرئيسة، وعندئذ تقوم فرق الخيالة السريعة بالإنقضاض عليه وتحطيمه.

درس قطز بعناية أساليب وخطط المغول الهجومية، وقد رأى أن المغول يعتمدون على القتال المتحرك مستفيدين من خفة حركة الخيالة وهي عماد جيشهم وقتالهم. وقرر أن تتخذ المعركة شكل القتال الثابت، لذلك قرر أن يتخذ موضع الدفاع وأن تتميز المعركة بالقتال القريب والإشتباك بالسيوف والرماح، وبذلك يستطيع الإستفادة من عنصر المشاة الذي كان العنصر الرئيس في جيشه.

انتخب قطز موضعه الدفاعي في المنطقة المحصورة بين نهري " الجالوت " و " جلبو " مستفيدا من طبيعة الأرض في هذه المنطقة التي كانت تتميز بما يلي:

1 - الأرض منبسطة وواسعة ذات قابلية لاستيعاب قطعات كبيرة.

2 - وجود مستنقعات بيسان في جناحه الأيمن تحدد حركة الخيالة المغولية وبذلك تضطر إلى الهجوم من الجبهة حيث لا يستطيع الإلتفاف من هذا الجناح.

3 - كثرة الموانع والأنهار تحدد عمل الخيالة التي يتفوق فيها المغول فتقل أهميتها.

4 - في حال اضطراره إلى الإنسحاب يستفيد من نهر جلبو لتأخير مطاردة المغول له.

إحتل قطز الموضع الدفاعي كما يلي:

القسم الأكبر بقيادته في المركز (القلب)، ويتألف من المشاة وقليل من الخيالة.

الميمنة المؤلفة من المشاة وقليل من الخيالة.

الميسرة المؤلفة من المشاة وقليل من الخيالة.

الإحتياط وهو فرق الخيالة الرئيسة بقيادة الأمير بيبرس التي وضعها خلف القلب مباشرة، واجبها مطاردة المغول بعد دحرهم.

وكانت الخطة تقضي بصمود المشاة في وجه خيالة المغول واجبارهم على القتال القريب المتلاحم فتشلّ قابلية حركتهم وتنكسر شدة هجماتهم فيقوم خيالة المصريين بالإنقضاض عليهم ومطاردتهم.

وفي حال فشل هذه الخطة يطبق المصريون خطة المغول نفسها فيتظاهرون بالإنسحاب من المركز فتحدث ثغرة يندفع منها المغول ثم يطبقون عليهم من ثلاث جهات

بعد تورطهم في التغلغل بعيداً ويتم القضاء عليهم.

وفي صباح يوم الجمعة الموافق 6 أيلول 1260 م، شنّ المغول هجومهم المتوقع بعد أن مهدوا برمي كثيف من قبل حاملي السهام. ولما تقدم الخيالة اصطدمت بمشاة المسلمين المتمركزين على الأرض ودارت معركة رهيبة تمكن فيها المغول من فتح ثغرة كبيرة في صفوف المسلمين. فأمر قطز بتنفيذ الخطة البديلة فانسحب القلب إلى الخلف متظاهراً بالفرار بينما لبثت الميمنة والميسرة في محلها. فاندفع المغول من الثغرة وتوغلوا بعيداً في الخلف.

وعند ذاك شرعت الميمنة والميسرة والخيالة، فرق بيبرس، بالاطباق عليهم وتمكنوا من سدّ الثغرة والهجوم على المغول من ثلاث جهات خاصة بعد أن اتخذ القلب موضعاً جديداً في الخلف وثبت فيه. فاختل توازن المغول نتيجة هذه المباغتة التي لم يكونوا يتوقعونها، ونتيجة الضغط الهائل الذي تعرضوا له، تشتّت جيشهم وهربوا إلى التلال المحيطة ببيسان، وهنا قام خيالة المصريين بالمطاردة وانزلت بالمغول خسائر فادحة، وقد قتل قائد المغول كيتو بو قانويان.

وقد انهزم المغول إلى الشام والمصريون يطاردونهم حتى تم طردهم من معظم البلاد الشامية.

تجلت في هذه المعركة أهمية دراسة اساليب قتال العدو وتنظيمه وصفاته القتالية الأخرى. فلقد استفاد قطز من هذه الدراسة وتخطى بها كل الأخطار التي ارتكبتها الجيوش التي سحقها المغول أثناء تقدمهم الطويل من منغوليا إلى غزة.

وكانت هذه الدراسة أهم عوامل نصره على عدوه. فقد تمكن من وضع خطة سليمة ومحكمة. كما تجلت في هذه المعركة أهمية أخذ المبادأة والتقدم نحو العدو بدلا من الإنتظار لحين وصوله. فقد ترك قطز مصر وسار على رأس جيشه لينازل المغول في أرض فلسطين. وكانت إنتصارات بيبرس الأولية سبباً قوياً في رفع معنويات الجيش المصري وانتهاء خرافة أن الجيش المغولي جيش لا يغلب.

وكان انتخاب المصريين لأرض المعركة في عين جالوت مثالياً حيث أجبروا المغول على قبول المعركة في منطقة تكثر فيها المستنقعات والجداول والأنهار، مما حدد

عمل خيالتهم التي كانوا يتفوقون بها ويعتمدون عليها في كل حروبهم، ثم إن الخطة المرنة والبسيطة التي وضعها قطز وتنفيذها بدقة كان عاملاً حاسماً في النصر.

هذا، ويشير بعض الباحثين الى النتائج السياسية والعسكرية لمعركة عين جالوت، مستخلصاً بعض العبر والدروس منها، حيث تتجلى على الشكل التالي:

أ – النتائج السياسية:

كانت معركة عين جالوت نقطة تحوّل في مسيرة الصراع ضد الغزاة البرابرة، سواء منهم هؤلاء الذين قدموا من الشرق (المغول)، أو أولئك الذين سبق لهم أن قدموا من الغرب (الفرنج)، ولهذا تعتبر من أهم المعارك الحاسمة في التاريخ.

وبالرغم من تقدم المغول مسافة أربعة آلاف ميل من قلب منغوليا وحتى بلاد الشام، وخاضوا أثناء ذلك مجموعة كبيرة من المعارك في أوروبا وآسيا، لم تنتكس لهم راية، ولم يهزم لهم جمع، بمثل ما حدث في عين جالوت، ولقد كان انتصار عين جالوت بداية هزائم متتالية أعادت المغول إلى قواعدهم وحرّرت البلاد الاسلامية في آسيا من وجودهم. وكان من أبرز التحولات انضمام أعداد كبيرة من المغول الى جانب المسلمين. ومن المعروف ان انحياز بلاط هولاكو الى جانب المسيحيين قابله انحياز القبائل الذهبية بقيادة خان بركة الى جانب المسلمين، وقد أنكرت القبائل الذهبية على هولاكو ما اتبعه من سياسة مناهضة للمسلمين، ووقع الاحتكاك في جبال القوقاز التي تعتبر الحد الفاصل بين منطقتي نفوذ بركة وهولاكو، فدأب بركة وقادته على اضطهاد القبائل المسيحية.

وما أقدم عليه هولاكو من محاولة لتوطيد سلطته في الجانب الشمالي لجبال القوقاز، أحبطتها الهزيمة الساحقة التي أنزلها نوغاي ابن أخت بركة بجيش هولاكو سنة 1265 قرب نهر تريك. وكان انتصار نوغاي نتيجة لزيادة قوة العنصر الاسلامي واضعاف العنصر المسيحي مما برز بعد يوم عين جالوت. وقد كان هذا العامل ذاته هو الذي أغرى المغول الذين بقوا في غربي آسيا على اعتناق الاسلام. وعجلت هذه المعركة بزوال الإمارات الصليبية، لأن المسلمين المظفرين أضحوا حريصين على التخلص نهائياً من أعداء الدين. وفي الوقت ذاته، فقد ساعدت نتائج هذه المعركة على إقناع الصليبيين في الشرق والغرب بحتمية الانتصار النهائي للمسلمين الذين استطاعوا تدمير قدرة المغول

والتي لم يتمكن أحد من إلحاق الهزيمة بها من قبل.

ومن المحتمل هنا القول ان وفاة الخان الكبير " منكو " في 11 آب / أغسطس سنة 1259، قد أضعفت من قدرة المغول، وحرمت هولاكو من حرية العمل نظراً لاضطراره لإبقاء قوات كبيرة في قاعدته في فارس. ولكن هنا أيضاً لا بد من القول ان جيوش المغول قد نظمت للعمل على محاور مستقلة ومتباعدة، فالقوات التي كان يقودها بيجو في أوروبا لم تكن مرتبطة بجيوش هولاكو. كما ان معركة عين جالوت سبقت هزيمة جيوش هولاكو على نهر تريك بمدة خمس سنوات. وعلى هذا يمكن اعتبار يوم عين جالوت هو بداية النهاية للهجمة المغولية التي دمّرت عاصمة الخلافة.

يمكن التساؤل بعد ذلك: ترى هل كان باستطاعة جيش مصر وجيش حلب والشام أن ينطلقا لنجدة بغداد عندما هاجمتها قوات المغول، وتدمير هذه القوات قبل أن تنال من عاصمة الخلافة؟

ثم هل كان للإسلام كيان لو أمكن للمغول تدمير قوات المسلمين في عين جالوت والاستيلاء على مصر التي أصبحت بعد خروج القوات منها محرومة من وسائل الدفاع؟. ثم ما هو موقف الإمارات الصليبية وسط المحيط الذي يسيطر عليه المغول لو انتصروا في عين جالوت؟

قد يكون من المحال وضع إجابة حاسمة، وكل إجابة لا تتجاوز حدود الاجتهاد الذي لا يستطيع إلغاء اجتهاد مضاد له. ولهذا فليس بالامكان تجاوز تقرير الوقائع والنتائج بصورتها الوضعية، وكما حدثت في إطاريها الزماني والمكاني...

بعد ذلك، يبقى السؤال الكبير حول الدروس العسكرية التي يمكن استخلاصها من معركة عين جالوت، فماذا عنها؟

ب – الدروس العسكرية:

1 – لعلّ أول ما يبرز في معركة عين جالوت، هو تصميم القائد على انتزاع النصر والإعداد المناسب للحرب. وتبرز أهمية هذا التصميم عند تصوّر المناخ العام الذي هيمن على العالم الاسلامي خلال تلك الحقبة التاريخية. فقد اجتاح المغول العالم الاسلامي في المشرق، ودمّروا جميع مراكز القوى التي جابهتهم، وأبادوا الحياة إبادة تامة. وقد خلق

ذلك كله مناخاً من الرعب لا يمكن إنكاره. ولهذا فقد كانت استجابة المظفر قطز هي النموذج الأعلى للقدرة على التحدّي، وهي الأمثولة الرائعة لتصميم القائد على انتزاع النصر، وهي أيضاً القدوة لرفض استراتيجية الهجوم غير المباشر وعدم الخضوع لها.

2 – وتبرز في معركة عين جالوت ارادة الحرب – بصرف النظر عن النتائج – في مجموعة من المعارك التي جابهها المغول عند اصطدامهم بالعالم الإسلامي. وقد صمدت بغداد وقاومت لمدة تزيد على الشهر، بالرغم من معرفة الخليفة المستعصم بالنتائج المحتملة لانتصار المغول. وفعلت مثل ذلك ميافارقين وحلب وحارم، وتبعتها قلعة دمشق. فكان ذلك برهاناً على إرادة القتال المتوافرة في العالم الاسلامي، والتي ترفض الخضوع لأعداء الدين من الأجانب.

3– ربط العلاقة السياسية بالمتطلبات العسكرية. فقد اضطر المظفر قطز إلى عقد شبه تحالف مع الفرنج، وكان عز الدين أيبك والناصر يوسف من قبل قد عقدا هدنة مع الفرنج لمجابهة خطر المغول. ولا يبرز ذلك إعطاء الأفضليات للحرب فقط، وانما تبرز أيضاً أهمية ربط التحرك السياسي بهدف الحرب.

4 – وتبرز معركة عين جالوت أهمية العامل الديموغرافي السكاني في مسرح العمليات. فقد كان الشعور العام مضاداً للمغول، معادياً لهم. ولهذا فقد برزت الثورة في دمشق واندلعت في تواقت واحد مع تحرك جيش مصر إلى فلسطين، وكان لذلك دوره الحاسم في توفير هامش التحرك الزمني الذي كان يحتاجه المظفر قطز لتنظيم قواته واجراء الاستطلاع المناسب ووضع الخطة الملائمة للمعركة. كما تبرز أهمية هذا العامل أيضاً عند تحرك " كتبغا " الى فلسطين، حيث أصبح محاطاً بالأعداء، مما حرمه من الدعم المادي والمعنوي، وجعله يتحرك في فراغ مجهول، مما ضمن للمظفر فرصة تحقيق المباغتة والإمساك بالمبادأة.

5 – وقد برهنت معركة عين جالوت أيضاً على أهمية الأرض في تقرير نتيجة المعركة، إذ أفاد المظفر من المرتفعات لإخفاء قواته بقدر ما أفاد أيضاً من محاور التحركات لنصب كمين أحاط به بجيش المغول ودمّره، وتتشابه خطة المعركة مع مخطط عمليات معركة حطين، من حيث تطويق جيش العدو وإبادته.

6 – الاهتمام بالأمن الإداري للقوات، ويظهر ذلك من خلال حرص المظفر قطز على التحالف مع الفرنج لضمان التأمين الإداري لقواته، بقدر ما يظهر أيضاً من خلال تفكير المظفر قطز للتوجه شمالاً من أجل ضرب مؤخرات المغول وعزل قوات كتبغا وحرمانها من محاور إمدادها الإداري.

7 – وتبرز في معركة عين جالوت الطريقة التي كان يطبقها قادة المسلمين ويستخدمونها في حروبهم، وهي احراز انتصارات صغرى قبل المعركة الحاسمة، وذلك لدعم الروح المعنوية لقوات المسلمين، مقابل تفتيت الروح المعنوية لأعدائهم. وهكذا فقد كانت لمعركة غزة أهميتها، ودورها المعنوي الذي يتجاوز كل أهمية مادية.

8 – وتظهر في معركة عين جالوت أهمية التنسيق بين الأعمال الثورية وأعمال القوات النظامية على مسرح العمليات. ومن المحتمل جداً أن تكون ثورة دمشق قد جاءت بصورة عفوية وكردّ فعل (دون تحريض خارجي من جانب المظفر قطز). وتكون صدفة الحرب هنا قد مارست دور التخطيط المنظم لتحقيق النتيجة، وهي ربط الأعمال الثورية بعمل القوات النظامية في تواقت واحد، مما يضمن الظروف المناسبة لتحقيق النصر وحسم الصراع.

وبعد، فليست هذه كل الدروس المستفادة، إنما هي أبرزها وأكثرها أهمية. ويبقى بعد ذلك العامل الحاسم في تقويم المعركة، وهو ما أمكن الوصول إليه من نتائج. ولعلّ في ذلك ما يضع معركة عين جالوت فوق كل تقويم.

المراجع

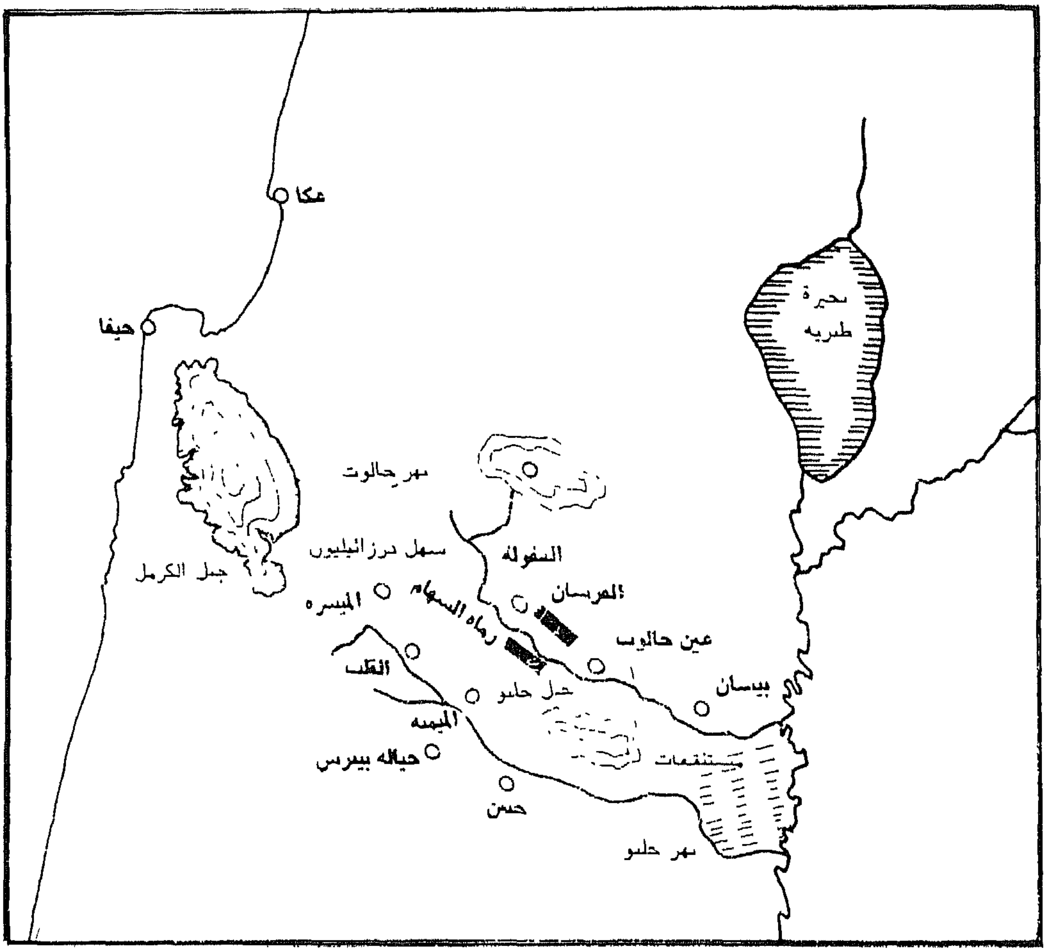
1 – بسّام العسلي " الأيام الحاسمة في الحروب الصليبية ". دار النفائس. بيروت. الطبعة الثالثة 1987. ص 165 – 200.

2 – د. محمد عمارة " معارك العرب ضد الغزاة ". المؤسسة العربية للدرسات والنشر. بيروت. الطبعة الثالثة 1988. ص 121 – 141.

3 – كارل بروكلمان " تاريخ الشعوب الاسلامية ". دار العلم للملايين. بيروت. ص 365.

4 – صبحي عبد الحميد " معارك العرب الحاسمة " مؤسسة الأبحاث العربية. بيروت. ص 128 – 140.

5 – د. السيّد الباز العريني " المغول ". دار النهضة العربية. بيروت 1981. ص 255 – 264.



مخطط معركة عين جالوت

المرجع: صبحي عبد الحميد " معارك العرب الحاسمة ". ص 140.

معركة عيندارة (1711)

تعتبر معركة عيندارة (1711) من أهم المعارك في تاريخ المقاطعات اللبنانية في عهد الامارة الشهابية. وقد اختلف المؤرخون في تحديد تاريخها، منهم من ذكر أحداثها في عام 1710 م، في حين أن البعض الآخر، وهو الأغلبية، حدّد العام 1711 تاريخاً لوقوعها. هذا وقد جرت وقائعها بن الحزبين: القيسي واليمني، إنتهت بهزيمة ساحقة للحزب اليمني، إن لم تكن قد أدت للقضاء عليه بشكل نهائي، وتصفية معظم قادته. والواقع أن السياسة التي انتجتها الدولة العثمانية في بيع الألقاب و " توزيع المناصب " كان لها الدور الكبير في نشوب معركة عيندارة.

إذ لم يستمر الأمير يوسف علم الدين طويلاً في حكم إمارة الشوف، حيث أنه ما كاد يستلمها في مطلع عام 1711 حتى عزل عنها في أيار من العام نفسه، إذ اضطر الوالي إلى استبداله تحت ضغط الأهالي وبسبب الاضطرابات التي حصلت في البلاد من جرّاء عزل الأمير حيدر، ولكنه بدلاً من أن يعيد الأمير حيدر إلى الامارة منح حليفه الشيخ محمود أبو هرموش لقب الباشوية (بتوغين) ونصّبه أميراً على تلك البلاد.

وباشر محمود باشا أبو هرموش حكم بلاد الشوف مستنداً إلى تحالف اليمنيين من جهة وإلى رضي والي صيدا من جهة ثانية، وضارباً عرض الحائط بإرادة أهل الشوف الذين كان جلّهم من القيسيين ومؤيدي الحكم الشهابي، ورغم ذلك فقد أساء ممارسة الحكم، مما أدى إلى نهوض القيسيين ضده، فتنادوا للثورة عليه وأرسلوا إلى الأمير حيدر أن يخرج من مخبئه ليقودهم، ففعل. وفي العام 1711 م، حضر الأمير حيدر إلى المتن فأقام في بلدة " رأس المتن " عند أحد أنصاره اللمعيين وهو المقدم حسين بن أبي اللمع، ومن هناك أخذ يجري اتصالات أانصاره القيسيين في مختلف أنحاء البلاد، فقدم إليه اللمعيون (المقدم مراد بن المقدم محمد بن أبي اللمع والمقدم عبد الله بن أبي اللمع) برجالهم، والعماديّون (الشيخ سيد أحمد بن أبي عذرا (العمادي والشيخ سرحان العمادي) برجالهم أيضاً، وهم من الباروك، وكذلك الخازنيون (الشيخ خازن الخازن شيخ بلاد

كسروان). فلم علم محمود باشا بظهور الأمير حيدر من مخبئه، والتفاف القيسيين حوله، بدأ يستعد للمواجهة الحاسمة. فاستدعى زعماء اليمنية إليه، فقدم إليه منهم سبعة من أمراء علم الدين الذين كانوا يقطنون غوطة دمشق ومعهم تسعماية مقاتل. كذلك قدم إليه اليمنيون من الغرب والجرد والمتن، وأنجده بشير باشا والي صيدا بعدد كبير من الجند، كما انجده نصوح باشا والي دمشق بعدد آخر، فأصبح عند محمود باشا نحو ثلاثة آلاف مقاتل. وتدليلاً على تحالف الواليين، والي دمشق ووالي صيدا، معه، زحفا برجالهما وهما على أهبة الاستعداد لنجدته، فعسكر بشير باشا – والي صيدا – بحرج بيروت، وعسكر نصوح باشا– والي دمشق – بصحراء قب الياس. كل هذه الاستعدادات قوّت من عزيمة محمود باشا أبو هرموش وجعلته واثقاً من النصر، فزحف بجيشه لملاقاة الأمير الشهابي وعسكر في بلدة " عينداره " عند المدخل الشمالي لبلاد الشوف، بينما ظل كل من بشير باشا ونصوح باشا في معسكريهما، وهما في الظاهر، مستعدان لأن يتدخلا لمصلحة محمود باشا عند احتدام القتال بين الفريقين، أما في الحقيقة فربما كانا ينتظران نتيجة المعركة المقبلة ليقررا، على ضوئها، موقفهما.

في هذه الأثناء، كان الأمير حيدر يستعد بدوره للقتال، وقد اجتمع إليه جيش قدّر بأربعة آلاف مقاتل من أنصاره ومؤيديه من الشوف وبلاد كسروان، وبدأ يضع الخطط لتنفيذ هجوم مباغت وصاعق على محمود باشا المعسكر بجيشه في عينداره. وقد حشد الأمير حيدر جيشه في ثلاث فرق، وتجمعت في كل من عين زحلتا ورأس المتن، وانطلقت إلى القتال على الوجه التالي:

– الفرقة الأولى، من أهالي الشوف (جباع الشوف والباروك والمناصف والغرب) ومن كسروان، بقيادته، ويعاونه الشيخ محمود تلحوق، وقد انطلقت من رأس المتن باتجاه عينداره ودخلتها من وادي الجوز الواقع شمالي شرقي البلدة.

– الفرقة الثانية، من أنصاره من القيسيين من أهل الشوف والجرد والغرب، وقد سارت نحو عينداره على طريق يصل عين زحلتا ببلدة عينداره من الغرب.

– الفرقة الثالثة، من اللمعيين من أهالي المتن، بقيادة المقدمين حسين وعبد الله اللمعيين، وقد انطلقت من رأس المتن باتجاه عينداره عن طريق " قطليح – جسر شمليخ "

الواقع شمالي غربي البلدة ودخلتها عن طريق ذلك الوادي.

إنطلق هذا الجيش من مواقعه في رأس المتن وعين زحلتا باتجاه عيندارة فوصل إلى مشارفها آخر الليل، وقبل انبلاج الفجر، حيث حاصرها من جهات ثلاث: الشمالية والشرقية والغربية. ثم أطبق على مداخلها عند الفجر مباغتاً أبا هرموش وحلفاءه اليمنيين من حيث لا يحتسبون، ودارت معركة غير متكافئة بين الفريقين عند مداخل البلدة، لم يمر على بدئها ساعات حتى أخذ اليمنيون يتقهقرون، ودخل القيسيون البلدة فأعملوا في أعدائهم قتلاً، حتى أنه لم يُنج من اليمنيين أحد، إذ قتل من اليمنيين ثلاثة من أمرائهم في ساحة القتال، وأسر أربعة هم: الأمراء يوسف وعلي ومنصور وأحمد أبناء علم الدين، كما أسروا محمود أبو هرموش نفسه. إقتاد الأمير حيدر الأسرى إلى الباروك حيث عسكر هناك، ثم أمر بقتل الأمراء الأربعة فانقطعت بذلك سلالة آل علم الدين، وقضي على الحزب اليمني قضاء مبرماً. أما محمود باشا فقد أبقى الأمير على حياته بعد أن قطع لسانه وإبهامه. ولما سمع والي صيدا ووالي الشام بما حدث لليمنيين وحليفهم محمود باشا على يد الأمير حيدر، عاد كل منهما أدراجه بلا قتال، أما الأمير فتابع سيره إلى الباروك فدير القمر حيث استعاد إمارته على بلاد الشوف.

وفي رسالة من القنصل " استيل، Estelle "، قنصل فرنسا في صيدا، إلى الوزير الكونت دي بوتشار تراين (Conte de Pontechartrain)، سكرتير الدولة الفرنسية، بتاريخ 23 أيار 1711، تفاصيل دقيقة وهامة عن هذه المعركة، يقول القنصل في رسالته:

" أقال (والي صيدا) الأمير يوسف (أبي اللمع) الذي كان قد أعطاه حكم الشوف بدلاً من الأمير حيدر، ووضع مكانه شيخاً درزياً يدعى محمود (أبو هرموش) الذي ساعده كثيرا في طرد الأمير حيدر من بلاد الشوف. ولكي يتمكن من الوقوف في وجه الأمير حيدر وحزبه في البلاد، فقد استقدم، من دمشق، زعماء الراية (الراية البيضاء)، وقد صدّق أولئك الزعماء (زعماء الحزب اليمني) وعود الباشا والتحقوا به ببيروت، وكان عددهم نحو ثلاثماية رجل بقيادة زعيمهم الأمير موسى (علم الدين) وكان معه إثنان من أبنائه وثلاثة أمراء آخرون. وتزايد عدد الملتحقين بالأمير المذكور كثيراً، حتى خيّل للباشا أنه بانضمام هؤلاء الدروز إليه سوف يكون سيد بلاد الشوف بكاملها.

" ولكن الباشا كان مخطئاً في تصوره... إذ أن الأمير حيدراً، عندما علم أن بلاده سوف تُعْطى للحزب اليمني، طلب حماية شيخ قوي جداً من بعلبك (لم يذكر القنصل اسم هذا الشيخ) فوافقه على ذلك وأرفقه بنحو ألفين وخمسماية رجل من خيرة المقاتلين.

" وسار الأمير حيدر نحو الشوف سراً بهذا الجيش الصغير الذي أخذ يزداد عدداً كلما تقدم الأمير في سيره، وذلك بسبب انضمام القيسيين أنصاره إليه. وفي أيام قليلة أصبح لدى الأمير نحو أربعة آلاف مقاتل، في وقت كان الباشا، رغم معرفته بتقدم الأمير، لا يبدي أي اهتمام بقوة خصمه، بل ويزدري بها.

" وفي الوقت الذي كان الباشا يصرّ على أن يعترف الشوفيّون بالشيخ محمودّ أميراً على بلادهم، أرسل كيخياه وجنده وأنصاره من اليمنيين، وكان عددهم نحو ألف وخمسماية مقاتل، إلى بلدة عينداره، على بعد ثماني فراسخ من بيروت، حيث ينتظر أن يقام هناك احتفال بتسليم البلاد الى الحاكم الجديد.

" وكان القاضي ومفتي بيروت قد ذهبا برفقة الكيخيا المذكور لتنظيم الأوراق اللازمة، وحين وصولهم إلى البلدة وجدوا الشيخ محموداً بانتظارهم، لكي يتسلّم منهم حكم البلاد. ومرت ثلاثة أيام كان المجتمعون ينظمون خلالها شؤونهم، عندما فوجئوا في اليوم الرابع، بالأمير حيدر وجنده يطوّقون البلدة (عيندارة). الأمر الذي فاجأهم مفاجأة بالغة. وأرسل الأمير حيدر إلى الكيخيا يطلب منه الانسحاب بجنده بعد أن أفهمه أن خصومه هم الشيخ محمود وحلفاؤه اليمنيون. وانسحب الكيخيا بجنده بعد أن وجد أن بقاءه في ساحة المعركة غير مستحسن، بينما هجم الأمير حيدر على أعدائه من الحزب اليمني ففتك بهم وترك منهم في ساحة المعركة نحو خمسماية قتيل بينهم أميران، كما أسر أميرين وفرّ أمير واحد، أما زعيمهم الأمير موسى فكان قد بقي بجانب الباشا ببيروت، وأما أبناؤه فقد قتل أحدهم وأسر الثاني الذي عومل بقساوة ووحشية حتى لقي حتفه.

" وعاد الباشا المذكور إلى صيدا ووصل إلى نهرها (الأولي)، والتُمس منه أن يعفو عن الدروز القيسيين ويعيد إليهم حكم بلاد الشوف. وأُلحّ عليه في الالتماس ليمنحهم هذا العفو على أن يدفعوا إليه كل ما يتوجب عليهم من ضرائب عن السنوات المنصرمة وعلى أن لا يؤتى بعد ذلك على ذكر الأمير حيدر، فوافق الدروز على ذلك لإرضائه.

" وفي هذه الأثناء كان الأمير حيدر بينهم، يحكمهم بلا ضجة، لأنه كان حريصاً على أن يحتفظ ببعض العلاقات مع الباشا، ولكنه، ظل دائما سيد تلك البلاد ".

المزايا العسكرية لوقعة عيندارة:

إن ما يلفت النظر في هذه الوقعة هو تلك اللمحات العسكرية الرائعة التي تميزت بها عملية الإغارة هذه، ويمكن تلخيصها بما يلي:

1 – سرعة القرار وسرّيته، فقد قرر الأمير حيدر أن يهاجم العدو في معسكره بعيندارة، وذلك قبل أن يقرر حليفاه بشير باشا ونصوح باشا السير للانضمام إليه ومساعدته، إذ أنه، في هذه الحالة، لن يعود بإمكان الأمير حيدر التغلب على خصمه الذي سيصبح أقوى منه بكثير.

2 – سرعة التنفيذ وسرّيته، وذلك ما أمّن للمباغتة كل عناصرها، فانتقل الأمير حيدر بجيشه، بسرعة فائقة، وبسرّية تامة، وسلك إلى معسكر العدو مسالك لم يألفها العدو ولم ينتظره منها، ثم أطبق عليه من جهات ثلاث، بينما كانت الجهة الرابعة صعبة المرتقى، فباغته من حيث لا ينتظر المباغتة.

3 – القضاء على قادة العدو كهدف رئيسي وذلك أسلوب عرفه العرب في معظم حروبهم، إذ كانوا يعمدون إلى قتل القائد فتنهار قوى الأعداء ويهزمون بعد أن يفقدوا قيادتهم. وهكذا، فقد كان أول هدف للأمير حيدر هو القضاء على زعماء العدو من آل علم الدين، فكان له ذلك بسرعة مذهلة، الأمر الذي مكّنه من النصر دون إطالة أمد القتال.

النتائج السياسية لوقعة عيندارة:

لقد كانت وقعة عيندارة حاسمة ومصيرية بالنسبة إلى الحكم في بلاد الشوف، إذ قضى على الحزب اليمني نهائياً، ولم تقم له قائمة بعد ذلك. واستقر الحكم للقيسيين في البلاد بزعامة الشهابيين، وقد أجرى الأمير حيدر، بعد انتصاره في عيندارة، تغييرات جذرية في الحكم وهيكليته في إقطاعات الامارة، مغتنما الفرصة كي يوطّد الحكم الشهابي على أسس متينة وثابتة. من ذلك، أنه أعاد توزيع الاقطاعات في الإمارة الشهابية على العائلات الإقطاعية التي ساهمت إسهاماً فعلياً في انتصاره بعيندارة. فأقطع آل عبد الملك إقليم الجرد ومنحهم لقب المشيخة وذلك لبلائهم الشديد في المعركة، وأقطع آل

تلحوق إقليم الغرب الأعلى ومنحهم لقب المشيخة بعد أنهى حكم الارسلانيين لذلك الإقليم بسبب انحيازهم إلى محمود باشا أبو هرموش، وأقطع آل النكدي إقطاعة الناعمة جنوبي بيروت، بالإضافة إلى إقطاعة " المناصف " التي كانت لهم، وأقطع آل القاضي إقطاعة جزين، وأبقى لآل حمادة الشيعة حكمهم على بلاد جبيل والبترون وأضاف إليهم جبّة بشري والمنيطرة، وذلك مكافأة لهم، إذ حرصوا عليه عندما لجأ إلى مغارة الهرمل في بلادهم بعد معركة غزير.

كذلك أبقى العائلات الإقطاعية المسيحية التي ناصرته في قتاله ضد اليمنيين، في الاقطاعات التي كانت لهم. فأقرّ للخازنيين حكم كسروان، وللحبيشيّين حكم غزير وضواحيها، ولآل الدحداح حكم الفتوح، ولآل عازار الكورة، ولآل الضاهر الزاوية، كما منح آل الخوري في رشميا لقب المشيخة (من الدرجة الثانية). أما هو، فأبقى تحت حكمه المباشر كلاً من بعقلين، ونيحا، وعماطور، وبتلون، وعيندارة، ثم قرّب إليه اللمعيين الذين آزروه في محنته ورافقوه في مخبئه فمنحهم لقب الامارة، وصاهرهم بأن تزوج ابنة كبيرهم المقدم حسين اللمعي. ثم أقطع أحدهم المقدم عساف إبن المقدم حسين المذكور إقطاعة بيت شباب.

وهكذا، فان وقعة عيندارة تعتبر حاسمة ومصيرية بالنسبة إلى الحكم في بلاد الشوف وجبل لبنان في مطلع العهد الشهابي. بل إن الشهابيين، بانتصارهم فيها، أرسوا دعائم حكمهم لهذه البلاد طيلة قرن ونصف من الزمن، فيما بعد.

وقد استقر الحكم للأمير حيدر، بعد هذه الوقعة، في إمارته كما أقرت ولايته على كل من مقاطعات جبل عامل جنوباً وكسروان من جبل لبنان شمالاً، وكان طيلة حكمه " حاكماً عادلاً حليماً كريماً، وأحبّته أهالي البلاد، وأرضى الدولة واستراح في ولايته إلى النهاية ". وقد حكم طيلة 26 عاماً، ولما أحسّ بنفسه العجز والمرض سلّم الامارة إلى ابنه الأمير ملحم عام 1729. إلا أنه توفي بعد ذلك بنحو ثلاث سنوات، أي عام 1732، عن عمر يناهز الخمسين عاماً.

المراجع

1 – العميد الركن د. ياسين سويد " التاريخ العسكري للمقاطعات اللبنانية في عهد الامارتين " الجزء الثاني. المؤسسة العربية للدراسات والنشر. بيروت. الطبعة الأولى 1985. ص 51 – 56.

2 _ Adel Ismail " Documents diplomatiques et Consulaires " Tome I . Page 91 et 94 - 97

3 – يوسف الدبس " تاريخ سوريا " الجزء السابع. بيروت المطبعة العمومية الكاثوليكية 1893 – 1905. ص 369 – 370.

4 – طنوس الشدياق " أخبار الأعيان في جبل لبنان " الجزء الثاني. ص 314 – 315.

5 – الأمير حيدر احمد الشهابي " لبنان في عهد الأمراء الشهابيين " الجزء الثاني والثالث من كتاب الغرر الحسان في أخبار ابناء الزمان). تحقيق رستم و البستاني. بيروت. منشورات الجامعة اللبنانية 1969. ص 12 – 13 (الجزء الأول)... وطبعة مصر. الجزء الثاني. ص 753 – 754.

6 - Toufic Touma, Paysans et Institutions feodales... Tome I. Page 71. (Beyrouth, publication de l'université Libanaise 1971)

7 - Edmond Rabbat, Formation Historique du Liban politique et constitutionnel, Page 177 (Beyrouth. publication de L'université Libanaise, 1973)

8 – عباس أبو صالح وسامي مكارم " تاريخ الموحدين الدروز السياسي في المشرق العربي " منشورات المجلس الدرزي للبحوث والانماء. بيروت. لا تاريخ. ص 154 – 156.

معركــة عين الزانـة

هي احدى معارك الجهاد الجزائري ضد الاستعمار الفرنسي. وتتميّز هذه المعركـة بكونها كانت هدفاً للهجوم على مركز مبنى ضباط الشؤون الأهليـة (السّـاس)، نظـراً لمـا يحتويه من وثائق ومعلومات عسكرية ومدنيـة. وقـد خـاض المجـاهدون الجزائريـون هـذه المعركة بما عُهد فيهم من بسالة واندفاع وحسن تنظيـم، بـالرغم مـن ضخامـة التحصينـات الدفاعية للعدو. وقد تمكن المجاهدون من احتلال هذا المركز، حيث أنزلوا العلـم الفرنسـي ورفعوا مكانه العلم الجزائري. بالإضافة إلى مـا تمكنـوا مـن الحصـول عليـه مـن الوثـائق الهامة والصور. وقد حدثت هذه المعركة بتاريخ 14 تموز / يوليو / 1959.

يقع مركز (عين الزانـة) علـى ارتفـاع ألـف واربعمائـة متر. وكـان أهـم مركـز عسـكـري للفرنسيين، في الجهـة الشـرقية. إذ أنـه يشـرف علـى مسـاحة شاسـعة تمتـد مـن سهول (عنابة) الى الحدود التونسية الجزائرية. وكان مركز (عين الزانة) يضـم أربعـة مبانٍ (منشآت) أسـاسـيـة، هـي: - مـبـنـى الـمـنـارة (الميـرادور) 2 - مبنـى المغـاوير (الكوماندو) حـيـث يقيم معظم الجند الفرنسي بالمركز، وأغـلـبـيـتـهم من اللفيـف الأجنبي (الليجيون ايترانجيه). 3 - مبنى القيادة الفرنسية. وهو مكتـب فرنسـي قديـم. 4 - مبنـى ضباط الشؤون الأهـلية (س. آ . س) وهو مزرعة فرنسية يملكها المعمـر (المستوطن الفرنسي - غراسيس). ونظراً لأهمية هذا الموقع فقد قررت قيادة جبهة التحرير الوطنـي تنظيم هجوم قوي ضده، مع تنفيذ مجموعة من العمليات الأخرى في الوقت ذاتـه ضـد كـل المراكز القريبة مثل (بـو مجار، وبو ْسردوك، وعين كرمة، والساقية، ولاكروا، وغيران، وغيرها، الخ...) وذلك بهدف إشغال هذه المراكز وعدم السماح لها بنجـدة مركـز (عيـن الزانة). وحدد يوم 14 تموز / يوليو / موعداً لتنفيذ هـذه العمليـة. وخصصـت كتيبـة مـن جيش التحرير لتنفيذها.

قام قائد الكتيبة بقيادة قواته وتنظيمها للمعركـة بعـد أن اصطحـب معـه أربعـة مـن رجـال (الـقوم) الـذيـن انضـمـوا حديثاً إلى جيـش التحرير وكانوا من قبل يعملون بهذا

المركز ذاته. وكان لوجود هؤلاء أهمية كبرى نظراً لمعرفتهم الدقيقة بنقاط قوة المركز وضعفه. وقد نقلوا ما كان يقوله قائدهم الفرنسي السابق، ذات يوم، بعد أن أنهى تنظيم المركز دفاعياً وأقام الملاجئ والخنادق فيه: " لئن تمكن الثوار من الوصول إلى المخابئ الأرضية فما علينا إلا أن نستسلم بدون دفاع ".

تمّ تقسيم قوة الهجوم للقيام بالهجوم على المراكز الأربعة في وقت واحد، وتولى قائد الكتيبة بنفسه قيادة مجموعة الهجوم على مركز مبنى ضباط الشؤون الأهلية (س. آ .س. أو الساس) نظراً لأهمية ما يحتويه من وثائق ومعلومات عسكرية ومدنية، ونظراً لأنه (الهدف الرئيسي) في العملية. وقد بدأ قائد الكتيبة بتنظيم قوة الهجوم اعتباراً من الساعة التاسعة (مساء 13 / 7 / 1959) فوضع الفرق في المواضع المختلفة. وكانت المسافة التي تفصل بين المركز وبين أبعد زمرة من زمر الهجوم لا تزيد على خمسين متراً. وهناك زمرة لم تكن تبعد عن المركز أكثر من خمسة عشر متراً عن منارة (مركز السّاس)، وهي غير المنارة الكبيرة المخصصة للمركز والتي كانت هدفاً مستقلاً خصصت له قوة خاصة للتعامل معه). وأمام المركز تمّ وضع خمسة مدافع بازوكا على بعد خمسة عشر متراً من (منارة مركز الساس)، ومدفعي هاون على بعد خمسين متراً، ومدفعين من عيار (57) مم على بعد مائة وخمسين متراً لمواجهة أي طارئ قد يظهر إلى الخلف من قوة الهجوم. ثم نظّم النسق الأول من قوة الهجوم على بعد 25 متراً وراء البازوكا. ثم نظّم النسق الثاني (الصف الثاني) على بعد خمسين متراً من النسق الأول. ومن ثم وضع النسق الثالث على بعد مائة وخمسين متراً من النسق الثاني. وعندما انتهت عملية التنظيم توقفت كل حركة، بانتظار إعطاء إشارة (بدء الهجوم). وفي هذا الوقت ذاته، كانت مفارز الهجوم الأخرى تقوم بعملية التنظيم للهجوم أيضاً. حيث تمّ وضع مدفع رشاش (عيار 127) في مواجهة المنارة الرئيسية (الميرا دور)، على بعد ثمانين متراً فقط من الهدف، وإلى جانبه مدفعي بازوكا ومدفعين من عيار (57 مم). وقامت بقية مفارز الانقضاض باحتلال مواقعها تجاه أهدافها، وكمن الجميع بانتظار شارة الهجوم والإصبع على الزناد.

* <u>الهجوم على مركز مبنى ضباط الشؤون الأهلية (الساس):</u> صدرت شارة بدء

الهجوم في الساعة الواحدة تماماً من صباح يوم 14 تموز / يوليو / 1959، وانطلقت نيران المدافع الرشاشة لمدة عشر دقائق، ثم بدأ الهجوم. وعند ذلك ظهر رشاش (هوتشكيز) 9 مم وأخذ في الرمي على المجاهدين يدعمه مدفعان عيار (24 مم)، وأخذ جنود العدو بالتصدي للهجوم بالقنابل اليدوية والبنادق الحربية. استمر تبادل إطلاق النار حتى الساعة الثالثة إلا ربعاً، وعند ذاك قام المجاهدون بالانقضاض على الفرنسيين. فكانوا يفجرون القنابل اليدوية في وجوههم. وأمكن تحطيم مقاومة الفرنسيين باستخدام مدافع البازوكا، حتى لم يبق إلا مدفع هوتشكيز، وكان سدنته يختفون وراء شباك. فأمر قائد الكتيبة أحد جنوده بتأمين حمايته ومشاغلة الرشاش. ثم تقدم نحو النافذة وقذف قنبلة يدوية تفجرت فقضت على سدنة الرشاش وأسكتت نيرانه. اندفع أحد المجاهدين بأمر من قائد الكتيبة فاقتحم باب المركز الرئيسي، وأعطيت إشارة إلى النسق الثاني الذي قام بتدمير الأسلاك الشائكة، وتقدم نحو المركز زحفاً حتى تمّ له احتلاله. وعندما انتهت عملية تطويق المركز من كل جهاته زحف المجاهدون ودخلوه، في حين بقي الصف الأول متمركزاً في أماكنه.

وبعد أن تمّ احتلال المركز (في الساعة 3,10) بدأت عملية جمع الوثائق وحمل الذخيرة والعتاد، والتي كان منها مدفع هوتشكيز مع صندوق ذخيرة وثمانية أشرطة من ذخيرة رشاشات (24 – 29). أما بقية الأسلحة قد (صهرت وذابت) بتأثير ارتفاع درجة الحريق. وأمكن الحصول من مكتب مدير (الساس) على مجموعة هامة من الوثائق والصور. علاوة على جهاز راديو ومسدس وبندقيّتين حربيتين وكمية كبيرة من الألبسة. وكان المجاهدون أثناء ذلك يتعثرون بجثث أعدائهم الفرنسيين الممزقة والمتناثرة في كل مكان. وصعد أحد المجاهدين فأنزل العلم الفرنسي، ورفع مكانه العلم الجزائري. وفي طريق العودة تمّ إضرام النار في سيارتين (ج. م. س) وسيارة جيب. وحمل المجاهدون جرحاهم، وهم سبعة أصيبوا بجراح خفيفة، واستشهد من المجاهدين إثنان فقط.

الهجوم على المنارة: تمركزت القوة المكلفة بالهجوم على المنارة (الميرادور) في مواقعها. وكانت هناك خيمة للجنود الفرنسيين إلى جوار المنارة. وما أن صدرت شارة بدء الهجوم حتى انطلقت نيران المدفع الرشاش والمدفع الثاني (عيار 57 مم). وظن

الحرس الفرنسيون لأول وهلة أن الأمر يتجاوز حدود رمايات بالنيران (للازعاج)، وأنه من الصعب وصول هذه النيران أو تأثيرها على المخابئ المحصنة التي حفرت تحت الأرض. وأنه من العبث التفكير بإمكان الثوار اختراق تلك الجدران التي أحكم بناؤها بالاسمنت المسلّح، وزودت بالدفاع المتين من المدفعية والدبابات. ولهذا انطلق صوت جندي فرنسي يقول ساخراً للمجاهدين (تعالوا... تعالوا...) ثم تقدمت دبابة باتجاه المدفع الرشاش وهي مسلّحة بستة مدافع (اثنان عيار 12,7) ومدفع عيار (30 – أميركي) ومدفع (57) ومدفع (75) وأشعل سائقها الضوء في وجه رامي الرشاش. ثم تقدم نحوه وحتى لم يعد يفصله عنه أكثر من خمسين متراً، وطلب إليه الاستسلام بقوله: " تعال يا بني، لا تضرب واصعد فوق الدبابة ". وأجابه رامي الرشاش بدفعة من نيرانه أفرغ فيها كل شريطه. واضطرمت النار في الدبابة بسبب انفجار ما فيها من الذخيرة. وجاءت في أثر الدبابة المشتعلة مصفحة، فأحرقها مدفع 56. وأعقبتها سيارة جيب بها أربعة جنود فرنسيين فتعامل معها المدفع الرشاش، ودمرها وقتل ركابها جميعاً. وسمع صوت سيارة أخرى لم تلبث أن ظهرت وكانت من نوع سيارات النقل (ج. م. س) كانت تحاول الخروج من الحصار. فوجه إليها أحد المجاهدين طلقات مدفع عيار (30 مم) فأوقفها. ثم تعامل معها الرشاش ولم يتركها حتى أصبحت طعمة للنيران. ووجه الرشاش بعد ذلك نيرانه إلى المنارة (الميرادور) حيث كان أحد الجنود الفرنسيين يحاول انتقاء موقع مناسب لتوجيه نيران رشاشه نحو المجاهدين؛ ووصلتة دفعة من نيران الرشاش فأردته قتيلا.

ثم هاجمت قوات الاقتحام المخيم الفرنسي، فأسرع الجنود إلى الملاجئ الأرضية. وطاردهم المجاهدون إلى تلك الملاجئ فدمروها فوقهم وأبادوهم عن آخرهم، وإلى هذا الحد لم يسجل أي رد فعل من قبل العدو الذي شلّته عن العمل قوة المباغتة. ولكن المجاهدين تابعوا عملهم بحذر. ولم يلبث رد الفعل هذا أن ظهر عندما وجه مدفع رشاش هوتشكيز نيرانه من نافذة بالمبنى القائم فوق مخزن السلاح. فهاجمه المجاهدون بالقنابل اليدوية، وقتل الجندي الفرنسي، وأخذ ما كان معه من الذخيرة. ولما رأى العدو أن الهوتشكيز قد توقف بدأ باستعمال مدفع الهاون من أحد الملاجئ الأرضية التي لم يكن

المجاهدون قد وصلوا إليها. فهاجمه المجاهدون بالقنابل اليدوية، ودمروا الملجأ ومدفع الهاون. وعندما أراد مدفع هاون آخر التدخل تم تدميره بنيران مدفع البازوكا. وبعد أن تمّ القضاء على الجهاز الدفاعي للعدو، وجد المجاهدون ثلاثة مدافع كبيرة (واحد من عيار 155 مم) ومدفعين (عيار 105 مم). ولما لم يكن بإستطاعة المجاهدين نقلها معهم، فقد عملوا على تدميرها بالبازوكا وبمدفع (57 مم). وجّه المجاهدون بعد ذلك قذائف (الانيركا) إلى المخيم فاشتعلت النيران في كل شيء ما عدا خيمة كبيرة كان بها عدد كبير من الجنود الفرنسيين. فطلب إليهم المجاهدون الخروج والاستسلام، ولما رفضوا ذلك وجهت إليهم قذائف (الانيركا) فاشتعلت فيهم النيران مع الخيمة، وتفجرت جميع الذخائر التي كانت هناك. وعلى أثر ذلك، أقبلت طائرتان (ب 26) وأطلقتا صواريخ (الشهب المضيئة). فاغتنم قائد القوة فرصة الإنارة التي أضاءت المخيم وأمر بالهجوم العام. فدخل المجاهدون قلب المبنى حيث وجدوا جثث القتلى الفرنسيين، وعلى رأسهم نقيب وملازم أول.

إنتهت العملية في الساعة (3,00) وجدير بالذكر أن هذه المجموعة كانت هي أول من أطلق النار حتى تتمكن من تدمير (المنارة) وحرمان العدو من فرصة كشف المجاهدين الذين كانوا يهاجمون كافة المراكز. ولم تعرف خسائر العدو بدقة، غير أنها كانت فادحة جداً بالرجال وبوسائط القتال.

الهجوم على مركز المغاوير (الكوماندو):

إحتلت قوة المجاهدين مواقعها – على نحو ما فعلته المجموعات السابقة – في مواجهة مركز المغاوير، حتى إذا ما أعطيت شارة الهجوم، بدأ المجاهدون بإطلاق نيرانهم. وكان المركز محاطاً بالأسلاك الشائكة، فاستخدم المجاهدون الحشوات المستطيلة (البانغالور) لفتح ثغرات في السياج الشائك وتدميره، وما أن بدأت المدافع والبازوكا والمدافع الرشاشة بتوجيه طلقاتها حتى اشتعلت النار بالمركز. ولم تمضِ أكثر من عشر دقائق حتى ظهر للمجاهدين أنه تمّ القضاء على القوة. فأسرعوا لاقتحام المركز ووجدوا حارس المدخل قتيلاً، كما وجدوا عدداً كبيراً من الجثث المتناثرة التي كان أصحابها يسرعون إلى الملاجئ فسبقتهم النيران وأسقطتهم. وهنا حاول مدفع الرشاش

التدخل، وما ان سمع المجاهدون صوت النيران وعرفوا مصدرها حتى أسرعوا إلى الرشاش ودمروه. ثم استخدموا قذائف البازوكا لتدمير البناء المقابل لهم، وواصلوا زحفهم وسط ألسنة اللهيب المتصاعدة، ووسط الدخان إلى أن اقتحموا المركز. وأثناء ذلك تمكن بعض جند العدو من الوصول إلى الملاجئ، فطاردهم الفدائيون وقذفوهم بالمتفجرات وقنابل (الانيركا) إلى أن تم تدمير الملجأ. وهنا بوغت المجاهدون بطلقات مدفع رشاش وجهها جند العدو إليهم من أحد الملاجئ، فتمّ إسكاته على الفور. ثم حمل المجاهدون ما عثروا عليه من أسلحة وعتاد. واستمرت عملية البحث وتطهير المركز من بقايا المقاومة حتى الساعة (3,10). وانسحب عندها المجاهدون بعد أن نفذوا مهمتهم بنجاح تام. ولم يصب أحد إصابات قاتلة، باستثناء ثلاثة جرحى كانت جراحهم طفيفة.

إقتحام مبنى القيادة: تمركزت القوة المكلفة باقتحام مركز القيادة في أماكنها. وصدرت شارة بدء الهجوم، فأطلق المجاهدون نيران أسلحتهم وقذفوا قنابلهم على مبنى القيادة الفرنسية، واندلعت النيران في البناء ولم يتمكن المجاهدون من اقتحامه بسبب اضطرام النار في كل جهة منه. ولما لم يصدر أي رد فعل عن العدو قام المجاهدون بتدمير جميع الملاجئ الأرضية المحصنة، ومدرعتين نصف مجنزرتين (هاف تراك) مسلحة كل واحدة منها بثمانية مدافع رشاشة. كما التهمت النيران مخازن الذخيرة ومستودعات الوقود ومدفع هاون (عيار 120 مم). وكان عدد جند العدو في هذا المبنى ستين جندياً أبيدوا عن آخرهم.

إجتمع المجاهدون بعد إنجاز مهمتهم، في النقطة المحددة للاجتماع، ومضوا جميعاً إلى قاعدتهم بصمت وكبرياء، وكلهم فخور بما قام به. واستيقظ أهل (عين الزانة) ليشهدوا ذلك المركز الذي كان مصدر رعب وقد تحول إلى أنقاض وخرائب لا تزال ألسنة اللهيب تتصاعد منها، ولا زال الدخان ينبعث منها أيضاً .

تميزت عملية (عين الزانة) بأنها أوضحت مجموعة من الحقائق، أبرزها قدرة المجاهدين ومقاتلي جيش التحرير الوطني على استيعاب الأسلحة الحديثة واستخدامها بكفاءة عالية. الأمر الذي كان ينكره عليهم القادة الفرنسيون من قبل. كما برهنت على قدرة قادة جيش التحرير على التخطيط الدقيق والمحكم وقيادة قواتهم بكفاءة عالية لخوض

المعارك المظفرة. وبرهنت بعد ذلك، على تلاحم جيش التحرير مع شعبه، إذ ما كاد المجاهدون يصلون بعد العملية إلى قاعدتهم حتى أقبل عليهم أهل عين الزانة يشاركونهم فرحة النصر، ويحملون إليهم الأطعمة – حتى أن فلاحاً لم يكن يمتلك إلا بقرتين، صمّم على ذبحها وتقديمها طعاماً للمجاهدين، مشاركة منه بالفرحة التي غمرت الجميع –. وتجدر الإشارة هنا إلى أنه كانت على القرب من عين الزانة عشر دبابات متوقفة على الطريق ومستعدة للتحرك على أي اتجاه. وقد حاولت هذه الدبابات التدخل عندما رأت العملية، غير أنها ما ان سمعت صوت المدفعية والاسلحة المضادة للدبابات التي كان يستعملها المجاهدون (الانيركا والبازوكا ومدافع 57 ألخ...) حتى أطفأت الدبابات أنوارها والتزمت الصمت، ولم تغادر مراكزها.

وتبقى عملية (عين الزانة) بعد ذلك من أبرز العمليات التي أظهرت مدى تطور جيش التحرير خلال هذه المرحلة من الصراع. سواء في مجال استخدام الأسلحة – أو في مجال التسلح ذاته – أو في مجال إدارة العمليات القتالية. وقد استخلصت القيادة الفرنسية هذه الدروس التي كان لها أثرها الكبير في التحولات الحاسمة سواء في مجال الصراع المسلح، أو في مجال الصراع السياسي.

المرجع

1 – العماد مصطفى طلاس والمقدم بسام العسلي " الثورة الجزائرية ". دار الشورى. بيروت. الطبعة الأولى 1982 ص: 625 – 630.

معركة غدامس

إهتم الايطاليون اهتماما خاصا بالمبادرة الى احتلال غدامس، بالنظر إلى موقعها القريب من الحدود التونسية الجزائرية، وخوف ايطاليا من محاولة الامتداد والتوغل الفرنسي في تلك المنطقة، ولذلك فما كادت تنتهي من احتلالها الأول لـ " نالوت " حتى وجهت حملة إلى غدامس، قامت باحتلالها يوم 27 أبريل / نيسان 1913. وكانت تلك هي المرة الأولى التي يدخل فيها الايطاليون غدامس. ولكن اشتعال الثورة في المناطق الجنوبية في أواخر 1914 – وبداية 1915، أرغم الايطاليين على المبادرة الى الجلاء عن غدامس، وسحب الحامية إلى " نالوت " التي لم تصلها إلا يوم 19 ديسمبر / كانون الأول 1914 عن طريق الحدود التونسية. ونظراً للمركز الهام الذي تتمتع به غدامس على الحدود، فقد عزّ الجلاء عنها على الايطاليين، فصدرت بعد عشرة أيام على الانسحاب التعليمات للحملة بالعودة إلى احتلال غدامس للمرة الثانية في 16 فبراير / شباط 1915، بعد أن دخلت في معركة مع المجاهدين في منطقة (المجزّم). وقد أراد الايطاليون بهذه الحركة أيضا تأمين انسحاب الحامية الايطالية في (غات). وفي اغسطس / آب 1915 أرغمت القوة الايطالية على الجلاء عن غدامس. ولم تستطع الوصول إلى طرابلس، عن طريق الجبل، فلجأت – كما فعلت في المرة السابقة – إلى الحدود التونسية، بعد أن تعرضت لمضايقات مستمرة وخسائر بالغة.

ولم يتمكن الايطاليون من احتلال المنطقة بصفة نهائية حاسمة إلا في سنة 1924، في نطاق العملية العسكرية الواسعة لاحتلال القبلة والجنوب. وقد استولى عليها الايطاليون يوم 15 فبراير / شباط 1924 بعد معركة " وادي الوطية ".

المرجع

1 – خليفة محمد التليسي " معجم معارك الجهاد ". ص 375 – 376.

حرفا " الفاء " و " القاف "

(ف) و (ق)

1 – فزّان

2 – القادسية

3 – قافلة هداسا

4 – قاقون

5 – القرضابية

6 – القسطل

7 – قس الناطف (راجع: معركة الجسر)

8 – قصر الشمع (راجع: معركة باب أليون)

9 – قصر العظم

10 – القطمون

معركـة فزان

" إن الإنسان لا يرهب الموت إذا كانت له قضية يستميت في الدفاع عنها ويفنى من أجلها، لأنها تخلق في نفسه القوة، وسيموت مطمئن الضمير حتما، إذا كان يحسّ بأن الحقيقة إلى جانبه، ومن هنا تأتي البطولة ": بطولة المجاهدين الليبيين الذين كان شعارهم الدائم: لا للعدو المغتصب، وهدفهم تحرير الأرض من المستعمر الغاشم. لهذا فقد استهانوا بالموت، وقدّموا نفوسهم قرابين على مذبح الحرية والكرامة.

لقد احتلت " فزان " مكانة هامة في العمل الاستعماري الايطالي، ومخططاته العسكرية والسياسية. فما كاد يتمّ اعلان الصلح بين ايطاليا وتركيا، وتوقّع معاهدة (اوشي – لوزان) حتى اخذت السياسة الاستعمارية تخطط، وتستعد لعملية احتلال " فزّان " والمواقع الداخلية من ليبيا، وتبرر السياسة الايطالية هذا العمل بالعوامل التالية:

1 – إن وجود قبائل محاربة في القبلة (طرابلس الغرب) والجنوب، وعند مشارق الاحتلال الايطالي، من شأنه أن يشكل تهديداً دائما للوجود الايطالي، في المواقع المحتلة.

2 – أثبتت التجارب الاستعمارية أن الثورة ضده، كثيرا ما اندلعت من المناطق الجنوبية التي تخرج عن حدود سيطرته والتي يتخذ منها الثوار، قواعد لأعمالهم الحربية ضد المحتلين. وفقاً لأسلوب تقليدي متوارث، عبر القرون والأحقاب.

3 – إن هناك أسبابا دولية تدفع إلى التعجيل بهذا الاحتلال، وتجنّب الدخول في مشاكل ومضاعفات سياسية، والعمل على تأكيد السيادة الايطالية على كامل التراب الليبي.

ومنذ بداية سنة 1913، وبعد التدخل السلمي الذي أعقب اتفاقية (اوشي – لوزان)، وقيام ايطاليا باحتلال بعض البلدان الداخلية، من طرابلس الغرب، اتجهت نية ايطاليا للعمل على احتلال فزان.

واستعدّت قيادة هذه الحملة التي اسندت إلى الكولونيل (مياني)، الذي اعتقد أنه

سيعيد بها أمجاد القائد الروماني (كورنيليو بالبو)، على أن تنطلق في المرحلة الأولى، نحو " سوكنه " ثم تتجه في المرحلة الثانية نحو " براك ودواخل فزان ". واختيرت طريق (سرت – سوكنة) عبر جبل السودة باعتبارها أقصر طريق وأكثرها توفّراً على المياه. وتجنب الايطاليون الزحف على فزان عن طريق القبلة، بسبب الموقف الثائر المعادي التي كانت تقفه القبائل فيها، ضد الوجود الايطالي، بقيادة المجاهد " محمد عبد الله اليوسفي ".

وفي يوليو / تموز 1913 حشدت في سرت قوة بقيادة (مياني) تتألف من كتيبتين اريتريتين وقسمين من مدفعية الجبال المحملة على الجمال، وفصيلة خدمات، وسبع محطات راديو – تلغراف، وقافلة كبيرة من الامدادات.

وجرى التمهيد لهذه العملية، باحتلال " سوكنة " في 22 يوليو. ثم اتخذت حملة " مياني " طريقها إلى سوكنة التي وصلتها في الثاني والعشرين من شهر أغسطس / آب. وأقامت بها مدة ثلاثة أشهر، للاستعداد ومراقبة الوضع في فزان، قبل المضيّ في التوغل، وتحركت منها في 6 ديسمبر / كانون الأول 1913 متجهة إلى الجنوب، نحو براك، عبر جبل السودة. وكان المجاهد " محمد بن عبد الله اليوسفي " في طليعة القادة والزعماء الذين رفضوا مبدأ قبول الصلح مع ايطاليا، وأعلن عزمه على الاستمرار في المقاومة واتخذ طريقه هو ورجاله نحو القبلة والجنوب. وقد كان محمد بن عبد الله في هذه الفترة، أبرز زعامة للمقاومة، إذ أخذ على عاتقه مهمة النهوض بعبء التصدي لقوات (مياني) الكبيرة القوية الزاحفة نحو فزان. وكان مياني يضع في حسبانه، في كل مرحلة من مراحل حملته، هذه القوة التي نظمت حول محمد بن عبد الله اليوسفي. وكان وجود هذه القوة في خطوط الحملة من الأسباب التي أدّت إلى إطالة إقامته في " سوكنة ".

وقد تصدى محمد بن عبد الله اليوسفي لهذه الحملة. واصطدم بها أول مرة في (معركة إلشب) التي جرت يوم 10 ديسمبر / كانون الأول 1913. وكانت إحدى المعارك الضارية العنيفة. وتحوّل المجاهدون على أثرها إلى الجنوب للاستمرار في اعتراض طريق القوة الزاحفة، وقرب آبار (أشكدة)، وعلى مسافة قريبة من براك، جرت يوم 12 ديسمبر 1913 معركة أخرى عنيفة ضد قوات (مياني). وتقول الموسوعة العسكرية الايطالية: (أن المعركة التي استغرقت بضع ساعات قد أدارها

الطرفان بشدة وعنف). واضطر المجاهدون إزاء ضغط القوة الكبيرة الزاحفة إلى التخلّي عن براك، والاعتصام بالمناطق المجاورة. واحتلت القوة الايطالية براك. ولكنها لم تشعر بالإطمئنان إلى هذا الاحتلال، ووحدات المجاهدين بقيادة اليوسفي ما تزال قريبة منها.

وكان المجاهدون قد تجمعوا قرب (محروقة). مما اضطر مياني إلى أن يترك قوة كافية في براك، ويتحرك بقواته الكبيرة الباقية محو محروقة، حيث جرت بها يوم 23 ديسمبر معركة عنيفة حاسمة، استشهد فيها محمد بن عبد اللـه اليوسفي. وكانت هذه من المعارك الهامة في تاريخ الجهاد، وتعتبر أيضا من المعارك الحاسمة في تاريخ الاستعمار الايطالي، حيث تمكنوا على أثرها من السيطرة المبدئية على المنطقة.

وظّن مياني أنه قد حقق لنفسه ولأمته أمجاد العصر، واستولى فعلا على " سبها " في 17 فبراير / شباط 1914 وتحوّل إلى " مرزوق " في 27 منه، حيث وصلها في 3 مارس / آذار. وما كاد ينتهي من هذه العمليات العسكرية حتى بدأت المشاكل في الظهور. وكانت أولها مشكلة المواصلات، فأقصر طريق هي طريق (غريان). ولكن لا بد لهذه الطريق أن تخترق القبلة، موطن القبائل المتزعمة لحركة المقاومة ضد الايطاليين. وكان الكثير من أهالي القبلة، قد نزحوا الى مناطق سرت وزلّة. وضاقت ايطاليا ذرعاً بهذا النزوح نحو الشرق، وقدرت العواقب الناتجة عنه، وما يمثله من تهديد لخطوط المواصلات التي تربط الحملة بالقواعد التي أنشئت في سوكنة وسرت، مما سيؤدي في النهاية إلى عزلها، وانقطاعها عن الساحل ويمكّن المقاومة من الانفراد بها. وكان ذلك بالفعل مخططاً قائما في ذهن قادة حركة الجهاد في تلك الفترة.

ولم تملك ايطاليا إزاء هذا التهديد إلا أن تبادر إلى القيام بعمليات عسكرية في منطقة سرت، فقررت العمل على احتلال " النوفلية " ثم الزحف بعد ذلك إلى " مرادة " ومنها إلى " سوكنة "، وذلك لتطهير المنطقة من مراكز المقاومة التي أخذت تتجمع في هذه المناطق. ولكن المقاومة القوية – كما تقول الموسوعة العسكرية الايطالية – التي واجهتها القوات الايطالية سواء في النوفلية أو في العويجة، قد أرغمتهم على التخلي عن أي فكرة في التوسع.

وقد شجع ذلك المجاهدين على متابعة هجماتهم على قوات العدو، وقاموا فعلا في 7 يوليو / تموز 1914 بمهاجمة سريّة ايطالية بين العويجة وسلطان، فقتلوا منها ضابطين و 16 جندياً وجرحوا 10 آخرين، وبذلك فشلت القوات الايطالية في تحقيق سيطرتها على منطقة سرت.

وأخذت الأوضاع تزداد سوءاً، بعد الانفجار الفجائي للحرب الأوروبية. وقد استغلّ المجاهدون هذا الظرف، أحسن استغلال، واستفادوا منه كثيراً، في إنهاك القوة الايطالية وإضعافها. وكان لهذا العامل أثر هام على الأحداث الوطنية التي جاءت بعده، بالنظر إلى الموقف الذي التزمته تركيا والمانيا في ليبيا في هذه المرحلة والذي كان يهدف في المقام الأول إلى خلق متاعب لايطاليا في مستعمراتها. وفعلا فان المجاهدين ما كادوا يطمئنون إلى مساندة تركيا وألمانيا، ويشعرون بالظروف الحرجة التي تواجهها ايطاليا، حتى مضوا في إشعال الثورة إلى أقصى حدّ ممكن، وتمكنوا فعلا من تهديم الصرح الاستعماري الذي حاولت ايطاليا أن تقيمه وتعليه في تلك الفترة. وقد تعذر على ايطاليا الحصول على قوات دعم من أريتريا، ووجد الكولونيل مياني نفسه في ظرف عسير لا يحسد عليه، فحاول أن يعالجه ويتغلب عليه، بتجنيد بعض العناصر من أهالي فزان، وأن يشكل منهم فرقة تتولى المساعدة في المحافظة على الوضع. ولكن خطته أيضا أصيبت بالفشل، إذ كانت هذه الفرقة بالذات – كما تقول الموسوعة العسكرية الايطالية – المنطلق الأول للثورة، كما يبدو ذلك، من خلال الدور الذي لعبته في التمكين للمجاهدين من احتلال قلعة " سبها "، وإبادة القوة الايطالية على نحو ما نرى سيراً مع تتابع الأحداث...

ومع كل هذه الظروف المنذرة بالشر فلم يتخلّ الكولونيل (مياني) عن أحلامه، في توسيع الاحتلال الايطالي وترسيخه، فاحتل (اوباري) وبعد أشهر قليلة من ذلك أرسل قوة بقيادة (جيانيني) لاحتلال " غات " خوفا من أن يقدم الفرنسيون على احتلالها، وقد استولت القوة الايطالية على غات في 12 اغسطس 1914.

وبذلك استطاعت قوات مياني أن تحقق أكبر توسع ممكن في منطقة فزان. ولكنها أصيبت أيضا بأكبر تشتت ممكن، إذ انتشرت وتوزعت على عدة حاميات وعدة مواقع، وكان هذا الانتشار سببا من أسباب الكارثة التي حلّت بها. وكان محمد بن عبد الله

اليوسفي – قبل استشهاده – يعتمد على هذا العامل ويؤمن بأنه سيكون كفيلا بالقضاء على القوة الايطالية، الأمر الذي تحقق فعلا فيما بعد.

وفي نهاية أغسطس كانت طرق الاتصال بالساحل مقطوعة تقريبا. وتعذر على حكومة الولاية، القيام بأي عمل لانقاذ الوضع المتداعي. فأصدرت التعليمات بتركيز كافة الحاميات في " براك "، وكانت الثورة قد انتشرت في " فزان " منذ نهاية سبتمبر / أيلول 1914، وشملت (واو) و (زلّة) ومناطق (سرت). ويلاحظ هنا، أن كافة القوى الوطنية، في الغرب والشرق والجنوب، قد ساهمت كلها، في إذكاء هذه الثورة الشاملة التي انطلقت شرارتها من المقاومة الأولى التي قادها محمد بن عبد الله، بحيث يمكن اعتبارها نتيجة لموقفه وتصعيدا له.

وقد جمع الكولونيل مياني قواته في براك، ثم نهض على رأسها للقيام بحملة تأديبية ضد الشاطئ، على أمل السيطرة على الوضع، واسترداد مكاسبه الضائعة، إلا أن المجاهدين استغلوا فرصة خروجه من سبها، وهاجموا قلعتها (القاهرة) واستولوا عليها بمساعدة الحرس الفزاني الذي كان قد جنّده مياني نفسه. وقد اضطرت هذه العملية الناجحة مياني إلى الانسحاب، في مساء اليوم نفسه (28 نوفمبر 1914) إلى سوكنة رأساً، إثر استلامه لنبأ وقوع سبها في أيدي الوطنيين، دون أن ينتظر وصول حامية غات التي كانت قد صدرت إليها قبل ذلك التعليمات بالتحول إلى مرزق.

وقد استنجد (مياني) بحكومة طرابلس لإرسال المزيد من النجدات لتأمين عمليات الانسحاب، وإنقاذ الحاميات، ووصلت فعلا في 8 ديسمبر / كانون الأول 1914، قوات تتألف من سريتين أريتريتين وقسم مدفعية وستمائة جمل. وبدأت على الفور عمليات الانسحاب يوم 10 ديسمبر بالنسبة للقوات العاملة تحت إمرته. أما القوات الموزعة على الحاميات في " غات " و " أوباري " و " مرزق " فقد كانت معزولة تماما. وقد بلغته الانباء أثناء الانسحاب بإبادة حامية (اوباري) وتدميرها من قبل طوارق المنطقة. وكان واضحا أن نفس المصير كان ينتظر حامية " مرزق " فأرسل إليها فيلقاً من سوكنة اقتصرت مهمته على انقاذ (العناصر البيضاء) من الحامية، أي العناصر الايطالية، أما بقية المجندين (الملّونين) فقد تركوا تحت رحمة الظروف، وقد تولوا حماية المدينة حتى

سقطت في أيدي الوطنيين.

وذلك مثل من الشهامة الايطالية العسكرية التي كان يتحلّى بها " مياني " وضباطه. وهي على كل حال تدل على مدى الفراغ الذي تحكّم في القوات العسكرية، ومدى انهيار الأوضاع حولها بحيث أفقدها رشدها. أما حامية غات فقد فرّت إلى " غدامس " ولم تستطع أن تواصل طريقها إلى الساحل عبر الأراضي الليبية، نظراً لسيطرة الثوار على كافة الطرق والمنافذ فلجأت إلى الحدود التونسية، ووصلت إلى طرابلس في أوضاع سيئة.

ووصل مياني إلى " مصراتة " في 25 ديسمبر / كانون الأول 1914، بعد أن تعرض لهجوم عنيف شنّه المجاهدون في " أبي نجيم ".

وبذلك انتهت تلك المغامرة الجريئة، وتبددت تلك الهالة من المجد التي أحيط بها (مياني) وحملته التاريخية، وانهارت الأحلام والآمال، وأدركت ايطاليا أن عملية احتلال الداخل ليست بالسهولة التي كانت تتصورها، وتلاحقت الأحداث بعد ذلك بحيث لم تؤدِّ إلى ضياع " فزان " فحسب ولكن أدت إلى ضياع طرابلس الغرب بكاملها تقريبا، وتحتم على الايطاليين الجلاء عن الحاميات التي أقاموها، خاصة في منطقة القبلة والجبل الغربي. وقد استمرت الأحداث آخذة برقاب بعضها خلال هذا العام حتى انتهت إلى معركة القرضابية، التي كانت أفدح ضربة وجهت إلى الاستعمار الايطالي، منذ نزوله في الأراضي الليبية. وكانت هذه المعركة نتيجة للهزيمة التي مني بها الايطاليون في فزان. تلك الهزيمة التي حزّت في نفس الكولونيل (مياني) وأراد أن ينتقم لها بعمليات حربية واسعة في منطقة سرت، وعمليات أخرى في القبلة. وقد انتهت الأولى إلى الهزيمة التاريخية المعروفة في " وادي مرسيط "، وانتهت الثانية إلى تلك الكارثة العظمى التي أصيب بها الوجود الايطالي في ليبيا كلها إثر معركة " القرضابية " التي سجلت نهاية الكولونيل على المسرح الاستعماري.

ولم تعد فزان إلى منطقة الاهتمام الايطالي الا عند الشروع في العمليات العسكرية التي بدئت في سنة 1922، وعرفت باسم عمليات الاسترداد لطرابلس الغرب التي قادها (غراتسياني ومتزتي وبتساري) وغيرهم ضدّ المناطق الغربية الجبلية وترهونة ومصراتة ورفلة والقبلة. وقد تجنب الايطاليون في هذه المرة الخطأ السابق، فلم يتجهوا

إلى احتلال فزان، الا بعد أن خلصت لهم السيطرة على المواقع الداخلية من طرابلس الغرب والتي اتخذوا منها مواقع أمامية للزحف على فزان، وفقاً للأسلوب العسكري الذي يعتمد على تحريك القوات من مختلف الجهات، لتلتقي في النهاية عند الهدف المقصود.

وقد تجنبوا بصفة خاصة، التزام الطريق الواحد الذي سار عليه الكولونيل مياني، كما تجنبوا التوغل في المناطق النائية قبل السيطرة على الجفرة وصحراء سرت، ثم القبلة. ومن المعروف أن الحرب ظلت قائمة في القبلة حتى سنة 1929 تتولاها قبائل من الزنتان والرجبان والمشاشي وورفلة بقيادة الزعامات التي تحولت من المناطق المحتلة، في الجبل وورفلة، التي تركزت في هذه الفترة في الجنوب، وتولّت حركة المقاومة فيه. ومن المعروف أيضا أن الحرب في الجفرة قد استمرت حتى سنة 1928 ولم تنتهِ الا بعد معركة " بئر تاقرفت ". وهكذا يمكن القول بأن الايطاليين، لم يتجهوا الى فزان في هذه المرحلة، إلا بعد أن سيطروا على هذه المواقع سيطرة تامة، واطمأنوا إلى اتصالهم بكافة القواعد التي أنشأوها بمختلف الأماكن، وبعد أن استظهروا كافة الأخطار السابقة.

ويمكن من الوجهة التاريخية اعتبار المقاومة في فزان، امتداداً للمقاومة التي جرت في الجبل الغربي والقبلة والجفرة، إذ تولتها في الواقع نفس القيادات ونفس العناصر التي كانت تتألف من أولاد سليمان والقذاذفة والمغاربة (الرعيضات). وقد اتخذوا مواقعهم في مناطق زويلة، أم الأرانب وسبها، وأولاد أبي سيف والمشاشي والجعافرة في الشاطئ الشرقي، والزنتان والرجبان وورفلة وغيرهم في مرزق.

وضد هذه القوات تحركت قوات (غراتسياني) في نهاية 1929، عقب عملياتها في القبلة. وقد تحركت قوات ايطالية كبيرة من درج والشويرف والجفرة، نحو الشاطئ وتمكنت من احتلال " براك " في 5 ديسمبر / كانون الأول، ثم أدري وبرقن والشب وسبها، وقد لجأ المجاهدون إلى " واو " الكبير. بعد أن أنشأ الايطاليون حاميات قوية في الشاطئ وسبها، تحولت قوة ايطالية إلى أم الأرانب. وفي 13 منه تمكنت القوات الايطالية من الوصول إلى (واو) الكبير، بعد أن قام الطيران الايطالي بملاحقة المجاهدين، وإلقاء القنابل على قوافلهم وتجمعاتهم النازحة نحو الحدود، واستمرت القوة الايطالية في

مطاردتهم وملاحقتهم حتى يوم 12 بواسطة الطيران. بينما واصلت القوات الكبيرة بقيادة الجنرال (غراتسياني) زحفها نحو مرزق التي احتلتها في 23 يناير / كانون الثاني. ورفع العلم الايطالي عليها في اليوم التالي بحضور (بادوليو) الذي كان قد عيّن والياً عاما على ليبيا بعد توحيد المستعمرتين، وهكذا لم تتمكن ايطاليا من العودة إلى مرزق إلا بعد خمسة عشر عاما من احتلالها الأول لها. وتحرك غراتسياني نحو بقية تجمعات المجاهدين في المنطقة، قاصداً " اوباري " التي احتلتها في 2 يناير / كانون الثاني 1930. واستمرت ايطاليا في ملاحقة الثوار بواسطة الطيران حتى تمكنت في 24 فبراير / شباط 1930 من احتلال " غات ". وبذلك تمت لها وللمرة الأولى في سنة 1930 عملية احتلال فزان، وانتهت بذلك المقاومة في طرابلس الغرب.

وقد أبلغ الجنرال (غراتسياني) بقرار تعيينه نائبا للوالي في " برقة "، وذلك للاستفادة من خبراته الاستعمارية التي اكتسبها في حروبه بطرابلس الغرب، للقضاء على المقاومة في الجبل الأخضر التي كان يقودها ويتولاها شيخ الشهداء " عمر المختار ".

المراجع

1 – خليفة محمد التليسي " معجم معارك الجهاد ". ص 386 – 395.
2 – مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الايطالي.

معركـة القادسية

عندما يفتح التاريخ العربي خزانة كنوزه وجواهره، تلتمع أمام أعين الناظرين إليها لؤلؤة مطعّمةٌ بمختلف أنواع المعادن الثمينة من الذهب والماس والفيروز، تلك اللؤلؤة هـي ذاتها " معركة القادسية "، وليست حبوب الماس والذهب والفيروز التي تزيّنها، سوى أولئك القادة والجنود العرب والمسلمين الذين أثبتوا أن دماءهم أغلـى مـن كـل مـا فـي الدنيـا مـن المعادن الثمينة، والجواهر النادرة.

فبعد انتصار العرب والمسلمين في معركة البُوَيب على أعدائهم الفرس، كان لا بـدّ من إكمال الطريق للقضاء على دولة الأكاسرة قضاءً تاماً. وجاءت معركة القادسيّة لتحقـق هذا الهدف الكبير. وعندما استشار الخليفة عمر بن الخطاب أهل الرأي فيمن يولّيــه حـرب الفرس، أشاروا عليه " بسعد بن أبي وقّاص "، وقالوا عنه " إنه الأسد عاديـاً "، فسلّم إليـه قيادة الجيوش الاسلامية في تلك الحرب الفاصلة، التي اطلق عليها العميد الركن د. ياسـين سويد اسم : " معركة العبور إلى العراق ".

ومما لا شك فيه، أن هذا الإجماع الذي تمّ لسعد، كان له من المقدّمات مـا يـبرّره، ذلك بما عرف عن هذا الجندي الكبير والمسلم العظيم من صفـات ومـيّزات قبـل أن يتولّـى مقاليد هذه القيادة، كما ثبت فيما بعد، أن هذا الإجماع كان في موضعه. فقد كان سعد حسن الظن بكفايته ومقدرتـه حيـن مضـى لمهاجمـة دولـة الأكاسـرة، وحيـن راح يدفـع الجيـوش العربية البدائية من بلد إلى بلد، وينتصر بها في معركة بعد معركة، ويرفـع رايـة الإسـلام ولواء العروبة، ويكتب سطوراً خالدة في كتاب البطولة العربية.

لقد كان " سعد بن أبي وقّاص " من شباب النبي محمد – صلّى الله عليـه وسلّم – الذين استجابوا لدعوته وتأثروا برسالته واغترفوا مـن حسناته وبركاتـه، فصفـت نفوسـهم وصحّ إسلامهم، واشتدّت في الجهاد عزيمتهم وانصقلت في غمـار الأحـداث شـخصياتهم، فكانوا أبطالاً في ساحات الوغى وساعات الشدّة، يقبلـون علـى المـوت فيفـرّ المـوت منهـم، وتـنـتصـر قلّـتـهـم علـى أضعـاف عدوّهـم... وبهـذا هزمـوا المشـركين وقضـوا علـى

المرتدّين وأزالوا دولة الروم وقوّضوا سلطان الفرس، وصاروا من أصحاب الفواصل في التاريخ.

ان في صفحات سعد بن أبي وقّاص صفحات مجد وفخار، تسجّل كل منها رحلة من حياته الحافلة، وتشهد بعظمة نفسه وقوّة إيمانه وشدّة بسالته ووفرة كفاءته. وليس هذا بمعزلٍ عن رفاقه الجنود الذين كانوا يحتذون حذوه في الشجاعة والايمان والإقدام، فيضيفون صفحة من العظمة إلى صفحات التاريخ المشرقة.

نشأ سعد بن أبي وقّاص في الجاهلية حرّ الفكر، متألّق الذكاء، موفور الكفاءة، وكان يضيق بطباع الجاهلية وينفر من عبادة الأوثان، ويتحسس طريق الحق وسبيل النجاة، فما إن طرق سمعه ووعيه داعي الإسلام حتى استبان بقلبه الرشاد وأحس من أعماقه جلال الدعوة وصدقها، فبادر إليها مبادرة الظمآن للماء، وقد روي عنه أنه قال: " رأيت في المنام قبل أن أسلم بثلاث ليالٍ كأنّي في ظلمة لا أبصر شيئاً... إذ أضاء لي قمر فاتبعته، فكأني أنظر إلى من سبقني إلى ذلك القمر، فأنظر إلى زيد بن حارثة وإلى علي بن أبي طالب وإلى أبي بكر الصدّيق، وكأني أسألهم متى انتهيتم إلى ها هنا قالوا وبلغني أن رسول الله يدعو إلى الإسلام مستخفياً، فلقيته في شعب أجياد وقد صلّى العصر فأسلمت ".

وهكذا كان سعد بن أبي وقّاص في مقدمة من أسلموا لله، وكان من العشرة الأبرار الأطهار الذين وُعِدُوا الجنّة. كانت صناعة سعد رمي النبل، وكان ماهراً في الرمي، لا يخطئ ولا يخيب، وقد رمى يوم " معركة أُحُدْ " ألف سهم. وكان رسول الله – صلّى الله عليه وسلّم – يقول: إرْمِ فداك أبي وأمي، إرْمِ أيها الغلام الحزور " أي الصائب ".

وكان سعد يقول: " إني لأوّلُ العرب رمى بسهم في سبيل الله... ". لقد صقلت البادية شخصية سعد بن أبي وقّاص، وتوّجها الايمان بالاسلام فقويت روح الجهاد، وأتّقدت نار الحميّة والبسالة، ولما وطئت قدمه ساحة الحرب أبلى البلاء الحسن، وأبدى الشجاعة النادرة والكفاءة الباهرة التي أهّلته لقيادة الجنود ووضع الخطط، وأخذت شخصيته العسكرية تتكشف وتعظم، وأخذت كفاءته في القيادة تنمو وتزدهر، حتى صار غازياً

لأعظم دول زمانه وقاهراً لأكبر جيوش عصره.

ومن العجب أن هذا القائد البدائي لم يتعلم الحرب في مدرسة، ولم يضع الخطط على الورق، وقد برع في قيادته إلى درجة يستوي عندها مع كبار العسكريين في جميع الأزمان، وقد أبدى من المرونة والثبات والحنكة ما يجعله نداً لأعظم القادة في التاريخ كله، وقد انفرد بتنفيذ مبادئ الحرب قبل أن يعرفها العالم الحديث... فتراه في معاركه يبدأ بدراسة موقف العدو، ويجمع المعلومات من مصادر شتّى، ثم يبدأ بالسيطرة على الموقف لتكون لقواته ميزة " المبادأة "، ويمعن التستّر ليحافظ على مبدأ المفاجأة، ويبعث العيون لكشف تحركات العدو حتى يضمن " الوقاية "، وحين يبدأ الهجوم تراه يضرب بشدّة ليكون في الساعة الحاسمة أكثر قوّة وأعظم جنداً محقّقاً مبدأ " الحشد ". وكثيراً ما شبّهه بعض الباحثين العسكريين بالمارشال " ويفل " في تقدّمه على المعسكرات الايطالية في الصحراء الغربية سنة 1941 في الحرب العالمية الثانية، فحقّق له شهرة واسعة.

إمتاز سعد بن أبي وقّاص، خلال خوضه للكثير من المعارك، بثلاث ميزات على جانب كبير من الأهمية:

الأولى: دقّة التصويب، وقد اعترف له الرسول الكريم بذلك.

الثانية: شدّة الثبات في المواقف والمواقع الحرجة.

الثالثة: وفرة الفطانة... ولهذا كان النبي – صلّى الله عليه وسلّم – يكلّفه هو وعلي بن أبي طالب والزبير بأعمال المخابرات وتقصي خطط المشركين ونواياهم.

هكذا، وبناءً على استشارة كبار المسلمين عهد عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبي وقّاص بقيادة حرب العراق، وناط به غزو فارس، وأسرّ إليه بوصيته التالية:

" إني ولّيتك حرب العراق، فاحفظ وصيّتي فانك تقدم على أمر شديد... فعوّد نفسك ومن معك الخير، واستفتح به، واعلم أن لكل عادة عتاداً، فعتاد الخير الصبر "... وأضاف عمر بن الخطاب قائلاً في وصيته: " يا سعد: عليك بالثبات عند الشدائد، والتجلّد في المكاره، فأصبر وصابر، والله مع الصابرين ".

وبعد ذلك، جاءه كتاب من أمير المؤمنين، يتضمن نوعاً من " الأوامر "

والتوصيات، يقول بما معناه:

" لا تتوغل في أرض العدو، واتخذ خطة الدفاع الهجومي في منطقة الحدود، العدو سيلقى صعوبة ومشقّة في الوصول الى مواقعك. إذا انتصرت تكون قضيت على قوتهم الأساسية ويصعب بعدها أن يعدّوا قوة مثلها، واذا انهزمت يكون في استطاعتك الانسحاب بسهولة على أرضك التي تعرفها جيداً ويجهلونها هم ".

كما جاءته أيضاً وصيّة قيّمة من جندي باسل، عرك هذا الميدان بالذات وكانت له فيه تجارب وخبرات، هو المثنّى بن حارثة الشيباني الذي فاضت روحه من جروحه بعد معركة " الجسر "، وكانت وصيّة المثنى لسعد ان لا يتوغل في بلاد العدو بل يصمم على قتالهم عند الحدود.

وبقيت الاتصالات مستمرة بين سعد بن ابي وقّاص والخليفة عمر بن الخطاب، حتى ان سعد، كتب الى عمر يصف له " القادسية " بين الخندق والعتيق في العراق، حيث اتفق أن تكون موقعاً للمعركة القادمة.

وهكذا أقام سعد في القادسية شهراً دون ان يتحرك إليه العدو، في الوقت الذي لم تذهب فيه هذه المدة سدىً، بل كان نشيطاً في اعمال المخابرات للحصول على المعلومات الوافية عن الأرض والماء والكلأ وتحركات العدو... الخ...

هذا، وقد اختلف المؤرخون في عدد الجيش العربي الذي شهد القادسية. ولكن يؤخذ من كلام المسعودي وابن خلدون انه كان بين الستّين والثمانين ألفاً. واتفقوا على أن جيش الفرس عدده مائة وعشرون ألفاً معهم ثلاثون فيلاً، إلا أن ابن خلدون يجعل عدده ستين ألفاً.

وبدأ سعد بن أبي وقّاص يضع خطته، فقرر أن يبدأ بالسياسة قبل القتال – وكان هذا من رأي الخليفة عمر تجنّباً لإراقة الدماء إذا ما استمع الفرس للانذار واستجابوا للحق – فالهدف الحقيقي لحملة العرب في فارس لم تكن الغزو والغلبة، وانما كانت الدعوة إلى الإسلام، وإلا فالجزية أو السيف والحرب.

وهكذا بدأت الوفود إلى رستم ويزد جرد (الملك الفارسي) من قبل سعد بن أبي وقّاص، وكان من أشهرها " النعمان بن مقرب " و " الأشعث بن قيس " و " المغيرة بن

شعبة "، وقد أصرّ جميع هؤلاء على كلماتهم الثلاث: الاسلام أو الجزية أو الحرب.

وكان قد مضى على قدومه أربعة أشهر وهو لا يباشر حرباً. وبعث سعد انذاره الأخير وتهيأ الفريقان للحرب، وقال رستم: أتعبرون إلينا أم نعبر إليكم! فقالوا: بل اعبروا إلينا.

أمام هذا الوضع، وقف العرب في جانبٍ يشدّ أزرهم إيمانهم بالرسالة وثقتهم بالنصر أو الشهادة. وفي الجانب الآخر أقبل الفرس بخيلهم وفيلهم وعددهم وعدّتهم واستعد كل فريق للمعركة.

كان الجيش العربي يتألف من قوى ثلاثة:

1 – قوّة المثّنى بن حارثة الشيباني وقد تسلّم قيادتها بعد وفاته بشير بن الخصاصية وتعدادها 8000 مقاتل، مؤلفة من ثمانية كتائب.

2 – قوة الجيش التي جاء بها سعد بن ابي وقاص من المدينة، وكانت تتألف من سبعة فرق مجموعها عشرون ألف مقاتل.

3– القوة المرسلة من الشام بقيادة هاشم بن عتبة وتعدادها ستة آلاف رجل.

أما الجيش الفارسي، فقد كان يتألف من 100 إلى 120 ألف مقاتل بقيادة رستم، ويتكوّن من ثلاثة فيالق: فيلق الجالينوس، وفيلق الهرمزان، وفيلق مهران. نظمت على أساس الميمنة التي قادها الهرمزان، والميسرة التي قادها البيرزان، بينما قاد الجالينوس القلب، في الوقت الذي جلس فيه رستم على سريره وقد نصبت له مظلة كبيرة، وتوزّعت الفيلة ضمن هذا الإطار.

وقد نظم الجيش العربي صفوفه على الغرار نفسه، ميمنة وميسرة وقلب. وكان كل قسم معبأ بثلاثة صفوف:

في الصف الأول: الفرسان.

في الصف الثاني: المشاة أصحاب الرماح والسيوف.

في الصف الثالث: الرماة حملة السهام والنبال.

وكان سعد بن ابي وقاص مصاباً بقروح، وفي بدنه دمامل، كما أنه يشكو من " عرق النساء "، ولا يستطيع إزاءها الركوب أو الجلوس، فأصدر " الأمر اليومي " لجيشه

وهو منبطح، فقال:

اني استخلفت عليكم " خالد بن عرنطة "، وليس يمنعني أن أكون مكانه إلا وجعي الذي يعودني " عرق النساء " وما بي من الحبوب " الدمامل " فاني مكبٌ على وجهي وشخصي لكم بادٍ، فاسمعوا له وأطيعوا، إنما يأمركم بأمري ويعمل برأيي.

هذا وكان سعد بن أبي وقاص قد اتفق مع قادة جيشه على إشارة البدء بالمعركة وهي أربع تكبيرات.

ودارت المعركة أربعة أيام سمّيت بيوم " أرماث " و " أغواث " و " أعماش "، والقادسية.

تميّز اليوم الأول من المعركة برشق النبال، وعراك الأفيال. ان الفرس أطلقوها على ميمنة الجيش العربي وميسرته، كما تطلق الدبابات اليوم، فتلقاها الرماة بالسهام، ولكنها كانت شديدة الوطأة، فتباعدت عنها الخيل وتضايق منها المتقاتلون، ولا سيّما بنو بجيلة. فثبت بنو أسد ودافعوا دفاع الأبطال فدارت الرحى عليهم.

وتشبّهت بهم بنو كندة فاقتحمت وعلى رأسها الأشعث بن قيس. ثم أرسل سعد إلى عاصم بن عمرو سيد بني تميم أن يتدبّر حيلة لهذه الأفيال. وكان صاحب رأي. فأشار على الرماة بأن يشاغلوا راكبيها بالسهام، وبعث جماعة جاؤوها من خلفها وقطعوا حُزمها، فتساقط أصحابها عن ظهورها وتساقطت صناديقها فنفرت عارية تدوس من وقع تحت أقدامها، فتنفس بنو أسد وانفرجت بجيلة. وهكذا انتفى عنصر المفاجأة – وهو الفيلة –، بينما أخذت النساء المسلمات يقمن بدفن الموتى واسعاف الجرحى ونقل السلاح والماء والغذاء.

وفي اليوم الثاني جاءت النجدات من الشام، بعد اندحار الروم في اليرموك، يتقدمها القعقاع بن عمرو، فازداد العرب نشاطاً وحميّة. وامتاز القعقاع في هذا اليوم بشجاعته وسداد رأيه، عندما قسّم قوته قبل وصوله ميدان المعركة إلى عشر سرايا كل منها مؤلفة من ألف فارس وأمرها أن تتقدم سريّة بعد أخرى، وأن تكون المسافة بينها مدى البصر، وذلك ليوهم الفرس بأن النجدة الآتية كثيرة العدد. وشهد هذا اليوم عراكاً حامياً، فاندفع الفرسان العرب على خيول الأعداء وبدّدوا شملها وبعثروها. ولم يخرج

الفرس أفيالهم هذا النهار لأن صناديقها تكسرت، فكابدوا من وطأة الإبل أعظم مما كابد المسلمون من الأفيال في اليوم الفائت.

واستمر العراك دائراً حتى انتصاف الليل. قال الطبري وابن خلدون: " كانت خسارة المسلمين ألفين بين قتيل وجريح. بينما كانت خسائر المشركين عشرة آلاف ".

أما هذا الوضع نظم الفرس صفوفهم وأعادوا الصناديق على ظهور الأفيال. وبدأ القتال في اليوم الثالث – يوم أعماس –. وقد أقام الفرس حول هذه الأفيال رجالاً يمنعون تقطيع حزمها وخلفهم فرسان يحمون ظهورهم. بيد ان خيل المسلمين تعوّدت مرآها فلم تنفر منها هذه المرّة. وكان اليوم الثالث عظيم الهول، التحم فيه الجيشان على السواء، ووضعا فيه كل ثقلهما وقصارى الجهود. ولعبت الفيلة دورها في تبديد الصفوف، مما حدا بسعد بن ابي وقاص ان يرسل الى القعقاع وعاصم بن عمرو التميمي أن يتدبرا أمر الفيلين، الأبيض والأجرب، فحمل على الأبيض برمحين ووضعاهما في عينيه فقتل الفيل وراكبه. ثم حملا على الأجرب، ففقئت عينه وقطع خرطومه، فمرّ بين الفرسان شارداً حائراً فاتبعته الأفيال خارقة صفوف الأعاجم، متجهة نحو المدائن، وهلك جميع ركابها.

واحتدم القتال فوصل الليل بالنهار. ويسمي العرب هذه الليلة بليلة " الهدير " لشدّة ما ارتفع فيها من الجلبة ووقع الحديد على الحديد. ولقد كانت هذه الليلة أصواتاً في صمت دون كلام، ومن ذلك اكتسبت اسمها. وعلاج مشكلة الفيلة في هذه الموقعة هو من قبيل معالجة الأسلحة المفاجئة في الحروب الحديثة...

وما إن أشرق صباح اليوم الرابع – المشهور بيوم القادسيّة – حتى كان القعقاع يشجع الجنود ويحرّضهم على مواصلة القتال قائلاً لهم: ان النصر أصبح قريباً وهو سيكون حليف الفريق الذي يصبر. وحمل العرب واشتد القتال حتى جاء الظهر، وعند ذاك بدأت صفوف الفرس تضطرب خاصة بالأجنحة حيث تراجع " البيرزان " و " الهرمزان " وبقي القلب صامداً وحده.

وفي هذه اللحظة هبّت ريح عاصفة، بينما كان رستم جالساً على سريره ومعه جماعة من أهل مشورته، فقلبت مظلة رستم عن السرير، فقام عنه يستظل بظلٍّ بغلٍ عليه حمل. فضرب هلال بن علقمة التميمي هذا البغل بسيفه وقطع حباله وهو لا يعلم أن رستم

تحته فوقع الحمل على رستم وكسر ظهره فزحف وألقى بنفسه في النهر. فرآه هلال التميمي وعرفه فاقتحم النهر وراءه وقتله، ثم عاد وصعد على سريره وهو يصيح: " قتلتُ رستم وربّ الكعبة، إليّ إليّ ". فتجمّع الجند حوله وهم يكبّرون. ولما علم الفرس بمقتل قائدهم وهنت قوتهم وخارت عزيمتهم وتحطمت معنوياتهم، فتولى " الجالينوس " القيادة وأمر القلب بالانسحاب إلى خلف النهر. ولما وصلوا محل الردم إنهار بهم في النهر فتدافع التيار المحصور وجرف عدداً كبيراً منهم. وقد استولى ضرّار بن الخطاب على علم الفرس الأكبر، " الدرفش كابيان " المحلّى بالجواهر الكريمة.

أمر سعد القعقاع بالمطاردة، فتقدّمت كتيبته تفتك بكل من تصادفه في طريقها ثم تبعته كتيبة زهرة التميمي، فلحق هذا بالجالينوس وقتله، وبمقتله استسلم عدد كبير من جيشه.

خسر المسلمون في هذه المعركة حوالي 8500 قتيل. أما قتلى الفرس فقد زادت على الأربعين ألف قتيل عدا الأسرى الذين لا يحصى لهم عدد. كما استولى العرب على أموال وذخائر كبيرة.

وهكذا انتهت معركة القادسية سنة 637 (*) ، بنصر حاسم للعرب، وفتح الطريق أمام الجندي العربي إلى إيوان كسرى في عاصمة مُلْكه – المدائن – تلك العاصمة التي أشادها في قلب العراق العربي، ومهدت هذه المعركة السبيل لتقويض مملكة الأكاسرة والقضاء على سلطانهم.

وطبيعي أن يكون لمعركة القادسية، كغيرها من المعارك الفاصلة، دروسها المستخلصة، حيث كانت نموذجاً مميزاً من نماذج التكتيك العسكري الاسلامي – على حد تعبير العميد سويد –، حيث برع المسلمون فيها باتقان المناورة التكتيكية التي تتلاءم مع كل حالة قتالية من حالات المعركة، وان ما يمكن ان نستخلصه من هذه المعركة من لمحات تعبر تعبيراً صادقاً عن تطور الفن العسكري عند المسلمين، يتمثل بما يلي:

1 – التعبئة العامة، أو التجنيد الإلزامي، والحشد الأقصى للوسائل...

2 – اختيار مكان المعركة...

3 – دراسة أرض المعركة وبيئتها...

4 – الغارات التموينية واستنزاف العدو...

5 – اسلوب " الكمائن "...

6 – اسلوب " التكتيك المتغيّر "...

7 – التميّز بالقبائل...

لذلك، تعتبر معركة القادسية، احدى لآلئ الانتصارات العربية في كل عصر.

المراجع

1 – صبحي عبد الحميد " معارك العرب الحاسمة ". بيروت. مؤسسة الأبحاث العربية. الطبعة الثانية 1980. ص 55 – 69.

2 – احمد عادل كمال " القادسية " (سلسلة استراتيجية الفتوحات الاسلامية). دار النفائس. بيروت. الطبعة الثانية 1977.

3 – بطرس البستاني " معارك العرب في الشرق والغرب ". دار مارون عبود. بيروت. الطبعة الثانية 1979. ص 13 – 30.

4 – السيّد فرج " أدهى رجال الحرب في الشرق والغرب " القاهرة. دار الشعب 1970. ص 97 – 117.

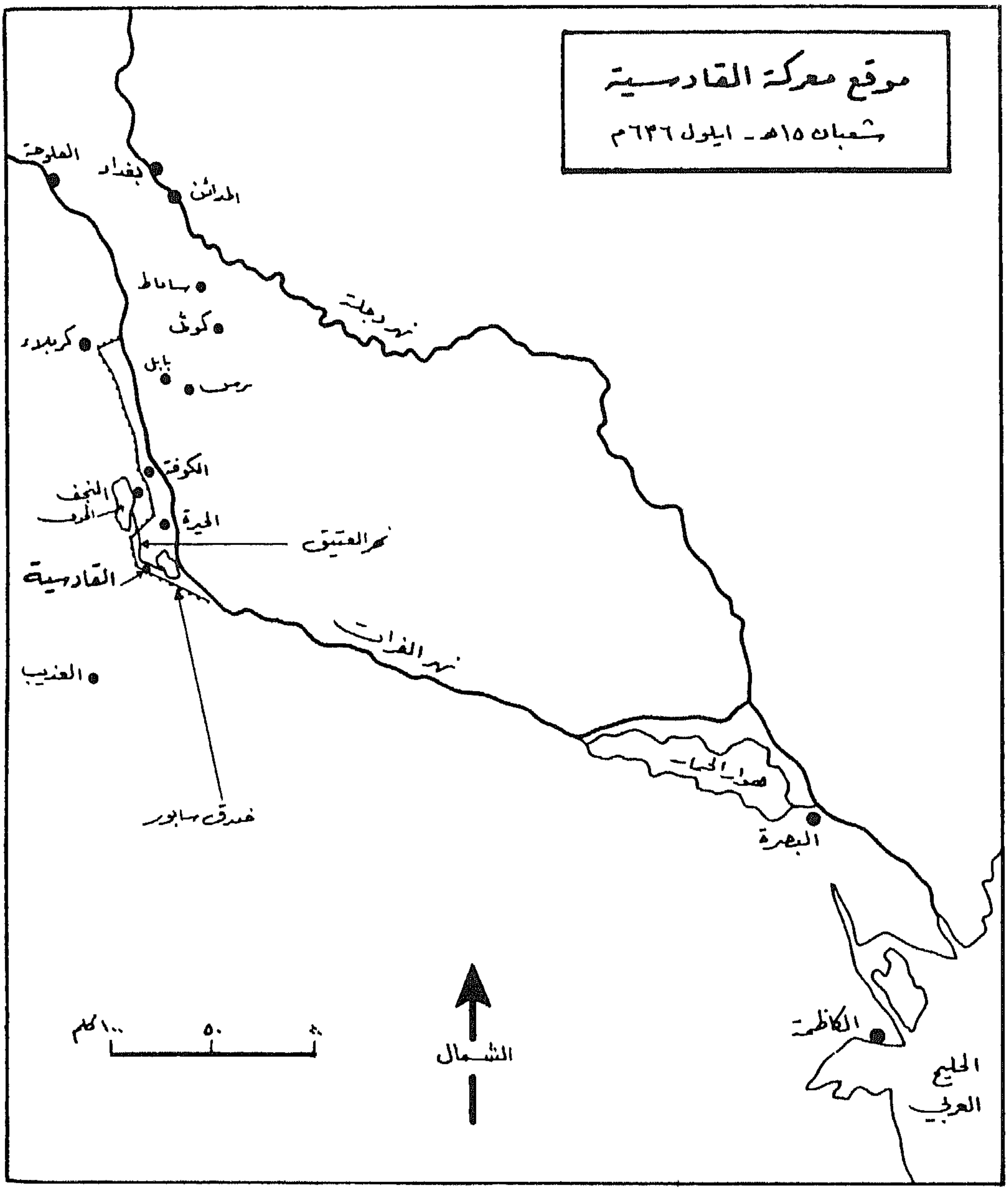
5 – الطبري " تاريخ الأمم والملوك " الجزء الثالث. طبعة دار المعارف بمصر 1962. ص 488 – 559.

6 – البلاذري " فتوح البلدان ".

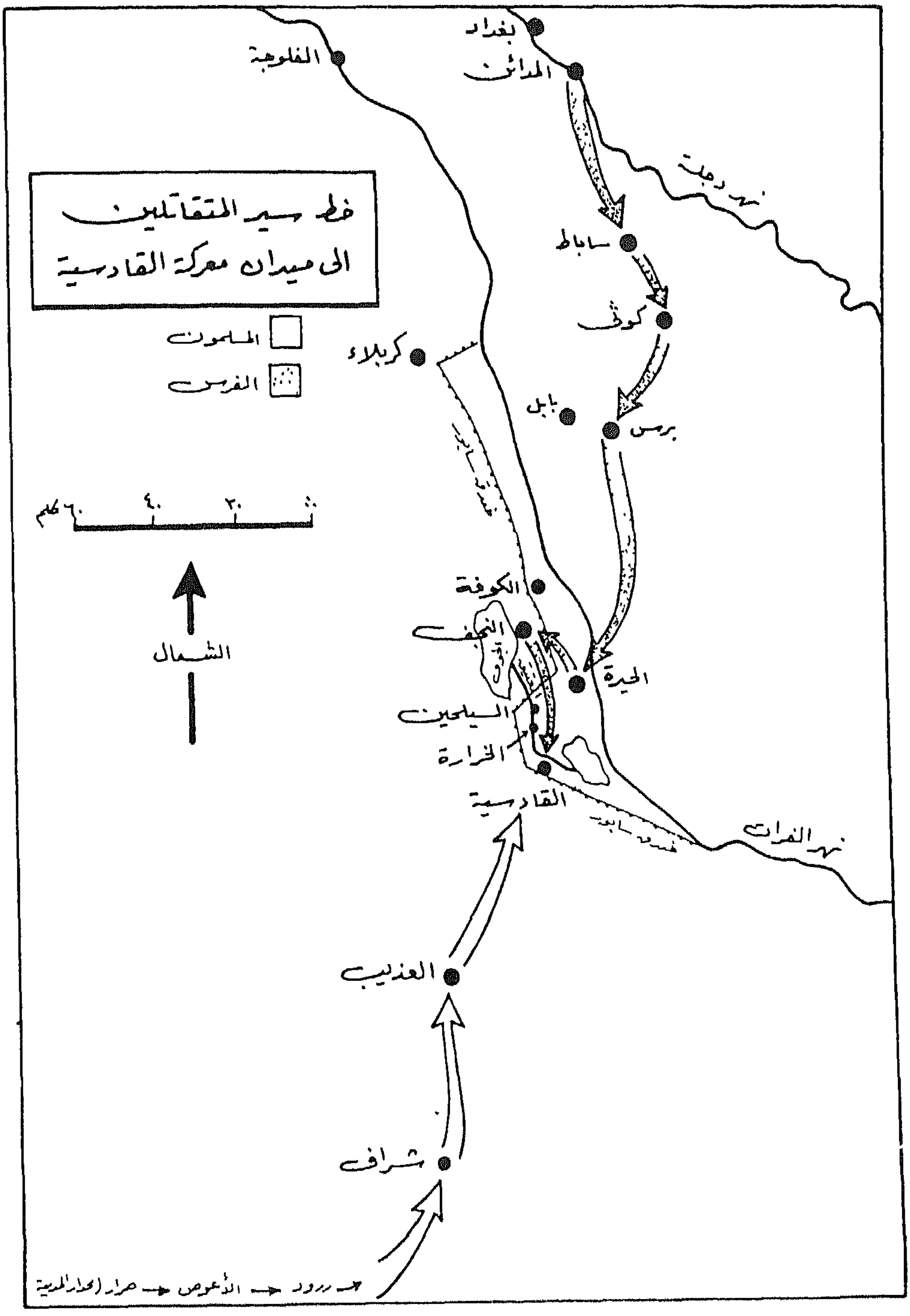
7 – اللواء محمد شيت خطاب " قادة الفتح العربي للعراق وفارس ". دار القلم.

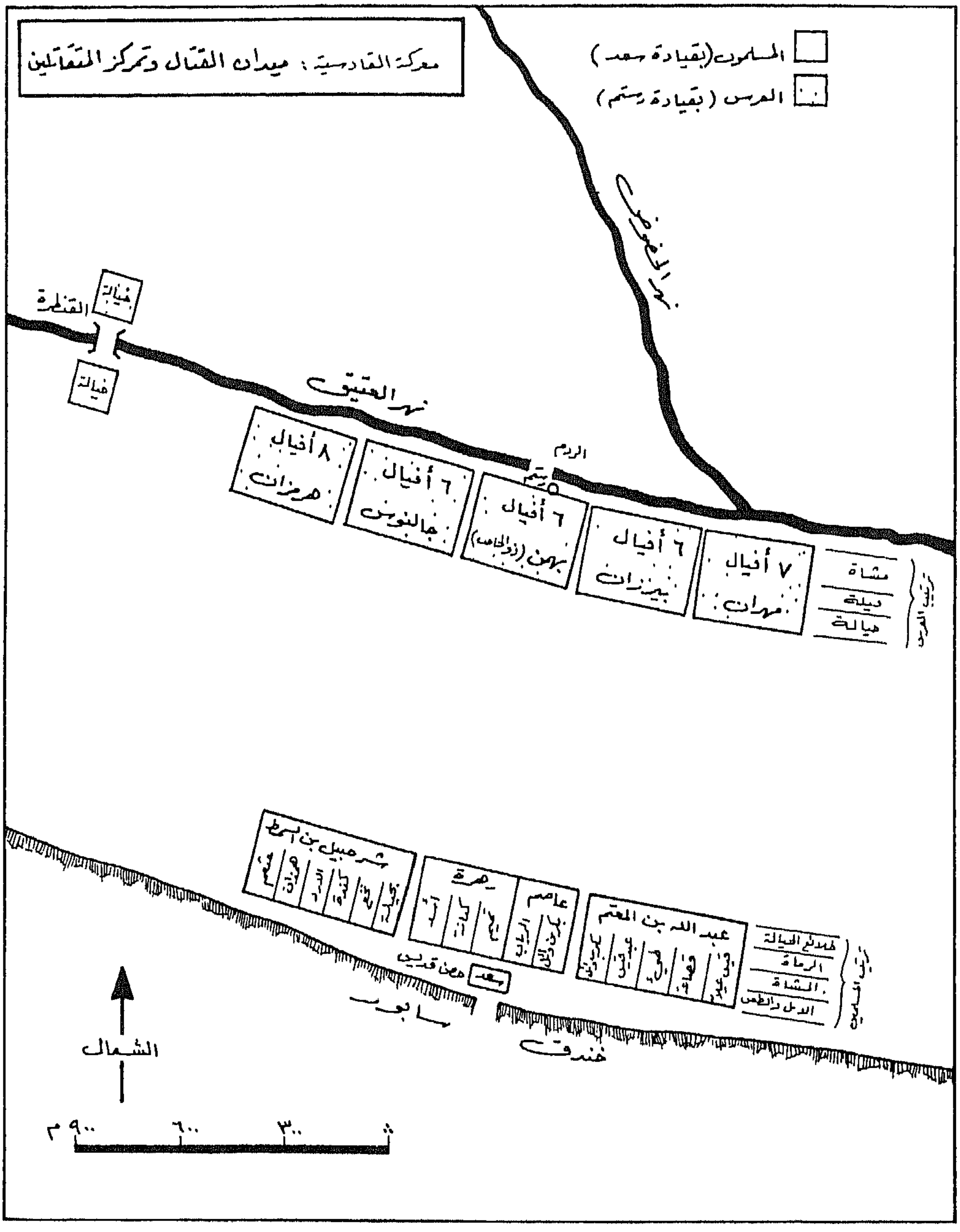
8 – العميد الركن د. ياسين سويد " الفن العسكري الاسلامي أصوله ومصادره ". شركة المطبوعات للتوزيع والنشر. بيروت. ط1. 1988. ص 241 – 282.

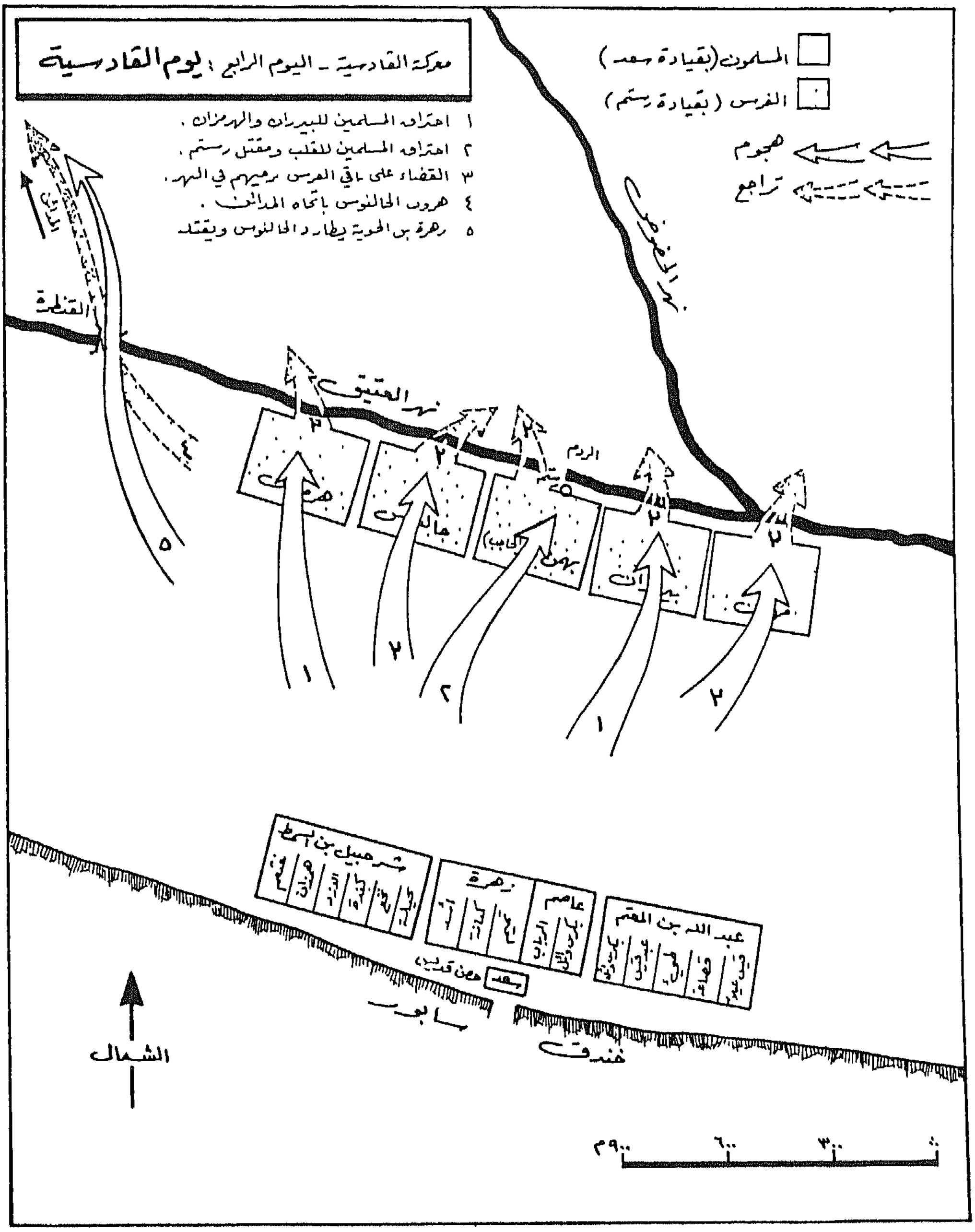
(*) كما اختلف المؤرخون بصدد تاريخ معركة اليرموك، فقد اختلفوا أيضاً في تاريخ معركة القادسية، حيث يؤرخ لها البعض بسنة 636 م.



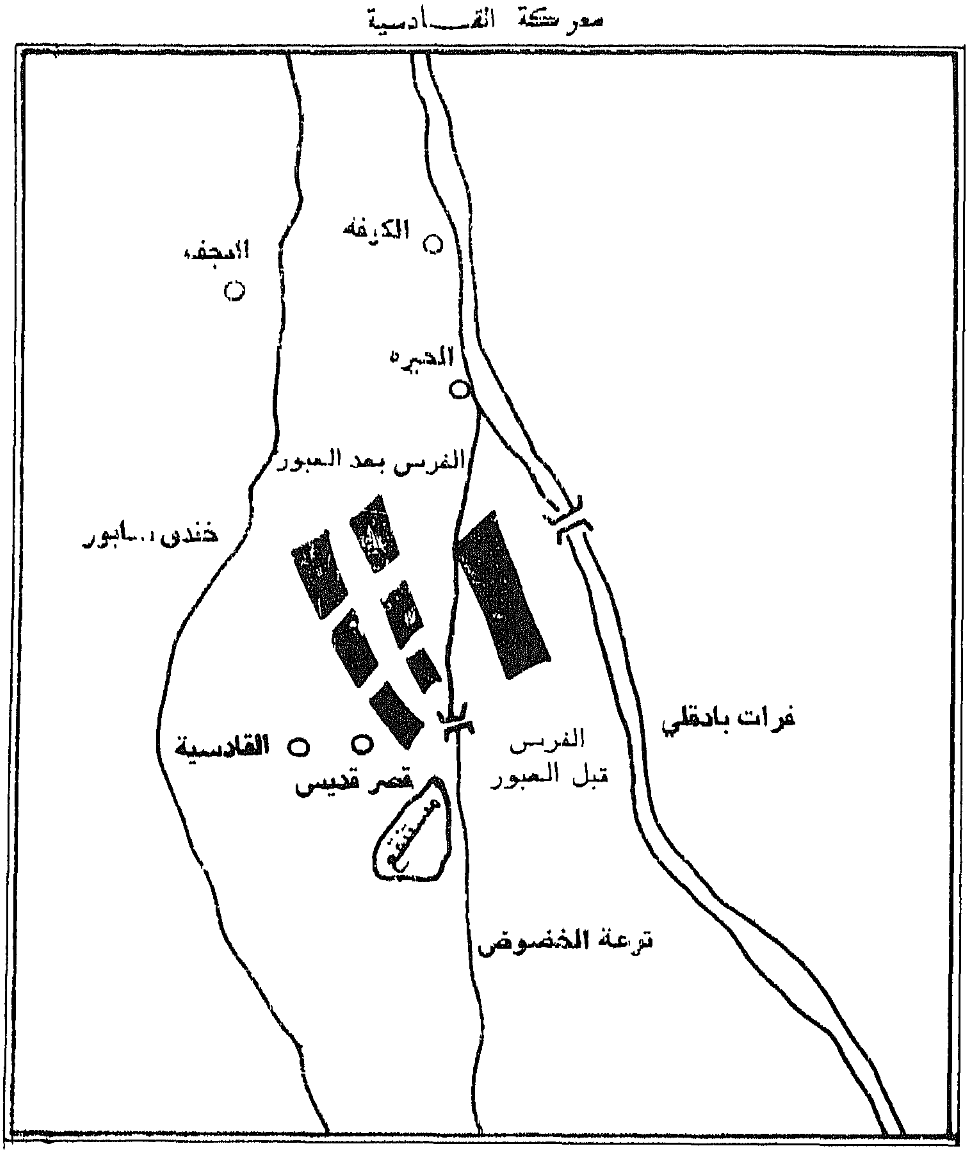
العميد سويد. " الفن العسكري الاسلامي ". ص 276 – 277 – 278 – 288.


خط سير المتقاتلين
الى ميدان معركة القادسية
المسلمون
الفرس
الشمال
بغداد
المدائن
الفلوجة
نهر دجلة
ساباط
كوثى
كربلاء
بابل
برس
الكوفة
النجف
الحيرة
السيلحين
الخرارة
القادسية
نهر الفرات
العذيب
شراف


معركة القادسية : ميدان القتال وتمركز المتقاتلين
المسلمون (بقيادة سعد)
الفرس (بقيادة رستم)
القنطرة
فيالة
فيالة
نهر العتيق
الردم
رستم
٨ أفيال
هرمزان
٦ أفيال
جالينوس
٦ أفيال
بهمن (ذو الحاجب)
٦ أفيال
بيرزان
٧ أفيال
مهران
مشاة
خيالة
ترتيب الفرس
شرحبيل بن السمط
زهرة
عاصم
عبد الله بن المعتم
طلائع الخيالة
الرماة
المشاة
الإبل والظعن
ترتيب المسلمين
سعد
حصن قديس
باب
خندق
الشمال
٩٠٠ م
٦٠٠
٣٠٠
٠



معركة القادسية ـ اليوم الرابع : يوم القادسية
١ اختراق المسلمين للبيرزان والهرمزان .
٢ اختراق المسلمين للقلب ومقتل رستم .
٣ القضاء على باقي الفرس برميهم في النهر .
٤ هروب الجالنوس باتجاه المدائن .
٥ زهرة بن الحوية يطارد الجالنوس ويقتله
المسلمون (بقيادة سعد)
الفرس (بقيادة رستم)
هجوم
تراجع
القنطرة
نهر العتيق
شرحبيل بن السمط
زهرة
عاصم
عبد الله بن المعتم
خندق
الشمال
٠ ٣٠٠ ٦٠٠ ٩٠٠م



معركــة القادسية

المرجع: صبحي عبد الحميد " معارك العرب الحاسمة ". ص 63.

معركـة قافلة هداسا والجامعة العبرية
(في 13 / 4 / 1948)

هي احدى المعارك الكبرى التي دارت في فلسطين بين الثوار العرب والصهاينـة وحقق فيها الثوار نجاحاً كبيراً. وفي هذا الإطـار، يذكـر المنـاضل بهجـت أبـو غربيـة فـي مذكراته قائلاً: لئن كانت رحلتي إلى العريش أضاعت علي شخصياً فرصة الاشـتراك فـي معركة القافلة، إلا أن النصر الذي تحقق للمنـاضلين العـرب فـي هـذه المعركـة، واشـتراك رجالي فيها من قوات حي باب الساهرة وقوات حي المصرارة، إلى جانب إخوانهم مقـاتلي حي وادي الجوز بقيادة صديقي محمد عادل النجار، كـان نصـراً وانجـازا كبـيراً رفـع مـن معنوياتنا ومن معنويات أهالي منطقة القدس، بعد معركـة القسـطل واستشـهاد عبـد القـادر الحسيني ومذبحة دير ياسين بثلاثة أو أربعة أيام.

لم تكن هذه القافلة أول قافلـة يهوديـة نضربهـا فـي حـي الشـيخ جـراح وحـي بـاب الساهرة، ولكنها كانت أكبر وأخطر قافلة وأكثرها خسائر من اية قافلة سابقة.

في مساء الإثنين 12 / 4 / 1948 تسرّب سرّ هام من ضابط استرالي في الجيش البريطاني من مرتب القـوة البريطانيـة المتمركـزة فـي أعـالي حـي الشـيخ جـراح فـي دار المفتي إلى قائد حي وادي الجوز محمد عادل النجار يفيد أن قافلـة يهوديـة كبيرة سـتجتاز حي باب الساهرة وحـي الشـيخ جـراح متجهـة إلـى مجمـع هداسـا والجامعـة العبريـة، وأن القافلة ستحمل أعداداً كبيرة من رجال الهاغاناه، وأن هذه القوة ستقوم بمهاجمة القـدس مـن الشرق – أي من الخلف – لتحتل المطلع وقرية الطور ووادي الجوز، فتعزل القـدس عـن مدينة أريحا. ومما يؤيد هذا الاحتمـال أن اليهـود نسـفوا قبـل يوميـن بعـض الجسـور علـى طريق القدس – أريحا، ليحولوا دون وصول أية نجدات عربية من الشرق.

وفي الصبـاح البـاكر مـن يـوم الثلاثـاء 13 / 4 / 1948 قـام نحـو العشـرين مـن مناضلي حي وادي الجوز بزرع الألغام الكبيرة في الحفر الكثيرة التي حفرت في المعـارك السـابقـة فـي طريق مرور القافلة، ورابطوا في المداخل الفرعية، وفي البيوت القريبة جداً

من الطريق، وكلهم تصميم على منع القافلة من المرور وتدميرها مهما كلفهم الثمن، درءاً لخطرها وانتقاماً لشهداء القسطل ودير ياسين. ومع أن المنطقة ومواصلاتها كانت مكشوفة لنيران اليهود الموجودين في حي بيت يسرائيل وسان هدريا من الغرب، ونيران هداسا والجامعة من الشرق، إلا أن ضيق عرض الطريق وملاصقة البيوت العربية لأرصفتها كانت تحجب موقع المعركة والمناضلين المرابطين فيها عن نيران العدو.

ونحو التاسعة والنصف صباحاً وصلت القافلة إلى موقع الكمين، وكانت تتألف من سبع حافلات (باصات) مصفحة ومصفحتين عسكريتين، فتفجرت الألغام تحت المصفحتين المتقدمتين فاحترقتا وانفجرتا وقتل جميع من فيها من جنود الهاغاناه وعددهم نحو الأربعين، وتمكنت خمس حافلات من العودة. ووصلت للمناضلين العرب نجدات سريعة من حي المصرارة، وحي باب الساهرة، وأصبح عدد المقاتلين نحو المئتين. ودارت معركة طويلة بين ركاب المصفحات اليهودية والمقاتلين العرب. وكان في المصفحات الكثير من الجنود والسلاح والذخيرة، وساندتهم نيران كثيفة من شرق المنطقة وغربها. وكان العرب لا يملكون أسلحة مضادة للدروع، لكن مواقعهم القريبة جداً من السيارات المحاصرة ساعدتهم على وضع خرق مبللة بالكاز وإلقائها تحت السيارات، فاحترقت إطاراتها. وكالعادة تدخل الجيش البريطاني لإنقاذ اليهود وهو لم يتدخل ولو مرة واحدة لإنقاذ أية قرية عربية أو حي عربي. وصارت المعركة الحقيقية بين العرب والجيش البريطاني الذي تدخل في المعركة من الجنوب ومن الشمال، محاولاً إبعاد العرب عن السيارات اليهودية المحاصرة. وجرت مفاوضات لإنقاذ اليهود الأحياء، لكنها فشلت، وأصرّ العرب على القتال، فجلب الجيش البريطاني قوات كبيرة واشتبك مع العرب بعنف وأوقع في صفوفهم العديد من الخسائر مما اضطرهم إلى إيقاف القتال والانسحاب نحو الرابعة بعد الظهر. واستشهد من العرب اثنا عشر مقاتلاً، معظمهم أصيب برصاص الانكليز، من بينهم الصحافي المعروف شكري قطينة (أبو بدر) الذي كان ابنه قد قتله اليهود في لغم باب العمود. وقتل مناضلان نتيجة انفجار لغم كانا يحملانه ليضعاه تحت أحد الباصات، فأطلق الانكليز عليهما النار وفجروا اللغم بهما. كما جرح عدد من المناضلين كان بينهم قائد المعركة محمد عادل النجار. وكانت خسائر الإنكليز مقتل

جنديين وجرح ستة. أما اليهود فلم يعـرف بـالضبط عـدد قتلاهـم، لكـن الصحـف اليهوديـة قدّرتهم بمئة واثنين وعشرين قتيلاً وعشرين جريحاً.

المرجع

– مذكـرات المنـاضل بهجـت أبـو غربيـة 1916 – 1949. " فـي خضـم النضـــال العربـــي – الفلسطيني ". مؤسسة الدراسات الفلسطينية. بيروت. الطبعة الأولى. كـانون الثـاني 1993. (ص: 225 – 227).

معركــة قاقـون

كان أهالي قرية قاقون مستعدين دوماً للتصـدي لأي عـدوان، رغـم أنـه لـم يتوفـر للمناضلين فيها سوى 55 بندقية ورشاشين. وقـد نشـبت بيـن سـكانها والصـهيونييـن خـلال الأشهر الخمسة التي سبقت وصول الجيش العراقي إلى المنطقة عـدة معـارك كـان النصـر فيها دوماً حليف العرب الذين لم يخسـروا فـي هـذه المعـارك سـوى ثلاثـة شـهداء وبعـض الجرحى، وذلك في النصف الأول من 1948.

ولما وصل الجيش العراقي بعد انسحابه من معركة غيشر، وحطّ رحاله في مدينـة طولكرم، أخذت مدفعيته تقصف المستعمرات القريبة منها.

توقع الصهيونيون أن يشن الجيش العراقي هجوماً كبيراً على مستعمراتهم ويحتلها ويستمر في تقدمه حتى يصل إلى الساحل. وقدّروا أن لديـه القـوة الكافيـة لذلـك، فلجـأ فـي الفترة الأولى من وصوله إلى الدفاع وزيادة تحصين المستعمرات، لكن حين بقيـت القـوات العراقية في مواقعها مكتفية بإطلاق نيران مدفعيتها بين حين وآخر، قـرر الصـهيونيـون أن يقوموا بزيادة عمق منطقتهم، فاختاروا قرية قاقون هدفاً رئيسـاً وكلفـوا أحـد ألويـة الجيـش الإسرائيلي احتلالها.

بدأت القوات الصـهيونيـة تتحشـد فـي البيـارات منـذ يـوم 4 / 6 / 1948، وكـانت العربـات والمدرعـات والمدافـع تتحـرك تحـت أعيـن سـكان القريـة الذيـن أعلمـوا القــوات العراقية بذلك.

وفي الساعة 17,30 من اليوم نفسه بدأ الإسرائيليون يصبّون نيران مدفعيتهم على القرية بشكل كثيف، مما أدى إلى استشهاد عشرة من سـكانها وجـرح عشـرة آخريـن. ولـم تردّ القوات العراقية رغم رجاء السكان على هذا القصف بـالمثل، إذ لـم تكـن الأوامـر مـن القيادة العراقية العليا تسمح لهم بذلك. وعندها رحلت النساء والأطفال إلى البيارات الواقعـة شرقي القرية، واستعد الرجال للقتال.

وتـابــع الإســرائــيــلـيــون قــصـف القرية بالمدفعية، حتى إذا حانت الثانية من

صباح الخامس من حزيران، بدأو بالتحرك نحوها مستفيدين من الساتر الترابي الذي تمر عليه السكة الحديدية للاقتراب دون التعرض لنيران المناضلين. ولكنهم ما إن تجاوزوا هذا الساتر حتى تعرضوا لمقاومة عنيفة جداً عرقلت هجومهم. وعندما لاح ضوء الفجر كانت وحدات اللواء الإسرائيلي ما تزال في السهل تحت رحمة النيران العربية، ومع ذلك فقد تمكن الإسرائيليون – بعد أن وجدوا أن أفضل حل لخروجهم من خطر النيران العربية متابعة الهجوم بسرعة – من الوصول إلى ساحة القرية في الساعة التاسعة صباحاً. وعندما يئس المناضلون طلبوا النجدة من القرى المجاورة. وقد تحركت هذه النجدة السريعة، إلا أنها لم تستطع الوصول إلى القرية، إذ كانت القوات العراقية قد أذاعت يوم 4 حزيران بلاغاً حظرت فيه تجاوز الخط الحديدي إلى الغرب. وقد انتظرت النجدة العربية، عبثا، الإذن من القيادة العراقية لاجتياز الخط، فلم تتمكن من الوصول إلى القرية.

وعندما أوشكت القرية على السقوط تحركت بعض وحدات الجيش العراقي، ولكنها لم تستطع صدّ الهجوم الإسرائيلي. وهكذا سقطت قرية قاقون بأيدي الصهيونيين بعد أن استشهد 40 رجلاً من مناضليها وسبعة عشر جندياً من المفرزة العراقية.

وحاولت القوات العراقية بعد ذلك استرداد القرية ولكنها فشلت واكتفت بقصفها بالمدفعية.

المراجع

1 – عارف العارف: النكبة، ج3، بيروت 1956.

2 – الموسوعة الفلسطينية: الجزء الثالث ص: 494 – 495. إشراف د. أنيس صايغ. الطبعة الأولى، دمشق 1984.

معركـة القرضابية

هي احدى معارك الجهاد الليبي ضد قوات الاستعمار الايطالي. فبالرغم من عدم التكافؤ في ميزان القوى العسكرية، عدة وعدداً، فلم تكن ليبيا لقمة سائغة يسهل ابتلاعها، وقد اضطر الايطاليون لتغيير مخططاتهم وتكتيكاتهم العسكرية مراراً عديدة، وذلك نظراً لما جوبهوا به من مقاومة باسلة كبدتهم الخسائر الجمّة، ونشرت الذعر والاضطراب في صفوف الغزاة، الذين كانوا مجهزين بأحدث أنواع الأسلحة، أسلحة الفتك والتدمير، من مدافع وسفن حربية وطائرات. فلقد كان المجاهدون الليبيون يتصدون لهذه الجحافل بقلوب ملؤها الايمان والعزم. ومعركة القرضابية هي إحدى المعارك التي تدل على ذلك، فقد تحطمت فيها أسطورة القوة الايطالية وعنفوان قادتها الاستعماريين. فما هي وقائع هذه المعركة؟؟:

تعرف هذه المعركة في كافة المصادر الايطالية بمعركة (قصر ابي هادي والموقع قرب سرت). لم تكن القرضابية أعظم المعارك في تاريخ الجهاد من حيث وزن القوات المشتركة فيها وحجمها، فقد تقدمتها معارك في بداية الجهاد كانت اكثر ضخامة وأشد هولاً، وأكبر مستوى. لكن القرضابية أعظم المعارك في تاريخ الجهاد، من حيث توحّد القوى الوطنية (الشرق والغرب والجنوب)، ومن حيث النتائج الضخمة التي ترتبت عليها، وانتهت الى تلك الكارثة الشاملة التي لحقت بالاستعمار الايطالي وأدّت إلى انسحابه، واقتصاره على بعض النقاط الساحلية بطرابلس وبرقة، وهي فترة امتدت في حساب الزمن اكثر من ثماني سنوات، أي حتى استئناف العمليات الحربية الايطالية التي عرفت باسم (عمليات الاسترداد) التي بدأت بالنزول في مصراتة البحرية (قصر أحمد) وانتهت باعدام " عمر المختار " ونهاية المقاومة في الجبل الأخضر والمناطق الشرقية والجنوبية.

وعلى الرغم من أن أغلب المصادر الايطالية تتغاضى عن هذه المعركة، ولا تعطيها حقها من التفصيلات التي ظلت قاصرة على الوثائق الرسمية، فانها تتفق بأن تلك

الهزيمة النكراء، قد سجلت نهاية لهيبة ايطاليا، ومركزها الاستعماري في الدواخل. وهي تجمع على أن ايطاليا، أصيبت فيها بأفدح الخسائر، وأقسى النتائج التي ظلت تتلاحق أثارها حتى المراحل الأخيرة من الجهاد، وجعلت من عمليات الاسترداد حرباً جديدة لا تقلّ حجما وتكاليف عن عمليات الغزو الأولى.

ويرتبط واقع هذه المعركة الهامة، بالفشل الذريع والاخفاق الكبير اللذين انتهت إليهما حملة الكولونيل (مياني) على فزان، نتيجة للمقاومة التي قادها وأشعلها المجاهد الورع محمد بن عبد الله اليوسفي، الذي تصدى لحملة مياني في معارك (الشب واشكدة ومحروقة) التي استشهد فيها، خاتما بذلك سلسلة طويلة من المواقف الوطنية الصادقة التي رفضت الاستسلام والقبول بالصلح، وأعلنت الاستمرار في الكفاح والنضال ضد القوات المعتدية.

ومن المعروف أن هذا المجاهد قد تحوّل ببعض رجاله إلى الجنوب، بعد أن شارك في معركة الأصابعة (جندوبة) رافضا الاستسلام والدخول في المساومة السياسية، فتصدى لحملة مياني، واستطاع أن يثير في وجهها مقاومة ظلت مستمرة، حتى بعد استشهاده في " محروقة "، وأدت إلى قطع الطريق على هذه الحملة، وانتهائها الى الفشل التام والانسحاب الكامل من الدواخل، خاصة في مناطق الجفرة وفزان، عند نهاية 1914 وبداية 1915.

وإزاء هذا المدّ الثوري العنيف الذي هز أركان الوجود الاستعماري في تلك المناطق، وفشل تلك الحملة التي حاول بها مياني، أن يعيد أمجاد القائد الروماني (كورنيليو باليو)، حاولت الحكومة المركزية، وحكومة الولاية العمل على الاحتفاظ بالمواقع والتمسك بها. وأعدت حملتين كبيرتين للقيام بعمليات تطهيرية في القبلة ومنطقة سرت. وقد انتهت الحملة الأولى إلى الهزيمة التي أصيبت بها القوات الايطالية في (وادي مرسيط وخرمة الخدامية) (7 ابريل / نيسان 1915)، وهي المعركة التي سجلت بداية الهزيمة التي ختمت فصولها في القرضابية.

أما الحملة الثانية فقد قام على رأسها الكولونيل (مياني)، سعياً وراء استرداد مجده العسكري وكرامته المجروحة وإعادة مركزه الذي اهتز بعد الانسحاب من فزان.

فتحرك في مستهل ابريل من " مصراتة " بقوة كبيرة من الايطاليين والاريتريين والمحلات الليبية التي جنّدها من مصراتة وترهونة وزليطن وورفلة.

وتتألف الحملة من 84 ضابطا و 900 جندياً ايطاليا ومن 2089 جندي نظامي من (الملوّنين) وغير الايطاليين و 3000 من المحلات التي جنّدها مياني، بالاضافة إلى 250 فارساً منهم. وكان لدى الحملة 12 قطعة مدفعية وقسما مدافع رشاش تتبعها قافلة من الذخيرة والمؤن تتألف من 2000 جمل وعدد آخر من البغال والعربات. ومن مقارنة هذه القوة الكبيرة يتبين مدى الخطر المحدق بهؤلاء المجاهدين لو لم تنثنِ المحلات الوطنية على القوة الايطالية فتحوّل بذلك الموقف من كارثة محققة إلى الجانب الوطني، إلى نكبة قاضية على الأعداء.

وقد سار في هذه الحملة بعض الزعماء البارزين من أمثال " رمضان الشتيوي وعبد النبي بالخير " (الذي انفصل عن المعركة قبل وقوعها في أبي نجيم بحجة حماية ورفلة من عدوان محتمل) و " الشيخ الساعدي والمبروك المنتصر " وغيرهم ممّن أضمروا الغدر بالقوات الايطالية في الوقت المناسب وفي اللحظة الحاسمة.

وقد انطلقت هذه القوة من قواعدها في " بئر القداحية " يوم 14 ابريل / نيسان واشتبكت في معركة قصيرة مع طلائع المجاهدين يوم 28 ابريل 1915 عند (ابي شناق) ثم واصلت الزحف على القرضابية حيث تجمعت القوة المذكورة من المجاهدين الذين كانوا هدفا رئيسيا للحملة.

وما كادت الحملة تصل إلى الموقع (28 ابريل 1915) حتى بادرها المجاهدون بالهجوم، موجهين ضغطهم على الجناح الأيسر منها الذي كان يتكون من محلات " مسلاتة وترهونة " التي انضمت فورا إلى القوة المهاجمة. وانثنت على القوة الايطالية تتبعها في ذلك محلة " مصراتة "، وألقت المحلات بثقلها كله على القافلة الايطالية، فأدى ذلك إلى انفلات زمام قيادة الحركة من القائد الايطالي، وغدت هزيمته هزيمة تامة عامة، ولم يسلم من قوته إلا العدد القليل الذي لاذ بالفرار.

وتعترف المصادر الايطالية بأن خسائرهم كانت فادحة. وقد بلغ عدد القتلى من القوة الايطالية – طبقا للمصادر الايطالية نفسها – 500 قتيل و 462 جريحاً، كما سقط

في هذه المعركة 18 ضابطا ايطاليا وجرح 25 منهم، كان من بينهم " مياني " نفسه. وبلغ قتلى الايطاليين وحدهم (أو الجنود البيض كما كانوا يسمونهم) 252 قتيلا و 141 جريحاً عدا المفقودين. كما فقدت الحملة كل ذخائرها ومعداتها، وغنم المجاهدون ألف بندقية و 11 قطعة مدفعية وعددا من المدافع الرشاشة كانت لهم خير عون في معاركهم التالية.

وقام الكولونيل مياني فور عودته إلى " سرت " بأعمال انتقامية، فعقد محاكمات صورية مرتجلة مستعجلة وأعدم 13 رجلا من الشخصيات الوطنية، كما أطلق العنان لجنوده للقيام بأعمال انتقامية. وسجلت هذه المعركة أفول نجم الكولونيل مياني ونهايته على المسرح العسكري إذ اعتبر مسؤولا عن الهزيمة، ونزع عنه ذلك التاج من الغار الذي كلّل هامه عند احتلاله لفزان، ذلك الاحتلال الذي عصفت به المقاومة التي قادها محمد بن عبد الله اليوسفي والتي استمرت نتائجها تعمل وتحرك الأحداث التالية، حتى انتهت عند القرضابية أعظم المعارك في تاريخ الجهاد الليبي من حيث نتائجها التي هزت أركان الاستعمار الايطالي، وقضت على كل هيبة له في المحافل الاستعمارية، وسجلت مرحلة تاريخية في الجهاد الوطني، كانت خليقة أن تقضي على الوجود الاستعماري في البلاد قضاء تاماً، لو أتيحت لها الفرصة لوحدة القيادة والدعم المطلوب.

وقد نتجت عن هذه المعركة الهامة سلسلة الأحداث والمعارك والهجمات التي وجهت إلى الحاميات الايطالية في " تاورغاء وترهونة وورفلة " وبقية بلدان الدواخل وأدت إلى انحصار القوة الايطالية في طرابلس الغرب، في مدينتي الخمس وطرابلس، وفي برقة، في بعض المواقع الساحلية والنقاط الجبلية.

ويعزو الايطاليون هزيمتهم في القرضابية إلى العوامل التالية:

1 – غدر المحلات الوطنية، وانتثاؤها على القوة الايطالية، ويركزون بصفة خاصة على الدور الذي قام به " رمضان الشتيوي " الذي ينسبون إليه المسؤولية الرئيسية في كل ما حاق بهم في هذه المعركة. يقول الجنرال غراتسياني:

(لقد سجل غدر رمضان الشتيوي بنا سلسلة طويلة من الاهانات والهزائم).

2 – ضعف الحس السياسي لدى الكولونيل مياني وسذاجته واغتراره بالعناصر

الوطنية، رغم ماضيها المشبوه مع الايطاليين. واعتداده بنفسه، ومخططاته وعدم الالتفات إلى أي نصيحة وتوجيه، خاصة بعدما تطوع الكثيرون بتحذيرة من رمضان الشتيوي.

3 – تجاهله للأحداث التي وقعت في القبلة وهزيمة القوة الايطالية في وادي مرسيط يوم 7 ابريل حين كان يتأهب للحملة، الأمر الذي كان يحمل في طياته، التنبيه والإنذار، بالموقف المحتمل للمحلات الوطنية.

4 – الأساليب التعسفية التي استخدمها في تجنيد الوطنيين للحملة، وتسخيرهم للعمل بها دون مراعاة لظروفهم ومشاعرهم، وقرب موسم الحصاد.

5– تصعيد الكولونيل مياني للموقف، باقدامه على الأعمال الانتقامية التي قام بها بعد الهزيمة وإعدامه لعدد من الشخصيات الوطنية. مما أدى إلى انتشار الثورة وإشعالها في كافة أنحاء البلاد.

وهكذا تبددت الهالة التي احاطت بشخصية الكولونيل مياني، في نظر الدارسين من مواطنيه، فبعد أن كان القائد المظفر للحملة التاريخية، وصف، بأنه كان خاليا من المواهب الضرورية اللازمة للقائد في الحروب الاستعمارية ونعت بالأنانية والغطرسة، وتقلب المزاج، وعدم السيطرة على الأعصاب، والاستسلام للاثارة والانفعال، إلى غير ذلك من الأوصاف التي كانت حكما عليه بالنهاية.

المراجع

1 – خليفة محمد التليسي " معجم معارك الجهاد ". ص 405 – 410.

2 – مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الايطالي.

معركة القسطل

من أهم المعارك التي جرت بين المجاهدين العرب والقوات الصهيونية في فلسطين. حيث كان الموقف العربي في فلسطين يميل إلى صالح العرب منذ بداية ثورة 1947 حتى نهاية آذار 1948. وقد وجّه عرب فلسطين عدة ضربات موجعة للصهيونيين في المدن الرئيسة وغيرها من القطاعات. وسجلوا عليهم في الأيام العشرة الأخيرة من شهر آذار سنة 1948 انتصاراً ساحقاً في معركتين كبيرتين في منطقة القدس. الأولى معركة شعفاط في 24 آذار، والثانية معركة الدهيشة في 29 آذار. واشتدت بذلك وطأة الحصار العربي على مدينة تل أبيب، بسبب سيطرة العرب على جميع الطرق المؤدية إلى مدينة القدس. وقد أخذت الروح المعنوية لسكان القدس اليهود تنهار ويغمرها اليأس.

وكان الصهيونيون يستعدون خلال الأسابيع القليلة التي سبقت إنتهاء الإنتداب البريطاني في منتصف أيار 1948 للقيام بعمليات عسكرية واسعة غرضها الاستيلاء على أكبر مساحة من الأرض التي تنسحب منها القوات البريطانية وضمها إلى (دولتهم) عند قيامها. وقد وضعوا لذلك خططاً أطلقوا عليها أسماء رمزية. وكان من بينها عملية تهدف إلى فتح طريق القدس – تل أبيب وفك الحصار عن يهود القدس. وقد أطلقوا عليها الإسم الرمزي " نحشون " وخصصوا لها 5000 رجل من قوات الهاغاناه والبالماخ والأرغون والشتيرن، مزودين بأسلحة حديثة اشتروها من تشيكوسلوفاكيا ونقلوها إلى فلسطين بحراً وجواً إلى جانب الدبابات الخفيفة والسيارات المصفحة التي حصلوا عليها من سلطات الإنتداب البريطاني في مناسبات متعددة.

سافر عبد القادر الحسيني، قائد جيش الجهاد المقدس إلى دمشق في أواخر آذار 1948 للاتصال باللجنة العسكرية التابعة لجامعة الدول العربية والحصول على أسلحة ومعدات لازمة لقواته على ضوء المعلومات التي توافرت لديه عن قرب قيام الصهيونيين بهجوم كبير وفتح طريق القدس، والسيطرة عليه. وقد تسلم القيادة في غيابه نائبه كامل عريقات الذي قام إثر معركة الدهيشة (قرب بيت لحم) بنقل بعض قوات الجهاد المقدس

إلى جبال القدس لتدعم قوات المجاهدين التي كانت تتصدى للقوات الصهيونية في منطقة باب الواد والقرى الواقعة على جانبي طريق القدس – تل أبيب.

وصلت إلى قيادة الجهاد المقدس معلومات تفيد أن الصهيونيين قرروا تقديم الموعد المحدد لتنفيذ هجومهم إلى الثاني من نيسان بدلاً من السادس منه. ولذا عقد كامل عريقات إجتماعاً مع الشيخ حسن سلامة قائد قوات الجهاد المقدس في قطاع يافا ووضعا خطة مجابهة هذا الهجوم الصهيوني وحدّدا مهمة القوات في كل قطاع من القطاعين اللذين يتوليان أمرهما. ثم عقد كامل عريقات في الأول من نيسان إجتماعاً عسكرياً في أحد مواقع القدس حضره قادة المجاهدين في هذا القطاع وهم إبراهيم أبو ديّة ورشيد عريقات وعبد الحليم الجيلاني وبهجت أبو غربية وخليل منون وفوزي القطب وغيرهم. وقد اتخذ المجتمعون قرارات حشدوا على ضوئها قوات جيش الجهاد المقدس في المنطقة وعزّزوها بشباب القرى المسلّحين ووزعوهم ليلاً بسرعة فائقة على مراكز باب الواد وبيت محسير وساريس والقسطل. ولم تغفل القيادة عن منطقة بيت لحم إذ قد يحاول الصهيونيون الوصول إلى القدس عن طريق عرتوف – كفار عصيون – بيت لحم. وأما في قطاع يافا واللد والرملة فقد حشد حسن سلامة قسماً كبيراً من قوات المجاهدين العاملين بإمرته في منطقة دير محيسن (قضاء الرملة) استعداداً لمقاومة الهجوم المنتظر.

بدأ الصهيونيون تنفيذ خطة " نحشون " ظهر يوم 2 / 4 / 1948، فاتجه قسم من قواتهم إلى منطقة دير محيسن والقسم الآخر إلى ممر باب الواد لاقتحامه والاستيلاء على القسطل فتصدى حسن سلامة مع قوات الجهاد المقدس في دير محيسن للقوات الصهيونية، وتمكن بعد معركة عنيفة، من إحباط هجومها في تلك المنطقة. وتأهبت قواته نحو باب الواد لإنجاد رفاقهم هناك. ولكن وصول نجدات صهيونية إلى ميدان المعركة في دير محيسن حال دون ذلك فاضطرت القوات إلى خوض معركة جديدة مع الصهيونيين انتهت عند منتصف الليل بفوز المجاهدين.

أما القسم الثاني من القوات الصهيونية الذي اتجه إلى باب الواد، وهو القسم الأكبر من قوات عملية " نحشون "، فقد اشتبك معه المجاهدون في معركة عنيفة دامت ساعتين ونصف الساعة. واستطاع الصهيونيون نتيجة تفوقهم في العدد والعدة اقتحام ممر باب

الواد ومهاجمة القرى العربية في المنطقة، وتقدموا في المساء إلى مشارف قرية القسطل وقاموا عند منتصف الليل بمهاجمتها، فتصدّت لهم حامية القرية التي لا يزيد عدد أفرادها على خمسين مقاتلاً من أبنائها. وقد دافع هؤلاء عن قريتهم بضراوة إلى الفجر حتى نفذت ذخيرتهم، فتمكن الصهيونيون من احتلالها وبدأوا على الفور عملية تحصين للتمسك بها لأنها مفتاح طريق القدس – تل أبيب.

كانت القسطل أول قرية عربية يحتلها الصهيونيون عام 1948. وقد سقطت بعدها دير محيسن وخلدة، فهزّت الحادثة الشعب العربي الفلسطيني هزّاً عنيفا وانطلق المئات من شباب القدس وقراها ورجال العشائر يطالبون قيادات جيش الجهاد الإعداد لهجوم مضاد سريع، فحشدت القوات من جميع القطاعات في منطقة القدس. وتقدمت هذه القوات بقيادة كامل عريقات عبر بيت صفافا إلى أن وصلت إلى عين كارم وانضّم إليها شبابها بقيادة خليل منّون، كما انضم عدد من شباب القرى المسلحين. وتابع الجميع التقدم أثناء الليل باتجاه القسطل ووصلوا إلى موقع يبعد عنها كيلو مترين مع الإشراقة الأولى لصباح يوم الرابع من نيسان. وتمّ حشد قوة من المجاهدين المتمرسين حول محاجر " الياشار " التي تبعد عن القسطل حوالي كيلو مترين، وكان الصهيونيون قد اتخذوا منها مراكز أمامية. وقد بدأ المجاهدون يقتحمونها فجر الرابع من نيسان فاحتلوها، ثم تقدمت قواتهم بقيادة كامل عريقات تحت وابل من نيران العدو الشديدة. وقاوم الصهيونيون الهجوم العربي بشدة ودام الإشتباك إلى أن حلّ الظلام فاضطر الصهيونيون إلى إخلاء هذه المراكز أمام ضغط المجاهدين والتراجع نحو القرية. وغدا المهاجمون العرب يحيطون بالقسطل ويحاصرون الصهيونيين فيها ويتبادلون معهم نيراناً متقطعة طوال الليل.

استمر وصول النجدات العربية إلى جبهة القسطل طوال يوم 5 نيسان، فوصل عبد الله العمري على رأس قوة من أبناء بيت صفافا والقرى المجاورة، ووصل الشيخ هارون بن جازي مع قوة من عشيرة الحويطات، وجاء عدد من الشباب الأردنيين المتطوعين، واشتد ساعد المقاتلين العرب بوصول هؤلاء وأجروا توزيعهم على المواقع المختلفة.

شن المجاهدون هجومهم العام على القرية فانطلقت مجموعات منهم بقيادة الحاج

محمود درويش وصبحي أبو جبارة إلى الجهة الشمالية منها حيث مواقع الصهيونيين الخلفية. ودار قتال عنيف حتى ساعات الليل الأخيرة، وتمكن المجاهدون بعد مقاومة عنيفة من دفع الصهيونيّين إلى داخل القرية وأصبحوا هم على بعد 200 متراً من وسطها. وقد استمر الصهيونيون في إطلاق النار من بعض مواقعهم طوال الليل. لكن العرب لم يردّوا عليهم رغبة منهم في توفير الذخيرة وقضى المجاهدون ليلتهم في حالة تيقّظ قصوى.

شدّد المجاهدون طوق الحصار الذي بدأ مع بداية ليلة السادس من نيسان، وواصلوا الإطباق على القرية بمعنويات عالية رغم نيران مدفعية الصهيونيين الشديدة. وفي الساعة 2,30 من صباح 6 نيسان أصيب القائد كامل عريقات بجراح فاضطربت صفوف المجاهدين في حين اشتدت غزارة نيران الأعداء، واستماتوا للاحتفاظ بالقسطل بأي ثمن. وأخذت ذخيرة المجاهدين في هذه الأثناء تقلّ شيئاً فشيئاً.

حمل أبو ديّة كامل عريقات على ظهره إلى قرية صوبا بعيداً عن ميدان المعركة، ثم عاد إلى الساحة فجمع شمل المجاهدين وأنهى الفوضى التي بدأت تدبّ في صفوفهم، وبث في نفوسهم الحماسة وحثهم على متابعة القتال وقادهم في هجوم جديد على القرية يعاونه عبد الحليم الجيلاني.

ووصلت في صباح 6 نيسان نجدة قوية من المجاهدين أرسلها بهجت أبو غربية من القدس التي كان يتولى قيادة حاميتها فاشتد ساعد العرب وثبتوا في مواقعهم المحيطة بالقرية ونواحيها الشرقية والشمالية والجنوبية على الرغم من الهجوم المضاد الذي شنه الصهيونيون واستعملوا فيه المدفعية والطائرات واستمر ساعات طويلة.

وصلت النجدات إلى الصهيونيين الذين وسّعوا نطاق عملياتهم إلى بعض القرى العربية المجاورة ليحولوا بين أهلها ونجدة إخوانهم في القسطل, واستطاعوا إحباط محاولات المجاهدين لاحتلال القرية ومال الموقف إلى صالحهم. ولكن المجاهدين الذين كانت قلة الذخيرة تفتّ في عضدهم صمدوا، واستطاع ابراهيم أبو ديّة مع عدد من الرجال اختراق أحد مواقع العدو ونسف بعض البيوت التي تحصّن أفراده فيها والعودة بسلام.

وصل عبد القادر الحسيني من دمشق إلى القدس صباح يوم 7 نيسان، وتوجه بعد

ظهر هذا اليوم نفسه إلى القسطل فتولى أمور القتال وأمسك بزمام الموقف وأعاد تنظيم قوات المجاهدين المرابطة هناك على النحو التالي:

1) على الميمنة في الجهة الشرقية من القسطل مجموعة من المقاتلين بقيادة حافظ بركات.

2) على الميسرة من الجهة الغربية من القسطل، مقاتلو البدو بقيادة الشيخ هارون بن جازي.

3) في القلب من الجهة الجنوبية من القسطل، فصيلتان بقيادة إبراهيم أبو ديّة.

4) في موقع القيادة كل من عبد القادر الحسيني وعبد الله العمري وعلي الموسوس.

رابطت مجموعة صغيرة من رجال الجهاد المقدس بقيادة صبحي أبو جبارة في الجهة المقابلة، ورابطت مجموعة أخرى من متطوعي القدس ورام الله بقيادة الشيخ عبد الفتاح المزرعاوي في قالونيا لتسند بنيرانها قوات المجاهدين في هجومها على القسطل.

بدأ الهجوم العربي على القسطل وفق هذا الترتيب في الساعة 23.00 من يوم 7 / 4 / 1948. وقد تمكنت قوات القلب والميسرة من اكتساح مواقع العدو واستحكاماته الأمامية، واتصلت قوات الفريقين وكادت تدخل القرية. ولكن تقدم القوات من الجهة الشرقية كان صعباً، إذ نفذت ذخيرة كثير من المجاهدين وأصيب إبراهيم أبو ديّة مع 16 من رجاله بجراح مختلفة فأخذ المجاهدون يتراجعون أمام كثافة نيران العدو.

وهنا اندفع عبد القادر الحسيني لينقذ الموقف، وأسرع خلفه عدد من رفاقه. وقد اقتحم عبد القادر الحسيني القرية تحت وابل من نيران الصهيونيين واستمر القتال طوال الليل دون أن يتضح الموقف. ولما طلع فجر يوم 8 نيسان أعلنت القيادة في ساحة القتال أن عبد القادر الحسيني ورفاقه مطوقون في القرية، فأسرعت النجدات من القدس والمدن والقرى المجاورة باتجاه القسطل. وكان بينها فريق من حراس الحرم الشريف بقيادة عبد المجيد المدني الحجازي، وفريق من شباب القدس بقيادة بهجت أبو غربيّة ومحمد عادل النجار، ومجموعة من جيش الإنقاذ بقيادة جمال رشيد (العراقي)، وأخرى من الخليل بقيادة عبد الحميد الشلف، وثلّة من رجال قرى الوادية بقيادة رشيد عريقات.

ظل الموقف غامضاً صباح يوم 8 نيسان في حين كانت النجدات تصل تباعاً إلى ساحة المعركة. واستمر تبادل إطلاق النيران بين الفريقين، ولكن المجاهدين كانوا يفتقرون إلى التنظيم وتنقصهم القيادة الحكيمة، فجاءهم رشيد عريقات وسعى إلى تنظيمهم وطلب تركيز نيران الأسلحة المتبقية جميعها على القرية لاقتحامها. ولم يكن مع المجاهدين آنذاك سوى مدفع هاون من عيار بوصتين وعدد من رشاشات " برن " و " لويس ".

وبدأ الإقتحام في الساعة 11,00 وانتهى في الساعة 14,00 بدخول القرية وتحريرها. وقد فرّ الصهيونيون باتجاه طريق القدس – يافا، في الجهة الشمالية، حيث ركبوا سياراتهم المصفحة وغادروا منطقة القسطل. وحوالي الساعة 14,30 وجد المجاهدون القائد عبد القادر الحسيني شهيداً في أحد بيوت القسطل. وقد حاول قادتهم ألا يشغلهم ذلك عن استثمار النصر، فطلبوا منهم متابعة القتال ومطاردة الأعداء. ولكن استشهاد عبد القادر الحسيني ترك في نفوس المجاهدين ألماً عميقاً، فساد صفوفهم الإرتباك وفقد القادة سيطرتهم على الأفراد، وأخذت النجدات تغادر القسطل فلم يبق في القرية سوى رشيد عريقات وعبد الحليم الجيلاني وقواتهما.

بُعثت رسائل سريعة إلى القرى المجاورة طُلب فيها إرسال المناضلين للمرابطة في القرية والمحافظة عليها. ولكن الإستجابة كانت محدودة، إذ شغل الناس باستشهاد عبد القادر الحسيني. وأخيرا غادر من بقي في القسطل مواقعهم في القرية، وعاد رشيد عريقات في الساعة الثانية من مساء 8 نيسان إلى المنطقة الشرقية من القدس حيث موقعه الأصلي. وبقي الجيلاني إلى وقت متأخر من ليلة 9 نيسان، ثم أخلى القسطل مع من معه من المجاهدين، فعاد الصهيونيون واحتلوها يوم 9 / 4 / 1948 وتمسكوا بها.

كانت معركة القسطل رغم الظروف غير المتكافئة مثلاً رائعا من أمثلة التضحية الفردية والحماس والإندفاع العربي. ولكنها كانت أيضاً إنتصاراً ضائعاً نتيجة ضعف التسليح والإفتقار إلى التنظيم وقلة الذخائر وسوء الخدمات الطبيّة الميدانية ووسائل الإتصال.

المراجع

1 - عارف العارف: النكبة، ج1، بيروت 1956.

2 - الموسوعة الفلسطينية: الجزء الثالث، ص: 570 - 573. إشراف د. أنيس صايغ. الطبعة الأولى، دمشق 1984.

معركــة قصر العظم
(18 تشرين الأول 1925)

من أهم المعـارك التـي خاضـهـا المجـاهدون السـوريون ضـد القـوات الاسـتعمارية الفرنسية سنة 1925، حيث كان قصر العظم المعـروف – فـي حـيّ البزوريّـة – يسـتعمل مسكناً للمندوب السامي. وكانت تحميه قـوة كبيرة مـن المصفحـات والجنـود عندمـا يكـون المندوب السامي موجوداً فيه. وشاء الجنرال " ساراي " أن يـودّع القصـر بمناسـبة رحيلـه إلى باريس في يوم الثامن عشر من تشرين الأول، فجرى له احتفال كبير حضـره ضبـاط القيادة الفرنسية وعائلاتهم، واصطف الجنود فـي ردهـات ودهـاليز وعلـى سـطوح القصـر تأهباً للطوارئ.

وفـي السـاعة الثانيـة مـن النهـار ترامـى إلـى القيـادة أن حركـة مريبـة تجـري فـي المدينة، وخاصة في حيّ الميدان. وبعد ساعة واحـدة تـأكدت هـذه الأنبـاء بسـقوط مخفـر " باب مصلى " و " باب مصر " بيد الثوار. ورغم أن الجيش الفرنسي كان في حالة استنفار، فقد وجدت القيادة صعوبة كبيرة في السيطرة علـى نفسـها، وتلافـي الوضـع قبـل أن تسـقط المدينة بأسرها بيد الثوار. وكـان كـل مـا فعلتـه، أن سلطت مدافعهـا علـى أحيـاء المدينـة، وأمرت أسراب طائراتها بالتزوّد بالقنابل الثقيلة المتفجرة والمحرقة. كما أصدرت أمراً إلى إحدى كواكب المصفحات الرشاشة أن تنتقل إلى قصر العظم زيادة في الحماية.

وفيما كانت كوكبة المصفحات في طريقها لتنفيذ المهمة، كان الثوار وعلى رأسـهم محمد الأشمر وحسن الخراط قد حـاصـروا القصـر واسـتعدوا لملاقـاة أيـة نجـدة تأتيـه مـن الخـارج. ووصلت المصفحات إلى " الدرويشية "، ثم انحرفت الأولى لتدخل سـوق مدحـت باشا. وكان كل شيء هادئاً. واستطلعت المصفحة السوق من أوله إلـى آخـره، فلـم يسـترع انتباه كشافتها شيء يذكر. إلا أن المحلات كانت مغلقـة عـن آخرهـا، والظـلام مخيـم علـى السوق بأسره. وعادت المصفحة إلى مدخل السوق وقدمت تقريرها: " لا أثر للثوار... ".

واقتـحمت المصفحات السوق، وما كادت تصل إلى مدخل " البزورية " حتى انهال

عليها الرصـــاص مـن كـل جانب، ومن أمكنة خفيّة لا يمكن معرفتها. وفجأة وجـد سـدنة المصفحة أنفسهم كالعميان، فقد عطلت مصـابيح عربـاتهم الأسـيتيلينية وخـرق الرصـاص صفائحها المعدنية، ثم أخذ الرصاص ينفذ إلى داخلها. رفع السدنة الأبراج يريدون الهـرب ولكن بعد فوات الأوان. كما أن التراجع من رابع المستحيلات. وعلى لهيب النـار المنبعثـة من المصفحات، أدرك من بقي حيّاً من الجنود الفرنسيين أنه قـد حكـم عليـه بـالإعدام، فقد أبيد أفراد الكوكبة واحترقت مصفحاتهم عن آخرها.

أما ما كان يجري في قصـر العظـم، فقـد اسـتطاع المجـاهدون أن يـنزعوا أحجـار الجدران الشرقية وأن ينفذوا إلى داخله، وعلى أنغام لحن " الفالس " سمع المحتفلون بـوداع الجنرال " ساراي " رحـى معركـة عنيفـة تـدور فـي باحـة القصـر. فسـقطت الأقـداح مـن الأيدي، وأطفئ النور، وانبعثت صرخات الرعب من كل جانب. وقد تمكن " ساراي " من الهرب كما يهرب المغامرون، قبل دقيقة واحدة من وصول أحد الثوار إليه. فقد دخل الثائر ' حسن المقبعة ' إلى الغرفة التي كان المندوب السـامي موجـوداً فيهـا، وهـو يشـقّ لنفسـه طريقاً بين وابل الرصاص. ويبدو أن المندوب فرّ من إحدى النوافذ.

ولم يستطع حرس القصر الذين أبيد معظمهم من السيطرة على الوضع إلا بإحراق القصر، وقد فعلوا ذلك دون تأخير. وهنا انقلب المجـاهدون مـن رجـال ثـورة، إلـى رجـال إطفاء. فأخذوا يكافحون النار، لا لإنقاذ أنفسهم، بل لإنقـاذ آثـار القصـر مـن الحريـق. وقـد استشهد " حسن المقبعة " بعد إخمـاد الحريـق، وهـو خـارج مـن القصـر. وكـان استشـهاده إغتيالاً بيد الجنود المذعورين المختبئين في بحيرة الماء.

ظنت القيادة الفرنسـية أن دمشـق سـقطت بـأيدي الثوار، فـأعطت الأمـر لمدافعهـا وطائراتها ببدء العمل. باشـرت المدفعيـة 105 و 75 بـإطلاق حممهـا علـى الـدور الآمنـة المطمئنة واستمر القصف طوال الليل. وفـي الصبـاح حلقـت الطـائرات فـي سـماء المدينـة وراحت تلقي بأحمالها فوق المناطق والأحياء التي لـم يصلهـا الحريـق. ودام القصـف مـدة ثمـان وأربعيـن سـاعة، إلـى أن خرجـت إحـدى طـائرات الاستكشـاف وحلقـت علــى علـوّ منخفض، ثم عادت لتعطي تقريرها:

" لم يبق جدار في حيّ الميدان... ولا أثر لأي مخلوق... ".

ولم يكتفِ الفرنسيون بحرق المدينة وتهديم دورها، وقتل سكانها بأبشع طريقة عرفتها البشرية، بل تابعوا أعمالهم التعسفية بفرض الشروط والغرامات. ففي اليوم التالي من ابتداء القصف، مثلت أمام القيادة الفرنسية بضع نساء ثكلى وأرامل ومهدّمات البيوت، ورحن يتوسلن إلى الجنرال " غاملان "- بالآهات والدموع - أن يرفع القصف عن المدينة، فأجابهنّ الجنرال بعنجهية القائد الفرنسي، وقد أحس بالظفر غير الشريف الذي كان يحنّ إلى الحصول عليه، أجاب مملياً شروطه:

" أولاً، ليس بالإمكان رفع القصف عن المدينة، لأن القنابل التي أمرنا بإطلاقها لم تستنفد بعد... ثانياً، لدينا بعد أطنان من القنابل، فإذا لم يرضخ الأهالي لمطاليبنا بدفع غرامة قدرها مائة ألف ليرة ذهبية، وثلاثة آلاف بندقية حربية، مع كل منها مائة طلقة، فإنني سآمر باستمرار القصف حتى تمحى المدينة عن الخريطة... ".

وفتح الجنرال الخريطة أمام النسوة المذهولات وأراهنّ مدينة دمشق، ثم أشعل عوداً من الثقاب وأحرق القسم الذي تحتله المدينة على الخريطة. فأغمي على امرأتين وهربت الثالثة، أما الباقيات فقد صرخن بنبرة واحدة: " الله ينتقم منكم يا اولاد الحرام ". وقهقه الجنرال وأعاد هذه العبارات بلغة ركيكة.

وفي المساء، أعلن المعتمد البريطاني في دمشق بلاغاً إلى الرعايا البريطانيين جاء فيه:

" نظراً لتردد الشاميّين في إجابة السلطات الفرنسية بدفع الغرامات والأسلحة والذخائر المطلوبة منهم، فإن القيادة الفرنسية ستستأنف قصف المدينة من جديد. فعلى رعايا مملكة صاحب الجلالة أن يؤموا دار القنصلية البريطانية صباح السبت 24 تشرين الأول 1925، مزوّدين من القوت بما يكفيهم لمدة أسبوع، ومصحوبين بالأوراق الرسمية التي تثبت تبعيتهم لمملكة صاحب الجلالة، ملك بريطانيا والهند وكافة المستعمرات... ".

وكان لهذا البيان الفظيع أسوأ الوقع في نفوس السكان، فوقعوا في حيرة رهيبة، ولم يجدوا طريقة لتنفيذ هذه المطالب، إلا بالالتحاق بقوات الثورة المرابطة في الغوطة الشرقية، والتي تكمل استعدادها للمرة القادمة. وأيقن الفرنسيون أن مطالبيهم لن تنفّذ، وفي الوقت نفسه كانوا يخشون من إثارة الرأي العام العالمي - عدا بريطانيا - مما جعلهم

يطلبون من الحكومة المحلية أن تتعهد بدفع هذه الغرامة، على أن تستردّها فيما بعد من الأهلين على شكل ضرائب. وأما البنادق والذخائر فقد أوعزت السلطات الفرنسية إلى المتطوعين في صفوفها أن يسرقوا من القلعة ويبيعوا الأهلين. ووصلت قيمة البندقية العتيقة طراز (7 – 15) إلى عشر ليرات ذهبية، كان الأهلون يبيعون أنقاض بيوتهم ليشتروها ويسلموها إلى السلطات. في حين كان كثير منهم ما إن يحملوا البندقية حتى يطلقّوا حياة الخوف ويلتحقوا بالثورة.

(ولعلّ ما يعبّر عن الشرف العربي من جهة، والغدر الفرنسي وهمجّيتة من جهة أخرى، تلك الرسالة التي بعث بها المجاهد حسن الخرّاط إلى المندوب السامي الفرنسي، والتي يقول فيها:)

"... أما سياسيّا، فإنني كلّلت شرف العرب بما هو أهله واستحسن فعلي العالم كله لحسن إدارة رجالي ومحافظتهم على إخواننا المسيحيين والأجانب خصوصا، وعلى الضعفاء عموماً. وأما أنت أيها المندوب السامي فقد نحرت شرف فرنسا، وصوّبت قنابلك إلى قلبها بدلاً من قلبنا... أنت ممثل فرنسا وأنا حارس دمشق... أنا أسرت جندك أسراً شريفاً، وأنت ضربت النساء والشيوخ والأطفال ضرباً دنيئاً... أنا حافظت على الآثار القديمة وأنت هدمتها وحرقتها يا جننار (أي يا جنرال) يا ممثل فرنسا. كان بودّك أن تجعلها حرباً دينيّة إسلامية وتفرّق بيننا وبين إخواننا، ولكن الله أبى ونحن إرادتنا من إرادة الله فأبينا... لقد ضيّعت رشدك، وخربت الأحياء الإسلامية على رؤوس أهليها آملاً أن أقابلك بالمثل، وقد فاتك أننا عرب نحافظ على الجار... أنت جننار وقائد الفرق والجيوش، وأنا حارس بسيط. أنا جمعت عقلي وأنت ضيّعت رشدك... إلخ ".

المراجع

1 – سلامة عبيد " الثورة السورية الكبرى " (على ضوء وثائق لم تنشر). مطابع دار الغد. بيروت 1971. ص 176.

2 – فارس زرزور " البطولات: معارك الحرية في سورية ". الطبعة الثانية 1971. ص 230 – 235 و 265.

3 – " الموسوعة العسكرية " بإشراف المقدم الهيثم الأيوبي. الجزء الثاني. المؤسسة العربية للدراسات والنشر. بيروت. الطبعة الأولى 1979. ص 59.

معركـة القَطَمُون

القطمون حي عربي واقع غربي مدينة القدس إلى الجنوب قليلاً. ويقوم على رابيـة مشرفة على معظـم الأحيـاء العربيـة واليهوديـة فـي القـدس الجديـدة، وهـي: البقعـا الفوقـا، والبقعا التحتا، ورحافيا، وميكور حاييم، وتل بيوت. وأكثر نقاط القطمون إشـرافاً ديـر مـار سمعان، وهو مقرّ الكرسي البطريركي الصيفي للروم الأرثوذكس. ونظرا لهذا كان للحـي، ولبناء الدير بالذات، قيمـة عسـكرية كـبرى عرفهـا الصـهيونيـون فسـعوا إلـى احتلالـه منـذ أواخر شهر نيسان 1948، فـي حيـن أهمـل سـكان الحـي تحصينـه وتركـوا مهمـة الدفـاع للمجاهدين من قوات جيش الجهاد المقدس، وكانوا قلّة بقيادة المناضل إبراهيم أبو ديّة. ولـم يكن هؤلاء مزودين بالاسلحة الكافية لأن رقابة سـلطات الانتـداب البريطانيـة علـى إدخـال السلاح إلى الفلسطينيين من الخـارج وحمله ونقله كانت شديدة، بينما كـانت السـلطات ذاتهـا تتعاضى عن تسليح اليهود.

مهّد الصهيونيون لاحتلال حي القطمون بالإستيلاء على معظم المباني والمرتفعات المشرفة على الحي وحصّنوها جيـداً، ولا سيما مبنـى " زلـير شـتاين " المؤلـف مـن أربـع طبقات. وسيطروا على جميع وسائط النقل حتـى أصبحـت باصـات القطمـون عـاجزة عـن الوصول إلى نقطة أبعد من الحي اليهودي " الثوري ". ومن هناك كان الركاب ينقلون إلـى باب الخليل في سيارات مصفحة لأن اليهود كانوا يطلقون من حيّ مونتفيـوري النـار علـى كل سيارة ويقابلهم العرب بالمثل من جبل صهيون. قد أدّى هذا الوضع إلـى هجـرة معظـم سـكان القطمـون، ممـا أغـرى الصـهيونيين بمهاجمتـه بعنـف بعـد أن قطعـوا عنـه التيـار الكهربائي والاتصالات الهاتفية يوم 10 / 3 / 1948 ونسفوا ثلاثة منـازل عربيـة. ولكـن المجاهدين استبسلوا في الدفاع عنه وأجبروا المعتدين على الارتداد. وقـد تكـرّر ذلـك عـدة مرات خلال شهري آذار ونيسان 1948.

بـعـد أن فـشـلـت كـافــة المحـاولات فــي القـدس، وبالتـالي فك الحصـار عــن الأحياء اليهودية في القدس، ولا سيّما حيّ " ميكرو حاييم، ومع اقتراب موعد جلاء القوات

البريطانية عن فلسطين، أولت القيادة الصهيونية منطقة القدس جل اهتمامها وعملت على تعزيز قواتها فيها بخيرة رجالها المقاتلين ووحداتها المقاتلة، ومنها اللواء هارئيل (بالماخ) الذي تحرك باتجاه القدس يوم 20 / 4 / 1948 في قافلة من 350 عربة على رأسها دافيد بن غوريون رئيس الوكالة اليهودية. ولكن هذه القافلة وقعت في كمين أعده لها المجاهدون العرب وتكبدت خسائر فادحة قبل أن تتمكن من التخلص منه بعد وصول النجدات. وعندئذ اتضح للقيادة الصهيونية أنه لا بد لها من خطة متكاملة محضّرة جيداً للسيطرة على منطقة القدس فوضعت ما دعته بخطة " يبوس " (الاسم القديم للقدس بالكنعانية).

كان الهدف المباشر للخطة فك الحصار المضروب على القدس الجديدة والحي اليهودي بالقدس القديمة، بالاستيلاء على المناطق الأربع المسيطرة على المدينة وجوارها، في المرحلة الأولى، وهي: النبي صموئيل، والشيخ جرّاح، والقطمون، ومستشفى اوعستا فكتوريا على جبل المكبّر.

نصّت خطة الهجوم على التحرك على ثلاثة محاور: الأول باتجاه النبي صموئيل بهدف فتح الطريق إلى النبي يعقوب، والثاني باتجاه الشيخ جرّاح للوصول إلى جبل المكبّر، والثالث باتجاه القطمون لتأمين الاتصال بميكرو حاييم والمستعمرات الصهيونية حول مدينة القدس.

بدأ تنفيذ الهجوم يوم 27 / 4 / 1948 على بيت إكسا وشعفاط تمهيداً لاحتلال النبي صموئيل. وفي اليوم التالي هاجم الصهيونيون حي الشيخ جرّاح بينما كانت القوة المخصصة لاحتلال القطمون تستعد لتنفيذ مهمتها. وفي ليلة 29 – 30 نيسان تحركت هذه القوة باتجاه دير مارسمعان عبر درب شديد الوعورة في الوادي، ثم تسلقت الرابية من أقسى منحدراتها بهدف مفاجأة المناضلين الذين تمركزوا هناك معتبرين هذا الاتجاه غير صالح للهجوم. وعندما أصبحت على مقربة من الذروة استراحت فترة ثم هاجمت الدير وتمكنت من احتلاله بعد معركة قصيرة مع بعض المقاتلين العراقيين التابعين لقوات الجهاد المقدس. إلا أن هؤلاء تمركزوا بعد انسحابهم من الدير في البنايات المجاورة وأمطروا الصهيونيين نيراناً حامية أوقعت فيهم خسائر كبيرة ومنعتهم من توسيع رقعة الاحتلال،

فقرر القائد الصهيوني، وقد بدأت خيوط الفجر تلوح، أن يتحصن داخل الدير بانتظار الظلام لمتابعة التقدم. وكان المجاهدون آنئذ يقتربون خلسة من العدو مستفيدين من أسوار الحدائق وجدران المنازل، وشنوا هجوماً معاكساً على القوات الصهيونية التي بدأت تشعر بحرج الموقف، فصعد عدد منهم إلى سطوح الدير وقذفوا العرب بعدد كبير من القنابل اليدوية، ممّا حدّ من قوة الهجوم المعاكس ثم إيقافه. وكان عدد القتلى والجرحى بين الصهيونيّين قد تزايد كثيراً وساور قائدهم الشك بإمكانية الاحتفاظ بالدير، ففكر بالانسحاب، ولكن نظراً لاستحالة نقل الجرحى فقد قرر الانتظار حتى يحل الظلام ثم يبدأ بالانسحاب.

وفي تلك الأثناء وردت أنباء من حي ميكور حاييم المحاصر بأن أعداداً كبيرة من الأهالي العرب بدأت تغادر الحي عن طريق السفوح الأخرى، الأمر الذي رفع معنويات القوات الصهيونية.

عاود العرب بعد ظهر يوم 30 نيسان الهجوم على الدير، تساندهم مصفحة تحمل مدفعاً. ولكنهم لم يحققوا أي نجاح لعجزهم عن استغلال القدرة النيرانية للمصفحة بشكل جيد، فتوقفوا. وفي المساء سمعت أصوات انفجارات شديدة متواصلة. وعلم الصهيونيون المحاصرون في الدير أن هذه الرمايات من مدفعية اللواء " عتصيوني " الذي يتحرك من اتجاه كريات شموئيل لدعمهم، فقرروا الصمود رغم الخسائر الكبيرة التي منوا بها. ومع حلول الظلام مساء يوم 30 نيسان بدأت قوات اللواء عتصيوني تصل إلى الدير وتحل محل قوات اللواء هارئيل الذي عاد إلى القدس حاملاً جرحاه وجثث قتلاه. وفي صباح 1 / 5 / 1948 تابعت قوات اللواء عتصيوني تقدمها من منزل إلى آخر حتى تمّ لها الاتصال بحي ميكور حاييم وسيطرت على حي القطمون بكامله.

بعد أن أخلي حي القطمون من معظم سكانه، لم يبق فيه سوى بعض العائلات الفقيرة كان أفرادها يتعاونون في الدفاع عنه مع المجاهدين العراقيين والفلسطينيين من قوات الجهاد المقدس الذين كان عددهم يراوح بين 180 و 200 مجاهد، بعد وصول نجدة إليهم من قوات جيش الإنقاذ بقيادة عبد الحميد الراوي. ولكن هؤلاء لم يمكثوا في الحي سوى 24 ساعة ثم انسحبوا. كما كان هناك حوالي 30 جندياً من القوات الأردنية مع ثلاث عربات مدرعة مكلفة حماية القنصلية العراقية، وما إن بدأ هؤلاء بمساعدة

المجاهدين حتى أصدر القائد البريطاني أمراً للقائد الأردني عبد الله التل لسحبها فوراً وإلا تعرضت لقصف المدافع البريطانية. ولما أعلم التل الملك عبد الله بذلك أوعز إليه بتنفيذ الأمر فانسحبت المفرزة الأردنية.

وحاول إبراهيم أبو ديّة، بعد أن جمع حوالي 300 مجاهد من القرى المجاورة القيام بهجوم معاكس على القطمون واسترداده، ولكن القوات البريطانية حالت دون وصوله.

وهكذا سقط أجمل حي عربي في القدس بسبب تفوق العدو العددي الكبير (بلغت القوات المهاجمة حوالي ثلاثة آلاف) وتقاعس الجنود البريطانيّون عن تنفيذ وعودهم بالمحافظة على الوضع القائم حتى انتهاء الإنتداب.

المراجع

1 – عارف العارف: النكبة، بيروت 1956.

2 – حسن البدري: الحرب في أرض السلام، القاهرة 1976.

3 – عبد الله التل: كارثة فلسطين، القاهرة 1959.

4 – محمد فائز القصري: حرب فلسطين. دمشق 1962.

5 – الموسوعة الفلسطينية: الجزء الثالث ص: 582 – 584، إشراف د. أنيس صايغ. الطبعة الأولى، دمشق 1984.

حرفا " الكاف " و " اللام "

(ك) و (ل)

1 – الكاظمة

2 – الكرامة

3 – كفار عصيون

4 – الكفر

5 – لبدة

6 – اللسّانة

7 – لوشة

معركـــة الكاظمة

أو " ذات الســلاســل "

ان دراسـة تـاريـخ الـحـرب لـيســت - كـمـا قـال الـخـبـيـر الـعـسكري الالمـاني " مولتكه " (Moltke) - وسيلة للإيناس والبهجـة دائمـاً... إنمـا يجـد فيـه المـرء حقـائق ناصعة تهتز لها الأرواح... حقائق تنبئنا بالنمط الذي مشت عليه الحوادث، والدواعي التـي وجهت تلـك الحـوادث وأجـرت مسيرها فـي وجهـة معلومـة. وهـذه الحقـائق تنبئنـا أيضـاً بأسلوب حدوثها مرة أخرى.

والجدير بالذكر أن أول عربي في التاريخ راودته فكرة تحرير العراق من الفرس وضمّه إلى الحظيرة العربية كان على وجه التـأكيد " المثنّـى بـن حارثـة الشـيباني "، فكـان شغله الشاغل وحلـم يقظتـه الـذي لا يـبرح مخيّلتـه أينمـا رحـل وحلّ... حلم كـانت تغذّيـه ذكريات معركة " ذي قار " حيث كان له ولأفراد أسرته وقبيلتــه نصيـب كبـير مـن شـرفها ومجدها، وتشدّد من عزيمته وارادته وتصميمه عقيدة آمن بها من غير جبر ولا إكراه!

ففي السنة التاسعة للهجرة ذهـب وفـد مـن قبيلـة ربيعـة وقبيلـة شـيبان علـى رأسـه المثنّى بن حارثة إلى محمد ﷺ في المدينة يعرضون عليه دخولهم الاسلام، ويشـرحون لـه الموقف في العراق، فرحب محمد بهم وبارك جهادهم.

ولم يتوانَ المثنّى بعد وفاة محمد من جمع قبائله ليحارب بها المرتدين عن الاسـلام من أهل الردّة في البحرين وما جاورها فأحرز عليهم نصراً سهّل على جيش عكرمـة بـن أبي جهل مهمته.

ورجع إلى وطنه العراق وقـد صمّـم علـى قتـال الفـرس بـالقوى التـي كـانت بيده: برجاله المحاربين وعددهم نحو ثمانية آلاف مقاتل... وبماضي قبيلتـه المجيد الـذي حققتـه في معركة " ذي قار "... وبالقوة الروحية الهائلة التي استمدّها من إيمانه بدينه الجديد. فبدأ غاراته على ضفاف الفرات الغربية يقاتل حاميات الفرس المنتشرة على طواره، ويحـرض فلاحي تلك المقاطعات على تحرير أنفسـهم وأرضـهم مـن جـور حكـامهم المستبدين. وقد

سبقت شهرته الى العاصمة العربية، فنبّه عمله هذا الخليفة أبا بكر فسأل: - من هـذا الـذي تأتينا أخبار وقائعه قبل معرفة نسبه؟

فأجابه قيس بن عاصم: هذا رجل غير خامل الذكـر ولا مجهـول النسـب ولا ذليـل العماد، هذا المثّنى بن حارثة الشيباني!.

ولما ذهب المثّنى الى المدينة يستطلع رأي الخليفة في عمله وعلى خططه الراميـة الى تحرير العراق العربي من حكم الفرس، وجد من الخليفة كل التشجيع علـى الاستمرار على ما بدأ به، واعداً إياه بالعون، فرجع المثّنى الـى العـراق وهـو أشـد حماسـة فـي قتـال الفرس، واستمر يغير على الأطراف مستطلعاً مـدى مقاومـة الفـرس لـه، منتظـراً وصـول النجدات التي وعده الخليفة بها ليقوم بالحركات العسكرية الكبرى التي كانت تراود فكره.

وعندما تـلـقى أمر الخليفة بالالتحاق بخالد بن الوليد... ويتقيّد بـأمره، لـم يجـد فـي ذلك مهانة، بل وجد فيه شرفاً فلبّى النداء وقام بواجبه حتى النهاية...

وفي أوائل السنة الثانيـة عشـرة للهجـرة (أواسـط شـهر مـارس / آذار 633 م)، تلقّى خالد بن الوليد وهو في اليمامة أمراً من الخليفة بالهجوم على الفرس في العـراق بعـد أن يستنفر القبائل غير المرتدّة ويضمّها إلى جيشه الذي قاتل به بني حنيفة، والذي لـم يكـن ليزيد عن ألفي مقـاتل (2000). فأرسـل خـالد إلـى قبـائل مضـر وربيعـة وغيرهمـا مـن القبائل يدعوها إلى المساهمة في تحرير العراق، وعيّن له " النباج " مكاناً للتجمّع.

وطلب الى كل من المثّنى بن حارثة الشيباني وحرملة ومذعور وسلمى – الأمـراء الذين كانوا يقاتلون الفرس في حرب المشاغلة على ضفاف الفرات الغربية – ليجتمعوا بـه برجالهم الذين يبلغون ثمانية آلاف مقاتل في " النباج " ذاتها.

وتمّ التحشد في الموقع المذكور دون أن يلفت نظر الفرس أو ينبههم إلـى خطـره. فأرسلت مضر وربيعة ثمانية آلاف مقاتل، وتمّ للمثنى جمع مثل هذا العدد، فصار مجمـوع الجيش المحتشد في " النباج " ثمانية عشر ألف رجل يقوده خالد بن الوليد.

وفي " النباج " – ذلك المركز الأمين الذي تتشعّب منه طرق متعددة إلى أهم مـدن العراق الجنوبية – وضع خالد بن الوليد خطته لمعركة الفتح الأولى بعد أن استشار المثنى وقـادة جيشـه الآخريـن الذيـن يعرفـون طبـيعة الأرض وطوبوغرافيتها، والقـوى

الفارسية وخصائصها أكثر مما يعرفه خالد بن الوليد عن هذه البلاد التي لم يسبق له أن زارها.

وكانت خطته هذه ترمي الى الاستيلاء على " الأبلة " وهي الميناء الخطير الذي وصفه الخليفة بأنها مفتاح الهند، كما وصفها من بعده بمئات السنين كل من الالمان والانكليز والروس.

وتحقيقاً لهذا الغرض فان أفضل محل يختاره هدفاً أول كان " الحفير " – مركز الماء الوفير وملتقى الطرق العديدة المؤدية تواً إلى " الأبلة " –.

قسم خالد جيشه الى ثلاثة أرتال، تزحف نحو الهدف على الوجه التالي:

1 – رتل المثنّى بن حارثة الشيباني مقدمة سوقية للجيش، يتحرك قبل حركة الجيش بيومين، ويرسل إليه المعلومات التي يستطيع الحصول عليها عن حركات الجيش الفارسي.

2 – رتل عُدَي بن حاتم ويسير قبل حركة القسم الاكبر من الجيش بيوم واحد.

3 – كوكب الجيش بقيادة خالد نفسه.

هذا، وقد علم حاكم الثغر الفارسي، وكان يدعى " هرمز " بزحف الجيش العربي من رسالة بعثها إليه خالد بن الوليد جاء فيها:

" أسلم تسلم أو اعتقد لنفسك وقومك الذمة واقرر بالجزية وإلا فلا تلومنّ إلا نفسك، فقد جئتك بقوم يحبّون الموت كما تحبّون الحياة ". ويغلب على الظن – كما يشير العقيد محمود الدرّة – أن خالداً كان يرمي برسالته هذه إلى تحريض حاكم الفرس على ملاقاته بجيشه بعيداً عن " الأُبُلّة " ومياهها وبساتينها فضلاً عن الغاية المعنوية التي كان يرمي إليها لإفزاع أعدائه وتخويفهم. فليس من الحكمة أن يقبل معركة مثل ما وصفناه، ولا بد أن يناجز خصومه على تعبئة سبق ان اقتبس من فنونها كثيراً في معارك جاهليته واسلامه ولجيشه خبرة في القتال عليها. وقد نجح في مسعاه لأن هرمز بعد أن رأى أن في الأمر اكثر مما كان يراه في غزوات البدو، أسرع فأخبره مليكه في المدائن مستنجداً، وجمع جيشه في " الأُبّلة " ينتظر أخبار العرب فوردته بأنهم تواعدوا على الاجتماع في " الكاظمة " فقرر الزحف إليها. ويظهر أنها كانت مكيدة من العرب دبرت له، إذ علم هرمز

بعد ذلك بأن الجيش العربي لم يتواعد على الاجتماع في " الكاظمة " بل في " الحفير "، فخفّ إليها وتعبّا فيها واضعاً على مجنّبتيه قائدين منتميين الى بيت الملك منتظراً قدوم العرب.

ولما سمع خالد بخبر الفرس واحتلالهم " الحفير " عدل عن فكرته الأولى وأبلغ قادة أرتال جيشه لينحرفوا عنها إلى الكاظمة الواقعة على الخليج. والكاظمة على ما يبدو في الخريطة، تبعد عن " الحفير " ذاتها أكثر من 120 ميلاً الى الشرق، وهي مسافة ليس من السهل قطعها بجيش يبلغ عدده ثمانية عشر ألف محارب دون أن يشعر به الفرس حكام البلاد. وهذا ما حدث في الواقع لأن هرمز علم بعد ذلك بنيّات خالد فأسرع بجيشه وسبق خالد إلى احتلال الكاظمة وسيطر على مياهها العذبة وعبأ جيشه فيها.

وتلاقى الجيشان في الكاظمة، وقيل أن الفرس قد اقترنوا بالسلاسل عزيمة منهم على الدفاع حتى الموت، والماء في أيديهم. وقدم خالد عليهم، فنزل على غير ماء؛ فقالوا له في ذلك، فأمر مناديه فنادى: " ألا أنْزلوا وحُطّوا أثقالكم، ثم جالدوهم على الماء، فَلَعَمْرِي ليصيَرنّ الماء لأصبَر الفريقين، وأكْرَمِ الجندين. فحُطّتْ الأثقال والخيل وقوف؛ ثم زحف إليهم حتى لاقاهم، فاقتتلوا؛ وأرسل الله سحابة فأغدرت ما وراء صفّ المسلمين.

ثم خرج هرمز فنادى على النّزال، فمشى خالد إليه، فالتقيا واختلفا ضربتين، واحتضنه خالد، فشدّ أهل فارس يريدون قتل خالد واستخلاص هرمز من يده، ولكن القعقاع بن عمرو لم يمهلهم وحمل عليهم، وشدّ المسلمون، فانهزم أهل فارس أمامهم، فطاردوهم وركبوا أكتافهم إلى الليل. وانتهت المعركة بنصر العرب على أعدائهم نصراً مبيناً وقتلهم هرمز قائد الفرس.

ولم يكتف خالد بنصر موضعي، بل أراد أن يستغل أول انتصار اسلامي على الفرس استغلالاً له تأثيره الشديد في مجرى الحركات الحربية المقبلة في العراق. فأرسل رتل المثنى يطارد فلول المنهزمين ويطهر منطقة " الأُبُلة " من الشمال من حامياتهم، وبعث كذلك " معقل المزاني " إلى الأبلة ليتسلم حكم المدينة ويجمع مالها وأسراها، وتقدم هو بجيشه الأصلي الى موضع الجسر الأعظم وعلى هامته خوذة هرمز الذهبية المرصّعة بالحجارة الكريمة النادرة، والتي كانت فيما بعد حصته من غنائم وقعة الكاظمة أو معركة

" ذات السلاسل ". فكانت خير شعار ظفر يزين به رأسه كذكرى أول نصر في سبيل تحرير العراق.

أما المثّنى فانه سار شمالاً إلى نهر المرأة حيث حاصر هو وأخوه المعني، الحصن القائم على ضفته وأسر من فيه، وطهر المنطقة كلها من الأعداء.

وعلى هذا النحو، انتهت المعركة الأولى بين المحرّرين والمهزومين في الوقت الذي كانت فيه جيوش الانقاذ الفارسية تتوارد من المدائن إلى الجنوب، ولكنها لم تستطع الاشتراك في تلك المعركة، لكنها أشتركت في غيرها، وباءت بالخيبة والفشل.

معركة المذار:

على هذا الأثر، تراجعت فلول جيش هرمز بعد معركة " ذات السلاسل " الى الشمال بمحاذاة نهر دجلة القديم (مجرى دجلة الحالي)، وكان يقودها أميران فارسيان من الذين اشتركوا في معركة الكاظمة ونجوا من الموت وهما: أنو شجان وقباذ. ولما وصلت فلولهم إلى " المذار " – على نهر دجلة في منتصف المسافة بين القرنة والعمارة – لقوا جيش الانقاذ الذي أرسله ملك الفرس شيرويه بقيادة قائده الكبير " قارن "، فتشاوروا في أمرهم وصمّموا على الدفاع في المذار – أو على حد تعبيرهم " اذا افترقنا فيها فلن نجتمع بعدها أبداً " –. وعبأ قارن جيشه الذي أتى به من المدائن في القلب مستخدماً جيش كل من أنو شجان وقباذ على مجنبتيه منتظراً جيش العرب المسلمين.

أما خالد بن الوليد فنراه بعد أن رسخت قدمه في الأُبُله، يجمع أسلاب الحرب ويوطد الحكم وينظم الضرائب وينظر في ظلامات أهل السواد (العراق) من الفلاحين ويقرهم على أراضيهم.

وعلم من المثنى الذي سبق ان أمره بالمحافظة على التماس بفلول جيش العدو المنهزم أن نجدات عظيمة قدمت من المدائن وقد انضمت اليها تلك الفلول، وانها اتخذت موضعاً دفاعياً في المذار، فتقدم بجيشه الى المذار في اوائل صفر سنة 12 للهجرة (آذار سنة 633 ميلادية) في تعبئته التي كان يراعي فيها حماية قوته من المباغتة وسهولة قيامه بالمباغتة والحركة على الجوانب. ولما اقترب من جيش العدو طلب منه قائدهم "قارن" ليبارزه فلبّى خالد طلبه في الوقت الذي تلاقت فيه صفوف الجيشين. أما " قارن "

فقد قُتِل، كما قُتِل قائدا الجناحين وألوف من جندهما حتى أصبحوا لا يستطيعون المقاومة والثبات في صفوفهم، فتركوها مسرعين الى السفن الراسية على شاطئ النهر، والسعيد منهم الذي استطاع النجاة والعبور الى الشاطئ الثاني. أما عدد قتلاهم كان - كما يقول المؤرخ الطبري - ثلاثين ألف مقاتل.

والحقيقة انه لولا السفن التي استطاع قسم من جيشهم أن ينجوا فيها لكانت معركة المذار من معارك الإبادة... أما العرب فلم يستطيعوا اللحاق بالفلول التي عبرت النهر، واكتفوا من هذه المعركة بنصرها الموضعي فقط، مع اعتبارها لؤلؤة في عقد انتصاراتهم...

المراجع

1 - الطبري " تاريخ الطبري " الجزء الرابع. ص 2.

2 - ابن الأثير " تاريخ ابن الأثير " الجزء الثالث. ص 187.

3 - البلاذري " فتوح البلدان " ص 242.

4 - العقيد محمود الدرّة " معارك العرب الكبرى ". منشورات الفاخرية - الرياض - ودار الكاتب العربي - بيروت. د. ت. ص 305 - 311.

5 - محمد ابو الفضل ابراهيم وعلي محمد البجاوي. " أيام العرب في الاسلام ". المكتبة العصرية. صيدا - بيروت. الطبعة الرابعة 1974. ص 185 - 188.

6 - سيف الدين الكاتب " المثنى بن حارثة الشيباني " (أول فاتح في العراق) - سلسلة مشاهير الفاتحين رقم 3 - دار اقرأ. بيروت. الطبعة الأولى. 1981.

7 - سيف الدين الكاتب " خالد بن الوليد المخزومي " (الفاتح العبقري المظفّر) - سلسلة مشاهير الفاتحين رقم 5 - دار اقرأ. بيروت. الطبعة الأولى 1981.

معركة الكرامة

تعتبر هذه المعركة من كبريات المعارك التي جرت بين القوات الاسرائيلية من جهة والقوات الفلسطينية والأردنية من جهة ثانية عام 1968.

فقد قامت القوات الإسرائيلية في 21 / 3 / 1968 بشن هجوم واسع النطاق على الضفة الشرقية لنهر الأردن في منطقة امتدت من جسر الأمير محمد (دامية) شمالاً حتى جنوبي البحر الميت. وكان هدف الهجوم كما أعلنت (اسرائيل) رسمياً القضاء على مواقع الفدائيين الفلسطينيين في مخيم الكرامة الواقع على بعد 5 كلم من جسر الملك حسين (اللّنبي)، وفي مناطق أخرى إلى الجنوب من البحر الميت.

والواقع أن هذا الهجوم لم يكن مفاجئاً للقوات الفلسطينية في المنطقة ولا للقوات الأردنية. فقد شوهدت تحركات القوات الإسرائيلية قبل العملية بيومين. وأذاع ناطق باسم فتح يوم 19 آذار أن إسرائيل حشدت خلال اليومين السابقين قوات كبيرة على طول نهر الأردن. وفي اليوم نفسه أعلن مندوب الأردن في الأمم المتحدة أن (إسرائيل) تعد العدّة لشن هجوم كبير على الأردن. وقد رافقت هذه التحشدات تهديدات إسرائيلية من قبل المسؤولين، فقال رئيس الحكومة أمام الكنيست " إن الأردن لا يفعل شيئاً لوضع حد لأعمال الفدائيين التي تنطلق من أراضيه، وسنضطر نحن لحماية أمننا ". وذلك خلال كلامه على حادث انفجار لغم تحت عربة نقل ركاب كبيرة جنوبي النّقب. وكرر وزير الدفاع ورئيس الأركان ورئيس المخابرات الإسرائيليون أقوالاً مماثلة.

حشدت (إسرائيل) لتنفيذ العملية، تبعاً للمصادر الأردنية، أربعة ألوية (لواءين موزعين ولواء المظليين 35، ولواء المشاة 80) تدعمها وحدات من المدفعية الميدانية (خمس كتائب مدفعية من عيار 105 و 155 ملم) ووحدات هندسية عسكرية وتغطية جوية بأربعة أسراب نفاثة، بالإضافة إلى عدد من الحوامات كافٍ لنقل كتيبتي مشاة مع معداتهما. وقد بلغ عدد هذه القوات خمسة عشر ألف جندي.

وفي الجانب العربي كانت وحدات رصد فتح تراقب تحركات

وتحشدات القوات المعادية. وتدارست قيادة فتح التدابير الواجب اتخاذها – وعلى الأخص المجابهة أو الإنسحاب من المواقع المستهدفة من قبل العدو لتأتي ضربته في الفراغ – وفقا لمبادئ قتال الحرب الشعبية. وبعد مناقشة الموضوع بعمق قررت " الصمود الواعي " تحقيقاً للأهداف التالية:

1) رفع معنويات الجماهير الفلسطينية والعربية بعد نكسة حزيران 1967.

2) تحطيم معنويات العدو وإنزال أكبر الخسائر في صفوفه.

3) تحقيق الإلتحام الثوري مع الجماهير حتى يصبح الشعب قوة منيعة.

4) زيادة التقارب والثقة بين قوات الثورة الفلسطينية والجيش الأردني.

5) تنمية القوى الثورية داخل صفوف الشعب العربي.

6) إختبار ثقة المقاتلين بأنفسهم في معارك المواجهة المباشرة مع قوات العدو.

وجرى تقسيم قوات المقاومة إلى ثلاثة أقسام: الأول توزع على عدة مراكز في الكرامة نفسها وحولها، ووزّع الثاني بشكل كمائن على امتداد الطرق المحتمل سلوكها من قبل العدو، وانسحب الثالث إلى المرتفعات المشرفة على المنطقة ليكون دعماً واحتياطاً.

من جهة أخرى اتخذت القيادة الأردنية استعداداتها للتصدي للعدوان الوشيك، فوضعت القوات في حالة استنفار وتعبئة انتظاراً للتطورات المتوقعة.

تحركت القوات الإسرائيلية في الساعة الخامسة والنصف من صباح 21 آذار 1968 على أربعة محاور:

1) محور العارضة من جسر الأمير محمد إلى مثلث المصري، فطريق العارضة – السلط الرئيس.

2) محور وادي شعيب من جسر الملك حسين إلى الشونة الجنوبية فالطريق الرئيس المحاذي لوادي شعيب – السلط.

3) محور سويمة من جسر الأمير عبد الله إلى غور الرامة – الناعور فعمان.

4) محور الصافي من جنوب البحر الميت إلى غور الصافي فطريق الكرك الرئيس.

ولكن المعارك الرئيسة دارت فعلاً على المحاور الثلاثة الأولى. حيث عبرت

القوات الإسرائيلية النهر تحت تغطية نيران المدفعية. ولكنها ما كادت تتقدم مسافة 200 م حتى اصطدمت بمقاومة عنيفة أعاقت تحركها، فدفعت بعناصر محمولة بالحوامات أنزلت بعضها في غور الصافي للتمويه والتضليل ومعظمها في الكرامة. فتصدت لها القوات العربية وكبدتها خسائر كثيرة، مما اضطر القيادة الإسرائيلية إلى زج قواتها الجوية بكثافة كبيرة مركزة قصفها على مراكز المدفعية الأردنية ومواقع الفدائيين ومرابض الدبابات والمدافع المضادة للطائرات. وتابعت خلال ذلك الحوامات نقل عناصر إضافية والعودة بالجرحى وجثث القتلى. واستثمرت القوات المدرعة نتائج القصف الجوي والمدفعي المركز لمتابعة تقدمها، فأمكنها في الساعة العاشرة تقريباً الاتصال بالقوات المنزلة جواً في الكرامة. ودارت بينها وبين سرية من الفدائيين معارك دامية بدأت بالبنادق والرمانات اليدوية، ثم بالسلاح الأبيض. وقد خاضت القوات الأردنية أيضاً معارك عنيفة على المحاور الأخرى وأحبطت تقدم العدو ومنعته من تنفيذ مخططاته.

وفي الساعة 14,00 - وكانت خسائر الإسرائيلين قد تزايدت واتضح لهم مدى الثمن الذي سيدفعونه لقاء كل تقدم - إدّعوا أنهم قد أتموا تنفيذ المهمة الموكولة إليهم وبدأوا بالانسحاب. وكانوا قد طلبوا وقف إطلاق النار في الساعة 11,30 بواسطة الجنرال " أودبول " كبير المراقبين الدوليين، ولكن رئيس الحكومة الأردنية رفض الطلب حتى انسحاب القوات الإسرائيلية بكاملها. وقد تمّ انسحاب آخر جندي إسرائيلي في الساعة 20,30. وتكبدت القوات الإسرائيلية خلال انسحابها أيضاً خسائر كبيرة، إذ تعرضت لها الكمائن التي بثتها قيادة المقاومة قبل المعركة.

كان العدوان الإسرائيلي على الكرامة أول مرة تتخطى فيها القوات الإسرائيلية نهر الأردن. فقد توغلت مسافة 10 كلم على جبهة امتدت من الشمال إلى الجنوب نحو 50 كلم. وهي أول عملية على نطاق واسع قادها رئيس الأركان الإسرائيلي الجديد آنذاك (حاييم بارليف). وقد حشدت لها (إسرائيل) قوات كبيرة نسبياً أرادت منها أن تكون درساً رادعاً للفدائيين وللجيش الأردني، وأن تحقق بواسطتها نصراً سريعاً تستغله في رفع معنويات السكان الإسرائيليين التي بدأت تهتز تحت ضربات العمليات الفدائية في الأرض المحتلة.

ولم تكن النتائج كما تتمناها (إسرائيل). فقد اعترف رئيس حكومتها أمام الكنيست يوم 25 آذار " أن الهجوم على الكرامة لم يحل مشكلة الإرهاب ". وقال ناثان بيليد ممثل حزب المابام: " إن على إسرائيل أن تصوغ تكتيكها العسكري وفقاً لأساليب القتال المتبعة عند العدو والظروف السياسية المحيطة ". وطالب شموئيل تامير عضو الكنيست بتشكيل لجنة تحقيق برلمانية للبحث في " التعقيدات السياسية الناجمة عن عملية الكرامة ". وأضاف " إن تخطيط العملية وتنفيذها يثيران أسئلة كثيرة تتطلب الإجابة ". وقد عبّر يوري أفنيري عن فشل العملية بقوله :" إن المفهوم التكتيكي للعملية كان خاطئا من الأساس، وأن النتائج أدت إلى نصر سيكولوجي للعدو الذي كبدنا خسائر كبيرة ".

كانت معركة الكرامة نقطة تحول كبرى بالنسبة لحركة فتح خاصة والمقاومة الفلسطينية عامة. وقد تجلّى ذلك في سيل طلبات التطوع في المقاومة ولا سيما من قبل المثقفين وحملة الشهادات الجامعية. كما تجلّى في التظاهرات الكبرى التي قوبل بها الشهداء في المدن العربية التي دفنوا فيها، والاهتمام المتزايد من قبل الصحافة الأجنبية بالمقاومة الفلسطينية، مما شجّع بعض الشباب الأجانب على التطوع في صفوفها. وقد أعطت معركة الكرامة معنى جديداً للمقاومة تجلى في التظاهرات المؤيدة للعرب والهتافات المعادية التي أطلقتها الجماهير في وجه وزير خارجية (إسرائيل) أبا إيبان أثناء جولته يوم 7 / 5 / 1968 في النرويج والسويد، فقد سمعت ألوف الأصوات تهتف " عاشت فتح ".

على الصعيد العربي كانت معركة الكرامة نوعاً من استرداد جزء من الكرامة التي فقدتها في حزيران 1967 القوات المسلحة العربية التي لم تتح لها فرصة القتال. ففي معركة الكرامة أخفقت (إسرائيل) في تحقيق أهدافها العسكرية والاستراتيجية لرفع معنويات الإسرائيليين، بل ساهمت في زيادة خوفهم وانعزالهم.

بلغت خسائر الاسرائيليين 70 قتيلاً وأكثر من 100 جريح، و45 دبابة و 25 عربة مجنزرة و 27 آلية مختلفة و5 طائرات.

وخسر الجانب الفلسطيني 17 شهيداً. وأما الأردنيون فقد خسروا 20 شهيداً و 65 جريحاً بينهم عدد من الضباط و 10 دبابات و 10 آليات مختلفة ومدفعين. كما دمّر

الاسرائيليون عدداً من المنازل وأخـذوا معهم 147 عربيـاً مـن الفلاحين بحجـة أنهـم مـن الفدائيين.

المراجع

1 - مؤسسة الدراسات الفلسطينية: الكتاب السنوي للقضية الفلسطينية لعام 1968. بيروت 1971.

2 - اليوميات الفلسطينية: المجلد 7 بيروت 1986.

3 - مجلة شؤون فلسطينية: العدد 7، آذار 1972.

4 - تقرير القيادة الأردنية حول المعركة.

5 - الموسوعة الفلسطينية: الجزء الثالث. ص: 636 - 638، بإشـراف د. أنيس صـايغ. الطبعة الأولى، دمشق 1984.

معركـة كفار عصيون

عندما أدرك العرب في فلسـطين وجوارهـا، مـا تبيتـه الحركـة الصـهيونيـة ضدهـم وضد أرضهم وممتلكاتهم، وضعوا أمام أعينهم قول أبي الطيب المتنبي الشهير:

واذا لم يكن من الموت بدٌّ فمن العار أن تموت جبانا

وعلى هذا الأساس، استأسد الشعب العربي في فلسطين ضـد أعدائـه الصـهيونيين، شذّاذ الآفـاق ومغتصبـي الأرض والوطـن، وبـدأ بتنظيم نفسـه استعداداً لصـون الكرامـة والدفاع عن الوجود والمصير. وقد أثبت هذا الشـعب فـي اكثر معاركـه قبل قيـام " دولـة اسرائيل " بأنه جدير بالحفاظ على الحق مهما كانت التضحيـات. ولـم تكـن معركـة " كفـار عصيـون " التـي جـرت بتـاريخ 27 آذار 1948، بيـن العـرب والصـهيونييـن إلا إحـدى العلامات المضيئة في تاريخ الصـراع العربي – الصـهيوني.

ففي 27 آذار 1948، وبعد معركة " شـعفاط " الظـافرة بأيـام ثلاثـة، علـم العـرب بمرور قافلة يهودية تحت جنح الليل، إلى كفار عصيون، ناقلة المؤن إلى هـذه المسـتعمرة، التي كان يطوقها العـرب والمسـتعمرات اليهوديـة الأخـرى المجـاورة لهـا. وكـانت القافلـة مؤلفة من مئتين وخمسين رجـلاً مـن رجـال منظمـة الهاغانـاه الارهابيـة جـاؤوا فـي أربـع وخمسين سيارة يهودية بحراسة أربع مصفحات، فاعتزم العرب مهاجمتها.

ومن أجل ذلك، عمدوا الى زرع الألغام، وأقاموا الحواجز على الطريق في سـبعة عشر موضعاً، وراحوا يرقبون رجـوع القافلـة. ووقـف جماعـة مـن " بيـت فجـار " عنـد " وادي البيـار " يحولـون دون وصـول النجـدات اليهوديـة الـى القافلـة مـن المسـتعمرات المجاورة. وكان عدد المجاهدين في بـادئ الأمـر قليـلاً، ثـم ازداد فـأصبح مئتيـن. ومـا ان أطلت القافلة عليهم، عند الموقع المعـروف بـ " الدهيشـة " القريبـة مـن " بـرك سـليمان "، وكانت الشمس على وشك الشـروق حتـى هاجموهـا بنيران شـديدة مـن أسـلحتهم الخفيفـة، فسقط عدد من رجالها قتلى، وجرح آخرون. وانفجرت في الوقت نفسه، بعض الألغام التي بثّـهـا المـنـاضلون، فنسفت المـصـفحـة الأمـاميـة ثـم دمرت سيارتين. ولجأ زهاء مئة من

رجال القافلة الى بيت عربي قريب من الطريق، وكان أهله قد هجروه قبل مرور القافلة، فحاصرهم العرب، كما وقعت البقية الباقية من سيارات القافلة في الفخ. وما كاد الليل يهبط، حتى كانت القافلة كلها قد أشرفت على الهلاك: لا زاد، ولا ماء، وراح الناس ينسلّون من كل حدب وصوب، فبلغ عددهم ألفاً، وقيل أن المناضلين الذين اشتركوا في القتال لم يتعدّوا الخمسمائة، وقد كانوا في بدء المعركة خمسين.

وفي ساعة مبكرة من صبيحة اليوم التالي (الأحد 28 آذار 1948) حلّقت في سماء المعركة طائرة يهودية تحمل الذخائر والمؤن الى المحاصرين، ثم تبعتها ثلاث طائرات، وألقت هذه الطائرات حمولتها، ولكنها اخطأت الهدف. فلم يصل اليهود منها إلا النزر اليسير الذي لا يسمن ولا يغني من جوع، وسقط معظمها في يد العرب، فأكلوه في حين كان معظم زادهم قد نفذ. وهوت احدى الطائرات الى الأرض فتحطمت وقتل قائدها.

ويظهر أن تحليق الطائرات في الجوّ قوّى معنويات اليهود المحاصرين فراحوا يطلقون النار بكثرة، فقابلهم الثوار العرب بنار مثلها فأسكتوهم. واستنجد رجال القافلة بالوكالة اليهودية فاستغاثت بالحكومة البريطانية، فخفّ عدد من الجند لنجدتهم، وكانوا مزودين بالمدافع، إلا أن العرب قابلوهم بالرصاص، وقيل أنهم أعطبوا مصفحتين. وجاء المناضلون الذين كانوا يرابطون عند مار الياس، بقصد المساندة ومنع النجدات اليهودية، فانضموا الى إخوانهم، وأنذر الجميع الجند ألا يتقدموا، لأن الطريق ملغومة وقالوا أنهم سيقاتلونهم، إذا هم لم ينصاعوا للانذار، فرضخوا ولم يتقدموا. شعر العرب عندها بنشوة النصر، وراحوا يضيقون الخناق على اليهود المحاصرين، في الوقت الذي رفض فيه هؤلاء الاستسلام، واستنجدوا بالحكومة مرة أخرى، فبعث حاكم اللواء المستر " بولاق " رسالة إلى السيد عارف العارف، أحد المناضلين الفلسطينيين البارزين، وقد حملها اليه رسوله المستر براون، طالباً منه أن يتصل بالمناضل عبد القادر الحسيني الذي اتخذ مقّره في " بير زيت "، وأن يرجوه إيقاف القتال. لكن عارف العارف لم يجد الحسيني، فاتصل بنائبه كامل عريقات، الذي كان في الميدان، ويظهر ان هذا التوسط جرى عن طرق أخرى. وبعد البحث اشترط عريقات، لإيقاف القتال، أن يسلم اليهود للعرب كل ما لديهم

من أسلحة وأعتدة، واشترطت الهيئة العربية العليا أيضاً مثل هذا الشرط، وكانت المفاوضات دائرة بينها وبين رجال الأمن.

ولم ير اليهود بدأ من التسليم، فأخبروا العرب أنهم يقبلون الشروط التي أملوها. وقد أخبروهم ذلك بوساطة المستر " سمر فيل " مساعد حاكم لواء القدس، وكان يومئذ يراقب المعركة من بيت لحم فرفع العرب الحصار، بعد أن دام ستاً وثلاثين ساعة، وانتهى القتال في الساعة الخامسة من بعد ظهر اليوم التالي (28 آذار)، وتسلم العرب اسلحة اليهود، وكان بعضها قد أعطب عن قصد قبل التسليم، والبعض الآخر كان في حالة صالحة للاستعمال. وكانت غنائم العرب ثلاث مصفحات، وثمانية باصات كبيرة، وثلاثين سيارة للشحن، وثلاثين بندقية من طراز ستنّ، وأربعين بندقية من طراز برنّ، ومئة من البنادق الاعتيادية بين انكليزيه والمانية، وعدداً من القنابل والمسدسات، وطناً ونصف الطن من ملح البارود والمتفجرات ومقادير كبيرة من الأعتدة والذخائر، اقتسمها المناضلون من أبناء الخليل والقدس وبيت لحم وبيت جالا وعرب التعامرة والعبيديين ومن أبناء بيت فجار وبيت أمر وحلحول. أما البقية الباقية من سيارات القافلة، وعددها أربعة عشر، فقد التهمتها النيران، وقتل من اليهود في هذه المعركة خلق كثير وجرح كثيرون. وفي بيان يهودي ذكر أن قتلاهم خمسة عشر، والجرحى خمسون، وتسلمت الحكومة 159 يهودياً نقلتهم في سياراتها الى منازلهم، وكان بين المنقولين 24 جريحاً. وكانت الجمعية الطبية العربية، قبل انتهاء المفاوضات، قد نقلت في سياراتها 35 جريحاً يهودياً، سلّمتهم إلى المستشفيات اليهودية بالقدس. وأما النساء اليهوديات اللواتي كنّ في كفار عصيون، وعددهن ست وثمانون، فقد بقين في بيت لحم ولم يمسهنّ أحد باذى، ومكثن هناك مدة قصيرة من الزمن، ثم أرجعن الى منازلهن. وقتل في هذه المعركة اثنا عشر عربياً وجرح ثلاثة.

هذا ما جرى لكفار عصيون في 27 آذار 1948. وبه يكون العرب قد انتقموا لأنفسهم من هذه المستعمرة التي كبّدتهم أربعة عشر قتيلاً، وأربعة وعشرين جريحاً، يوم هاجموها بعدد كبير من مقاتليهم (في 14 كانون الثاني 1948) " فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم، واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتّقين ".

ولئن تمكن العرب يومئذ من احتلال بعض المواضع اليهودية، إلا أنهم عادوا وخرجوا منها. وجرى قتال بين الفريقين في 10 أيار / مايو دام 39 ساعة، قتل فيه (11) يهودياً وجرح (27)، ولكن العرب لم يتمكنوا من احتلال كفار عصيون والمستعمرات اليهودية الأخرى المجاورة لها إلا في 14 أيار 1948، أي قبل ساعات قليلة من اعلان ولادة " دولة اسرائيل ".

وفيما كان سكان جبل القدس يرقصون طويلاً للانتصار الذي نالوه في الدهيشة، أتاهم نبأ الانتصار الذي ناله اخوانهم في الخليل، حيث قتل المجاهدون اثنين وأربعين شخصاً من رجال منظمة الهاغاناه الارهابية، على مقربة من " يهيام "، وحطموا خمسة من باصاتهم المصفحة، ومعظم المقتولين من سكان نهاريا.

هذا واذا كان الثوار العرب قد أحرزوا كثيراً من الانتصارات في مثل هذه المعارك الظافرة ضد الصهيونيين قبل ولادة " إسرائيل "، الا أن خيانة بعض الحكام والأنظمة العربية ساهمت مساهمة كبيرة في خلق " اسرائيل " ومحو هذه الانتصارات من قاموسها، حيث أن ابقاءها (الانتصارات) هو خطر عظيم يهدد هذه الانظمة ذاتها.

وما وصلت إليه الحالة العربية اليوم، يمثل انعكاساً لتلك الحالة المأساوية في نهاية الأربعينات.

المراجع

1 – عارف العارف في كتابه الشهير " النكبة ". الجزء الأول. المكتبة العصرية. صيدا – بيروت. ص 141 – 144.

2 – مجلة " فلسطين " (نشرة دورية تشرف عليها " الهيئة العربية العليا لفلسطين "). العدد 150. السنة الثالثة عشرة. شهر أيلول 1973. ص 26 – 28.

3 – الموسوعة الفلسطينية / اشراف د. أنيس صايغ /. دمشق 1984. الجزء الثالث.

معركة الكفر

(21 تموز / يوليو 1925)

هي إحدى معارك الثورة السورية الكبرى عام 1925 ضدّ الاستعمار الفرنسي، ومن أبرز الانتصارات التي أحرزها الثوار ضدّ جيش الاحتلال... وإذا كانت الثورة السورية الكبرى عقداً من اللؤلؤ والماس، فان معركة الكفر – ولا شك – هي الحبّة الأولى من هذا العقد... وبقدر ما تمثل " سورة الفاتحة " فاتحة كتاب الله العزيز – القرآن الكريم، فان معركة الكفر هي ذاتها " سورة الفاتحة " في سفر الثورة السورية الكبرى وكتابها المأثرة.

فبتاريخ 20 تموز / يوليو 1925 خرج الكابتان نورمان من السويداء في مئة وستة وستّين رجلاً وستّة ضباط: الكابتان نورمان ذاته، والليوتنان هلم غيزون ومئة وأحد عشر رجلاً من الفرقة السورية (من فيلق الفرقة السورية الثاني)، والكابتان ماي والليوتنان كاريار وأربعة وخمسون صباحياً (من فيلق الصباحيين المراكشيين الثاني عشر) إضافة الى طبيب أركان الحرب فورنيه، وضابط مترجم من الدرجة الثانية جوزف صايغ، فضلاً عن ضابط وثمانية جنود من فرسان الدروز – كما يشير الكتاب الذهبي لجيوش الشرق الذي وضعه المكتب الطوبوغرافي الفرنسي لجيوش الشرق –. إلا أن هذا الرقم ليس صحيحاً على ما يبدو. وكان لهذا الجيش مهمات ثلاث: الأولى: أن يُشْعر بوجود القوات في المنطقة الجنوبية، وتهدئة روع أنصار الفرنسيين، والثانية: ان يعمل على إنقاذ الطياريّن اللذين سقطا بطائراتهما في امتان، والثالثة: القبض على سلطان باشا الأطرش.

وصلت القوة الى قرية الكفر في صباح ذلك اليوم، ثم لحقها آمر اللواء تومي مارتان رئيس مصلحة الاستخبارات في دولتي سورية وجبل الدروز، وحاكم جبل الدروز بالوكالة. وهناك علم مارتان ان سلطان الأطرش هبط صلخد في الصباح نفسه.

أقام الكابتان نورمان مضارب الجيش على مقربة من الكفر، ثم نقلها بعد الظهيرة الى مرتفع قريب من الأرض يَفْضُلُ الموقع الأول ويشارف السهل قليلاً. ويؤكد

المصدر الفرنسي (الكتاب الذهبي لجيوش الشرق) أن حظ نورمان كان سّيئاً بالقول: وشاء نكد الطالع ان يخطئ نورمان، فبدلاً من ان يحصر قوته في نطاق مربع حصين، فقد بثّها على ثلاثة أو أربعة أماكن تفصلها جدران من الحجارة مختلفة المستوى والارتفعات. فكان هناك مكان للصباحيين، ومكان لرجال الفرقة السورية، ومكان للضباط، ومكان لأركان قيادة الكابتان نورمان، والذخائر والبغال.

وكان دخول سلطان الأطرش الى صلخد دافعاً للقومندان تومي مارتان أن يطلب النجدات برقياً مساء العشرين من تموز / يوليو. وقد تجدّد وصول النجدات في السادس والعشرين من الشهر، على ان القائد الفرنسي ألحّ بوجوب إرسالها في القطار الحديدي على جناح السرعة عن طريق درعا، وطلب ان ينطلق سرب من الطائرات في الغد لاستكشاف صلخد، وقرر أن يتوقف جيش نورمان عن الزحف ويلبث مكانه الى اليوم الثاني والعشرين بانتظار النجدات المطلوبة.

وفي اليوم التالي، حلقت طائرة الكابتان دي بويسون فوق قرى الجنوب، وأشرفت على الكفر، فلم يستوقفها ما يستدعي الانتباه ثم هبطت السويداء عند الساعة العاشرة والدقيقة الثلاثين. وفي الساعة الرابعة عشرة والدقيقة الثلاثين ترامى الى السويداء أن الثوار هاجموا جيش نورمان مهاجمة عنيفة. فوجّه القومندان تومي مارتان على الفور ثلاث مصفحات رشاشة ومفرزة من الصباحيين لحماية الجيش المذكور عند ارتداده إذا ما دعت الضرورة، ورغب في دبّ الذعر في النفوس، فأمر الكابتان دي بويسون ان يحلّق بطائرته مرة أخرى فوق الكفر.

هذا، وبينما تشير المصادر الفرنسية إلى أن رجال سلطان " كانوا مئتي فارس وخمسمائة راجل "، فان المصادر العربية – والدرزية خاصة – تشير إلى أن عدد الرجال مع سلطان لا يتجاوز اكثر من مئتي وخمسين مقاتلاً بين خيالة ومشاة، قاموا يوم 20 تموز / يوليو بالدنوّ من حملة " نورمان " ونزلوا مساءً على ماء " عرى " القريبة ينابيعها من قرية " عرى " مقر الامارة في الجبل، وهيأوا طعامهم وعلف خيلهم على الماء، وباتوا يتداولون في الخطة التي يجب اتباعها للقضاء على الحملة الفرنسية. فكان رأي الأكثرية الزحف – كما يشير منير الريّس – ومهاجمة الحملة في مواقعها دون

انتظار، لكن سلطان الأطرش كان حريصاً على ان تبقى حماسة اخوانه شديدة، شريطة ألا يجر الى معركة لا يكتب له فيها النصر، فأي هزيمة تلحق بالدروز في المعركة الأولى تكون عواقبها وخيمة على جبل الدروز كله، بل على سوريا التي يعرف ان أحرارها يترقبون أنباء الثورة التي ظهرت بوادرها في جبل الدروز، وعلى نتائج المعركة الأولى يتوقف اندفاع الدروز جميعاً في تأييد الثورة التي عزم على أن يخوض غمارها، ويكون رمزها وقائدها. وقد أصبح القوم على ماء " عرى "، ولما يستقر لهم رأي على خطة، فالحملة لم تتزحزح من مواقعها لمطاردتهم على الرغم.من`قربهم منها، ووصول أخبارهم لقائدها. ولما توسطت الشمس كبد السماء من يوم 21 تموز / يوليو 1925، ولم توافهم الحملة المكلفة بمطاردتهم، هبّوا يهزجون بحماسة، حتى بلغ حداؤهم عنان السماء، واندفعوا في الطريق إلى الكفر، وسلطان يخبّ بجواده بينهم، يريد أن يثنيهم عن فكرة الهجوم على الحملة المتحصنّة في موقعها المرتفع من الكرمة، خشية أن تحصدهم بنيرانها الكثيرة، على وضح النهار، وفي وقت الظهيرة، حيث ان سلاح الثوار، كان البنادق، بينما الحملة مجهزة برشاشات ثقيلة وخفيفة، وقاذفات القنابل، فضلاً عن البنادق، لكن أنّى له أن يوقف الزحف، وقد بلغت الحماسة باخوانه حداً جعل المشاة يسبقون الفرسان في جريهم نحو الهدف. ولم تأزف الساعة النصف بعد الثانية ظهراً، وهو وقت القيلولة، وأبعد ما يكون عن تفكير قادة الحملة الفرنسيين في هجوم الدروز، حتى بلغت سريّة المجاهدين الكرم، واندفعت من جوانبه كلها، بغارة مفاجئة على المعسكر، لم يثنها رصاص الخفراء، ولا رصاص الرشاشات التي أخذت تطلق النار على المهاجمين، فسقط من سقط من الشهداء، بينهم مصطفى الأطرش شقيق سلطان الذي رأى سقوط أخيه برصاص العدو، واقتحم بجواده الكرم، وتعدّى جدرانه قفزاً، واختلط الدروز بالجنود، وبدأوا يصرعونهم بسيوفهم وخناجرهم ورصاصهم، في مدة لا تتجاوز النصف ساعة، أجهزوا على الحملة في حصنها، حيث لم يتسنّ لبعض الثوار الاشتراك فيها.

وهكذا كانت نتيجة معركة الكفر إبادة حملة نورمان، لم يرجع منها بين الضباط السبعة والمئة وسبعة وستين رجلاً إلا:

- جنديّين برتبة سرجان / عريف و 47 من جنود الفرقة السورية (منهم

13 جريحاً).

- معاون الضابط الخيال الفرنسي دوكار و 17 صباحياً (منهم 6 جرحى).

- جندي من الرماة من جيش أفريقيا الشمالية (جريح).

- أما الباقون وهم سبعة ضباط (فيهم ضابط سوري) و 26 جندياً من الفرقة السورية (فيهم 6 فرنسيون) و 36 صباحياً (فيهم ثمانية فرنسيون وسائق سيارة فرنسي) فقد قتلوا كلهم، باعتراف الفرنسيين أنفسهم.

ولم يكد المهزومون من الكفر يصلون الى السويداء يحملون أنباء المجْزرة، حتى دبّ الرعب في قلوب الفرنسيين فيها وانتقل ضباطهم وموظفوهم بعائلاتهم إلى القلعة يحاصرون فيها، لأنهم أدركوا أن نبأ الهزيمة سيثير الجبل كله ضدّهم، حتى المترددين وضعاف النفوس ستجرفهم الثورة بأنباء ظفرها الحاسم في أول معركة نشبت بينهم وبين الدروز... وهكذا كان...

أما خسائر الدروز فكانت أربعة وخمسين شهيداً، من بينهم مصطفى الأطرش الذي كانت إصابته دافعاً لأخيه سلطان الى القيام بمزيد من البطولة والإقدام، وقد اعتبر أخاه واحداً من الشهداء، ومحبة الوطن أكبر من محبة العائلة، وحقه فوق حقها، والاهتمام بالأحياء أهم بكثير من الاهتمام بالأموات مع ما لهم من الفضل والتقدير، والنظرة الى المستقبل أفضل من التطلع إلى الماضي، ونقطة دم في سبيل الاستقلال أجدى من آلاف الدمعات على الشهداء الأبرار.

المراجع

1 - منير الريّس " الكتاب الذهبي للثورات الوطنية في المشرق العربي - الثورة السورية الكبرى ". دار الطليعة. بيروت. الطبعة الأولى 1969. ص 165 - 167.

2 - المكتب الطوبوغرافي لجيوش الشرق " الكتاب الذهبي لجيوش الشرق 1918 - 1936 ". نقله إلى العربية أدوار البستاني. المطبعة الكاثوليكية. بيروت 1939. ص 137 - 141.

3 - سلامة عبيد " الثورة السورية الكبرى 1925 - 1927، على ضوء وثائق لم تنشر ". بيروت. دار الغد 1971. ص 126 - 130.

4 – حسن أمين البعيني " سلطان باشا الأطرش – مسيرة قائد في تاريخ أمة ". منشورات لجنة الاعلام / الادارة المدنية في الجبل / بيت الدين. الطبعة الأولى. آذار / مارس 1985. ص 122 – 126.

5 – فارس زرزور " البطولات – معارك الحرية في سوريا ". الطبعة الثانية 1971. ص 215 – 217.

6 – د. عباس أبو صالح و د. سامي مكارم " تاريخ الموحدين الدروز السياسي في المشرق العربي ". منشورات المجلس الدرزي للبحوث والإنماء. بيروت 1980. ص 326.

معركــة لبــدة

" لبدة " مدينة أثرية الى الشرق من الخمس بطرابلس الغرب. وقد شهدت هذه المنطقة عدة مناوشات واشتباكات، منذ نزول القوات الايطالية بالخمس، وكانت إحدى المواقع الدفاعية الهامة التي ظلت طوال تلك الفترة، تثير المضايقات في وجه العدو، الذي لم تفلح مدفعيته وسفنه الحربية، في التأثير على وضع المجاهدين، نظرا لما كانت توفره الكثبان الرملية، من التغطية التي تجعلهم بمنحى من القصف المدفعي. وبعد المعارك الطاحنة التي جرت بمنطقة (المرقب) تركزت المقاومة قرب أطلال " لبدة "، و " رأس الحمّام "، وظلت قوات العدو تتحين الفرص للسيطرة على هذا الموقع الهام، لتأمين مواقعها الدفاعية، ومحاولة لتوسيع المجال المحدود الذي ظلت تعمل في نطاقه، منذ نزولها إلى الخمس. وكانت تشعر أن ذلك، لا يمكن أن يتم لها، إلا إذا تمكنت من التحكم في هذين الموقعين الهامين. وأخذت تخطط لهذه العملية، وتستعد لها، بحشد القوة اللازمة، ودعم القطع البحرية العاملة في مياه الخمس، والتي وفّرت لهم في كل المعارك السابقة التغطية البحرية التي كان لها اكبر الأثر في سيطرتهم النهائية على الموقف، والتفوق على قوة المجاهدين المحدودة التي لم تكن تتوفر على مثل هذه القوة.

وفي يوم 2 مايو / أيار 1912، تحركت قوة ايطالية كبيرة، تزيد على أربعة آلاف مسلح، في ثلاث تشكيلات تحت قيادة مجموعة من كبار ضباطهم في المنطقة، ووضعت الخطة على أساس قيام إحدى التشكيلات بالهجوم الأمامي، على مواقع المجاهدين في أطلال " لبدة "، ثم تتجه تشكيلة أخرى نحو منطقة " رأس الحمام " في محاولة السيطرة على الموقع، والقيام بعملية التفاف تؤدي إلى محاصرة المجاهدين، ودفعهم نحو الساحل، حيث يتم تطويقهم من قبل كافة التشكيلات، وقد أتبعت التشكيلة الثانية بقوة احتياطية، كما كُلفت حامية المرقب بمراقبة الوضع، وشغل المجاهدين المرابطين في تلك المنطقة، عن الالتحاق بالقطاع الرئيس للقتال، وقامت قطع الاسطول بتوفير الغطاء البحري، وضرب مواقع المجاهدين. وتتبين ضخامة هذا الحشد، بمقارنته بعدد المجاهدين الذي تقدره

المخابرات العسكرية الايطالية بما لا يزيد على 250 جنديا نظاميا و 1300 من المجاهدين. وقد دارت معركة عنيفة، بدأت عند الخامسة صباحاً واستمرت حتى الساعة الثامنة تقريبا، اضطر المجاهدون على أثرها إلى التحول عن مواقعهم، في " رأس الحمام ولبدة "، مفوتين في ذلك خطة التطويق التي قام عليها الهجوم الايطالي. وقد دعا المجاهدون في الليلة التالية، إلى الهجوم على المواقع المحتلة، كما ظلوا يثيرون المضايقات المستمرة.

وتعتبر معركة " لبدة " أو (هضاب لبدة)، كما تسمى في بعض الوثائق الايطالية، واحدة من سلسلة المعارك الهامة التي جرت في منطقة المرقب والخمس، والتي سجل فيها المجاهدون صوراً رائعة من البطولة والمقاومة.

المراجع

1 - خليفة محمد التليسي " معجم معارك الجهاد ". ص 449 - 450.

2 - مصطفى حامد رحومة " المقاومة الليبية التركية ضد الغزو الايطالي ". منشورات مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الايطالي. ليبيا 1988. ص.191 - 201.

معركـة اللسّانة – 888 هـ –

هي إحدى المعارك الهامة في تـاريخ الصـراع العربـي – الإسـلامي فـي الأندلـس والنصـارى في بلاد الروم. وقد جرت أحداث هذه المعركة في ربيع الثاني عـام 888 هـ، عندما خرج الأمير أبو عبد الله بن محمد بن علي بأهل غرناطة وما حولها مـن الحصـون والقرى إلى بلاد الروم. فبينما هم في أرض " اللسّانة " (*) راجعون بالغنيمة إذ خرج عليهم جمـع مـن النصـارى ليـس بـالكثير فـانهزم المسـلمون أمـامهم، وتبعهم النصـارى يقتلونـهم ويأسرونهم حتى لحقوا الأمير محمـد بـن علـي، فدخـل فـي غمـار النـاس، واختفـى بينهـم، وجعل واحد من النصارى، وكانت هزيمة شنيعة قتل فيها خلق كثـير، يقـاتل مـع المقـاتلين حتىأُسر مع من أسر من المسلمين، ولم يعرفه، وأسر آخـرون، واسـتولى النصـارى علـى كثير من الخيل والسلاح والدواب والمتاع.

وأشنع ما فيها كان أسر الأمير أبي عبد الله بن محمد بن علي، لأنه كان سبباً فـي هلاك الوطن.

فجمع النصارى كـل مـا أخذوه مـن المسـلمين مـن أسـارى وأمتعـة، وحملـوه إلـى حصن اللسّانة، ولم يعرفوا الأمير حتى عُرّفوا به، فـأخرجوه مـن بيـن الأسـرى، وعظمـوه وكرموه، وحملوه إلى صاحب قشتالة، فعظّمه وأكرمه، وعلم أن به يصل إلى ما يؤمله من أخذ بلاد الأندلس.

ثم عاد مُلْك غرناطة إلى الأمير أبي الحسن علي بن سعد، إلا أن الفتنـة لـم تنقطـع ولم تخمد نارها. وكان الأمير أبو الحسـن قـد أصابـه مـرض شـبه الصـرع، وأصيـب فـي بصره، وأصابه خدر في جسمه، وعاقبه الله تعالى بأنواع من البـلاء. وعُـزل عـن المُلْك، وحُمل إلى مدينة " المُنكّب " (**) . فأقام فيها حتى مات، واسـتولى علـى المُلْك بعده أخـوه محمد بن سعد. ومع ذلك فقد استطال العدو على بلاد الأندلس، وقوي طمعه فيها.

(*) – اللسّانة هي بلدة Lucina، كانت في أيام دولة غرناطة بلدة صغيرة حصينة وهي إلى

الجنوب الشرقي من مدينة قرطبة، وتقع اليوم – كما في نهاية الأندلس – في نطاق ولاية قرطبة.
(**) – المنكّب هي بلدة Almunecar اليوم، ويبدو أنه اسم عربي بمعنى الحصن المرتفع.

* * *

المرجع

– كتاب " آخر أيام غرناطة " لمؤلف اندلسي (من رجال القرن التاسع الهجري معاصر لسقوط غرناطة). حققه وقدم له د. محمد رضوان الداية. دار حسان. دمشق. طبعة أولى 1984. ص 65 – 68.

معركـة لوشة – 887 هـ –

هي إحدى المعارك الهامة في تاريخ الصراع بيـن العـرب المسـلمين فـي الأندلس وملـك قشـتالة. وقـد جـرت هـذه المعركـة فـي 27 جمـادى الأولـى 887 هـ. حيـث خـرج صاحب قشتالة بمحلة (بحملة)، وقصد مدينة لوشـة (*) فنزل عليهـا بمحلتـه (بحملتـه)، وكان قد اجتمع فيها جملة من نجدة رجال غرناطة حين سمعوا بخروجه إليهـا. فلمـا قـرب من البلد خرج إليه الرجال والفرسان فقاتلوه قتالاً شديداً وردّوه على أعقابـه، وقتلـوا كثيراً من النصارى وأخذوا لهم في تلك المدة التي قربوا بها من الأنفاط (**) وغير ذلك من عدة الحرب.

ثم إن الأمير أبا الحسن أمدّهم بقائد من غرناطة يقود جيشاً مـن الفرسـان فـي تلـك الليلة، فاشتدت عند ذلك غضبة المسلمين وقويت قلوبهم.

فلما أصبح الصباح، ورأى النصارى الزيادة في جيش المسلمين مع ما نـالهم مـن أول الليل من الهزيمة والقتـل، وأخـذ العـدة، داخلهـم الرعـب، واشـتد خوفهـم، فـأخذوا فـي الارتحال عنهم، ففرح المسلمون وقاتلوهم قتالاً شديداً، فانهزم النصارى، وتركوا كثيراً من أخبيتهـم وأمتعتهـم وأطعمتهـم، وآلـة حربهـم، وتركـوا مـن الدقيـق شـيئاً كثـيراً. فـاحتوى المسلمون على جميع ذلك كله، وانهزم العدو مفلولاً إلى بلده، ففرح المسلمون بذلـك فرحـاً عظيماً. وكان ذلك في السابع والعشرين من جمادى الأولى من عام سـبعة وثمـانين وثمـان مائة.

وبينـمـا الـمسـلـمون كـذلـك بين حرب وصلح إذ بصاحب قشتالة قد أقبل بمحلته (بحملته) على مدينة لوشة، فنزلها الأمير محمد بـن علـي ومعـه جماعـة من أهـل نجـدة البيازين حين سـمعوا بقـدوم النصـارى عليهـا، تحصنـوا بهـا مـع أميرهم محمـد بـن علـي المذكور، فحاصرها العـدو حصـاراً شـديداً، ونصـب عليهـا أنفاطـه وعدّتـه، واقـترب إليهـا بجيشه وآلة حربه، حتى دخلوا ربضها، وهدموا بعض أسوارها بالأنفـاط. وقتـل كثـير مـن نـجـدة الـرجـال، واشـتـد عليهم الحصار. فلما رأى أهل لوشة ما لا طاقة لهم به من شدة

الحصار، وكثرة جموع النصارى، وتأخير أهل غرناطة عن نصرتهم، طلبوا الأمان، واتفقوا على أن يخرجوا مؤمّنين بأموالهم وأولادهم، وخيلهم وسلاحهم، ودوابهم، وجميع ما يقدرون على حمله، فأجابهم العدو لذلك. ووفى لهم به، فأخذوا في إخلاء البلاد، ووصلوا إلى غرناطة بما معهم.

وكان استيلاء العدو على مدينة لوشة في السادس والعشرين من جمادى الأولى من عام إحدى وتسعين وثمان مئة (891 هـ).

ولم يسرّح صاحب قشتالة الأمير محمد بن علي، بل حبسه عنده ليستأصل به بقية الأندلس.

(*) – لوشة هي اليوم تدعى " Laja " تقع في الجنوب الغربي من غرناطة على نحو ثلاثين ميلاً (50 كلم) على الطريق الواصل بين غرناطة وإشبيلية. وكانت مدينة هامة في أيام دولة بني نصر في غرناطة.

(**) استعملت كلمة (الأنفاط) في القرن الثامن وما بعده في الأندلس والمغرب لمعنى (البارود)، وكانت من قبل تستعمل لمعنى: " المواد الملتهبة الحارقة التي كانت تلقى على الأبراج والحصون، والسفن لإحراقها ".

* * *

المرجع

– كتاب " آخر أيام غرناطة " لمؤلف أندلسي (من رجال القرن التاسع الهجري معاصر لسقوط غرناطة). حققه وقدّم له الدكتور محمد رضوان الداية. (دراسات أندلسية رقم 12). دار حسّان للطباعة والنشر. دمشق. الطبعة الأولى 1984. ص 57 – 60 و 79 – 80.

حرفا " الميم " و " النون "

(م) و (ن)

1 – الماصيون
2 – المالكية
3 – محروقة
4 – المذار (راجع معركة " الكاظمة " أو " ذات السلاسل ")
5 – المرقب
6 – المزرعة
7 – المسيفرة
8 – المصْرارة
9 – مُكْلين
10 – ميسلون
11 – ميناء الاسكندرية
12 – الناصرة
13 – النبي يوشع
14 – النبي يعقوب
15 – نهاوند
16 – نور شمس (راجع معارك ثورة 1936 في فلسطين).

معركـة الماصيـون

تسلل حوالي عشرين صهيونياً من مستعمرة عطاروت الواقعة جنوبي مدينة رام الله في الساعات الأولى من صباح 1 / 3 / 1948، وعبروا السهل الكائن شمالي قرية رافات العربية وكمنوا لسيارة نقل ركاب متجهة نحو رام الله عند نقطة قريبة من الطريق التي تربط رام الله بباب الواد. وكانوا قد كمنوا للسيارة نفسها قبل أسبوع وقتلوا ثلاثة من ركابها.

عند وصول السيارة إلى الكمين قذفها الصهيونيون بالقنابل اليدوية، ثم صبّوا عليها نيران أسلحتهم، ولكنهم لم يصيبوا أحداً من ركابها. ثم انسحبوا بعد ذلك عائدين عن طريق وادي الدير الفاصل بين بيتونيا ورام الله خشية تعرض سكان رافات العربية لهم. وبينما هم يتسلقون مع الفجر سفح تل الماصيون القريب من رام الله، تصدى لهم عدد من أبناء رام الله والبيرة الذين خفّوا إلى نجدة ركاب السيارة فور سماعهم الخبر. ونشبت بين الطرفين معركة تمكن العرب فيها من قتل خمسة من الصهيونيين وفرّ الباقون باتجاه وادي الماصيون فطاردهم المناضلون. وفي هذه الأثناء وصل إلى مكان الحادث عدد كبير من العرب من قرى الجيب وبيتونيا ورافات وجديرة فحاصروا الصهيونيين الفارين وقتلوا ستة منهم ورفع الباقون ايديهم يعلنون استسلامهم. ولما اقترب منهم المناضلون قذفوهم بقنبلة يدوية، ففتح المناضلون النار عليهم وقتلوهم جميعاً.

وقد تمّ تسليم جثث القتلى إلى القوات البريطانية التي وصلت بمصفحة إلى مكان الحادث. وتبين أن خمسة من القتلى هم من موظفي مصلحة البريد حصلوا على إجازة من رؤسائهم بالتغيب ذلك اليوم. وهكذا انتهت معركة الماصيون بالقضاء الكامل على مجموعة الكمين الغادر.

المراجع

1 – عارف العارف: النكبة، بيروت 1956.

2 – الموسوعة الفلسطينية: الجزء الرابع ص: 70 – 71. إشراف د. أنيس صايغ. الطبعة الأولى، دمشق 1984.

معركـة المالكية

المالكيـة قريـة تقـع شـمال مدينـة صفـد، علـى بعـد نصـف كيلـو متـر مـن الحـدود الفلسطينية – اللبنانية، وكانت حتى عام 1923 تابعة للبنان.

نصّت الخطـة التـي وضعتهـا القيـادة العربيـة العامـة فـي عمـان أن يدخـل الجيـش السوري النظامي الأراضي الفلسطينية من الحـدود اللبنانيـة للاسـتيلاء علـى صفـد وعـزل مستعمرات الحولة عن مستعمرات طبرية، والقيام بهجوم مشترك على حيفا، بالتعـاون مـع الجيش اللبناني وجيش الإنقاذ. وقد تسرّبت هذه المعلومات إلى الصـهيونيين فقررت قيـادتهم إتخاذ التدابير الهادفة إلى التصدي لهذه الخطة باحتلال القرى الواقعة على محاور التحرك. وكانت مطمئنة إلى عدم احتمال تحرك القوات العربية قبل يوم 15 / 5 / 1948.

كانت مهمة الدفاع عن شمالي الجليل على عاتق اللواء " يفتاح " الذي فشـل خـلال شهر نيسان في احتلال قلعة النبي يوشع وخسر في محاولته 28 قتيلاً فتحول إلى تحصـين مواقعه وتعزيز قواته.

وفي يوم 13 / 5 / 1948 أصدر قائدة بيغال آلون أوامره إلى قائد الكتيبة الأولى بالتقدم لاحتـلال المالكيـة والتـلال المحيطـة بهـا، وإغـلاق الطريـق علـى القـوات السـورية واللبنانية إذا حاولت التحرك عبر هذا الاتجاه. وفي الوقت نفسه قام اللـواء المذكـور بعـزل قلعة النبي يوشع توطئة لاقتحامها من الخلف.

تحركت الكتيبة الأولى بعد تعزيزها نحو أهدافها ليلة 14 – 15 أيار وتمكنت من احتلال " قَدَس " والمعسكر البريطاني خارج المالكية، والمالكية نفسها. ولم يكن يدافع عن هذه المواقع سوى عدد قليل من رجال جيش الإنقاذ. وقبل أن يعزز قائد الكتيبة الصهيونيـة مواقعه المحتلة، دفع المقدّم أديب الشيشكلي قائد قوات جيش الإنقـاذ فـي الجليـل بمفرزتيـن من قواته تعاونتا مع وحدة من الجيش اللبناني على القيام بهجوم معاكس قوي أجبر القوات الصهيونية على الانسحاب من المنطقة كلها بعد أن خسرت عدداً كبيراً من رجالها. وبذلـك تـمّ اسـتـرداد الـمـالـكية والمعسكر وقَدَس، وبدأت عملية تـحـصـين هذه المواقع. على أن

القوات العربية لم تطارد القوات الصهيونية المنسحبة، فاستطاعت هذه إعادة التجمع والتنظيم وتعزيز ملاكها وأسلحتها وهاجمت النبي يوشع بعد قصفها من الجو بقنابل حارقة شديدة الانفجار وتمكنت من احتلالها. وبدأت تستعد لمعاودة الهجوم على المالكية، ولا سيما أن القائد العام للقوات العربية عدّل الخطة السابقة التي كانت تحدد دخول القوات السورية إلى فلسطين من الحدود اللبنانية، وحدّد لهذه القوات محور سمخ. وهكذا لم يبق في الشمال سوى وحدات جيش الإنقاذ والجيش اللبناني الذي كلف الدفاع فقط بموجب التعديل الذي أدخل على الخطة.

في 19 / 5 / 1948، تحركت ليلاً قوة إسرائيلية معززة بالمدرعات إلى داخل الأراضي اللبنانية وقامت بالتفاف اتجهت بعده إلى المالكية من داخل الأراضي اللبنانية. وكان قد سبق لقائد الوحدة اللبنانية في المالكية أن طلب تعزيزه بالقوات بعد سقوط النبي يوشع ورصد تحركات صهيونية مشبوهة. واعتقد الجنود اللبنانيون وهم يشاهدون قوات تتقدم نحوهم من أراضيهم أنها قوات صديقة. ونجح العدو في مفاجأة المالكية واحتلالها رغم المقاومة العنيفة التي أبدتها القوات المدافعة عنها، كما احتل قَدَس ونسف كافة الجسور المؤدية إلى تلك المنطقة، سواء في الأراضي اللبنانيّة أو السورية.

ألقيت مهمة استرداد المالكية وقدس على عاتق قائد قوات جيش الإنقاذ " فوزي القاوقجي "، وألحق به فوج لبناني معزز بالدبابات، فتدارس الموقف مع اركانه، ووضع خطة مفصّلة أشرك فيها مع الجيش اللبناني فوج البادية وعدة سرايا مستقلة وبطاريتي مدفعية. وبعد أن حدّد لكل وحدة مواقع تجمعها وانطلاقها واتجاه هجومها قرر أن يكون الهجوم يوم 6 / 6 / 1948 في الساعة الواحدة والنصف ظهراً لمفاجأة العدو الذي تعوّد انتظار الهجوم عند الفجر. وقد طلب القاوقجي مساعدة الطيران السوري في استطلاع المنطقة بكاملها، واستطاع بذلك أن يعرف بدقة مواقع القوات الإسرائيلية ودرجة تحصينها ومناطق تجمع احتياطها.

وفي الوقت المحدد للهجوم بدأت مدفعية جيش الإنقاذ تصب نيرانها على مواقع العدو، بينما تحركت قوات الهجوم نحو أهدافها، ودارت معارك عنيفة بين الجانبين. وكان الطيران السوري يقصف الأهداف الظاهرة على الطرق والأهداف التي كان يحددها

قائد الهجوم، ويستطلع المنطقة، ويعلم عن مواقع القوات الصديقة، وعن أية قوة معادية قادمة للنجدة. ولم ينتهِ النهار حتى كانت المالكية قد عادت إلى الأيدي العربية. وفي اليوم التالي تحركت بعض الوحدات العربية نحو قَدَس واستعادتها وأمكن تطهير المنطقة بكاملها من القوات المعادية.

تميزت معارك المالكية بعنف القتال والتعاون الجيّد بين قوات جيش الإنقاذ والجيش اللبناني والطيران السوري.

ونظراً لأهمية هذه المعركة على الصعيد العربي بشكل عام، فقد تناولها كثير من الباحثين العسكريين، اللبنانيين والعرب، وبشهادة القادة الذين اشتركوا فيها تحديداً، حيث تعتبر شهادتهم وثيقة دامغة، بل هي من أصدق الشهادات. لذلك تعتبر معركة المالكية حدثاً تاريخياً هاماً في تاريخ الصراع العربي – الصهيوني. ولقد كانت تعني الجيش اللبناني وأبناء جبل عامل بقدر ما كانت تعني أهلها بالذات. لأن سقوط المالكية كان يعني سقوط المنطقة المجاورة بأسرها إن لم نقل أبعد من ذلك بكثير، وهذا ما قد حصل فعلاً.

من هنا جاءت مشاركة الجيش اللبناني فعالة وتميزت باشتراك أكثر من قائد أو ضابط معروف. وهذا ما سنأتي على ذكره في سرد وقائع المعركة.

بدأت معركة المالكية بمناوشات بسيطة، في شهر كانون الأول عام 1947، واستمرت حتى أواخر شهر نيسان من عام 1948، لكن من دون تسجيل انتصارات حاسمة لأي من الطرفين – أبناء القرية والإسرائيليين – وبذلك يمكن القول بأن المعركة لم تكن هجوماً واحداً فقط، لأنها قد مرّت بعدة مراحل، طرأ على كل واحدة منها عنصر جديد، إن لجهة السلاح أو لجهة المشاركة.

من هنا نتناول المعركة بتفاصيلها لتبيان ما تقدم على الشكل التالي:

المعركة الأولى:

بعد سقوط كامب النبي يوشع بأيديهم، هاجم الإسرائيليون المالكية في مطلع شهر أيار من عام 1948، انطلاقاً من مستعمرة الهرواي – التي أنشأوها عام 1946 في الجنوب الشرقي من قرية قدس – وقد استخدموا في هجومهم هذا " البغال " لحمل الأسلحة والذخائر وسلكوا في ذلك طريقاً فرعية من جهة الشرق وطريق وادي أبو سعيد كذلك.

تصدى أبناء المالكية و 500 من المتطوعين من القرى الجنوبية السبع ومن قرى يارون، عيترون، بليدا، ميس الجبل، بنت جبيل للإسرائيليين بقيادة النقيب في الجيش اللبناني محمد زغيب (*)، يرافقه المناضل الشهيد معروف سعد، ودارت معركة كبيرة استمرت منذ مطلع الفجر وحتى الغروب، واستخدم المتطوعون في هذه المعركة أسلحة فرديّة وذخائر محدودة معتمدين بذلك على التمويل الذاتي – إذا صحّ التعبير – وكانوا قد أجلوا شيوخ القرية ونساءها وأطفالها إلى قرية عيترون المجاورة قبل بدء المعركة. ولم يستطع الإسرائيليون دخول القرية – رغم تفوقهم عتاداً ورجالاً – فانسحبوا مخلفين وراءهم ذخائر وأسلحة كثيرة، وسقط النقيب محمد زغيب شهيداً في 13 أيار 1948.

المرحلة الثانية:

هاجم الإسرائيليون المالكية في شهر حزيران من نفس العام، وسلكوا نفس الطريق التي سلكوها في هجومهم الأول، كما أنهم أدخلوا سلاح الدبابات عنصراً جديداً في المعركة واستطاعوا احتلال القرية، وهجّروا سكانها ومكثوا بعدها فترة شهرين في المالكية، تدخل أثرها الجيش اللبناني وكانت معركته الوطنية والقومية الأولى بعد الاستقلال مباشرة.

من هنا وجب تناول وقائع المعركة وتفاصيلها على ألسنة الذين شاركوا فيها:

• يروي العميد الركن المتقاعد، فرنسوا جينادري – وهو من المشتركين البارزين في هذه المعركة – وقائع المعركة بقوله: " كنت ملازماً ثانياً وآمراً لفصيلة مشاة تابعة للسرية الثانية من فوج القناصة الثالث. وأذكر أن مركزي كان في الناقورة. وقد صدرت الأوامر بنقل الفوج الثالث إلى نقطة معينة، يعرفها قائد الفوج العقيد جميل الحسامي وحده، وذلك حفاظاً على سرّية العملية التي قررت ". ويضيف قائلاً: " إنتقلنا في الساعة الرابعة

(*) – جال النقيب محمد زغيب على القرى الحدودية لجمع المتطوعين استعداداً لمعركة المالكية، وكان يخاطب هؤلاء قائلاً: " من أراد الموت دفاعاً عن الأرض فليأتِ معي ". وقد سقط شهيداً في هذه المعركة، مما دفع قيادة الجيش اللبناني إلى مكافأته من خلال إطلاق اسمه على ثكنة صيدا العسكرية، المعروفة اليوم باسم " ثكنة محمد زغيب ".

من ذاك النهار، وكان يوم جمعة متوجهين إلى منطقة بنت جبيل. وهنا نصبنا الشوادر، وكان نصيب سريتنا قرية مارون الراس. وعند الساعة 24، وبوجود الأمير مجيد أرسلان – وزير الدفاع آنذاك –، جمعنا الأمير اللواء فؤاد شهاب قائد الجيش في بساتين زيتون عيترون، وألقى خطاباً أذكر منه " إنه المطلوب من فوجكم شرف فك الحصار عن مجاهدي جيش الانقاذ العربي حيث انقطعت عنهم خطوط التموين، باحتلال الإسرائيليين قرية المالكية. وهي عبارة عن هضبة ارتفاعها 800 متر، وتشرف على ثلاث طرق تموين في الجليل الشمالي من أرض فلسطين المحتلة. الأولى المالكية – عكا، والثانية المالكية – ترشيحا، والثالثة المالكية – الناصرة ".

وأضاف جينادري قائلاً: " لقد وضعنا اللواء شهاب في جو المعركة مشيراً إلى أنه باحتلال هضبة المالكية انعزل ما يقارب الثلاثة آلاف مجاهد في منطقة الجليل الشمالي، وعلينا فك الحصار عنهم كما أشرنا. وأنهى اللواء شهاب خطابه قائلاً: لأول مرة يقوم جيش الاستقلال الوطني اللبناني بمعركة حيوية مصيرية وبالذخيرة الحيّة. وهي مناسبة للبعض منكم لأن ينال وسام صليب الحرب Croix de la guerre، كما أنها مناسبة للبعض الآخر أن ينال صليب خشب. وقد أثار ذلك ضحك جميع الضباط والجنود، في وقت لم يكن قابلاً للضحك أو المزاح. ثم شرح لنا شهاب بإسهاب عملية توزيع الأوامر الأساسية. ومن ثم تركنا بعد أن سلّمنا إلى قائد الفوج العقيد جميل الحسامي، ووضع بتصرفه فصيلة تتألف من أربع دبابات ومصفحتين بقيادة النقيب فؤاد لحود والملازم الأول الشيخ جميل عيد ".

ويتابع جينادري قائلاً: " بعد توزيع المهام العسكرية علينا، عدت إلى فصيلتي ضائعاً، إذ كنت في الحادية والعشرين من عمري، ومن عشاق الحياة كغيري من الناس، لكنني تذكرت في تلك اللحظة بأنني مسؤول عن 41 جندياً، وأن روحي لا تختلف عن أرواحهم. وقد أخذت كل سريّة موقعها استعداداً لاشارة الانطلاق – انطلاق الهجوم التي حددت بربع ساعة بعد مرور الطيران السوري الذي أوكلت إليه مهمة قصف مراكز العدو – وقد تمّ توزيع الوحدات العسكرية كالآتي:

1 – السرية الأولى – القائد الرائد ميخائيل أبو طقّه يعاونه ضابطان هما الملازم

الأول انطوان خوري، والملازم رزق الله صفير.

- المركز: مرتفع 500 جنوبي قرية بليدا الحدودية اللبنانية.
- المهمة: احتلال برج كلم 9 (تسمية انكليزية) والاتجاه شرقي قرية المالكية واحتلال الهضبة 705.
- الاتصال: - التعاون الوثيق مع فصيلة الدبابات على طريق مفرق بليدا - بلوكهاوس كلم 9 - المالكية.
- الحذر من تسلل إسرائيلي من وادي النبي يوشع (*).

2 - السَريّة الثانية: القائد النقيب سعيد نصر الله يعاونه الملازم فرنسوا جينادري والملازم حسين بركات.

- المركز: أوكل إلى الفصيلة الأولى مهمة التقدم إلى محور بليدا - كلم 9 - ومساندة الدبابات والمصفحات ومراقبة وادي النبي يوشع تحسّباً لكل طارئ قد تتعرض له مؤخرة السريّة الأولى.
- المهمة: وضعت الفصيلة الثانية بأمرة المعاون أبو حمزة، والثالثة بتصرف السرية الأولى والثانية لحماية مؤخرتيهما ومؤازرتيهما عند الاقتضاء.

3 - السريّة الثالثة: - القائد الركن زين الدين يعاونه الملازم محمد الحلبي والملازم إيلي أيوب.

- المركز: مرتفعات عيترون، شمالي قرية عيترون.
- المهمة: - التقدم واحتلال مرتفع 650 شرقي طريق المالكية - الناصرة في الأرض المحتلة، والالتفاف غرباً لاحتلال هضبة المرتفع 705.
- التعاون: التعاون الوثيق مع فصيلة الدبابات على طريق مفرق بليدا - المالكية.

4 - السريّة الثقيلة: - القائد الرائد رعد الهاشم يعاونه الملازم الأول الياس الحاج.

- المركز: هضبة جبل الكحيل - مرتفع 881.

(*) - وادي النبي يوشع هو المعروف بوادي عروس ويقع بين قريتي قدس والنبي يوشع.

- المهمة: مساندة سرايا المشاة وقصف مواقع العدو.

5 – المدفعية: القائد النقيب هنري شهاب.

- المركز: بساتين الزيتون شمالي قرية عيترون.
- المهمة: مساندة سرايا المشاة وقصف مواقع العدو.
- العتاد: مدفعان.

6 – المدرعات: القائد النقيب فؤاد لحود يعاونه الملازم الأول الشيخ جميل عيد.

- المركز: الانطلاق والتحرك من مفرق بليدا.
- المهمة: مساندة السرايا الأولى والثالثة ودعم تقدمهما حتى برج الكلم 9 وقرية المالكية.
- العتاد: أربع دبابات " رينو " من وزن ستة أطنان.

وصف سير المعركة:

إنتقل جينادري إلى وصف سير المعركة فقال: " لقد كان العدو الإسرائيلي بكامل استعداداته. وعندما تحركت وحداتنا قام بقصف جميع مواقعنا بنيران غزيرة ومكثفة للغاية، الأمر الذي جعلنا نبقى في مراكزنا دون أي تقدم. وقد كانت مهمتي السير وراء الدبابات من طريق بليدا الكلم 9 ومراقبة سير السرية الثالثة والأولى والحفاظ على مؤخرتيهما تجنباً لأي عمل مفاجئ قد يقوم به العدو من وادي النبي يوشع، ويمكن هنا تسجيل الآتي:

1 – لقد أحرق العدو جميع حقول الحنطة والمزروعات لتأمين حقول رماية لأسلحته الفردية والرشاشة معاً.

2 – كان تقدم السريّة الأولى والثالثة صعباً جداً. إذ أن الأسلحة الإسرائيلية كانت تشرف علينا من هضبة المالكية، ورغم بسالة جنودنا كان التقدم بطيئاً جداً وخصوصاً أيام الحرّ.

3 – تقدمت الدبابات بكل حذر خوفاً من الألغام التي زرعها العدو، وقد كان وضع فصيلتي صعباً للغاية حيث كانت الأرض مكشوفة على مسافة 800 متر، ولم يتمكن الجنود من الزحف لأن العدو كان يطل عليهم من مواقع الكلم 9 والمالكية.

4 – بسبب الطوق المفروض علينا، أمرت الفصيلة بالوثوب حتى الكلم 9، لكي أتجنب نيران العدو. فاتصلت بالعقيد جميل الحسامي وطلبت منه الإيعاز للملازم الأول الشيخ جميل عيد بأن يساندني بنيران دباباته ومصفحاته. وقد شجعني العقيد على هذه الفكرة وأصدر الأوامر الخاصة بذلك. وعندما أعطيت جنودي أمر " اقرنوا الحراب " شعرت بتيار بارد يسري في عروقي، إذ كنت ساعرّض حياتهم لنيران العدو المرابض في برج الكلم 9، وأنا مسؤول عن كل واحد منهم. إلا أن أحداً منهم لم يتقدم. عندئذ تذكرت مدربي الفرنسي الذي قال لي في أحد الأيام: " الرئيس هو رأس ولكنه أيضاً هو في الرأس، أي في الطليعة ". عندئذ وثبت وثبة الخائف من الموت، ولكنها وثبة القدوة الصالحة. فهبّ جنودي خلفي هبّة الرجل الواحد، باتجاه موقع الكلم 9، وهم يطلقون النار. وهكذا فعل الفوج بكامله، وكان دوي نيران الأسلحة شبيهاً بالحمم التي يقذفها البركان. لقد قاومنا العدو مقاومة شرسة، ومع ذلك وصلنا إلى قمة الهضبة في المالكية. وخضنا مع فلوله ثلاث معارك، أجبرناها في النهاية على الانسحاب والانكفاء نحو الأرض المحتلة، حيث عمدت هذه الفلول إلى تفجير وإحراق كل الذخائر والعتاد التي كانت بحوزتها.

وينهي جينادري ذكرياته عن معركة المالكية قائلاً: " أذكر أن أول جندي جرح في هذه المعركة المشرفة للجيش اللبناني هو من فصيلتي واسمه الرقيب الأول مارون حافي، وقد أصيب بجرح في رأسه ورقبته فنقل إلى مستشفى بنت جبيل ثم إلى مستشفى الخليل في صور، كما أذكر أننا كنا في فترة صيام رمضان المبارك، كان العقيد جميل الحسامي صائماً، إذ وعد والده الشيخ محمد الحسامي باحترام صيامه خلال المعركة ".

- أما العقيد الركن منير حمدان، فهو أحد المشتركين كذلك في المرحلة الثانية من معركة المالكية. وتحديداً في أوائل شهر تشرين الأول عام 1948، بعد انسحاب الجيش اللبناني من المالكية لانتظار صدور قرار من القيادة العامة لجامعة الدول العربية. ويقول: " لقد كنت تابعاً للفوج الخامس الذي حلّ مكانه الفوج الثالث المنسحب من المالكية، وقد فوجئنا بالهجوم الإسرائيلي بعد انسحاب جيش الإنقاذ الذي لم يكن كامل العتاد والأسلحة، فقاومَنا الاسرائيليون مدة ثلاثة أيام، قاتلنا خلالها قتالاً مكشوفاً وضارياً، ولم يتراجع الفوج

الخامس، إلا بأمر العميد سالم الذي كان رئيساً لأركان الجيش اللبناني آنذاك.

وقد رسم العميد حمدان الوضع العام قبل وقوع معركة المالكية قائلاً: " لقد كان جيش الإنقاذ الذي شكل من قبل الجامعة العربية وبأمرة الجنرال طه باشا الهاشمي (عراقي) موزعاً في الأراضي الفلسطينية، حيث تكثر كثافة السكان العرب، وكان فوزي باشا القاوقجي من كبار قادة هذا الجيش الذي كان مؤلفاً بأغلبيّته من ضباط عرب خدموا سابقاً في الجيوش العربية ومن المتطوعين. وقد كان هذا الجيش ضعيفاً جداً ووسائل اتصالاته محدودة جداً. لذلك كان يُمنّى بالخسارة كلما اشتبك مع وحدات الهاغاناه الإسرائيلية، وكانت آخر خسارة استيلاء الجيش الإسرائيلي على الجليل الشرقي الأعلى – أي من المالكية لغاية دان –.

ويصف العميد حمدان المالكية عسكرياً ويقول: " إن المالكية تشكل من الناحية التكتيكية أحد محاور العبور الثلاثة من الأراضي اللبنانية إلى الأراضي الفلسطينية المحتلة، وهذه المحاور هي:

1 – مرجعيون – طبريا حيث يكثر في هذه الأخيرة التواجد السكاني اليهودي.

2 – صور – حيفا. حيث تتكاثر فيها الكثافة السكانية اليهودية.

3 – بنت جبيل – المالكية (كثافة سكانية عربية).

ويشرح العميد حمدان خلفيات ووقائع معركة المالكية فيقول: " في أواخر حزيران 15948 إستولى الإسرائيليون على معقل المالكية الذي كان تحت سيطرة جيش الإنقاذ – كتيبة المقدم شكيب وهاب –. إن احتلال هذا المعقل له أهمية كبرى، والذي يستولي عليه يؤمن

حرية التحرك إلى داخل فلسطين شرقاً وغرباً وجنوباً. لذلك قررت القيادة العسكرية العربية الموحدة إعادة احتلال هذا المعقل والتدخل في الجليل الأوسط لغاية الناصرة وطبريا.

وبتاريخ 4 / 7 / 1948 إجتمع في بلدة تبنين اللبنانية كل من طه باشا الهاشمي القائد العام للقوات العربية في فلسطين، وفوزي باشا القاوقجي – قائد جيش الإنقاذ – والمقدم شوكت شقير – رئيس أركان جيش الإنقاذ – وكان مفصولاً من الجيش اللبناني

إلى جيش الإنقاذ، والمقدم طالب الداغستاني – قائد فوج الهجانة السوري –، والعقيد جميل الحسامي – قائد فوج القناصة الثالث اللبناني –، والنقيب فؤاد لحود – قائد سرية للمدرعات –، والملازم أول علوش – قائد كتيبة من جيش الإنقاذ –، والملازم أول عفيف البزري – آمر مدفعية مؤلفة من فصيلتين لبنانية وسورية وهو من الجيش السوري –. كما حضر الإجتماع اللواء فؤاد شهاب، والعميد يوسف سالم رئيس أركان الجيش اللبناني، وأشرفا على الهجوم من بلدة عيترون. كما حضر جزءاً من الهجوم الأمير مجيد ارسلان وزير الدفاع آنذاك.

بقي الجيش اللبناني في المالكية حتى أوائل تشرين الأول سنة 1948، حيث استلمت منه كتيبة الجامعة العربية المؤلفة من عناصر تابعة لجميع الدول العربية ومعظمها من الليبيين. كانت هذه الكتيبة مؤلفة من أربع سرايا، وقائدها المقدم شوكت بك اليوغسلافي – متطوع –. سميت هذه الكتيبة بفوج القنّاصة الخامس لأسباب إدارية. وفي النصف الثاني

من شهر تشرين الأول 1948، خرق الإسرائيليون الهدنة وقاموا بهجوم واسع النطاق مدعومين بطيران حربي حديث ومدرعات حديثة واحتلوا الجليل الأعلى بكامله، وتحت الضغط وبعد انسحاب كافة عناصر جيش الإنقاذ، كما انسحبت الكتيبة السورية التي كانت بقيادة المرحوم النقيب عدنان المالكي، مما اضطر الفوج الخامس، وبعد قتال مكشوف دام ثلاثة أيام – وبأمر من المرحوم العميد يوسف سالم – رئيس اركان حرب القيادة اللبنانية – إلى التراجع للتلال المحيطة ببلدة بنت جبيل وهي مارون الراس – صف الهوى – مرتفع 847 بين عين إبل وبنت جبيل. وبعد التراجع طلب العميد سالم تثبيت الهدنة ووقف إطلاق النار، فاستجيب إلى طلبه من قبل الأطراف المعنية.

• ويروي العقيد النائب فؤاد لحود – رئيس لجنة الدفاع النيابية –، ومن الذين خاضوا معركة المالكية، تفاصيل هذه المعركة قائلاً: "كان وزير الدفاع الأمير مجيد ارسلان، وقائد الجيش اللبناني اللواء فؤاد شهاب وضابط الإشارة النقيب جان نجيم – أصبح قائداً للجيش اللبناني فيما بعد –، كان هؤلاء الثلاثة يشرفون على المعركة من على أكمة مجاورة. وكان من المفروض أن أكون في الناقورة لكنني حضرت فاتصل بي قائد

الجيش لاسلكياً وسألني: " من أمرك بالحضور والاشتراك في المعركة؟ فأجبته: لا أحد، وأنني أتحمّل مسؤولية عملي. وتابعت الهجوم. وعندئذ ترك وزير الدفاع مكانه " بلاندروفر " مكشوف قائلاً: " إنني أغطّي شخصياً ما قام به النقيب لحود لرفع المسؤولية عنه. لذلك سأشترك معه في الهجوم. وبعد دقائق وصل الأمير مجيد فرجوته عدم إكمال طريقه معنا، خصوصاً وأنه يستقلّ " جيباً " مكشوفاً، لكنه رفض وأكمل الهجوم، حيث استولينا فيما بعد على المالكية. وبعد المالكية تابع الأمير مجيد طريقه مع فوزي القاوقجي إلى الناصرة، بعد أن انهزم الجيش الإسرائيلي. إلا أنهما توقفا هناك بعد إعلان الهدنة. وبعد انتهاء المعركة عاقبني قائد الجيش لأنني دخلت المعركة دون أمر، ولكنه منحني – من جهة ثانية – كما منح كتيبتي أعلى وسام عسكري، وهو وسام الحرب مع السعف، كما منح بالتالي جميع الضباط المشتركين الوسام نفسه، إلا أن وزير الدفاع ألغى عقوبتي واستبقى لي الوسام ".

● أما العميد الركن المتقاعد خطار حيدر، فقد اشترك في معركة رأس الناقورة، التي دارت رحاها بين الجيش اللبناني والعدو الإسرائيلي في 26 أيار عام 1948. كما كان شاهداً على معركة المالكية باعتباره قائداً للقطاع الغربي في الجنوب اللبناني من الناقورة حتى رميش، ويرسم العميد حيدر أمر هذهِ المعركة عسكرياً بقوله: " لقد كانت معركة المالكية من أبرز المعارك التي خاضها الجيش اللبناني مع العدو الإسرائيلي. أدار هذه المعركة من مقرّ قيادة المجموعة، اللواء فؤاد شهاب، وكان إلى جانبه وزير الدفاع الأمير مجيد أرسلان. أما جيش الأنصار، بقيادة المجاهد فوزي القاوقجي والزعيم شوكت شقير، فقد تقدم بعد ان اجتاز المالكية، حتى مدينة الناصرة، ثم تراجع على أثر هجوم مضاد قامت به قوات مدّرعة اسرائيلية من قرية النبي يوشع، لاستعادة المالكية، بعد أن أخلاها الجيش اللبناني... وقد تابع العدو تقدمه باتجاه الحدود اللبنانية وتمكن من الاستيلاء على احدى عشر قرية (نذكر من هذه القرى عيترون، بليدا، ميس، وبلدة بنت جبيل)، وقد أعيدت هذه القرى الى لبنان بعد أن وقّعت الهدنة في رودس عام 1949. أما الخسائر في صفوف العدو فكانت جسيمة، وطفيفة جداً في صفوف الجيش اللبناني ".

● إضافة إلى ذلك، يذكر هاني الهندي في كتابه عن " جيش الانقاذ " بهذا الصدد،

انه بعد جلاء الانكليز عن المالكية سيطرت على القرية والمعسكر مفرزة صغيرة من فوج اليرموك الثاني الذي كان يقوده المقدم أديب الشيشكلي. ولكن الصهاينة قاموا بهجوم مفاجئ في 12 أيار / مايو واحتلوها، إذ كانوا على علم بالخطة العسكرية العامة وعلى معرفة بأن القوات السورية ستنطلق من المالكية. ويقول ناتانيل لورتش (Netanel Lorch) الصهيوني " أن هناك ثلاث طرق للتقدم من لبنان الى فلسطين. ولقد اختار اللبنانيون الطريق المركزي – أي المالكية – ليس لأنه يمكنهم من الوصول إلى الجليل الشرقي دون مواجهة المستعمرات اليهودية فحسب، بل ويمكنهم فيما بعد من الاتصال بالسوريين والعراقيين ودعمهم في هجومهم على حيفا. ولهذا وضع فوجان من المشاة وسرية مصفحات لتصدّ التقدم اللبناني من خلال " بوابة المالكية ". ويقول محمد فايز القصري ان الصهاينة " أرسلوا سرية مغاوير من البالماخ من مستعمرة الهراوي وتسلّلوا الى المعسكر في منتصف ليلة 12 – 13 أيار / مايو واستولوا عليه... وفي الصباح استعادت قوات الانقاذ بقيادة الشيشكلي المالكية ومعسكرها... وعند الظهر كان اليهود يلجأون الى المرتفعات المجاورة ". وفي 29 أيار / مايو عاد اليهود لطرد قوات الإنقاذ من المالكية وقَدَس وبليدا وعيترون... ونظراً لأهمية هذه المنطقة فقد قررت قيادة الانقاذ وقيادتا الجيشين السوري واللبناني ضرورة استعادتها. ولذلك فقد حشدت في أوائل حزيران / يونيو قوات مشتركة زادت على ثلاثة آلاف مقاتل وطردت اليهود من المنطقة.

كانت القوات المشتركة في هذه المعركة تتكون من:

فوج جبل العرب وكان يقوده الرائد شكيب وهّاب، وفوج حطين بقيادة النقيب مدلول عباس وألحقت به سرية عراقية بقيادة الملازم الأول شناوة عرد، وسرية من فوج اليرموك الأول، وسرية يمانية وسرية مجدل شمس، وفوج من المتطوعين اللبنانيين بقيادة النقيب حكمت علي، بالاضافة الى فصيل من المتطوعين اليوغوسلافيين. هذا من جانب الانقاذ. وكان هناك فوج نظامي لبناني بقيادة المقدم جميل الحسامي وسرية دبابات خفيفة لبنانية. واشترك في القتال أيضاً فوج البادية السوري وبطاريتا مدفعية (12 مدفعاً) بقيادة الملازم الأول عفيف البزري وطائرات سورية. وكانت قيادة هذه القوات المشتركة للمقدم طالب داغستاني، والرائد الركن عامر حسك وهو ضابط ركن القوة.

وفي الواحدة بعد ظهر يـوم 6 حزيـران / يونيـو فتحـت المدفعيـة نيرانهـا ثـم تقدم المشاة على مواقع الصهيونيّين في المالكية برتلين... وبعد قتال دامٍ استمر خمس ساعات انسحب اليهود ودخلت قواتنا منتصـرة... وكـانت خسـائر اليهـود كبيرة... وكـان الضبـاط والجنود العرب على جانب عظيم من الضبط والسيطرة وشجاعة ممتـازة وتشـوّق لقتـال اليهود... ".

أما الصهاينة فيقولون: " ان القوة التي كانت في المالكية، من لواء عوديـد المؤلـف بشكل أساسي من رجال الحرس المحلّي ومجموعات هامشية غير مدربة. وقد استطاعت ثلاثة أفواج عربية (لبنان، سورية، إنقاذ) مـن شـن هـجوم مركـز صبـاح 6 حزيـران / يونيو. ومع أن الإسرائيليين تلقوا تقارير وشائعات عن تـحـركـات عـسـكـرية على جـانبي " إصبع الجليل الشرقي "، إلا أن جنود عوديد غـير المدرّبيـن أخـذوا بمفاجـأة كاملـة. ولقد حاولوا في البداية التصدي لفوج القاوقجي وتعرض السوريون لخسائر كبيرة لوقوعهم فـي حقل ألغام، لكن القوة اللبنانية نجـحـت فـي طـرد الاسـرائـيـلـيـيـن من المالكية... ". ويتـابـع دان كورزمان (Dan Kurzman) ليصف القاوقجي راكباً سيارة الجيب ومرافقـاً لقـوات الانقاذ في تقدمها نحو الجليل، حيث يرد التحية للجماهير التي خرجت لاستقباله.

أما المقدم لورنش فإنه بعد إشارته إلى تحقّق المفاجأة بالنسبة لقوات عوديد (حيـث كثيراً ما يلـجـأ الاسـرائـيـلـيـون إلى خلق التبريرات المختلفة عند كل هزيمة تلحق بقواتهـم (ص.ر.)) يذكر أن القوات العربية كانت في حجمها تتشكل من لواءين تقريباً، وقد تـابعت تقدمها بعد انسحاب الصهاينة، إلى قَدَس، وتوغلت داخل الجليـل ثانيـة بثلاثـة أرتـال: نحـو قرية لوبيا والشجرة والثاني نحو الناصرة، والثالث نحو الجليل الغربي.

هذه المعركة الناجحة لم تستثمرها قيادة الإنقاذ كما يجـب، ففـي رأي الرائـد عـامر حسك " ان هذه القوة الكبيرة قلّمـا تجتمـع فـي مكـان واحد وبقيـادة واحـدة، فـاغتنمت هـذه الفرصة وعرضت على القاوقجي فكرة استغلال الظرف والاستفادة من هذه القوات القويـة بمعنوياتها والكثيرة بعددها وأسلحتها، وطلبت أن يستأنف الهجـوم علـى مواقـع اليهـود فـي الهراوي والنبي يوشع، ومن ثم يطهر الجيب في منطقـة الحولـة حتـى المطلـة فـي شمـالها والاتـصـال بالقوات السورية في منطقة بانياس وجنوبها، مؤكداً له أن هذه العملية لا ريب

في نجاحها نظراً لوضع اليهود المرتبك في جميع أجزاء فلسطين باعتبار ان سيطرة الموقف كانت بيد القوات العربية في كل جزء حينذاك... ". ولم يكن هذا الرأي قاصراً على الرائد عامر حسك، بل أن هناك عسكريين عرب أخرين تضايقوا جداً يومها من توغل الإنقاذ في الجليل وتركه مجموعة المستعمرات اليهودية إلى يسار قواته فيما كانت القوات السورية تقاتل يومها على مقربة منه، إذ كانت تهاجم مشمار هايردن.

ولو تقدم الإنقاذ نحو الشرق بدل التوجه نحو الجنوب – كما يقول المقدم شوكت شقير – لاستطاع تأمين الاتصال بالجيش السوري وعزل ما يسمى بـ " إصبع الجليل الشرقي " ومجموعة المستعمرات القائمة فيه لتشكل حاجزاً بين لبنان وسورية.

هذا ويقول المقدم الركن شوكت شقير: من المؤسف ان الصحافة العربية شاركت في التضليل، إذ كتبت العناوين الكبيرة في تضخيم عودة قوات الإنقاذ إلى الجليل وكان فيه قوات معادية وقد تم طردها منه، وجعلت من ذلك وكأنه هجوم صاعق على نحو ما كانت تعرف به الهجمات العسكرية الالمانية الصاعقة (بليتز كريغ) في أوروبا خلال الحرب العالمية الثانية، في حين أن الإنقاذ لو توجّه بقواته نحو الشرق لسحق القوات الصهيونية في الهراوي والنبي يوشع، لكان حقق فوائد عسكرية هامة ومفيدة جداً للوضع العسكري العربي العام (سورية ولبنان خاصة) ولجيش الإنقاذ نفسه.

وهكذا تبقى معركة المالكية " لؤلؤة " المعارك الفاصلة التي خاضت غمارها القوات العربية عام 1948، وخصوصاً قوات الجيش اللبناني التي أثبتت جدارتها وكفاءتها القتالية الرائدة في هذا المضمار.

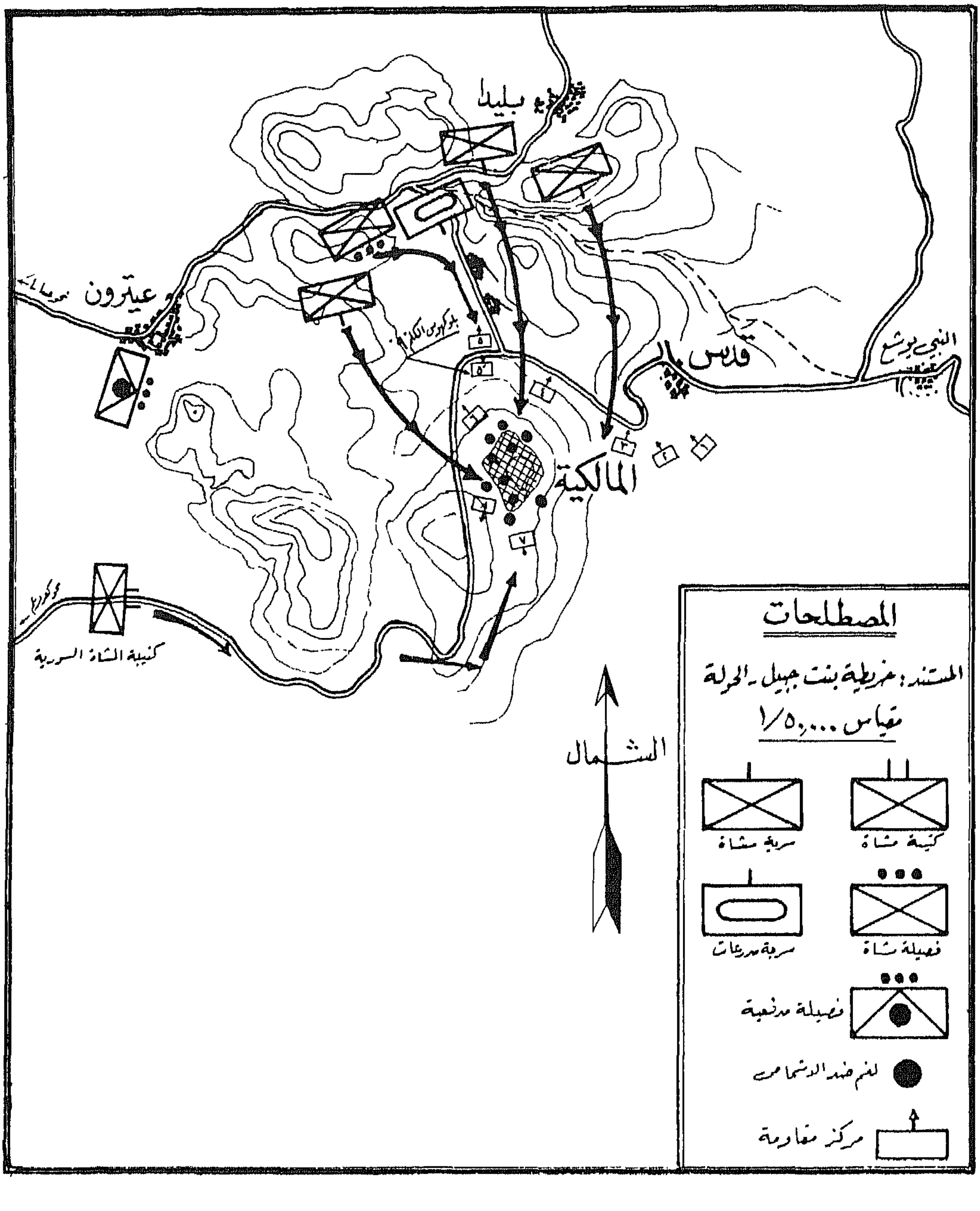
المراجع

1 – هاني الهندي " جيش الإنقاذ ". دار القدس. بيروت. الطبعة الأولى 1974. ص 103 – 106.

2 – الرائد عامر حسك " من مأساة فلسطين ". مطبعة المعارف. بغداد 1960. ص 29 – 35 و 78.

3 – العميد محمد فائز القصري " حرب فلسطين 1948 ". الجزء الثاني. دمشق 1962. ص 295 – 296.

4 – مذكرات فوزي القاوقجي. اعداد د. خيرية قاسمية. بيروت 1975.
5 – حسن البدري " الحرب في أرض السلام ". القاهرة 1976.
6 – عارف العارف " النكبة ". الجزء الرابع. بيروت 1956.
7 – الموسوعة الفلسطينية. الجزء الرابع. هيئة الموسوعة الفلسطينية. الطبعة الأولى. دمشق 1984. ص 74 – 76.
8 – فايز حسن الريس " القرى الجنوبية السبع " مؤسسة الوفاء. بيروت. الطبعة الأولى 1985. ص 101 – 113.
9 – مجلة " الأفكار ". العدد 11. الاثنين 10 أيار / مايو 1982. ص 7 – 9.
10 – كتاب " القضية الفلسطينية والخطر الصهيوني " منشورات وزارة الدفاع الوطني اللبناني ومؤسسة الدراسات الفلسطينية. بيروت. الطبعة الأولى 1973. ص 554 – 559.



– معركة المالكية –

المرجع: كتاب " القضية الفلسطينية والخطر الصهيوني ". ص 555.

معركــة محروقة

(موقع قرب براك)

شهد هذا الموقع في 24 ديسمبر / كانون الأول 1913، معركة من أهـم المعـارك التي جرت في تاريخ الجهاد الليبي، تصـدى فيهـا المجـاهدون، بقيـادة محمـد بـن عبـد اللـه اليوسفي، لقوات (مياني) التي جردها للاستيلاء على فزان والمناطق الجنوبية من ليبيا.

كانت قوات (مياني) قد اصطدمت بهذه الفئة من المجاهدين في معركتي (الشـب) و (أشكدة)، وخبرت من جهادهم الصـادق وبلائهم، ما جعلها تخشـى العواقـب المترتبـة على بقاء هذه القوة، وما يحمله وجودها من احتمالات الخطر، وزيادة تصعيد المقاومة فـي المنطقة. وكانت الأنباء قد ترامت إلى الايطاليين، بقيام المجاهد محمد بن عبد الله، بتنظيـم قواتـه فـي المنـاطق القريبـة مـن (بـراك). كمـا قـام بالسيطرة علـى مرتفعـات المنطقـة ومسالكها. وقد خاف الكولونيل مياني مـن النتـائج المترتبـة علـى وجـود هـذه القـوة، فقـرر المبادرة إلى الزحف عليها، لزحزحتها عن المواقع الهامـة، قبـل أن تقوم بتدعيم مواقعهـا الدفاعية التي كانت تسيطر سيطرة تامة على أرض المعركة. وتحرك مـن بـراك يـوم 23 ديسـمبر / كـانون الأول 1913 بقـوة تتـألف مـن 775 بندقيـة و 12 قطعــة مدفعيـة ورشاشتين. بعد أن قام بتأمين الدفاع عـن بـراك، وتوفير الاحتيـاطي الـلازم لهـا. وكـانت محلّة محمد بن عبد الله تتألف من حوالي 500 مجاهد، مـن رجـال القبلـة، مـن أولاد أبـي سيف والمشاشي والزنتان الذين انضموا إليه وساروا تحت لوائه، عقب معركة (جندوبة) الاصابعة، حيث رفض محمد بن عبد الله الاستسلام، وقام باشعال المقاومـة فـي الجنـوب. وتعتبر المصادر الايطالية الرسمية، معركـة محروقـة، مـن المعـارك الحاسمة فـي تـاريخ الحملة الايطالية على فزان. وكان (مياني) يرى أن هذه المعركة هي التي ستقرر مصير الطرفين ومصالحهما العليا، وهو يعني بذلك رغبة محمد بن عبد الله ورفاقـه فـي مقاومـة ورفض الاستعمار، وطرد المستعمرين، ومن الجانب الآخـر مصـير القـوة الايطاليـة التـي كان يحيق بها الخطر. وكانت خليقة بان تنتهي إلى كارثة محـقـقـة، وإبـادة تـامــة فـي

حال فشلها في هذه المعركة. وكان عنف المعركة متكافئا مع مفهوم الطرفين للصراع والنتائج المترتبة عليه.

وقد استغرقت معركة محروقة، خمس ساعات اتسمت بالعنف والضراوة، وتعرض العدو الايطالي، اكثر من مرة إلى أخطار، كادت تقضي على بعض أجنحته، وقتل في هذه المعركة عدد من الضباط الايطاليين كما جرحت مجموعة كبيرة منهم.

استشهد في هذه المعركة القائد محمد بن عبد الله اليوسفي (بطل محروقة)، وقائد حركة المقاومة في الجنوب، بعد أن أبلى البلاء الصادق في الدفاع والمقاومة، وبعد أن شارك في كثير من المواقع الهامة التي جرت على أرض هذا الوطن عقب الاحتلال الايطالي. ويعتبر محمد بن عبد الله في الرعيل الأول من المجاهدين المخلصين الصادقين الذين جاهدوا في سبيل الله والوطن. وهو من الشخصيات الوطنية الهامّة التي لم تلق حقها من الانصاف، ولم يجد جهادها من التنويه ما هو جدير به.

المراجع

1 – خليفة محمد التليسي " معجم معارك الجهادَ". ص 455 – 457.

2 – مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الايطالي. طرابلس / ليبيا.

معركة المرقب

هي إحدى معارك البطولة والجهاد الليبي المشرّف ضد الغزاة الايطاليين. والمرقب، موقع مرتفع على مسافة ستّة كيلو مترات غربي الخمس، يبلغ ارتفاعه حوالي 176 متراً. شهد هذا الموقع الهام عدة معارك حربية عنيفة أثناء المراحل الأولى من الجهاد، وغزو الايطاليين لمدينة الخمس، ونزولهم بها يوم 21 اكتوبر / تشرين الأول 1911. وجرياً على الاسلوب الذي اتبعته القيادة العسكرية التركية في هذه الخرب، فقد خرجت الحامية التركية من المدينة، واعتصمت بالهضاب والمرتفعات، والمواقع القريبة المحيطة بالمدينة، وتمكنت بذلك من السيطرة على المواقع الدفاعية الايطالية. ويعتبر هذا المرتفع الذي يسيطر على مدينة الخمس،وعلى مفترق الطرق بين " مسلاتة " و " ترهونة " والخمس، من أهم المواقع الدفاعية عن المدينة، وهو فعلا (مرقب) ممتاز، لمتابعة ورصد التحركات القادمة من الدواخل. وقد نظم به المجاهدون بقيادة (خليل بك) حركة الدفاع عن المنطقة بأسرها. وأفلحت هذه الخطة في تعطيل زحف القوات الايطالية، وعاقتْها عن تنفيذ مخططها الرامي إلى التوسع الفوري في المنطقة. وظلت مواقع المجاهدين في المرقب تثير المضايقات، في وجه القوات الايطالية، وتهدد بشكل مباشر الوجود الايطالي بالمدينة. وشعر الايطاليون بمركزهم المزعزع في المدينة، ورأوا أنه من الضروري لهم، لتأمين سيطرتهم على المواقع التي استولوا عليها من الساحل، العمل على استيلاء هضبة المرقب.

وتحركت القوات الايطالية عند الساعة السابعة من صباح يوم 23 اكتوبر / تشرين الأول 1911، بأعداد كبيرة وتشكيلات مختلفة، تدعمها القطع البحرية الحربية. ولم تكد تبدأ بالزحف حتى وجدت نفسها تواجه مقاومة عنيفة في كل مكان. وتمت هذه المعركة على مرحلتين: المرحلة الأولى، وهي التي انتهت عند الظهر تقريبا باحتلال الايطاليين للموقع، وتركهم حامية به.

وتعترف المصادر الايطالية الرسمية بأن المجاهدين كانوا يتميزون بالجرأة، ولم

يكن عددهم ليزيد في هذه المرحلة عن خمسمائة مجاهد، طبقا لتقدير المصادر الايطالية نفسها. وهو عدد لا يتكافأ مع عدد القوات الايطالية، ومع ذلك فقد اضطر القائد أن يستخدم الاحتياطي، ومدفعية السفينة الحربية (ماركوبولو). وظن الايطاليون أن المعركة قد انتهت، بسيطرتهم على المرقب، فتركوا جزءاً من قواتهم بالموقع. وعادوا بالباقي إلى الخمس. ولاحظ المجاهدون الذين كانوا يسيطرون على الهضاب المجاورة هذه الحركة فأقبلوا في مجموعات أكبر، تقدر بألف وخمسمائة مجاهد، وقاموا بشن هجوم عنيف على المرقب، مما اضطر القائد الايطالي إلى الاستعانة بالقوات التي سحبها، بعد أن أحاط المجاهدون به، وكادوا يتلفون ميسرته، واستمرت المعركة حتى الساعة السادسة مساء، أُرغم القائد الايطالي بعدها على الانسحاب، بكل قوته إلى الخمس، متخلّيا عن فكرة ابقاء قوة في المرقب لحمايته، بعد الخسائر التي تكبدها. وبعد الهجوم التالي الذي بعث في نفسه الشك، وزعزع يقينه بامكانيّة حماية الموقع، دون الانقطاع عن مواقع الحامية. ويتفق تاريخ هذه المعركة الهامة مع تاريخ المعركة الكبرى التي جرت في هذا اليوم، (23 اكتوبر 1911) (بالهاني وشارع الشط) بمدينة طرابلس.

وما كادت القيادة العامة تعلم بهذه العملية، حتى أبرقت للقائد الايطالي بالتزام التعليمات الصادرة إليه، والقاضية بالاكتفاء باحتلال المدينة، كما أخطر باستحالة إرسال النجدات إليه.

وقد شجّع انسحاب القوات الايطالية من المرقب المجاهدين على القيام بهجمات على الخطوط الايطالية، حول مدينة خمس، وشعر القائد الايطالي بالخطر المحدق به، بعد أن تأكد من موقف المقاومة الذي التزمه سكان المدينة. فطلب المزيد من الدعم، وأبرق للقائد العام للحملة يخطره بتزايد المحاربين واقترابهم من خطوطه، وتدفّقهم من مختلف القبائل والنواحي، وضرورة إرسال قوة مسلحة كبيرة لحماية المدينة. وردّ القائد العام الجنرال (كانيفا) باستحالة إرسال أي دعم، نظراً للأوضاع العسكرية المنهارة في مدينة طرابلس، وأبلغه بسحب القوة الايطالية من الخمس في حالة الخوف عليها، دون مراعاة لأي اعتبار سياسي. وهذا وحده كافٍ للدلالة على الوضع العسير الذي كان يحيط بالقوات الايطالية في طرابلس والخمس.

وعاد المجاهدون عند الساعة الثامنة من صباح 28 اكتوبر 1911، إلى الهجوم على كافة خطوط الجبهة الايطالية، مستهلّين ذلك بهجوم شامل على المواقع الأمامية أخذ يتصاعد بزيادة القوات المشاركة فيه التي ارتفعت إلى ما يقارب الألفين. وقد استمرت المعركة عشر ساعات تقريباً. ويشهد تقرير القائد الايطالي للمجاهدين بالجرأة والاقتحام ويعترف بأن الوضع العسكري والسياسي في مدينة الخمس كان يبعث على القلق.

واضطرت القيادة الايطالية إزاء ذلك إلى رفع مستوى القيادة فأسندتها إلى الجنرال (ريزولي) بدلا من الماجور (ماجوتو) الذي قادها منذ النزول.

أما المعركة الثالثة، فهي المعركة التي دارت يوم 27 فبراير / شباط 1912، ولم يقدم الايطاليون على الزحف على هذا الموقع (المرقب) الا بعد وصول مزيد من الدعم. وكان المجاهدون يتوقعون هذا الهجوم، وقد لجأ الايطاليون إلى الخداع، وذلك بتوجيه السفن الحربية إلى سواحل " زليطن ومصراتة " لإيهام المجاهدين بنيّة النزول بهما، حتى تتوزع جهود المجاهدين. ويبدو عنصر المباغتة في زحف القوات الايطالية على المرقب ليلا، وصدور التعليمات بعدم الرد على نيران المجاهدين الا عند الضرورة القصوى. وبدأت المعركة عند الساعة السادسة صباحاً واستمرت طوال اليوم كله. ويعترف الايطاليون أنها جرت وجهاً لوجه وجسداً لجسد. واستشهد عدد كبير من المجاهدين، كما تكبّد الايطاليون خسائر فادحة.

أما المعركة الرابعة حول المرقب فقد جرت مساء 5 مارس / آذار وليلة 6 منه، حيث قام المجاهدون بعملية هجومية كبيرة، في محاولة لاسترداد الموقع، واستمرت المعركة طوال الليل، ولم تنتهِ الا عند السادسة صباحاً من يوم 6 مارس / آذار 1912.

وظل المجاهدون يوالون هجماتهم على الجبهة الايطالية، في المرقب، والخمس، والمناطق المواجهة لأطلال " لبدة " التي اتخذ المجاهدون مواقعهم الدفاعية بالقرب منها. مما أدىّ في النهاية إلى معركة " لبدة " يوم 2 مايو / أيار 1912.

المراجع

1 – خليفة محمد التليسي " معجم معارك الجهاد ". ص 463 – 467.

2 – مصطفى حامد رحومة " المقاومة الليبية التركية ضد الغزو الايطالي ". ص 184 – 191.

3 – مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الايطالي. طرابلس / ليبيا.

معركـــة المزرعة
(3 آب 1925)

تعتبر هذه المعركة لؤلـؤة المعـارك فـي الثـورة السـورية الكـبرى ضـد الإسـتعمار الفرنسي. إذ أنه بعد هزيمة الجيش الفرنسي في معركـة " الكَفْر "، كـان الجنـرال سـاراي يجهز حملة لاحتلال السـويداء بقيـادة الجنـرال " ميشـو ". تركـت الحملـة الفرنسية محطـة إزرع وتقدمت نحو السويداء، بعد أن غمرت الجبل بالمنشـورات الداعيـة إلـى الإستسـلام. وقد اختلفت المصادر في تقدير عـدد هـذه الحملـة، والأرجـح أنهـا تجـاوز الأربعـة آلاف مقـاتل، تصحبـه ستة مدافع كبيرة وثـلاث بطاريـات مـن المدافـع الصـغيرة، وسـرب مـن الطائرات وعشر مصفحات. وكانت هذه المرة الأولى التي يجابه فيها الـدروز المصفحـات والطائرات. أما جنود الحملة فقد كانوا خليطاً من المشـاة والخيالـة ومـن زنـوج سنغاليين، وأما الضباط والنقباء فكان جلّهم من الفرنسيين.

خيّمت الحملة في بصرى الحرير، حيث بدأت المناوشات، ولا سيما غارات الثوار الليليـة. وفـي صبـاح اليوم الثاني من آب تقدمت المصفحات والخيل الكشافة في طريـق " الدّور " – 22 كلم عن السويداء – فاستنفر المحاربون من قرى الجبل كافة، وأقروا في اجتماعهم العام الذي جرى حول نبع " قراصة " أن يجابهوا القوة الفرنسية رغم تأكدهم من ضخامة هذه القوة ومعداتها الحديثة.

كانت الحملة تتجه نحو السـويداء، وهدفهـا إنقـاذ الحملـة الفرنسية المحـاصرة فـي القلعة، ومن ثم إخضاع الجبل بعد قهر السويداء. وكانت تسير في الطريق الذي لم يختلـف كثيراً عن الطريق الحالي بين السويداء ودمشق، بطريق " الشيخ مسكين ". إلا أنه لـم يكـن ممهداً. وهذا الطريق يمتد ابتداء من بصرى الحرير حتى نبع المزرعة ومنه تبـدأ الطريـق بالتصعيد، ويبعد عن السويداء مسافة عشرة كيلو مترات.

وتمتاز الأراضي الواقعة إلى الغرب وإلى الجنـوب مـن هـذا الطريـق بأنهـا سـهلة مـكشـوفـة إجمـالاً قـليلة الرجوم. أما الأراضي الواقعة إلى الشرق والشمال فهي امتداد

لوعر اللجاه الشهير بأنه بحر من حجارة – على حد تعتبر أحد الصحفيين الألمان – كثير الرجوم والأخاديد يستحيل على الخيل والآلات العمل فيه بنجاح، صالح لأعمال التخريب والمفاجآت، تكثر فيه القرى لإيواء الثائرين وتموينهم والاعتناء بجرحاهم. وتختلط فيه التلال الصغيرة المكسوة بالأحجار السوداء، إلى درجة يصعب معها تمييز بعضها من بعض.

وكانت طبيعة هذه الأرض تفرض على الحملة أن تمتد بشكل شريط ضيق طوله عشرة كيلو مترات تقريبا، وهذا ما يفقدها الكثير من ترابطها وانسجام عملياتها. بالإضافة إلى ميزة هذه المنطقة التي تمركز فيها الثوار، فقد كانت معنوياتهم في ارتفاع، فانتصار " الكَفْر " الرائع لم يمضِ عليه أسبوعان ولم يزل يدوّي في آذانهم، واعتزازهم بالدفاع عن وطنهم وعرضهم، وانتصاراتهم المتلاحقة العريقة على الجيوش الإستعمارية، كل ذلك كان يدفعهم بحماسة بالغة تخيل إليهم أنهم منتصرون قبل أن يحاربوا. في حين كانت هذه الأرض المخيفة القاحلة الموحشة والشديدة الوعورة، والصور الرهيبة التي تحشو أذهان الجنود عن ضراوة خصومهم، وهذا الخليط من الجنسيات والألوان، تجعل نفسية الجنود الذين حشروا في هذا المعترك قلقة، رغم عدد الحملة الكبير نسبياً، وتفوق أسلحتها، وضخامة تموينها، ومساندة الطيران لها...

تقدمت المصفحات وخيالة الكشافة فجر الأحد اليوم الثاني من آب، وبدأت المدفعية تقصف قريتي الدور ونبع قراصة لإفساح الطريق أمام الجيش. وعندما لاحت الخيالة بإزاء قرية الدور، إنقضّت عليها خيالة المجاهدين، فوقع هؤلاء في كمين ولم يسلم منهم إلا القليل. وكان من بين الشهداء الأخوان حمد وأجود البربور، وهما من أشد الزعماء حماسة للثورة، ومن أصدقاء سلطان الخلّص.

وفي هذه الأثناء، كانت المصفحات تفتح الطريق أمام الجيش، بينما راح المجاهدون يسدّونه بالحجارة الضخمة، مستترين بجدران الكروم والتلال الصخرية، في حين كانت الطائرات تقذف بحممها القرى والتجمعات.

كانت معركة " تلّ الخروف " صدمة للثوار أقلقت نفوسهم، فثبتوا حتى الظهر ثم تراجعوا تحت وطأة المدفعية والطائرات، فاتجه قسم منهم بقيادة سلطان باشا الأطرش نحو

مـاء المزرعـة، ومنها انتقل إلى قرية " سليم " في حين تراجعت القوى الأخرى يائسة نحو الجبال. اعتبر المجاهدون أن المعركة قد انتهت، وأن طريق السويداء أصبح مفتوحاً، غير أن الخيالة المرابطين في " نجران " وحول " نبع القراصة " لم ييأسوا، بل انقضّوا عند الظهيرة على ساقة الجيش من الجهة الشمالية.

وكانت الساقة مؤلفة من مشاة وزنوج سنغاليين، ومن عدد من السيارات والدواب تحمل الأرزاق والذخيرة وتحرس الجميع الرشاشات وبعض المصفحات. اشترك في الانقضاض على ساقة الجيش، المرابطون من نجران وقراصة، وبعضهم بتحريض من زوج المجاهد عباس أبي عاصي من نجران، بعد أن رفضت أن يمدّ أي ثائر يده إلى الزاد الذي اعدته لهم، إلا إذا وعد بالعودة إلى ساحة القتال. ثم اشتركت قرى " الثعلة " و " السجن " و " عريقة " و " سميع " و " الدور " و " المجدل " و " كفر اللحف " و " ريمة الفخور " وكان الانقضاض صاعقاً عنيفاً، إستسلمت على أثره الفرقة إستسلاماً تاماً، وأسر ضابطها الفرنسي ومن بقي من أفرادها حيّاً. ثم أحرق المجاهدون ثلاث مصفحات مع ذخيرتها، واستولوا على الأرزاق والدواب، وانطلقوا إلى قراهم عند الغروب وهم يملؤون الفضاء حداءاً ورصاصاً [1]. فانتشر خبر الإنتصار والغنائم كالبرق في أنحاء الجبل. وفي مساء اليوم نفسه كان الجيش الفرنسي مطوقاً من كل جهة.

ولم يكد الصبح ينبلج، والجيش يتحرك لاستئناف زحفه نحو السويداء، حتى انقضّ عليه الثوار من كل جانب، فراحت المصفحات تدور حوله مشعلة الأرض بقذائفها. في حين بكرت الطائرات بقذف القرى والتجمعات. ولكن سرعان ما فقدت الطائرات قدرتها على ضرب الثوار، لانهم كانوا قد اختلطوا بالجيش في ملحمة رهيبة، خلّدت ضروباً من البطولة والفروسية، وأعادت للسيف العربي زهوه واعتداده. وفقدت أسلحة الجيش الثقيلة والبعيدة المدى ميزتها، فأصبحت المباذهة في أيدي فرسان المجاهدين. فأمر الجيش بالتراجع، وكانت حركة تراجعه إذكاء لهم، فتبارى ضاربو السيوف، " حتى أن

---

[1] – كان المرحوم ابراهيم نصر على رأس أولئك المنتصرين الذين عادوا وهم يحدون:

يا فرنسا والله ما نطيع	ونهوش عند ديارنا
لعين زغردة البنات	ذبح العساكر كارنا

(من قصيدة لنايف عجاج نصر)

(المدفعجي) أعجل عن إطلاق الكلّة – القذيفة – فطار رأس النفر قبل أن تطير الكلّة ".
ومن أشهر أبطال المزرعة الشهيد سليمان العقباني الذي قتل بحدّ سيفه ما لا يقلّ عن ستّة عشر رجلاً، تركهم مجندلين " فمنهم بلا رأس ومنهم من جسمه قطعتان ". ولم يجاره أحد بضرب السيف في كل حوران وجبل الدروز. وكذلك أبناء مقلد الذين استشهد منهم سبعة دفعة واحدة، من بينهم الشهيد شبلي مقلد الذي وجد عندما نقلت رفاته أن يده قد تجمدت على مقبض سيفه المخضّب بالدماء. ومن سجلت لهم بطولات رائعة شبان السويداء إجمالاً، وعلى رأسهم حملة (البيرق) من آل علم الدين.

وفي هذه الأثناء كانت أكداس القتلى تسدّ طريق المصفحات، فانقضّ عليها المجاهدون، وتسلقوا أبراجها وقتلوا اسدنتها من كواها، وراحوا يقلبونها بأكتافهم ويشعلون فيها النار. ولم ينجُ منها إلا ثلاث حملت إحداها الجنرال " ميشو " قائد الحملة.

فرّت فلول هذا الجيش هائمة على وجهها، رامية سلاحها منهزمة، فلاحقها الفرسان والمشاة وكانت مذبحة رهيبة وغنائم ضخمة من أسرى وذخيرة ومؤن. ولم يتابع الدروز تقدمهم نحو دمشق، بعد أن أصبح الطريق أمامهم مفتوحاً. لأنهم لم يكونوا قد هيأوا أنفسهم أو تهيأوا لذلك من قبل.

هذا وقد ترك لنا الرواة وشهود العيان الكثير من النوادر عن معركة المزرعة ومنها: قلب المصفحات بالأكتاف، وضربات السيف الذي كان يقدّ الفارس قداً أو يشطره. وقد ترك لنا " هلال عز الدين " في مذكراته (ص: 46) النادرة التالية: إقترب " هاني الحلبي " من إحدى المصفحات وبيده سيف، وكان السائق يطلّ برأسه من كوّة المصفحة ليشق لنفسه طريقاً، فعاجله هاني المذكور بضربة أطارت رأس الجندي ويده، فالتفت ابن أخيه عبد الكريم وقال ضاحكاً:

" هيك يا عمّ عوّرت الزلمي ".

وجاء في مذكرات الدكتور الشهبندر (ص: 28): " جرت ملحمة بالسلاح الأبيض لم يجر مثلها في البلاد منذ ذكر الواقدي خبر الفتوحات ".

ويذكر " علي عبيد " في مذكراته: " مررنا على المشهد المخيف الذي لم يكن أحد ليحلم به لولا معونة الحق سبحانه وتعالى، لأنك من " الدور " إلى ماء " المزرعة " (12

كلم) لا يفارقك شوف منظر القتلا من إنسان وحيوان ولا عشرة أذرع على بعضها البعض. وأحيانا نرى أن العشرين أو الثلاثين واقعون رأس على عقب مما هو متروك ومحروق من دبابات وأتوموبيلات شحن وخيول. والخلاصة: هذه الوقعة لو خيلت للانسان في المنام فلا يصدقها قطعياً ".

وقد وصف كتاب " المدفعية في المستعمرات " تلك المعركة وأوجز تقديرها بما يلي (ص: 253 – 254...): " وقد نشبت بين الجيش والدروز معركة دموية خاسرة سحق على أثرها هذا الجيش سحقاً ".

" وكانت صفحة معركة " السجّن – المزرعة " المريرة ذات تأثير هائل على معركة العصيان في جبل الدروز. لقد كانت مجرد ذكراها في أذهان الثوار بمثابة السوط المنشطة، وهي التي جعلتهم يتحملون الكفاح الضاري ما يقرب من سنة ".

إعتبر الفرنسيون، بلسان الجنرال " أندريا " أن معركة المزرعة كارثة، ولم يدخلوا في تفصيلاتها. والحقيقة هي أن انتصار المزرعة كان أبرز انتصار حربي في تاريخ سورية الحديث، وكانت أيضاً المورد الرئيسي، بل الوحيد لتسليح الثوار بالأسلحة الناريّة الخفيفة وبعض المدافع الجبلية، فأسرعت فرنسا في محاولة طلب الصلح.

ومن أبرز نتائج هذه المعركة، إمتداد روح الثورة إلى المناطق السورية الأخرى، وانتقال زعماء الحركة الوطنية من دمشق إلى الجبل ومساهمتهم مساهمة فعالة إلى جانب زعماء الثورة في الجبل، والمنفيين الذين عادوا بعد مبادلتهم بالأسرى من الجيش الفرنسي.

المراجع

1 – سلامة عبيد " الثورة السورية الكبرى ". دار الغد. بيروت 1971. ص 130 – 137.

2 – فارس زرزور " البطولات – معارك الحرية في سورية ". الطبعة الثانية 1971. ص 217 – 220.

3 – حسن أمين البعيني " سلطان باشا الأطرش – مسيرة قائد في تاريخ أمة ". منشورات لجنة الاعلام / الادارة المدنية في الجبل. لبنان. الطبعة الأولى 1985. ص 131 – 136.

4 – منير الريس " الكتاب الذهبي للثورات الوطنية في المشرق العربي – الثورة السورية الكبرى ". دار الطليعة. بيروت. الطبعة الأولى 1969. ص 167 – 178.

5 – " الكتاب الذهبي لجيوش الشرق " نقله إلى العربية ادوار البستاني. المطبعة الكاثوليكية. بيروت 1936. ص 141 – 144.

6 – مذكرات عبد الرحمن الشهبندر. ص 28.

معركة المسيفرة

على أثر الفشل الذريع الذي لاقاه الفرنسيون في معركة المزرعة (سوريا) إستدعي الجنرال " ميشو " إلى باريس ليمثل أمام لجنة من القضاء العسكري. وكان حظه مثل حظ رفيقيه السابقيْن " بولانجيه " و " غوبو ". ومن جملة كلمات الإتهام التي وجّهت إليه: " لقد ارتكبت أخطاء فادحة وأنت مثقل بالمسؤوليات ". وكان ردّه باختصار: " لو كان لديّ ثلاث فرق كالتي يرأسها الماريشال " ليوتيه " في المغرب الأقصى لاستطعت أن أبدل وجه الثورة السورية... ". وعزل ميشو وأرسل بدلا عنه " غاملان ".

وصل الجنرال " غاملان " إلى دمشق في الثالث عشر من أيلول 1925، مصطحباً معه قوى ومعدات وأثقالاً جديدة ليستأنف الزحف على السويداء ويقود الحملة بنفسه. والمسيفرة، عبارة عن قرية كبيرة تقع في منتصف الطريق بين درعا والسويداء، يقطنها حوالي الف وخمسمائة من الحوارنة. وهي كسائر قرى تلك المنطقة، عبارة عن جدران متراكمة مشادة بالحجارة البركانية القاتمة اللون. وحول الدور الواسعة زرائب الماشية، ومقالع مهملة وركام من الصخور والحجارة السوداء. وكل هذا يمتد على مسافة واسعة بحيث تخفي بينها فرقة كاملة من الجيش. باعتبارها تسيطر على السهول الفسيحة من حولها، فإنها تعتبر مكاناً صالحاً للدفاع، ويصعب مهاجمته نظراً لانصباب الرمي المجدي على مناطق الهجوم الظاهرة للعين المجردة.

وفي اليوم الرابع عشر من أيلول، أنشأ الفرنسيون في هذه القرية قاعدة عسكرية تمهيداً للزحف على السويداء. ووكلت حراسة هذه القاعدة إلى رجال الفرقة الأجنبية المشتملة على: اللواء الخامس من الفيلق الأجنبي الرابع، وكوكبة الفرسان الأجنبية الرابعة، وثلاث بطاريات مدفعية 105 – 75 – 65، وكوكبة مصفحات رشاشة. وكانت القيادة على اتصال دائم بأسراب الطائرات من مطار " إزرع ". وقد باشرت هذه القوى لفورها في إقامة السدود والتحصينات، وبثّت المخافر على جوانب القرية.

وما بزغ فجر الخامس عشر من الشهر حتى كان الثوار يهبطون المرتفعات

المتسلطة على طريق السويداء – خمسة أميال من المسيفرة شرقاً. فانطلقت لملاقاتهم كوكبة من الفرسان ونصف كتيبة من الرماة، غير أن هذه القوة ما لبثت أن تراجعت دون نظام مخلفة وراءها عدداً كبيراً من القتلى والمستسلمين.

وفي اليوم السادس عشر إحتشد الثوار في شرق القرية يرتبون صفوفهم للهجوم والإنقضاض. في حين ركنت القوى الفرنسية إلى التربص وحشد الأسلحة جميعاً لإطلاق النار على أقرب مسافة ممكنة. وعندما أرخى الليل سدوله، باشر الثوار تسلّلهم نحو المواقع الفرنسية، وفي تلك اللحظة خالف أحد الثوار الأمر المعطى له بعدم إطلاق الرصاص إلا عند الإيعاز، وأطلق رصاصة في الهواء (وقد اتهم هذا الرجل بالخيانة وأعدم من قبل رفاقه رمياً بالرصاص). وعندها تنبّه الفرنسيون وأطلقوا في السماء سهماً نارياً مضيئاً كشف لهم السهل بأجمعه، وعلى ضوء الأسهم النارية إستطاع الفرنسيون أن يلمحوا الثوار وهم ينقضّون على ظهور الجياد، ففتحوا نيران مدافعهم ورشاشاتهم على أوسع نطاق.

ولأول وهلة، وجد الثوار أنفسهم يسقطون عن ظهور الخيل المصابة بالشظايا والرصاص، فتماسكوا على الفور وتابعوا انقضاضهم راجلين. وبما أنهم كانوا على مسافة قصيرة من المواقع والتحكمات العدوة، فقد أصبح لديهم الهجوم أكثر سلامة من التراجع، وحدثت أروع وأعنف ما يسمى بـ " معركة المتاريس " إلتحم بها الفريقان – أشقياء الفرقة الأجنبية المحصنين بمدافعهم ورشاشاتهم، والثوار بسيوفهم وبنادقهم مشهرة الحراب – واستمرت هذه المعركة حتى مطلع النهار.

وفي الصباح، إنجلى الوضع عن نتيجة غريبة للفريقين. فقد وجد الثوار أنفسهم يحتلون قلب القرية ظانين أن العدو قد أبيد عن آخره. والواقع أن حلوك الظلام جعلهم لا يتبيّنون بالدقة الصخرة عن جسد الجندي العدو؛ في حين وجد من بقي حياً من القوى الفرنسية أنه محاصر في موضعه. وكاد يتم الاستسلام الكامل لولا أن ظهرت في السهل كتائب السيارات المصفحة التي غادرت درعا وخربة الغزالة في الليل لنجدة القوات المحاصرة. وكان الموقف عصيباً بالنسبة للمصفحات، فخشيت أن تطلق مدافعها على القرية فتصيب رجالها المحاصرين. وفي الوقت نفسه قدم سرب من الطائرات حام فوق

القرية، فلم يستطع أن يقوم بدوره بأي عمل من أعمال القصف، إلا أنه أرشد المصفحات لاسلكياً أن تضرب قلب القرية حيث ربض الثوار استعداداً لـ " عملية التنظيف ".

وبدأت المصفحات بفتح نيران مدافعها من عيار 37 ملم على الجوانب الداخلية مما أجبر الثوار على الانتقال إلى الخارج. وعاد الاشتباك بالسيوف والحراب والمسدسات. واستطاع الثوار الإستيلاء على بعض المدافع والرشاشات وعلى مركز التموين. وعند الظهيرة انقلبت معركة المتاريس إلى معركة الشوارع والمحلات، إذ لم يستطع الثوار الخروج من القرية، لأن الجنود المدافعين نقلوا تصويب أسلحتهم من الخارج إلى الداخل. وتوالت هجمات الثوار حتى الساعة السادسة عشرة من بعد الظهيرة، وقد حصروا جهدهم بالاستيلاء على معقل آمر اللواء. واستمرت معركة المتاريس والشوارع حتى حلول ظلام الليلة الثانية، وهنا توقف إطلاق النار، وظلت العيون وحدها تحملق في السكون، وأنين الجرحى والمصابين وحده طغى على كل شيء.

وفي منتصف الليل، كان الوضع كالآتي: الثوار يحتلون سطوح الدور؛ القوات الفرنسية المدافعة تحتل التخوم الداخلي؛ والمصفحات تحتل التخوم الخارجية. وفي الطريق من إزرع كان فيلق الرماة الأفريقيين في طريقه إلى المسيفرة بقيادة الجنرال " غاملان " نفسه. كان موقف الثوار عصيباً للغاية، عليهم أن يخرقوا هذه الأطواق الثلاثة ليتمكنوا من النجاة، بعد أن أصبح الفرنسيون أنفسهم عاجزين عن الهرب لوقوعهم بين نارين: نار الثوار ونار المصفحات وفيلق الرماة الأفريقيين.

وفي ساعة من ساعات الصباح سمعت أصوات الرصاص من الغرب، لقد اصطدم الفيلق الافريقي بنجدة من الثوار اتت من السويداء. واغتنم ثوار المسيفرة هذه الفرصة، فجمعوا صفوفهم وشنوا إغارة عنيفة للخروج من الطوق الأول. وكانت عمليتهم هذه شبيهة بقفزة رجل السيرك من الدائرة النارية. وتمكنوا من الخروج. وفي الصباح انتقلت المعارك الجنوبية من داخل المسيفرة إلى خارجها. وفي ذلك الوقت أطلت ثلاث طائرات في سماء المعركة، وأخذت تنتقي أهدافها بدقة واحتراس، ووجد الثوار أنفسهم محاصرين من كل الجهات، وبكل أنواع الأسلحة: من جوّية وثقيلة وثابتة ومتحركة؛ فوجدوا أن تخلصهم من الإبادة يعتبر نصراً رائعاً، خاصة وأنهم يعلمون أن السويداء هي الهدف

الرئيسي للقوات الفرنسية. من أجل ذلك استعملوا في تراجعهم خطة الدفاع المتحرك، وتمكنوا من الرجوع إلى السويداء يحملون ما تمكنوا من حمله من أسلحة ومعدات وذخائر.

وإذا أراد تاريخ المعارك الحربية أن يجلّل صفحاته البطولية على مرّ العصور، فيمكنه – دون تحفظ – أن يضع معارك الكفر والمزرعة والمسيفرة أكليل الغار على رأس هذه المعارك، كما يقول فارس زرزور.

هذا، وبكثير من الفخر والاعتزاز يؤكد الباحث المجاهد منير الريّس ان " معركة المسيفرة فذّة في تاريخ الثورة السورية الكبرى ". وبالفعل إنها كذلك.

المراجع

1 – سلامة عبيد " الثورة السورية الكبرى... " دار الغد. بيروت 1971. ص 140 – 164.

2 – فارس زرزور " البطولات – معارك الحرية في سورية ". الطبعة الثانية 1971. ص 221 – 225.

3 – حسن أمين البعيني " سلطان باشا الأطرش "... ص 143 – 145.

4 – منير الريّس " الكتاب الذهبي للثورات الوطنية في المشرق العربي / الثورة السورية الكبرى ". دار الطليعة. بيروت 1969. ص 199 – 207.

5 – " الكتاب الذهبي لجيوش الشرق ". نقله الى العربية أدوار البستاني. المطبعة الكاثوليكية. بيروت 1939. ص 146 – 151.

معركـة المصّرارة

يقع حي المصرارة في القسم الشمالي من القدس، شمالي حيّ الشيخ جرّاح على الطريق الموصلة إلى رام الله، وجميع سكانه من العرب، ويجاوره حيّ مياشورم اليهودي.

قام الصهيونيون إثر الانفجار الذي وقع في حيّ بن يهودا في القدس بتاريخ 4 / 2 / 1948 بقصف المصرارة بقنابل الهاون، مما أدّى إلى استشهاد بعض سكانه.

وردّ العرب على النار بالمثل، فتدخلت القوات البريطانية وفرضت الهدنة على الجانبين. وقد اكفهر الجو في حي المصرارة بعد ذلك وبدأ بعض السكان يهجرونه، ولا سيما بعد أن وصلت إلى صهيونيي القدس أنباء الهزيمة التي منيت بها قوات الهاغاناه في معركة " كفر عصيون " يوم 27 / 3 / 1948، فانتقموا لها وأطلقوا حوالي عشرين قنبلة هاون على حي المصرارة قتل بها سبعة من العرب وجرح أربعون. وقد قصف المناضلون العرب مرابض المدفعية الصهيونية في حي مياشورم بمائة قنبلة أدت إلى نشوب حرائق كبيرة وقتل وجرح الكثيرين ونزوح أهل الحي عنه. ثم اندفع المناضلون يبغون اقتحام الحي نفسه، ولكن القوات الإنكليزية المرابطة في مخفر للشرطة بين حي المصرارة ومياشورم حالت دون ذلك فاضطر المجاهدون إلى العودة عن هجومهم.

إرتفعت عزائم الصهيونيين بعد ذلك، وبعد وصول أنباء سقوط مدينتي حيفا ويافا بأيدي قواتهم، فعاد إلى حي مياشورم من هجَره. ثم قامت القوات الصهيونية بقصف حي المصرارة طوال ليلة 27 نيسان، الأمر الذي زاد في رحيل سكانه عنه.

ولما احتلّ الصهيونيون مبنى المستشفى الايطالي الذي كان الإنكليز قد سلّموه إلى هيئة الصليب الأحمر الدولي يوم 14 أيار لم يكن قد بقي من الحي سوى مائة وثلاثين مناضلاً من جيش الإنقاذ وجيش الجهاد المقدس.

سيطرت وحدة الهاغاناه على مبنى " النوتردام " فأصبح اليهود بذلك مشرفين تماما على حي المصرارة والأحياء المجاورة. ونصبوا مكبرات الصوت وراحوا يطلبون من السكان العرب الانسحاب إلى البلدة القديمة مدّعين أنهم احتلوا القطمون والبقعة والشيخ

جرّاح ومعظم الأحياء العربية خارج السور.

حاول المجاهدون استعادة المباني التي احتلها العدو ولكنهم فشلوا، وتكبدوا بعض الخسائر. فأصدر قائد حامية القدس العراقي فاضل رشيد أمراً بالانسحاب.

ولكن بهجت أبو غربيّة الذي كان يقود المجاهدين رفض الإنسحاب. وعندما تقدمت القوات الصهيونية يوم 15 أيار من جهة مياشورم واحتلت الحي المعروف بسعد وسعيد ومدرسة الأسوج ودار الوقف وطوقت الحامية العربية التي كانت في فندق رغدان، قام المجاهدون بهجوم معاكس من اتجاهين: الأول من باب العمود فسعد وسعيد حتى النوتردام، والثاني من باب الساهرة، وخاضوا مع قوات العدو معركة عنيفة أدت إلى طردها من الحي بكامله. وفي الساعة الخامسة من مساء 15 أيار، كان العرب قد استعادوا مدرسة الأسوج والنوتردام وأنقذوا حامية فندق رغدان.

دبّ الذعر في صفوف الصهيونيين، إذ اعتقدوا أن الجيش الأردني دخل القدس، كما كان قد أعلن قبل ذلك. ولكنهم سرعان ما تأكدوا من عدم دخوله، ومن استحالة متابعة المناضلين زحفهم لنقص السلاح والذخيرة، فقاموا بهجوم معاكس ليلة 16 أيار واحتلوا من جديد المواقع التي كانوا قد أجبروا على إخلائها.

وفي صبيحة 16 أيار شنّ العرب هجوماً معاكساً جديداً نجحوا فيه بطرد العدو من الحي بكامله وبلغوا مداخل حي مياشورم، وزادت معنوياتهم ارتفاعاً عندما سمعوا مدافع جيش الإنقاذ تقصف الأحياء اليهودية.

وفي اليوم التالي قام الصهيونيون بهجوم خاطف كبير واسع على الحي ونسفوا العديد من منازله وعادوا من حيث أتوا. وبقي الحي بكامله عربياً حتى 8 / 6 / 1948، عندما هاجمه الصهيونيون من جديد واشتبكوا مع جنود الجيش الأردني، وتمكنوا من احتلال قسم منه.

المراجع

1 – عارف العارف: النكبة، ج1، بيروت 1956.

2 – عبد الله التل: كارثة فلسطين، القاهرة 1959.

3 – الموسوعة الفلسطينية: الجزء الرابع، ص: 226. اشراف د. أنيس صايغ. الطبعة الأولى، دمشق 1984.

معركـة مُكْلين – 890 هـ–

هي إحدى المعارك الهامة في تاريخ الصراع بين العرب والمسـلمين فـي الأندلس وبين النصارى، وقد جرت أحداث هذه المعركة في شعبان عام 890 بعد أن خرج الأمـير محمد بن سعد في 19 شعبان 890 هـ بأهل غرناطة إلـى حصـن المكليـن (*) لبنـاء بعض أسواره، لأنه بلغه أن العدو خارج إليه، فخرج بجيشه وعامة أهـل غرناطـة ليصلحـوا مـن شأنه ما تهدم. فبينما هم في الحصن إذ بلغهم أن العدو خارج يريد الحصـن، وهـو متوجـه نحوه. وظهر آخر النهار للمسلمين غبار محلة (حملة) النصارى فـي أرض القلعـة (**)، فلم يلتفت الأمير ووزيره لذلك، ولم يعملوا بحساب الحرب، ولم يجعلوا بياتهم على البعد. فباتوا تلك الليلة مطمئنين، وهي الليلة الثانية والعشرون من شعبان المذكور، فلم يشعر أحد من المسلمين إلا والنصارى قد اختلطوا معهم عنـد الفجـر. وكذلـك النصـارى لـم يشـعروا بالمسلمين حتى اختلطوا معهم أيضاً، وإنما أدلجوا ليصبّحوا على الحصن.

فلمـا التقـى الجمعـان أعلنـت الأصـوات بالصيـاح والضجيـج، وضربـت النصـارى أطبالهم، وزعقوا بالبوقات، ونصبوا الأنفاط. ووقع القتال بين الفريقين واشـتد حتـى وصـل النصارى إلى مضرب الأمير، وأرادوا أخذه، فثبّت الله المسلمين وصـبروا صـبراً جميلاً، ووقعوا على مضرب الأمير صابرين محتسبين لله تعالى، فلم تكن إلا هنيهـات حتـى هـزم النصارى وولّوا الأدبار. وتبعهم المسـلمون يقتلونهـم كيـف شـاؤوا حتـى قتلـوا منهـم خلقـاً كثيراً. ثم قصروا في طلبهم مخافة أن يدركهم جيش العدو لأنهم كانوا مقبلين على المكلين

(*) – المكلين: هو Maclin، حصن منيع يقـع علـى بعـد 22 كلـم مـن شـمال غربـي مدينـة غرناطة، في منطقة كلها هضاب وعرة، وفي أسفل الحصن تقع قرية مكلين.

(**) القلعة: هي قلعة يحصب المعروفة عند الإسبان بـ : Alcala la Real، وهي إلى شمال حصن مكلين، وتعرف أيضاً بقلعة بني سعيد، وهي الى الشمال الغربي من غرناطة. وقد كـانت قديمـاً – وخصوصاً من أيام الموحدين – مركز اشتهار لبني سعيد ذوي الشهرة في الأدبار والتأريخ، والذين لهم دور سياسي بارز وكان آخرهم واكثرهم شهرة أبو الحسن علي بن سعيد...

يريدون قتال أهله، وأخذه. وكان ذلك صدر المحلة (الحملة) قد أقبل بالعدة والأنفاط والبارود والفؤوس، وغير ذلك!.

فاحتوى المسلمون على جميع ذلك كله، وارتحلوا بقية يومهم راجعين إلى غرناطة، فرحين بنصر الله تعالى، حامدين له شاكرين، فدخلوا غرناطة بقية النهار.

كانت هذه الغزوة من الغزوات المشهورة.

قال المؤلف: فلقد حدثني بعض الفرسان النجباء، من أهل الشجاعة والنجدة، والإقدام، في ذلك اليوم، ونحن في الطريق راجعين إلى غرناطة، قال: " كنت في أول الفرسان، ونحن نتبع النصارى، فكنت أسبق إلى بعض المواقع فأجد النصارى أمامي مقتولين، ولم أرَ أحداً سبقني، ولا أدري من قتلهم ".

المرجع

- كتاب " آخر أيام غرناطة " لمؤلف اندلسي (من رجال القرن التاسع الهجري معاصر لسقوط غرناطة). حققه وقدم له د. محمد رضوان الداية. دار حسان. دمشق. طبعة اولى 1984. ص 71 - 74.

معركـــة ميسلون

حفل تاريخ أمتنا العربية بمآثر عظيمة، تستحق الفخـر والتسجيل، كمـا بكثير مـن النكبات والكوارث، فعلت فعلهـا فـي هـذا الوطـن العربـي تشـتيتاً وتـمـزيـقاً وتجزئـة علـى صعيد " جغرافيته وإنسانه "... لكنها عجزت أن تنال من " تاريخيّة " هذه البقعة وأصـالتهـا، بالرغم من جسامة هذه الكوارث والنكبات، وأهميتها.

ونظراً لما يتمتع به الوطن العربـي مـن موقـع اسـتراتيجي علـى الصعيد الدولـي، إضافة إلى ما يزخر به من ثروات وامكانات أسالت لعاب القوى الاستعمارية، فلم تتـورّع هذه القوى عن استخدام كل الأساليب والوسائل لجعل هذه المنطقة، لقمة سـائغة فـي فمهـا، تلوكها ساعة تشاء وتمضغها ساعة تشاء... وكانت فرنسا وبريطانيا في طليعة هـذه القـوى الاستعمارية ألتي أدركت أهمية الوطن العربي منذ زمن بعيد، ولم تتركا فرصة سـانحة إلا وعبّرتا عن أطماعها بمختلف الطرق، انطلاقاً من أن هذه المنطقة تمثل شرياناً حيوياً لهـذه القوى، إنْ لم يكن عصب حياة لها.

ومنـذ البدء، شكلت " فلسطين " هدفـاً مركزيـاً للـدول الأوروبيـة الاسـتعمارية، وأصبحت نقطة أساسية في جداول أولوياتها. وعندمل كانت فلسـطين جـزءاً لا يتجـزأ مـن بلاد الشام، فقد لمس المستعمرون أن خـير وسيلة للنفوذ والسيطرة والتحكم، هـي العمل على تفتيت هذه المنطقة وشرذمتها، وسلخ أجزائها عن بعضها البعض لكـي تسـهل بالتـالي عملية ضبطها وفقاً لمصلحة المستعمرين، وبعيداً عن مصلحة أبنائها الحقيقيين.

على هذا الأساس، كـانت اتفاقيـة سـايكس - بيكـو سـنة 1916، التـي وقّعت بيـن بريطانيا وفرنسا علناً، في الوقت الذي كانت فيه " صـهيونية " الهدف والمبتغى أيضـاً. كمـا كانت الحرب العالمية الأولى هي الفرصة المناسبة لتمرير مثل هذه الاتفاقات السرّية، رغم الوعود المعسولة التي كانت تقطعها بريطانيا للعرب، وليس أقلّها الحرية والاسـتقلال، ممـا يثبت دوماً، وبشكل قاطع، أنه " ليس في السياسة عاطفة دائمة، بل هناك مصـالح دائمة "... وكانت المصلحة الاستعمارية تحتل مرتبة الصدارة في هذا المضمار.

قضت اتفاقية سايكس – بيكو بتمزيق المنطقة العربية إلى دويلات لكلٍّ منها جيش وحدود وجمارك وعَلَم وعملة، لا يجمع بينها أي تا م مشترك، سوى إثارة الخلافات وتغذيتها باستمرار وصولاً إلى خلق عداوات بينها يصعب حلّها وإصلاحها. وهذا ما دفع المفكّر العربي الكبير ساطع الحصري الى القول: " أن الاستعمار بنى لنا أكشاكاً خشبية، ونحن حوّلناها بعد الاستقلال إلى حجارة واسمنت، ندافع عنها ونستشهد على حدودها ".

وفي سبيل التصدي لهذا المشروع الاستعماري، كانت معركة ميسلون في 24 تموز 1920 بقيادة " المناضل يوسف العظمة ". ومهما كانت الفجيعة عظيمة بخسارة رجال، شهد التاريخ بعظمتهم، فان منزلتهم الرفيعة تبقى في النفوس العظيمة، أعظم. وكم من قائد في هذه الأرض، اكتسب عظمته وانتزعها انتزاعاً، من الأعداء قبل الأصدقاء، بدءاً من اللحظة التي خرّ فيها صريعاً في ساحات القتال، أو من خلال موقف تاريخي هو البطولة والعظمة بعينها.

في هذا الإطار يندرج موقع القائد الشهيد " يوسف العظمة "، وزير الدفاع السوري، الذي واجه بحفنة من جنوده العرب، حشود فرنسا العسكرية في تقدّمها لاحتلال دمشق واخضاعها للسيطرة الاستعمارية تحت اسم " الانتداب "، تمهيداً لإحكام القبضة الحديدية على مفاصل اتفاق سايكس – بيكو، الصهيوني الاستعماري، وربط المنطقة العربية بشبكة من العلاقات، بعيدة جداً عن مصلحة الشعب العربي وقضاياه المصيرية، ولا تخدم الا مخططات القهر والضم وبسط النفوذ.

ففي موقعة ميسلون (*) بتاريخ 24 تموز 1920، سطّرت قوة من الجيش العربي بقيادة المناضل " يوسف العظمة "، اروع صفحة مشرّقة في تاريخ العرب المعاصر، عبر معركة غير متكافئة، كانت الغلبة فيها ولا شك، للقوة الفرنسية المدجّجة بأحدث ما توصّلت

(*) ميسلون، هضبة تقع شمالي غربي دمشق، على الطريق المؤدية منها إلى بيروت. وعندها جرت هذه المعركة المسمّاة باسمها بين قوات الأمير فيصل بن الحسين (الملك فيصل ملك المملكة العربية السورية) بقيادة يوسف العظمة، وزير الحربية في الحكومة العربية السورية حينذاك، وبين الجيش الفرنسي بقيادة الجنرال غوبيه (Goybet)، قائد فرقة المشاة الثالثة (وكان الجنرال غورو قائداً عاماً للجيوش الفرنسية في سوريا ولبنان). (العميد ياسين سويد. " مؤامرة الغرب على العرب ". ص 53).

إليه عقلية الحرب من أسلحة متطورة، في وجه أناس لا يمتلكون إلا أسلحة فردية، وإيماناً راسخاً بالحرية، وإرادة صلبة في مقاومة منطق الاستعباد والإذلال والاحتلال.
كان بمقدور " يوسف العظمة " أن يحفظ رأسه، كالكثيرين من الأقزام في ساعات المحن والشدائد، لكنه اختار أن يخسر كل شيء إلا الشرف والكرامة... ومن أجل ذلك، سقط شهيداً في ميدان الدفاع عن العروبة والقومية، مسطراً بالدم صفحة مشرقة في تاريخنا.

لقد مثّلت وثبته الجريئة، مع ما تبعها من الصلابة في الحق، والضحايا الغالية في سبيل الغاية الشريفة، المّيزة العظمة في سيرة حياة وتاريخ هذا القائد، متجاوزة إياه كشخص لتعبّر عن إرادة شعب وأمة بكاملها. ومن هذا المنطلق، يتخذ يوم ميسلون قدسيّته المميزة.

وتبقى للرجال الرجال، الذين عاشوا الحدث وعاصروه، كلمتهم المرّة والحلوة في الوقت نفسه، لأنها تحمل الكثير من العبر والدلالات والدروس التي يجب أخذها بعين الاعتبار. ويمثل المفكّر العربي الكبير أبو خلدون ساطع الحصري، أحد نماذج هؤلاء الرجال، الذين عاشوا يوم ميسلون بحلوه ومرّه، وكتبوا عنه بدمهم الذي هو ذاته، دم يوسف العظمة الذي سال على أرض ميسلون، وتغلغل في حبّات التراب العربي من أقصاه إلى أقصاه، ولكي يمتزج مع دماء قادة آخرين من رجال العرب الذين يكتب عنهم التاريخ بمداد الفخر والعزّة... وليس هذا بكثير على من كتب هذا التاريخ بدمه.

ان يوم ميسلون، من أخطر الأيام – يقول ساطع الحصري – التي سجّلها تاريخ الأمة العربية، في العصور الحديثة، لأنه كان اليوم الذي انقرضت فيه أول دولة عربية عصرية، تأسست في الشام، بعد الحرب العالمية الأولى، بعد أن أنزل العلم التركي، وتولى " داوود طربيه " من بلدة القريّا في جبل العرب، رفع الراية العربية على سراي دمشق، قبل أن يصلها الأمير فيصل قائد الثورة العربية.

لقد كانت هذه الدولة في الواقع، قصيرة العمر جداً: لأن المدة التي انقضت بين بدء تكوينها عقب دخول جيوش الثورة العربية الى دمشق وبين انتهاء عهدها باستيلاء الجيوش الافرنسية على عاصمتها، كانت أقل من سنتين (من 1 تشرين الأول 1918 حتى 24 تموز 1920). وأما المدة التي قضت بين يوم اعلان استقلالها بصورة رسمية،

وبين يوم انقراضها بصورة فعلية، فكانت أقصر من خمسة أشهر (من 8 آذار إلى 24 تموز 1920).

لكن هذه الدولة الفتية – على قصر عمرها – كانت عظيمة الدلالة، وجليلة الشأن، لأنها كانت وليدة الثورة العربية وقبلة آمالها. إنها كانت دولة عربية – عصرية بكل معنى الكلمة: تشعر بعروبتها شعوراً واضحاً، وتعمل للقومية العربية عملاً متواصلاً – وتقدر في الوقت نفسه، مقتضيات الحياة العصرية تمام التقدير، وقد تضافرت على تأسيسها جهود أحرار العرب ومفكريهم، وتركّزت حولها آمالهم وأمانيهم، بعد أن كان مضى على عهود الاستقلال للأمة العربية ومجدها، سلسلة طويلة من قرون الانحطاط والاستسلام.

ويوم ميسلون، هو اليوم الذي اندرست فيه هذه الدولة الفتيّة، اثر حملة عسكرية ماكرة، شنّت عليها بعد سلسلة طويلة من المناورات والمخادعات السياسية.

فنحن لا نغالي اذا قلنا ان ذلك اليوم، كان يوماً فاصلاً في تاريخ القضية العربية. انه كان خاتمة الفصول الأولى من القضية العربية، وفاتحة فصولها الجديدة. ففيه انحل الجيش النظامي الذي تكوّن خلال الثورة العربية وبعده تبعثر رجال الثورة ودعاة القومية، في مختلف الأقطار، وأخذوا يجابهون حياة كفاح جديدة، شاقة ومتشعّبة، تختلف شروطها عن شروط الصفحة الاولى اختلافاً جوهرياً.

ولذلك يحق لنا ان نقول بكل توكيد: ان يوم ميسلون كان من أخطر الأيام التي مرت على الأمة العربية في تاريخها الحديث... وجدير أيضاً أن لا ينسى ذكر البطل " يوسف العظمة " كنبراس أمام أجيال أمتنا، يضيء لها الطريق في ليالي المأساة والمحن...

يضاف الى ذلك ان الحضور الدرزي في معركة ميسلون كان بارزاً أيضاً، ويذكر باعتزاز وفخر، على صعيد المجنّدين النظاميين والمتطوعين. وقد طلبت قيادة الفرقة السورية ضابطين يتطوّعان لكشف مواقع العدو في المؤخرة، فلم يتقدّم لتلك المهمة الخطرة إلا سعيد عمّون (مسيحي من دير القمر) وحسيب ذبيان (ضابط درزي من مزرعة الشوف). واشترك فؤاد سليم في ميسلون مع المناضلين الذين قادهم في حرب العصابات، ومن بينهم العديد من الدروز " وثبت ساعة التقهقر وكاد يؤسر ونجا بأعجوبة " (كما يقول خير الدين الزركلي في معجم " الاعلام "). كما اشترك فيها أيضاً عشرات

المتطوعين الدروز من راشيا وسواها مثل: توفيق العريان، وحمد صعب، وسعيد محمود وأخوه مصطفى، وأسعد العريان، وسليمان سيّور، وفؤاد الحلبي، وملحم سلّوم، وسعيد ملاعب. كما لم يتسنَّ لقوّة الجبل، المكونة من ثلاثة آلاف مقاتل، الاشتراك في المعركة بعد وصولها الى منتصف الطريق.

ولكن يبقى السؤال الكبير، كيف جرت المعركة، وكيف كانت طبيعتها؟

في الواقع، لقد حشدت فرنسا، لغزو سوريا الداخلية من جهة ميسلون، فرقة من المشاة (الفرقة الثالثة) بقيادة الجنرال غوبيه (Goybet)، وكانت الوحدات المهاجمة مؤلفة من:

– الفوجين العاشر والحادي عشر من لواء الرماة السنغاليين (بقيادة الجنرال بوردو Bordeaux).

– وكتيبتين من الفوج الثاني للرماة الأفريقيين (بقيادة العقيدين آبو About وباولتي Paoletty).

– وفوج من السباهيين المراكشيين (بقيادة ماسييه Massiet).

– وسريّة من الفوج الأول للخيالة الخفيفة.

– وبطارية مدفعية عيار 155 ملم مع 4 بطاريات عيار 75 ملم وبطاريتين ونصف عيار 65 ملم وسرية دبابات وسرية هندسة.

– وكانت مهمة هذه الفرقة: التقدم نحو دمشق على طريق مجدل عنجر – وادي القرن – وادي الزرزور – خان ميسلون، وكان الهدف الرئيسي: دمشق.

مقابل هذه القوات، حشد يوسف العظمة نحو ثلاثة آلاف مقاتل بقيادة القائمقام تحسين الفقير يعاونه البكباشي شريف الحجار، وتضم هذه القوى:

– ما تمكّن وزير الحربية من جمعه من الجيش النظامي بعد تسريحه (لواءا مشاة غير كاملين، أي نحو 1500 جندي نظامي).

– الحرس الملكي (كوكبتا خيالة من ستّين خيالاً) بقيادة مرزوق الخيمي.

– لواء مدفعية عيار 105 و 155 ملم (من بطاريتين واحدة جبلية وأخرى صحراوية) بقيادة أحمد صدقي الكيلاني.

- بطارية رشاشات (25 رشاشاً) بقيادة صبحي العمري.
- سريّة هجّانة من ثلاثمائة هجّان.

متطوعين قدّر عددهم بماية وخمسين خيالاً ما عدا المشاة.

وقد قدّرت القيادة الفرنسية القوات العربية المدافعة عن جبهة ميسلون بفرقة مشاة مع بطاريتي مدفعية و 25 رشاشاً.

وكانت القيادة العامة لهذه الوحدات في ساحة المعركة لوزير الدفاع نفسه. وكانت مهمة القوات العربية السورية:

- منع العدو من اجتياز مرتفعات (عقبة الطين) شمال غربي ميسلون.
- تثبيت العدو جبهياً وقطع الطريق على تقدمه في وادي القرن (طريق بيروت - دمشق).

بدأ الهجوم الفرنسي صباح 24 تموز / يوليو الساعة السابعة، بتقدم المشاة، تؤازرهم الدبابات والمدفعية على أربعة محاور، وصمدت القوات السورية في مراكزها، وأبدت مقاومة باسلة، وحاول قائدها يوسف العظمة تفجير الألغام التي كان قد زرعها في الممر الإجباري نحو مراكزه الدفاعية، عند عقبة الطين على رأس وادي القرن، وذلك عندما اقتربت الدبابات الفرنسية من ذلك الممر، إلا أنه وجد الأسلاك مقطوعة وآلة التفجير معطّلة، إذ كانت عصبة عميلة للفرنسيين قد عطلتها قبل بدء المعركة، مما سهّل وصول الدبابات العدوّة إلى أهدافها بعد مقاومة عنيفة من المدافعين.

وكذلك لاقت باقي رعائل الهجوم مقاومة باسلة، فتعثرت في هجومها لتعّرضها لنيران كثيفة من المدافعين، الأمر الذي اضطرها إلى التوقّف، في مرحلة أولى، ريثما يتم تعزيزها وتدعيمها بوحدات جديدة.

واستأنفت القوات المهاجمة هجومها في الساعة التاسعة صباحاً، حيث تمكنت من التقدم بصعوبة كبيرة، إلا أنها استطاعت أن تصل إلى خط الانقضاض رغم المقاومة التي أبداها المدافعون. وفي تمام الساعة الحادية عشرة بدأت القوات المهاجمة انقضاضها على المواقع العربية السورية انقضاضاً كان من الصعب الوقوف في وجهه، خاصة وأن الدبابات العدوّة كانت تساند القوات المهاجمة وتدعمها. فاجتازت تلك القوات وادي

الزرزور مهدّدة ميمنة القوات المدافعة وميسرتها، فبدأت هذه الأخيرة بالانسحاب، إلا أن عدداً من الأبطال، وبينهم وزير الحربية، القائد العام، يوسف العظمة، أبوا التراجع وظلوا يقاتلون حتى استشهد معظمهم، ونفذت ذخيرة الباقين.

ورفض يوسف العظمة التراجع رغم إلحاح مرافقه الملازم ياسين الجابي، وبينما كان يراقب المعركة من أحد المواقع، أصيب بوابل من رشاش فرنسي فخّر على الأرض شهيداً، وكان ذلك حوالي الساعة الحادية عشرة والنصف من قبل ظهر اليوم نفسه.

وعند الظهر، كانت القوات المهاجمة قد احتلت مراكز القوات العربية السورية، بينما تراجعت هذه القوات نحو دمشق، تاركة خلفها، على الجبهة، جثة قائدها الشهيد يوسف العظمة.

وفي صباح 25 تموز / يوليو 1920، تابعت القوات العدوّة تقدّمها، فدخلت دمشق، ووقف قائدها الجنرال غورو أمام قبر صلاح الدين ليبثّ كل حقده الصليبي عند أقدام القائد الكبير قائلاً: " ها نحن عدنا يا صلاح الدين ".

وقد بلغت خسائر الفرنسيين في هذه المعركة: 42 قتيلاً، و 14 مفقوداً و 152 جريحاً بينهم ضابطان.

أما خسائر القوات العربية السورية، فقدّرت بنحو أربعماية شهيد، على رأسها وزير الدفاع نفسهه.

إنها ولا شك، مأثرة يجب أن نفخر بها نحن الشباب العرب، حيث من المرجّح أن القائد يوسف العظمة، كان يدرك نتيجة المعركة سلفاً، وبأن الاستشهاد سيكون النتيجة الحتمية لها، ورغم ذلك فإنه فضّل الصمود على الهرب، لاعتقاده بأن " الأشخاص يزولون، والقيادات تتغيّر، وتبقى القضية أكبر من القيادات والأشخاص ".

والجدير ذكره في هذا الإطار، أن معركة ميسلون مثّلت الردّ الطبيعي والمنطقي على " الصليبية الجديدة " التي حمل لواءها الجنرال غورو الفرنسي، باعتباره حفيداً للصليبيين القدامى الذين طردوا من بيت المقدس على يد صلاح الدين الأيوبي إثر معركة حطين سنة 1187، وكان طبيعياً أن يرد أحفاد صلاح الدين على " الصليبيين الجدد " بنفس روح الجهاد التي تميّز بها الأيوبي حينذاك مهما كانت النتائج، ومهما غلت

التضحيات... وهكذا كان. لذلك ليس مستغرباً أن يعمد الجنرال غورو بعد انتصاره في ميسلون ودخول دمشق، إلى أن يقف أمام قبر البطل صلاح الدين الأيوبي، قائلاً: " ها نحن عدنا يا صلاح الدين ".

لكن الجنرال غورو، الذي كان منتشياً بنشوة النصر، نسي أن أحفاد صلاح الدين يتقمّصون في كل مكان وزمان من هذا الوطن، ولم يخطر بباله أن سلطان الأطرش ورجاله من رفاق يوسف العظمة، سيثأرون في الوقت المناسب من هزيمة ميسلون... ولم تكن الثورة السورية الكبرى التي أذاقت الفرنسيين مرارة الهزائم، إلا الدليل الساطع على روح الجهاد الوطنية والقومية المتأصلة في نفوس أبناء الأمة العربية من المحيط إلى الخليج...

وكما شهدت فرنسا وجنرالها غورو انتصار ميسلون، فانهم أيضاً شهدوا هزيمتهم الكبرى من كل سوريا... وانتصر الحق.

أما على صعيد النتائج السياسية لمعركة ميسلون، فقد كانت هذه النتائج التي نجمت عن النصر العسكري الذي أحرزته فرنسا في هذه المعركة هامة وخطيرة ومصيرية بالنسبة الى طموح العرب في التحرّر والوحدة، في بلاد الشام خاصة، وفي أرجاء الوطن العربي عامة. فقد أتاح هذا النصر للدول المتحالفة المنتصرة في الحرب العالمية الأولى أن تنفّذ، بالقهر والقوة، اتفاقية سايكس – بيكو التي وضعها الحلفاء الأوروبيّون سراً، وفي غفلة من الشريف حسين (عام 1916). كما أتاح لانكلترا أن تنفّذ، بعد ربع قرن من الزمن، وبعد الحرب العالمية الثانية (علم 1948)، الوعد الذي قطعته لليهود بإقامة وطن قومي لهم في فلسطين، الجزء الجنوبي من سوريا الطبيعية أو بلاد الشام (وعد بلفور عام 1917).

ومن الواضح تماماً أن هناك تلازماً وثيقاً بين وعد بلفور وبين ما ورد في اتفاقية سايكس – بيكو، بل ان تقسيم سوريا الطبيعية (بلاد الشام) الى دويلات، وفقاً لما ورد في هذه الاتفاقية، ما هو إلا التزام من الدول المتحالفة يقتضي تنفيذه ليسهل بعده تنفيذ وعد بلفور. وما تزامُن هذا الوعد مع اتفاقية سايكس – بيكو ومعركة ميسلون إلا دليل واضح على هذا الالتزام. لقد كان إنشاء دولة عربية واحدة، تمتد حدودها من جبال طوروس

شمالاً الى خليج العقبة جنوباً، هدفاً أسمى للعرب السوريين في ذلك الحين (أي في أعقاب الحرب العالمية الأولى وانتصار الحلفاء)، ولكن هذه الدولة كانت نقيضاً حاداً للمشروع الصهيوني الذي يقضي بإقامة دولة يهودية في فلسطين. ولذا، كان لا بد من القضاء على أي أمل بقيام تلك الدولة، وذلك بضرب قوّتها العسكرية وزعامتها السياسية، وقد تمّ ذلك في ميسلون عام 1920.

ان ضرب دولة الوحدة المتمثلة بالمملكة العربية السورية في ميسلون كان السبيل الوحيد المتاح لأمل إنشاء الدولة اليهودية في فلسطين، ذلك أن نظرة واحدة إلى خارطة بلاد الشام (أو سوريا الطبيعية)، ترينا أي خطر كان يمكن أن يحيق بالدولة اليهودية في حال قيام دولة الوحدة العربية في بلاد الشام، بحيث لا يكون للدولة اليهودية أي منفذ برّي شمالاً وشرقاً وجنوباً، ولا يبقى لها إلا البحر متنفّساً. وهذا ما يؤكد، بلا أي شك، أن تقسيم بلاد الشام، وفقاً لاتفاقية سايكس – بيكو كان، في أساسه، مطلباً صهيونياً، بالاضافة إلى كونه مطلباً استعمارياً.

وهكذا تكون " ميسلون " المحطة الرابعة من مراحل " مؤامرة الغرب على العرب " (كما يقول العميد ياسين سويد) التي بدأت في لندن عام 1905 (مؤتمر كامبل بنرمان)، مرورا باتفاقية سايكس – بيكو عام 1916، ثم وعد بلفور 1917، ولا تزال مستمرة إلى اليوم.

المراجع

1 – ساطع الحصري " يوم ميسلون " دار الاتحاد. بيروت. دون تاريخ.

2 – مذكرات الأمير عادل أرسلان. الجزء الثالث. ص 1366.

3 – د. زاهية قدورة " تاريخ العرب الحديث ". دار النهضة العربية. بيروت 1975. ص 254 و 260 – 261.

4 – أدهم الجندي " تاريخ الثورات السورية في عهد الانتداب الفرنسي ". مطبعة الاتحاد. دمشق 1960. ص 44 – 46 و 161 – 162.

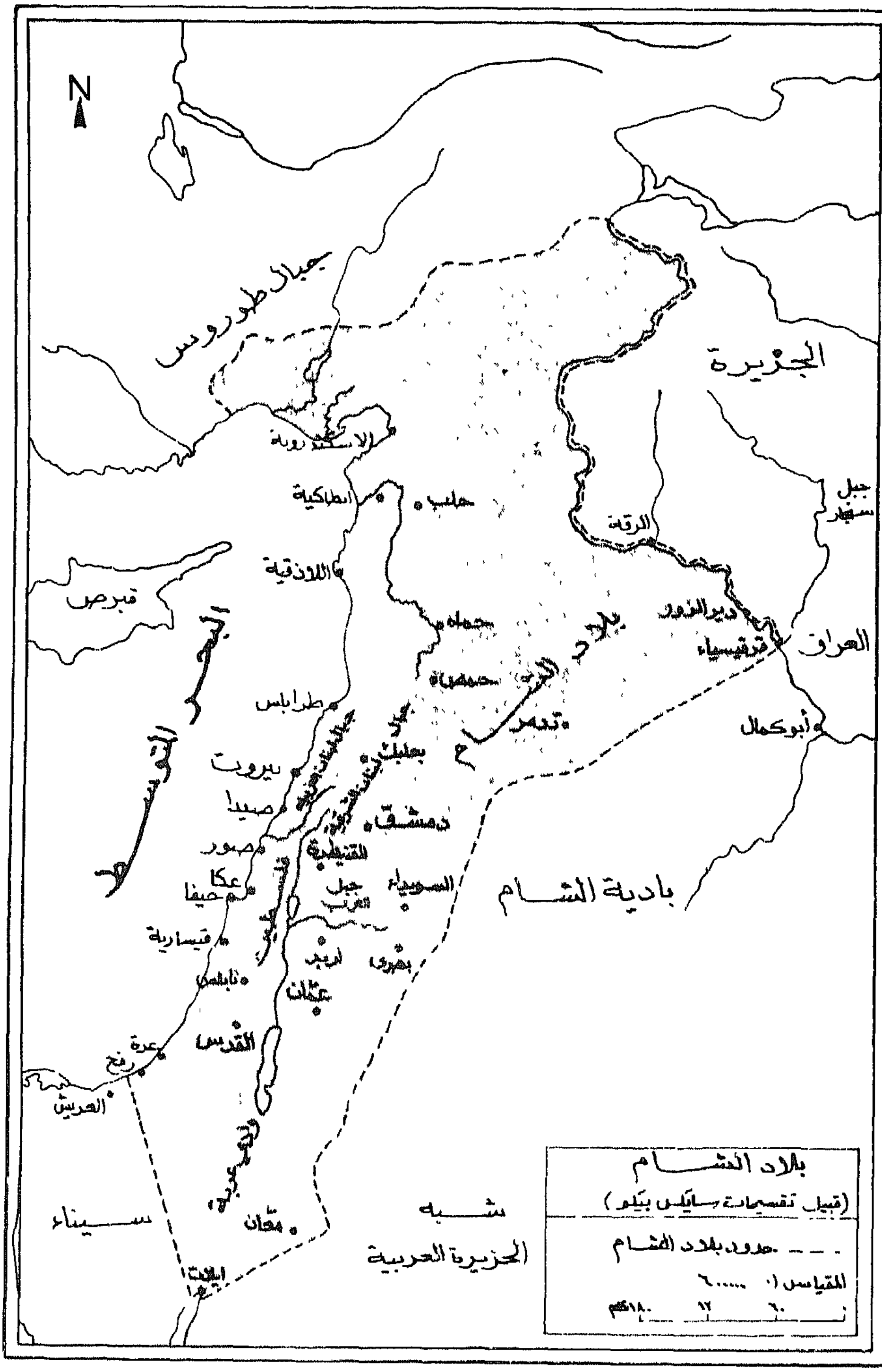
5 – إحسان هندي " كفاح الشعب العربي السوري " دمشق 1962. ص 41 – 42 و 46.

6 – د. حسن البعيني " دروز سوريا ولبنان في عهد الانتداب الفرنسي ". المركز العربي للابحاث والتوثيق. بيروت 1993. ص 151.

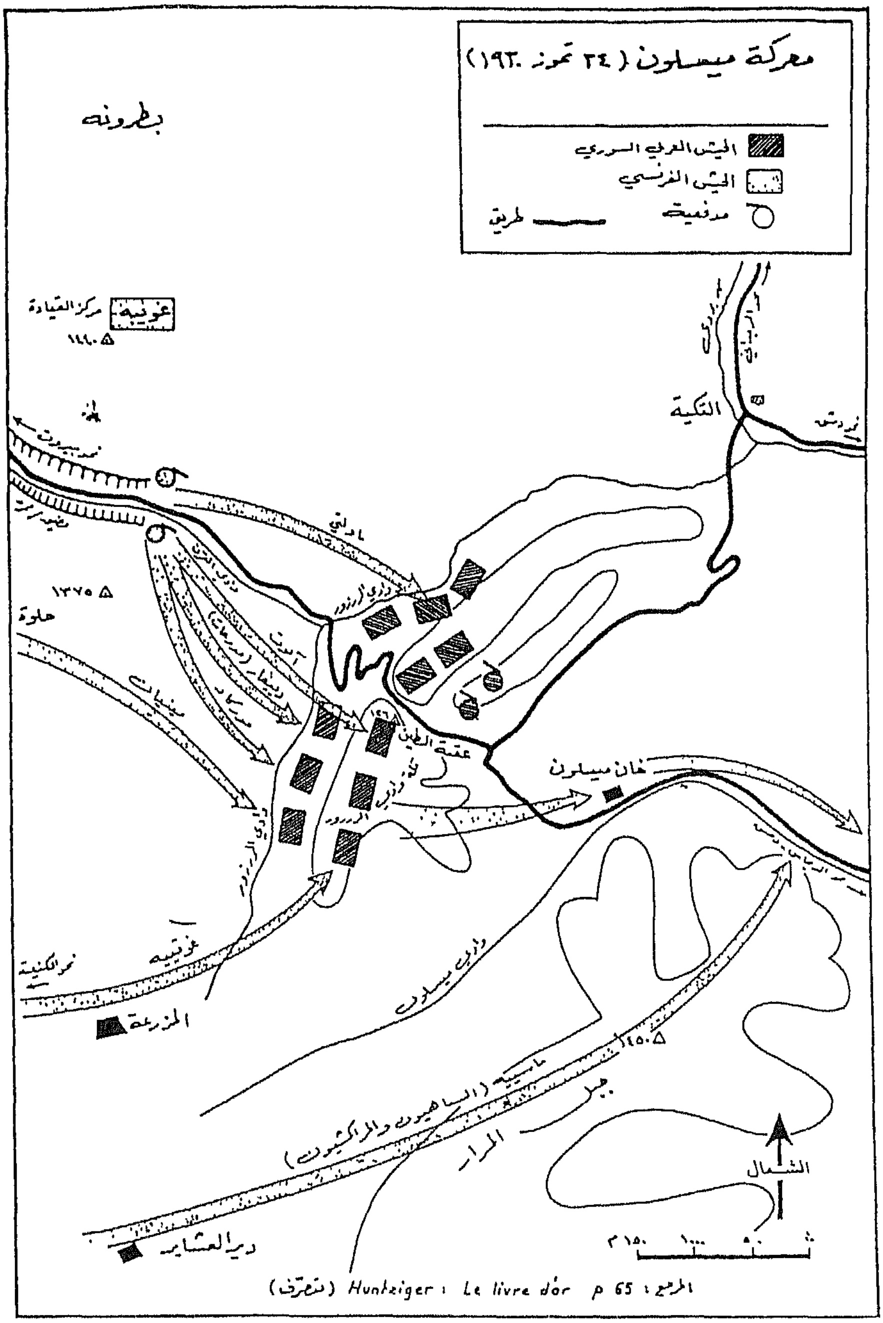
7 - Général Huntziger, " le livre d'or des troupes du le vant .1918 - 1936 '" 2eme edi. 1936. P. 64 - 68.

8 – العميد ياسين سويد " مؤامرة الغرب على العرب " المركز العربي للأبحاث والتوثيق. بيروت. الطبعة الأولى 1992. ص 53 – 62 (وقد اعتمدنا عليه اعتماداً أساسياً من حيث " قوى المعركة " و " النتائج السياسية " لها).

9 – كتابنا " من تجارب الشعوب ". الدار التقدمية. لبنان 1987. (الفصل الخاص بمعركة ميسلون).



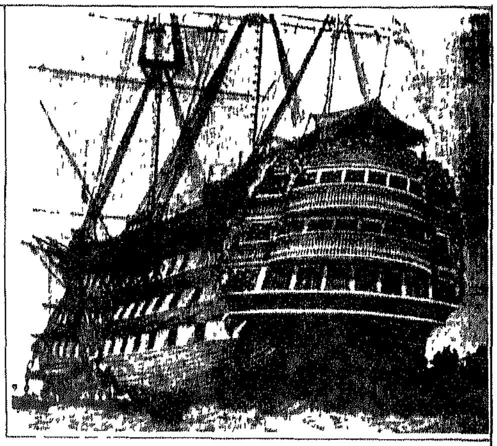
خارطة بلاد الشام (أو سوريا الطبيعية) قبيل تقسيمات سايكس – بيكو وإنشاء دولة إسرائيل.



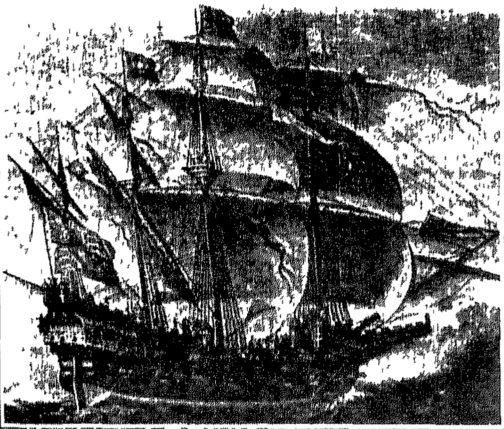
خارطة معركـة ميسلون (1920)

ملحق خاص

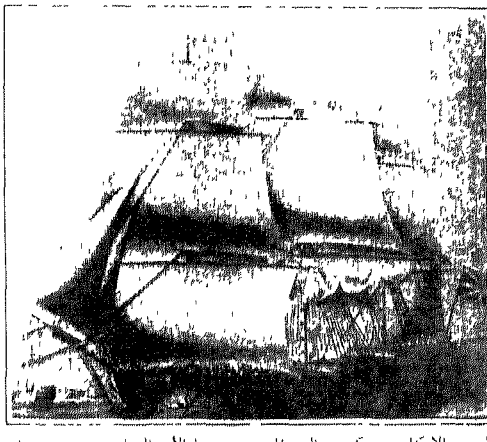
برسومات الأسلحة الحديثة
التي استخدمت في المعارك البرية
والجوّية والبحرية



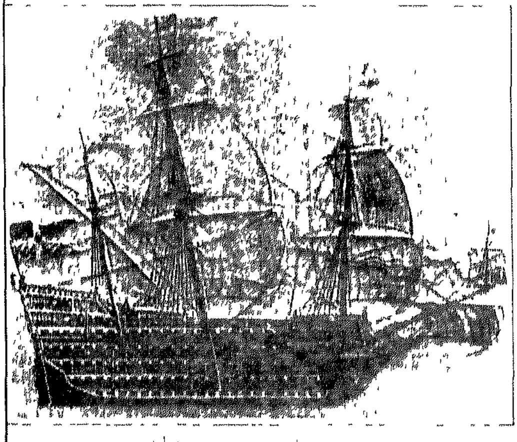
السفينة الانكليزية برنس (١٨٢٨)



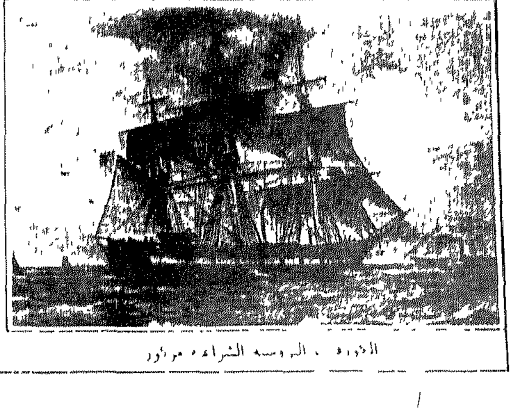
السفينة الفرمور هنري غراس آديو



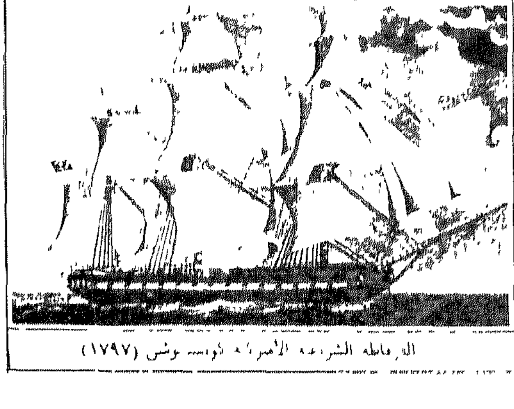
السفينة الانكليزية فكتوري التي كان يستخدمها الأميرال نلسون سفينة قيادة



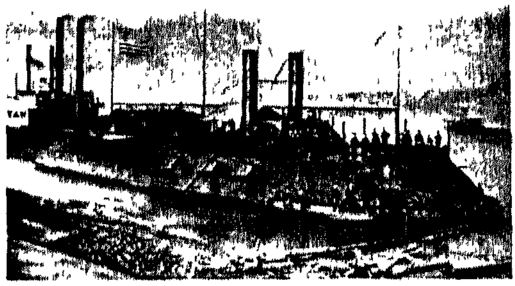
[illegible] شراعية من [illegible] هولندية



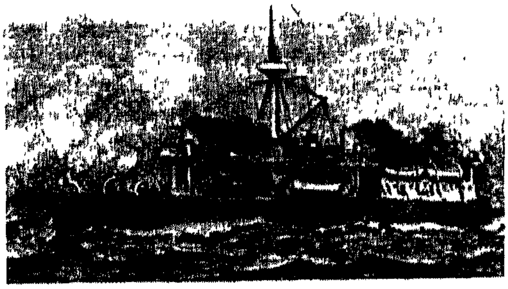
الكورفيت الروسية الشراعية [illegible]



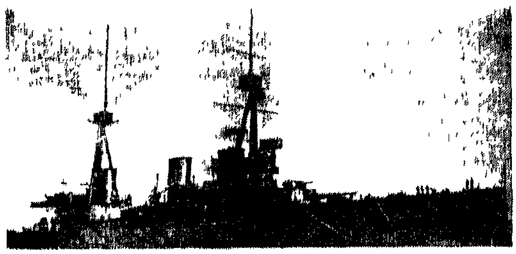
الفرقاطة الشراعية الأميركية كونستيتوشن (١٧٩٧)



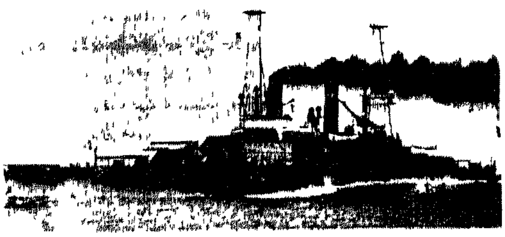
الدارعه الأميركيه كايرو التي كانت أول سفينه يُغرقها طوربيد في العام ١٨٦٢



الدارعه الايطاليه دوليو التي كانت مسلحه باربعة مدافع عيار ٤٤٩,٥ ملم

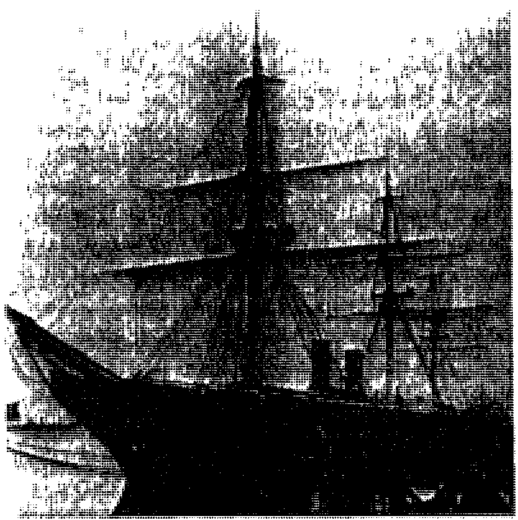


طراد القتال الانكليزي إنفسيبل

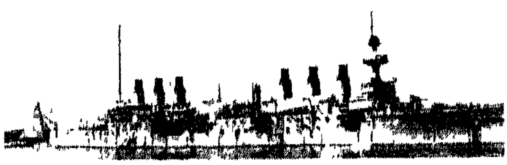


الدارعه الأميركيه ميشيغان (١٩٠٩)

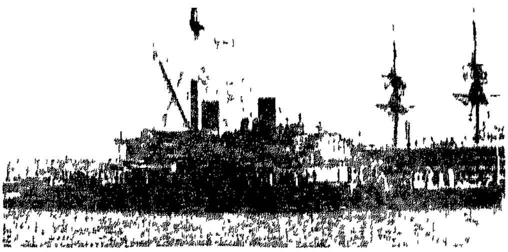
الفرقاطه الانكليزيه ووريور التي كانت أول سفينة من الحديد في العالم (١٨٦٠)

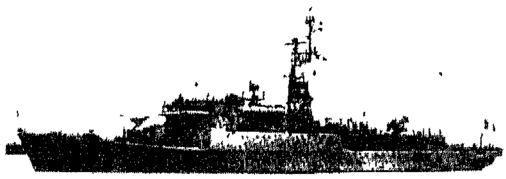


الطراد الفرنسي جان دارك



الدارعه الانكليزيه ديفاستايشن التي كانت أول سفينه خاليه من الصواري

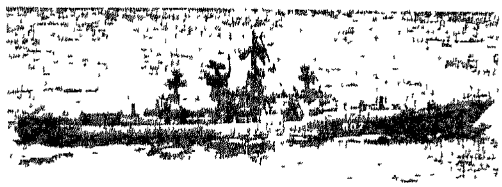




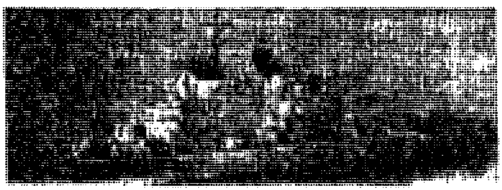
الفرقاطة الفرنسية دنتروبا



كورفيت سوفييتية من فئة نانو شكا ـ ٣



الطراد السوفييتي الأميرال يوماشيف من فئة كريستا ـ ٢

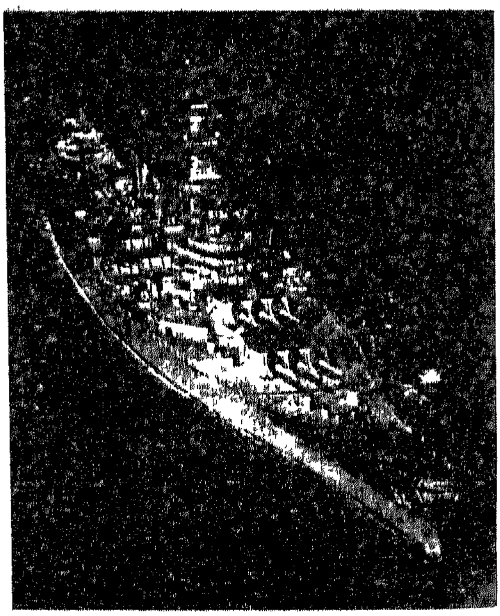


المدمرة الايطالية أرديتو

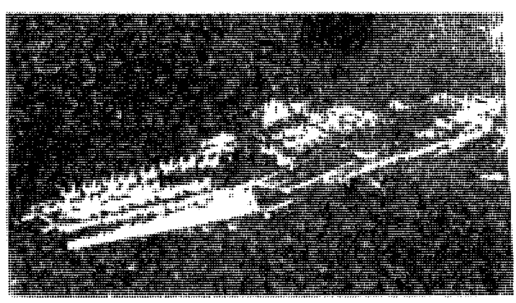
حاملة طائرات الهليكوبتر (الحوامات) الفرنسية جان دارك

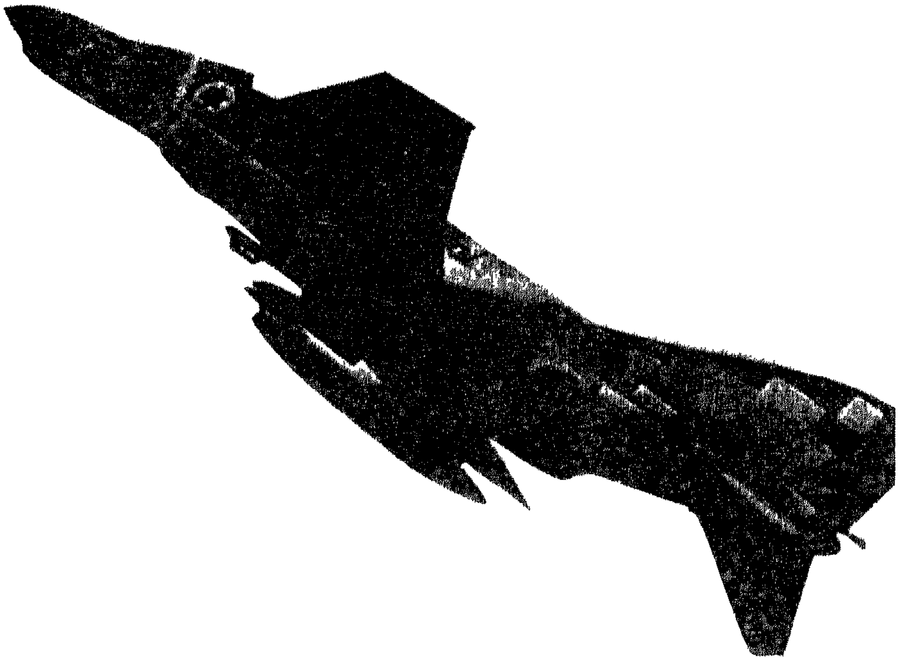


البارجة الأمريكية ويسكنسون من فئة أيوا

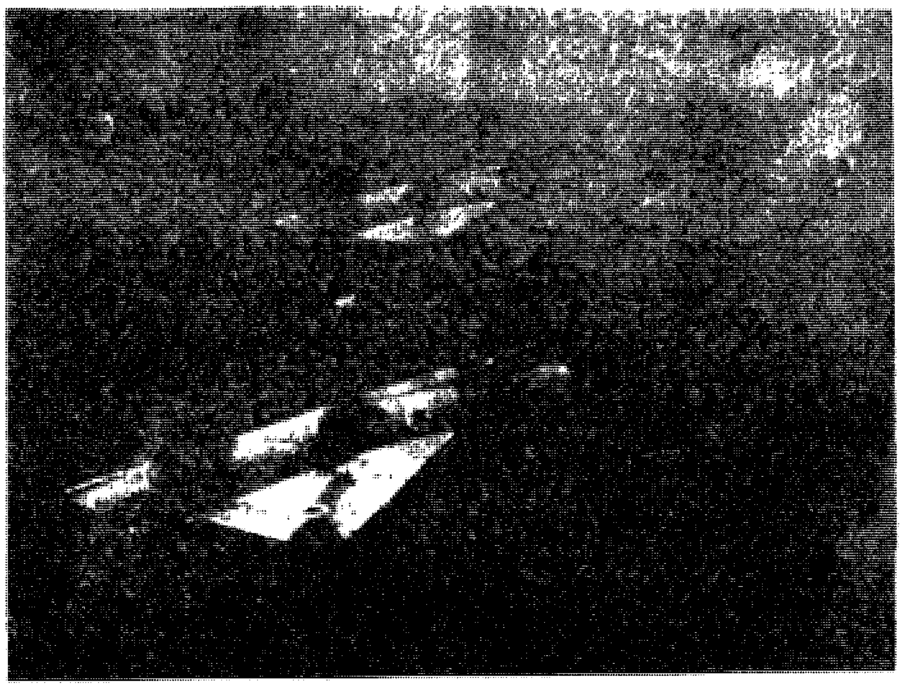


حاملة الطائرات الأمريكية فورستال





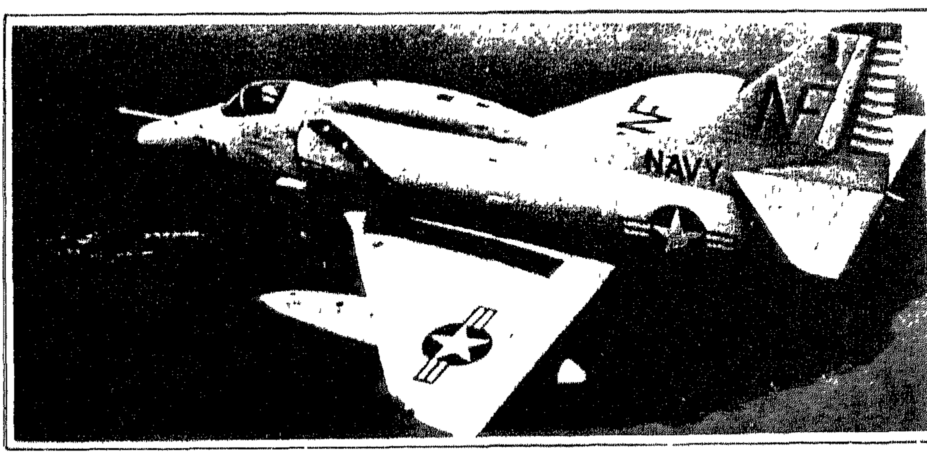
طائرة فانتوم ف ـ ٤ ي



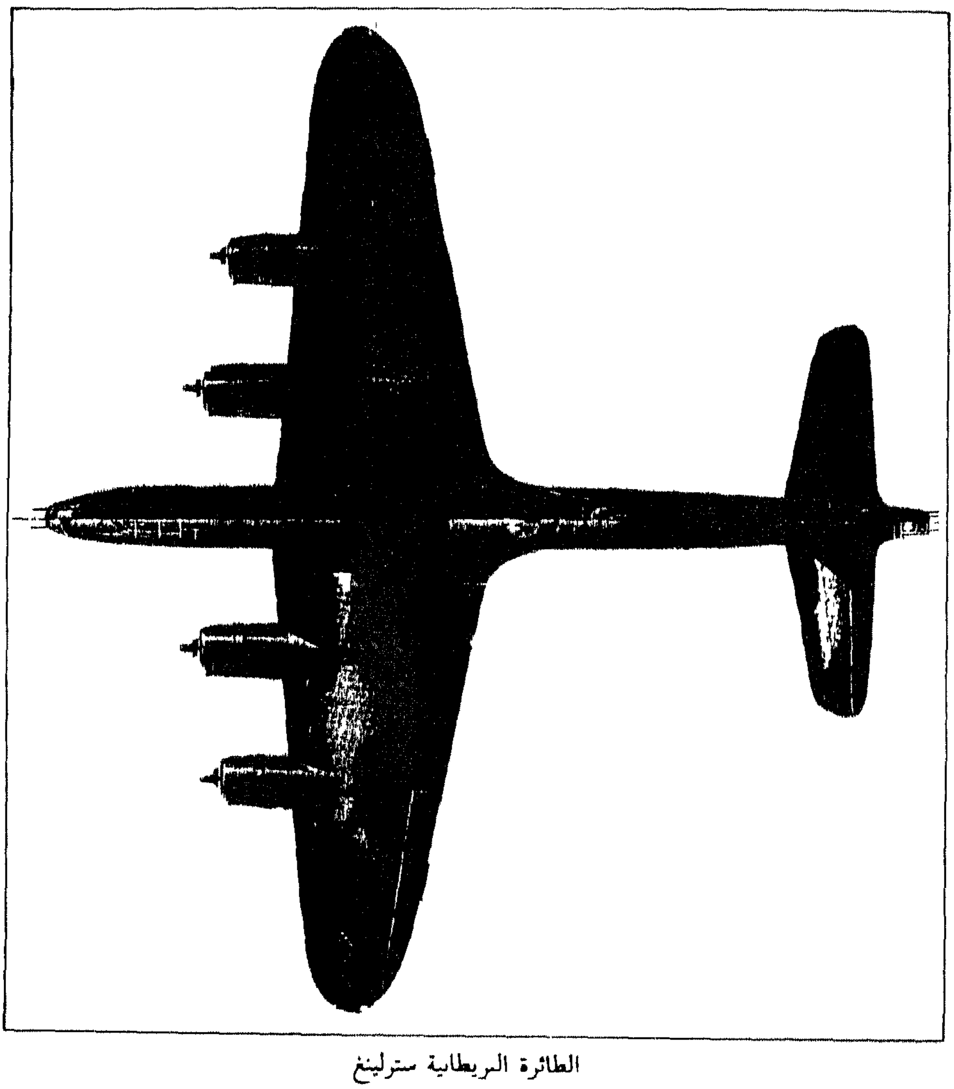
تشكيل مموه من طائرات ميراج ٣ سي جي الاسرائيلية



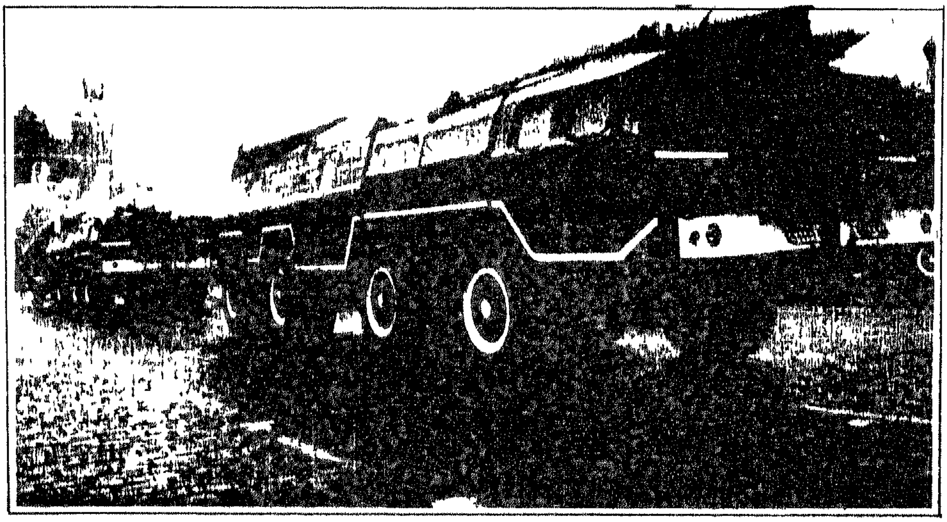
الطائرة السوفييتية متعددة المهام سوخوي ـ ٢٥



المقاتلة القاذفة الأميركية «سكايهوك»

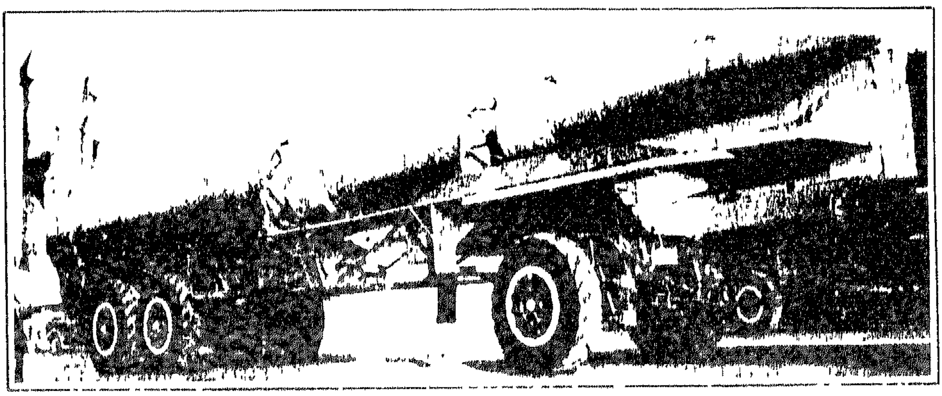


الطائرة البريطانية سترلينغ

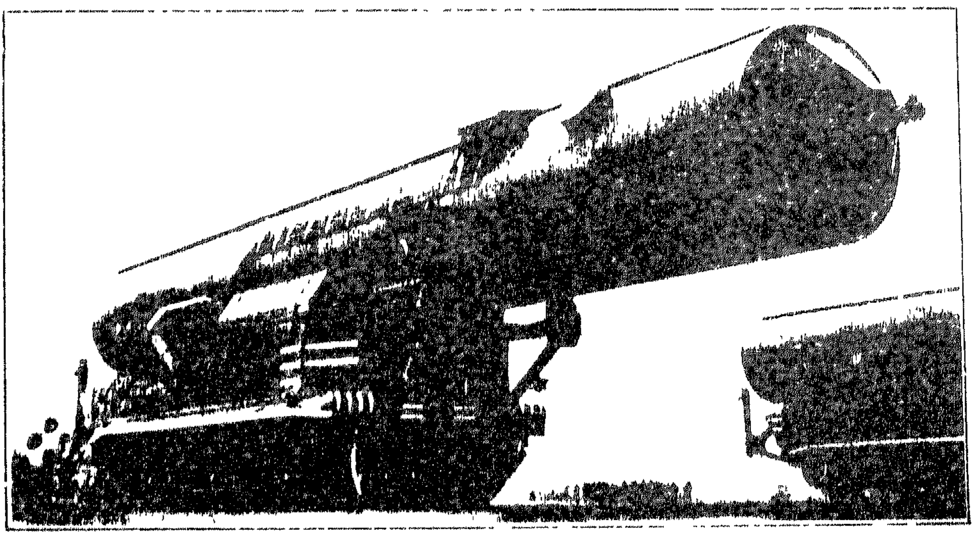


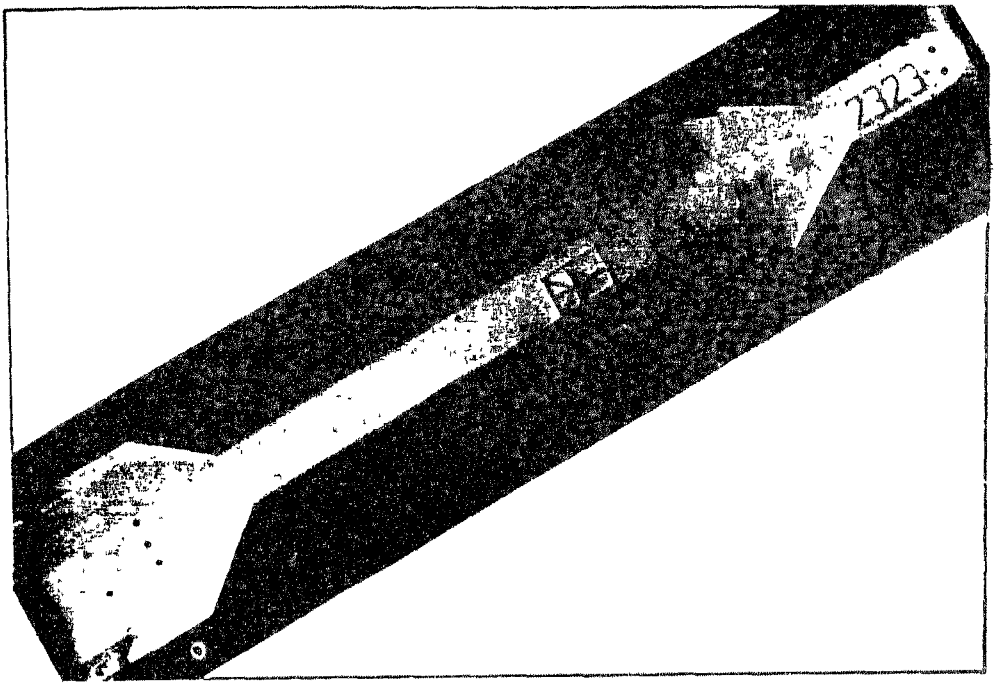
الصاروخ السوفييتي س س ـ ١٢ سكايلبورد

الصاروخ السوفييتي س س ـ ١٣ ساڤاج

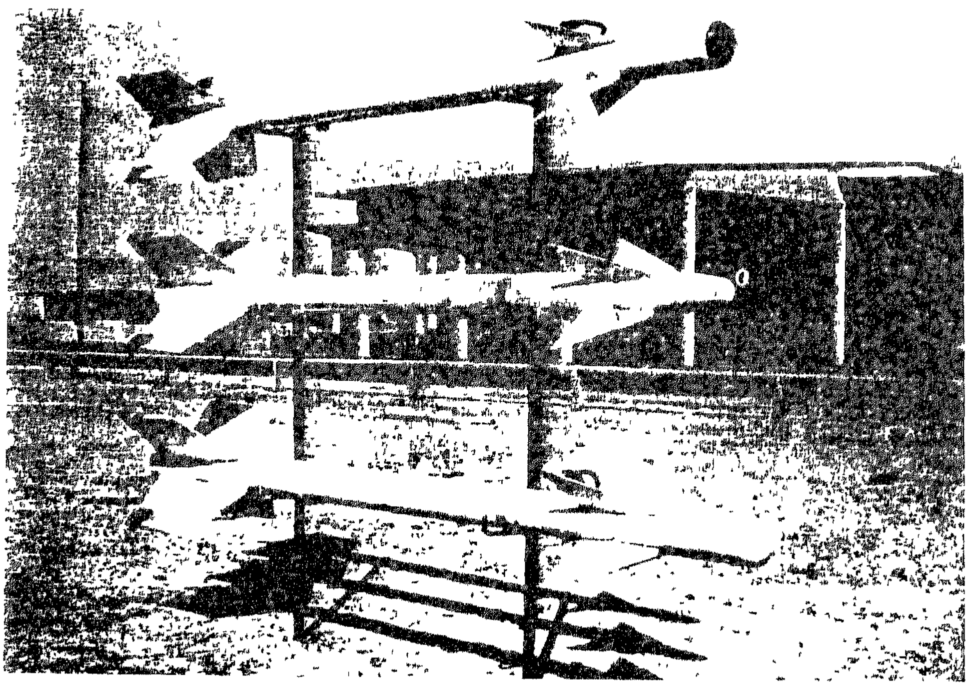


الصاروخ السوفييتي س س ـ ١٥ سكروج





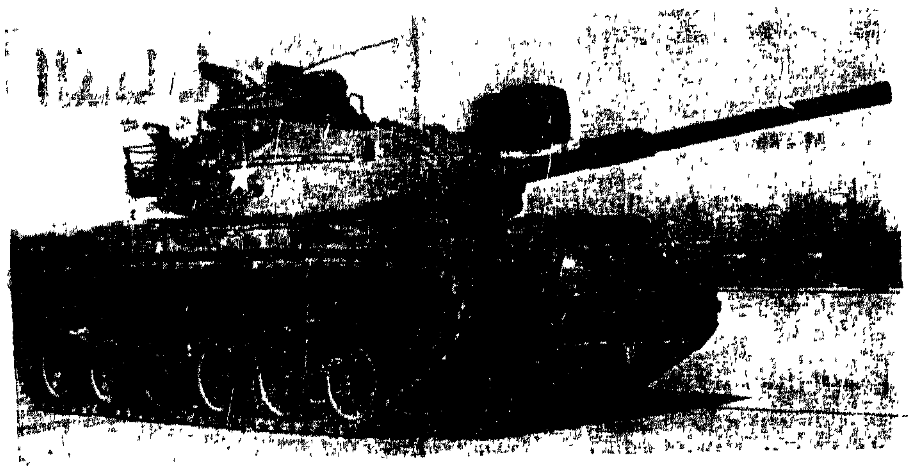
صاروخ شفرير الاسرائيلي



ثلاثة انواع من صواريخ سايدويندر هي من اعلى الى اسفل : ٩ ب يوجه بالاشعة تحت الحمراء ،
و ٩ د يوجه بالاشعة تحت الحمراء و ٩ سي ويوجه بالرادار



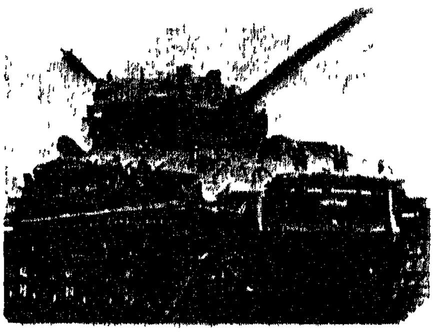
دبابة م ـ ٤٨ اسرائيلية مسلحة بمدفع ٩ ملم



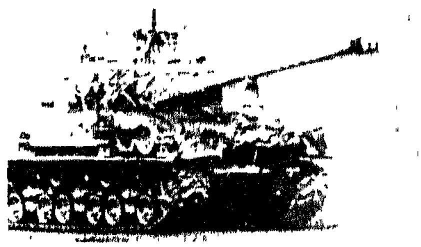
دبابة م ـ ٦ أمريكية من الطراز ذاته الذي تستخدمه اسرائيل



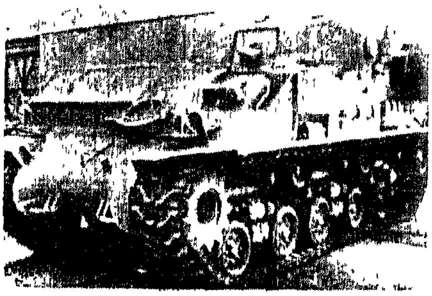
دبابه م ـ ٤٨ (لاحظ المدفع عيار ١٠٥ ملم)



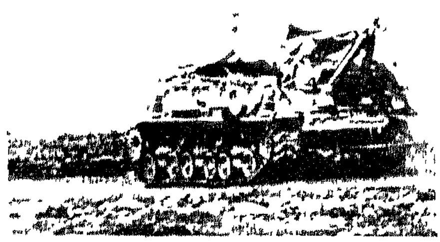
دبابة شيرمان م ـ ٥٠ مع مدفع ٧٥ ملم



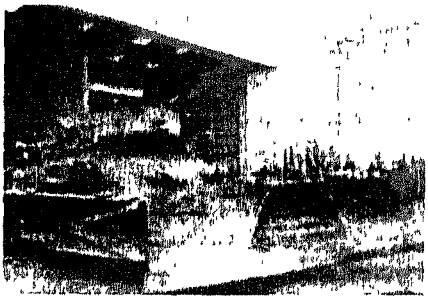
دبابه شيرمان م ـ ٤ تحمل مدفعا فرنسيا
عيار ١٠٥ ملم



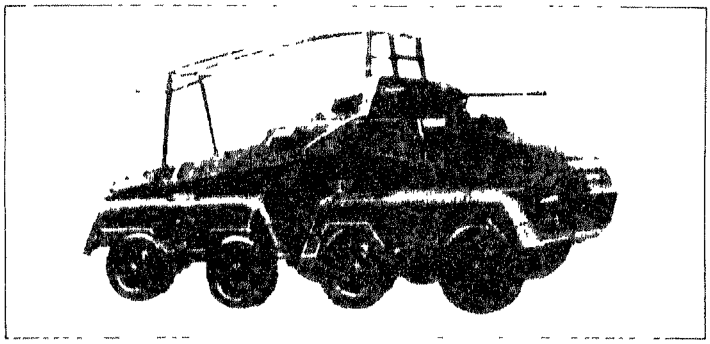
عربة اسعاف مدرعة على قاعدة شيرمان



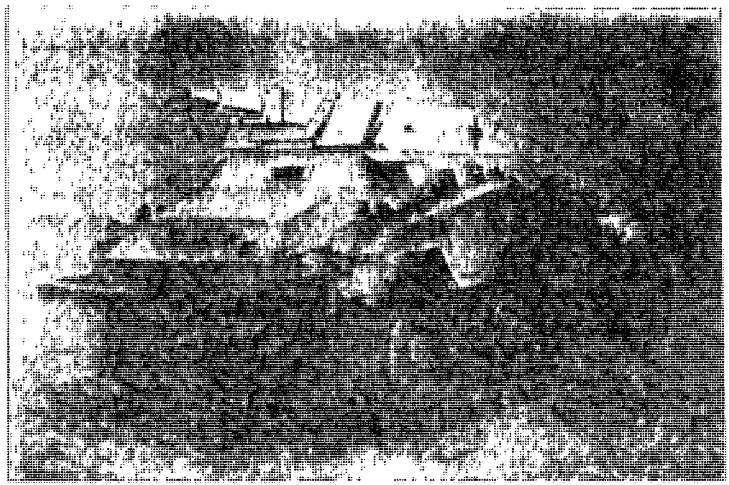
عربة اخلاء مدرعه على قاعدة شيرمان



قاحط مدرع (تانك دوزر) على قاعدة شيرمان

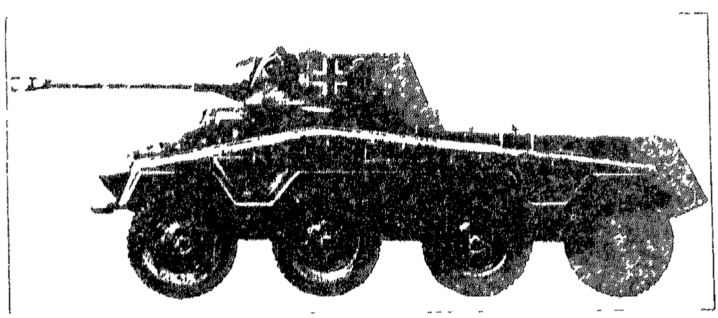


المصفحة الألمانية س د كافس ٢٣٢



المصفحة الألمانية س د كافس ٢٣٤/٢ ، المسلحة بمدفع قصير عيار ٧٥ملم

المصفحة الألمانية س د كافس ٢٣٤

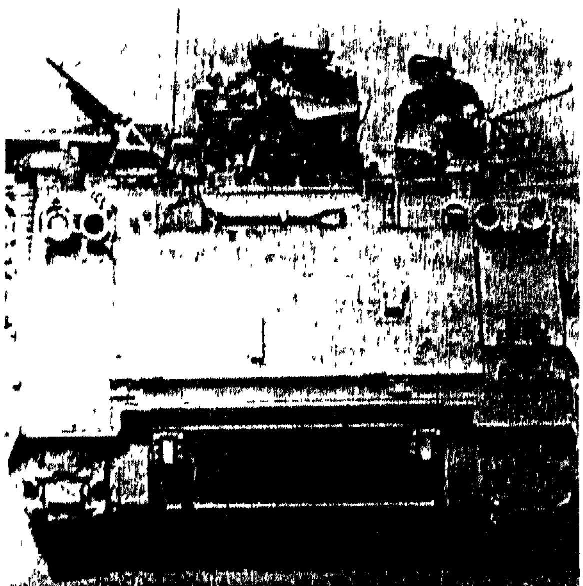




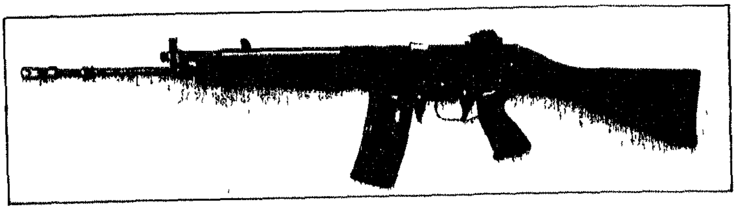
دبابه سنتوريون مع مدفع بريطاني عيار ١٠٥ ملم



مصفحة ا م ٠ ل ٢٤٥ مع مدفع من عيار ٩٠ ملم



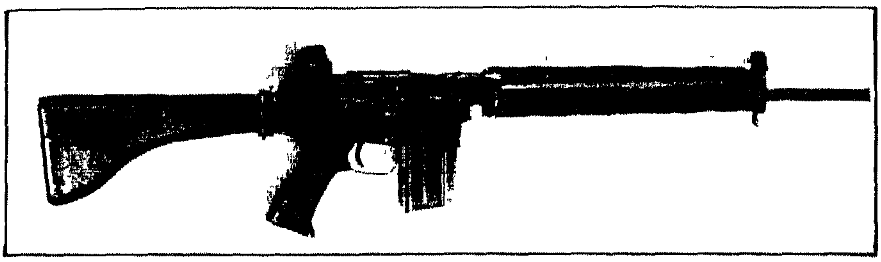
مجنزرة م ـ ١١٣ مسلحة برشاش ٠،٥ بوصة ، ورشاش براونبغ ٧،٦٢ ملم ، ورشاش ماغ ٧،٦٢ ملـم



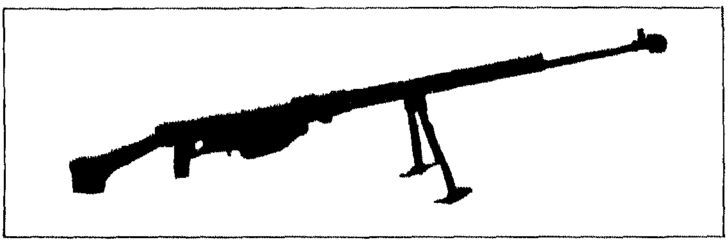
السدقية السويسرية س حي - ٥٣٠



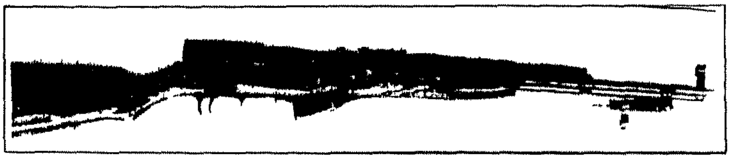
السدقية السويسرية س حي - ٥١٠



البندقية سترلينغ - آرمالايت



البندقية المصادة للدروع سيمونوف ب ث ر س ٤١

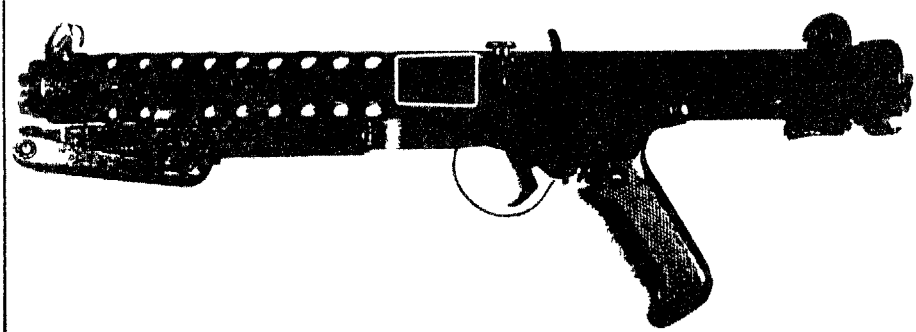


السدقية السوفيتية سمونوف س كاس



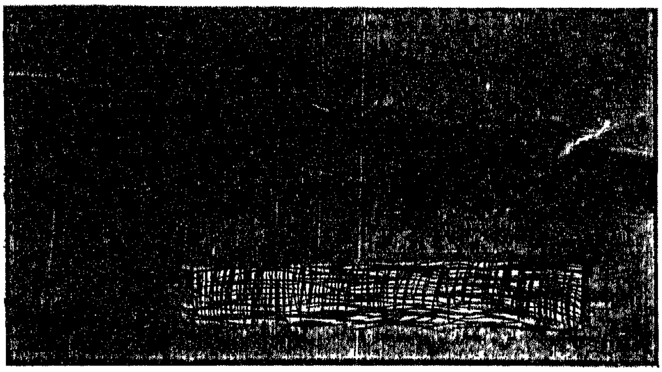
الرشيشة البريطانية سترليغ

الرشيشة البريطانية سترلينغ ل ـ ٢ أ ـ ١

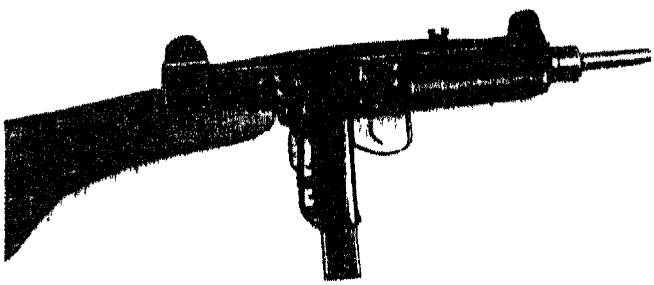




الرشيشة البريطانية سترليغ ل ٢ أ ـ ٣



بندقية رشاشة ف ن ناتو ذات سبطانة ثقيلة



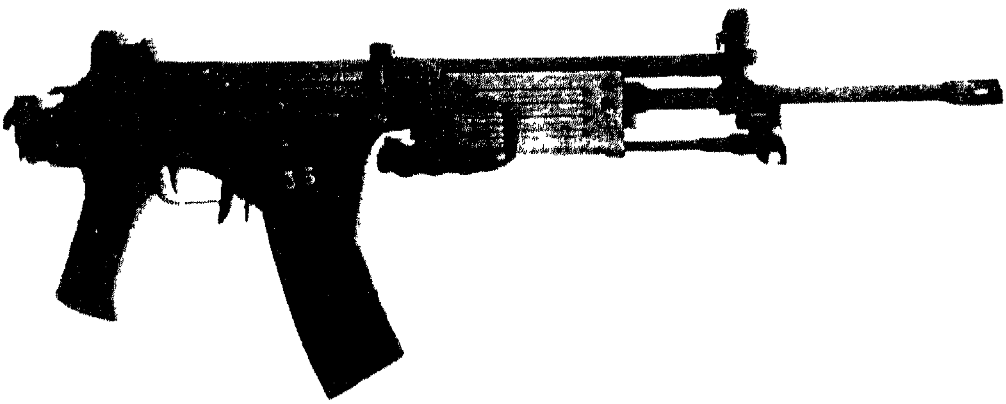
رشيشة عوزي باخمص خشبي



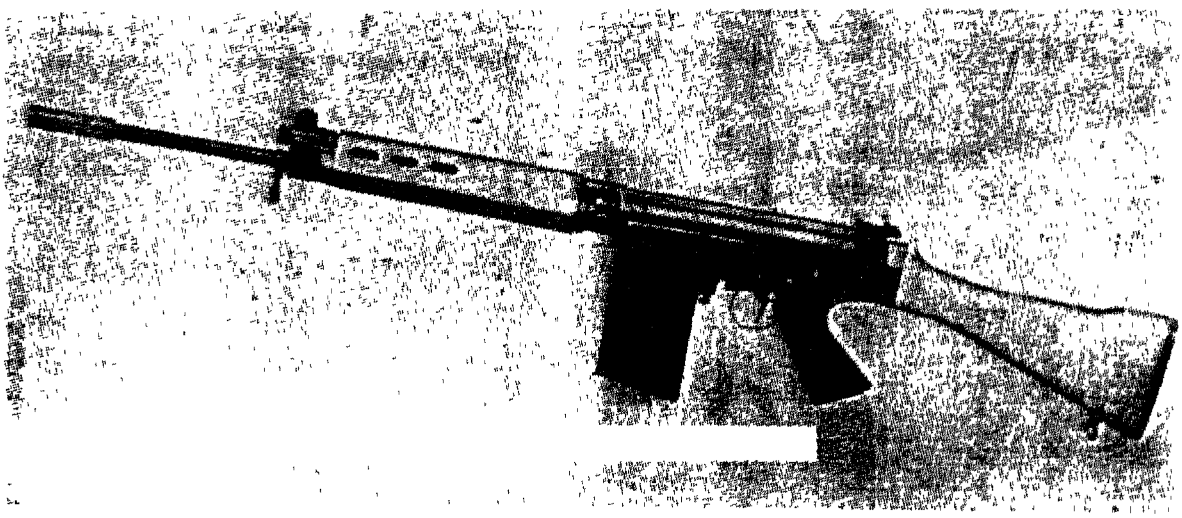
رشاش متوسط م ١٩١٩ عيار ٠.٣ بوصة



رشيشة عوزي من الطراز الذي يصنع في بلجيكا بموجب ترخيص



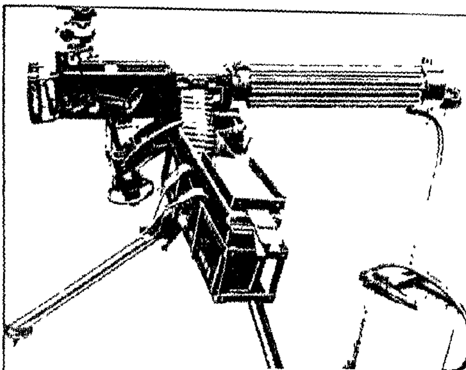
بندقية جليل ذات اخمص حديدي



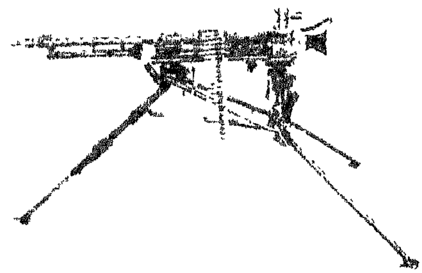
بندقية ناتو ، البندقية الرئيسية في الجيش الاسرائيلي



رشاش متوسط سوفيتي « جوريونوف ر- ٣٧ »

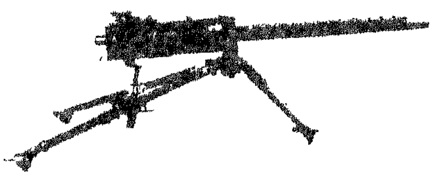


رشاش متوسط بريطاني « فيكرز »



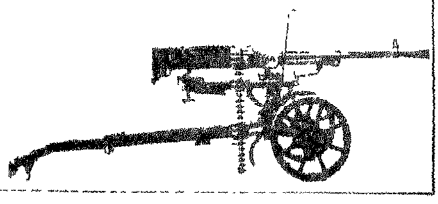
رشاش متوسط ألماني « م ج - ٣٤ » [illegible]

[illegible]

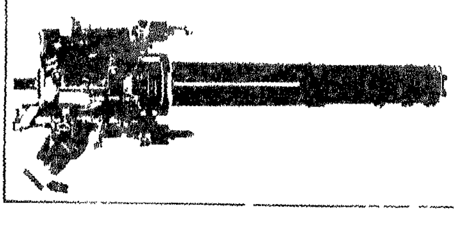


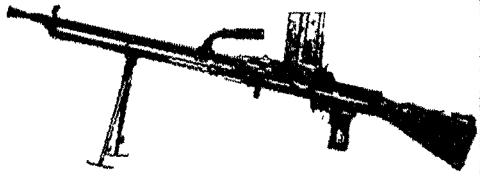
رشاش متوسط أمريكي « براونينج م ١٩١٩ »

رشاش متوسط سوفياتي « [illegible] »

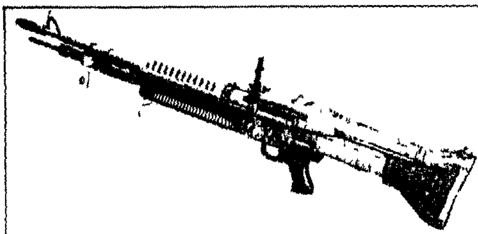


رشاش متوسط أمريكي « [illegible] »

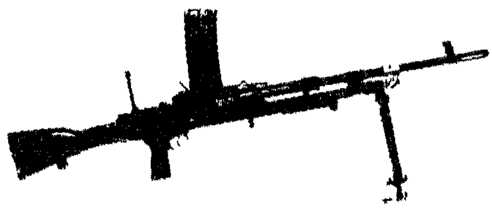




رشاش خفيف تشيكي « زبروبوكاف ر ـ ٢٧ »



رشاش خفيف أمريكي « م ـ ٦ »



رشاش خفيف بريطاني « برن »



رشاش خفيف فرنسي « أ أ ـ ٥٢ »

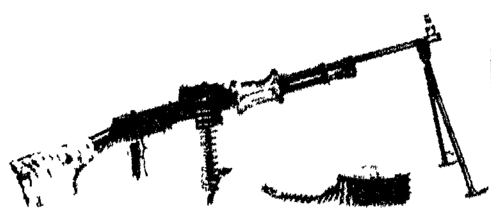


رشاش خفيف سويسري « ربع ٧١ »

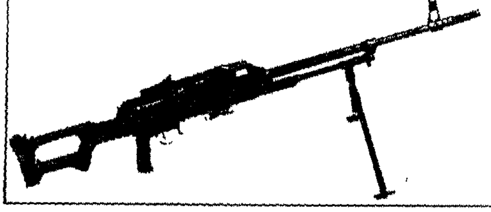


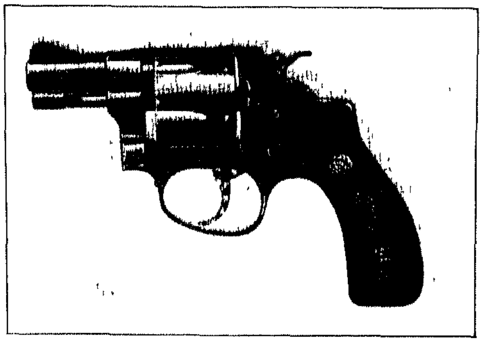
رشاش خفيف بلجيكي « اع »

رشاش خفيف سوفياتي « دكتاريف ر ب ١ »

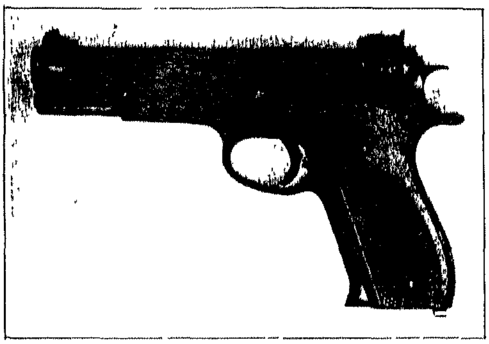


رشاش خفيف سوفياتي « كالاسكوف ب ك م »

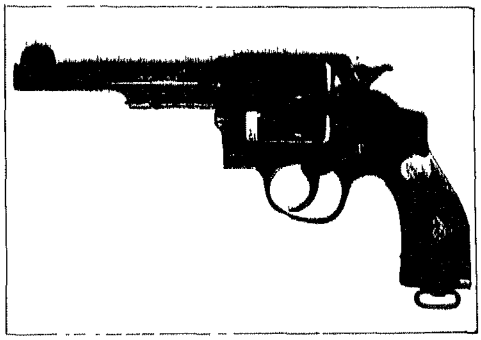




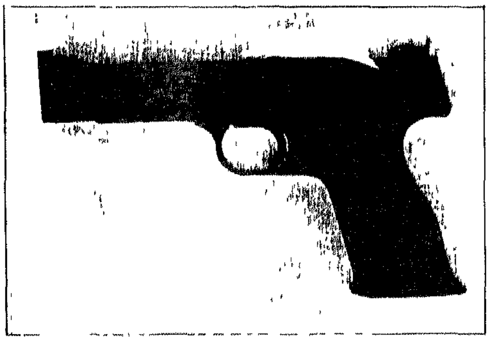
العداره سمث أند وسون (سربر)



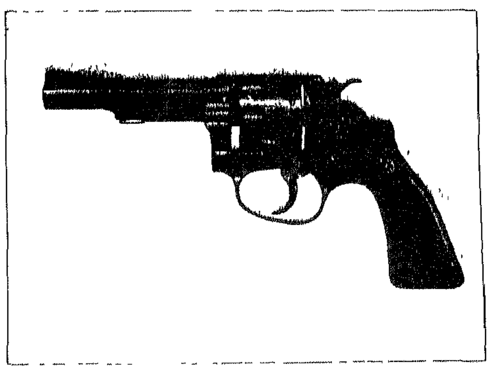
المسدس سمث أند وسون (M 39)



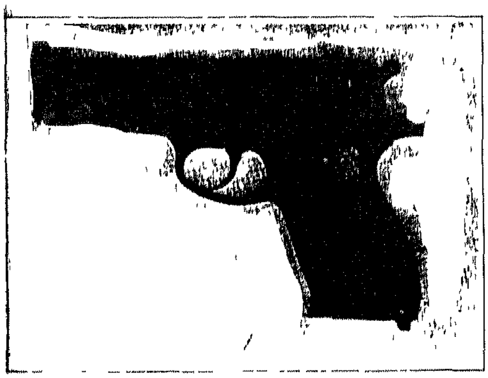
العداره سمث أند ويسون (ارمي ١٩١٧)



المسدس سمث أند وسون (M 41)

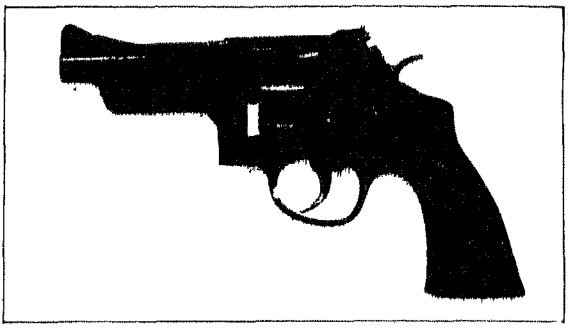


العداره سمث أند ويسون (ريغولشن بالسر)

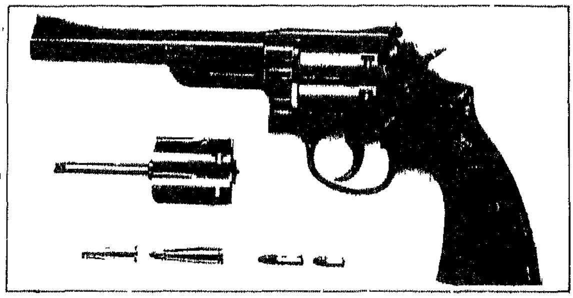


المسدس سمث أند ويسون (M 52)

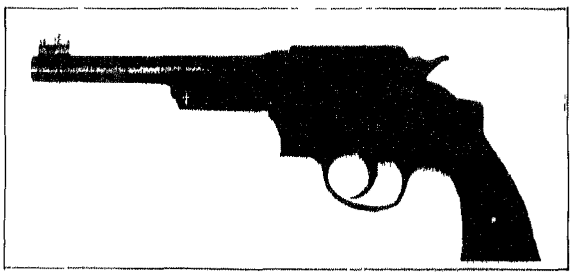
العداره
سمث أند وسون
(هاي واى
باترول مان)



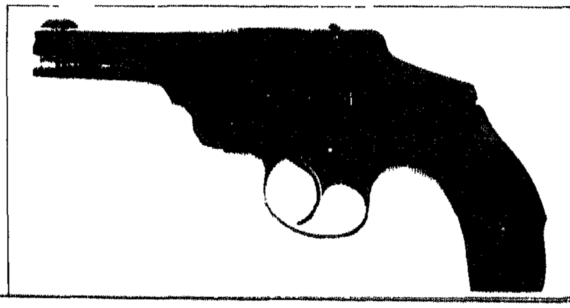
العدارة
سمث أند ويسون
(ماغنوم مودل ٥٣)

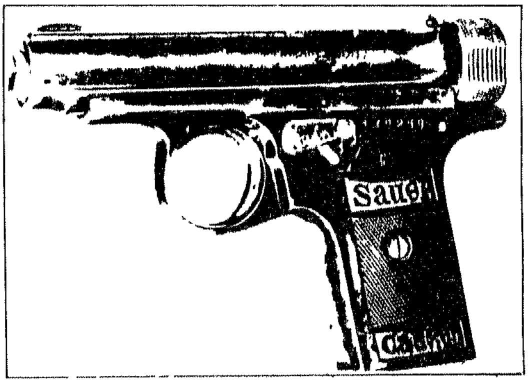


العداره
سمث أند وسون
(رقم - ٣)

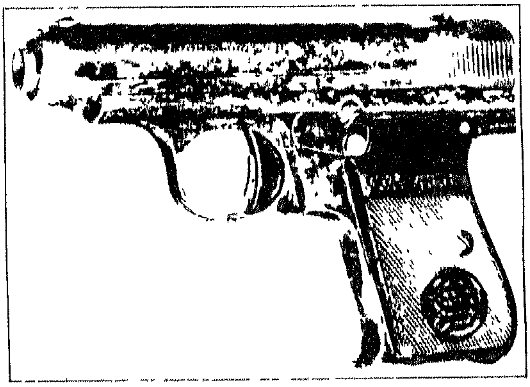


العداره
سميث اند وسون
(سلس)
* نموذج أميركي

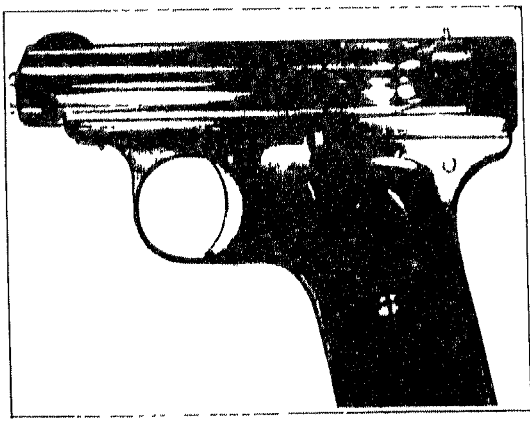




المسدس سوير ١٣



المسدس سوير ٣٠

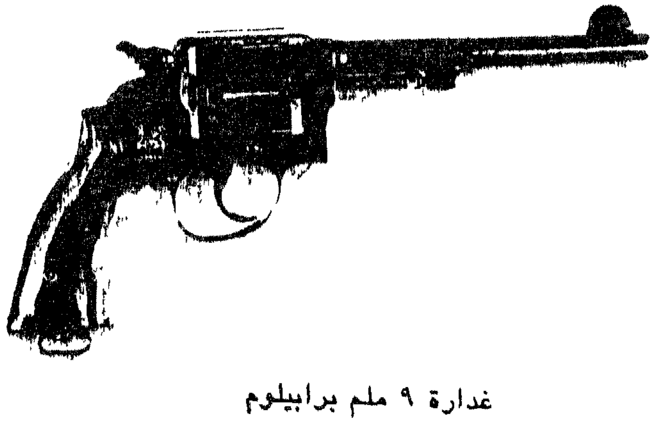


المسدس سوير ٣٨ هـ

الطرازات الثلاثة من المسدس سوير الالماني



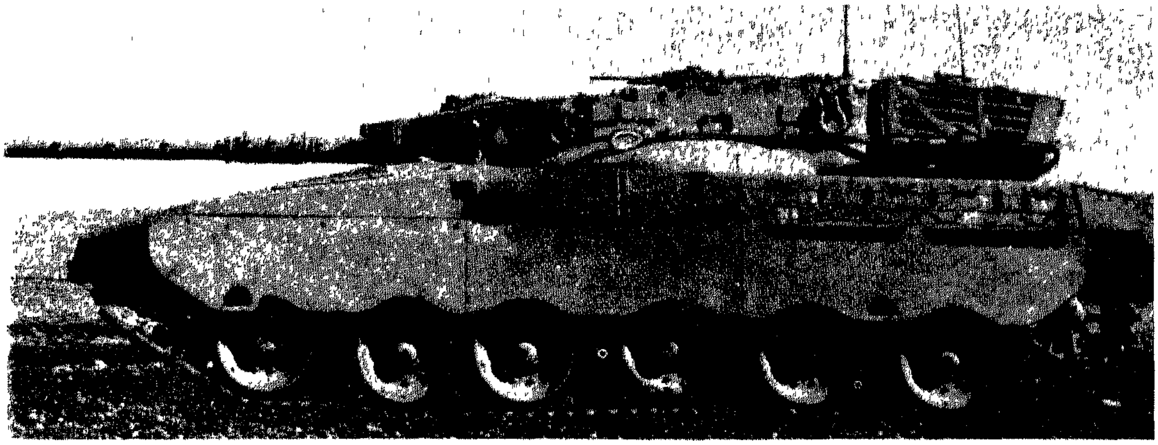
مسدس بريتا عيار ٩ ملم
ـ الايطالي ـ



غدارة ٩ ملم برابيلوم



مجسم دبابة المركافا ـ ١ / ٣٦ ، انتاج شركة تاميا اليابانية .



صورة رقم ٤

الجانب الأيسر من الدبابة مركافا ـ ١

١ ـ المحفظة المعدنية لعدة التمويه وللوازم الجنود .

٢ ـ الرشاش MAG - FN عيار ٧،٦٢ مم فوق قمرة القائد .

٣ ـ المدفع M 68 عيار ١٠٥ مم .

٤ ـ العجلة المسنّنة الدافعة Drive sprocket .

٥ ـ عجلات الطريق .

٦ ـ العجله السائبة .

٧ ـ الدرع الجانبي الكاذب .

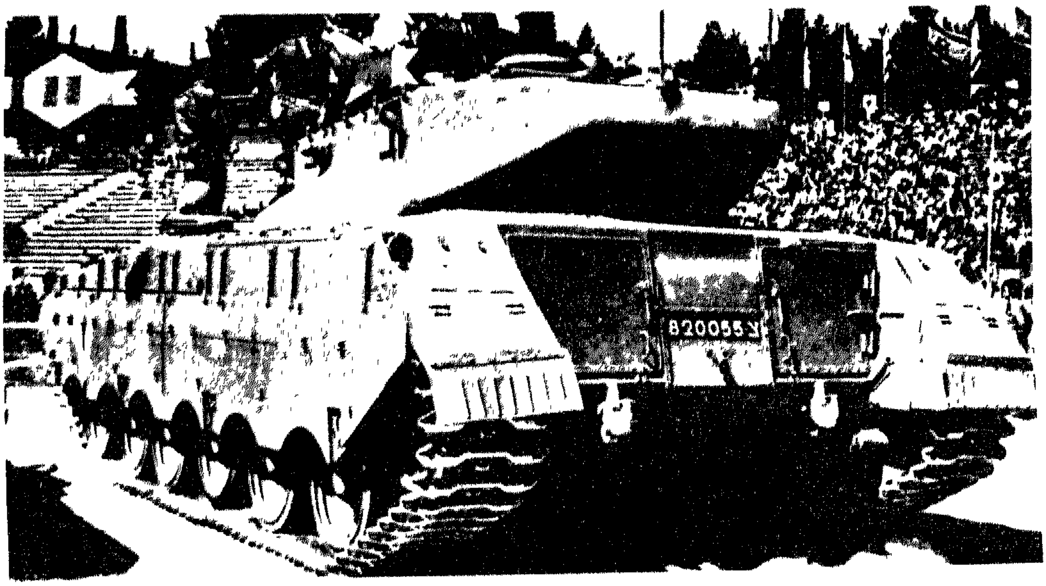
٨ و٩ ـ الهوائيان .

١٠ ـ صناديق العدة .

١١ و١٢ ـ حدوتا الدبابة .

١٣ ـ نهاية العادم .

١٤ ـ سلسله السحب



صورة رقم ٥

الجانب الخلفي من الدبابة ميركافا ـ ١

١ ـ الضوء الخلفي
٢ ـ حجرة عدة الحرب النووية ـ البيولوجية ـ الكيميائية
٣ ـ باب المدخل إلى الحجرة الخلفية
٤ ـ حجرة البطاريات.
٥ ـ عدة الإطفاء
٦ ـ صندوق عدة
٧ ـ حمالة الخرج
٨ ـ خطاف للقطر
٩ ـ غطاء خزان الماء

مراجع

رسومات الأسلحة الحديثة

1 – الموسوعة العسكرية. الجزء الرابع. باشراف المقدم الهيثم الأيوبي. المؤسسة العربية للدراسات والنشر. بيروت. طبعة أولى 1985.

2 – هشام عبد الله " أسلحة الجيش الاسرائيلي ". مركز الأبحاث. بيروت. أيار / مايو 1974.

3 – الملازم هاكوب دير هوفنسيان " المركافا " (سلسلة الدليل العسكري رقم 2). دار الفارابي. بيروت 1986.

4 – الموسوعة العسكرية. الجزء الثالث. باشراف المقدم الهيثم الأيوبي. المؤسسة العربية للدراسات والنشر. بيروت. طبعة ثانية 1985.

معركة ميناء الاسكندرية

قلّما عرف التاريخ شعباً من شعوب الأرض، ركب البحر وغامر في ظلماته، مثلما عرفه العرب، ولذلك كانوا أمهر بحّارة في مختلف العصور.

ومثلما شهدت الأرض كثيراً من المعارك بين العرب وأعدائهم، فان البحر شهد الكثير منها. وليست معركة ميناء الاسكندرية سوى احدى هذه المعارك الشهيرة في تاريخهم.

فما هي معركة ميناء الاسكندرية هذه؟ وما هي تفاصيلها؟

ارتبطت حياة العرب بالبحر منذ غابر الزمان وسبق لهم ان قاموا على مراكبهم الشراعية برحلات بعيدة وسعت كثيراً الآفاق الجغرافية للبشرية حتى قبل عصر الاكتشافات الجغرافية الكبرى. ومما يؤكد ذلك ان القرآن الكريم يحفل باسماء مختلف البحار التي تحّد الجزيرة العربية، ولكن الرحلات التجارية السلميّة شيء والحملات العسكرية شيء اخر. ففي الحالة الأولى تكون أيضاً اخطار تتربص بالبحارة منها مثلاً العواصف والقراصنة. ولكن هذا كله ليس الأخطر في النهاية. اذ ان العرب تعلموا الكثير في خلال مئات السنين من غزوهم للبحار وكان بينهم مرشدون محّنكون كثيرون في حوزتهم خرائط بحرية تعتني بالمعلومات كل يوم. اما اعتداءات القراصنة فقد تصدوا لها بنجاح بقذف النفط المشتعل الذي يضرم النار في سفن القراصنة المطلية بالقار. وكانت هناك كوارث بالطبع اذ تأتي العاصفة التي لا يمكن للبحّارة ان يحسبوا لها الحساب، رغم معارفهم باحوال البحار الجوية لتجهض جهودهم المبذولة لاختيار المسار السليم فينتهي الامر بتدمير السفينة واغراق كل من فيها. واحياناً كان القراصنة يتمكنون من الاقتراب بسفينتهم المشتعلة من السفينة التجارية واقتحامها في اللحظة الاخيرة ليسيطروا عليها بعد ان يتغلبوا على المدافعين. واذا استطاع البحارة تجنب العاصفة فقد يدخلون منطقة ساكنة لا أثر للرياح فيها. وهذه مصيبة ايضاً، لان التيّار قد يحمل سفينتهم ببطء بعيداً عن المسار المعروف الى بحار مجهولة يلقون مصرعهم فيها من الجوع والعطش. وحتى اذا نزلوا

على الشاطئ فقد يصبحون ضحية الوحوش او قبائل أكلة لحوم البشر، او الحمّى الاستوائية. إلا ان احتمالات كهذه كانت استثناء من القاعدة. وكانت حظوظ التجار تفوق درجة الخطر بغض النظر عن تدني المستوى الفني لوسائل الملاحة.

والأمر مختلف بالطبع حين كان البحارة يشتركون في الحملات العسكرية ولم يكن مناص من هذه الحملات لان فتوحات العرب في الشطر الشرقي من منطقة البحر الابيض المتوسط وتقدمهم نحو مصر حتّمت الصدام بين الدولة الاسلامية الفتيّة وبيزنطية. وكانت هذه الامبراطورية الهرمة التي لم يكن في وسعها الا ان تتراجع رقعة بعد رقعة على اليابسة امام القوة التاريخية الجديدة التي اخذ نجمها بالتألق، يحتفظ بسيطرتها على البحار بفضل أساطيلها الجبارة التي نشأت على مرّ العصور. وكانت مواقعها البحرية منيعة، فاستمر الاسطول البيزنطي القوي ينقل الذخائر والمؤونة الى المدن السورية – الفلسطينية الساحلية التي حاصرها العرب من جهة اليابسة ولم يستطيعوا الاستيلاء عليها بسبب الامدادات البحرية. ولذا فان سيطرتهم على الاقطار الجديدة لم تستكمل بكل المقومات. وبعدما بدأت الجيوش العربية الزاحفة إلى فلسطين وشمالي افريقيا بالتعثر بات واضحاً انه يجب دحر القوات البحرية البيزنطية. وبدأ معاوية بن ابي سفيان حاكم سوريا ومؤسس الدولة الاموية في ما بعد يعدّ العدة على مهل وباصرار منذ السنة 639 ميلادية لتحقيق هذا الهدف بمباركة الخليفة عثمان بن عفّان. وكان وضع الخطة أسهل من تحقيقها بالطبع. ولكن معاوية الذي لا يمكن ان تنكر عليه قدرته على التحليل السليم للمواقف والظروف والتبصر رأى بوضوح الحلقة الاساسية التي يمكن بواسطتها انتشال كل السلسلة، بمعنى أن دحر القوة البحرية البيزنطية يمكن العرب من السيطرة على موانيء الشطر الشرقي من البحر الأبيض المتوسط. ومن هنا امكان العودة الى استغلال طريق قديم لتبادل البضائع بين الغرب والشرق، الطريق الاقصر والاكثر اماناً لانه يمرّ باراضي مصر وسورية وبلاد ما بين النهرين التي اصبحت جزءاً من الدولة الاسلامية المترامية الاطراف. وكان من شأن ازدهار هذا الطريق التجاري الذي تقع سورية في وسطه ان يصبح حافزاً لتنمية هذا القطر اقتصادياً، مما يؤدي الى استقرار السلطة السياسية، وهو ما توخاه معاوية لان هذا يمنح حكام دمشق امتيازات على الخليفة في المدينة المنورة

الذي لم يكن له ميناء بحري سوى ميناء الجار المتواضع على البحر الاحمر. ومن هنا رأى معاوية مهمته في اثارة البلبلة في اقاليم بيزنطية المطلة على البحر بالغارات المفاجئة من جهة وانشاء اسطول حربي قوي يستطيع ان يحسم الصراع لمصلحة العرب من جهة اخرى.

وأمر معاوية كخطوة اولى بجمع خيرة بنّائي السفن من سكان سورية الذين تجري في عروقهم دماء البحارة الفينيقيين القدماء في عكا وصور. ونقلت الى هناك مئات والاف الجذوع من جبال لبنان التي اشجارها مادة مثالية لبناء السفن. وجرى تحويل السفن التجارية السلمّية الى سفن حربية وتسليحها لتكون اشبه بالمراكب الحربية البيزنطية الرهيبة. وكانت المراكب الحربية العربية الأولى ذات ابعاد مخيفة. فهي تحمل مئة مجذف بمعدل خمسين مجذفاً لكل جانب يقسمون الى نوبتين تضم كل منهما 25 شخصاً. وكذلك حوالي مئة وخمسين مقاتلاً في وسعهم وقف سفينة العدو بواسطة سلالم كثيرة واقتحامها اقتحاماً جامحاً وهم يمهدون الطريق بهجوم بالنار التي لا يكف عن قذفها مدفع يعرف باسم قاذف النار اليوناني. ويخوض المقاتلون المعركة بنشوة وعناد لانهم يعرفون ان كل الغنائم ستوزع عليهم بالمناصفة.

كما تطورت صناعة السفن الحربية بوتائر سريعة في مصر وأيّد عبد الله بن سعد بن ابي سرح حاكم مصر الجديد خطة معاوية وبنشاط، ونقل الأقباط، وهم خَلَفُ ابناء وادي النيل الذين طافوا مع البحارة الفينيقيين لأول مرة حول افريقيا منذ آلاف السنين، الى العرب افكار وحسابات علماء الرياضيات من مدرسة الاسكندرية العريقة. وتحولت الاسكندرية ودمياط، ثم القاهرة الى احواض يستمر فيها بناء المراكب الحربية السريعة وسفن الشحن ليل نهار.

ولم يقتصر الأمر طبعاً على ارسال الأحبال وقماش القنب من مصر الى سورية مقابل الخشب اللبناني الشهير بل اقتضى التعاون بين العمارتين في محاربة العدو المشترك.

وفي سنة 649 للميلاد اتحدت العمارة السورية بقيادة ابي الاعور بن سفيان السلمي مع العمارة المصرية التي قادها حاكم مصر عبد الله بن سعد بن ابي سرح نفسه

في حملة لا تقاوم على قبرص. وبعد هذا الغزو الذي فتح الباب امام العرب الى شرقي البحر الابيض المتوسط قام الاسطول العربي بقيادة عبد الله الحارثي بحوالي خمسين حملة ناجحة على الجزر التابعة لبيزنطية، توّجت في السنة 653 بمعركة حاسمة بالقرب من شاطئ الاسكندرية وجهت فيها العمارتان المصرية والسورية ضربة ساحقة الى الأسطول البيزنطي. وعلى أثر هذا الانتصار إستولى العرب على رودس وبنتيلاريا ومالطة وهي مواقع استراتيجية مهمة في البحر الابيض المتوسط. وفي سنة 672 للميلاد فرض العرب سيطرتهم على شاطئ ليقيا وقيليقيا. وبعد فتح شبه جزيرة قزيق في بحر مرمرة اخذ الاسطول العربي في محاصرة القسطنطينية واستمر هذا الحصار سبع سنين.

لماذا استطاع العرب تسجيل هذه النجاحات الاكيدة في بداية حربهم البحرية ضد بيزنطية؟ لا بد للاجابة عن هذا السؤال من معاينة انجازات بنائي السفن العرب.

كان العرب يسمون مراكبهم الحربية في القرن السابع للميلاد " الغراب ". وكانت هذه التسمية سلاحاً معنوياً لهم لان الغراب نذير شؤم بالنسبة الى العدو طبعاً. وبصرف النظر عن التسمية كان المركب الحربي العربي يشكل قوة رهيبة لا تقهر لانه كان يحمل على متنه مئات المقاتلين المسلحين الذين يتقنون القتال في ابان اخذ سفن العدو بالمصادمة. وكان المركب سريعاً سواء في اليوم الهادئ او العاصف. ففي الحالة الأولى يمخر المركب عباب البحر بالمجاديف المئة والثمانين وفي الحالة الثانية يستفيد مما جهز به من أشرعة متنوعة تشكل بمجموعها قوة دفع شديدة يعود الدور الرئيسي فيها الى الشراعين المستطيل والمائل. وتجدر الاشارة الى ان استغلال المرايا في الشراع المائل يعتبر أحد أهم انجازات العرب في التكنولوجيا البحرية في القرون الوسطى. وكان البحارة القدماء منذ بداية عصر المملكة القديمة في مصر يشكون في صلاح قطعة القماش المستطيلة الشكل لاستخدامها شراعاً في المركب البدائي ذي السارية الواحدة في كل الاحوال الجوية. إذ تبيّن انذاك ان الشراع المستطيل مفيد جداً عندما تكون الريح مؤاتيه والسماء صافية فقط. وارغمت الرياح الشمالية التي اعاقت المسير باتجاه جزر البحر الابيض المتوسط وهي جزر قد تنطوي على اهمية اقتصادية بالنسبة الى بلاد الفراعنة، على قطع احد اطراف الشراع وجعله يدور حول محوره. ومن ثم اصبح في امكان البحارة القدماء تسيير المركب بعكس

اتجاه الريح بعض الوقت، وذلك بادارة الشراع واستخدام قوة الاستمرار التي تلازم كل شيء متحرك. واستمر البحارة المصريون ثم الفينيقيون واليونانيون والعرب باقتطاع اجزاء من الشراع المستطيل الشكل حتى اصبح الشراع مثلث الشكل في اخر الامر. كما استمروا بتطوير الاساليب الفنية التي تجعل السفينة تسير متعرجة ومتمورة لتشق طريقها في وجه الريح المعاكسة. وارتقى العرب بهذا الاسلوب الى مستوى اعلى لأن خلوّ وطنهم قبل الاسلام من الانهار الصالحة للملاحة اضطرهم الى حث الخطى على طريق تطوير الملاحة في عرض البحر مباشرة.

وهكذا كان العرب أول من اكتشف قانون التناسب العكسي بين قوة الريح المعاكسة وبين مساحة الشراع. وكانوا اول من وضع بين الشراعين المائلين عند مقدمة ومؤخرة السفينة شراعاً مستطيلاً لزيادة قوة الاستمرار عند الريح المؤاتية. وكانوا أول من أتقن اسلوب تحريك السفينة في كل الاتجاهات لاتباع المسار المقرر، فضمنوا بالتالي لمراكبهم الرهيبة القدرة العالية على المناورة في البحر الابيض المتوسط، بل وفروا الامكانات الفنية لرحلات كولومبس، وفاسكودي غاما، وماجلان وكوك المقبلة حول العالم.

رغم كل ذلك، يتنطح دعاة النزعة الاستعمارية دائماً إلى اتّهام العرب بالتخلف في الوقت الذي تعلّق فيه صور المفكرين والفلاسفة والمبدعين العرب على جدران المعاهد والكليات الهامة في أوروبا وأميركا. وبعد أن سرق الغربيون عن الشرقيين – وعن العرب خاصة – كثيراً من ابداعاتهم وتجاربهم ولصقوها بهم هم، وما زالت نزعة " الاستعلاء " الغربية على الانسان العربي خصوصاً، والشرقي عموماً، تزداد يوماً بعد يوم. واذا كان العرب يتحملون جزءاً من هذه المسؤولية، لا يعني ذلك أن الغرب على حق فيما يقول، وفيما يسرق وينهب، ثم يَّدعي أنه " أب الحضارة ".

ويبقى العزاء كبيراً بأولئك المفكرين والفلاسفة الغربيين أنفسهم، الذين يجاهرون بفضل العرب على الغرب دون أي خوف، لأنهم يعلمون ان كلمة الحق يجب أن تقال حتى ولو على حبال المشانق...

المراجع

1 – تيودور شوموفسكي " البحّارة العرب ". دار العلم للنشر. موسكو 1988.

2 – مجلة " المدار " السوفياتية. العدد 7 (303). تموز 1988. ص 26 – 27.

معارك الناصرة

كانت القوات الصهيونية تسيطر على شريط ساحلي من حيفا إلى رأس الناقورة، في حين كانت قوات جيش الإنقاذ تسيطر على التلال الواقعة إلى الشرق في الجليل الغربي. وقد كانت القيادة الصهيونية تعمل على دعم مواقعها وزيادة مساحة احتلالها، فقررت تطويق قوات جيش الإنقاذ، ورسمت لذلك مخططاً أسمته " ديكل "، وكان يرمي إلى تحقيق الأهداف التالية:

1) مهاجمة قواعد جيش الإنقاذ.

2) شل خطوط المواصلات.

3) إحتلال مواقع دفاعية هامة لإحباط أي عملية هجومية تقوم بها قوات جيش الإنقاذ.

4) إنشاء خط دفاعي قوي.

وتنفيذاً لمخطط " ديكل " تم تعيين حاييم لاسكوف لقيادة عملية احتلال الناصرة. وكانت قواته تتألف من كتيبة واحدة من لواء " كرملي " وثلاث كتائب من اللواء السابع، واحدة منها مدرعة. مقابل ذلك كانت القوات العربية المكلّفة الدفاع عن الناصرة مكوّنة من سرية مشاة تعاونها قوة من الشرطة الفلسطينية العربية عدد أفرادها 175 شرطياً، وحرس من أهل الناصرة المسلحين عددهم نحو 200 مجاهد، إلى جانب 150 مجاهداً تابعين للهيئة العربية العليا ومسلحين بعدد من الرشاشات والبنادق المضادّة للدروع تولّوا الدفاع عن القسم الغربي من المدينة. وكان في صفورية التي تبعد مسافة 5 كلم تقريباً إلى شمال الناصرة قوة من المجاهدين المحليين عدد أفرادها مائة مقاتل تقريباً، وكانت مرتبطة بالهيئة العربية العليا. كما كان لجيش الإنقاذ في قرية شفا عمرو فصيل واحد من ثلاثين مقاتلاً تقريباً من فوج حطين يساعده 120 مسلّحاً من أبناء القرية. وعلى أساس هذه الترتيبات كانت حامية الناصرة قوية بالمقارنة إلى الحاميات في المواقع الأخرى.

وقد حفرت الخنادق وأقيمت التحصينات وزرعت الألغام في بعض المناطق، ووضع قائد جبهة المنطقة خطة الدفاع عن الناصرة وفقا لتوجيهات القيادة وبالاتفاق مع القادة المحليين.

وفي 9 / 7 / 1948 استولت قوات العدو الصهيوني على مخفر أمامي يبعد مسافة 5 كلم تقريباً عن الطريق الساحلي فسيطرت بذلك على طريق موا ز عند أسفل التلال. وفي 11 تموز استولت قوات العدو على عدد من القرى العربية، فاستقر خط دفاعها على مسافة متقدمة نحو الشرق. وفي هذا الوقت قامت قوات جيش الإنقاذ بشن هجوم مضاد باتجاه نهاريا وعكا. وعندما ظهر بوضوح أن القوات اللبنانية لن تقوم بشن هجوم ركّز حاييم لاسكوف هجومه باتجاه قرية شفا عمرو، وهي الباب المؤدي إلى الناصرة، فسقطت في صباح 14 تموز. وخطط لاسكوف للاندفاع نحو الناصرة في محاولة لمهاجمة المدينة قبل أن يتضح الموقف لقائد جيش الإنقاذ فوزي القاوقجي فيقوم بدعم حاميتها. وفي الوقت ذاته وصلت قوة صغيرة من لواء " غولاني " إلى مستعمرة كفار هحورش لإيهام القاوقجي أن هجوماً وشيكاً سيتم على الناصرة من جهة الجنوب.

غادرت قوة لاسكوف الرئيسة شفا عمرو مع آخر ضوء من نهار 15 تموز فوصلت إلى صفورية في الساعة 6,15 من يوم 16 / 7 / 1948 وبدأت معركتها. ووصلت في الساعة 9,25 من يوم 16 / 7 برقية إلى مقر القاوقجي تستنجد به، فأصدر أوامره فوراً بسحب سرية حطين والسرية اليمنية والسرية البدوية مع مصفحاتها من جهة الشجرة، وتوجيهها بقيادة رئيس أركان الجبهة إلى الناصرة للحيلولة دون سقوطها. إلا أن القاوقجي تسلم من قائد قوة الإنقاذ في الناصرة برقية في الساعة 11,30 جاء فيها " الحالة خطيرة، توجد حركة يهودية من جهة طبرية ربما تكون استعداداً للتقدم نحو المغار. أرسلوا قوة للمحافظة على المغار التي تقع خلفنا ". وكان سقوط المغار بيد القوات الصهيونية يعني شطر جيش الإنقاذ المنهمك بالقتال في جبهة الشجرة والناصرة إلى شطرين وإمكان تدميرهما. وعلى الرغم من ضعف موقف جيش الإنقاذ فقد تمّ سحب سرية من ترشيحا التي كانت تدور فيها معركة حامية وأرسلت إلى المغار فالناصرة واشتبكت مع الدبابات الإسرائيلية على طريق الناصرة.

ووصلت على أثر ذلك برقية إلى قيادة جيش الإنقاذ جاء فيها: " صُدَّ الهجوم، غير أن العدو يبدي مقاومة شديدة، موقفنا جيد. سنقوم بهجوم بباقي القوى. فوج الحسين والسرية اليمنية على جناح العدو الأيمن، والسرية البدوية – سرية سعدون – على الجناح الأيسر. سنوافيكم بالنتيجة ". إلا أن هذه النتيجة لم تتأخر. ففي الساعة 16،30 من يوم 15 / 7 / 1948 أقامت قوات المشاة الصهيونية مواقع على جانبي الأرض المرتفعة المسيطرة على الطريق الرئيس القادم من الشمال الغربي إلى الناصرة. وفي الساعة 17،15 قام الإسرائيليون بهجوم مضاد فدمروا مصفحات جيش الإنقاذ، ولم يتمكن رجال المصفحات، بالرغم من البسالة التي أبدوها، من مجابهة الدبابات الثقيلة، ولكن لم يحاول أحد منهم أن يترك مكانه.

فشل الهجوم الإسرائيلي بعد أن تمّ توفير الدعم، واستمرت القوات العربية في الدفاع عن الناصرة. إلا أنها أخذت تضعف تحت وطأة التفوّق الساحق للقوات المعادية. وفي الساعة 17،40 دخلت طليعة القوات الصهيونية المدينة من الجهتين الغربية والجنوبية وأصبحت القوات المدافعة هدفاً لنيران كثيفة فأخذت في الانسحاب وهي ممزقة، ولم يسلم من الجرحى إلا عدد قليل. وسقطت الناصرة في الساعة 18،15 بعد تسعة أيام من الصراع والمعارك المستمرة.

المراجع

1 – خيرية قاسمية (إعداد): مذكرات فوزي القاوقجي. بيروت 1975.

2 – صبحي الجابي (ترجمة): الحروب العربية الإسرائيلية. دمشق 1975.

3 – الموسوعة الفلسطينية: الجزء الرابع، ص: 444 – 445. إشراف د. أنيس صايغ. الطبعة الأولى، دمشق 1984.

معركة مستعمرة بني يعقوب

(18 / 4 / 1948)

كان لهذه المستعمرة دور كبير في قطع مواصلات العرب بين القدس ورام الله، ففي 18 نيسان / ابريل 1948، جرت أخطر فعاليات حرس هذه المستعمرة، فقد أطلقوا النار على عدد من السيارات العربية، وقتلوا وجرحوا عدداً من ركابها. وكان بين الشهداء أحد الرجال وهو المناضل أبو أحمد العجّولي الذي كان عائداً إلى القدس من إجازة قصيرة في قريته عجّول. وكان من بين الجرحى المناضل المعروف صالح الريماوي الذي أصيب بشلل دائم. وبسبب هذه الهجمات توقف عدد من السيارات المدنيّة المتجهة من رام الله إلى القدس عند أطراف رام الله. وصدف أن مرت مدرعتان تابعتان للجيش العربي الأردني متجهتان إلى القدس، فتبعتهما السيارات المدنية محتمية بهما، وعندما وصلت هذه القافلة إلى مستعمرة نبي يعقوب أطلق اليهود عليها النار، فردّ جنود الجيش العربي عليهم بالمثل. وحاولت أحدى المدرعتين دخول بوابة المستعمرة فضُربت وتعطلت، فتوجهت المدرعة الثانية إلى قرية بيت حنينا القريبة جداً من الموقع، وطلب جنودها من مسلحي القرية مرافقتهم للهجوم على المستعمرة.

جرى ذلك كله، ونحن في القدس لا نعلم شيئاً عما كان يجري. – كما قال بهجت أبو غربيّة – ونحو الساعة الرابعة بعد الظهر أطلقت النار في الهواء في عدة نواحٍ من الأحياء العربية في القدس. ولما سألنا عن السبب قيل إن النار تطلق ابتهاجاً باحتلال العرب مستعمرة نبي يعقوب، ولم ندرِ ما إذا كان الخبر صحيحاً أم لا. وبعد فترة قصيرة اتصل بي الأستاذ أنور نسيْبه سكرتير اللجنة القومية لمدينة القدس، وقال لي إن العرب احتلوا مستعمرة نبي يعقوب ونخشى أن يعود اليهود أو أن يعيدهم الجيش البريطاني إليها. ولذلك أعتمد عليك في التوجه إلى المستعمرة لنسف جميع أبنيتها. فوافقت وذهبت فوراً إلى مستودع فرقة التدمير في القدس القديمة، وحمّلت سيارة شاحنة بنحو مئة لغم زنة كل واحد 40 كيلو غراماً. وبعد الغروب توجهت مع عدد من رجالي بسيارة أخرى تتقدم

الشاحنة متجهين إلى المستعمرة.

كان علينا أن نسير سيراً بطيئاً خوفاً من المفاجآت، أو حدوث انفجار في الألغام. ولم نكد نصل حي باب الساهرة مارّين من منطقة مكشوفة لمستشفى هداسا حتى أطلقت نيران الرشاشات على السيارة المتقدمة، ولبعد المسافة مررنا بسلام. ولما اجتزنا حي الشيخ جراح، وكنا هنا أقرب بكثير لمستشفى هداسا، أطلقت علينا نيران الرشاشات، ففررنا من السيارتين بعد إطفاء أنوارهما، وابتعدنا وانتظرنا إلى أن توقف إطلاق النار واستأنفنا سيرنا مطفئين الأنوار إلى أن وصلنا قرية شعفاط، وبذلك أصبحنا على بعد كيلو متر واحد من الهدف. توقفنا في شعفاط لكي نقوم بالاستطلاع، ولما سألنا بعض أهالي القرية عما جرى في نبي يعقوب لم يؤكدوا لنا خبر احتلالها، وتبين أنهم لا يعلمون ما الذي جرى. فاصطحبت أربعة من رجالي وتقدمنا إلى المستعمرة سيراً على الأقدام، ولما اصبحنا على بعد نحو مئة متر من بوابتها، شاهدنا وجود حراسات، وأنوار تتخاطب بالضوء مع أحياء القدس اليهودية، فواصلنا سيرنا حتى وصلنا مصنعاً للمسامير على طريق رام الله يبعد عن المستعمرة نحو الكيلو متر إلى الشمال، وسألنا من في المصنع فلم يؤكدوا لنا خبر احتلال المستعمرة. فعدنا أدارجنا إلى المستعمرة وتسللنا حتى اقتربنا جداً من مدخلها، فشاهدت مدرعات للجيش البريطاني تحرس المدخل، وبرج الحراسة الرئيسي فيه حرس من اليهود. فعدت إلى شعفاط فالقدس، وثبت لي أن الجيش البريطاني تدخل وأبعد العرب عن المستعمرة التي لم تسقط كما أشيع، وظل الجيش البريطاني يحرسها.

المرجع

* – مذكرات المناضل بهجت أبو غربية 1916 – 1949. " في خضم النضال العربي الفلسطيني ". مؤسسة الدراسات الفلسطينية. بيروت. الطبعة الأولى، كانون الثاني 1993 – (ص: 229 – 230).

معركة النبي يوشع

النبي يوشع قرية عربية صغيرة من أعمال صفد قريبة من الحدود اللبنانية. وفي جوارها مركز شرطة كبير قائم على مرتفع يشرف على وادي الحولة من الغرب وعلى الطريق العام الوحيد في ذلك الوادي. وأما من الشمال فالمركز يشرف على وادٍ انهدامي عميق، وعلى الطريق المتجهة إلى مرتفعات الجليل وجبل عامل في لبنان. ولهذا فقد كان له أهمية عسكرية خاصة.

انسحب الجيش البريطاني من مركز شرطة النبي يوشع في 15 / 4 / 1948 فاصطرع العرب والصهيونيون على احتلاله. واستطاعت قوة من جيش الإنقاذ مؤلفة من 20 مناضلاً بقيادة الملازم شفيق عبيسي (سوري) أن تستقرّ في المركز وتردّ عنه الصهيونيين. غير أن القوات الصهيونية عادت تهاجم المركز بغية احتلاله وحدثت معركة ليلة 19 نيسان بين قوة من جيش الإنقاذ وقوة صهيونية قدمت من مستعمرة الهراوي القريبة من المركز. وقد ارتدّت القوة الصهيونية بعد أن خلّفت وراءها عدداً من القتلى وكمية من الأسلحة والذخائر.

وفي ليلة 13 / 5 / 1948 هاجمت المركز سرية من البالماخ، واستطاع المناضلون ردّ السرية على أعقابها وقتلوا عشرة من رجالها. وعادت البالماخ إلى الهجوم ثانية على المركز ليلة 15 أيار بعد أن عززت قواتها. وصمدت قوة جيش الإنقاذ بالرغم من قلة عدد رجالها. وصعد الملازم عبيسي أثناء المعركة إلى أعلى البناء ليشعل شهباً نارياً طلباً للنجدة من القوات العربية المتمركزة في قريتي المالكية وقَدَس فاستشهد أثناء ذلك.

قررت قيادة فوج اليرموك – وكان المركز يدخل في نطاق عملها – إخلاءه لأنها لا تملك قوات كافية للدفاع عنه. وهكذا انسحبت القوة العربية من المركز صباح 15 أيار بعد أن شاغلت مدفعية جيش الإنقاذ مستعمرة الهراوي لتغطي انسحابها. ودخلت القوات الصهيونية المركز يوم 17 / 5 / 1948.

المراجع

1 – محمد فائز القصري: حرب فلسطين 1948، دمشق 1962.

2 – الموسوعة الفلسطينية: الجزء الرابع، ص: 454. إشراف د. أنيس صايغ. الطبعة الأولى، دمشق 1984.

معركـة نـهـاونــد

تعتبر معركة نهاوند من المعارك الفاصلة في التاريخ العربي، ففيها انتصر العرب على الفرس في عقر دارهم، وتحطمت بقايا الامبراطورية الفارسية التي انهارت بعد أن استولى على عاصمتها " المدائن "، سعد بن أبي وقاص، وأخذت تحاول الدفاع عن فارس بما تبقىّ من جيشها الخائر المنهزم. إلا أن عمر بن الخطاب لم يمهلها لتجمع شتاتها، إذ ما كاد يسمع بتحركات " يزدجرد " في إيران، ومحاولته إعادة تنظيم جيوشه لاستعادة العراق، حتى غيّر فكره وقرر اقتحام إيران، فسيّر إليها الجيوش من الجنوب والشمال فانتصرت في كل مكان. وكان من أروعها، انتصار نهاوند.

الأحداث التي سبقت المعركة: فتح الأهواز.

بعد انتهاء معركة القادسيّة هرب " الهرمزان " إلى الأهواز، كما انسحب " يزدجرد " إلى حلوان ومنها إلى " الريّ ". وأخذا يعدان العدّة لاسترجاع أرض العراق. أما العرب فكانت سياسة الخليفة عمر ان يقف الفتح عند حدوَد الشام والعراق ولا يتعدّاها إلى بلاد الفرس والروم، لأنه كان يفكر في جمع العرب تحت علم واحد، ضمن دولة قوية، تضم العراق وسورية ومصر والجزيرة العربية. وتنفيذاً لهذه السياسة سيّر عمرو بن العاص لفتح مصر، وأقام بعض المراكز العسكرية في العراق والشام. فأنشأ الكوفة والبصرة في العراق.

وأمر سعد بن أبي وقّاص الانتقال من المدائن إلى الكوفة وولاّه عليها، كما ولّى " عتبة بن غزوان " على البصرة. وقد تمكن عتبة من إخضاع الأهواز إلى سلطان العرب بعد قتال عنيف مع الجند الذين تمكن الهرمزان من جمعهم. ولما تكاثر الإمداد إلى الهرمزان خشي عتبة عاقبة توغله الزائد في الأهواز، لذلك وافق على الصلح الذي طلبه الهرمزان، فترك له الأهوز كلها عدا " نهر تيري " و " منادر " وما استولى عليه من " سوق الأهواز " والمسالح الكائنة على نهر تيري ومنادر.

لقد نقض الهرمزان الاتفاق ونشب القتال مجدّدا، انهزم بنتيجته الفرس إلى " رام هرمز ". واستولة القائد العربي " حرقوص بن زهير السعدي " على سوق الأهواز وأقام بها.

مات عتبة وتولّى المغيرة بن شعبة ولاية البصرة فانتهز عجم الأهواز الفرصة وأعلنوا الثورة، فخرج إليهم المغيرة وتغلب عليهم، إلا أنه لم يستمر بالتقدم تنفيذاً لأمر الخليفة الذي لا يرغب في التوغل في أرض فارس.

عزل المغيرة من ولاية البصرة وتولاها أبو موسى الأشعري، فعاد أهل الأهواز ونقضوا عهدهم وامتنعوا عن دفع الجزية، لذلك جمع أبو موسى قواته ودفعها إلى الأهواز لفتحها.

جمع " يزدجرد " جيشا كبيرا من المدن والأقاليم التابعة له وطلب إلى الهرمزان مشاغلة العرب ليحين اكمال استعداد هذا الجيش، ثم يتفقا سويّة لطرد العرب واسترداد ما فقدوه من أرض العراق والأهواز. ولما وصلت هذه الأنباء إلى عمر قدّر خطورة الجيش الذي يحشده يزدجرد على مصير الدولة التي شادها، لذلك قرر أن يغزو فارس قبل أن يلتقي جيشا يزدجرد والهرمزان، فيصبح أمر القضاء عليهما وهما مجتمعان صعباً. لذلك كتب إلى سعد أن يجهّز جيشاً يسلّم قيادته إلى " النعمان بن مقرن " ويرسله إلى الأهواز لتدمير جيش الهرمزان، كما طلب إلى عامله على البصرة " أبو موسى " تجهيز جيش آخر بقيادة " سهيل بن عدي " ليتحرك بعد النعمان لمعاونته، على أن يتولى قيادة الجيشين عند اجتماعهما " أبو سبرة بن أبي رهم ".

معركة تستر:

سار النعمان مجتازا أرض الأهواز باتجاه " رام هرمز "، مقر الهرمزان، وحال وصول أخبار اجتيازه أرض الأهواز إلى الهرمزان خرج بحيشه إلى " اربك " ينتظر النعمان فيها.

وبعد قتال عنيف في " اربك " انسحب الفرس إلى رام هرمز ثم تركوها إلى " تستر " عاصمة الأهواز في ذلك الوقت، وهي تقع على نهر الكارون شمالي مدينة الأهواز. تقدم النعمان واستولى على رام هرمز واستمر بتقدمه نحو " تستر ". وتقدم سهيل

بن عدي بعد النعمان، ولما وصل سوق الأهواز علم باستيلاء النعمان على رام هرمز، لذلك غيّر اتجاهه وتوجه نحو تستر مباشرة والتحق فيها بجيش النعمان ودخلا تحت قيادة " أبو سبرة " القائد العام.

حمل " أبو سبرة " على أسوار المدينة أملاً في تخطّيها، فصمد له الفرس، فأعاد الكرّة مرات عديدة، والمدينة صامدة. فرأى أنه لا يستطيع فتحها ما لم تصله نجدات جديدة، فكتب إلى الخليفة يشرح له الحال. فأمر عمر أبا موسى أن يسير بجيش كبير إلى تستر على أن يدخل حال وصوله تحت قيادة أبي سبرة.

وصل أبو موسى فاشتد القتال، وكان الفرس يخرجون من أسوار المدينة ويغيرون على العرب فتحتدم المعركة بين الطرفين، ثم يعودون إلى حصونهم. ولما طال الأمر أمر الخليفة عمار بن ياسر الذي تولى ولاية الكوفة نيابة عن سعد، أن يسير بجيش من الكوفة مداداً لأبي سبرة على أن يترك عبد الله بن مسعود على إمارة الكوفة.

وصل جيش عمار، والمدينة لا تزال صامدة، ولما طالت الحرب ضعفت معنويات بعض أهاليها، فخرج أحدهم واتصل بالعرب سرّاً وأخبرهم بوجود منفذ يمكن أن ينفذوا منه إلى داخل المدينة. وكان هذا المنفذ مدخل الماء إلى المدينة.

وجّه العرب أحد قادتهم " أشرس بن عوف الشيباني " يصحبه الدليل الفارسي ليستطلع المنفذ ويتأكد من صدق روايته.

تبع أشرس الفارسي فخاض به النهر ودخل معه المدينة من نفق بجانب مدخل الماء، وسار متنكراً بطرقاتها، وأراه نقاط الضعف فيها، وأبوابها، ولما عاد وأخبر القادة بما رأى قرّ رأيهم على مهاجمة المدينة، من هذا المنفذ، مستغلّين ظلام الليل.

انتدب القائد العربي أربعين رجلاً مع " أشرس " يتبعهم 200 جندي، فدخلوا المدينة وقتلوا الحرس وفتحوا الأبواب، فدخل الجيش منها.

لجأ الهرمزان إلى قصره، واستسلم جيشه بعد قتال مرير، ولما تقدم المسلمون إلى قصره اضطر إلى الاستسلام مشترطاً أخذه إلى الخليفة في المدينة، فأجيب إلى طلبه وسير به إلى عمر حيث أعلن إسلامه هناك، ولبث فيها حتى قتله عبد الله بن عمر لاعتقاده بأن له يداً في تحريض أبي لؤلؤة على قتل والده.

بعد احتلال " تستر " توجه العرب فاحتلّوا " سوس " بعد حصار استمر حتى نفذ ما فيها من طعام وماء. ثم تقدموا إلى " جند يسابور " واستولوا عليها. وهكذا دانت لهم الأهواز بأجمعها. ولم يستطع " يزدجرد " نجدتها.

معركة نهاوند
(19 هـ - 640 م)

بعد أن تمّ للعرب النصر في الأهواز استاء أمراء فارس فاجتمع عدد كبير منهم وقرروا أن يلتفّوا حول عرش " يزدجرد " ويدفعوه لقيادتهم حتى النصر. أخذ يزدجرد يرسل الرسائل إلى جميع مدن إيران وأقاليمها يشجّع أهلها على القتال والتطوع في الجيش الذي أخذ يتحشد في نهاوند حتى بلغ عدده 150 ألف مقاتل بقيادة " الفيروزان " فجمع هذا أمراء الجند وقال لهم:

" إن محمداً الذي جاء للعرب بهذا الدين لم يتعرّض لبلادنا، وقام أبو بكر من بعده ولم يتعرض لنا في دار ملكنا، ولم يثر بنا إلا فيما يلي بلاد العرب من السواد، وهذا عمر بن الخطاب لما طال ملكه، انتهك حرمتنا وأخذ بلادنا، ولم يكفه ذلك حتى غزانا في عقر دارنا، فأخذ بيت المملكة وانتقصكم السواد والأهواز، وهو آتيكم إن لم تأتوه، وليس بمنتهٍ حتى تخرجوا من في بلادكم من جنده وتقلعوا هذين المصريْن، البصرة والكوفة، ثم تشغلوه في بلاده وقراره ".

نبّه الأحنف بن قيس عمر بن الخطاب إلى خطر تحشّد الجيوش الفارسية وعزمها على استعادة الأهواز وإعادة احتلال العراق، وذلك عند وصوله إلى المدينة في صحبة الهرمزان، إذ قال له عندما كان عمر يحاسب الهرمزان عن سبب غدره المعهود وانتفاضه على العرب من حين لآخر:

" يا أمير المؤمنين أخبرك أنك نهيتنا عن الانسياح في البلاد، وأمرتنا الاقتصار على ما في أيدينا. إن ملك فارس حيّ، بين، ظهير، وإنهم لا يزالون يظاهروننا ما دام ملكهم فيهم. فلم يجتمع ملكان فاتفقا حتى يخرج أحدهما صاحبه. ورأيت أننا لم نأخذ شيئا

بعد شيء إلا بانبعاثهم وغدرهم. وملكهم هو الذي يحرضهم ويبعثهم. ولم يزل دأبهم حتى تأذن لنا بالانسياح، فنسيح في بلادهم ونزيل ملكهم ونخرجه من مملكته وعزامته. هناك ينقطع أهل فارس ويسكن جأشهم ".

قرر عمر القضاء على دولة الفرس قضاء مبرماً؛ لذلك جمع كبار الصحابة والقادة وشاورهم بالأمر، فاتفق الجميع على ضرورة اقتحام فارس حتى تلين وتدين بأجمعها للعرب. فقال لهم عمر: " أشيروا علي برجل أولِهِ أمر هذه الحرب وليكن عراقياً ".

فقالو له إنك أفضل رأياً وأبصر بجندك. فقال أما والله لأولينّ أمرهم رجلاً يكون أول الأسنّة إذا لقيها غدا، " النعمان بن مقرن ". فأقره المجتمعون على حسن اختياره.

كان النعمان من القادة الأفذاذ، فقد انتدبه أبو بكر لقتال من امتنعوا عن الزكاة فهزمهم بذي القصة. وكان أحد قواد خالد بن الوليد والمثنى بن حارثة أيام الفتح الأولى في العراق، ثم كان من أبطال القادسية الكبار. وقد ترأس الوفد العربي لمفاوضة يزدجرد، وشارك في فتح الأهواز. وهو يمتاز بالرجولة والشجاعة والكفاءة والإقدام، وقد اكتسب خبرة وتجربة نتيجة مشاركته في الحروب السابقة التي خاضها وتولى فيها قيادة الكتائب والفرق والجيوش.

وبعد هذا القرار أرسل عمر إلى النعمان أمر التعيين التالي:

" بسم الله الرحمن الرحيم. من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى النعمان بن مقرن. سلام عليك: فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو. أما بعد فإنه قد بلغني أن جموعاً من الأعاجم كثيرة قد تجمعوا لكم بمدينة نهاوند. فإذا أتاك كتابي هذا فسرْ باسم الله وبعونه وبنصر الله بمن معك من المسلمين، ولا توطئهم وعراً فتؤذيهم، ولا تمنعهم حقهم فتكفرهم، ولا تدخلهم غيضة، فان رجلا من المسلمين أحبّ إليّ من مئة ألف دينار. فسرْ في وجهك هذا حتى تأتي " ماه " فاني كتبت إلى أهل الكوفة أن يوافوك إليها. فإذا اجتمع لك جندك فسر إلى الفيروزان ومن جمع معه من الأعاجم من أهل فارس وغيرهم. والسلام عليك ".

ثم كتب إلى " عبد الله بن عتبان " الذي تعيّن واليا على الكوفة يطلب إليه تجهيز

جيش يُلحقه بالنعمان في " ماه ". وأمر أن يقود هذا الجيش " حذيفة بن اليمان " على أن يكون بأمرة النعمان حال وصوله " ماه ". كما كتب إلى النعمان أيضاً بأنه إذا تعرض لحادث فان حذيفة سيكون قائداً بعده، وإن تعرض حذيفة لحادث يتولى القيادة بعده " نعيم بن مقرن ". ثم كتب إلى أبي موسى الأشعري والي البصرة، أن يسير بجيش قوي الى " ماه " ويصبح هناك بأمرة النعمان أيضاً.

وطلب إلى قادته في الأهواز " سلمى بن الفين " و " حرملة بن رابعة " والباقين أن يشاغلوا الفرس هناك ويمنعوهم من إرسال النجدات إلى نهاوند من إقليم فارس.

ترك النعمان الأهواز وحثّ السير معقبا وادي دجلة ثم وادي ديالي حتى وصل " ماه " فوجد الجيوش قد سبقته إليها. وكان فيها من أبطال القادسية القعقاع بن عمرو، وعمرو بن معدي كرب، وطليحة بن خويلد، وغيرهم كثيرون. وبلغ عدد قواته التي حشدها 30 ألف جندي.

التقدم إلى نهاوند:

تحرك الجيش إلى حلوان وفيها انتخب النعمان طريق حلوان – كرند – كنكلوار – نهاوند. وقد سبقته مفرزة للتجسس واستطلاع الطريق وجمع المعلومات عن العدو، والتأكد من خلوّ الطريق من الكمائن. وكانت المفرزة مؤلفة من طليحة الأسدي وعمرو بن معدي كرب وعمر بن أبي سلمى.

بعد مسيرة يوم واحد رجع عمر بن أبي سلمى وأخبره بخلو الطريق من الأعداء. وفي اليوم الثاني رجع عمرو بن معدي كرب مؤكدا خلو الطريق أيضاً. واستمر طليحة حتى وصل نهاوند واستطلعها وتجسس أخبارها وعاد مخبراً النعمان بالمعلومات التي جمعها.

قرر النعمان التقدم ففتح قواته بتشكيل المعركة كما يلي:

المقدمة بقيادة نعيم بن مقرن.

المجنبتين بقيادة حذيفة بن اليمان وسويد بن مقرن.

المجردة بقيادة القعقاع بن عمرو.

الساقة بقيادة مجاشع.

موقف الفرس:

اجتمعت في نهاوند القوات التالية:

من الفرس والفهلوج 30 ألف مقاتل، ومن خراسان 60 ألف مقاتل، ومن سجستان 60 ألف مقاتل.

عرف الفيروزان أنباء تقدم العرب منذ غادروا حلوان بواسطة جواسيسه، وقرر قبول المعركة في أرض نهاوند منتظرا وصولهم إليها، مستفيداً من حصونها وبروجها، وكانت غايته جذب العرب إلى المنطقة الجبلية الوعرة التي لم يألفوا القتال فيها، فيتكبدوا مشاق السير على طول الطريق الوعره فيصلوا واهني القوة، خائري المعنويات، بعيدين عن قواعدهم ومراكز إمدادهم وتموينهم. وربما كانت هذه الخطة حسنة لو لم يقبع الجيش الفارسي وراء أسوار المدينة مفضّلا موقف الدفاع. وكان الموقف يقضي على القائد الفارسي أن يعدّ عددا كبيرا من الكمائن في طريق تقدم العرب ليزيد مصاعبهم، ويؤخّر تقدمهم، ويكبّدهم بعض الخسائر، كما يقضي أن يخرج من حصونه حال وصولهم ويباغتهم بهجوم عام قبل أن يستقروا ويستريحوا.

وصل الجيش العربي قرب نهاوند وعسكر فيها، فطلب الفيروزان إليهم أن يرسلوا أحد قادتهم للمفاوضة. أرسل النعمان إليه " المغيرة بن شعبة " فهدده الفيروزان وأنذره بالرجوع من حيث أتوا وإلا سيكون مصيرهم الدمار.

فكان جواب المغيرة: " والله ما زلنا منذ جاءنا رسول الله نتعرف من ربنا الفتح والنصر حتى أتيناكم. وإنا والله لا نرجع إلى ذلك الشقاء أبداً حتى نغلبكم على ما بأيديكم أو نقتل بأرضكم ".

عاد المغيرة فأخبر النعمان بما جرى بينه وبين الفيروزان، فقرر محاصرة المدينة.

وصف أرض نهاوند:

تقع نهاوند في منطقة تكثر فيها المراعي والبساتين والجداول، يحيطها سور منيع، وفي وسطها حصن متين البنيان، قوي الجدران يحمي أسوارها. ولقد حفر الفرس حولها خندقاً عريضاً ولغموا الأرض حولها بحسك الحديد. (وهي قضبان حديدية تتألف من أربعة أذرع توضع على الأرض لتعرقل تقدم الفرسان والمشاة).

خطة العرب:

ضرب النعمان الحصار على المدينة، وكان الفرس خلال ذلك لا يخرجون من حصونهم إلا نادراً وبجماعات صغيرة غرضها الإغارة السريعة وجمع المعلومات. وكانت خيل العرب كلما اقتربت من الحصون اصطدمت بحسك الحديد حيث لا تقوى على اجتيازها. وكان الفرس يرمونهم بالنبل من فوق أسوارهم.

لما رأى النعمان ذلك خشي أن يطول الحصار دون نتيجة، فجمع أولي الرأي وكبار قادته في مؤتمر لمناقشة الموضوع، فأشار عليه عمرو بن معدي كرب بمواصلة الغارة على حصون المدينة ومقاتلة كل من يخرج منها، فلم يعجب هذا الرأي الحاضرين، حيث قالوا إنهم سيلزمون حصونهم التي ستكون لهم عوناً علينا. وبعد نقاش طويل إقترح طليحة بن خويلد الأسدي الخطة التالية:

تجهيز كتيبة من الفرسان بكامل سلاحها وترسل لمهاجمة الحصون وعليها استخدام النشاب وتتظاهر بأنها عازمة على اقتحام الأسوار ليغضبوا الفرس ويستفزوهم للخروج من الحصن للمناجزة بالسيوف. فإذا ما خرجوا، على الكتيبة أن تتظاهر بالهزيمة وتتراجع متقهقرة إلى الخلف حتى تبعدهم عن الحصن وتشجع الآخرين على الخروج أيضاً، وإذا ما ابتعدوا عن الحصن كثيراً تتوقف الكتيبة عن تقهقرها وتثبت أمامهم، وعند ذاك يلتحم بهم الجيش بكامله وتكون المعركة الفاصلة.

وافق الجميع على هذه الخطة، فأمر النعمان المجردة التي كان يقودها القعقاع بن عمرو بمهاجمة الحصن في اليوم التالي وتنفيذ الخطة المتفق عليها بحذافيرها، ثم هيأ القسم الأكبر من جيشه للقضاء على القوة التي سيستدرجها القعقاع.

المعركة:

تقدم القعقاع، ورمى المدينة بالنبل، وأظهر العزم على اقتحام الأسوار، وأبدى من ضروب البأس مما جعل الفرس يخرجون إليه بحذر لصدّ هجومه، وقتل المسلمون كل من خرج إليهم، فأثار ذلك غضب الفرس، فأرسلوا فرقة إلى خارج الأسوار واجبها القضاء على الكتيبة العربية القليلة العدد التي تريد اقتحام الأسوار. إجتازت الفرقة الأسوار وحسك الحديد لمقاتلة العرب. فثبت لهم القعقاع بادئ الأمر حتى لا تتكشف الخدعة، ثم أمر جنوده

بالتقهقر. فلما رأى الفرس فراره تعقّبوه.

وكانت الخطة تقضي بالتقهقر إلى ما وراء مرمى النبل من حصون المدينة. وقد تراجعت كتيبة القعقاع حتى وصلت إلى مقربة من القسم الأكبر والفرس يتبعونهم ملتزمين في بداية الأمر الحذر حيث كانت مؤخرتهم تتقدم وهي تدفع أمامها حسك الحديد تحتمي به إذا رجع العرب إليهم. ولما رأى الفرس إمعان العرب بالفرار تأكد لديهم أن الجيش العربي تخاذل أمام شدة ضرباتهم وانتهى أمره، ولا بد من مطاردته والقضاء عليه، ولا موجب بعد ذلك للحذر، فتخطوا حسك الحديد وخلفوها وراءهم وأسرعوا بالمطاردة. ثم اندفع الجيش كله من نهاوند بقيادة فيروزان حتى خلت المدينة منهم، للقضاء على الجيش العربي برمّته. ولما بَعُدَ عن المدينة واقترب من موقع القسم الأكبر العربي إنتابتهم الدهشة لما رأوا صفوف العرب تنتظرهم وقد استعدوا للمعركة. وكان اليوم يوم جمعة وقد وصل الفرس قبيل الزوال.

أصدر النعمان أوامره بالصبر حتى ترتفع الشمس إلى كبد السماء ويحلّ الزوال فيبدأ بالهجوم بعد سماع تكبيرته. ولما أصبح الفرس على بعد مرمى السهام أخذ رماتهم يصوّبونها إلى الجيش العربي، فأصيب بعض الجند، فطلب بعض القادة وعلى رأسهم المغيرة بن النعمان أن يصدر أمره بالهجوم، إلا أنه أصر على التريث حتى الزوال. وأخذ يطوف على كتائبه ويشجعهم ويحثهم على الاستبسال. وأصدر إليهم توجيهاته الأخيرة، ثم رجع إلى مركز قيادته فكبّر ثلاث تكبيرات ثم اندفع على رأس جيشه إلى صفوف الفرس، فالتحم الجيشان، وقد استمات العرب لأنهم يعرفون بأن هزيمتهم في هذا اليوم معناها ضياع الفرصة نهائياً في إخضاع فارس.

وتحدرت الشمس إلى المغيب، والقتال على أشده، وكان النعمان يجول بين الصفوف واللواء الخفاق في يده. وبينما كان يشق طريقه في قلب العدو زلق حصانه وسقط منه، فعاجله أحد علوج الفرس بسهم في خاصرته فاستشهد. فلما رآه شقيقه نعيم تقدم مسرعاً إليه وتناول العلم قبل سقوطه، وغطى جسم أخيه بثوبه وكتم أمر استشهاده عن الجيش خوفاً من أن تضعف معنوياتهم، وهم في أوج حماستهم للمعركة. ومع ذلك تقدم إلى حذيفة وقدم اللواء وأخبره بمقتل النعمان. إلا أن حذيفة طلب إليه أن يستمر بحمل

اللواء ويتولى القيادة محل أخيه وأن يستمر على كتمان استشهاده حتى انتهاء المعركة.

سار نعيم حتى وصل جثة النعمان، فأقام اللواء قربها واستمر على القتال. أقبل الليل وحمي وطيس المعركة، والعرب يدفعون العدو أمامهم، وانتشر الظلام فأصاب الفرس الفزع فقرروا العودة إلى حصونهم، إلا أنهم اصطدموا بحسك الحديد الذي تركوه خلفهم، وكان العرب لا يمهلونهم لرفع هذا الحسك، وأرادوا الانحراف إلى الجانب فتلقفهم خندق عميق أعماهم ظلام الليل من رؤيته فهووا فيه بخيولهم، فقتل عدد كبير منهم.

لما رأى الفيروزان ما حلّ بجيشه اندفع وحيداً نحو طريق همدان يريد النجاة بنفسه، إلا أن نعيماً رآه وأمر القعقاع بمطاردته، فأدركه في ثنية الجبل حيث سدت عليه الطريق قافلة من الحمير والبغال تحمل العسل، فقتله واستمر مع كتيبته يطارد فلول الفرس المنهزمين حتى بلغ همدان فحاصرها، إلا أن أميرها لما سمع بأخبار اندحار الجيش الكبير في نهاوند انهارت معنوياته واستسلم وعقد اتفاقاً مع العرب فرض فيه القعقاع الجزية على أهل المدينة على أن يضمن له الحاكم ولاء همدان و " دسبتي ".

ولما عاد القعقاع إلى نهاوند وجد الجيش العربي قد دخلها وأن حذيفة قد تسلم القيادة العامة. ويقول الطبري أن قتلى الفرس في نهاوند بلغ 100 ألف قتيل.

بعد نهاوند:

بعد انتهاء المعركة أخذ قسم من الجيش يعود إلى بلاده، وكان جيش البصرة أول العائدين، وفي طريقه حاصر أبو موسى الأشعري " الدينور " واحتلها وفرض على أهلها الجزية، ثم توجه إلى السيروان وعمل فيها ما عمله في " الدينور " ثم قفل راجعا إلى البصرة.

أخذ حذيفة الذي استقر في نهاوند يرسل المفارز إلى المدن المجاورة لها ويفرض على أهلها الجزية. ولما وصلت أنباء النصر إلى عمر في المدينة استبشر بها وقرر إتمام فتح إيران بأجمعها.، لذلك أصدر أوامره التالية:

أمر الأحنف بن قيس بالحركة لفتح خراسان، وأمر مجاشع بن مسعود السلمي بالحركة إلى أردشير وسابور، وأمر عثمان بن العاص الثقفي بالحركة إلى " إصطخر ". وأمر سارية بن زنيم الكناني بالحركة إلى " درابجرد ". وأمر سهيل بن عدي بالحركة إلى

كرمان. وأمر عاصم بن عمرو بالحركة إلى سجستان، وأمر الحكم بن عمرو التغلبي بالحركة إلى " مكران ".

موقف الفرس:

حاول يزدجرد أن يعيد تنظيم جيشه بعد انتهاء المعركة لينقذ ما تبقى من بلاده، ويصون عرشه من الإنهيار. فاستنجد بأمراء الأقاليم، فوصلته الإمدادات من أذربيجان وخراسان وفارس ومكران. وكان ينتظرها في الري ثم انتقل إلى أصفهان. ولما بلغ عمر ذلك أمر عبد الله بن عتبان حاكم الكوفة بالتقدم لفتح أصفهان على أن يستصحب معه قسماً من الجيش المرابط في نهاوند.

وتقع أصفهان في نهاية المنطقة الجبلية من جهة الجنوب، وهي مركز مواصلات هام إذ تصل إليها الطريق من مختلف مقاطعات الامبراطورية الفارسية. كما كانت مركزاً تجارياً وزراعيا هاما.

وصل عبد الله بن عتبان مع جيشه إلى مشارف المدينة، فوجد بانتظاره جيشا فارسياً كبيرا، وفيه أكبر مبارزيهم وأعظمهم " شهريار بن جاذوية ". ولما حمي وطيس المعركة، وتجندل عدد كبير من الفرس طلب هذا أن يبارزه أحد فرسان العرب، فتقدم إليه، " عبد الله بن ورقاء الرياحي " فصاوله وقتله، فاختلّت صفوف الفرس وانهارت معنوياتهم وانسحبوا إلى " جي " يحتمون بأسوارها، بينما شرع العرب يعدون الخطة لمهاجمة المدينة.

ولما علم يزدجرد باندحار جيشه ترك أصفهان هارباً إلى كرمان. أما الجيش فخرج يقاتل المهاجمين بقيادة أمير المدينة " الفاذوستان " الذي طلب مبارزة عبد الله بن عتبان، فان قتله استسلمت المدينة، وإن قتل القائد العربي رجع الجيش عنها. ولما طالت المبارزة دون أن ينتصر أحدهما إقترح الفاذوستان أن يسير مع عبد الله إلى معسكر العرب ويصالحه هناك ويسلم له المدينة، على أن يسمح لكل راغب بالسفر منها ومن يبقى يدفع الجزية، وهكذا تمّ استسلام أصفهان.

وفي هذا الوقت كان " اسفنديار الرازي " شقيق رستم يعدّ العدة في منطقة بحر قزوين لردّ العرب عن منطقة الري، ولما علمت همدان بذلك نقضت عهدها وانضمت

إليه، فزحف إليها نعيم بن مقرن من نهاوند وأخضعها. وبينما كان نعيم ومعه 12000 مقاتل في همدان، بلغه زحف " الاسفنديار " إليه من عدة جهات. فتقدمت عليه ثلاثة جيوش: جيش من الديلم بقيادة " موتا " وجيش من الري بقيادة " الزينبي " وجيش من أذربيجان بقيادة الأسفنديار نفسه.

وقد تحشدت هذه الجيوش في " واج روذ "، وكانت أخبارها تصل إلى نعيم بواسطة العيون والجواسيس. ولم تكد تصل طلائعهم إلى " واج روذ " حتى تحرك إليها ليقضي على كل جيش على انفراد. إلا أنه وصل بعد أن تجمعت الجيوش الثلاثة فيها، فاشتبك معهم في قتال عنيف وانتصر عليهم. وبعد هذا النصر تقدم نعيم إلى الري بعد أن استخلف يزيد بن قيس على همدان. وكان نصر العرب في الري حاسماً، لذلك أسرعت المدن والأقاليم القريبة تطلب الصلح واداء الجزية. فخضعت للعرب كل من جرجان وطبرستان وأذربيجان، فأصبح العرب يسيطرون سيطرة تامة على إقليم الأهواز في الجنوب وعلى معظم أقاليم الشمال، ولم يبق إلا أقليم فارس وخراسان وكرمان ومكران وسجستان.

وفي هذه الأثناء بدأت الجيوش التي أمرها عمر بالتقدم لفتح هذه الأقاليم بالحركة بعد أن أكملت استعداداتها وتحشدها. فاندفع جيش عثمان بن أبي العاص من البحرين وكان هدفه النهائي " اصطخر " عاصمة إقليم فارس فتمكن من فتحها.

واندفع جيش مجاشع بن مسعود من البصرة واستولى على سابور وأردشير، واندفع جيش سهيل بن عدي واستولى على " كرمان "، كما استولى جيش عمر التغلبي على " مكران ".

وكان يزدجرد ينتقل من إقليم إلى آخر، ولما فتح العرب مكران هرب إلى خراسان وهي كائنة جنوب شرقي بحر قزوين.

ثم تحرك عاصم بن عمرو واستولى على سجستان.

وبعد السيطرة على هذه الأقاليم، تحرك جيش الأحنف بن قيس لفتح خراسان، وكان إقليم خراسان واسعاً، أهم مدنه نيسابور ومرو وهرات وبلخ. وقد تمكن الأحنف من فتح جميع هذه المدن، ودخل " مرو " عاصمة الإقليم واستقر بها، فهرب يزدجرد إلى

خارج الحدود الإيرانية لاجئاً إلى " سمرقند " مستجيراً بخاقان الترك.

تساقطت أقاليم إيران ومدنها نتيجة الانتصار الحاسم الذي حققه العرب في معركة نهاوند بتحطيم الجيش الفارسي العظيم، فلم تستطع بعدها قوى الفرس المبعثرة حماية الأقاليم والمدن الأخرى، لذلك كانت تسمية المؤرخين لمعركة نهاوند (فتح الفتوح) أمراً واقعياً وصحيحاً.

خشي خاقان الترك من دخول العرب إلى بلاده فسار مع يزدجرد على رأس جيش إلى الحدود لحمايتها.

أما عمر فقد أمر قادته بعدم التوغل والإكتفاء بفتح أقاليم إيران، ولما رأى الخاقان توقف العرب، تشجع بتحريض يزدجرد على التقدم إلى خراسان فاحتل بعض مدنها، ثم غادرها إلى سمرقند تاركا يزدجرد في " بلخ " ينظم أمر الدفاع عنها. إلا أن ثورة داخلية قامت ضده اضطر على أثرها إلى الفرار إلى " فرغانة " عاصمة الترك ولبث فيها سنين طويلة يراسل أعوانه داخل إيران ويحثهم على الثورة حتى قتل في زمن الخليفة عثمان بن عفان. وهكذا تمّ تدمير الامبراطورية الفارسية ودانت إيران جميعها للعرب.

إن أهم ما يسترعي النظر في معارك فارس هو نجاح العرب في القتال بأرض جبلية لم يألفوها سابقا، ولم يتعودوا على مشاقها. وهذا دليل جديد على أن الجيش الذي يقاتل في سبيل عقيدة ومثل سامية لا بد أن ينال النصر مهما كانت الصعاب. لأن العقيدة ترفع المعنويات وتقوي العزائم فتدفع الجندي إلى التضحية عن طيب خاطر.

ومما يلاحظ أن تفوق الفرس الساحق لم يفدهم في أخذ المبادأة من العرب ولم يضعوا خطة هجومية لتدمير الجيش العربي قبل وصوله إلى نهاوند، بل قرروا الدفاع وراء أسوار المدينة، ويظهر أنهم كانوا يعتقدون بأن العرب سيطول بهم الحصار ويعودون حيث أتوا.

تجلت براعة القيادة العربية التي كان هدفها تدمير جيش الفرس برمته، بالخطة المثلى التي وضعتها باستدراج الجيش الفارسي وإنزال الضربة القاضية به. وكم كان غباء القيادة الفارسية التي انطلت عليها الحيلة، فتعقبت كتيبة القعقاع المتقهقرة دون خطة مرسومة، فوقعت في الشرك، وكانت مباغتتها بالقسم الأكبر الثابت في محله عاملاً حاسماً

للنصر.

والمعركة ببطولاتها الفذّة وتضحياتها الكبرى وقيادتها المؤمنة لجديرة بالدراسة في عصرنا هذا من قبل شبابنا المتوثب إلى المجد، حتى يستمد من ماضيه قوة لبناء مستقبله. وقد صحّ من قال: " من لا ماضي عنده لا حاضر أو مستقبل له ".

هذا وقد أطلق العميد الركن الدكتور ياسين سويد على معركة نهاوند " معركة العبور إلى بلاد فارس "، فضلاً عن استخلاصه لدروس عديدة منها، حدّدها كما يلي:

1 - التحشد ومنع العدو من التحشد:

لم يكتف الخليفة عمر (رضي الله عنه) بأن أمر عماله في الكوفة والبصرة، والمسلمين في الجزيرة، بالتحشد لقتال الفرس، بل أمر قادته في الأهواز وباقي بلاد فارس أن يمنعوا العدو من التحشد. فكلف " سلمي بن الفين " و " حرملة بن مريطة " و " زرين كليب " و " الأسود بن ربيعة " وسواهم أن " يقيموا على حدود ما بين فارس والأهواز " وأن يمنعوا الفرس من الانضمام الى الجيش المتحشد في نهاوند، وهكذا فقد أقام هؤلاء القادة في " تخوم أصبهان وفارس " وقطعوا الامداد عن نهاوند.

2 - تعيين القادة البدائل:

وكما فعل النبي (صلى الله عليه وسلم) يوم مؤتة (8 هـ / 629 م)، عندما أمّر على المسلمين " زيد بن حارثة "، فان أصيب " فجعفر بن أبي طالب "، فإن أصيب جعفر " فعبد الله بن رواحة ". كذلك فعل الخليفة عمر يوم نهاوند، عندما أمّر على المسلمين، فان حدث بالنعمان حدث، فعلى الناس " حذيفة بن اليمان "،فإن حدث بحذيفة حدث فعلى الناس " نعيم بن مقرّن ".

3 - الاستطلاع قبل السير للقتال:

كلف النعمان قبل السير بجيوشه نحو نهاوند، وكان على بعد بضعة وعشرين فرسخاً منها، كلا من طلحة بن خويلد، وعمرو بن أبي سلمى، وعمرو بن معدي كرب، بالتقدم نحوها، واستطلاع الطريق الموصلة إليها، ومعرفة ما إذا كان من عدو بينه وبينها. فسار الثلاثة مقدار يوم وليلة ثم عادوا ليبلغوا القائد أن " ليس بينه وبين نهاوند عدو ". فكانت هذه البعثة أشبه بما يعرف، في عصرنا الحاضر، بالطليعة أو " المفرزة

المتقدمة " (Detachement précurseur) التي تستبق أي جيش لاستطلاع الطريق له قبل تقدمه. ومع ذلك أخذ القائد العام كل الاحتياطات اللازمة عند تحركه بجيشه.

4 – عملية التضليل:

وكانت " عملية التضليل " التي نفذها المسلمون في نهاوند من أروع المناورات العسكرية التي يمكن أن ينفذها جيش في التاريخ القديم والحديث، فعندما عجز المسلمون عن اقتحام أسوار المدينة المحصنة والمحمية بالخندق المحيط بها وبالحسك الشائك، وبالرماة المهرة، وقدروا أن الحصار سوف يستمر طويلاً، دون جدوى، طالما أن لدى الفرس المحاصرين داخل الأسوار من الذخائر والمؤن ما يكفيهم للمقاومة مدة طويلة، رأوا أن يعمدوا إلى الحيلة في استدراج العدو وإخراجه من " جحوره " ومواقعه، لكي يقاتلوه خارج الأسوار. وقد تم ما قدره المسلمون تماما، فاستُدرج العدو إلى مواقع حددها المسلمون للقتال، حيث كمنوا له، ثم نازلوه في تلك المواقع جبهيا من كل جانب، ففوجئ ثم ذعر فأسقط في يده وانهزم، وليس هناك من حيلة أخرى يمكن أن يلجأ إليها أي خصم لإخراج خصمه وإخراجه، والتغلب عليه، أفضل من هذه الحيلة.

5 – إختيار ساعة الهجوم:

ومن ميزات هذه المعركة ما شهدناه من إتقان " اختيار ساعة الهجوم "، الذي نفذه النعمان في ساعات كانت " أحب إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في القتال أن يلقى فيها العدو، وذلك، عند الزوال وتفيّؤ الأفياء وهبوب الرياح "، وإذا كنا نعلم أن " ساعات الفجر الأولى " هي الساعات المفضلة للهجوم في التكتيك العسكري الحديث، فإننا نجد مبرر إختيار النعمان لساعات الزوال في معارك كثيرة، قديمة ومعاصرة، فقد قالت العجم: " أخّر الحرب ما استطعت، فان لم تجد بدّاً فاجعل ذلك آخر النهار "، ولا نستطع أن نذكر أن ساعة الصفر لبدء الهجوم في حرب تشرين العربية – الإسرائيلية عام 1973، كانت الساعة الثانية والدقيقة الخامسة عشرة (بتوقيت الشرق الأوسط)، من بعد ظهر يوم السبت الواقع 6 تشرين الأول، من العام المذكور، وذلك للجيش العربي المصري ثم للجيش العربي السوري. ولا شك في أن لهذا التوقيت حسابات يدخل فيها: موقع الشمس من كبد السماء، وانحسار الظل أو ميله، وهبوب الرياح.

المراجع

1 – الطبري " تاريخ الرسل والملوك ". طبعة دار المعارف 1962. الجزء الرابع ص 114 – 130.

2 – ابن الأثير " الكامل في التاريخ " دار صادر ودار بيروت للطباعة والنشر. بيروت 1965. الجزء الثالث. ص 5 – 14.

3 – البلاذري " فتوح البلدان " تحقيق عبد الله وانيس الطباع. دار النشر للجامعيين 1957 م – 1377 هـ. ص 428.

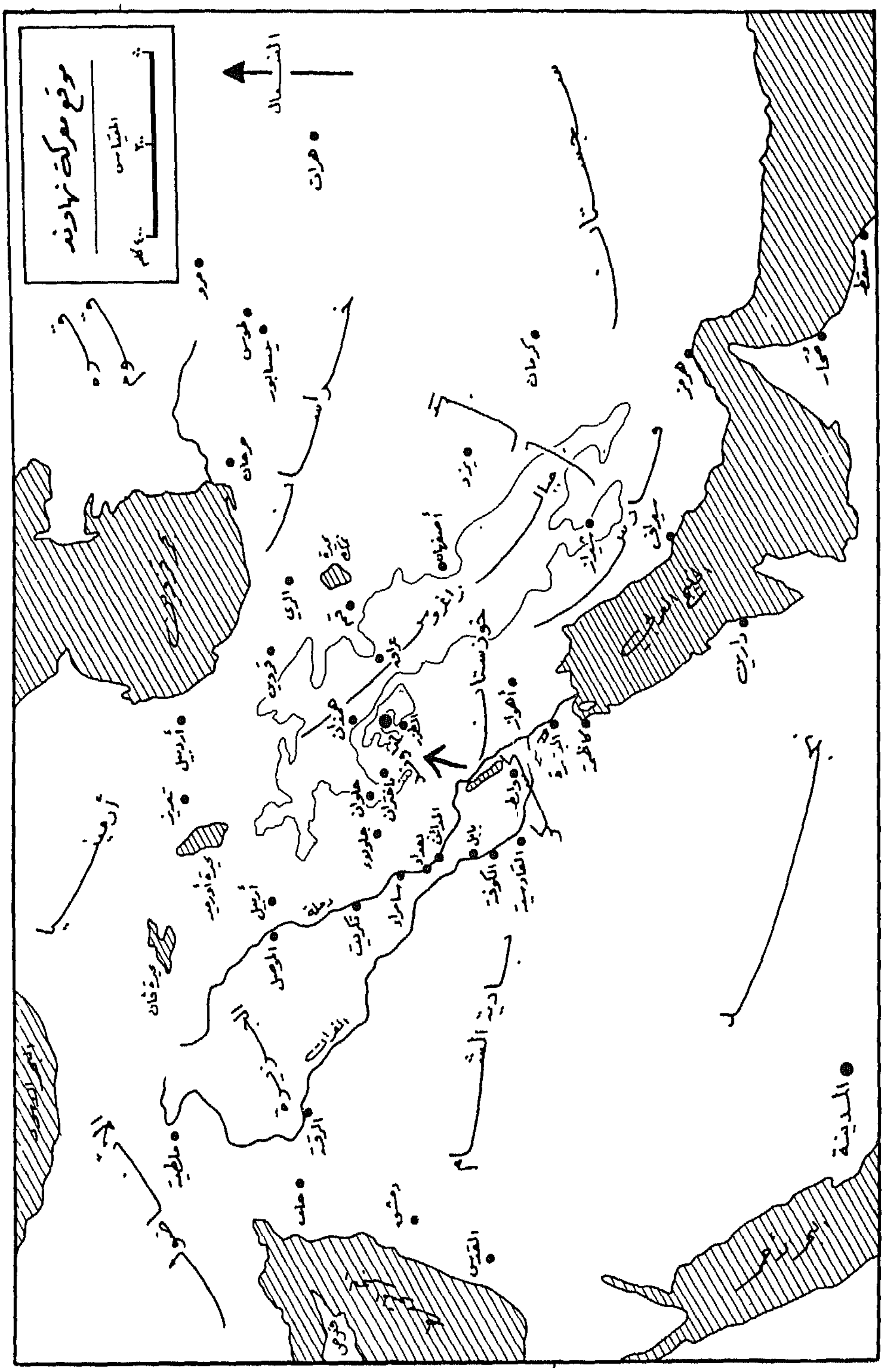
4 – ابن هشام " سيرة النبي " طبعة كتاب التحرير. القاهرة 1384 هـ. الجزء الثالث. ص 322.

5 – البخاري " صحيح البخاري " مطبعة البابي الحلبي. القاهرة 1345 هـ. الجزء الخامس. ص 182.

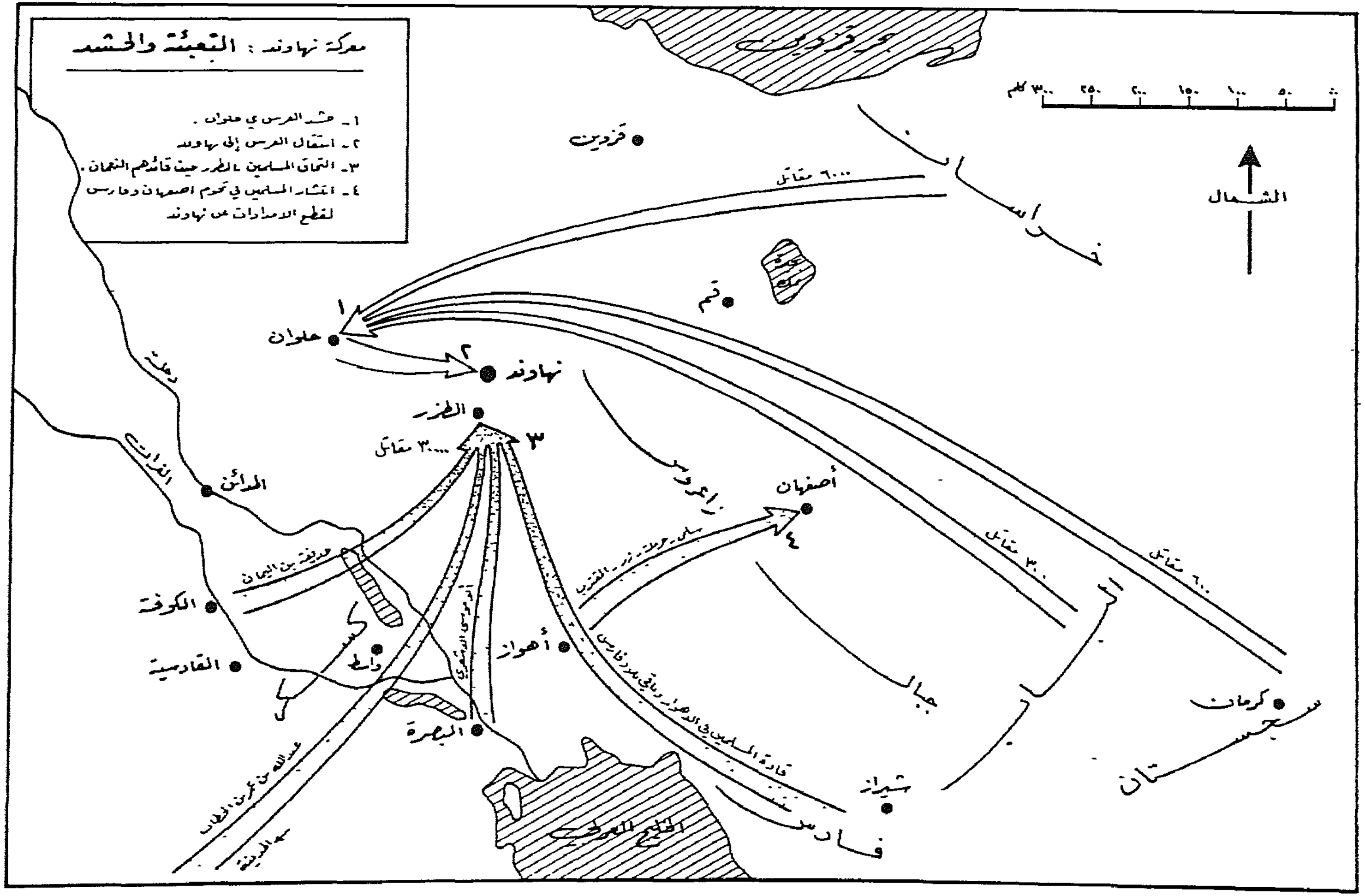
6 – الدينوري " عيون الأخبار " مطبعة دار الكتب المصرية. القاهرة 1343 هـ – 1925 م. المجلد الأول ص 22.

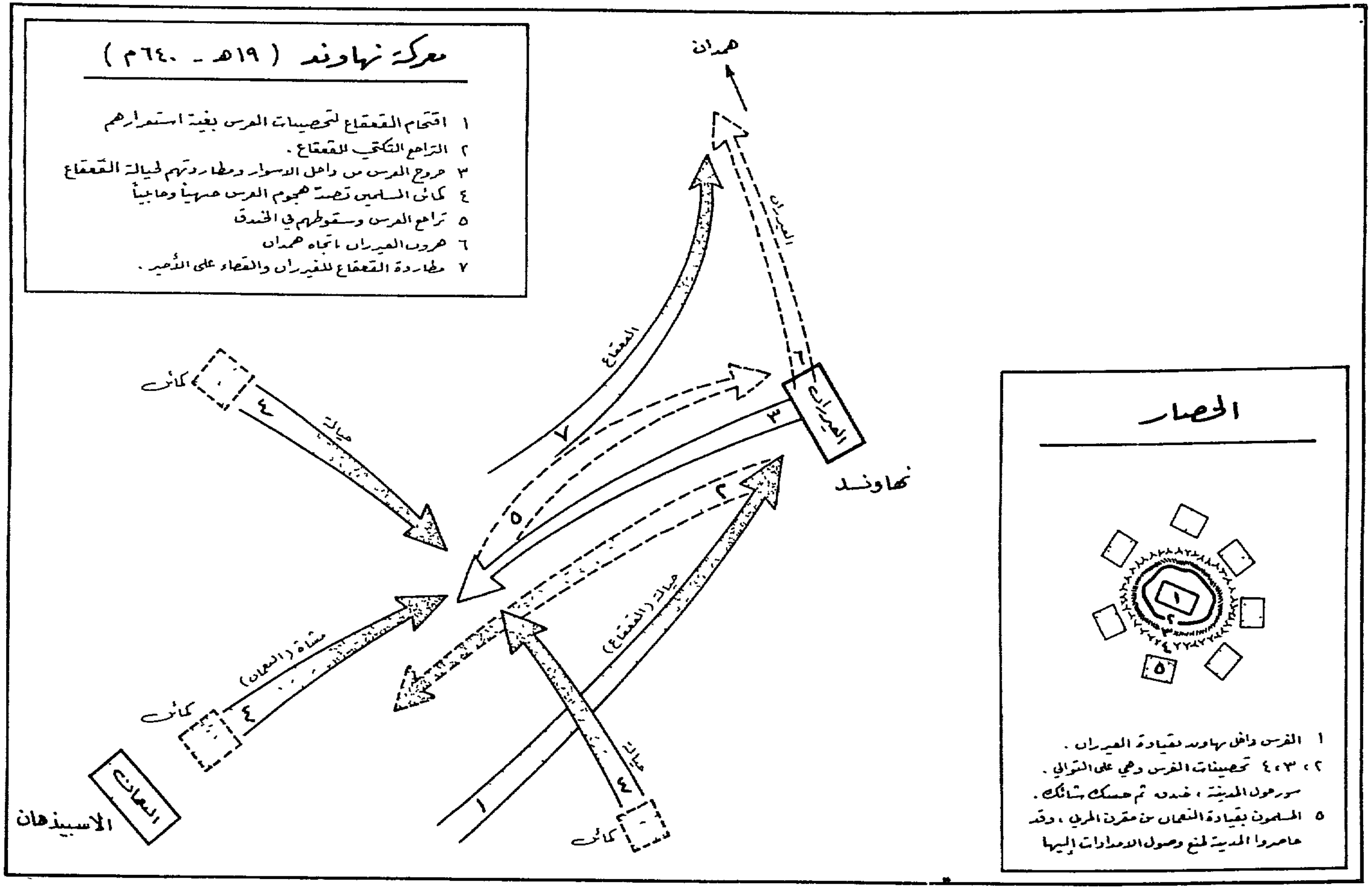
7 – العميد د. ياسين سويد " الفن العسكري الاسلامي، أصوله ومصادره " شركة المطبوعات للطباعة والنشر. بيروت. الطبعة الأولى 1988. ص 283 – 296.

8 – صبحي عبد الحميد " معارك العرب الحاسمة ". مؤسسة الأبحاث العربية. بيروت. الطبعة الثانية 1980. ص 77 – 86.



العميد سويد. الفن العسكري الاسلامي. ص 297 – 298 – 299


معركة نهاوند : التعبئة والحشد
١ ـ حشد الفرس في حلوان .
٢ ـ انتقال الفرس إلى نهاوند
٣ ـ التحاق المسلمين بالطزر حيث قائدهم النعمان .
٤ ـ انتشار المسلمين في تخوم أصفهان وفارس لقطع الامدادات عن نهاوند
الشمال
٣٠٠ كلم
قزوين
قم
حلوان
نهاوند
الطزر
المدائن
الكوفة
القادسية
واسط
أهواز
البصرة
أصفهان
شيراز
كرمان
خراسان
سجستان
فارس
جبال زاغروس
دجلة
الفرات
٦٠٠٠ مقاتل
٣٠٠٠٠ مقاتل
٦٠٠ مقاتل
حذيفة بن اليمان
عبد الله بن عمر بن الخطاب


معركة نهاوند (١٩هـ - ٦٤٠م)
١ اقتحام القعقاع لتحصينات الفرس بغية استدراجهم
٢ التراجع التكتيكي للقعقاع .
٣ خروج الفرس من داخل الاسوار ومطاردتهم لخيالة القعقاع
٤ كمائن المسلمين تصد هجوم الفرس جنبياً وجانبياً
٥ تراجع الفرس وسقوطهم في الخندق
٦ هروب الفيرزان اتجاه همدان
٧ مطاردة القعقاع للفيرزان والقضاء على الأخير .
همدان
الفيرزان
القعقاع
نهاوند
كمائن
خيالة
مشاة (النعمان)
خيالة (القعقاع)
النعمان
الاسبيذهان
الحصار
١ الفرس داخل نهاوند بقيادة الفيرزان .
٢، ٣، ٤ تحصينات الفرس وهي على التوالي .
سور حول المدينة ، خندق ، ثم حسك شائك .
٥ المسلمون بقيادة النعمان بن مقرن المزني ، وقد حاصروا المدينة لمنع وصول الامدادات إليها

أحرف " الهاء " و " الواو " و " الياء "

(هـ) و (و) و (ي)

1 – الهاني

2 – الهواري (راجع: معركة سواني عبد الغني)

3 – وادي سودان

4 – وادي لكّة

5 – وادي مرسيط

6 – وادي المخازن

7 – الولجة

8 – يافا

9 – اليرموك

10 – يوم مهران (راجع: معركة البويب)

11 – يوم الأعشار (راجع: معركة البويب)

معركة الهاني

تعتبر هذه المعركة احدى المعارك الهامة في تاريخ الجهاد الليبي ضد الغزو الايطالي. حيث توهّم الايطاليون ان الشعب الليبي سيستقبلهم بالترحاب وسيفرش لهم الطريق وروداً ورياحين. لكن " حساب الحقل لم يطابق حساب البيدر " لدى الاستعمار الايطالي. وكانت حركة الجهاد الليبي ضده من أهم الحركات التي يفتخر التاريخ العربي والاسلامي بأن يذكرها بكل عزّة وشموخ في سجلّ صفحاته الناصعة. وليست معركة " الهاني " في الثالث والعشرين من تشرين الأول / اكتوبر سنة 1911 الا مفخرة هذه الحركة وكفاحها البطولي. وتخليداً لها، فقد دوّنت ذكراها بالاسم والصورة على العملة النقدية للجماهيرية العربية الليبية، من فئة الخمسة دنانير.

فما هي معركة الهاني؟ وما هي تفصيلاتها؟

" الهاني " ربوة عالية تقع شرق النصب التذكاري الحالي لشهداء الهاني بطرابلس الغرب، وكان عليها قصر عرف بقصر الهاني، كان مقراً لقائمقامية النواحي الأربعة في العهد العثماني الثاني، التي كانت تضم: المنشيّة، والساحل والرقيعات والعلاونة، كما يلي:

1 - الناحية الأولى تبدأ من ميدان الغزالة الى شارع عبد الناصر حالياً.

2 - الناحية الثانية تضم الساحل وسوق الجمعة.

3 - الناحية الثالثة تضم الرقيعات وتشمل قصر بن غشير.

4 - الناحية الرابعة تضم العلاونة وتشمل سيدي السائح والخنتة جنوب مطار طرابلس العالمي، وكان من بين النواحي الأربع سوق الخميس.

وكانت ربوة الهاني أول منطقة يحتلها الايطاليون بعد نزولهم الى المدينة عام 1911 لاتخاذها كمركز استراتيجي لمراقبة تحركات المجاهدين لارتفاعها وتحكمها في المنطقة التي تقع شرق المدينة.

أما المنشية فهي منطقة تمتد من ميدان الغزالة شرقا إلى قرقارش غرباً، حيث ميدان التحرير حالياً، وتحدّ من الجنوب بشارع السور الذي يعرف الآن بطريق الجلاء

الذي يحيط بالمدينة على شكل نصف دائرة، ابتداء من باب قرقارش أمام " قاعة الشعب " حالياً بميدان التحرير ماراً ببو مليانة وسيدي المصري ثم الهاني، ومنها يتجه نحو الجنوب قرب مدرسة المصلّي حالياً، ثم يصل إلى البحر شرق مستشفى أنديز (الفاتح حالياً) وهي منطقة زراعية وقريبة من قلب المدينة، وتضم منطقة بن عاشور والهاني وفشلوم وسيدي المصري وبومليانة والظهرة، ومنطقة شارع الصريم، وهي لا زالت تحتفظ بأسمائها القديمة حتى الآن. وكانت بها مزارع مسوّرة بحواجز، وبها التين الشوكي الذي ساعد في تخفّي المجاهدين الذين كانوا يعرفون مسالكهم جيداً.

وعندما قررت قيادة المجاهدين شنّ هجومهم على القوات الايطالية بطرابلس، رأى بعض الضباط الليبيين المنخرطين في الجيش التركي، أن منطقة المنشيّة لا زالت عامرة بسكانها، ولديهم أسلحة وعتاد حربي أخذوها عندما فتحت مخازن أسلحة الحامية التركية في الأيام الأولى لقصف مدينة طرابلس. وان القوات الايطالية لم تقم بالاستيلاء عليها منهم بعد. ويمكن الاستفادة من هؤلاء، لوجودهم خلف مراكز دفاع القوات الايطالية، للقيام بهجوم من طرفهم على مؤخرة هذه القوات؛ ولما كانت المدينة غير محروسة من القوات الايطالية في بعض الأماكن، إستطاع بعض هؤلاء الضباط الدخول إلى منطقة المنشية لتوعية سكانها وتحريضهم على الثورة. وبما أن بعضهم كان من المنطقة نفسها، لذا تمكنوا من اقناعهم للتآزر معهم، وكان على رأسهم " ابراهيم الزواوي "، وقد قاموا بهذا العمل في منطقة بن عاشور باعتبارها أقرب منطقة لسيدي المصري وبومليانة. وقد اتفق الضباط فعلاً مع الأهالي هناك على الثورة، وذلك في الأيام السابقة للمعركة، على ان يقوم سكان المنشية باجتياح المدينة بما لديهم من قوة يمكنهم أن يربكوا بها تحركات القوات الايطالية، عندما يبدأ الهجوم من قبل المجاهدين على مراكز القوات الايطالية من جهة قرقارش.

لقد اجتمعت قوات المجاهدين على مسافة قصيرة من خطوط الدفاع الايطالية، تستعد للقيام بالهجوم عليها، وقد نظمت في ثلاث مجموعات، وكانت المجموعة الشرقية بالميمنة أقواها، في اتجاه الهاني وشارع الشط، بعد أن تأكد بأن ميسرة القوات الايطالية لا توجد بها مدفعية عدا الرماة (البر سيللري)، تحت حماية مدفعية السفن البحرية، وذلك

بقصد اقتحام هذه القوات، ولم تتمكن السفن الحربية بعد ذلك من قصفهم عند اختلاطهم بالقوات الايطالية.

هذا وقد بلغ عدد القوات الوطنية والتركية في هذه المعركة 4332 مقاتل. بينما بلغ عدد القوات الايطالية حوالي 20 ألف مقاتل من جملة القوات التي وصلت الى ليبيا والتي بلغ عددها 34 ألف جندي وضابط و 6300 حصان وبغل و 72 مدفعاً من مختلف الأنواع.

وكانت قيادة القوات الايطالية قد قامت بتأسيس مراكز دفاعية متقدمة، في كل من سيدي المصري وبومليانة وقرقارش، ووضعت لها مدفعية ومنارات كشّافة، تحسباً لهجوم المجاهدين، كما كلفت السفن الحربية الايطالية بقصف أي هجوم متوقع، وجهزت بطاريات المدفعية للتصدي في المراكز المتقدمة التي وضعت بسيدي منصور وسواني الحمامجي حتى ساحل البحر، حيث باب قرقارش من الناحية الغربية. إلا أن المجاهدين وضعوا خطة مغايرة لذلك، بالهجوم على الجبهة الشرقية بمعظم قواتهم.

لقد أسندت مهمة هجوم المجاهدين الى اليوزباشي محمد فائق بو شويرب، وكلفت كل مجموعة بالتقدم نحو وجهتها المحددة لها في البداية. فالجناح الأيسر نحو المنطقة الغربية التي تقع بين باب العزيزية وباب قرقارش حيث اللواء الايطالي 26 واللواء 40. أما الجناح الأيمن لقوات المجاهدين فيتقدم نحو قوة الرماة الايطالية (البر سيللري) بالهاني وشارع الشط. أما قوات الوسط (أي القلب) من المجاهدين فتتقدم نحو المنطقة الواقعة بين سيدي المصري وبومليانة، حيث اللواء الايطالي 42 و 82.

وكانت المنطقة الواقعة بين الهاني وشارع الشط كثيفة السكان وغنيّة بأشجار النخيل والبساتين، وتمتد مسافة 2 كلم. وكان الرماة الايطاليون قد تمركزوا بها، إلا أن جبهتهم هذه كانت ضعيفة إلى حد ما رغم مساندة السفن البحرية لها بخلاف القطاعات الأخرى التي كانت محصّنة أكثر منها، تحسباً للغارات التي كان يقوم بها المجاهدون ليلاً.

تقدمت قوات المجاهدين فجر يوم 23 تشرين أول / اكتوبر سنة 1911 بالهجوم على طول الجبهة من الشرق الى الغرب في وقت واحد، وذلك لتضليل القوات الايطالية عن معرفة نقطة الضعف في صفوفها، فتصدّت لها القوات الايطالية عن معرفة نقطة

الضعف في صفوفها، فتصدت لها القوات الايطالية. وكانت خطة القيادة الوطنية: الهجوم على القوات العدوّة في البداية بمجموعة من الفرسان على القطاع الغربي من الجبهة قوامها (500) فارس بين قرقارش وباب العزيزية (حالياً) حيث توغلت هذه المجموعة الى مسافة 2 كلم داخل خط دفاع القوات الايطالية، وأخذت تطلق النار بطريقة متواصلة بهدف إثارة أهالي المنشية للقيام بالثورة المتفق عليها مسبقاً من ناحية، والضغط على القيادة الايطالية بابقائها بتلك المنطقة التي دخلوا منها وعدم التمكن من نجدة ميسرتها من الرماة بشارع الشط التي كثف عليها الهجوم من قبل ميمنة المجاهدين.

وقد اقتحم المجاهدون في هذه الأثناء مواقع الرماة (البرسيللري) في منطقة شارع الشط وأوقعوا بينهم خسائر كثيرة من القتلى والجرحى، كما قام أهالي المنشية أيضاً بالثورة خلف صفوف القوات الايطالية، وتسلل عدد آخر من المجاهدين من الخارج إلى هناك، وانتشروا بسرعة لمهاجمة المواقع الايطالية من الشرق ومفارزها المتمركزة في الجبهة الأمامية، كما ركّزوا على الضباط لتميّزهم بلباسهم ومناديلهم الزرقاء، وتمكنوا من اصابة عدد منهم.

واشتد وطيس المعركة، ولم تستطع القوات الايطالية تقوية جبهة الرماة ونجدتها، وبقيت قيادة القوات الايطاية مرتبكة أمام القوات الوطنية التي توزعت توزيعاً جيداً قبل الشروع في المعركة حسبما اتّضح. هذا وقد امتدت الانتفاضة الشعبية الى الغرب والجنوب، حيث توجد قوات الجنرال " رينالدي " و " وجوردانيا "، الا ان هجوم قوات المجاهدين الأمامية لم يكن قوياً بهذه المنطقة، مما مكّن القائد الايطالي من تعزيز قواته، فسحب بعضاً منها إلى ما وراء الخطوط الدفاعية لتعويض القطاعات المنهزمة. وقد كان موقف المجاهدين في الجبهة الشرقية جيداً، حيث حاصرت ميمنتهم كتيبة الرماة وقضت على اكثر أفرادها، كما تقول المصادر التركية وتؤيدها المصادر الايطالية في ذلك الى حد ما، وقد صعب على القوات الايطالية نجدتها خلال المعركة التي دامت ثماني ساعات متواصلة وهي على أشدّها، وأصبحت القيادة الايطالية ضعيفة أمام ثورة سكان المنشية والمجاهدين. وفي النهاية كلفت كتيبة ايطالية من اللواء 82 بالتحرك نحو الهاني لنجدة كتيبة الرماة بينما استمرت بقية القوات تقاوم الثغرة التي أحدثها المجاهدون في صفوفها

بهجومهم من الخارج، على قوات الرماة، ولم تستطع القيادة الايطالية تدعيم موقفها وتعويض مناطق الضعف فيها إلا بعد مضيّ 24 ساعة من بداية المعركة.

وقد استطاع المجاهدون أن ينتصروا بتسديدهم ضربة سريعة، رغم أنهم لم ينفذوا خطتهم التي وضعوها في الهجوم على المدينة عندما تحرك الفرسان نحو ميمنة القوات الايطالية، حيث أنهم زحفوا نحو الشرق بدلاً من ان يقوموا بالهجوم على الشمال، مما أتاح الفرصة للقيادة الايطالية بتعزيز قواتها من جنود البحرية من الاسطول لحماية مؤخرتها، ومن اللواء 82 و 40 لتعويض الخطوط الأمامية، واستطاعت أن تنجد قوات الرماة، وردّت القوات الوطنية التركية الى الوراء بعد أن وصلت مقبرة القرمانليين أمام الشعاب (قرب المكتب الشعبي للاتصال الخارجي حالياً)، كما تقدمت القوات الوطنية أيضاً إلى فشلوم وشارع الزاوية إلى وراء خطوط الدفاع الايطالية السابقة، ثم عادت الى الوراء. وبطبيعة الحال كان تراجع قوات المجاهدين هذا أمراً مسلّماً به، كي تبتعد عن مرمى قصف السفن الايطالية.

لقد حدث هذا التقدم لقوات المجاهدين من القطاع الشرقي شمال الهاني، ومن جهة بو مليانة، بينما لم يحدث في الجناح الأوسط، إذ تركت بعضاً من القوات الايطالية بقصر الهاني، الا أنها كانت محاصرة به حتى انسحبت منه يوم 26 تشرين اول / أكتوبر سنة 1911.

وقد ترتبت على هذه المعركة هزيمة اللواء 11 من الرماة في القطاع الشرقي للقوات الايطالية، حيث انضمت إليها الكتيبتان الخامسة والسادسة بقيادة " جيرالدي " من اللواء 82، ثم ارسلت قوات أخرى من مواقع الحصون التي كانت متمركزة بمعسكر الفرسان فأخرجها المجاهدون وطردوها من هناك، ولم تصل من هذه التعزيزات إلى مساعدة الرماة إلا سريّة واحدة فقط، أما السريّتان الرابعة والخامسة من لواء الرماة فقد انضمّتا إلى لواء 82، وتراجع البعض الآخر الى الوراء، ويرجع ذلك الى شدّة المقاومة الوطنية وحماس المجاهدين باقتحام الصفوف الايطالية غير هيّابين للموت، حتى أن الايطاليين قالوا: " كانت المعركة صعبة جداً بالنسبة لنا نظراً لطبيعة الأرض المليئة بالتضاريس والتشققات مما فرض علينا تجزئة قواتنا وتفتيتها ". والحقيقة هي غير ذلك، بل

ان شدّة المقاومة الوطنية وشجاعة المجاهدين هي التي جعلت المعركة صعبة، ووضعت القيادة الايطالية في موقف لا تحسد عليه، أمام زحف المجاهدين.

أما عن حجم الخسائر، فقد تضاربت الآراء حول خسائر القوات الايطالية وقوات المجاهدين، فأوضح الجنرال الايطالي " كانيفا " في تقرير بعث به في آخر يوم المعركة: بأن الاصابات لم تُحْص بعد، إلا انه قتل ضابطان وأصيب عشرة ضباط آخرون، وقتل 4 جنود وجرح عشرة، ثم قتل جنديان من العاملين على مدفعية الحصون. أما " فرانشيسكو ماليجري " فيوضح أن عدد القتلى كان (378)، والجرحى (125). أما تقارير الضباط الأتراك فتقول: ان عدد القتلى من الايطاليين (374)، منهم (12) ضابطاً، و (158) جريحاً، بينهم 16 ضابطاً، وهو رقم أقرب الى الصواب، حيث أن الايطاليين يخفون دائماً خسائرهم من القتلى والجرحى، وقد نقلوا موتاهم من ساحة المعركة فور انتهائها، تنفيذاً لذلك. وعلى كل حال، فهي كثيرة جداً، وكل ما ذكرته هذه التقارير أقل بكثير مما أدلى به المجاهدون، رغم أنهم لم يذكروا خسائر العدو، في حين شهدوا بأنها كثيرة. أما عدد الشهداء فقد بلغ (170) مجاهداً والجرحى (250) مجاهداً. كما غنم المجاهدون كمية من البنادق والذخيرة.

وقد نتج عن هذه المعركة أن أصيب الايطاليون بخيبة أمل كبيرة، في توقعهم بأن الليبيين سيستقبلوهم بالأحضان، ولقد لمسوا فيها عن قرب شجاعة هذا الشعب العربي الأبي وصموده، وأنهم أصبحوا مهدّدين بالخروج من المدينة، حيث بعثت القيادة الوطنية والتركية ضابطاً سورياً (كان وحيد أبويه، تخرج من الكلية الحربية في القسطنطينية وشارك في الحرب الليبية ضد ايطاليا منذ نزوله) ويدعى أمين أفندي كان من بين ضباطها إلى القيادة الايطالية في 25 تشرين أول / أكتوبر 1911، يطلب منها تسليم المدينة، وإلا شنّت عليهم معارك أقسى من سابقتها، غير أن القيادة الايطالية رفضت طلبه، وقامت بمجزرة المنشية ضد الأبرياء والعزّل، والتي راح ضحيتها اكثر من أربعة آلاف مواطن ليبي، انتقاماً من هزيمتها في معركة الهاني وشارع الشط، مما كان مقدمة لمعارك أخرى أكثر ضراوة وشراسة.

ولكن في النهاية، ككل المستعمرين والمحتلّين، هزم الطليان ورحلوا عن ليبيا وبقيت ليبيا وشعبها عربياً حراً أبيّاً يرفض الذل والعبودية، ولا يقبل العيش الا بكرامة وشرف وإباء.

المراجع

1 – مصطفى حامد رحومة " المقاومة الليبية التركية ضد الغزو الايطالي 1911 – 1912 ". منشورات مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الايطالي. الجماهيرية الليبية 1988.

2 – الهاشمي محمد بالخير " الهاني، الغزو الايطالي وبداية حركة المقاومة المسلحة ". منشورات جامعة الفاتح – مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الايطالي. الجماهيرية العربية الليبية 1985.

3 – وليم اسكيو " اوروبا والغزو الايطالي لليبيا 1911 – 1912 ". ترجمة الدكتور ميلاد المقرحي، ومراجعة الدكتور عقيل البربار. منشورات مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الايطالي. الجماهيرية العربية الليبية 1988. ص 109 – 111.

4 – محمد الأسطي " توزيع المهمات العسكرية ". مجلة " الأفكار " الطرابلسية. السنة الأولى. العدد 6. شهر أيار / مايو 1956. ص 8 – 9 .

5 – الشيخ الطاهر الزاوي " جهاد الأبطال في طرابلس الغرب " بيروت. دار الفتح. الطبعة الثالثة 1983.

6 – باولو مالتيزي " ليبيا أرض الميعاد " ترجمة عبد الرحمن العجيلي. طرابلس منشورات مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الايطالي. 1981.

7 – فرانشيسكو مالجيري " الحرب الليبية 1911 – 1912 ". تعريب وهبي البوري. طرابلس – تونس. الدار العربية للكتاب 1978.

8 – فرانسيس ماكولا " الغزاة " تعريب عبد الحميد شقلوف. طرابلس. شركة النشر والتوزيع والاعلام 1976.

9 – آرسي " مع الايطاليين في حرب طرابلس " تعريب منصور عمر الشتيوي. طرابلس. دار الفرجاني 1972.

10 – أشرطة المكتبة الصوتية لمركز دراسة جهاد الليبيين الخاصة بمعركة الهاني.

11 – الأمير شكيب ارسلان في كتاب " حاضر العالم الاسلامي " حول مثال " طرابلس الغرب وايطاليا ". الجزء الأول. ص 66.

12 – يراجع أيضاً كتابنا بعنوان " من تجارب الشعوب " (الفصل الخاص بمجزرة المنشية). الدار التقدمية. بيروت 1987.

معركـة وادي سودان

هي إحدى أهم المعارك التي خاضها الثوار الجزائريون ضد الاستعمار الفرنسي، وقد حدثت هذه المعركة في أوائل تشرين الثاني / نوفمبر / 1959.

تعتبر هذه المعركة الهائلة التي دارت رحاها غربي جبل (وادي سودان) من أهم المعارك التي جرت في هذه الناحية. وقد شاركت فيها فرق متعددة من جيش التحرير. بدأت المعركة بكمين نصبته كتيبة من جيش التحرير لدوريّة استعمارية، وقتل فيه أربعون جندياً فرنسياً، ثم بدأت القوات الفرنسية بالتدفق من كل مكان حتى بلغ عددها نحواً من أربعة آلاف جندي تعززهم الطائرات والدبابات والمدافع الثقيلة، وقد استطاعت قوات المجاهدين أن تتفادى الاشتباك مع العدو، بعد قدوم قواته الضخمة، وأن تتجنّب قنابل المدفعية والطيران بطرائقها الخاصة. وبقيت فرق المجاهدين تضرب العدو في جوانبه الضعيفة وتنصب الكمائن لوحداته المنعزلة، ثم تسرع في الاختفاء عند قدوم نجدات العدو.

وهكذا استطاعت قوات المجاهدين أن تقتل نحو خمسين جندياً فرنسياً آخرين من بينهم ضابط برتبة نقيب (كابيتين). ولم تزد خسائر المجاهدين عن استشهاد جندي واحد وإصابة أربعة جنود بجراح متفاوتة. وتسرّبت كل وحدات المجاهدين من بين صفوف القوات الفرنسية التي انتشرت في الجبل بأعداد ضخمة. وعاد المجاهدون غانمين مظفرين إلى حصونهم المنيعة، تحت حماية المواطنين (المسبلين) ورعايتهم.

المرجع

1 – العماد مصطفى طلاس والمقدم بسام العسلي " الثورة الجزائرية ". دار الشورى. بيروت. الطبعة الأولى 1982. ص 620 – 621.

معركـة وادي لكّـة

أو

(وادي البرباط، 711 هـ)

بعد أن استقر الأمر للعرب في شمالي أفريقيا واعتنقت القبائل العربية والبربرية الدين الإسلامي، وتحققت وحدة المغرب العربي مع المشرق العربي، بدأ القادة العرب يفكرون بنشر الرسالة الإسلامية في ربوع العالم أجمع، وكان لا بد من غزو آسيا وأوروبا لترغيب شعوبها بالدخول في الدين الجديد، ولم يكن أمام العرب لغزو أوروبا إلا طريق القسطنطينية وطريق جبل طارق، ولما عجزوا عن فتح القسطنطينية بدأوا يفكرون في الطريق الثاني الذي يسّره لهم استيلاؤهم على ساحل شمالي أفريقيا بأجمعه، مستغلين اضطراب الحال في إسبانيا نتيجة تنازع أمرائها على العرش.

لذلك قرروا استغلال هذه الفرصة والعبور إلى إسبانيا لإخضاعها للدين القويم وليجعلوا منها رأس جسر وقاعدة لغزو أوروبا.

فتح الأندلس:

تمكن موسى بن نصير والي شمالي أفريقيا من إخضاع هذه الأصقاع وضمها للامبراطورية العربية، ولقد استعصت عليه مدينتا " طنجة " و " سبتة " الواقعتان في الريف المغربي أمام صخرة جبل طارق مباشرة. فركز جهوده لاحتلالهما. فتمكن من طنجة وولى عليها طارق بن زياد الليثي أحد قادة جيشه البارزين. ثم حاصر سبتة إلا أنه فشل في فتحها فعاد إلى مقره في القيروان بعد أن ترك طارق ومعه تسعة عشر ألف مقاتل في طنجة.

كان القائد الفاتح يتطلع إلى فتح جديد يضمه إلى امبراطورية العرب، وينشر راية الاسلام الخفاقة في ربوع جديدة. ولقد فكر في عبور البحر والتوجه إلى اسبانيا لفتحها، وقد شجعه بعض المغاربة الذين كانت لهم صلات تجارية مع الاسبان بما أخبروه عن اضطراب حالها وانقسام أمرائها. لذلك قرر إخضاع سبتة أولاً وبأي ثمن كان ليتخذها

قاعدة أمينة للغزو المنتظر، وكان من غير المعقول أن يعبر إلى الساحل الآخر ويترك سبتة وحاميتها خلفه تهدده دوماً وتمنع أية إمدادات له أثناء زحفه في اسبانيا. لذلك أوعز إلى طارق إخضاع قبائل " غمارة " و " براغوطة " القاطنة بين سبتة وطنجة، ومراقبة سبتة وانتهاز أية فرصة لفتحها.

كانت سبتة مدينة محصنة خاضعة للرومان يحكمها الكونت " جوليان ". وكان هذا تابعا بالاسم لبيزنطية، وعندما قضى العرب على قوتها العسكرية في افريقيا طلب حماية الملك " غيطشة " ملك إسبانيا ليساعده ضد الغزو العربي، فحالفه هذا وأمده بالعون والمدد.

ولما كانت قوة طارق في طنجة تزداد يوماً بعد يوم، خشي جوليان هذه القوة المتزايدة، فدخل معه بمفاوضات انتهت بالصلح. وفي هذه الأثناء حصلت ثورة في اسبانيا ضد " غيطشة " قادها الأمير القوطي " لذريق " فقتل غيطشة وحلّ محله على العرش الاسباني، وشرد أولاد الملك وإخوته. أخذ جوليان يساعد هذه العائلة سراً على استرداد العرش المغتصب. وكانت له ابنة جميلة اسمها " فلورندا " تعيش في قصر الملك في اسبانيا مع عائلته لتتأدب بآداب الملوك، طبقا للعادة التي كانت سارية في ذلك الوقت. هام لذريق حبا بفلورندا فاغتصبها، ولما سمع والدها بذلك قرر الانتقام منه، ولم يجد إلا التحالف مع العرب وتسهيل أمور عبورهم إلى اسبانيا، خاصة وأنه كان قد علم بأفكار موسى بن نصير ورغبته في فتحها. عبر جوليان إلى إسبانيا واحتال على لذريق وأقنعه بالسماح لابنته بالعودة معه لمشاهدة والدتها المريضة. ولما عاد بها أخذ يحث " طارق " على إقناع موسى بغزو إسبانيا، وقد وعده بتقديم السفن وكل المعونات اللازمة لعبور البحر بشرط ألا يتعرض العرب لـ " سبتة " أو ينتقصوا من سيادتها. وقد قبل طارق هذا العرض.

تحالف أولاد الملك المقتول مع جوليان و " أخيلا " حاكم طنجة السابق الذي دخل بذمة المسلمين على مساعدة العرب ضد لذريق، وقرروا وضع كل إمكاناتهم تحت تصرف العرب ظنا منهم أنهم سيستردون عرشهم إذا قضى العرب على لذريق.

في سنة 90 هـ (709 م) أرسل طارق جوليان إلى القيروان ليشرح لموسى طبيعة الموقف في اسبانيا وسهولة فتحها.

طلب موسى من جوليان القيام بغارة على الأندلس ليتأكد من صدق إخلاصه، وليورطه حتى لا يخون الجيش العربي عند نزوله إلى الشاطئ الاسباني. وقام جوليان بالغارة التي اعتبرت بمثابة إعلان حرب بينه وبين لذريق.

أرسل موسى إلى الخليفة " الوليد بن عبد الملك "، يستأذنه بالعبور إلى اسبانيا، فوافق الخليفة وأرسل إلى موسى وصاياه التي جاء فيها: " خضْها – أولا – بالسرايا حتى ترى وتختبر شأنها، ولا تغرر بالمسلمين في بحر شديد الأهوال ".

فردّ عليه موسى قائلاً: " إنه ليس ببحر زخار، وإنما هو زقاق يستبين للناظر ما وراءه ". فرد عليه الخليفة: " عليك أن تكتشفها بنفر قليل من الفرسان قبل مغامرتك بجيش كبير ".

نجاح قوة الاستطلاع:

قرر موسى إرسال قوة صغيرة لاستطلاع الساحل الجنوبي من الأندلس، وطلب من جوليان أن يضع تحت تصرفه السفن اللازمة لنقل هذه القوة عبر المضيق الضيق الذي يفصل إسبانيا عن الريف المراكشي.

ألّف موسى كتيبة قوامها اربعمائة راجل ومائة فارس أسند قيادتها إلى القائد " أبو زرعة طريف بن مالك المعافري "، وكلفه بالنزول على الساحل الاسباني لاستطلاعه ودراسة طبيعة أرضه وأحوال سكانه، ورفع تقرير مفصل يستند عليه في وضع خطة حملته القادمة على الأندلس.

توجهت الكتيبة إلى سبتة، ومن هناك ركبت السفن الأربع التي أعدها لها جوليان والذي أرسل معهم مفرزة من قواته لمساعدتهم ودلالتهم.

اجتازت القوة مضيق جبل طارق الذي كان يسمى وقتذاك مضيق " جبل كالبي "، ونزلت في " بالوماس " على مقربة من الموضع الذي أنشئت فيه بعد ذلك مدينة " طريف "، والتي تسمى اليوم " رأس طريف ". وقد كان في استقبالهم أعوان أولاد غيطشة وجوليان مع كتيبة من أتباعهم كانت تحمي مؤخرة القوة العربية في تقدمها بالأرض الاسبانية، وكان ذلك في رمضان سنة 91 هـ. (710 م).

إنطلق فرسان العرب يجوبون شواطئ اسبانيا الجنوبية مستطلعين ارضها وأحوالها، وقد عادوا إلى افريقيا بعد إتمام مهمتهم، وقد يسر هذه المهة لهم ضعف سيطرة لذريق على الساحل الاسباني الجنوبي وعطف سكانه على عائلة الملك المقتول.

قدم القائد " طريف " تقريره الكامل إلى موسى بن نصير الذي قرر على ضوئه إرسال جيش كبير للبدء بالفتح الجديد عهد بقيادته لقائده الشاب طارق بن زياد.

كان طارق أبرز القادة في شمالي افريقيا، ولقد اختلف المؤرخون في أصله، وإن أرجح الروايات تقول إنه من إحدى القبائل العربية التي هاجرت إلى شمالي افريقيا قبل الاسلام واختلطت بالبربر حتى غلبت عليهم الصفة البربرية، وهو ينتسب إلى بطن من بطون " ثفزة "، تلقى الاسلام عن أبيه زياد عن جده عبد الله، وكان أبيض الوجه، أشقر الشعر، أزرق العينين.

برز طارق في حروب المغرب، فكان سياسياً بارعاً وقائداً فدا، وإداريا قديرا. اكتسب خبرة واسعة في فنون الحرب، وقد استطاع ترويض العشائر البربرية وقيادتها بشخصيته وشجاعته وحسن إدارته.

عبور طارق إلى الأندلس:

كانت قوة طارق لا تزيد على سبعة آلاف مقاتل، بدأت العبور من " سبتة " مستفيدة من السفن الأربع التي أعدها لهم الكونت جوليان. لذلك قرر العبور على دفعات. وبعد خمسة أيام هبطت آخر دفعة من الجيش العربي، وكان بضمنها طارق والكونت جوليان. نزلت قوة طارق في المنطقة الصخرية المقابلة للشاطئ المغربي والتي سميت ذلك الوقت بجبل طارق.

وفي حال عبور الجيش أخذ طارق يستطلع المنطقة، فقرر تحصين منطقة الجبل ليتخذ منها قاعدة قوية لانطلاقه داخل الأراضي الأندلسية، وليحتمي بها إذا ارتد أمام جيوش الخصم. وبعد أن انتهى، أرسل فرقة بقيادة " عبد الملك بن عامر " سارت بمحاذاة الساحل الجنوبي لاسبانيا، بقصد حماية جناحه الأيمن أثناء توغله نحو الشمال. تمكنت هذه الفرقة من الاستيلاء على المنطقة الكائنة بين قرطاجنة والجزيرة الخضراء، عهد بحراستها إلى كتيبه من كتائب الكونت جوليان.

بعد أن أمن طارق قاعدته وجناحه الأيمن، سار بقوته الكبرى لفتح قرطبة. فاتجه نحو رأس " طريف "، ومنه سار إلى الشمال في أرض سهلة، ثم مر بين جبلي " سيليا دل بابا " و " سيرادل رتين " واقترب من بحيرة الخندق " لا خندا "، حتى وصل نهر البرباط " بربـاتي " وعسكر على ضفّته الجنوبية قرب قرية تدعى " لكة " وقد سمّى بعض المؤرخين الوادي باسمها " وادي لكة ".

وتشير معظم المصادر على أن المعركة وقعت على ضفة نهر البرباط الشمالية، حيث استفاد طارق من السهل الكائن بين بحيرة " لاخندا " وجبل " سيرادل رتين " كمنطقة تحشد لجيوشه، والتهيؤ لصد قوات القوط التي أخذت تتحشد في قرطبة، بأمر من " لذريق " الذي كان يستعد لصد العرب ودحرهم إلى البحر بعد أن وصلته أنباء نزولهم إلى البر الإسباني.

وعندما قدر طارق الموقف، وجد أنه غير قادر على صد هذا الجيش بقوته القليلة، لذلك أرسل " طريف بن ملوك " إلى افريقيا ليشرح لموسى الموقف ويطلب إليه تعزيز قوته لمهاجمة هذا الخطر العظيم القادم.

بعد أن اطلع موسى على الموقف وقدّر خطورته أرسل قوة تقدر بخمسة آلاف مقاتل، عبرت المضيق على سفن سبق لموسى بناءها بعد عبور طارق مباشرة. ولقد وصلت هذه القوة منطقة التحشد قبل إكمال تحشد لذريق.

موقف الجيش القوطي وتحشده:

لما علم " لذريق " بنزول العرب إلى إسبانية أخذ يتودد إلى أعدائه ابناء الملك "غيطشة " وإخوته. وقد قرر هؤلاء الاتفاق معه ظاهرياً مبيّتين له الغدر، حيث كانوا يعتقدون أن العرب سيكتفون بالاستيلاء على المغانم تاركين لهم الانفراد بحكم اسبانية. ولم يدر بخلدهم أن العرب أصحاب عقيدة ومثل، وأنهم جاؤوا مبشرين بعقيدتهم السمحاء.

انضم اولاد " غيطشة " ومن معهم إلى لذريق، ولما كمل تحشد الجيش القوطي في قرطبة البالغ عدده مائة ألف مقاتل، توجه به نحو الجنوب حتى وصل " شذونة " وهي مدينة منيعة واقعة بين " جوادا ليتي " و " البرباط " واتخذها منطقة تحشد أمامية لقواته، وأخذ يستعد للمعركة، ولما أنجز استعداداته تقدم وعسكر شمال البرباط.

المعركــة:

جمع طارق المعلومات اللازمة عن خصمه، فوجد أن " لذريق " حشد جيشاً كبيراً يساوي خمسة أضعاف قوته، اذ كان مجموع قوته وقوة الكونت جوليان لا تزيد عن عشرين ألف مقاتل. وبهذه الحالة لا يمكن التغلب عليه إلا بالايمان والاستبسال والشجاعة الفائقة.

لذلك، أراد أن يلهب حماسة جيشه ويقطع عليهم أي تفكير للردّة أو الفرار فإما النصر وإما الموت، فقرر بعد استشارة قادته إعادة السفن التي قدموا بها إلى الساحل الافريقي.

تذهب بعض المصادر إلى أنه أمر باحراق السفن، والمنطق يخالف هذا الرأي، فالمعقول أن تعود هذه السفن إلى ميناء سبتة لتكون تحت تصرف موسى بن نصير لكي يستخدمها في إرسال الإمدادات له. ثم إن ملكيتها تعود إلى الكونت جوليان.

وإذا كانت غايته شحذ معنويات قواته، وقطع أملهم بالعودة إلى افريقيا، فعودة السفن إلى " سبتة " تفي بهذا الغرض. لذلك فحرق السفن ليس له أي مبرر.

وبعد عودة السفن، أو حرقها كما قيل، وقف طارق وألقى خطبته الشهيرة.

كان نهر البرباط يفصل بين الجيش العربي والجيش القوطي، ولقد قدر طارق الموقف مع الكونت جوليان وقرر العبور، وأخذ المبادأة بالهجوم بعنف، وذلك لكي يساعد على تقوية معنويات قوات عائلة " غيطشة " التي كانت تحارب بجانب " لذريق " فيشجعها على تنفيذ الخطة التي سبق الاتفاق عليها مع جوليان، وذلك بترك " لذريق " والانسحاب من المعركة لتمكين العرب من النصر.

في يوم الأحد 28 رمضان سنة 92 هـ المصادف 19 تموز / يوليو، سنة 711 م، بدأت طلائع الجيش العربي بعبور وادي البرباط، وقامت بهجمات استطلاعية استمرت لمدة ثلاثة أيام تمكن من خلالها القسم الأكبر من العبور إلى الضفة الأخرى. وفي الوقت نفسه استطاع العرب بوساطتها معرفة نقاط الضعف في مواقع خصمهم.

وفي اليوم الرابع بدأ الهجوم العربي العام، وقد قاتل فرسان القوط في البداية بشجاعة وثبات، وبات مصير المعركة متأرجحاً، وكان العرب يهاجمون بحماسة وعناد

وإصرار على إحراز النصر، تدفعهم عقيدتهم وإيمانهم، ولقد استمرت المعركة الرئيسية لمدة أربعة أيام. وكان الجيش القوطي رغم كثرته مختل النظام، منحلّ القوى، وكان يقود جناحيه " أبة " و " ششبرت " أولاد الملك " غيطشة "، ولقد استمال هؤلاء بالتعاون مع عمّهما الأسقف " أوباس " كثيراً من جند القوط.

في اليوم السابع للمعركة، اشتدت ضربات العرب، وبدأت قوة أولاد غيطشة بتنفيذ خطة الانسحاب من مواقعها، فانسحب الجناحان، وثبت القلب الذي كان يقوده الملك نفسه، قليلاً، إلا أن انسحاب الجناحين كان كافيا ليوقع الفوضى في الجيش، فاضطرب نظامه وتضعضعت صفوفه وانهارت معنوياته، فلاذ باكمله بالفرار باتجاه الشمال. ويرجح أن القسم الأعظم من الهاربين عبر وادي " جوادا ليتي "، وكان العرب يطاردونهم فاوقعوا بهم خسائر فادحة، واستولوا على معظم الخيل التي كان يمتطيها فرسان القوط. ويقال أن لذريق نفسه قتل في هذه المعركة وإن لم يعثر على جثته بل وجد حصانه المطهم بسرجه المذهب على ضفة النهر فظُنّ أنه قضى غرقاً، بينما يذهب بعض المؤرخين إلى أنه عبر النهر سباحة وهرب إلى الشمال. حيث استطاع تأليف جيش جديد اشتبك به بعدئذ بجيش موسى بن نصير في معركة السواقي ولقي حتفه في تلك المعركة.

المطاردة:

على أثر انتصار العرب الساحق في المعركة، تمزق الجيش القوطي وهرب جنوده كل قسم في جهة، فتحصنوا بالجبال والهضاب، وكان أكبر تجمع لهم في مدينة " استجة ". وقد حث طارق السير بهذا الاتجاه لمطاردتهم الذي يوصله إلى هدفه الرئيسي " قرطبة ". حتى أنه لم يعر أية أهمية لاحتلال مدينة " شذونة " بل تركها على جانبه وسار مسرعا وراء قوة القوط الكبرى لتدميرها قبل أن تفيق من صدمتها وتنتعش معنوياتها. فلحق بها في " استجة " فكانت معركة رهيبة ثانية انتهت بانتصاره.

بعد المعركة:

في " استجة " وضع طارق خطة تقدمه لاحتلال الأندلس، حيث قرر استغلال فرصة انهيار الجيش القوطي واحتلال أكبر ما يمكن من الأراضي الأندلسية وضمها إلى الامبراطورية العربية، مخالفا بذلك وصايا موسى بن نصير له بالاكتفاء باحتلال القسم

الجنوبي فقط. وإن عمل طارق كان صحيحاً وصائباً إذ لا يمكن انتظار موافقة القائد العام الذي في القيروان، على التوغل نحو الشمال، لأن ذهاب الرسول وعودته قد تستغرق اكثر من شهر، وبذلك تضيع الفرصة، ويستعد القوط للمقاومة. وكانت خطة تقدمه الجديدة تتلخص بـ:

1 – يسير طارق بالقوة الكبرى إلى " طليطلة " عاصمة القوط لاحتلالها.

2 – يسير مغيث الرومي على رأس قوة من 700 فارس لاحتلال " قرطبة ".

3 – ألّف قوة عهد بقيادتها إلى " زيد بن قاصد " لإخضاع مدن الجنوب.

شرعت القوات الثلاث بتقدمها فوراً. واستطاع جيش الجنوب الاستيلاء على " مالقة " و " غرناطة ". أما " مغيث " فوصل الضفة الجنوبية للوادي الكبير وعسكر جنوبي القنطرة المهدمة التي كانت تصل الشاطئ الجنوبي بالمدينة، وأخذ يتحيّن الفرص للعبور وتسلق أسوار المدينة. وقد دلّه بعض الأهالي على مخاضة في النهر عبر منها في ليلة غزيرة المطر من ليالي آب / اغسطس، وتسلقت مفرزة من الجيش أسوار المدينة من ثغرة دلهم عليها أحد الرعيان المحليين، ففتحوا الأبواب ودخل الجيش إليها وأسر حاكمها القوطي.

أما طارق فعبر الوادي الكبير قرب " منسجبار " وسار في الطريق القديم الذي كان يعرف بطريق " هنيبعل "، حيث اخترق جبال " سيراموربنا "، " جبال الشارات " التي تفصل بين الأندلس الجنوبية و " قشتالة "، وكان يرشده جوليان وصحبه. وقد استطاع احتلال طليطلة، دون مقاومة تذكر حيث تركها القوط دون دفاع. وفيها استولى طارق على المائدة الرائعة التي سمّيت مائدة سليمان بن داود، وكانت مصنوعة من الزبرجد الأخضر. وكان لها ثلاثمائة وخمس وسبعون رجلاً، ويقال إن القساوسة كانوا يضعون عليها الإنجيل.

قضى طارق فصل الشتاء في طليطلة، أعاد خلالها تنظيم جيشه وأراح قطعاته من عناء المعارك السابقة، وبدأ ينظم أمور البلاد التي فتحها، فأعاد لأولاد " غيطشة " بعض أملاكهم جزاء لمساعدتهم له، وقد اكتفوا بها وزال حلمهم بالحكم بعد أن أيقنوا أن العرب لن يرحلوا عن بلادهم فآثروا السلام وكسب صداقة الفاتحين بدلا من عداوتهم.

وما إن حلّ فصل الربيع حتى واصل زحفه شمالاً، فاخترق " قشتالة "، ثم " ليون " سائراً في طريق وعرة لم يألفها جيشه من قبل، وطارد فلول القوط حتى " استرقة "، ثم توجه إلى ميناء " خيخون " الواقع على ساحل خليج " باسكاي "، ثم عاد إلى طليطلة ينتظر أوامر موسى بن نصير، الذي أصدر إليه الأمر بإيقاف الفتح وعدم التقدم من طليطلة بعد ذلك إلا بأمره.

وهكذا تكون معركة " وادي لكة "، معركة العبور إلى الأندلس كما يسميها العميد الركن " د. ياسين سويد "، ويستخلص منها الدروس التي تمثلت بما يلي:

1 – أسلوب " الحذر واليقظة " تجاه الحلفاء:

لم يكتف موسى بن نصير بقول " يليان " ووعده بالعون والمساعدة في فتح الأندلس، بل كلفه مهمة استطلاعية في تلك البلاد ليختبر صدقه ووفاءه بعهده، وقد كان " يليان " (أو جوليان) صادقا بما قال ووفياً كما تعهد به، كما كان موسى حذراً ومتيقظاً ونبيهاً.

2 – أسلوب " الاستطلاع قبل الإنزال ":

أراد موسى استطلاع البيئة التي سوف يقتحمها، والعدو الذي سوف يقاتله، والبقعة التي سوف يتم النزول فيها، وذلك قبل أن يدفع بجيشه في مغامرة مجهولة النتائج. فأرسل حملة استطلاعية بقيادة طريف بن مالك، وما أن عادت الحملة بالمعلومات الوافية عن البيئة والعدو وبقعة النزول حتى اطمأن إلى سلامة قراره، فكتب إلى الخليفة يستأذن بالفتح.

3 – الاسلوب المتكرر في " الاختبار والحيطة ":

رغم ما سبق من اختبار، سواء بواسطة الحملة التي قام بها " يليان " أو حملة " طريف "، فقد أبى إلا أن يكرّر الاختبار، فقال لموسى:

" خضها بالسرايا حتى ترى وتختبر شأنها، ولا تغرّر بالمسلمين في بحر شديد الأهوال " ولما لفت موسى بن نصير نظر الخليفة إلى سهولة عملية الإبحار والإنزال أصرّ الخليفة قائلاً: " وإن كان فلا بدّ باختباره بالسرايا قبل اقتحامه ". وذلك يدل على مدى حرص الخليفة على التأكد من نجاح العملية وسلامتها، وتأمين الفوز للمسلمين بدل أن

يغررّ بهم في " بحر شديد الأهوال ". وهذا الأسلوب المتكرر في الاختبار والحيطة قبل الإنزال والإقتحام سهّل عملية الفتح إلى حد كبير وأعان المسلمين في مواجهتهم الحاسمة للعدو، إذ أمّن لهم عملية " المباغتة " لعدو لم يكن ينتظر مثل هذه المفاجأة أبداً.

4 – اسلوب المباغتة:

إن الأسلوب الذي اتبعه طارق في إيصال المسلمين إلى الساحل الأندلسي منفّذاً تعليمات الخليفة، كان أسلوباً بارعاً إلى حد كبير، فهو لم يبحر بالمسلمين دفعة واحدة، بل أبحر بهم على دفعات متتالية وفي مراكب تجارية. وما إنْ التأم هذا العدد الكبير من المسلمين في تلك البلاد، وعددهم سبعة آلاف رجل، حتى فوجئ القوط بوجود هذا العدد الكبير من المسلمين في ديارهم، كما فوجئوا بالهزيمة الساحقة التي لحقت بهم على يد هؤلاء المسلمين، ومقتل أحد قادتهم " بلج " ابن اخت مليكهم لذريق. فانتزع المسلمون بهذه المباغتة وهذا الانتصار، المبادرة من أيدي أعدائهم. وأسقط في يد القوط، واصبحت هزيمتهم على يد المسلمين قدرا محتوما.

5 – تنفيذ أسلوب " رأس الجسر ".

نفذ طارق لدى وصوله إلى الساحل الأندلسي أسلوب " رأس الجسر " وهو أسلوب يعمل به في الحروب الحديثة، فأقام على الساحل قاعدة حصينة سوّرها وانطلق منها في فتوحاته، تماماً كما يفعل أي جيش في أيامنا هذه.

6 – اختيار ميدان القتال:

لقد أحسن طارق اختيار ميدان القتال، فأسند ميمنة جيشه إلى بحيرة " خاندا " شرقاً، وأسند ميسرته إلى " وادي البرياط " غرباً، وأسند مؤخرة هذا الجيش إلى جبال " سيرادل رتين " جنوباً، ففرض على العدو أن يجابهه من جهة واحدة هي جهة الشمال، ووضعه في موضع الاضطرار لا الإختيار.

7 – المبادرة بالقتال:

لقد رأينا المسلمين (في معركة القادسية) يطلبون الفرس لكي يعبروا إليهم. كما كانوا في معظم معاركهم، يتركون المبادرة للعدو بالقتال. ولكن طارقا، في هذه المعركة كان هو البادئ بالقتال، بل بادر إلى اجتياز النهر لملاقاة عدوه، فناوشه ثلاثة أيام ثم شنّ

عليه، بعد ذلك، هجوماً عاماً انتهى إلى هزيمته. وربما كان مرد ذلك إلى ثقة طارق بالاتفاق السرّي الذي كان قد عقد بين " يليان " وابني " غيطشة " من جهة (وكانا في ميمنة جيش لذريق)، وبينه من جهة أخرى. فاستعجل القتال ليستعجل تنفيذ الاتفاق. وقد كان حلفاؤه صادقين في تعهدهم. فنفّذوه بكل دقة وإتقان، ولا شك في أن ذلك يقلل من قيمة النصر العسكري الذي أحرزه طارق في هذه المعركة، وإن لم يقلّل من أهميتها كمعركة حاسمة ومصيرية.

8 – صدق المسلمين ووفاؤهم بالعهود:

مقابل ذلك، كان المسلمون صادقين ووفوا بوعودهم تجاه " يليان " وأبناء " غيطشة "، فأعادوا لهؤلاء ضياع أبيهم، واحترموا تعهداتهم ليليان وأنصاره. وكانت نتيجة ذلك أن اعتنقت سلالة كل منهم الإسلام. فكان فيها من حسن إسلامه مثل " أيوب " (توفي سنة 226 هـ) و " سليمان " (توفي سنة 379 هـ)، و " أحمد " (توفي سنة 388 هـ). وهم من سلالة " يليان ". ومثل " أبو بكر محمد بن عمر " المعروف بـ " ابن القوطية " (صاحب كتاب تاريخ افتتاح الأندلس) وهو من سلالة " سارة بنت ألمند " ابن غيطشة، آخر ملوك القوط.

9 – استثمار النصر:

طبق طارق، بالبداهة، مبدأ من أهم المبادئ العسكرية الحديثة: وهو " استثمار النصر ". إذْ إنه ما أن هزم لذريق في " وادي لكّة " حتى لاحق فلول جيشه، دون أن يترك لهذا الجيش مجالا للتجمع وإعادة التنظيم من جديد، وكان طارق قد وضع لنفسه هدفاً أساسياً هو احتلال " طليطلة " عاصمة العدو. إذ أنه عرف ولا شك، ويعرف أنه باحتلاله لعاصمة المملكة، تفقد هذه المملكة مركزيّتها، ويفقد الملك قاعدة ملكه وحكمه. ولكن طارقاً، مع ذلك، لم ينسَ أن يرسل جيشه في حملات إلى مختلف أنحاء البلاد، لكي يحتل المواقع الاستراتيجية فيها، فيفقد القوط كل أمل بالقتال والنصر. فأرسل إحداها إلى الشمال نحو " قرطبة " وكانت قصبة هامة في الأندلس، وأرسل أخرى شرقاً على الساحل الجنوبي للبلاد، نحو " ملقة "، وأرسل ثالثة إلى داخل البلاد شمالا بشرق، نحو " غرناطة "، وكانت تشكل موقعا استراتيجيا هاما في البلاد. ثم توجه بجيشه شمالا إلى العاصمة " طليطلة "

واستولى عليها، فظل الحكم القوطي، من جراء ذلك شريداً طريداً في أنحاء الأندلس، إلى أن سقط.

المراجع

1 - ابن عذارى المراكشي " البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ". الجزء الثاني. تحقيق ومراجعة جاك كولان وليفي بروفنسال. دار الثقافة - بيروت. الطبعة الثالثة 1983. ص 3 - 9.

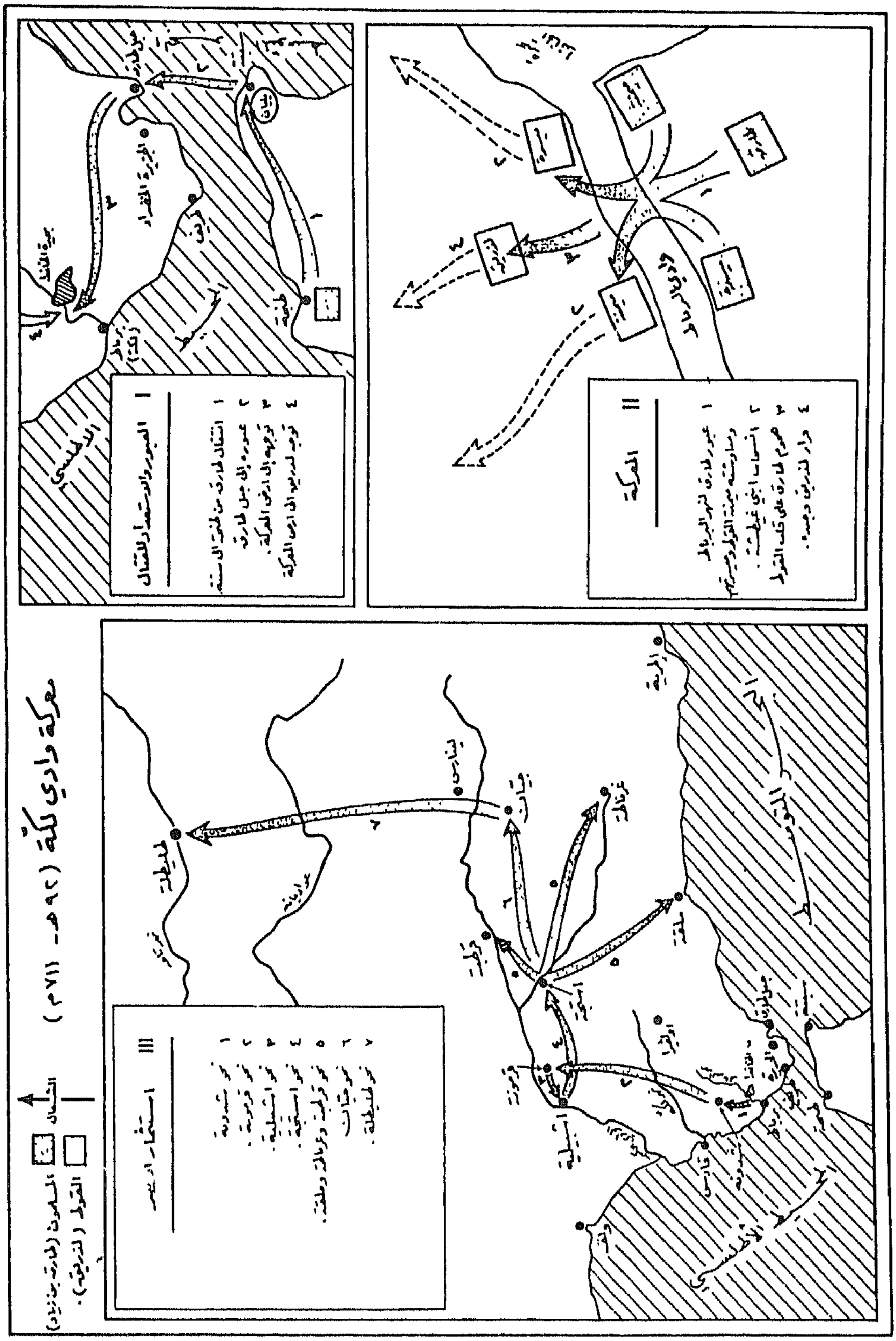
2 - محمد بن عبد المنعم الحميري " الروض المعطار في خبر الأقطار ". تحقيق الدكتور احسان عباس. بيروت. مكتبة لبنان 1975. ص 511 و 605.

3 - احمد بن محمد المقري التلمساني. " نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ". الجزء الأول. تحقيق محمد بن محي الدين عبد الحميد. المكتبة التجارية الكبرى. مصر. الطبعة الأولى 1367 هـ - 1949 م. ص 214 - 249.

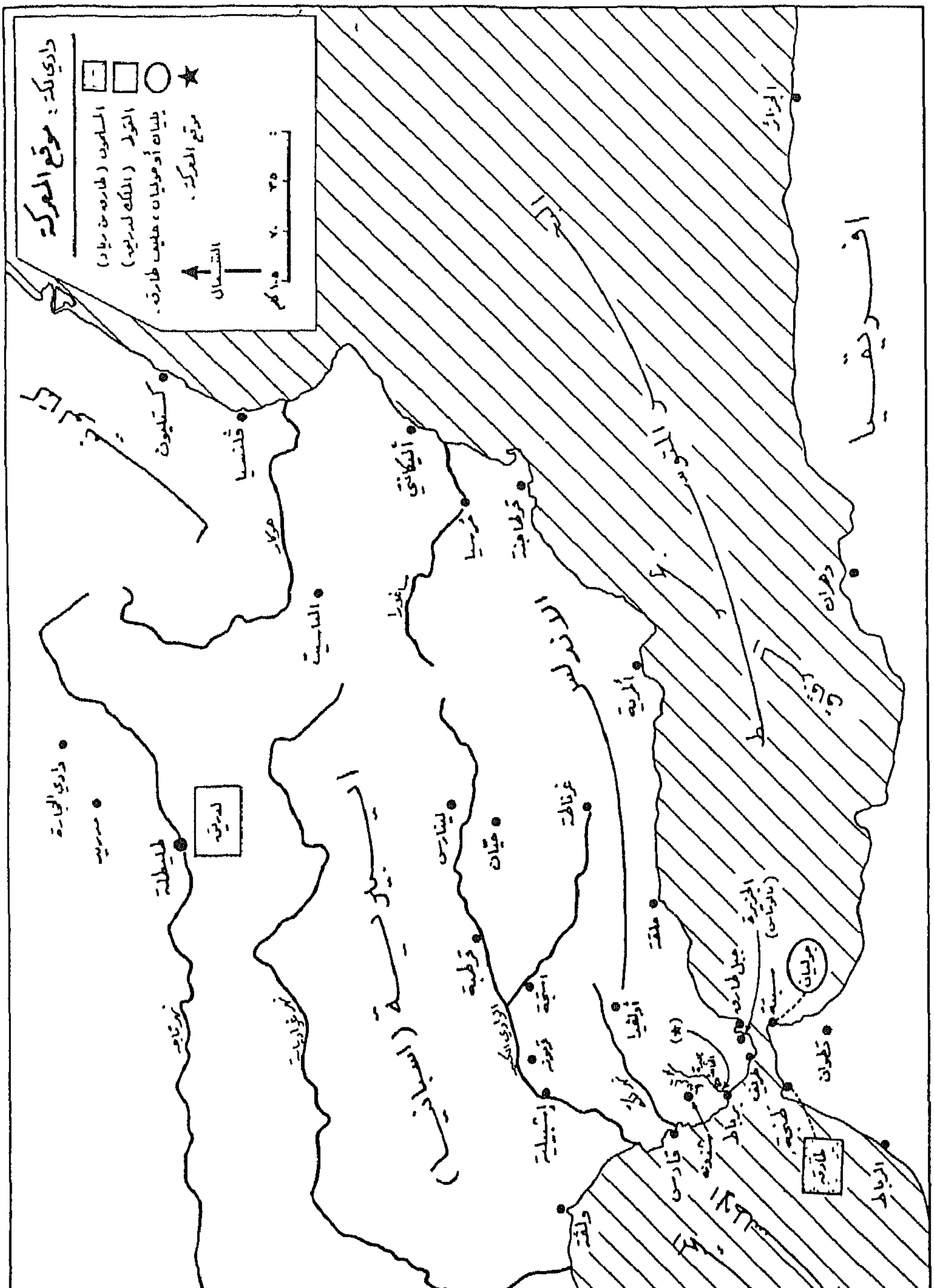
4 - حسين مؤنس " فجر الأندلس " الشركة العربية للطباعة والنشر. القاهرة. الطبعة الأولى 1959. ص 53 - 73.

5 - العميد د. ياسين سويد " الفن العسكري الاسلامي، أصوله ومصادره " المؤسسة العربية للدراسات والنشر. بيروت. الطبعة الأولى 1988. ص 327 - 352.

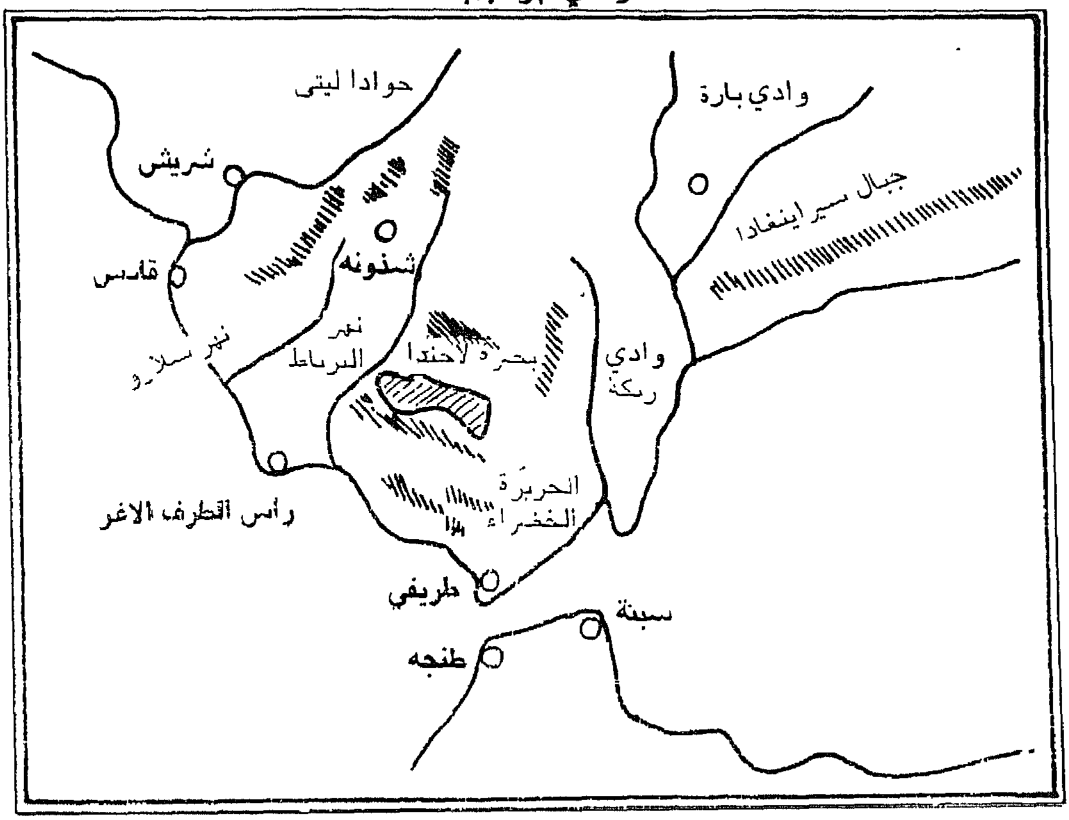
6 - صبحي عبد الحميد " معارك العرب الحاسمة " مؤسسة الابحاث العربية. بيروت. الطبعة الثانية 1980. ص 99 - 109.



العميد سويد. الفن العسكري الاسلامي. ص 353 – 354.


وادي لكة : موقع المعركة
المسلمون (طارق بن زياد)
القوط (الملك لذريق)
يليان أو جوليان، حليف طارق
موقع المعركة
الشمال
طليطلة
قرطبة
إشبيلية
غرناطة
المرية
مالقة
قرطاجنة
بلنسية
سبتة
طنجة
وهران
أفريقيا

وادي نهر البرباط.



المرجع: صبحي عبد الحميد " معارك العرب الحاسمة ". ص 106.

معركـة وادي مرسيط

على أثر الثورة التي اندلعت في القبلة والجنوب، وأدت إلى انسحاب الحاميات الايطالية بالدواخل، وتقلص النفوذ الايطالي، أبدى الوالي الجنرال (تاسوني) محاولات يائسة، للتشبث بالمواقع التي كانت بيد الايطاليين، وكان يستجيب في ذلك إلى توجهات الحكومة المركزية التي هالها انهيار الوضع، وإلى شعوره الشخصي بعدم وجود ما يبرر هذه الانسحابات الواسعة، وقد اندفع تحت تأثير هذا الشعور المغرور، إلى تشكيل قوتين كبيرتين، للقيام بعمليتين حربيتين رئيسيتين في القبلة، ومنطقة سرت. وقد انتهت الأولى بالهزيمة المنكرة التي تعرضت لها القوة الايطالية في " خرمة الخدامية " و " وادي مرسيط "، والثانية في معركة " القرضابية ، المشهورة. وتعترف المصادر الايطالية الرسمية بأن الواقعتين قد سجلتا نهاية النفوذ الايطالي في القبلة، ومنطقة الخليج، وأدّتا إلى تراجع الاحتلال الايطالي وانحصاره في بعض المراكز الساحلية.

وكانت قد صدرت التعليمات إلى الكولونيل (جانينزي)، قائد منطقة غريان العسكرية بالتحول إلى " مزدة "، لمطاردة المجاهدين المنتشرين في تلك المنطقة، والعمل على إخماد الثورة التي أخذت في التصاعد والانتشار. وقد تحرك من " مزدة " يوم 3 ابريل بقوة تتألف من 1400 مسلح (نصفهم من غير النظاميين)، لضرب محلّة للمجاهدين كانت تتألف من أربعمئة مسلح، كانوا قد تركزوا في وادي " تاقجة "، بين " قنطرار " وأولاد أبي سيف، لمهاجمة زحف هذه القوة الايطالية.

وفي يوم 6 ابريل / نيسان 1915 وصلت القوة الايطالية إلى وادي مرسيط، وأرسلت بعض طلائعها للاستطلاع، ورصْد وجود المجاهدين، وعندما اطمأنت إلى عدم وجود أية قوة للمجاهدين في المنطقة، أخذت تنصب خيامها، عند الساعة الرابعة، وفي وسط الوادي، لتمضية الليل به. وفي هذه الاثناء كان (أحمد السنى) قد زحف بقوته من المواقع السابقة نحو " فروتن "، وأقام بعض طلائعه في الموقع المعروف باسم " خشم فروتن ". وبينما كان جنود القوة الايطالية منصرفين إلى نصب الخيام، فوجئوا بصوت

انطلاق الرصاصة الأولى ثم الثانية والثالثة، فأثار ذلك روح الفزع في معسكر العدو الذي أخذ الرصاص يحصده من كل مكان. ويقول الكولونيل (بيلار دنيللي) في وصفه لهذه المعركة في كتابه القبلة: " لم يستغرق ذلك كله سوى لحظات قليلة، ولكنه أثار الفزع بين القوات غير النظامية التي لاذت بالفرار بعد أن جرّت معها بعض أفراد القوة النظامية ". وقد اضطر الضباط الى استخدام السلاح. وشهر مسدساتهم في وجه الجنود النظاميين، لالزامهم بالصمود ومواجهة المجاهدين، واستمرّت هذه المعركة عنيفة قوية حتى ساعة متأخرة من المساء. وقد قضى عنفها على كل امكانيات القوة الايطالية، وعطل فعاليتها، فقد جرح القائد الايطالي، وجرح كل الضباط الايطاليين، كما قتل بعضهم الآخر، وانتقلت القيادة إلى الماجور (سرتيرانا) الذي أمر بالانسحاب، والتراجع ليلا نحو " مزدة ". وما كادت تبلغ الساعات الأولى من اليوم التالي (7 ابريل 1915) حتى أخذت الأفواج الأولى من القوة الباقية تتسلّل تحت جنح الظلام نحو مزدة. وحين بدأت تقطع المراحل الأولى من الطريق تعرضت إلى رصاص المجاهدين الذي أثار لديهم شعور الفزع، وسيطرت الفوضى على صفوفها فشردت الإبل وتخلّى الجمّالون عن الأحمال، وتفرقت القوة غير النظامية. (وفي المساء دخلت بقايا هذه الجماعة المشتتة الى مزدة بدون ذخيرة ولا أمتعة وبلا مؤن ولا مدفعية).

ولقد كانت هذه المعركة، ومعركة القرضابية نهاية للهيبة الاستعمارية الايطالية، وكانت هزيمتهم بهذه الموقعة من أفدح الهزائم التي لحقت بهم في تاريخهم الاستعماري لليبيا بالنظر الى النتائج الخطيرة التي ترتبت عنها. ولم تستطع القوات الايطالية أن تعود إلى هذه المنطقة إلا في نطاق الحملة الثانية سنة 1924.

وتوفرت الأجهزة الحربية الاستعمارية على دراسة الأسباب الكامنة وراء هذه الهزيمة فانتهت إلى تحديد العوامل التالية:

1 – ضعف جهاز المخابرات وقلة المعرفة بأحوال السكان وأوضاع المنطقة وعدم التقدير الصحيح لقوة المجاهدين وتنظيماتهم.

2 – الطريقة الساذجة التي اتبعت في تجنيد القوات غير النظامية التي كانت تضم عناصر حاقدة على الايطاليين.

ولا بد هنا من الاشارة إلى أن الدور الذي قامت به القوات غير النظامية في الانهزام السريع، وعدم الالتزام بالمحاربة في المعركة هو الذي قرر وضع المعركة وترجيح الكفة لصالح المجاهدين. وهو دور يشبه إلى حد بعيد الدور الذي قامت به بعض العناصر الوطنية في معركة القرضابية، مع تقدم معركة وادي مرسيط زمنياً.

المراجع

1 – خليفة محمد التليسي " معجم معارك الجهاد " ص 519 – 522.
2 – مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الايطالي. طرابلس / ليبيا.

معركة وادي المخازن
أو معركة الملوك الثلاثة

كانت المملكة البرتغالية ذات امبراطورية متنامية الأطراف، تمتد من البرازيل إلى جزر الشرق الأقصى البعيدة؛ وبالقرب منها المملكة المغربية التي كانت تتعرض للهجمات الاسبانية والبرتغالية في إطار الغزو الكاثوليكي (للكفار) (المسلمين). وإزاء هذه الهجمات والأعمال البربرية التي كانوا يقومون بها، اتحدت القوة الوطنية، في المملكة المغربية ونظمت نفسها، وأتت بسلالة جديدة إلى الحكم (السلالة السعدية الشريفة) وهي من سلالة النبي محمد (ﷺ). وتمكن السعديون من تسجيل نجاح وراء نجاح، وحاربوا البرتغاليين واسترجعوا منهم كل المرافئ ما عدا " سبتة " و " طنجة ".

وفي 20 يوليو / تموز 1554 ولد في القصر الملكي البرتغالي وريث لعرش أسرة (أفيزا) الحاكمة. وهو الوليد (دون سيبستيان) من الأم الأميرة جوانا. فرحبت المملكة بالحدث بابتهاج وحبور، ولكن القلق كان ينتاب الملك جو الثالث الملقب بالتقي. ذلك أنه لم ينسَ النبوءة التي قيلت في عهد الملك ألفونس – مؤسس مملكة البرتغال – حيث تقول: " إن الله قد وعده بضمان نسله، غير أن محناً وشدائد سوف تحلّ بمجيء نسله السادس عشر " والذي كان الوليد الجديد. وكان الملك يفكر دائماً بهذه المحن والشدائد.

وكان العالم آنذاك – في منتصف القرن السادس عشر – قد بدا أنه أكمل تصفية النظام الاقطاعي، بعد انحسار المدّ الاسلامي، إثر هجمات المغول المدمرة، وانتقلت مراكز الحضارة والقوة إلى أوروبا النصرانية.

ولدى ولادة وريث العرش البرتغالي، انطلقت الاشاعات والأقاويل عن النبوءة في معظم دول أوروبا. كما وصل خبر الولادة إلى أوساط البلاط الشريفي المغربي، مما جعلهم يتساءلون إذا كانت النبوءة المشؤومة " محن وشدائد " ستدفع المغرب إلى مواجهات وحروب مع البرتغال.

كما أثار خبر هذه الولادة اهتمام بلاط الحبر الأعظم الذي سارع إلى إرسال مطارنة وأساقفة تكون مهمتهم، ليس فقط متابعة الوضع السياسي، بل الإشراف على تربية وتنشئة المولود الجديد، الذي سيصبح وريثا للعرش البرتغالي.

خلال هذه المرحلة، توفي الملك " جو الثالث "، وشعر كل أفراد العائلة المالكة، وهم: الأميرة جوانا – أم دون سيبستيان –، ودونا كاترينا – أرملة جو الثالث جد الوليد الحديث –، والكاردينال هنري – أخو المرحوم – شعروا بالقلق عندما طرحت مشكلة ولاية العرش، ولم يكن الوليد الجديد تجاوز الثالثة من عمره. لكن أمه – الأميرة جوانا – تنازلت عن حقها لمصلحة أرملة الملك المتوفي. وكان على هذه أن تدير شؤون المملكة وتسهر على تنشئة ولي العهد، لكي يصبح الوريث الجديد لعرش اجداده " ذوي الفخر والشهامة ".

وفي نفس الوقت برزت مشكلة وراثة العرش المغربي، وذلك إثر مقتل السلطان " محمد الشيخ " على يد سليمان القانوني – العثماني –، حيث خلفه ابنه الأكبر " مولاي عبد الله الغالب بالله ". وما ان استلم العرش حتى أعلن ابنه " مولاي محمد " وريثا شرعيا له، مخالفاً بذلك العُرف السائد بأن تؤول الوراثة للفرد الأكبر سناً في العائلة ثم لإخوانه من بعده. وأمام هذا التشويه المقصود انتاب الخوف ثلاثة من أمراء السعديين، وهم: مولاي عبد المأمون – الابن الثاني بعد مولاي عبد الله الحاكم، المرشح الشرعي للعرش –، ثم مولاي عبد الملك، وأخوه مولاي أحمد. وهكذا وجد الأمراء السعديون أنفسهم منقسمين إلى جماعتين متضاربتين حتى العظم.

وأخيراً، تم تتويج " دون سيبستيان " ملكا للعرش البرتغالي، تحت اسم: " جلالة الملك دون سيبستيان الأول، ملك البرتغال والامبراطورية البرتغالية "؛ وكان اليسوعيون المتملّقون يدفعونه لأخذ مواقف متطرفة وخطيرة. وكانت أقوال المسيح الواردة في إنجيل القديس يوحنّا، بالنسبة للملك هي القرار والأمر: " أنا الدالية، وأنتم عودها... ومن لا يكون في داخلي سيرمى خارجاً كمثل عيدان الكرمة، ويجفّ ثم تجمع هذه العيدان ويرمى بها في النار فتحترق ". وكان دائماً يردد في نفسه: أجل! بالنار والحديد! بنار المدافع والبنادق، وبحد السيوف. وهكذا أراد " الفارس الناسك " أن يكون القائد المقدام الذي يدفع

محاربيه ضد معاقل (الكفار) – الاسلام – من أجل نصرة المسيح. هذا المغرب الذي يقع على مرمى مدافع أسطوله، والمجزّأ، والذي يتصارع فيه السعديّون، إذاً لتكن الإغارة على " الحيوان الكافر ".

وتابع عاهل البرتغال، الفتى، شؤون إسبانيا عن كثب، لأنه كان يعلّق أهمية كبرى على دعم خاله فيليب الثاني– –ملك إسبانيا –، وغرق في أحلامه بالنصر والشهرة.

بالمقابل، قلق الأمراء السعديّون الخمسة لسماعهم بترتيبات " دون سيبستيان "، واستعلموا عن كل ما يجري في بلاط لشبونة ومدريد. وكانوا على علم سابق بمشروع حملة كبيرة من المتوقع أن يقوم بها البرتغال ضد المغرب. في حين كان مولاي عبد الملك يدرس الوسائل والسبل التي تمكنه من استرجاع حقوقه الشرعية في وراثة عرش المغرب، سيما بعد مقتل أخيه مولاي عبد المأمون على يد رجل غادرمرسل من قبل مولاي محمد الذي اصبح وريثا للعرش المغربي، تنفيذا لإرادة والده السلطان مولاي عبد الله الغالب الذي توفي، ونودي بمولاي محمد سلطاناً على المغرب.

وفي غمرة هذه التطورات، كان " دون سيبستيان " يراقب الموقف عن كثب، ويتصل بخاله فيليب الثاني يطلب منه المساعدة وتشكيل جيش قوي مشترك من الاسبانيين والبرتغاليين، لمهاجمة المغرب. لكن خاله كان يتردد ولم يستجب لطلبه. كما نشبت الحرب بين مولاي عبد الملك وابن أخيه مولاي محمد، بحيث تمكن الأول من دحر جيش خصمه الذي فرّ إلى مراكش. ودخل مولاي عبد الملك إلى تلمسان ثم إلى فاس، وكان يقابل بالزغاريد وهتافات التأييد، واستسلم جيش مولاي محمد وانضم الى صفوف جيش مولاي عبد الملك.

ولحق بابن أخيه الى مراكش للقضاء النهائي عليه. ودخل مراكش في السادس عشر من شهر يوليو / تموز 1576، دخول الفاتحين المنتصرين، وقد قوبل بالهتافات المؤيدة كما استقبل سابقاً في تلمسان وفاس، سيما وأن مولاي محمد كان عبد أهوائه السيئة وميوله الفاسدة، والفوضى تعبث فساداً في مملكته. والكل كان يعلم أن جيشه سوف يتخلى عنه، خاصة عند ظهور مولاي عبد الملك. لكن مولاي محمد هرب من جديد والتجأ الى الجبال. وتمكن مولاي عبد الملك من صعود الدرجات الأولى للوصول إلى العرش

المغربي. وعندها أعدّ أول جهاز حكومي لدولته واستدعى " مجلس العلماء " وعيّن أخاه أحمد – رسمياً – وريثا للعرش، كما كان على عهد السعديين الأوائل.

وبقيت عمليات المطاردة قائمة حتى اضطر مولاي محمد، وقد أصبح فارّاً من وجه العدالة، إلى طلب ملجأ له في إسبانيا، والحماية من ملك إسبانيا. واغتنم – عند ذاك – دون سيبستيان هذه الفرصة وأرسل مبعوثاً الى مولاي محمد، واتفق معه على مساعدته ثم أرسل له بضعة سفن محملة بالمؤن والذخيرة، وقدم بنفسه إلى طنجة مع قسم من أسطوله. وكان ذلك بداية الاستعداد لمهاجمة المغرب وتحقيق الحلم الذي كان يحلم به.

ولما علم مولاي عبد الملك بهذا الاتفاق، أرسل الى دون سيبستيان يحذره من موالاة ابن أخيه ومن مهاجمة المغرب، ويعرض عليه بعض التقديمات لقاء تخليه عن فكرته. لكن هذا لم يستجب لطلبه ولم تُغْرِه العروض.

عندئذ تحرك مولاي عبد الملك بجيشه استعدادا لمواجهة البرتغاليين. أما دون سيبستيان فانه قرر التوجه الى " وادي المخازن " استعدادا لبدء الهجوم، وأنزل جيشه على محاذاة الضفة اليمنى لنهر المخازن ومعه مولاي محمد ومن بقي من أتباعه، بانتظار ساعة الصفر التي أعلنها دون سيبستيان بقوله: " هيا يا أولادي! هيا أيها الفرسان سانتياغو!! لنهاجم فليس هناك الا الرعاع ".

وهكذا أصبح في ميدان المعركة ثلاثة أمراء: مولاي محمد من جهة، والفتى الشرّس ملك البرتغال من جهة والمنافس عل عرش المغرب مولاي عبد الملك من جهة أخرى. وبدأت الاستعدادات. فمن أجل احتلال المغرب ستتلاحق الأحداث لتنفجر في حرب طاحنة تؤدي إلى مصرع الأمراء الثلاثة في نفس المكان ونفس الزمان وتقريبا في نفس الساعة. وهكذا بدأت معركة الملوك الثلاثة عند الظهر، نهار الاثنين في 24 آب / اغسطس 1578.

معركـــة وادي المخازن

لقد قرر الملك دون سيبستيان القيام بالهجوم. فنظم خيالتـه وأخـذ مقدمتهم وانطلق باتجاه الجناح المغربي الأيمن الذي يتركز فيه فرسان مولاي أحمد.

إثر ذلك أعطى الشريف السعدي مولاي عبد الملك، من على صهوة جـواده وسط حرسه، الأمر الى المدفعية بضرب المواقع المعادية، وأوصى بتوجيه القذائف نحو مركز الجبهة المعادية لأجل إحداث الذعر بين ألوف الأشخاص غـير المحـاربين الذيـن يوجـدون هناك. وفي الوقت نفسه، طلب دخول حاملي البنادق في العمل، وحثهم على مفاجـأة وسط مقدمة العدو، وبالتقدم ببطء.

وأثناء ذلك انطلق " دون دورات دومينزس " و " دوق آفيرو " والسـلطان السـابق " مولاي محمد " من الجناح البرتغالي الأيمن مع فرسانهم، وهاجموا المواقع المغربية التـي تحميها وحدات نائب الملك " محمد زاركو ".

وبعد ذلك بدأت قذائف المدفعية ورصاص القناصة تشتد من هنـا وهنـاك. وبـدأت النار المغربية الأسرع والأصوب تخلق الرعب والقلق والفوضى بين المسيحيين.

في هذه الأثناء، كان الوضع أكثر جدّية بالنسبة للمسلمين من الجناحين. بينما كانت قذائف البرتغاليين عنيفة، فان النتائج لم تكن واضحة. وقاوم فرسان مولاي أحمد بفعاليـة، وقرر دون سيبستيان العودة مع فرسانه إلى موقعه الأصلـي، خوفـا مـن أن يُطـوّق ويقطـع عن جيشه. ولكن المهمة الموكولة إلى " دورات دومينزس " و " دوق أفيرو " و " مـولاي محمد " نجحت في فصل وحدات " محمد زاركو " وخلقـت ثغرة فيهم، وبـدت مجموعـات من الفرسان المغاربة تعود إلى الوراء، بل تلجأ إلى الفـرار. وفقد محمد زاركـو فـي هـذه الهجمة اثنين من الأعلام الخمسة للجيش المغربي.

ولاحظ الشريف مولاي عبد الملك، الذي كان يراقب المعركة هذا التفرق. فتملكتـه موجة من الغضب. وقرر الذهاب لوقف الفارّين وإعادتهم للمعركة.

وكـان يتمايل رغمـاً عنه، وأراد الإمساك بلجام جواده لكن ذراعيه خانتاه، بسبب

مرضه. فتأثر القريبون منه، وأخذوا اللجام، ورجوه ألا يتعرض لما هو أكثر. فأخذته رجفة متشنّجة، ورفع رأسه وهو يعاني الغصّة وتطلع الى السماء رافعا نحوها إبهامه الأيمن، وردد متمتماً شهادة الايمان التي يتلفظ بها كل مسلم يحس بساعة الموت: " اشهد ان لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله ". ثم سقط دون حراك على متن جواده، فنقل إلى فراشه وكان قد فارق الحياة.

وأخفى من كان حوله خبر وفاته، تاركين الفرصة للظن أنه يستريح في الفراش، ولأجل هذا الايحاء لجأ حاجبه " رضوان الوِلْد " إلى وسيلتين: فمن جهة، أوقف إلى جانب المرحوم غلاماً يافعا شديد الذكاء وفي الثانية عشرة من عمره، وكان عليه أن يراقب مجرى المعركة في الخارج، وأن يلتفت نحو داخل المحمل ويتكلم إلى مولاي عبد الملك، كما لو أنه يعلمه حول مجرى العمليات؛ ومن جهة أخرى كان " رضوان الوِلْد " يروح ويجيء عبر الوحدات المغربية قائلاً حسب التعابير التي نقلها المؤرخ المغربي الأوفراني: " السلطان يأمر فلانا بالذهاب إلى مكان معين، وفلانا آخر بالبقاء قرب المعلم، وثالثا بالتقدم إلى الأمام، ورابعا بالعودة إلى الوراء الخ... ".

وبعد لحظات، كان يمكن لسيء الحظ مولاي عبد الملك أن يرى بارتياح أن المهاجمين بقيادة " دورات " و " دوق أفيرو " و " مولاي محمد " غير قادرين على متابعة ضغطهم على مواقع " محمد زاركو " وأرغموا المهاجمين البرتغاليين على الانكفاء والعودة نحو مواقعهم الأصلية، إذ أسرعت بعض الوحدات المغربية الموجودة في المؤخرة لنجدة محمد زاركو. وأكثر من ذلك، فقد وصل هؤلاء المغاربة إلى قطع المدفعية البرتغالية الستة والثلاثين واستولوا عليها، وتمكنوا من نقلها الى مؤخرة الجبهة المغربية.

وفي الوقت ذاته، اندفع فرسان زاركو الذين ارتاحوا وزادوا شجاعة، يلاحقون البرتغاليين المنكفئين. وحصروهم بين حاجز العربات ووادي لوكوس، ولم يظهروا أية مقاومة. فأصيبوا بالذعر وحاولوا الهرب، واستسلم بعضهم أو قتل، وانطلق البعض الآخر هارباً. وغرق بعض الهاربين، وهم يحاولون اجتياز نهر المخازن، وبثّ الآخرون الفوضى في عناصر المؤخرة البرتغالية. ولقي المؤيدون لمولاي محمد المصير ذاته. واستسلم " دورات دومينزس " وقتل " دون أفيرو ".

وأما السلطان السابق مولاي محمد، فقد أطلق العنان لحصانه باتجاه أرزيلا محاولاً النجاة، كما في الماضي، وأراد اجتياز وادي المخازن، بيد أن النهر المليء بالوحل، كان ذا مدٍّ عالٍ بفضل القرب من المحيط الأطلسي. وللخلاص من الوحل، ألقى الحصان من فوق متنه فارسه الذي لم يكن يعرف السباحة فغرق.

وفي الوسط كان المغاربة يتابعون تقدمهم، وأصبحت المدفعيتان وجهاً لوجه. وشيئاً فشيئاً كان الألمان يفقدون من مواقعهم ويتراجعون إلى الوراء. وصمد الايطاليون والإسبان طويلا، ووصلوا في القتال إلى الالتحام بالسلاح الأبيض، ولكنهم انتهوا إلى الفناء " ومات جميعهم تقريباً ".

في هذا الوقت، في الجناح الأيسر للجيش البرتغالي حيث يقاتل الملك " دون سيبستيان " وفرسانه، كان الوضع يصبح أكثر خطورة بين لحظة وأخرى. وكان القرن الأيمن للهلال المغربي يدفع بالعشرة آلاف فارس بقيادة الأمير مولاي أحمد ضد فرسان الملك الشاب، فشددوا من ضغطهم، والتفوا نحو الشمال شيئاً فشيئاً، وتقدموا نحو مؤخرة البرتغاليين في محاولة لمهاجمتهم ومفاجأتهم من الخلف. وساعدهم في ذلك الألوف من فرسان الجهاد الذين تدفّقوا من المرتفعات المحيطة. فتجمعت الوحدات البرتغالية على بعضها بدون تنظيم محدثة اختلاطاً مفرطاً بتأثير الهلع والرعب. وقتل ثلاثة أحصنة تحت جون سيبستيان الذين ظل يقاتل ببطولته ويحاول دون جدوى جمع فرسانه من أجل نجدة مؤخرة الجيش. وبعد ذلك بقليل لم يبق حوله إلا سبعة أو ثمانية فرسان من طنجة، من اكثر المتمرّسين في القتال وأشدهم صلابة.

وقد تكلم عن ذلك شاهد عيان فقال: " إن النبلاء الاسبان والفرسان البرتغاليين تركوا خيولهم متعبين أذلاء، والتجأوا في ظل العربات ليرتاحوا من حرّ المعركة، وبعد أن رأوا كل شيء يضيع ركنوا للفرار، وحاولوا الهرب على الأقدام أو على الخيول، فأخذوا طريق أرزيلا، وتعرّضوا لمذبحة كبيرة... ".واستمر دون سيبستيان يقاتل وحيدا تقريبا. وأخيرا أحاط به حوالي ستون فارساً مغربيا وأوقعوه عن حصانه وقتلوه.

وعندما لم تبق أية مقاومة أمام وحدات مولاي أحمد والمجاهدين التفوا على مواقع المؤخرة المسيحية ففرقوها بسرعة. وكان ذلك بداية الكارثة وإبادة الجيش البرتغالي،

الأمر الذي امتد حتى مغيب الشمس.

فقد قطعت أمامهم طريق الإنسحاب بسبب المدّ الذي ظهر على نهري اللوكوس والمخازن وأصبحا غير قابلين للاجتياز، فوجد المحاربون البرتغاليون أنفسهم محصورين بطريق مسدودة، ومطوّقين من جميع الجهات، مما أدى إلى التشتت والى الهروب غير المنتظم، مع كل نتائجه المأساوية والمتنوعة. فألقوا أسلحتهم وتسارعوا نحو المركز محاولين إيجاد مخبأ داخل الموكب.

وأخذ الجنود والنبلاء ورجال الدين والخدم والأحصنة والعربات والخيم والمقصورات المليئة بالأمتعة، أخذ كل ذلك يتجمع في مكان ضيق، فوقعت حالات عديدة من الاختناق والدهس تحت الأقدام وتحت الأحصنة والعربات.

وأطبق الفرسان والمشاة المغاربة من كل الجهات على هذا التكويم وأخذوا يُصفّون الجيوب الأخيرة للمقاومة. وكتب المؤرخ الأوفراتي عن ذلك قائلاً:

" وأدار الكفار ظهورهم مقهورين، ومحصورين في دائرة الموت، فرأوا السيوف تنقضّ على رؤوسهم، وعندما حاولوا الهرب، كان ذلك قد أصبح متأخراً... ".

وأبيدت كل مقاومة، ولكن تلك المشاهد الحزينة المعتادة في نهاية مثل هذه المعارك: حيث كانت محاولات الهرب والمطاردة تنتهي بإلقاء القبض على الهاربين أو غرقهم، وتنظيم الأسرى وإحصائهم، والسلب المنتظم للغنائم، مما سبّب النزاع بين السالبين في بعض الأحيان، إلخ...

وعند مغيب الشمس لم يكن قد بقي شيء من جيش دون سيبستيان، ودقّ الأمير مولاي أحمد بوق التجمع، وفي صمت عميق من الحزن والأسى أعلن وفاة أخيه مولاي عبد الملك، ونصب ملكا على المغرب بصفته وريثا للعرش، في ساحة المعركة نفسها.

وهكذا انتهت معركة الملوك الثلاثة، ومات فيها الأمراء الثلاثة، الأول ميتة طبيعية، والثاني بالسيف والثالث غرقاً في الماء. كما قال " فرانشي دون كونستاجيو ": " مات الثلاثة وهم يتطلعون إلى عرش المغرب، ولم يتمتع به أي منهم، كما استنتج لويس نيتو ".

وكانت حصيلة المعركة ثقيلة جدا بالنسبة للمملكة البرتغالية، حيث قتل فيها ثلاثة آلاف مغربي، مقابل خسائر للبرتغاليين قدرت بـ 14 الف قتيل وعشرين ألف أسير من الجنود والنبلاء والناس العاديين، وتمكن حوالي خمسين شخصا من الفرار والنجاة.

إيجاد جسد سيبستيان وتحنيطه:

وفي اليوم التالي في الخامس من آب / اغسطس أمر السلطان المغربي الجديد مولاي أحمد بجمع النبلاء البرتغاليين واستجوبهم حول مصير ملكهم.

وأجاب البعض أنهم لا يعرفون شيئاً عنه، والآخرون قالوا إنه نجح في الهرب دون شك. وبعد الظهر حضر نبيل شاب يدعى " سيبستيان دوريزيند "، كان يعمل خادماً في غرفة دون سيبستيان أمام الشريف الجديد وأكد أن سيده قد مات وهو يقاتل، وأعلن أنه يعرف المكان الذي قتل فيه، ويمكن إيجاد جسده. فقدم له بغل وبعض الحراس وذهبوا جميعا الى المكان المعنيّ. وهناك كان يتمدد جسد دون سيبستيان عاريا تماماً. فلفّ بغطاء ووضع على ظهر البغل، وأحضر إلى أمام مقصورة السلطان.

ووضعت الجثة على حصير مصنوع من القصب. وكان في رأسه خمسة جروح: إثنان منها عميقان فوق العين اليمنى، ولكن جسمه لم يصب بأية جروح بسبب الدرع الذي كان يرتديه أثناء القتال، والذي عرّاه منه سالبوه. ويشير المؤرخون البرتغاليون والإسبان أن الشريف قد أبدى تأثرا عميقا لرؤية الجسد.

وطلب مولاي أحمد من النبلاء الاسبانيين والبرتغاليين الإقرار بأن الجثة لملكهم، لكي يمكن العمل على دفنها. فشهد الجميع أنها فعلا لدون سيبستيان، وصدرت إرادة ملكية بنقل الجثة الى الكاردينال دون هنري.

وبعد ذلك، حنط الجسم ونقل الى القصر الكبير بأمر من الشريف، وسمح لواحد من النبلاء يدعى " بيلشيور أمرال أختير " من بين الأسرى، بالسهر على هذا النقل وتقديم مراسم الشرف الأخيرة للجثة الملكية. وفي السابع من آب وضع التابوت الذي يحتوي على الجثة في صالة صغيرة في قصر الحاكم ابراهيم السفياني.

وبعد أن أنهى بيلشيور مهمته، عاد الى السلطان وطلب السماح له بالذهاب إلى أرزيلا للبحث عن المال الذي يجب إيجاده على متن الأسطول، ليستخدم في دفع الفدية، إن

لم يكن عن جميع النبلاء، فعلى الأقل الاساسيين منهم. وكان مولاي أحمد يستعد للذهاب إلى فاس فسمح له بعد أن تعهد بالعودة.

وفي التاسع عشر من آب وصل " امرال " إلى أرزيلا. ومن هناك إلى طنجة، فلم يجد الأسطول هناك، وكان قد نقل فيه بعض الجرحى والناجين إلى لشبونة. فكتب " أمرال " عندها تقريرا مفصلا الى الكاردينال دون هنري، والى الحكام السبعة في المملكة، ولقي مركبا يأخذه الى المرسل لهم، ثم عاد أدراجه إلى فاس لأجل تسليم نفسه للأسر، كما أقسم على ذلك أمام الشريف.

وبعد وصوله إلى فاس، كتب الملك الجديد للمغرب إلى ملك إسبانيا لإبلاغه، – كما فعل أخوه المرحوم مولاي عبد الملك – برغبته في السلام وعلاقات الصداقة بين مملكتيهما، وأعلن استعداده لإرسال جثة ابن أخته دون سيبستيان مجانا، ولإطلاق سراح سفيره " دون جوان دوسيلفا " فورا، كمبادرة أولى على استعداده الطيب للصداقة.

لم يقبل فيليب الثاني إلا سفيره، مضيفا أن تُسلّم جثة ابن أخته إلى البرتغاليين. وتقديراً لمفهوم الشريف التحرري، أرسل له نبيلاً يدعى " بيار فينيغا " حاملا هدية من الأحجار الكريمة قدرت بقيمة عشرة الاف دوكا (نقد ذهبي قديم في البندقية) وطلب أن يطلق سراح دوق بارسيلو الشاب الذي كان يبلغ الثانية عشرة من العمر تقريباً.

ووصل خبر الكارثة البرتغالية إلى سبتة سريعاً، ثم إلى جبل طارق، حيث نقلها أحد عملاء دون سيبستيان برسالة الى لشبونة. وفي الأخيرة عرفت في الرابع عشر من آب واثارت هيجانا كبيرا.

ورغم أن القصة كانت مهمة والتفاصيل قليلة، فقد انتشر الحزن والبكاء والتساؤل دون إجابة وإذا لم يكن هناك شك من أن الجيش دمرّ تدميراً كاملاً، فان الإشاعات الأكثر تناقضاً حول الملك، يجري تداولها. فبعضها كان يقول أنه قد قتل، وأخرى أنه غرق، ولكن اكثرها كان يؤكد أنه نجح في الإفلات.

قد يكون الملك حيّاً! وكان هذا الأمل الجنوني ينسر وينتشر عبر البلاد. وبعد ذلك بعدة أيام، أدى وصول الأسطول الى لشبونة إلى تفاقم الحيرة في الأذهان، وإلى مضاعفة الشكوك وترسيخ الآمال الجنونية، وبالتالي آمال الحدث الذي كان جرى في أرزيلا عند

رحيل الأسطول.

وفي الليلة التي تلت إبادة الجيش البرتغالي، جاء ثلاثة ناجين يدقون أبواب مدينة أرزيلا، ويطلبون الاستعجال لأن أحدهم كان هو الملك. وفتحت البوابة لهم. وكان أحد الثلاثة يلتف بمعطف واسع، محاولاً الظهور كأنه فئة أعلى بسبب مظاهر الاحترام التي كان يبديها له الاثنان الآخران، ودخل وحده إلى أحد البيوت لكي يمضي ليلته.

وفور ذلك انتشر في المدينة خبر مفاده أن الملك أفلت من المغاربة، وأنه وصل إليها، وأنه سكن في أحد بيوتها، وظهر انفعال كبير! وصار يشار إلى هذا البيت، ويتمّ الإقتراب منه. ولكن أحداً لم يجرؤ على الدخول إليه. ووصلت الإشاعة إلى رجال سفن الأسطول، وإلى الأميرال " دون دييغو " وإلى قاضي المدينة. فنزل هذا الأخير إلى اليابسة، وحضر لدى الشخص السرّي، ولاحظ أنه لم يكن الا واحداً من النبلاء الذي نجا من المعركة، بعد أن أصيب بجرح خفيف.

وقد أنبّه القاضي " فونسيكا " بقساوة بسبب الاحتيال الذي استخدمه لأجل أن تفتح أبواب المدينة، فأثار الكثير من الانفعال والأمال الجنونية في المدينة، وبين رجال الأسطول. وأقسم الرجل الشاب أنه لم يقل ان الملك موجود هنا، بل إنه قادم من المكان الذي يوجد فيه الملك، وتوسل إلى قاضي المدينة أن يبحر إلى البرتغال.

ووافق القاضي على نقله على متن سفينة شراعية حربية، واتخذ عدة اجراءات احتياطية تجنبا لتعرضه إلى اعتداءات محتملة من قبل الشعب الخائب، مما أدى الى ترسيخ كونه الملك دون سيبستيان بين رجال الأسطول، وأنه سيعاد إلى لشبونة في مقصورة من سفن الأسطول.

وعندما عاد القاضي اكتشف أنه لم يتوصل إلى إقناع الناس أن الشخص المذكور لم يكن الملك. فدعا إلى اجتماع عام رسمي حضره الأميرال وقادة سفن الأسطول والنبلاء الحاضرون، وبعض الناجين من المعركة، وأعاد شروحاته المتعلقة بالنبيل الشاب الذي جرى إبحاره، وطلب من كل واحد أن يقول ما يعرفه عن المعركة، وحول مصير الملك، فأعلن الجميع ما كانوا يعرفونه، وأكد أربعة أشخاص من الناجين أنهم رأوا جثة الملك، فنظم محضرا وقعه الجميع وطلب إرساله الى الكاردينال هنري الرابع.

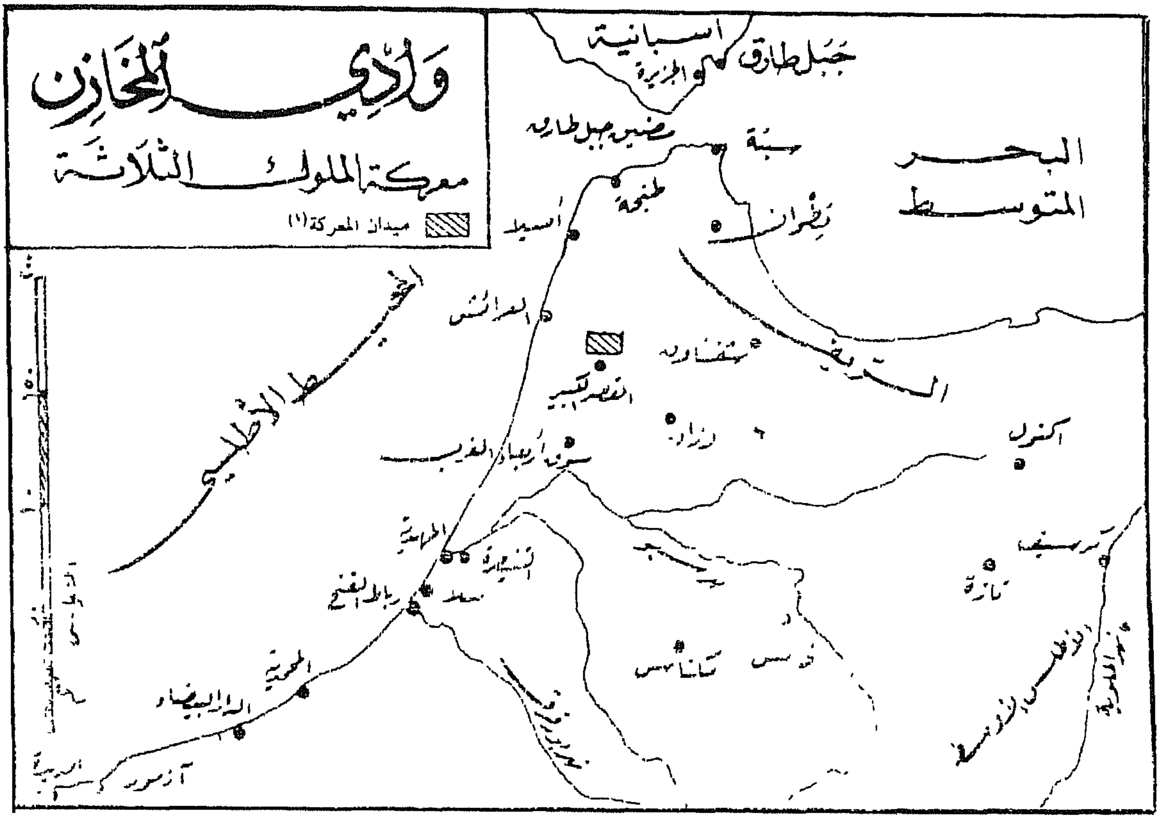
ولم يُبال رجال الأسطول بهذا الاجتماع، وما قيل فيه، والمحضر، فاستمرت سذاجتهم تذكرهم بالشخصية السرّية التي قدمت إلى أرزيلا، مساء المعركة، وبطريقة نقله بحرا بحرص شديد، وأنه هو ملكهم الذي ظل مختبئاً في إحدى سفن الأسطول.

وما كادوا ينزلون لشبونة، حتى انتشر الخبر الجديد فيها عبر المملكة كلها. ومع مرور الأسابيع أصبح الخبر المكرر والمضخّم، ووصل إلى الجماهير الشعبية والطبقات الوسطى: الملك حيّ فعلاً، إنه مخفي وخجول من الهزيمة والندم لأنه جرّ عدداً كبيراً من رعاياه إلى الموت، ولكنه سيأخذ مكانه على العرش بعد فترة. فشكّل ذلك بدايات ما يمكن تسميته " السيبستانية ".

المراجع

1 – يونس نكروف " معركة وادي المخازن بين الملوك الثلاثة ". ترجمة د. وفاء موسى ويشو وحسين حيدر. منشورات عويدات. بيروت – باريس وسوشبرس – الدار البيضاء. الطبعة الأولى 1987.

2 – شوقي أبو خليل " وادي المخازن ". دار الفكر المعاصر – بيروت. ودار الفكر – دمشق، 1989.



المرجع: شوقي أبو خليل " وادي المخازن ". دار الفكر المعاصر – بيروت. ودار الفكر. دمشق 1989. ص 59 – 60.

معركة الولجة

(12 هـ - 633 م)

هي احدى المعارك الفاصلة التي خاضها الجيش العربي الاسلامي، بقيادة خالد بن الوليد، ضد الجيش الفارسي بقيادة " الأندرزغر "، وذلك بعد الهزيمة الساحقة التي مني بها الفرس وهلاك قائدهم هرمز فيها سنة 633، حيث تقدم العرب المسلمون بعدها في جنوب العراق لإكمال المسيرة الحربية ضدهم. إذْ فور تلقّي عاصمة الفرس (المدائن) أنباء دخول وتحركات جيش التحرير الاسلامي في جنوب العراق، سارعت بتحريك جيش قوي من القوات الفارسية النظامية ومن قوات القبائل العربية وأسندت قيادته إلى (قارن بن قريانس)، وكان مساوٍ لهرمز في المكانة والرتبة والقلنسوة، وكلف بالتقدم جنوباً على ضفة دجلة اليمنى (الغربية) حتى وصل المذار (وهي بلدة تبعد مسيرة أربعة أيام عن البصرة) ، وليس من الواضح لدينا إن كان قد كلف بنجدة هرمز أم البقاء في (المذار)، التي وصلها فعلاً وتقدم منها إلى نهر المذار أو الثني (والعرب تسمي كل نهر ثني) واجتازه عند نقطة اتصاله بدجلة بعد أن كان قد عبر دجلة الى الضفة اليسرى (الشرقية) (حيث لم تورد المصادر سبب هذا العبور وموعده)، وهنا جاءته أنباء كارثة كاظمة وهلاك هرمز، كما بدأت فلول الفرس بقيادة الأميرين (قباذ) و (أنو شجان) بالوصول والانضمام الى قوته، فقرر التوقف مستنداً بظهره إلى نهر المذار بانتظار جيش خالد، ورغم الهزيمة والموقف الحرج يقول الجنرال آغا أكرم عن الفرس.. " لم تكن معنوياتهم (عالية) كما كانت في كاظمة لكنهم كانوا رجالاً شجعاناً، وكان ردّ فعلهم ناجماً عن الغضب وليس من الخوف بسبب الهزيمة التي حلّت بهم، وكان (قباذ) أو أنو شجان) متشوّقين للمعركة مرة أخرى ولم يصدقا - ومعهما قارن - هزيمة جيش امبراطوري واندحاره في معركة على أيدي قوات المسلمين غير المثقفة والبسيطة القادمة من الصحراء، ولم يدركوا ان جيشاً اسلامياً رفيع المستوى قوي العقيدة هو الذي خاض معركة كاظمة لا قوة من العرب غير المتحضرين، وكان قارن حكيماً في إسناد قواته الى

النهر، إذ بوسعه خوض معركة جبهوية من النوع الذي يحبه الفرس ويناسب تدريبهم ونظامهم ".

كما أصدر كسرى أمراً بتحشد المقاتلين في العاصمة الامبراطورية عدا المرابطين منهم في المناطق المتاخمة لامبراطورية بيزنطة، وأمكن حشد أول جيش خلال بضعة أيام. كان الفرس يرون أن العرب سيتقدمون – بعد معركة كاظمة – على محور الفرات كي يظلوا قريبين من الصحراء، إذ لا يعقل ان يواصلوا التقدم على محور دجلة أو ما بين النهرين، كما اختار الفرس (الولجة) كمنطقة تحشد رئيسية لهم لإيقاف العرب ودحرهم ومنعهم من التقرب إلى الحيرة.

أنيطت قيادة هذا الجيش إلى (الأندرزغر) الذي كان حاكماً عسكرياً لولاية خراسان، وهو فارسي من مواليد المدائن، وقد ترعرع بين العرب، ويمتاز عن أبناء طبقته بحبّه للعرب " حباً حقيقياً " (كما يرى الجنرال أغا أكرم). كانت مهمة أندرزغر التقدم على الضفة الشرقية لدجلة حتى كسكر (بين الكوفة والبصرة)، فإن التقى المسلمين قاتلهم وإلا عبر دجلة واتجه غربا إلى (لوجة) على الفرات. وكان الأندرزغر قد أرسل وهو بعد في المدائن عدة مبعوثين الى القبائل العربية في المنطقة للانضمام إليه، وأكمل خطة سيره الى (كسكر) ثم الى الولجة حيث أقام معسكره هناك. كما ضمّ إليه من تصادف وجوده من فلول جيش قارن بعد هزيمتهم في معركة المذار (معركة النهر).

كذلك تم تشكيل جيش جديد في المدائن أنيطت قيادته باحدى الشخصيات العسكرية البارزة (بهمن جاذويه) وهو ممن حازوا القلنسوة الذهبية (قبعة الماريشالية) وأُمر حال إكمال تحشّد جيشه بالحركة إلى الولجة على ان يسلك الطريق المار بين النهرين، وأن يضم إليه أكبر عدد ممكن من الدهاقين والقبائل العربية على أن يتولى (أي بهمن) قيادة جميع القوات الفارسية في الولجة حال وصوله، وان يتولى بهذه القوة الهائلة تدمير القوات الاسلامية في معركة واحدة. وقد تأخّر في حركته لعدة أيام بعد جيش الأندرزغر، كما انه لم يكن على عجلة من أمره، كما يبدو.

هكذا كان الموقف الفارسي، أما على صعيد موقف القوات العربية فقد انتهت معركة كاظمة باندحار الفرس وهزيمة فلولهم باتجاه محور دجلة، ونجح خالد بن الوليد

بالاستيلاء على مدينتي كاظمة والابلة، واستولى على غنائم هائلة وسبيّ كثير،، والكثير من الخيول والسلاح. كما أمر قواته بمطاردة فلول الفرس، ووجه المثّنى وأخاه المعنى نحو حصن ونهر المرأة. وتابع المثنى فلول الفرس نحو المذار. كما نشر خالد العيون والأرصاد في المنطقة لإبقاء الفرس تحت رقابته الشديدة. كما استخدمت خيالة المثنى الخفيفة في المطاردة وتحقيق التماس مع الفرس، حتى وصل موضع المذار. وبعد أن أدرك المثنى متانة وضخامة القوات الفارسية أرسل رسولاً إلى خالد بـ (وجود قوة معادية كبيرة عند نهر الثني)، كما أمر خالد أحد قادته وهو " معقل بن مقرن " بالسيطرة على الابلة، وسار خالد نحو المذار واجتمع بالمثنى في 3 نيسان / ابريل سنة 633 (1 صفر – 12 هـ). وبعد استطلاع شخصي لموقع الفرس لم يجد مجالاً للالتفاف حول جناحهم، كما لم يجد وسيلة لإغرائهم أو إجبارهم بترك الموقع المستند على النهر، لذلك لم يجد بداً من خوض المعركة مع الفرس بالاسلوب التقليدي أو الهجوم الكتلوي بعد سيل من المبارزات الفردية. وكان قارن قد أبقى عدداً كبيراً من القوارب جاهزة في دجلة وقريباً من مواقع قواته. بينما أن خالد بن الوليد وضع كلاً من عاصم بن عمرو وعدي بن حاتم الطائي لقيادة الجناحين في مقابلة قائدي جناحي الفرس (قباذ) و (أنو شجان) واختار خالد وقارن بن قريانس قيادة قلب قوتيهما.

هذا وقد كان قارن أول من خرج طلباً للمبارزة. وعندما همّ خالد بالخروج له سبقه فارس آخر هو " معقل بن الأعشى " وتمكن من قتل قارن، فخرج القائدان قباذ وأنو شجان فقابلهما قائدا جناحي المسلمين، فقتل قباز على يد عدي بن حاتم، كما قتل أن شجان على يد عاصم بن عمرو، وعندها أمر خالد بشن الهجوم العام، فاندفع المجاهدون لمهاجمة جيش الفرس الأكثر عدداً. ورغم انهيار معنويات الفرس وحصرهم في ذلك الجيب، حتى لا مجال لديهم بالحركة أو الانسحاب كما يشاؤون، إلا أنهم كما يبدو، قاتلوا عن حياتهم ونجحوا بصد صولات المسلمين الأولى. ولفقدهم قادتهم الثلاثة الكبار، سرعان ما انهارت معنوياتهم وصفوفهم، وأسرعوا نحو النهر، وقد نجا الكثيرون منهم بالوصول الى القوارب وعبور النهر، وقد تمكن المسلمون من قتل الآلاف منهم وبلغ عدد القتلى حوالي الـ (30) ألف رجل. ولعدم امتلاك المسلمين لوسائط العبور توقفت المطاردة والمعركة

معاً على ضفة النهر. وكانت غنائم المسلمين في هذه المعركة، تزيد على غنائم كاظمة.

وزع خالد بن الوليد بعض الحاميات الصغيرة للسيطرة على المنطقة، كما أمر " سويد بن مقرن " بفتح مقرٍّ له في (الحفير) كأمير أو حاكم للمنطقة، وأناط به مسؤولية جباية الجزية، ولم يَنْسَ بثّ العيون والأرصاد وراء جيش قارن لمتابعة تحركاته.

وكانت معركة المذار (النهر) نصراً رائعاً للمسلمين وتأكيداً لقدرات خالد بن الوليد وبراعته في المناورة، اذ نجح بتدمير جيش فارسي كبير أحسن إعداده واختيار موقع المعركة، أي ان الفرس هم الذين اختاروا مكانها. ولعدم تيسّر فسحة كافية للمناورة، لم يجد خالد بدّاً من خوضها، ولعلّه تذكر ساعتها تحديد مقر الخلافة للعمليات بمحور الفرات والحيرة، أو تجنب الدخول في العمق الفارسي، ونجح خالد حتى الآن بدحر الفرس في معركتين كبيرتين حشدوا لهما قوات ضخمة. " كان يفكر بطريقة منطقية فهو أول قائد مسلم ينطلق على رأس قيادة مستقلة والاصطدام بقوات دولة عظمى "، كان خالد استراتيجياً بارعاً في تقديره للموقف، كما وزع شبكة اختار عناصرها بدقة من الجواسيس والعيون معتمداً على القبائل العربية التي بدأت تقتنع بفكرة تحريرها من نير الفرس. وبدأت المعلومات (المواقف) تصل تباعاً عن تحركات أعدائه، وعرف بتحرك الأندرزغر من طيسفون (المدائن) ومن العناصر العربية في جيشه ومن التحق به من قوات قارن التي نجت من معركة المذار، كذلك جاءته بعض المعلومات عن جيش (بهمن جاذويه)، والهدف النهائي لكل هذه التحركات (الولجة) أو (الشطرة حالياً بين الكوت والناصرية)، ولم يكن من السهل غربلة هذه المعلومات بسرعة، كما تأخر وصول الكثير منها بسبب طبيعة المنطقة وصعوبة التنقل فيها لكثرة القنوات و (الشوق) والبساتين، ولم يكن بوسع خالد التحرك بسرعة نحو الولجة لسببين:

أولاً: ليس من طبع خالد التعجل والاندفاع كما ان قواته موزعة فوق منطقة واسعة من جهة وفي حاجة ولو إلى بعض الراحة.

ثانياً: صعوبة التنقل من المذار إلى الولجة، أي عبور الرافدين في الوقت الذي لم يعتد فيه خالد استخدام السفن، كما لا يملك منها شيئاً.

لذا قرر خالد العودة من حيث أتى، وكان ذلك بعد شهرين من دخوله العراق،

سيّما وانــه أمــّن حماية كافية لطريق مواصلاته بالحاميات التي تركها في الابلـة وكاظمـة والحفير مفضلاً ذلك على الطريـق (العرضـاني) والأقصـر بيـن المـذار والولجـة تجنّبـاً لعبور الأنهر والأهوار؛ وعبر خالد دجلة العوراء (شط العرب) على الجسر الأعظم بعـد أن أصدر تأكيدات جديدة لحامياته بالحذر والتنبّه لتحركات الفرس كي لا يؤتى مـن خلفـه. وكانت المعضلة الكبرى التي كانت تشغل كل تفكير خـالد هـي الطريقـة التـي سيواجه بهـا جيشي (الأندرزغر) و (بهمن جاذويه) في الولجة. أمـا الأندرزغر فلعلّـه كـان يتعجـل لقاء خالد قبل وصول بهمن جاذويه وتوليه قيادة الجيشين، كما انه كان يحلـم أيضـاً بنصـر سريع يكفل له قلنسوة الشرف.

إزاء هذا الوضع، كانت المعركة بين الفريقين في (الولجة)، أمراً حتميـاً، فـرض على كل فريق منهما أن يعدّ العدّة ويستعد لساعة الصفر التي كان موعدها في 12 صفر / 12 هـ.

ويبقى علينا أن نتساءل: كيف كانت ساحة المعركة؟ وماذا عن خطـة كـل طـرف؟ وكيف كان سير المعركة؟ وبالتالي ما هي الملاحظات التي يمكن استخلاصها منها؟

في الحقيقة، لقد اعتمد الموقف الفارسي، وبالتالي قرار " أرد شير " علـى العوامـل التالية التي روعيت لدى الجانب العربي والمسالك التي يمكن أن يتوصل إليهـا وفقـاً لحجـم جيش خالد بن الوليد.

أ – لن يتخلى الجانب العربي عن محور الفرات لأنه الأقرب إلى الصحـراء وإلـى الحيرة أيضاً ولا يوقع العرب في متاهات محور دجلـة وأنهـاره وأهـواره والقبـائل العربيـة الموالية للفرس.

ب – محور الفرات هو المحـور الأبعد إلـى المدائـن، كمـا أنـه سيجبر خـالد علـى خوض سلسلة معارك لا بد من دحره في واحدة منها.

ج – في حالة إصرار خالد على متابعـة تقدمـه نحـو المدائـن علـى محـور دجلـة، فجيشـا الاندرزغـر وبهمـن جاذويـه كفيـلان بإحاطتـه مـن الخلــف وحصــره بيـن قوتيـن فارسيتين.

لذا جاء قرار أردشير بدفع الجيشن الآنفي الذكر إلى محور الفرات، والاستفادة من

تفوقهما لدحر خالد بن الوليد مع التأكيد على الاستعانة بالقبائل العربية، وحتى النصراني منها في ذلك. إلا أن ما ينساه الفرس عادة هو " عامل السرعة في التنفيذ " أو سرعة الحسم، إذ اعتادوا انضاج خططهم على نار هادئة جداً. ويصوّر لنا " كلوب باشا " في كتابه عن " الفتوحات العربية الكبرى " عامل السرعة عند بحثه معركة اجنادين وكيف أن العرب بعد معرفتهم بحركة القوة البيزنطية الرئيسية لضرب رتل عمرو بن العاص في سهل بئر السبع وكيف أسرع العرب لقطع الطريق على الروم ونجحوا في ذلك وألحقوا بالعدو خسائر وهزيمة ساحقة في معركة أجنادين... " وهكذا تمكن العرب السريعو الحركة على إبلهم وتعوّدهم شظف العيش والسير ليلاً نهاراً معتمدين في غذائهم على قطعة من الخبز، من كسب السباق مع الجيش الروماني البليد المترهل الذي يثقل سيره بما يحمله من معدات... ووقعت معركة عظيمة في تموز (634) في أجنادين مني الروم فيها بهزيمة كاملة... " لا يختلف الروم عن الفرس في ذلك.

د – شكل الفرس جيشين الأول بقيادة الأندرزغر وأرسل على وجه السرعة إلى الولجة وقد مرّ قرب المذار في الوقت الذي كان جيش قارن يعاني من ويلات اندحار مدمر كان هو أول ضحاياه. ولم يفعل الأندرزغر أكثر من جمع ما وسعه من فلول جيش قارن وضمها إلى جيشه السائر إلى الولجة.

أما الجيش الثاني فبقيادة بهمن جاذويه (وهو ممن تم شرفهم وألبسوا القلنسوة الذهبية) والذي عيّن قائدا عاماً للساحة، ولم يكن كذلك على عجلة من أمره بل أناط مسؤولية القيادة بأحد مرؤوسيه، وعاد هو إلى المدائن ليكون قريباً من مليكه المريض.

العرب:

2 – كانت معركة المذار (النهر) إنتصاراً حاسما للمسلمين، وكان الثاني بعد الانتصار في كاظمة وقتل فيها (4) من قادة الفرس الكبار وعشرات الآلاف من الجنود ناهيك عن الغنائم من الأموال والسلاح والسبي، وكل ذلك خلال شهرين، وخالد ما زال بعد يقاتل على أطراف إمبراطورية فارس، ورغم المعنويات العالية لجيشه فلا بد من نيله قسطا من الراحة. كما كان خالد في حاجة لتنظيم الشؤون الإدارية للمنطقة التي باتت تحت سيطرته، ولا بد من ترك بعض الحاميات الضرورية على أن لا يؤثر ذلك على القوة

القتالية. ولم يكن خالد من القادة الذين يرجعون في كل أمر إلى مقر الخلافة لاستلام التوجيهات، بل كان يحسم كل شيء بنفسه اقتصاداً بالوقت ولكونه الأدرى بالموقف، وركز على الاعتبارات الملّحة في موقفه:

أ – الاستطلاع والاستخبارات، وزع خالد شبكة كبيرة من العيون والأرصاد ودوريات الاستطلاع من الفرسان لتزويده بأية معلومات عن العدو، كما استفاد من حسن معاملة إخوانهم من جند العرب لهم.

ب – عرف خالد بتحرك الأندرزغر من طيفسون (المدائن) ومن انضم إليه من العرب ومن فلول جيش قارن، كما عرف بحركة الجيش الثاني بقيادة بهمن جاذويه، ولفت نظره خط سير هذه القوة الوسطى بين النهرين. وكان اكثر ما يخشاه خالد اجتماع هاتين القوتين الفارسيتين واحتلال الأبلة ثانية، وقطع طرق مواصلاته مع الصحراء، ولعله فكر بالاسراع نحو الحيرة ولكن لا بد له من المرور بالولجة إذ ليس بوسعه ترك قوة كبيرة من الفرس خلفه.

ج – واجهت خالد مشكلتين: الأولى استراتيجية هي تعدد الأرتال والجيوش الفارسية وقدرتها على التحرك في أي اتجاه شاءت، أو تطويقه هو وجيشه، فهناك كسكر وطيسفون (المدائن) والولجة والحيرة بالإضافة إلى من نجا من فلول معركة كاظمة والمذار. والمشكلة الثانية هي تعبْويّة، وتتلخص في السرعة بتوجيه ضربة حاسمة وسريعة إلى أي من هذه المراكز، والتخلص بسرعة والتهيؤ لصد هجمة فارسية، أو توجيه ضربة أخرى. ولم يفته هنا ضرورة إلحاق هزيمة كاملة بعدوّه وتدمير أكبر ما يمكن من قواته لمنعه من خوض معركة ثانية ضده (أي ضد خالد).

د – كان قرار خالد هو الإسراع جنوباً إلى الأبلة ومنها التقدم شمالاً على نهر الفرات لملاقاة جيش الأندرزغر.

<u>ساحة المعركة:</u>

3 – يتألف ميدان المعركة في الولجة من سهل مستوِيين هضبتين منبسطتين قليلتي الإرتفاع، وتبعدان قرابة ميلين عن بعضهما، ولا يزيد ارتفاعهما عن (20 – 30) قدماً. وهناك تلة ثالثة في الركن الشمالي الشرقي من السهل يمكن اعتبارها امتداداً

للهضبة الشرقية، بينما يمتد السهل جنوباً نحو صحراء السمادة، وكانت تلك التلة من فرع صغير للفرات يعرف " بنهر الخسيف ".

نشر الأندرزغر جيشه وسط هذا السهل، وكانوا يواجهون الشرق والجنوب الشرقي جاعلين الهضبة الغربية خلفهم، وأسندوا بهذا الشكل جناحهم الأيسر على سفح الهضبة الشمالية.

أما خالد فنشر جيشه أمام الهضبة الشرقية مباشرة في مواجهة الفرس، وكان خط المنتصف بين الجيشين على بعد ميلين جنوب شرقي (عين المحاري) الخالية وعلى ستة أميال جنوب ناحية (الشنافية) الخالية.

خطة الطرفين:

4 – الفرس: بعد أن وزع الأندرزغر قواته في مواقعها في الولجة، بات موزعا بين انتظار الجيش الإسلامي وهو يأمل بدحره سريعا علّه يسجل لنفسه انتصارا حاسماً قد يصعد به إلى مستوى القادة الكبار من الفرس ممن تم شرفهم، ومن الناحية الأخرى كان يتحسب لوصول الجيش الفارسي بقيادة بهمن جاذويه الذي سيتولى القيادة على الجيشين حال وصوله.

5 – العرب: بعد أن أصدر خالد بن الوليد وصاياه إلى حامياته بالحذر الزائد، قسم جيشه إلى ثلاثة أرتال وكما يلي:

أ – الرتل الأيمن بقيادة بسر بن أبي رهم.

ب – الرتل الأيسر بقيادة سعيد العجلي.

ج – القسم الأكبر بقيادة خالد بن الوليد.

6 – خطة خالد بن الوليد:

إنطوت خطة خالد بن الوليد أساسا على تثبيت (أو هجوم جبهوي) ضد القوات الفارسية، مستهدفاً مشاغلتها واستدراجها كصفحة أولى من المعركة، ومن ثم التمهيد لضرب جناح أو جناحي الفرس (إحاطة أو تطويق) وتتم العملية بكاملها بصفحتين، وكما يلي:

أ _ الصفحة الأولى: قيام القسم الأكبر (الكوكب) بهجوم تثبيت مع التظاهر بالشدة والعزم، ومن ثم وبعد مناورات ومساجلات عنيفة تبدأ قوات خالد بالتراجع متظاهرة بالخذلان وخسارة المعركة، والقيام بانسحاب مدبر بقتال تراجعي.

ب – الصفحة الثانية: وينفذها الرتلان الأيمن والأيسر اللذان أخفى خالد مكان وجودهما في الليلة السابقة للمعركة، على أن يشنّا هجوميهما على جناحي الفرس حال إكمال خالد تطويره للموقف وإعطائهما الإشارة المتفق عليها.

ج – توقيت حركة التطويق: ليس ذلك بالأمر اليسير ونادراً ما يمكن تحديده بساعة معينة، أو بوصول القطعات إلى خط ما، لأن قائد المعركة هو الوحيد الذي بوسعه تحديد اللحظة المناسبة، وهي ما يدعى بتطوير الموقف (Developing of Situation). وتدخل في ذلك اعتبارات معينة مادية أو معنوية، ويمكن أن تكون في موقف كهذا وصول القوات الفارسية إلى خط معين، أو انكشاف أجنحتها أو مؤخرتها. ولا تروي المصادر ما نوع الإشارة التي أطلقها خالد لرتليْ الإحاطة.

د – ما من شك في استفادة خالد من التلال والبساتين القريبة التي أمكنه إخفاء رتليْ الإحاطة في اليوم السابق للمعركة وبعد حلول الظلام.

7 – سير المعركة:

لقد فرح الأندرزغر برؤية القوات الاسلامية، إذ لم تكن بالحجم الذي يعتدّ به، ولعله اتهّم كل الذين أبدوا إعجابهم بالعرب بالجبن وانهيار المعنويات (*)، وإلا كيف يمكن لقوة ضئيلة وبهذا الحجم أن تحدث كل ما سمعه من أعاجيب بقوات فارسية كديرة وبقادة مشهود لهم بالكفاءة وممن (تمّ شرفهم).

كانت ردود الفعل العربية مشابهة إذ أنهم توقعوا أن يكون جيش الأندرزغر أكثر بكثير مما بدا لهم. وبعد أن قضى الطرفان يوم اللقاء الأول في الاستعداد والاستطلاع ومحاولة معرفة الخصم، أو بالأحرى إخافته واستعراض القدرات المهيئة، كان خالد هو البادئ بالهجوم العام بأقوى وأشد ما بطاقتهم، إلا أن الفرس نجحوا بصدّ عدة هجمات عربية وكانوا يستبدلون رجال الصفوف بالاستفادة من القوات الاحتياطية من الخلف لإراحة الصفوف الأمامية، وقد خرج أحد مقاتلة الفرس أو أبطالهم المدعو (هزار مرد)

طالباً من يبارزه فتصدى له (خالد) الذي أنهى السجال بعد دقائق بقتله. بعدها ووفقاً للخطة المرسومة أظهر خالد بن الوليد وكأنه كلّ من القتال ولم يعد قادراً على بذل المزيد وبنفس الشدة، وأن هجوم الفرس حقق ما كانوا يريدون من امتصاص الهجوم الإسلامي ثم التحول إلى الهجوم المقابل. وظل فرسان المسلمين يرقبون خالد علّه يشير لهم بشيء، وأطل على الأفق رتلا خالد وهما يسرعان إلى أجنحة ومؤخرة الفرس فحُشر هؤلاء وسط سهل مطوق بتلال وإن لم تكن عالية وبقوات إسلامية من كل الجهات. " وانتهى جيش الفرس وكأن هوّة انفتحت تحته وابتلعته. وبينما دُحر جيشا (هرمز) و (قارن) فإن جيش الأندرزغر قد أبيد... " عدا القليل ممن نجحوا بالهرب، وكان الاندرزغر نفسه منهم،، إلا أنه فر باتجاه الصحراء حيث مات عطشاً. وجمع خالد رجاله المنهكين بعد المعركة وحيّا فيهم شهامتهم وشجاعتهم، مبشراً إياهم بانتصارات مماثلة وأكبر في المعارك التالية، وكان مما قاله: " لا ترون إلى الطعام كرفغ التراب، وبالله لو لم يلزمنا الجهاد في الله، والدعاء إلى الله عز وجل ولم يكن إلا المعاش، لكان الرأي أن نقارع على هذا الريق حتى نكون أولى به ونولّي الجوع والإقلال من تولاه ممن أثاقل عما أنتم عليه...". ويشبّه الجنرال أكرم معركة الولجة بأنها " لم تكن أول مناورة باهرة تنفذ في التاريخ، وأشهر أمثلتها معركة كاني عام (216 ق.م) عندما قام هانيبعل بتنفيذ مناورة مماثلة ضد الرومان. وأصبح اسم (المناورة الكانية) يطلق على المناورات المماثلة، إلا أن خالد بن الوليد لم يكن قد سمع بهانيبعل، وكانت مناوراته في الولجة من بنات أفكاره ...".

ملاحظات على معركة الولجة:

تعتبر الولجة من المعارك الحاسمة في تحرير العراق من حيث ضخامة الخسائر التي لحقت بجيش الأندرزغر الفارسي، أولاً: لبراعة خالد الفذة في تخطيط وتنفيذ مناورة التطويق وفي فسحة ليست كبيرة الاتساع. ثانياً: وكما أن معركة كاظمة (ذات السلاسل التي لم نعد نسمع عن استخدام الفرس لها بعد تلك المعركة ولأسباب لا نعرفها) قد فتحت الطريق أمام احتلال الأبلة، فقد فتحت معركة الولجة الطريق إلى الحيرة. ثالثاً: كما يمكن إضافة عنصر رابع إلى ذلك هو في ما تركته الولجة في نفوس من ظل متردداً من عرب

العراق من أثار في إدراك أن لا جدوى من الوقوف بعد مع الفرس ضد محرريهم من إخوانهم العرب. لقد كانت خطة خالد على درجة عالية من الدقة والتنسيق اللذين مكّناه من تحقيق انتصار حاسم على الفرس، إلا أنها تثير الكثير من المعضلات والملاحظات التي لا بد للباحثين بذل المزيد من الجهد من أجل تقديم إجابات موضوعية عنها:

أ – لقد أبيد جيش الأندرزغر إلا من نجح بالهرب بأعجوبة، ولكن ما حجم هذا الجيش؟ وكم يمكن حشده لمعركة تدور بين جيشين المسلمين وهو بحدود (10 – 12) ألف مجاهد وجيش يفوقه عدداً؟ مما يؤكد ألا يزيد تعداد جيش الأندرزغر عن (15) الف رجل؟ إن لم يكن أقل من ذلك.

ب – قسم خالد جيشه إلى ثلاثة أقسام فهل كانت بأعداد متساوية أو أنه أناط واجب الإحاطة بالفرسان (الخيالة) وأبقى المشاة للمعركة الجبهوية؟ إذ المعتاد اختيار العناصر الأفضل والأكثر شجاعة مع قابلية تحرك أكبر مما يُفرز من الجيش لمناورات الإحاطة والتطويق.

ج – لكن كيف أمكن إخفاء حركة رتلي الإحاطة؟ وكيف أمكن إضاعة آثارهما وأماكن إخفائهما حتى قبيل المعركة؟ لا سيما وقد تنقل الرتلان في أرض ما زالت معادية بل ووسط منطقة حركات فعالة (ساخنة)؟ كما أنها من السهول المكشوفة التي تخلو من التلال العالية والوديان والغابات؟.

د – لقد أسند الفرس جناحهم الأيسر إلى تلة شمال شرق السهل ولا يزيد ارتفاعها عن (30) قدماً فلم يهاجم المسلمون هذا الجناح إبتداءً؟ وما دامت أجنحة الفرس مكشوفة بهذا الشكل فلم لم يحاولوا بدورهم تطويق قوات خالد داخل كماشة تعبوية بالاستفادة من تفوقهم العددي وترك مفارز صغيرة لصدّ رتليْ خيالة خالد؟ أم أصر الفرس هنا أيضاً على تجريد العرب من أية قدرات عسكرية تمكنهم حتى من التفكير بمناورات كهذه؟ ودون أي محاولة لمراعاة أسس وفنّ الحرب.

هـ – ما دور بهمن جاذويه ورتله؟ أليس المفروض أن يتولى قيادة كل القوات الفارسية فكيف سمح لنفسه أو سُمح له بترك جيشه وساحة المعركة؟ أم أن ذلك راجع إلى انعدام روح التعرّضية أو الاهتمام الجاد بالحرب وما يستلزمه ذلك من سبق النظر والتوقي

لكل ما يحتمل وقوعه، أي اعتبار الحرب أكثر من مجـرد مبـارزة فرديـة وقلنسـوة ذهبيـة، ولعل ذلك وحده يوضح لنا أسباب فشل الفـرس المـرة تلـو الأخـرى فـي استغلال قدراتهم ومواردهم الحربية وانتهاز الفرص السانحة أو حتى مجاراة العرب في إدارة الحرب.

و – لا بد أن الفرس حاولوا الاستفادة من فرصة تراجع قوات خالد وشرعوا فعـلاً بدفع أجنحتهم لمتابعة تراجع خالد الكاذب أمامهم، وبهذا حقق خالد ما يريده بـل مـا صنعـه بنفسه وهو إجبار الفرس على الخروج بشكل يجبرهم على كشف أجنحتهـم، ثـم وبـدلاً مـن السماح لهم بتطويقه عاجلهم بتحريك رتلي ضرب الجناح للإطبـاق عليهم. وهنـا واسـتناداً إلى سير المعركة لا بد من التساؤل:

أولاً: لماذا تأخرت كمائن خالد بحيث أثارت مخاوف وقلق المقاتلين حول حقيقة ما يحدث حتى أوشكت صفوف المسلمين على التداعي والانهيار؟ ألم يكن هناك اتفاق مسـبق؟ وعلى إشارة معيّنة؟ فمن الذي أغفل أو نسي دوره هنا؟

ز – لقد تقبّل خالد بن الوليد درجة كبيرة من المخاطر، ولا تخلو أيـة معركـة مـن المخـاطر بطبيعـة الحـال ولكـن ليس بهـذا الشـكل ولا بتلـك الدرجـة. لقد كـانت مخـاطرة مزودجة فقد أضعف جيشه بتقسيمه إلى ثلاثة أرتال مع أنه أساسـاً أقـل عـدداً مـن الفـرس، ومن ثم كان البادئ بالهجوم بقوة تقلّ في أحسن الأحوال عن ثلث قـوات الفـرس. والعـامل الثالث هو المخاطرة الكبرى، فماذا كان سيحدث لو سارع الفرس وقد بـدأت نشـوة النصـر تبدو في صفوفهم، وأفرزوا من قواتهم ما يكفي لصد رتلي الإحاطـة العربيـة ومنعهمـا مـن التدخل وأكملوا مهمتهم الرئيسية بدحر قوة خالد بن الوليـد المنسـحبة أمـامهم. لقـد اسـتهان خالد بعدوّه كثيراً مخالفاً بذلك أبسط مبـادئ الحـرب ومخالفـاً توجيهـات المقـر الأعلـى فـي الرؤية والحذر.

ح – يلاحـظ هنـا أيضـاً إيـراد المصـادر لكثير مـن الإشـارات والعموميـات التـي يصـعب التعويل عليها مثل " القتال الشديد حتى لا يرى الواحد منهم مقتل صاحبـه "، وعـن قتال كان " أعـظـم مـن قتال الثني (معركـة المـذار) وعـن صـبر الفريقيـن الـذي كـاد أن يفرغ "، وعن مبارزة خالد بن الوليد " هزار مرد وكيف انتهى بدقائق ثـم اتكـأ علـى جثتـه ودعـا بـغدائه... ". وعن " هرب الأندرزغر وموته عطشاً " رغم أنه بين أحضان الفرات

وقنواته!!

إن هذا يؤكد صعوبة وضخامة مهمة الباحثين في التاريخ العسكري العربي وفي حاجته إلى الكثير من التنقيح والمناقشات والفحوص.

وخلاصة القول أن من يقاتل في سبيل الحصول على " قلنسوة ذهبية "، غير الذي يقاتل في سبيل الله، من خلال إيمان بالله لا يتزعزع. والفرق كبير طبعاً بين الاثنين.

المراجع

1 - اعتمدنا في دراسة هذه المعركة اعتمادا كبيراً على كتاب العقيد الركن المتقاعد سليم شاكر الأمامي " العرب والحرب ". المؤسسة العربية للدراسات والنشر. بيروت 1995. الطبعة الأولى. ص 202 - 216.

وكذلك أيضا بعض الكتب المرجعية حول هذا الموضوع، ومن بينها:

2- الجنرال آغا أكرم " سيف الله خالد بن الوليد " ترجمة صبحي الجابي. مؤسسة الرسالة. بيروت. ص 254 - 273.

3 - جون باجيت كلوب (باشا) " الفتوحات العربية الكبرى ". ترجمة خيري حماد. مكتبة المثنى. بغداد 1963. ص 148 و 220 - 223 و 254.

4 - الفريق صالح مهدي عماش " من ذي قار الى القادسية ". بغداد 1973. ص 84.

5 - اللواء الركن محمد خالد " معركة الولجة ". مركز البحوث. بغداد، لا. ت.

(*) كيف يُعقلْ أن يكون الأندرزغر يحب العرب " حبّاً حقيقياً " (كما يرى الجنرال آغا أكرم)، ثم يتّهم الذين أبدوا اعجابهم بالعرب بالجبن وانهيار المعنويات؟ وإذا كان فعلا يحب العرب " حبا حقيقيا "، فهل يُسْمح له بتسلّم قيادة جيش من هذا النوع لقتال العرب؟ انه في الواقع أمر مشكوك في صحته. (ص. ز.)

معارك يافا

لم يكن في مدينة يافا يوم صدور قرار التقسيم عام 1947 سلاح أو مقاتلون مدرّبون تدريباً صحيحاً، فقد كانت سلطات الانتداب البريطاني تحول بالقهر والقوة بين عرب فلسطين واقتناء السلاح أو التدرب عليه.

وكان تنظيم الدفاع عن المدينة أمراً صعباً بسبب موقعها. ففي الشمال مدينة تل أبيب أكبر تجمع سكاني لليهود، وفي الجنوب مستعمرات بات يام، وأجرو بانك، وحولون، وفي الشرق مستعمرة نيتر الألمانية، وفي الغرب البحر المتوسط.

هبّ سكان يافا يبحثون عن السلاح في كل مكان. وقد بدأ الأمر بجهود فردية ثم جرى تشكيل لجنة قومية للمدينة بإيعاز من الهيئة العربية العليا. وأخذت هذه اللجنة على عاتقها الإشراف على شؤون الدفاع والإعداد. ثم أرسلت اللجنة العسكرية في دمشق 100 بندقية فرنسية إلى يافا بتاريخ 13 / 12 / 1947.

جرت بين سكان يافا والصهيونيين اشتباكات صغيرة، كان أولها اشتباك بعض المناضلين مع مجموعة من الصهيونيين بين تل الريش ومستعمرة حولون ومقتل عدد من رجال المجموعة بينهم قائدها. ثم قام الصهيونيون في 4 / 1 / 1948 بنسف دار الحكومة فقتل من جراء ذلك عشرة من العرب وجرح الكثيرون. وقد أثار هذا الحادث الأهالي فأزال الخلافات التي كانت قائمة بين المنظمات والهيئات، وظهر الجميع متماسكين، ونشطت أعمال اللجنة القومية، وتألفت لجان فرعية للقيام بمختلف الشؤون الإدارية والمالية والعسكرية.

كانت مدينة يافا تابعة من الناحية العسكرية للشيخ حسن سلامة الذي انتدبه الحاج محمد أمين الحسيني لإدارة دفة القتال في كل من يافا واللد والرملة واعترفت به اللجنة العسكرية في دمشق قائداً لهذا القطاع الذي سمّي يومئذ " القطاع الغربي من المنطقة الوسطى ".

كانت تدابير الدفاع عن المدينة بدائية. فكل شخص لديه سلاح يحمله ويقوم

بواجب الحراسة بعد حلول الظلام في مناطق الحدود بين العرب والصهيونيين. وقد تفرغ بعض الأشخاص لهذا الواجب، وكان أكثرهم من ثكنة " أبي كبير ". وكان نقص السلاح ظاهرة بارزة في الجانب العربي. وبعد مرور شهر واحد على تشكيل اللجنة القومية كان في المدينة حوالي 284 قطعة سلاح مختلفة الأنواع. وكان أهالي يافا يعالجون النقص بنقل الأسلحة من جهة إلى أخرى ومن حيّ إلى آخر واستعماله في عدة مواقع، الأمر الذي ضلّل الصهيونيين، وأدخل في روعهم أن في المدينة أسلحة وذخائر كثيرة.

اشتبك المجاهدون مع الصهيونيين في معارك متلاحقة وقعت على حدود المدينة ودامت شهرين ونصفاً، إعتباراً من 4 / 12 / 1947. وكان عدد الصهيونيين المقاتلين في تل أبيب لا يقل عن خمسة آلاف مقاتل. وكانت تل أبيب تضم حوالي مائتي الف من السكان اليهود. واعترف مناحيم بيغن زعيم عصابة الأرغون وقتذاك، بأن تل أبيب قاست في تلك الفترة من يافا ومن حي المنشية وطأة الضرب الشديد وسقط من سكانها حوالي ألف قتيل وجريح، وقد شبه المنشية بسرطان ملتصق بتل أبيب ثم قال: " إن القنّاصة العرب كانوا يرسلون الموت إلى كل مكان، وقد وصل رصاصهم الفتاك حتى العمارة التي تعمل فيها بلدية تل أبيب.

وعلى الرغم من قلة الأسلحة وشحّ الذخيرة، لم يهن أبناء يافا بل قاتلوا بكل عزم وتضحية وكان النصر غالباً في جانبهم.

وفي 14 / 2 / 1948 أرسلت اللجنة العسكرية الرئيس (النقيب) عبد الوهاب الشيخ علي من ضباط الجيش العراقي السابقين ومعه حوالي 40 متطوعاً من ملاك جيش الإنقاذ، ليكون أول آمر لحامية يافا. وطلب يوم وصوله بترك الشؤون العسكرية له وحده، ومنع شباب النجادة من التدريب العسكري. كما طلب من اللجنة القومية والبلدية أن تهتم بالبلدة ونظافتها، وأن تؤمّن المواد للسكان والمتطوعين. وحدث نزاع بينه وبين رجال النجادة لمنعه إياهم من التدرب، وتصدى كثيرون له واستمروا يتدربون.

وبعد أن درس عبد الوهاب الشيخ علي وضع قوات في يافا، وجد أن المقاتلين قلّة، والأسلحة الموجودة غير كافية للدفاع عن المدينة، فسافر إلى دمشق ولم يعد. وأرسلت اللجنة العسكرية آمراً جديداً لحامية يافا هو المقدم عادل نجم الدين فوصلها يوم

22 / 2 / 1948 ومعه بعض الضباط والمتطوعين من ملاك جيش الإنقاذ.

سافر عادل نجم الدين إلى دمشق لمقابلة اللجنة العسكرية يوم 9 / 3 / 1948 وعاد بعد يومين ومعه 75 متطوعا من ملاك جيش الإنقاذ يقودهم الضابط السوري المتقاعد حمود الخطيب واستقروا في تل الريش. ولكن المتطوعين كانوا خليطا غير متجانس، ولا يملكون الخبرة القتالية الكافية، وكانت السيطرة عليهم ضعيفة.

قام الصهيونيون يوم 20 / 3 / 1948 بهجوم كبير على ثكنة أبي كبير ودمّروا بعض المنازل العربية. ولكنهم منوا مع ذلك بخسائر قدرت بنحو 36 قتيلا. وحاولوا بعد يومين اقتحام مدينة يافا، بعد قصف شديد، فصمد المناضلون وردّوهم على أعقابهم. ثم استمرت عمليات القصف المدفعي من العدو وتكررت الهجمات.

أبرق آمر حامية يافا إلى اللجنة العسكرية بدمشق طالبا الرجال والسلاح، وتعددت وفود المدينة التي ذهبت إلى اللجنة العسكرية في دمشق لتوضح خطورة وضع مدينة يافا، وعدم تكافؤ قوتها مع قوة العدو. ولكن هذه الوفود لم تحصل على شيء. وأخيرا حضر إلى يافا في أواخر آذار 1948 نحو ألف وخمسمائة مقاتل من الوافدين وأبناء المدينة.

وفي 31 آذار وقعت معركة بين المجاهدين والصهيونيين غنم فيها المجاهدون عددا من السيارات والمصفحات. وفي 13 نيسان قام الصهيونيون بهجوم كبير على تل الريش وتوغلوا فيه، ولكن العرب أخرجوهم منه. ثم أعاد الصهيونيون الكرة يوم 24 نيسان فهاجموا المنشية واحتلّوا محطة السكة الحديدية ومركز الشرطة. واستماتت العرب في الدفاع عن هذه المواقع وقاموا بهجمات مضادة تمكنوا فيها من طرد الصهيونيين. وجدد الصهيونيون الهجمات في 25 و 26 نيسان بقوات كبيرة تساندها مدافع الهاون، واقتربت طلائعهم من الاستحكامات العربية وتمكن حماة يافا من صدّ هذه الهجمات، ولكن الصهيونيين قاموا يوم 28 نيسان بهجوم كبير على تل الريش، وهجوم آخر من المنشية تساندهم المدرعات، ودارت معركة طاحنة تمكن فيها المجاهدون في تل الريش من صدّ الصهيونيين، فارتدّوا تاركين وراءهم حوالي 25 قتيلا وبعض العربات، وأما في المنشية فقد استطاع الصهيونيون من احتلال الحي فأخذ السكان يغادرونه. وبينما كانت المعركة على أشدها أقال قائد جيش الإنقاذ قائد الحامية عادل نجم الدين وعيّن لهذه المهمة

الرئيس ميشيل العيسى، وهو من أبناء يافا وكان أمراً لفوج أجنادين من جيش الإنقاذ، فوصل إلى يافا مع فوجه المؤلف من 247 مقاتلاً يوم 28 / 4/ 1948، وشقّ طريقه بالقوة ودحر الصهيونيين الذين كانوا يتمركزون على طريق تقدمه. وأخذ يحاول اتخاذ تدابير الدفاع والصمود في موقف عسكري يميل لصالح العدو الذي احتل عدداً من القرى العربية القريبة من يافا، وقطع طريق يافا – القدس من موقع نيتر وعمارة حزبون، وبذلك انقطع كل اتصال بين يافا والقرى العربية الشرقية وبينها وبين الرّملة ومطار اللدّ.

وفي أوائل أيار 1948 أخذ الموقف يزداد سوءاً، فعمّ الخوف والاضطراب، وظهرت بعض حوادث الفوضى، وأخذ الناس يغادرون إلى غزّة عن طريق البحر. وقبل ذلك كانت اللجنة القومية تمنع مغادرة أي شخص للمدينة، إلا إذا كان يقصد المعالجة الطبية مؤيداً بتقرير طبي.

شدّد الأعداء هجماتهم على المدينة، وأخذت صيحات الإستغاثة وطلب النجدة تتوالى إلى يافا، وعزّ المنجدون، وكثر عدد القتلى والجرحى، وأخذت المقاومة تنهار والناس ينزحون.

بقي الإنكليز في يافا حتى الأيام الأخيرة من الانتداب، خلاف ما فعلوا في حيفا وصفد وطبرية وبيسان التي غادروها مبكرين. وقد ساعد ذلك في تأخير اقتحام الصهيونيين لها.

وفي يوم 13 / 5 / 1948 سلّم حاكم اللواء الإنكليزي مفاتيح الدوائر الحكومية إلى الحاج أحمد أبو لبن الذي اعتبر مسؤولا عن شؤون المدينة، ووافق العرب والصهيونيون على اقتراح قدّمه الحاكم بجعل يافا مدينة مفتوحة. ولكن الصهيونيين لم يقبلوا أن يتم ذلك بوساطة الإنكليز وأصرّوا على التفاوض مع العرب مباشرة، وتمّ التفاوض في تل أبيب ووقّعت الإتفاقية يوم 13 / 5 / 1948 بين وفد من أهالي يافا وقائد الهاغاناه في تل أبيب.

لم يحترم الصهيونيون هذه الإتفاقية. فما كاد الإنكليز ينسحبون من المدينة يوم 14 أيار حتى اقتحموها بقواتهم ورفعوا الأعلام الصهيونية على مبانيها. وسقطت المدينة الباسلة التي عانت أشد ظروف الحصار والقتال حوالي خمسة أشهر ونصف الشهر.

المراجع

1 – عارف العارف: النكبة، ج1، بيروت 1956.

2 – محمد سعيد أشكنتنا: أسباب سقوط يافا، عمان 1963.

3 – الموسوعة الفلسطينية: الجزء الرابع، ص: 619 – 620. إشراف د. أنيس صايغ. الطبعة الأولى، دمشق 1984.

معركــة اليرموك

من أشهر المعارك التي خاضها العرب والمسلمون ضد البيزنطيين، وكان النصر فيها للعرب، وهُزم البيزنطيون شر هزيمة.

إذ " ليس بالخبز وحده يحيا الانسان "، وليس بالسلاح وحده تحرز الانتصارات، وكلاهما ضروريان للنصر والحياة.

لقد شهد التاريخ على امتداد مراحل مسيرته، أسماء لامعة في ساحات الحرب والقيادة. قلّما خلت أمّة من الأمم، من نوابغ أفذاذٍ وأبطالٍ قادة، دخلوا التاريخ من أوسع أبوابه، فاستقبلهم بكل فخر واعتزاز. وليس تاريخ الاسلام والأمة العربية، سوى ذلك الدليل الساطع، رغم كل محاولات التشويه التي تعرض لها من قبل الأعداء الغربيّين، وأعداء العرب والاسلام، وكأنما خلا تاريخنا من الوقائع المهمة، والرجال من الطراز الأول. في الوقت الذي احتل فيه عدد من قادة العرب، موقع الصدارة في فنّ الحرب والسياسة، وأخذ الغير عنهم كثيراً من الفنون والصفات القيادية، وليس " خالد بن الوليد "، الملقّب بـ " سيف الله "، إلا أحد الأبطال القادة، الذي، يخجل التاريخ القديم والحديث، إن لم يتصدّر إسمه قائمة العباقرة من عظماء الحرب في كل زمان ومكان. كيف لا، وهو بطل " معركة اليرموك " التي زيّنت رأس الأمة العربية، والاسلام، بتاج المجد والخلود إلى الأبد، وقد أطلق عليها العميد د. ياسين سويد اسم: " معركة العبور إلى بلاد الشام ".

" واليرموك " اسم يطلق على الأرض والوادي والنهر في منطقة من مناطق الشام. ثم أطلق على المعركة التي جرت بين المسلمين والبيزنطيين في تلك المنطقة. وقد أضفت المعركة على إسم اليرموك شهرة لم يحظ اليرموك بها من قبل، ولا يزال يذكر بها إلى اليوم. وقد تلازم هذا الاسم مع إسم " خالد "، كما تلازم خالد مع اسم اليرموك، وأصبح من المستحيل أن يذكر اسم كلٍّ منهما دون اقترانه بالآخر.

جرت معركة اليرموك في 20 آب / أغسطس / سنة 636 ميلادي (*). وشكلت منعطفاً تاريخياً في حياة العرب قاطبة، عندما توّج بها خالد بن الوليد قمّة انتصاراته،

وحياة حافلة بالجهاد والكفاح والنضال في سبيل الاسلام والعرب.

فبعد عامين من القتال المتواصل بين المسلمين والحاميات البيزنطية في بلاد الشام، أدرك البيزنطيون خطورة حركة الفتح الاسلامية، وعمد الامبراطور هرقل الى حشد قوته العسكرية في أربعة جيوش قسّمها على الشكل التالي:

الجيش الأول: بقيادة " الأمير تيودور "، شقيق هرقل، وعدده (90) ألف مقاتل أوكلت إليه مهمة التقدم نحو فلسطين وتدمير جيش عمرو بن العاص فيها.

الجيش الثاني: بقيادة " الفيقار بن نسطوس "، وقوته (60) ألف مقاتل، وكان واجبه تدمير جيش ابي عبيدة بن الجرّاح.

الجيش الثالث: بقيادة " الدراقص " وقوته (40) ألف مقاتل. واجبه تدمير جيش شرحبيل بن حسنة.

الجيش الرابع: بقيادة جرجيوس، وقوته (50) ألف مقاتل. مهمته تدمير جيش يزيد بن أبي سفيان.

وقد عهد هرقل بالقيادة العامة لهذه الجيوش للبطريق " باهان " (أحد القادة الأرمن)، بينما تحصّن هرقل بحمص وجعلها مقراً له يوجّه منها النجدات والمؤن إلى الجيوش المتقدمة... وكانت خطة الروم تقضي بالتقدم مستفيدة من تفوّقها الساحق، وتدمير الجيوش العربية، كلاً على انفراد قبل ان تجتمع.

وبهذا الخصوص، قال أبو عبيدة بن الجراح في رسالته إلى الخليفة عمر بن الخطاب: " نفرت الروم إلينا براً وبحراً وسهلاً وجبلاً، ولم يخلفوا وراءهم رجلاً يطيق حمل السلاح إلا جاشوا به ".

هكذا عندما وصلت أنباء حشود الروم الكبيرة إلى القادة العرب، عقدوا مؤتمراً تبادلوا فيه الرأي، ودرسوا الموقف دراسة دقيقة، واتفقوا بأن بقاءهم متفرقين متباعدين يسهل للروم تدميرهم، لذلك لا بد من تجمعهم في منطقة واحدة وتحت قيادة واحدة، وقبول المعركة في المحل الذي هم يختارونه.

وكان صاحب هذا الرأي عمرو بن العاص الذي لم يحضر الاجتماع، بل أرسل رأيه مكتوبا لهم من فلسطين، وقد أرسلوا رسولاً إلى الخليفة ليشرح له الموقف بتفاصيله

ويطلب موافقته على قرار القادة بالتحشد في اليرموك، وارسال نجدات جديدة لهم تساعدهم على مقاومة الحشد الرومي العظيم.

وافق الخليفة على الخطة، ووعد بارسال النجدات ووجّه لجيوشه الوصايا التالية: " اجتمعوا عسكراً واحداً، والقوا زحوف المشركين بزحف المسلمين، فأنتم أعوان الله، والله ناصر من نصره، وخاذل من كفره، ولن يؤتى مثلكم من قلّة، وانما يؤتى العشرة الآلاف والزيادة عليها بذنوبهم، فاحترسوا من الذنوب والله ناصركم ".

وعند وصول موافقة الخليفة، أخذت الجيوش العربية تتحشّد في اليرموك جنوب شرقي النهر، وتولى قيادتها جميعاً أبو عبيدة بن الجراح تنفيذاً لأمر الخليفة السابق الذي أوصاهم بامارته إن اجتمعوا.

ولما علم الروم بتحشّد الجيوش العربية جنوبي اليرموك، تشاور " باهان " مع هرقل وقررا تغيير خطة تقدمهم السابقة وتوجيه الجيوش كافة نحو اليرموك على أن تتحشّد شمال النهر. وفعلاً غيّرت هذه الجيوش خطوط تقدمها نحو نقطة التحشّد.

أكمل الطرفان تحشّدهما شمال اليرموك وجنوبه، ولبثا شهرين يكملان استعداداتهما. ولما استقر الروم في معسكرهم في المنطقة المحصورة بين نهر اليرموك ووادي الرقاد، أرسل العرب عيونهم وجواسيسهم لاستطلاع المنطقة، فوجدوا أن الروم قد حصروا أنفسهم في منطقة لها منفذ واحد، فقرر العرب عبور اليرموك والتعسكر في منطقة تسدّ هذا المنفذ، فاختاروا منبطحاً على طريق الروم شمال شرقي موضعهم، وبذلك سدّوا بوجههم طريق الانسحاب الوحيد. وكانت الجبال تحيط بهم من الجهات الأخرى. ولما رأى عمرو بن العاص ذلك قال: " أيها الناس أبشروا، حصرت والله الروم وقلّما جاء محصور بخير ". أما الخليفة، فبعد تمحيص المعلومات وجد أن لا بد من إرسال النجدات ولا بد من أن يولي القيادة العامة شخصاً جسوراً وحازماً وشجاعاً يتميز بالكفاءة والمقدرة، ويبزّ القادة الموجودين في الشام. ولم يجد خيراً من خالد بن الوليد لهذا الأمر، إذ كان أبو عبيدة على مقدرته رجلاً رقيق القلب، وكان عمرو بن العاص على دهائه هياباً غير مقدام، وكان عكرمة تعوزه دقة التقدير، وكذلك شرحبيل. بينما كان خالد قد حارب الفرس في خمس عشرة موقعة لم يهزم ولم يخطئ ولم يفشل قط في واحدة منها، وكان يسير بجيشه

دائماً على تعبئة كاملة فيقاتل عدوّه حيث لقيه مفاجئاً أو غير مفاجئ، وكان – كما وصفه عمرو بن العاص – " في أناة القطاة ووثبة الأسد "، فلا يهمل الحيطة، ولا يجعل التعويل كله على الشجاعة دون الحزم والحيلة.

لذلك، أرسل الخليفة ابو بكر الصدّيق أمراً إلى خالد بن الوليد بالمسير من الحيرة – في العراق – إلى الشام بنصف قوته التي سار بها من اليمامة إلى العراق، وتولّي القيادة العامة لجميع الجيوش الموجودة فيها. وقال الخليفة يومذاك: " والله للأُنْسِينَّ الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد ". وقال في موضوع آخر: " عقمت النساء أن يلدْن مثل خالد ". ولهذا كان بحق " سيّد قادة العرب ". كما اعتبره المؤرخون بمصاف الاسكندر الكبير وهانيبعل ويوليوس قيصر ونابوليون، إن لم يكن أعظمهم جميعا. ولم يخسر أية معركة تولى قيادة الجيش فيها، وقد انفرد بذلك بين قادة العالم العسكريين.

على هذا الأساس، تقول بعض المصادر، أن الخليفة أبا بكر الصدّيق أرسل كتابين: الأول لخالد بن الوليد في العراق، والثاني لأبي عبيدة بن الجراح في الشام يعلمهما بهما بتعيين خالد قائداً عاماً. ومما جاء في الكتاب الموجّه لخالد: " إذا جاءك كتابي هذا، فدعْ العراق وخلف فيه أهله الذين قدمت عليهم وهم فيه، وامْضِ متخفّفاً في أهل القوّة من أصحابك الذين قدموا العراق معك من اليمامة وصحبوك من الطريق وقدموا عليك من الحجاز حتى تأتي الشام فتلقى أبا عبيدة بن الجراح ومن معه من المسلمين، فاذا التقيتم فأنت أمير الجماعة والسلام عليكم ".

أما الكتاب الموجّه الى ابي عبيدة، فيقول: " أما بعد، فاني قد ولّيت خالد بن الوليد قتال الروم في الشام، فلا تخالفه واسمع له، وأطع أمره فانّي ولّيته عليك وأنا أعلم أنك خير منه، ولكن ظننت أن له فطنة في الحرب ليست لك. اراد الله بنا وبك سبيل الرشاد ".

خرج خالد بن الوليد على رأس جيش قوامه عشرة آلاف محارب من الحيرة فشقّ بادية العراق قاطعاً المسافة في ثمانية عشر يوماً، وكان يطوي مسافة اليومين في يوم واحد.

اختار خالد طريقاً صحراوياً خالياً من الماء وغير مأهول، وكان دليله " رافع بن عميره الطائي ". ولم يكن اختياره لهذا الطريق، صدفة، إذ كان يخاف الاصطدام بالروم

قبل وصوله منطقة التحشد العربية وتقديم خسائر لا مبرر لها. كما كان من ناحية أخرى، يبغي ضمان عنصر المفاجأة لعدوّه.

وعندما وصل خالد إلى بصرى بعد ثمانية عشر يوماً، أخذ يستطلع أحوال الروم ومواضعهم في اليرموك، ودرس نظام معركتهم وخصائص قادتهم، وأسلوب تعبئتهم، ونقاط الضعف فيهم، مستخدماً كل الوسائل المتيسرة لجمع المعلومات عنهم. وعلى ضوء هذه الدراسة بنى خطته العسكرية المحكمة، وأخذ يعيد تنظيم جيوشه على الأسس التي اقتبسها من دراساته لتنظيم وتعبئة جيوش عدوه، بعد تكييفها تبعاً لظروف جيشه وامكاناته.

وبعد ان استكمل جميع أموره، عمل ما يلي:

1 - قسّم قواته إلى (40) كردوساً، وكان كل كردوس يتألف من ألف مقاتل.

2 - ألغى نظام الصف الذي يتّبعه العرب في حروبهم، واستعاض عنه بنظام الكراديس التي أصبحت وحدة القتال.

3 - قسّم الجيش إلى ميمنة وميسرة وقلب ومقدمة ومؤخرة. كانت الميمنة تضم عشرة كراديس عهد بقيادتها إلى عمرو بن العاص ويعاونه شرحبيل بن حسنة.

وكانت الميسرة تضم عشرة كراديس عهد بقيادتها الى يزيد بن ابي سفيان. وكان القلب يضم (18) كردوساً عهد بقيادته إلى أبي عبيدة بن الجراح يعاونه عكرمة بن أبي جهل، والقعقاع بن عمرو.

كما شكلت المقدمة فرقة الطليعة من الخيالة بقيادة غياث بن أشيم واحتفظ باحتياط عام يتألف من ثلاثة آلاف فارس.

ثم عيّن أركان الحرب على الشكل التالي:

1 - أبا الدرداءَ: قاضياً للجيش (أو الحاكم العسكري).

2 - القارئ وهو " المقداد " (وكان يقرأ سورة الأنفال)، والواعظ أو خطيب الجيش، وهو أبو سفيان بن حرب (كان يطوف على الصفوف يحث الجند على القتال) وهما ضابطا المعنويات.

3 - عبد الله بن مسعود، وكان ضابط المؤونة (أو ضابط الادارة) ومهمته تأمين حاجات الجيش وجمع الغنائم الحربية وتوزيعها.

4 – القائد العام: خالد، في الوسط، وحوله كبار الصحابة وأقطاب المسلمين، وأمامه راية الجيش وهي " العقاب "، أي راية النبي (صلى الله عليه وسلم) التي ركزها خالد في ثنية العقاب يوم أطل على غوطة دمشق.

5 – النساء، وكان مركزهن مع أطفالهن وذراريهن، وراء خطوط المسلمين وفي مؤخرة الجيش، على تل محصّن لحمايتهن (يقال بأنه تل شهاب). وقد قامت نساء المسلمين في معركة اليرموك بدور لا يستهان به، وكان لهنّ أثر كبير في انتصار المسلمين في هذه المعركة. ويتلخص دورهنّ بما يلي:

أ – العناية بالجرحى والمرضى.

ب – سقاية المجاهدين في أثناء القتال.

ج – تشجيع المقاتلين وإثارة حماستهم.

د – ردّ الرجال الفارّين الى المعركة عند هربهم منها، وهو الدور الأهم، خاصة وأن خالد بن الوليد صرخ بهنّ قائلا: " يا نساء المسلمين، أيّما رجل أقبل إليكنّ منهزما فاقتلنّه ".

هـ – الاشتراك في القتال أحياناً.

وفي المقابل، قسم الروم المشاة والخيالة على الميمنة والميسرة والقلب، ووضعوا حجابا من الخيالة أمام الموضع... وقد حفرت الخنادق أمام الموضع. وفي يوم المعركة ربط جنود المشاة الذين عهد لهم التخندق في خنادقهم وعدم مبارحتها بالسلاسل، لمنع مرور العرب من بينهم، ومنع الجنود الروم من الفرار.

وعندما قرر خالد المبادأة والقيام بالهجوم على البيزنطيين، أيقن أنه لا يمكنه التغلب عليهم ما لم يخرجهم من خنادقهم ويستدرجهم إلى الأرض المكشوفة ليقاتلهم فيها. لذلك وضع الخطة التالية:

1 – تقوم الميمنة والميسرة بتثبيت جناحي الروم ومنعهما من الالتفاف حول أجنحة العرب.

2 – يقوم القلب بالهجوم من الجبهة ثم يتظاهر بالانسحاب والتظاهر بالهزيمة أمام العدو ليغري الروم على الخروج من الخنادق ويجرّهم إلى الأرض المنتخبة للقضاء

عليهم.

3 - عيّن فجر يوم 20 آب / أغسطس / سنة 636 ميلادي موعداً للهجوم.

وقبل أن يبدأ التحرك للمعركة، قال خالد بن الوليد لقواد جيوشه:

" هذا يوم من أيام الله، لا ينبغي فيه الفخر ولا البغي، أخلصوا جهادكم وارضوا الله بعملكم، فان هذا اليوم له ما بعده... ". ومما يروى عنه في كلمة مشهورة ردّ فيها على من استكثر الروم واستقلّ المسلمين، قوله: " ما أقلّ الروم وأكثر المسلمين، إنما تكثر الجنود بالنصر وتقلّ بالخذلان... ".

ومع فجر 20 آب / أغسطس / 636م، بدأ الجيش العربي بتنفيذ خطته، فتقدمت الميمنة بقيادة عمرو بن العاص، وسدّت المنفذ الوحيد الذي يمكّن الروم من الانسحاب والخروج من " صحن الواقوصة "، وبذلك أحكم حصار الروم.

طلب خالد من آمري الكردوسين الأيمن والأيسر للقلب أن يقوما بالهجوم حتى يصلا خنادق الروم، ليجبراهم على الخروج منها، ثم يتظاهروا بالانسحاب لإغراء أكبر عدد منهم الخروج من الخنادق واستدراجهم إلى المكان الملائم للقضاء عليهم. وكان الكردوس الأول بقيادة عكرمة بن أبي جهل، والثاني بقيادة القعقاع بن عمرو.

نفذ القائدان الخطة بنجاح. وعند تراجعهما أصدر القائد الرومي أمره إلى الجيش بالخروج من الخنادق والزحف على الجيش العربي المتقهقر وتدميره.

وكانت خطته تقضي بتثبيت الجناح الأيسر للعرب والهجوم على القلب والجناح الأيمن متوخياً سحق القلب، وطرد ميمنة العرب من منفذ الواقوصة. ثم القيام باحاطة واسعة على هذا الجناح، والوصول إلى خلف القوات العربية وتدميرها تدميراً تاماً.

ترك الجيش الرومي خنادقه وبدأ هجومه، وكان يقود التقدم القائد " جرجيوس ". أما القوات التي هاجمت ميمنة العرب فقد أحرزت بعض النجاح وانسحب تحت ضغطها قسم غير قليل من رجال قبائل لخم وجذام، وثبت أمامهم حملة الرايات فقط حتى وصلت طلائع الروم الى معسكر النساء في الخلف. فتولّت النساء إرجاع رجال العرب الى المعركة ومقاتلة الروم. وكانوا ينادون: " يا بنات العرب دونكنّ الرجال، أرددنهم من الهزيمة ليعودوا إلى الحرب ". وحملوا الأطفال بوجوههم فارتد الرجال الى القتال وجدّدوا

العزم. وكان ابو سفيان يحرضهم على القتال قائلاً: " الله الله انكم ذادة العرب وانصار الاسلام. وانهم ذادة الروم وأنصار الشرك، اللهم هذا يوم من أيامك، اللهم أنزل نصرك على عبادك ".

ولقد برز من النساء جورية بنت ابي سفيان، وخولة بنت الأزور، وأسماء بنت أبي بكر، وهند بنت عتبة زوجة ابي سفيان، وأم إبان زوجة عكرمة بن ابي جهل وغيرهن كثيرات.

أما في القلب، فبعد استسلام جرجيوس، ارتاع عكرمة من انسحاب الجناح الأيمن فصاح بأصحابه: " من يبايع على الموت؟ "، فبايعه ضرار بن الأزور والحارث بن هشام مع أربعمائة من وجوه المسلمين بينهم ابنه عمرو بن عكرمة. واندفع هؤلاء لنجدة الميمنة، فاستبسلوا حتى أوقفوا الهجوم الرومي وأجبروهم على الانسحاب.

عندها أصدر خالد بن الوليد أوامره للاحتياط بالهجوم المقابل فوراً وأمره بالفصل نهائياً بين خيّالة الروم ومشاتهم مستغلاً الثغرة التي حصلت بين المشاة والخيالة من جراء اندفاع الخيالة الزائد وراء العرب المنسحبين، فانحصرت الخيالة بين قوة الاحتياط والقلب التي قادها خالد بنفسه وبين سرية عكرمة التي ذهبت تنجد الجناح الأيمن. ثم أصدر أمراً لقواته كافة بالهجوم وتشديد الضغط على الروم.

جوبهت القوات العربية بمقاومة ضارية، واستماتت الروم وأوقعوا خسائر كبيرة بالمسلمين، ووقف عكرمة والذين بايعوه على الموت لا يتراجعون. ولما حلّ الغروب بدأ الوهن والأعياء على وجوه فرسان الروم المحصورين فاندفعوا للأمام طالبين النجاة من الطوق، فأوعز خالد لقواته بالسماح لهم بالمرور من ثغرة أعدّها لهم في ميمنة جيشه، فبقي مشاة الروم وحيدين في المعركة يجابهون خيّالة العرب ومشاتهم، فكانت معركة رهيبة تكبّد فيها مشاة الروم خسائر فادحة. ولقد تقدم العرب إلى خنادق الروم حيث قضوا على من كان فيها من الجنود المقيدين بالسلاسل، وقد تراجع قسم كبير منهم إلى الخلف فأعماهم الظلام وسقطوا في الهاوية التي كانت وراءهم، فكانوا يموتون بالجملة موجة بعد أخرى. وقد قتل في المعركة الأمير تيودور، شقيق هرقل، وجمع كبير من قادته. ودخل خالد معسكر الروم واستقر في خيمة تيودور، وغنم العرب كل ما في المعسكر. وقد كانت

معركة إبادة في الواقع حيث لم ينجح من هذا الجيش سوى أربعين ألف مقاتل، تمكن " باهان " من الانسحاب بهم باتجاه الشمال مستفيداً من ظلام الليل دون أن يشعر بهم العرب.

وقد استشهد من العرب ثلاثة آلاف بينهم القائد الشجاع عكرمة بن أبي جهل وابنه عمرو.

وفي الوقت الذي وصلت فيه الأخبار الى امبراطور الروم، هرقل، وكان بانطاكية، تبلغه بهزيمة جيشه وإبادة معظمه، أيقن أن أجله قد قرب، فهرب منها مودعاً سوريا قائلاً:

" سلام عليك يا سوريا، سلاماً لا لقاء بعده ".

هكذا حققت معركة اليرموك غايتها الكبرى، وتمّ فتح بلاد الشام، ورفرفت رايات الاسلام والعرب.

ولقد كشفت هذه المعركة عن كثير من الدروس والعظات، وسجّلت فصلاً باهراً في القيادة ينبغي أن نحتفل به ونقدمه عنوان مجد وفخار للجندية العربية والنقاء العسكري الاسلامي.

فأثناء هذه المعركة، توفي الخليفة أبو بكر الصدّيق وتولّى الخلافة عمر بن الخطاب. وكان أول عمل قام به الخليفة الجديد هو عزل خالد بن الوليد عن القيادة العامة وتولية ابي عبيدة.

وعندما وصل القرار لهذين القائدين، لم يبوحا به، واستمرا في القتال بثبات وايمان حتى تحقق النصر. ولم يَبْدُ على خالد بن الوليد أي تأثير أو انحراف، وأطاع الأمر بكل ارتياح قائلاً: " أنا أقاتل في سبيل الاسلام وليس في سبيل عمر ". ثم لم يكن على عمر إلا أن قال: " رحم الله أبا بكر كان أعلم مني بالرجال ".

انها حادثة القيادة في التاريخ كله وأبلغها درساً وأجلّها مقاماً.. وهذا درس عظيم القيمة لجميع القادة من كل الأجناس وفي كل الأزمان والأمكنة. وقد أثبتت معركة اليرموك قدرة المقاتل العربي على القتال والنصر متى توفرت له قيادة مخلصة كقيادة خالد بن الوليد وهيئة أركانه، ومتى توفر له قرار سياسي بالقتال. وعندها لن يبقى محتل وغاصب في بلاد العرب كلها، وسيكون هرقل مثاله الأعلى. فمتى يأخذ الصهاينة دور هرقل؟ فكل

آتٍ قريب.

الدروس والعبر:

ومــما لا شـك فيـه، ان الـدروس التـي يمكـن اسـتخلاصها مـن معركـة الـيرموك، كثيرة ومفيدة لكل ذي بصر وبصيرة. ولعلّ العميد ياسين سويد من أوائل المؤرخين الذيـن أعطوا هذا الموضوع حقّـه مـن البحـث والتدقيـق، مؤكـداً أن معركـة الـيرموك كـانت أول معركة خاضها المسـلمون بجيش ذي تنظيـم وتكتيـك حديثيـن، لـذا كـانت التطبيـق العملـي لتطور التنظيم والتكتيك الذي اكتسبه المسلمون في حروبهم منذ ظهـور الاسـلام حتـى بـدء الفتوح. وإن كانت اليرموك قد جرت بعد وفاة الرسول (صلى الله عليه وسلم) بسـنوات، فلا شك في أن خالدا قد خاضهـا بجيـش الرسـول نفسـه، جنـدا وقـادة وصحابـة أولـي رأي ومشورة، مما يجعلنا ندرك أهمية هذه المعركة في إظهار ملامح العبقريـة العسـكرية التـي تميز بها هذا القائد الفذّ، في وقت لم يكن قد أظهروا، في فنّ الحـرب، تقدماً ملحوظاً. وفيمـا يلي بعض من لمحات التطور التنظيمي والتكتيكي التي ظهرت خلال هذه المعركـة، وكـان لخالد بن الوليد فضل إظهارها:

1 – المناورة بالخطوط الداخلية...

2 – التنظيم العسكري للجيش الاسـلامي فـي المعركـة ومكـان الخيالـة المسـلمين فيها...

3 – الاستعداد للقتال وتوزيع المهمات...

4 – الإعداد المعنوي للجند...

5 – الحيطة في السير الى المعركة...

6 – التجديد في تكتيك الجيش الاسلامي عبر استخدام نظام الكراديس والفرق عن الروم وتنفيذ الحركة الإفراجية...

7 – إختيار نقطة التمركز الخطرة في مواجهة الروم...

8 – إجبار الروم على ترك مواقعهم الدفاعية المحصّنة...

9 – دور النساء في المعركة...

10 – الفصل بين فرسان العدو ومشاته...

11 – الحركة الافراجية عبر إفساح مجال الهرب لخيالة الروم من الفرجة التي تعتبر المنفذ الوحيد لهم، وإبقاء المشاة وحدهم في ميدان القتال.

12– استخدام الاحتياط...

13 – الحشد المادي والمعنوي في المعركة...

14 – المباغتة التكتيكية...

15 – الحشد الأقصى للقوى...

16 – تنسيق الجهد العسكري في المعركة...

17– الاختيار الملائم للمكان والزمان...

ومن جهته، فقد حدّد اللواء الركن عادل أحمد محمد الدروس المستفادة من معركة اليرموك بما يلي:

1 – الحشد – 2 – الخطة الحربية المحكمة – 3– حسن القيادة –4 – الطاعة والنظام – 5 – رفع الروح المعنوية –6 – الإيثار في المعركة...

وهكذا يبدو، أن بعض القواسم المشتركة بين العميد واللواء تظهر واضحة في استخلاص العبر والدروس... ومهما مضى من قرون على هذه المعركة، لا يمكن أن تفقد جوهرها وبريقها، تماماً كالذهب الخالص، مع العلم ان موسوعة التاريخ العسكري (الأمريكية) لم تذكر هذه المعركة، الكبرى والحاسمة سوى بكلمات قليلة وتحت عنوان فرعي عن (العمليات في فارس) مكتفية بذكر انتصار خالد بن الوليد فيها (**).

المراجع

(*) كما يذكر بعض المؤرخين ان معركة اليرموك جرت في عام 634م.

1 – محمد بن جرير الطبري " تاريخ الرسل والملوك " الجزء الثالث. دار المعارف بمصر. 1962. ص 390 – 394 و 409.

2 – احمد بن يحي البلاذري " فتوح البلدان " القاهرة 1319هـ.

3 – الموسوعة الفلسطينية / أنيس صايغ / الجزء الرابع. دمشق. الطبعة الأولى 1984. ص 627 – 629.

4 – صبحي عبد الحميد " معارك العرب الحاسمة " مؤسسة الأبحاث العربية. بيروت. الطبعة الثانية 1980. ص 22 – 42.

5 – ياسين سويد " معارك خالد بن الوليد " المؤسسة العربية للدراسات والنشر. بيروت. الطبعة الأولى 1975.

6 – السيّد فرج " أدهى رجال الحرب في الشرق والغرب ". مطبوعات دار الشعب. القاهرة 1970. ص 61 – 69.

7 – جورج مرعي حداد " فتح العرب للشام " (بحث تاريخي انتقادي تحليلي). المطبعة الأدبية. بيروت 1931. ص 97 – 109.

8 – بطرس البستاني " معارك العرب في الشرق والغرب ". دار مارون عبود. بيروت. طبعة جديدة 1979. ص 31 – 42.

9 – محمد ابو الفضل ابراهيم وعلي محمد البجاوي " أيام العرب في الاسلام ". منشورات المكتبة العصرية. صيدا – بيروت. الطبعة الرابعة 1974. ص 207 – 222.

10 – شكري فيصل " حركة الفتح الاسلامي في القرن الأول " دار العلم للملايين. بيروت 1951. ص 42 – 43.

11 – العميد الركن ياسين سويد " الفن العسكري الاسلامي " (أصوله ومصادره). شركة المطبوعات للتوزيع والنشر. بيروت ط1. 1988. ص 191 – 240.

12 – اللواء الركن عادل أحمد محمد " اليرموك عقيدة وقيادة ". مقال في مجلة " الدفاع " (السعودية). العدد 79. حزيران / تموز 1990. ص 106 – 110.

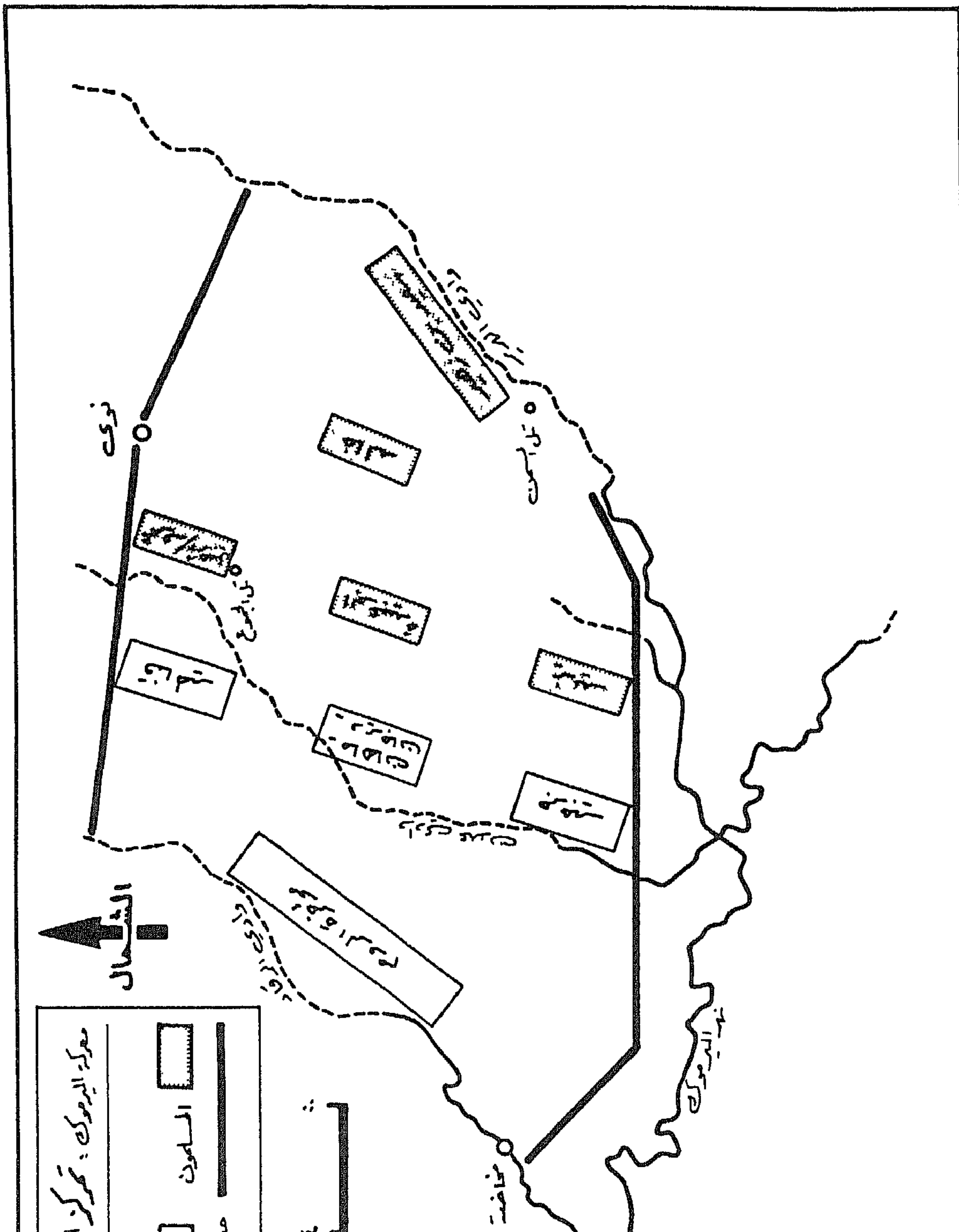
13 – د. أحمد محمد عمارة " اليرموك " (الكتاب الحائز على جائزة المجلس الأعلى للشؤون الاسلامية). الرياض 1978.

14 – د. حسن ابراهيم حسن " تاريخ الاسلام السياسي والعسكري ".

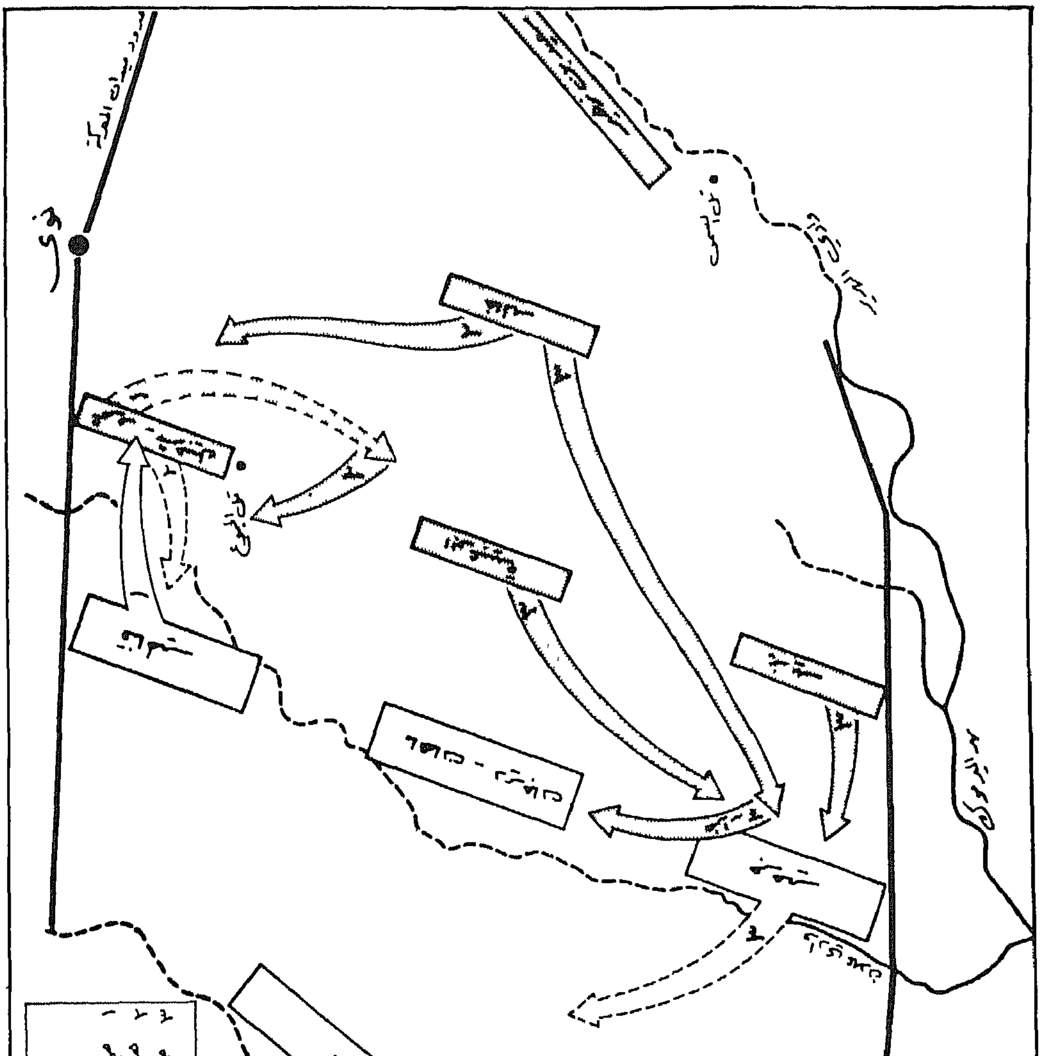
15 – العقيد محمد أسد الله صفا " الحرب " دار النفائس. بيروت. الطبعة الثالثة 1978. ص 204 – 205 و 248 – 257.

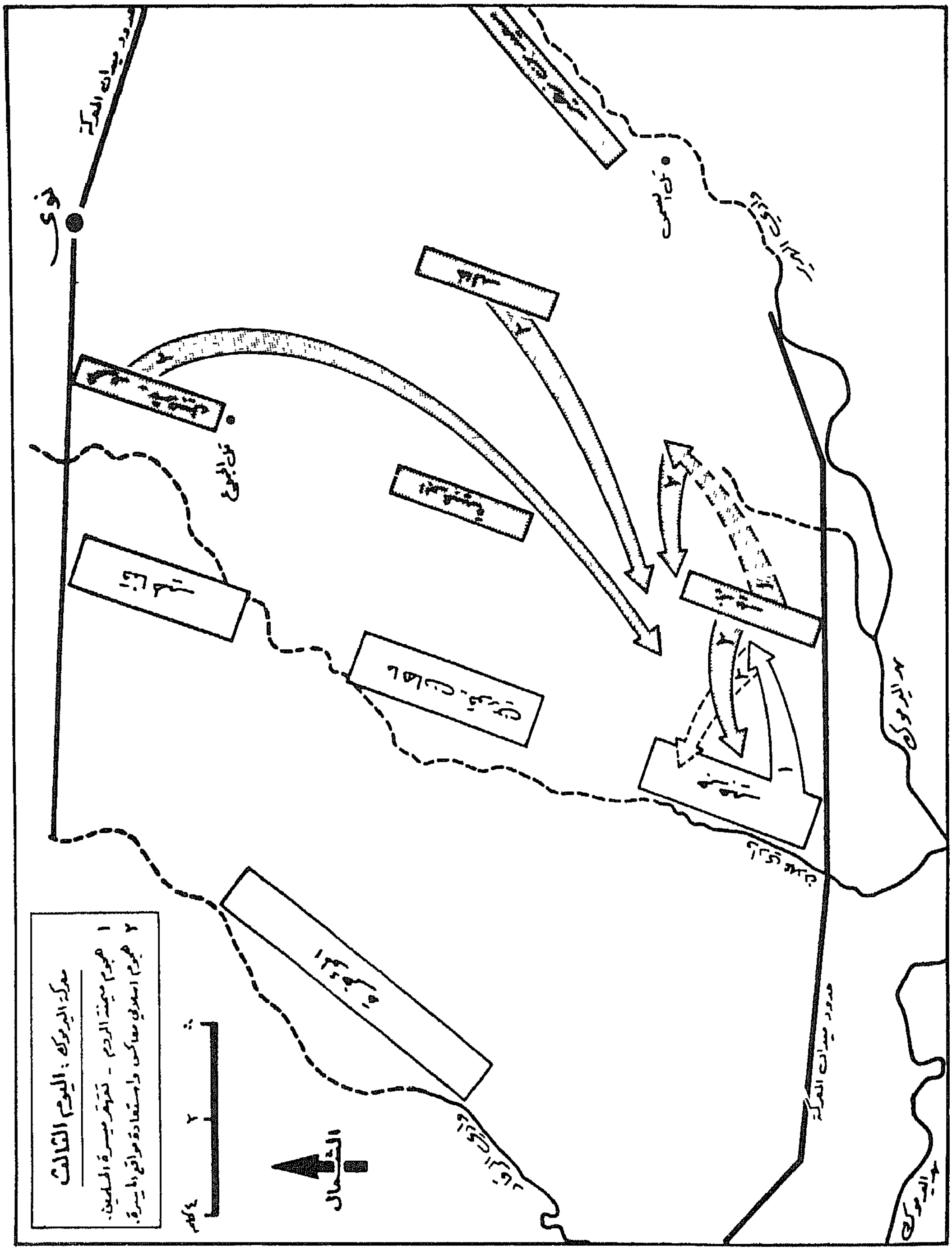
(**) راجع كتاب العقيد الركن المتقاعد سليم شاكر الأمامي " العرب والحرب " المؤسسة العربية للدراسات والنشر. بيروت. الطبعة الأولى 1995. نقلاً عن الموسوعة الأميركية

- The Encyclopedia of Military History - R and T Dupuy New York 1970 - P 230.



العميد سويد " الفن العسكري الاسلامي ". ص 234 و 235 و 236.


معركة اليرموك - اليوم الثاني
١ هجوم ميسرة الروم - تقهقر ميمنة المسلمين.
٢ هجوم معاكس واستعادة مواقع الميمنة.
٣ هجوم - دحر ميمنة الروم - مقتل درجان.
٤ كلم
الشمال
نوى
حدود ميدان المعركة
تل الجموع
تل السمن
قناطير
ماهان - درجان
خالد
يزيد
وادي الرقاد
وادي علان
وادي الهرير
نهر اليرموك
حدود ميدان المعركة


معركة اليرموك: اليوم الثالث
١ هجوم ميمنة الروم - تقهقر ميسرة المسلمين.
٢ هجوم المسلمين المعاكس واستعادة مواقع الميسرة.
الشمال
نوى
حدود ميدان المعركة
نهر اليرموك

فهرس أبجدي
لمعارك العرب

الرقم	اسم المعركة	تاريخ وقوعها	مكان وقوعها	ملاحظات
1	أبو قير	تموز/ يوليو 1882	مصر	
2	أبو نجيم	ك1/ ديسمبر 1914	ليبيا	
3	اجدابيا	شباط/ فبراير 1914	ليبيا	
4	أجنادين	تموز/ يوليو 634 م	فلسطين	
5	أحـــد	نيسان/ ابريل 624 م	الجزيرة العربية	
6	الأرك	تموز/ يوليو 1195 م	الأندلس	
7	الأقحوانة	آذار/ مارس 1029 م	فلسطين	
8	أم درمان	أيلول/ سبتمبر 1898 م	السودان	
9	الأنبار	633 م	العراق	
10	أنوال	تموز/ يوليو 1921	المغرب العربي	
11	باب أليون	641 م	مصر	
12	باب الواد	آذار/ مارس 1948	فلسطين	
13	بئر عافية	ت1/ اكتوبر 1928	ليبيا	
14	بدر	622 م	الجزيرة العربية	
15	البذ	836 م	أذربيجان/ ايران	
16	بقدورة	741 م	المغرب	
17	البكيرية	1322 هـ	الجزيرة العربية	
18	بلاط الشهداء	ت1/ اكتوبر 732 م	بواتييه	
19	بلش	888 هـ	الأندلس	
20	بلعا الثانية	أيلول/ سبتمبر 1936	فلسطين	
21	بنينا	نيسان/ ابريل 1913	ليبيا	
22	بني نعيم	ت1/ اكتوبر 1934	فلسطين	
23	البويب	634 م	العراق	
24	بيت سوريك	ك2/ يناير 1948	فلسطين	
25	بير السبع	أيار/ مايو 1948	فلسطين	
26	بيسان	أيار/ مايو 1948	فلسطين	
27	بيشار	أيار/ مايو 1957	الجزائر	
28	تاقرفت	شباط/ فبراير 1928	ليبيا	
29	تربة	1337هـ	الجزيرة العربية	

الرقم	اسم المعركة	تاريخ وقوعها	مكان وقوعها	ملاحظات
30	ترهونة	ايار/ مايو 1915	ليبيا	
31	التل الكبير	ايلول/ سبتمبر 1882	مصر	
32	تل النيرب	1962	سوريا	
33	تل الفحار	ت1/ اكتوبر 1189 م	فلسطين	
34	التوافيق	1960	سوريا	
35	معارك ثورة 1936	1936	فلسطين	
36	الحاعونة	1936	فلسطين	
37	جبل بو زيد	ك1/ ديسمبر 1959	الجزائر	
38	جبل الخصر	ت1/ اكتوبر 1936	الجرائر	
39	جبل الخيفة	آذار/ مارس 1958	الجزائر	
40	جبل الرادار	نيسان/ ابريل 1948	فلسطين	
41	جبل المكبر	آب/ اغسطس 1948	فلسطين	
42	جبل المنور	أيلول/ سبتمبر 1957	الجزائر	
43	جراب	1333 هـ	الجريرة العربية	
44	الجرف	نيسان/ ابريل 1956	الحزائر	
45	الحزائر	1954	الجزائر	
46	الجسر	633 م	العراق	
47	الجغبوب	شباط/فبراير 1926	ليبيا	
48	حلولاء	636 م	العراق	
49	الجمل	656 م	العراق	
50	الحهراء	1920	الجزيرة العربية	
51	الجامعة العبرية	1948	فلسطين	
52	حديقة الموت	633 م	الجريرة العربية	
53	الحراش	1775	الجزائر	
54	حصن كريون	646 م	مصر	
55	حنين	8 هـ	الجريرة العربية	
56	حطين	تموز/ يوليو 1187 م	فلسطين	
57	الحوض	1957	الجرائر	

الرقم	اسم المعركة	ناريخ وقوعها	مكان وقوعها	ملاحظات
58	خربة اللحم	تموز/ يولو 1187م	فلسطين	
59	الخرطوم	ك2/ ينابر 1885	السودان	
60	الحمس	ت1/ اكنوبر 1911	لبيا	
61	الحندق	938 م	الأندلس	
62	خور مكسر	آذار/ مارس 1858	عدن/ اليمن	
63	حببر	628 م	الحزيرة العربيه	
64	درنة	ت1/ اكتوبر 1911	ليبيا	
65	دمشق	1148 م	سوريا	
66	الدهبشة	آذار/ مارس 1948	فلسطين	
67	الدير وعلين	ك1/ ديسمبر 1948	فلسطبن	
68	ذات السلاسل	633 م	الجزيرة العربية	
69	ذات الصواري	654 م	جنوب غربي تركيا	معركة بحرية
70	ذات العيون	633 م	العراق	
70	ذي قار	قبل الفتح الاسلامي	العراق	
72	رأس العين	أيار/ مايو 1948	فلسطين	
73	رامات هاكوفيتش	ك2/ ينابر 1949	فلسطين	
74	الرحيبة	آذار/ مارس 1927	ليبيا	
75	رشيد	آدار/ مارس 1807	مصر	
76	الزاب	750 م	العراق	
77	زامورا	939 م	الأندلس	
78	زاوية المحجوب والعوكلي	1923	ليبيا	
79	الزراعة	شباط/ فبراير 1948	غور الأردن	
80	زرعبن	1948	فلسطين	
81	الزلاج	ت2/ نوفمبر 1911	تونس	
82	الزلاقة	1068 م	الأندلس	
83	سبو	741 م	المغرب	
84	سبيطلة	648 م	المغرب	
85	سلمة	1947	فلسطبن	

الرقم	اسم المعركة	تاريخ وقوعها	مكان وقوعها	ملاحظات
86	السموع	ت2/ نوفمبر 1966	فلسطين	
87	سواني بني آدم	ايلول/ سبتمبر 1917	ليبيا	
88	سواني عبد الغني	آذار/ مارس 1912	ليبيا	
89	سواني المشرك	ايار/ مايو 1923	ليبيا	
90	سيدي ابراهيم	ايلول/ سبتمبر 1845	الجزائر	
91	سيدي سعيد	حزيران/ يونيو 1912	ليبيا	
92	سيدي عبد الجليل	حزيران/ يونيو 1912	ليبيا	
93	الشجرة	حزيران/ تموز 1948	فلسطين	
94	الشيخ جراح	نيسان/ ايار 1948	فلسطين	
95	الصبيح	ك2/ يناير 1948	فلسطين	
96	صفد	ايار/ مايو 1948	فلسطين	
97	صفين	حزيران/ يونيو 657 م	العراق	
98	صور باهر	شباط/ نيسان 1948	فلسطين	
99	صوريف	1948	فلسطين	
100	طبرية	نيسان/ ابريل 1948	فلسطين	
101	طلس	751 م	نهر سحون	
102	ظهر الحجة	1948	فلسطين	
103	عبد الرحمن خنيج	شباط/ فبراير 1957	الجزائر	
104	عرمان	1897	سوريا	
105	عطاروت	ايار/ مايو 1948	فلسطين	
106	العقاب	1212 م	الأندلس	
107	عقرباء	ك1/ ديسمبر 633 م	الجزيرة العربية	
108	عكا	ايار/ مايو 1948	فلسطين	
109	علين	ك1/ ديسمبر 1948	فلسطين	
110	عنابة	1958	الجزائر	
111	عنجر	ت2/ نوفمبر 1623	لبنان	
112	العوكلي	1923	ليبيا	
113	عين جالوت	ايلول/ سبتمبر 1260 م	فلسطين	

الرقم	اسم المعركة	تاريخ وقوعها	مكان وقوعها	ملاحظات
114	عين دارة	1711	لبنان	
115	عين الزانة	تموز/ يوليو 1959	الجزائر	
116	غدامس	آب/ اغسطس 1915	ليبيا	
117	فزان	ك1/ ديسمبر 1913	ليبيا	
118	القادسية	637 م	العراق	
119	قافلة هداسا	نيسان/ ابريل 1948	فلسطين	
120	قاقون	حزيران/ يونيو 1948	فلسطين	
121	القرضابية	نيسان/ ابريل 1915	ليبيا	
122	القسطل	نيسان/ ابريل 1948	فلسطين	
123	قس الناطف	633 م	العراق	
124	قصر الشمع	641 م	مصر	
125	قصر العظم	ت1/ اكتوبر 1925	سوريا	
126	القطمون	اواخر نيسان 1948	فلسطين	
127	الكاظمة	633 م	الجزيرة العربية	
128	الكرامة	آذار/ مارس 1968	الأردن	
129	كفار عصيون	آذار/ مارس 1948	فلسطين	
130	الكفر	تموز/ يوليو 1925	سوريا	
131	لبدة	أيار/ مايو 1912	ليبيا	
132	اللسانة	888 هـ	الأندلس	
133	لوشة	887 هـ	الأندلس	
134	الماصيون	آذار/ مارس 1948	فلسطين	
135	المالكية	ايار/ مايو 1948	لبنان	
136	محروقة	ك1/ ديسمبر 1913	ليبيا	
137	المذار	آذار/ مارس 633 م	الجزيرة العربية	
138	المرقب	ت1/ اكتوبر 1911	ليبيا	
139	المزرعة	آب/ اغسطس 1925	سوريا	
140	المسيفرة	ايلول/ سبتمبر 1925	سوريا	
141	المصرارة	شباط/ فبراير 1948	فلسطين	

الرقم	اسم المعركة	تاريخ وقوعها	مكان وقوعها	ملاحظات
142	مكلين	890 هـ	الأندلس	
143	ميسلون	تموز/ يوليو 1920	سوريا	
144	ميناء الاسكندرية	653 م	مصر	
145	الناصرة	تموز/ يوليو 1948	فلسطين	
146	النبي يوشع	ايار/ مايو 1948	فلسطين	
147	النبي يعقوب	1948 ـ	فلسطين	
148	نهاوند	640 م	بلاد فارس	
149	نور شمس	1936	فلسطين	
150	الهاني	ت1/ اكتوبر 1911	ليبيا	
151	الهواري	آذار/ مارس 1912	ليبيا	
152	وادي سودان	ت2/ نوفمبر 1959	الجزائر	
153	وادي لكة	تموز/ يوليو 711 م	الأندلس	
154	وادي مرسيط	نيسان/ ابريل 1915	ليبيا	
155	وادي المخازن	آب/ اغسطس 1578	المغرب	
156	الولجة	633 م	جنوب العراق	
157	يافا	1948	فلسطين	
158	اليرموك	اب/ اغسطس 636 م	سوريا	
159	يوم مهران	634 م	العراق	
160	يوم الأعشار	634 م	العراق	

المصادر والمراجع

* باللغة العربية:

1 - د. ابراهيم بيضون " تكوّن الاتجاهات السياسية في الاسلام الأول من دولة عمر الى دولة عبد الملك ". دار إقرأ للنشر والتوزيع والطباعة. بيروت 1985.

2 - د. ابراهيم بيضون ود. سهيل ذكار " تاريخ العرب السياسي من فجر الاسلام حتى سقوط بغداد ". دار فكر. بيروت. الطبعة الأولى 1974.

3 - د. ابراهيم بيضون " الدولة العربية في اسبانيا من الفتح حتى سقوط الخلافة 711 - 1031 ". دار النهضة العربية. بيروت 1978.

4 - الإمام أبو الحسن البلاذري " فتوح البلدان ". تحقيق عبد الله انيس الطباع. دار النشر للجامعيين 1957. وطبعة دار الكتب العلمية. بيروت 1978. عني بمراجعته والتعليق عليه رضوان محمد رضوان.

5 - أبو جعفر محمد بن جرير الطبري " تاريخ الأمم والملوك " دار المعارف بمصر 1962. والمطبعة الحسينية. القاهرة 1326 هـ.

6 - ابن سعد " الطبقات الكبرى ". المجلد الثاني. طبعة ليدن 1322 هـ.

7 - أبو الحسن علي الشيباني المعروف بابن الأثير " الكامل في التاريخ ". دار صادر. بيروت 1965 - 1967.

8 - أبو الفرج الأصفهاني " الأغاني ". الجزء العشرون. دار الكتب بمصر.

9 - ابن الجوزي " مرآة الزمان ". الجزء الثاني.

10 - أبو الفداء " البداية والنهاية ". الجزء الثاني عشر.

11 - أبو يعلى حمزة بن القلانسي " ذيل تاريخ دمشق ". نشر الآباء اليسوعيين. بيروت 1908.

12 - أبو منصور البغدادي " الفرق بين الفرق والفرقة الناجية منها ". تحقيق

محمد بدر. القاهرة 1910.
13 – د. ابراهيم الدر " شفا عمرو / فسطاط السلطان صلاح الدين الأيوبي ". مؤسسة الأبحاث العربية. بيروت. الطبعة الأولى 1988.
14 – أبو راس الناصري " عجائب الاسفار ولطائف الأخبار ". مخطوطة في المكتبة الوطنية – الجزائر –.
15 – أبوشامة " أزهار الروضتين في أخبار الدولتين ". القاهرة 1287 هـ.
16 – ابن الخطيب " أعمال الاعلام، فيما بويع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام ". تحقيق ليفي بروفنسال. بيروت 1956.
17 – ابن كثير " تاريخ ابن كثير ". الجزء السادس (البداية والنهاية). مطبعة السعادة. القاهرة 1932.
18 – ابن عذارى المراكشي " البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ". الجزء الثاني. تحقيق ومراجعة جاك كولان وليفي بروفنسال. دار الثقافة. بيروت. الطبعة الثالثة 1983.
19 – أحمد راتب عرموش " قيادة الرسول (صلى الله عليه وسلم) السياسية والعسكرية ". دار النفائس. بيروت. الطبعة الأولى 1989.
20 – احمد مختار العبادي " في تاريخ المغرب والأندلس ". موسسة الثقافة الجامعية. الاسكندرية / مصر. لا. ت.
21 – احمد توفيق المدني " حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر واسبانيا " (1492 – 1792). الجزائر 1968.
22 – احمد الشريف الزهّار " مذكرات نقيب أشراف الجزائر الحاج أحمد الشريف الزهار ". (1754 – 1830). تحقيق احمد توفيق المدني. الجزائر 1974.
23 – احمد بن محمد المقري التلمساني " نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ". تحقيق د. إحسان عباس. الجزء الأول. بيروت 1968. وأيضاً" طبعة 1949. تحقيق محمد بن محي الدين عبد الحميد. المكتبة التجارية الكبرى بمصر.
24 – احمد يوسف داود " المجاهد سعيد العاص ". دار المستقبل. دمشق.

حزيران / يونيو 1990.

25 – احمد بن محمد الخالدي الصفدي " لبنان في عهد الأمير فخر الدين المعني الثاني ". تحقيق فؤاد افرام البستاني وأسد رستم. منشورات الجامعة الللبنانية. بيروت 1969.

26 – احمد عادل كمال " القادسية ". دار النفائس. بيروت. 1977.

27 – د. احمد محمد عمارة " اليرموك ". الرياض 1978.

28 – " آخر أيام غرناطة " لمؤلف أندلسي. حققه وقدّم له محمد رضوان الداية. دار حسان للطباعة. دمشق 1984.

29 – أسد رستم " الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب ". الجزء الأول. دار المكشوف. بيروت 1955.

30 – اسماعيل حسين أبو زعنونة " صقر الصحراء في رياض الشعر والشعراء " دار المعمّر للطباعة والنشر والتوزيع. السعودية 1993.

31 – البطريرك اسطفان الدويهي " تاريخ الأزمنة ". دار لحد خاطر. بيروت. لا . ت.

32 – د. ألفريد بتلر (A. Butler) " فتح العرب لمصر " ترجمة محمد فريد أبو حديد، لجنة التأليف والترجمة والنشر. مطبعة دار الكتب. القاهرة 1933.

33 – إحسان النمر " تاريخ جبل نابلس والبلقاء ". نابلس 1972.

34 – الجنرال آغا أكرم " سيف الله خالد بن الوليد ". ترجمة صبحي الجابي. مؤسسة الرسالة. بيروت.

35 – أكرم زعيتر " وثائق الحركة الوطنية الفلسطينية 1918 – 1939 ". اعداد بيان نويهض الحوت. مؤسسة الدراسات الفلسطينية. بيروت 1979.

36 – أكرم زعيتر " يوميات الحركة الوطنية الفلسطينية 1935 – 1939 ". مؤسسة الدراسات الفلسطينية. بيروت 1980.

37 – أمين أبو الشعرة " مجاهد من أبو ديس ". عمان / الأردن 1975.

38 – د. أمين توفيق الطيبي " دراسات في التاريخ الاسلامي ". الدار

الأندلسية ليبيا، 1992.

39 – أرنست باركر " الحروب الصليبية ". تعريب د. السيّد الباز العريني. دار النهضة العربية. بيروت 1967.

40 – د. أنيس صايغ " بلدانية فلسطين المحتلة " (1948 – 1967). مركز الأبحاث. بيروت 1968.

41 – آرسي " مع الايطاليين في حرب طرابلس ". تعريب منصور عمر الشتيوي. طرابلس / ليبيا. دار الفرجاني 1972.

42 – باولو مالتيزي " ليبيا أرض الميعاد ". ترجمة عبد الرحمن العجيلي. منشورات مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الايطالي. ليبيا 1981.

43 – البخاري " صحيح البخاري ". مطبعة البابي الحلبي. (الجزء الخامس). القاهرة 1345 هـ.

44 – بسام العسلي " المعتمد بن عباد وابن تاشفين ". دار النفائس. بيروت.

45 – بسام العسلي " الأيام الحاسمة في الحروب الصليبية ". دار النفائس. بيروت. الطبعة الثالثة 1987.

46 – بسام العسلي "جيش التحرير الوطني الجزائري ". دار النفائس. بيروت 1984.

47 – بطرس البستاني " معارك العرب في الشرق والغرب ". دار مارون عبود. بيروت 1979.

48 – بطرس البستاني " معارك العرب في الأندلس ". دار مارون عبود. بيروت 1989.

49 – بولس سلامة " عيد الرياض ". (ملحمة شعرية).

50 – " تونس والمسيرة الشاملة " منشورات كتابة الدولة للإعلام. تونس 1973.

51 – تيودور شوموفسكي " البحّارة العرب ". دار العلم للنشر. موسكو 1988.

52 – الجبرتي " عجائب الآثار ". الجزء الرابع.

53 – جورج مرعي حداد " فتح العرب للشام " (بحث تاريخي انتقادي

تحليلي). المطبعة الأدبية. بيروت 1931.

54 – جون باجيت كلوب (باشا) " الفتوحات العربية الكبرى " ترجمة خيري حماد. مكتبة المثنّى. بغداد 1963.

55 – الجيلاني بن الحاج يحي، ومحمد المرزوقي " معركة الزلاّج ". مكتبة المنار. تونس. الطبعة الأولى 1961.

56 – د. الحبيب تامر " هذه تونس ". مطبعة الرسالة بمصر. 1948.

57 – د. حسن ابراهيم حسن " تاريخ الاسلام السياسي والعسكري ". الطبعة الأولى. مصر 1935.

58 – حسن البدري " الحرب في أرض السلام ". مطابع دار الشعب. القاهرة 1976.

59 – د. حسن أمين البعيني " دروز سوريا ولبنان في عهد الانتداب الفرنسي ". المركز العربي للأبحاث والتوثيق. بيروت. الطبعة الأولى 1993.

60 – د. حسن أمين البعيني " سلطان باشا الأطرش " (مسيرة قائد في حياة أمة). منشورات لجنة الإعلام في الادارة المدنية في الجبل. بيت الدين / لبنان 1985.

61 – د. حسن أمين البعيني " جبل العرب: صفحات من تاريخ الموحدين الدروز ". دار النهار ومنشورات عويدات. بيروت. طبعة أولى 1985.

62 – حسين أبو النمل " قطاع غزة 1948 – 1967 " (تطورات اقتصادية وسياسية واجتماعية وعسكرية) مركز الابحاث. بيروت 1979.

63 – حسين خلف الشيخ خزعل " تاريخ الكويت السياسي ". الجزءان الرابع والخامس. دون تحديد مكان الاصدار. 1965.

64 – حسين مؤنس " فجر الأندلس ". الشركة العربية للطباعة والنشر. القاهرة. الطبعة الأولى 1959.

65 – حيد أحمد الشهابي " الغرر الحسان في أخبار أبناء الزمان ". مطبعة السلام. مصر 1900،. وقد نشر أيضاً تحت عنوان: " لبنان في عهد الأمراء الشهابيين " تحقيق الدكتورين أسد رستم وفؤاد افرام البستاني. منشورات الجامعة اللبنانية. بيروت

.1969
66 – خالد السعدون " العلاقات بين نجد والكويت 1319 – 1341 هـ / 1902 – 1922 ". الرياض 1983.
67 – د. خيرية قاسمية " فلسطين في مذكرات القاوقجي (1936 – 1948). دار القدس، ومركز الأبحاث. بيروت 1975.
68 – خير الدين الزركلي " الأعلام ". الجزء الخامس. دار العلم للملايين. بيروت 1984.
69 – الدينوري " عيون الأخبار " مطبعة دار الكتب المصرية. القاهرة. 1343 هـ / 1925 م.
70 – الدينوري " الأخبار الطوال ". المكتبة الأزهرية. القاهرة، 1330 هـ.
71 – رودولفو غراتسياني " نحو فزّان ". ترجمة طه فوزي. مكتبة الفرجاني. طرابلس / ليبيا 1970. كذلك مكتبة صايغ. القاهرة 1976.
72 – د. زاهية قدورة " تاريخ العرب الحديث ". دار النهضة العربية. بيروت 1975.
73 – ساطع الحصري " يوم ميسلون ". دار الاتحاد. بيروت 1954.
74 – سليم أبو اسماعيل " الدروز ". مطابع فضول. بيروت 1955.
75 – العقيد الركن المتقاعد سليم شاكر الأمامي " العرب والحرب ". المؤسسة العربية للدراسات والنشر. بيروت 1995.
76 – سعيد أحمد برجاوي " الحروب الصليبية في المشرق ". دار الآفاق الجديدة. بيروت. طبعة أولى 1984.
77 – القاضي سعدي حبيب " مروان بن محمد وأسباب سقوط الدولة الأموية ". دار لسان العرب. بيروت. د. ت.
78 – العميد الركن سيف الدين سعيد آل يحي " الحركات العسكرية للرسول الأعظم في كفتي الميزان ". الجزء الأول. الدار العربية للموسوعات. بيروت 1983.

79 – ستيفن رونسيمان " الحضارة البيزنطية " ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد. مراجعة زكي علي. مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ومطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر 1961.

80 – سلامة عبيد " الثورة السورية الكبرى " (على ضوء وثائق لم تنشر). مطابع دار الغد. بيروت 1971.

81 – السيّد فرج " أدهى رجال الحرب في الشرق والغرب ". دار الشعب. القاهرة 1970.

82 – سيّد محمد علي " مختصر تاريخ العرب ". تعريب عفيف البعلبكي. دار العلم للملايين. الطبعة الرابعة 1981.

83 – " سيرة ابن هشام " المجلدان الثالث والرابع. مطبعة حجازي 1937.

84 – السيرة الحلبية. الجزءان الثاني والثالث. المطبعة الأزهرية. مصر 1932.

85 – سيف الدين الكاتب " خالد بن الوليد المخزومي ". دار إقرأ. بيروت 1981.

86 – سيف الدين الكاتب " المثنّى بن حارثة الشيباني " (أول فاتح في العراق). دار إقرأ. بيروت. الطبعة الأولى 1981.

87 – الشاذلي در غوث " رسالة الشكوى الأهلية من كثرة الضرائب ". المطبعة التونسية. تونس 1910.

88 – شكري فيصل " حركة الفتح الاسلامي في القرن الأول ". دار العلم للملايين. بيروت. طبعة أولى 1952.

89 – د. شاكر مصطفى " في التاريخ العباسي ". مطبعة الجامعة السورية 1957.

90 – شاكر أحمد أبو زيد " الحروب الصليبية والأسرة الزنكية ". بيروت 1972.

91 – شبلي الأطرش " ديوان شبلي الأطرش ". مطبعة الاتحاد الشرقي. دمشق 1950.

92 – الأمير شكيب أرسلان " خلاصة تاريخ الأندلس ". مكتبة الحياة. بيروت 1983.

93 – الأمير شكيب أرسلان " حاضر العالم الاسلامي ". المجلد الأول. دار الفكر. بيروت. الطبعة الرابعة 1973.

94 – شوقي أبو خليل " الزلاّقة " بقيادة أمير المرابطين يوسف بن تاشفين. دار الفكر. دمشق 1986.

95 – شوقي أبو خليل " بلاط الشهداء ". دار الفكر. دمشق 1986.

96 – شوقي أبو خليل " وادي المخازن ". دار الفكر. دمشق. ودار الفكر المعاصر. بيروت 1989.

97 – شوقي أبو خليل " فتح الأندلس ". دار الفكر. دمشق 1986.

98 – صالح مسعود بو يصير " جهاد شعب فلسطين خلال نصف قرن ". دار الفتح. بيروت 1968.

99 – د. صالح زهر الدين " تاريخ المسلمين الموحدين (الدروز) ". المركز العربي للأبحاث والتوثيق. بيروت. طبعة أولى 1990. وطبعة ثانية 1994.

100 – د. صالح زهر الدين " من تجارب الشعوب ". الدار التقدمية / المختارة لبنان / طبعة أولى 1987.

101 – الفريق صالح مهدي عماش " من ذي قار إلى القادسية ". بغداد 1973.

102 – صبحي الجابي " الحروب العربية الاسرائيلية " (ترجمة). دمشق 1975.

103 – صبحي عبد الحميد " معارك العرب الحاسمة ". مؤسسة الأبحاث العربية. بيروت. طبعة ثانية 1980.

104 – صبحي ياسين " حروب العصابات في فلسطين ". القاهرة 1967.

105 – الطاهر الزاوي " معجم البلدان الليبية ". طرابلس الغرب. مكتبة النور. طبعة أولى 1968.

106 – الطاهر الزاوي " جهاد الأبطال في طرابلس الغرب ". دار التراث

العربي. ليبيا. طبعة ثانية 1973.

107 – العقيد القيّم د. طلال المهتار " التاريخ العسكري 470 ق . م. – 1945 م. " دار إقرأ. بيروت. د . ت.

108 – طه الهاشمي " خالد بن الوليد ". د . ت.

109 – طنوس الشدياق " أخبار الأعيان في جبل لبنان ". (جزءان). تحقيق الدكتورين أسد رستم وفؤاد افرام البستاني. منشورات الجامعة اللبنانية. بيروت 1970.

110 – عارف العارف " النكبة " (ستة أجزاء). بيروت 1956.

111 – عامر حسك " من مأساة فلسطين ". القاهرة 1959.

112 – عبد الرحمن الرافعي " الزعيم أحمد عرابي ". القاهرة. د . ت.

113 – عبد الرحمن ابن خلدون " العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والبربر ". دار الكتاب اللبناني. بيروت. الجزءان الثاني والرابع. 1957 – 1959.

114 – د. عباس أبو صالح و د. سامي مكارم " تاريخ الموحدين الدروز السياسي في المشرق العربي ". منشورات المجلس الدرزي للبحوث والانماء. بيروت. د. ت.

115 – الفريق عفيف البزري " الجهاد في الاسلام ". دار الكرمل. دمشق 1984.

116 – د. عمر فروخ " تاريخ صدر الاسلام والدولة الأموية ". دار العلم للملايين. بيروت. طبعة ثالثة 1976.

117 – عبد القادر ياسين " كفاح الشعب الفلسطيني قبل العام 1948 ". مركز الأبحاث. بيروت 1975.

118 – د. عبد الوهاب الكيالي " تاريخ فلسطين الحديث ". المؤسسة العربية للدراسات والنشر. بيروت. طبعة ثالثة 1973.

119 – عبد الرحمن بن محمد الجيلالي " تاريخ الجزائر العام ". الجزء الثالث. دار الثقافة. بيروت 1980.

120 – العميد المتقاعد عبد الرزاق محمد أسود " الموسوعة الفلسطينية ". الجزء الأول. منشورات الدار العربية للموسوعات. بيروت. طبعة أولى 1979.

121 – د. عبد القادر أحمد اليوسف " الامبراطورية البيزنطية ". المكتبة العصرية. صيدا – بيروت 1966.

122 – علي المصراتي " سعدون البطل الشهيد ". دار مكتبة الفكر. بيروت 1964.

123 – عيسى السفري " فلسطين العربية بين الانتداب والصهيونية ". يافا 1937.

124 – فالح فلّوح " معركة الزلاّقة ". دار الآداب. بيروت د . ت.

125 – فؤاد أبو زكي " ثلاثة أدباء روحانيين من بني معروف ". رسالة ماجستير غير مطبوعة نوقشت في الجامعةاليسوعية في بيروت عام 1980.

126 – د. فتحية النبراوي ود. محمد نصر مهنا " الخليج العربي: دراسة في تاريخ العلاقات الدولية والاقليمية ". منشأة المعارف بالاسكندرية. د . ت.

127 – فارس زرزور " البطولات: معارك الحرية في سورية ". دمشق. طبعة ثانية 1971.

128 – فرانسيس ماكولا " الغزاة ". تعريب عبد الحميد شقلوف. طرابلس الغرب. ليبيا – شركة النشر والتوزيع والاعلام 1976.

129 – فرانشيسكو مالجيري " الحرب الليبية 1911 – 1912 "ز تعريب وهبي البوري. الدار العربية للكتاب / طرابلس الغرب وتونس / 1978.

130 – فكتور ملحم البستاني " بطل الجزيرة ". (ملحمة شعرية).

131 – قدري قلعجي " صلاح الدين الأيوبي ". دار الكاتب العربي. بيروت 1966.

132 – " القضية الفلسطينية والخطر الصهيوني " منشورات وزارة الدفاع الوطني اللبناني ومؤسسة الدراسات الفلسطينية. بيروت 1973.

133 – الكتاب السنوي للقضية الفلسطينية لعام 1966. مؤسسة الدراسات

الفلسطينية. بيروت 1969.

134 - الكتاب السنوي للقضية الفلسطينية لعام 1968. مؤسسة الدراسات الفلسطينية. بيروت 1971.

135 - كمال الدين عمر أحمد بن العديم " زبدة الطلب من تاريخ حلب ". المعهد الفرنسي للدراسات العربية. دمشق 1951 - 1968.

136 - محمد بن بلهيد " ابتسامات الأيام في انتصارات الإمام ". تحقيق د. محمد بن سعد بن حسين. السعودية. د . ت.

137 - محمد خليفة التليسي " معجم معارك الجهاد في ليبيا ". دار الثقافة. بيروت. طبعة ثانية 1973. والدار العربية للكتاب / ليبيا 1983.

138 - محمد خليفة التليسي " بعد القرضابية، دراسات في تاريخ الاستعمار الايطالي في ليبيا / طرابلس الغرب 1922 - 1930 ". الدار العربية للكتاب. طرابلس وتونس 1978.

139 - محمد بن عثيمين " العقد الثمين من شعر محمد بن عثيمين ". تحقيق سعد بن عبد العزيز بن رويشد. السعودية. د . ت.

140 - محمد مسعود فشيكة " رمضان السويحلي ". مكتبة الفرجاني. طرابلس الغرب / ليبيا. طبعة أولى 1974.

141 - د. محمد عمارة " معارك العرب ضد الغزاة ". المؤسسة العربية للدراسات والنشر. بيروت. طبعة ثالثة 1988.

142 - د. محمد فؤاد شكري " مصر في القرن التاسع عشر 1801 - 1817 ". الجزء الثاني. القاهرة 1958.

143 - محمد الفاضل بن عاشور " الحركة الأدبية والفكرية في تونس ". جامعة الدول العربية 1956.

144 - محمد فايز القصري " حرب فلسطين 1948 ". دمشق 1962.

145 - محمد بن عبد المنعم الحميري " الروض المعطار في خبر الأقطار ". تحقيق د. إحسان عباس. مكتبة لبنان. بيروت 1975.

146 – محمد سعيد أشكنتنا " أسباب سقوط يافا ". عمان / الأردن 1963.
147 – محمد أبو الفضل ابراهيم ومحمد علي البجاوي " أيام العرب في الاسلام ". المكتبة العصرية. صيدا – بيروت. طبعة رابعة 1974.
148 – العقيد محمد أسد الله صفا " الحرب ". دار النفائس. بيروت. طبعة ثالثة 1987.
149 – محمد أحمد جاد المولى بك وعلي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل ابراهيم. " أيام العرب في الجاهلية ". المكتبة العصرية. صيدا – بيروت 1961.
150 – محمد بن عزوز حكيم " قراءات معركة أنوال ". مؤسسة عبد الخالق الطريس للثقافة والفكر. تطوان / المغرب.
151 – محمد فيصل عبد المنعم " فلسطين والغزو الصهيوني ". القاهرة 1970.
152 – محمد عزّة دروزة " القضية الفلسطينية في مختلف مراحلها ". المكتبة العصرية صيدا – بيروت 1959.
153 – محمد حافظ يعقوب " نظرة جديدة الى تاريخ القضية الفلسطينية " (1918 – 1948). بيروت 1973.
154 – اللواء الركن محمد خالد " معركة الولجة ". مركز البحوث. بغداد. د . ت.
155 – محمد الشاعر " الحرب الفدائية في فلسطين ". بيروت 1967.
156 – محمد حربي " جبهة التحرير الوطني: الاسطورة والواقع ". ترجمة كميل قيصر داغر. دار الكلمة – بيروت. ومؤسسة الأبحاث العربية. بيروت. طبعة أولى 1983.
157 – د. محمد بن عبد الكريم " حمدان بن عثمان خوجة الجزائري ومذكراته ". دار الثقافة. بيروت. د . ت.
158 – محمد بن رقيّة التلمساني " الزهرة النائرة فيما جرى في الجزائر حين أغارت عليها جنود الكفرة ". تحقيق وشرح سليم بابا عمر. المغرب 1967.
159 – محمود شاكر " التاريخ الاسلامي: الخلفاء الراشدون ". الجزء الثالث.

المكتب الاسلامي. بيروت. طبعة ثانية 1983.
160 – العقيد محمود الدرّة " معارك العرب الكبرى ". منشورات الفاخرية. الرياض. ودار الكاتب العربي. بيروت. د . ت.
161 – محمود العابدي. " صفد في التاريخ ". عمان / الأردن 1977.
162 – اللواء محمود شيت خطاب " قادة الفتح العربي للعراق وفارس ". دار القلم. بيروت. د . ت.
163 – المبروك الساعدي وآخرون " من معارك الجهاد الليبي في المنطقة الوسطى ". منشورات مركز دراسة جهاد الليبيّين ضد الغزو الايطالي. ليبيا 1983.
164 – مذكرات فوزي القاوقجي. إعداد د. خيرية قاسمية / جزءان /. دار القدس ومركز الأبحاث. بيروت. طبعة أولى 1974 – 1975.
165 – مذكرات المناضل بهجت أبو غربية " في خضمّ النضال العربي الفلسطيني ". مؤسسة الدراسات الفلسطينية. بيروت. طبعة أولى 1993.
166 – مذكرات أحمد عرابي باشا. سلسلة دار الهلال المصرية. القاهرة.
167 – مذكرات الأمير عادل أرسلان. تحقيق د. يوسف إيبش. الدار التقدمية. لبنان 1983.
168 – مذكرات عبد الرحمن الشهبندر. دار الجزيرة. عمان / الأردن. د . ت.
169 – " مذكرات محمد الفقيه عبد الملك " دار المحفوظات التاريخية. ملف الجهاد الوطني – طرابلس الغرب / ليبيا.
170 – د. مراجع عقيلة الغناي " سقوط دولة الموحدين ". جامعة قار يونس. بنغازي / ليبيا / 1975.
171 – مجموعة من الباحثين " أحمد عرابي ". دار العودة. بيروت. طبعة أولى 1976.
172 – مجموعة من الباحثين " الأمير عبد القادر الجزائري ". دار العودة. بيروت 1975.
173 – المسعودي " مروج الذهب ومعادن الجوهر ". الجزء الثاني. طبعة

1346 هـ. والطبعة الثانية 1948. تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد.

174 - العماد مصطفى طلاس والمقدم بسام العسلي " الثورة الجزائرية ". دار الشورى. بيروت. طبعة أولى 1982.

175 - مصطفى مراد الدباغ " بلادنا فلسطين ". الجزء الثالث. القسم الثاني. بيروت 1971. والجزء السادس. القسم الثاني. بيروت 1974.

176 - مصطفى حامد رحومة " المقاومة الليبية التركية ضد الغزو الايطالي 1911 - 1912 ". منشورات مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الايطالي. ليبيا 1988.

177 - مؤلف مجهول " الحلل الموشّية في ذكر الأخبار المراكشية " (القرن الثامن الهجري سنة 1381 م). مطبوعات معهد الدراسات العليا المغربية. الرباط 1936.

178 - المكتب الطوبوغرافي لجيوش الشرق (التابع للجيش الفرنسي)" الكتاب الذهبي لجيوش الشرق 1918 - 1936 ". نقله الى العربية أدوار البستاني. المطبعة الكاثوليكية. بيروت 1939.

179 - منير الريّس " الكتاب الذهبي للثورات الوطنية في المشرق العربي: الثورة السورية الكبرى ". دار الطليعة. بيروت. طبعة أولى 1969.

180 - موسوعة السياسة. الجزء الأول. بإشراف د. عبد الوهاب كيالي. المؤسسة العربية للدراسات والنشر. بيروت. طبعة ثانية 1985.

181 - الموسوعة العسكرية. باشراف المقدم الهيثم الأيوبي (4 أجزاء). المؤسسة العربية للدراسات والنشر. بيروت 1977 - 1979.

182 - الموسوعة الفلسطينية باشراف د. انيس صايغ وهيئة الموسوعة الفلسطينية. دمشق طبعة أولى 1984 (4 أجزاء).

183 - د. نجلا أبو عز الدين " الدروز في التاريخ ". دار العلم للملايين. بيروت 1990.

184 - د. نور سلمان " الأدب الجزائري في رحاب الرفض والتحرير ". دار

العلم للملايين. بيروت. طبعة أولى 1981.

185 – هاني الهندي " جيش الإنقاذ ". مركز الأبحاث. بيروت 1974.

186 – الهاشمي محمد بالخير " الهاني، الغزو الايطالي وبداية حركة المقاومة المسلحة ". منشورات جامعة الفاتح ومركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الايطالي. ليبيا 1985.

187 – السير هاملتون جب " صلاح الدين الأيوبي "، (دراسات في التاريخ الاسلامي) حرّرها يوسف إيبش. المؤسسة العربية للدراسات والنشر. بيروت 1973.

188 – الواقدي " المغازي والفتوح " المجلد الأول. و " فتوح الشام ". منشورات دار الجيل. بيروت. د . ت.

189 – وليم اسكيو " أوروبا والغزو الايطالي لليبيا 1911 – 1912 ". ترجمة د. ميلاد المقرحي. مراجعة د. عقيل البربار. منشورات مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الايطالي. ليبيا 1988.

190 – المقدم ياسين سويد " معارك خالد بن الوليد ". المؤسسة العربية للدراسات والنشر. بيروت. طبعة ثانية 1975.

191 – العقيد الركن ياسين سويد " التاريخ العسكري للمقاطعات اللبنانية في عهد الامارتين (المعنية والشهابية). جزءان. المؤسسة العربية للدراسات والنشر. بيروت 1980 و 1985.

192 – العميد الركن د. ياسين سويد " الفن العسكري الاسلامي: أصوله ومصادره " شركة المطبوعات للتوزيع والنشر. بيروت. طبعة أولى 1988.

193 – ياقوت الحموي " معجم البلدان ". الجزءان الثالث والسادس. مطبعة السعادة. القاهرة. طبعة أولى 1906.

194 – يحي حسين عمار " تاريخ الملك العادل نور الدين محمود ". ينطا / لبنان طبعة أولى 1991.

195 – اليعقوبي " تاريخ اليعقوبي ". الجزء الثاني. طبعة ليدن. وطبعة بيروت 1960.

196 – يوسف الدبس " تاريخ سوريا ". الجزء السابع. المطبعة العمومية الكاثوليكية. بيروت 1893 – 1905.

197 – اليوميات الفلسطينية. المجلد السابع. مؤسسة الدراسات الفلسطينية. بيروت 1968.

198 – يونس نكروف " معركة وادي المخازن أو معركة الملوك الثلاثة ". ترجمة وفاء موسى ويشو وحسين حيدر. منشورات عويدات. بيروت – باريس، وسوشبرس / الدار البيضاء. طبعة أولى 1987.

الموسوعات والمعاجم والمذكرات

1 - الموسوعة العسكرية. باشراف المقدم الهيثم الأيوبي. (4 أجزاء). المؤسسة العربية للدراسات والنشر. بيروت 1977 - 1979.

2 - موسوعة السياسة. باشراف د. عبد الوهاب كيالي. الجزء الأول. المؤسسة العربية للدراسات والنشر. بيروت. طبعة ثانية 1985.

3 - الموسوعة الفلسطينية. باشراف هيئة الموسوعة الفلسطينية، ود. أنيس صايغ. دمشق. طبعة أولى 1984 (4 أجزاء).

4 - الموسوعة الفلسطينية للعميد المتقاعد عبد الرزاق محمد أسود. الجزء الأول. منشورات الدار العربية للموسوعات. بيروت. طبعة أولى 1979.

5 - معجم " الأعلام ". لخير الدين الزركلي. دار العلم للملايين. بيروت 1984 (8 أجزاء).

6 - معجم معارك الجهاد في ليبيا. لمحمد خليفة التليسي. دار الثقافة. بيروت. طبعة ثانية 1973. والدار العربية للكتاب / ليبيا 1983.

7 - معجم البلدان الليبية. للطاهر الزاوي. مكتبة النور. طرابلس الغرب / ليبيا / طبعة أولى 1968.

8 - بلادنا فلسطين. لمصطفى الدباغ. الجزء الثالث والجزء السادس. بيروت 1971 و 1974.

9 - بلدانية فلسطين المحتلة. للدكتور أنيس صايغ (1948 - 1967). مركز الأبحاث. بيروت 1968.

10 - مذكرات أحمد عرابي باشا. سلسلة دار الهلال المصرية. القاهرة.

12 - مذكرات الأمير عادل أرسلان. تحقيق د. يوسف ايبش. الدار التقدمية. لبنان 1983 (4 أجزاء).

13 - مذكرات فوزي الفاوقجي. إعداد د. خيرية قاسمية. دار القدس، ومركز

الأبحاث. بيروت. طبعة أولى 1974 – 1975. (جزءان).

14 – مذكرات عبد الرحمن الشهبندر. دار الجزيرة. عمان / الأردن.

15 – مذكرات محمد الفقيه عبد الملك. دار المحفوظات التاريخية. ملف الجهاد الوطني / طرابلس الغرب / ليبيا.

16 – مذكرات نقيب أشراف الجزائر الحاج أحمد الشريف الزهار (1754 – 1830). تحقيق أحمد توفيق المدني. الجزائر 1974.

17 – معجم البلدان. لياقوت الحموي. الجزءان الثالث والسادس. مطبعة السعادة. القاهرة. طبعة أولى 1906.

18 – مذكرات حمدان بن عثمان خوجة الجزائري. للدكتور محمد بن عبد الكريم. دار الثقافة. بيروت. د . ت.

المراجع باللغة الأجنبية

1 - Adel Ismail, Documents diplomatiques et consulaires relatifs a l'histoire du Liban et des pays du proche - orient du XVII ę siecle á nos jours. Tome I. Beyrouth 1975.

2 - Edmond Rabbat, Formation historique du Liban politique et constitutionnel, Beyrouth. Publications de l'université Libanaise, 1973.

3 - Faure - Biguet, Hıstoire de l'afrique septentrionale. Impnmerie militaire, Parıs. S.D.

4 - Gaıd Mouloud, l'Afrique sous les Turcs, Tunis 1975.

5 - Colonel Godard, les Paras dans la ville, Fayard, Paris 1972.

6 - Henri lammens, la Syrie, précis historique, 2 Tomes, Imprimerie catholique, Beyrouth 1921.

7 - Huici Miranda, la bataille de Zallaka, Hesperis 1953.

8 - Julien (ch. A .), histoire de l'Afrique du Nord, Tome 11, Payot, Paris 1964.

9 - Leon Péchot, Histoire de l'Afrique du Nord, avant 1830, volume 3, Imprimerie Alger 1914.

10 - Massu, la vraie bataille d'alger, Blon 1971.

11 - Serge et Bromberger, les rebelles algériens, Blon 1958.

12 - Toufic Touma, Paysans et Institutions féodales chez les Druzes et les Maronites du liban du XVII ę siecle a 1914, Tome I. impremerie catholique, Publications de l'université Libanaise, Beyrouth 1971.

13 - Vıdal Naquet, La torture dans la republique, Ed. Minuit, s. d.

14 - Yassef Saadi, Souvenirs de la bataille d'Alger, julliard 1962.

الدوريات والصحف

1 – مجلة " استراتيجيا " (البيروتية)، العدد 96. تاريخ شباط / فبراير 1990.

2 – جريدة " الاسبوع " (التونسية) 1950.

3 – مجلة " الأفكار " (الليبية)، العدد 6. شهر أيار / مايو / 1956.

4 – مجلة " تاريخ وحضارة المغرب ". العدد 3 سنة 1967.

5 – مجلة " الجيل " (القبرصية). العدد 9. شهر أيلول / سبتمبر 1987.

6 – جريدة : " الحاضرة " (التونسية) 1911.

7 – مجلة " الدفاع " (السعودية). العدد 79. شهر حزيران / يونيو 1990.

8 – مجلة " رسالة الجهاد " (مالطا). العدد 68. شهر تموز / يوليو 1988.

9 – جريدة " الزهراء " (التونسية) 1911.

10 – جريدة " الشرق الأوسط " (اللندنية). العدد 3931. تاريخ السبت 2 / 9 / 1989.

11 – مجلة " شؤون فلسطينية " (التي كانت تصدر عن مركز الأبحاث الفلسطيني في بيروت). العدد 7. شهر آذار 1972.

12 – مجلة " الفكر الاستراتيجي العربي " (تصدر عن معهد الانماء العربي في بيروت). العددان 21 – 22... تموز / تشرين أول 1987.

13 – مجلة " الفكر العربي المعاصر " (بيروت). العددان 44 – 45. سنة 1987.

14 – مجلة " فلسطين "(نشرة دورية تشرف عليها الهيئة العربية العليا لفلسطين). العدد 150. السنة الثالثة عشرة. شهر أيلول / سبتمبر 1973.

15 – مجلة " المؤرخ العربي " (تصدر عن الأمانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب – بغداد). العدد 43. السنة السادسة عشرة. 1990.

16 – مجلة " المجاهد " (الجزائرية). العدد 46. تاريخ 13 / 7 / 1959.

17 – " المجلة العسكرية " (قومية ثقافية كانت تصدر شهرياً عن قيادة الجيش الأول في سوريا). العدد 5. السنة الحادية عشرة. شهر كانون الأول / ديسمبر 1960.

18 – مجلة " المدار " (السوفياتية). العدد 7. (303) تموز / يوليو 1988.

19 – جريدة " المنار " (التونسية) 1912.

20 – نشرة مكتب جامعة الدول العربية في القدس. تاريخ 14 تشرين الثاني نوفمبر 1966.

21 – LA depêche Tunisienne 1911 - 1912.

22 – Moderne Warfare, November 1989

23 – Revue Africaine, Tome 8 et 11.

24 – La Tunisie illustrée 1912.

بطاقة المؤلف

* ولد د. صالح زهر الدين في قرية كفرفا قود / قضاء الشوف / لبنان سنة 1951 وتلقى علومه الإبتدائية والثانوية في المنطقة.

* حصل على إجازة في التاريخ من كلية الآداب في الجامعة اللبنانية في بيروت 1979.

* حصل على شهادتي الماجستير والدكتوراه في التاريخ والحضارات من جامعة باريس السابعة (Paris 7) في فرنسا.

* حصل أيضاً على دكتوراه في العلوم التاريخية من معهد الاستشراق في أكاديمية العلوم الوطنية في أرمينيا سنة 1994.

* من مؤلفاته:

1 - الدبلوماسية السوداء. بيروت 1985.

2 - المنطقة العربية في ملف المخابرات الصهيونية. بيروت 1985.

3 - التبشير وأثره في جبل لبنان. مالطا 1986.

4 - من تجارب الشعوب. بيروت 1987.

5 - الأرمن شعب وقضية. بيروت 1988.

6 - تاريخ المسلمين الموحدين (الدروز). بيروت 1991.

7 - الاسلام والاستشراق. بيروت 1991.

8 - الأمير شكيب أرسلان وجهاده ضد الاستعمار والصهيونية.

9 - موسوعة " أسرار من التاريخ " (1994. بيروت). (جزءان).

10 - الأرمن والعرب بين الطورانية والصهيونية. بيروت 1994.

11 - مشروع " إسرائيل الكبرى " بين الديموغرافيا والنفط والمياه. بيروت 1996.

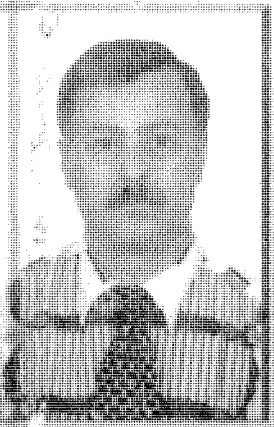
12 - اليهود في تركيا. حلب / سوريا 1996.

بالإضافة إلى مؤلفات أخرى، وأبحاث ودراسات في كثير من الصحف والدوريات اللبنانية والعربية.

* شارك في العديد من المؤتمرات الثقافية والفكرية في لبنان والخارج.
* تسلّم مسؤوليات عدّة في مؤسسات ثقافية وتوثيقية في لبنان.
* مارس التعليم الرسمي في الثانويات والمعاهد في لبنان.
* عضو في اتحاد الكتّاب اللبنانيين.

الفهرس

صفحة



بطاقة المؤلف

د. صالح زهر الدين ولد في كفرفاقود / الشوف عام ١٩٥١ وتلقى علومه الابتدائية والثانوية فيها.

× حاصل على إجازة في التاريخ عام ١٩٧٩ من كلية الآداب / بيروت.

× حاصل على دكتوراه في التاريخ والحضارة من جامعة باريس السابعة.

× حاصل على دكتوراه في التاريخ من معهد الاستشراق في أكاديمية العلوم / أرمينيا /

من مؤلفاته:

١ـ موسوعة أسرار من التاريخ (جزءان).

٢ـ المنطقة العربية في ملف المخابرات الصهيونية.

٣ـ الأرمن شعب وقضية.

٤ـ من تجارب الشعوب (الثورات والحركات التحررية في العالم).

٥ـ التبشير وأثره في جبل لبنان (طبع في مالطا).

٦ـ تاريخ المسلمين الموحدين الدروز.

٧ـ الإسلام والاستشراق.

٨ـ الخلفية التاريخية لمحاكمة روجيه غارودي.

٩ـ مخاطر الدور التركي في المنطقة العربية.

١٠ـ الأرمن والعرب بين الطورانية والصهيونية.

١١ـ الصداقة العربية الأرمنية والمصير المشترك.. وغيرها...

× له الكثير من الأبحاث في الصحف والمجلات العربية واللبنانية.

× شارك في العديد من المؤتمرات والمحاضرات الثقافية والفكرية في لبنان والخارج.

× تسلم مسؤوليات عدة في مؤسسات ثقافية وتوثيقية في لبنان.

× عضو في اتحاد الكتّاب اللبنانيين.

دار الندوة الجديدة

بيروت ـ لبنان